الحوزة العلمية في النجف الأشرف

التكاب العاشر

قيادة المرجعية الدينية لثورة العشرين

وقائعها ومبدئيتها مواقفها من المحتل وتابعيه وشكل نظام حكمها

مع مقارنة بنظرية سماحة السيد السيستاني ورؤاه العملية

الدكتور

عبد الهادي الحكيم

الحوزة العلمية في النجف الأشرف

الكتاب العاشر

قيادة المرجعية الدينية لثورة العشرين

وقائعها ومبدئيتها مواقفها من المحتل وتابعيه وشكل نظام حكمها

مع مقارنته بنظرية سماحة السيد السيستاني ورؤاه العملية

هويّة الكتاب

- **اسم الكتاب:** الحوزة العلمية في النجف الأشرف/ الكتاب العاشر: قيادة المرجعية الدينية لثورة العشرين؛ وقائعها ومبدئية مواقفها من المحتلّ وتابعيه وشكل نظام حكمها مع مقارنته بنظرية سماحة السيد السيستاني ورؤاه العمليّة.
- **المؤلف:** د. عبد الهادي السيّد محمّد تقي الحكيم.
- **المطبعة:** دار الوارث للطباعة والنشر.
- **الطبعة:** الثانية.
- **سنة الطبع:** ١٤٤٥هـ/ ٢٠٢٤م.
- **حجم ورق الكتاب:** ١٧ × ٢٤ سم (وزيري).
- **عدد الصفحات:** ٨١١.
- **الإخراج الفني الداخلي:** أحمد الرصافي.

رقم الإيداع في دار الكتب والوثائق ببغداد (٢٧٣٧) لعام (٢٠٢٤)

الترقيم الدولي: ISBN: 978 - 9922 - 734 - 63 - 7

حقوق الطبع محفوظة

الحوزة العلمية في النجف الأشرف

الكتاب العاشر

قيادة المرجعية الدينية لثورة العشرين

وقائعها ومبدئيتها مواقفها من المحتل وتابعيه وشكل نظام حكمها

مع مقارنة بنظرية سماحة السيد السيستاني ورؤاه العملية

الدكتور

عبد الهادي الحكيم

الطبعة الثانية

مزيدة ومنقحة

بسم الله الرحمن الرحيم
١٤٣٠

تقديم

بسم الله الرحمن الرحيم

لم تتوقع السلطة العثمانية أن يهبّ أبناء العراق للدفاع عن الدولة عندما هاجمت جيوش الإنكليز العراق إبان الحرب العالمية الأولى، إذ إنّ الإدارة الحاكمة للعراق من قبل الدولة العثمانية في ولاية بغداد والبصرة لم تتّبع السبل القويمة والعادلة في حكم البلاد، وكانت العلاقات تزداد سوءاً مع الشيعة الذين يمثّلون الغالبية العظمى في تلك المناطق، ولكنه الدفاع عن بيضة الإسلام والدولة الإسلامية في مقابل الإنكليز، وهذا الموقف المبدئي الذي انطلق من الحوزة العلمية في النجف الأشرف ومراجعها العظام الذين اندفعوا بأنفسهم ليكونوا في مقدمة المجاهدين ولتتحرك من ورائهم عشائر الفرات الأوسط والجنوب ويرسموا صوراً وملاحم من البطولة والفداء ما زال التاريخ يتذكرها.

وانتهت الحرب العالمية الأولى بانتصار الحلفاء وتقهقر الجيش العثماني وسيطرة الإنكليز على مقاليد الحكم في العراق، إلّا أنّ جذوة الرفض لحكم الأجنبي ظلّت مُتَّقِدة لتتفاعل في قلوب الناس وتتمثّل في ثورة النجف عام ١٩١٨م، والتي واجهت قمعاً شديداً من سلطات الاحتلال التي لم تنسَ موقف المرجعية الدينية والعشائر العراقية منها إبان الحرب، ومع إخفاق الثورة إلّا أنّ عزائم شبابها وهِمّة زُعمائها وتصميم مراجعها لم يتزلزل، حيث استمرّت المطالبة بإنهاء الاحتلال والاعتراف بمطالب العراقيين بالاستقلال، فكانت ثورة العشرين، وقد أرّخ ذلك الشيخ علي البازي:

نهضَ العراقُ لدفعِ هيمنةِ العدو ... وأمامَهُ علماؤه الأعلامُ

هتفتْ بِفُتياها لحفظِ كيانِها ... فتكاتفتْ وتآزرَ الإسلامُ

ومِـن الغَـريِّ تـجـهّـزتْ أبـنـاؤهُ بـسـلاحـهـا مُـذ حَـثّـهُ الإقـدامُ
عَـلَـمُ الـعروبـةِ فَصَّـلَتْـهُ بفِكرِهـا وتـحقّـقتْ فـي رَفـعِـهِ الأعـلامُ
وإلـى الجهـادِ توجّهـتْ بسـراتِـها أرِّخْ (وقـد خِيـطَتْ لـها الأعـلامُ)

ويشير التاريخ إلى (١٣٣٨هـ) المصادف (١٩٢٠م)، حيث كانت مدينة النجف الأشرف أول مدينة عراقية خفق على سمائها علم ثورة العشرين[١].

انتهت ثورة العشرين بإعلان انتهاء حقبة الاستعمار والاستجابة لمطالب الشعب بتأسيس الدولة العراقية وتنفيذ ما عبّرت عنه المرجعية الدينية بتنصيب ملك عربي مسلم.

ونشأت الدولة العراقية الجديدة، وتوالت عليها أنظمة ملكية وجمهورية، وشهد القرن العشرون العديد من الانقلابات ومشاهد القتل والتمثيل بين الحكومات المتعاقبة، والعديد من الصراعات المحلّيّة خصوصاً مع الأكراد في شمال العراق، ولم تعهد استقراراً قانونيّاً، حيث لم تؤسّس الجمهوريات التي أُنشئت عقب الملكية على طبق دستور دائم يكتبه أبناء الشعب، وإنما كان القانون السائد هو الذي يكتبه القابض على السلطة من دون أن يرجع إلى الأُمّة لإمضائه والموافقة عليه، والأمر الذي ظلّ طيلة هذه الحكومات سائداً هو الاضطهاد لأكثرية الشعب المتمثّلة بالشيعة، حيث عانوا من الإقصاء المتعمّد من المناصب العليا في الدولة سواء منها المدنية أو العسكرية، إلّا في فترات قليلة وبأعداد يسيرة لا تُعبّر عن واقع المجتمع، وكان عهد حزب البعث هو الأكثر دموية في تاريخ العراق الحديث من خلال التعدّي على الحوزة العلمية وتهجير علمائها واعتقالهم وسجنهم وإعدامهم والتنكيل بهم، بل شمل الاضطهاد كلّ متديّن أو مَن يقترب من المتديّنين أو يُطالب بأبسط حقوقه كمواطن؛ فامتلأت السجون بالمظلومين وظهرت المقابر الجماعية التي يُقتل فيها المواطنون أحياءً، وما زالت إلى اليوم لم تُكتشف كل تلك المقابر.

(١) شعراء الغري: ٦/ ٣٧٩.

وما إن حلّ القرن الحادي والعشرون حتى هبّت رياح التغير على هذه الأرض المنكوبة، ولم يكن حدثاً عاديّاً؛ فقد شهد هجوم قوات التحالف الدولية على العراق عام (٢٠٠٣م) بهدف إزالة النظام، وبالفعل كان كذلك وخضعت البلاد للاحتلال بشكل رسمي طبقاً لقرار الأمم المتحدة، وفي خضمّ هذه الأحداث كان للمرجعية الدينية العليا المتمثّلة بسماحة آية الله العظمى السيد السيستاني (دام ظله) في النجف الأشرف الدور الكبير في رسم إطار الدولة الجديدة، وذلك من خلال المطالبة بتأسيس دولة القانون والمواطنة التي تقوم على أُسُس حديثة تمثّل متطلّبات العصر الجديد حيث يكون الشعب هو مصدر السلطات، ويتجلى ذلك بمشاركة ممثّلي الشعب في كتابة الدستور وإمضائه من خلال استفتاء عامّ، ولم يكن تحقّق هذه المبادئ بالأمر السهل، إلّا أنّ إصرار المرجعية العليا على تلك المطالب الحقّة أدّى إلى تحقيقها على أرض الواقع والسير قدماً في تأسيس الجمهورية العراقية الجديدة.

إنّ اختلاف طريقة تعاطي المرجعية الدينية إبان ثورة العشرين وتصدّيها العسكري لقوى الاحتلال، وطريقتها في كيفية التصدي للاحتلال في القرن الحادي والعشرين وعدم التصدي العسكري؛ أثار العديد من التساؤلات لدى فئة كبيرة من الباحثين والدارسين في فهم الفوارق بين الرؤى والنظريات بين الموقفين والذي يجمعهما أنّهما في كِلتا المرحلتين أسّسا لواقع عراقي جديد.

فكان أنْ تصدّى جناب الدكتور السيّد عبد الهادي الحكيم لِحلّ هذه الإشكاليات، ورسم معالم ما يبدو من فرق بين الاتّجاهين، ويتميز الدكتور بأنّه من أسرة دينيّة عريقة وبيت مرجعية عاصرت أحداث العراق الكبرى طيلة المائة عام الماضية؛ فقد قاتل المرجع الراحل السيّد محسن الحكيم (ره) في الحرب ضد الإنكليز، وشهد عهد مرجعيته التصدّي لأفكار الشيوعيين ولأساليب سلطة حزب البعث في ظلم الشعب واضطهاده، وعانى المرجع المعاصر الكبير السيّد محمد سعيد الحكيم (رحمه الله) الظلم والسجن إبان الفترة السابقة، كما أنّ الدكتور عاش بنفسه فترات التعذيب والاعتقال في سجون طاغية العراق، ولكن رغم ذلك ظلّ محتفظاً بصموده

وإيمانه، لكي يخرج بعد تلك الفترة ويعيش قريباً من المرجعية الدينية العليا ويكون حلقة الوصل بينها وبين السياسيين في مفاصل مهمّة من تاريخ العراق المعاصر، ولذا فهو على اطّلاع واسع برأي المرجعية الدينية العليا.

ومؤسسة روّاد للتنمية والإعلام من المؤسّسات الحديثة، والتي مع حداثة نشأتها إلّا أنّها أبرزت آفاقاً مهمّة في مجال التنمية والإعلام، ولها بصمات في العمل الإداري، وما كان لهذا النجاح أن يتحقّق لولا الرعاية الخاصّة للعتبة الحسينيّة المقدّسة المتمثّلة بشخص المتولّي الشرعي وكلّ المخلصين العاملين فيها لهذه المشاريع البنّاءة الهادفة، فتصدّت لطباعة هذا الأثر العلمي المهمّ الذي يمتاز بجنبة تاريخية، وفّق الله الجميع لخدمة المبادئ الحقّة، وأخذ بأيديهم لِما فيه الحقّ والصلاح.

هيأة الإشراف
في مؤسسة رواد للتنمية والإعلام

مقدمة

يشرفني أن أقدّم للقراء الكرام الطبعة الثانية لكتابي: (قيادة المرجعية الدينية لثورة العشرين؛ وقائعها، ومبدئية مواقفها من المحتلّ، وتابعيه وشكل نظام حكمها، مع مقارنته بنظرية سماحة السيد السيستاني ورؤاه العملية)؛ بعد مضي سنتين من صدور طبعته الأولى عن وزارة الثقافة والسياحة والآثار العراقية.

ولئن كانت المدة الفاصلة بين الطبعتين الأولى والثانية قصيرة نسبيّاً في عُرف طباعة الكتب ونشرها؛ فذلك لِما توقّعته من ردود فعل متباينة عن محتواه تفاوتت بين القبول والرفض، بين القناعة بما انتهى إليه من نتائج وعدمها؛ بسبب ما أثاره الكتاب من أسئلة بعضها غير مسبوق، وما انتهى إليه من نتائج بعضها غير معتاد.

فمن ذلك ما انتهيتُ إليه مثلاً من وجود تَبَنٍّ واضح للنظرية الدستورية في الحكم بين مراجع ثورة العشرين وأغلب محرّكي ثورتها باعتبار كون العديد منهم من كبار رجالاتها ووجوه حركتها الفكرية الإصلاحية.

ومن ذلك ما انتهيتُ إليه من أنّ هدف الثورة ليس تحرير العراق من محتليه الإنكليز فحسب؛ بل إقامة نظام حكم وحكومة عربية إسلامية بمَلِك عربي مسلم مقيّد بمجلس وطني منتخب لتسنين القواعد الموافقة لروحيّات الأمة.

ومن ذلك أنّ ثورة العشرين ثورة فُراتيّة في الأعم الأغلب، لم تشترك فيها مدن العراق الكبرى كبغداد والبصرة والموصل وقسم من المدن العراقية الأخرى، بل إنّ عشائر دجلة خذلت الثوار خذلاناً أضرّ بثورة العشرين ضرراً كبيراً حتى قيل بأنّه "لو ثارت تلك العشائر لأصبح وقوع بغداد بقبضة الثوار كقاب قوسين أو أدنى".

ومن ذلك أنّ مراجع الدين وشيوخ عشائر الفرات وقبائله هم من تحمل العبء الأكبر في تمويل الثورة وتسليحها بعد مددها بالرجال من دون أن تتلقى الثورة أي دعم تمويلي أو تسليحي خارجي مطلقاً؟

ومن ذلك أيضاً -وهو مهم- ما انتهى إليه البحث من أنّ ثورة العشرين قد أقامت نظاماً وطنيّاً للحكم والحكومة في مدينة النجف الأشرف قبل تشكيل الحكومة العراقية برئاسة عبد الرحمن النقيب بأكثر من سنة، بل حتّى قبل تشكيل الحكومة المؤقتة برئاسة النقيب أيضاً.

وبذلك شكّل حكم وحكومة ثورة العشرين أول نظام وطني مستقل للحكم والحكومة بمجلسيه: التشريعي المنتخب بانتخابات عامة مباشرة شاملة عبر صناديق الاقتراع؛ والتنفيذي بحكومة مصغّرة يرأسها رئيس وزراء ومعه وزراؤه كلٌّ بحقيبته الوزارية حسب تخصّصه. إضافة إلى تشكيل مجلس بلدي قام بواجباته أحسن قيام.

ومما انتهى إليه البحث كذلك -وهو مهم أيضاً- وجود علاقة فكرية واضحة بين نظرية الدستوريين في الحكم المعروضة بدقة في كتاب (تنبيه الأمة وتنزيه الملّة) لسماحة الشيخ النائيني، ونظرية (إرادة الأمة) لسماحة المرجع الأعلى السيد السيستاني. إضافة لوجود تماثل في التطبيق بين مواقف المرجعية الدينية لثورة العشرين بعد فتواها بالجهاد الدفاعي ضد الاحتلال البريطاني للعراق سنة (١٩٢٠م)، ومواقف مرجعية سماحة السيد السيستاني بعد سقوط النظام البائد سنة (٢٠٠٣م)، على الرغم من الاختلاف الظاهري بين موقفيهما من إعلان الجهاد الدفاعي وعدمه ضد الاحتلالين البريطاني والأمريكي للعراق من جهة، وفي حرمة الاشتراك في الانتخابات تحت الاحتلال وعدمها من جهة آخرى وهو ما سيتضح بأنه خلاف ظاهري لا واقعي وذلك في الفصل السابع عشر من هذا الكتاب.

ثم بعد ذلك كله انتهى البحث -بعد بحث وتَحَرٍّ واستقصاء- إلى خبر غير مسبوق، مفاده أنّ أحد المرشحين لعرش العراق كان فقيهاً مجتهداً لا يختلف عليه من العراقيين اثنان، غير أنّه رفض الترشح.

وأنّ الإنكليز لم ينصبوا فيصلاً على عرش العراق إلّا بعد أن أمْلَوا عليه شروطهم القاسية المذلّة فأذعن لها برضا أبيه، وطبقها فيصل خلافاً لقناعاته وقيمه وإرادة

الوطنيين العراقيين المتجسدة بمسعاهم لنيل الاستقلال الكامل من المحتل بالثورة المسلحة بعد فشل نيلهم له بالطرق السلمية كافة، وأمثال ذلك ممّا حررته وبحثته وطرحته في ثنايا هذا الكتاب.

لقد راجعت ذلك كله وغيره مرة أخرى بتمعُّن ودراسة وتمحيص وتنقيح قبل أن أوافق على تلبية طلب طباعته طبعة ثانية؛ فلم أجد في نتائج بحثي السابقة غير ما انتهيتُ إليه منها في الأعم الأغلب، عدا بعض الإضافات العلمية في هذا الفصل أو ذاك نتيجة لتجديد النظر فيها وهو قليل، أو بسبب عثوري على وثائق ومصادر جديدة لم أطلع عليها سابقاً وهو غير قليل. ناهيك عن وجود أخطاء هنا وهناك كانت وقعت فصحّحتُها، والتباسات فأوضحتُها، وتعديلات على هذا الفصل أو ذاك فأجريتُها، وخاصة في عنوان الكتاب، كونه أعلق بمحتوى البحث من سابقه.

أما ما يتعلق بالكتب الصادرة قبل هذا البحث، فلم أجد ما يستدعي إعادة تناولها مجدداً؛ ففيما كتبت عن أهمّها وأحدثها وناقشته في الطبعة الأولى من هذا الكتاب كفاية.

بقي لي أن أعرّج على منهجية الكتاب التي حوّلته من سبعة فصول في الطبعة الأولى إلى سبعة عشر فصلاً في هذه الطبعة؛ فقد تبيّن لي أنّ خطة البحث الجديدة أدقّ وأجمع وأحرى بالاتباع، مؤكداً مرة أخرى على أمرين أجدهما مهمّين قبل أن أنتقل إلى منهجية الكتاب الجديدة:

أولهما: أنّي تقصّدت الصراحة فيما انتهيت إليه من نتائج من دون مجاملة أو مداراة أو تغطية، فقد آن الأوان بعد عقود من سفك الدماء والدموع أن نُسمّي الأشياء بمسمّياتها مقدّمة لتلافيها في قادم أيامنا كشعب ودولة، فمن دون أن نشخّص المرض ونضع أيدينا على الجرح لا يمكننا أن نطبّب أو نداوي.

وثانيهما: أنّي لم ألجأ إلى إعادة صياغة النصوص التي استشهدت بها بأسلوبي الخاص، بل عمدت إلى اقتباس النصّ من المصدر أو المرجع بصياغة الكاتب نفسه،

واضعاً إياها بين قوسين صغيرين " " وإن كثرت الاقتباسات، خلافاً لِما درج عليه بعض الكتّاب المتأخّرين؛ حرصاً منّي على دقّة الأمانة في النقل من جهة، وتحوّطاً من احتمال إسقاط فهمي على النصّ فيما لو أعدتُ صياغته بأسلوبي الخاص -حتى مع الإشارة إلى مصدره- من جهة أخرى.

أما وقد وصلت بي المقدمة إلى ما وصلت إليه؛ فقد تقاسَمَت البحثَ سبعة عشر فصلاً بمباحث متعدّدة، فخاتمة، فمصادر ومراجع.

لقد تناول الفصل الأول من هذا الكتاب المعنون بـ(الممهّدات والإرهاصات) بمباحثه الأربعة: المناخ السياسي في النجف الأشرف قُبيل ثورة العشرين، وما أنتجته ثورة التنباك التي أجّجتها فتوى المرجع الأعلى السيد محمّد حسن الشيرازي من يقظة فكرية في المدن المقدّسة وفي النجف الأشرف خاصة، وما أعقبه من تفعيل حركة (المشروطة) الدستورية لليقظة الفكرية الجديدة تجسّد بوعي سياسي متجدد وحراك اجتماعي مؤثر بعد أن تزعّم حركتها الفكرية وقادها سماحة المرجع الشيخ محمّد كاظم الخراساني والثلّة النشطة من المجتهدين الكبار من رفقاء دربه العلمي أو تلامذته، إضافة إلى كثرة انتشار المجلّات والجرائد اللبنانية والسورية والمصرية والفارسية والهندية، ناهيك عن المجلّات والجرائد العراقية الصادرة في النجف الأشرف وكربلاء والكاظمية وبغداد، ثم ما استجدّ من تبنّي فكرة تشكيل الأحزاب السياسية مقدّمة للدعوة الفعّالة إلى تحرير الأرض المحتلّة من براثن المحتلّ البريطاني للعراق.

ثم ما كان لثورة النجف الأشرف في سنة (١٣٣٦هـ/ ١٩١٨م) من أثر ملحوظ في الإعداد السياسي والتنظيمي لثورة العشرين كمقدّمة ناضجة لنشوء (حزب الثورة العراقية) في النجف الأشرف بطبقاته الست وغالبيتهم من زعماء ودُعاة وناشطي الحركة الدستورية التي أعدّت العدّة للقيام بثورة كبرى لاحقاً، متخذة من الاستفتاء البريطاني عن رأي العراقيين بمصير بلدهم بداية لتحركهم العملي لثورة العشرين سنة (١٣٣٨هـ/ ١٩٢٠م)، فالمرجع الأعلى الذي أفتى بوجوب الثورة سماحة الشيخ

محمّد تقي الشيرازي، ثم المرجع الأعلى الخلف الذي أفتى بوجوب استمرارها سماحة الشيخ فتح الله الأصبهاني المعروف بـ(شيخ الشريعة الأصبهاني) وكذلك مرجع الكاظمية سماحة الشيخ محمّد مهدي الكاظمي الذي قصد كربلاء المقدسة ليقف جانب سماحة الشيخ الشيرازي خلال الثورة؛ هم ثلاثتهم من زعماء ووجوه حركة (المشروطة)، كما أنّ عدداً من كبار المجتهدين والعلماء الذين وقفوا جنباً إلى جنب مع المراجع المذكورين هم من مفكّري الحركة الدستورية وداعميها ومن خاصة أو تلامذة زعيم حركة المشروطة في الحوزة العلمية النجفية سماحة المرجع الشيخ محمّد كاظم الخراساني ويأتي في مقدّمتهم هؤلاء سماحة المرجع السيد أبو الحسن الأصفهاني وسماحة المرجع الشيخ محمّد حسين النائيني مؤلِّف أول كتاب تنظيري وفق نظرية الدستوريين هو (تنبيه الأمة وتنزيه الملّة) المطبوع سنة (١٣٢٧هـ/ ١٩٠٩م)، وغيرهم.

كما تناول هذا الفصل أيضاً -من خلال دراسة تحليلية لمواقف المرجعية الدينية من الاستفتاء البريطاني على مستقبل العراق إلى ثورة العشرين- عرض موقفين من مواقف المرجعية الدينية في المدة المحددة أعلاه، فوجدها تنحو منحيين:

المنحى الأول: المنحى القاضي بالتحفّظ عن الإجابة على أسئلة السائلين عن الموقف الشرعي من الاستفتاء حين الاستفتاء، كونه شأناً سياسيّاً، وبموجب مبنى من نحا هذا المنحى أن لا يتدخل في السياسة ولوازمها كما سيأتي، وهو منحى المرجع الأعلى سماحة السيد محمّد كاظم اليزدي وخاصة أتباعه، والقليل من غيرهم، وهم بمجموعهم أقل عدداً من دُعاة المنحى الثاني الآتي.

المنحى الثاني: المنحى القاضي بالسعي لتحرير الأرض العراقية المحتلة بالطرق السلمية ما أمكن، وإلّا فبالقوة الدفاعية المسلحة، وهو ما انتهجته ثورة العشرين بعد فشل المسعى السلمي لمراجعها وقادتها رغم كل الجهود المبذولة منهم لنجاحه، وبموجب متبنّي هذا المنحى من الفقهاء؛ فإنهم يوجبون السعي لتحرير العراق من الأجنبي المحتل سلماً وإلّا فحرباً، ومن ثَمّ إقامة دولة عربية إسلامية دستورية

حسب ما تسمح به ظروفها تلك الآونة، وهو منحى المرجع الأعلى حين الثورة سماحة الميرزا محمّد تقي الشيرازي، والمرجع الأعلى الخلف سماحة شيخ الشريعة الأصبهاني، وعدد من المراجع والمجتهدين وكبار الأساتذة والعلماء والفضلاء.

ثم تناول هذا الفصل أشكال التعبير عن هدف المراجع وشيوخ العشائر والوطنيين من القيام بالثورة في وثائقها؛ فوجدها تتشكّل بثلاثة أشكال تعبيرية تتدرّج في بيانها من طرح بعض الهدف من الثورة؛ ولذلك فاقتصر الشكل الأول منها على: الاستقلال التام الذي لا تشوبه أدنى شائبة من أيّ تدخّل أجنبي، وأوضح الشكل الثاني منها قسماً من مبتغاها وهدفها وهو الدفاع عن حقوق الأمّة واستقلال البلاد العراقية بحدودها الطبيعية في ظلّ دولة عربية إسلامية، يرأسها ملك عربي مسلم، مقيّد بمجلس تشريعي وطني، وأماط الشكل الثالث منها القناع عن هدف الأمّة العراقية العربية المسلمة كاملاً من إشعال نار الثورة بما ورد في الوثيقة التالية التي وقّع عليها المرجعان اللذان قادا ثورة العشرين كلّ من سماحة الميرزا الشيرازي وسماحة شيخ الشريعة الأصبهاني بقولهما: "إنّ رغبة العراقيين جميعهم والرأي السائد بينهم (بما أنّهم أمّة مسلمة) أن تكون حرية قانونية واختيار دولة جديدة عربية مستقلة (إسلامية) وملك (مسلم) مرتبط بمجلس وطني"[١].

أما الفصل الثاني المعنون بـ(الفتوى التاريخية بالثورة المسلحة سنة ١٩٢٠م) فقد اشتمل على مباحث ثلاثة، تناول أولها: الانتداب البريطاني على العراق وأثره في صدور الفتوى التاريخية بالثورة، وشخّص ثانيها: تحديد يوم صدور فتوى المرجع الأعلى بالجهاد الدفاعي، مختلفاً في تاريخ صدورها مع أغلب المؤرخين، ذاهباً في رأيي المختار إلى أنّ الفتوى التاريخية للمرجع الأعلى الشيرازي قد صدرت وأُبلغ بها زعماء الثورة وشيوخها قبل ظهر يوم (النصف من شعبان ١٣٣٨ هجرية)، بعد أَنِ اتُّخِذَ القرار بها في الاجتماع الخطير المنعقد بين سماحة المرجع الأعلى الشيخ

(١) ثورة العشرين في ذكراها الخمسين. معلومات ومشاهدات. محمّد علي كمال الدين: ١٨٢. وكربلاء في ثورة العشرين. سلمان هادي آل طعمة: ٣١.

الشيرازي وبينهم في دار سماحته بعد منتصف ليلة النصف من شعبان، ثم قرأها بعد صدورها السيد مرزا إبراهيم الزنجاني على مسامع العلماء والزعماء والرؤساء والشيوخ كافة، حين رقى المنبر بأمر من المرجع الأعلى الشيخ الشيرازي لإبلاغ قادة الثورة وعلمائها وشيوخها بنصّها في توقيت أخالُه محسوباً ومدروساً، حدد وقته قُبيل ظهر يوم النصف من شعبان سنة (١٣٣٨هـ/ ١٩٢٠م)، يوم ولادة المنتظر الموعود الإمام المهدي عجل الله فرجه "فإذا امتلأت الأرض جوراً وظلماً خرج فملأها قسطاً وعدلاً"[١].

ولعلّ خلوّ الفتوى من تاريخ الصدور -خلافاً للفتوى السابقة عليها القاضية بعدم جواز انتخاب غير المسلم للإمرة على المسلمين- ناشئ من كونها نتيجة طبيعية للاجتماع السري الخطير بعد منتصف ليلة النصف من شعبان، بل هي محصلته وبيانه الختامي، ولمّا كان تاريخ اجتماع ليلة النصف من شعبان ونص حديث المرجع الأعلى فيه محلّ اتفاق بين المؤرخين فلا حاجة لذكر التاريخ مجدداً لأنه واضح جليّ مُتّفق عليه غير متنازع فيه.

أما ثالث مباحث هذا الفصل فقد تمحض للفتوى التاريخية وقراءة معالم خارطة طريقها، قراءة وقف المبحث خلالها على ما رسمته الفتوى بوضوح تام من خارطة طريق للثوار من خلال اشتمالها على مقاطع ثلاث؛ ثبّت مقطعها الأول وجوب مطالبة العراقيين جميعاً بحقوقهم الطبيعية والمقرّة دوليّاً بحصولهم على الاستقلال التام البات الناجز العاري عن كل تدخل أجنبي مهما كان، وبأي صورة من الصور، وثبّت مقطعها الثاني وجوب رعاية السلم والأمن خلال السعي لتحصيل الحقوق الوطنية، وحدد مقطعها الثالث الموقف في حالة ما إذا فشلت المساعي السلمية في تحقيق مطالب العراقيين الشرعية والوطنية كاملة غير منقوصة، حينئذ "يجوز لهم التوسل بالقوة الدفاعية إذا امتنع الإنكليز عن قبول مطالبهم"، كما ورد في نصّ الفتوى المباركة.

---

(١) كمال الدين: ٢/ ٤٣١، وغيره.

ثم تطرق الفصل الثالث المعنون بـ(التطبيق العملي للفتوى باتباع المسعي السلمي لتحقيق المطالب المشروعة ولجوء المحتلين إلى خيار العنف) بمباحثه الثلاثة إلى حرص المرجعية الدينية بمرجعيها كل من سماحة الشيخ محمّد تقي الشيرازي فسماحة شيخ الشريعة الأصبهاني على تحقيق مطالب الأمّة العراقية بالطرق السلمية دون غيرها من الطرق الأخرى المتاحة، فتناول أولها: المبادرات والنشاطات السلمية، واستعرض ثانيها: تنشيط المعارضة السلمية وتفعيلها، وتطرّق ثالثها إلى تثوير المعارضة السلمية بالرسائل والمنتديات والمظاهرات والخطب والمقالات والقصائد ومجالس (المولد/ التعزية) في العاصمة خاصة عسى أن يستجيب لمطالب الشعب المحتلون، ثم أردفوها بإقامة التجمعات الكبيرة في النجف الأشرف وكربلاء والحلة والمنتفق وغيرها من أجل شحذ همم المستمعين نحو الثورة والتحرير. فباءت مساعيهم كلها بالفشل.

ثم تعرّض الفصل الرابع الموسوم بـ(وقائع ثورة العشرين) بمباحثه الثلاثة إلى ما جرى في سوح الثورة من بطولات وتضحيات ومواقف: فتناول أولها مناطق الثورة من انطلاقها إلى وفاة المرجع الأعلى سماحة الشيخ الشيرازي، واستعرض ثانيها مناطق الثورة من تولي المرجع الأعلى الخلف سماحة شيخ الشريعة الأصبهاني إلى نهاية الثورة، وعرض ثالثها لأدوار وفعاليات ونتائج جديرة بالبيان والعرض لِما فيها من دلالات مهمة ومواقف جديرة بالوقوف عندها ودراستها واستخلاص النتائج منها.

لقد وقف هذا الفصل على ساحات عمليات الثورة المسلحة وما جرى فيها من معارك كبيرة وانتصارات مدوّية حرر الثوار خلالها مدناً كبيرة وأقضية عديدة وقصبات كثيرة امتدت من السماوة عبر الفرات وصولاً إلى حدود بغداد حيث لقّن فيها الثوار قوات الاحتلال البريطاني هزائم منكرة بضحاياها الكثر، وعديد أسراها من الضباط والجنود، وكثرة غنائمها من الأسلحة الثقيلة والمتوسطة والخفيفة.

أما الفصل الخامس المعنون بـ(عرض الإنكليز على المرجعية الدينية العليا التفاوض المشروط بدل الثورة المسلحة وموقف المرجعية وزعماء الثورة من العرض)؛ فقد تطرّق بتمهيده ومباحثه الثلاثة إلى ما طرحه الإنكليز على زعيم الثورة المسلحة وقائدها الخلف سماحة المرجع الأعلى شيخ الشريعة الأصبهاني من بديل عن الثورة المسلحة والموقف منه؛ فتناول المبحث الأول من هذا الفصل: رسالة الكولونيل ولسون إلى المرجع الأعلى سماحة شيخ الشريعة الأصبهاني، واستعرض ثانيها رأي المرجعية العليا برفض التفاوض تحت الاحتلال وأسبابه، وأوضح ثالثها: المبدئية الحقة المستشرفة للمستقبل، برفض سماحة المرجع الأعلى الطلب، إلاّ أن سماحته لم يجب على الرسالة قبل أن يعمد إلى سماع رأي كبار مستشاريه من العلماء وقادة الثورة وشيوخها، فاختلفوا بين رافض للتفاوض من دون تحقيق الجلاء التام للمحتل، ومؤيد له، ولمّا كان رأي الأغلبية الرفض فقد اتخذ المرجع الأعلى القرار الصائب برفض التفاوض، ولأنّ قرار رفض التفاوض خضع لوجهتي نظر مختلفتين فقد ناقش هذا الفصل الرأيين، وانتهى بالدليل إلى صواب قرار المرجعية العليا برفض التفاوض مع المحتل تحت الانتداب، وأن لا بديل عن تحقيق أهداف الثورة كاملة غير منقوصة بالاستقلال التام الناجز وخروج آخر جندي بريطاني محتل من أرض العراق.

أما الفصل السادس المعنون بـ(الفرات وطن الثورة وخزانها البشري والمادي والتسليحي) بتمهيده ومباحثه الثلاثة؛ فقد تطرّق إلى فراتية الثورة فتناول أول مباحثه: فراتية الثورة في وثائق قادتها ومجاهديها ومعاصريها ومؤرخيها وجهاز إعلامها الرسمي، واستعرض ثانيها: فراتية خزان الثورة المادي ودعمها اللوجستي، وأوضح ثالثها فراتية خزان الثورة التسليحي، واقفاً على الأضرار الكبيرة التي تحمّلها الفراتيون وقدموها من دماء طاهرة ونفوس زكية، وما تعرضت له مدنهم وقُراهم ومزارعهم وأموالهم وممتلكاتهم جرّاءها من قصف وحرق وسلب ونهب واستباحة وهدم وتخريب وتدمير، منتهياً بالأدلة إلى أنّ تمويل الثورة كان عراقياً محضاً، وفراتياً

خالصاً أو فلنقل على الأعم الأغلب احتياطاً، كما أنّ خزانها التسليحي كان هو الآخر فراتياً.

أمّا الفصل السابع المعنون بـ(المرجعية وثورة العشرين تجربة الحكم والإدارة) بمباحثه الثلاثة؛ فقد أثبت بالدليل التاريخي الموثق ما كان يملكه العراقيون من قابليات إدارة وسيطرة ونظم أمر، فقد تناول مبحثه الأول: (قدرة العراقيين على إدارة المدن المحررة بكفاءة) سواء بعد تحريرها من سيطرة العثمانيين كما أدارت النجف الأشرف نفسها بنفسها لسنتين أو تزيد، أم بعد تحرير المدن من سيطرة المحتلين الإنكليز حيث أدارت مدن النجف الأشرف وكربلاء المقدسة والكوفة والديوانية والسماوة وطويريج وشفاثا والمسيب والمحمودية والمنتفق وديالى وغيرها شؤونها بكفاءة مشهودة أثارت إعجاب المؤرخين.

وللتدليل على ذلك فقد تناول البحث أنموذجين لحسن حكم وإدارة الأهالي للمدن المحررة من العثمانيين أولاً، ومن الإنكليز ثانياً.

وقد تجلى الأنموذج الأول منهما بـ(دستور محلة البراق) في النجف الاشرف بعد تحريرها من العثمانيين مع عرض لبنود هذا الدستور. وتجلى الأنموذج الثاني منهما بـ(ميثاق المصيفي) في المنتفق مع طرح مواد هذا الميثاق وأسماء السادة والزعماء والشيوخ الموقعين عليه.

ثم استعرض مبحثه الثاني شكل نظام الحكم الوطني المطبق في النجف الأشرف وتقدّمه الزمني على أول حكومة شكّلها الانتداب في بغداد، مبيّناً بالتفصيل الهيكل الوطني لنظام حكم وحكومة الثورة التي تشكلت في مدينة النجف الأشرف عاصمة الثورة، ممهداً لذلك بعرض طريقة الانتخاب الحر، لا التعيين، لممثلي مدينة النجف الأشرف والشامية أمام سلطة الاحتلال. غير متغافل عن ما حصل من اعتراض مقنع من قبل أهالي مدينة الشامية على الفائزين في انتخابات ممثلي لواء النجف والشامية ذلك الوقت، ذاهبين في اعتراضهم على النتائج إلى أن عدم استطاعتهم المشاركة في العملية الانتخابية لاختيار ممثلي لوائهم ناتج عن انشغالهم بالإعداد

العسكري والمالي للثورة من جهة، ولعدم تنوع المنتخبين الفائزين ليشمل طبقات أهالي النجف والشامية كافة من جهة أخرى، وحين وجدت المرجعية وأهل الحل والعقد أن اعتراضات أهالي الشامية وجيهة وجديرة بالاهتمام فقد تم بسلاسة ودون نزاع إلغاء نتيجة الانتخاب السابق وفتح باب الترشيح مجدداً، ليرشح من يرشح من جميع سكنة اللواء ثم ليفوز من يفوز، وفعلاً تمت عملية إعادة الانتخاب ثانية من خلال اجتماعات ستة اقتضتها عملية انتخاب المرشحين مرة أخرى بحرية وشفافية ومشاركة من الجميع.

ونظراً لحسن إدارة جلسات الممثلين المنتدبين عن لواء النجف والشامية، فقد عرضت أنموذجاً لأحد اجتماعات منتدبي النجف والشامية لنطلع على كيفية إدارة رئيس الجلسة لجلسته بشكل ملفت للنظر. ليس بالنسبة لعصره قبل قرن من الزمان فحسب، بل لعصرنا أيضاً، بما في ذلك إدارة جلسات مجالس النواب بعد ٢٠٠٣م كوني أحد أعضائه في أكثر من دورة انتخابية.

كما تطرّق المبحث بالتفصيل -وهو في غاية الأهمية- إلى ما أقامه سماحة المرجع شيخ الشريعة الأصبهاني وزعماء الثورة وشيوخها من نظام حكم وحكومة وطنية عراقية في عاصمة الثورة (النجف الأشرف) وفق نظريتهم الدستورية (المشروطة) بالقدر الذي سمحت لهم به ظروف الثورة المشتعلة في جبهاتها المتعددة حينها. بادئين أولاً بانتخاب هيأة تأسيسية صممت شكل النظام المنشود فقررت أن يتكون النظام المبتغى من هيأة عليا سُمّيت بـ(الهيأة العليا) أو (الهيأة العلمية)، و(مجلس تشريعي) منتخب عبر صناديق الاقتراع المبثوثة في شوارع المدينة، ومجلس تنفيذي بـ(حكومة) تتألف من هيأتين: (هيأة أعضاء مجلس الإدارة)، و(هيأة القوة التنفيذية)، مع (مجلس بلدي)، و(جهاز أمني) و(جهاز إعلامي) للثورة عماده صحيفتان هما (الفرات) و(الاستقلال)، وعدد كبير من المناشير التي كانت تطبع في النجف الأشرف وتوزع بالآلاف على المجاهدين في جبهات القتال وعلى المواطنين في المدن والأقضية والنواحي، ثم بعدما أمر رئيس الهيأة العليا المرجع الأعلى سماحة شيخ الشريعة

الأصبهاني تأسس -نتيجة لطرو الحاجة- تشكيل تنفيذي جديد سُمّي بـ(هيأة شؤون الأَسرى) شمل من تم أسرهم من ضباط ومراتب الجيش البريطاني المحتل ومرتزقته، حيث أنيطت بهذا التشكيل مَهمّة رعاية الأسرى، فأحسن التشكيل العناية والرعاية بشكل ملفت للنظر بحيث أثنى عليها حتى المحتلون أنفسهم لاحقاً.

وبذلك -وبعد كلّ ما تقدم- تكون ثورة العشرين أول حكومة وطنية عراقية، شكّلها الثوار العراقيون بمحض حريتهم واختيارهم وانتخابهم في (١٠ ذي الحجة ١٣٣٨هـ/ ٢٥ آب ١٩٢٠م)، مكوّنة من رئيس حكومة، ووزيرين، لكل منهما حقيبته الوزارية حسب خبرته وتخصّصه، متقدمة هذه الحكومة الوطنية (بشهرين) على تشكيل أول حكومة عراقية مؤقتة تحت الانتداب البريطاني برئاسة السيد عبد الرحمن النقيب بتاريخ (١١ صفر ١٣٣٩هـ/ ٢٥ تشرين الأول ١٩٢٠م)، وسابقة هذه الحكومة الوطنية، طبعاً، بـ(سنة ميلادية وسبعة عشر يوماً) على تشكيل أول حكومة عراقية برئاسة السيد عبد الرحمن النقيب أيضاً في (٩ محرم ١٣٤٠هـ/ ١٢ أيلول ١٩٢١م) بعد تنصيب المحتلين للملك فيصل الأول على عرش العراق.

هذا مجمل ما وقف عليه المبحثان الأول والثاني من هذا الفصل. أما المبحث الثالث منه فقد لفت النظر إلى أهمية تناول شكل نظام الحكم الوطني هذا بمجلسيه التشريعي والتنفيذي ومجلسه البلدي، مبيّناً أهمية إعداد بحوث ودراسات عن شكل نظام الحكم الذي طبّقته الثورة في النجف الأشرف باعتباره أول نظام حكم وطني في العراق وربما في المنطقة من جهة، ولكونه سابقاً على تشكيل أول حكومة تحت ظل الاحتلال البريطاني للعراق بسنة أو أقل أو أكثر، من جهة أخرى، ناهيك عن سبق مجلسه التشريعي بسنوات لأول مجلس نيابي عراقي مزيّف تحت ظل الاحتلال البريطاني.

من هنا تأتي أهمية دراسة هذا الحدث التاريخي في العراق الحديث لريادته وسابقته، دراسة تستحقها الثورة ومرجعها وعلماؤها وقادتها من الشيوخ والزعماء بل ويستحقها العراق كله.

أما الفصل الثامن المعنون بـ(إفشال ثورة العشرين للسياسة البريطانية المعدّة لحكم العراق بتهنيده أو بوضعه تحت الحكم البريطاني المباشر أو غيرهما)؛ فقد تطرّق بمقدمته ومباحثه الخمسة إلى ما قدمته ثورة العشرين عمليّاً للعراق بإفشالها وإقبارها للسياسة البريطانية المعدّة لحكم العراق قبل الثورة، ذلك بأنْ تناول مبحثه الأول خطط المحتلين لتهنيد العراق وإلحاقه أو بعضه بالهند، واستعرض مبحثه الثاني وضع العراق كله أو جنوبه، أو البصرة وحدها، أو معها الناصرية، والحي، وبدرة، تحت الحكم البريطاني المباشر، ووقف مبحثه الثالث على مخطط استعماري سعى لتغيير التركيبة السكانية في العراق عن طريق هجرة واسعة النطاق: هندية، أو استرالية، أو مصرية، إليه، وأماط اللثام مبحثه الرابع عن سياسة للمحتل تبنّت إعادة هيكلة العراق، وذكّر مبحثه الخامس بخطة المستعمر بإعادة رسم خارطة جديدة للعراق تتضمن إعادة رسم حدود جديدة للمنطقة يرتبط فيها العراق ببعض دول المنطقة الساحلية. وقد أفشلت ثورة العشرين هذه السياسات والخطط كلها.

في حين تناول الفصل التاسع من البحث المعنون بـ(صدى ثورة العشرين في داخل بريطانيا وخارجها) بمبحثه الأول: (صدى ثورة العشرين في الداخل البريطاني)، واستعرض ثانيها: صدى ثورة العشرين في الدول الخارجية، مبيّناً بعض ما كان يدور في داخل بريطانيا من طروحات نوابهم في مناقشات مجلسهم النيابي وما كانت تتناوله قسم من صحفهم واسعة الانتشار من نقد وتشهير بالسياسة البريطانية الفاشلة المتبعة في العراق وصولاً إلى حدّ المطالبة الجهرية بالانسحاب من العراق نهائيّاً أو بالانسحاب منه باستثناء البصرة، نتيجة للكلف الباهضة التي تحمّلتها خزينة الدولة البريطانية والعبء الذي ناء بحمله دافعو الضرائب بل البريطانيون جميعاً من قتل وجرح وأسر وخسارة فادحة بالمال تجاوزت عشرات الملايين من الجنيهات الاسترلينية ومن السلاح والمعدات وغيرها الكثير الكثير.

ولم يقتصر نقد السياسة البريطانية تلك على الداخل البريطاني فحسب، بل تعدى ذلك إلى دول مختلفة خارجها وذلك نتيجة المقاومة الوطنية الشرسة التي

تصدت للمحتل بقيادة المرجعية الدينية والشيوخ والقادة والزعماء وعموم المواطنين المجاهدين.

أما الفصل العاشر من البحث المعنون بـ(أهم المرشحين لعرش العراق؛ سيرهم ومواقفهم) فتطرق بمباحثه الأربعة إلى سير أهمّ الشخصيات المرشحة لعرش العراق حينها، معرّفاً بهم ومتحدّثاً عن مستواهم العلمي ومميزات شخصياتهم وسلوكهم العام والخاص بإيجاز غير مخلّ، وهؤلاء المرشحون الأربعة للعرش هم كلّ من:

أوّلاً: آية الله السيد عليّ الشيرازي الحسيني نجل المرجع الديني الأعلى آية الله العظمى السيد محمد حسن الشيرازي المعروف بالمجدد الشيرازي، وقد رفض سماحته الترشح رفضاً قاطعاً بعد أن عُرض عليه.

ثانياً: الشيخ خزعل الكعبي أمير المحمرة.

ثالثاً: السيد طالب النقيب.

رابعاً: أحد أنجال الشريف حسين.

غير أن أكثرهم حظاً لنيل العرش كان أحد أنجال الشريف حسين، وهو الخيار الذي استقرّ عليه رأي الإنكليز أخيراً، ثم فضّلوا بعدئذ الشريف فيصلاً على أخويه: الشريف عبد الله المرشح السابق لعرش العراق، والشريف زيد، مختارين فيصلاً ملكاً بعد أن تنازل لهم عن قناعاته السابقة مقابل عرش العراق كما سيأتي لاحقاً.

ثم تطرّق الفصل الحادي عشر الموسوم بـ(السياسة الأولى للشريف حسين وأبنائه تجاه العرب وموقف المرجعية والوطنيين من ترشيح أحد أبنائه لعرش العراق خلالها) بمباحثه الأربعة؛ إلى مواقف الشريفيين المعلنة من القضية العربية. فتناول مبحثه الأول: تحديدي لما أقصده بالسياسة الأولى للشريف حسين وأبنائه تجاه العراق مع تحديد زمنها وموقف العراقيين منها، واستعرض مبحثه الثاني مواقف المدن المؤثرة من ترشيح أحد أبناء الشريف حسين لعرش العراق خلال أجوبتها على أسئلة الاستفتاء البريطاني عن مصير العراق، ودواعي تلك المواقف، وأوضح

مبحثه الثالث: موقف المرجعية الدينية وأهالي المدن المهمة من تسمية ملك للعراق ابتداء من مضابط التوكيل وانتهاء بثورة العشرين، وقرأ رابعها: قراءة متأنية فاحصة موقف المرجعية الدينية والوطنيين من ترشيح أحد أبناء الشريف حسين لعرش العراق خلال السياسة الشريفية الأولى.

أما الفصل الثاني عشر الموسوم بـ(السياسة الثانية للشريف حسين وابنه فيصل تجاه العراق بعد اتفاقهما مع الإنكليز على تنصيب فيصل ملكاً وموقف المرجعية الدينية والوطنيين منها ومنه) فقد توزعته مقدمة، وتمهيد، ومباحث أربعة. حيث تناولت المقدمة: تعريفاً بالسياسة الثانية للشريف حسين وابنه فيصل تجاه العراق وتحديد زمنها، في حين وقف المبحث الأول من المباحث الأربعة على: أسباب اختيار الحكومة البريطانية لفيصل ملكاً على العراق، واستعرض مبحثه الثاني مشكلة تسويق الإنكليز لفيصل ملكاً على العراق، وأوضح مبحثه الثالث بنقاط محددة تنفيذ الملك فيصل لِما تعهد به للإنكليز خلافاً لقناعاته وقناعات أبيه السابقة المعلنة، وخاصة معاداته للمرجعية الدينية، ومحاولاته الحدّ من نشاطاتها الوطنية المعادية للمحتل الغاشم، ومحاولة دق الإسفين بينها وبين قاعدتها الشعبية الوطنية بشتى الطرق، ثم حين ضاقت السبل بالملك وحكومته ومن ورائهم المحتل فلجؤوا إلى تسفيرهم من بلدهم إلى خارجه بدعاوى ظاهرها خلاف باطنها.

لقد أوضح المبحث بجلاء رأي فيصل بثورة العشرين من خلال ما صرح به هو نفسه لإحدى الصحف البريطانية حين كان في لندن.

وهل يُنتظر ممن كان هذا رأيه في ثورة العشرين أن يكون موقفه من مراجع الدين الذين قادوا الثورة ضد المحتلين غير موقف من جاء به من دولة أخرى ونصبه ملكاً على شعب غير شعبه وبوطن غير وطنه؟!

أما المبحث الرابع من هذا الفصل فقد تطرّق إلى الموقف من عراقية الموصل، مجلّياً موقف الشيعة الوطني مقابل موقف الملك فيصل الأول والإنكليز المصلحي-الطائفي، على الرغم من اتحاد الموقفين موقف الشيعة وموقف المحتل

وتابعه الملك فيما يخص تبعية الموصل للعراق لا لتركيا، إنما وقع الاختلاف الكبير بين الموقفين نتيجة اختلاف الأسباب والدواعي لكل منهما.

لقد اتفق الشريف فيصل مع الإنكليز بدعم أبيه الشريف حسين على تتويجه ملكاً على العراق بعد نفيه من سوريا، شرط أن يذعن فيصل فيوافق على تنفيذ ما تريده بريطانيا منه.

أما الفصل الثالث عشر المعنون بـ(التشابه بين نظريتي الحكم لكل من سماحة السيد السيستاني (دام ظله) وسماحة الشيخ النائيني ﷺ المطبقة نسبيّاً في ثورة العشرين)؛ فقد توزعه تمهيد مختصر ومباحث ثلاثة. حيث تناول في مبحثه الأول: نظرية: إرادة الأمة لسماحة المرجع الأعلى السيد السيستاني (دام ظله)، واستعرض المبحث الثاني منه نظرية المحقق النائيني الدستورية المطبقة نسبياً في ثورة العشرين كما عرضها سماحته في كتابه المهم (تنبيه الأمة وتنزيه الملّة)، في حين تطرق مبحثه الثالث إلى نقاط الالتقاء والافتراق بين نظريتي سماحة السيد السيستاني الموسومة بـ(إرادة الأمة)، ونظرية سماحة الشيخ النائيني المعروضة في كتابه المهم (تنبيه الأمة وتنزيه الملّة).

أما الفصل الرابع عشر المعنون بـ(تماثل موقف المرجعيتين الدينيتين في مقاومة الاحتلال الأجنبي للأراضي العراقية) بتمهيده ومباحثه الخمسة؛ فقد تطرّق إلى وجوه التماثل بينهما في المواقف المتماثلة وضرب على ذلك أمثلة منها ما نهض المبحث الأول ببيانه وهو: تماثل موقف المرجعيتين الدينيتين في وجوب إعلان الجهاد الدفاعي ضد الغزو الأجنبي للعراق، واستعرض المبحث الثاني: تماثل موقف المرجعيتين الدينيتين في إلزام المؤمنين بالدفاع ضد الاحتلالين البريطاني للعراق سابقاً والداعشي لاحقاً، وأوضح المبحث الثالث: تماثل موقف المرجعيتين الدينيتين في حث المواطنين على تقديم الدعم المادي العيني بكافة أشكاله للمتطوعين، واستجابة مؤسسات المجتمع المدني كالعشائر والمواكب الحسينية وأمثالها لحث المرجعية الدينية على تقديمم الدعم والإسناد للمدافعين عن العراق وشعبه وكان

للمواكب الحسينية في ثورة العشرين (١٩٢٠م) وفي دعم المقاتلين ضد الدواعش الغزاة في سنوات (٢٠١٤-٢٠١٧م) دور مشهود قلّ نظيره في حجم ونوعية الدعم والإسناد والمؤازرة ماديّاً ومعنويّاً.

ثم بيّن المبحث الرابع تماثل موقف المرجعيتين في ضرورة حشد الطاقات المدنية الشعبية لتكون رديفاً للقوات النظامية عند الحاجة، أما المبحث الخامس فقد تكفّل ببيان توجيه المرجعيتين الدينيتين للمجاهدين في سوح الدفاع عن الوطن بوجوب مراعاة القيم الإسلامية والإنسانية في التعامل مع العدو ماضياً وحاضراً.

أما الفصل الخامس عشر المعنون بـ(تماثل موقف مرجعية ثورة العشرين ومرجعية سماحة السيد السيستاني في التصدي للشأن الاجتماعي-السياسي العام قبل قرن وبعده)؛ فقد تطرّق بمباحثة السبعة إلى أوجه التماثل بين الموقفين. حيث تناول مبحثه الأول: تأكيد المرجعيتين الدينيتين على أن نظام الحكم في العراق يجب أن يحدده الشعب العراقي بحرية، واستعرض مبحثه الثاني تماثل موقف المرجعيتين الدينيتين في ضرورة تشكيل السلطة التشريعية من خلال انتخابات عامة مباشرة دون تدخل أجنبي فيها، شريطة منح الحرية المطلقة للشعب في انتخاب ممثليهم ونوابهم، واستعرض مبحثه الثالث تماثل موقف المرجعيتين الدينيتين في الحث على توحيد صفوف المسلمين سُنّة وشيعة وجمع شملهم ونبذ تفرقهم، ووقف مبحثه الرابع على تماثل موقف المرجعيتين الدينيتين في إحاطة المنظمة الأممية بشدة معاناة العراقيين من المحتلَّينِ البريطاني والأمريكي للعراق، وحثّها على القيام بواجبها في ذلك، ونهض مبحثه الخامس ببيان تماثل موقف المرجعيتين الدينيتين في أمر المتابعة الحثيثة لمستجدات مواقف السلطة الحاكمة في العراق المناوئة لاستقلال وحرية وحقوق الشعب العراقي، وكشف مبحثه السادس عن تماثل موقف المرجعيتين الدينيتين في المتابعة الحثيثة لمستجدات سياسات الدول المعادية لاستقلال وحرية الشعوب الإسلامية والدفاع عن مقدساتها، وبيّن مبحثه

السابع تماثل موقف المرجعيتين الدينيتين في عدم المطالبة بتطبيق (الديمقراطية) أو (الدولة المدنية) في أي من البيانات والأدبيات الصادرة عنهما.

أما الفصل السادس عشر فقد تعنون بـ(وقفة مع أسباب عدم التشابه الظاهري بين مواقف المرجعيتين الدينيتين زمن الإحتلالين البريطاني والأمريكي للعراق)؛ حيث تطرق مبحثه الأول إلى سرّ اختلاف موقف المرجعيتين الدينيتين في مسألة إعلان الجهاد الدفاعي وعدمه خلال الاحتلالين: البريطاني للعراق سنة (١٩١٤-١٩٢٠م) والأمريكي له سنة (٢٠٠٣م).

واستعرض مبحثه الثاني سبب الاختلاف الظاهري في موقف المرجعيتين الدينيتين من مسألة الاشتراك في الانتخابات وعدمها خلال الاحتلالين: البريطاني للعراق سنة (١٩٢٢م وما بعدها)، والأمريكي له سنة (٢٠٠٥ م).

في حين تناول الفصل السابع عشر والأخير المعنون بـ(المحصّلة. المرجعية والفراتيون ومن اقتدى بهم جسدوا المبدئية الحقة والوطنية الصادقة باجلى صورها) بمبحثيه: الأول الخاص ببعض ما قدمته ثورة العشرين للعراق والعراقيين حسب آراء نخبة من المؤرخين العراقيين والإجانب، والثاني بما تضمّنه من بيان الفرق الواضح بين ما اختاره المبدئيون المضحون من مرجعية دينية ووطنيين، وما سلكه نهّازو الفرص من ملك وحاكمين، فتطرق هذا الفصل إلى ما تعرّض له المبدئيون المضحون من أبناء الفرات من ضيم وهضم -وقد قامت على أكتافهم وبتضحياتهم ودمائهم وأراملهم وأيتامهم وذراريهم الثورة الوطنية العراقية الكبرى- مقابل ما جناه نهّازو الفرص من ضباط الجيش العثماني وخاصة أولئك الذين وقعوا في الأسر منهم بأيدي الجيش البريطاني وتم تسليمهم لاحقاً إلى الشريفيين ليشاركوا مع جيشهم المتجّه إلى سوريا بقيادة إنكليزية لتحريرها من العثمانيين.

يقول السيد محسن أبو طبيخ واصفاً ما جرى بقوله: "قمنا بالثورة العراقية الكبرى، وحاربنا الإنكليز، وفقدنا خيار أبنائنا شهداء في هذا السبيل، ليأتي عملاء الأتراك هؤلاء الذين أصبحوا عملاء مخلصين للإنكليز، ليتربعوا على كراسي الحكم

الوفيرة، وينعموا بالحياة المستقرة، دون أن يبذلوا أي جهد من مال أو جاه في سبيل هذا الاستقلال... أمّا نحن رجال الثورة الذين قمنا بإعداد مائدة الحكم الدسمة ليتناوبوا عليها ويتصارعوا للنيل بأكبر قسط من غنائمها، كان مصيرنا ما بين النفي والاعتقال والتشريد والحرمان"[١].

ولم يقتصر أمر توثيق التنكر لتضحيات ثوار الفرات ومدنهم بعد الثورة على قادة الثورة من أمثال السيد أبو طبيخ، بل وثّقه العديد من الثوار الوطنيين وفي مقدمتهم الشيخ محمّد رضا الشبيبي بقوله: "أما ما جرى بعد ذلك، وكيف انقلبت الآية.. وكيف لوحق المجاهدون، وكيف أوذي الأحرار، وامتحن الثوار، وفي مقدمتهم العلماء الأعلام، وكيف عوقبت المنطقة الثائرة، بالعسف والحرمان، وذلك وفق خطة استعمارية مرسومة، فإنّه حديث طويل يثير الشجون، ويمري الجفون"[٢].

ومن حسن الحظ أن تكون المستشارة البريطانية المس بيل قد أوضحت الخطة التي أشار إليها الشيخ الشبيبي بصراحة تامة بقولها: "مشكلة الشيعة أخطر المشاكل وأشدها إزعاجاً في هذه البلاد...وإذا كانت ستشكل أي شيء من قبيل المؤسسات النيابية الحقيقية، فإنك ستحصل على أكثرية شيعية فيها" [٣] كما سيأتي.

لقد ألقت المس بيل الضوء الجلي على الخطط والبرامج السياسية للمحتل وتابعية وعلى رأسهم الملك فيصل ورؤساء وزرائه ووزرائه فيما يخص حكم العراق بقولها الصريح: "إنّ السلطة في النهاية يجب أن تكون في أيدي السنّة، بالرغم من أقليتهم العددية، وإلّا فستكون لنا دولة يسيّرها المجتهد، وهو أمر خبيث جدّاً"[٤] كما سيأتي أيضاً.

---

(١) مذكرات السيد محسن أبو طبيخ. سابق: ١٨١-١٨٢.

(٢) مقدمة كتاب (الثورة العراقية الكبرى سنة ١٩٢٠. سابق): ٤.

(٣) العراق في رسائل المس بيل. سابق: ٢١٢.

(٤) المصدر السابق نفسه: ٢١٢

ومن هنا تأتي الخطورة التي أدرك عمقها المحتلون وتابِعوهم من الانتهازيين وقنّاصي الفرص، ومفادها أنّهم لو كانوا سمحوا للانتخابات العراقية أن تجرى بحرية تامة ممثلة لقناعات الناخبين العراقيين بصورة صادقة وشفافة، و"حقيقية" كما وصفتها المس بيل، فسيفوز بأغلبية مقاعدها النيابية المواطنون الشيعة بالتأكيد، وستشكل حكوماتها بغالبية شيعية تبعاً لذلك، ما يعني بالنتيجة سعيهم لتحقيق مطلبهم الذي ثاروا من أجله وهو تحرير العراق تحريراً تاماً شاملاً عارياً عن كل تدخل أجنبي بأي شكل من الأشكال وجلاء آخر جندي بريطاني من الأراضي العراقية، ثم تطبيق قناعات المرجعية الدينية بتشكيل نظام للحكم في العراق وفق نظريتهم الدستورية التي دوّنها المرجع الشيخ النائيني في كتابه (تنبيه الأمة وتنزيه الملّة)، وأشار إليها الباحث الأمريكي إسحاق نقاش وخلاصتها: "تأسيس حكومة دينية تقوم على أحد المبادئ الأساسية للمذهب الشيعي"[١] معرفاً هذا المبدأ الأساسي بأنه نظام دستوري يتضمن تشكيل مجلس وطني وفق مبادئ الحركة الدستورية[٢].

وتطبيقاً للسياسة البريطانية القاضية بعدم السماح للأغلبية الشيعية بتولي زمام الحكم مطلقاً ربما جاءت موافقة السيد عبد الرحمن النقيب على تولي رئاسة الوزراء في الحكومة المؤقتة بعد أن اعتذر أول الأمر عن قبول المنصب، غير أن المندوب السامي البريطاني السير بيرسي كوكس استطاع التأثير عليه "بأن يشارك في الأمور العامة... عن طريق ضربه على بعض الأوتار الحساسة في قلبه. فالمعروف عن النقيب أنه كان يمقت الثورة والقائمين عليها مقتاً شديداً، كما كان يمقت المجتهدين الذين أيّدوا الثورة بفتاويهم... ويخيل لي أن كوكس قال له محذراً من أنه إذا لم يقبل تولي المسؤولية فسيضطر هو إلى وضعها في أيدي أناس من الفئة التي يمقتها مقتاً شديداً وسيكون في ذلك خراب البلاد"[٣] حسب قول المس بيل، فوافق عبد الرحمن النقيب

(١) شيعة العراق. سابق: ١٢١.

(٢) ينظر: المصدر السابق: ١٢١ – ١٢٢.

(٣) لمحات اجتماعية من تاريخ العراق الحديث. سابق: ٦/ ٢٢- ٢٣

على قبول العرض البريطاني ليكون رئيساً للوزراء بحكومة "تعتبر عموماً صنيعة بريطانية"[١] وبذلك "فتح الطريق أمام الخنوع، وقد قال للبريطانيين (إني أعترف بانتصاركم، وعندما أُسأل عن رأيي في استمرار الحكم البريطاني أجيب: أنا تابع للمنتصر)"[٢]، مسخّراً "نفوذه بقوة إلى جانبهم منذ فتحهم للبلاد"[٣].

هذا ولم يكتفِ الإنكليز وتابعهم الملك فيصل وحكوماته بتزوير الانتخابات بعد انتهاء ثورة العشرين كما تم توثيقه في البحث، بل خلال العهد الملكي كله، من أجل الحيلولة دون فوز أغلبية شيعية معارضة لوجود المحتل وسياستهم في إدارة البلاد، وحصرهم الحكم بالسنّة التابعين لهم والمنتفعين منهم إلّا ما ندر، وذلك لذر الرماد في العيون، فمثلاً كانت نسبة الشيعة بمنصب رئيس الوزراء في العهد الملكي ابتداءً من سنة (١٩٢١م-١٩٥٨م) (٥) خمسة رؤساء وزراء فقط، من أصل (٥٨) ثمانية وخمسين رئيساً للوزراء في العراق، أي بنسبة قدرها (٦ ,٨)[٤] على الرغم من أغلبيتهم العددية منذ ذلك الوقت وفق الإحصاءات البريطانية. وأن التمثيل الشيعي في المناصب الحكومية في بعض الأحيان قد وصل إلى ما دون ما نالته الأقليتان المسيحية واليهودية[٥].

وبالإجمال كانت حصة الشيعة من المناصب الوزارية خلال الانتداب البريطاني على العراق من سنة (١٩٢١م) إلى (١٩٣٢م): (٢٠) منصباً وزارياً فقط من المناصب الوزارية غير المهمة من أصل (١١٣) منصباً وزارياً، وذلك بسبب شدة محاربة الشيعة بمراجعهم ووطنييهم ووجوههم للانتداب البريطاني على العراق.

---

(١) العراق. حنا بطاطو. الكتاب الأول الطبقات الاجتماعية والحركات الثورية من العهد العثماني حتى قيام الجمهوري: ٢٠٨.

(٢) المصدر السابق: ٢٠٣.

(٣) المصدر نفسه: ٢٠٨.

(٤) المصدر نفسه: تنظر أسماء رؤساء الوزراء، وعدد مرات تسلم كل منهم للمنصب، ومدة بقائه في المنصب، وتاريخ ولادته ومكانها، ومستوى تعليمه، ومهنته أو عمله قبلاً، وأصله الطبقي: ٢١٢ - ٢١٧.

(٥) ينظر: مذكرات السيد محسن أبو طبيخ: ٢٧٣ - ٢٧٤

أما في العهد الملكي كله (من سنة ١٩٢١ إلى ١٩٥٨م) فكانت حصة الشيعة من المناصب الوزارية غير المهمة ما مجموعه: "(١٥٩) منصباً فقط، من أصل (٥٧٥) منصباً، بنسبة (٢٧,٧٪)"[١].

هذا ما يتعلق بالمناصب الوزارية، أما الجيش فإنّ "أحد الأشياء التي وقعت تحت سيطرة السنّة حصراً كان الجيش العراقي، الذي احتكر أسوأ احتكار خدمة لمصالحهم... -و- التي كانت تدار من السنّة باسم السنّة"[٢]. وكذلك مشاريع البنى التحتية.

ولم يقتصر أمر إبعاد الشيعة الوطنيين عن مراكز الحكم والقرار فحسب، بل زادوا عليه بما وصل إلى حد تشويه الحقيقة التاريخية للثورة العراقية الكبرى بما وصفه الباحث عباس كاظم بقوله: "لم تتم سرقة ثمرة ثورة ١٩٢٠... من الفرات الأوسط الذي جرى تهميش أهله لثمانين سنة لاحقة، بل سرقت الثورة نفسها، فقد عزت الحكومات العراقية المتعاقبة فضيلة الثورة جزئيّاً أو كليّاً إلى شخصيات وجماعات كانت مشاركتها في الثورة لاحقة أو عرضية أو معدومة"[٣]. كما سيأتي البحث على ذلك مفصلاً.

ولا يسعني وأنا أختم مقدمتي هذه إلّا أن أنوّه بأنّ الطبعة الثانية هذه هي التي تعبّر عن آرائي ومواقفي وتحليلاتي إثر إجرائي تعديلات وإضافات على الطبعة الأولى من هذا الكتاب.

ثمّ أتقدم بالشكر الجزيل لجناب المتولي الشرعي للعتبة الحسينية المقدسة سماحة الشيخ عبد المهدي الكربلائي (حفظه الله ورعاه) على اهتمامه بإصدار هذا الكتاب.

---

(١) العراق. حنا بطاطو. الكتاب الأول الطبقات الاجتماعية والحركات الثورية من العهد العثماني حتى قيام الجمهوري:٦٩.

(٢) ثورة ١٩٢٠ قراءة جديدة في ضوء الوثائق التاريخية. سابق: ٢٥٦.

(٣) المصدر السابق: ٢٨٤

ولمؤسسة روّاد أيضاً على سعيها الحثيث ومتابعتها المستمرة لإصدار هذه الطبعة الثانية له.

كما لا يفوتني أن أتقدم بالشكر لأُسرتي التي بذلت جهوداً مضنية خلال متابعتها الطبية اليومية المستمرة للمستشفى والأطباء أثناء تطبيبي من مرضي العضال، فأغنتني بذلك عن متابعتي لتطوراته ممّا هيأ لي فرصة أطول للتفرغ لكتابة هذا الكتاب تحت ضغوط المرض ومعاناتها.

كما أتقدم بالشكر الجزيل لأولادي الأعزاء الباحثين: كل من نجليّ: يسار، ود. محمّد، ونزار نجل أخي المرحوم د. حسن، وكاظم جواد الحكيم، وأحمد سالم اللامي؛ لِما قدموه لي خلال البحث من وقت وجهد، والشكر موصول لولدي حسين علاء هادي الحكيم.

أسأل الله عزّ وجلّ أن يأخذ بيديّ لِما يحبّه ويرضاه وأن ينعم عليّ بما هو أهله، وأن يشفي جميع المرضى بحوله وقوته، إنّه نعم المولى ونعم النصير.

والحمد لله ربّ العالمين
وصلّى الله على رسوله والأئمّة الميامين من آله
وسلّم تسليماً كثيراً

عبد الهادي السيد محمد تقي الحكيم

النجف الأشرف. العراق
١٤٤٥هـ/ ٢٠٢٤م

الفصل الأول

الممهّدات والإرهاصات

وفيه أربعة مباحث هي:

المبحث الأول

المناخ السياسي في النجف الأشرف قبيل ثورة العشرين

المبحث الثاني

الإعداد السياسي والتنظيمي لثورة النجف الأشرف ضد المحتلين الإنكليز

المبحث الثالث

مواقف المرجعية الدينية من الاستفتاء على مستقبل العراق إلى ثورة العشرين

(١٣٣٧هـ/ ١٩١٨م- ١٣٣٩هـ/ ١٩٢٠م)

المبحث الرابع

طرق التعبير في وثائق الثورة عن هدف المرجعية الدينية وزعماء الثورة منها

وسأتناولها تباعاً مبتدئاً بالمبحث الأول منها.

المبحث الأول

المناخ السياسي في النجف الأشرف قبيل ثورة العشرين

لم تكن الحوزات العلمية في النجف الأشرف والعراق بل والمنطقة مهتمة اهتماماً ملحوظاً بالتدخل المباشر للتأثير على الوضع السياسي في العراق خلال القرن الثالث عشر الهجري. غير أن الوضع تغيّر تماماً منذ الفتوى التاريخية التي أنتجت ما عرفت بثورة التنباك، والتنباك تبغ يدخّنه الكثير من الإيرانيين ذلك الوقت.

لـ"قد نشأت قضية التنباك من جرّاء اتفاقية عقدها الشاه ناصر الدين مع شركة بريطانية، حيث منحها امتيازاً لاحتكار التنباك وبيعه في كافة أنحاء إيران، وقد أدى ذلك إلى ظهور استياء شديد عمّ البلاد بأسرها وصار في نهاية الأمر كأنه ثورة شعبية كبرى"[1]. فصدرت فتوى تحريم استعمال التنباك في مسعى مرجعي للضغط الشعبي الشديد على الشاه لإلغاء المعاهدة.

لذلك يحسن بي أن أتحدث بإيجاز شديد عن تداعيات تلك الفتوى على الحوزات العلمية في النجف الأشرف من العراق والمنطقة من حيثية تأثيرها في الوضع السياسي العام في العراق والمنطقة.

***

١. ثورة التنباك

لقد أنتجت ثورة التنباك يقظة حادة في الوعي السياسي في الحوزات العلمية الدينية، كان لها ما بعدها من تداعيات فكرية وسياسية واجتماعية كثيرة وخطيرة.

فإثر صدور فتوى المرجع الأعلى حينها سماحة السيد محمّد حسن الشيرازي[2]

---

(١) لمحات اجتماعية من تاريخ العراق الحديث. د. علي الوردي: ١/ ٩٣- ٩٤.

(٢) ولد السيد محمّد حسن بن محمود بن إسماعيل الشيرازي النجفي في مدينة شيراز سنة (١٢٣٠هـ/ ١٨١٥م)، ونشأ فيها وانتقل منها إلى أصفهان للتزود بالعلم، ثم هاجر منها إلى النجف الأشرف ليدرس على يد كبار علمائها، ثم ليحضر فترة طويلة على أستاذه الشيخ مرتضى الأنصاري، وإذ توفي شيخه الأنصاري استقل =

في سامراء العراق بتحريم استعمال التنباك سنة (١٣٠٨هـ/ ١٨٩١م)، تفاعل معها الشعب الإيراني تفاعلاً كبيراً جداً أوضحه أ.ج براون بقوله:

"في أوائل (كانون الأول/ ديسمبر) ١٨٩١ وصلت رسالة من مجتهد سامراء الحاج ميرزا حسن الشيرازي تدعو الناس إلى التخلّي التام عن التبغ إلى أن يتم إلغاء الامتياز.. وفجأة وبتوافق تام... أغلق تجار التبغ حوانيتهم، ووضعت الغلايين جانباً، ولم يعد أحد يدخن، لا في المدينة، ولا في حاشية الشاه، ولا حتى في حجرات النساء، فيا للانضباط، ويا للطاعة، عندما يتعلق الأمر بالخضوع للإرشادات الدينية، أو بالأحرى للأوامر التي يصدرها... المجتهدون المشاهير"[١].

لقد أجبرت الفتوى "القنبلة"[٢] السلطان ناصر الدين شاه على إلغاء اتفاقيته الاحتكارية مع الشركة البريطانية، ليس هذا فحسب، بل أجبرته على تحمّل تبعات الإلغاء المادية والاجتماعية والسياسية الكبيرة بعد يأسه من فشل مساعيه كلها لاسترضاء المرجع الأعلى السيد المجدد الشيرازي في سامراء بمساعيه المتعددة بما في ذلك استعانته بالإنكليز الذين قصدوا السيد المرجع في سامراء و"بذلوا له الأموال الطائلة وكالوا له من الأمنيات الشيء الكثير، وآخر كلام له -المرجع-

---

= بالبحث والتدريس، فحضر تحت منبره العديد من العلماء ورجع إليه في التقليد الكثير من المؤمنين في النجف الأشرف وخارجها. هاجر السيد الشيرازي من النجف الأشرف إلى مدينة سامراء المقدسة في حدود سنة (١٢٩٣هـ/ ١٨٧٦م)، فهاجر بهجرته ولهجرته عدد كبير من تلامذته وحضار مجلس بحثه للدراسة فيها على يديه. وقد عرف السيد الشيرازي بالتصدي لأمور المسلمين العامة، فكان يجمع للفقراء وأهل القرى والبوادي ليقدم لهم ما يحتاجون إليه من ألبسة وأطعمة مرتين في السنة، كما كان يعقد للأمور السياسية مجلساً يحضره وجوه تلامذته وخاصته، ليتدارس معهم الأمور العامة المهمة، ويتخذ القرار المناسب بشأنها حتى وفاته سنة (١٣١٢هـ/ ١٨٩٤م) في سامراء، حيث حمل جثمانه على الأكتاف من سامراء إلى النجف الأشرف ليدفن في مقبرته جنب الصحن العلوي الشريف من جهة باب الطوسي.

(١) ثورة ١٩٢٠ الجذور السياسية والفكرية والاجتماعية للحركة القومية العربية (الاستقلالية) في العراق د. وميض جمال عمر نظمي: ١١٧. وينظر هامش الصفحة .

(٢) لمحات اجتماعية من تاريخ العراق الحديث. د. علي الوردي: ٣/ ٩٥.

مع الوفد الإنكليزي: (لو تملؤا -كذا- لي الدنيا ذهباً وفضة لم يكن الأمر)"[١] المطلوب بتغيير الموقف.

لقد كان انتصار ثورة التنباك نتيجة للفتوى التاريخية "أول انتصار تسجله حركة مطلبية شعبية جماهيرية في تاريخ إيران الحديث، بل في تاريخ العالم الإسلامي الحديث، وكانت هذه هي الخطوة التمهيدية للحركة الدستورية اللاحقة"[٢] كما سيأتي.

وعلى الرغم من أن فتوى التنباك هي أكثر فتاوى ورسائل ومتبنيات المرجع الأعلى السيد محمّد حسن الشيرازي تأثيراً وشهرة، إلّا أنها لم تكن اليتيمة، فقد كان لرسالته التي أوقفت المجازر الوحشية التي تعرض لها شيعة أفغانستان من قبل حكامها التكفيريين أثرها المهم أيضاً. ومع ذلك فإن فتواه التي أحدثت ثورة التنباك عدّت نقطة تحول في مسيرة المرجعية الدينية في عهدها المعاش وما تلته من عهود، وهي ما دعت بعض الباحثين لأن يقول: "إنّ انطلاقة التحرك السياسي والجهادي لدى المسلمين الشيعة في العصر الحديث نابعة من الإمام الميرزا حسن الشيرازي صاحب ثورة التنباك... فقد استطاع هذا المرجع الكبير بمواقفه التجديدية الإصلاحية أن يواصل حلقات المسيرة الإسلامية الممتدة بجذورها التاريخية القديمة لجهاد المسلمين الشيعة إلى العصر الحديث، حيث استمرت مدرسته التجديدية في الإصلاح والنهضة عبر تلامذته الذين حملوا أفكاره السياسية ورؤاه الحركية والجهادية فيما بعد"[٣].

ولما كانت النجف الأشرف أوائل القرن العشرين مهوى أفئدة طلاب العلم والدراسة والثقافة والتفقه في الدين من مختلف أنحاء البلدان الإسلامية من قبيل: إيران بمدنها العديدة، وأفغانستان، والهند، ولبنان، والبحرين، والأحساء والقطيف،

---

(١) معارف الرجال. سابق: ٢/ ٢٣٥.

(٢) الفقيه والسلطان. جدلية الدين والسياسة في تجربتين تاريخيتين العثمانية والصفوية القاجارية. وجيه كوثراني: ١٩٠.

(٣) شيعة العراق وبناء الوطن. محمّد جواد مالك: ١٩١.

وعمان، والتبت، وآذربيجان، وما وراء النهر، وبعض الدول العربية والأجنبية الأخرى، فقد كان طلاب العلم والفضيلة يؤمّونها حاملين علومهم وثقافتهم ومعارفهم وكتبهم وأفكارهم وحضاراتهم، فتتلاقح الثقافات والحضارات والآراء والأفكار مع حضارة وثقافة وآدب وعلوم وأفكار علماء وأدباء النجف الأشرف، فأنتجت بتفاعلها عقلية حوزوية نجفية مختلفة تتابع بحرارة وتلهف ما يجري حولها من دعوات التحرر والتجدد.

لذلك وغيره فـ"من الراجح أنّ هذه الفترة التاريخية منذ اندلاع ثورة التنباك عام (١٣٠٨هـ/ ١٨٩١م)... تعدّ أبرز نموذج لتعاظم دور الفقيه السياسي في مقابل تسلّط الدولة في ذلك الوقت. فبعيداً عن أحداث ومجريات الثورة وانتقالاً لنتائجها يلاحظ من جهة ظهور المؤسسة الدينية بوصفها محركاً لا يستهان به على الساحة الإيرانية، ومن جهة أخرى قيام الثورة الدستورية (١٣٢٢هـ/ ١٩٠٥م) حيث جاءت تلك الثورة لتكون أول محك لتعامل المؤسسة الدينية مع المتغيرات السياسية والاقتصادية الجديدة الداخلية والخارجية، وأول محكّ حقيقي ضد السلطة المطلقة"[١].

***

٢. الحركة الدستورية (المشروطة)

لقد ألهبت ثورة التنباك والصحوة المنبعثة عنها مشاعر المصلحين في بعض الحوزات العلمية في إيران والنجف الأشرف وكربلاء والكاظمية وغيرها. كما أن "كلتا الثورتين الدستوريتين في إيران وتركيا قد لعبتا دوراً بارزاً في رفع الوعي السياسي بين أوساط الشعب العراقي"[٢] وخاصة في المدن المقدسة وبغداد حيث بتنا "نجد جريدة (الرقيب) البغدادية مثلاً تراقب حركة الأحرار في إيران وتنشر

(١) تنبيه الأمة وتنزيه الملة. الشيخ محمّد حسين النائيني. تعريب. عبد المحسن آل نجف. تقديم الكتاب. بقلم الشيماء العقالي: ١٩-٢٠.

(٢) محمد حسين النائيني وتأسيس الفقه السياسي. بقلم عبد الهادي الحائري وآخرين: ٤١.

أخبار كفاحهم مع حكومتهم بلهجة تنم عن التأييد"[١].

وكان من نتيجة ذلك الوعي السياسي الوقاد أن بدأت فارتفعت وتائر المطالبة بإصلاح الوضع السياسي في إيران، عندها وجد شاه إيران نفسه مضطراً إلى تأسيس مجلس شورى للبلاد وإجراء انتخابات عامة لاختيار نواب المجلس وكتابة دستور للبلاد تحت ضغط حركة سمّيت حينها بالدستورية أو (المشروطة)، وإنّما سمّيت بـ(المشروطة) لأنّها عدّت مواد الدستور بمثابة (الشروط) التي يجب أن يتقيد بها الملك في حكم رعيته.

وبعبارة أخرى: إن (الشروط) أو "الاشتراط في السلطنة عبارة عن تحديد صلاحيات الملك وتقييد إدارته للسلطة بحدود وقيود يراها العقلاء وساسة المملكة بما يعود بالنفع لصالح المواطنين، ويؤدي إلى زيادة وقوة شوكة الدولة وعظمة البلاد"، حيث "قام بناء السلطنة المشروطة والدولة المحدودة على أن تعود المصالح والمنافع السياسية العامة، وما يؤدي إلى الصلاح والرشاد وعمران البلاد إلى عامة المؤمنين والسكان في هذا البلد، كلٌّ على قدر مدخليته (كذا) وجوده في عمران المملكة ولوازم تمدّنها، لا أن يكون جميع ما فيها من الخيرات حكراً على مواطن واحد منهم، أو غريب عنهم، ويكون سائر المواطنين مكتوفي اليد ومسلوبي الإرادة والحق... وبعد أن اتضح تعلّق الجهات المدنية والمصالح العامة ومدنية المملكة بمجموع النفوس والسكان إذن لا بدّ من الرجوع إليهم في نفيها وإثباتها، ولا بدّ من أن يقوم عموم الناس بتعيين من يمثلهم من الأشخاص الذين يلمسون فيهم الصدق والأمانة؛ ليناط بهم جلب المصالح العامة ودفع المفاسد، لينظروا فيها ويبيّنوا صلاح وفساد النوع عن مشورة، وعرضها... على الملك الذي يمثل منصب الرئيس الذي تناط به مهمة الإشراف على عملية تطبيق الأفكار... طبقاً لما تم التعاقد عليه من قبل عامة الناس، وأن يضطلع بواجب إدارة وتحريك

(١) الثورة العراقية الكبرى سنة ١٩٢٠. سابق: ٩٦.

مفاصل الدولة على ذلك الميزان والمعيار"[١] الدستوري.

وتعدّ من أهم مواد الدستور حينها ما ورد في مادتيه الأولى والثانية ونصهما حسب الترجمة الوارد ذكرها في كتاب الدكتور علي الوردي، وفي بحث الأستاذ سلمان هادي آل طعمة وغيرهما كما يلي:

"المادة الأولى: الدين الرسمي للدولة هو المذهب الجعفري الاثني عشري الحق من الإسلام، ويجب على الشاه أن يقرّ بهذا المذهب ويحميه".

"المادة الثانية: إن المجلس الذي تم تشكيله ببركة إمام العصر عجّل الله فرجه... لا يجوز له أبداً أن يسنّ أي قانون مناقض لشرائع الإسلام المقدسة...، ومن الواضح أن العلماء هم من يقررون ذلك. ولهذا فالواجب رسمياً في كل دورة من دورات المجلس أن تكون فيه لجنة مؤلفة من خمسة أشخاص هم من المجتهدين والفقهاء الورعين، والعارفين أيضاً لحاجات العصر ومقتضياته... وعلى المجلس أن يعتبر هؤلاء أعضاء فيه، ووظيفتهم هي أن يدرسوا جميع اللوائح التشريعية، فإذا وجدوا ما يخالف الشرائع الإسلامية المقدسة رفضوه، وأن قراراتهم في هذا الصدد واجبة التنفيذ ونهائية، وأن هذا الشرط من الدستور لا يمكن تغييره إلى حين ظهور إمام العصر عجل الله فرجه"[٢].

وفي الوقت الذي ذهب فيه الإمام الخميني إلى "أن الحركة الدستورية التي كانت موجهة ضد الدكتاتورية بدأت من النجف الأشرف وبمبادرة العلماء ومن وحي فكرهم الحر، ومن ثم ثار علماء إيران على حكامهم المستبدين وواصلوا ثورتهم حتى قضوا على الدكتاتورية"[٣]، كما ذهب أكثر من باحث آخر إلى ذلك

---

(١) اللآلئ المشروطة في وجوب المشروطة. الشيخ محمد إسماعيل المحلاتي الغروي. مجلة آفاق نجفية. العدد ٥٠. ٢٠١٨م. ص٣٢٤- ٣٢٥.

(٢) لمحات اجتماعية من تاريخ العراق الحديث. سابق: ٣/ ١١٢. والنجف والحركة الدستورية (المشروطة) سلمان هادي آل طعمة. موقع العتبة العلوية المقدسة على الإنترنت.

(٣) الخميني أقواله وأفعاله. أحمد مغنية. خطاب ألقاه في النجف الأشرف إثر اغتيال نجله السيد مصطفى عام ١٣٩٧هـ.

أيضا أذكر منهم الإيراني عبد الهادي الحائري بقوله: "ينبغي أن نتذكر أنّ حملة العلماء لإقامة نظام حكم دستوري في إيران كانت كلها تدار من العراق"[١] حيث مرجعية النجف الأشرف.

ذهب آخرون إلى أن نظرية المشروطة الدستورية انعكست من إيران على حوزة النجف الأشرف، وعلى مواقف كبار مراجعها الستة يومئذ، وهم كل من أصحاب السماحة: الشيخ محمّد طه نجف[٢]، والشيخ محمّد حسن المامقاني[٣]، والشيخ محمّد الشربياني[٤]، والحاج الميرزا حسين الميرزا خليل[٥]، والسيد محمّد

(١) التشيع والدستورية في إيران دور علماء العراق الشيعة في السياسة الإيرانية. عبد الهادي الحائري: ١٧٤.

(٢) الشيخ محمّد طه ابن الشيخ مهدي ابن الشيخ محمّد رضا نجف التبريزي، ولد في النجف الأشرف سنة ١٢٤١ هجرية، ودرس على أكابر علماء عصره من المراجع، كل من: الشيخ مرتضى الأنصاري والشيخ محسن خنفر والسيد حسين الكوهمكري وغيرهم، وكان عابداً زاهداً محققاً قال عنه تلميذه الشيخ محمّد حرز الدين: انتهت إليه الزعامة وأقر له أهل التحقيق بالإمامة، وكان إلى جانب ذلك شاعراً جيداً لا ينظم إلّا في أهل البيت عليهم السلام. له كتاب: إتقان المقال في أحوال الرجال، وغيره. توفي في النجف الأشرف سنة ١٣٢٣ هجرية، ودفن في الصحن الشريف.

(٣) الشيخ محمّد حسن المامقاني، ولد في تبريز سنة ١٢٣٨هـ، بمدينة مامقان بإيران، وأكب على دراسته الحوزوية في النجف فدرس على المراجع، كل من: السيد حسين الكوهمكري والشيخ مرتضى الأنصاري والشيخ راضي النجفي وغيرهم، وقد وُصف بكونه عالماً نحريراً خبيراً فقيهاً أصولياً خشناً في ذات الله دقيقاً في الشرعيات حريصاً على إيصال الحقوق إلى مستحقيها بأسرع وقت ممكن. عَدّه المؤرخون من أعاظم علماء الإمامية ومراجع التقليد. له من الكتب: بشرى الوصول إلى أسرار علم الأصول. توفي في النجف الأشرف سنة ١٣٢٣هـ، ودفن فيها.

(٤) الشيخ محمّد الشربياني المعروف بالفاضل الشربياني، ولد في شربيان بآذربيجان سنة ١٢٤٨هـ، وبدأ دراسة مقدماته فيها ثم سافر إلى تبريز ومنها إلى النجف الأشرف فتخرج على أكابر أساتذتها المراجع: الشيخ مرتضى الأنصاري والسيد محمّد حسن الشيرازي والسيد حسين الكوهمكري، وتخرج على يديه العديد من المجتهدين من أمثال: السيد محمّد سعيد الحبوبي والسيد رضا الهندي، وقد وصفه الشيخ محمّد حرز الدين في كتابه معارف الرجال بقوله: "أصبح عالماً فاضلاً أصولياً فقيهاً رئيس الشيعة وناصر الشريعة"، بنى مدرسة دينية عُرفت باسمه، له من الكتب: رسالة عملية بالفارسية سمّاها (وسيلة النجاة)، توفي في النجف سنة ١٣٢٢ هجرية ودفن في الصحن الحيدري الشريف.

(٥) الشيخ حاج ميرزا حسين الخليلي، ولد في النجف الأشرف سنة ١٢٣٠ هجرية، ودرس على يد أبيه وأخيه، =

كاظم اليزدي[١]، والشيخ محمّد كاظم الخراساني المعروف بالآخوند[٢]. "أما الشيخ محمّد طه نجف، والسيد كاظم، فقد اعتزلوا ولم يتدخلوا في القضية أصلاً، وأما الآخرون فصاروا يجتمعون كل يوم في دار الحاج الميرزا حسين -الخليلي- ويتذاكرون مذاكرات سرية ويكاتبون رجال الدولة في طهران، ويظهر أن نتيجة مذاكراتهم هو الموافقة على جعل الدولة مشروطة مشروعة بأن يكون في المجلس خمسة من العلماء المجتهدين من الطراز الأول... كل ذلك كان في أوائل العقد الثالث من القرن الرابع... وما مرّت أربع سنوات إلّا وقد توفي أربعة من أولئك

= تخرج على الشيخ صاحب الجواهر والشيخ مشكور الحولاوي والشيخ الأنصاري حتى كان من أفقه أقرانه، وقد عرف باعتدال السليقة، وكان على جانب عظيم من الورع والتقوى، واختص بتدريس الفقه وكان أحد أركان النهضة الإيرانية ضد الظلم. أصبح المرجع الأعلى بعد المجدد الشيرازي، أسس مدرستين كبيرتين في النجف، كما شيد طارمة في صحن الكاظميين. توفي في مسجد السهلة عن خمس وتسعين سنة ودفن في النجف الأشرف.

(١) ولد المرجع السيد محمّد كاظم اليزدي في مدينة يزد، وبعد أن أتم دراسة المقدمات في يزد وأصفهان يمم بعدها شطر النجف الأشرف فحضر على كبار أساتذة عصره كالشيخ راضي، والمجدد السيد الشيرازي، وكان متقناً للغتين العربية والفارسية، جيد النقد قوي التمييز، أقبلت عليه الزعامة بعد وفاة المجدد الشيرازي واختص بها بعد وفاة قرينه الشيخ محمّد كاظم الخراساني سنة (١٣٢٩هـ/ ١٩١١م). أصدر رسالته العملية (العروة الوثقى) فاشتهرت وأفتى بالجهاد ضد الاحتلال الإنكليزي للعراق. توفي في النجف الأشرف سنة (١٣٣٧هـ/ ١٩١٨م) ودفن في الصحن العلوي الشريف.

(٢) ولد المرجع الشيخ محمّد كاظم الخراساني في مدينة مشهد، وواصل دراسته في سبزوار وطهران. سافر إلى النجف الأشرف فأصبح بعد تخرجه على مراجعها من كبار علماء الحوزة النجفية المحققين والمدافع القوي عن نظرية المشروطة في تركيا وإيران برسائله وكتبه إلى السلاطين والحكام من جهة، وإلى العلماء يدعم موقفهم منها من جهة ثانية، عمر مجلس بحثه بمئات الطلاب، وكان حسن البيان، قوي الحجة. تلمذ على المرجعين الشيخ مرتضى الأنصاري والشيخ راضي. تميزت مدرسته الأصولية بالإيجاز والتهذيب كما في كتابه (الكفاية)، كان في مقدمة الداعين بحزم إلى الجهاد ضد الغزاة لإيران وليبيا، ومن الداعين بحزم لجمع كلمة المسلمين. عزم على السفر إلى إيران للمشاركة في الجهاد بنفسه ومن معه ضد الاحتلال الروسي لبعض مدن إيران، إلّا أنه توفي فجأة ببيته عشية ذهابه لمعسكره لأسباب مختلف عليها، فهناك من يذهب إلى أنّ وفاته كانت مُدبّرة من الأجانب المحتلين وهناك من يقول إنها طبيعية. وكانت وفاته سنة (١٣٢٩هـ/ ١٩١١م)، ودفن في النجف الأشرف.

العلماء، ولم يبقَ سوى الأستاذين الكاظمين"[١]، أي السيد محمد كاظم اليزدي والشيخ محمد كاظم الخراساني.

ويمكن الجمع بين الرأيين المتقدمين بالقول: إن البذرة الأولى للحركة الدستورية بذرت في طهران، ونمت وكبرت وأزهرت وأُصّل لها في النجف الأشرف، ولعل ما أورده السيد هبة الدين الشهرستاني[٢] أحد كبار دُعاة الحركة الدستورية ومعاصريها ما يدل على ذلك.

يقول السيد الشهرستاني: نظراً "لأهمية مركز النجف في العالم الإسلامي، فقد أخذت الفكرة أولاً من طهران وتبنتها وصارت طهران أخيراً صدى إلى النجف"[٣].

ثم كان أن تلقّى مراجع النجف الأشرف رسالة موقعة من قسم من كبار علماء طهران في رجب من عام (١٣٢٤هـ/ ١٩٠٦م)، يطلبون فيها دعم حركتهم الدستورية بمجلسها النيابي وقوانينه، جاء فيها: "إنّ هذا المجلس الذي يعمل على حفظ القوانين المستمدة من الطريقة الاثني عشرية المقدسة لمحو الظالمين والخائنين ونشر العدل.. نحن ننتظر فتواكم في بيان تكليف المسلمين في هذا الشأن". فبادر كبار علماء النجف الأشرف بإجابتهم إلى طلبهم حيث كتب إليهم المرجع سماحة الشيخ ملّا كاظم الخراساني رسالة داعمة لطلبهم، جاء فيها: "إنّ قوانين المجلس المذكور

---

(١) عقود حياتي. الشيخ محمّد الحسين آل كاشف الغطاء: ٨٤-٨٥.

(٢) السيد محمّد علي هبة الدين الشهرستاني، أحد العلماء الكبار الداعين إلى الأخذ بالعلوم العصرية، وأحد رواد الحركة الدستورية، ومن تلامذة المرجع الشيخ محمّد كاظم الخراساني، وأحد خواص المرجع الميرزا محمّد تقي الشيرازي خلال قيادته لثورة العشرين، وأحد كبار المجاهدين فيها، اعتقله الإنكليز تسعة أشهر بعد الثورة وأطلق سراحه لاحقاً. استوزر للمعارف فرئاسة محكمة التمييز الجعفرية خلال العهد الملكي. وقد كان سافر إلى مصر وسوريا والهند للتعريف بالشيعة الإمامية والتقريب بين المذاهب، توفي ودفن في العتبة الكاظمية المقدسة سنة (١٣٨٦هـ/ ١٩٦٧م).

(٣) من مذكرات العلامة السيد هبة الدين الحسيني الشهرستاني عن المشروطة والاستبداد. منشور ضمن ملاحق كتاب السيد محمّد كاظم اليزدي. كامل سلمان الجبوري: ٧١٦-٧٢٣.

على الشكل الذي ذكرتموه هي قوانين مقدسة ومحترمة وهي فرض على جميع المسلمين أن يقبلوا هذه القوانين وينفذوها. وعليه نكرر قولنا: إنّ الإقدام على مقاومة المجلس العالي بمنزلة الإقدام على مقاومة أحكام الدين الحنيف فواجب المسلمين أن يقفوا دون أي حركة ضد المجلس"[١]. وقد وقّعها سماحته نيابة عن عشرة من المراجع والمجتهدين المبرزين في النجف الأشرف عدا سماحة المرجع السيد محمّد كاظم اليزدي. وهم أصحاب السماحة كل من: الشيخ محمّد تقي الشيرازي[٢]، والشيخ عبد الله المازندراني[٣]، والشيخ ميرزا حسين الخليلي، وشيخ الشريعة الأصبهاني[٤]،

(١) التطور الفكري في العراق. محمّد علي كمال الدين: ٢٣ و٢٤ على التوالي.

(٢) الشيخ محمّد تقي ابن الميرزا محب علي الشيرازي. ولد في شيراز وهاجر إلى العراق شابّاً فأقام بكربلاء لدراسته ثم هاجر إلى سامراء ليتتلمذ على المجدد الشيرازي في دراسته الحوزوية وفي الزعامة والرئاسة، ولمّا توفي أستاذه المجدد الشيرازي كان هو أحد المرشحين للزعامة إلى جانب السيد إسماعيل الصدر والسيد محمّد الأصفهاني. بقي في سامراء معنيّاً بأمور الحوزة العلمية وأستاذاً من أهم أساتذتها فاتجهت إليه الأنظار، ثم هاجر إلى كربلاء وأقام بها مرجعاً فأوقد شرارة الثورة ضد الإنكليز سنة (١٩٢٠م) وأدار شؤونها كافة حتى وفاته سنة (١٣٣٨هـ/ ١٩٢٠م)، وسيأتي الحديث مفصلاً عنه في ثنايا الكتاب.

(٣) أحد مراجع النجف، ولد في مازندران وهاجر إلى كربلاء والنجف، تخرج على المرجعين الشيخ حبيب الله الرشتي والشيخ مهدي كاشف الغطاء، وتصدى للقضاء أياماً ثم تركه، وكان فقيهاً أصوليّاً بارعاً، توفي ودفن في الصحن العلوي الشريف سنة (١٣٣٠هـ/ ١٩١٢م) وقيل سنة (١٣٣١هـ/ ١٩١٢م) وهو الأشهر.

(٤) ولد سماحة المرجع الشيخ فتح الله ابن الشيخ محمّد جواد النمازي الشيرازي المشهور بشيخ الشريعة الأصبهاني في مدينة أصفهان بإيران سنة (١٢٦٦هـ/ ١٨٤٩م) فدرس المقدمات والسطوح في أصفهان وخراسان، ثم توجه بعدها إلى النجف الأشرف وهو مُجازٌ فأصبح من علماء النجف ومدرسيها. تتلمذ على المراجع: الميرزا حبيب الله الرشتي، والشيخ محمّد حسين الكاظمي وغيرهما، وقد اشتهر ﷺ بتبحُّره في علمي الحديث والرجال حتى وصفه المحقق الشيخ أغا بزرك الطهراني بأنه أطول الباحثين باعاً في علم الحديث والرجال بعد العلامة النوري صاحب المستدرك. كان فقيهاً أصوليّاً رجاليّاً بارعاً إضافة إلى إلمامه بالعلوم العقلية والرياضيات، وكان له إلمام واسع بالمعارف، وذا ثقافة موسوعية في العلوم البعيدة ظاهراً عن مجال تخصصه العلمي إضافة -طبعاً- لتضلُّعه في مجال اختصاصه الدقيق، حيث ألّف فيه العديد من الكتب وبخاصة في الفقه والعقائد، ومن مؤلفاته: كتاب إفاضة القدير وإنارة الحالك، ورسالة في القضاء، وغيرها. تخرج عليه جملة من المراجع، منهم: السيد عبد الهادي الشيرازي، والشيخ محمّد حسن المظفر. عُرف ﷺ بمواقفه الإصلاحية والجهادية؛ فقد تبنى مشروع الجهاد ضد المحتلين الأجانب في ليبيا وإيران، =

والشيخ محمّد حسين النائيني[١]، والسيد مصطفى الكاشاني[٢]، والسيد علي الداماد[٣]،

= وشارك بقلمه في ذلك كما شارك بدمه في الجهاد، فقد خرج سماحته مرّتين للجهاد رغم كبر سنة: أُولاهما في (١٩١٤م) وكان في جبهة القرنة وقد أُصيب فيها إصابة جسدية مؤلِمة، ثم حين انكسر جيش المجاهدين رجع إلى النجف. وخرج ثانية بعد تقدُّم الإنكليز عسكريّاً خوفاً من احتلالهم لبغداد سنة (١٩١٥م). ونزل الكاظمية مع جمع من كبار العلماء النجفيين استعداداً للجهاد، غير أنّ الانكليز مُنوا بهزيمة ساحقة في الكوت، فرجع سماحته مع العلماء إلى النجف لانتفاء الحاجة من بقائهم. ثمّ أفتى بالجهاد في ثورة العشرين فجاهد المستعمر المتسلّط بلسانه ويده قبل قلبه، وتولّى المرجعية العليا وزعامة الثورة بعد وفاة المرجع العام الميرزا محمّد تقي الشيرازيّ سنة (١٣٣٨هـ/ ١٩٢٠م) فأحسن قيادتها. أُصيب بمرض لم يمهله طويلاً فلبّى نداء ربّه في سنة (١٣٣٩هـ/ ١٩٢٠م) وابنه معتقل عند الإنكليز، ودُفن في الصحن الحيدري الشريف بعد عمر طويل وجهاد شاقّ.

(١) المحقق الشيخ محمّد حسين النائيني المرجع المجدد وأحد رواد المدرسة الحديثة في أصول الفقه، تلميذ المجدد الشيرازي في سامراء وأستاذ المراجع الكبار من أمثال السيد محسن الحكيم والسيد الخوئي ومن في طبقتهم العلمية كالشيخ حسين الحلي، والساعد الأيمن لزعيم الحركة الدستورية المرجع الشيخ محمّد كاظم الخراساني، ومؤلف أهم كتب حركة المشروطة التنظيرية كتاب (تنبيه الأمة وتنزيه الملة)، يُعدّ بحق أحد كبار مفكري ثورة العشرين والمعارض هو والمرجع السيد الأصفهاني لتولي الملك فيصل عرش العراق، سفّرته والسيد الأصفهاني حكومة الاحتلال والانتداب إلى إيران لمعارضته إجراء الانتخابات بعد أن أصدرا فتوى بحرمة الاشتراك فيها فتعطلت. توفي في النجف الأشرف سنة (١٣٥٥هـ/ ١٩٣٦م).

(٢) ولد السيد مصطفى الكاشاني في كاشان حدود سنة ١٢٦٦ هجرية، فقرأ فيها المقدمات على يد والده، ثم هاجر إلى أصفهان لطلب العلم، ثم إلى طهران، ثم قصد النجف فأكمل فيها دراسته حتى استقل بالتدريس، تلمذ على علماء الطبقة الأولى في النجف، وكانت داره في النجف حافلة بالعلماء والأدباء، نظم الشعر العربي والفارسي فأبدع فيهما، شارك في الجهاد ضد الإنكليز سنة (١٣٣٣هـ) وأبلى بلاء حسناً في جبهتي القرنة والعمارة، يُعدّ من علماء بل فقهاء الكاظمية ومحققيها وإمام جمعتها وزعيمها المطاع. له من الكتب: حاشية على المكاسب، وكتاب في الاستصحاب. توفي في الكاظمية سنة (١٣٣٦هـ) ودفن في الصحن الكاظمي الشريف.

(٣) ولد السيد علي الداماد في تبريز سنة ١٢٧٥ هجرية، ودرس المقدمات فيها، ثم هاجر لإكمال دراسته في النجف على يد كل من المراجع: السيد حسين الترك، والشيخ حبيب الله الرشتي، والشيخ محمّد حسن المامقاني. استقل بالتدريس وعرف بغزارة علمه فتصدى للمرجعية وطبع رسالته العملية. شارك في حرب الجهاد ضد الإنكليز عند احتلالهم للعراق فأبلى فيها بلاء حسناً. له من الكتب: تقريرات الأصول بثلاثة أجزاء، ومصباح الظلام في شرح شرائع الإسلام بستة مجلدات. توفي في النجف سنة ١٣٣٦ هجرية ودفن في إيوان العلماء في الصحن العلوي الشريف.

والشيخ عبد الهادي شليلة[١]، والشيخ محمّد حسين القمشئي[٢]، والسيد مصطفى النقشواني[٣]، ويمكن التعرف على تبنيهم لحركة المشروطة إضافة لما تقدم في المصادر أدناه[٤].

يقول السيد الشهرستاني متحدثاً عن فكرة المشروطة: لقد "دارت الفكرة حول محورها الذي أصبح علماً للجميع وأباً للحرية الديمقراطية وهو أستاذي الجليل الشيخ الخراساني... وأصبحت النجف الأشرف في هذا العهد مركزاً سياسياً مهماً وشبحاً مخيفاً بين عواصم الأمم الإسلامية، مما دعا أن يستنجد بها أحرار تركيا عندما أحسوا بأن السلطان عبد الحميد سيفتك بهم ويغتالهم، فطلبوا من أحرار النجف وزعيمهم الإمام الخراساني أن يبرقوا إلى عبد الحميد"[٥] برقية عسى أن تدفع عنهم عادية البلاء. لقد جاء في برقية أحرار تركيا إلى علماء النجف الأشرف ما يلي: "أدركنا بل أدركوا الإسلام فقد أوشكنا على الفناء".

فما كان من المرجع الشيخ الخراساني إلّا أن بادر بإرسال برقية تهديد إلى السلطان

---

(١) ولد سماحته في النجف الأشرف ودرس على أكابر علمائها وفضلائها واستمر في دراسته حتى أصبح علماً محققّاً فقيهاً أصوليّاً متكلماً وشاعراً. له عشرون مؤلفاً، منها: مشكاة الشيعة في أحكام الشريعة. توفي سنة (١٣٣٣هـ/ ١٩١٤م) في طهران ونقل جثمانه إلى النجف لاحقاً.

(٢) تلمذ سماحته في النجف على يد العلماء الأعلام: الشيخ حسين قلي الهمداني، والشيخ القمشئي الكبير، والشيخ محمّد كاظم الخراساني، والشيخ حسين الخليلي، حتى بات من كبار العلماء المجتهدين المجاهدين. عرف بالتقوى والورع. شارك في معركة الشعيبة ضد الإنكليز فأبلى بلاء حسناً. توفي في النجف الأشرف في الثاني من محرم سنة ١٣٣٧ هجرية ودفن في الصحن الشريف قرب مقبرة شيخ الشريعة الأصبهاني.

(٣) ولد سماحته في نقشوان أو نخجوان سنة ١٢٥٧ هجرية فدرس المقدمات فيها، ثم هاجر إلى النجف الأشرف ليدرس على أفاضل مراجعها من أمثال: الآخوند الخراساني والميرزا حسين الخليلي والشيخ محمّد حسن المامقاني الذي كان يثق به ثقة كبيرة. عرف بالاجتهاد والصلاح والورع. توفي سنة (١٣٣٧هـ) ودفن في الصحن العلوي الشريف.

(٤) ينظر في تبني هؤلاء للحركة الدستورية: ثورة النجف. حسن الأسدي: ٧٠. والثورة العراقية الكبرى سنة ١٩٢٠. سابق: ٩٥ نقلاً عن: التطور الفكري في العراق. محمّد علي كمال الدين: ٢٤. وغيرها.

(٥) من مذكرات العلامة السيد هبة الدين الحسيني الشهرستاني عن المشروطة والاستبداد. منشور ضمن ملاحق كتاب السيد محمّد كاظم اليزدي. كامل سلمان الجبوري: ٧١٦-٧٢٣.

عبد الحميد "قال فيها: ينبغي عليك أن تتلافى ما صدر عنك من مخالفة للقرآن الكريم... وإلّا سنسقطك عن عرش خلافتك كما فعلنا بملك إيران"(١). وورد نص البرقية بلسان آخر يدور مدار هذه المضامين أيضاً(٢).

والملفت للنظر أن سماحة المرجع الخراساني لم يلتفت إلى القلق الكبير المحتمل لمن سيسمعون بمضمون البرقية المزلزل، ولمن سمعوا بها بعد صدورها، فقصدوا سماحته وتحلقوا حوله شاحبي الوجوه، خائفين مذعورين، من ردة فعل السلطان عبد الحميد عليها، خاصة وإن العراق كان تابعاً للدولة العثمانية، فطمأنهم مرجعهم وهدّأ من روعهم، وما هي إلّا برهة حتى تبين لهم ولغيرهم صدق تحليله لوضع السلطان وصواب موقفه منه.

يقول آيرلاند: "إنّ الموجة الديمقراطية التي انتشرت في الشرق أوائل القرن العشرين والتي أثمرت أولاً في إيران ثم في تركيا.. كانت النجف فيها مركز العاصفة السياسية الأثير، وقد كان الدستوريون يعلمون حق العلم بأنّهم لا يستطيعون النجاح في مساعيهم ما لم يناصرهم مجتهدو النجف. وقد انتعشوا فعلاً عندما ناصرهم المجتهد الأكبر الآخوند الخراساني. ومنذ ذلك التاريخ أصبحت النجف مصدر النور لعدد من الأحزاب الإسلامية في إيران... وعلى كل فالجانب الديني للنجف وللمجتهدين كان يلعب دوره في بغداد وطهران"(٣).

وهو ما ذهب إليه أيضاً الشيخ علي الشرقي بقوله: "كانت الفتوى الصادرة من النجف تُقيم وتُقعِد في هاتين العاصمتين، وكان الشعبيون من الساسة يستمدون العون من فقهاء النجف، ولشَدَّ ما انتفضت وناضلت هذه المدينة المقدسة في تأييد

(١) النجف الأشرف في مذكرات السيد محمّد حسن القوجاني. القسم الثاني. مجلة آفاق نجفية. العدد ١٥ لسنة ١٤٢٠/ ٢٠٠٩م: ٣٠٦-٣٠٧. على التوالي.

(٢) ينظر: النجف في ربع قرن. محمّد علي كمال الدين: ١٣٤.

(٣) ثورة النجف على الإنكليز. حسن الأسدي: ٣٧٤ نقلاً عن: تطور العراق السياسي. آيرلند: ١٩٠.

النظام الدستوري وهزيمة الحكم الفردي"[١]، فبعثت "وأنتجت وعياً عاماً في العراق"[٢] كله.

لقد أورد السيد هبة الدين الشهرستاني في مذكراته أسماء أكثر من ثلاثين عضواً من ناشطي الحركة الدستورية في النجف الأشرف قائلاً: "كنا نجتمع معهم بتدبير الأعمال ورسم الخطط بصورة سرية في سراديب النجف خشية العوام"[٣].

بل إن العلامة الشيخ موسى العصامي المعاصر للحركة الدستورية أيضاً أورد في مذكراته قوله: "فأما الآخوند -أعلى الله مقامه- فقد شايعه على رأيه من العرب والترك والأعم الأغلب من طلاب العلوم الدينية حتى الإيرانية وعامة تلامذته"[٤]. ثم أورد قائمة طويلة بأسماء المجتهدين وكبار العلماء ممن رأيهم (الدستورية) أيضاً منهم على سبيل المثال كل من: الشيخ مهدي المازندراني، والسيد أبو الحسن الأصفهاني، والشيخ محمد حسين النائيني، وشيخ الشريعة الأصبهاني، والشيخ باقر القاموسي، والميرزا محسن السلماسي، والشيخ عبد الهادي البغدادي، والشيخ حسن علي القطيفي، والسيد باقر الهندي، والسيد رضا الهندي، والسيد هاشم الهندي، والسيد إسماعيل الصدر وولده الثلاثة، والسيد محمد الخلخالي، والسيد حسين البغدادي، وغيرهم ممن لم أذكرهم فيمن ذكر، أو لم يذكرهم هو فيمن ذكر، من قبيل المجتهد الشيخ أغا بزرك الطهراني مثلاً[٥].

وإذ صدر الدستور العثماني تحولت الحركة الدستورية في النجف الأشرف إلى حركة "علنية صارخة تتواصل بها المظاهرات فتعطل الأسواق والحلقات التدريسية، كما تنظم الاجتماعات العامة في جوامع النجف ومدارسها الدينية فتلقى الخطب

(١) الأيام. الشيخ علي الشرقي. سابق: ٢١٢.

(٢) الثورة العراقية الكبرى سنة ١٩٢٠. سابق: ٩٩. نقلاً عن التطور الفكري في العراق. محمّد علي كمال الدين: ٢٧.

(٣) من مذكرات العلامة السيد هبة الدين الحسيني الشهرستاني عن المشروطة والاستبداد. سابق: ٧٢١-٧٢٣.

(٤) مذكرات العلامة الشيخ موسى العصامي. آفاق نجفية. العدد ٢٣ لسنة ٢٠١١. ص ١٧٣-١٧٥.

(٥) تنظر: مقدمة كتاب (هدية الرازي إلى المجدد الشيرازي) لسماحة الشيخ أغا بزرك الطهراني: ٥١.

باللغات العربية والفارسية، ومن أعمالهم ومجازفاتهم في تلك الظروف الخطرة إرسال الفتاوى برقياً بتواقيعهم إلى السلطان عبد الحميد وإلى محمّد علي شاه بوجوب التخلي عن عروشهم ونشرت صور تلك البرقيات في جريدة (حبل المتين) التي يصدرها أحد النجفيين في (كلكتا) باللغة الفارسية حينذاك"[١]، تلك الجريدة التي كانت ناطقة باسم الأحرار الدستوريين، فتزيد بمقالاتها ونشرياتها وعي قرائها من النجفيين الناطقين بالفارسية وعياً، وتبعث فيهم هي ومثيلاتها روح التجديد والتحديث فيهم، نظراً لما لها من تأثير كبير في صناعة الرأي العام عند مقتنيها.

وبشكل عام فقد كانت تصل مدينة النجف الأشرف تلك الآونة وتفعل فعلها التغييري في أذهان قرائها عشرات الصحف والمجلات التي قُدّرت سنة (١٩١١م) بما يتراوح عدده بين خمسين إلى مائة جريدة ومجلة كل أسبوع وتوزع على المكتبات فيها[٢].

وتأتي مجلة (العرفان) اللبنانية العربية اللغة في مقدمة هذه المجلات والصحف من حيث التأثير في صناعة الرأي العام النجفي والعراقي، ثم تأتي تبعاً لها الدوريات الأخريات وفي مقدمتها (مجلة العلم) النجفية "التي كانت أعدادها كالشواظ تلهب النفوس.. وكان صداها في العالم الإسلامي والعربي يردد بقوة"[٣]، وخاصة في النجف الأشرف. ويتنوع مدى تأثير غيرهما قوة وضعفاً حسب موضوعاتها ولغتها وإثنية مقتنيها فـ(حبل المتين) الفارسية اللغة يعكف على تداولها الإيرانيون أكثر من العرب بحوالي الضعف. أما بقية الصحف والمجلات الأخرى وهي كثيرة فمنها: "جريدة (الرقيب) البغدادية من أكثر جرائد ذلك العصر رزانة ونزاهة وأكثرها

(١) تاريخ النجف الأشرف. الشيخ محمّد حسين حرز الدين: ٣/ ١٠٢، وتنظر: مقدمة كتاب ثورة العشرين في ذكراها الخمسين. معلومات ومشاهدات للسيد محمّد علي كمال الدين. بقلم: علي الخاقاني: ٤.

(٢) ينظر كتاب: شيعة العراق. إسحاق نقاش: ١٠٢.

(٣) شعراء الغري. علي الخاقاني: ١٠/ ٦٨. وينظر: الثورة العراقية الكبرى سنة ١٩٢٠. سابق: ٦٠.

صراحة في نقد الحكومة"[١]، ومنها (الزوراء)، و(الإقبال)، و(البلاغ)، و(الحارس)، و(البرق)، و(الأهرام)، و(الاتحاد)، و(المؤيد)، و(اللواء)، و(المقطم)، و(الهلال)، و(المقتطف)، و(المقتبس) ومثيلاتها[٢]. وقد تنوعت دول صدورها بين عراقية، ومصرية، وسورية، ولبنانية، وتركية، وهندية، وإيرانية، وغيرها.

كل هذه الدوريات كان لها من التأثير في الرأي العام النجفي وغيره ما بدا واضحاً في مُتبنّياتهم الفكرية وفي مقدمتهم رجالات الحوزة العلمية.

***

٣. كتاب (تنبيه الأمة وتنزيه الملة) للشيخ محمد حسين النائيني

لقد خلّفت لنا الحركة الدستورية في النجف الأشرف كتاباً عدّ أول كتاب تنظيري في الفقه السياسي الإمامي هو كتاب (تنبيه الأمة وتنزيه الملة) للشيخ محمّد حسين النائيني الذي بدأ بتدوينه "في شهري (آذار ونيسان ١٩٠٩م/ ربيع الأول ١٣٢٧ هجرية) أي حوالي العشرة أشهر بعد الإلغاء المؤقت للدستور وحلّ المجلس (٢٣ حزيران ١٩٠٨م/ ٢٣ جمادى الأولى ١٣٢٦ هجرية)، وأربعة أشهر قبل فتح طهران وعودة الدستور (١٥ تموز ١٩٠٩م/ ٢٦ جمادى الأولى ١٣٢٧ هجرية)"[٣].

وطبع الكتاب طبعة أولى في بغداد سنة (١٣٢٧هـ/ ١٩٠٩م) يتصدّرها تقريظ مهم لسماحتي المرجعين الشيخ محمّد كاظم الخراساني والشيخ عبد الله المازندراني، حاملاً مؤلفه على عاتقه -بمعونة مدرسة ونهج أستاذه سماحة المرجع الأعلى المجدد السيد محمد حسن الشيرازي المعروف بالمجدد الشيرازي- التأسيس والتنظير لإقامة حكومة دستورية مقيدة بمجلس نيابي منتخب في انتخابات حرة مباشرة من قبل الشعب برجاله ونسائه وقومياته وأديانه ومذاهبه، على أن لا يصدر المجلس ما يخالف أحكام الإسلام بنظر لجنة من المجتهدين المعدّين لهذا الغرض.

---

(١) الثورة العراقية الكبرى سنة ١٩٢٠. سابق: ٦٣.

(٢) ينظر: النجف في ربع قرن. محمّد علي كمال الدين: ٧٨.

(٣) محمد حسين النائيني وتأسيس الفقه السياسي. بقلم: عبد الهادي الحائري وآخرين: ١٠٤.

وأقول: إنّ سماحة الشيخ النائيني تأثر بالأسس الفكرية لمدرسة أستاذه المرجع سماحة السيد محمد حسن الشيرازي المعروف بالمجدد الشيرازي في الأمور الشرعية/ السياسية، مستنداً في ذلك على قول المرجع المعاصر سماحة الشيخ حسين الوحيد الخراساني التالي: "كان الميرزا الشيرازي قدس سره من كبار علماء التشيع، بل هو من الفحول، ومن أبرز تلامذته الآخوند الخراساني قدس سره الذي حضر عنده أربع سنوات ليصبح إثر ذلك الآخوند المعروف، ولا يخفى أن الأسس الفكرية للميرزا النائيني قدس سره هي ذات الأسس الفكرية للميرزا الشيرازي قدس سره"(١)، ولعل ما يدعم ذلك ما نقل عن سماحة الشيخ جعفر النائيني حفيد المرجع الشيخ محمد حسين النائيني، من أن جده المرجع الشيخ النائيني "كان يحضر المجالس التي يعقدها السيد -المجدد الميرزا محمد حسن- الشيرازي الخاصة بهذه الانتفاضة"(٢)، ثم أصبح كاتب المرجع الأعلى المجدد الشيرازي الخاص أو سكرتيره في أواخر أيامه. يقول الباحث الإيراني عبد الهادي الحائري "وفي سامراء كانت علاقة النائيني بالشيرازي علاقة تلميذ بأستاذه. وفي الأيام الأخيرة من إقامته أصبح سكرتير الشيرازي، ولا من بد أنّ النائيني كان لهذا السبب مشاركاً في حملة التبغ التي انتهت بالفتوى الشهيرة التي أصدرها الشيرازي ضد الامتياز"(٣).

---

(١) مصباح الهدى وسفينة النجاة. المرجع الشيخ حسين الوحيد الخراساني: ٢٩٢.

(٢) الميرزا محمد حسين النائيني في حوزة سامراء. أمجد سعد شلال المحاويلي. موقع الاجتهاد الإلكتروني. نقلاً عن روش شناسي علي ميرزا نائيني در عرصه سياست (سيري در آراء) (مقال) نوري محمد ص٥١٠ (فارسي) نقلاً عن مقابلة شخصية مع حفيد المرجع النائيني في ٨ شباط من عام ٢٠٠٦م. ويذهب الباحث المحاويلي إلى أنه خلال "إقامة الميرزا النائيني في مدينة سامراء لم ينقطع عن مواكبة وتتبع تطورات الأحداث السياسية في إيران، منها: انتفاضة التنباك في عام (١٣٠٨هـ-١٨٩٠م)... ولا يمكن استبعاد كتابة الرسائل والبرقيات من قبل السيد الشيرازي إلى ناصر الدين شاه بخط الميرزا النائيني باعتبار أن السيد الشيرازي كان يعتمد عليه أولاً، ولأنه كان يجيد آداب اللغة الفارسية بحذافيرها ثانياً"، ويضيف في خاتمة بحثه: لقد "أسهمت حوزة سامراء المقدسة إسهاماً فاعلاً في تكوين ملامح شخصية الميرزا النائيني (العلمية المعرفية) و(الجهادية السياسية) المشغوفة بألوان الثقافة والمعرفة، ولا سيما في مسيرته العلمية وآثاره وآرائه الفكرية ومواقفه السياسية".

(٣) التشيع والدستورية في إيران دور علماء العراق الشيعة في السياسة الإيرانية. سابق: ١٥٩.

كما يؤيد التأثر الكبير لسماحة المرجع النائيني بأستاذه سماحة المرجع المجدد الشيرازي؛ أنه أوصى في أواخر كتابه (تنبيه الأمّة وتنزيه الملّة) بـ"أن يتّبع جميع المراجع في الأمور الشرعية والسياسية نهج سيدنا وأستاذنا آية الله العظمى الميرزا الشيرازي (ره) في مواظبته على النهل من ينبوعه -نهج البلاغة- ولا يتركوا هذه السنة الحسنة، يلتزم بها كلٌّ حسب مرجعيته ولا يهملوا هذه التعاليم القيمة"(١).

لقد تصدّر كتاب (تنبيه الأمة وتنزيه الملّة) تقريض للمرجع الشيخ محمّد كاظم الخراساني المعروف بالآخوند، جاء فيه: "إن رسالة تنبيه الأمة وتنزيه الملة... أجل من كل مدح، وسيتضح من خلال مدارستها واستيعابها أن أصول حركة المشروطة قد استنبطت من الشريعة الحقة"(٢).

ما يؤكد وحدة رأييهما فيها، بل أشار أحد الباحثين إلى تأثر الشيخ النائيني في كتابه (تنبيه الأمة وتنزيه الملة) بآراء زعيم الحركة الدستورية الشيخ محمّد كاظم الخراساني، بقوله: "عند مطالعة رسائل وبيانات وفتاوى الآخوند الخراساني في المشروطة، نجد تلميذه في (تنبيه الأمة) يستند إلى آرائه وفتاواه ويستدل عليها، ويفرّع الجزئيات على الكليات، والصغريات على الكبريات، والفروع على الأصول، والتطبيقات على القواعد"(٣)، غير أنّ هذا الأمر كي يتم يحتاج إلى دراسة وأدلة تؤكد دقته.

هذا، وقد "استند الإمام الخميني في حديثه المعروف حول الدولة الإسلامية وولاية الفقيه الذي ألقاه في العام (١٩٧٠م) في النجف الأشرف إلى استدلال النائيني القائل بأن: (جميع المناصب والشؤون الاعتبارية التي للإمام ثابتة للفقيه أيضاً)"(٤).

---

(١) تنبيه الأمة وتنزيه الملّة. ترجمة مشتاق الحلو: ١٥٢.

(٢) المصدر السابق: ٧٣.

(٣) تنبيه الأمّة وتنزيه الملّة. الشيخ محمّد حسين النائيني. ترجمة د. مشتاق الحلو. تقديم الكتاب. د. عبد الجبار الرفاعي: ٣٦.

(٤) محمد حسين النائيني وتأسيس الفقه السياسي. سابق: ١٠٩.

٤. التصدي للمحتل الأجنبي

إن الحركة الدستورية لم تقتصر على تقديم حل "للمسألة الداخلية التي كانت تعانيها إيران جرّاء القمع الجائر والاستبداد، وإنما أيضاً لمسألة درء الخطر الأجنبي الذي يتهدّدها بالتقسيم، فمشاركة الأمة في السياسة تستنفر قواها للجهاد ضد الاعتداءات التي تتربص بها آنذاك من طرف روسيا وبريطانيا. ولذا فإنه -الشيخ النائيني- أثبت في كتابه (تنبيه الأمة وتنزيه الملة) قوله: (إن تحويل السلطنة الغاصبة من نحوها الظالم الأول إلى نحوها العادل الثاني علاوة على سائر المذكورات موجب لحفظ بيضة الإسلام، وصيانة حوزة المسلمين من استيلاء الكفرة الجائرين)"[1]، ففي أوج اليقظة الفكرية والسياسية التي أنتجتها الحركة الدستورية في الحوزة العلمية في النجف الأشرف، ونظراً لأن المسلمين لا يجيزون تسليط المستعمر الأجنبي عليهم، فقد عقد جمع من دعاة المشروطة في النجف الأشرف اجتماعاً في مدرسة الشيخ الآخوند الخراساني إحدى مدارس النجف الأشرف الدينية الكبرى، وصعد خطيبهم فندب الناس للجهاد ضد روسيا بعد احتلالها لمدينة تبريز وآذربيجان الإيرانيتين سنة (١٣٢٨هـ/ ١٩١٠م).

ثم في سنة (١٣٢٩هـ/ ١٩١١م) كان في طليعة من أفتى من مراجع النجف الأشرف ومجتهديها بوجوب الدفاع عن إيران وليبيا بعد أن هجمت روسيا على إيران واحتلت إيطاليا ليبيا هم في غالبيتهم من قادة الحركة الدستورية، من قبيل: المرجع الكبير الشيخ محمد حسين الخليلي، والمرجع الشيخ محمد كاظم الخراساني، والمرجع شيخ الشريعة الأصبهاني، والمرجع الشيخ عبد الله المازندراني، والسيد إسماعيل بن صدر الدين، وغيرهم، وقد نقل حفيد سماحة السيد أبو الحسن الأصفهاني أن جده السيد الأصفهاني تحدث في مجلس أستاذه الآخوند الخراساني بحضوره قبل أن يصدر المرجع الآخوند فتواه بالجهاد ضد الإيطاليين الذين

(١) الفقيه والسلطان. جدلية الدين والسياسة في تجربتين تاريخيتين العثمانية والصفوية-القاجارية. سابق: ٢٠٤.

احتلوا طرابلس الغرب، وضد الروس الذي وصل زحفهم إلى خراسان، قائلاً: "إن الحوزة العلمية في النجف بصفتها عاصمة الشيعة الدينية يهمها أمر طرابلس المسلم السني كما يهمها أمر إيران المسلم الشيعي، ورسول الله ﷺ يقول: المسلم للمسلم كالبنيان المرصوص يشدّ بعضه بعضاً. ولا فرق بين إخواننا في طرابلس وإخواننا في إيران وإخواننا في كل بلد إسلامي، كما أنه لا فرق بين إنكلترا الظالمة وإيطاليا المعتدية، فكلاهما دولتان أجنبيتان... غير أن هذه تجد مطامعها الاستعمارية في الشرق الإسلامي، وتلك نجدها في الغرب الإسلامي، والدفاع عن مصالح الإسلام وكيانه وعزّه واجب في كل مكان"[١].

وقد استحسن سماحة المرجع الخراساني وحُضّار المجلس أيضاً هذا الرأي، فأصدر سماحته فتواه بالجهاد الدفاعي ضد روسيا وإيطاليا.

لقد عبّأ المرجع الشيخ محمّد كاظم الخراساني المعروف بالآخوند جمعاً غفيراً من المؤمنين للجهاد ضد روسيا بعد احتلالها لأراضٍ إيرانية، يتقدمهم "جميع العلماء[٢] الذين أصبحوا يداً واحدة لأجل التحرك للجهاد. أما رؤساء العشائر فقد بايعوا الآخوند وتعهد كل واحد منهم أن يحضر معه عدة آلاف من الرجال المسلحين، وقد وصل عدد أولئك الرجال المتعهدين بالحركة مائتي ألف شخص"[٣].

وبناء على ذلك فقد أعدّ سماحته العدّة ونصب الخيم خارج سور النجف الأشرف وجمع الأموال والأجهزة الضرورية للسفر، بل إن سماحته جهّز نفسه ليكون على رأس المجاهدين للتحرير ولتصحيح المسار المنحرف لتطبيق الحركة

(١) الزعيم الموهوب. موسى الموسوي. ضمن كتاب السيد أبو الحسن الأصفهاني. د. كامل سلمان الجبوري: ٣/ ٤٨١.

(٢) في كلمة "جميع العلماء" تسامُح، فلم يتحرك للجهاد بعض العلماء وفي مقدمتهم سماحة المرجع السيد محمد كاظم اليزدي.

(٣) مذكرات السيد محمّد حسن القوجاني. القسم الثاني. مجلة آفاق نجفية. العدد ١٥ لسنة ١٤٣٠هـ/ ٢٠٠٩م: ٣٠٧-٣٠٨.

الدستورية، ففاجأه الموت "بوجه مريب"[١] ليلة الثلاثاء العشرين من ذي الحجة (١٣٢٩هـ/ ١٩١١م) ليلة سفره للجهاد، بل ذهب تلميذه السيد هبة الدين الشهرستاني في نعي أستاذه الخراساني إلى أنه توفي "بكيد الأعداء ليمنعوه عن هجرته إلى إيران مع الطلبة والأهالي لدفاع الروس عنها فبتنا أيتاماً ليلتنا"[٢]. وهو أمر محتمل جداً خاصة مع وجود تقارير من سفارة أجنبية في بغداد نوهّت بذلك كما ذكر الباحث عبد الهادي الحائري بقوله: إن "تقارير الموظفين الإنكليز في بغداد تشير إلى أن جهات مختلفة كانت متهمّة بقتله"[٣].

وينقل الباحث الحائري أيضاً -وهو غير بعيد- أنّ "كِلا هدفي الخراساني من توجهه إلى إيران، أي تدعيم بنية الحركة الدستورية أو قيادة صراع لا هوادة فيه مع الأجانب المستعمرين، يكفيان لإثارة شكوك أيّ مراقب يقظ حول أسباب موته المفاجئ في هذه الظروف الاستثنائية، خصوصاً مع الأخذ بالاعتبار رسالة المازندراني التي ذكر فيها بصريح العبارة تعرضّه هو والخراساني شخصياً لتهديدات الأعداء بقتلهما"[٤].

ثم وبعد وفاة المرجع الخراساني سافر للجهاد في ليبيا كل من "السيد مسلم زوين عن الهيأة العلمية في النجف الأشرف وعزيز بك قائمقام النجف.. وبعد أن وصلوا طرابلس، ذهبا إلى الأستانة"[٥].

كما أصدر المراجع فتاوى بالجهاد أيضاً سنة (١٣٣٠هـ/ ١٩١٢م) بعد قصف الجيوش الروسية لمرقد الإمام الرضا عليه السلام في خراسان.

---

(١) المرجعية الدينية وقضايا أخرى. الحلقة الثانية. في حوار صريح مع المرجع الديني الكبير السيد محمّد سعيد الطباطبائي الحكيم: ١٨٦.

(٢) مجلة لغة العرب: الجزء ٧/ ٢٧٥ من السنة الأولى.

(٣) حياة الميرزا النائيني. عبد الهادي الحائري: ٢٥. نقلاً عن مجلة حبل المتين. ١٣ تشرين الأول ١٩١٠م. شوال ١٣٢٨. ص٢٠.

(٤) المصدر السابق: ٢٦.

(٥) ثورة العشرين في ذكراها الخمسين. سابق: ٤.

ثم حين غزت بريطانيا العراق واحتلت البصرة في (٥ محرم ١٣٣٣هـ/ ٢٣ تشرين الثاني ١٩١٤م)، أعلن مراجع النجف الأشرف والكاظمية وسامراء وغيرهم الجهاد ضد المحتلين، وزحف المجتهدون على رأس الجيوش الجرارة لحرب الإنكليز في البصرة، حيث "قامت الشيعة بجميع طبقاتها من علمائها وتجارها للدفاع بأنفسها وأموالها أحسن قيام، ولم يظهر من الفريق الآخر شيء يذكر، وكان الأثر والغليان كله للألوية الجنوبية في العراق دون الشمالية مع أنّ الدولة كانت منهم ولهم، وكان النصر بفضل الشيعة وعلمائها قاب قوسين"[1]. ولكن الأوضاع سارت على غير ما أراده لها المجاهدون، فبعد أن احتل الإنكليز البصرة زحفوا نحو بغداد سنة (١٣٣٥هـ/ ١٩١٧م) فاحتلوها ثم احتلوا العراق كله، مبشرين العراقيين بأنّهم جاءوا محررين لا فاتحين وأنّهم سيتركون أمر الحكم للعراقيين وفق مشيئتهم وإرادتهم الحرة.

غير أنّ الإنكليز كشفوا عن مطامعهم الاستعمارية في العراق تدريجياً، فلم يُطِق النجفيون تحمّل الذلّ والخضوع والخنوع للمستعمر الكافر، فألّفوا جمعية باسم (جمعية النهضة الإسلامية) أشعلت نار ثورتها الحمراء في النجف الأشرف سنة (١٣٣٦هـ/ ١٩١٨م) كما سيأتي في الفصل اللاحق، فكانت هذه الثورة هي الممهدة للثورة العراقية الكبرى (ثورة العشرين).

إنّ من يدرس مناخ النجف الأشرف السياسي تلك الحقبة وخاصة قبيل ثورة العشرين، تظهر أمامه بوضوح معالم عدة، أهمها: انتشار حركة (المشروطة) الدستورية، وتأسيس (الهيأة العلمية) التي شكلها أبناء المراجع وبطانتهم وحاشيتهم

(١) عقود حياتي. الشيخ محمّد الحسين آل كاشف الغطاء: ١٠٢. ويقصد سماحته سُنّة العراق لا الكُرد بقوله "ولم يظهر من الفريق الآخر شيء يذكر، وكان الغليان للألوية الجنوبية في العراق دون الشمالية مع أن الدولة كانت منهم ولهم"، كما يظهر ذلك بوضوح من ذيل النص المقتبس. إضافة إلى أن قسماً من الكرد من السليمانية وكركوك شاركوا بقيادة زعيمهم الشيخ محمود الحفيد مع المجاهدين الشيعة ضمن معسكر المجتهد المجاهد السيد محمد سعيد الحبوبي في جبهة الشعيبة.

برئاسة الميرزا مهدي نجل المرجع الشيخ محمّد كاظم الخراساني ومعه السيد هبة الدين الشهرستاني وغيره، ثم افتتاح مكتب حزب الاتحاد والترقي في النجف الأشرف، وما صاحبه من نشاط محموم قام به عديدون ممن تبنوا مشروع الدستوريين الفكري والسياسي في شكل الحكم، فنشروه بين المتنورين وبشروا به في صفوف النشطاء الفاعلين.

هذه الملامح وغيرها تكشف عن أن مدينة النجف الأشرف بدأت تغلي، وأن طلائع الثورة لاحت بوادرها في أفق المدينة المقدسة.

أما لماذا احتل البريطانيون العراق؟ وما الذي دعاهم -رغم تقديمهم الخسائر الفادحة في الرجال والمال- إلى عدم جلائهم عنهم؟ فهو بإيجاز كما يأتي.

***

٥. أهم أسباب الاحتلال البريطاني للعراق

أغرى موقع العراق الاستراتيجي وأطمعت ثرواته الكبيرة بريطانيا الاستعمارية، فسال لعابها لاحتلاله مقررة أنه لا يمكن التفريط به بحال من الأحوال، ولا يمكن السماح لإحدى الدول الاستعمارية الأخرى أن تسيطر عليه فتهدد مصالحها في المنطقة كلها للخطر.

ونظراً لـ"كون العراق حلقة من حلقات المواصلات البريطانية المؤدية إلى الهند؛ فقد حاولت بريطانيا منذ نهاية القرق (كذا) الماضي وقبل فتح قنال السويس أن تشق طريقاً إلى الهند ماراً بالعراق، فكانت هناك محاولات لتأسيس شركة لمدّ خطوط حديدية من الاسكندرونة إلى البصرة، ولفتح خط المواصلات النهرية على الفرات. وقد قضى فتح قنال السويس على هذه الخطط. ثم جاءت ألمانيا بمشروع سكة حديد بغداد[1] فقاومته بريطانيا بكل شدة،...، وبتقدم فن الطيران والمواصلات الجوية أصبح العراق حلقة مهمة من حلقات المواصلات الجوية بين بريطانيا والهند

(١) "قامت شركة ألمانية يساندها البنك الألماني بإنشاء خط حديدي يربط برلين بخليج البصرة" (حرب العراق الصفحة الأخيرة. المقدم. أي. اج. بيرن: ٥).

وأستراليا. زد على ذلك أمل الإنكليز بمدّ سكة حديد حيفا – بغداد، وفتح المجال لنقل البضائع والمسافرين بواسطته.

ولا تبغي بريطانيا بتأسيس قاعدتين قويتين للطيران في العراق وبعقدها معاهدة دفاعية مع العراق سنة (١٣٤٧هـ/ ١٩٣٠م) حفظ خطوط مواصلاتها فقط، بل كانت ترمي أيضاً إلى منع كل دولة أخرى من التقرب من الخليج الفارسي والمحيط الهندي والاستيلاء على سواحلها"[١] هناك، وقد أشار إلى ذلك صراحة السير برسي كوكس المندوب السامي البريطاني في العراق بعد انتهاء عمله في العراق بقوله في محاضرة له سنة (١٣٢٧هـ/ ١٩٢٩م) جاء فيها: لقد "كان من أولويات سياستنا أن لا نسمح لأية قوة أوربية لكي تجد لها موطئ قدم عند رأس الخليج العربي أو بالقرب منه"[٢]. وخاصة بعد أن ظهر وجود النفط بالقرب من نهر كارون على مسافة مائة ميل شمالي خليج البصرة، حيث "تأسست شركة النفط الإنكليزية الفارسية والتي تمكنت في سنة (أواخر ١٣٣٢هـ وما بعدها/ ١٩١٤م وما بعدها) أن تموّن الأسطول البريطاني بـ(٧٥٪) من الوقود الذي يحتاجه، ومع أن آبار النفط والأنابيب تقع في إيران إلّا أنها قريبة من الحدود. وكانت إيران وقتئذ حكومة ضعيفة ومن المحتمل أن تقع فريسة باردة بين يدي تركيا ما لم نقم نحن بالدفاع عنها"[٣].

إن العراق يكتسب أهمية بالغة بـ"موقعه الاستراتيجي كقاعدة للطريق البري إلى الهند، ومجاورته لإيران التي ظهرت فيها آبار البترول الغزيرة، فضلاً عما في شمال العراق من حقول النفط الغنية، ثم ازدادت أهمية العراق بعد الحرب نظراً لاستخدام أراضيه كقاعدة جوية للطيران التجاري والحربي"[٤].

---

(١) العراق الحديث. د. متي عقراوي: ١/ ٦٥-٦٦.

(٢) العراق في الوثائق البريطانية ١٩٠٥-١٩٣٠. ترجمة وتحرير فؤاد قزانجي: ٢٢.

(٣) حرب العراق الصفحة الأخيرة. المقدم. أي. اج. بيرن: ٥.

(٤) ثورة العراق التحررية ١٩٢٠. سابق. ١/ ١١٢. نقلاً عن تاريخ العالم العربي في العصر الحديث: ٢٤١.

كما كان للشركة الإنكليزية الفارسية فرع هو شركة نفط خانقين، وقد منح لهذا الفرع حق امتياز استخراج النفط من ضواحي خانقين العراقية. كما كان لشركة النفط العراقية -المتكونة رؤوس أموالها من إنكليزية، وفرنسية، وأميركية، وهولندية- حق امتياز استخراج النفط في شمال العراق وشرق دجلة. وهناك امتيازات نفطية أخرى للمستعمرين في العراق لا مجال لذكرها.

يقول كوكس المندوب السامي البريطاني السابق في العراق مؤكداً أهمية العراق للمصالح الاستراتيجية البريطانية: إنّ بريطانيا بخسارتها للعراق "ستتعرض حقول النفط الفارسية مرة أخرى للخطر، كما أن الحقول العراقية التي توجد دلائل كثيرة على توفرها ستنتقل إلى أيدٍ مُعادية. وإنّ تجارتنا مع العراق التي تبشر بالخير ستتضرر أيضاً"[١]؛ ذلك أن العراق كان أحد الأسواق المستوردة والمستهلكة للبضائع البريطانية، وأحد المصادر للمواد الخام لبريطانيا في القطن والجلود وإن كانت بكميات قليلة آنذاك إلّا أنها واعدة. كما بات في الإمكان "استثمار رووس (كذا) الأموال البريطانية للقيام بمشاريع مهمة أهمها بعض مشاريع الريّ التي تلتزمها شركات بريطانيا، أو إمكان عقد قروض للعراق في بريطانيا وما أشبه ذلك"[٢].

لقد أكدت العديد من تصريحات المسؤولين البريطانيين والمؤرخين الأهمية الاستراتيجية لاحتلالهم العراق، فمن ذلك مثلاً تصريحات المس بيل[٣] في

(١) الجذور السياسية والفكرية والاجتماعية للحركة القومية العربية الاستقلالية في العراق. سابق: ٤١٣.

(٢) العراق الحديث. سابق: ١/ ٦٧.

(٣) ولدت غيرترود بيل المشهورة باسم المس بيل بإنكلترا سنة ١٨٦٨م. تخرجت من قسم التاريخ بجامعة أوكسفورد، اهتمت بالآثار فأجادت العربية والفارسية والفرنسية والألمانية. دخلت العراق سنة ١٩٠٩م، فزارت النجف وبغداد وكربلاء، استدعتها المخابرات البريطانية لمساعدتها في الشرق. أرسلت إلى البصرة سنة (١٩١٦م) بعد احتلالها من الإنكليز فرسمت الخرائط لمساعدة القوات البريطانية للوصول إلى بغداد بأمان. انتقلت إلى بغداد سكرتيرة شرقية وعضو ارتباط مع الحكومة العراقية القادمة، حضرت مؤتمر القاهرة المنعقد في (١٩٢١م) لرسم صورة العراق وتشخيص ملكه فدعمت بقوة ترشيح فيصل الأول لعرش العراق فرشحه الإنكليز للملوكية، فأصبح ملك العراق الأول... كتبت تقريراً مهمّاً جدّاً عن العراق باثني عشر فصلاً صدر في لندن سنة ١٩٢٠. توفيت ودفنت ببغداد سنة ١٩٢٦م.

(٢١ رجب ١٣٣٨هـ/ ١٠ نيسان ١٩٢٠م) بعد اندلاع ثورة العشرين بقولها: "أشعر شعوراً جازماً بأننا إذا تركنا هذه البلاد وشأنها فإن ذلك سيعني أننا يجب علينا أن نعيد النظر في وضعنا في آسيا بأجمعه. وإذا ذهب العراق من أيدينا فإن إيران ستذهب بصورة لا مناص منها، ثم تعقبها الهند. وسيحتل المكان الذي تفرغه الشياطين السبعة، ويصبح وضعه أسوأ بكثير من أي وضع كان عليه قبل مجيئنا"(١)، إضافة إلى ما انتهى إليه نائب الحاكم الملكي العام السابق في العراق ولسون محذّراً من "أن أي تقليص في سلطة الحكومة... سينطوي على كارثة واسعة بالنسبة للمصالح التجارية البريطانية والمحلية"(٢).

إضافة إلى أن الاحتلال البريطاني أو "الانتداب على العراق يعطي الإنكليز إمكانية استخدام هذا البلد كرأس جسر للتدخل المعادي للسوفيت"(٣).

وهناك داعٍ آخر غير ما تقدم ربما دعا المحتلين الإنكليز إلى الإصرار على استمرار احتلال العراق والبقاء فيه وعدم الانسحاب منه رغم كثرة ما كبّدهم المجاهدون العراقيون من خسائر فادحة بالأرواح والمعدات خلال ثورة (١٩٢٠م)، ذلك الداعي والسبب هو أن الإنكليز: كانوا يعتقدون أن خروجهم من هذا البلد سيخلق لهم أوضاعاً معقدة وقلقة وهشة في الدول المجاورة، ويمكن إجمال هذه "الأوضاع المزعجة" في كل من الدول الآتية حسب ما نقله الباحث الحائري عن تقارير مسؤولي وزارة الخارجية البريطانية، وهي:

---

(١) العراق في رسائل المس بيل (١٩١٧-١٩٢٦) ترجمة وتعليق د. جعفر الخياط: ١٤٥، وينظر: الثورة العراقية الكبرى سنة ١٩٢٠. سابق: ١٥٠ نقلاً عن رسائلها. الفصل الثاني: ٣٩٥. مع اختلاف بسيط في اللفظ. وثورة ١٩٢٠ الجذور السياسية والفكرية والاجتماعية للحركة القومية العربية الاستقلالية في العراق. سابق: ٤١١. وينظر هامش الصفحة. واختراع الشرق الأوسط الحديث. صناع الملوك. كارل إي. ماير وشارلين بلير بريزاك: ٢٤٦.

(٢) الجذور السياسية والفكرية والاجتماعية للحركة القومية العربية الاستقلالية في العراق. سابق: ٤١١. وينظر هامش الصفحة.

(٣) شيعة العراق وبناء الوطن. سابق: ٥٥٢. نقلاً عن: العراق في سنوات الانتداب البريطاني. البرت، م، منتشاشفيلي. ترجمة: د. هاشم التكريتي: ١٦٠.

سوريا... ٢- فلسطين... ٣- الحجاز... ٤- مصر... ٥- السودان... ٦- إيران"[١].

مشيراً إلى جملة ما ستتعرض له بريطانيا في كل دولة من الدول المذكورة أعلاه بتفصيل وصفه التقرير "بالأوضاع المزعجة" في المنطقة حال انسحابها من العراق.

وإذا كان تأثير انسحاب بريطانيا من العراق مفهوماً كونه سيخلف وضعاً مزعجاً أو"عواقب غير محمودة"[٢]، لبريطانيا في كل من سوريا وإيران والحجاز لأنها دول محاددة له، ولكن تأثيره يبدو غير واضح على مصر والسودان. فأما تأثيره على مصر فقد ورد في التقرير أنه "سيتمخض عن الانسحاب البريطاني إدراك مصري بعجز البريطانيين عن الحفاظ على سيطرتهم على العراق. ومن شأن هذه الحقيقة أن تشجع المصريين بكل تأكيد على اجتثاث النفوذ البريطاني في مصر"، أما في السودان فسيؤدي إلى "تأييدهم الحركة الوطنية المصرية لفظيّاً"[٣].

غير أن ما يهمني التركيز عليه هنا -إضافة لما تقدم- هو ذكر أن نجاح ثورة العشرين بتحرير العراق من الاحتلال البريطاني سيؤدي إلى زعزعة استمرار وجود الإنكليز في فلسطين، ناهيك عن تهديد مصالحهم الاستعمارية فيها.

يذكر: أن الحكومة البريطانية كانت أكدت -في المادة السابعة من اتفاقية (سايكس- بيكو) الموقعة في لندن بين الحكومتين الفرنسية والبريطانية في (١٦ أيار (مايو) ١٩١٦م/ ١٣ رجب ١٣٣٤هـ)- على حقها في ربط بغداد بحيفا بخط حديدي تنشئه هي وتملكه وتديره بل وتستغله دائماً لنقل العسكريين على طوله في أي وقت تشاء. تم عادت فأكدت ثانية في المادة نفسها على ضرورة أن ييسر هذا

(١) محمد حسين النائيني وتأسيس الفقه السياسي. سابق: ٤٥-٤٧. والتشيع والدستورية في إيران دور علماء العراق الشيعة في السياسة الإيرانية. عبد الهادي الحائري: ١٦٧. وفيها ذكر لما ستتعرض له كل دولة من الدول المذكورة أعلاه.

(٢) التشيع والدستورية في إيران دور علماء العراق الشيعة في السياسة الإيرانية. سابق: ١٧٦.

(٣) المصدر السابق: ١٧٧.

الخط ربط بغداد بحيفا، ما يشير إلى مدى الأهمية التي توليها بريطانيا بربط العراق بحيفا المحتلة.

وفيما يلي ما ورد في المادة السابعة من الاتفاقية الخاص بموضوعنا محل البحث وهو: "يحق لبريطانيا العظمى أن تنشئ وتدير وتكون المالكة الوحيدة لخط حديدي يصل حيفا بالمنطقة (ب) -بغداد- ويكون لها ما عدا ذلك حق دائم بنقل الجنود في أي وقت كان على طول هذا الخط. ويجب أن يكون معلوماً لدى الحكومتين أن هذا الخط يجب أن يسهل اتصال حيفا ببغداد"[١].

وإذا كانت قد "ظلت هذه الاستنتاجات في نطاقها السري ولم يطلع الشعب العراقي على توصياتها"[٢]؛ فإن المفروض بالباحثين في ثورة العشرين والقضية الفلسطينية -فضلاً عن الجامعات ومراكز البحوث المعنية- الاهتمام بها بحثاً ودراسة وتحليلاً.

غير أني -حسب اطلاعي السريع- لم أعثر على بحث مفصل يربط بين الإصرار على عدم الانسحاب من العراق خلال ثورة العشرين والقضية الفلسطينية، عدا إشارات وتنويهات هنا وهناك وهي نادرة، منها الإثارة المهمة للباحث الحائري، رغم كثرة ما كتب وقيل ونشر وأُشهِر وأعلن وأذيع عن كليهما.

لقد استطرد الباحث الحائري وهو يتحدث عن أحد أسباب إصرار الإنكليز على عدم الانسحاب من العراق ناقلاً عن تقارير سرية لمسؤولي وزارة الخارجية البريطانية قولها: "إنّ خروج بريطانيا من العراق سيتبعه حتماً خروجها من شرق الأردن أيضاً".

ويعقب الباحث على ذلك بقوله: "إن خروجهم -الإنكليز- من العراق وشرق الأردن سيهدد مصالحهم في فلسطين"[٣]، وسيترتب على ذلك "أنّ التحرك

---

(١) يقظة العرب. سابق: ٥٨١.

(٢) محمد حسين النائيني وتأسيس الفقه السياسي. سابق: ٤٥ وما بعدها.

(٣) المصدر السابق: ٤٥ و٤٧ على التوالي.

التركي على فلسطين سيكون أسهل"[١]، كما سيقطع خط مواصلاتهم العسكرية والاقتصادية الرابط بين العراق وفلسطين المحتلة، ما سيؤدي بشكلٍ مّا إلى تهديد وجودهم ومصالحهم في فلسطين، وربما انتهاء انتدابهم البغيض عليها، وإرجاع من جلبوهم من الصهاينة الغرباء وأسكنوهم فيها إلى بلدانهم الأصلية.

وسيأتي مزيد الحديث عن ذلك في فصل لاحق.

❁ ❁ ❁

(١) التشيع والدستورية في إيران دور علماء العراق الشيعة في السياسة الإيرانية. عبد الهادي الحائري: ١٦٧.

المبحث الثاني

الإعداد السياسي والتنظيمي لثورة النجف الأشرف ضد المحتلين

١. الدواعي والمسببات

إنّ الاحتلال ومضاعفاته وما رافقه ولحقه من حالة معاشية قاسية ومن إذلال كبير للمواطنين، وإضافة إلى تلك الممارسات الخارجة عن دين وقيم وطبائع وأعراف وتقاليد وعادات المجتمع العراقي؛ أدّت بطبيعة الحال إلى أن ينشط الوطنيون الواعون يتقدمهم العلماء الأعلام فيسعون إلى تحرير العراق من الإنكليز المحتلين عن طريق تنظيم حركة سياسية عسكرية سرية أسموها "جمعية النهضة الإسلامية" قوامها ثلة من العلماء الأعلام كالسيد محمد علي بحر العلوم[١] "رئيساً للجمعية"[٢]، والشيخ محمّد جواد الجزائري[٣] أحد كبراء رجالاتها، وكانت عليهما تدور رحى

(١) السيد محمّد علي بن علي نقي بحر العلوم، ولد في النجف وتخرج على أبيه وغيره من علمائها وأدبائها، وكان أحد علماء ووجهاء وأدباء النجف وأهل الرأي فيها، نشط سياسيّاً فكان والشيخ محمّد جواد الجزائري عماد (جمعية النهضة الإسلامية) فكراً وتخطيطاً فأشعلت الجمعية الثورة ضد الإنكليز في النجف (سنة ١٣٣٨هـ/ ١٩١٨م) وقتلت أحد كبار ضباط الإنكليز فيها. كما شارك مشاركة فعالة في ثورة العشرين مع زملائه من دعاة الدستورية. سجنه الإنكليز مدة من الزمن وحكم عليه مرة بالإعدام. عُيّن عضواً في مجلس الأعيان العراقي في العهد الملكي. توفي سنة (١٣٥٥هـ/ ١٩٣٦م) ودفن في النجف الأشرف.

(٢) هكذا عرفتهم. جعفر الخليلي: ٤/ ٩١.

(٣) الشيخ محمّد جواد بن علي بن كاظم الجزائري، ولد في النجف سنة (١٨٨٢م) وواصل دراسته الأولية ثم العالية على يد كبار العلماء من أمثال: السيد الحسن الأصفهاني والشيخ علي رفيش وأخيه الشيخ عبد الكريم الجزائري، أسس والسيد محمّد علي بحر العلوم جمعية النهضة الإسلامية المتقدم ذكرها. صريح في أقواله وأفعاله، لم يعرف التملق ولا المصانعة ولا المداراة، عرف بشممه العربي الأصيل وروحه الإسلامية الثائرة وإن دعته للمغامرة في سبيل تحقيق أهدافها الكبرى، فعرّض نفسه للإعدام والسجن والاعتقال. شارك بعد إطلاق سراحه بثورة العشرين. وكان من دعاة حركة المشروطة. أهتم بدراسة الفلسفة وتضلع بعلوم والعربية نحوها وصرفها، وكان شاعراً مجيداً، له قصائد وطنية قبل الثورة وخلالها وبعدها. وله: (حلّ الطلاسم) نقض فيها طلاسم الشاعر إيليا أبي ماضي بشعر فني ورؤية فلسفية. وديوان شعر. وغيرها. توفي سنة (١٩٥٩م). كتب عنه د. محمّد جواد جاسم الجزائري كتاباً بعنوان (الشيخ محمّد جواد الجزائري ودوره الوطني والسياسي) مطبوع.

الجمعية ومن أفكارهما تستمد. وقد مرّت على الجمعية أشهُر عديدة وهي تسعى وراء الستار للانتقام من السلطة الأجنبية المحتلة والوصول إلى غاياتها الشريفة، "فقررت إيقاد نار الثورة في النجف وكربلاء والكوفة وأبو صخير والجعارة وقبائلها، وذلك بواسطة النجفيين المنبثّين في نفس تلك المدن، وأيضاً بناء على مواعيد وعد بها بعض زعماء تلك القبائل على أن تقع الثورة في يوم واحد هو يوم (٢٧ جمادى الأولى سنة ١٣٣٦هـ/ ١٠ آذار سنة ١٩١٨م)، وفعلاً أوفدت الأحزاب السيد إبراهيم لتنفيذ القرار في كربلاء"[١]، غير أن "سلطة الاحتلال كانت قد أحست في الوقت المناسب بالثورة وتغلغلها بين العشائر، فأسرعت لاتخاذ التدابير والاحتياطات الكافية لحصر الحركة في محلها والحيلولة بينها وبين اشتراك القبائل فيها"[٢].

ومما يؤكد أن التخطيط لمعركة النجف من قادة الثورة كان أوسع مدى من السيطرة على مدينة النجف الأشرف فقط، ما دوّنه الحاكم السياسي البريطاني لمنطقة النجف بقوله: "لقد بينت المحاكمات بأن حركة النجف التي نجم عنها مقتل مارشال لم تكن إلّا جزءاً من حركة كانت ترمي إلى اغتيال جميع الحكام السياسيين في المنطقة، وكان بالإمكان أن تنجح هذه الحركة لو لم يتسرع النجفيون بالقيام بها"[٣].

ثم وقبل أن تعمّ فروعها طبقات النجفيين في مدن الثورة المتفق عليها، دفع الحماس المتزايد وخطر انكشاف أمر الثورة المحتمل فريقاً من أفراد الجمعية السرية إلى إضرام نار الثورة قبل أن يحصلوا على آراء كبار أعضاء الجمعية، وكان على رأس هذا الفريق وأكثرهم حماساً عسكريّاً هو الحاج نجم البقال، فنهض الثوار بقيادته، فنهضوا نهضتهم فجر يوم الثلاثاء (٦ شهر جمادى الثانية سنة ١٣٣٦هـ/ ١٩ آذار ١٩١٨م) وهجموا على دار الحكومة، ودخلوا غرفة الحاكم فمذ شعر بالخطر استل مسدسه

(١) النجف في ربع قرن منذ سنة ١٩٠٨. محمّد علي كمال الدين: ١٨٨.

(٢) هكذا عرفتهم. سابق: ١/ ٣٧٢- ٣٧٣.

(٣) الثورة العراقية الكبرى سنة ١٩٢٠. سابق: ١٦٨. ويلحظ هامش الصفحة.

وقبل أن يعمل شيئاً عاجله أحدهم بطلقة نارية أردته قتيلاً وجرحوا آخرين[١].

***

٢. إخماد الثورة بالقسوة المفرطة

لقد كان للقسوة المفرطة التي تصدى بها المحتلون الإنكليز لإخماد ثورة النجف الأشرف ضد احتلاهم لها سنة (١٣٣٦هـ/ ١٩١٨م) أثر كبير في إخماد الثورة، وزاد الطين بلة ما مارسه جيشهم الغازي من حصار قاسٍ على المدينة المقدسة امتد لأكثر من أربعين يوماً مُنع خلالها وصول الماء والغذاء إلى السكان المحاصرين، وقد وصف المؤرخ النجفي الشيخ جعفر محبوبة المُعايِش للحدث والشاهد عليه حالة النجفيين حينها بقوله: "لقد أضر الجوع والعطش بالأهلين والغرباء الزائرين.. وقد عمّهم الخوف الشديد، حيث إنّ الجند محيط بالمدينة، ولم يعلم ما يؤول إليه الأمر من الهتك أو الأسر أو القتل"[٢]، كما وصفها المؤرخ النجفي السيد محمّد علي كمال الدين الشاهد على الحدث أيضاً بقوله: "لقد عمّت المجاعة جموع الأهلين.. واختفت من الأسواق جميع المواد الضرورية والكمالية، واضطر بعضهم إلى ذبح الحمير للاستفادة من لحومها، وكيلا تهلك جوعاً، وقد بيع الحمير في السوق علانية.. أما الماء فقد منّ الله برحمته فأنزل أمطاراً متوالية، فلم يبلغ الظمأ بالناس مبلغ الجوع ولم يضطر الأهلون كثيراً إلى مياه الآبار.. المُرّة المذاق، على أن الجيش الإنكليزي عمل على ردم الآبار وقناتها التي كانت تصل النجف بالفرات.. ومع ذلك يوجد من الفقراء المرضى من هلك جوعاً، وكذلك ماتت جميع الطيور والقطط، وقد شاهدت القطط وهي تأكل التمر.. ولم أنس منظرها المحزن وهي تتقلب في الطرقات وتموء بأصوات كسيرة وتقلب نظراتها بين المارة وكأنها تستجديهم مما أصابها من آلام الجوع.. وهي تعالج سكرات الموت جوعاً"[٣].

---

(١) ينظر: ماضي النجف وحاضرها. الشيخ جعفر محبوبة: ١/ ٣٤٤-٣٤٦.

(٢) ماضي النجف وحاضرها. سابق: ٣٨٢.

(٣) ثورة العشرين في ذكراها الخمسين. سابق: ٤١.

ويصف الشيخ علي الشرقي المعاصر للحدث حاجة النجفيين الماسة إلى الماء الصالح للشرب بقوله: "كانت المحنة بالماء عظيمة وعظيمة جداً، وكان النجفيون عندما تغشاهم غمامة ولو صغيرة نصبوا الحبائل والشراك لصيد حتى القطرة الواحدة، أما شباك ذلك الصيد فهي كل أواني البيت ولو كانت ملعقة صغيرة، ولم يبق في البيت مكان مكشوف إلّا ووضعوا آنية فيه، ترى تلك الأواني المبسوطة وكأنها أكف الابتهال للاستسقاء، وبعد انقشاع الغمامة تراهم للمبالغة في الحرص على القطرة يعصرون الأواني عصراً، فقد تكون الحصيلة رشفة وقد تكون جرعة ماء"(١).

***

٣. شكوى المرجعية

لِما تقدم وغيره فقد سعى المراجع والعلماء وأنجال العلماء في (١٢ جمادى الآخرة ١٣٣٦هـ/ ٢٥ آذار ١٩١٨م) برفع شكوى إلى القائد العام للجيوش البريطانية ببغداد ذيّلها المرجع اليزدي بتوقيعه، جاء فيها: "نحن العلماء في النجف الأشرف نرفع الشكوى عنا وعن عامة الفقراء والمساكين والمجاورين في هذه البلدة المقدسة.. مسترحمين رفع هذا الأسر والحصار عن الأبرياء والضعفاء الذين لا جناية لهم ولا تقصير ولا رضاء. وأشد البلاء قطع الماء فإنه من العقوبات التي لا تسوغ في جميع الأديان البشرية، فإن لم تكن رحمة للرجال، فنسترحم الرأفة على النساء والأطفال.. وقد أشرفت النفوس على التلف والهلاك من الجوع والعطش وتعطيل الأسواق، وهذه المعاملة ضربة على جملة العالم الإسلامي جارحة لعواطف عامة المسلمين.. فالمأمول إعمال التدابير الحازمة في رفع هذه الغائلة على وجه لا تهلك الضعفاء والأبرياء بإصدار العفو العام وتأمين البلاد"(٢).

ويصف السيد محمّد علي كمال الدين المعايش للواقعة شراسة وقساوة اقتحام

---

(١) الأحلام. سابق: ١٣٧-١٣٨.

(٢) تاريخ النجف الأشرف. سابق: ٣/ ٢٢٧.

الجنود الإنكليز للنجف المقدسة بعد حصارها الممض من قبل الآلاف من جيش الاحتلال، متحدثاً عن طريقة اقتحام جنود الإنكليز المدججين بالسلاح لأزقتها وشوارعها وبيوتها بحيث إنهم ما تكاد تقع أعينهم "على أي شخص صغيراً كان أو كبيراً، رجلاً أو امرأة إلّا رموه بالرصاص.. فاضطرب الناس أشدّ الاضطراب وأصابهم الهلع كل الإصابة، ومما جرى.. أن الإنكليز عمدوا إلى تخريب جميع الأبنية والبيوت المشادة في إيوانات السور وعددها لا يقل عن خمسمائة بيت، وكذلك جميع البيوت في خارج السور، ومنها محلة كاملة تدعى محلة عطية أو (الثلمة).. وعدد دور هذه المحلة لا يقل عن خمسمائة بيت أيضاً، فيبلغ عدد الدور المخربة خلال هذين اليومين أكثر من ألف دار.. ولا تسل عما ذهب فيها من التلف والضياع والنهب في الأثاث.. ومن هنا فإننا لا نستطيع أن نبخس الجيش الإنكليزي أشياءه من البطش والقسوة، فهو لا يقل شأناً عن جيوش هولاكو وتيمورلنك ونيرون"[١].

زد على ذلك أن الجيش الغازي لم يحترم قدسية النجف الأشرف في نفوس العراقيين، ولم يتوقف عن انتهاك حرمتها الدينية باعتبارها مثوى للإمام عليّ أمير المؤمنين عليه السلام وإمام المتقين، ولا يهتم بمركزيتها الشعبية والشيعية في قيادة الأمة كونها حاضنة للحوزة العلمية ومرجعيتها الدينية العليا في بلد غالبيته العظمى من الشيعة الموالين لها والمطيعين لأوامرها والمنتهين عن نواهيها، والأدهى من ذلك والأمرّ أنهم انتهكوا الحرمات وعذبوا المدنيين والمدنيات رغم علمهم ببراءتهم وبراءتهن "فكووا أيدي النساء بالحديد لحملهن على الاعتراف بمخبأ المختبئين، ومن هؤلاء النساء اللائي التي كويت أيديهن بالجمر كانت أم... أحد رؤساء محلة البراق التي اضطرت تحت هذه القسوة أن تدلّ على مخبأ ابنها"[٢].

وكان الضابط الإنكليزي "قائد الكوفة لمّا وقف على الدم الإنكليزي المسفوح، قال: إن كل قطرة من هذا الدم الغالي تساوي أربعمائة نجفي، ومنها جواب القائد

(١) ثورة العشرين في ذكراها الخمسين. سابق: ٤٤-٤٥ على التوالي.

(٢) هكذا عرفتهم. سابق: ٤/ ٩٥.

العام على برقية علماء النجف حينما أبرقوا قائلين إن النجف زاوية دينية لا ميدان حرب، أجابهم إن التصميم لهو تصميم بريطانيا، وإن قصاص البلدة لم يبتدئ بعد، ومنها أنهم لم يرفعوا الحصار حتى ثأروا بالمشانق ونسف البيوت والمنافي وثقيل الغرامات"(١).

وإذ رفضت قوات الاحتلال الاستجابة لتظلمات مراجع النجف الأشرف العظام وشيوخها ووجهائها الكرام تفاقمت نقمة النجفيين والفراتيين بل العراقيين ضد الإنكليز، بعدما اعتقلوا من ثوار المدينة المقدسة "ما يقرب من مائة وخمسين رجلاً، وقد حكم على أحد عشر منهم بالإعدام شنقاً، وعلى البقية بالنفي إلى الهند"(٢) من قبل محكمة مشكلة من ثلاثة ضباط بريطانيين برئاسة الكولونيل لجمن.

وقد كان الإنكليز طلبوا من المرجع الأعلى السيد اليزدي مغادرة النجف الأشرف بعد أن شددوا الحصار عليها، فأبى الخروج منها إلّا بعد رفع الحصار عن المدينة المقدسة وأهاليها قائلاً: "نحن مع أبناء وطننا إن عاشوا عشنا معهم، وإن هلكوا هلكنا معهم، وكان الإنكليز يلتمسون أن يقبل ما يرسلون إليه من الماء والأطعمة واللحوم وغيرها فيأبى أشد الإباء"(٣).

وبعد رفع الحصار القاسي على مدينة أمير المؤمنين عليه السلام" انتقل -السيد اليزدي- إلى الكوفة كما انتقل إليها شيخ الشريعة وغيره من العلماء والأعلام الذين أبوا إلّا أن يشاطروا الأهلين آلام الحصار والعذاب"(٤).

***

٤. تداعيات ثورة النجف الأشرف

لقد هام النجفيون على وجوههم بعد رفع الحصار المطبق عليهم، فنزلوا

(١) الأحلام. الشيخ علي الشرقي: ١٤١.

(٢) ماضي النجف وحاضرها. سابق: ١/ ٣٤٤- ٣٤٥. و٣٤٩ على التوالي.

(٣) عقود حياتي. سابق: ١٠٨.

(٤) تاريخ النجف الأشرف. سابق: ٣/ ٢٤٩، وينظر: ثورة النجف على الإنكليز. سابق: ١٠٦-١٠٧.

ضيوفاً على إخوانهم وأهاليهم في مدن الفرات المختلفة وغيرها، "فكنت لا تكاد تطرق آنذاك مدينة ولا قرية في الفرات الأوسط إلّا وتجد النجفيين أمامك، النساء يحدثن بما لقين من هول الكارثة وهن باكيات معولات، والرجال يستعرضون الحوادث بقلوب مكلومة"(١)، قاصّين عليهم بشاعة ما لاقوه من هول فجائع الإنكليز المحتلين، ومحدثينهم عن ظلامة من عانوا من الرعب والخوف والقلق، ومخبرينهم عمّن مات منهم جوعاً وعطشاً، فزادت نقمة الفراتيين على الإنكليز نقمة، وأشتد امتعاضهم من المحتلين امتعاضاً، وتفاقم بغضهم لهم ولأعمالهم المخالفة لأبسط حقوق الإنسان بغضاً وكراهية وحقداً.

ويزعم الباحث النجفي المعاصر للحدث أن "ثورة النجف هذه أخرت ساعة الصفر للثورة العراقية -ثورة العشرين- ما يقرب من عشرين شهراً حيث كان مقدراً لها أن تكون في (أواخر صيف ١٩١٨م) على أقرب تقدير عندما يستكمل الرؤساء عدتهم، ويتم حصاد جميع الحاصلات، فتختزن التموينات الكافية، ولا يباع شيء منها لجيوش الاحتلال، ولكنها.. وقعت قبل أن تنضج كما كان يعتقد حجة الإسلام شيخ الشريعة الذي تولى زعامتها بعد وفاة الإمام الشيرازي"(٢).

وإذ كنت لا أتفق تماماً مع ما ذهب إليه المؤرخ الأسدي لعدم عثوري على مصدر آخر يدعم قوله، فإني أذهب بكل ثقة حسب تتبعي إلى ما ذهب إليه غير واحد من المؤرخين النجفيين وأخص بالذكر منهم الباحث النجفي الشيخ جعفر محبوبة المتخصص بـ(ماضي النجف وحاضرها) والمعاصر للحدث بقوله: "نستطيع أن نقول بلا مجازفة أن ثورة النجف هذه هي الخطوة الأولى للقضية العراقية، والبذرة الوحيدة لنتاج الفكرة الفراتية، واتجاهها نحو استقلال العراق"(٣). ومثيله في معاصرته للواقعة الشيخ علي الشرقي بقوله: "إذا كان ما يصح أن يسمى بمقدمة الثورة، أو ما يستحق أن

(١) ثورة العراق التحررية ١٩٢٠. كاظم المظفر: ١/ ٩٥.

(٢) ثورة النجف على الإنكليز. سابق: ٣٧١.

(٣) ماضي النجف وحاضرها. سابق: ٣٥٠.

يأتي المؤرخ على تفاصيله وبواعثه بالتفصيل فهو ثورة النجف في وجه الإنكليز، وذلك سنة (١٣٣٦هـ/ ١٩١٨م).. تلك الثورة التي دبّرت لتشمل جميع جهات الفرات، ولكن يقظة الإنكليز قد حددت الثورة وحصرتها في النجف"[١] كما تقدم.

لقد عدّت الباحثة اليابانية كيكو ساكاي جمعية النهضة الإسلامية صاحبة الثورة -المتقدم ذكرها- أنّها "الحزب السياسي الأول الذي أخذ فيه علماء الشيعة الدور القيادي، وقد تلته منظمات مشابهة في كربلاء والكاظمية. ففي كربلاء كان محمد رضا ابن مرجع التقليد محمد -تقي- الشيرازي قد شكّل الجمعية الإسلامية في كربلاء، وقام أبو القاسم الكاشاني بتنظيم الجمعية الإسلامية في الكاظمية. وتمّ إنشاء الحزب النجفي السري من قبل العلماء ورؤساء القبائل في عام ١٩١٩ في النجف بعد انهيار النهضة بسبب القمع البريطاني. كانت السمات الرئيسة لتلك الأحزاب الإسلامية هي أن كل أعضائها كانوا من الشيعة"[٢].

كما عدّ بعض الباحثين ثورة النجف ضد الإنكليز "أول ثورة لمدينة عربية ضد الاحتلال البريطاني، وشنق من أبناء المدينة أحد عشر شخصاً، وهم بهذا أول عراقيين يشنقون، وأول مجموعة عراقية تجاوز عددها المائة شخص تساق إلى المنفى، وأول سجناء سياسيين يستقبلهم سجن بغداد"[٣].

***

٥. جور السياسة الإنكليزية على العراقيين قبيل ثورة العشرين

وتبعاً للثورة ومآسيها وللقسوة المفرطة فيها فقد ازداد يأس العراقيين من تنفيذ وعود الإنكليز، واشتد قنوطهم من نقضهم لعهودهم، إضافة إلى ما ناءت

(١) على هامش الثورة العراقية الكبرى. سابق: ٤٢.

(٢) ثورة العشرين. دراسة في الأحزاب السياسية والشبكات الاجتماعية في العراق. ١٩٠٦-١٩٢٠. كيكو ساكاي: ٥٢. يذكر أن لفظة (العلماء) الوارد ذكرها في الكتاب المقصود بها أساتذة الحوزة العلمية دون مستوى المراجع.

(٣) دور النجف في الثورة العراقية الكبرى. د. علي بابان. نقلاً عن الشيعة والدولة القومية في العراق. حسن العلوي: ٢٩٣.

به ظهورهم من ثقل الضرائب التي فرضها الإنكليز عليهم بعد أن رفع المحتلون "ضرائبهم إلى ثلاثة أضعاف عما كانت عليه قبل الاحتلال البريطاني"[١].

ومما زاد الطين بلة "أن -هناك- قرى قصفتها الطائرات في أكثر من مناسبة بسبب مصاعب في جباية الضرائب"[٢]، ناهيك عما عاناه العراقيون من سوء إدارة وتعنت وصلف حكامهم العسكريين الذين اعتبروا "حاجات الأهلين ثانوية تخضع لتوفير حاجات الجيش أولاً، وفي بعض الحالات كان لا يسمح بدخول الأطعمة -إلى- الأسواق لبيعها إلّا بعد أن تكون حاجات السلطات العسكرية قد تأمنت أولاً، وكان الأهلون يُمنعون من الوصول إلى المياه النقية المضخوخة، وكانت العائلات تُرغم على إخلاء منازلها، كما أن أراضيها كانت تُصادر، وأحياناً من دون دفع إيجار أو بدل، وكان التضييق على تنقلات الأشخاص والبضائع جائراً، وكان العمال وبأعداد كبيرة تتزايد يوماً عن يوم يُرغمون على ترك حقولهم وقُراهُم وعلى مغادرة عيالهم ليعملوا في مشاريع عسكرية عن طريق السخرة"[٣] في الأعمال العسكرية والمدنية، ولم يقتصر الأمر على مئات منهم ولا على آلاف من هؤلاء المعبَّئين قهراً وجبراً، بل قدّر عددهم بتسعين ألف عامل مضطهد، حيث "كان هؤلاء (العمال البؤساء) و(الفلاحون نصف العراة) مضطرين إلى العمل تحت ظروف لا إنسانية (ومثيرة للأسى)، وذلك باعتراف قادة الإنكليز أنفسهم"[٤]، مضافاً إلى ذلك كله "عدم السماح بنقل الجنائز إلى العتبات المقدسة، وتعالي الموظفين على الأهلين، ومعاملة الناس بالخشونة وإذلال المراجعين، ووقوف الحجّاب في

---

(١) الثورة العراقية الكبرى سنة ١٩٢٠. د. عبد الله الفياض: ١٥٠. نقلاً عن ما كتبه دوبيرو في مانجستر كارديان في ٢٤ جولاي ١٩٢٠: ص ٨.

(٢) العراق في سجلات الوثائق البريطانية ١٩١٤-١٩٦٦. المجلد الثاني ١٩١٨-١٩٢١. المحرر الاستشاري: ألف دي ل. رش. محرر البحوث: جين بريشود: ٣٧٦.

(٣) دور الشيعة في تطور العراق السياسي الحديث. د. عبد الله النفيسي: ٢٤٣.

(٤) ثورة ١٩٢٠ الجذور السياسية والفكرية والاجتماعية للحركة القومية العربية الاستقلالية في العراق. سابق: ٢٠٠. وينظر: ثورة العراق ١٩٢٠. هالدن: ٢٩.

وجه مختلف الطبقات، يسمعونهم قارص القول"[١]، وأمثال ذلك من قبيل ما اعترف به نائب الحاكم الملكي العام في عهد الاحتلال البريطاني للعراق السير آرلولند ولسون، من استياء الناس من أساليب الاحتلال العسكري، وضرب له مثلاً بقوله: "كانت بعض أوجه الاحتلال العسكري مثل الاحتفاظ بعدد كبير من الدور الخاصة لإسكان الجند موضع استياء الناس"[٢] وغيرها كثير.

وإذا كان لي أن أُجمِل علاقة الإنكليز المحتلين بالمواطنين العراقيين فسأجملها أولاً بما لخصه صاحب كتاب (دور الشيعة في تطور العراق السياسي الحديث) بقوله: "إن القيود التي فُرضت على الأهلين لم تكن تختلف كثيراً، إن كانت فعلاً تختلف، عن القيود المفروضة على العدو"[٣].

وسأُجملها ثانياً بالنظرة الاستعلائية من المحتلين الإنكليز للعراقيين بما ذكره الشيخ علي الشرقي بقوله: "وإليك صورة من غطرسة الإنكليز. لقد كنا في اجتماع يضم علية من العراقيين للمفاوضة في إطلاق بعض المساجين السياسيين، وخرجت أتجول في حديقة البيت الذي اجتمعنا فيه فجاء ضابط إنكليزي قائلاً: انظر ذلك القسم الجميل من الورد. قلت: نعم، ويوجد مثله في حدائق بعض الأشراف عندنا، وسرعان ما صدمني ذلك المتغطرس بقوله: وهل يوجد عندكم أشراف، فأجبته مغضباً لا يعرف الفضل إلّا ذووه، الشريف يعرف أن في العراق أشرافاً، يا هذا علامَ هذه الشتيمة؟! فسكت ولم يحر جواباً. ومن ألوان تلك الغطرسة ما اتفق لي وأنا في منزل من بيوت الكاظمية التي مررت بها في عهد الاحتلال، وبينما أنا أسمر مع بعض النزلاء هناك ولم أكن أعرفهم.. ويتفق وجود جاسوس أمي بين القوم لا يفهم أهداف الكلام فيَنُثُّ بالخبر إلى مركز الاستخبارات والمباحث، وما أشعر إلّا والطلب عليَّ في أماكن متعددة حتى وقف عليَّ بعض

(١) الثورة العراقية الكبرى. السيد عبد الرزاق الحسني: ١٤٦-١٤٧.

(٢) الثورة العراقية. السير آرنولد ولسون: ٦٨.

(٣) دور الشيعة في تطور العراق السياسي الحديث. سابق: ٣٤٥.

الشرطة فأذهب معه إلى إنكليزي فظّ شرس يسألني.. وبعد الإجابة قال لي: أنتم تقولون (كلّم الناس على قدر عقولهم) وهؤلاء حمير.. قلت إنهم بشر.. فقال وهل في العراق بشر.. قلت.. إنهم مثلكم، فلم هذا الشطط في القول؟! ويستمر في مذمته قائلاً: اصبروا علينا سوف نعطيكم الاستقلال.. فقلت.. الاستقلال يؤخذ ولا يعطى، وانصرفت عنه"(١).

ومن أمثال هذه الإهانة قول الحاكم السياسي ديلي لشيوخ العشائر وزعمائهم بعد أن طلب منهم التوقيع على ورقة الوصاية البريطانية على العراق: "أنتم عندي لا تساوون هذا العرنوص، وأشار بيده إلى عرنوص من الدُّخن كان أمامه"(٢).

ويمكن أن ترجع هذه النظرة العُلْوية من جيش الاحتلال لنفسه تجاه العراقيين المحتلين، إلى ما وصفهم به ضابط الاستخبارات البريطاني (العقيد لاحقاً) لورنس بقوله: "يرى الإنكليز في الشرق أنهم كائن مختار لا يُجارى، ومن الوقاحة محاولة تقليده"(٣).

بهذه النظرة الاستعلائية الفوقية جاء الإنكليز ليحتلوا بلد عليّ والحسين عليهما السلام، ويستعمروا شعباً أبيّ الضيم ينهج نهج إمامه الحسين عليه السلام، ويقتدي بقوله: "ألا وإنّ الدعيّ ابن الدعيّ قد ركز بين اثنتين: بين السلّة والذلّة، وهيهات منا الذلّة، يأبى اللهُ ذلك لنا ورسولُه والمؤمنون، وحجورٌ طابت وطهُرت، وأنوفٌ حميّة، ونفوسٌ أبيّة من أن تؤثر طاعة اللئام على مصارع الكرام"(٤).

ولعل ما أشعر المرجعية أكثر فأكثر بمخططات بريطانيا الاستعمارية في العراق والمنطقة؛ تفاصيل الاتفاقية البريطانية – الإيرانية المعلنة خطوطها في (رجب ١٣٣٧هـ/ نيسان ١٩١٩م)، بحيث "تستأثر بريطانيا بإمداد السلاح والتدريب

(١) الأحلام. سابق: ١٣٤-١٣٥.

(٢) ثورة العشرين في ذكراها الخمسين. سابق: ١١٩.

(٣) أعمدة الحكمة السبعة. لورنس: ٢٦٣.

(٤) اللهوف في قتلى الطفوف. ابن طاووس: ٥٩.

العسكري وتقديم المستشارين الإداريين. وإذ استشعر المجتهدون الثلاثة الكبار الشيرازي والأصفهاني وإسماعيل الصدر بالقلق من تعاظم النفوذ البريطاني في إيران؛ وجّهوا رسالة إلى رئيس الوزراء الإيراني كتبوا فيها: إن المعاهدة المقترحة تلغي استقلال إيران، وحثوا رئيس الوزراء على الامتناع عن توقيعها. وقد رفض أعضاء المجلس الإيراني المصادقة عليها لأسباب منها ضغوط المجتهدين"[١].

ثم كان مما زاد الطين بلة مجيء خبر إعلان بريطانيا انتدابها على العراق ليلة (النصف من شعبان من عام ١٣٣٨هجرية/ ١٩٢٠م) فرسّخ قناعة تراكمت مسبباتها تدريجياً على مدى سنوات من الاحتلال، مفادها أن الإنكليز لا يفكرون بالجلاء عن العراق، وأنهم من أجل ذلك مستعدون لاقتراف أبشع الجرائم التي يندى لها جبين الإنسانية، وبناء على ذلك وغيره فليس من حلّ أمام الفراتيين والشعب العراقي الحر إلّا بإعلان ثورة سلمية لاستنقاذ حقوقه الدينية والوطنية كاملة غير منقوصة، وإن أبى المحتلون منحها لهم بالطرق السلمية، فسيأخذونها بالثورة المسلحة.

***

٦. لا جَلاءَ للمحتل إلاّ بالثورة المسلحة

كل ذلك وغيره يعني باختصار: أن لا جلاء للمحتل البريطاني بالطرق السلمية مهما تعددت أنواعها وطال زمنها، وأن الثورة الشعبية السلمية أو الحمراء هي الخيار الوحيد المتبقي أمام الأحرار العراقيين لتحرير بلدهم من نير المحتل الغاصب، وتشكيل نظام الحكم الذي أنضجته حركة المشروطة الدستورية، ولذلك بات على زعماء الثورة وموجهوها في المدن والحواضر استنهاض أبناء الريف معهم وتفجير طاقاتهم الخيّرة، خاصة وأن رجال "الريف العراقي هم الأهل الخلّص، وهم أهل السلاح، وفيهم النخوة، وعندهم مركز الثقل، وسرعان ما اتصل المخلصون من النجفيين بزعماء الريف وأفهموهم أن لا غنى لهم عن

(١) شيعة العراق. إسحاق نقاش: ١٢٠.

أبناء المدن لأنهم أهل العلم والعارفون بأساليب السياسة والتفكير ففيهم الأهلية للقيادة، كما أفهموهم بأن لا غنى لأبناء المدن عن أبناء الريف لأنهم أهل القوة وذوو التقاليد والعادات النافعة، فلا بدّ من أن يتساند الطرفان، ويشد بعضهم البعض، وهكذا أحكمت حلقات السلسلة، وكثر تردد الريف على النجف، وكثرت الاجتماعات والمؤتمرات"[١].

***

٧. المقدمات العملية لثورة العشرين

ومن أجل الإعداد "للغرض المقدس" أو للثورة المسلحة التي بات لا مفرّ منها، ينبغي تشكيل حزب سياسي في النجف الأشرف ليقود تلك الثورة ويطبق شكل النظام المختار متى انتصرت فيها، فكان (حزب الثورة العراقية).

لقد بدأت أولى مراحل الإعداد لتشكيل هذا الحزب سنة (١٣٣٦هـ/ ١٩١٨م) وسط مكتبة تعنى ببيع ونشر الجرائد المصرية والسورية أسسها الأستاذ عبد الحميد زاهد في أحد أواوين الصحن الحيدري الشريف، واعتاد على ارتيادها المثقفون المتنورون والأدباء والشعراء وخاصة من مُتبنّي الحركة الدستورية (المشروطة) ليتبادلوا الأفكار ويقلبوا الآراء في مستجدات السياسة والثقافة والأدب.

ثم بعد أن دخل الحزب مرحلة أكثر تطوراً ونضجاً نقل مقر نشاطه إلى غرفة السيد محمّد علي كمال الدين إحدى غرف مدرسة دينية كبرى يقطنها الطلبة عادة لدراستهم تدعى (مدرسة الشيخ محمّد كاظم الخراساني) المرجع المجاهد ورأس الحركة الدستورية في النجف الأشرف كما تقدم، وتقع المدرسة في محلة الحويش إحدى محلات النجف الأربع: العمارة والبراق والمشراق والحويش.

ويعدد السيد محمّد علي كمال الدين أسماء الأعضاء الذين انضموا إلى (حزب الثورة العراقية) بعد أن يقسمهم حسب مكانتهم إلى طبقات ست:

---

(١) على هامش الثورة العراقية. سابق: ١٩-٢٠.

أولاً: "الطبقة الأولى المفكرة والمجاهدة التي سيّرت جميع الطبقات منذ فكرتها الأولى، والتي بدأت في سنة ١٩١٨م، ونشطت نشاطاً كبيراً في ثورة العشرين، وهم:

١. الشيخ عبد الكريم الجزائري[١].

٢. الشيخ محمّد رضا الشبيبي[٢].

٣. السيد محمّد سعيد كمال الدين.

٤. السيد محمّد رضا الصافي[٣].

---

(١) الشيخ عبد الكريم بن علي بن الجزائري، ولد في النجف الأشرف وأكمل دراسة المقدمات والسطوح على أفاضلها، ثم حضر البحث الخارج على المراجع: الشيخ محمّد كاظم الخراساني صاحب الكفاية، والشيخ محمّد طه نجف، والسيد محمّد كاظم اليزدي، وشيخ الشريعة الأصبهاني، ثم استقل بتدريس البحث الخارج. يُعدّ الشيخ الجزائري أحد المراجع والمستشارين الكبار في النجف يومها وأحد أعمدة الجهاد ضد المحتلين، ومن أبرز وجوه المدافعين عن القضية العراقية بل كان مجلسه بمثابة مجلس القيادة السرية التي وضعت الخطط وهيّأت الرأي العام للمطالبة بالاستقلال. شارك في معارك الجهاد ضد الإنكليز وناضل من أجل استقلال العراق أيّما نضال، وكان حسن المعشر قوي الحجة صادق اللهجة مع تُقى وديانة وتمسك بالشرع. له تعليقة على المكاسب وأخرى على الرياض وشرح على العروة الوثقى وغيرهما، وهو من الشعراء اللامعين والأدباء المجيدين، حثّ الشيخ خزعل الكعبي على الترشح لتسنم عرش العراق مقابل الملك فيصل الأول كما سيأتي مفصلاً.

(٢) الشيخ محمّد رضا جواد الشبيبي (١٨٨٩-١٩٦٥م)، ولد في النجف الأشرف وتلقى دراسته الدينية على يد كبار مراجعها، ورعاه رعاية أدبية أبوه الأديب الشاعر، في ناديه العامر بالأدب والعلم والثقافة. فنظم الشعر وأبدع فيه وكتب في التاريخ والحضارة فأجاد. نشط في القضية الوطنية نشاطاً لافتاً. وكان من دعاة الحركة الدستورية في النجف. اشترك في الجهاد ضد الإنكليز مع المجتهد السيد الحبوبي سنة ١٩١٤م. وكان له دور مشهود في ثورة العشرين. عُيّن وزيراً للتربية لعدة دورات. وانتُخب عضواً في مجلس النواب العراقي لأكثر من دورة وترأس مجلس النواب لأكثر من دورة نيابية، وتولى عضوية مجلس الأعيان لأكثر من دورة. أسّس المجمع العلمي العراقي وترأسه سنوات، كما انتُخب عضواً في مجمعي اللغة العربية بالقاهرة ودمشق. عارض سلطة الاحتلال والسلطات التي عُيّنت تحت رعاية الاحتلال. كما عارض تهميش شيعة العراق في العهدين الملكي والجمهوري، وكتب مذكرة بذلك للحكومة العارفية. له مؤلفات عديدة، منها: مؤرخ العراق ابن الفوطي، وأصول ألفاظ اللهجة العراقية ولهجات الجنوب، وفن التربية في الإسلام، ورحلة في بادية السماوة. له ديوان شعر وطني.

(٣) السيد محمّد رضا السيد علي الصافي الموسوي، ولد في النجف من أسرة علمية معروفة ودرس علوم الشريعة والأدب على يد أفاضل مجتهديها وعلمائها، نظم الشعر في مقتبل شبابه وانخرط في العمل السياسي فانضم إلى حركة المشروطة، وإذ احتل الإنكليز البصرة خرج للجهاد مع المجتهد السيد محمّد سعيد الحبّوبي، انضم إلى جمعية النهضة الإسلامية سنة (١٩١٨م) فكان بيته مقرّاً من مقرات الثورة، ثم نشط مع زملائه القادة =

٥. الشيخ باقر الشبيبي[١].

٦. السيد حسين كمال الدين.

٧. الشيخ محمّد جواد الجزائري.

٨. الشيخ علي الشرقي.

٩. السيد سعد صالح.

١٠. السيد أحمد الصافي.

١١. السيد محمّد علي كمال الدين.

ثانياً: الطبقة الثانية: وهي طبقة روحية عليا تولت معظم الأعمال خلال الثورة إلى انتهائها، وهم:

١. الشيخ عبد الكريم الجزائري.

٢. الشيخ جواد الجواهري[٢].

= في ثورة العشرين فاعتقلته القوات المحتلة وحكمته بالإعدام ثم خفف حكمه إلى السجن، وحين أطلق سراحه انضم سنة (١٩٢٢م) إلى الحزب الوطني، وفي سنة (١٩٣٠م) انضم إلى حزب الإخاء الوطني، توفي سنة (١٣٦١هـ/ ١٩٤٢م).

(١) الشيخ محمّد باقر جواد الشبيبي (١٨٨٩-١٩٦٠م)، ولد في النجف وتلقى علومه الدينية فيها. شاعر وأديب نظم الشعر السياسي الوطني كثيراً. يُعدّ من أبرز خطباء المعارضة العراقية حقبة الاستعمار الإنكليزي للعراق. انضم إلى قادة ثورة العشرين، وأصدر جريدة الفرات الناطقة باسم الثورة. انتُخِب نائباً عن لواء المنتفق في أربع دورات نيابية. حسه الوطني والشيعي متقدم ضد المستعمرين والطائفيين. والشيخ محمّد باقر، وأخوه الشيخ محمّد رضا وأبوه من رواد الحركة الأدبية في النجف بل والعراق. (لطفي جعفر فرج: ١٧٧ وما بعدها، في بحثه عن: الوزارة السعدونية الثانية).

(٢) الشيخ جواد بن علي بن محمّد الجواهري، زعيم أسرة الجواهري في عصره، وأحد زعماء النجف وعمد من أعمدة الجهاد ضد المحتلين. يقول عنه صاحب ماضي النجف وحاضرها (٢/ ١٠١-١٠٢): إنه "لسان النجف الناطق وساعدها القوي وقلبها النابض، كان له عند ولاة الأمور المكان الرفيع والجاه الطويل العريض، وأما منزلته عند العلماء فهو الباب ومنه إليهم يؤتى، كان ديوانه مهبطاً لذوي الحاجات... كان بطل السياسة ورجل العمل، وفي الثورة العراقية هو السفير والواسطة بين العشائر والحكومة المحتلة، وهو موئل الرأي ورائد الأمة". توفي سنة (١٣٥٥/ ١٩٣٦م) ورثته الشعراء بأكثر من مائة قصيدة، منها لمحمد مهدي الجواهري والشيخ عبد المهدي مطر.

٣. الشيخ عبد الرضا الشيخ راضي[١].

٤. الشيخ مهدي الشيخ محمّد كاظم الخراساني.

أما الشيخ الجزائري فهو أهم عضو في الطبقتين الروحية والمتجددة، أو هو همزة الوصل بين جميع الطبقات، بل كان أيام الثورة محور الحركة ومجرى التفكير للثورة والثوار والعلماء المجتهدين والمثقفين. يقول جعفر الخليلي المعاصر لتلك الحقبة متحدثاً عنه: إنه "كان في الطليعة من حيث اتصال الخارج به، ومن حيث زيارة الوجوه له، وما كان له من قيمة في تكوين الرأي العام وتوجيهه والوقوف به مواقف مشرفة في دنيا الوطنية والتحمس لقيام المشروطة في إيران، والانقلاب العثماني، والمطالبة باللا مركزية للعراق في العهد العثماني، والتحفيز لطلب الاستقلال التام بعد الاحتلال البريطاني"[٢]، يسانده في جهاده عديدون، يتقدمهم الشيخ جواد الجواهري، وزعماء القبائل، مع بعض أفراد الطبقة الأولى.

ثالثاً: الطبقة الثالثة:

١. الحاج محسن شلاش[٣].

---

(١) الشيخ عبد الرضا بن مهدي ابن الشيخ راضي، ولد سنة ١٢٩٨ هجرية وتلقى علومه الأولية في النجف على يد فضلائها، والعليا على يد كبار علمائها كالفقيه السيد علي الداماد والشيخ هادي الطهراني وصاحب الكفاية. عمد من أعمدة الجهاد ضد الإنكليز، ومن زعماء وقادة الثورة ومشعلي شرارتها، له مواقف مشهودة في جبهة لواء المنتفق، فقد "كان قطب العرب المجاهدين تدور عليه رحى قوادها ويهتدي برأيه علماؤها" كما يقول صاحب ماضي النجف وحاضرها: ٢/ ٢٩٨. له من الكتب: كتاب الوصية، وكتاب النكاح، وله شعر بديع، ونثر جميل. توفي سنة ١٣٥٦ هجرية ودفن في مقبرة أسرته في النجف الأشرف.

(٢) هكذا عرفت الشيخ عبد الكريم الجزائري. جعفر الخليلي. مجلة آفاق نجفية. العدد ١٨ لسنة ١٤٣١هـ/ ٢٠١٠م: ٣٤٥.

(٣) الحاج عبد المحسن عبود سعيد حاجم شلاش، ولد في النجف سنة ١٨٨٢م، واشتغل في التجارة ودرس وكتب وألّف، حاز على الوجاهة الاجتماعية والاقتصادية والسياسية فكان من كبار سياسيّي واقتصاديّي النجف والعراق، اشترك في التخطيط والدعم المالي لثورة العشرين فاختير وزيراً للتجارة والاقتصاد في حكومتها المحلية في النجف بعد تحريرها خلال ثورة العشرين. كما عينه المرجع الأعلى شيخ الشريعة الأصبهاني ليتولى العناية بأسرى العدو المحتل. أنشأ خط سكة حديدية تربط الكوفة بالنجف. ثم شغل =

٢. الشيخ محمّد حسن الجواهري.
٣. عبد الأمير الشكري.
٤. محسن أبو[١] عجينة.
٥. يوسف أبو عجينة.
٦. السيد علي الحلي.
٧. الشيخ عبد الغني الجواهري.
٨. الشيخ عبد الحسين مطر[٢].

رابعاً: الطبقة الرابعة، وعددهم اثنا عشر عضواً أذكر منهم: عبد الحميد زاهد، السيد علوان الخرسان، والحاج سعيد مرزة، والسيد جواد زيني.

خامساً: الطبقة الخامسة، وعددهم ثمانية عشر عضواً، منهم: السيد ضياء الخرسان، والشيخ محمّد علي قسام، والشيخ حسين الصحاف، والشيخ عبد الحسين الحلي.

سادساً: الطبقة السادسة، وعددهم عشرة أعضاء، أذكر منهم: الشيخ سعيد الخليلي، والشيخ حسين الحلي، والشيخ محمّد الخليلي، والشيخ نعمة الشيخ كاظم الشهير بالسوداني.

= عدة مناصب وزارية كالمعارف والمالية والأشغال والإسكان والاقتصاد في حكومات عراقية متعددة خلال العهد الملكي. توفي سنة ١٩٤٨م.

(١) (أبو) زائدة، و(عجينة) اسم عشيرة عراقية معروفة، والصحيح محسن عجينة، ويوسف عجينة.

(٢) الشيخ عبد الحسين بن حسن بن مطر، وكيل المراجع في المنتفق ومعتمدهم ومبعوثهم إلى عشائرها، وأحد أهم رجالات الثورة في الجنوب، وتبدو مواقفه الكبيرة من كتاب بعثه إليه المرجع الأعلى شيخ الشريعة الأصبهاني في (١٠/ ١٢/ ١٣٣٨هـ) بقوله: "فإني أعلم أنك صاحب الراية التي لا يُحابي أحداً ولا يتّكل أبداً"، وله العديد من الرسائل إلى المرجع الأعلى يطلعه فيها على تفاصيل التحضيرات للثورة والوضع في المنتفق. (تنظر: الرسائل التي تلقاها شيخ الشريعة حول موقفه من التفاوض مع الإنكليز في المصدر السابق: ٣/ ٢٨٥ وكذلك ٣/ ٣٩٤ وغيرهما)، وكان زعيماً يقود الآلاف من العراقيين، وكان خبيراً بوقائع العشائر، نفته الحكومة إلى سامراء. توفي سنة ١٣٦٣هـ.

ويضيف: "وهناك طبقة... كان لهم الأثر الفعال في تشجيع الحزب العامل لأنهم من الطبقة المسلحة، وإليك المفكرين منهم، وهم: ١. السيد هادي زوين ٢. السيد كريم السيد سلمان ٣. السيد كاظم السيد سلمان ٤. عبد الرزاق عدوة ٥. محمّد أبو شبع ٦. رسول تويج ٧. تومان عدوة ٨. حمود الحار ٩. الحاج محمّد عبد الله الهندي ١٠. عبد الصاحب هويدي.

وقد تبع السيد هادي من نجفيي الحيرة المسلحين وغيرهم ما لا يقل عن ألف مسلح، وتبع محمّد أبو شبع ورسول تويج ما لا يقل عن خمسمائة مسلح من نجفيي الكوفة، وتبع الباقين ما لا يقل عن مائة وعشرين مسلحاً باسم الجيش الوطني المحارب"[١].

وقد انضم إلى هذا الحزب "زعماء قبائل الفرات الأوسط وساداته، أمثال: السيد علوان الياسري[٢]، والسيد كاطع العوادي، والشيخ عبد الواحد سكر الفرعون[٣]، والشيخ علوان الحاج سعدون، والشيخ غثيث الحرجان، والشيخ شعلان أبو الجون[٤].

---

(١) ثورة العشرين في ذكراها الخمسين معلومات ومشاهدات. سابق: ٧١- ٧٤.

(٢) السيد علوان بن عباس الياسري. من المشخاب ومن زعماء الثورة وأوائل المنادين بل والساعين لإشعال شرارتها. يقول سعيد كمال الدين جواباً لعبد الحميد علوان الياسري: "ولولا والدك ما قامت هذه الثورة ولا يعرف هذا سوى ثلاثة غيري"، تنظر (وثائق الثورة العراقية الكبرى. سابق: ٥/ ٢٥٩)، وهو ابن عم السيد نور الياسري. هاجر إلى الحجاز بعد انتهاء الثورة مع عدد من قادتها بعد أن طلبه المحتلون وقصفوا مكان تجمعهم. اختير رئيساً لمجلس الأمة خلال حكومة رشيد عالي الكيلاني، وعضواً في مجلسي الأعيان والنواب لعدة دورات، توفي سنة (١٩٥١م) عن خمس وسبعين سنة.

(٣) عبد الواحد بن سكر. ولد سنة ١٨٨٠م. أحد كبار زعماء ثورة العشرين ومن أوائل من انضم إليها، شيخ مشايخ آل فتلة، الشجاع، الداهية المتدين الكثير التهجد في صلاته، والذي رفعت أول راية للثورة بالمشخاب في مضيفه (ينظر: المصدر السابق: ٥/ ١/ ١٢١). شارك وعشيرته في معظم معارك الاستقلال وكان له دور قيادي مشهود فيها. انتخب نائباً عن الديوانية لعدة دورات وعضواً في مجلس الأعيان. توفي سنة ١٩٥٤م.

(٤) ثورة العشرين في ذكراها الخمسين. سابق: ٧٦.

ونتيجة لتوسع نشاط الحزب فقد سمّى له معتمدين "في معظم مدن العراق فمعتمده في بغداد محمّد جعفر أبو التمن[١] والسيد محمّد الصدر[٢] والوسيط إليهما غالباً الشيخ محمّد باقر الشبيبي وأخوه جعفر الشبيبي، ومعتمده في الرميثة والسماوة الشيخ رحيم الظالمي، وفي كربلاء الشيخ أحمد الشيخ محمّد كاظم الخراساني والحاج محمّد حسن أبو المحاسن. وفي الحلة الشيخ مهدي البصير والسيد محمّد الباقر، ومحمد السيد موسى كمال الدين، وفي الدغّارة السيد كاظم فوزي، وفي عفك والهاشمية والجزيرة السيد كاظم العوادي، وفي الغراف الشيخ علي الشرقي، غير أن الأخير لم يستطع تنفيذ خطة الحزب في إثارة الغراف عندما وقعت الثورة الأمر الذي أسخط بعض أعضاء الحزب عليه. ومعتمد الحزب في الناصرية الشيخ عبد الحسين مطر، وفي سوق الشيوخ الشيخ محمّد حسن حيدر، وفي البصرة الشيخ عبد المهدي مظفر، وفي الحيرة وأبو صخير السيد هادي زوين، وفي الكفل وما جاورها عبد الأمير الشكري، وفي الكوفة محمّد أبو شبع ورسول تويج.

(١) جعفر بن محمّد حسن بن داود أبو التمن، ولد في بغداد سنة (١٨٨١م) من أسرة تجارية معروفة. انخرط في الدعوة إلى الجهاد في بغداد وكان له دور مشهود في توحيد جهود العراقيين شيعة وسنة وغيرهما في بغداد قبيل ثورة العشرين، عُيّن عضواً في اللجنة التأسيسية لوضع الإطار العام لحكومة الثورة في النجف الأشرف بعد تحريرها من المحتلين الإنكليز في ١٩٢٠م. كان همّه الأول جمع الكلمة وتوحيد الموقف ضد المحتلين في بغداد. لوحق هو ويوسف السويدي والشيخ أحمد الداوود وعلي البازركان من قبل قوات الإنكليز لاعتقالهم في (١١ آب ١٩٢٠م) بعد أن تحدّوا حكومة الاحتلال وأقضّوا مضاجعها مدة من الزمن فاستطاع النجاة من شرطتهم. اشترك في تأسيس أحزاب خلال العهد الملكي، تقلد وزارة التجارة ثم المالية وانتُخب عضواً في مجلس النواب والأعيان، يعد من كبار المؤسسين الأوائل لغرفة التجارة. توفي سنة ١٩٤٥م. ورغم الدور المبدئي الكبير للحاج في العراق لا زالت الدراسات والبحوث عنه شحيحة؛ لذا أدعو الباحثين في الجامعات ومراكز البحوث إلى تجلية دوره السياسي المبدئي في خدمة العراق والعراقيين.

(٢) السيد محمّد حسن الصدر، تولى رئاسة وزراء العراق سنة ١٩٨٤م، وقدم استقالته منها في السنة نفسها خلال اليوم التالي لانتهاء الانتخابات النيابية. وكان قد أسس حزب (حرس الاستقلال) عام ١٩١٩م، شغل عضوية مجلس الأعيان العراقي وتولى رئاسته. توفي سنة ١٩٥٦م.

وبواسطة هؤلاء المعتمدين كانت صِلات الحزب والمكتب دائمة مع معظم البلاد"[١].

***

المرجعية الدينية وثورة العشرين

لمّا كان العراقيون الشيعة وهم الغالبية العظمى من سكان العراق، يأتمرون بأمر مراجعهم وزعمائهم في أغلب ما يتصل بشؤون حياتهم الخاصة، وكل ما يتصل بشؤون حياتهم العامة، فهم لا يصدرون فيها إلّا عنهم، ولا يهبّوا للجهاد إلّا بأمرهم؛ لذلك فما أن قرر المرجع الميرزا محمّد تقي الشيرازي الهجرة من سامراء عبر الكاظمية إلى كربلاء في (١٢ جمادى الأولى ١٣٣٦هـ/ ٢٣ شباط ١٩١٨م) رغبة منه بسكنى كربلاء، وليس تلبية لرغبة زعماء الثورة النجفيين، خلافاً لما نقله بعض المؤرخين[٢] من أن زعماء الثورة في النجف الأشرف دعوه للسكنى فيها أول الأمر، فاستجاب لهم، فأعدّوا لوازم إقامته في النجف، ثم عدلوا عن ذلك فاختاروا له السكنى في كربلاء، فأقرّهم على ذلك، وهو خبر متداول ولكنه غير صحيح، والصحيح: هو عزم سماحته ابتداء على السكنى في كربلاء دون غيرها، حرصاً منه على قيامه بواجبه الديني في نشر العلوم الدينية فيها من جهة، وتنفيذاً لوصية والده له بسكنى كربلاء من جهة أخرى. وهو ما ورد صريحاً في نص نجله الشيخ عبد الحسين الحائري كما في أدناه[٣].

---

(١) ثورة العشرين في ذكراها الخمسين. معلومات ومشاهدات. سابق: ٧٨.

(٢) من قبيل: الشيخ فريق المزهر آل فرعون في كتابه الحقائق الناصعة عن الثورة العراقية: ٧٩-٨٠. و د. علي الوردي في كتابه: لمحات من تاريخ العراق الحديث: ٥/ ٦٢-٦٣، وحسناً أنه قدم ذكرها بكلمة (يقال)، والمؤرخ الصديق الفاضل كامل سلمان الجبوري في كتابيه: (السيد محمد كاظم اليزدي سيرته وأضواء على مرجعيته ومواقفه ووثائقه السياسية): ٤٦٨، والمواقف المشتركة لعلماء العراق وإيران ضد الغزو الأجنبي للبلاد الإسلامية ١٩٠٥-١٩٢٠م: ١/ ٣٤٠، سابق. والدكتور شاكر حسين دمدوم الشطري في بحثه (أثر المرجعية الدينية في الدفاع عن العراق خلال مدة الاحتلال البريطاني ١٩١٤- ١٩٢٠م) المنشور ضمن موسوعة فتوى الدفاع الكفائي: ٣/ ٧٥. وغيرها.

(٣) اعتماداً على نص رسالة الشيخ عبد الحسين الحائري نجل المرجع الأعلى الميرزا الشيرازي المؤرخة في =

وما أن حطّ سماحته ركابه في بلدة سيد الشهداء الإمام الحسين عليه السلام -كما يقول الشيخ علي الشرقي المعاصر للحدث- حتى "تهافت الساعون إلى كربلاء ينسلّون من سائر الأنحاء العراقية، وقرروا تأسيس جمعية سياسية دينية يرأسها ذلك الزعيم وتنتشر فروعها في العراق، وانصرف الجميع إلى العمل، مقررين: أن يجتمع زعماء الريف، وهم أهل السلاح، وعليهم المعوّل في الملمّات للحضور في النجف يوم السابع والعشرين من رجب، وهو موسم ديني معروف تحجّ له الشيعة من سائر الأطراف، فالاجتماع فيه لا يثير ريبة الحكام الإنكليز، ويتحسس الإنكليز خصوصاً الحاكم في النجف، فيوعز إلى حكام الأطراف أن يبرقوا إلى رجال مناطقهم بالعودة حالاً، ونردّ على هذا الكيد بأنْ عرّفنا الأصحاب أن يقولوا إن الموسم الديني لا تساعد تقاليدنا على تركه، وسوف ينتهي الليلة، وغداً نعود، وفي تلك الليلة ينعقد الاجتماع، ويتكلم المتكلمون باسطين آراءهم، وكان التصميم على الوقوف في وجه الإنكليز بأن يحرجوهم ليخرجوهم".

ويضيف الشيخ الشرقي الحاضر في الاجتماع المنعقد في دار المرحوم السيد علوان الياسري في النجف الأشرف ناقلاً أن "رأي النجفيين وأهل كربلاء العصيان المدني؛ لأن الزعيم (المرجع الأعلى الشيخ محمّد تقي الشيرازي) -الذي "درس منهج الزعامة وسيرها في المجتمع الإسلامي من أستاذه المربي الوحيد"[1] الميرزا السيد محمد حسن الشيرازي- لا يوافق على العصيان المسلح في الوقت

= جمادى الثاني ١٣٧٣هـ، المرسلة إلى السيد عبد الرزاق الوهاب، المنشورة في العدد الأول من السنة الأولى (١٣٧٣هـ) من مجلة (رسالة الشرق) الكربلائية تحت عنوان (نصيب كربلاء من تاريخ الشيخ فريق المزهر آل فرعون ص١٠) التي جاء فيها: "بعد احتلال القوات البريطانية مدينة سامراء... قرر المرحوم والدي اصطحاب العلوم الدينية إلى كربلاء، فوصل الكاظمية وبقي فيها عدة أشهر، وعندئذ طلب إليه المرحوم آية الله السيد حسن صدر الدين السكن في الكاظمية، فأجاب المرحوم والدي بأنّ وصية والدي (المرحوم المرزا محبّ عليّ) هي أن أسكن كربلاء... أمّا ما قيل عن إرسال كتبه وأثاثه إلى النجف أو الموافقة على السكن فيها أو ورود كتاب من أحد إليه أو إلى أخي المرزا محمد رضا حول هذا الموضوع - فليس بصحيح".

(١) معارف الرجال. سابق: ٢/ ٢١٥.

الحاضر، ورأي الفراتيين الثورة المسلحة وإشهام الإنكليز رائحة البارود؛ لأن الإنكليز لا يحسبون حساباً لغير السلاح، كما ولا تحلّ مثل هذه العقد إلّا بالتضحية، ورأي المنتفك والغراف بين بين، وبعد الاستماع إلى كافة الآراء تتم الموافقة بالإجماع على القيام مبدئياً بما يشبه العصيان المدني، وتنفيذاً لذلك قرروا:

أولاً: تأسيس جمعية باسم الجامعة الإسلامية مركزها كربلاء ولها فروع في كل العراق ويرأسها الميرزا الشيرازي.

ثانياً: توزيع منشور بتوقيع الشيرازي يأمر بالوحدة وجمع الشمل والتساند في كل المهام.

ثالثاً: جعل يوم الجمعة يوم الشعب تعطل فيه المكاسب ويترك البيع والشراء وتنصب المنابر في الساحات العامة ليتبارى الخطباء فوقها بما يستلزم الإثارة والتحضير"[١].

وقد أضافت رسالة طويلة أرسلها الشيخ علي الشرقي إلى الباحث جعفر الخليلي مُقرَّرَين إضافيين للاجتماع نشرهما الخليلي ضمن نشره لرسالة الشيخ الشرقي موقّعة باسم (فتى الفرات) هما:

"**رابعاً**: يوعز إلى قسم من أفراد العشائر بعدم الطاعة التامة للحكومة في شؤون الجباية، وعدم الاتصال بالحكام، والظهور بحالة تشبه ما سمي أخيراً في الهند بالعصيان المدني.

خامساً: الخروج بالنهضة من نطاقها الضيق وتعريف سائر الأقطار العربية بأهداف العراق"[٢].

وقد حضر الاجتماع المهم جمع من رجال الدين يأتي في مقدمتهم الشيخ محمّد رضا نجل المرجع الأعلى الشيرازي[٣]، والميرزا أحمد نجل الشيخ محمّد كاظم

---

(١) الأحلام. سابق: ١٤١- ١٤٤.

(٢) على هامش الثورة العراقية الكبرى. الشيخ علي الشرقي. نُشر باسم مستعار هو (فراتي): ٢٤.

(٣) الشيخ محمّد رضا الشيرازي من كبار زعماء الثورة والساعد الأيمن للمرجع الأعلى ومفجر الثورة الشيخ =

الخراساني، وقسم من زعماء العشائر كالسيد علوان الياسري، والحاج عبد الواحد آل سكر، والشيخ خيّون العبيد، وبعض التجار والوجهاء، مثل: الحاج محمّد جعفر أبو التمن، وآخرون، منهم: السيد حسين كمال الدين، والشيخ علي الشرقي -(ولا أشك أبداً أن الشرقي هو كاتب الرسالة ومرسلها إلى ناشرها جعفر الخليلي)- وكثير من رجالات العراق الآخرين، وتم الاتفاق بين المجتمعين على تأجيل القيام بالثورة المسلحة في الوقت الحاضر كما تقدم، وعلى العمل في التمهيد لها عن طريق التوعية الوطنية والدينية، حتى إذا صار الناس مستعدين للثورة متى آن الأوان قاموا بها، "وحينئذ يمكننا أن نقدم القرابين للغرض المقدس ونبلو البلاء الحسن"[١].

ويبدو من خلال التمعّن في النصّين المتقدمين لثلاثة من المشاركين في ثورة العشرين والشاهدين على أحداثها، وهم كلٌّ من: السيد محمّد علي كمال الدين، والشيخ علي الشرقي، والأستاذ حسن الأسدي[٢] -كما يظهر من خلال التدقيق في أسماء أعضائها، سواء من كان منهم من كبار العلماء والمجتهدين، أم من فضلاء الحوزة العلمية، أم من الوطنيين الآخرين من مختلف الطبقات السياسية والاجتماعية وغيرهم- أنّ غالبية المتحمّسين للثورة إضافة إلى المراجع هم من دعاة الحركة الدستورية (المشروطة) أو مؤيديها، أو الموافقين على أطروحتها، بل فيهم العديد

= محمّد تقي الشيرازي، له مواقف مشهودة في التصدي الفعال للإنكليز، والدعوة إلى الجهاد، أرسل رسالة إلى الأمير علي ابن الشريف حسين في (٧ رمضان ١٣٣٨هـ) مع رسالة أبيه المرجع الأعلى المبعوث إلى مكة بيد الشيخ محمّد رضا الشبيبي يطلب منه فيها إعلان ظلامة الشعب العراقي من محتليه في مؤتمر الصلح وعصبة الأمم. أسس منظمة باسم (الجامعة الإسلامية) للتصدي للمحتل الإنكليزي، اعتقلته سلطات الاحتلال وكان لاعتقاله أثر كبير في تأجيج نيران الثورة ضد الإنكليز، وقيّدت يديه وربطت رجليه بالأصفاد خلال اعتقاله، ونفته إلى جزيرة (هنجام) الهندية عن طريق البصرة حيث وضعته لحين تسفيره إلى هنجام في سجن رطب ومظلم ينشر الماء فيه باستمرار ليمنع النزلاء من النوم، ثم أركبته في باخرة مكشوفة وضعوه على سطحها تحت الشمس الحارقة، ثم سجنوه في منفاه تحت الشمس أو في مخازن الفحم الحجري. ينظر: (في سبيل الله. مذكرات الشيخ محمد الخالصي: ٨٦٣-٨٦٤).

(١) على هامش الثورة العراقية الكبرى. سابق: ٢٣.

(٢) ثورة النجف على الإنكليز. سابق: ٣٦٩-٣٧٠.

من ناشطيها الأوائل ممن وردت أسماؤهم في قائمة أثبتها سماحة السيد هبة الدين الشهرستاني في مذكراته خلال حديثه عن خلية عمل لحركة المشروطة كانت تجتمع سنة (١٣٢٦هـ/ ١٩٠٨م) مهمتها "تدبير الأعمال ورسم الخطط بصورة سرية في سراديب النجف خشية العوام وحاشية السيد اليزدي فهم فريق من الأحرار المخلصين"[١].

بل قد يصح القول بأن المراجع وكبار العلماء والمجتهدين والفضلاء من دعاة الحركة الدستورية أو مؤيديها أو الراضين بأطروحتها هم أُسّاس ثورة العشرين وعمادها، ومنظّروها وقادتها، والداعون إليها[٢]، ناهيك عن غير الحوزويين من طبقات الشعب الأخرى ممن كانوا داعمين لحركة المشروطة وتنظيرها لشكل نظام الدولة الدستورية.

لقد تتبعتُ سير المجتهدين وكبار العلماء المشاركين في ثورة العشرين، بأشكال المشاركة كافة، بما فيها العمليات العسكرية، سواء أكان هؤلاء من كبار مجتهدي النجف الأشرف، أم من كربلاء، أم من الكاظمية، أم غيرها؛ فوجدتُ غالبيتهم -إن لم يكونوا كلهم- من دعاة الحركة الدستورية (المشروطة) وكبار رجالها، فهم من داعميها أو مؤيديها، أذكر منهم على سبيل المثال: المراجع من مفجري الثورة وقادتها كل من: الميرزا محمّد تقي الشيرازي أحد المراجع والمجتهدين العشرة الذين وقّع نيابة عنهم المرجع الخراساني في رسالته التي جاء فيها "فواجب المسلمين أن يقفوا دون أي حركة ضد المجلس" المتقدم ذكرها، وغيرها[٣]، وهو الذي "عوّل عليه عامة الدستوريين والأحرار"[٤] في تطبيق مشروعهم الدستوري بعد انتصار ثورة العشرين، وشيخ الشريعة الأصبهاني، والسيد أبو الحسن الأصفهاني من خاصة

(١) من مذكرات السيد هبة الدين الشهرستاني عن المشروطة والاستبداد. سابق: ٧٢١-٧٢٢.

(٢) ينظر: المرجعية الدينية الموقف الوطني في العراق بعد ٢٠٠٣. كارولين مرجي صائغ: ٢٩.

(٣) ينظر: المصلح المجاهد الشيخ محمد كاظم الآخوند الخراساني. عبد الرحيم محمد علي. منشور ضمن كتاب فصول من تاريخ النجف: ٢/ ٣٦٩.

(٤) المصدر السابق: ١١٧.

وتلامذة زعيم حركة المشروطة[١] وأحد الفقهاء المرشحين من قبله لمجلس الشورى الإيراني لضمان عدم تشريعه ما يخالف أحكام الشريعة الإسلامية[٢]، والشيخ محمّد حسين النائيني الساعد الأيمن لزعيم المشروطة في رسائله السياسية وتنظيراته الفكرية ومؤلف أهم كتاب عنها، والشيخ مهدي الخالصي[٣]، والسيد إسماعيل صدر الدين[٤]، إضافة إلى عدد غير قليل من المجتهدين وكبار العلماء والفضلاء،

(١) المرجع الأعلى بعد وفاة المرجع شيخ الشريعة الأصبهاني وممثله إلى ساحات الجهاد في ثورة العشرين، وأحد زعماء الحركة الدستورية، ومن كبار تلامذة زعيمها المرجع الشيخ محمّد كاظم الخراساني بل وصيه على زعامة الجيش الذي عسكر خارج النجف قاصداً خراسان للجهاد ضد العدوان الروسي، غير أن المرجع الشيخ الخراساني مرض فجأة وتوفي فخلفه على القيادة وصيه السيد أبو الحسن، عارض السيد أبو الحسن تولي الملك فيصل عرش العراق، كما عارض بشدة حكومة الاحتلال والانتداب البريطانية للعراق، ووقف في وجه تمرير الاتفاقية العراقية البريطانية المذلة، فأفتى بتحريم الاشتراك في الانتخابات في ظل الانتداب البريطاني فتعطلت الانتخابات، ولم تستطع الحكومة إجراءها إلّا بعد تسفيره إلى إيران. عاد منها للنجف. وما أن شبت ثورة الأحرار في العراق ضد الإنكليز سنة (١٩٤١م) أفتى بدعمها. تفرد بالمرجعية العليا سنوات دون منافس. توفي سنة (١٣٦٥هـ/ ١٩٤٦م) ودفن بالصحن الحيدري.

(٢) السيد أبو الحسن الأصفهاني. سيرته وأضواء على مرجعيته. سابق: ٢/ ١٧١-١١٨ نقلاً عن: تشيع ومشروطية. عبد الهادي الحائري: ١/ ١٣-١٤.

(٣) ولد الشيخ محمد مهدي بن محمد حسين الخالصي قريباً من مدينة الكاظمية ببغداد سنة (١٢٧٦هـ) وتلقى تعليمه في الكاظمية والنجف وسامراء على أكابر مراجعها كالشيخ حبيب الله الرشتي والسيد محمد حسن الشيرازي المعروف بالمجدد والشيخ محمد كاظم الخراساني المعروف بالآخوند زعيم حركة المشروطة. وتأثر كثيراً بأستاذَيهِ المرجعين الآخوند الخراساني والمجدد الشيرازي. تولى تدريس الفقه والأصول والكلام في الكاظمية. وتصدى للمرجعية وأسس مدرسة دينية في الكاظمية باسم مدرسة الزهراء. أفتى ضد الإنكليز، والتحق بجبهات القتال ومعه ابنه الشيخ محمد ضد الإنكليز بعد احتلالهم للبصرة. التحق بالمرجع الميرزا الشيرازي مفجر ثورة العشرين بكربلاء في عام (١٣٣٧هـ)، وبقي معه وابنه مدة. بايع فيصل كملك على العراق بشروط أخل بها فنقض بيعته. تولى رئاسة مؤتمر كربلاء ضد هجمات الوهابيين على العراق سنة ١٣٤٠ هجرية، وأفتى مع المراجع بحرمة الاشتراك في انتخابات الجمعية التأسيسية للمصادقة على المعاهدة العراقية البريطانية، فنفته حكومة الملك فيصل إلى خارج العراق. له من الكتب: القواعد الفقهية، حاشية على كفاية الأصول، رسالة الحسام البتار في جهاد الكفار، رسالة عملية. توفي سنة ١٣٤٣ هجرية في إيران ودفن في رواق دار السيادة حيث ضريح الإمام الرضا عليه السلام.

(٤) السيد إسماعيل بن محمد بن صدر الدين، أصله من جبل عامل ولكنه ولد سنة (١٢٥٨هـ) بأصفهان =

منهم كل من: السيد مصطفى الكاشاني، ونجله السيد أبو القاسم الكاشاني[١] الموصوف في تقرير بريطاني بأنه "يمارس تأثيراً مهلكاً على الميرزا في كربلاء"[٢]، والشيخ عبد الكريم الجزائري، والشيخ حسن علي القطيفي، والسيد هبة الدين الشهرستاني، والسيد محمّد علي بحر العلوم، والشيخ محمّد رضا الشيرازي نجل مفجر الثورة وقائدها، والشيخ محمّد رضا الشبيبي، والسيد محمّد رضا الصافي، والشيخ محمّد باقر الشبيبي، والشيخ محمّد جواد الجزائري، والشيخ علي الشرقي، والسيد محمّد علي كمال الدين، والسيد سعيد كمال الدين، والسيد حسين كمال الدين، والشيخ جواد الجواهري، والشيخ مهدي نجل المرجع زعيم المشروطة الشيخ محمّد كاظم الخراساني، والشيخ إسحاق الرشتي، والشيخ عبد الحسين

= فدرس المقدمات والسطوح، ثم توجه إلى النجف الأشرف قاصداً التلمذة على الشيخ مرتضى الأنصاري، فلما وصل كربلاء سمع بخبر وفاة الشيخ الأنصاري فحضر على المرجعين الشيخ راضي والشيخ مهدي كاشف الغطاء. لازم المرجع السيد المجدد الشيرازي في سامراء وتتلمذ عليه، وبعد وفاة أستاذه المجدد بسنتين هاجر إلى كربلاء وهو مرجع مقلد، ثم هاجر منها إلى الكاظمية فتوفي فيها سنة (١٣٣٨هـ) أو بحدودها، ودفن في رواق الكاظمية الشريف.

(١) السيد أبو القاسم السيد مصطفى الكاشاني، ولد سنة (١٣٠٠هـ) وتلقى علومه على أكابر مراجع النجف وفي مقدمتهم الشيخ محمّد كاظم الخراساني والشيخ الخليلي حتى بلغ مرحلة الاجتهاد فمنحاه إجازته كل من السيد أبو الحسن الأصفهاني والشيخ أغا ضياء العراقي. شارك مع والده في التصدي للإنكليز خلال احتلالهم للبصرة سنة (١٩١٤م) وكانت له فيها مواقف وخطب مشهودة، وله دور بارز في ثورة العشرين بل كان من قوادها. وحين رأت قيادة الثورة وجوب إشغال الجيش الإنكليزي في إيران كي لا يقوم بمساندة جيشهم في العراق أرسلته مبعوثاً عنها ليحمل الفتاوى إلى القبائل الإيرانية القاطنة بمسرى الجيش الإنكليزي فيما لو أراد الزحف إلى العراق فقام بوظيفته خير قيام رغم وعورة الطريق وقساوة اجتيازه. غادر إلى إيران بعد انتهاء الثورة تخلصاً من طلب قوات الاحتلال الإنكليزي. وكان له دور فاعل في قيادة تظاهرات ضخمة ضد منح بريطانيا امتيازات في مجال النفط بإيران. فاعتقلته الحكومة وسجنته ونفته إلى بيروت. وفي عام (١٩٥٠م) عاد إلى طهران فاستقبلته مئات الآلاف من الشباب الإيراني. دعم رئيس وزراء إيران (محمد مصدق) في إلغاء الامتياز الممنوح لشركة النفط الإيرانية البريطانية. ثم اختلف معه لمواجهته الحركة العلمائية. توفي في سنة (١٩٦٢م) بعد مرض طويل ودفن جوار مرقد الشاه عبد العظيم الحسني. ولا زالت نشاطات سماحته بحاجة إلى بحث وتتبع لأهمية دوره في الجهاد ضد الاحتلال في العراق وإيران.

(٢) العراق في سجلات الوثائق البريطانية ١٩١٤-١٩٦٦. المجلد الثاني. سابق: ٣٥٧.

مطر، والسيد مسلم زوين، والشيخ أحمد نجل المرجع زعيم المشروطة الشيخ محمّد كاظم الخراساني، والشيخ محمّد حسين الحلي، والشيخ حسين الحلي، والشاعر الشيخ محمّد حسن أبو المحاسن، والخطيب والشاعر الشيخ محمّد مهدي البصير، والشيخ محمّد حسن آل حيدر، والشيخ كاتب الطريحي، والشيخ عبد الغني الجواهري، والشيخ محمّد رضا كاشف الغطاء، والشيخ جعفر حيدر، وغيرهم ممن لا يسعني استعراض أسمائهم والتعريف بهم خشية الإطالة[1].

وليس أدلّ على أنّ قادة الثورة وزعماءها الدينيين والمدنيين -بمن فيهم شيوخ العشائر والوجهاء والوطنيين وقادة الرأي في المدن الثائرة- كانوا من متبنّي الحركة الدستورية (المشروطة) أو داعميها أو الداعين إليها؛ ممّا نصت عليه بيانات ورسائل المراجع الموجهة للعراقيين ولزعماء العالم، وما حوته المضابط المصرحة بمطالبهم المقدمة لقوات الاحتلال البريطاني، من أنهم يطالبون بالاستقلال التام العاري عن كل تدخل أجنبي في ظل دولة عربية إسلامية يرأسها ملك عربي مسلم مقيد بمجلس تشريعي وطني كما سيأتي ذلك مفصلاً.

❀ ❀ ❀

(١) تنظر أسماء هؤلاء المراجع والعلماء والفضلاء في كتاب (ثورة النجف على الإنكليز للأستاذ حسن الأسدي: ٣٦٩ -٣٧٠)، وفي كتاب (السيد محمّد كاظم اليزدي. سابق: ٤٥٢-٤٥٩). وفي المقابل زعم بعضهم أن المجتهد المجاهد السيد محمد سعيد الحبّوبي من دعاة حركة المشروطة وقادة تيار الإصلاح. ينظر: محمد سعيد الحبوبي ودوره الفكري والسياسي. علي فاروق محمود الحبوبي: ١٠١. غير أني لم أجد من خلال تتبعي ما يدعم هذا الزعم.

المبحث الثالث

مواقف المرجعية الدينية من الاستفتاء على مستقبل العراق إلى ثورة العشرين (١٣٣٧هـ/١٩١٨م- ١٣٣٩هـ/١٩٢٠م)

يحسن بي بادئ ذي بدء أن أقدم لموضوع بحثي هذا بتمهيد وهو:

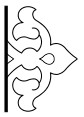

تمهيد: حول موقف المرجعية من بداية الاحتلال البريطاني للعراق إلى الاستفتاء (١٣٣٢هـ/١٩١٤م) إلى (١٣٣٧هـ/١٩١٨م).

بادئ ذي بدء لا بدّ لي من أن ألقي الضوء على مرادي بـ(الاستفتاء)، ذلك أنه "في (٢٥ صفر سنة ١٣٣٧ هجرية/ ٣٠ تشرين الثاني ١٩١٨م) نشر نائب الحاكم العام للعراق السير ولسن أسئلته الثلاث التي بنى عليها الاستفتاء العام عن كيفية تأسيس الحكم الذاتي وانتخاب الملك"[(١)]، بعد أن فوضه مجلس الوزراء البريطاني ذلك في (٢٨ صفر ١٣٣٧هـ/ ٢٧ تشرين الثاني ١٩١٨م). والأسئلة -كما وردت في كتاب (العراق في سجلات الوثائق البريطانية) وكما هو المتداول في كتب المؤرخين المتطابقة مع مصادر قريبة من الحدث- ما يلي:

١. هل ترغبون بحكومة مستقلة تحت الوصاية البريطانية يمتد نفوذها من أعالي الموصل إلى خليج العجم؟

٢. هل ترغبون أن يرأس هذه الحكومة أمير عربي؟

٣. من يكون ذلك الأمير الذي تختارونه؟"[(٢)].

وقد ورد نص المادتين الأولى والثالثة من الاستفتاء بصورة مختلفة جزئيّاً أو لفظيّاً عند المؤرخ البريطاني المعروف لونكريك، غير أن الاختلاف في ذيل المادة

---

(١) كربلا في التاريخ. عبد الرزاق آل وهاب: ٣/ ٤١.

(٢) العراق في سجلات الوثائق البريطانية. نص رسالة من وزير الخارجية إلى الحاكم المدني بغداد في ٢٨ تشرين الثاني ١٩١٨م. المجلد الثاني: ١٨٣، وتاريخ القضية العراقية. محمد مهدي البصير: ٨١-٨٢. ط١. وينظر: كربلا في التاريخ. سابق: ٣/ ٤.

الثانية ذو مغزى عميق، حيث جاءت بالنص التالي: "هل يجب أن تحكم هذه الدولة من قبل رئيس عربي بصفة رسمية ليس إلاّ؟"[١].

وسواء أوردت صيغة الاستفتاء على النص الأول المتداول أم الثاني الذي ذكره لونكريك؛ فقد علم العراقيون آنذاك أن هذه أول مرحلة زاغ فيها الإنكليز عن الحق الذي طمعوا فيه، وأخلفوا وعودهم بجعل هذا الشرط من البند الأول من أسئلة الاستفتاء، وهو: "(تحت الوصاية الإنكليزية) فأنكروا ذلك، وجعلوا يتبرمون، ويستنكرون الوصاية"[٢].

وقد "قالت الآنسة بيل بعد إيرادها نص الأسئلة الثلاثة (ولمّا باشرنا بالعمل أدركنا الخيبة في الحصول على ما نرومه من الأجوبة)، وعللت ذلك بعدم اتفاق الأهلين على رأي، ونحن لا ننكر أن الاختلافات ظهرت في بعض الأنحاء، إلّا أنها لم تكن كبيرة إلى درجة يُعبأ بها"[٣].

إضافة إلى أن "صيغة الاستفتاء لم تخدع المرجعية الدينية؛ لأن الحقيقة فيه هي ليست (ترشيح) بل (تعيين) ملك على العراق مقيد بدستور من الناحية الشكلية تشرف عليه بريطانيا"[٤].

بعد ذلك أقول: منذ أن وطئت القوات البريطانية الغازية أرض العراق فاحتلت مدينة الفاو بتاريخ (٢٥ ذي الحجة ١٣٣٢هـ/ ١٤تشرين الثاني ١٩١٤م)، أصدر المجتهد المجاهد السيد محمد سعيد الحبوبي (حكماً) بوجوب الجهاد الدفاعي. و(الحكم) الذي يصدره الفقيه الجامع للشرائط "لا يُردّ، فإنه ينفذ على كل أحد، مجتهداً كان أو محتاطاً أو مقلداً، مقلداً لمن حكم أو لغيره من المجتهدين، هذا كله

---

(١) العراق الحديث من سنة ١٩٠٠- ١٩٥٠. لونكريك: ١/ ١٨٩.

(٢) كربلا في التاريخ. سابق: ٣/ ٤١.

(٣) تاريخ القضية العراقية. محمد مهدي البصير. ١/ ٨٢. ط١.

(٤) المرجعية الدينية العليا وموقفها من أبرز التطورات السياسية الوطنية والعربية ١٩٢١-٢٠٠٣. د. مقدام عبد الحسن الفياض. سابق: ١٤٤.

إذا كان الحاكم جامعاً للشرائط المعتبرة في الحاكم من الاجتهاد والعدالة وغيرهما"[١]، ثم تلا سماحة السيد الحبوبي المراجع الآخرون، فأصدروا فتاوى أوجبوا فيها الجهاد الدفاعي على المؤمنين، وأخص بالذكر منهم المراجع الثلاثة الذين تقلدوا زمام المرجعية العليا زمن موضوع الدراسة، وهم كل من أصحاب السماحة: السيد محمّد كاظم اليزدي، والشيخ محمّد تقي الشيرازي، والشيخ فتح الله الأصبهاني المعروف بشيخ الشريعة الأصبهاني، ثم المراجع وكبار العلماء كل من أصحاب السماحة: الشيخ محمّد مهدي الخالصي مرجع الكاظمية، والسيد أبو الحسن الأصفهاني، والشيخ محمّد حسين النائيني، والسيد علي الداماد، والسيد مصطفى الكاشاني، والسيد مهدي الحيدري، والسيد عبد الرزاق الحلو، وغيرهم كثير، فوجدتها تجمع كلها على وجوب الجهاد الدفاعي ضد المحتلين الإنكليز.

ولم يكتفِ العديد من المجتهدين بإصدار الفتاوى والكتب والرسائل والبيانات والخطب، بل شاركوا المجاهدين -رغم كبر سن بعضهم- بالمعارك العسكرية الميدانية في جبهات القتال، كما هو حال المرجع شيخ الشريعة الأصبهاني الذي سافر إلى سوح الجهاد الدفاعي مرتين، مرة إلى جبهة البصرة بعد فتوى الجهاد الدفاعي سنة (١٩١٤م)، وأخرى إلى الكاظمية بعد تأكيد الفتوى الأولى بفتوى ثانية أصدرها المرجع الأعلى سماحة السيد اليزدي للتعبئة وحشد الطاقات للحيلولة دون احتلال الإنكليز لبغداد بتاريخ (١٧جمادى الأولى ١٣٣٥هـ/ ١١ آذار ١٩١٧م)، فقد قاتل سماحته رغم شيخوخته ومرضه بسلاحه وخطبه وبياناته واستنهاضاته وتعبئته ضد الإنكليز المحتلين، ومثل حال المرجع شيخ الشريعة الأصبهاني حال المرجع الشيخ محمّد مهدي الخالصي الذي شارك ونجله شخصياً في التصدي للإنكليز في البصرة رغم وضعه الصحي غير المساعد. والمرجع السيد مهدي الحيدري وأولاده والعديد من أفراد أسرته رغم شيخوخته وكبره، والسيد

(١) حجر وطين. المرجع الشيخ محمد تقي الفقيه العاملي: ٤/ ٢٠٠. وهامش رقم ١.

الداماد، والسيد الكاشاني، والسيد القمشئي، وغيرهم كثير، ناهيك عن غيرهم من المراجع والمجتهدين ممن هم أصغر سنّاً كالسيد محمد سعيد الحبوبي الذي قاد هو وعضده السيد محسن الحكيم جحافل من المجاهدين قدروا بعشرات الألوف في جبهة الشعيبة العسكرية وغير من تقدم من العلماء والفضلاء الذين شخصوا بأنفسهم للجهاد كُثُر.

أما من لم يستطع من المراجع المشاركة فعلياً في القتال لظروفه، فقد تمثلت مشاركتهم بعد الفتاوى الملزمة بإرسال مبعوثين عنهم يمثلونهم شخصياً في الميدان، وقد تجسد ذلك بإرسال المرجع الأعلى حينها سماحة السيد محمّد كاظم اليزدي نجله المجتهد السيد محمّد اليزدي إلى سوح الجهاد مرتين، مرة إلى البصرة، وأخرى إلى الكاظمية فالكوت، والمرجع الميرزا محمّد تقي الشيرازي بإرساله نجله الشيخ محمّد رضا الشيرازي لجبهة العمليات في البصرة، كما بعث كبار السنّ من المراجع مستشاريهم من المجتهدين وكبار العلماء والفضلاء ووكلائهم إلى سوح العمليات العسكرية على طول الجبهات وعرضها.

لقد أبلى المجاهدون العراقيون –المسلحون بإيمان راسخ وعزم أكيد، وشجاعة نادرة، رغم أسلحتهم البدائية– بلاء حسناً في المعارك التي خاضوها هم والقوات التركية ضد جيش استعماري غازٍ يُعد وقتئذ من أقوى جيوش العالم، زحفت قواته لاحتلال بلدهم بجيوش "بلغ عددها تدريجياً ربع مليون جندي" مسلح بأقوى أسلحة الفتك والقتل والتخريب والتدمير بما فيها الأسلحة الثقيلة والمدافع بعيدة المدى والصواريخ والبوارج الحربية والطائرات التي لم يرها العراقيون من قبل، ثم ازدادت أعداد الجيش الغازي تدريجياً ليبلغ "عدده ما يقارب ٤٢٠,٠٠٠ فرداً"[١] كي يستطيع بهم احتلال العراق كله.

***

(١) حرب العراق. الصفحة الأخيرة. المقدم. أي. اج. بيرن: ٦ و١٦٠ على التوالي.

مواقف المرجعية الدينية من الاستفتاء إلى نهاية ثورة العشرين

يستطيع المتأمل في مواقف المرجعية الدينية خلال المدة المحددة أعلاه أن يلاحظ أنها نحت منحيين لكل منهما رواده ومؤيدوه وسيتضح ذلك مما يلي:

١. منحيان ورُوّادهما

تمتد هذه الحقبة زمنياً من (١٣٣٧هـ/ ١٩١٨م) إلى (١٣٣٩هـ/ ١٩٢٠م) حيث نحت مواقف المرجعية خلالها أكثر من منحى تجاه طلب الإنكليز بإجراء استفتاء لمعرفة رأي المواطنين من خلال أجوبتهم على الأسئلة الموجهة إليهم حول مصير العراق، أبرز هذه المناحي منحيان:

المنحى الأول ورواده: وهو المنحى القاضي بالتحفظ عن الإجابة على أسئلة السائلين عن تحديد الموقف الواجب اتخاذه من طلب الاستفتاء حين الاستفتاء، وقد تمثل هذا المنحى بالمرجع الأعلى حينئذ سماحة السيد محمد كاظم اليزدي ومن نهج نهجه.

وكان السير أرنولد ولسون نائب الحاكم الملكي العام في العراق قصد بنفسه مدينة النجف الأشرف في (١٣٣٧هـ/ ١٩١٨م) لأهمية رأيها، كونها مركز المرجعية العليا والحوزة العلمية، وعرض على كبار علمائها ورجالها وزعمائها أسئلة استفتائه الثلاثة، فقصد هؤلاء الزعماء أو من يمثلهم مرجعهم الأعلى سماحة السيد اليزدي فأطلعوه على ما دار في الاجتماع، فقال: "إن الأمر لخطير جدّاً، ولكل أحد حق في إبداء الرأي، سواء أكان تاجراً أم بقالاً، زعيماً أم حمّالاً"[١]، ونصحهم بالتشاور وتقليب الأمور ظهراً لبطن ثم موافاته بالنتيجة.

ويذهب بعض الباحثين إلى أن المرجع الأعلى بموقفه هذا قصد "أن يقطع الطريق أمام البريطانيين بإجراء استفتاء شكلي، وإنما إجراء استفتاء حقيقي... لأن

(١) السيد محمد كاظم اليزدي سيرته وأضواء على مرجعيته ومواقفه ووثائقه السياسية. سابق: ٤٦٦.

أخذ رأي عامة الشعب قد يؤدي وباحتمال كبير إلى رفض الحكم البريطاني"[١]، فنصح المرجع سائليه أول الأمر بالاجتماع والمداولة فيما بينهم وموافاته بالنتيجة، فاجتمعوا، فاختلفوا وتفرقوا، فذهب رؤساؤهم إلى السيد اليزدي في الكوفة مرة أخرى يطلبون رأيه بعدما اختلفوا، فقال لهم: "أنا رجل دين، لا أعرف غير الحلال والحرام، ولا دخل لي بالسياسة مطلقاً". فلما ذكّروه بما قاله بالأمس قال لهم: "اختاروا ما هو أصلح للمسلمين"[٢].

ويروي سماحة الشيخ محمّد حسين كاشف الغطاء -وهو من خاصة مستشاري ومرافقي المرجع الأعلى سماحة السيد اليزدي- أن قادة الثوار كانوا يدركون: "أن الثورة لا تكون ذات أثر إلّا إذا استندت إلى موافقة الزعيم الروحاني والمرجع العام، فكانوا يحضرون ثلة بعد ثلة[٣]، ويفاوضونه سرّاً وتحت حجب الخفاء، والسيد -أعلى الله مقامه- لمعرفته البليغة بأحوال أهل العراق، وعدم ثقته بهم، يتنصل من الدخول معهم، ومن مساعدتهم، ويقول: أنا لا آمركم ولا أنهاكم، فدعوني جانباً وملجأ عند الفزع وعدم الفوز لا سمح الله، وبقيت الفكرة تختلج في الصدور، والقوم يحجمون تارة، ويقدمون أخرى، كل ذلك من عدم موافقة السيد التي هي الحزم والسداد"[٤].

ولم يقتصر الموقف المتحفظ -من الدخول في الشأن السياسي ودعم ثورة

---

(١) أثر المرجعية الدينية في الدفاع عن العراق خلال مدة الاحتلال البريطاني ١٩١٤- ١٩٢٠م. بحث. د. شاكر حسين دمدوم الشطري. من بحوث: المرجعية الدينية العليا وأبرز المواقف الوطنية. ١٩١٤- ٢٠١٤. موسوعة فتوى الدفاع الكفائي: ٣/ ٧٣.

(٢) السيد محمّد كاظم اليزدي سيرته وأضواء على مرجعيته ومواقفه ووثائقه السياسية. سابق: ٤٦٣- ٤٦٦. ولمحات اجتماعية من تاريخ العراق الحديث. سابق: ٥/ ١/ ٧٠.

(٣) وردت جملة "ثلة بعد ثلة"، خطأً، بالصيغة التالية "أرى ثلة" في كتاب: السيد محمّد كاظم اليزدي سيرته وأضواء على مرجعيته ومواقفه ووثائقه السياسية لكامل سلمان الجبوري. ص ٤٦٦ هامش٢. نقلاً عن مذكرات الإمام كاشف الغطاء: ٣٩٣.

(٤) عقود حياتي. سابق: ١١٥. السيد محمّد كاظم اليزدي. سابق: ٤٦٦ هامش٢. نقلاً عن مذكرات الإمام كاشف الغطاء: ٣٩٣.

العشرين وتطبيق الحكم الدستوري بعدها إن نجحت الثورة- على سماحة المرجع الأعلى السيد اليزدي وحده، بل هناك بعض المجتهدين وكبار العلماء ممن ذهب إلى الموقف نفسه أيضاً، وفي مقدمتهم كلّ من أصحاب السماحة: الشيخ أحمد آل كاشف الغطاء، والشيخ جعفر الشيخ عبد الحسن الشيخ راضي، والشيخ موسى العصامي، والسيد محمّد الفيروزآبادي، والشيخ محمّد حسين آل كاشف الغطاء، وغيرهم، وهم قليلون قياساً بمتبنّي المنحى الثاني.

فأما الشيخ أحمد آل كاشف الغطاء فقد أجاب سائله الشيخ موسى العصامي عن سؤاله التالي: "أنت أحد العلماء الذين تجنبوا الدخول في ثورة العراق، وألزموا أنفسهم بعدم التدخل بالأوضاع السياسية، وقد جاءت البلية لهم من هذا الوادي، فكيف دخلت فيه؟ فقال: "لم أدخل"، وإنما حرم سماحته الدخول في المجلس التاسيسي ليس "من باب الوضع السياسي لأجل أن أضع فيه رأيي، وإنما سُئلت عن عنوانه وتأليفه بالنسبة إلى أصول المذهب الإمامي، أو الشورى واقتراع الآراء وتأليف القوانين الدولية"[1] فقلت بالتحريم، في إشارة منه إلى فتواه بحرمة عقد وتأسيس المجلس التأسيسي، وقد وزعت من منشور فتواه في العراق ألف نسخة، نصفها في بغداد.

وأما الشيخ جعفر الشيخ راضي الذي أعلن أنه سيشايع المراجع المسفّرين إلى إيران لمعارضتهم الانتخابات في ظل الانتداب، ورفضهم للمعاهدة العراقية البريطانية المذلّة، فقد سأله الشيخ موسى العصامي أيضاً بقوله: "أنت ممن تجنب الدخول في أعمال الثورة العراقية، ولم تشترك فيها بيد ولا لسان، فكيف تعاضد من سبح في تيارها وضرب بكلتا يديه؟ فقال: أنا لم أدخل فيما دخل فيه غيري من العلماء لجهل الموقف موضوعاً وحكماً لدي، وبما أني أعدّه من الشبهات، فالحكم الشرعي ألزمني بالتجنّب، فأما من دخل من العلماء فلا أتهمه، وعمله عندي

(١) مذكرات العلامة الشيخ موسى العصامي. القسم الثاني. مجلة آفاق نجفية. العدد: ٢٢ لسنة ١٤٢٢هـ/ ٢٠١١م. ص١١٩.

محمول على الصحة، أصاب فيه أو أخطأ.. ولعل من أفتى وقف في البين على ما لم أقف عليه، فالواجب الديني يقضي عليه بالفتوى، وعليَّ بالتوقف"[١].

وأما الشيخ موسى العصامي فرأيه واضح من صيغة سؤاله المتقدم للشيخ أحمد كاشف الغطاء، ولوضوحه لا يحتاج معه إلى مزيد بيان.

وأما السيد محمّد الفيروزآبادي فقد أرسل على الشيخ موسى العصامي المتقدم ذكره، واستشاره في أمر خروجه لتوديع المراجع المسفرين فأجابه الشيخ العصامي: "أما الرأي العام فهو يشايع العلماء بعامة أصنافه وطبقاته، ... وعليه أنك تخرج إلى الجسر كغيرك من الفقهاء، وأظهر لهم أنك أتيت لتجديد العهد بهم، وتعزيز مقامهم لا غير.. وقل لهم بكمال المصارحة: إني ممن تجنب الوضع السياسي، ولم أدخل فيه، والأمر الذي أنتم فيه من بابه ووواديه، وأنا لا أعلم كنهه وحقيقته، فإذا ترجح في نظرك الموافقة فسر بمسيرهم إلى إيران، وإلّا تسقط في نظر الناس"[٢].

وأما الشيخ محمّد الحسين آل كاشف الغطاء فموقفه واضح أيضاً قبل وفاة المرجع السيد اليزدي، وقد تبين ذلك بجلاء من ذيل كتابته أعلاه، حيث أوضح فيها قناعته وهو يعقب على رؤية السيد اليزدي المتقدم ذكرها واصفاً إياها بأنها: "هي الحزم والسداد"[٣].

هذا ما كان من الشيخ قبل وفاة المرجع السيد اليزدي. أما بعد وفاة المرجع الأعلى السيد اليزدي وخلال ثورة العشرين فقد تغيّر موقف الشيخ آل كاشف الغطاء كما أورد في مذكراته ذلك أيضاً بقوله: "بعد أن نشبت أظفار الثورة واستعرت الحرب بين قبائل الفرات والجنود البريطانية، اشتركنا في القضايا الوطنية واشتغلنا بها، ولمّا تغلّب الإنكليز ازدادوا بتبعيدنا، فحال الله بينهم وبين ذلك"[٤].

---

(١) المصدر السابق: ١٢٤-١٢٥.

(٢) المصدر السابق نفسه: ١٢٦.

(٣) عقود حياتي. سابق: ١١٩. ومذكرات الشيخ محمّد الحسين آل كاشف الغطاء في كتاب السيد محمّد كاظم اليزدي. سابق: ٤٦٩. فليراجع من أراد الزيادة.

(٤) المصدر السابق نفسه: ٧٠٨.

لقد بدا لقسم من الباحثين، خطأً، أنّ المرجع السيد اليزدي المتحفظ على دعم ثورة العشرين المطالبة بالتحرير مقدمة لتطبيق الحكم الدستوري وفق نظرية (المشروطة) بل المعارض للدخول في العمل السياسي رغم كونه ممن "تخشاه حكومة عصره، وتترقب منه... وتخشى قوله، ولكنه لم يعمل بموجب سطوته وسلطته"(١).

أقول: لقد بدا لهم توهُّماً أنّ سماحة السيد محمد كاظم اليزدي قد "أيد موقف الموالين للحكومة "البريطانية(٢)، أو جاراها. كيف..؟ وقد أفتى سماحته بوجوب الجهاد ضد قوات الاحتلال عند احتلال الإنكليز للبصرة، وأكدها ثانية لمنع جيوشهم المعتدية من احتلال بغداد، وزاد على ذلك بأن أرسل نجله المجتهد السيد محمّد اليزدي مرتين إلى الجبهة، أولاهما إلى البصرة وثانيهما إلى بغداد والكوت نيابة عنه. كما كان قد أفتى سماحته قبل ذلك بوجوب الجهاد ضد احتلال إيطاليا للأراضي الليبية واحتلال روسيا لإراضٍ إيرانية.

لقد نقلت جيرترود بيل المعروفة باسم (المس بيل) أيضاً عن المرجع الأعلى السيد اليزدي، أنه بعد (٢٣/ ذي الحجة/ ١٣٣٥هـ - ١٠/ ٩/ ١٩١٧م) "رد على طلب تقدم به إليه محمّد علي كمونة في توسط قضيته بأنه اعتزل عن العالم منذ مدة، وإذا أريد منه شيء يختص بأمور الآخرة فهو على استعداد لتلبية الطلب، لكنه لا يمكن أن يبدي أي رأي في شؤون الحكومة، وقد بيّن أنه لا ينوي الإفتاء بالجهاد ضد الطيارات أو السيارات"(٣).

وعلى الرغم من صراحة قول سماحته سنة (١٣٣٥هـ/ ١٩١٧م) "أنه اعتزل العالم" ووضوح قراره بأنه "لا يمكن أن يبدي أي رأي في شأن الحكومة" مع ما تقدم من إفتائه بالجهاد ضدهم، لم يسلم من تقولات هذا المحتل أو ذاك المؤرخ

(١) ماضي النجف وحاضرها. سابق: ٥/ ٣١٣.

(٢) لمحات اجتماعية من تاريخ العراق الحديث. سابق: ٥/ ١/ ٢٢.

(٣) فصول من تاريخ العراق القريب. سابق: ١١٦.

بشأن مواقفه المزعومة لصالحهم مع أن سماحته كان يحتقر كبار مسؤولي الإنكليز ويجافيهم ويشعرهم بالمهانة والذل، فمثلاً "كان السير برسي كوكس.. يكثر من زيارته في الجسر وفي النجف فيجلس على الحصير المتقطع المتلاشي ويبقى بالانتظار مدة إلى أن يخرج السيد ثم يجلس معه قليلاً، ويقوم قبل زائره، ولا يكلمه إلّا بضع كلمات"[١] قليلة زيادة في عدم الاكتراث وقلة الاحترام.

المنحى الثاني ورواده: المنحى القاضي بالدخول في العمل السياسي بالسعي لتحرير الأرض العراقية المحتلة بالطرق السلمية ما أمكن، وإلّا فبالقوة الدفاعية المسلحة، ثم إقامة دولة عربية إسلامية التوجه، ملكها مسلم، مقيد بدستور وطني، ومجلس تشريعي يمثل قناعة غالبية الشعب العراقي المسلم. وهو منحى أصحاب السماحة المراجع كل من: الميرزا محمّد تقي الشيرازي المرجع الأعلى لثورة العشرين وقادح شرارتها، وشيخ الشريعة الأصبهاني المرجع الأعلى الخلف للثورة، والغالبية من المراجع والمجتهدين حينئذ من أمثال: المرجع الشيخ مهدي الخالصي مرجع الكاظمية، والمرجع السيد أبو الحسن الأصفهاني[٢]، والمرجع الشيخ محمّد حسين النائيني، وغيرهم.

وقد ورد النص على تبني مرجعية ثورة العشرين لهذا المنحى في كتبهم وفتاويهم تارة، وفي تواقيعهم على بعض المضابط والرسائل أخرى، منها الرسالة التي أمضياها. وفي مقدمة هؤلاء المراجع كل من سماحتي المرجعين الشيخ محمّد تقي الشيرازي، وشيخ الشريعة الأصبهاني، وبعثاها إلى رئيس الولايات المتحدة الأمريكية حينها الرئيس ولسون، تلك الرسالة التي عبّرا فيها عن: "رغبة العراقيين جميعهم والرأي

---

(١) عقود حياتي. سابق: ١١٤. والسيد محمّد كاظم اليزدي سيرته وأضواء على مرجعيته ومواقفه ووثائقه السياسية. كامل سلمان الجبوري: ٧٠٥-٧٠٦.

(٢) يقول جعفر الخليلي: "وقامت الثورة العراقية وارتفع صوت الإمام الشيرازي بوجوب الدفاع عن حرية البلد ووجوب طلب الاستقلال، فكان صوت السيد أبي الحسن أعلى صوت بعد صوت الإمام الشيرازي وبعد صوت الإمام شيخ الشريعة". هكذا عرفتهم: ١/ ١٠١.

السائد، بما أنهم أمة مسلمة، أن تكون حرية قانونية، واختيار دولة جديدة، عربية، مستقلة، إسلامية، وملك مسلم، مرتبط بمجلس وطني "[١].

وهو رأي المرجعين الثابت قبل تسنم كل منهما زمام المرجعية العليا، كونهما من دعاة ومؤيدي الحركة الدستورية (المشروطة)، وبعد توليهما زمامها حتى انتهاء ثورة العشرين.

***

٢. تحليل لمواقف مراجع الدين وكبار العلماء من تفجير الثورة وشكل نظام حكمها المقرَّر

إنّ موقف المراجع كل من أصحاب السماحة: السيد اليزدي، والميرزا الشيرازي، وشيخ الشريعة الأصبهاني، والشيخ محمّد مهدي الخالصي طالما دافع بقوة عن أستاذه الآخوند الخراساني لعلمه بسعيه "لصالح المسلمين فصار يذب عنه بجميع قواه ويظهر فضله وحقه على المسلمين لكل من لا يعرف ذلك"[٢]، إضافة إلى المرجع السيد أبو الحسن الأصفهاني الذي وصفه أحد معاصريه بأنه "أحد وجوه تلامذة المولى الخراساني، والمقربين عنده، ومحل اعتماده من بين أكثرهم ممن يميل إلى رأيه، ويقول بقوله مما زاده تعلقاً به وتقرباً إليه كما كان المولى محمد كاظم يستشيره في كثير من أموره ومسائله ويعده العضد الأيمن في جملة من مشاكله"[٣].

وطبيعي بعد هذه العلاقة الوطيدة بين السيد الأصفهاني وأستاذه أن يرشحه كل من أستاذه المرجع سماحة الشيخ الآخوند الخراساني والمرجع الشيخ المازندراني لمجلس الشورى الوطني الإيراني كمجتهد "من الطراز الأول (العارفين بمقتضيات العصر) بغية إحراز انسجام المصوّبات القانونية لمجلس الشورى الوطني مع أحكام

---

(١) ثورة العشرين في ذكراها الخمسين. معلومات ومشاهدات. سابق: ١٨٢. وكربلاء في ثورة العشرين. هادي آل طعمة: ٣١.

(٢) بطل الإسلام. مذكرات الشيخ محمد الشيخ محمد مهدي الخالصي: ٤٥.

(٣) الإمام السيد أبو الحسن. أحد خدام الشريعة المقدسة: ٤٣. المطبعة الحيدرية بالنجف ١٣٦٦ هجرية.

الفقه الشيعي"[١] كما تقدم، إضافة لِما عُرف به سماحة السيد الأصفهاني من "نزوعه إلى الحرية وتشجيعه للأحرار"[٢].

أما سماحة المرجع الشيخ محمّد حسين النائيني فهو أحد كبار وجوه الحركة الدستورية أيضاً، بل منظّرها و"مستشار شيخ الشريعة في قضايا الثورة العراقية"[٣] والذي "كان يبغض أن يسمع لبريطانيا حديثاً في الشرق كله"[٤].

إنّنا لو ألقينا نظرة على موقف كلّ من المراجع المتقدم ذكرهم -وهم أصحاب السماحة السيد اليزدي، والميرزا الشيرازي، وشيخ الشريعة الأصبهاني، والشيخ الخالصي، والسيد أبو الحسن الأصفهاني، والشيخ النائيني وغيرهم من المجتهدين وكبار العلماء- لوجدناه هو الموقف الطبيعي الموافق لرأي كلّ منهم وفق مبناه الفقهي.

فهم في الوقت الذي يتفقون، ومن نهج نهجهم جميعاً، على الدعوة إلى الجهاد لتحرير الأرض العراقية من براثن الاحتلال الإنكليزي الغاشم كما تقدم أعلاه، نجدهم يختلفون في مبانيهم من الدخول في العمل السياسي، فسماحة المرجع السيد محمّد كاظم اليزدي كان غير مؤيد للدخول في العمل السياسي "لأن مذهبه وفتواه أن لا يتعرض أو يتدخل في الأوضاع السياسية، وتأريخه مع الإيرانية وأحرار الفرس ما يشهد لذلك، فأحجم عن الجواب"[٥]، و".. لزم الصمت"[٦]، أو

(١) السيد أبو الحسن الأصفهاني. سيرته وأضواء على مرجعيته. سابق: ٢/ ١٧١-١١٨ نقلاً عن: تشيع ومشروطية. عبد الهادي الحائري: ١/ ١٣-١٤.

(٢) هكذا عرفتهم. سابق: ١/ ١٠١.

(٣) محمد حسين النائيني وتأسيس الفقه السياسي. تأليف عبد الهادي الحائري وآخرين: ٤٨ هامش١. يقول الباحث عبد الهادي الحائري نقلاً عن الميرزا عبد الرحيم النائيني شقيق المرجع النائيني في حديث له معه: إنه -أي الميرزا عبد الرحيم- كان ناقلاً للرسائل وحلقة الوصل بين شيخ الشريعة الأصبهاني والمرجع النائيني في هذا المجال.

(٤) مذكرات العلامة الشيخ موسى العصامي. القسم الخامس. مجلة آفاق نجفية. العدد ٢٧ لسنة ١٤٣٣هـ/ ٢٠١٢م: ٩٧.

(٥) مذكرات العلامة الشيخ موسى العصامي. سابق: ١٦٥.

(٦) الثورة العراقية الكبرى سنة ١٩٢٠. سابق: ٢٣٩. نقلاً عن ولسون.

"الصمت المخيف"[١] حسب وصف ولسون له، كما تقدم، وذلك ربما "لقناعته بعدم الجدوى في ذلك"[٢]، وقناعته الأخرى برفض شكل نظام الحكم الدستوري التي تسعى الثورة للعمل به، بحيث اشتهر لاحقاً بكونه زعيم ما سمي يومها بـ(المستبدة) المؤيدة لتمتع الحاكم بالسلطة المطلقة، مقابل (المشروطة) بعدما نقل عنه قوله: "إذا كان الشاه المستبدّ ذئباً واحداً فنحن سوف نقع بأيدي سبعين ذئباً، وإن الناس الذين نراهم معنا مندفعين نحونا، سوف يتركوننا لوحدنا لو تهددت مصالحهم"[٣] أو بتعبير آخر مفاده: "جائر واحد لا يجوز شرعاً الركون إليه وتمكينه من رقاب الأمة، فإناطة أمرها إلى جماعة من أهل الجور والظلم أولى بالحرمة، فأحجم أعلى الله مقامه عن الجواب"[٤].

هذا ما يتعلق بمباني أصحاب المنحى الأول من المراجع والمجتهدين النائين بأنفسهم عن الدخول في العمل السياسي، ناهيك عن مخالفتهم المبدئية لمباني نظرية المشروطة وعلى رأسهم المرجع السيد محمّد كاظم اليزدي، تلك النظرية التي كان يسعى مراجع الثورة وداعموها إلى تطبيقها إن قُدّر للثورة النجاح.

أما أصحاب المنحى الثاني أمثال كل من أصحاب السماحة المراجع: الميرزا محمّد تقي الشيرازي[٥] وشيخ الشريعة الأصبهاني، والشيخ محمّد مهدي الخالصي، والسيد أبو الحسن الأصفهاني، والشيخ محمّد حسين النائيني، وغيرهم كُثُر، فهم من دعاة الدخول في العمل السياسي لإصلاح شأن الأمة، كونهم من دعاة الحركة الدستورية المعروفة بـ(المشروطة) أو من مؤيدي نهجها وداعميه.

***

(١) الثورة العراقية. سابق: ١٣٧.

(٢) المرجعية الدينية وقضايا أخرى. في حوار صريح مع المرجع الكبير السيد محمّد سعيد الحكيم. الحلقة الثانية. سابق: ٢٠٢.

(٣) المصدر السابق نفسه: ٢٠٣.

(٤) مذكرات العلامة الشيخ موسى العصامي. القسم الثاني. سابق: ١٦٦.

(٥) ينظر: ثورة النجف. حسن الأسدي: ٥٣.

٣. مناقشة الرأي السائد بحصر دواعي الثورة بتحرير العراق من المحتل غير المسلم

يميل الرأي السائد بين قسم من المؤرخين والباحثين إلى أن ثورة العشرين كانت تهدف إلى إخراج المحتل الإنكليزي (الكافر) من العراق المسلم، دون النظر إلى ما هو أبعد مغزى للثورة من ذلك.

ولعل أقدم من عبّر عن هذا الرأي هو الشيخ محمّد مهدي البصير، فقد ذكر في مقدمته لكتابه (تاريخ القضية العراقية) المؤرخة سنة (١٣٤١هـ/ ١٩٢٣م) بعد الثورة بثلاث سنين أن "لا صحة لما قيل من أن علماء الشيعة صاروا يبثون الدعوة لإنشاء حكومة دينية تأتمر بأوامر الشريعة"[١]، فأثبت بنفيه وجود قائلين في وقته المتقدم بأن هدف الثورة هو "إنشاء حكومة دينية تأتمر بأوامر الشريعة" وهو ما ينفي زعم الزاعمين بأن هذا الرأي هو من بنات أفكار المحللين المعاصرين. وقد تبع الشيخ البصير من الباحثين د. عبد الله الفياض بقوله: "إن مجتهدي الشيعة لم يعلنوا الجهاد لغرض تأسيس دولة تسير بموجب الشرع الشيعي، وإنما أعلنوه لدفع إمارة غير المسلمين، وهم الإنكليز عن بلاد إسلامية وهي العراق"[٢]، ومثله الباحث الإيراني عبد الهادي الحائري بقوله متحدّثاً عن موقف العلماء من إعلان الجهاد نظراً لـ"أنّ جيشاً غير مسلم، الجيش البريطاني، احتل أرضاً إسلامية، ورأى العلماء أنّ الثورة على الكفار فرض عين"، وبأنّهم "انتفضوا على البريطانيين لا من أجل أخذ السلطة وإقامة دولة شيعية مستقلة كما يذهب بعض الكُتّاب، وإنما التعاون مع الفئات الأخرى من العشائر والعناصر الوطنية سُنّة وشيعة لإقامة حكم عربي في عراق مستقلّ"[٣]، من دون أن يفرّق كلاهما ومن ذهب مذهبهما بين منحى المراجع كلهم، وفي مقدمتهم المرجع الأعلى آنئذ سماحة السيد اليزدي الذي

---

(١) تاريخ القضية العراقية. الدكتور محمّد مهدي البصير: ٥٤. ط١.

(٢) الثورة العراقية الكبرى سنة ١٩٢٠. د. عبد الله الفياض: ٢٤٦.

(٣) التشيع والدستورية في إيران دور علماء العراق الشيعة في السياسة الإيرانية. عبد الهادي الحائري: ١٧٣.

كان لا يرى للمرجع أن يتدخل في العمل السياسي فأعلن الجهاد سنة (١٩١٤م) ضد الغزاة الإنكليز وجدد الدعوة له سنة (١٩١٧م) لتحرير العراق من المحتل الإنكليزي (الكافر)، ومنحى سماحتي المرجعين الميرزا محمّد تقي الشيرازي، وشيخ الشريعة الأصبهاني اللذين أعلنا الجهاد ضد الاحتلال الإنكليزي في ثورة العشرين (١٩٢٠م) لتحرير العراق من الإنكليز الغزاة المحتلين (الكفار) أولاً، ثم لتأسيس دولة عربية إسلامية حرة مستقلة دستورية لا تخالف تشريعاتها أحكام الإسلام وروحيته، وفق مذهبهم الديني، وبموجب أسس نظرية الدستوريين المسماة بـ(المشروطة) بقدر ما يسمح به الظرف المعاش وقتئذ.

ولا تحتاج مناقشة القائلين باقتصار فتوى الجهاد لسنة (١٣٣٨هـ/ ١٩٢٠م) على جلاء الإنكليز فحسب إلى كبير عناء؛ فطبيعي لمثل مفجر ثورة العشرين وقائدها سماحة المرجع الميرزا محمّد تقي الشيرازي، ولمثل المرجع الخلف له في قيادتها سماحة شيخ الشريعة الأصبهاني، ومن معهما من المراجع والمجتهدين والشيوخ والزعماء والوطنيين، من دعاة الحركة الدستورية وخاصة منهم: أصحاب السماحة كل من: الشيخ مهدي الخالصي، والسيد أبو الحسن الأصفهاني، والشيخ محمّد حسين النائيني، صاحب (تنبيه الأمة وتنزيه الملّة)، والسيد أبو القاسم الكاشاني، والسيد هبة الدين الشهرستاني، والشيخ عبد الكريم الجزائري المؤيد والعضد لزعيم المشروطة، والذي "يعرف معاصروه دوره في تلك المعركة جيداً"[1] وفي ثورة العشرين أكثر، والشيخ إسحاق الرشتي، والشيخ أحمد الخراساني نجل زعيم حركة (المشروطة) المرجع الشيخ محمّد كاظم الخراساني وأمثالهم.

أقول: إنّ من الطبيعي أن يسعى كل أولئك المراجع والمفكرين والوطنيين المجاهدين متى ما استطاعوا إلى تطبيق ما آمنوا به في حركتهم الدستورية، وأن يتحركوا متى ما سنحت لهم الفرصة من أجل تحقيق هذا الهدف، فهم على رأس من

(١) طبقات أعلام الشيعة. نقباء البشر. الشيخ أغا بزرك الطهراني: ١٥/ ١٥٦٩.

تبنّوا ونظّروا مع من تبنّوا ونظّروا من مراجع وكبار علماء النجف الأشرف حينها لطروحات وأسس النظرية الدستورية أو ما سمي بـ(المشروطة)، وأنهم ممن نبذ الأسلوب التقليدي في شكل نظام الحكم وهو النظام الاستبدادي ودعوا إلى نظام حكم جديد يقيد الحاكم ويسائله، كما أجاب به زعيم حركتهم الدستورية الشيخ الآخوند الخراساني حينما سأله أهالي تبريز عن حكمهم الشرعي في موقفهم من الحركة الدستورية بقوله: "والخلاصة: المسلمون ملزمون أن يتبعوا الأصول الجديدة في الحكم"[١].

وحين أقول: إن من الطبيعي أن تهدف المرجعية العليا والشيوخ والوطنيون وقادة الثورة بعد التحرير إلى تطبيق متبنّياتهم في شكل الحكم فيما لو أمسكوا بزمامه، لا أن يتركوا الناس وشأنهم بعد التحرير، تذهب بهم العواصف والاتجاهات أنّى شاءت، وحين أقول: إن إثبات ذلك لا يحتاج إلى كبير عناء؛ فلأن من يعلن الجهاد من دعاة الحركة الدستورية ضد المحتل بثورة كبرى يقدم فيها الخسائر الكبيرة بالأرواح والأموال والممتلكات فينتصر، ويتمكن من استلام مقاليد الحكم، وسياسة الأمة، وإقامة العدل، وتحقيق الأمن وضبط النظام، ليس له -عُقلائيّاً- إلّا أن يطبق نظريته في شكل الحكم، وهو واضح.

وإذا كان خفي على بعض المؤرخين ممن تقدم ذكرهم من العراقيين وغيرهم وضوح هدف الثورة الحقيقي المتمثل في إقامة نظام حكم وفق نظريتهم الدستورية بعد تحريرهم العراق من سطوة المحتلين؛ فلم يخفَ ذلك على المحتلين ولا على العديد من الباحثين غربيين وعرباً.

فأما وضوح هدف الثورة عند المحتلين الإنكليز فقد شخصته بدقة ووضوح المستشارة الإنكليزية جيرترود بيل المعروفة بالمس بيل حين قالت متحدثة عن الثورة العراقية ما نصه: "وكان هدف الحركة تأسيس دولة إسلامية" وتضيف إلى ذلك متحدثة عن هدف ثورة العشرين ومبتغاها بقولها: "كان في نظر المجتهدين الشيعة

(١) ثورة النجف على الإنكليز. سابق: ٧٠.

تأسيس دولة دينية تسير بموجب الشرع الشيعي، ولذلك لم يترددوا في إعلان الجهاد من أجله"[١].

وتقول المس بيل في موضع آخر من كتابها: "وعندما بلغت حركات بغداد أشدّها ازدادت جهود الوطنيين في كربلاء فوصلت إلى القبائل وسكان المدن كتب لا يحصى عددها مذيلة بتوقيع الميرزا محمّد تقي تنبئهم بأن الوقت قد حان للقيام بحركة متناسقة تسير على الخطوط الدستورية لتأسيس حكومة إسلامية"[٢] في العراق في حال نجاح الثورة.

يذكر أن النص أعلاه للمس بيل يكاد يتطابق مع نص ورد في المجلد الثاني (١٩١٨-١٩٢١م) من كتاب (العراق في السجلات البريطانية).

كما أن ولسون المسؤول البريطاني الأعلى في العراق خلال ثورة العشرين كان قد أبلغ وزارة الهند بعد نشوب الثورة بأيام بقوله: "إن مطالب قادة الثورة هي طرد البريطانيين نهائياً من ما بين النهرين وإقامة مملكة إسلامية، وأن ذلك يعني الدولة الثيوقراطية التي هي مثلهم الأعلى"[٣]، كما أشار أيضاً إلى ذلك مرة أخرى في كتابه (الثورة العراقية) ذاهباً إلى أن سماحة المرجع الأعلى الميرزا الشيرازي وبقية المراجع وزعماء ثورة العشرين كانوا من متبنّي تأسيس "دولة إسلامية" كما قال مرة و"مملكة إسلامية"[٤] كما قال في أخرى، بل ذهب إلى أن المرجع الأعلى الميرزا الشيرازي زعيم الثورة كان يرى تولّيه هو نفسه إدارة شؤون العراق أو ما أسماه بـ"السلطة الزمنية التي كان يعتقد أنها ناشئة عن تفوقه الثيوقراطي"[٥].

ومما يشير إلى قناعة المحتلين بأن هدف الثورة الحقيقي ورغبة المواطنين هو

(١) فصول من تاريخ العراق القريب. سابق: ٤٣٩ و٤٤٠-٤٤١.

(٢) المصدر السابق:٤٤١- ٤٤٢. وتقصد (بالميرزا محمّد تقي) المرجع الأعلى سماحة الميرزا محمّد تقي الشيرازي.

(٣) ثورة ١٩٢٠ الجذور السياسية والفكرية والاجتماعية للحركة القومية العربية الاستقلالية في العراق. سابق: ٢٥١. وينظر هامش الصفحة.

(٤) الثورة العراقية. سابق: ١٤٧ و١٤٩ على التوالي.

(٥) المصدر السابق: ١٤٠.

تطبيق الشريعة، ما ورد في تقرير سري للشرطة البريطانية في بغداد عن حوادث أسبوع ينتهي في (١ رمضان ١٣٣٧هـ/ ٣١ مايس ١٩١٩م) جاء فيه: "أن عدداً كبيراً من أهالي بغداد يرغبون في حكومة عربية تحت حكم ملك عربي حسب قوانين الشرع"[١].

وأما جلاء هدف الثورة الأساس عند قسم من الباحثين الغربيين بحسب دراساتهم وبحوثهم فيمكنني أن أستشهد له بما أثبته الباحث إسحاق نقّاش بقوله: "لقد كان هدف المجتهدين من الدعوة إلى ثورة العشرين، إقامة حكومة إسلامية في العراق متحررة من السيطرة الأجنبية، وكان المجتهدون قد عبّروا عن الرغبة في إقامة حكومة إسلامية في استفتاء (١٩١٩م)، وأكدوه مجدداً في الفترة التي سبقت الثورة مباشرة، عندما وردت تقارير عن التوصل إلى اتفاق في النجف بين العديد من شيوخ العشائر والعلماء الشيعة على تأسيس (حكومة دينية تقوم على أحد المبادئ الأساسية للمذهب الشيعي). والحق أن الشيرازي سعى إلى تطبيق (نظام دستوري وتشكيل مجلس وطني) في العراق وفق المبادئ التي نادى بها المجتهدون للدستورية خلال الثورة الإيرانية"[٢].

ومن الباحثين الآخرين جويس ويلي الذي كتب متحدثاً عن ثورة العشرين بأن هدفها كان هو: "إقامة حكومة شرعية طبقاً لتعاليم الإسلام: وفقاً لتصورهم[٣].

ولعل من أواخر من انتهى إلى ذلك من الباحثين كارولين مرجي صايغ التي كتبت متحدثة عمّا سعى إليه "رجال الدين البارزون آنذاك الشيرازي والأصفهاني وإسماعيل الصدر بإنشاء حكومة إسلامية في العراق لا تخضع للنفوذ الأجنبي"[٤].

---

(١) العراق في سجلات الوثائق البريطانية ١٩١٤-١٩٦٦. المجلد الثاني ١٩١٨-١٩٢١. سابق: ٣٠٥، وتنظر أيضاً في المصدر نفسه: ٢٩٦ و٢٧٩.

(٢) شيعة العراق. سابق: ١٢١-١٢٢.

(٣) الحركة الإسلامية الشيعية في العراق. جويس ويلي: ١٢.

(٤) المرجعية الدينية الموقف الوطني في العراق بعد ٢٠٠٣. سابق: ٣٩.

إضافة إلى من ذهب إلى ذلك من الباحثين العرب من أمثال عبد الله النفيسي الذي دوّن في كتابه إننا: "نستطيع القول بأن العلماء كانوا يتطلعون إلى إقامة حكم ديني يكون على رأسه نائب الإمام، المجتهد الأكبر"[١] و(د. إيلي خضوري) الذي ذهب إلى أن الهدف من الثورة هو: "إقامة دولة شيعية ثيوقراطية مستقلة عن أجزاء العراق الأخرى"[٢].

بقي لي قبل أن أختم هذا المبحث أن أقف عند فقرتين تاريخيتين ملتبستين.

» **أولهما: هل عدل سماحة الشيخ النائيني عن رأيه في تبنيه لنظرية المشروطة؟**

يحسن بي قبل أن أنهي الحديث عن المنحى الثاني للمراجع والمجتهدين الذين يذهبون إلى الدخول في العمل السياسي من أوسع أبوابه، ومنهم المرجع الشيخ النائيني منظّر الحركة الدستورية أن أؤكّد على أنّه لم يعدل عمّا تبنّاه سابقاً خلافاً لما ذهب إليه العديد من الباحثين زاعمين أنّ سماحته عدل عن رأيه في المشروطة إلى خلافه لاحقاً، ومال إلى ذلك بعض المراجع أيضاً.

فعلى الرغم مما كان للتطبيقات المنحرفة السيئة والمشوهة للنظرية الدستورية التي رافقت ثورة المشروطة في إيران من أثر كبير في تقديم صورة سلبية وقاتمة عن المشروطة، ليس عند سماحة المرجع السيد اليزدي الرافض لمبانيها ابتداء فحسب، بل عند الكثير من متبنيها بعد تطبيقها المشين المجافي لمبادئها في إيران أيضاً، فقد اشتهر عن منظّرها ومؤلف كتاب (تنبيه الأمّة وتنزيه الملّة) المرجع النائيني أنه بذل الأموال لجمع نسخ كتابه من الأسواق لاحقاً؛ وذلك نتيجة للأداء المخيب لآماله من مطبّقي الدستورية في إيران، وليس تخلّياً منه عن أصل نظريته. وهو ما يستدعي الوقوف عنده قليلاً لتجليته.

---

(١) دور الشيعة في تطور العراق السياسي الحديث. سابق: ٢٥٥.

(٢) ثورة ١٩٢٠ الجذور السياسية والفكرية والاجتماعية للحركة القومية العربية الاستقلالية في العراق. سابق: ٣٩٢ وينظر هامش الصفحة.

لقد أرجع بعض الفضلاء ممن حضروا دروس الشيخ النائيني أمر أستاذهم "بسحب كتابه من التداول.. إلى تشاؤمه مما حدث نتيجة للحركة الدستورية... إضافة إلى إعدام المرحوم الشيخ فضل الله النوري بدون محاكمة وعلى يد شخص أرمني. هذا الحادث الذي بقي وصمة عار في تاريخ المشروطة وجعلت عموم العلماء المناصرين للدستور متشائمين وفاترين تجاه الحركة"(١)، بعد أن "خرجت عن ظهورها الإنساني في بعض الأحيان... فتجاوزت المبدأ الذي كانت تنادي لأجله وباسمه... ولا ريب ولا شك بأن هذا الأعمال العنيفة لطّخت ثورة المشروطة وكان لها أثر نفسي كبير على الذين وقفوا موقف الحياد منها حتى ينقلبوا عليها شرّ منقلب"(٢).

ومما زاد الطين بلة في تصرفات مدّعي المشروطية اغتيال العالم الكبير السيد عبد الله البهبهاني في طهران بعد عام من إعدام المجتهد الشيخ عبد الله النوري سنة (١٣٢٨هـ/ ١٩١٠م) مما جعل المراجع وكبار العلماء في النجف الأشرف وكربلاء وسامراء والكاظمية يشعرون بالأسى والألم وهم يشاهدون خيبة أملهم بالثورة الدستورية من جهة. وتهجم المواطنين على دعاتها ومؤيديها من المراجع والعلماء وفي مقدمتهم سماحة الشيخ النائيني مؤلف كتاب (تنبيه الأمة وتنزيه الملة) من جهة ثانية. فقد نُقل عن الشيخ عبد الرحيم النائيني شقيق مؤلف الكتاب قوله: "إن الإجراءات المضرّة والمرفوضة التي اتخذتها السلطة الحاكمة في إيران بعد الثورة الدستورية قد دفعت الكثير من الناس إلى التهجم الشديد على الشيخ النائيني بسبب تأييده الحماسي لمثل هذه الثورة، ما أدّى إلى الإساءة إلى سمعة ومكانة النائيني الاجتماعية بشدة"(٣).

---

(١) النزاع على الدستور بين علماء الشيعة المشروطة والمستبدة. رشيد الخيون: ٤٢٦-٤٢٧ نقلاً عن مقدمة لكتاب تنبيه الأمة وتنزيه الملة للسيد محمود الطالقاني في طبعته الثالثة. طهران ١٩٥٤ الفارسية.

(٢) الزعيم الموهوب. سابق: منشور ضمن كتاب السيد أبو الحسن الأصفهاني. د. كامل سلمان الجبوري: ٣/ ٤٧٧.

(٣) محمد حسين النائيني وتأسيس الفقه السياسي. تأليف عبد الهادي الحائري وآخرين: ٢٥.

ونتيجة لحالة اليأس والإحباط والأذى المُرّ من تصرفات مدعي الدستورية المتقدم ذكرها في إيران وما سببته من خيبة أمل العلماء الدستوريين في النجف الأشرف من نظام الحكم الجديد مدعي الدستورية؛ فقد "شرحت برقية أرسلها الخراساني والمازندراني إلى ناصر الملك الذي أصبح وصيّاً فيما بعد في حزيران ١٩١٠ بوضوح عدم رضا العلماء على الدستوريين وعمل البرلمان القائم"(١).

بل وصل انحراف مدعي تطبيق النظرية الدستورية وتشويه صورتها في إيران إلى الحدّ الذي استدعى زعيم المشروطة ومعه منظّرها وعدد من كبار المجتهدين والعلماء إلى التوجه صوب إيران للجهاد ضد الغزو الروسي لإيران، بل لقيادة المجاهدين وفق ما ذهب إليه السيد هبة الدين الشيرازي(٢) من جهة، و"لقيادة الحركة الدستورية هناك في الطريق الصحيح بعد أن بدأت تتجّه بسرعة نحو الدكتاتورية"(٣)، وهو ما ذهب إليه الشيخ عبد الرحيم النائيني شقيق سماحة الشيخ محمد حسين النائيني من جهة أخرى.

وقد يؤيد ذلك مدى تأثرهما الشديد من انحراف التطبيق عن النظرية كما بدا من توضيح المجتهد المؤرخ الشيخ محمد حرز الدين لذلك(٤).

---

(١) التشيع والدستورية في إيران دور علماء العراق الشيعة في السياسة الإيرانية. سابق: ١٦٣-١٦٤.

(٢) المصدر السابق نفسه: ٢٥ نقلاً عن (أشهر الرجال) للسيد محمد علي الشهرستاني: ٢٩٤.

(٣) المصدر نفسه. من حوار مباشر جرى بين المؤلف وشقيق الشيخ النائيني: ٢٥.

(٤) يقول الشيخ في كتابه (معارف الرجال: ٢/ ١٩-٢٠) خلال ترجمته للمرجع الشيخ عبد الله المازندراني "وكان ﵀ أحد المشايخ الثلاثة الذين هم رؤساء الإمامية في النجف: الشيخ ملا محمد كاظم الآخوند صاحب الكفاية، والأستاذ الحاج ميرزا حسين الخليلي، والمترجم له، الذين رأوا أن تكون حكومة إيران دستورية المعروفة بالمشروطة عندهم، فجدّوا في ذلك، وقد تهيأ جملة من رجالها العاملين للسفر إلى إيران، وفي صبيحة اليوم الذي أرادوا فيه الخروج توفي الشيخ ملا كاظم الخراساني فجأة سنة ١٣٢٩ هجرية، وقيل مات مسموماً... -لقد- تراكم الهم والغم على سماحة الشيخ الجليل لمّا بلغه عن تصرف حكام إيران... حيث إن علماءنا العظام ما أرادوا هذا ونحوه من حيث هو، بل قصدوا قطع دابر الفساد والأخذ على أيدي الظلمة والملحدين وإغاثة الملهوفين وإعانتهم إلى غير ذلك، فهو من قبيل (ما قُصد لم يقع)"، يذكر أن المترجم له المرجع المازندراني والمرجع الآخوند الخراساني قد صدّرا النسخة المطبوعة من كتاب (تنبيه الأمة وتنزيه الملة) لسماحة الشيخ النائيني بتقريظ علمي نادر.

لقد كان "كِلا هدفي الخراساني من توجهه إلى إيران: أي تدعيم بنية الحركة الدستورية (أو) قيادة صراع لا هوادة فيه مع الأجانب المستعمرين، يكفيان لإثارة شكوك أي مراقب يقظ حول أسباب موته -الشيخ الخراساني- المفاجئ في هذه الظروف الاستثنائية"[١]، وهو رأي وجيه سواء في سبب الموت المفاجئ للشيخ الخراساني، أم في تفسير الداعيين المتقدمين لتوجه الشيخ الخراساني والشيخ النائيني معاً إلى إيران تلك الآونة، بعد الجمع بين الروايتين، خاصة وأن علاقة وثيقة جمعت الراوي الأول السيد الشهرستاني بالشيخ الخراساني، وقرب الراوي الثاني الشيخ عبد الرحيم النائيني من المحقق النائيني، ليس لعلاقته النسبية به كأخ شقيق فحسب، بل لعلاقته الفكرية السياسية أيضاً بشقيقه الشيخ محمد حسين النائيني.

ويؤكد الباحث عبد الهادي الحائري أنّه أجرى مقابلة شخصية مع الشيخ عبد الرحيم النائيني شقيق المرجع الشيخ محمد حسين النائيني ونقل عنه أنه كان: "يعتقد... أنّ الخراساني ومعه نفسه وآخرين كانوا متوجهين إلى إيران لإعادة تنظيم الحكم الدستوري الذي أخذ يتوجه نحو الاستبداد"[٢].

وليس أدلّ على عدم تخلي المرجع الشيخ النائيني عن أصل نظريته الدستورية، من تبنّيه وتوقيعه مع المراجع والمجتهدين الآخرين من أهالي النجف الأشرف على مضبطتي أهالي النجف الأشرف والشامية المطالبتين بتطبيق الدستورية ولو نسبياً في العراق.

بل إن ما أورده المجتهد المؤرخ الشيخ محمد حرز الدين في ترجمته للمرجع الأعلى السيد أبو الحسن الأصفهاني دليل واضح الدلالة على استمرار تبني الشيخ النائيني والسيد أبو الحسن الأصفهاني -بل معظم تلامذة المرجع الشيخ محمد كاظم الخراساني زعيم المشروطة- للنظرية الدستورية حتى عام (١٣٤٥هـ/ ١٩٢٦م) على الأقل، أي بعد تصديهما للمرجعية بسنوات.

---

(١) محمد حسين النائيني وتأسيس الفقه السياسي. سابق: ٢٦.

(٢) التشيع والدستورية في إيران دور علماء العراق الشيعة في السياسة الإيرانية. سابق: ١٦٥.

يقول الشيخ حرز الدين: "وقد نهج معظم تلامذة الشيخ الآخوند سيرة أستاذهم ﵀ في الأمر الذي امتاز به من طلب المشروطة... روي لنا موثّقاً في سنة ١٣٥٤ هجرية -١٩٣٥م- أن السيد المترجم له -السيد أبو الحسن الأصفهاني- والميرزا النائيني، والشيخ جواد الجواهري، والسيد محمد علي الطباطبائي آل بحر العلوم النجفي، والشيخ الميرزا مهدي نجل الآخوند الخراساني، وبعض آخر لم يذكره الراوي لنا، وكان مشاهداً، ومن حاشيتهم، اجتمعوا في حرم أمير المؤمنين عليه السلام في النجف ليلاً قبل الفجر بساعتين بوزير الحربية يومئذ رضا خان البهلوي لحكومة السلطان أحمد شاه القاجاري، وتداولوا الحديث في شؤون إيران، وكان المنوي أن رضا شاه هو الذي يكون سلطاناً، وبعد أن أخذوا عليه المواثيق والأيمان أن يسير برأي العلماء، وأن يكون مجلس الشورى بنظر خمسة من المراجع، وأن المذهب الرسمي هو المذهب الجعفري، إلى غير ذلك، ثم رجع البهلوي إلى إيران، وبعد رجوعه خلعوا أحمد شاه، وكان خارج إيران للاستشفاء"(١). كما أشارت صحيفة (حبل المتين) إلى ذلك اللقاء أيضاً(٢).

ومما يؤيد عدم عدول سماحة الشيخ النائيني عن قناعته بنظرية المشروطة قول سماحة السيد السيستاني (دام ظله) لسائله سماحة الشيخ محمد جواد فاضل اللنكراني من أنّ سماحته (دام ظله) "لم يسمع بعدول الشيخ النائيني عما ورد في رسالة (تنبيه الأمة وتنزيه الملّة)"(٣).

أما زَعْم من زعَم أنّ المرجع الشيخ النائيني جمع نسخ كتابه (تنبيه الأمة وتنزيه الملّة) من الأسواق محاولاً "التملص منه عندما صار من المراجع الكبار إذ هو خاف أن ينفر المقلّدون منه بسبب هذا الكتاب"(٤)، وأنّ "أول الناكثين لِما ورد في

(١) معارف الرجال. الشيخ محمد حرز الدين: ١/ ٤٨-٤٩.

(٢) محمد حسين النائيني وتأسيس الفقه السياسي. سابق: ٨٦. نقلاً عن حبل المتين. رجب ١٣٤٤ هجرية.

(٣) رسالة خاصة أرسلها سماحة السيد محمد رضا السيستاني إلى المؤلف في (٩ آذار ٢٠٢٢م).

(٤) لمحات اجتماعية من تاريخ العراق الحديث. سابق: ٣/ ١٢٦.

الرسالة هو مؤلّفها"[١] نتيجة لـ"انتهازية الميرزا النائيني من أجل المرجعية"[٢]؛ فإنّ هذه الكتابات وأمثالها تدل بشكل واضح على جهل كاتبها بخصوصيات الوضع الحوزوي مثل جهله بدواعي تصدي المجتهدين الكبار المشهود لهم من أهل الخبرة بالاجتهاد والعدالة بالمرجعية، كما أنّ قولاً كهذا في غاية الغرابة بحق الشيخ النائيني الذي وصفه المؤرخون المعاصرون له من أمثال الشيخ علي الشرقي بأنه من "أعلام الأخلاق والعرفان"[٣]، ومن أمثال ما دوّنه عنه زميله المجتهد الثبت الشيخ أغا بزرك الطهراني بقوله: "كان الميرزا النائيني (متورّعاً تقيّاً صالحاً غير متهالك على حطام الدنيا ولا متفانٍ في الحصول على الرياسة)، و(كان إذا وقف للصلاة ارتعدت فرائصه وابتلّت لحيته من دموع عينيه)"[٤]، وما وصفه به المجتهد الثقة المعاصر له السيد محسن الأمين بقوله: "كان عالماً جليلاً فقيهاً أصوليّاً حكيماً (عارفاً.. عابداً) مدرّساً مقلّداً"[٥]، ثم ما نقله آية الله السيد الحسيني الهمداني عن أبيه تلميذ الشيخ "إنّ آية الله كان يجلس عند باب الحرم العلوي قبل أن يفتح وقبل أذان الصبح بساعة فينشغل بالصلاة والتهجد عند الباب حتى يفتح ويدخل وقت صلاة الصبح، وفي آخر حياته كان ينهض قبل الصلاة بساعتين للتهجد والعبادة"[٦].

ومن كانت هذه صفته لا يرد في حقه ما أورده من لا يعرف العلماء الصادقين حق معرفتهم.

---

(١) النزاع على الدستور بين علماء الشيعة المشروطة والمستبدة. رشيد الخيون: ٣٢٨.

(٢) المصدر السابق: ٣٢٥ وينظر: ٣٢٢ و٣٢٦ و٣٢٩.

(٣) المصدر نفسه: ٣٩٠ نقلاً عن مجلة الموسم الهولندية. العدد ٥ لسنة ١٩٩٠. عن جريدة البلاد البغدادية: العدد ٦٥٠ في ١٨ آب ١٩٣٦.

(٤) طبقات أعلام الشيعة: ١/ ق٢/ ٥٩٣.

(٥) أعيان الشيعة: ٢٦/ ٢٥١ – ٢١٦. وينظر: بحوث ودراسات عن علماء الحوزة العلمية في النجف الأشرف. السيد هاشم فياض الحسيني: ٣/ ١٨٧، ومحمد حسين النائيني وتأسيس الفقه السياسي. سابق: ٩١.

(٦) مجلة الموسم الهولندية. العدد ٥: ٤٩ نقلاً عن مجلة حوزة باللغة الفارسية. العدد ٣٠: ٥٠.

لقد عانى الشيخ النائيني كثيراً بسبب موقفه من (المشروطة) وتبنّيه وتأسيسه العلمي المتين لنظريتها الدستورية في كتابه (تنبيه الأمة وتنزيه الملّة) قبل أن يتصدى للمرجعية بأكثر من عقد وبعدها أيضاً. "وتشير إحدى كتابات المازندراني إلى أنّ تحركات النائيني لم تكن بعيدة عن أنظار مناهضي الدستور، ما جعله عرضة لأمواج شتائم وافتراءات... ففي رسالته التي كتبها في (السادس من أيلول ١٩١٠م/ ١٣٢٨هـ) يشكو فيها بشدة من الممارسات العدائية... في النجف... (وقد وجه هؤلاء الأشخاص الذين افتتحوا مراكز لهم في النجف عداءهم بالدرجة الأولى نحو شخصيتين هما المازندراني نفسه والخراساني ثم نحو النائيني ... ويضيف مؤيد الإسلام مدير جريدة الـ(حبل المتين) محاولاً لفت أنظار الإيرانيين إلى إشارة المازندراني حول النائيني فيقول: (إنّ الناس يجب أن لا يقعوا فريسة لشتائم أعداء الحركة الدستورية التي يطلقونها على النائيني الذي لا يمكن نسيان ما قدمه من خدمات للإسلام والحركة الدستورية)"[١].

ويضيف الباحث الحائري قائلاً: "ولا غرابة في أن يصبح شخص في مثل هذا الموقع وهذه الظروف هدفاً للشتائم والافتراءات؛ فالنائيني كان واحداً من المجتهدين الفضلاء في تلك الأيام، وقد وصل إلى درجة من العلم تُغنيه عن حضور دروس الخراساني العامة، وكان واحداً من خواصّ مرافقيه وأصدقائه ويقتصر حضوره على المهم والحساس من البحوث العلمية أو الدينية له فقط. ومن ناحية الوعي السياسي... فإنه قد كُلّف بمهمة إعداد بيانات وفتاوى أولئك المجتهدين الكبار الثلاثة. وكما يؤكد شقيق النائيني فإنّ هذه الأسباب قد أدت إلى خلق عداوات كثيرة له من قبل منافسيه في الوسط العلمي وأعدائه في الوسط السياسي"[٢].

---

(١) حياة الميرزا النائيني. عبد الهادي الحائري. بحث ضمن كتاب محمد حسين النائيني وتأسيس الفقه السياسي. سابق: ١٩ ناقلاً كلام المازندراني من جريدة (حبل المتين) في: ٢٦ أيلول ١٩١٠/ رمضان ١٣٢٨. ص٢٠-٢٤.

(٢) المصدر السابق: ١٨-١٩.

وينقل حفيده سماحة الشيخ جعفر النائيني ما سمعه حدّ التواتر عن نفسية وأخلاق وعرفان وتقوى جدّه سماحة الشيخ النائيني بقوله:"ما ثبت بالتواتر وسمعناه ممن شاهده وحضر مجلسه... الشيء الكثير في هذا المضمار، وكذلك ما ذكره غير واحد من أجلّة معاصريه وتلامذته في خطبهم ومقالاتهم التي أُلقيت في مجالس تأبينه ﷺ ونُشرت وقتئذٍ في الصحف والمجلات العراقية؛ فإنها بأجمعها تفصح عن نفسيته القدسية الكبيرة وأخلاقه المحمدية الرفيعة... كما وتُنبئ عن منازل عرفانه وتوجهه التام إلى الله تعالى وانقطاعه إليه وفنائه في ذاته وخوفه الشديد منه وعدم تمالكه في أداء المسؤولية الشرعية بلا اكتراث لِلَوم لائم... فكانت عبادته عبادة المخلصين وخلقه خلق الصديقين، يذكّر الله تعالى برؤيته ويدعو إليه بعمله، وكذا ما كان منه من التوجه التام بكل وجوده والانقطاع عن الناس لدى زيارته لمراقد الأئمة عليهم السلام وحال مثوله أمام أضرحتهم المقدسة"(١).

وكان مما نقله حفيده عن بعض ما أُلقي في مجالس تأبينه -التي أشار إليها فيما تقدم- ما جاء في كلمة سماحة الشيخ محمد حسين كاشف الغطاء في تأبينه لسماحة المرجع الشيخ النائيني قوله: "عرفتُ تلك النفس التي هي إلى صقع عالم الملكوت أقرب منها إلى صقع عالم الملك، وبأفق عالم الأرواح المجرّدة ألصق منها بعالم الأرواح المتعلقة بالمادة"(٢).

ومن كانت هذه صفاته في تَبَتُّله وأخلاقه وفق زملائه ومعاصريه ومترجميه؛ لا يرد في حقه ما أورده من لا يعرف المراجع وكبار العلماء الصادقين حق معرفتهم، وغيرهم من الغرباء عن معايشة ومخالطة المراجع والعلماء والحوزويين، فباتوا يشرّقون ويغرّبون بما لا يعرفون.

***

(١) مقدمة كتاب الفتاوى للمجدد الميرزا محمد حسين الغروي النائيني. بقلم الشيخ جعفر النائيني: ١/ ١٢-١٣.
(٢) المصدر السابق: ١/ ٩.

» **ثانيهما: هل من علاقة بين (الاستفتاء) وفتوى حرمة انتخاب غير المسلم أميراً على المسلمين؟**

ذهب العديد من المؤرخين إلى أن المرجع الشيخ محمد تقي الشيرازي قد أفتى حين سأله مواطنون عن موقفهم من الاستفتاء المعروف، فأجاب في (٢٠ ربيع الثاني ١٣٣٧هـ/ ٢٣ كانون الثاني ١٩١٩م) بقوله: "ليس لأحد من المسلمين أن ينتخب ويختار غير المسلم للإمارة والسلطنة على المسلمين"[١]، فهو على الأغلب غير دقيق؛ ذلك أن هذه الفتوى لم ترد جواباً من المرجع الشيخ الشيرازي عن سؤال سائليه عن الاستفتاء حين الاستفتاء، بل بعد انتهائه، بدليل أن تاريخ صدور الفتوى متأخر عن نهاية آخر يوم من أيام الاستفتاء في المدن العراقية، ولو كانت الفتوى جواباً عن أسئلة الاستفتاء لجاء تاريخ صدورها أثناء الاستفتاء لا بعد انتهائه؛ ذلك "أن الاستفتاء في بغداد... جاء في آخر سلسلة من عمليات الاستفتاء في عدد من المدن العراقية المهمة بتاريخ (١٩ ربيع الثاني ١٣٣٧هـ/ ٢٢ كانون الثاني ١٩١٩م) أي قبل يوم واحد من صدور الفتوى... التي كانت موجهة إلى روح الاستفتاء بمجمله وضمن نطاق عملياته التي شملت مجاميع أخرى كانت تحركها أيادي المحتل لكي تطلب بقاء حكمه، كما أنها جاءت ضمن إرساء المرجعية لقاعدة مهمة ليبتنى عليها حكم العراق مستقبلاً، فضلاً عن أهمية إصدارها آنذاك في تطوير الوعي السياسي للعراقيين وإذكاء حماسهم ضد الوجود الاستعماري البريطاني في العراق"[٢]، وتنبيههم بأن العراق ذي الغالبية المسلمة لا يحكمه إلّا أحد أبنائه المؤمنين بمبادئه وقيمه وتعاليم دينه من خلال دستور يكتبه ممثلو الشعب المنتخبون وتصوت عليه غالبية مواطنيه المسلمين.

وربما نما لعلم سماحة الشيخ المرجع بأن الإنكليز يخططون لإلحاق العراق

(١) الشيخ محمّد تقي الشيرازي القائد الأعلى للثورة العراقية الكبرى ١٩٢٠. كامل سلمان الجبوري: ٨٨-٨٩.

(٢) السيد كاطع العوادي ودوره الوطني في الحياة السياسية العراقية ١٩٠٨-١٩٤٥. د. جميل موسى النجار: هامش ٢٧ ص ١٤٥.

بالتاج البريطاني مستقبلاً إما بطريق مباشر أو غير مباشر عبر إلحاقة بالهند درة التاج البريطاني كما سيأتي.

ويذهب بعض الباحثين إلى أن فتوى المرجع الشيرازي بعدم جواز انتخاب غير المسلم للسلطنة على المسلمين "أخطر من فتاوى الجهاد التي أعلنها رجال الدين في بداية الاحتلال البريطاني للعراق؛ لأن فتاوى الجهاد صدرت خلال الحكم العثماني، أما هذه الفتوى فإنها صدرت في ظل الحكم البريطاني، وبذلك تشكّل تحدّياً مباشراً له، فضلاً عن ذلك فإن هذه الفتوى انتشرت بشكل سريع في كثير من المناطق ومدن العراق مما أدى إلى تأزم الموقف الشعبي ضد البريطانيين"[١].

حتى إذا حان حين اندلاع ثورة العشرين أفتى المرجع بالجهاد للتحرير ومن ثَمّ إقامة حكومة إسلامية دستورية، وكان هذا واضحاً جليّاً عند كبار المسؤولين الإنكليز وعند قسم من الباحثين الغربيين أيضاً.

❀ ❀ ❀

(١) المرجعية الدينية العليا وأبرز المواقف الوطنية. ١٩١٤-٢٠١٤. سابق: ٧٧.

المبحث الرابع

طرق التعبير في وثائق الثورة عن هدف المرجعية الدينية وزعماء الثورة منها

لقد أثبتت العديد من وثائق ثورة العشرين تبني المراجع والمجتهدين والشيوخ والوطنيين القائمين بالثورة للمنحى الثاني الهادف إلى تطبيق نظرية الدستوريين (المشروطة) ما أمكنهم في حال نجاح ثورتهم ثورة العشرين، وإن تنوعت أشكال التعبير في الوثائق بين بيان هدف الثورة بكامل أبعاده حيناً، أو التركيز على بعض الهدف دون بعضه الآخر حيناً آخر، ما يمكنني تصنيفها من هذه الحيثية إلى أنواع ثلاثة متدرجة شيئاً فشيئاً نحو بيان كامل الهدف من الثورة.

فبعض هذه الوثائق والمضابط اكتفت تبعاً للظرف أو لغيره بذكر الاستقلال التام الخالي من أي تدخل أجنبي، وبعضها أضافت إلى ذلك تحديد شكل الحكم المرجو بعد الجلاء، وبعضها ذهبت إلى أبعد من ذلك فحدّدت إضافة لشكل النظام والحكومة المطلوبة تفاصيل هدفها كاملاً، فطالبت بحكومة عربية إسلامية ملكية دستورية مقيدة بقانون أساسي، شرط أن لا تخالف تشريعاته قواعدنا الروحية، وعاداتنا وشعائرنا الإسلامية منها والوطنية، تحت ظل ملك عربي مسلم.

وهذه الأنواع الثلاثة من التعبير هي:

» **النوع الأول: وثائق اقتصرت على تحرير العراق من الاحتلال**

ومن أمثلته:

١. رسالة المرجع الأعلى الميرزا الشيرازي إلى الشريف فيصل بن الحسين. يطلب فيها المساعدة بإيصال صوت العراقيين المطالبين "باستقلال بلادهم"[١]، إلى الحكومات الأوربية والأمريكية والصحافة الحرة.

---

(١) ثورة العشرين في ذكراها الخمسين. سابق: ١٨٣.

٢. رسالة المرجع شيخ الشريعة الأصبهاني الجوابية إلى نائب الحاكم الملكي العام في العراق الكولونيل ولسون في (٢ محرم ١٣٣٩هـ/ ١٥ أيلول ١٩٢٠م)، جاء فيها: ".. ورأينا في الأمر أن يُمنح العراقيون استقلالهم التام خالياً عن كل شائبة عارياً عن كل قيد"(١).

٣. مضبطة أهالي كربلاء المؤرخة في (١٦ رمضان ١٣٣٨هـ/ ٣ حزيران ١٩٢٠م)، الموقعة من (٦٥) خمسة وستّين عالماً ووجيهاً، مذيلة بتوقيع المرجع الأعلى الميرزا الشيرازي التي جاءت بالنص التالي: "نحن الموقعين أدنى هذا التحرير من ممثلي أهالي كربلاء المشرفة وما حولها: علمائها وأشرافها وكبرائها، وعموم أفرادها، من جميع طبقاتها، قد انتدبنا عنا وعن ممثلينا حضرات المرزه عبد الحسين نجل آية الله الشيرازي دامت بركاته، والشيخ محمّد نجل حجة الإسلام الخالصي دامت بركاته، والسيد محمّد علي الطباطبائي، والشيخ صدر الدين حفيد حجة الإسلام المازندراني، والسيد عبد الوهاب، والحاج شيخ محمّد حسن أبو المحاسن، والشيخ عمر الحاج علوان، انتدبنا هؤلاء الأمجاد لينوبوا عنا أمام الحكومة الاحتلالية في تبليغها مقاصدنا المشروعة، ومطالبتها بحقوقنا التي اعترفت بها من استقلال بلادنا العراقية استقلالاً تاماً، لا تشوبه أدنى شائبة من أي تدخل أجنبي، وقد أعطيناهم هذا الاعتماد موقعاً بتوقيعاتنا، موافقاً لرغائبنا، رأيهم رأينا، وأمرهم أمرنا، لا نشذ عنه ولا نرضى بسواه"(٢).

وهناك غيرها لا مجال لذكرها.

» **النوع الثاني: وثائق أضافت شكل النظام المرتجى بعد التحرير**

وهي الأكثر وروداً في المضابط، ومن أمثلته:

١. ما ورد في وثيقة صدرت عن اجتماع ضم وجهاء النجف الأشرف ورؤساء القبائل من خارجها دعاهم إليه الحاكم الإنكليزي (الميجر نوربري)

(١) وثائق الثورة العراقية الكبرى. سابق: ٤/ ٤٦-٤٩.

(٢) الكوفة في ثورة العشرين. كامل سلمان الجبوري: ٦٦.

في (٩ ربيع الأول ١٣٣٧هـ/ ١٣ كانون الأول ١٩١٨م) لأخذ رأيهم في (الاستفتاء) عن الحكومة المنوي تشكيلها من خلال توجيهه لهم أسئلة ثلاثة عن حكومتهم المقبلة فأجابوا بقولهم "إن العراق يريد استقلالاً تامّاً ونظاماً ديمقراطياً نيابيّاً)، ومن ذلك الحين بدأ التحضير للثورة التي فجّرتها الرميثة"[١].

٢. المضبطة أخرى رفعها بعض علماء النجف الأشرف وزعماء العشائر والتجار بعد مغادرة ولسون لمدينتهم مغضباً في (٩ ربيع الأول ١٣٣٧هـ/ ١٣ كانون الأول ١٩١٨م)، جواباً منهم على (الاستفتاء)، طلبوا فيها "حكومة مستقلة استقلالاً تامّاً ناجزاً برئاسة ملك عربي مسلم مقيّد بدستور ومجلس تشريعي منتخب"[٢].

٣. مضبطة أهالي الكاظمية المؤرخة في (٥ ربيع الثاني ١٣٣٧هـ/ ٨ كانون الثاني ١٩١٩م)، التي كان من أبرز الموقعين عليها كل من المجتهدين والعلماء: السيد محمّد مهدي صدر الدين، والسيد محسن السيد حيدر، والشيخ عبد الحسين آل ياسين، والشيخ إبراهيم السلماسي، والسيد حسن الصدر، وغيرهم، وجاءت بالنص التالي: "بناء على الحرية التي منحتنا إياها الدول العظمى، وفي مقدمتهن الدولتان الفخيمتان إنكلترا وفرنسا، وحيث إننا ممثلو جمهور كبير من الأمة العربية العراقية المسلمة. فإننا نطلب أن تكون للعراق الممتدة أراضيه من شمال الموصل إلى خليج فارس، حكومة عربية إسلامية يرأسها ملك عربي مسلم هو أحد أنجال الملك حسين، على أن يكون مقيداً بمجلس تشريعي وطني والله ولي التوفيق"[٣].

٤. مضبطة أهالي بغداد المؤرخة في (١٩ ربيع الآخر ١٣٣٧هـ/ ٢٢ كانون الثاني ١٩١٩م)، التي جاء فيها: "إننا ممثلو الإسلام من الشيعة والسنة من سكان بغداد وضواحيها، بما أننا أمة عربية وإسلامية قد اخترنا أن تكون لبلاد العراق الممتدة من شمال الموصل إلى خليج العجم دولة واحدة عربية يرأسها ملك عربي مسلم

(١) الأحلام. سابق: ٢١٣.

(٢) ثورة النجف على الإنكليز. سابق: ٣٦٦.

(٣) الثورة العراقية الكبرى: ٧٠.

وهو أحد أنجال سيدنا الشريف حسين، مقيداً بمجلس تشريعي وطني مقره عاصمة العراق بغداد"[١].

٥. مذكرة الوفدين البغدادي -المتكون من السنّة والشيعة- والكاظمي المجتمعين معاً مع الحاكم البريطاني العام السير ولسون في اللقاء الموسع المنعقد ببغداد في (١٤ رمضان ١٣٣٨هـ/ ١ حزيران ١٩٢٠م) مقدمين له المذكرة التالية:

"إلى سعادة الحاكم الملكي العام المحترم.

تعلمون أن الشعب قد انتدبنا بمظاهراته التي أقامها ليلة ٩ رمضان الموافق ٢٦ مايو؛ للنيابة عنه في مطالبة السلطة المحتلة ومفاوضة رجالها بشأن تنفيذ ثلاثة مطاليب جوهرية يرى جمهور الشعب ومعظم قادة آرائه اليوم ضرورة تطبيقها وتنفيذها حالاً وهي:

أ. الإسراع في تأليف مؤتمر يمثل الأمة العراقية ليعين مصيرها فيقرر شكل إدارتها في الداخل ونوع علاقتها بالخارج.

ب. منح الحرية للمطبوعات ليتمكن الشعب من الإفصاح عن رغائبه وأفكاره.

ت. رفع الحواجز الموضوعة في طريق البريد والبرق بين أنحاء القطر أولاً، وبينه وبين الأقطار المجاورة له والممالك الأخرى ثانياً؛ ليتمكن الناس هنا من التفاهم مع بعضهم ومن الاطلاع على سير السياسة الراهنة في العالم.

وبصفتنا نواباً عن أهالي بغداد والكاظمية، نطلب إليكم أن تصادقوا حالاً على تنفيذ هذه المطالب المذكورة، ولا يغرب عن بال سعادتكم ما في قبول هذه المطالب وإحلالها محل الإجراء والتنفيذ من صيانة الأمن وحفظ النظام والسلام العام، وإننا ننتهز هذه الفرصة فنتقدم إلى سعادتكم فائق الاحترام والإكبار"[٢].

٦. مضبطة توكيل النجف الأشرف والشامية الأولى، المؤرخة في (١٥ شهر رمضان ١٣٣٨هـ/ ٢ حزيران ١٩٢٠م) التي حررت بالنص التالي: "نحن عموم

(١) الثورة العراقية الكبرى. سابق: ٧٩.

(٢) ثورة العشرين في ذكراها الخمسين. سابق: ٢٢٧.

أهالي النجف الأشرف علمائها[١] وأشرافها وأعيانها وممثلو الرأي العام فيها، وعموم أهالي الشامية، ساداتها ووجهائها[٢] وزعماء قبائلها وممثلو الرأي العام، قد انتدبنا بعض علمائنا وأشرافنا ووجهائنا، وهم حضرات: الشيخ جواد الجواهري، والشيخ عبد الكريم الجزائري، والميرزا أحمد نجل آية الله الخراساني، والشيخ إسحاق الجيلاني، والشيخ عبد الرضا آل الشيخ راضي، والسيد نور آل السيد عزيز، والحاج عبد المحسن شلاش، أن يمثلونا أمام حكومة الاحتلال في العراق وأمام عدالة الدول التي جعلت من مبادئها تحرير الشعوب، وقد خولناهم أن يجهروا بالصوت العالي في طلب استقلال بلادنا العراقية على حدودنا الطبيعية، استقلالاً تامّاً بتاتيّاً خالياً من كل مداخلة أجنبية، استقلالاً كافلاً بتأسيس دولة عربية يرأسها ملك مسلم مقيد بمجلس وطني.

هذه رغائبنا التي لا نرضى بغيرها ولا نفتر عن طلبها ما دام فينا إحساس. ومنه نستمدّ الفوز والنجاح، وهو حسبنا ونعم الوكيل"[٣].

وكان من بين الموقعين عليها كل من: المرجع شيخ الشريعة الأصبهاني، والمرجع السيد أبو الحسن الأصفهاني، وعدد من المجتهدين، منهم: السيد علي الشيرازي الحسيني، والشيخ مشكور الشيخ محمد جواد، والسيد حسين الموسوي الحمامجي، وكبار العلماء والفضلاء والوجهاء والتجار.

٧. مضبطة مراجع ومجتهدي وعلماء النجف الأشرف وشيوخ عشائر الشامية المؤرخة في (١٨ رمضان ١٣٣٨هـ/ ٥ حزيران ١٩٢٠م) التي عدّها -السيد محمّد علي كمال الدين أحد المشاركين في الإعداد للثورة، ومن أقدم من أرّخ ووثّق أحداثها بحكم متابعته- "وثيقة هامّة تتعلق بتاريخ الثورة... وتعتبر هذه الوثيقة الأساس الذي بنيت عليه مطاليب الشعب العراقي في الاستقلال... وقد ذُيّلت

(١) هكذا وردت في صورة كتابة المضبطة.

(٢) هكذا وردت في صورة كتابة المضبطة.

(٣) وثائق الثورة العراقية الكبرى. سابق: ٣/ ١٠٥-١٠٦ .

بتواقيع قسم كبير من مراجع ومجتهدي النجف الأشرف باستثناء المرجع الأعلى سماحة السيد اليزدي ومن تبعه منهم، وقد أعقبت تواقيع العلماء، تواقيع رؤساء عشائر الفرات الأوسط"[١]، فوقّعها (٩٢) اثنان وتسعون من المراجع وشيوخ العشائر وغيرهم[٢]، يأتي في مقدمتهم أصحاب السماحة المراجع وكبار العلماء، كل من: شيخ الشريعة الأصبهاني، والسيد أبو الحسن الأصفهاني، والشيخ محمّد حسين الغروي النائيني، والشيخ مهدي آل كاشف الغطاء، والشيخ علي آل كاشف الغطاء، والشيخ مشكور الحولاوي، والشيخ موسى ابن تقي زايردهام، والشيخ إسحاق الغروي الرشتي، والشيخ مهدي الخراساني، والسيد علي السيد حسن الشيرازي، والشيخ محمّد جواد البلاغي، والشيخ عليّ الحجّة المانع، والسيد عبّاس الكليدار، والسيد علي آل بحر العلوم الطباطبائيّ، وغيرهم، والشيوخ أيضاً وفي مقدمتهم: الشيخ عبد الواحد الحاج سكر، والشيخ سلمان الظاهر رئيس الخزاعل، والسيد محسن أبو طبيخ، والشيخ مرزوك العواد، والشيخ علوان الحاج سعدون، والشيخ لفتة آل شمخي، والسيد هادي زوين، وعدد كبير من الأشراف، والزعماء، والتجار والوجهاء كذلك منهم: الحاج محمد رؤوف شلاش، والكثير من سائر الطبقات[٣]، وحررت المضبطة بما يلي:

"نحن عموم أهالي النجف الأشرف: علمائها[٤]، وأشرافها، وأعيانها، وممثلي[٥] الرأي العام فيها، وكافّة أهل الشاميّة: سادتها وزعماء قبائلها وممثليها[٦]، قد انتدبنا بعض علمائنا وأشرافنا ووجهائنا، وهم حضرات: الشيخ جواد جواهري،

(١) ثورة العشرين في ذكراها الخمسين معلومات ومشاهدات. سابق: ١٧٩-١٨٠.

(٢) المواقف المشتركة لعلماء العراق وإيران ضد الغزو الأجنبي للبلاد الإسلامية ١٩٠٥-١٩٢٠م. د. كامل سلمان الجبوري: ١/ ٣٥٣.

(٣) ينظر: وثائق الثورة العراقية الكبرى. سابق: ٣/ ١٠٨-١١٣.

(٤) هكذا وردت في صورة كتابة المضبطة.

(٥) هكذا وردت في صورة كتابة المضبطة.

(٦) هكذا وردت في صورة كتابة المضبطة.

والشيخ عبد الكريم الجزائري، والشيخ عبد الرضا آل الشيخ راضي، والسيد نور السيد عزيز، والسيد علوان الياسري، والحاج عبد المحسن شلاش؛ لِأنْ يمثلونا تمثيلاً صحيحاً قانونيّاً أمام حكومة الاحتلال في العراق وأمام عدالة الدول الحرة الديمقراطية التي جعلت من مبادئها تحرير الشعوب. وقد خولناهم أن يدافعوا عن حقوق الأمة، ويجهروا في طلب استقلال البلاد العراقية، بحدودها الطبيعية، العاري عن كل تداخل أجنبي، في ظل دولة عربية وطنية، يرأسها ملك عربي مسلم، مقيّد بمجلس تشريعي وطني. هذه هي رغباتنا، لا نرضى بغيرها، ولا نفتر عن طلبها. ومنه نستمد الفوز والنجاح، وهو حسبنا ونعم الوكيل.

١٨ رمضان سنة ٣٨"[١].

٨. المذكرة التي وقعها ممثلو عموم أهالي النجف الأشرف المنتخَبون من العلماء والأشراف والوجهاء لتمثيل المدينة تمثيلاً صحيحاً قانونياً أمام حكام الاحتلال، وهم كل من: الشيخ جواد الجواهري، والشيخ عبد الكريم الجزائري، والشيخ عبد الرضا آل الشيخ راضي، والحاج محسن شلاش، ورفعوها إلى الحاكم الملكي العام ببغداد عبر الحاكم العسكري للمدينة (الميجر نوربري) في (رمضان ١٣٣٨هـ/ ١٩٢٠م) متضمنة المطالب التالية:

"إنا نطلب فعلاً أن (يؤلف الشعب باختياره) مؤتمراً عراقيّاً قانونيّاً يجتمع أعضاؤه في عاصمة البلاد بغداد، ومهمته تأليف حكومة عربية، مستقلة كل الاستقلال، عارية عن كل تدخل أجنبي، يرأسها ملك عربي مسلم". ووردت رواية أخرى لهذه الفقرة نصت على:

"أ. تشكيل جمعية عراقية ينتخبها الشعب وتجتمع في بغداد بمهمة تأليف حكومة عربية مستقلة تماماً عن أي نفوذ أجنبي ويرأسها ملك عربي ومسلم"[٢].

---

(١) ماضي النجف وحاضرها. سابق: ١/ ٣٥٩.

(٢) الحقائق الناصعة في الثورة العراقية سنة ١٩٢٠ ونتائجها. فريق المزهر آل فرعون: ١٦٨-١٦٩.

"ب. نطلب رفع الحواجز عن ارتباط الشعب العراقي وتفاهمه مع الشعوب الأخرى بحرية المواصلات وكافة المنشورات والمطبوعات".

"ت. نطلب تمكين الأمة في عقد تجمعاتها وإقامة منتدياتها في سائر مناطق العراق"[١].

٩. كتاب المرجع الأعلى الشيرازي الموجه إلى عصبة الأمم في (٢٧ ذي القعدة ١٣٣٨هـ/ ١٢ آب ١٩٢٠م) الذي جاء فيه: "إن العراقيين طلبوا إنجاز مواعيد الدولتين المعظمتين البريطانية والفرنسوية بمنح الشعب العراقي الكريم استقلاله في إدارة شؤونه وتدبير مصالحه العامة، وتأييد الدولتين لهذا الشعب الحر في إظهار رغائبه وحكمه الذاتي بتمام حريته، وعندما فاهت الأمة العراقية بطلب إنجاز هذه الوعود المقطوعة من الدولتين المذكورتين، ثارت ثائرة الحكومة الإنكليزية فقامت معتمدة على قوتها دون الحق ففتكت بالعراقيين فتكاً ذريعاً"[٢].

١٠. مضبطة أهالي العمارة التي جاء فيها: "نطلب أن يؤلف الشعب العراقي باختياره مؤتمراً عراقيّاً يتكفل بتأسيس حكومة عربية في العراق يرأسها ملك عربي"[٣].

» النوع الثالث: وثائق أضافت (هوية الثورة) وشكل نظام الحكم في مطالبها، وهي الأوضح تبياناً

١. المضبطة التي قدمها أهالي كربلاء إلى الميجر تيلر المؤرخة في (١٩ كانون الثاني ١٩١٩م)، التي جاء فيها: "وقد اجتمعنا نحن أهالي كربلاء... وبعد مداولة الآراء، و(ملاحظة الأصول الإسلامية، وطبقاً لها)، تقرر رأينا على أن نستظل بظل راية عربية، (إسلامية)، فانتخبنا أحد أنجال سيدنا الشريف حسين ليكون أميراً

(١) ماضي النجف وحاضرها. سابق: ١/ ٣٥٩-٣٦٠.

(٢) وثائق الثورة العراقية الكبرى. سابق: ٣/ ٢٥٢.

(٣) ينظر: وثائق الثورة العراقية: ٣/ ١٦٩-١٧٠.

علينا، مقيداً بمجلس منتخب من أهالي العراق، (لتسنين القواعد الموافقة لروحيات هذه الأمة)، وما تقتضيه شؤونها"[١].

٢. رسالة بعثها كل من سماحتي المرجعين الشيخ محمّد تقي الشيرازي، وشيخ الشريعة الأصبهاني، إلى رئيس الولايات المتحدة الأمريكية حينها وهو الرئيس ولسون[٢] بتاريخ (١١ جمادى الأولى ١٣٣٧هـ/ ١٢ شباط ١٩١٩م) جاء فيها: إن "رغبة العراقيين جميعهم والرأي السائد (بما أنهم أمّة مسلمة) أن تكون حرية قانونية، واختيار دولة جديدة، عربية مستقلة (إسلامية)، وملك مسلم مرتبط بمجلس وطني"[٣] كما تقدم.

ومعلوم أن موقّعَي الرسالة أعلاه هما من المراجع، والمراجع كلهم والمقننون حين ينصون في كتابتهم أو فتاويهم على أمر ما، يحرصون كل الحرص على أن تكون نصوصهم جامعة مانعة تحدد مقصودهم ومرادهم بدقة، فحين يطلب المرجعان أن يكون شكل الدولة المطلوبة "حكومة إسلامية"؛ لأن "رغبة العراقيين جميعهم والرأي السائد بما أنهم أمة مسلمة" أن تكون لهم "حرية قانونية" في شكل نظام دولتهم وحكومتهم بأن تكون "دولة جديدة عربية إسلامية، وملك مسلم مرتبط بمجلس تشريعي"؛ فإن المرجعين يعنيان بها (دولة إسلامية دستورية) بالمعنى الدقيق للكلمة. خاصة إذا عرفنا أن الدولة الدستورية الإسلامية هي مطلب ومبتغى الحركة الدستورية (المشروطة)، وكلا المرجعين هما من كبار زعمائها وقادتها -كما تقدم-.

---

(١) الثورة العراقية الكبرى. سابق: ٦٧، وينظر: شيعة العراق. سابق: ١١٧.

(٢) توماس وودرو ولسون الرئيس الثامن والعشرون للولايات المتحدة الأمريكية من عام (١٩١٣م) إلى عام (١٩٢١م)، يُصنّف تاريخيّاً بأنه أحد أفضل الرؤساء، وكان نهجه السياسي خلال مدة رئاسته معروفاً باسم الولسونية، وقد أكسبته سياسته الخارجية الموصوفة بأنها (مثالية) ودولته مكانة محترمة بين قادة وشعوب العالم وأثّرت على الأمم المتحدة. توفي سنة ١٩٢٤م.

(٣) ثورة العشرين في ذكراها الخمسين. معلومات ومشاهدات. سابق: ١٨٢. وكربلاء في ثورة العشرين. هادي آل طعمة: ٣١.

٣. مضبطة رجال الثورة الموجهة إلى الحاكم الإنكليزي العام في النجف، والموقعة من كبار العلماء وزعماء العشائر ورؤساء القبائل ووجوه مدينة النجف الأشرف، وهي من أصرحها، وأكثرها تفصيلاً للمطالب، فقد اجتمع كبار العلماء ورؤساء الفرات الأوسط في دار الشيخ صاحب الجواهر ووقعوا على المضبطة التالية ثم ارسلوها إلى حاكم النجف الأشرف. ونصها:

"بسم الله الرحمن الرحيم بعد أن اجتمع بنا الحاكم العام في النجف الأشرف وأخبرنا بلسان الحكومة البريطانية المحتلة بشكل الحكومة التي نختارها، وننتخب ملكاً، وبعد اجتماعنا بعلمائنا، وبعد أن وقفنا على مقررات دولتي بريطانيا وفرنسا حول تحرير الشعوب وخلاصة قولها إن غرض الحكومة في الشرق تحرير الشعوب تحريراً نهائيّاً وإنشاء حكومات وإدارة وطنية في سوريا والعراق تقوم بها الشعوب بذاتها من خالص رغبتها ومحض اختيارها، وبعد (ملاحظة الأصول الإسلامية الجعفرية)، فإننا قررنا أن تكون لنا حكومة عربية (إسلامية) ملكية دستورية مقيدة بقانون أساسي بشرط أن لا يخالف (قواعدنا) وعاداتنا و(شعائرنا الدينية منها والوطنية) تحت ظل ملك عربي وهو أحد أنجال الشريف حسين. هذه رغبات الأمة العراقية، ولا نتنازل عنها قيد شعرة"(١).

ويعلق صاحب كتاب (الحقائق الناصعة) على المضبطة بقوله: "وقد وقّع عليها كبار رجالات الدين وزعماء العشائر ورؤساء القبائل ووجوه مدينة النجف الأشرف"(٢).

٤. رسالة الحاج محمّد جعفر أبو التمن إلى المرجع الميرزا الشيرازي في (٧ رمضان ١٣٣٨هـ/ ٢٥ مايس ١٩٢٠م) جاء فيها: "قبل يومين حدث في بغداد من (الشعائر الإسلامية) ما أوجب أن تغير منه الحكومة، فاستمرت (المظاهرات الإسلامية) هذين اليومين.. وقد أوفدت الآن لحضرتكم الشيخ محمّد باقر شبيب

(١) وثائق الثورة العراقية الكبرى. سابق: ٣/ ١٤٨. والحقائق الناصعة. فريق المزهر آل فرعون: ٨٤-٨٥.
(٢) الحقائق الناصعة. فريق المزهر آل فرعون: ٨٤-٨٥.

ليعرض لحضرتكم كل ما يمكن عرضه، وباعتقادي لا يقدر غيره أن يحيط ويصف (الإقدامات الإسلامية).. إلخ"[١].

٥. كتاب المرجع الميرزا الشيرازي في (٧ رمضان١٣٣٨هـ/ ٢٥ مايس ١٩٢٠م) جواباً على رسالة الحاج محمّد جعفر أبو التمن المتقدمة، جاء فيه: "وصلنا كتابك المشتمل على بيان (الحركة الإسلامية) في بغداد وزادها جلاء ولدنا الفاضل الأديب الشيخ محمّد باقر الشبيبي وفقه الله، فَسَرّنا اتحاد كلمة الأمة البغدادية واندفاع علمائها ووجهائها وأعيانها إلى المطالبة بحقوق الأمة المشروعة و(مقاصدها المقدسة) فشكر الله سعيك.. إلخ"[٢].

٦. رسالة المرجع الأعلى الميرزا الشيرازي إلى الرؤساء والزعماء والأشراف والأفراد في كافة أنحاء العراق المؤرخة في (شهر رمضان ١٣٣٨هـ/ تموز ١٩٢٠م)، الداعي فيها إلى وجوب المشاركة في مظاهرة كبيرة كان يجري الإعداد لها بدعمه ومؤازرته في بغداد، جاء فيها ما نصه: "أما بعد فإن إخوانكم المسلمين في بغداد والكاظمية والنجف وكربلاء وغيرها من أنحاء أماكن العراق قد اتفقوا فيما بينهم على الاحتجاج بمظاهرات سلمية، وقد قام جماعة كثيرة بتلك المظاهرات مع المحافظة على الأمنية بوجه واحد، طالبين حقوقهم المشروعة المنتجة لاستقلال العراق إن شاء الله، (بحكومة إسلامية)، وقد بلغتنا (إحساساتكم الإسلامية)، وتنبهاتكم الوطنية، فالواجب عليكم، بل على جميع المسلمين الاتفاق مع إخوانكم بهذا المقصد الشريف، وأن يرسل كل قطر أو ناحية بمقصده إلى بغداد للطلب بحقه"[٣].

٧. الطلب الذي وجهه السيد هبة الدين الشهرستاني -أحد وجوه زعماء الحركة الدستورية أو (المشروطة) ورئيس المجلس العلمي بكربلاء خلال مرجعية المرجع

---

(١) المواقف المشتركة لعلماء العراق وإيران ضد الغزو الأجنبي للبلاد الإسلامية ١٩٠٥-١٩٢٠. د. كامل سلمان الجبوري: ٢/ ٣٢٦.

(٢) وثائق الثورة العراقية الكبرى. سابق: ٣/ ٧١.

(٣) المصدر السابق نفسه: ٣/ ٨١.

الأعلى الميرزا الشيرازي في كتاب وجهه إلى عموم العراقيين في (رمضان ١٣٣٨هـ/ تموز ١٩٢٠م) من خلال العلماء في مناطق العراق الثائرة- وجاء فيه: إن " الأنظار شاخصة إلى نتائج أعمال المجاهدين أيدهم الله بنصره العزيز، فالمأمول على عالي همتكم وغيرتكم الدينية أن تبذلوا في مثل هذا اليوم كل السعي والجهد في توحيد كلمة العشائر و(تفهيم الغافلين روح المقصد في هذه النهضة) وتجتهدوا مع من تعتمدون عليه في تنظيم الأمنية (لتنظيم الحكومة الإسلامية العربية)"[١].

٨. مضابط من بعض المدن نصت على (إسلامية ثورتهم)، ما قد يفهم منها أنها مؤيدة للشكل الثالث من أشكال الإفصاح عن مطلب الثورة بشكل أوضح، وهي من قبيل ما ورد في:

أ. مضبطة رؤساء المجر وبني خيقان والعساكرة في لواء المنتفك الموجهة إلى المرجع الأعلى شيخ الشريعة الأصبهاني بعشرات التواقيع، وقد جاء فيها متحدثين عن ثورتهم وأنهم نهضوا بها "نهضة وطنية" وقاموا بها "قومة إسلامية" وأضافوا: "وقد عاهدنا الله سبحانه وتعالى إما الحياة وهي السعادة أو الممات وهو الشهادة أداء لتكليف شرعي ودفاعاً عن الدين الإسلامي... وحيث إن نهضة العراقيين الوطنيين (نهضة دينية عربية استقلالية احتجنا إلى المرابطة مع الجامعة الإسلامية)"[٢].

ب. كتاب زعماء جبهة المنتفك المرسل إلى المرجع الأعلى شيخ الشريعة الأصبهاني في (٢٢ صفر ١٣٣٩هـ/ ٥ تشرين الثاني ١٩٢٠م) موقع من بعض شيوخ العشائر والعلماء يتقدمهم الشيخ محمّد حسن الشيخ باقر حيدر، والشيخ عبد الحسين مطر، وكلاهما من كبار العلماء ودعاة الحركة الدستورية (المشروطة)، جاء فيه "وها نحن امتثالاً لأوامركم وطاعة لترغيباتكم نهضنا نهضة وطنية و(قمنا قومة إسلامية) فبرزنا إلى خطة الحرب... ولكن يا مولانا بلغتنا أخبار سيئة

(١) المصدر السابق: ٣/ ٢٢٤.

(٢) شيخ الشريعة قيادته في الثورة العراقية الكبرى ووثائقه السياسية. سابق: ٢٤٢.

من العدو... أن الحاكم العام تراجع مع حضرتكم في إطفاء (ثورة الإسلام) وأن الحكومة دخلت بلادكم المقدسة..."[١].

٩. رسالة المرجع الأعلى الميرزا الشيرازي إلى المسلمين العراقيين قبيل اشتعال لهيب الثورة بعد أن يئس سماحته من استجابة قوات الاحتلال لمطالب الشعب بالطرق السلمية جاء فيها قوله: "غير خفي على أحد أن موقف المسلمين في مثل هذا قد بلغت صعوبته وحراجته مبلغاً لا يسع العلماء الأعلام أن يسكتوا عنه، كما لا يسع العشائر المتحفّزين إلّا بذل النفس والنفيس في سبيل هذه (النهضة الدينية) و(الحركة الإسلامية) الواجبة. فالواجب اليوم على عموم المسلمين أداء فريضة الدفاع عن حوزة الدين المبين، وصيانة المشاهد المشرفة عن لوث الكافرين، ومحافظة نواميسكم الأطهار عن تعديات الكفرة، والقيام بواجب الوعظ والتشويق والنفر والحث والترغيب والترهيب"[٢].

١٠. جواب سماحة الشيخ عبد الكريم الجزائري -أحد أهم مهندسي ثورة العشرين، وأبرز قادتها، وممثلي المراجع والثوار في مفاوضاتها، ومن وجوه قادة حركة المشروطة- على سؤال المؤرخ السيد عبد الرزاق الحسني عن ما قدمته الثورة للعراق في (٨ شعبان ١٣٥٣هـ/ ١٦ تشرين الثاني ١٩٣٤م) بما نصه: إنّ "الحجر الأساسي، هو تشكيل (حكومة إسلامية عربية)، ونرجو من الله ﷻ أن يتم بها ما أمّلناه من الاستقلال، وبسط العدل، و(حفظ النواميس الإسلامية)، أما علاقتنا بالثوار فهي (انقيادهم الديني كانقيادهم إلى الإمام وإلى صاحب الشريعة منهم ومن كافة بلاد الشيعة)، وأما العلاقة بالثورة فهي بعد الأسباب التي ذكرتها صارت من (واجبهم الديني)، لهذا قاموا به"[٣].

---

(١) المصدر السابق: ٢٥٩-٢٦٠.

(٢) الشيخ محمّد تقي الشيرازي القائد الأعلى للثورة العراقية الكبرى ١٩٢٠. سابق: ١٨٨. وينظر: الحقائق الناصعة. سابق: ١٩٢.

(٣) الثورة العراقية الكبرى. سابق: ٣٧٨.

الفصل الثاني

الفتوى التاريخية بالثورة المسلحة سنة (١٩٢٠م)

وفيه ثلاثة مباحث هي:

المبحث الأول

الانتداب البريطاني على العراق وأثره في صدور الفتوى التاريخية

المبحث الثاني

تحديد يوم صدور الفتوى التاريخية بالجهاد الدفاعي

المبحث الثالث

قراءة للفتوى التاريخية ومعالم خارطة طريقها للتحرير

وسأتناولها تباعاً مبتدئاً بالمبحث الأول منها

المبحث الأول

الانتداب البريطاني على العراق وأثره في صدور الفتوى التاريخية

سأبدأ أولاً بتحديد مقصودي بالفتوى التاريخية، ثم أثر الانتداب في صدورها.

أقصد بالفتوى التاريخية هي تلك الفتوى التي أصدرها سماحة المرجع الأعلى الشيخ محمد تقي الشيرازي وقادت إلى اشتعال لهيب ثورة العشرين، وجاءت بالنص التالي: "مطالبة الحقوق واجبة على العراقيين، ويجب عليهم في ضمن مطالباتهم رعاية السلم والأمن، ويجوز لهم التوسل بالقوة الدفاعية إذا امتنع الإنكليز عن قبول مطالبهم". وسيأتي الحديث عنها لاحقاً.

١. صدمة الانتداب

لقد أغلقت تماماً جميع المساعي والمبادرات السلمية بوجه المراجع وزعماء الثورة وقادتها لاسترجاع الحقوق المشروعة للشعب العراقي وفي مقدمتها التحرير التام وحق تقرير المصير، خاصة بعد مؤتمر سان ريمو الذي عقده المجلس الأعلى للحلفاء في سان ريمو بإيطاليا بتاريخ (٢٥ إبريل ١٩٢٠م/ ٦ شعبان ١٣٣٨هـ)، والذي كان من ضمن مقرراته تقاسم الحلفاء لأرث الدولة العثمانية، فتقرر وضع العراق تحت الانتداب البريطاني، ووضع سوريا تحت الانتداب الفرنسي، ثم أعلنت بريطانيا فرضها الانتداب على العراق بموجب مقررات المؤتمر في (٣ مايس ١٩٢٠م/ ١٤ شعبان ١٣٣٨هـ) ونشرته صحف بغداد، وبذلك فقد وقع ما كان يخشاه العراقيون، فـ"الانتداب تلك الكلمة المقيتة، قد أينع الآن، والحكم البريطاني المباشر الفعّال متواصل، ولم يعد للاستقلال الحقيقي أية دلالة، ولا أي أمل مبكر"[1]، وهو ما

(١) العراق الحديث من سنة ١٩٠٠ إلى سنة ١٩٥٠. سابق: ١/ ١٩٧.

ارتآه لويد جورج رئيس وزراء بريطانيا حينها بقوله: إن الانتداب ليس سوى بديل عن الاستعمار القديم[١]. وقد جاء في بلاغ (ويلسون) وهو يشرح الانتداب للعراقيين بما بدا له -لجهله بنفسية وطباع العراقيين- أن الانتداب سيكون محبّباً لهم فزاد الطين بلة بقوله: "يترتب على الدولة الوصية أن تجعل نفسها ذلك الحارس العاقل النبيه... فيأخذ بيد شعبها ويسير به نحو الرقي ويدرّبه تدريباً يجعله صالحاً للجلوس في مصاف شعوب العالم... وكما يستبشر الوصي ويفرح بنمو القاصر الموصى به حتى يبلغ سنّ الرشد ويصبح رجلاً حرّاً مستقلّاً، كذلك تستبشر الدولة الوصية وتبتهج عندما ترى المعاهد السياسية آخذة بالرقي والتقدم حتى تصبح حرة مستقلة قوية الدعائم ثابتة الأركان"[٢]، وكأن العراقيين قُصّر لا يستطيعون تمييز ما يضرهم وما ينفعهم بحيث لا بد لهم من وصي عليهم يبلغ بهم سن الرشد العقلي والنفسي!

ومثله ما جاء في خطاب ألقاه المستشرق البريطاني (مارغوليوث) في اجتماع عقد مع الزعماء العراقيين المعارضين من سكنة بغداد وضواحيها، وكان من جملة حاضريه المعارض السياسي علي البازركان الذي نقل عن (مارغوليوث) قوله في الاجتماع: "بأن العراق بلد اعتاد على الحكم الأجنبي الغريب عنه، وأنه لا يستطيع أن يحكم نفسه بنفسه، لذلك وجب على العراقيين أن يختاروا الإنكليز، ليكونوا عليهم أولياء وأوصياء"[٣].

---

(١) وهو ما فسر فيه "تعريف جان سمطس في رسالته الموجزة التي ارتأى فيها تأليف عصبة أممية تعمل على تجنب الحروب... وتتولى الانتداب على البلدان التي انسلخت من الإمبراطورية العثمانية لكي تكون وديعة مقدسة... إلى الأمم الراقية التي تستطيع... أن تتحمل هذه المسؤولية... حتى يأتي اليوم الذي تصبح فيه قادرة على الوقوف بمفردها. (أي جعل الانتداب اسماً مستعاراً للاستعمار وستاراً له)". (تاريخ العراق السياسي الحديث. عبد الرزاق الحسني: ١/ ٨٣).

(٢) شيعة العراق وبناء الوطن. سابق: ٤٤٣. نقلاً عن جريدة (العرب) في عددها الصادر في ١٣ أيار ١٩٢٠. نص بلاغ ويلسون حول الانتداب.

(٣) المصدر السابق، نقلاً عن كتاب (الوقائع الحقيقية). علي البازركان: ٦٦-٦٧.

وقد أثارت دعوى البريطانيين بوجوب قيمومتهم على العراقيين ووصايتهم عليهم مشاعر وغضب العراقيين وامتعاضهم الشديد، ومنه ما ورد على لسان الشيخ محمد الخالصي في الاجتماع التاريخي الحاشد في صحن العباس عليه السلام مساء يوم (٢٥ رمضان ١٣٣٨هـ/ ١٢ حزيران ١٩٢٠م) بقوله: "أيها السادة إن الله قد وصفكم بكتابه بصفتين بأنكم الأعلون... وحكم على من هذه صفته أن لا يهين ولا يحزن، كذلك أنتم في كتاب الله، وقد جاءتكم بريطانيا بخيلها ورجلها وعزمها وشكيمتها تقول: أنتم الأدنون ونحن الأعلون، لذلك يجب أن نكون قيّمين على شؤونكم وإدارتكم وأموالكم وأنفسكم... هكذا أرادت بكم تلك الدولة القاسية التي لا ترى غيرها في العالم، وتحسب صنوف البشر عبيداً أرقّاء مذللين... تنصب بريطانيا عليكم قيّماً دوليّاً وهي الوصي وهي القيّم، فهل أنتم مجانين حتى تفتقروا إلى الولي وإلى القيّم؟!"[١]. وقد تصاعدت وتائر ذم الوصاية إلى عامة المواطنين بطبقاتهم الاجتماعية كافة، حتى بات "الناس يعلنون تذمرهم واستياءهم من الانتداب قائلين: (هل نحن أطفال لكي نحتاج إلى وصي يرعى شؤوننا؟!)، وانتشر بين التلاميذ في المدارس "نشيد" يتضمن رفض "الحماية والوصاية" ويشبهها بـ"الأسر" و"العيش بذل"[٢].

أما وفق نظر العراقيين فإضافة إلى ما تقدم أقول: إنهم كانوا "ينظرون إليه نظرهم إلى الاستعمار"[٣]، أو يعتبرونه "مرادفاً للاستعمار والسيطرة"[٤]، أو "توسعاً استعماريّاً باسم جديد"[٥]، أو هو "إلحاق مستور، وأيّد الفرنسيون هذا الاعتقاد بالعمل"[٦]، بل قال "السير برسي كوكس الذي كان حينذاك

(١) لمحات اجتماعية من تاريخ العراق الحديث. سابق: ٥/ ٢٠٥-٢٠٦.

(٢) شيعة العراق وبناء الوطن. سابق: ٤٤٣ نقلاً عن علي الوردي: ١٠٢. وينظر نص النشيد في نهاية الصفحة.

(٣) العراق قديماً وحديثاً. السيد عبد الرزاق الحسني: ٣٢.

(٤) تاريخ العراق المعاصر. سابق: ٢٥.

(٥) حول سياسة بريطانيا في العراق ١٩١٣- ١٩٢١. فاروق صالح العمر: ٦٣.

(٦) الثورة العراقية الكبرى. سابق: ١٣٩.

المندوب السامي البريطاني في العراق: إن الانتداب كان بنظر العراقيين (لعنة)"[١].

لقد كان القرار البريطاني صريحاً بفرض الانتداب على العراق، ووافق عليه الشريف فيصل، مع موافقتهما معاً على أن يغطى الانتداب بغطاء معاهدة تمويهاً وتلافياً للسخط الشعبي من لفظ الانتداب.

لقد أكدت أكثر من وثيقة في سجل الوثائق البريطانية على ذلك، وفي مقدمتها ما تقدم، ومنها ما أوضحته نص المسودة الأصلية المرسلة من وزارة الهند إلى مجلس الوزراء البريطاني في (٣٠ ذي القعدة ١٣٣٨هـ/ ١٥ آب ١٩٢٠م) متضمنة الخطوط التي يسمح للسير بيرسي كوكس باتباعها بعد تعيينه مندوباً سامياً في العراق، ومن هذه التعليمات: "أن يمنح الشريف فيصل إمارة العراق بشرط... أن يكون الشريف فيصل مستعداً من حيث المبدأ بقبول بريطانيا دولة منتدبة، ويوافق على تشكيل انتداب على وفق الخطوط المرسومة... ومن المحتمل أن الشريف فيصل (كذا) في ضوء تجربته مع الحكومة الفرنسية في سوريا يمكن في أثناء قبوله من حيث المبدأ بالانتداب ببريطانيا الدولة المنتدبة أن يلحّ على التعبير عن شروط الانتداب في شكل معاهدة. وإذا كان الأمر كذلك فإن حكومة جلالته -البريطانية- ستكون مستعدة لتنفيذ الاقتراح"[٢].

وكان قد صرح به نصّ برقية أخرى سابقة بعثها وزير الخارجية لشؤون المستعمرات البريطاني إلى المندوب السامي البريطاني في العراق برقم (٣٠٤) في (٢٤ ذي القعدة ١٣٣٨هـ/ ٩ آب ١٩٢١م) بقولها: لـ"قد قبل فيصل الانتداب وحتى يستبدل بعلاقة أخرى يجب عليه أن يعمل بموجبه"[٣].

غير أن ذلك يحتاج إلى مقدمات، منها: أن "تتشكل الحكومة العراقية على نحو

---

(١) العراق. شهادة سياسية. ١٩٠٨- ١٩٣٠. حسين جميل: ٩٢.

(٢) العراق في سجلات الوثائق البريطانية. سابق. المجلد الثاني ١٩١٨-١٩٢١: ٣٩٧.

(٣) المصدر السابق نفسه: ٦٤٥. وتنظر أيضاً: ٦٤٧.

وافٍ ووجود شخص لنا يصوغ المعاهدة... يجب أن يتبع ذلك تصديق رسمي للمعاهدة"[١].

ويذكر السيد محسن أبو طبيخ أحد زعماء وشيوخ ثورة العشرين الذين قصدوا مكة بعد انتهاء الثورة أنّ الشريف فيصلاً بعد وصوله لمكة إثر اتفاقه مع الإنكليز على تسنّمه عرش العراق لم يكتفِ فيصل بقبول الانتداب كما ورد في الرسالة البريطانية الرسمية أعلاه، بل زاد على ذلك بأن أقرّ واعترف صراحة أمام قادة الثورة العراقيين المهاجرين إلى الحجاز بعد رجوعه من لندن، وقبيل سفره للعراق، ردّاً على استفهامهم منه بسؤالهم له: ما إذا كان "سيشكل حكومة في العراق حرة تتمتع بالاستقلال التام الناجز، أم أنها حكومة مقيَّدة؟ فقال: مقيدة بالانتداب الإنكليزي"[٢].

ونظراً لعلم الشريف فيصل بموقف العراقيين المعادي والكاره للانتداب بشدة، بل بموقف كل الشعوب الحرة منه حتى هو نفسه، غير أنه ضعف فقدم مصلحته الشخصية على قناعاته الواقعية، فقد بدأ يلح على تغطية الانتداب البغيض لدى العراقيين بغطاء معاهدة تمويهي، وقَبِل الإنكليز منه ذلك، بل ربما هُم من اقترحه عليه حسب لونكريك[٣] كما تقدم. رغم أن فيصل وصف الانتداب للعراقيين في خطبة له خلال حفل تكريمي أقامه للوفود العراقية التي حضرت مهرجان استقبال الملك في البلاط الملكي بتاريخ (١٩ جمادى الأولى ١٣٥٠هـ/ ٢ تشرين الأول ١٩٣١م) بقوله: "إن كلمة الاستعمار كانت قد أصبحت ممقوتة في نظر الشعوب الغالبة والمغلوبة، ومن أجل التوفيق بين الاعتراف الاسميّ بحقوق البلدان المنسلخة عن تركيا، وتنفيذ مبادئ الفتح؛ ابتُدِع أسلوب جديد سُمّي بالانتداب؛ ليستر من جهة حق الفاتح، ويؤمل من جهة أخرى المغلوب بإمكان الحصول على استقلاله"[٤].

---

(١) المصدر السابق. المجلد الثاني ١٩١٨-١٩٢١: ٦٤٦.

(٢) مذكرات السيد محسن أبو طبيخ. سابق: ٢١٢.

(٣) ينظر: العراق الحديث من سنة ١٩٠٠ إلى سنة ١٩٥٠. سابق: ٢٢٩.

(٤) فيصل بن الحسين في خطبه وأقواله. أحمد زكي الخياط: ٢٩١.

وقد قال فيصل قبل ذلك متحدثاً عن الانتداب واصفاً إياه بإنه "عار على كل أمة تريد الحياة، أرجو من الأمة أن تعلم أن رئيسها أو حاكمها أو ملكها الذي انتخبته هو على هذا المبدأ: لا يرضى أن يقال إنّ المملكة التي هو رئيسا (كذا) تحت قيود مملكة أخرى. فالأمة التي عاشت قروناً عديدة ومدّنت العالم لا يمكن أن تتقيّد بهذه القيود. وأريد أن لا يكون رفض الأمة للانتداب مقتصراً على القول فقط"[١].

ورغم كل ما قاله فيصل عن سوء الانتداب، ورغم كل أحاديثه المموهة للعراقيين عن رفضه للانتداب، وعن تحقيقه المخادع لاستقلال العراق، فقد صارحهم مرة في المأدبة الملكية التي أقامها للوفود القادمة من جميع أنحاء العراق في مهرجان استقبال الملك المنعقد بتاريخ (١٩ جمادى الأولى ١٣٥٠هـ/ ٢ تشرين الأول ١٩٣١م) محدّثاً إياهم -بعد عشر سنوات من تربعه على عرش العراق- عن "الانتداب الذي سيلغى"[٢]. وفعلاً فإن الانتداب استمر حتى إبرام المعاهدة العراقية-البريطانية المذلة، حيث أصدر مجلس عصبة الأمم قراراً بإلغاء الانتداب على العراق في (٢ جمادى الثانية ١٣٥١هـ/ ٣ تشرين الأول ١٩٣٢م).

لقد وصف السيد محمّد علي كمال الدين المعاصر للحدث صدمة إعلان الانتداب يومها بأنه: أوقع العراقيين في حيرة ويأس شديدين، حيث تلقى العاملون في الحقل السياسي في جميع المدن العراقية هذا البيان بشيء كثير من الوجوم والتصميم.

لقد وصل كوكس إلى بغداد في (٢٧ محرم ١٣٣٩هـ/ ١١ تشرين الأول ١٩٢٠م) ليطبق بنود انتداب بريطانيا على العراق الذي وافق عليه فيصل "بكل ما يشتمل عليه ذلك الانتداب من وصاية مهما تمّ تفسيرها فهي وصاية"؛ لأن الانتداب في

---

(١) من خطاب الملك فيصل الذي ألقاه في دمشق في (٢٧ أيار ١٩٢٠م). ينظر نص الخطاب في كتاب: الملك فيصل الأول من الثورة العربية الكبرى حتى تأسيس الدولة العراقية الحديثة. معن فيصل القيسي: ٧٨.

(٢) فيصل بن الحسين. ومضات من سيرة الملك الزعيم. مؤسس مملكة العراق ومنشئ الجامعة العربية. سابق: ٢٩٥.

حقيقته "ليس سوى إهانة تحطّم الكرامة القومية للعراق في نظر جميع المسلمين في كل مكان"[١]. وصل كوكس و"لم تكن كربلاء والنجف وطويريج والرميثة وهيت والسماوة والكوفة وديالى وأربيل قد خضعت للحكم -البريطاني- المباشر، وأما في الموصل فلا يزال القلق مستمرّاً بتأثير الدعوة الكمالية"[٢]، ومع ذلك فقد جاء خطاب المندوب السامي البريطاني لوجوه كبار السياسيين العراقيين صريحاً في عدم الجلاء عن العراق مهما كلفهم الأمر.

يقول الشيخ موسى العصامي المعاصر للحدث: "حدثني كثير من الزعماء والأعيان عن كوكس.. قالوا: اجتمعنا به في دار الاعتماد فأول كلمة فاه بها أن قال: يا أهل العراق، اتركوا حديث إنّا نخرج من بلادكم، وندعها لكم بعد تلك الحرب الطاحنة التي وقعت بيننا وبين الترك، وغير هذا اطلبوا أي مشروع من المشاريع النافعة، فإنّا مستعدون لمدّ يدّ المساعدة لكم بكل ما أمكن، وسنحت به الظروف"[٣].

***

٢. موقف المرجعية الدينية وقادة الثورة من الانتداب

لقد كانت النجف الأشرف طبعاً من بين أهم المدن العراقية الرئيسة التي تلقت هذا البيان المفزع بأسوأ الانطباعات، ووضعت حدّاً لمحاولاتها السلمية في تحقيق المطالب الوطنية؛ لذلك طبعت عشرات ألوف المناشير في مطابعها الحجرية والحديثة تحض على الثورة ضد الإنكليز، وجرى توزيعها في جميع أنحاء العراق، ثم كتبت مئات الرسائل والكتب إلى زعماء عشائر الفرات الأوسط ووجوه بغداد"[٤] أيضاً.

ونتيجة لموجة الغضب الشعبي العارم ضد الانتداب وضد إصرار الإنكليز

(١) العراق الحديث من سنة ١٩٠٠ إلى سنة ١٩٥٠: ١/ ٢٠٧ و٢٣٠. على التوالي، ومشكلة الموصل. د. فاضل حسين: ١١، وينظر وصف جريدة الاستقلال العدد الصادر في (٧ تشرين الثاني ١٩٢٠) لرأي العراقيين بالانتداب في المصدر نفسه: ١١-١٢.

(٢) مشكلة الموصل. سابق: ١٨.

(٣) مذكرات العلامة الشيخ موسى العصامي. القسم الثاني. سابق: ١١٣.

(٤) ثورة النجف على الإنكليز أو الشرارة الأولى لثورة العشرين. سابق: ٣٨١-٣٨٢.

على عدم الجلاء عن العراق ومنح شعبه الحرية في تقرير مصيره، فقد "بذل الإنكليز جهوداً حثيثة لإطفاء هذا الاستياء والغليان، حتى وصل الأمر بهم إلى إلقاء القنابل على بعض مجالس العزاء الشعبية المكتظة بالمشاركين، وكما يقول أحد كتّاب التقارير الرسمية الإنكليزية: (لقد تمكنت الضربات الجوية البريطانية بمفردها خلال ١٥ يوماً أن تضع حدّاً لتحركات القبائل)"[١] الثائرة ضدهم.

ولعل من الصدف المؤثرة إعلان بريطانيا انتدابها على العراق في نفس يوم اجتماع عشرات الآلاف من الوافدين إلى كربلاء لزيارة (النصف من شعبان ١٣٣٨هـ/ ٤ مايس ١٩٢٠م)، وهو ما استدعى إلى عقد اجتماع عاجل بين كبار القادة الوطنيين العراقيين من العلماء والشيوخ وغيرهم في دار السيد أبو القاسم الكاشاني الملاصقة للصحن الحسيني الشريف حضره أربعة وعشرون زعيماً، وكان من جملة من حضره: المجتهد الشيخ عبد الكريم الجزائري، والحاج جعفر أبو التمن، والسيد نور الياسري، والسيد علوان الياسري، والشيخ عبد الواحد آل سكر وغيرهم، وتقرر فيه إيفاد ممثلين عنهم إلى المرجع الأعلى الشيخ محمّد تقي الشيرازي لمفاتحته في أمر الثورة المسلحة، واستحصال موافقته على ذلك.

يقول الشيخ جعفر محبوبة المؤرخ المعاصر للحدث: إن زعماء الفرات الأوسط المجتمعين بسماحة المرجع الأعلى الشيخ الشيرازي تلك الليلة هم كل من: السيد محسن أبو طبيخ، والسيد نور الياسري، والشيخ عبد الكريم الجزائري، والشيخ شعلان أبو الجون، والشيخ غثيث الحرجان[٢]، خلافاً لرواية أخرى أوردها د. علي الوردي ذاهباً فيها إلى أن الخمسة المختارين لمقابلة المرجع الشيرازي هم كل من "عبد الكريم الجزائري وجعفر أبو التمن ونور الياسري وعلوان الياسري وعبد الواحد الحاج سكر"[٣]، ولعل الرواية الأولى هي أصوب لتثبت الراوي.

---

(١) محمد حسين النائيني وتأسيس الفقه السياسي. عبد الهادي الحائري: ٤٩.

(٢) ماضي النجف وحاضرها. سابق: ١/ ٣٦١.

(٣) لمحات اجتماعية من تاريخ العراق الحديث. سابق: ٥/ ١٢٨.

المبحث الثاني

تحديد يوم صدور الفتوى التاريخية بالجهاد الدفاعي

تستدعيني العلاقة الوثيقة بين ليلة صدور الفتوى ويومها، أن أبدأ البحث بالاجتماع التاريخي الحاسم ليلة صدور الفتوى المباركة.

١. الاجتماع الحاسم ليلة صدور الفتوى

ونظراً لأهمية الحدث الكبيرة فسوف أنقل أكثر من قول مؤرخ معاصر لما جرى في ذلك الاجتماع الخطير، أبدؤها بما أرّخ به المجتهد الثبت الشيخ محمّد حرز الدين مجريات ذلك الاجتماع بقوله: "حدثني الثقة عن مشاهداته التاريخية في مجلس الميرزا في كربلا... بداره الخاصة، ولا أنسى أنها كانت (ليلة النصف من شهر شعبان ١٣٣٨هـ/ ليلة ٤ مايس ١٩٢٠م) -وهي ليلة زيارة الامام الحسين عليه السلام في النصف من شعبان، حيث تمتلئ كربلاء بالزائرين سنويّاً- وفي اجتماعهم هذا تعهدوا، وأظهروا ولاءهم لدينهم وبلدهم واستعدادهم للمقابلة والدفاع، واستفتوه في إعلان الثورة، فتردد الميرزا عن الجواب. وقال لهم ما نصه: (إن الحمل لَثقيل، وأخشى أن لا تكون للعشائر قابلية المحاربة مع الجيوش المحتلة)، فطمّنه الزعماء بأن فيهم الكفاءة الكاملة، ثم عاد عليهم بقوله: (أخشى أن يختل النظام، ويفقد الأمن. وإن الأمن أهم من الثورة، وأوجب منها)، فأجابوه: (بأن لنا قابلية على حفظ الأمن، وأن الثورة لا بدّ منها)، فشكرهم، وقال: (إذا كانت هذه نواياكم، وهذه تعهداتكم فالله عونكم)"[1].

ويتطرق الشيخ جعفر محبوبة إلى ما طرحه وجوه الثورة على المرجع الأعلى الشيخ الشيرازي ليلة النصف من شعبان بقوله: "فعرضوا على الإمام منوياتهم واستفتوه في إعلان الثورة لنيل مطالبهم المغدورة وأقنعوه بأن فيهم القوة الكافية

---

(١) معارف الرجال. الشيخ محمّد حرز الدين: ٢/ ٢١٦.

للقيام بها، فتردد الإمام في إصدار الفتوى، ولم يزد على قوله: (إذا كانت هذه نواياكم وهذه تعهداتكم فالله في عونكم)، وعلى هذا تفرق الاجتماع"[١].

ويؤكد الشيخ محمّد مهدي البصير -المعايش للحدث والمشارك في إعلام ثورة العشرين ببغداد- ما دار في هذه الجلسة السرية المهمة في كربلاء تلك الليلة بقوله: "في (ليلة النصف من شعبان سنة ١٣٣٨هـ/ -ليلة ٤ مايس ١٩٢٠م-) زار عدد كبير من مشايخ الشامية وغيرها دار الإمام الشيرازي بكربلاء، فعقدوا هناك اجتماعاً بعد نصف الليل، وكان ذلك الاجتماع طبعاً تحت رئاسة رب المنزل، فدارت بين المجتمعين مداولة ترمي إلى إصلاح الحالة العامة، وكان القيام بالثورة آخر ما قرّ عليه قرار المجتمعين، فأقسموا أمام الإمام بالقرآن العظيم أنهم لا يتأخرون عن تلبية نداء دينهم ووطنهم وأنهم يجازفون بكل مرتخص وغالٍ في سبيل إنقاذ بلادهم من الحكم الأجنبي، وأنهم يلفظون آخر نفس وهم تحت طاعة أوامر إمامهم الشيخ محمّد تقي الشيرازي الذي يقودهم إلى ما فيه صلاح دينهم ودنياهم"[٢]، ويضيف الباحث حسن الأسدي إلى ذلك قوله: "فلما خرج الزعماء من لدن سماحته، خرج معهم نجله المذكور -الشيخ محمّد رضا الشيرازي- واقنعهم بأن محصّل قول والده الشيخ هو إفتاء بالثورة على الإنكليز"[٣].

أما صاحب كتاب (الحقائق الناصعة) فيقول: "اجتمع الخمسة مع الشيخ الشيرازي طويلاً فأسفرت مداولاتهم على أن يقاوموا الحكومة البريطانية مقاومة أدبية سلمية من قبيل المظاهرات والمطالبات بشرط المحافظة على الأمن، ويقدمون كتاباً إلى السلطة البريطانية يطالبون فيه إنجاز ما وعدت به وتحقيق استقلال العراق التام، فإن سمحت لهم السلطة المحتلة بذلك فهي الغاية المنشودة، وإن لم يحصل هذا يقاومونها بثورة دموية، وهنا تحدث آية الله الشيرازي وقال إنه يخشى

(١) ماضي النجف وحاضرها. سابق: ١/ ٣٦١.

(٢) تاريخ القضية العراقية. سابق: ١٩١. ط١.

(٣) ثورة النجف على الإنكليز أو الشرارة الأولى لثورة العشرين. سابق: ٣٨٢.

أن لا يتمكن أبناء العشائر من مقاومة القوات البريطانية، فأثبت لسماحته زعماء ورؤساء القبائل والعشائر وجود المقدرة التامة لدى العشائر على مقاومة الإنكليز فقال سماحته ثانياً إني أحذر أن يختل النظام ويفقد الأمن، وهما أهم من كل شيء، فطمّنه الزعماء بأنهم ملزمون بالأمر وقادرون على ضبط النظام والمحافظة على الأمن، وهنا أجاب قدّس الله سرّه: (إذا كانت هذه نواياكم وتلك تعهداتكم فإن الله في عونكم) ثم انفض الاجتماع"[١].

أما الفتوى التاريخية بالجهاد الدفاعي المشهورة، فقد كان لصدورها اجتماع بعد هذا الاجتماع المسائي. سيأتي الحديث عنه لاحقاً.

***

٢. اختلاف المؤرخين في تحديد يوم صدور الفتوى

اختلف المؤرخون في تاريخ صدور الفتوى التاريخية على أقوال عدة، نقل بعضها عنهم د. علي الوردي قائلاً: "ذهب د. عبد الله الفياض إلى أن الفتوى صدرت قبل نفي نجله الشيخ محمّد رضا في (٢٢ حزيران ١٩٢٠)، وذهب السيد عبد الرزاق الحسني إلى أنها صدرت بعد نفي نجله، ويذهب علي البازركان إلى أنها صدرت إثر اندلاع الثورة في الرميثة في (٣٠ حزيران)، وذهب مصطفى أسد خان إلى أنها صدرت في (٢٩ تموز)، ويذكر المؤرخ البريطاني فيليب آيرلند أنّ (مجلة لندن) نصّت على أنّ الفتوى صدرت في (٦ آب ١٩٢٠م)"[٢]، ويرجح الباحث جاسم محمّد إبراهيم اليساري صدورها في المدة الواقعة بين (٧-١٤) تموز ١٩٢٠م[٣].

---

(١) الحقائق الناصعة. سابق: ١٠٣.

(٢) العراق دراسة في تطوره السياسي: ٢٠٦ نقلاً عن كتاب الملك فيصل الأول من الثورة العربية الكبرى حتى تأسيس الدولة العراقية الحديثة. سابق: ٩٩. وينظر: لمحات اجتماعية من تاريخ العراق الحديث. سابق: ٥/ ١: ٢٣٥.

(٣) الشيخ محمّد تقي الشيرازي ودوره في الثورة العراقية عام ١٩٢٠ دراسة تاريخية. مجلة أهل البيت عليهم السلام. العدد ١٥ ص ٢٨٦-٣٠٦.

وأضيف لمن ذكرهم د. الوردي إلى أن الباحثين حسن الأسدي، وكامل سلمان الجبوري ذهبا إلى أن الفتوى صدرت بعد اعتقال الشيخ محمّد رضا الشيرازي نجل المرجع الأعلى، وقبل ثورة الرميثة[١]، كما ذهبت إلى ذلك أيضاً الباحثة اليابانية كيكو ساكاي[٢].

أما الباحثون: أمين الريحاني، و د. شاكر حسين دمدوم الشطري، وعبد الإله توفيق الفكيكي، و د. عبد الستار شنين الجنابي، فقد ذهبوا إلى أن الفتوى صدرت بعد ثورة الرميثة في (٣٠ حزيران ١٩٢٠م)[٣]. في حين خالف الباحث إسحاق نقاش الجميع بقضيتين حسب قوله التالي: "وقبل أيام قليلة من وفاة الشيرازي في ١٣ آب -١٩٢٠، أي قبل وفاته بأربعة أيام- اجتذبت فتوى هامة نسبت إليه عشائر أخرى للانضمام إلى الثورة (مطالبة الحقوق واجبة على العراقيين.. إلخ)"[٤].

وفي النص أمران يستدعيان التوقف: أولهما في صدور الفتوى وذيوعها، وثانيهما وهو غريب ما بدا من عبارته أنه تشكيك في نسبة الفتوى إلى المرجع الميرزا الشيرازي بقوله "نسبت إليه" كما تقدم.

ويرجّح الباحث الروسي ل. ن. كوتلوف[٥]، والباحثون د. جاسم محمد إبراهيم اليساري، و د. علاء الصافي، و د. سليم حسين ياسين، والباحثات د. صبا حسين مولى، و د. غصون مزهر المحمداوي، أنّ الفتوى صدرت في المدة الواقعة بين

(١) ينظر: ثورة النجف على الإنكليز أو الشرارة الأولى لثورة العشرين. سابق: ٣٨٣، والشيخ محمّد تقي الشيرازي القائد الأعلى للثورة العراقية الكبرى. سابق: ١٠٣-١٠٤.

(٢) ثورة العشرين. دراسة في الأحزاب السياسية والشبكات الاجتماعية في العراق. ١٩٠٦-١٩٢٠. سابق: ١٠٧.

(٣) ينظر: فيصل الأول. أمين الريحاني: ٣٢، وأثر المرجعية الدينية في الدفاع عن العراق خلال مدة الاحتلال البريطاني ١٩١٤-١٩٢٠. سابق: ١٠٣. البدايات الخاطئة. عبد الإله توفيق الفكيكي: ١٥٣، وتاريخ النجف السياسي ١٩٢١-١٩٤١. د. عبد الستار شنين الجنابي: ٧٧ على التوالي.

(٤) شيعة العراق. سابق: ١٢٦.

(٥) دور المرجعية الدينية الشيعية في تطور الأحداث في العراق ١٩١٤-١٩٢٤. د. سليم حسين ياسين. نقلاً عن كتاب: ثورة العشرين التحررية في العراق. كوتلوف: ١٨٥.

(٧-١٤) تموز ١٩٢٠م[١]. وهناك غيرهم لا يسع المجال لاستعراض آرائهم[٢].

ويذهب د. علي الوردي بعد عرضه للآراء المتقدمة إلى: "أنّ الشيرازي أصدر فتواه بعدما اشتدت المعارك في الرميثة، وفشلت محاولته في المفاوضة مع ولسون، فقد أدرك حينذاك أنّ الإفتاء بالثورة المسلحة ضروري لتشجيع العشائر على مساعدة عشائر الرميثة في القتال"[٣]، علماً بأن معركة الرميثة كانت في (٣٠ حزيران ١٩٢٠م)، أما فشل مفاوضاته مع ولسون فكان بعد اعتقال نجله الشيخ محمّد رضا الشيرازي في (٥ شوال ١٣٣٨هـ/ ٢٢ حزيران ١٩٢٠م).

وقد ورد نفي هذه الآراء المتقدمة كلها عدا الرأي الأول، ودحضها جميعها، بما نقله د. عبد الله الفياض عنه إجابة لسؤال كان وجهه إلى الشيخ محمّد رضا الشيرازي خلال زيارته له في طهران سنة (١٣٦٤هـ/ ١٩٤٥م) سأله فيه عن سبب اعتقاله، فأجاب الشيخ محمّد رضا الشيرازي بقوله: "إن السبب الذي من أجله قبض علينا هو صدور الفتوى من المرحوم والدي بوجوب قتال الإنكليز، وبعد صدور الفتوى انكمش الناس الذين سبقوا لهم أن أظهروا تأييدهم للإنكليز"[٤]، ما يشير صراحة إلى أن الفتوى سبقت اعتقال نجل المرجع الشيرازي بمدة غير قليلة؛ لأن انكماش الناس عن تأييد الإنكليز مترتب على وصول الفتوى إلى الناس في وقت لم تكن فيه وسائل الإعلام ووسائل التواصل الاجتماعي موجودة، ثم تأثر الناس بها بحيث غيّروا موقفهم تجاه حليفهم المحتل، متخلّين بذلك عن الأموال

(١) الشيخ محمد تقي الشيرازي ودوره في الثورة العراقية عام ١٩٢٠. دراسة تاريخية. مجلة أهل البيت عليهم السلام. العدد ١٥. ص٢٨٦-٣٠٦ والشيخ محمد تقي الشيرازي الحائري ودوره السياسي من عام ١٩١٨-١٩٢٠. سابق: ١٣٢. ودور المرجعية الدينية الشيعية في تطور الأحداث السياسية في العراق ١٩١٤-١٩٢٤. سابق: ٢٩٠. والمرجعية الدينية وبناء الدولة العراقية. بحث. دليل فعاليات وبحوث مهرجان فتوى الدفاع المقدسة الثقافي الثالث: ٢/ ٢١ على التوالي.

(٢) ينظر: أثر المرجعية الدينية في الدفاع عن العراق خلال مدة الاحتلال البريطاني ١٩١٤-١٩٢٠. سابق. هامش: ١٠٢- ١٠٣.

(٣) ينظر: لمحات اجتماعية من تاريخ العراق الحديث. سابق: ٥/ ١/ ٢٣٥.

(٤) الثورة العراقية الكبرى سنة ١٩٢٠. سابق: ٢٥٠.

والامتيازات التي كانوا قد جنوها بخيانتهم لوطنهم، ثم ظهور تأثير هذه الفتوى في الناس عند الإنكليز، فاستيضاح العدو بأن سبب الانكماش هو الفتوى، وهي بمجموعها تحتاج إلى أسابيع عادة. وهو ما يقوّي الرأي الذي انتهيت إليه.

***

٣. الرأي المختار لتحديد يوم صدور الفتوى

يظهر مما ورد في مذكرات المؤرخ الكربلائي السيد إبراهيم شمس الدين الموسوي المعايش للحدث، والقريب من مصدر القرار، أن الفتوى التاريخية للمرجع الأعلى الشيرازي قد صدرت (صبيحة يوم النصف من شعبان ١٣٣٨ هجرية/ -صبيحة يوم ٤ مايس ١٩٢٠م-)، وقرأها (صبيحة يوم النصف منه سنة ١٣٣٨هجرية) السيد مرزا إبراهيم الزنجاني على مسامع العلماء والزعماء والرؤساء والشيوخ، بعد أن رقى المنبر بأمر من المرجع الأعلى الشيخ الشيرازي من على سطح دار الشيخ الشيرازي نفسه.

يقول السيد إبراهيم شمس الدين الموسوي نجل سماحة السيد حسين القزويني[١] أحد أبرز قادة الثورة في كربلاء ومن كبار تلامذة ومستشاري المرجع الأعلى الشيخ الشيرازي في مذكراته: "عندما اجتمع العلماء والزعماء والرؤساء وكافة رؤساء العشائر في النصف من شعبان سنة ١٣٣٨هـ/ ٤ مايس ١٩٢٠م) في دار آية الله الشيرازي في كربلاء لسماع فتواه حول طلبهم الاستقلال ومطالبة الإنكليز بالجلاء عن العراق مطالبة سلمية، فأفتى المرحوم الشيرازي فتواه المذكورة في كتب التواريخ، وعيّن المرحوم السيد مرزا إبراهيم الزنجاني أحد أفاضل أهل العلم

(١) ولد السيد إبراهيم الموسوي في مدينة كربلاء سنة (١٣١٩هـ/ ١٩٠١م)، مؤرخ وأديب، رافق أباه السيد حسين القزويني في تنقلاته وحركاته إبان ثورة العشرين، وكان مولعاً بالتوثيق والتصوير، فقد صور بكامرته رجال الثورة المسجونين في سجن الحلة المركزي، وتُوصف مذكراته بكونها تتضمن حوادث ونوادر ممتعة شيقة يتعلق معظمها بأحوال كربلاء الاجتماعية. (كربلاء في ثورة العشرين. السيد سلمان هادي آل طعمة: هامش صفحة ١٦٤).

حينذاك لقراءة الفتوى، فرقى المنبر السيد المذكور... وعقد الاجتماع في سطح دار الشيرازي"[١].

ومقصود المؤرخ السيد إبراهيم شمس الدين بقوله "فأفتى المرحوم الشيرازي بفتواه المذكورة في كتب التواريخ" هي الفتوى التاريخية المشهورة بنصها التالي: "مطالبة الحقوق واجبة على العراقيين، ويجب عليهم في ضمن مطالباتهم رعاية السلم والأمن، ويجوز لهم التوسل بالقوة الدفاعية إذا امتنع الإنكليز عن قبول مطالبهم "[٢].

وقد أشار السيد محمّد علي كمال الدين -المعاصر للحدث- إلى الاجتماع الثاني الذي عقده قادة الثورة مع المرجع الأعلى الشيرازي في بيته بعد اجتماع ليلة النصف من شعبان المتقدم ذكرها، ذلك الاجتماع الذي قال لهم المرجع الأعلى فيه تلك الليلة: "إذا كانت هذه نواياكم وتلك تعهداتكم فإن الله في عونكم". كما تقدم.

يقول السيد كمال الدين -في معرض ذكره للاجتماع الثاني صبيحة يوم (الخامس عشر من شعبان ١٣٣٨هـ/ ٤ مايس ١٩٢٠م)-: "بعد أن انفضّ الاجتماع -ليلة النصف من شعبان- عاد الجميع بعد يوم إلى دار الإمام الشيرازي، حيث قابله علماء الدين وزعماء العشائر والوفود، وعقدوا مؤتمراً هناك، وبعد انتهائه قصد الجميع مرقد الإمام الحسين عليه السلام، فعاهدوا الله في هذا المكان المقدس أن يلتزموا بالمقررات التي تهدف إلى التفاني والتضحية من أجل الثورة بالنفس والنفيس"[٣].

ويصرح فريق المزهر آل فرعون المعايش للحدث أيضاً بحصول اجتماع ثانٍ أو "مؤتمر" -عقد بعد ليلة منتصف شعبان، وقبل القسم على القرآن ليلة ١٦ شعبان- فيقول: "بعد أن تمّ اجتماع وفد الرؤساء والزعماء الفراتيين مع آية الله

(١) مذكرات السيد إبراهيم شمس الدين الموسوي. منشور في ختام ملاحق كتاب كربلاء في ثورة العشرين. سابق: ١٨٩-١٩٠.

(٢) معارف الرجال. سابق: ١/ ٣٦٢.

(٣) ثورة العشرين في ذكراها الخمسين. معلومات ومشاهدات. سابق: ٢١٦-٢١٧.

الشيرازي التأم مؤتمر عام في داره حضره الجميع، وبعد انتهاء المؤتمر قصد جميعهم إلى الروضة الحسينية الطاهرة، عاهدوا الله ورسوله أمام ضريح سيد الشهداء وقائد أباة الضيم على أن يخلصوا في عملهم ويتفانوا لأجل أهدافهم ولن يتراجعوا عن غايتهم مضحين في سبيلها بالغالي والنفيس"[١].

وبموجب هذه الرواية فإن الفتوى التاريخية التي نشرت خلواً من تاريخ لصدورها كانت صدرت وأعلنت إعلاناً خاصاً أمام العلماء والزعماء وشيوخ العشائر والقادة (صبيحة يوم النصف من شعبان ١٣٣٨هـ/ ٤ مايس ١٩٢٠م).

ولعل خلوها من التاريخ ناشئ من إعلانها (الخاص) أمام الزعماء الذين اجتمعوا معه بعد منتصف ليلة النصف من شعبان ١٣٣٨ هجرية، ومن كونها صدرت تتمة ومحصلة وتتويجاً واستمراراً لاتفاقهم التاريخي مع سماحته في ليلة معلومة مشهورة متفق على حدوثها وزمنها وتوقيتها وموافقة سماحته الضمنية على الثورة في ذيلها بين عامة المؤرخين كما تقدم. وسيأتي الحديث عن زمن إعلانها العام وذيوعها وانتشارها بين العراقيين لاحقاً.

أما لماذا اعتمدتُ يوم (النصف من شعبان ١٣٣٨ هجرية) تاريخاً لصدور الفتوى، ورجحتُه على غيره من التواريخ المتقدمة؛ فلأسباب عدة، من أهمها: أن راويها مؤرخ كربلائي معاصر للحدث، وثيق الصلة بمركز القرار، نتيجة مرافقته وملازمته لسماحة والده السيد حسين القزويني أحد خاصة مستشاري المرجع الشيرازي، وعضو المجلس الملّي للثورة في كربلاء المقدسة في أكثر من اجتماع كما يشير إلى ذلك في مذكراته، ولأن المؤرخ قبل ذلك وبعده قد حدّد زمان صدور الفتوى ومكان إعلانها على زعماء الثورة، في حين أن كل الآراء الأخرى تحتمل وتقرّب.

وفرق كبير بين تحديد مؤرخ معاصر للحدث لزمان وقوع الحدث ومكانه،

---

(١) الحقائق الناصعة. سابق: ١٠٣-١٠٤.

ومجلسه، وحضّاره، وخطيبه، والنص الملقى فيه، وغير ذلك من خصوصياته؛ وبين احتمال مؤرخ أو مؤرخين للحدث نفسه توصلوا إليه من القرائن واللوازم والظنون.

فإذا أضفنا إلى ذلك كله ما أورده السيد محمّد علي كمال الدين، وما نقله صاحب كتاب (الحقائق الناصعة) من أن "مؤتمراً" عقد بعد ليلة النصف من شعبان وقبل ليلة ١٦ شعبان، ودعمناه بما أعقبه من اجتماع الزعماء يوم الفتوى مساء ليحددوا آلية الخطوة القادمة، ثم ليتعاهدوا بالقسم على القرآن الكريم وفي ضريح الإمام الحسين عليه السلام على إنجاز ما اتفقوا عليه من الثورة، وهو ما لا يحصل عادة إلّا بعد انجلاء الصورة عندهم تماماً بحولهم على ما قصدوا المرجع الأعلى لأجله وأقنعوه به؛ قَوِيَ اعتماد هذا التاريخ (وهو يوم منتصف شعبان من عام ١٣٣٨هـ/ ٤ مايس ١٩٢٠م) لصدور الفتوى.

ذلك أن المؤرخين ذكروا بأنه بعد صدور الفتوى عقد زعماء الثورة الذين شاركوا في الاجتماع الأول اجتماعاً آخر (ليلة ١٦ شعبان ١٣٣٨هـ/ ٤ مايس ١٩٢٠م) في دار السيد نور الياسري بمحلة السلالمة بكربلاء حضره الشيخ محمّد رضا نجل المرجع الأعلى الشيرازي، و"اتفقوا على الاستمرار في مطالبة الإنكليز بالاستقلال بالطريقة السلمية، فإذا أصرّ الإنكليز على رفض مطاليبهم، وعاندوا في ذلك فإن العشائر تلجأ عندئذ إلى القيام بالثورة المسلحة، ولما انفضّ الاجتماع ذهبوا جميعا إلى ضريح الإمام الحسين عليه السلام فأقسموا بالقرآن على إنجاز ما اتفقوا عليه ومن حنث في يمينه فهو ضالّ آثم. وقد قام بتحليفهم السيد عبد الوهاب واحداً بعد الآخر"(١). و"أنهم يبذلون أنفسهم في سبيل إنقاذ بلادهم من يد الإنكليز"(٢). ويضيف السيد عبد الرزاق الحسني لذلك قوله: "وقرروا الشروع بالثورة في مواضع مختلفة وبيوم واحد ليتمكنوا من مشاغلة القوات الإنكليزية في ميادين

(١) لمحات اجتماعية من تاريخ العراق الحديث: ٥/ ١/ ١٢٩.

(٢) ماضي النجف وحاضرها. سابق: ١/ ٣٦١.

مختلفة وكلفوا الشيخين شعلان أبو الجون وغثيث الحرجان أن يستعدّا للقاء في السماوة وأن يحرّضا بقية الرؤساء على الانضمام تحت هذا اللواء المقدس"[١].

وقد كتب الشيخ محمّد رضا الشيرازي -في رسالة مرسلة منه إلى الشيخ إسحاق الرشتي في النجف الأشرف، يقدّم فيها تهانيه بعيد الفطر المبارك، ويخبره فيها بما تمخضت عنه نتائج الاجتماعات بين مندوبي الفرات الأوسط وبغداد، تلك الاجتماعات التي تقرر فيها اتخاذ قرار بات بالثورة المسلحة متى ما فشلت جميع الجهود الحثيثة المبذولة لاستنقاذ العراق من مخالب الاستعمار الإنكليزي- واصفاً هذا القرار بـ"القرار العظيم"[٢].

ويؤيد صدور الفتوى يوم الخامس عشر من شعبان، وضوح موقف المرجعية العليا البات والقاطع لدى الشيخ محمّد رضا الشيرازي، ولدى خاصة المرجعية من أمثال الشيخ محمّد الخالصي كاتب رسائل المرجعية، وعند العلماء وشيوخ العشائر وزعماء الثورة المجتمعين بسماحة المرجع الأعلى ليلة النصف من شعبان ومن أرسلوهم ليمثلوهم نيابة عنهم في الاجتماع المذكور ثم توجهوا جميعاً إلى الحرم الحسيني المطهر ليؤدوا القسم على الالتزام بما تعاهدوا عليه مهما كلفهم الأمر.

فأما وضوحه لدى المستشار الأول للمرجعية الشيخ محمّد رضا الشيرازي النجل الأكبر للمرجع الأعلى الشيرازي؛ فقد تبيّن من حضوره مع الزعماء والشيوخ الذين أدّوا القسم بالقرآن الكريم بحضرة الإمام الحسين عليه السلام كما في أعلاه من جهة، ومن مضمون رسالته إلى الشيخ إسحاق الرشتي المتقدمة.

وأما وضوحه التام لدى خاصة المرجعية، فلِما ورد في الخطب والقصائد الملقاة في مظاهرة كربلاء الحاشدة بحضور الشيخ محمّد رضا الشيرازي نجل المرجع الأعلى، وخاصة ما تضمنته خطبة الشيخ محمّد الخالصي المستوحاة من

(١) الثورة العراقية الكبرى سابق: ١٧١.

(٢) ينظر: الشيخ محمّد تقي الشيرازي القائد الأعلى للثورة العراقية الكبرى ١٩٢٠. سابق: ١٩٧.

الفتوى المباركة، والتي أسماها البعض بـ"خطاب إعلان الثورة"[١]. تلك الخطبة التي خاطب فيها الشيخ محمّد الخالصي كاتب المرجع الأعلى حينها الآلاف من المجتمعين في صحن أبي الفضل العباس عليه السلام بكربلاء في (شهر شوال ١٣٣٨هـ/ حزيران ١٩٢٠م) بقوله: إنّ "الفتوى القاطعة هي وجوب ذود الإنكليز..، والتحرج عن أن يبدأ العراقيون بحرب ما لم يضطرهم إليه الإنكليز. فيجب الدفاع حينئذ بجميع الوسائل والقوى، حتى يطهر الله البلاد من شر الغاصبين ويمحق الظالمين"[٢]. وقال فيها أيضاً: "إذا لم نغلب بريطانيا فسوف لا تغلبنا ونحن أحياء بل ستدوس على أجداثنا ونحن مستشهدون في سبيل الله والعز والشرف... نعم يا سادتي النبلاء أبطال العراق، إني لا أطلب منكم إلّا صدق الإيمان وثبات الجأش والصبر على الشدائد، والله لا يرضى عنكم بغير ذلك، فهبّوا وانهضوا نهضة الأبطال المستميتين، ولا تتوانوا، ولا يقعدكم شيء حتى تنالوا بغيتكم المقصودة، رضا الله واستقلال العراق"[٣].

هذا كله من جهة، ومن جهة أخرى ما ذكره الشيخ محمد الخالصي بعد أن تفرق الناس المجتمعون في صحن العباس عليه السلام بعد الخطبة بقوله: "خرج كل أحد من كربلاء إلى قومه منذراً لهم ومحرّضاً على التأهب والاستعداد لإعادة مجد العراق الذاهب"[٤].

ويضيف الشيخ في موضع آخر من كتابه الآخر المعنون بـ(في سبيل الله) "وجرت بيننا تلك الليلة مذاكرة في هذا الأمر... فقال الميرزا -محمد تقي الشيرازي المرجع

(١) ينظر: الإمام المجاهد الشيخ محمد الخالصي. سابق: ١٢٨.

(٢) بطل الإسلام. مذكرات الشيخ محمّد الخالصي. سابق: ١٦٠ وما بعدها.

(٣) الإمام المجاهد الشيخ محمد الخالصي. سابق: ١٣٢.

(٤) بطل الإسلام. مذكرات الشيخ محمّد الخالصي. سابق: ١٦٠-١٦١. وقد ورد في هامش ص٢٤١ من كتاب (في سبيل الله) للمؤلف نفسه أنها ألقيت في صحن الإمام الحسين عليه السلام. ويبدو أنه اشتباه؛ ذلك أن المعروف حسب المصادر الأخرى أنها ألقيت في صحن العباس عليه السلام. ينظر مثلاً: (لمحات اجتماعية من تاريخ العراق الحديث. سابق: ٥/ ٢٠٥).

الأعلى ومفجر الثورة-: "إنّ سفك الدماء في هذا السبيل والتعرض للقتل واجب"[١].

هذا ما يتعلق بوضوح موقف المرجعية العليا عند خاصة المرجع وكبار مستشاريه.

وأما وضوح موقف المرجعية وجلاؤه لدى قادة الثورة وشيوخها وزعمائها، فقد أبداه وكشفه قسمهم على كتاب الله المنزل بحضرة الإمام الحسين عليه السلام على "الشروع بالثورة" وفق ما تقدم في أعلاه.

ولولا تجلي رأي المرجعية العليا البات والقاطع لهم يوم النصف من شعبان لَما أقسموا على القرآن الكريم بحضرة الإمام الحسين عليه السلام على الشروع بالثورة المسلحة، ولَما جاء التحريض على القيام بالثورة بهذه الصراحة في مظاهرة كربلاء أمام الآلاف بحضور نجل المرجع الأعلى ومستشاره الأول، والتي جاء فيها النص التالي: "إذا لم نغلب بريطانيا فسوف لا تغلبنا ونحن أحياء، بل ستدوس على أجداثنا ونحن مستشهدون في سبيل الله والعز والشرف... نعم يا سادتي النبلاء أبطال العراق، إني لا أطلب منكم إلّا صدق الإيمان وثبات الجأش والصبر على الشدائد، والله لا يرضى عنكم بغير ذلك. فهبّوا وانهضوا نهضة الأبطال المستميتين، ولا تتوانوا، ولا يقعدكم شيء حتى تنالوا بغيتكم المقصودة، رضا الله واستقلال العراق" كما تقدم، ولَما كتب الشيخ محمد رضا الشيرازي أيضاً في العيد ما كتب للنجف الأشرف.

وخلاصة ما أنتهي إليه في شأن تحديد يوم صدور الفتوى التاريخية: أن الفتوى صدرت نهار (يوم الخامس عشر من شعبان ١٣٣٨هـ/ الرابع من مايس ١٩٢٠م)، وقد تم الإبلاغ بها على مرحلتين، اختصت المرحلة الأولى باطلاع قادة الثورة وشيوخها وزعمائها والخاصة من مستشاري المرجعية وأمثالهم على نصّها. وشملت المرحلة الثانية اللاحقة لها إعلام وإطلاع وإشهار الفتوى لجميع المؤمنين من دون تحديد لساعة الصفر لانطلاق الثورة.

---

(١) في سبيل الله. سيرة ذاتية ومذكرات الشيخ محمد الخالصي: ٢٤٢.

المبحث الثالث

قراءة للفتوى التاريخية ومعالم خارطة طريقها للتحرير

وفيه نقطتان رئيسيّتان، هما:

١. وقفة على فتوى المرجع الأعلى الميرزا الشيرازي بالثورة المسلحة

يمكن للقارئ الكريم غير المتخصص -فضلاً عن غيره- أن يلحظ أن الفتوى المباركة لثورة العشرين قد اشتملت على مقاطع ثلاثة:

أولها: أن المرجع الأعلى بدأ بإيضاح المقدمة الشرعية الملزمة لفتواه، وهي حق العراقيين في تقرير مصيرهم بأنفسهم، إضافة لكونها مبدأ أساسيّاً في القانون الدولي ينظر إليه كقاعدة آمرة ملزمة، ورتّب على هذه المقدمة الشرعية بأن (ألزم) العراقيين شرعاً كفقيه ومرجع أعلى بـ(وجوب) مطالبتهم جميعاً بحقوقهم الثابتة بالاستقلال البات الناجز العاري عن كل تدخل أجنبي مهما كان، وبأي صورة من الصور، وبحريتهم التامة كشعب في تقرير مصيرهم وتحديد المسار والخيارات السياسية التي يراها مناسبة له.

ثانيها: "يجب" على الشعب العراقي ضمن مطالبته بحقوقه المشروعة "رعاية السلم والأمن".

ثالثها: إذا فشلت المساعي السلمية للعلماء والشيوخ والوطنيين من ممثلي الشعب العراقي في تحقيق حقوقه الشرعية والوطنية كاملة غير منقوصة؛ حينئذ "يجوز لهم التوسل بالقوة الدفاعية إذا امتنع الإنكليز عن قبول مطالبهم" المشروعة في الاستقلال التام العاري من كل تدخل أجنبي بأي صورة من الصور، ومن ثَمّ تقرير العراقيين لمصيرهم بأنفسهم.

وتحتاج الفتوى المباركة إلى وقفة تفصيلية تحليلية، أدعو الباحثين إلى خوض غمارها وسبر أغوارها وقراءة تداعياتها على العراق وبريطانيا والمنطقة.

وقبل أن أنهي حديثي عن هذا الاجتماع التاريخي الخطير الذي صدرت على إثره

الفتوى التاريخية، يحسن بي أن أذكر أمرين:

الأمر الأول: أن صدور الفتوى المتقدمة لا يعني سوى الإذن الشرعي باللجوء إلى الثورة المسلحة إذا فشلت جميع المساعي السلمية لانتزاع الحقوق المشروعة للشعب العراقي فشلاً تامّاً، من دون أن يعني صدور الفتوى البدء بتنفيذها عمليّاً من خلال إشعال فتيل الثورة المسلحة، بل ترك موضوع تحديد يوم إشعال فتيل الثورة إلى المستجدات اللاحقة والظروف الطارئة.

الأمر الثاني: أستغرب حقّاً من رأيين للدكتور القومي الاتجاه وميض عمر جمال نظمي، ذكرهما تعقيباً على الاجتماع الذي عقد ليلة النصف من شعبان بقوله عنه:

١: إنه "كان بمثابة التصديق الرسمي على التحالف القومي-الديني-العشائري" وهو وصف غير واقعي، وغير موفق، بل غير وارد أصلاً.

٢: زعمه بأن "انتفاضة الفرات الأوسط بدأت في الرميثة... وذلك قبل صدور أي فتوى أو إيعاز ديني"[١]، علماً بأن الفتوى المتقدمة المشهورة ليست هي الفتوى الوحيدة من المرجع الأعلى الميرزا الشيرازي، فقد وردت فتوى أخرى لسماحته أيضاً بالنص التالي:

"إلى إخواننا المسلمين في العراق سلمهم الله.

غير خفي على أحد أن موقف المسلمين في مثل هذا قد بلغت صعوبته وحراجته مبلغاً لا يسع العلماء الأعلام أن يسكتوا عنه، كما لا يسع العشائر المتحفزين إلّا بذل النفس والنفيس في سبيل هذه النهضة الدينية والحركة الواجبة الإسلامية.

فالواجب اليوم على عموم المسلمين أداء فريضة الدفاع عن حوزة الدين المبين، وصيانة المشاهد المشرفة عن لوث الكافرين، ومحافظة نواميسكم الأطهار

(١) ثورة ١٩٢٠ الجذور السياسية والفكرية والاجتماعية للحركة القومية العربية الاستقلالية في العراق. سابق: ٣٧٤ و٢٤ على التوالي.

عن تعديات الكفرة، والقيام بواجب الوعظ والتشويق والنفر والحث والترغيب والترهيب، والله ولي التوفيق إنه سميع مجيب"[١].

***

٢. تفريعات على الفتوى التاريخية

يقول الشيخ محمّد الخالصي كاتب رسائل المرجعية العليا: "كانت فتاوى آية الله الشيرازي تجدد روح الجيش كلما ضعفت، وكان على بيّنة من أمره في فتاواه وأحكامه، لم تُرِبْهُ ريبة، ولم يخالجه شك، ولا تأخذه فيها لومة لائم، وإليك مثلاً منها: كنا جلوساً بين يديه في داره إذ وردت إليه من الهندية هذه المسائل والحرب بيننا وبين الإنكليز على قدم وساق:

مسائل:

أ. من منعاه والداه عن حرب الإنكليز/ هل يجب عليه إطاعتهما أو الحرب؟

ب. هل يجب على من لا يطيق حمل السلاح، أو لم يحسن استعماله أن يشترك في الحرب؟

ت. هل يجب تغسيل من مات قتيلاً في ميدان الحرب، أو تكفينه أو يدفن بثيابه؟

فأمرنا أن نكتب الجواب الآتي:

أ. يحرم على الوالدين منع ولدهما عن الحرب، فإن عصيا ومنعاه، فيحرم على الولد إطاعتهما، ويجب عليه قتال الإنكليز والدفاع عن حوزة المسلمين؟

ب. من لم يحسن استعمال السلاح يجب عليه التعلم فوراً، ومن لم يطق حمل السلاح يجب عليه معونة المجاهدين بما يتمكن، ولو بتضميد الجرحى وحملهم، ونقل الماء والطعام إلى المجاهدين، وغير ذلك.

ت. من مات في هذه الحرب فهو شهيد، لا يغسّل، ولا يكفّن، بل يُصلّى عليه ويدفن بثيابه، كمن قتل بين يدي الإمام"[٢].

---

(١) الشيخ محمّد تقي الشيرازي القائد الأعلى للثورة العراقية الكبرى ١٩٢٠. سابق: ١٨٨.

(٢) بطل الإسلام. مذكرات الشيخ محمّد الخالصي. سابق: ١٧٨-١٨٠.

ويضيف كاتب رسائل المرجعية قائلاً: "هذه كانت فتاواه في محاربة الإنكليز دفاعاً عن بيضة الإسلام، مع أنه كان متّبعاً طريقة الاحتياط في جميع المسائل، حتى كان مقلدوه في مشقّة العمل لكثرة احتياطاته[١]، إلّا أنه رأى الاحتياط هنا في القطع بالحكم والصراحة التي لا تقبل التأويل في هذه المواضع التي يبتني عليها حفظ الإسلام ومجد المسلمين. ومن لم يعرف حقيقة الدين الإسلامي ومغزى شرائعه لعله يرى ذلك خلاف الاحتياط"[٢].

يُذكر أنه قد عقدت جلسة مهمة في كربلاء -وفق توثيق أحد معاصريها من القريبين إلى مصدر القرار- بتاريخ (٣ شوال ١٣٣٨هـ/ ٢٠ حزيران ١٩٢٠م) "في دار السيد نور الياسري في محلة باب السلالمة وحضرها الميرزا محمّد تقي الشيرازي شخصياً مع نجليه عبد الحسين ومحمد حسن، والسيد أبو القاسم الكاشاني، والسيد حسين القزويني، والسيد هبة الدين الشهرستاني، ومرزا أحمد الآخوند الخراساني، والشيخ محمّد كاظم الشيرازي، والسيد هادي الخراساني؛ للتداول في أمور الثورة.

وفي عصر اليوم سافر السيد نور من كربلاء للديوانية، ولا أعلم ما جرى في حينه بينه وبين الميرزا وأصحابه"[٣].

وتبدو أهمية الاجتماع وخطورته من السرية الشديدة له، ومن حضور المرجع الأعلى شخصياً فيه، خلافاً للمألوف من أن تعقد الاجتماعات التي يحضرها سماحته في داره عادة، وكذلك من حضور نجلي المرجع الأعلى وكبار مستشاريه وقادة وزعماء الثورة في كربلاء والفرات الأوسط فيه، ثم من إحاطته بالكتمان الشديد والسرية التامة، ولولا الشهادة الحسية المروية في مذكرات خطية لما عرفنا بالاجتماع

(١) وهو ما أدى به لأن يُرجِع مقلديه -حيث يحقّ لهم الرجوع- إلى المرجعين: شيخ الشريعة الأصبهاني والسيد أبو الحسن الأصفهاني. (ينظر: مجلة العدل. العدد الأول. السنة الثالثة. ص١٥، وينظر: هكذا عرفتهم. جعفر الخليلي: ١/ ١٠١).

(٢) بطل الإسلام. مذكرات الشيخ محمّد الخالصي: ١٨٠.

(٣) من مذكرات السيد إبراهيم شمس الدين الموسوي المخطوطة. كربلاء في ثورة العشرين. سلمان هادي آل طعمة: ١٨٥-١٨٦.

وخطورته، وكما تستفاد أيضاً مما لحقه من احتفال ثوري كبير كان دعا إليه نجله الشيخ محمّد رضا الشيرازي، وما تبعه من اعتقاله وثلة من قادة الثورة في كربلاء بعد الاجتماع بيومين.

وتستفاد خطورة الاجتماع من سفر السيد نور الياسري عصر يوم الاجتماع إلى الديوانية دون تأخير.

وعلى الرغم من الوضوح التام المعزز بالوثائق والوقائع بأن التحرير التام الناجز للعراقيين هو مطلب المرجعية العليا، وأن حثها للمواطنين على التظاهر والتجمع والمعارضة السلمية النشطة كان بسبب تلبية العراقيين القوية لدعوة مرجعيتهم التي يلتزم بدعوتها غالبية الشعب العراقي ومن الشيعة بالخصوص، وأن تعدد التجمعات وانتشارها في المدن العراقية الكبرى ومنها العاصمة بغداد كان بطلب من المرجعية والوطنيين، مع كل ذلك وغيره وهو كثير، فإن ولسون "راح يعتبر مطاليبهم بالاستقلال الناجز للأمة العراقية بأنها مطاليب (عصابة متهوسة)"[1].

❀ ❀ ❀

(١) العراق الحديث من سنة ١٩٠٠ إلى سنة ١٩٥٠. سابق: ١/ ١٩٦.

الفصل الثالث

التطبيق العملي للفتوى باتباع المسعى السلمي لتحقيق المطالب المشروعة ولجوء المحتلين إلى خيار العنف

يتضمن هذا الفصل ثلاثة مباحث هي:

المبحث الأول

المبادرات والنشاطات السلمية

المبحث الثاني

تنشيط المعارضة السلمية وتفعيلها

المبحث الثالث

تثوير المعارضة السلمية ولجوء المحتلين إلى خيار العنف

وسأتناولها تباعاً مبتدئاً بالمبحث الأول منها

المبحث الأول

المبادرات والنشاطات السلمية

بعد أن قرر المرجع الأعلى والمجتهدون وتبعهم الوطنيون بأن لا بد من السعي لتحرير العراق من نير الاحتلال البريطاني، تحريراً تامّا عارياً عن أي شبهة لتدخل أجنبي مهما كان، وأن تحرير العراق من نير الاحتلال وتنجيز حق تقرير المصير للشعب العراقي يجب أن يكون بالطرق السلمية أولاً وبالذات؛ لذلك نشطت المساعي الشعبية على الصعد كافة للضغط على الإنكليز من أجل تحقيق مطالب الشعب الحقة بالطرق السلمية، وقد تمثلت أوائل هذه النشاطات والمبادرات بعقد مؤتمر كبير في النجف الأشرف تولى وضع خطة تفصيلية للعمل السياسي السلمي، وكما يلي:

أولاً: مؤتمر النجف الأشرف والخيار السلمي

لعل من أوائل مظاهر تبنّي المسعى السلمي لتحقيق المطالب الحقة، ما صدر عن مؤتمر عقده زعماء الثورة في النجف الأشرف ليلة (١٦ نيسان ١٩٢٠م/ ٢٧ رجب ١٣٣٨هـ) وهي ليلة المبعث النبوي الشريف، مستثمرين "تلك المناسبة لاستقدام أعضاء ذلك المؤتمر.. وفي جنح الظلام يتسلل المخلصون إلى دار المرحوم السيد علوان" الياسري حيث انعقد المؤتمر بحضور كبار زعماء الثورة، وبحضور الميرزا رضا نجل الإمام الشيرازي.

يقول الشيخ علي الشرقي أحد المؤتمرين: "وكانت زبدة المخض المقررات الآتية:

١. تأسيس جمعية في سائر أنحاء العراق باسم الجامعة الإسلامية، تعمل على توحيد الصفوف ولمّ الشمل وتحفيز الجماهير.

٢. تشكيل فروع لهم في المدن تعمل على فرض عطلة في كل يوم جمعة، وأن يحتشد

الناس في الأماكن العامة حيث تنصب المنابر ويعلوها الخطباء المسعّرون والمنبّهون تحت شعار الوعظ الديني.

٣. يوعز إلى قسم من أفراد العشائر بعدم الطاعة التامة للحكومة في شؤون الجباية، وعدم الاتصال بالحكام، والظهور بحالة تشبه ما سُمّي أخيراً في الهند بالعصيان المدني.

٤. بث رسالة من الزعيم الروحي إلى سائر رؤساء العشائر تأمر بالتساند والتكافل والعمل الجماعي السلمي على إنقاذ المسلمين وتخليص البلاد من محنتها.

٥. الخروج بالنهضة من نطاقها الضيق وتعريف سائر الأقطار العربية بأهداف العراق على الأخص القطر الحجازي وسيده الملك حسين.

هذه هي مقررات المؤتمر.. قبل وقوع القبض على نجل الميرزا الشيرازي، وقبل وقوع الثورة بكثير"، حيث "كانت الخطة.. أن تكون ثورة سلمية طويلة الأمد ذات عناد وصلابة، ومفاوضات ومراوغات، بدون قتال"[١]؛ لأن المرجع الأعلى يريدها سلمية. رغم ورود تقرير سري للشرطة البريطانية عن حوادث أسبوع ينتهي في (١٦ شعبان ١٣٣٧هـ/ ١٧ أيار ١٩١٩م) موقّع من د. ل. موركان معاون مدير الشرطة المركزي ببغداد، ورد فيه ما نصه:

"يقال إن أهالي الكاظمية ينوون إرسال سيد صالح وعدد من العلماء إلى النجف وكربلاء في القريب العاجل من أجل التحريض على الثورة"[٢].

ويبدو أن التقرير السري غير صحيح، أو أن أهالي الكاظمية لم يرسلوا من نووا إرسالهم إلى النجف الأشرف وكربلاء المقدسة، أو أنهم أرسلوا ولم تنجح مهمتهم في المدينتين.

***

(١) على هامش الثورة العراقية الكبرى. سابق: ٢١ و٢٣-٢٤ و١٦ على التوالي.

(٢) العراق في سجلات الوثائق البريطانية ١٩١٤-١٩٦٦. المجلد الثاني ١٩١٨-١٩٢١. سابق: ٣٠٢.

ثانياً: إبلاغ قادة الثورة وتوجيههم للعمل بالخيار السلمي

لقد وجه كل من سماحتي المرجعين الشيخ الشيرازي وشيخ الشريعة الأصبهاني زعماء وشيوخ وقادة الثورة إلى المطالبة بحقوق الشعب بالطرق السلمية ما أمكن ذلك، فقد تجلى ذلك بوضوح في نص الفتوى التاريخية وإبلاغها لهم من قبل المرجع الأعلى مباشرة في اجتماع ليلة النصف من شعبان كما تقدم، ثم بالرسائل الصادرة عنهما إلى القادة والشيوخ والزعماء وكذلك إلى وكلاء المرجعية في المدن المختلفة لحث مواطنيها وأهل الحل والعقد فيها على السير بالطريق السلمي إلى أقصى مداه، وحثهم كذلك على إرسال مطالب شعبهم إلى المحتل عبر المضابط المكتوبة -وقد تقدم الحديث عنها في فصل سابق-، موجبين عليهم سلوك الطريق السلمي حتى نهايته قبل اللجوء إلى الثورة المسلحة، بحيث ظهر سلوكهم الخيار السلمي والسعي إليه واضحاً جليّاً لدى زعماء الثورة وقادتها في متبنّياتهم، معبرين عنه بأحاديثهم ورسائلهم التي كتبوها إلى المحتلين الإنكليز، وبتجمعاتهم السلمية الكبيرة والمتتالية وخاصة في ما اصطلح عليه بتجمعات (المولد/ التعزية) كما سيأتي ذكرها في المبحث الثاني اللاحق.

كل ذلك وغيره من أمثال الرسالة المتقدم ذكرها التي بعث بها المرجع شيخ الشريعة الأصبهاني إلى الحاكم السياسي العام في (٨ شوال ١٣٣٨هـ/ ٢٥ حزيران ١٩٢٠م)، لذا فسأقتصر على ذكر وثيقة واحدة -إضافة لما تقدم ذكره من وثائق- كمثال على مدى اتباع الثوار وانصياعهم إلى أوامر مرجعيتهم وعدم الخروج عنها حتى في الظروف العسكرية الطارئة ما دام الحل السلمي ممكناً، كما تجلى ذلك في الرسالة التي وجهها قادة جبهات الثورة في الفرات الأوسط إلى الضباط الإنكليز المحاصرين من قبل الثوار في حامية الكوفة، متحدثين فيها عن الحكومة البريطانية قائلين: إنها "اضطرتنا للخوض في نار الحروب طلباً لحقوقنا الطبيعية في الحياة بعدما دافعنا بكل ما وسعنا عن عدم نشوبها، كما لا يخفى عليكم"[1].

(١) وثائق الثورة العراقية الكبرى. سابق: ٣/ ٢٣٢-٢٣٣.

ثالثاً: عدم الإذن باللجوء إلى الثورة المسلحة إلّا بعد استنفاد المساعي السلمية كافة

لِما تقدم وغيره؛ لم يلجأ المرجعان الشيخ الشيرازي وشيخ الشريعة الأصبهاني إلى الإذن باستعمال القوة الدفاعية، إلّا بعد اليأس التام من تحقيق مطالب العراقيين المشروعة بالطرق السلمية.

أما المرجع الأعلى الشيخ الشيرازي فتكفي فتواه التاريخية المتقدم ذكرها للتدليل على عدم إذنه الشرعي برفع السلاح بوجه المحتلين المعتدين، إلّا بعد استنفاد كافة الطرق السلمية لتنجيز الاستقلال التام للعراق وتخليصه من أي احتلال أو انتداب للأجنبي على أراضيه ومواطنيه.

وقد أكد ذلك مراراً وتكراراً وأثبته في رسالته التي أرسلها إلى الميجر بولي حاكم الحلة وكربلاء في (٥/ ٦ شوال ١٣٣٨هـ/ ٢٣ حزيران ١٩٢٠م) جواباً على كتاب الحاكم البريطاني المؤرخ (٢٢ حزيران ١٩٢٠م)، وهي من أواخر رسائله إليهم، وسيأتي ذكر نصها لاحقاً.

ثم بيّن المرجع الأعلى الخلف شيخ الشريعة الأصبهاني هذا الأمر بوضوح تام بعد وفاة المرجع الأعلى السلف الشيخ الشيرازي، بكتابه إلى عموم المسلمين رفقة رسالته إلى المجاهد الشيخ عبد الحسين مطر ممثله ووكيله في المنتفق (الناصرية) في (١٠ ذي الحجة ١٣٣٨هـ/ ٢٥ آب ١٩٢٠م) بقوله: "إن مبدأ هذه الحرب مطالبة العراقيين بحقوقهم المشروعة واستنجاز ما وعدتهم الحكومة البريطانية، سالكين الطرق السلمية، فقابلتهم الحكومة بالضغط والغلظة والإهانة وتبعيد الأجلّاء، فانجرّ إلى الحرب الحاضرة دفاعاً عن أنفسهم وأعراضهم، بعدما علموا أن الصبر على أفاعيل الحكومة ونواياها فوق الطاقة، فبعد أن صار ما صار، وجب على كل مسلم دفع الشر والضرر عن إخوانه حسب قدرته، بوجاهته، أو بلسانه، أو بخطه، أو بماله، أو بنفسه. وحرم التقاعد عن نصرتهم"[١].

(١) المصدر السابق: ٣/ ٢٧٩.

ولم يكتفِ سماحته بذلك، بل عقّب عليه تأكيداً على موقفه بتحقيق الحقوق المشروعة بالطرق السلمية، فكتب سماحته بعد ذلك كتاباً طويلاً إلى نائب الحاكم الملكي العام في بغداد بتاريخ (٢ محرم الحرام ١٣٣٩هـ/ ١٦ أيلول ١٩٢٠م) جاء فيه: لقد "أنذرناكم قائلين لكم تداركوا الأمر قبل خروج علاجه من مقدورنا، ولا شك أنكم تعلمون أن تداركه بإعطاء العراقيين حقوقهم التي طالبوكم بها سلمية، فأبيتم إلّا اغتصابها، وجعلتم أصابعكم في آذانكم حذراً من أن تسمعوا مُطالِباً بها، وأخذتم بعد الوعود بالوعيد، وبعد التأميل بالتضليل، واستعملتم الشدة والغلظة، فنفيتم، وقتلتم، وسجنتم، وأخفتم... فدافعوكم قياماً بواجبهم، وهاجمتموهم تبعاً لهوى نفوسكم، فوقفوا موقفاً واحداً حذّرناكم عاقبته، وأنذرناكم سوء منقلبه، أنا والسلف المرحوم آية الله الشيرازي الذي سقتم مساق تعزيتي بفقد نفسه الزكية بنسبة المصائب التي انتابت العراقيين إلى آرائه المقدسة، فإنكم (كذا)[1] ما وقفتم على كتاباته إلى جميع الجهات، وإلزام العموم بلزوم الهدوء والسكون، والمطالبة السلمية بحقوقهم المشروعة، وجئتم بها نكراء، بلغ سيلها الزبى، وضاقت لها حلقتا البطان، وأرسلتم بواخركم المشحونة بأسباب الدمار وآلات النار، وقدمتم العساكر، وكتّبتم الكتائب، إخضاعاً لتلك الأمة المظلومة، وسحقاً لحقوقهم المهضومة"[2].

***

رابعاً: إبلاغ عصبة الأمم والدول الكبرى بحق العراقيين في تقرير مصيرهم بأنفسهم بالطرق السلمية

لقد سعت المرجعية الدينية سعياً حثيثاً لإبلاغ عصبة الأمم وبريطانيا والدول الكبرى الأخرى وبعض دول الجوار، بحق العراقيين باستقلال بلادهم وتقرير مصيرهم بأنفسهم بالطرق السلمية. حيث أشار كلا المرجعين الشيخ الشيرازي وشيخ الشريعة الأصبهاني في أدبيّاتهم عبر أكثر من رسالة إلى عصبة الأمم، وإلى

(١) لعلها (فكأنّكم).

(٢) الشيخ محمّد تقي الشيرازي القائد الأعلى للثورة العراقية الكبرى ١٩٢٠م. سابق: ٢٩٢.

الرئيس الأمريكي، وإلى رؤساء الدول الكبرى الأخرى، وبعض ملوك دول الجوار، مؤكدين فيها على سلوك الطريق السلمي لتنجيز حق الشعب العراقي في الاستقلال وتقرير المصير، ومن أمثلة ذلك.

١. إبلاغ عصبة الأمم والولايات المتحدة الأمريكية بسلوك الطرق السلمية لتحقيق الاستقلال

لقد أرسل المرجع الأعلى الشيخ محمّد تقي الشيرازي رسالة إلى (عصبة الأمم) عن طريق الشريف حسين في (٧ رمضان ١٣٣٨هـ/ ٢٥ مايس ١٩٢٠م)، ثم أعقبها برسالة ثانية إلى (عصبة الأمم) أيضاً للغرض نفسه عن طريق إيران في (٢٧ ذي القعدة ١٣٣٨هـ/ ١٢ آب ١٩٢٠م).

كما بعث المرجعان الشيخ الشيرازي وشيخ الشريعة الأصبهاني معاً برسالة إلى رئيس الولايات المتحدة الأمريكية بواسطة سفيرها في طهران بتاريخ (٥ جمادى الأولى سنة ١٣٣٧هـ/ ٦ شباط ١٩١٩م).

ثم بعثا بعدها بأيام رسالة أخرى موقّعة من كلا المرجعين أيضاً إلى رئيس الولايات المتحدة الأمريكية في (١٢ جمادى الأولى ١٣٣٧هـ/ ١٣ شباط ١٩١٩م) بمناسبة انعقاد مؤتمر باريس.

وإثر وفاة المرجع الأعلى الشيخ الشيرازي خلال ثورة العشرين، وتقلّد المرجع شيخ الشريعة الأصبهاني زمام المرجعية العليا، عاد سماحته فكرر التواصل مع الدول الخارجية من خلال إبلاغه المنظمة الدولية (عصبة الأمم) بمعاناة الشعب العراقي المضطهد في رسالته التي بعثها إلى الحكومة الهولندية، وأرسل نسخاً منها إلى الملك حسين ملك الحجاز، وحكومات أمريكا، وفرنسا، وروسيا، وتركيا، وألمانيا، وإيران، في (١ محرم ١٣٣٩هـ/ ١٥ أيلول ١٩٢٠م).

٢. إبلاغ المحتلين الإنكليز بتبنّي المرجعية للمسعى السلمي إلى آخر مدى ممكن

أما إبلاغ ذلك إلى قادة الإنكليز المحتلين فقد تكرر الطلب منهم مرات عديدة منذ الفتوى التاريخية في صبيحة يوم النصف من شعبان (١٣٣٨هـ) إلى أن حان

حين اليأس من إمكانية تحرير العراق سِلماً قبيل اشتعال لهيب الثورة حتى عرف عنه المحتل الغاصب ذلك بوضوح، بل أثبته في رسائله إليهم.

ونظراً لأهمية التدليل على مسعى المرجعية للحل السلمي وصولاً به إلى نهاية المطاف ولحين اليأس حتى في أشد الأيام حراجة لها بعد اعتقال نجل المرجع الأعلى وأكثرهم أهمية للثورة ومعه عدد من زعماء الثورة، ومع ذلك كله، لم ينثنِ المرجع الأعلى عن تبنّي الخيار السلمي، بل سعى سماحته حتى صد مسعاه كما سيأتي.

ثم جدد السعي المرجع شيخ الشريعة الأصبهاني، متمّماً به مسعى سلفه المرجع الأعلى الشيخ الشيرازي، فسعى مجدداً -والثورة على أبواب الشبوب- إلى فتح حوار مع الغزاة، مقرِّراً من دون قنوط أن يتبادل مع قادة المحتلين الإنكليز رسائل تضمنت إطلاق سراح زعماء الثورة المنفيين والمعتقلين، وفي مقدمتهم العالم المجاهد الشيخ محمّد رضا الشيرازي نجل مفجر الثورة المرجع الأعلى الشيخ الشيرازي، متعهّداً سماحته ببذل غاية جهده في المحافظة على السلم والأمن، وتهدئة الأمور، فيما إذا تمت الاستجابة لمطالب المواطنين الحقة، وتمثل هذا المسعى السلمي التفاوضي برسالة بعثها سماحة شيخ الشريعة الأصبهاني إلى نائب الحاكم الملكي العام في العراق بتاريخ (٨ شوال ١٣٣٨هـ/ ٢٥ حزيران ١٩٢٠م) قبيل إعلان الثورة في الرميثة بأيام، جاء فيها: "أبدي لكم أنكم قد عرفتم وجربتم في هذه المدة الطويلة التي حدثت فيها هذه المظاهرات والاجتماعات، أنّ أهل العراق سالكون سبيل السلم والهدوء والسكون، ويطالبون بما يريدون في حقوقهم حسب مواعيدكم من أول الأمر، وبموجب ما تقرر لدى الدول المعظمة من حرية الشعوب، وكان طلبهم على وجه المعقول المشروع، خالياً من القلق والمشاغبات، خالصاً من إثارة أي فتنة أو فساد... مؤكداً كل ذلك بما برز قولاً وكتباً كِراراً ومراراً من آية الله الشيرازي دامت بركاته ومن بقية العلماء الأعلام من إيجاب السكون العام عليهم، وإلزامهم بترك كل ما فيه الإخلال بالأمن، لهذا أفتينا بوجوب السكون، وحرمة الثورة والفساد، وقد برهنوا في حركاتهم ومظاهراتهم المتواصلة على تمسكهم بالنظام والقانون والانقياد لفتاوى العلماء.

إلاّ أنه بلغنا خبر عجيب كان يصعب علينا تصديقه حتى تحقق من القبض على نجل آية الله الشيرازي وجماعة من أهل كربلاء والحلة، لا ذنب لهم إلّا مطالبة ما يطلبه إخوانهم"[١].

ونظراً لأن السياسة البريطانية حينها كانت ترتئي القضاء على الثوار المسالمين المطالبين بحقوقهم المشروعة بالقوة والعنف، فقد جاء رد نائب الحاكم الملكي العام المؤرخ في (٢٢ شوال ١٣٣٨هـ/ ٩ تموز ١٩٢٠م) على رسالة شيخ الشريعة المتقدمة مخيباً للآمال، فهو لم يكتفِ برفض مطالب المرجع الحقة وخاصة مطلبه بإطلاق سراح المنفيين والمعتقلين من الثوار المسالمين دون ذنب، بل ذهب إلى أنهم "معروفون بالفساد وسوء الأخلاق"[٢]. فأجابه المرجع شيخ الشريعة على رسالته غير اللائقة بما يلي:

"إلى سعادة الحاكم الملكي العام في العراق/ بغداد

أخذنا برقيتكم يوم ٢٢ شوال، فنقول لكم: إنّنا لم نشفع أبداً برجال معروفين بسوء الأخلاق والفساد، وإنما تشفّعنا بالأحرار الأبرياء الذين سُجِنوا وأُبعِدوا لغير ما جُرم. على أنّ الحكومة إذا كانت تعتبرهم جُناةً مجرمين فعليها أن تسلّمهم إلى القانون يُجري حكمه فيهم، ثم إنّ الشيخ محمّد رضا نجل آية الله الشيرازي بين المنفيين، فهل تستطيع الحكومة أن تقول إنه معروف بالفساد؟! ولولا اهتمام والده بالسكينة العامة والنظام والأمن لرأينا الحال على غير ما هي عليه الآن".

ويختم المرجع شيخ الشريعة جوابه باليأس من موافقة الحكومة المحتلة في تحقيق مطالب الشعب العراقي المشروعة بالحرية والاستقلال سِلماً، بقوله: "وعلى كُلٍّ فإنّ معالجة الحالة الحاضرة بالإصلاح أمر غير مقدور"[٣]، ما دام الإنكليز قد حسموا أمرهم باستعمال القوة العسكرية الضاربة يوم قالوا لوفد المرجع الأعلى

(١) وثائق الثورة العراقية الكبرى. سابق: ٣/ ١٧٣.

(٢) المصدر السابق: ٣/ ٢١٩.

(٣) المصدر السابق نفسه: ٣/ ٢٢٠.

الشيخ الشيرازي الساعي للحل السلمي، بأن الشيخ الشيرازي: "هو الذي بذر هذه البذرة وهذا يوم حصادها"[١].

وكان المرجع شيخ الشريعة الأصبهاني قد كتب إلى الحاكم الملكي العام ببغداد رسالة في (٢١ شوال ١٣٣٨هـ/ ٨ تموز ١٩٢٠م) ردّاً على كتابه المؤرخ في (٢ تموز ١٩٢٠م) يشرح له فيها بوضوح كافٍ أسباب توجّه الناس إلى الثورة المسلحة، ليس لأنهم يئسوا من تحقيق مطلبهم العادل بالاستقلال التام الناجز بالطرق السلمية فحسب، بل لأن الحكومة المحتلة لا تكفّ عن ملاحقة الأحرار المطالبين بحرية واستقلال شعبهم سِلماً، ونفيهم، وإهانة وتوبيخ واحتقار زعمائهم، وتعذيبهم، والاعتداء البدني واللفظي عليهم، ومجابهة مظاهراتهم بالعنف والقوة والآليات المدرعة، بقوله: "والآن قد بلغ الأمر إلى ما كُنّا نكره وقوعه، وجعل الناس يقولون بأنّ حضرة آية الله الشيرازي دامت بركاته يأمرنا بالسكون والمحافظة على الأمن العام، والحكومة كل يوم تلقي القبض على جماعة منا بلا ذنب ولا سؤال ولا جواب حتى ستقضينا عن آخرنا.. والسبب الوحيد في هياج الناس أنهم يعتقدون أن القبض على من قُبض عليهم ليس إلّا لمطالبتهم بالحقوق المشروعة، وهو أمر يشترك فيه كل العراقيين، فإذا قُبض على نجل آية الله دامت بركاته وهو بريء من كل ذنب خالٍ من كل فساد، فمَن الذي يأمن بعد ذلك على نفسه؟!".

ويستمر سماحته فيطرح على المحتلين الحلول الممكنة لتخفيف حدة التوتر وتجنب الانزلاق بالوضع إلى ما هو أسوأ، بقوله: "وفي هذه المدة الطويلة قد عرفتم مسلكي: أن أطلب دائماً راحة العباد وتأمين البلاد. والذي أراه طريقاً وحيداً في تسكين التشويشات، وضبط الأمن العام، وإعادة الأحوال على سابقها، أن تساعدونا وتقبلوا شفاعتنا في إطلاق سراح المنفيين، واستعمال المودة لسائر المتظاهرين، حتى من ينسب إليهم بعض التشويشات، حتى يسعنا التسكين، ومطالبتهم جميعاً بالانقياد

(١) لمحات اجتماعية من تاريخ العراق الحديث: ٥/ ١/ ٢٣٤، نقلاً فيما بين القوسين الصغيرين عن كتاب: الحقائق الناصعة، فريق المزهر آل فرعون: ٣٤٧.

والطاعة... فإذا رأينا ورأوا من الحكومة احترام الحقوق القانونية، ومعاملة المسلمين معاملة مودة وشفقة، صار لنا كل الأمل بقدرتنا على إعادة الأحوال إلى سابقها، وتسكين الناس على الطاعة والانقياد"[١].

وفي مبادرة منه لتهدئة الثائرين عسى أن ينجح مسعاه مع نائب الحاكم الملكي العام، وجّه سماحته في اليوم نفسه رسالة إلى المؤمنين ورؤساء العشائر وزعماء القبائل، جاء فيها: "إنّ اللازم فعلاً السكون، وترك مضادة الحكومة، وسلوك الطرق السلمية، والاقتصار على مطالبة الحقوق الشرعية، من غير ثورة، ولا فتنة، حتى نقدر على استدعاء المواد السابقة الذكر من الحكومة. وإياكم أن تقابلوا الحكومة بقول أو فعل ينافي مطلوبنا ومطلوبكم، وأرجو من جميعكم عدم الخروج عن هذه الخطة"[٢].

ومن المهم في هذا المجال القول بأن مسعى استنقاذ الحقوق سِلماً، ذلك المسعى الذي تبنّته مرجعية ثورة العشرين قد اعترف به المحتلون الإنكليز أنفسهم.

فقد جاء في رسالة جوابيّة بعثها اللفتنت كولونيل السير أ. ت. ولسون إلى المرجع شيخ الشريعة الأصبهاني في (٨ شوال ١٣٣٨هـ/ ٢٥ حزيران ١٩٢٠م) ردّاً على رسالة للمرجع الأصبهاني، قوله: "إنّ الحكومة في العراق منذ الاحتلال وإلى الآن تعدّ سيادتكم كأحد أركان السلم، ومن لا يترك عمل أي خير لمنفعة الأهالي"[٣].

❀ ❀ ❀

(١) وثائق الثورة العراقية الكبرى. سابق: ٣/ ٢١٢-٢١٣.

(٢) لمحات اجتماعية من تاريخ العراق الحديث: ٥/ ١/ ٢٣٧.

(٣) وثائق الثورة العراقية الكبرى. سابق: ٣/ ١٧٧.

المبحث الثاني

تنشيط المعارضة السلمية وتفعيلها

١. مجالس (المولد/ التعزية) والتقارب المذهبي والديني في بغداد والكاظمية

بعد أن وضع برنامج العمل بتثوير الجماهير سلميّاً للمطالبة بحقوقهم المشروعة كما تقدم، بدأ النشاط التعبوي السلمي للضغط على الإنكليز المحتلين وسلطتهم في مدن بغداد والكاظمية وكربلاء خاصة والحلة والمنتفق والنجف الأشرف وغيرها، وما أن قارب حلول شهر رمضان المبارك حتى أينعت الثمرة التي بذرها مؤتمر النجف الأشرف والجمعيات الوطنية في بغداد العاصمة والكاظمية وكربلاء أيّما إيناع، ففي بغداد والكاظمية مثلاً و"على أثر الدعوة التي قام بها السيد صالح الحلي لتعطيل الأعمال في يوم الجمعة.. فقد أراد السيد صالح أن تكون الدعوة عامة يشارك فيها السنة والشيعة معاً، وهو قد أعلن في الاجتماع الذي عقد في صحن الكاظمية في (١ آيار ١٩٢٠م) أنه سيذهب في الجمعة القادمة إلى جامع السيد سلطان علي لكي يخطب في أهل السنة مثلما خطب في الشيعة، وعندما حل يوم الجمعة في ٣ منه هرع الناس من الطائفتين إلى ذلك الجامع فامتلأت ساحة الجامع بهم كما امتلأ الطريق المحاذي له حتى كاد ينقطع المرور لشدة الزحام".. وينقل د. الوردي عن الشيخ كاظم قوله: "إنّ هذه الفكرة التي غرسها هذا السيد اللبيب أخذت تنمو وتتوسع أسبوعاً بعد أسبوع؛ لأنّ القوم شرعوا يقيمون في كل جمعة بعد صلاة الظهر في أحد الجوامع مع احتفال التلاوة قصة المولد النبوي ومأتماً لقراءة مناقب سبط النبي الإمام الحسين بن علي، فكانت هذه الحركة المباركة جامعة للسنة والشيعة بصورة ودية لم تتفق في القرون الإسلامية الماضية"[1]، ولم يقتصر أمر إقامة حفلات (المولد - التعزية) على بغداد، بل امتدت إلى ديالى أيضاً

(١) لمحات من تاريخ العراق السياسي الحديث. سابق: ٥/ ١/ ١٧٣ و١٧٣-١٧٤ نقلاً عن أحداث ثورة العشرين. كاظم الدجيلي: ١٧.

حيث كان للخطيب السيد صالح الحلي دور مميز فيها، ما اضطر سلطات الاحتلال إلى اعتقال مَن وصفوه في وثائقهم بـ"العميل المحرّض السيد صالح الحلي الذي أرسل إلى بعقوبة لإقامة مواليد"[١] فيها.

وتعد مظاهرة محلة الميدان من أوائل المظاهرات التي حدثت تلك الآونة، فقد وصفها المعاصر للحدث الشيخ محمّد مهدي البصير بقوله: "حضرها ألوف مؤلفة من الناس، ونستحسن هنا إيراد نص بطاقة الدعوة التي كانت توجه إلى الناس من قبل جمعية الحرس، وها هي: (إن أهالي محلة الميدان يتقدمون إلى حضرتكم بالدعوة للحضور في الحفلة التي يقيمونها ليلة الجمعة القادمة في جامع الميدان للتبرك بتلاوة منقبة المولد النبوي الكريم مشفوعة بذكرى مقتل سيدنا الحسين عليه السلام.. وربما أقيمت هذه الحفلات أو المظاهرات بعد صلاة الظهر خصوصاً في أيام الجمعات، وهذا غير التي يكون من نوعها ليلاً، وكان يحضر في تلك الحفلات معظم وجهاء العاصمة وأغلب متنوريها، فضلاً عن جمهور الشعب.. ولم يقتصر رجال الدعوة على نشر مبادئهم في هذه المظاهرات، بل إنّ الحفلات التي تقام في المدارس الأهلية كانت تستخدم لنشر المبادئ السياسية السائدة. وقد اتخذ جامع الحيدرية مركزاً عامّاً للمظاهرات التي تقام باسم المولد"[٢].

وهو ما لفت المس بيل فكتبت تقول: "أخذت حفلات المولد التي تعقد احتفاء بولادة النبي التي تقام في الجوامع السنية والشيعية بالتناوب، وأخذ أبناء الطائفتين يحضرونها... وكانت في بعض الأحيان تعقب قراءة (المولد) وهي من المراسيم السنية البحتة، قراءة (التعزية) وهي من المراسيم الشيعية التي تقرأ في تأبين الحسين وتقديس استشهاده"[٣].

لقد أجّجت المظاهرات والاجتماعات السلمية الصاخبة المطالبة بجلاء الإنكليز

(١) العراق في سجلات الوثائق البريطانية. المجلد الثاني ١٩١٨-١٩٢١. سابق: ٢٩٧.

(٢) تاريخ القضية العراقية. سابق: ١/ ١٤٧-١٤٩.

(٣) فصول من تاريخ العراق القريب. المس بيل: ٤٢٥.

عن العراق وتمكين شعبه من حق تقرير مصيره بنفسه، وتشكيل "حكومة إسلامية" رسالة مهمة كان بعثها سماحة المرجع الشيرازي إلى الزعماء والأشراف والشيوخ وعموم المواطنين في (٩-١٠ رمضان ١٣٣٨هـ/ ٢٨ مايس ١٩٢٠م) تعد بحق أهم ما ألهب نار المظاهرات السلمية الصاخبة في بغداد خاصة، إضافة إلى غيرها من المدن العراقية الأخرى، جاء فيها: "إن إخوانكم المسلمين في بغداد والكاظمية والنجف وكربلاء قد اتفقوا فيما بينهم على الاحتجاج بمظاهرات سلمية، وقد قام جماعة كثيرة بتلك المظاهرات مع المحافظة على الأمنية بوجه واحد، طالبين حقوقهم المشروعة المنتجة لاستقلال العراق إن شاء الله بحكومة إسلامية، وقد بلغتنا إحساساتكم الإسلامية وتنبهاتكم الوطنية، فالواجب عليكم بل على جميع المسلمين الاتفاق مع إخوانكم بهذا المقصد الشريف، وأن يرسل كل قطر وناحية بمقصده إلى عاصمة العراق بغداد للطلب بحقه متفقاً مع الذين سيتوجهون من أنحاء العراق عن قريب إلى بغداد"[١]، حيث كانت تعقد في بغداد مرتين أو ثلاث مرات في الأسبوع اجتماعات كبيرة يقيمها وجهاء السنة والشيعة، وتحضرها جماهير الطرفين وخاصة تلك التي كانت تعقد في جامع الحيدرخانة، وجامعي الكاظمية والأعظمية، وجامع الشيخ عبد القادر، والسيد سلطان علي، والأحمدي، والخلاني، وهو حدث لم يسبق له مثيل في تاريخ العراق[٢]، وإنّه اندماج يقترب من الإعجاز[٣]، بل ذهب أحد الباحثين إلى أن اجتماعات المولد/ التعزية "منذ أوائل أيار/ مايو وحتى أواسط آب/ أغسطس كانت تعقد بانتظام مساء كل يوم"[٤].

وكان من أهم الناشطين القائمين على هذا الحدث الكبير كل من: السيد محمّد

(١) وثائق الثورة العراقية الكبرى. سابق: ٣/ ٨١.

(٢) ينظر: العراق. حنا بطاطو. الكتاب الأول. الطبقات الاجتماعية والحركات الثورية من العهد العثماني حتى قيام الجمهورية: ٢٠٣.

(٣) ثورة العراق ١٩٢٠. هالدين: ٣٠.

(٤) ثورة ١٩٢٠ الجذور السياسية والفكرية والاجتماعية للحركة القومية العربية (الاستقلالية) في العراق. سابق: ٣٧١.

الصدر، والحاج جعفر أبو التمن، وعلي البازركان، والشيخ محمّد مهدي البصير، ومن السُّنّة: أحمد الشيخ داود، والمنشد عثمان الموصلي، وغيرهم أيضاً، وقد أربكت المحتلين كثيراً بلوغ بعض التجمعات حدود عشرة آلاف كما في تجمع الميدان، بل زاد عدد حُضّارها عن العشرة آلاف كما حدث في جامع الحيدرخانة، وهو حدث تقريبي بين الطائفتين المسلمتين "لم يشهد العراق له مثيلاً من قبل، وقد اتضح ذلك بوجه عام عند مجيء وفد الكاظمية لحضور حفلات بغداد، إذ كان الوفد يأتي إلى بغداد بعربات التراموای، وعلى رأسه السيد محمّد الصدر، فإذا قاربت العربات أول الدور من بغداد خرج لاستقبالها أهالي الجعيفر، والسوامرة، والتكارتة، وغيرهم، وهم يحملون الشموع ويهللون ويكبرون، وإذا وصلت العربات إلى المحطة كان في استقبالها جمهور غفير من أهل بغداد، وفي مقدمتهم أحمد الشيخ داود، أو غيره من علماء السُّنّة، فيتعانق الشيخ والسيد عناقاً أخويّاً كرمز للتآخي بين الطائفتين، وعند هذا يعجّ الجمهور بالصلاة على محمّد وآل محمّد. ويحدث مثل هذا حين كان يذهب وفد الأعظمية إلى الكاظمية، أو يذهب وفد الكاظمية إلى الأعظمية"[١].

يقول أمين الريحاني: "في رمضان حدث في العراق حادث خطير لم يسبق له مثيل هناك، فقد قام الشيعيون والسنيون بمظاهرة وطنية ولائية كبرى وهم يدعون للاتحاد في سبيل الوطن. ومن مظاهر هذا الاتحاد حفلات المولد المشتركة التي كانت تقام في الجوامع والمساجد فيحضرها السنيون والشيعيون ويحولون الحفلة بعد الصلاة إلى اجتماع سياسي تُلقى فيه الخطب المشعلة لنار الثورة، وتتلى القصائد المثيرة كالرياح لهيبها"[٢].

لقد وصل الخوف والترقب وانتظار الأسوأ من هذا التقارب المذهبي لدى المحتلين حدّاً وصفته جيرترود بيل (المس بيل) بقولها: "نحن الآن في معمعان هياج عنيف، ونشعر بقلق.. بالنسبة ما إذا كنا سننهي رمضان من دون اضطراب

(١) لمحات اجتماعية من تاريخ العراق الحديث. سابق: ٥/ ١/ ١٩١.

(٢) فيصل الأول. سابق: ٣١.

أو قلاقل.. فقد سلكوا مسلكاً تصعب علينا مقاومته بتوحيد الصف بين السنة والشيعة ومراعاة الوحدة الإسلامية"[١].

ومن الجدير بالذكر أن التقارب المجتمعي في مجالس (المولد/ التعزية) قد تعدى حدود التقارب المذهبي إلى التقارب بين المسلمين وغير المسلمين كذلك، "ففي مناسبات المولد النبوي كان المسلمون يدعون المسيحيين من أجل التضامن، ويوزعون الورود عليهم. وقام الشيرازي بإرسال رسالة إلى أبو التمن قائلاً فيها: (يجب عليك أيضاً أن تحافظ على حقوق المسيحيين واليهود -و- الأجانب... بحيث لا يتمكن عدوك من اتهامك بمعاملتك للأقليات)"[٢].

***

٢. مظاهرات بغداد الكبيرة ورميها بالسلاح

ونتيجة لكثرة تكرر المظاهرات التي تجاوز عددها "الخمسين مظاهرة"[٣]، وحضور الآلاف المؤلفة من المواطنين شيعة وسنة وربما غيرهم فيها، فقد قرر المحتلون الإنكليز التصدي لها بالسلاح الحي لخطورتها عليهم، وخاصة تلك المظاهرة التي عقدت في جامع الحيدرخانة "واشتركت بها الجماهير العظيمة"، وأثناء التظاهرات الصاخبة "ظهرت في الشارع العام سيارتان مدرعتان أخذتا تطلق النار على المتظاهرين، فقتل بإحدى الطلقات رجل أخرس لا يُعرف، إلّا أن الشعب أكبره بعد موته كل الإكبار، فشُيّعت جنازته في اليوم التالي تشييعاً عظيماً، وسمّاه الناس (شهيد الوطن)"[٤]. ثم أقفل الإنكليز "الجوامع ومنعوا الصلوات فيها ومحافل العبادة"[٥].

---

(١) العراق في رسائل المس بيل (١٩١٧-١٩٢٦). ترجمة وتعليق: د. جعفر الخياط: ١٥١ وما بعدها.

(٢) ثورة العشرين. دراسة في الأحزاب السياسية والشبكات الاجتماعية في العراق. ١٩٠٦-١٩٢٠. سابق: ١٠٩.

(٣) الثورة العراقية الكبرى سنة ١٩٢٠. سابق: ٢٠٢.

(٤) تاريخ القضية العراقية. سابق: ١/ ١٤٩ و١٥٠ على التوالي.

(٥) بطل الإسلام. سابق: ١٥٨.

يقول الباحث إسحاق نقاش: "وقد دوخت سعة الاحتفالات في بغداد والكاظمين مخبري الشرطة، وذهب كاتب أحد تقارير الشرطة إلى حد القول: إنّ مثل هذه الظاهرة لم تحدث قط من قبل، ويتضح من تقارير الشرطة أنّ الغرض الرئيسي من الاحتفالات كان الوصول إلى الطبقات الدنيا واستثارة اهتمامها بالشؤون السياسية، ويبدو أن هذا الهدف تحقق بنجاح، وذكر أحد التقارير في أواخر أيار/ مايو (أنّ الأمور السياسية تناقش اليوم في كل مكان، وبين الجميع دون تَحَفُّظ يُذكر)، وورد أن الشيعة والسنة (ازدادوا ثقة بهذا الاتحاد، سواء كان وهميّاً أو حقيقيّاً)، وأثبتت مناورات البريطانيين السياسية وإجراءاتهم الرادعة بما في ذلك حظر جمعية (حرس الاستقلال) وإبعاد بعض أعضائها ومحمد -(رضا)- نجل الشيرازي من العراق عدم جدواها في إيقاف الزخم الذي ولّدته الاحتفالات"[١].

بل عبر سليمان فيضي للمستشارة الإنكليزية (المس بيل) عن خوفه وقلقه وبغضه لهذه الاجتماعات بقوله: "إنّي أنظر إلى هذه الاجتماعات في المساجد بمقت شديد، وأعتبر بشكل خاص هذا المزج بين الدين والسياسة خطراً... إنّ هذا الاتحاد المتباهي به بين الشيعة والسنة هو من أبغض الأمور إلى نفسي، ويجب أن أعتبر سيطرة الشيعة كارثة لا يمكن تصورها"[٢].

ونتيجة لخطورة هذه التجمعات السياسية/ الدينية من جهة، ولتوحيدها مواقف شيعة العراق وسنته، وجمعها لشمل الطائفتين معاً وخطورة ذلك على المحتلين من جهة ثانية؛ قرّر الحُكّام الإنكليز في منشور صادر عن القائد العسكري المنوط به الدفاع عن بغداد، ونشرته جريدة العراق في عددها (٦٣) الصادر في (٢٨ ذي القعدة ١٣٣٨ هـ/ ١٣ آب ١٩٢٠م) ما يلي: "إنّ انعقاد المواليد ممنوع، ولقد شُكّل مجلس عرفي للنظر في مثل هذه الجرائم التي تقع ضد الأمن العام"[٣].

---

(١) شيعة العراق: ١٢٤-١٢٥. وتنظر مصادره ومراجعه بعد نهاية البحث.

(٢) لمحات اجتماعية من تاريخ العراق الحديث: ٥/ ١/ ١٩٦.

(٣) الثورة العراقية الكبرى. سابق: ١٣٨.

هذا ما كان من أمر الاجتماعات والمظاهرات السلمية الكبيرة في العاصمة بغداد.

***

٣. الاجتماع الكبير في النجف الأشرف

لقد سرت عدوى هذه الحفلات التعبوية إلى النجف الأشرف عن طريق السيد قاطع العوادي، فقد اتفق مع السيد علوان الياسري والشيخ عبد الكريم الجزائري على إقامة اجتماع سياسي تحت ستار التعزية الحسينية، وقد تبرع السيد العوادي بجميع مصاريفه، ووقف بنفسه بباب المسجد يحيى المجتمعين ويستنهض هممهم.

أقيم الاجتماع في جامع الهندي ليلة السبت (٢٣ رمضان ١٣٣٨هـ/ ١٠ حزيران ١٩٢٠م) -وقيل بعد رمضان، غير أنّي قدّمت تاريخ رواية السيد محمّد علي كمال الدين لمعاصرته للاحتفال-، فاكتظت ساحة الجامع على سعتها بالناس واختير الشيخ محمّد علي قسام ليكون قارئ التعزية فيه، وقد صعد السيد محمّد نجل السيد باقر الحلي من آل العالم[١] إلى المنبر قبله لكي يقوم بتلاوة المقدمة حسبما جرت عليه العادة في مجالس التعزية، ولكنّه بدلاً من أن يلقي قصيدة حزينة في رثاء الحسين عليه السلام ألقى قصيدة سياسية من نظمه، يقال إنّ الحاضرين نسوا أنفسهم عند سماعهم هذه القصيدة فأخذوا يصفقون لها[٢] رغم أنهم في مجلس حزن وبكاء.

***

٤. مظاهرة الحلة الحاشدة

لم تقتصر المظاهرات على بغداد والكاظمية والنجف فقط، بل شملت مدناً أخرى، ففي الحلة مثلاً عُقد في ليلة (٢ شوال ١٣٣٨هـ/ ١٩ حزيران ١٩٢٠م)

---

(١) المقصود به هو السيد الباقر الحلي. ويشير المؤرخ بقوله (نسوا أنفسهم فأخذوا يصفّقون) إلى أنّ العادة الجارية أن لا يصفّق أحد في التعزية لأنّها مناسبة حزن لا فرح.

(٢) ينظر: النجف في ربع قرن. سابق: ٢٥٨، ولمحات اجتماعية من تاريخ العراق الحديث. سابق. ج٥/ القسم الأول: ١٨٩-١٩٦.

"اجتماع وطني حافل في الجامع الكبير في الحلة، وألقى كل من الشيخ عبد الحسين ورؤوف الأمين والسيد عبد السلام خُطباً مهيجة فيه، كما تُلِي كتاب الإمام الحائري الذي كان قد وجّهه إلى العراقيين كافة للمطالبة بحقوقهم ودعم مساعي مندوبيهم للظفر باستقلال العراق[١]، وقد كان أضاف الشيخ فريق المزهر آل فرعون إلى المتحدثين في المظاهرة الحاشدة كُلّاً من: الخطيب المفوّه المؤثر في إلهاب مشاعر قادة الثورة المجتمعين في المشخاب قبيل اشتعال نار الثورة "السيد محمد الباقر الحلي، والسيد خيري الهنداوي... وغيرهم -حيث- أبانوا فيها موقف الإنكليز ونواياهم تجاه العراق، وأفهموا الرأي العام فيها ما جرى في النجف الأشرف من قطع المفاوضات مع المندوبين"[٢]، وقد هال نائب الحاكم العسكري في الحلة "ذلك الاحتفال الثوري المهيب؛ فأصدر أمره باعتقال ستة منهم"، وأرسلهم بالقطار مخفورين إلى البصرة، فأُبعدوا إلى هنجهام في الخليج العربي، ولبثوا هناك خمسة أشهر"[٣]، توفي أحدهم خلالها هناك.

***

٥. تجمُّع ضخم في الصحن الحسيني الشريف

أما في كربلاء فقد عُقد اجتماع كبير في الصحن الحسيني الشريف في (٣ شوال ١٣٣٨هـ/ ٢٠ حزيران ١٩٢٠م) حضره "مندوبو الشامية والنجف الأشرف وفريق من رجال بغداد"[٤]، ألقى فيه الشاعر الشيخ محسن أبو الحب قصيدة وطنية مؤثرة، ثم ألقى بعده عمر العلوان خطاباً حماسيّاً شديد اللهجة ضد الاحتلال الغاشم.

***

(١) ألقاه الشيخ محمّد الشهيب، تلاه محمّد عبد الحسين، فرؤوف الأمين، فخطيب السنّة عبد السلام الحافظ.

(٢) الحقائق الناصعة في الثورة العراقية. سابق: ١٥٧.

(٣) الثورة العراقية الكبرى. سابق: ١٨٣-١٨٤.

(٤) ثورة العشرين في ذكراها الخمسين. سابق: ٢٣٦.

٦. الاجتماع الكبير والخطير في الصحن العباسي الشريف

وما كاد ينتهي الاجتماع الضخم في الصحن الحسيني الشريف حتى عُقد اجتماع كبير وخطير في اليوم اللاحق له (٣ شوال ١٣٣٨هـ/ ٢٠ حزيران ١٩٢٠م) في الصحن العباسي الشريف، "ضم عشرات الألوف من الزوار والأهلين "حضره الجميع"، وفي مقدمتهم المرجع الشيخ محمد مهدي الخالصي، و"الشيخ محمد رضا نجل الإمام الشيرازي... وقام العلامة الشيخ محمد الخالصي فألقى خطاباً بليغاً جريئاً"[١] كان هدفه "إفهام الجماهير سلبية السلطة المحتلة بقطعها المفاوضات واختيارها لسياسة العنف والإخضاع. ومن هذا المنطلق رجع زعماء الفراتيين والأبطال من الجماهير كل إلى بلده. وقام الشيخ محمد رضا نجل الإمام الشيرازي فكتب مجموعة من الرسائل إلى جميع المدن بصحبة رجال يفهمون كيف يؤدون الأمانات كما يحسنون الوصف لِما جرى في كربلا من الاحتفالات الثورية، فكان لتلك الرسائل أثر بالغ في النفوس، ونظراً لخطورة ما هدف إليه هذا التجمُّع، وما أوصله للجماهير؛ -ف-قد قام ممثل الحكومة الإنكليزية في كربلا محمد بهادر خان فكتب تقريراً مفصلاً عمّا وقع في احتفال الصحن الشريف، وبعث به إلى السير ولسون طالباً منه الحيطة للأمر والمبادرة إلى شلّ الحركة الثورية. وعند وقوف ولسون على التقرير كتب إلى الميجر بولي الحاكم السياسي في الحلة طالباً منه الذهاب إلى كربلاء لاتخاذ ما يلزم من التدابير، وعند وصول الكتاب إلى الميجر بولي قصد كربلاء مع قوة آلية جُهّزت بالمدافع والرشاشات طوّق بها المدينة، وكان ذلك يوم الأحد (خامس شوال ١٣٣٨هـ-/ ٢٢ حزيران ١٩٢٠م-) ونادى مناديه أنّه لا يقصد من ذلك سوى استلام أربعة عشر شخصاً"[٢].

***

(١) المصدر السابق: ٣٧٢.

(٢) ثورة العشرين في ذكراها الخمسين. سابق: ٢٤١.

٧. تجمعات أهالي المنتفق في أيام الجمعات

وفي شطرة المنتفق كان "منبر الجمعة يقوم بواجبه"[١] في توجيه المواطنين وتوعيتهم وتعبئتهم للقيام بواجب التصدي سلميّاً للمحتل الغاشم، مطالبين إياه بالجلاء وفسح المجال أمام الأهلين في حق تقرير المصير. يقول الشيخ الشرقي: "أما الشطرة فقد قامت بدعوة كافة زعماء العشائر، وينعقد اجتماع مسلح في مسجد الجمعة، وقد فاض إلى خارج المسجد، وهاجت الجماهير، وتقدم زعماؤهم رافعين الاحتجاجات الشديدة".

وكانت قد "صدرت الأوامر من المركز بالقيام بالمظاهرات السلمية؛ لأنّ الزعيم لا يوافق على إراقة الدماء في سبيل ولده، وليتقدم كل بلد بالاحتجاج"[٢] مطالباً بحقوق الأمة المشروعة.

❀ ❀ ❀

(١) على هامش الثورة العراقية الكبرى. سابق: ٢٦.

(٢) الأحلام. سابق: ١٤٥.

المبحث الثالث

تثوير المعارضة السلمية ولجوء المحتلين إلى خيار العنف

١. اعتقال الشيخ محمد رضا الشيرازي وبعض كبار القادة

بعد أن تمادى المحتلون في غيّهم وتعنّتهم وجورهم ونكثهم لعهودهم وخلفهم لوعودهم، وبعد أن امتلأت صدور العراقيين غيظاً وحنقاً عليهم، وإثر حصارهم فاقتحام قواتهم لمدينة النجف الأشرف المقدسة واعتقالهم وإعدامهم ونفيهم لعشرات الثوار منهم، وبعد توهينهم واعتقالهم ونفيهم لكبار شيوخ العشائر الوطنيين، ناهيك عن الضرائب الباهظة، وعمليات السخرة، وغيرها من المظالم والانتهاكات التي لا تحتمل، مظالم وانتهاكات لخّصها سماحة المرجع شيخ الشريعة الأصبهاني في رسالة بعثها إلى السير ولسون في (٢ محرم ١٣٣٩هـ/ ١٦ أيلول ١٩٢٠م) جواباً على رسالة تلقاها منه كما ستأتي لاحقاً.

بعد ذلك كلّه؛ جاء الإذن من المرجعية العليا بجواز اللجوء إلى الثورة المسلحة متى ما فشلت المساعي السلمية كافة بعد أن قرر المحتلون تصعيد خطواتهم التعسفية الجائرة بالإقدام على اعتقال قسم من قادة الثورة وزعماء حركتها وفي مقدمتهم الشيخ محمد رضا الشيرازي نجل المرجع الأعلى وعضده الأيمن في (٥ شوال ١٣٣٨هـ/ ٢٢ حزيران ١٩٢٠م). وقد تمظهر ذلك الاعتقال وتوابعه في النقاط التالية:

أ. أسباب الاعتقال وطريقته.

أقدمت قوات الاحتلال على اعتقال الشيخ محمد رضا نجل المرجع الأعلى الشيخ الشيرازي الذي كان من أشد المعارضين للاحتلال البريطاني للعراق تأثيراً، وأكثرهم نشاطاً في تثوير الجماهير، وحركة، ودأباً، وتحشيداً، وتعبئة، وصلابة، وقوة، ضد غزوهم للعراق، ولمناصرة الثورة العراقية الكبرى. ولمن أراد أن يتعرف على دوره الأساس في الإعداد لثورة العشرين ليس عليه إلّا مراجعة سجلات

الوثائق البريطانية، ليقف على مدى حقد قادة الاحتلال البريطاني عليه[١].

ولم يكتفِ المحتلون باعتقال كبير مستشاري المرجع الأعلى فحسب، بل عمدوا إلى اعتقال عدد من كبار الوطنيين في كربلاء المقدسة معه.

يقول الشيخ محمد الخالصي أحد الرجال المطلوب اعتقالهم مع الشيخ محمد رضا الشيرازي، متحدثاً عن ذلك اليوم: حيث حشّد فيه المحتلون "أفواجاً من الجند، وعدداً وافراً من المدافع والرشاشات والسيارات المدرعة والطيارات، للقبض علينا... فحاصروا كربلاء... وعُقد مجلس في دار آية الله الشيرازي ليلاً ليعين التكليف الشرعي في الحرب، أو التسليم لِما يريد الإنكليز. فقال الشيرازي: إن الاستسلام للإنكليز غير سائغ... ولذلك قرّ رأيهما -المرجعين الشيخ الشيرازي والخالصي- في ذلك المجلس على ما يلي ملخّصاً وهو: وجوب تمسك العراقيين بحقوقهم، وإدامة المظاهرات، والابتعاد عن كل ما يؤدي إلى أن يكون حجة بيد الإنكليز لمحاربة العراقيين، وعدم استعمال السلاح إلّا إذا استعمله الإنكليز، فيجب على العراقيين استعمال السلاح حينئذ دفاعاً، ولمّا أصبح الصباح اجتمعنا في دار الشيرازي، فوردت لنا جميعاً أوراق دعوة مختومة بختم ميجر بولي حاكم الحلة، يدعونا فيها للحضور في دائرة حاكم كربلاء للمذاكرة"[٢].

---

(١) ينظر مثلاً: العراق في سجلات الوثائق البريطانية. سابق. المجلد الثاني: ٣٤٥-٣٤٧. حيث ورد في تقرير طويل وشديد ضده صادر عن إدارة الاحتلال ما يلي: "موقفه عدائي ثابت وعنيد... نصب نفسه زعيماً على الساخطين في جميع أنحاء العراق، وتمادى إلى حدّ لا يستوجبه هذا العرض القصير... اختار مسألة الاستقلال العربي لتكون أنسب مسألة لدعايته. جمع عدداً كبيراً من الناقمين على الحكومة حوله وبدأ سلسلة من المؤامرات مع العشائر المجاورة وفي أنحاء أخرى من العراق... لا شك أنّ أحد أهدافهم المباشرة اغتصاب عمل الحكومة". ورغم مضي سنوات طويلة على الثورة لم تَخِفَّ وطأة الحقد البريطاني وأتباعه عليه خلال العهد الملكي، وقد تمظهر ذلك برفض القنصل العراقي في طهران منحه فيزة لاجتياز الأراضي العراقية مروراً وهو في طريقه إلى العلاج في ألمانيا من مرض شديد ألمّ به في طهران. إلّا بعد جهد وتدخل من طرف مؤثر. هذا، ولا زالت الدراسات والبحوث عنه وعن دوره ضد الاحتلال البريطاني شحيحة جدّاً. أقترح على الجامعات ومراكز البحوث العراقية إجراء دراسات عنه وفاءً له ولأمثاله من الثوار المجاهدين.

(٢) ينظر: بطل الإسلام. مذكرات الشيخ محمّد الخالصي. سابق: ١٦١-١٦٤.

وكان على رأس من استدعاهم الميجر بولي نجل المرجع الأعلى الشيخ الشيرازي، وأحد عشر من كبار وجهاء كربلاء، رغم نصيحة المرجع الأعلى له بالكفّ عن مسعاه لكي لا يكون سبباً لإراقة الدماء، فلم يستجب الحاكم الإنكليزي للنصيحة، وقرر الشيخ محمّد رضا والمطلوبون معه تسليم أنفسهم استجابة لطلب المرجع الأعلى منهم ذلك، أو بناء على قناعتهم، أو موافقتهم على نصيحة من نصحهم بذلك على اختلاف في الروايتين، فنقلتهم السيارات المصفحة العسكرية إلى الحلة، ومنها إلى البصرة، فجزيرة (هنجام) الهندية، مبعدين منفيين.

ب. الحاكم السياسي للحلة وكربلاء يرسل رسالة للمرجع الأعلى وجواب سماحته عليها

وقد كان الميجر بولي الحاكم السياسي للحلة وكربلاء قد بعث رسالة إلى سماحة المرجع الأعلى الشيخ الشيرازي في (٥ شوال ١٣٣٨هـ/ ٢٢ حزيران ١٩٢٠م) قبل ساعة من اعتقال نجله الشيخ محمّد رضا الشيرازي بقليل، جاء فيها: "إنّ قسماً من قواتنا قد وردت إلى هذه الأنحاء لأجل حفظ الأمن وإلقاء القبض على عدد من الأشرار الذين يقصدون الإفساد ونهب الأموال وإلقاء الرعب في قلوب الأهلين"[١].

وإذ وصل الكتاب إلى يد المرجع الأعلى جمع سماحته مستشاريه للتداول في الأمر، وقبل أن ينفضّ مجلس التشاور وصلت إلى المرجع الأعلى الشيرازي من الميجر بولي ورقة استدعاء نجله الشيخ محمّد رضا[٢]، ومعه بضعة عشر وجيهاً من وجهاء كربلاء بدعوى المذاكرة.

وقد جاء في كتاب المرجع الأعلى الشيرازي جواباً على رسالة الميجر بولي في (٥/ ٦ شوال ١٣٣٨هـ/ ٢٣ حزيران ١٩٢٠م) قوله: "قرأنا كتابكم وتعجبنا غاية العجب من مضمونه، حيث إنّ جلب العساكر لمقابلة الأشخاص المطالبين بحقوقهم

(١) الشيخ محمّد تقي الشيرازي القائد الأعلى للثورة العراقية الكبرى ١٩٢٠م: ٢٦٢.

(٢) لقد أخطأ د. عبد الله النفيسي في كتابه (دور الشيعة في تطور العراق السياسي: ٢٠٢) بأن ذكر بأنّ "محمد رضا ابن المجتهد الأكبر محمّد كاظم يزدي"، وهو خطأ طباعي واضح.

المشروعة الضرورية لحياتهم من الأمور غير المعقولة! ولا تطابق أصول العدل والمنطق بوجه من الوجوه... وإن نظريتنا في أمور المملكة أصلح وأنفع من سَوق الجيوش واستعمال القوة الجبرية، وأدعوكم عجالة لأبلغكم أنّ توسلكم بالقوة في قبال مطالب البلاد واستدعاءاتها مخالف للعدل، ولإدارة البلاد. وإذا امتنعتم عن المجيء في هذه المرة أيضاً فستصبح وصيتي للأمة بخصوص مراعاة السلم ملغاة في ذاتها، وأترك الأمة وشأنها، وبهذه الصورة تقع مسؤولية نتائج السوء عليك وعلى أصحابك.

وفي الختام لي الأمل أن تؤثر فيك هذه النصيحة كي لا يقع ما يفسد النظام والأمن، ولكي لا تكونوا سبباً لإراقة دماء الأبرياء"[١].

***

٢. اعتقالات في النجف الأشرف والحلة بعد كربلاء المقدسة

لم يقتصر أمر الحكام الإنكليز على اعتقال نجل المرجع الأعلى وعلماء النجف الأشرف ووطنييها فحسب، بل اعتقلت السلطة المحتلة عدداً من علماء ووطنيي النجف الأشرف وصحفييها وفق الباحث أمين سعيد، وهم كل من: "السيد سعيد والسيد حسين كمال الدين، والسيد أحمد الصافي، والسيد ضياء الخراساني (كذا)، وعبد الحميد زاهد"[٢]، كما "كبست -السلطة المحتلّة- في النجف على دور (كذا) بعض أعضاء الجمعيات وفتشت أمتعتهم فزاد ذلك في استياء الأهلين، فاغتنم قادة الحركة الفرصة، وطبعوا المناشير بالدعوة إلى القيام بالثورة، ووزعت في أنحاء الفرات، وأفصح الخطباء بذلك في جميع المحافل والمجتمعات"[٣].

---

(١) لمحات اجتماعية من تاريخ العراق الحديث. سابق: ٣/ ١/ ٢١٠. ووثائق الثورة العراقية الكبرى. سابق: ٣/ ١٦٨. والمواقف المشتركة لعلماء العراق وإيران ضد الغزو الأجنبي للبلاد الإسلامية ١٩٠٥-١٩٢٠م: ٢/ ٢١٦. والشيخ محمّد تقي الشيرازي القائد الأعلى للثورة العراقية الكبرى ١٩٢٠م: ٢٣٦.

(٢) الثورة العربية الكبرى. أمين سعيد: ٢/ ٢٩٧.

(٣) ماضي النجف وحاضرها. سابق: ١/ ٣٦١.

٣. ردود أفعال المواطنين وزعماء الثورة على الاعتقالات

ما أن انتشر خبر اعتقال الشيخ محمّد رضا الشيرازي ومن معه من زعماء الثورة في كربلاء والمداهمات العنيفة لقادة الثوار والوطنيين في النجف الأشرف، حتى التهبت مشاعر الناس في المدن والأرياف وفي مقدمتهم زعماء الثورة من شيوخ العشائر حنقاً وحقداً على الإنكليز، وبدأت مقدمات ساعة قدح شرارة الثورة تتوالى، والغضب على المحتلين يتفجر في المدن والأقضية والنواحي في الفرات الأوسط وبغداد خاصة، والمنتفك، وديالى، وبدرجة أخف في غيرها المناطق أيضاً. فما كان من شيوخ وزعماء الفرات الأوسط إلّا أن بعثوا برسالة إلى مندوبي بغداد والكاظمية موقعة من قبل (١٦) ستّة عشر شيخاً وزعيماً وطنيّاً في (١١ أو ١٢ شوال ١٣٣٨هـ/ ٢٨ أو ٢٩ حزيران ١٩٢٠م) كما سيأتي، مطالبين فيها بإطلاق سرح المعتقلين دون إبطاء، وإلّا فالحرب؛ ذلك أنّ الصبر نفد بعد أن قدّمنا مطالبنا بالطرق السلمية مرة وثانية فلم يستجب لها المحتلون.

كما بعثوا برسالة أخرى إلى زعماء الرميثة في اليوم نفسه، يبلغونهم فيها بمضمون رسالتهم السابقة إلى مندوبي بغداد والكاظمية المطالبة بإطلاق سراح الوطنيين المعتقلين فوراً، وإلّا فالحرب.

لقد سعى الجهاز الإعلامي للثورة جاهداً في أكثر من بيان ومقال وافتتاحية صحفية إلى التأكيد على أن قرار اللجوء للثورة المسلحة للتحرير والاستقلال سنة (١٩٢٠م) لم يُتخذ إلّا بعد اليأس التام من قبول المعتدين الغزاة لمطالب المرجعية الدينية وشيوخ الثورة والوطنيين، وإذا كان لي أن استشهد بمثال على ذلك فليس هناك أدل من الاستشهاد بافتتاحية العدد الثاني من صحيفة (الفرات)، الصادر في (٢٨ ذي القعدة ١٣٣٨هـ/ ٧ آب ١٩٢٠م) بقلم رئيس تحرير الصحيفة ولسان الثورة المجلجل، وهذا بعض مما ورد في الافتتاحية. يقول الشيخ محمد باقر الشبيبي: "أدرك العراقيون أنّ المطالبات القانونية والمظاهرات السلمية لا تجدي نفعاً، ولا تسترجع حقّاً، سيّما (كذا) وأنّ صدى الاحتجاج العادل لا ينعكس إلى الأندية

السياسية في العالم لاستئثار الإنكليز بكافة أدوات الوصل في البلاد، فلا بريد، ولا برق، ولا صحافة، مضافاً إلى الاعتقاد السائد بأنّ الأمم التي جاهرت بالمبادئ العالية فحاربت دون تنفيذها وتعميمها، لا تسمع أصوات المظلومين. إمّا لأنها أصبحت لا تستطيع ذلك، وإمّا لأنّها باعت مبادئها بثمن بخس فرضيت بالانتداب على قطعة أرض ورفضت باقي البلاد.

لقد فكّر عقلاء الأمة وكبارها فيما يجب أخذه من التدابير للتخلص من الاحتلال القتّال؛ فصمموا على الدفاع عن حياتهم بعد أن قامت السلطة العسكرية بإجراء الحركات الحربية قاصدة إخضاع الأمة بالقوة"[1].

***

٤. المرجع الأعلى يفرق بين الموضوعين الخاص والعام

انهالت على المرجع الأعلى الشيخ الشيرازي رسائل الزعماء والشيوخ منددة باعتقال نجله الأكبر ومطالبة إياه بالسماح لهم بالثورة المسلحة.

يقول الشيخ محمّد الخالصي كاتب المرجع الأعلى الشيرازي "إن بعض رؤساء القبائل كتب إليه -الشيخ الشيرازي- بعد القبض على ولده: (إنّ أعمال الإنكليز في القبض على ولدك قد بلغت الغاية في القسوة والظلم وهتك الحرمات، فمُرْنا أن ندافع عن أنفسنا بالسلاح). فأرسل لي الكتاب وأمرني أن أكتب في جوابه ما ملخصه: (إنّ ابني ومن معه أُبعدوا في سبيل القضية العراقية، فلا يُنسِيَنّكم إبعادُهم قضيّتَكم، ولا تشتغلوا بطلب عَودهم عن المطالبة بحقوقكم، ولا تجعلوا القبض عليهم سبباً لحمل السلاح، فتلهيكم القضايا الشخصية عن المطالب العامة، وإياكم أن تجرّدوا سيفاً ولو رأيتموني بيد الإنكليز، إلّا أن يسوق الإنكليز جيشاً لمحاربتكم بسبب إصراركم على المطالبة بحقكم المغصوب، فهناك يجب الدفاع، ولا تذكروا في دفاعكم إلّا القضية العراقية، والاستقلال الناجز التام).

---

(١) مذكرات السيد محمد علي كمال الدين من رجال الثورة العراقية ١٩٢٠. تقديم وتعليق: كامل سلمان الجبوري: ١٦٦. نقلاً عن العدد الثاني من صحيفة الفرات لسنة ١٣٣٨هـ/ ١٩٢٠م.

فكتبتُ هذا بأمره، وما زلتُ أكتب في أجوبة المكاتيب التي ترد من رؤساء القبائل ما يقرب من هذا، فيوقّعه ويأمرنا بإرساله"[١].

وطبيعي لمثل سماحته وهو المرجع الأعلى أن يفصل بين الموضوعين الخاص والعام؛ بين اعتقال نجله الأكبر وهو موضوع خاص بشخصه الكريم، وبين القضية الوطنية العامة وهي الاستقلال التام الناجز؛ لذلك رفض سماحته طلب بعض الزعماء والشيوخ القيام بالثورة إذا كانت لسبب اعتقال نجله، بل زاد على ذلك فحذّرهم بقوله المتقدم أعلاه: "إياكم أن تجرّدوا سيفاً ولو رأيتموني بيد الإنكليز، إلّا أن يسوق الإنكليز جيشاً لمحاربتكم بسبب إصراركم على المطالبة بحقكم المغصوب، فهناك يجب الدفاع".

ومن الطبيعي أيضاً أن يرفض زعيم الأمة الموافقة على إطلاق بعض المعتقلين والمنفيين دون بعض، حتى وإن كان المطلق سراحه هو نجل المرجع الأعلى والساعد الأيمن لأبيه في إدارة ملف ثورة العشرين.

وقد صرح بذلك سماحة الشيخ عبد الكريم الجزائري خلال التفاوض مع حكام المدن والأقضية من الإنكليز المجتمعين بممثلي المرجعية والثوار في الكوفة، ردّاً على ذكر أحد حكام الإنكليز لقضية اعتقال ونفي نجل المرجع الأعلى، بعد أن طلب من وفد المرجعية أن يخففوا الأمر على سماحة الشيخ الشيرازي، فأجابه الشيخ الجزائري قائلاً: "إنّ الإمام الحائري لم يبلغ مرتبته الحالية إلّا لأنّه ينظر إلى أفراد المسلمين كافة كأولاده، فأيّ ولد يعنيه الحاكم؟ أهو نفي الحاج مخيف، أم إبعاد أحرار كربلاء؟ أم نفي المتظاهرين في الحلة؟"[٢].

وإذ لم تلقَ رسالة المرجع الأعلى أُذُناً صاغية من دول عصبة الأمم، واستمرت وتائر عنف المحتل بالتصاعد ساعية لاعتقال زعماء الثورة وشيوخها الآخرين هذه المرة؛ كتب كبار الثوار إلى مرجعهم الأعلى يضعونه بصورة ما جرى قائلين: إنّ الأمر

(١) بطل الإسلام. مذكرات الشيخ محمّد الخالصي. سابق: ١٦٨.

(٢) الثورة العراقية الكبرى. سابق: ١٨٥.

بات يدور بين الثورة أو الاستسلام للإنكليز. فأجابهم مرجعهم بقوله: "إنّي فديت استقلال العراق بولدي، ومَن عَزّ عليّ، وأنا مستعد بأن أفديه بنفسي، وهي قصارى ما أملك، أما أنتم فإن أصرّ الإنكليز على غصبكم حقكم، وقابلوا التماسكم بالحرب، فيجب عليكم الدفاع بجميع قُواكم، ويحرم الرضوخ لهم والاستسلام"[١].

كما "كتب الشيخ عبد الحسين النجل الثاني للإمام الحائري كتاباً إلى السيد قاطع العوادي، وآخر إلى الشيخ سماوي الجلوب، يخبرهما فيه بالأمر الواقع. ويرجوهما العمل على إنقاذ المنفيين من أيدي المحتلين"[٢].

***

٥. مسعى المحتلين لجس النبض الأخير للوطنيين قبل انطلاق شرارة الثورة

بعد تأزّم الوضع اقترح ولسون زيارة بيرسي كوكس إلى العراق وهو في طريقة إلى لندن بعد استدعائه من قبل حكومته ليتولى إدارة ملف العراق بدل ويلسون، فوصل كوكس العراق، وقبل مغادرته كتب "إلى وزارة الهند بالرسالة الآتية (٢٢ حزيران-١٩٢٠م-)... الوضع صعب جدّاً من دون شك... غير أنّ المطلب الملحّ العاجل هو إبقاء الوضع تحت السيطرة والحيلولة خلال الثلاثة أو الأشهر الأربعة القادمة دون وقوع أي انفجار في المناطق. واتخاذ إجراءات من شأنها أن تجلب المعتدلين إلى العمل المكشوف بجانبنا في الوقت نفسه مع منعهم عن الاشتغال مع المتطرفين في عمل مشترك".

بيد أنّ جلب المعتدلين للعمل المكشوف لم يكن اقتراحاً واقعيّاً بحال، ولا الحيلولة دون انفجار الوضع لأشهر قادمة؛ ما قرّر معه ولسون بعد سفر السر بيرسي كوكس مباشرة إلى إجراء مفاوضات سرية مع بعض القريبين من الثوار للاطلاع على ما يمكن الاطلاع عليه علّها تنفع.

---

(١) لمحات اجتماعية من تاريخ العراق الحديث. سابق. ج٥/ القسم الأول: ٢٣٦ نقلاً عن (بطل الإسلام) المخطوط للشيخ محمّد الخالصي.

(٢) الثورة العراقية الكبرى. سابق: ١٩٨.

يقول آرنولد ويلسون: "كان من الضروري أن تبقى هذه المفاوضات مكتومة؛ لأنّ الزعماء كانت ثقة الجمهور قليلة بهم، وكانوا يعرفون بأنهم لو شك أحد في كونهم كانوا على اتصال بي فسوف يُتّهمون بالخيانة، ونجد من جهة أخرى أنّ العنصر المستعد للتفاهم بينما يكون غير قادر مثل المعتدلين في جميع أنحاء العالم، أو غير راغب في توريط نفسه توريطاً كليّاً بسياسة حكومة اليوم؛ فإنّه ينظر شزراً لأية مفاوضات مكشوفة تجري مع الأقلية الثائرة، فدُبّر اجتماع يتم في منتصف الليل... في بيت صديق مشترك هو عبد القادر باشا الخضيري. وذهبت برفقة رسول عربي يوثق به، ولم يكن يعرف بالمكان الذي كنت أقصده والنية التي كنت أنتويها غير شخصين آخرين. وقد حضر ثلاثة ممن كانوا على اتصال وثيق بزعماء الوطنيين... وكان خصومي ينصتون باهتمام... فأجابوا بأنهم يعتبرون كل ما قلته صحيحاً ولكنهم أضافوا إلى ذلك قولهم:

هناك هوّة سحيقة بيننا وبينكم... إنّ نظام الانتداب عبارة عن إلحاق مقنّع... إنّ قبول أي شيء غير الاستقلال التام بالنسبة لهم في العراق يعتبر كارثة... فأنذرتهم... ورجوت منهم أن يتصوروا إراقة الدماء التي تنطوي عليها هذه السياسة، فأجابوا: إنّ ذلك سيكون ثمناً بخساً يدفعونه لقاء الاستقلال، ورددت على ذلك بأنّ الثورة قد تؤخر تحقيق آمالهم عقداً من السنين، فأجابوا بأنّ المعروف في عالم السياسة أنّ الحرية بالنسبة إلى للأمم تؤخذ ولا تعطى، وأنّ الثورة سواء أكانت ناجحة أم لا ليست فقط أحسن طريقة لدفع قضية الحرية إلى الأمام، وإنّما هي الطريقة الوحيدة لذلك، ثم أنهوا حديثهم بقولهم: إنّ الأمم الأوربية تخضع للقوة على الدوام، فقد خضعت لها بريطانيا العظمى في قضية أفغانستان، وضعفت في مصر، وخضعت حتى في الهند، وقد ملّت الأمة البريطانية من الحروب، وسوف لا تقدم مزيداً من الضحايا، ومتى منح الانتداب وسويت شروطه فإنّنا سوف نخسر فرصة الحصول على الاستقلال التام، فليس يرضينا شيء أقلّ من ذلك، وليس هناك شيء آخر يستحق الفوز به... وقد أنهيت الحديث بتطمينهم أنّنا لا بدّ

من أن نفعل جميع ما بوسعنا للمحافظة على الأمن والنظام"[١].

لقد نقلتُ حديث ولسون بطوله ليس فقط لأهميته ووضوح قناعات الثوار بالثورة حتى وإن فشلت لأنها الطريقة الوحيدة للحرية والاستقلال التام كما قالوا؛ ولا لأنّ ولسون عبّر عن قناعات الثوار المخالفة لقناعاته وسياساته بموضوعية كما يبدو؛ بل لأنه عبّر عن متبنّيات المرجعية العليا ومستشاريها بعد الثورة بوقف العمليات الحربية والتفاوض تحت الاحتلال جواباً على رسالة ويلسون إلى المرجع الأعلى شيخ الشريعة الأصبهاني كما سيأتي الحديث عنها مفصلاً لاحقاً.

***

٦. المسعى السلمي الأخير للمرجع الأعلى الشيخ الشيرازي قبيل اشتعال نار الثورة

قرر المرجع الأعلى الشيخ الشيرازي من أجل استنفاد المساعي السلمية كافة -رغم كل ما تقدم من الاعتقالات والنفي وغيرها- إرسال وفد عنه إلى نائب الحاكم الملكي العام ولسون في بغداد لمفاوضته في أمر إيقاف القتال حقناً للدماء. وقد اختار لهذا الغرض رجلين هما: السيد هبة الدين الشهرستاني والميرزا أحمد نجل المرجع الشيخ محمّد كاظم الخراساني، وأرسل معهما رسالة إلى نائب الحاكم الملكي العام ولسون، يعرض فيها سماحته بعض الشروط من أجل إيقاف القتال عند حدّه، قبل أن تنظمّ العشائر الأخرى إليه، وهذه الشروط هي: سحب القوات الإنكليزية من منطقة القتال، وإعلان العفو العام، وإعادة المنفيين. فذهب الرسولان إلى بغداد وهما يحملان رسالة المرجع الأعلى الشيرازي، واتصلا بالقنصل الإيراني العام ليكون وسيطاً لهما عند ولسون ومترجماً.

وقد اهتم القنصل الإيراني بالأمر وذهب إلى ولسون طالباً منه تعيين موعد لمقابلة الرجلين المرسلين من قبل المرجع الأعلى الشيرازي. غير أن ولسون رفض

(١) الثورة العراقية. سابق: ٨٢-٨٥.

مقابلتهما"[١]، ورفض حتى استلام كتاب آية الله، فمكثا في بغداد ما يقارب العشرة أيام دون جدوى، بل زاد على ذلك فقال للقنصل الإيراني الوسيط: "إنّي لا أصدق برسالة الشيرازي؛ لأنه هو الذي بذر هذه البذرة، وهذا يوم حصادها، كما أنّي لا أوافق على إطلاق سراح ابنه. فعاد الرجلان إلى كربلاء خائبين"[٢].

وإذ طرق الخبر مسامع قادة الثورة "دعا الزعماء ورؤساء القبائل أن يحملوا العلماء والمندوبين في النجف على إبلاغ ما جرى إلى الإمام الشيرازي، وعرض استعدادهم لأخذ استقلال البلاد بالقوة، فكتب المندوبون والعلماء إلى الشيرازي كتاباً بذلك، وأطلعوه فيه على حقيقة الحال، ومبلغ استعداد الرؤساء لإشهار السيوف بدل الأقلام، لتحقيق أماني البلاد، وأخذ الحقوق المشروعة بالقوة، وأرسلوا الكتاب مع رسول يعلم نوايا القوم"[٣].

وكان قد كتب سماحته قبل وفاته بأقل من أسبوع رسالة إلى عصبة الأمم في (٢٧ ذي القعدة ١٣٣٨هـ/ ١٢ آب ١٩٢٠م) أرسلها إلى جنيف عن طريق طهران، ذكر فيها ما لاقاه العراقيون من الإنكليز المحتلين خلال مطالباتهم السلمية بحقوقهم المشروعة، فـ"ثار ثائر الحكومة الإنكليزية، فقامت معتمدة على قوتها دون الحق ففتكت بالعراقيين فتكاً ذريعاً، وأخذت تهاجم بطياريها ومدافعها، حتى أعدمت من أعدمته، ونفت، وسجنت من أرادته، وأحرقت دوراً وهدمتها، ونهبت أموالاً وصادرتها، وعملت أعمالاً لا تأتلف وروحَ المدنيّة المزعومة فيها، بل إنّ الأعمال التي جاءت بها يأباها كل إنسان. عند ذلك قام العراقيون مدافعين عن أنفسهم وشرفهم بعد أن يئسوا من إصغاء حكومة بريطانيا لهم حتى للتفاهم معهم بصورة سلمية... فأنقذوا أمة تأبى أن تعيش دون أن تأخذ حقها الصريح المعترف به"[٤].

---

(١) الحقائق الناصعة في الثورة العراقية لسنة ١٩٢٠ ونتائجها. سابق: ١١٥.

(٢) لمحات اجتماعية من تاريخ العراق الحديث: ٥/ ١/ ٢٣٤، والثورة العراقية الكبرى. سابق: ١٢٠. وينظر: كربلاء في ثورة العشرين، سلمان هادي آل طعمة: ٦٠.

(٣) الحقائق الناصعة. سابق: ١١٥.

(٤) الشيخ محمّد تقي الشيرازي القائد الأعلى للثورة العراقية الكبرى ١٩٢٠. سابق: ٢٧٩.

الفصل الرابع

وقائع ثورة العشرين

وفيه ثلاثة مباحث هي:

المبحث الأول

مناطق الثورة من انطلاقها إلى وفاة المرجع الأعلى سماحة الشيخ محمد تقي الشيرازي

المبحث الثاني

مناطق الثورة من تولي المرجع الأعلى الخلف سماحة شيخ الشريعة الأصبهاني إلى نهايتها

المبحث الثالث

أدوار وفعاليات ونتائج

وسأعرضها باختصار ما أمكن، مبتدئاً بالمبحث الأول منها

المبحث الأول

مناطق الثورة من انطلاقها إلى وفاة المرجع الأعلى سماحة الشيخ محمد تقي الشيرازي

وفيه عدة نقاط تستعرض المهم من وقائع الثورة وتطوراتها، كما يلي:

١. المؤتمر الخطير في المشخاب

حين قرعَ سمعَ الشيخ عبد الواحد حاج سكر أمرُ اعتقال ونفي الشيخ محمد رضا الشيرازي وإخوانه الثوار إلى جزيرة (هنجام)، وكان مريضاً بمرض جلدي؛ هاله ما سمعه، وتوقع بحسه السياسي عواقبه المرتقبه على الثورة وزعمائها، فكتب كتاباً إلى بعض زعماء الثورة وكبار رجال عشيرته يدعوهم فيه إلى الحضور عنده، وحين الْتأم شملهم؛ "وافانا خبر مشؤوم وهو أنّ حكومة كربلاء بعد أن اعتدت على نجل الإمام الشيرازي مع أحد عشر شخصاً من إخوانكم أحرار كربلاء، فإنها نفتهم إلى جزيرة هنجام... وإنّي جمعتكم لأرى ما عندكم من آراء تجاه هذا العمل الفظيع والاعتداء الذي لم يسبق له مثيل، وإنّي أُعلِمكم بأنّنا إذا بقينا ساكتين أمام هذه الأعمال الوحشية سوف نرى هذه السياسة الاحتلالية تقضي على آخر رجل منا فنكون عند ذاك قد أضعنا قضيتنا وبلادنا وأنفسنا، فالواجب يقضي علينا أن نتخذ لنا خطة حكيمة محافظة على قضيتنا، تعيد لنا إخواننا المبعدين وبواسطتها نحصل على مطالبينا وإن كلّفنا ذلك غالياً في الأموال وفي النفوس"[1].

عندما عرف قادة الثورة المجتمعون في هذا الاجتماع والمشاورات التي تلته أن لا أمل يُرتجى من هؤلاء المحتلين، وأنّ الحل باستنقاذ الحقوق كاملة بالطرق السلمية قد رفضه الإنكليز عمليّاً باستخدامهم القوة العسكرية في المداهمات والاعتقالات وغيرها كثير -كما تقدم-؛ قرر الزعماء والوجهاء والشيوخ الدعوة إلى عقد اجتماع تداولي للنظر بما يقتضي عمله في هذا الظرف الخطير، فعُقد الاجتماع ليلة (١١ أو

(١) الحقائق الناصعة في الثورة العراقية. سابق: ١٧٢.

١٢ شوال ١٣٣٨هـ/ ٢٨ أو ٢٩ حزيران ١٩٢٠م) على روايتين والتاريخ الأول أرجح، في مضيف الشيخ عبد الكاظم الحاج سكر في المشخاب، بحضور الثوار من كبار السادات والمشايخ في الفرات الأوسط، ثم انتقلوا إلى مضيف الحاج عبد الواحد آل سكر نظراً لمرضه.

لقد شارك في المؤتمر الكبير عدد من زعماء الثورة الكبار، وبسبب أهمية معرفة المشاركين فيه لدورهم الفاعل في اتخاذ قرار الثورة، وللتاريخ، أستعرض أسماء هؤلاء الزعماء، ومن كتبَ المجتمعون إليهم في أمر الثورة، أما المجتمعون فهم كل من السيد علوان الياسري، وسلمان العبطان، وعبد الواحد الحاج سكر، ومحمد العبطان، والسيد هادي امكوطر، والسيد نور السيد عزيز الياسري، وعبد آل صفوك، والشيخ رحومي الظالمي، والسيد محمد باقر الحلي، وعبد الرحمن خضر، ثم جاء السيد محسن أبو طبيخ ومعه هنيّن الحنون، وجرّي مريع، ولفيف من الرؤساء والزعماء الآخرين للمداولة في الحالة السياسية. وقد أضاف د. الوردي إلى الحاضرين كُلّاً من الزعماء: "علوان الحاج سعدون، وشعلان الجبر، وهادي زوين، ومرزوق العواد، ووداي العطية، وسلمان الظاهر، ولفتة الشمخي، ومجبل الفرعون... وغيرهم، كما حضره عبد الرحمن خضر من بغداد"[1].

وقد انضم إلى المجتمعين كما في أعلاه السيد محمّد الباقر الحلي الموفد من قبل علماء وقادة الثورة في النجف الأشرف، فألقى قصيدة ثورية رائعة، وخطب خطبة بليغة ذكّر شيوخ الخزاعل فيها بحلف أجدادهم من قبيلة خزاعة مع النبي ﷺ يوم تعرضت خزاعة لأذى أحلاف قريش فقال النبي ﷺ قولته في نصرة خزاعة و"جيّش جيوشه على مكة حتى تم له فتحها.. وهكذا استمر السيد محمد.. قائلاً: فمتى تنتصرون له؟ أمّا في الآخرة فأنتم أحوج إليه، نعم، يمكنكم الانتصار له في هذه الدنيا.. أَمَا آن لكم أن تنصروا محمّداً... وهنا استثارت حميّة الحاضرين ونهض الزعماء جميعاً يهزجون بالهوسات بحضور الحكّام الإنكليز الذين أسرعوا بالهرب..

(١) لمحات اجتماعية من تاريخ العراق الحديث. سابق: ٢١٥-٢١٦.

وكان لموقفه الحماسي الجَسور دويّ هائل في طول البلاد وعرضها، لا سيّما لدى أفراد القبائل"[١].

لقد "انفرط الاجتماع بعد أن وجّه عاقدوه كتاباً إلى رؤساء الرميثة كالشيخ شعلان أبو الجون والشيخ غثيث الحرجان، وغيرهما، مما جاء فيه: (إنّ رجال حكومة الاحتلال بدأوا يستعملون الشدة معنا، ولم يصغوا إلى مطالبنا الحقة، وأخذوا ينفون جماعاتنا وأصحابنا، فقد نفي الحاج مخيف إلى هنجام، وقبضوا قبلاً على نجل الإمام الشيرازي، وأبعدوه مع أحرار كربلاء، فإذا لم تتخذوا التدابير اللازمة لوقف هذا العدوان فسنُنفى كُلُّنا على هذا المنوال. وقد كنا طول هذه المدة نستعمل اللين مع السلطة مراعاة للسلم، ولكن ذلك لم يُجدِ نفعاً)"[٢]، فوصل رسول الثوار إلى الرميثة في "يوم ١ تموز"[٣] حاملاً الكتب المعنونة إلى زعماء الرميثة والسماوة ومنهم الكتاب المعنون إلى الشيخ شعلان، "فما كاد يصل السماوة حتى سمع بقضية اعتقال الشيخ شعلان، وكيفية إطلاق سراحه، فسلّم -الرسول- كتاب الشيخ شعلان بيده، فردّ هذا بجواب مقتضب جاء فيه: "أمّا نحن فلا نستطيع أن نجيبكم على كتابكم بأكثر من أعمالنا وإطلاقنا الرصاص فعلاً"[٤]، وفي اليوم التالي (٢ تموز ١٩٢٠م) وقعت الواقعة كما سيأتي.

ولم يقتصر زعماء الثورة على إرسال الرسالة السابقة إلى زعماء الثورة في السماوة والرميثة فحسب، بل أرسلوا مثلها أيضاً إلى مندوبي بغداد والكاظمية موقّعة من قبل (١٦) ستّة عشر شيخاً وزعيماً وطنيّاً في (١١ أو ١٢ شوال ١٣٣٨هـ/ ٢٨ أو ٢٩ حزيران ١٩٢٠م) كما سيأتي، مطالبين بإطلاق سراح المعتقلين دون إبطاء، وإلّا فالثورة.

---

(١) ثورة العشرين في ذكراها الخمسين معلومات ومشاهدات. سابق: ٩٨-٩٩.

(٢) الثورة العراقية الكبرى. سابق: ٢٠١.

(٣) لمحات اجتماعية من تاريخ العراق الحديث. سابق: ١/ ٢١٧، نقلاً عن البطولة في ثورة العشرين. عبد الشهيد الياسري: ١٧١.

(٤) الثورة العراقية الكبرى. سابق: ٢٠١.

٢. انقداح شرارة الثورة

في مسعى للإجابة عن سؤال مفاده: لماذا بدأت الثورة في الرميثة؟

أقول: إنّ كل مقدمات الثورة كانت قد نضجت حينها تماماً، وتم الاتفاق عليها حال تجاوز المحتلين الخطوط الحمر، وإذ تم اعتقال الشيخ محمد رضا الشيرازي نجل المرجع الأعلى الشيخ الشيرازي؛ عرف قادة الثورة أنّ المحتلين قد تجاوزوا الخطوط الحمر وأنّ مصيرهم هم أيضاً الاعتقال فالنفي كمصير نجل المرجع الأعلى لا محالة كما أوضحوه في رسالتهم المتقدمة.

وإذ تم اعتقال الشيخ شعلان أبو الجون وإطلاق سراحه من قبل أفراد عشيرته بالقوة المسلحة، وبعد وصول كتاب الشيخ عبد الحسين الشيرازي نجل المرجع الأعلى إلى زعماء الثورة يذكر فيه اعتقال أخيه، وأنّ اليوم يومهم، والمطلوب النجدة للحق؛ اجتمع القادة وحرروا رسالة إلى الشيخ شعلان أبو الجون، ثم وصول رسالة مرجعية النجف الأشرف إلى الرميثة التي حملها الشيخ رحمة الله الظالمي[1]

(١) الشيخ رحمة الله الظالمي المعروف بالشيخ رحوم بن جواد علي الظالمي: "داعية الفرات الأوسط ومرشده الأكبر، له اليد الطولى في القضية العراقية، وقد أثار الحماس الديني في عشائر السماوة وما والاها، ونظّم منها جيشاً جرّاراً وقف به أمام جيوش الاحتلال، وكان هو القائد والمرشد والداعي، وكان صالحاً تقيّاً دائم الذكر ترى آثار الأبرار بارزة عليه وميسم العبادة لائحاً بين عينيه... ولمّا انقضت الحرب وفرّ زعماء الثورة فرّ معهم وطلبه الإنكليز أشد الطلب فلم يظفروا به، وكان قصير القامة ضعيف البدن... أبيض اللحية... توفي سنة (١٣٥٦هـ) وشُيّع تشييعاً فخماً... لِما له من اليد البيضاء في تشييد أركان الدين، ومقاومة الكافرين، ودفن في الصحن الشريف" (ماضي النجف وحاضرها. سابق: ٣/ ١١). ولمعرفة شدة ثقة المرجعية العليا به أُشيرُ إلى رسالة كتبها الميرزا الشيرازي (بعد يوم ١٦ شعبان ١٣٣٨هـ) جاء فيها ما نصه "يجب على كل مسلم أن يساعد الشيخ رحوم، ومساعدته من أفضل الطاعات، ومن كانت عنده حقوق شرعية بجميع أنواعها فعليه أن يسلّمها إلى الشيخ رحوم وهي واصلة إليّ" (كتاب الشيخ محمّد تقي الشيرازي القائد الأعلى للثورة العراقية الكبرى: ٢٣٧)، ولكنّ حال هذا الشيخ حال الكثيرين المنسيّين من المجاهدين المخلصين. عسى أن تكون هذه الإشارة محفّزة لرفع الظلامة عنه وعن أمثاله، وفي مقدمتهم: المراجع، والمجتهدون المجاهدون، وشيوخ العشائر المجاهدون، والشيخ عبد الكريم الجزائري، والشيخ جواد الجواهري، والسيد نور الياسري، والسيد هادي مكوطر، والشيخ عبد الحسين مطر، والشيخ محمّد رضا الشيرازي، والشيخ عبد الواحد آل سكر، والسيد علوان الياسري، والحاج محمّد جعفر أبو التمن، =

المتضمنة إبلاغ قبيلة الظوالم بأن يشرعوا بإعلان الثورة المسلحة فوراً ضد الإنكليز[١] كما سيأتي، فقد آن أوان الثورة.

أما محركات اعتقال الشيخ شعلان أبو الجون وفق هالدن فهي: "أنّ الميجر ديلي سمع في (٢٥ حزيران) عشيرة الظوالم وهي فرع من بني حجيم رفعت راياتها مظهرة أنّها في حرب مع الحكومة"[٢].

وفي يوم الجمعة (١٣ شوال١٣٣٨هـ/ ٣٠ حزيران ١٩٢٠م) حسب المؤرخين[٣] وليس في أو بعد الأسبوع الثالث من شهر تموز كما زعم أمين الريحاني[٤] استدعى الملازم هيات معاون الحاكم السياسي في الرميثة الشيخ شعلان أبو الجون إلى سراي مدينة الرميثة، فأجاب الشيخ، وذهب إلى حيث دعي،

"فلما وصل القرية قابله اللفتانت هيات بالعنف والتوبيخ وأسمعه كلاماً قاسياً.. فردّ على أقواله فوراً: إنّ السياسة التي تتمشى أنت وحكومتك عليها ستجرّ الدولة البريطانية إلى الهاوية حتماً، ولا سيّما والبلاد تغلي غليان المرجل"[٥]، وفي كتاب (الحقائق الناصعة) وردت إضافة لحديث الشيخ شعلان وهي قوله: "فاعلم بأنّك في العراق لا في هندستان، وإنّ العراقيين غير الهنود"[٦].

فأمر اللفتنت هيات باعتقاله بحجة صوريه مفادها أنه مدين للحكومة بمال مستحق لم يدفعه، رغم علمه بأن الشيخ شعلان أحد كبار شيوخ بني حجيم و"أشجع رجال القبائل وأبعدهم عن الرضوخ للاستبداد والسلطة المطلقة، زد

= والحاج عبد المحسن شلاش، وغيرهم كثير ممن لا يسع المجال لاستعراض أسمائهم رحمهم الله جميعاً وأسكنهم فسيح جنّاته.

(١) ينظر: دور الشيعة في تطور العراق السياسي. سابق: ١٧٦-١٧٧.

(٢) لمحات اجتماعية من تاريخ العراق الحديث. سابق: ٥/ ١/ ٢٢٠ نقلاً عن هالدن: ٧٤.

(٣) ينظر مثلاً: الحقائق الناصعة في الثورة العراقية. سابق: ٤٥٧.

(٤) ينظر: فيصل الأول. سابق: ٣٢.

(٥) الثورة العراقية الكبرى. سابق: ٢٣١.

(٦) الحقائق الناصعة في الثورة العراقية. سابق: ٤٥٨.

على ذلك أنّ رؤساء قبائل بني حجيم كانوا من أقطاب التحالف الذي عقد ليلة منتصف شعبان بكربلاء، وقد أرسل إليهم أحد المبشرين بالثورة، فصار هذا يشعل بخطبه نار الحميّة والعزم بين جوانح الناس"[١]، خلافاً لِما زُعم من أن الشيخ شعلان مدين للحكومة عن ضرائب كانت بذمته.

وهو ما أكده الشيخ محمّد مهدي البصير أحد خطباء ثورة العشرين وشعرائها ذلك الوقت بقوله: "إنّ سبب قبضه سياسي بحت مهما بلغت المغالطات في تمويهه، على أنّ الشيخ شعلان أكّد لنا كل التأكيد بأنّه لم يكن آنئذ مديوناً للحكومة"[٢].

ومما يدعم هذا التوجيه هو أنّ الوزير المستر ونستون تشرشل أجاب عن سؤال وُجّه إليه في مجلس العموم البريطاني "عن سبب نشوب الثورة في الرميثة، أجاب: إنّ السلطة البريطانية ألقت القبض على الشيخ شعلان الجون لأنّه كان يحاول إثارة القبائل وحملهم على الثورة"[٣].

لقد كان اعتقال الشيخ شعلان أبو الجون الذي وقع في (٣٠ حزيران ١٩٢٠م) بعد اعتقال الشيخ محمّد رضا الشيرازي نجل المرجع الأعلى طبعاً، وبعد أن أصدر "أحد أنجال الشيرازي كتاباً وجّهه إلى طائفة من زعماء القبائل يحضّهم فيه على القيام، فتداولت أيدي الزعماء هذا الكتاب حتى وصل إلى مشايخ عشيرة بني حجيم في الوقت الذي جرى فيه اعتقال شعلان أبو الجون بالرميثة وإطلاقه برغم حاكم البلدة... فشبت النار في الهشيم"[٤].

وإذا كان الشيخ البصير لم يذكر اسم نجل المرجع الأعلى الذي كتب الكتاب، فإنّ السيد عبد الرزاق الحسني و د. الوردي ذهبا إلى أنه الشيخ عبد الحسين

---

(١) تاريخ القضية العراقية. محمّد مهدي البصير: ٢٠٠. ط١. ويشير إلى إرسال الشيخ رحمة الله الظالمي مبعوثاً من المرجعية في كل من كربلاء والنجف إلى الرميثة. وتقدمت ترجمته.

(٢) المصدر السابق: ٢٠٢.

(٣) الثورة العراقية الكبرى. سابق: ٥٦، وينظر: دور الشيعة في تطور العراق السياسي. سابق: ١٧٦.

(٤) تاريخ القضية العراقية. محمّد مهدي البصير. ط٢: ١٠٧.

الشيرازي، وزاد الوردي على ذلك بأن أضاف: "وقال لهم على لسان أبيه: (هذا اليوم يومكم)"[١].

***

٣. تحديد المرجعية الدينية لوقت إشعال الثورة في الرميثة

ولئن كان أمر تحديد وقت إشعال الثورة غير واضح عند المؤرخين؛ فإنّي أرجّح أنّ المرجعية هي من حددت هذا الوقت، وهو ما أشار إليه خبرٌ نقله الباحث عبد الله النفيسي يذهب إلى أنّ رسول النجف إلى الرميثة الشيخ رحمة الله الظالمي أبلغ قبيلة الظوالم لكي "يفكّوا أسر شيخهم شعلان أبو الجون بقوة السلاح، ويشرعوا بإعلان الثورة المسلحة فوراً ضد الإنكليز حيثما استطاعوا إلى ذلك سبيلاً، وأضافت التعليمات الصادرة عن النجف أنه بالنسبة إلى بنود الانتداب: لا يحق لبريطانيا استخدام قوات عسكرية، وأنّ ما لدى بريطانيا من جنود في العراق قد سُحب معظمهم بالفعل، إمّا إلى إيران أو إلى الهند، وبعد تخليصه السجن صدرت الأوامر من النجف بقيام الثورة وإعلانها ضد الإنكليز، وللحال ضرب جميع رجال قبيلة الظوالم الحصار على ضابط الارتباط الإنكليزي وحاميته"[٢].

وقد كان ذهب السير آرلوند ولسون في كتابه (الثورة العراقية) هو الآخر إلى ذلك بقوله: إنّ "الظوالم كانوا تلقّوا أوامر جازمة من منطقة الشامية (النجف والكوفة) بالقيام في وجه الحكومة، وشجّعهم على ذلك ما تلقّوه من تطمينات بأنّ بريطانيا العظمى ممنوعة بمقتضى شروط الانتداب من استخدام القوة العسكرية، وأنّ جميع قواتنا المتيسّرة تقريباً كانت قد سُحبت إمّا إلى إيران أو إلى الهند، فوقعت تلك الأخبار -في- منبت خصب، إذ قُطعت سكة الحديد في ثلاثة أماكن.."[٣].

إضافة إلى ورود تقارير للسلطة المحتلة ذكرت: "أنّ العشائر قرب الرميثة...

---

(١) الثورة العراقية الكبرى. سابق: ١٩٨، ولمحات اجتماعية من تاريخ العراق الحديث. سابق: ٥/ ١/ ٢١٥.

(٢) دور الشيعة في تطور العراق السياسي. سابق: ١٧٦-١٧٧.

(٣) الثورة العراقية. سابق: ١٠١-١٠٢. يذكر أنّ النجف والكوفة كانتا تابعتين لمتصرفية الشامية.

قاموا بدفع من المحرّضين في النجف... بمهاجمة مباني الحكومة في الرميثة"[١].

وتؤكد ما رجّحتُه أيضاً رسالةٌ عثرتُ عليها في الوثائق موقّعة من الشيخ عبد الرضا آل الشيخ راضي أحد ممثلي النجف الأشرف والشامية المنتخبين، مرسلة إلى الحاج عبد المحسن شلاش زميله في تمثيل مدينة النجف، يخبره فيها بقوله: "إنّ اللذين أرسلناهما إلى الرميثة، للأمر المعهود، الشيخ رحمة الله الظالميّ، والشيخ محمّد الزريجاويّ كلٌّ إلى عشيرته، وعلى إثر وصولهما ما وقع، ليكن معلومك"[٢]، يشير فيها بوضوح إلى بداية الثورة من الرميثة. بعد وصول رسوليهما المتقدم ذكرهما إليها وإبلاغهم بإعلان الثورة.

***

٤. تسلسل الأحداث التاريخية وصولاً إلى الثورة

وبناء على ما تقدم، وإجمالاً له، يمكنني أن أُسلسل مقدمات ما جرى لإشعال ثورة العشرين بما يلي:

صدور قرار بريطانيا بفرض الانتداب على العراق في (٣ مايس ١٩٢٠م/ ١٤ شعبان ١٣٣٨هـ)؛ فاجتماع قادة وسادة وشيوخ الثورة بسماحة المرجع الأعلى الشيخ محمد تقي الشيرازي -الموصوف بكونه "ثالث شخصية روحانية تتصدى لإصلاح الوضع. الأول منهم المرجع الديني الميرزا حسن الشيرازي... الثاني هو محور الدستور المرجع الديني الشيخ ملا محمد كاظم الخراساني"[٣]، ثم الشيخ محمد تقي الشيرازي. لقد عُقد هذا الاجتماع الخطير في بيت المرجع الأعلى الشيخ الشيرازي بعد منتصف (ليلة النصف من شهر شعبان ١٣٣٨هـ/ ليلة ٤ مايس ١٩٢٠م)- مطالبين بإصداره فتوى بالجهاد، وعارضين عليه بإصرارٍ استعدادَهم التام له وقدرتهم العسكرية عليه، فصدور الفتوى التاريخية بذلك وإبلاغها لزعماء

(١) العراق في سجلات الوثائق البريطانية ١٩١٤-١٩٦٦. المجلد الثاني ١٩١٨-١٩٢١. سابق: ٣٧٢.

(٢) وثائق الثورة العراقية الكبرى. سابق: ٣/ ٤١٠.

(٣) المذكرات الخطية للسيد ضياء الدين بحر العلوم عن حياة والده السيد محمد علي بحر العلوم: ٩٢.

الثورة بشكل خاص يوم (١٥ شعبان ١٣٣٨م/ ٤ مايس ١٩٢٠م)؛ فإشهار الفتوى وإبلاغها للمواطنين كافة في اجتماع حاشد في الصحن العباسي الشريف بعد استنفاد كافة المساعي السلمية لتحقيق الاستقلال التام الناجز في (٤ شوال ١٣٣٨هـ/ ٢١ حزيران ١٩٢٠م)؛ فقرار بريطانيا الصارم باللجوء إلى القوة المسلحة للقضاء على الثورة، وغلق كافة المساعي السلمية؛ فاعتقال العديد من زعماء الثورة ونفيهم سواء في بغداد أم كربلاء أم النجف الأشرف أم الحلة أم الديوانية أم غيرها وفي مقدمتهم الشيخ محمد رضا الشيرازي في (٥ شوال ١٣٣٨هـ/ ٢٢ حزيران ١٩٢٠م)؛ فاجتماع زعماء وقادة وسادة وشيوخ الثورة في الفرات الأوسط بمدينة المشخاب في (١١ أو ١٢ شوال ١٣٣٨هـ/ ٢٨ أو ٢٩ حزيران ١٩٢٠م)؛ فبعثهم رسالة إلى زعماء وشيوخ الثورة في السماوة والرميثة وفي مقدمتهم شعلان أبو الجون، كما بعثوا برسالة أخرى إلى مندوبي بغداد والكاظمية موقعة من قبل (١٦) ستّة عشر شيخاً وزعيماً وطنيّاً مطالبين فيها بإطلاق سرح المعتقلين دون إبطاء، وإلّا فالحرب؛ فاعتقال الشيخ شعلان أبو الجون في (١٣ شوال ١٣٣٨هـ/ ٣٠ حزيران ١٩٢٠م)؛ فوصول رسائل المرجعية إلى بني حجيم المطالبة بتحرير شيخهم الشيخ شعلان أبو الجون بالقوة؛ فتحريره بالقوة؛ فوصول رسالة زعماء الفرات الأوسط إلى الشيخ شعلان بنفاذ الصبر والحث على الثورة؛ فتسلمه الرسالة بيده من رسولهم في (١٤ شوال ١٣٣٨هـ/ ١ تموز ١٩٢٠م) بعد إخلاء سبيله من قبل أفراد قبيلته؛ فانطلاق ثورة العشرين في (١٥ شوال ١٣٣٨هـ/ ٢ تموز ١٩٢٠م).

***

٥. تحديد يوم انطلاق ثورة العشرين

مما تقدم أنتهي إلى أنّ انطلاق ثورة العشرين كان في (١٥ شوال ١٣٣٨هـ/ ٢ تموز ١٩٢٠م)، وليس في (٣٠ حزيران ١٩٢٠م) كما هو المتداول حاليّاً. ذلك أنّ يوم (٣٠ حزيران ١٩٢٠م) هو يوم تحرير الشيخ شعلان من أسر المحتلين بقوة سلاح بواسل عشيرته، وليس يوم الثورة. ولعل منشأ الالتباس بين التاريخين هو

عدم التفريق بين يوم تحرير الشيخ شعلان، ويوم اشتعال الثورة.

ويؤيد ما انتهيت إليه من أنّ الثورة انطلقت من الرميثة في (٢ تموز ١٩٢٠م) -إضافةً لِما تقدم بيانه سابقاً- ما ورد في رسالة بعثها السيد هبة الدين الشهرستاني إلى الشيخ فريق المزهر آل فرعون جواباً عن رسالته المؤرخة في (١٢ نيسان ١٩٤٠م) ذكر فيها السيد الشهرستاني أنّ "الحاكم الممثل لبريطانيا في كربلاء... أبعد نجل الإمام الشيرازي وجماعة من مشاهير الأحرار إلى هنجام... ولم تمضِ على هذه السياسة العوجاء الهوجاء عشر ليال حتى انتشر دخان البارود في الرميثة... وأدّى إلى ما تسمى بالثورة العراقية"[١]. فإذا عرفنا أنّ اعتقال ونفي الشيخ محمد رضا الشيرازي كان في (٥ شوال ١٣٣٨هـ/ ٢٢ حزيران ١٩٢٠م) عرفنا بعملية حساب بسيطة أنّ الثورة انطلقت في (٢ تموز ١٩٢٠م) وليس في (٣٠ حزيران ١٩٢٠م).

ويؤيد ذلك ما أورده لونكريك عن بداية اشتعال الثورة في الرميثة بقوله: "وقع حادث الرميثة في الأسبوع الأول من شهر تموز"[٢]. وما أشارت إليه الباحثة جويس ويلي بقولها: "وفي تموز ثارت عشائر الفرات الأوسط على الانتداب البريطاني"[٣].

***

٦. الرميثة تشعل الثورة في (٢ تموز ١٩٢٠م).

وهكذا قُدّر للرميثة بأن تشعل نار الثورة بـ"قلع سكة حديد البصرة - بغداد قرب الرميثة والسماوة، وحصار أفراد العشائر بصفة مطلقة دوائر الحكومة فيها، وفشلت الجهود البريطانية الأولى التي صممت للوصول إلى الرميثة"[٤] في (شوال

(١) الحقائق الناصعة في الثورة العراقية. سابق: ٥٤٤.

(٢) العراق الحديث من سنة ١٩٠٠ إلى سنة ١٩٥٠. سابق: ١/ ٢٠٢.

(٣) الحركة الإسلامية الشيعية في العراق. جويس ويلي: ٣٦.

(٤) العراق الحديث من سنة ١٩٠٠ إلى سنة ١٩٥٠. سابق: ١/ ٢٠٢.

١٣٣٨هـ/ بعد ٢ تموز ١٩٢٠م)؛ ما اضطر القائد الإنكليزي هيات حاكم بلدة الرميثة في محاولة فاشلة منه لرفع معنويات جنده إلى أن يأمر الملازم ماريوث بأن يهجم بالفصيلتين اللتين تحت قيادته على قرية ألبو حسان أو ألبو حسن كما يسميها الشيخ البصير، و"أن لا يتقيد بالأوامر الصادرة إليه، وأنه يجب عليه أن يحرق تلك القرية المعادية قبل الرجوع للمعسكر.

وألحقت هذه النصيحة بالفصيلتين أعظم الضرر؛ لأنّ العرب توافدوا من كل مكان، وعددهم يتراوح بين الألف والمائتين، والألفين، وحاربوا الفصيلتين فكانت خسارتهما ٤٣ قتيلاً"[١] وأعداداً من الجرحى.

***

٧. الجلاء عن مدينة النجف الاشرف

اختلف مؤرخو الثورة في تحديد يوم تحرير النجف الأشرف وجلاء الاحتلال عنها، ففي حين يؤكد المؤرخ النجفي الثبت الشيخ جعفر محبوبة -المُعايِش لتلك الحقبة الزمنية والشاهد عليها- بأنّ تحرير النجف الأشرف من الاحتلال الإنكليزي كان يوم الأحد (١٥ شوال ١٣٣٨هـ/ ٢ تموز ١٩٢٠م)[٢]؛ يذهب السيد محمّد علي كمال الدين المعاصر للحدث والشاهد عليه والنجفي أيضاً إلى أنّ تحرير المدينة المقدسة تم في: ليلة الثامن والعشرين من شهر شوال عام (١٣٣٨هـ)[٣]. وأنا أميل إلى الرأي الأول على تفصيل بين الرأيين والموازنة بينهما سيأتي لاحقاً.

***

٨. الانتصار في معركة العارضيات

ثم وبعد "أيام وقعت حادثة أخرى كانت أشد أثراً في تقوية معنوية الثوار. ففي مساء يوم (٦ تموز) وصلت إلى (العارضيات) التي تبعد بستة أميال عن شمال

---

(١) تاريخ القضة العراقية. سابق: ٢٠٥.

(٢) ينظر: ماضي النجف وحاضرها. سابق: ١/ ٣٦٥.

(٣) ينظر: ثورة العشرين في ذكراها الخمسين. سابق: ٨٧.

الرميثة قوة إنكليزية بقيادة الكولونيل مفيان قاصدة إنجاد حامية السماوة المحاصرة"[١]، فتصدى لها الثوار ببسالة رائعة وخطة محكمة أنزلت بالعدو ضربة قاصمة ربما كان لِهَولها أثر في غض بصر الجنرال هايدن عنها في كتابه التوثيقي لمجريات الحرب، رغم ورودها في أكثر من مصدر تاريخي موثق، بل ذكر الشيخ محمّد مهدي البصير المعاصر للحدث أنّ زعماء الثوار أكدوا وقوعها لنا أشد التأكيد، وأنّ الآنسة بيل ذكرتها استطراداً، وأنّ القائد هولدن مع صراحته لم يتعرض إلى ذكر الحادثة المشار إليها حتى كأنّها لم تكن . غير أنّ الوثائق البريطانية عن الثورة أشارت إليها إشارة عابرة بقولها: "إنّ قطار نجدة نزل من الديوانية إلى الرميثة استولوا عليه وأحرقوه"[٢].

أما تفاصيل الحادثة، فهي أنّ "الحكومة أرسلت قطاراً مدرّعاً من الديوانية إلى الرميثة لإنقاذ الحامية المحاصرة هناك ومساعدتها، وكان الثوار قد حفروا تحت السكة الحديدية في بقعة تسمى (العارضيات) واقعة بين الديوانية والرميثة هوّة سحيقة سقفوها بالقصب والتراب، وموّهوا حالة الخط بإعادته إلى ما كان عليه في الظاهر ليوهموا سوّاق القطر بأن السكة على حالها، فلما جاء القطار المذكور سقط في تلك الهوّة، وهجم الثوار عليه، وقد أكّد لنا قادة ذلك الهجوم أنهم قضوا على حياة كل من في القطار، وغنموا جميع ما فيه"[٣].

وهكذا بدأت انتصارات الثوار تتوالى، حيث "استطاع رجال القبائل الشيعية أن يستولوا على ستّة قطارات حديدية، وأن يخرجوها عن الخط الحديدي بين السماوة والديوانية، وفقد الجنود المحاصرون في الرميثة عدداً من القتلى والجرحى، كما أنّ كتيبة كانت أُرسلت لنجدتهم تكبّدت أيضاً خسائر فادحة، وكانت السلطات

---

(١) لمحات اجتماعية من تاريخ العراق الحديث. سابق: ٥/ ١/ ٢٢٥.

(٢) العراق في سجلات الوثائق البريطانية. المجلد الثاني ١٩١٨-١٩٢١. سابق: ٣٠٠.

(٣) تاريخ القضية العراقية. سابق: ٢١١-٢١٢. ط١. وقد تتبعت ذكر قضية القطار في كتاب المس بيل فوجدت كل ما قالته عن نتيجة التعرض للقطار: إنّه "أُسِرَ فأُحرِقَ". فصول من تاريخ العراق القريب: ٤٤٨.

العسكرية البريطانية تموّن الجنود المحاصرين في الرميثة من الجو. وقد فقدت (١٧٠) مائة وسبعين سيارة، كما أنّ القائد العام كان قد استنفذ جميع احتياطاته فأرسل يستنجد بالهند"[١]، واستمرت الرميثة المجاهدة تقاتل وحدها أياماً، وتُقدّم القرابين على مذبح الحرية والاستقلال التام الناجز، مما أثار أمر عدم نجدتها أو بالثورة معها امتعاض المرجع الأعلى الشيخ الشيرازي وتذمره ودعوته لنصرتها.

***

٩. مجزرة الرميثة الانتقامية

لقد قصف الإنكليز مدينة الرميثة قصفاً وحشيّاً بتسع طائرات لفك الحصار عن قواتهم المحاصرة بعد أن بدأ طعامها ينفد، عسى أن يشغل القصف المواطنين عن حصار الإنكليز، فيخرج الجنود المحاصرون ليستبيحوا المدينة فيقتلوا من يقتلوا من أهاليها، ويسرقوا ما شاءت لهم أهواؤهم أن يسرقوا الأقوات من أرزاق المدينة الثائرة.

"لقد كان ذلك اليوم في الواقع يوماً فظيعاً على سكان الرميثة، فحينما بدأت الطائرات بالقصف عليها خرج من السراي عدد كبير من الجنود وهم يحملون الأكياس والصفائح والبطانيات وصاروا يملؤونها بما يقع في أيديهم من مختلف أنواع الطعام. وكان يغطيهم في ذلك فصيلان من الجنود، "ويا ليتهم اكتفوا بالسلب والنهب عن قتل الأهالي الأبرياء، فقد قصدوا الرجال والنساء والأطفال الذي احتموا من هول قصف الطائرات بدار حصينة من دور الرميثة"، فجاء إليهم الجنود ووجهوا عليهم نيران بنادقهم ورشاشاتهم... حتى سالت الدماء إلى خارج الدار... والغريب أنّ الجنرال هالدن حين يشير إلى هذه المذبحة في كتابه يعتبرها من مظاهر النجاح الذي نالته الحامية في ذلك اليوم، فهو يقول إنّ جنود التغطية نجحوا في عملهم كنجاح الذين جمعوا الطعام، إذ هُم قتلوا من سكان البلدة عشرين دون أن يتكبدوا من جانبهم أية خسارة"[٢].

---

(١) دور الشيعة في تطور العراق السياسي. سابق: ١٧٩، وتنظر مصادره في الصفحة نفسها.

(٢) لمحات جتماعية من تاريخ العراق الحديث. سابق. ٥/ ١/ ٢٢٧ و٢٢٨ على التوالي، وتنظر هوامش الصفحتين.

١٠. معركة المحطة والقطار في السماوة

إثر انسحاب الجيش البريطاني من الرميثة والديوانية ليتجمع في الحلة، هاجم الثوار من أفرادٌ عشائر بني حجيم، وآل زياد، والبو جياش، وبني زريج، والأعاجيب، وبني عارض، وألبو حسان، حاميةَ السماوة الإنكليزية المحتلة بما يزيد عن عشرين ألف جندي، وحاصروها ما يزيد عن الشهرين، فخرج الجيش المحاصر في محطة القطار فاشتبك الثوار معه في معركة دامية وأبادوا أكثريته كما قتل منهم الكثير.

لقد وصف الشيخ فريق المزهر آل فرعون المعركة التي عنونها بأنها: "الواقعة التي أدمت كرامة الهيبة البريطانية" بقوله: "روى لي من أثق بصدقهم وهم أكثر من عشرة رواة بأنّ مياه الفرات من الجانب الأيمن لكثرة ما جرت فيها من دماء شهداء الثوار الأبرار والقتلى الإنكليز، استعصى على الناس الشرب منها مدة بضع ساعات، وبقيت في المحطة ثلاث عربات مدرعة محاصرة من قبل العشائر وفيها العدد الكبير من الضباط والجنود والعتاد الكامل، كما بقيت في المحطة عربات أخرى لم تحاصر بعد أن قُتل جميع ما (كذا) كان فيها على الإطلاق، فهجم الثوار على هذه العربات هجمة واحدة فأبادوا من كان فيها أجمعين، واستولوا على جميع ما كان في المحطة من ذخائر حربية ومؤونة وكانت غنائم الثوار في هذه الموقعة كثيرة جدّاً. وبعد انتهاء هذه المعركة الخالدة استولى الثوار على المحطة والقطار فأذاع القائد العام في بغداد منشوراً في جريدة العراق البغدادية بعددها المرقم (٨٢) الصادر بتاريخ (٦ أيلول ١٩٢٠)"[١] اعترف فيه بالمعركة الشرسة التي قاسوها هناك وأدت إلى خسارتهم قطاراً مسلحاً، من دون أن يذكر عدد القتلى ولا الأعتدة المستولى عليها.

***

(١) الحقائق الناصعة في الثورة العراقية. سابق: ٤٧٥-٤٧٦.

١١. الفرات يشتعل بالثورة

لقد وصلت خلال هذه الآونة رسائل سماحة المرجع الشيخ الشيرازي إلى رؤساء قبائل الفرات الأوسط، مجيبة على رسالة شيوخ العشائر إليه سائلة مرجعها عن موقفها الشرعي بعد أن باتوا يتعقبونهم ليلقوا القبض عليهم، وقد تضمن جواب سماحته حثّاً شديداً على وجوب الدفاع عن أنفسهم وحقوقهم المغتصبة، وبحرمة الرضوخ والاستسلام للعدو المعتدي المحارب بقوله الصريح الواضح: "إنْ أصرّ الإنكليز على غصبكم حقكم، وقابلوا التماسكم بالحرب، فيجب عليكم الدفاع بجميع قُواكم، ويحرم الرضوخ لهم والاستسلام"[١] -كما تقدم-، وصادف وصول جواب المرجعية وقت "ورود جيوش الإنكليز إلى الكوفة والحلة والهندية للتنكيل بالقبائل التي كانت تطالب الإنكليز بعهودهم ووعودهم في استقلال العراق، فالتحمت تلك القوى بالقبائل، وانتشرت كتب آية الله الشيرازي، ونشبت لظى الحرب بين الفريقين ووقع ما كنا نحذر"[٢].

لقد هبّت عشائر الفرات الأوسط الأخرى ملتحقة بالثورة المسلحة في الشامية والمشخاب، فرفعت رايات الثورة في (٢٤ شوال ١٣٣٨هـ/ ١١ تموز ١٩٢٠م)، وزحف شيوخها وقادتها وزعمائها من عشائر آل فتلة، والغزالات، وآل شبل، وآل إبراهيم على رأس جماهيرهم الثائرة إلى حامية (أبي صخير)، فحاصروها بمن فيها من جيش الاحتلال ما قُدّر عددهم بحوالي (٥٠٠) خمسمائة عند بعض المؤرخين و(٢٠٠) مائتي محارب عند آخرين، مع عتاد كثير.

وفي (٢٦ شوال ١٣٣٨هـ/ ١٣ تموز ١٩٢٠م) بات الإنكليز المحاصرون بحاميتهم في وضع لا يحسدون عليه، وشعر "الميجر نوربري الحاكم السياسي للواء الشامية والنجف بالخطر الذي بدأ يهدد الحامية المحاصرة في (أبو صخير)،

---

(١) لمحات اجتماعية من تاريخ العراق الحديث. سابق: ٥/ ١/ ٢٣٦ نقلاً عن (بطل الإسلام) المخطوط للشيخ محمّد الخالصي.

(٢) المصدر السابق نفسه.

ولا سيّما بعد أن قارب أرزاقها النفاد، فعمد إلى سياسة المكر والخداع لإنقاذها... فانتهز مجيء بعض رؤساء الشامية مع الكابتن الإنكليزي مين إلى الكوفة، وطلب إلى الحاج عبد المحسن شلاش وإلى معاونه عبد الحميد خان آل نظام الدولة أنّ يتوسّطا بين زعماء الثورة والحكومة لوقف القتال والمداولة في الحصول على نتيجة قد ترضي الطرفين، فعرض الوسيطان مقترحات الحاكم على الزعماء الذين كانوا في جبهات القتال، فقرروا قبولها، إلّا أنهم اشترطوا حضور أعضاء وفد الشامية والنجف للاشتراك في المفاوضات"[١].

ولذلك فقد كلف الزعماء "الحاج رايح العطية للشخوص إلى النجف ودعوة العلماء، وذهب معه عبد الحميد خان آل نظام الدولة، ورافقهما حاكم النجف أيضاً، فعرض الحاج رايح على شيخ الشريعة كل ما دار في الاجتماع، فاستدعى شيخ الشريعة كُلّاً من الشيخ عبد الكريم الجزائري والشيخ محمد جواد الجواهري للتفاوض في هذا الأمر... -فقال- الحاج رايح: إنّ الزعماء لا يريدون مخالفة أوامر رجال الدين، وإنّما يسيرون بآرائهم، ويسترشدون بهديهم. عند ذاك أمر شيخ الشريعة كُلّاً من الشيخ محمد جواد الجواهري والشيخ عبد الكريم الجزائري للتوجه إلى الميجر نوربري في الكوفة مع هيأة المفاوضة"[٢].

وبعد حضور ممثلي المرجعية كلّ من الشيخ عبد الكريم الجزائري والشيخ عبد الرضا الشيخ راضي والحاج عبد المحسن شلاش وانضمامهم إلى زعماء الثورة وقادة عملياتها الميدانية وحضور ممثلي حكومة الاحتلال كل من الميجر نوربري والكابتن مين وقائد الحامية في الكوفة؛ عقد الطرفان اجتماعاً نقل لنا تفاصيله أحد حضار الاجتماع فريق المزهر آل فرعون. ونظراً لطوله فسأقتصر على المهم منه، وكما يلي: "افتتح الميجر نوربري الاجتماع بقوله.. اعتقد أن حكومتي لا ترغب في سحق

(١) الثورة العراقية الكبرى. سابق: ٢٠٦، وينظر: ثورة العشرين في ذكراها الخمسين. معلومات ومشاهدات. سابق: ١٠٥ وما بعدها.

(٢) مذكرات الحاج عبد الرسول تويج: ١٣-١٤.

الحريات، وإنها عازمة على إعطاء العراق حقه دون حاجة إلى إراقة الدماء.. فأرجو أن تُعلِموني بما تريدون. فأجابه الشيخ عبد الكريم الجزائري: ".. أمّا قولك إنّ حكومتك لا ترغب في سحق الحريات فهذا قد يكون صحيحاً ولكن في غير هذه البلاد. أمّا في بلادنا فإنّنا نراها قد تحاملت على الأمة فضيّقت عليها وخنقت حرياتها الشخصية، حرية القول وحرية العمل، ويكفيك دليلاً على ما قلت ما فعلته حكومتك من نفي البغداديين والحاج مخيف ورفاقه، واعتقال نجل آية الله الشيرازي وأحرار كربلاء، وتبعيد أبطال الحلة، وقتل الأبرياء وشنقهم لمجرد مطالبتهم بحقوقهم التي أقرّتها دول العالم ومنها حكومتك التي تدّعي العدل والعطف على الحريات! أفهل كلّ هذا لا يُعدّ سحقاً للحريات وامتهاناً لكرامة البلاد وأهلها؟!.. وأمّا قولك بأنّ حكومتك ترغب في إحلال السلم، فليعلم الميجر بأنّ العراقيين يميلون إلى ذلك أكثر مما تزعم أنّ حكومتك ترغب فيه.. وأمّا قولك إنّك لا تعلم مطاليب الأمة.. فإنّي أقول لك بأنّك تعلم بمطاليب الأمة علم اليقين، وقد عُرضت عليك عدة مرات شفهيّاً وتحريريّاً.

فقال الميجر نور بري: على كل حال. أعلموني الآن ما تريدون. فبيّن له الزعماء والرؤساء أنّهم لا يريدون أكثر من الاستقلال التام"[1]، وبعد مداولات تم الاتفاق على ما يلي:

***

١٢. بنود هدنة الكوفة ونقضها من قبل الإنكليز

لقد نصّت بنود الهدنة الموقعة بين الحاكم الإنكليزي للشامية والنجف الميجر نوربري من جهة، وأهالي الشامية من جهة أخرى على ما يلي:

"**أولاً**: حصول العفو العمومي وعدم معاقبة كافة العراقيين وأهل العوجة والدغارة والشامية وغيرهم.

ثانياً: توقف الحركات العسكرية بجميع أقسامها وإصلاح سكة الحديد ونقل القوة العسكرية من مكان إلى مكان.

---

(١) الحقائق الناصعة. سابق: ٢١٥-٢١٦. وينظر: مذكرات الحاج عبد الرسول تويج: ١٣-١٤.

ثالثاً: إطلاق سراح المنفيين والمعتقلين جميعاً خصوصاً نجل مولانا آية الله الشيرازي.

رابعاً: تشكيل المؤتمر العراقي على النحو الذي طلبناه سابقاً.

حُرّر في ١ ذي القعدة ١٣٣٨هـ
الموافق ١٧ جولاي ١٩٢٠م"[١].

ثم طلب ممثل الحكومة المحتلة إمهاله أربعة أيام للذهاب إلى بغداد وسؤال قادته عن مقترحات الحل والعودة منها، وبموافقة الرؤساء والعلماء على ذلك عُقدت الهدنة في جبهات الثورة كلها لأربعة أيام ابتداء من (الأول من ذي القعدة ١٣٣٨هـ/ ١٧ تموز ١٩٢٠م) بشرط أن تقف الحكومة مكتوفة الأيدي عن كل عمل عسكري أو تعبوي أو غيره أيّاً كان، مقابل السماح بفك الحصار عن الحامية وإيصالها ومعداتها إلى الكوفة.

بيد أن الإنكليز -كدأبهم- بادروا بنقض الهدنة في يومها الثالث بعد التزام قادة الثورة بها، كما ورد في رسالة بعثها قادة الثورة من الجبهة إلى الحاج محسن شلاش في (٣ ذي القعدة ١٣٣٨هـ/ ١٩ تموز ١٩٢٠م) بما نصه: "إنّ المداولة التي تم عليها قرار العلماء والمندوبين والرؤساء هي اتخاذ الطرق التي تحقق مقاصدنا من دون سفك دماء مهما أمكن، ولأجله عُقدت الهدنة، ومن شروطها توقف الحركات الحربية التي التزمنا وألزمنا بها بني حسن وأرسلنا أولادنا وغيرهم في أطراف الكفل أن يوقفوا الحركات على جبهات الحلة، ولكن الطرف الثاني يظهر بأنّه غير ملتزم بهذا القرار حيث إنّ أخبار الرميثة التي وصلتنا هذه الساعة تقول إنّ العساكر مستمرة بهجومها من القطارات على العوجة، والأخبار التي وصلتنا

(١) ثورة العشرين في ذكراها الخمسين. معلومات ومشاهدات. السيد محمّد علي كمال الدين: ١١٣-١١٤، ووثائق الثورة العراقية الكبرى. سابق: ٣/ ٢٢٣. يذكر بأنّ اختلافاً وقع بين ما تقدم وبين ما أورده كتاب (الحقائق الناصعة: ٢١٦)، وقد اعتمدتُ النص أعلاه.

هذه الساعة بأنّ العساكر تواردت إلى الحلة، وإنّ قائد الكوفة بدأ عصر أمس يبني استحكامات حربية ويحفر الخنادق ليلاً، وفي فجر هذا الصباح خرجت من الجيش عدد من العربات يرافقها مائة جندي مسلح من الهنود ينقلون صخراً لأجل المباني الحربية"[١].

وهو ما يعني أنّ الهدنة لم تكن إلّا خُدعة من أجل فكّ الحصار عن حاميتهم بأبي صخير بعد أن أوشكت على التسليم، حينها ندم الثوار على عقد الهدنة مع من لا يلتزم بالعهود والمواثيق، وخاصة بعد إرسال قادة الثورة لرسولهم عبود الجسّار إلى الإنكليز ليذكرهم بهدنتهم وتعهدهم بالالتزام بها، فلم يكترث المحتلون له وبه.

***

١٣. انتصار المجاهدين في معركة الرارنجية

إثر ذلك انتشرت الثورة في الفرات الأوسط، وبدأت المدن تتهاوى بأيدي الثوار مدينة فمدينة، وموقعاً عسكريّاً محتلّاً فموقعاً، ونتيجة لذلك الانتصار الكبير، ولـ"تكاثر عدد الجيوش الثائرة حول الكوفة؛ عقد زعماؤه جلسة عسكرية هامة قرروا فيها ضرورة تقسيم الجيش إلى قسمين:

أ. يبقى محاصراً حامية الكوفة.

ب. يزحف إلى الكفل لتوسيع نطاق الثورة... زحف الجيش يوم (٥ ذي القعدة المصادف ٢١ تموز ١٩٢٠) قاصداً الكفل، فوصلها يوم ٦ صباحاً، وحالاً باشر بقلع وتخريب الخط الحديدي الموصل الكفل بالحلة... وعند بلوغ الجيش أراضي عشيرة (اطفيل) وفد عليهم مخبر أنّ الجيش الإنكليزي زحف من الحلة إلى الكفل"[٢]، فالتقى الجيشان في منطقة الرارنجية بين الحلة والكفل في (٨ ذي القعدة ١٣٣٨هـ/ ٢٤ تموز ١٩٢٠م) تلك المعركة التي انتصر فيها

---

(١) تنظر رسالة رئيس عشائر بني حسن عن خروقات المحتلين العسكرية للهدنة في: وثائق الثورة العراقية الكبرى. سابق: ٣/ ٢٢٧-٢٧٨.

(٢) مذكرات السيد محمد علي كمال الدين من رجال الثورة العراقية ١٩٢٠م: ١١٢.

الثوار انتصاراً كبيراً اعتُبر نقطة تحول كبرى في ثورة العشرين، ليس على صعيد انتصارات الثورة المتتالية على الأرض ورفع معنويات الزعماء وقادة الجيش الزاحف وجنوده فحسب، بل على صعيد المحتل جيوشاً عسكرية وحركات عملياتية وروحاً معنوية أيضاً.

وحاصل معركة الرارنجية أنْ: "أعد الكولونيل لوكن رتلا سُمّي برتل مانجستر بلغ عدد أفراده نحو (ثمانمائة).. تحرك هذا الرتل من الحلة في ٢٣ تموز.. وفي الساعة الواحدة من بعد ظهر اليوم التالي وصل الرتل إلى قناة الرستمية في أراضي الرارنجية.. فعسكر الرتل هناك للاستراحة.. وقبيل غروب الشمس في ٢٣ تموز فوجئ بالهجوم عليه من جهات ثلاث جنوباً وشرقاً وغرباً. وكان مرزوق العواد قد أبدى في الهجوم بطولة نادرة إذ هو قام بحركة التفاف بارعة أربكت التل الإنكليزي وأذهلته؛ فاضطر قائد الرتل إلى الإيعاز إلى جنوده بالانسحاب نحو الحلة في خلال نصف ساعة.. ونشبت معركة ضارية بالسلاح الأبيض استعمل الثوار فيها أسلحتهم التقليدية كالفالة والمكوار والخنجر، وأبدوا فيها استبسالاً وشجاعة تذكّرنا بما فعل أسلافهم في صدر الإسلام. استمرت المعركة نحو ستّ ساعات"[١]، وصفت بأنّها "كانت على أشد ما تكون الحرب سجالاً واحتداماً"[٢].

يقول السير آرنولد ولسون متحدثاً عن واقعة الرارنجية وخسائر جيشه الكبيرة فيها: "وبالنظر للتوزيع الخاطئ والإدارة المرتبكة تمكن العدو من الوصول إلى قرب المعسكر عند الغروب، وعند ذاك قرر القائد الرجوع إلى الحلة... فانقلب التقهقر إلى هزيمة... ولم يعد إلى الحلة في صباح اليوم الثاني إلّا أقل من نصفهم وقد كلّفنا التراجع (١٨٠) قتيلاً و(٦٠) جريحاً، وحوالي (١٦٠) أُخِذوا أسرى، مع خسائر جسيمة في وسائط النقل العربات والحيوانات، ولم يُعامل الأسرى

(١) لمحات اجتماعية من تاريخ العراق الحديث. سابق: ٥/ ١/ ٢٥٩.

(٢) ثورة العشرين في ذكراها الخمسين معلومات ومشاهدات. سابق: ١٣٦.

معاملة سيّئة في الأسر، فمن (٧٩) أسيراً بريطانيّاً لم يمت سوى أسير واحد في أيدي العرب"[١].

في حين ذكر السيد محمّد علي كمال الدين خسائرهم بأكثر من ذلك بكثير. أمّا الأسرى فقد بلغوا (١٥٠) وهو رقم أقل مما ذكره ويلسون كما في أعلاه غير أنّ السيد كمال الدين أضاف عن الأسرى بأنّ "أكثرهم من الإنكليز والباقي من الهنود، وقد اصطحب الثوار قسماً منهم في زحفهم على منطقة الهندية لغرض إثارة عشائر المنطقة ضد الجيش الإنكليزي المغلوب"[٢].

أما غنائم الثوار فقد كانت كثيرة جدّاً، من بينها (٥٢) رشاشاً وغيره من الأعتدة والتجهيزات العسكرية، بيد أنّ أهم ما تم الاستيلاء عليه في معركة الرارنجية ذلك المدفع (عيار ١٨ باوند) الذي استطاع الثوار بواسطته إغراق البارجة المصفحة (فاير فلاي) في شط الكوفة كما سيأتي.

لقد وصف الجنرال هالدن معركة الرارنجية بـ"الكارثة". أما المس بيل فقد كتبت في رسالة مؤرخة في (١٧ ذي القعدة ١٣٣٨هـ/ ٢ آب ١٩٢٠م) تقول فيها: "لا أستطيع التكهّن بما سوف يحدث، فإنّ واقعة أخرى كواقعة رجال مانجستر ستجلب عشائر دجلة إلى مشارف بغداد الجنوبية مباشرة. نحن الآن نعيش من اليد إلى الفم، أنا أعرف، وإنّ الوضع خطير، وربما صار أكثر خطورة إذا حدث أقل تمرجح في الكوفة"[٣].

لقد ظلت "كارثة" الرارنجية أو كارثة جيش مانجستر هذه لا تبارح ذاكرة

---

(١) الثورة العراقية. سابق: ١٠٤. تلاحظ اختلاف أرقام الأسرى عند ويلسون. كما يأتي الحديث مفصلاً عن حسن معاملة الأسرى الإنكليز عند الثوار بتوصية ملزمة من سماحة المرجع الأعلى وقائد الثورة حينها شيخ الشريعة الأصبهاني.

(٢) ثورة العشرين في ذكراها الخمسين معلومات ومشاهدات. سابق: ١٣٦و١٣٨.

(٣) لمحات اجتماعية من تاريخ العراق الحديث. سابق: ٥/ ١/ ٢٦٠ و٢٦٢ على التوالي. وتنظر هوامش الصفحتين. وينظر: العراق في رسائل المس بيل (١٩١٧-١٩٢٦): ١٨٢. والعراق الحديث من سنة ١٩٠٠ إلى سنة ١٩٥٠. سابق: ١/ ٢٠٢.

الجنرال هالدن القائد العام للقوات البريطانية في العراق حينها، فتقضّ مضجعه، فقد "كان يعيش أسوأ لحظات حياته التي عبّر عنها لاحقاً بعد أيام من معركة الرارنجية -بقوله- (من اليوم الذي جاءت فيه أخبار كارثة رتل المانجستر حتى الرسالة التي جاءت لتعلن عن وصول العميد كونينهام جسر الجربوعية، لا أتذكر في حياتي العسكرية أيّ فترة من القلق المتوحش، أقول أيّ فترة، وأعني ما أقول، حرمتني مقدار ساعة من النوم بمثل ما فعلت هذه الفترة من العام ١٩١٤ إلى الهدنة، فيما عدا إجازة لفترة قصيرة عابرة، لم أغب عن الجبهة الغربية أبداً، وعادة ما كان جنودي يسيطرون على أرض كانت تسمى بلغة تلك الأيام: (أرض محفوفة بالمخاطر)، لكن هذه الأيام الاثنا عشر في بغداد في العام ١٩٢٠ بدت لي كالسنوات، وتجاوزت تلك السنين الأبكر فيما فرضته من توتر نفسي)"[١].

لقد ولّدت معركة الرارنجية الظافرة وما سبقتها من انتصارات عزيمةً وقدرةً لدى قادة الثورة لخّصه إنذارٌ وجهه زعماؤها بتوقيع كل من السيد نور الياسري، وعلوان الحاج سعدون، والحاج محسن شلاش إلى قائد الحامية الإنكليزية المحاصرة في الكوفة جاء فيه: "إن الجيوش العربية قد زحفت نحو الأمام، فاحتلت الكفل وطويريج والحلة وكربلاء والمسيب وقطعت خطوط المواصلات الحديدية بين الحلة وبغداد، ثم إنّ قبائل الرميثة والديوانية طاردت جنودكم فاضطرّتهم إلى التقهقر وتخليتهم الرميثة والديوانية وعفك والدغارة، والآن محصورة في قوجان بين الحلة والديوانية منذ ثلاثة أيام، وقد قطعت خطوط السكة الحديدية بينهم وبين الحلة. وأما السماوة فقد احتلتها القبائل أيضاً وحاصرت جنودكم في المحطة شرقي البلدة، مقطوعة عنهم جميع الإمدادات والمواصلات، وربما تضطرّ إلى التسليم بعد قليل من شدة العوز.. فنحن نخاطبكم بلسان الإنسانية ونقسم عليكم بمبادئ المدنيّة أن تراعوا جانب الحق والإنصاف وتكونوا سبباً لإطفاء هذه الثائرة وتسلّموا

(١) ثورة العشرين. دراسة جديدة في ضوء الوثائق التاريخية. سابق: ١٤١-١٤٢ نقلاً عن كتاب هالدن: ١٤١.

أنفسكم سِلماً بلا حرب، وحقوقكم المدنية محفوظة لدينا لأنها من موجبات ديننا الإسلامي الشريف الذي علّمنا مبادئ الديمقراطية قبل أن تُعرف في العالم؛ تكونوا آمنين على حياتكم بشرف الإسلام والإنسانية"[١].

يذكر أنّ حصار حامية الكوفة التي كانت تضم (٧٥٠) رجلاً يرأسهم الميجر نوربري قد بدأ في (٥ ذي القعدة ١٣٣٨هـ/ ٢١ تموز ١٩٢٠م) واشتد فالتجأ جيش الاحتلال إلى استخدام باخرته الحربية (فاير فلاي) لحماية جنودها المحاصرين في الحامية بوابل من قذائفها على المدنيين؛ فقتلت رجالاً ونساء وخرّبت دوراً وأسواقاً وعاثت في الكوفة فساداً، ولم تكتفِ بذلك بل لجأت إلى ضرب النساء والأطفال والعجزة المتجمعين في مسجد الكوفة وعوائلهم، "وكان يومذاك تؤُمّه آلاف من النساء والأطفال والشيوخ والعُبّاد والمتنسكين"[٢]، وبينا هم في بيت الله "يتعبّدون الله ويقومون بفرائضهم الدينية على عادتهم في مسجد الكوفة إذ فاجأتهم السلطة البريطانية بإرسال سرب من الطائرات حامت على المسجد المذكور صبيحة يوم (٩ ذي القعدة ١٣٣٨هـ/ ٢٥ تموز ١٩٢٠م) فصبّت نيران رشاشاتها وقنابلها على المسجد ومن فيه.. فقتلت مقتلة عظيمة من هؤلاء واختلطت لحومهم بعظامهم بصورة وحشية تنكرها الإنسانية، بل تنكرها أصول الحرب التي تمنع الاعتداء على العزّل والأماكن الدينية المقدسة"[٣]، ولم يكتفِ الإنكليز المحتلون بذلك، بل "ألقوا القبض على باقي المستجيرين بالجامع الأعظم" بعد أن دخلوا "بخيلهم وكلابهم ومدافعهم إلى المسجد"[٤].

لقد دام حصار حامية الإنكليز في الكوفة "ثلاثة أشهر، وقد نفد القمح واللحم لدى الحامية في الأسابيع الثلاثة الأخيرة من الحصار؛ فصاروا يقتاتون على الرز

---

(١) وثائق الثورة العراقية الكبرى. سابق: ٣/ ٢٣٢-٢٣٣.

(٢) مذكرات الحاج عبد الرسول تويج: ١٧.

(٣) الكوفة في ثورة العشرين. سابق: ١١٠.

(٤) معارف الرجال. سابق: ٢/ ١٥٥ هامش من المؤلف.

ولحم الخيل.. وقد بذل الإنكليز خلال مدة الحصار عدة محاولات لإمداد الحامية بالأدوية وغيرها بواسطة الطائرات، ولكن كثيراً من الرزم التي ألقتها الطائرات وقع في أيدي الثوار أو سقط في النهر"[١].

ونتيجة لشدة الحصار ولعدم استطاعة الجيش الإنكليزي المحاصر التواصل مع قيادته لتبليغهم باحتياجات الضباط والجنود المحاصرين؛ فقد اضطروا إلى كتابة احتياجاتهم بأحجام كبيرة كي تصورها طائراتهم إلى القيادة عسى أن توصل إليهم مطالبهم من أكياس الدقيق والعقاقير التي تسقطها عليهم الطائرات إنْ لم تخطئهم فيستولي عليها الثوار، "والمتجول في أسواق الجسر يجد حتى اليوم فوق سقوفها عبارات بالحروف الإنكليزية الكبيرة تعريبها (نحن بحاجة إلى الأدوية).. وكانت القيادة الإنكليزية ترسل أوامرها إلى القوة المحصورة ضمن الرزم أيضاً، ولمّا استولى الثوار على إحدى هذه الرزم ذات يوم وجدوا فيها تعليمات من القيادة العليا وخططاً عسكرية وأخباراً كان من فائدة الثوار الاطلاع عليها ونشرها بين ظهرانيهم"[٢].

***

١٤. تحرير مدينة كربلاء المقدسة

لقد أعلنت كربلاء المقدسة الثورة بعد الانتصارات الساحقة في معركة الرارنجية، ففي (١٠ ذي القعدة ١٣٣٨هـ/ ٢٦ تموز ١٩٢٠م) تسلّم الثوار المدينة، وشكلوا لإدارتها مجلسَينِ تحت إشراف المرجع الأعلى الشيرازي، هما: المجلس العلمي من خمسة أعضاء برئاسة السيد هبة الدين الشهرستاني، والمجلس المِلّي من سبعة عشر عضواً، حيث مثّل المرجع الأعلى فيه الشاعر الثائر محمّد حسن أبو المحاسن. وقد وردت رواية أخرى بتشكيلهم ثلاثة مجالس فاصلة بعض مهام المجلس المِلّي إلى مجلسَينِ، وهي الأشهر.

(١) لمحات اجتماعية من تاريخ العراق الحديث. سابق: ٥/ القسم الأول: ٣١٩-٣٢٠.

(٢) الثورة العراقية الكبرى. سابق: ٢٧٥-٢٧٦.

١٥. تلكّؤ عمليات التحرير على أبواب الحلة

ولم تدُمْ فرحة المؤمنين بالانتصارات على مختلف الجبهات العسكرية طويلاً؛ فقد أخفق هجوم الثوار الذي شنّوه في (١٥ ذي القعدة ١٣٣٨هـ/ ٣١ تموز ١٩٢٠م) على الحلة من الجبهتين الجنوبية والغربية، "وكان هجوماً ضارياً أبدى فيه الثوار بسالة مذهلة، وقدموا فيه من التضحيات الشيء الكثير، وقد اشتهرت في هذا الهجوم عشيرة طفيل لِما أبدت فيه من استماتة منقطعة النظير.. وصارت تحتل شارعاً شارعاً وبيتاً بيتاً، وترفع أعلامها فوق سطوح الدور"، ورغم ذلك فقد خسر الثوار المعركة لخيانات حصلت ستأتي الإشارة إليها لاحقاً، ولعدم الخبرة الكافية في إدارة معركة بحجم هذه المعركة مع جيش من أقوى جيوش العالم ذلك الوقت.

وإذ وصل الخبر المؤسف إلى سماحة المرجع الأعلى الشيخ الشيرازي طلب من السيد هبة الدين الشهرستاني أن يكتب إلى السيد علوان الياسري مستفسراً عن الحالة على الأرض، فأجابه السيد علوان برسالة جاء فيها: لقد "وردتنا مكاتيب من ألبو سلطان تريد الهجوم على الحلة في تلك الليلة، ليلة الأحد المصادف ١٥ ذي القعدة ١٣٣٨هـ، وطبق خطتهم يكون هجومهم ممّا يليهم، ويكون هجومنا ممّا يلينا حتى يكون الهجوم عموميّاً والظفر من الله. بعد هذا الترتيب نحن حشّدنا للهجوم، ولكن ويا لَلأسف أن الوضعية من ألبو سلطان تغيّرت من دون إشعارنا.. أمّا القوة العائدة لنا فقد هجمت هجوماً عربيّاً وأزالت القوة العسكرية من مراكزها حتى دخلت الحلة، إلى أن أصبح الصباح واتضح لنا عدم هجوم ألبو سلطان، أمرنا بسحب قواتنا منصورين مؤيدين"[1].

ويبدو أن الرسالة تطمينية لسماحة المرجع الأعلى، فلم تورد الحقيقة كاملة، أو أنّ موقف الشيخ عدي الجريان رئيس ألبو سلطان لم يتضح لقادة الثورة حين كتابة الرسالة فظنّوا به خيراً، ثم انكشف لاحقاً أنّه مع الإنكليز ضد الثوار، ذلك أنّ د. الوردي بعد إيراده لِما تقدم ذكر أنّ عدّاي الجريان رئيس ألبو سلطان وعمران

(١) لمحات اجتماعية من تاريخ العراق الحديث. سابق: ٥/ ١/ ٢٧٠-٢٧١ و٢٧٢ على التوالي.

الزنبور رئيس بني عجيل من الرؤساء الموالين للإنكليز في الحلة، داعماً كلامه بما نقله عن مذكرات الدكتور سندرسن الطبيب العسكري الإنكليزي في الحلة أثناء الثورة، من أنّ الشيخين كانا يزورانه كل يوم تقريباً، مؤكدين دعمهما للإنكليز ضد الثوار تارة، ويحذّرانه أخرى من وجود بعض الزعماء الداعمين للثوار ويتظاهرون أمامكم بأنهم معكم كي يحصلوا على السلاح لدعم الثورة، ويطلبان من الدكتور إبلاغ خطورة ذلك إلى الميجر بولي حاكم الحلة، بل زادا على ذلك بأنْ زوّداه بأسماء هؤلاء الزعماء.

وما لنا نذهب بعيداً في أمر تبعية الشيخ عدّاي للإنكليز خلال الثورة، فهذه سجلات الوثائق البريطانية تثبت ذلك بقولها: "بذل الشيخ عدّاي شيخ ألبو سلطان قصارى جهده للحفاظ على السلم"(١).

يذكر أنّ موقع عشائر ألبو سلطان من المواقع المهمة لمعركة احتلال الحلة؛ ذلك أنّها "تمتلك جميع الأراضي الممتدة من شرقي الحلة إلى صدر نهر الدغارة، وفيها يمتد الخط الحديدي من جسر الجربوعية إلى منطقة الحلة"(٢).

***

١٦. وفاة المرجع الأعلى سماحة الشيخ محمّد تقي الشيرازي

بيد أنّ القدر لم يمهل كربلاء، ولا النجف الأشرف، ولا ثورة العشرين، ولا قادتها وثوّارها في جبهات القتال طويلاً، ولا العراقيين ولا المسلمين جميعاً، فقد انتقل مرجعهم الأعلى ومفجر الثورة الكبرى إلى رحمة ربه عند غروب شمس يوم (٣ ذي الحجة ١٣٣٨هـ/ ١٧ آب ١٩٢٠م)، فنعاه للثوار عموماً السيد هبة الدين الشهرستاني بقوله: "نعزيكم وعامة العالم الإسلامي بوفاة حجة الإسلام ورئيس العلماء الأعلام ركن النهضة العربية وروح الحركة الإسلامية الشيخ مرزا محمّد تقي الشيرازي قدس الله روحه ونوّر ضريحه، فقد أفلت شمس حياته القدسية

(١) العراق في سجلات الوثائق البريطانية. المجلد الثاني ١٩١٨-١٩٢١. سابق: ٣٠٠.

(٢) ثورة العشرين في ذكراها الخمسين. سابق: ١٤٨.

عند أفول شمس الثلاثاء ثالث ذي الحجة ١٣٣٨ بعدما حوى ثلاثين درجة من فلك عمره الشريف في إحياء العلم والدين، وإمحاء كيد الكافرين، بيد أنّ الذي تتسلّى به قلوب نادبيه، قوّة مباديه، واشتداد العموم على ما كان فيه، ولا ريب أنّ الإسلام حيّ بمن بقي بعده ممن ينهجون مسلكه من صحبه وجنده"[١].

لقد وردت روايتان في أمر وفاة المرجع الأعلى الشيخ الشيرازي؛ إحداهما تذهب إلى أنّه مات مسموماً من قبل الإنكليز[٢]، حيث "أُشيع في حينه أنّه دُسّ له السمّ من عميل بريطاني كان يعمل عطّاراً على مقربة من داره، ومنه كانت العقاقير الطبية تُشترى لمعالجته، وقد دُسّ بينها ما أدى إلى تسميمه وموته"[٣].

وتشير رواية أخرى إلى أنّ وفاته كانت إثر مرض ألـمّ به بضعة أيام بعد أن سمع ما سمع عن المآسي التي حاقت بالعراقيين من جرّاء مآسي الاحتلال وويلاته ومصائبه، وكيف أنّه شاهد ما شاهد من جنائز أولئك الشهداء المجاهدين الأبطال فأثّرت في نفسه وهدّت قُواه، ما قد يشي بأنّ وفاته كانت بسبب معاناته من ذلك، وهو ما قرّبه د. الوردي ناقلاً عن السيد جواد الشهرستاني عن أبيه السيد هبة الدين الشهرستاني قوله: "إنّ الشيرازي دخل ذات مرة إلى صحن الحسين لأداء الصلاة فيه، فشهد عدداً كبيراً من الجنائز التي جيء بها من جبهة القتال، فراعه ذلك، وظهر الألم على وجهه واضحاً. وكان ذلك آخر يوم يخرج فيه إلى الصلاة، إذ انهارت صحّته بعدئذ، ولزم فراشه، ثم مات بعد أيام"[٤]. وربما كانت وفاته نتيجة الأمرين معاً.

---

(١) لمحات اجتماعية من تاريخ العراق الحديث. سابق: ١/ ٢٩٩، نقلاً عن كتاب. فريق المزهر آل فرعون: ٣٥٣-٣٥٤. ويلاحظ في كتاب نعي سماحة المرجع الأعلى تركيز رفيق دربه على "إحياء العلم والدين، وإمحاء كيد الكافرين" و"قوة مبادئه"، وقد يقصد بها السيد هبة الدين عادة: الاستقلال التام وحق تقرير المصير للعراقيين لتشكيل دولة إسلامية دستورية، على يد من "ينهجون مسلكه من صحبه وجنده"؛ وذلك لِما هو معروف من تبنّي المرجع الراحل والناعي وكبار صحب الفقيد وشيوخ جنده لذلك. والله العالم.

(٢) الإمام الشيخ محمّد تقي الشيرازي يشكل الحكومة الإسلامية. فريق المزهر آل فرعون: ٧١.

(٣) الشيخ محمد تقي الشيرازي القائد الأعلى للثورة. العراقية الكبرى ١٩٢٠. كامل سلمان الجبوري: ٤٣.

(٤) لمحات اجتماعية من تاريخ العراق الحديث. سابق: ١/ ٢٩٩.

يقول كاتبه الشيخ محمّد الخالصي: "ولمّا ثقلت حاله، خشيت انحلال الجيش بعده؛ فمضيت إلى النجف لأخبر بحاله عسى أن يقوم مقامه من يدبّر الجيش، فلم يكن في النجف غير شيخ الشريعة الأصفهاني، فطُبع منشور يتضمّن دعوة الناس إلى شيخ الشريعة بعده. وحين توفي نشرت تلك الدعوة"[١].

ولم يذكر الشيخ الخالصي بمن اجتمع في النجف الأشرف، ومن أخبرهم من العلماء بمرض المرجع الأعلى، كما لم يذكر من طبع المنشور بدعوة الناس إلى تقليد واتباع أمر شيخ الشريعة بعد وفاة المرجع الأعلى.

كما لم أعثر -في حدود اطلاعي- على من أشار إلى إعداد ورقة وطباعتها بدعوة الناس إلى تقليد المرجع الأصبهاني غير الشيخ الخالصي.

علماً بأنّ المرجع الأعلى الشيخ الشيرازي كان قد أرجع في احتياطاته إلى أكثر من مرجع واحد من المراجع[٢]، مضافاً إلى شهرة شيخ الشريعة العلمية الواسعة بين علماء حوزة النجف الأشرف وقتئذ، وأستاذيّته المعروفة وقِدَم طبقة العلمية، واقتران توقيعه مع توقيع المرجع الأعلى الشيخ الشيرازي في رسائلهما المرسلة إلى عصبة الأمم وإلى الرئيس الأمريكي ورؤساء الدول العظمى ذلك الوقت وغيرهم، ناهيك عن تصدّيه المبكر للشأن العام ومشاركته شخصيّاً في سوح الجهاد والمنازلة. كل ذلك يجعله أهلاً لتحمل المسؤولية.

ثم كان أنْ أرسل ولسون رسالة إلى المرجع الأعلى الخلف شيخ الشريعة الأصبهاني بعد وفاة المرجع الأعلى الشيخ الشيرازي يعرض عليه التفاوض لإيقاف الحرب. وسيأتي الحديث مفصلاً عنها وعن اختلاف آراء مستشاريه فيها في الفصل القادم.

❀ ❀ ❀

(١) بطل الإسلام مذكرات الشيخ محمّد الخالصي: ١٨٠-١٨١.

(٢) محمد تقي الشيرازي القائد الأعلى للثورة العراقية الكبرى ١٩٢٠. سابق: ٤٢. نقلاً عن أسرة المجدد الشيرازي. نور الدين الشهاهرودي: ١٨٨-١٨٩. والزعيم الموهوب. سابق: ٥٠٠-٥٠١.

المبحث الثاني

مناطق الثورة من تولي المرجع الأعلى الخلف سماحة شيخ الشريعة الأصبهاني إلى نهايتها

وفيه سبع نقاط سأتناولها تباعاً

١. تولّي المرجع الأعلى الخلف شيخ الشريعة الأصبهاني قيادة الثورة

بعد أن اختطفت يد المنون المرجع الأعلى وزعيم الثورة سماحة الشيخ الشيرازي؛ "قدّم جماعة من الوجوه العلمية" المرجع النجفي المجاهد الشيخ فتح الله بن محمّد جواد النمازي الأصبهاني النجفي، المعروف بـ(شيخ الشريعة الأصبهاني)، وكان "فقيهاً بارعاً وأصوليّاً محققّاً رجاليّاً، علّامة في العلوم العقلية والنظرية والرياضيات"[1]، وأحد كبار دعاة الحركة الدستورية في النجف الأشرف، والمفتي بالجهاد سنة (١٣٢٩هـ/ ١٩١١م) عند هجوم روسيا على إيران، وعند غزو إيطاليا للبلد العربي المسلم ليبيا، وعند احتلال بريطانيا للبصرة سنة (١٩١٤م)، بل كان في طليعة المجاهدين بنفسه ضدهم، وقد تولّى قيادة إحدى الجبهات العسكرية فيها رغم كبر سنه وشيخوخته.

ولم يكتفِ بذلك بل توجّه إلى الكاظمية بعد فتوى الجهاد الثانية التي أصدرها المرجع الأعلى السيد اليزدي لمحاولة صدّ المعتدي الإنكليزي عن احتلال بغداد.

وبمجرد أن تولى سماحة شيخ الشريعة الأصبهاني المرجعية العليا أصدر بياناً إلى المسلمين المجاهدين بتاريخ (٢ ذي الحجة ١٣٣٨هـ/ ١٧ آب ١٩٢٠م) ينعى فيه إليهم مرجعهم الأعلى، ويحثّهم على الجهاد، بل يدعوهم إلى الزيادة فيه، قائلاً: إن المرجع الأعلى الشيخ الشيرازي قد "قضى نحبه والتحق بربّه بعد أنْ أدّى حق وظيفته، وقام بها حسب طاقته، فلا تكن رحلته فتوراً في عزائمكم، وتوانياً في

(١) معارف الرجال. سابق: ٢/ ١٥٤.

عملكم، فالجدّ الجدّ حُماة الدين وأعضاد المسلمين، والنشاط النشاط، وزيدوا على ما كنتم عليه أوّلاً من الدفاع الذي أوجبناه عليكم من قبل، واصبروا وصابروا يثبت الله أقدامكم.."[١].

وثنّى سماحته على رسالته الأولى فأرسل رسالة إلى المجاهدين في الجبهة العسكرية -كلّ من: السيد نور الياسري، والسيد علوان الياسري، ومن لديهم من المسلمين المجاهدين على خط النار، بعد تعزيتهم بفقد مرجعهم الشيرازي- قوله: ".. فكونوا ثبّتكم الله بنياناً مرصوصاً، وتساندوا جسماً واحداً قبال هذا العدو الذي لا يرقب إلّاً ولا ذِمّة، ألَا وإنّا نوجب عليكم الآن كما أوجبنا عليكم من قبل الدفاع عن حرمات الله ورسوله، وعن شرف الإسلام، ويناسب في هذا أنْ ترموا مدفعين أو أكثر لتنشيط العزائم"[٢].

كما عقد بعض كبار العلماء المتصدّين "اجتماعاً كبيراً في صحن النجف حتى امتلأ الصحن بالناس، وجيء بالأصبهاني محمولاً لكبر سنّه، فأُصعد على المنبر، ووقف إلى جانبه الشيخ جواد الجواهري، والسيد محمّد علي بحر العلوم، والسيد محمّد رضا الصافي لينقلوا كلامه إلى الجماهير المحتشدة، فكان الجواهري ينقل كلامه إلى بحر العلوم، وهذا بدوره ينقله إلى الصافي، وكان الصافي يعلن الكلام للناس؛ لأنّه كان جهوري الصوت. وكان ممّا قاله الأصبهاني في خطابه: إنّ الشيرازي انتقل إلى رحمة ربّه، ولكنّ فتواه بقتال المشركين باقية، فجاهدوا، واجتهدوا في حفظ وطنكم العزيز، وأخذ استقلالكم. ثمّ قال الأصبهاني: إنّه لعجزه عن الذهاب إلى ساحة القتال، فقد أناب عنه المرجع السيد أبو الحسن الأصفهاني ليقوم مقامه فيها.

وعندها تسلّم السيد أبو الحسن الأصفهاني الراية، وقصد المرقد العلوي لأداء الزيارة، ثم غادر النجف عصراً قاصداً جبهة الوند، وكان في صحبته السيد مصطفى

(١) وثائق الثورة العراقية الكبرى. سابق. تنظر الرسالة المصورة في: ٣/ ٢٦٤.

(٢) المصدر السابق: ٣/ ٢٦٧.

الكاشاني[١]، وابنه السيد أبو القاسم، والسيد محمّد رضا الصافي"[٢].

ومن الغريب بعد كل ما تقدم في بيانات المرجع الأعلى شيخ الشريعة الأصبهاني بوجوب استمرار الثورة المسلحة، ومواقفه المعلنة المتشددة ومضامين رسائله المرسلة إلى وكلائه في المدن وقادة الجبهات الموجبة عليهم استمرار العمل بفتواه بالجهاد، ورفضه التفاوض مع المحتل لإحلال السلام تحت الاحتلال من دون تحقيق مطالب الشعب والوطن كاملة غير منقوصة؛ أن يذهب صاحب كتاب «ثورة ١٩٢٠ الجذور السياسية والفكرية والاجتماعية للحركة القومية العربية (الاستقلالية) في العراق» -وهو يتحدّث عن موقف شيخ الشريعة الأصبهاني من الثورة المسلحة- إلى أنّ سماحته "لم يؤيد فتوى الشيرازي بالدعوة إلى الجهاد" رغم أنّه "قد ساهم في الجهاد الذي أعلن ضد الإنكليز بعد غزوهم للعراق، إلّا أنه تفاهم معهم بعد ذلك"[٣]، وهو رأي لا يستحق الوقوف عنده أو مناقشته بعد كل ما تقدم، خاصة وأنّ المتتبع لمواقف سماحته قد يذهب إلى ما ذهب إليه د. النفيسي بقوله عن المرجع شيخ الشريعة الأصبهاني بأنّه "كان يقول باتباع سياسة أكثر عنفاً ضد الإنكليز"[٤].

***

٢. سعة نطاق المناطق المحررة

لقد استطاعت الثورة أن تحرر المدن والقرى والأرياف فتبسط سيطرتها "على منطقة واسعة تشمل الشامية، والرميثة، والديوانية، وجميع الأراضي الواقعة بينها

(١) توفي السيد مصطفى الكاشاني في الكاظمية سنة ١٣٣٦هـ. ووجود اسمه ضمن من خرج إلى الجهاد في ثورة العشرين اشتباه من الكاتب.

(٢) المصدر السابق، نقلاً عن كتاب مخطوط بعنوان (السيد أبو الحسن الموسوي الأصفهاني) للشهيد عبد الرحيم محمّد علي. والثورة العراقية الكبرى. للحسني: ٢٣٤.

(٣) ثورة ١٩٢٠ الجذور السياسية والفكرية والاجتماعية للحركة القومية العربية الاستقلالية في العراق. سابق: ٣٩٤ و١٢١.

(٤) دور الشيعة في تطور العراق السياسي الحديث. سابق: ١٨٦.

وبين الحلة، مع طويريج وكربلاء، والنجف، والكوفة.. وسدة الهندية"[١]؛ فعمّت بتحريرها الفرات الأوسط كله، حتى "باتت بغداد مهددة بخطر الحصار... وقطع الخط الحديدي بين بغداد والحلة، وشرع الثوار يهاجمون المحمودية، ونادى بعض عشائر اليوسفية بالثورة[٢]، حتى بلغ قلق المحتلين من سقوط بغداد بيد الثوار مداه بعد أن "وصل ثوار أهالي اليوسفية بقيادة المرحوم علوان الشلال إلى أم الطبول قرب جسر الخر، وهناك حصّن الإنكليز بأمر قائد الحامية الكولونيل سندرسن الذي أمره القائد العام (كذا) مدينة بغداد من جميع أطرافها بالأسلاك الشائكة والروابي المعززة بالمدافع والرشاشات والجنود خوفاً من هجوم الثوار واحتلالها؛ لذلك تعطلت الأشغال في بغداد عدة أيام، إذ أصبح الإنكليز يحسبون لسقوطها بيد الثوار أقرب الحساب"[٣].

***

٣. الثورة في لواء الرمادي وتحرير الفلوجة ومقتل الكولونيل لجمن وانتهاؤها

وأما في لواء الرمادي فقد قتل الشيخ ضاري المحمود[٤] رئيس عشيرة (زوبع) وولداه خميس وسليمان الحاكم للواء الدليم (لجمن) يوم الخميس (٢٧ ذي القعدة ١٣٣٨هـ/ ١٢ آب ١٩٢٠م) في واقعة ذكرتها سجلات الوثائق البريطانية ناقلة عن العشائر حسب زعمها ما يلي: "يقول أبناء العشائر إنه -الكولونيل لجمن- التقى ضاري قرب كسر سكة الحديد على هذا الجانب من الفلوجة، فوجّه للسماح

(١) تاريخ القضية العراقية. سابق: ١٢٩ من الطبعة الثانية.

(٢) المصدر السابق: ١٣٣.

(٣) الحقائق الناصعة في الثورة العراقية. سابق: ٤٠١.

(٤) الشيخ ضاري المحمود، برز على مسرح أحداث ثورة العشرين بعد أن قتل قائد الجنرال لجمن في كمين نصبه له بمنطقة خان نقطة بعد أن أهانه الكولونيل الإنكليزي بكلمات شديدة نابية، فهبّت حمية الشيخ ضاري واستشاط غضباً فأحضر ولديه (خميس وسليمان) اللذين كانا في مكان قريب منه فأطلقا النار على الضابط الإنكليزي فأرديا صريعاً، ثم أجهز عليه الشيخ ضاري بسيفه، كما قتلوا مرافقه أيضاً. توفي سنة ١٩٢٨م.

بمثل هذا العمل، ولمّا رد ضاري عليه ردّاً وقحاً يقال إنّ الكولونيل ليجمن ضربه بعصاه فقتله خادم ضاري"[١].

فكان مقتل ليجمن فاتحة للثورة في الفلوجة، حيث "هجمت عشائر (زوبع) يوم الجمعة (٢٨ ذي القعدة ١٣٣٨هـ/ ١٣ آب ١٩٢٠م) ومعهم أحلافهم من (تميم) برئاسة علي المعيدي، على قلع سكة الحديد بين بغداد وسامراء، وبذلك قطعوا خطوط المواصلات ما بين بغداد والموصل، حيث أوقفوا النجدة البريطانية التي صارت تَرِد من الشمال، غير أنّ الشيخ ضاري رأى أنّ الموقف يحتاج إلى إعداد واسع ومقاومة تناسب قوة العدو، فقصد دار مشوح الجاسم رئيس عشيرة (الجميلة)، وكلمه في الأمر واتّفقا على دعوة رؤساء (البو عيسى) ووجوه العشائر الأخرى، وعند الاجتماع قال لهم: إنّ علماء الدين أمروا بجهاد الكافر وأخرج لهم صورة فتوى الشيرازي ورسالته العامة إلى مشايخ العراق، وحيث إنّنا مسلمون متبعون لأوامر رجال الدين؛ فيجب علينا الجهاد والدفاع عن النفس والوطن، وكان الأستاذ محمود رامز معهم فقد أحضر القرآن الكريم وحلّفهم به على مواصلة القتال، واستمر الشيخ في تنظيم المجاهدين أربعة أيام، كان الجيش البريطاني في صراع مع باقي العشائر التي أحاطت به وأغرقت منه خمس بواخر مليئة بالعتاد والذخائر"[٢].

غير أنّ الشيخ ضاري بعد تلقّيه تهديد الشيخ علي السليمان له في أول أيلول برسالته التي جاء فيها: "إنّي وعشائري لا أشترك معك في الثورة ضد الإنكليز مطلقاً، ومهما كلّفني الأمر، وإنّي أنذرك لمدّة أربع وعشرين ساعة أن تخرج خلالها من ديار الدليم؛ انسحبَ من أراضي الدليم هو وباقي العشائر خلال ثمان ساعات ورجع إلى دياره قرب خان النقطة"[٣].

---

(١) العراق في سجلات الوثائق البريطانية. سابق. القسم الثاني: ٣٥٧.

(٢) ثورة العشرين في ذكراها الخمسين معلومات ومشاهدات. سابق: ٢٥٨-٢٥٩.

(٣) المصدر السابق: ٢٥٩.

ويشير د. متي عقراوي إلى حجم مشاركة لواء الدليم بقوله: "بقي معظم لواء الدليم هادئاً"[١].

ومعروف عن الشيخ علي السليمان تعاونه مع الإنكليز، وقد تحدثت عن موقفه هذا المس بيل في رسائلها قائلة عن دوره وعنه: "شيخ مشايخ الدليم.. وقف بجانبنا بثبات خلال الاضطرابات كلها وأبقى عشيرته هادئة ساكنة"[٢]، وبه وبغيره من العديد من الشيوخ الكبار "تمت السيطرة على أعالي الفرات بمساعدة شيوخ الدليم وعنزة"[٣] قبل مقتل العقيد البريطاني لجمن.

***

٤. الثورة في ديالى

أما في لواء ديالى فقد نشط الشيخ حبيب الخيزران[٤] شيخ قبيلة العزة نشاطاً جيداً، وكان قبل ذلك قد شحن أهالي ديالى بروح الثورة كلٌّ من: "السيد حبيب العيدروسي الذي كان بمثابة حلقة اتصال بين رؤساء بعقوبة وزعماء الحركة الوطنية في بغداد؛ ومحمود أفندي المتولي الذي كان بيته مقرّاً للاجتماعات، ومنه كان الإيذان بالثورة؛ والسيد صالح الحلّي الخطيب الكبير، وقد استدعي في رمضان لقراءة التعزية في بعقوبة فقام بواجبه الشرعي في تحريض الناس على الثورة، والسيد الحلي معروف بملكته الخطابية ومقدرته الخطابية؛ والشيخ حبيب الخالصي وكيل الشيخ مهدي -الخالصي أحد مراجع وزعماء ثورة العشرين، ومقره- في دلتاوة -الخالص-، الذي كان يتلقى الأوامر من الشيخ مهدي ويبلّغ بها مقلدي

(١) العراق الحديث. سابق:١/ ٤٢.

(٢) العراق في رسائل المس بيل. سابق: ٢٧٨.

(٣) العراق الحديث من سنة ١٩٠٠ إلى سنة ١٩٥٠. سابق: ١/ ٢٠٤.

(٤) الشيخ حبيب بن عبد الله بن محمّد الخيزران: رئيس عشيرة العزة إحدى عشائر زبيد في العراق، ولد سنة (١٨٨٩م)، نشط في صفوف الحركة الوطنية المطالبة باستقلال العراق من الاحتلال الإنكليزي له سنة (١٩١٤م)، وكان من مؤسسي الجمعية الوطنية الإسلامية في بعقوبة ومن قادة ثورة العشرين في ديالى، وله دور مشهود في تحرير بعقوبة وامتداد الثورة إلى كركوك. توفي سنة ١٩٣١م.

الشيخ؛ فكان له الأثر في اندلاع الثورة؛ والشيخ حبيب الخيزران"[١] الذي التقى في بغداد ببعض وطنييها وأحرارها فاتفقوا معه على جدوى القيام بالثورة المسلحة لأهمية موقع ديالى العسكري؛ كونها تسيطر على خط الإمداد العسكري للجيش الإنكليزي من إيران، وأنّ تحريرها سيحول بين وصول الإمدادات لتساعد قوات الاحتلال على إخماد ثورة الفرات الأوسط الملتهبة.

وإذ اقتنع الشيخ الخيزران بذلك استطاع اقناع رؤساء العشائر الآخرين على مهاجمة واحتلال بعقوبة وإخراج حاكمها منها. حينها قفل الشيخ الخيزران راجعاً من بغداد إلى مقره "في قضاء دلتاوة رأساً، وجمع يوم وصوله طائفة من زعماء عشيرته وزعماء العشائر المجاورة، فتحالف معهم على أن يشدّوا أزر بعضهم ويسهروا كل السهر على أموال الناس وأرواحهم فيما إذا شبّت نيران الثورة في منطقتهم، وما كاد ينفرط عقد ذلك الاجتماع حتى وردت الأخبار بأنّ الناس هجموا على بعقوبة فخرج الحاكم السياسي منها وقبض المهاجمون على زمام البلدة"[٢].

لقد كان الشيخ حبيب الخيزران في "طليعة الثوار؛ إذ هجم هو بنفسه على سراي الحكومة فأسر الكابتن (لويد) حاكم دلتاوه ووكيل حاكم بعقوبة والميجر (أسترخن) أحد موظفي دائرة الري، وموظفاً آخر، أخذهم معه إلى قرية (دلي عباس)... -إنّ- الهجوم الذي أسفر عن تحرير مدينة بعقوبة من السلطة المحتلة قد حدث (كذا) اليوم السادس من شهر آب ١٩٢٠، وفي ذلك اليوم هجم حبيب الخيزران وبقية رؤساء لواء ديالى مع رجالهم على سكة الحديد، فقلعوا قضبانها في اليوم التاسع من الشهر المذكور...، وفي يوم ١٢ آب تقدمت العشائر إلى مركز قضاء (شهربان) وأتو (كذا) إلى الحاكم (الكابتن رايتلي) وطلبوا منه بأن يسلّمهم القضاء بما فيه وهو أمين على نفسه وجماعته، فأبى أن يسلّم للثوار وبقي محاصراً ثلاثة أيام بلياليها كان القتال فيها قائماً على قدم وساق، وفي (-١٦- آب ١٩٢٠،

(١) مقدمة كتاب: في قبضة العرب لزيتون بوكانن. بقلم كامل سلمان الجبوري: ٥.

(٢) تاريخ القضية العراقية. سابق: ١/ ٢٣٥-٢٣٦. ط١.

الموافق ١ ذي الحجة ١٣٣٨) سقط سراي الحكومة بأيدي الثوار، بعد أن قتل الحاكم رايتلي وقائد القوة والمستر بوكانن والسر جون ميجر نيوتن، وكذلك قتل معهم آخرون من أفراد القوة"[١].

لقد ذهب الباحث كامل سلمان الجبوري إلى أنّ الثورة في شهربان إحدى مناطق ديالى قد بدأت "في (١٤ آب ١٩٢٠م/ ٢٩ ذي القعدة ١٣٣٨هـ) بهجوم عشيرة بني تميم برئاسة حميد الحسن على البلدة، وهبّ أهل البلدة للتعاون معها، وتوجهوا جميعاً نحو القشلة، وأخذوا يطلقون عليها نيران بنادقهم. لم يشأ البريطانيون في شهربان أن يستسلموا للثوار، بل صمّموا على القتال؛ فتحصنوا في القشلة وصاروا يطلقون النار منها على الثوار... استمرت المعركة بضع ساعات وانتهت عند حلول الظلام باستيلاء الثوار على القشلة، فنهبوا كل ما فيها ثم أشعلوا فيها النار"[٢].

والأصح حسب مذكرات الشاهدة الإنكليزية الأسيرة زيتون بوكانن أن الثورة في شهربان قد بدأت وانتهت "في الثالث عشر من شهر آب ١٩٢٠"[٣].

لقد سرت الثورة من شهربان "على طول الخط إلى خانقين..، فقد هاجم كثير من أفراد القبائل.. بلدة شهربان (المقدادية)، وقتلوا جميع موظفي الدائرة السياسية فيها، وهم ستة من ضمنهم ضابط الري وكابتن تُناط بعُهدته شؤون الشبانة"[٤].

وإذ تذهب المس بيل إلى أنّ قتلى الإنكليز في معركة القشلة ستة قتلى كما تقدم، تقول زيتون بوكانن الأسيرة البريطانية في المعركة نفسها: إنّ القتلى "خمسة بريطانيين في شهربان"[٥]، وهو الصحيح.

---

(١) الحقائق الناصعة في الثورة العراقية. سابق: ٣٢٤-٣٢٥.

(٢) مقدمة كتاب: في قبضة العرب. مذكرات الأسيرة الإنكليزية زيتون بوكانن. بقلم كامل سلمان الجبوري: ٦-٧.

(٣) في قبضة العرب: ١٧٣.

(٤) العراق في رسائل المس بيل (١٩١٧-١٩٢٦). ترجمة وتعليق: د. جعفر الخياط: ١٨٩.

(٥) في قبضة العرب. مذكرات الأسيرة الإنكليزية زيتون بوكانن: ١٧٣. و١٦٦ و١٦٩.

لقد اشتركت العشائر التالية في لواء ديالى وسامراء، وهي: "عشائر العزّة برآسة[١] حبيب الخيزران، وبنو تميم برآسة حميد الحسن... والكرخية برآسة المرحوم مخيبر، كما اشتركت بعض العشائر الأخرى من عشائر اللواء، وفي سامراء اشتركت عشيرة الجبور برآسة عبد الحميد السلامة، والمجمع برآسة علوان المحمد، وبنو تميم برآسة حاتم الهذال، والعزة برآسة لفته الهيلان... كما أنّ علي[٢] الكريم رئيس ألبوا[٣] عيسى جاء بعشائره لمساعدة الإنكليز واصطدم مع الثوار فحال ذلك دون تحرير سامراء والفتك بالحامية الإنكليزية"[٤].

كما كان لجهود السيدين: كلّ من السيد محمّد الصدر، والسيد صالح الحلي، بالإضافة إلى: حبيب العيدروسي ومحمود المتولي؛ دور مؤثر في توعية أهالي بعقوبة للقيام بالثورة. وقد نجح الشيخ حبيب الخيزران في مسعاه، وبعد مدة قصيرة استطاعت حكومة الاحتلال من استرجاع سيطرتها على بعقوبة بعد أن حررها الثوار "وشكلوا حكومة مؤقتة، وعيّنوا محمود المتولي حاكماً، وقد التحق بهم الضابط شاكر محمود قنبر علي فصار ينظم الثوار على قدر المستطاع كما أنّ هناك شخصية أخرى قامت بدور هام في الاتصال بين عشائر اللواء والقائمين بتدبير أمور الثورة في بغداد، وهو: سعيد حمزة الملقب بسعيد سارة، كما اشترك في التحريض على الثورة وإدامة مدتها: مكي الأورفه لي، وعبد اللطيف الفارس"[٥].

ومن طريف ما حدث للشيخ حبيب الخيزران خلال سيطرته ومن معه على بعقوبة، أَنِ استطاع اعتقال الضابطين البريطانيين الكابتن لويد والميجر استرخن فأسكنهم وأحسن ضيافتهم وهيأ لهم وسائط الراحة التامة.

وينقل الشيخ محمّد مهدي البصير عن الشيخ حبيب الخيزران بعد لقائه به

---

(١) هكذا وردت في النص، وكذا ست مرات أخرى بعدها.

(٢) هكذا وردت في النص.

(٣) هكذا وردت في النص.

(٤) الحقائق الناصعة في الثورة العراقية. سابق: ٣٢٩-٣٣٠.

(٥) المصدر السابق: ٣٣١.

قوله: "إنّ الكابتن لويد عرض عليه رشوة قدرها (٤٠) ألأف (كذا) روبية على أن ينفق بعضها في سبيل إخماد نيران الثورة، فأجابه الشيخ المذكور بأنّ الأربعين ألأف روبية مبلغ لا بأس به، غير أنّه لا يودّ بوقت من الأوقات أن يُتاجر بكرامة الوطن وأبنائه"[١].

ورغم هذه الروح الوطنية الوثّابة فإنّ الثورة لم تدم طويلاً في ديالى، ولم تدم "الإدارة التي أنشئت في مندلي في أوائل سنة (١٩٢١م)، وتقلص عدد العشائر التي هاجمت كفري وخانقين...، وما لبث الهدوء أن أخذ يعود إلى سكان مدن ديالى وبغداد وضواحيها"[٢].

***

٥. امتداد وهج الثورة إلى المنتفق وتوقيع ميثاق المصيفي وانطفاء الوهج وأسبابه

لقد امتد وهج الثورة المسلحة إلى المنتفق، حيث "بذل مجموعة من وكلاء المراجع ومبعوثيهم والشيوخ الثائرين جهوداً كبيرة لبث روح الانضمام للثورة، وهم: عبد الحسين مطر وعبد الكريم السبتي في الناصرية؛ وعلي الدبوس وآل حيدر في سوق الشيوخ؛ والسيد عبد المهدي المنتفجي وآل الشعرباف وآل الطحان في الشطرة؛ والشيخ حسن دخيل في قلعة سكر؛ وكان السيد عبد المهدي بوجه خاص قد بذل نشاطاً ملحوظاً في الدعوة إلى الثورة"[٣]، تحدث عنه السيد عبد الرزاق الحسني بقوله: "زار السيد عبد المهدي مدينة النجف في أول شعبان (١٣٣٨هـ)، وعرّج منها على كربلاء وبغداد، فوجد الوطنيين في هذه الحواضر يتذمرون من ركود الحالة في لواء المنتفق وعدم تحسس غالبية أهله بالحس الذي يسود أهل بغداد

(١) تاريخ القضية العراقية. سابق: ١/ ٢٣٦.

(٢) العراق الحديث من سنة ١٩٠٠ إلى سنة ١٩٥٠. سابق: ٢٠٥.

(٣) لمحات اجتماعية من تاريخ العراق الحديث. سابق: ٥/ القسم الثاني: ٩٥، وتنظر: ثورة ١٩٢٠ قراءة جديدة في ضوء الوثائق التاريخية. د. عباس كاظم: ١٤٦.

والفرات الأوسط، واقترحوا عليه أن يعود إلى مسقط رأسه، ويعمل على توسيع الحركة الوطنية في اللواء، فعاد إلى الشطرة في ٢٤ رمضان، واتصل بالرؤساء والشيوخ البارزين في سوق الشيوخ والناصرية وقلعة سكر، كالشيخ قاصد آل ناهي رئيس حجام.. والشيخ موحان الخير الله رئيس آل حميد، ومحمد الحاج شلال، ومزعل الحميدة من رؤساء بني كعب، وغيرهم -ممن تقدمت أسماؤهم- فتعاقدوا بأغلظ الأيمان وأعظم المواثيق على أن يشد بعضهم أزر بعض، وأن يعملوا يداً واحدة في السيطرة على مشاعر الأهلين، وتوجههم وجهة الثورة على الاحتلال وإخماد كل صوت لمن يُسمّون بالمعتدلين، وسرعان ما تطورت الحالة في هذا اللواء فانقطع مراجعو الدوائر الحكومية عن مراجعاتهم، وانكمش الحكام السياسيون عن الناس في بيوتهم"[1].

ولقد كان للشيخ عبد الحسين مطر وكيل المرجعية دور مميز في جمع شمل العشائر وتوحيد مواقفها تجاه المحتل، وقد استجابت لجهوده وجهود من تقدم ذكرهم بعض عشائر مناطق المنتفق ومدنها وبعض القادة والشيوخ؛ ففي قلعة سكر أُطلقت النيران على الكابتن كرافورد حاكم قلعة سكر السياسي فكادت أن تقتله؛ ما اضطر إلى مغادرة القلعة في (منتصف شهر ذي الحجة الحرام من عام ١٣٣٨هـ/ ٣٠ آب ١٩٢٠م)؛ فتسلم الثوار أمر القلعة وأنزلوا العلم البريطاني منها، ثم تقرر إثر ذلك أن يعقد زعماء الثورة في المنتفق اجتماعهم في موضع يقال له (المصيفي)، ووقعوا ميثاق المصيفي الذي ستأتي نصوصه لاحقاً.

و"لم يَكَدِ الرؤساء والزعماء يفرغون من التوقيع على ميثاق المصيفي حتى توجه إلى الشطرة مائتان من الفرسان المدججين بالسلاح، محاولين تجريد القوة المحلية (الشبانة) من سلاحها، والقصبة من حاكميتها، والسراي من العلم كما فعلوا في قلعة سكر، فلم يوفقوا إلى أكثر من تجريد القوة من سلاحها، فارتاع الحاكم وهو يومئذ برترام تومس من هذه المظاهر، فدخل بيته وأصبح كالمحجور

(١) الثورة العراقية الكبرى. سابق: ٣٠٥-٣٠٦.

عليه.. فخفت الجماهير إلى دار الحاكم البريطاني ودار زميله قائد الشبانة وإلى دار الحكومة في الشطرة فنهبوا ما فيها، وأنزلوا العلم البريطاني"[١] منها.

وينقل د. وميض جمال عمر نظمي عن مذكرة بعثها برقيّاً ممثل معاون الحاكم السياسي في الشطرة إلى قيادته في بغداد قوله: كان "التحرك العشائري نحو الشطرة ملحوظاً، وكان السيد عبد المهدي -المنتفكي- والشيخ موحان الخير الله هما الروح المحرِّكة، وقد نجحا في الحصول على تأييد مشفوع بحلف يمين من عشائر قلعة سكر.. وكان هدفهم هو الزحف على الناصرية، وكان نجاحهم مضموناً بالنظر إلى أنّ حامية الناصرية كانت تتألف من سرية أو سريتين فقط من المشاة المحليين، إلّا أنّ خيّون أحبط هذه المحاولة؛ فإنّه لم يلتزم بتقديم المساعدة إلّا عند سقوط الناصرية"[٢].

لقد تعبّأت سوق الشيوخ بالروح الثورية بعد حوادث السماوة خاصة، ما اضطر معه معاون الحاكم السياسي فيها إلى الفرار منها إلى الناصرية؛ فاحتلها الثوار، ورفعوا العلم العربي عليها أسوة بـ(قلعة سكر)، و(الشطرة)، "ثم جردوا قوة وطنية تمثل سوق الشيوخ والقبائل المحيطة بها، رَأَسها الشيخ قاصد (رئيس حجام)، وعسكر بها في جبهة الناصرية الشرقية؛ لتشديد الحصار على الحامية البريطانية.. واستمرت المناوشات معها طوال أيام الثورة على شدة القصف الجوي الذي كانت تعرضت إليه[٣]، وأنزلوا العلم البريطاني.

غير أنّ الثورة فيها سرعان ما انطفأت، بعد أن "لم تأتِ تلك العشائر الكثيرة العدة والعدد في جانب الثورة بعمل يُذكر مع الأسف، ولو ثارت تلك العشائر لأصبح وقوع بغداد بقبضة الثوار كقاب قوسين أو أدنى"[٤]. وكان الجنرال هالدن

(١) الثورة العراقية الكبرى. سابق: ٣٠٧-٣٠٩.

(٢) ثورة ١٩٢٠ الجذور السياسية والفكرية والاجتماعية للحركة القومية العربية الاستقلالية في العراق. سابق: ٣٨٦. وتنظر هوامش الصفحة.

(٣) الثورة العراقية الكبرى. سابق: ٣١٠-٣١١. ط١.

(٤) تاريخ القضية العراقية. سابق: ١/ ٢٦٩ و٢٧٠ على التوالي. ط١. وينظر: دراسة في طبيعة المجتمع العراقي. د. علي الوردي: ١٦١.

يخشى أن ثورتها قد تجرّ وراءها ثورة قبائل بني ربيعة، وحينئذ يصبح الخطر النهري بين بغداد والبصرة محققاً، يقول حنا بطاطو: "إنّ مشايخ دجلة في محافظتي الكوت والعمارة عزلوا أنفسهم عن انتفاضة (١٩٢٠) ودعموا الانتداب الإنكليزي"[١].

أما المس بيل فتقول: "إنّ المعجزة الحقيقية هي معجزة الناصرية وسوق الشيوخ والحي.. لأنّ هذه المناطق.. قد حافظت على هدوئها خلال الحركات، كما أنّ جميع قبائل دجلة قد رفضت أن تسهم في الثورة، ولو تسنّى لها أن تثور لأصبح الوضع في بغداد خطيراً للغاية"[٢]، وتضيف إلى ذلك قولها متحدثة عن أمير ربيعة محمّد المحيطة قبائله بالكوت، وكيف أنّه وقف "بإخلاص في جانبنا خلال حوادث الاضطراب والثورة"[٣]، كما كان موقف الشيخ خيّون العبيد من أكبر شيوخ الناصرية موقف المحايد من الثورة على أحسن الاحتمالات، هذا إذا لم نقل مقالة جعفر الخليلي بأنّه: "حين ثار الفرات في وجه السلطات الإنكليزية من سنة (١٩٢٠) وقف الغراف، والأصح وقف الخيّون العبيد موقف المشكك بنجاح الثورة والمناقش لدُعاتها متذرعاً بأمور"[٤] عديدة، بل إذا لم نقل مقالة الشيخ موحان الخير الله جواباً على سؤال د. الفياض له "عن الأسباب التي حالت دون إسهام قبائل المنتفك إسهاماً فعّالاً في الثورة، قال ما معناه: إنّ الشيخ خيّون العبيد كان غير مؤيد لفكرة الثورة، وعندما طلبنا منه أن يتّحد معنا لمهاجمة قاعدة الإنكليز في الناصرية؛ اعتذر عن ذلك"[٥].

بل إنّ المس بيل تُرجع إلى موقف الشيخ خيّون "السبب في عدم نشوب الثورة في الغراف، ولو حصل ذلك لسرت نيرانها من دون شك إلى جهات دجلة،

---

(١) العراق. الكتاب الأول. الطبقات الاجتماعية والحركات الثورية من العهد العثماني حتى قيام الجمهوري: ١٤٥.

(٢) العراق في رسائل المس بيل (١٩١٧-١٩٢٦). ترجمة وتعليق د. جعفر الخياط: ١٩٠.

(٣) المصدر نفسه: ٢٨٥.

(٤) هكذا عرفتهم. سابق: ٢/ ٥٩.

(٥) الثورة العراقية الكبرى سنة ١٩٢٠. سابق: ٣٠٣-٣٠٤.

ولانقطعنا حتماً عن العالم الخارجي"[١].

وتعود ظاهرة عدم اشتعال الثورة في المنتفك مثلما اشتعلت في غيرها من مناطق الفرات لأسباب أَجملَها د. الفياض بما يأتي: "إنّ بعض هذه القبائل قد أنفقت كثيراً من طاقتها وإمكانياتها خلال الحرب العالمية الأولى سواء باشتراكها في حركة الجهاد بالشعيبة أو (كذا) في صدها الجيوش الإنكليزية الزاحفة عن طريق الغراف بُغية رفع الحصار عن الكوت.. ثانياً: لقد عملت الأموال الإنكليزية عملها في نفوس بعض رؤساء القبائل؛ فوقفوا من الثورة موقفاً فاتراً يشوبه التردد وعدم المبالاة. ثالثاً: لقد وقف الشيخ خيّون العبيد رئيس قبيلة العبودة موقف المتفرج، وكان لموقفه هذا أثر كبير في شلّ حركة الثورة في الغراف لأهمية قبيلته العسكرية من جهة، ولأهمية الموقع الجغرافي الذي تحتله من جهة أخرى"[٢].

وما لنا نذهب بعيداً؟! فهذا السير أرنولد ولسون يتحدث عن إناطة الإنكليز أمر الحفاظ على الهدوء في المنطقة بالشيخ خيّون العبيد إثر اتفاق العديد من زعماء المنطقة على الثورة، فيقول: "اضطر برترام توماس بعد أسبوعين إلى أن يغادر الشطرة بطريق الجو، بعد أن عهد بمقاليد الحكومة إلى خيّون العبيد الذي برهن على أنه أهل للثقة التي وُضعت به، والسلطة التي كان وضعها في يديه ديكسون وتوماس... وذلك بالمحافظة على الأمن في المنطقة"[٣]. ثم "أخذت الأحوال هناك تعود ومن دون الإقدام على عمل حربي إلى ما يشبه الحالة الاعتيادية في أواسط شهر تشرين الأول"[٤].

***

(١) العراق في رسائل المس بيل: ٣٠١.

(٢) الثورة العراقية الكبرى سنة ١٩٢٠. سابق: ٣٠٢-٣٠٣.

(٣) الثورة العراقية. سابق: ١٠٩.

(٤) العراق الحديث من سنة ١٩٠٠ إلى سنة ١٩٥٠. سابق: ١/ ٢٠٣.

٦. استنجاد القائد الإنكليزي هالدن بقيادته طالباً المدد العسكري

إثر الهزائم المتتابعة للقوات المحتلة في الفرات الأوسط؛ استنجد قائدها الجنرال هايدن بقياداته العليا خارج العراق طالباً دعم قواته بفرقة كاملة، فتلقى جواب وزيره في لندن المستر تشرشل قائلاً بأنّ الحكومة البريطانية قررت وجوب القضاء على الثورة، وأنّه لبّى العديد من طلباته "من فرق متعددة جمعت كلها (٢٠٢, ٢٧) جندي محارب ما بين هندي وبريطاني.. وسمحت له وزارة الدفاع البريطانية بسحب الجيوش التي كانت في إيران والتي كان عددها على أقل الروايات ثلاثين ألف محارب مع عدتها الكاملة، فسحبها فوراً ووصلت مع القوة الموجودة عنده، فهجم بها على الثوار من جميع أماكن الثورة"[١]. كما وعدته قيادته العليا أيضاً بأنّها ستلبّي طلباته اللاحقة بمثلها إذا احتاج إليها.

***

٧. الهجوم الإنكليزي الكبير على الفرات الأوسط بعد خذلان عشائر دجلة وخيانات بعض الزعماء

على الرغم من هذا المدد المتتالي لقوات الاحتلال بالعدّة والعدد، فإنّ المجاهدين قد بذلوا الكثير من طاقاتهم البشرية والمادية خلال الأشهر الخمسة المتصرّمة من عمر الثورة، وخاصة ما كان منها في (شهري تموز وآب ١٩٢٠م)، حيث تتابعت الانتصارات فيها من نصر إلى نصر بأسلحتهم الخفيفة وسيوفهم و(مكاويرهم) وصدورهم العارية العامرة بالإيمان، حتى وصل الأمر بالمستشارة البريطانية المس بيل لأن تدوّن في رسائلها ما يلي: "إنّي إذا ما انسحب البريطانيون من العراق سأبقى في هذه البلاد بهدوء وأرى ما يحدث... وقد ننقطع نحن عن العالم في أية لحظة إذا ما ثارت عشائر دجلة"[٢]، غير أنّ عشائر دجلة خيّبت ظنّ الثوار، فلم تستجب لاستنهاض المرجعية وقادة الثورة، كما أنّ المجاهدين في جبهة الفرات لم

(١) الحقائق الناصعة. سابق: ٤٠٩.

(٢) العراق في رسائل المس بيل (١٩١٧-١٩٢٦) ترجمة وتعليق: د. جعفر الخياط: ١٨٠.

يستطيعوا الصمود والمقاومة وحدهم أمام جيوش العدو الزاحفة عليهم بالطائرات والآليات الثقيلة والجنود ابتداء من (يوم الثلاثاء ٢٨ محرم ١٣٣٩هـ/ ١٢ تشرين الأول ١٩٢٠م).

ثم نتيجة لخيانات بعض شيوخ العشائر، وللرشاوى من جهة أخرى حدث ما حدث ناهيك عن الوعود الخلّابة متمثلة بإرسال قائد الجيش الإنكليزي رسائل خاصة إلى جمع من قادة الجبهة العسكرية من رؤساء العشائر المقاتلة[١]، ولِوِشايات بعض رؤساء العشائر بالبعض الآخر من تقديم معلومات خطيرة عن خطط قادة ثورة العشرين وتحركاتهم، وللخلافات بين رؤساء العشائر على تزعُّم العشيرة دون غيره من كبرائها، ثم ما نسبه الحاج صلال الفاضل أحد قادة الثورة إلى حكومة عبد الرحمن النقيب المؤقتة من أنّ أعضاءها دعموا وغطوا سياسيّاً موقف المحتلين من الثورة وثوارها حين وقّعوا على "أنّ الثوار يريدون ثورة همجية حينذاك توجّه الجيش إلى الحلة"[٢]، ثم "جرّد حملة من الحلة متجهة إلى طويريج، وحملة أخرى خرجت من بغداد متجهة نحو المسيب ومنها إلى الوند -الواقعة بين المسيب وكربلاء- لضرب قاعدة القيادة للثوار، وقد تمكنت الحملة المتجهة إلى طويريج من احتلالها للبلدة، وهكذا الحملة المتجهة من بغداد احتلت المسيب، وتضعضعت الجبهات وخشي زعماء الثوار المقيمون في الوند مضايقتهم إذا توجهت الحملة من المسيب إلى الوند، وأخذوا يفدون إلى النجف ومنها إلى أبو صخير ليجتمعوا هناك ويتداولوا في الأمور"[٣].

ومن الجدير بالذكر أنّ الجيش الغازي حين احتل طويريج وجسرها، شرع "يهدم ويحرق وينهب و.. يقتل الصغير والكبير، ولم يرحم أحداً، بل يلقي الجنديُّ الشخصَ منهم فيضربه بالسُّنكي ويقطّع أشلاءه بلا مانع ولا دافع، ثمّ إنّ فرقة

(١) مذكرت الحاج صلال الفاضل الموح: ٧٩-٨٠.

(٢) الحقائق الناصعة في الثورة العراقية. سابق: ٥٦٦.

(٣) المذكرات الخطية للسيد ضياء الدين بحر العلوم عن حياة والده السيد محمد علي بحر العلوم: ٩٣.

منهم توجّهوا إلى بيوت المسلمين، فأخذوا يحرقون كل بيت يصلون إليه مع ما فيه من الأثاث، ويقتلون كل من يجدونه فيه من النساء والأطفال والعجزة ولا يرحمون أحداً، فعند ذاك أخذت تهرع على وجوهها في البيداء من خوفها، حتى وصل الحال إلى أنّ المرأة تخلّف طفلها في مهده وتنجو بنفسها، وربما تحمله يسيراً ثم تلقيه في الصحراء استثقالاً منه لئلّا يصلها العدو، وصارت الناس تقصد المشهدين الشريفين الغروي والحائري طلباً للأمان بعد أن كثر القتل الذريع فيهم وامتلأت البيداء من جثثهم"[١]، وعندما عرفت مدينة كربلاء المقدسة القريبة منها أعلنت استسلامها، كما تم احتلال سدة الهندية الاستراتيجية، فالكفل، متقدمين باندفاع نحو الكوفة التي "أبلى الثوار في الدفاع عنها بلاء مجيداً، ولكن دون جدوى؛ لأنّ الحامية المحصورة... اشتركت في القتال، وهددت القبائل بقطع خط رجعتها.. ثم اشتبك الطرفان في معركة حامية، وأمطرت الطائراتُ أبناءَ القبائل وابلاً من قنابلها حتى ألجأتهم إلى الانسحاب من مواضعهم الدفاعية، فدخل الجيش الكوفة... صباح يوم (الخامس من شهر صفر سنة ١٣٣٩، الموافق ١٨ تشرين الأول ١٩٢٠م)"[٢].

وإذ دخل جيش الإنكليز الكوفة "أخذ يقتل كل من يصادفه في طريقه.. حتى الحيوانات التي لا ذنب عليها، فكان يصادف الجندي الإنسان أو الحيوان في الطريق ويضربه بالسُّنكي فيقطّع أشلاءه، فلما وصل إليها خرج الجند الذي كان محاصراً فيها، وأخذوا يهدمون ويحرقون وينهبون ويقتلون كل من يجدونه فيها، حتى هدموا ما يقرب من نصف البلدة، وجمروا أغلب نخيلها وأشجارها، وهكذا كان ديدنهم كلما دخلوا قرية فعلوا بها مثل ذلك، وربما أفنوا القرية عن آخرها بالحريق والهدم، ثم إنّهم دخلوا بخيلهم وكلابهم إلى مسجد الكوفة ومسجد السهلة، وضربوا أخبيتهم وأبنيتهم فيهما، وهدموا بعض الأماكن منهما، وأرادوا

(١) السلاسل الذهبية. السيد محمّد صادق بحر العلوم. مخطوط: ٣٢١-٣٢٢.

(٢) ينظر: الثورة العراقية الكبرة. سابق: ٣٢٣-٣٢٤. وما ورد في وقائع الهجوم الأخير على ثوار ومدن الفرات الأوسط مستقى من الكتاب نفسه.

الدخول إلى ضريح مسلم بن عقيل، ولكن منعهم الجند الإسلامي الذي كان معهم وبقوا في المسجدين أياماً عديدة"[١].

ثم بعد سقوط الكوفة وتبدد قوى الثوار، إضافة "لكثرة الطرف الثاني ونفاد عتادنا"[٢]؛ تزعزع الموقف العسكري والمعنوي كثيراً، ناهيك عن النقص الحادّ في الغذاء أيضاً، حتى وصل الأمر بالحاج عبد الرسول تويج لأن يقول: "وفي ليلة من الليالي وأنا نائم في البيت بالبراني إذ طُرقت الباب فجلست وفتحتها وإذا بأربعة من أفراد الجيش الإنكليزي وقد قبض عليهم الثوار وسلموهم لي ووضعتهم في إحدى غرف داري... ثم جرّدناهم من السلاح وأطلقنا سراحهم لعدم توفر أرزاق كافية لهم"[٣]، وهو ما يكشف عن مدى مسيس الحاجة إلى الغذاء، بغضّ النظر عن مدى صحة أو خطأ الإجراء المتّخَذ.

بعد ذلك قصف المحتلون الغزاة مدينة النجف الأشرف بالأسلحة الثقيلة وغيرها، ثم عمدت القوات الغازية في اليوم الرابع من شهر ربيع الأول إلى حصار المدينة المقدسة حصاراً أشد من حصار كربلاء، وفعلت بها مثل ما فعلت بها وأشد، وضاق عليهم الأمر، وحالوا بينهم وبين الماء حتى تنجّز ما راموا، وحصل ما أرادوا، وقد تقدمت طلعات جيشهم المقتحم عشر طائرات فقبضوا على بعض رؤساء الثورة بزعمهم، وهم ما بين عالم وشريف ورئيس، منهم الشيخ الفاضل الشيخ حسن نجل آية الله الشيخ الشهير بشيخ الشريعة، والشيخ الجليل الشيخ جواد آل صاحب الجواهر.. وطال الحصار إلى مدة أربعة وعشرين يوماً، حتى رفعه الله يوم الجمعة في اليوم الثامن والعشرين من شهر ربيع الأول سنة ١٣٣٩هـ"[٤].

---

(١) السلاسل الذهبية سابق. مخطوط: ٣٢٢.

(٢) مذكرات الحاج عبد الرسول تويج: ١٨.

(٣) المصدر السابق نفسه: ١٦-١٧.

(٤) السلاسل الذهبية. السيد محمّد صادق بحر العلوم. مخطوط: ٣٢٦-٣٣١.

وباختصار شديد حسب الباحث يوجين روغان مدير مركز دراسات الشرق الأوسط بكلية سانت انطوني بجامعة أوكسفورد:

لقد "تمكن البريطانيون من استعادة السيطرة على منطقة الفرات الأوسط باستخدام القصف الجوي والمدفعية الثقيلة، وباتباع سياسة الأرض المحروقة"[١] من دولة كانت تزعم أنها من دعاة الحرية وحقوق الإنسان والحضارة الحديثة ولا زالت.

❀ ❀ ❀

(١) سقوط العثمانيين الحرب العظمى في الشرق الأوسط. يوجين روغان: ٥٠٩.

المبحث الثالث

أدوار وفعاليات ونتائج

يتناول هذا المبحث ثماني نقاط ينبغي الوقوف عندها، وهي:

١. معتمدو حزب النجف السري في المدن العراقية

تحدثت سابقاً أنّ حزب النجف السري الذي تشكل في النجف الأشرف ليعدّ العدة لثورة العشرين؛ قد نشط نشاطاً كبيراً في بث روح الثورة في العديد من المدن العراقية مقدمةً لتثوير الشارع فاندلاع الثورة.

يقول المؤرخ السيد محمد علي كمال الدين أحد وجوه الحزب وأحد المشاركين في الثورة بعد اندلاعها بأنّ الحزب لم يقتصر نشاطه على مدينة النجف الأشرف وما جاورها فحسب، بل وسع نقاط نشاطه ليشمل ما هو أبعد من ذلك وأوسع مدى، فقد كان "له معتمدون في معظم مدن العراق، فمعتمده في بغداد محمد جعفر أبو التمن، والسيد محمد الصدر، والوسيط إليهما غالباً الشيخ محمد باقر الشبيبي وأخوه جعفر الشبيبي. ومعتمده في الرميثة والسماوة الشيخ رحيم -أو رحوم- الظالمي، وفي كربلا: الشيخ أحمد الملا كاظم الخراساني، والحاج محمد حسن أبو المحاسن، وفي الحلة: الشيخ مهدي البصير والسيد محمد الباقر، ومحمد السيد موسى كمال الدين. وفي الدغّارة السيد كاظم فوزي. وفي عفك والهاشمية والجزيرة: السيد كاطع العوادي. وفي الغراف الشيخ علي الشرقي، غير أنّ هذا الأخير لم يستطع تنفيذ خطة الحزب في إثارة الغرّاف عندما وقعت الثورة، الأمر الذي أوجب سخط بعض أعضاء الحزب عليه. ومعتمد الحزب في الناصرية: الشيخ عبد الحسين مطر، وفي سوق الشيوخ الشيخ محمد حسن حيدر. وفي البصرة: الشيخ عبد المهدي المظفر. وفي الحيرة وأبو صخير السيد هادي زوين، وفي الكفل وما جاورها عبد الأمير الشكري، وفي الكوفة محمد أبو شبع ورسول تويج.

وبواسطة هؤلاء المعتمدين كانت صِلات الحزب والمكتب دائمة مع معظم البلاد"[١].

ويختلف الشيخ فريق المزهر آل فرعون المشارك في الثورة أيضاً مع السيد كمال الدين في أمر معتمدي الثورة في كربلاء، بقوله: "أما مكتب الثورة/ كربلاء فكان أعضاؤه السيد عبد الوهاب والسيد الخراساني ومرزه عبد الحسين نجل آية الله الشيرازي تحت رآسة (كذا) العلامة المخلص السيد محمد علي هبة الدين الحسيني الشهرستاني"[٢].

***

٢. أنموذج لبسالة العلماء وتقواهم في سوح الجهاد والمنازلة

اشترك الكثير من المجتهدين والعلماء الأعلام في سوح الجهاد وسأتخذ من بسالة وتقوى أحد العلماء الأعلام أنموذجاً.

يقول الشاهد على الحدث والمشارك فيه الشيخ فريق آل فرعون متحدثاً عن المجاهد "المرحوم السيد عزيز الله من علماء النجف الأشرف المعروفين بالزهد والورع والتقوى، انشغل عن أمور الدنيا بالدرس والعبادة والاختلاء إلى نفسه، وعندما كان العلماء يعملون للثورة كان هو منكبّاً على دراسته وإطاعة الله، لا يعرف عنها شيئاً، وبعد أن انتشرت أخبار الثورة، وأصدر آية الله الشيرازي فتوى الجهاد؛ التحق (رضوان الله على روحه الطاهرة) بالثوار محارباً ومجاهداً، وكان يحمل بندقية ذات طلقة واحدة من النوع المعروف بالأوساط العشائرية باسم (معدل)، ولديه من العتاد ما يقارب المائتي طلقة، وكان شجاعاً لا يعرف الخوف، ولا يرهب القوة، وعندما هجم الثوار على (المسيّب) -منطقة- كان في مقدمتهم، واختار له مكمناً على ضفة النهر وبقي هناك، ما مرّ جندي بريطاني على الجانب الشرقي إلّا وصوّب إليه رصاصة تُرديه قتيلاً أو جريحاً، وبقي في (المسيّب) ولم يغادرها على القاعدة

(١) ثورة العشرين في ذكراها الخمسين. سابق: ٧٧- ٧٨.

(٢) الحقائق الناصعة في الثورة العراقية سنة ١٩٢٠ ونتائجها. سابق: ٨٢.

التي قررها المجلس الحربي، وعلى قاعدة (المناوبة)؛ لأنه كان يعتقد بعقيدة دينية وهي أنّ الإدبار أمام جيش الإنكليز حرام إلّا بأمر القائد؛ لأنّ من واجب الجندي إطاعة أوامره في ساحة الجهاد، وكل ما (كذا) ألحّ عليه الثوار أن يذهب إلى (الوند) -منطقة مقر القيادة- ليستريح أبى، وقال: حرام على المسلم أن يُدبِر أمام الأعداء إلّا بأمرٍ من قائد الجبهة... القائد العام عبد الواحد الحاج سكر، ومتى ما جاءني هذا الكتاب أكون معذوراً أمام الله إذا ما رجعت وأعطيت ظهري للإنكليز. وحينذاك ذهب مؤلف هذا الكتاب إلى مقر القيادة العامة للثوار وأخذ له كتاباً من عبد الواحد الحاج سكر. وهذا هو:

لحضرة حجة الإسلام المجاهد الأعظم السيد عزيز الله المحترم

بعد السلام عليكم ورحمة الله وبركاته

لقد قمت بواجبك الديني والوطني، فجاهدت وبذلت نفسك ومهجتك، فجزاك الله عن الإسلام وأهل الإسلام والوطن خيراً، وما عليك الآن إلّا أن تغادر (المسيّب) حالاً، وتأتي إلى (الوند)، ولا تذهب لساحات القتال حتى نأذن لك، والسلام.

١٧ محرم الحرام ١٣٣٩-هـ/ ١ تشرين الأول ١٩٢٠م

عبد الواحد الحاج سكر

وعندما وصل هذا المؤمن الجليل والبطل الباسل إلى (الوند) حيث مقر القيادة، استقبله الثوار بأمر من المجلس الحربي بالأهازيج العربية والهتافات المشجعة، وحين وصوله احتفل به المجلس الحربي احتفالاً يليق بمقامه، وطلبوا إليه البقاء معهم ليشاركهم في آرائهم الحربية حتى انسحب الثوار من ميدان المسيب"[١].

***

(١) الحقائق الناصعة في الثورة العراقية. سابق: ٢٩٠-٢٩١. وقد نقلت الحادثة كاملة رغم طولها لأهميتها ولخصوصية تفاصيل مجرياتها الدقيقة.

٣. مشاركة الشعراء في تثوير المواطنين

لقد أدى الشعراء والكُتّاب واجبهم الملقى على عاتقهم في تثوير الجماهير والدفع بهم إلى ساحات الوغى مرة؛ وتنشيط معارضتهم ضد المحتلين وحثهم على المشاركة في الاحتجاجات أخرى، وهم كُثُر، أذكر منهم كُلّاً من الشعراء: السيد الباقر الحلي وقد تقدم الحديث عنه سابقاً، والسيد أحمد الصافي، والحاج محمد حسن أبو المحاسن، والشيخ عبد الحسين الأزري، وعباس الخليلي، وسعد صالح، والشيخ محمد مهدي البصير، والسيد حسين كمال الدين، والشيخ محمد باقر الشبيبي، والسيد هبة الدين الشهرستاني، وخيري الهنداوي، والسيد محمد علي كمال الدين، وخليل عزمي، والشيخ عبد الحسين الحويزي، والشيخ محمد جواد الجزائري، والسيد محمد حبيب العبيدي، وعيسى عبد القادر، وعبد الكريم العلاف، وعبد الرحمن البناء، والشيخ محمد علي اليعقوبي، والحاج عبد الحسين الأزري، والشاعر الكبير محمد مهدي الجواهري، وغيرهم.

وعلى صعيد الشعر الشعبي فقد قيل في الثورة الكثير من هذا النوع من الشعر، "وقد جمع الأديب علي الخاقاني كثيراً من الشعر الشعبي الذي قيل في الثورة، ونشره في كتاب خاص أسماه (فنون الأدب الشعبي)، وهو جدير بالاطلاع عليه، لا سيّما وأنّه تضمن روائع من القصائد الشعبية قيلت في الثورة، قالها شعراء شعبيون معروفون"[1]، كما أنّ ما قيل في الثورة من الشعر الشعبي لشعراء غير معروفين الكثير، وما قالته شاعرات شعبيات معروفات وغير معروفات الكثير أيضاً.

وإذا كان الشعراء الوطنيون الذين مهّدوا للثورة بشعرهم أو نظموا خلالها أو بعدها في تمجيدها؛ فإنّ شعراء آخرين كالشاعر جميل صدقي الزهاوي قد وقف بالضد من الثورة ومدح الإنكليز وأثنى عليهم كمحررين فاتحين!

***

(١) الثورة العراقية الكبرى سنة ١٩٢٠. سابق: ٣٤٥.

٤. مشاركة المرأة الفُراتيّة مع المجاهدين في الميدان

لقد اشتركت المرأة العراقية في دعم الثورة وتعزيز وتأجيج معنويات الثوار ما استطاعت، كما كانت تقوم مقام زوجها أو أبيها أو أخيها أو غيرهم في تولي مسؤوليات الزراعة ما دام غائباً عن أرضه وحاضراً في ساحات الجهاد والمنازلة، مسّجلةً "سطوراً لامعة في تاريخ الثورة العراقية، فقد كانت المرأة تقوم بواجب الحقل والزراعة، وتسير خلف الثوار المجاهدين حاملة الزاد والأمتعة، وتجلب الماء لهم عندما تكون ساحات القتال بعيدة عن النهر، وتشجع المحاربين بزغردتها، كما تبعث النخوة بغيرهم لتبعث به إلى ساحات الجهاد.. فهذه من عشيرة بني حجيم.. كان لها ولد له من العمر ثمان عشرة سنة، قُتل والدُه في معركة البواخر، وكان ولدها لم يمضِ على زواجه غير سبعة أيام، فجاءت إليه والدته فأخرجته من داره ليحتل مكان أبيه بين الثوار، وأمُّه وراءه تزغرد لتشجعه وتُشجّع بقية الثوار، وفي معركة القطار المحصّن قُتل قرب المعسكر، فهجمت والدته بين النيران وحملته وهو على مقربة من الأعداء وجاءت به إلى الثوار تزغرد وتهوّس.. وهذا الرجل حسن من عشيرة آل فتلة لم يسمع بفتوى آية الله الإمام الشيرازي، حتى ذهب أعزلا إلى ساحة القتال، وبعد أن شاهد النيران والطائرات عاد إلى أهله فاستقبلته ابنته.. معاتبة له، فقال لها بأنّه لا يملك السلاح، فذهبت إلى عبد الواحد الحاج سكر فأمر باستدعائه... وأعطاه بندقية مع كامل عتادها، فرجع إلى ساحة الجهاد وابنته من خلفه تزغرد مشجعة، ولما بلغ ابنته خبر استشهاده زغردت وهي تقول (الحمد لله الذي شرّفني بشهادة أبي تلبية لفتوى أئمة الدين) وفداءً لوطنه وقومه"[١].

ومن هذه المواقف الباسلة للنساء العراقيات ما سجلته الأسيرة البريطانية في شهربان زيتون بوكانن، متحدثة عن "شجاعة النساء البدويات اللواتي يتصارعن مع الرجال ويقتتلن معهن (كذا)، فقد... حدثت مشاجرة يوماً بين أحد الأعراب وجندي بريطاني، وكان الفوز في المعركة للجندي البريطاني، فظهرت فجأة إلى

(١) الحقائق الناصعة في الثورة العراقية. سابق: ٤٩٨-٤٩٩.

الميدان امرأة متلثمة وهجمت على الجندي البريطاني فأشبعته ضرباً ولَكماً، ولمّا هددته بالقتل جرّدت خنجراً من ثنايا صدرها، وكادت تهجم به عليه فاضطر الجندي إلى التقهقر والخنوع.

وأيضاً -في واقعة أخرى- مرّ بدوي منهوك القُوى يجرّ نفسه جرّاً، وما كاد يصل إلى بيته حتى وقع على السرير من التعب والعناء، فأخبر زوجته أن لا طاقة له بعدُ على خوض المعارك... وأنّه معلول الصحة لا حول له ولا قوة، فما كان من وزجته إلّا أن قالت: وصمم (كذا) إذا قوتك قد خارت وعزمك قد فتر وتُقْتَ إلى حياة الكسل والخذل (كذا)، فأعطني حُسامَك وسلّمني عباءتك، فأنا أذهب عنك وأحارب بذلك، ففشل الزوج عند سماع كلام زوجته، وصمم على الرجوع من حيث أتى والاشتراك أبديّاً مع أقرانه بالحرب والغزو"[١].

وفي واقعة أخرى وقعت في الرميثة خلال انسحاب الجيش الإنكليزي منها إلى الديوانية، حيث هجم الثوار على الجيش المنسحب بمدافعهم وطائراتهم وهم عزّل من السلاح إلّا من بعض بنادق قليلة، فحطموا قطاره المحمل بالجنود والعتاد، وقد نفّذ الثوار منفردين أو مجتمعين عدة هجمات بطولية جماعية وفردية نادرة. أعرضُ منها هجمة رجل لرجل نقلها راوٍ حضرها بقوله: "كان في المعركة شاب من عشائر (بني عارض) قد تمكن من سلب ثلاث بندقيات بريطانية من الجيش بعد أن قتل أصحابها، فجاء إليه الجندي الرابع البريطاني وأراد أن يقتله، فطعنه بالحربة التي في رأس بندقيته، وهنا هجم الشاب العربي الشجاع على البريطاني بخنجره وطعنه طعنة نجلاء وتعانقا خناقاً بالأيدي وسقطا ميّتَينِ لساعتهما، وبعد أن انكسر الجيش البريطاني وفرّ هارباً جاءت والدة الشهيد العربي وكانت من بني عارض، فأخذت تهوّس على جثّة ولدها وقد سقطت جنبه البنادق الأربع بقولها "حي ميّت تقتل يا جنيبي"[٢].

والجنيبي اسم لنوع من الأفاعي لدغتها مميتة وليس لها دواء.

---

(١) في قبضة العرب. مذكرات الإنكليزية زيتون بوكانن: ١٥٧.

(٢) الحقائق الناصعة في الثورة العراقية. سابق: ٤٧١-٤٧٢.

ومعنى الهوسة: إنك تلدغ فتقتل سواء أكنت حيّاً أم ميّتاً. قالت هذا عندما رأته وهو فاقد للحياة قد خنق بأصابع يده الجندي البريطاني فقتله.

كما نقلت الأسيرة البريطانية المتقدم ذكرها زيتون بوكانن عن شهادتها الحسّيّة متحدثة عن مساهمة العراقيات في سدّ احتياجات المعركة بقولها: "في ذات مساء امتطى كثير منهم الخيل وأخذوا يتجولون في الأسواق وفي أنحاء المدينة ينادون النسوة ليخبزن الخبز لرجال القبائل ليحاربوا الجيوش البريطانية في اليوم الثاني، وأهم ما يحتاجه العربي في قتاله هو الأسلحة وأرغفة من الخبز وقليل من التمر يحشره في عبّه، وهكذا نرى القرويين ورجال القبائل يقفون من جديد يجاهدون، وعلى أثر ذلك علا الضجيج من كل بيت، وفي الوقت نفسه لم يقف دوران الرحى إذ إنهم أجابوا نداء الاستغاثة بحماس عظيم"[١]. وهناك العديد من هذه المواقف لا يسع المجال لها.

وفي حادثة أخرى تستحق الوقوف عندها وإشهارها وقعت في الديوانية أثناء انسحاب الجيش البريطاني منها عبر القطار باتجاه الحلة، فلما "وصل إلى مقاطعة (الزرفية) وقف القطار والْتحم الجيش بالثوار حتى انكسر الثوار، وتراجعوا مقدار نصف ميل، فجاءت امرأة هي زوجة ثعبان المهدي أحد شيوخ الجبور، وحسرت عن رأسها وتوسطت جموع الأكرع وعفك، وأخذت تشجعهم وتثير في نفوسهم النخوة وتطلب منهم الرجوع، وكانت بيدها فأس فهجمت على العدو وهجم الثوار في إثرها فانكسر الجيش البريطاني بعد أن أُصيبت هذه العربية الأصيلة بقذيفة مزّقت جسمها. وهكذا انكسر الجيش البريطاني بعد أن كاد أن يصل إلى بعض بيوت الأكرع والجبور"[٢]، ويعيث فيها فساداً وقتلاً وتنكيلاً وهتكاً وتخريباً. وهناك أكثر من موقف شاركت فيه المرأة الفراتية في حضور المعارك والمشاركة فيها لا يسع المجال لذكرها[٣].

---

(١) في قبضة العرب. مذكرات الإنكليزية زيتون بوكانن: ١٥٧.

(٢) الحقائق الناصعة في الثورة العراقية. سابق: ٢٦٠-٢٦١.

(٣) ينظر: المصدر السابق: ٤٩٦-٤٩٩.

٥. المرأة العربية بعيون أسيرة إنكليزية

وصفت الأسيرة الإنكليزية في منطقة شهربان بمحافظة ديالى السيدة زيتون بوكانن خلال ثورة العشرين المرأة العربية كما شاهدتها وسمعت عنها بعد اطلاعها على نواحٍ كثيرة "من حياة المرأة العربية كنتُ أجهلها تماماً، واقتنعت على أنّ المرأة البدوية على الرغم من جمال وجهها وفضائل أخلاقها تحوز على شجاعة نادرة وأخلاق وطنية قومية سامية، ولا أقصد بوصفي هذا إطلاق الكمال على النساء العربيات فحسب، ولكن نظراً لبعدهن عن المبادئ الحرة والآراء المدنية العصرية فإنّ الأخلاق والصفات المتحلية بها المرأة العربية هي كثيرة بالنسبة إلى الأخلاق والصفات التي تتحلى بها النساء الغربيات بعد درسهن الكثير واطلاعهن الواسع -فَهُنّ- يفتقرن إلى الكثير من الأخلاق والصفات البيتية السامية"[١].

***

٦. اشتراك سكان المدن العراقية مع العشائر في الثورة

ذهب الضابط البريطاني والباحث ستبفن همسلي لونكريك -وهو يتحدث عن ثورة العشرين- إلى القول بأنّه "لم يحدث في المدن أي اضطراب"، وعاد مرة أخرى ليؤكد ذلك بقوله: "لم يقم سكان المدن وزعماؤهم المدنيون رغم ما كانوا يظهرونه من إخلاص وحمية بأيّ دور مادي أو عملي في الثورة"[٢]، وتبعه الباحث د. عباس كاظم بقوله: إنّ "ثورة ١٩٢٠ كانت أساساً انتفاضة قامت بها العشائر..، أمّا مدن كربلاء والنجف والكوفة والديوانية.. فلم تشترك فيها منذ البداية؛ لأنّ قاطنيها لم يتخذوا قراراً برفع السلاح ضد البريطانيين، ولكنّها حوصرت وهوجمت واستولت العشائر عليها أخيراً بعد أن قرر البريطانيون إخلاء مواقعهم من جانب واحد في كثير من هذه المدن"[٣].

---

(١) في قبضة العرب. مذكرات زيتون بوكان: ١٥٦.

(٢) العراق الحديث من سنة ١٩٠٠ إلى سنة ١٩٥٠. سابق: ١/ ٢٠٠.

(٣) ثورة ١٩٢٠ دراسة جديدة في ضوء الوثائق التاريخية. سابق: ٢٥-٢٦.

ويكفي في مناقشة رأي الباحث المتقدّم فيما يتعلّق بأهالي مدينة النجف الأشرف على الأقل، أن أستشهد بما أورده السيد محمّد علي كمال الدين المعاصر للحدث والمشارك في الثورة، مستعرضاً سفر المتطوعين النجفيين لجبهات القتال، ليس في حملة واحدة من قبل أبناء المدينة المقدسة أو حملتين، بل في عدة حملات، حيث تم في يوم (٢٨ ذي القعدة) تجهيز الحملة الأولى من الشباب النجفيين وتسييرهم إلى ساحات القتال، وبلغ عدد أفراد هذه الحملة (٣٠٠) شخص.. وفي مساء غرة شهر ذي الحجة تحرك موكب الحملة الثانية من المتطوعين.. وجرى لهم توديع حافل أيضاً.. وابتداء من اليوم الثاني لشهر ذي الحجة إلى اليوم التاسع منه راحت حملات المتطوعين تتعاقب بالمسير إلى القتال بعضها يقفو إثر البعض"[١] كما تقدم.

بل ورد في رسالة بعثها المرجع الأعلى شيخ الشيعة الأصبهاني إلى السيد هادي مكوطر في (٣ ذي الحجة ١٣٣٨هـ) ما يشير ليس إلى سفر المتطوعين النجفيين من أبناء المدينة المقدسة إلى جبهات القتال فحسب، بل إلى كثرتهم الكاثرة نسبة إلى مجموع سكان المدينة، فقد جاء في نص رسالة المرجع الأعلى الأصبهاني: "وأما أهل النجف فهم بين واقف في خطط الحرب، وبين متهيّئ للّحوق بالمحاربين، ولا يبقى على الظاهر غير المعذورين والقائمين بمصالح المسلمين"[٢].

أما أهالي كربلاء المقدسة فقد تحدثت عنهم وثيقة أُرسِلَت من كربلاء المقدسة إلى المرجع شيخ الشريعة الأصفهاني جاء فيها: "دبّت الروح في كربلاء ونشطوا من عقال، فصار كل فرد منهم لا يلذّ بعيشٍ ولا يهنأ بقعودٍ، فقد خرج أمس... ما ينيف على الأربعمائة، وخرج هذا اليوم... ما تزيد عدتهم على ألف وخمسمائة، خرجوا وهم ينشدون الأناشيد الوطنية، والبِشر يتهلل في وجوههم، وهم إلى الحرب أشوق من الطفل إلى ثدي أمه، فحيّاهم الله وجعل النصر حليفهم... غداً تخرج بقية أهل كربلاء... وهؤلاء لا يقلّون عن الألف إن لم يزيدوا. تشكّلت

(١) ثورة العشرين في ذكراها الخمسين. سابق: ٨٥-٨٧.

(٢) وثائق الثورة العراقية الكبرى. سابق: ٣/ ٢٧٢.

جمعية من خدام الروضة الحسينية عددهم يزيد عن الخمسين بعدة كاملة وذخائر كثيرة، وهم يوم الخميس سيخرجون إلى ساحة الحرب"[١].

وهو ينفي صراحة قول الباحثَينِ المتقدّمَينِ من أنّ النجف الأشرف وكربلاء المقدسة حالها حال مدن الفرات الأوسط، قد "حوصرت وهوجمت واستولت العشائر عليها أخيراً بعد أن أخلى الإنكليز قواعدهم فيها"؛ فإنّ الدليل المتقدم على خلافه.

***

٧. خسائر الإنكليز البشرية والمادية خلال الثورة

لقد عانى الجيش البريطاني المحتل نتيجة صمود المجاهدين في حرب التحرير ما عاناه، وتكبّد من الخسائر بالأرواح والمعدات ما تكبّده، ويكفي أن تكون خسائرهم بالمعدات العسكرية ولم تمضِ بعدُ على الثورة إلّا أسابيع معدودة، ما وصفها أحد الباحثين بقوله: "إنّ خسارة الإنكليز في الخضر وفقدانها مع قطارين مصفّحين في ١٣ آب، وعزل بلدة السماوة في اليوم ذاته، وفقدان الإنكليز عدداً من سفنهم الحربية في الفرات الأعلى في ١٥ آب، والجلاء عن الشطرة في ٢٠ آب، والاستيلاء على السفينتين الحربيتين كرين فلاي والأخرى، والجلاء عن سوق الشيوخ في اليوم الأول من أيلول، وإبادة قوة بريطانية في أثناء محاولتها إنقاذ معسكر السكة الحديدية في السماوة اليوم الثالث من شهر أيلول، وغيرها من الانتصارات الثانوية التي أحرزتها القبائل"[٢]؛ جعلت الكثير من الوطنيين يشعرون أنّ الثورة تكللت أو ستكلل في قابل أيامها بالنصر.

وعلى الرغم من وجود التفاوت الكبير في السلاح والعتاد نوعاً وكمّاً بين المجاهدين الثوار والجيش البريطاني أحد أقوى جيوش العالم حينذاك؛ "فإنّ الثوار

---

(١) المواقف المشتركة لعلماء العراق وإيران ضد الغزو الأجنبي للبلاد الإسلامية ١٩٠٥-١٩٢٠م. سابق: ٢/ ٤٠٣.

(٢) دور الشيعة في تطور العراق السياسي. سابق: ١٨٧-١٨٨.

ألحقوا بقوات المستعمرين خسائر جسيمة بالأرواح والأموال لا تتناسب وإمكانياتهم المحدودة في السلاح والعتاد.. وقد يكون مَرَدّ نجاح العراقيين في الوقوف بوجه جيش أقوى دولة في العالم حينذاك لفترة تزيد على خمسة أشهر؛ إلى قوة إيمانهم بحقهم في الحياة الحرة أولاً، وإلى شدة تذمُّرهم من الضغط السياسي والاقتصادي الذي فرضته سلطات الاحتلال على هذه البلاد، وفضلاً عن ذلك فإنّ الدوافع الدينية لعبت دوراً رئيساً في حثّ الثوار على مقاومة المحتلين"[١]، حتى اضطرتهم الثورة إلى طلب قوات إضافية لنجدة قواتهم وخاصة في الفرات الأوسط. يقول الباحث يوجين روغان: "أجبر البريطانيون على نقل وحدات إضافية من الجنود إلى الرافدين لقمع المقاومة العراقية العنيدة على الجبهات كلها. سارعت التعزيزات الآتية من الهند إلى دعم (٦٠,٠٠٠) من جنود حملة الرافدين الذين لم يسرحوا بعدما رفع عدد القوات البريطانية إلى أكثر من (١٠٠,٠٠٠) بحلول أكتوبر"[٢] كما اضطرهم إلى إنفاق (مائة مليون باوند) من خزينة الإمبراطورية[٣]، في حين كان "نصيب السنة (١٩١٩-١٩٢٠) من تلك المصروفات ناهز معدله (٧٥ مليون باوند إسترليني)"[٤]، وقيل أقل من ذلك[٥] بكثير.

وعلى أي حال، فقد قُدّرت كلفة الخزينة البريطانية جراء التصدي للثورة في العراق والقضاء عليها بـ"أكثر بكثير مما كلفته الحركة الحجازية"[٦] من دعم مادي وإسناد عسكري وبذل للمؤن، أو حسب قول لونكريك بأنّ المبلغ المصروف

(١) الثورة العراقية الكبرى سنة ١٩٢٠. سابق: ٣٢٦.

(٢) سقوط العثمانيين الحرب العظمى. يوجين روغان: ٥٠٩.

(٣) ثورة ١٩٢٠ قراءة جديدة في ضوء الوثائق التاريخية. د. عباس كاظم: ١٧ وهامش الصفحة.

(٤) العراق شهادة سياسية ١٩٠٨-١٩٣٠. سابق: ٥٤. نقلاً عن مقدمة في دراسة العراق المعاصر. زكي صالح: ٣٣.

(٥) ينظر: الثورة العراقية الكبرى سنة ١٩٢٠. سابق: ٣٢٢.

(٦) ثورة ١٩٢٠ الجذور السياسية والفكرية والاجتماعية للحركة القومية العربية الاستقلالية في العراق. سابق: ٣٩٩-٤٠٠.

"يفوق كثيراً ذلك المبلغ الذي تم إنفاقه على الحلفاء العرب خلال الحرب في الحجاز وفي سوريا"[١]، بل ذهب جورج أنطونيوس إلى أنّ كلفة الخزينة البريطانية جراء التصدي للثورة الوطنية في العراق "يزيد على ثلاثة أضعاف المعونات التي دفعتها بريطانيا، ذهباً وأسلحةً ومُؤَناً لتموين الثورة العربية من بدايتها إلى نهايتها، وكانت الأضرار في الأملاك ومصادر الدخل في البلاد كبيرة فادحة"[٢].

***

٨. براعة الثوار العسكرية في التخطيط والتنفيذ

ويعود مَرَدُّ براعة الثوار -إضافة لِما تقدم- إلى استعمال المجاهدين للسلاح الخفيف الذي يمتلكونه، وحسن تخطيطاتهم لعملياتهم العسكرية، وخبرتهم المتراكمة في الحروب البينية تارة، ومن ثوراتهم ضد الأتراك أخرى، جعلت الجنرال هالدن يدوّن رأيه في خبرتهم خلال حربهم مع جيشه المحتل في جبهات الرميثة والديوانية، فيكتب ما يلي: "يتجمع العرب حالما يرفع علم شيخهم كما يجمعهم أزيز الرصاص، وتتم حركتهم وتجمعهم بصورة مدهشة، ويتكون منهم

(١) العراق الحديث من سنة ١٩٠٠ إلى سنة ١٩٥٠. سابق: ٢٠٢.

(٢) يقظة العرب: ٤٣٠-٤٣١. وقد أثبت الجنرال هالدن في كتابه ص٣٢٥ جدولاً بخسائر الجيش الغازي من الأفراد، ضبّاطاً ومراتب، ومعه ما زعم أنّها خسائر العراقيين من الأفراد أيضاً، كما نقل عن الشيخ عبد الواحد آل سكر خسائر العراقيين باختلاف واضح عن ذكره هو لخسائرهم محتملاً عدم صحة ما أورده الشيخ عبد الواحد، معلّلاً ذلك بقوله: إنّه "بقي خصماً لنا حتى آخر لحظة". ولأنّ الشك ينطبق على أرقامه هو أيضاً لكونه القائد العام لجيش الاحتلال حينها، فقد أعرضتُ عن ذكرها كلها ما دامت محلّ شكّ، على أنّي كنت قد أشرت سابقاً إلى ما نشرتْه جريدة التايمز الإنكليزية في معرض ذكرها للخسائر المادية فقالت إنّها كلفت دافعي الضرائب في (١٩١٩-١٩٢٠) مبلغ (٨٠ مليون) جنيه إسترليني وحتى بداية (١٩٢١) بلغت مصاريف الاحتلال (١٠٠ مليون) جنيه إسترليني، وهو كما يبدو منه تفصيلي وبالأزمان؛ ما قد يقوي صحته، وقد مال إلى ذلك لوفات فريزر (ينظر: العراق في سجلات الوثائق البريطانية. سابق. المجلد الثاني ١٩١٤- ١٩٢١. ص٣٦٩). وهناك من ذهب إلى أنّها أقل من ذلك فذكر أنّها بلغت (٤٠) مليون جنيه إسترليني كما قال هولدن وجورج أنطونيوس، ولعل الفرق بينهما ناشئ من الاختلاف بينهما في طريقة الحساب، فالأول أحصاها من زاوية كلية، والثاني أحصاها من زاوية كلف العملية العسكرية وحدها من دون نظر لخسائرها الكلية المصاحبة.

حينئذ تحشُّد كبير يرتفع بين ثناياه عدد من الأعلام، ينضوي تحت كل واحد منها عدد من المقاتلين. وعندما يريدون الهجوم يبلغ الهياج منهم مبلغاً يقرب إلى الجنون فيعلو حينئذ صراخهم ويُكثِرون من تحريك أعلامهم. وتقودهم في حركتهم الحاضرة أدمغة مدربة ماهرة تعرف جيداً نقاط الضعف في الجيش الحديث ويعلمون حدود إمكانياته، وتدل تنظيمات العرب الدفاعية على مقدرتهم الفائقة. ولهم حذق كبير في اختيار الزمان والمكان الذي فيه يعترضون تجهيزاتنا من المياه أو يعرقلون سير قطرنا أو خط سيرنا".

ويضيف الجنرال البريطاني متحدثاً عن براعة استخدامهم لسلاحهم القليل بحيث لا يفرّطون حتى بأقل ما يمكن منه إلّا بجني الثمرة المرجوّة، فيقول: "كانت معداتهم الحربية محدودة، حيث كانت الطلقة الواحدة تكلفهم.. ولهذا كانوا كثيري العناية في استعمال طلقاتهم، ولا يطلقون الطلقة ما لم يحتملوا احتمالاً أكيداً أنّها ستصيب الهدف، وأنهم سيربحون شيئاً من وراء إطلاقهم للنار. ويُظهر العرب شجاعة فائقة ويخاطرون بحياتهم ليهجموا على موتانا ليجردوهم من السلاح أو العتاد في وقت لا يزال فيه القتال مستمرّاً"[١].

ونظراً لِما لقّنه الثوار من دروس في الحرب والقتال، فقد "ذُهِل الإنكليز لما وجدوا في العشائر من استعدادات حربية متقنة، يقول هالدن: (إنّ هذه الاستعدادات لا بدّ أن تكون من تدبير ضباط محترفين من بقايا الجيش العثماني، ولا بد أن يكون هؤلاء موجودين بين العشائر يوجهونهم). نسي هالدن أنّ العشائر تمارس الحرب منذ زمن بعيد، وكثيراً ما اشتبكت في معارك ضارية مع القوات التركية، وهي ليست إذن في حاجة إلى من يعلّمها فنون الحرب"[٢].

لقد أجبرت الثورة ومرجعيتها وثوارها المؤمنون المجاهدون الإنكليز المحتلين لأن يكتبوا بخيبة أمل مُرّة أن "لا محيص من الاستنتاج في ضوء الحوادث الواقعة

(١) الثورة العراقية الكبرى سنة ١٩٢٠. سابق: ٢٦٠-٢٦١. وينظر هامش الصفحة.
(٢) لمحات اجتماعية من تاريخ العراق الحديث. سابق: ٥/ ٢٣١.

بأننا وقد (كذا) مُنينا بفشل ذريع هنا، إذ لا بد من أن يكون الجهاز الإداري الذي أنشأناه أشد خطأ بكثير من أي جهاز آخر، ويتحتم علينا تبديله، ويلوح لي أنّنا قد بخسنا حق الوضع الحقيقي في البلاد واعتبرنا سكانها جمهرة غير متجانسة من القبائل التي لم يمكن إخضاعها لأي جهاز حكومي بعد.. حاولنا نحن أن نحكم ففشلنا.. علينا أن نوطن أنفسنا لنرى عقارب الساعة تدار كثيراً إلى الوراء.. لقد اعتدنا الآن كثيراً على المآسي الفجائية، وصرنا نتلقاها من دون تململ تقريباً. إنّها تولّد خطراً في الإحساس يجعل المرء يشعر وكأنه نصف ميت.. بدأنا بتسفير زوجات الحكام السياسيين الموجودين في المناطق والأحياء، وأعتقد بأنّ ذلك هو الشيء الوحيد الذي يجب أن نفعله. لقد أتَينَ كُلّهُنّ إلى بغداد تقريباً، حيث لا توجد أماكن كافية لإسكانهن، والمستقبل غير أكيد بدرجة يشك معها في إمكان عودتهن إلى أزواجهن ويشك في عودة الأزواج إلى مكانهم في حالات كثيرة أيضاً. فما زلتُ أتوقع أنّنا سوف لا نعيد تشكيل الإدارة السياسية في جهات الفرات.. إنّه من المحزن حقّاً أن نرى بأعيننا انهيار ما أسّسناه من هذا القبيل"[1].

***

٩. استذكار الشيخ شعلان أبو الجون لمعركة العارضيات

ينقل الشيخ فريق المزهر آل فرعون عن الأستاذ سلمان الصفواني في سنة (١٩٢٧م) ما يلي:

"خرجنا من الديوانية إلى السماوة في سيارة وكنا ثلاثة ركّاب: شعلان أبو الجون، والكابتن كلوب أو أبو حنيك كما يعرف في البادية، وأنا. ولمّا حاذينا الموضع المعروف بـ(العارضيات) أمر شعلان سائق السيارة بالوقوف، فظننّا أنّه يريد قضاء حاجة، ولكنه لم يبرح السيارة، وإنّما أمر السائق أن يرفع سقف السيارة ويردّه إلى الخلف، وكان الجو شديد الحرارة... فاستغربنا ذلك... فإذا بشعلان قد انتصب واقفاً في وسط السيارة كالأسد الثائر، وقد رمى كوفيته وعقاله جانباً... وقد انتفخت

(١) العراق في رسائل المس بيل. سابق: ١٩٠-١٩٢.

أوداجه وتغيّر لونه... إنّها ذكريات الثورة اجتمعت عليه واحتشدت في ذهنه ونحن نجتاز ميادين الثورة حول الرميثة بين الديوانية والسماوة، ثم حدّق شعلان في أبي حنيك بعين مزورة وخاطبه بقوله... أتعرف هذه الأرض... نعم هذه (العارضيات) فردد شعلان... كانت هناك معسكرات (عمامك) يعني الإنكليز. جنودهم ودباباتهم ومدافعهم وسائر معدّاتهم. ومن هنا خرج... بني حجيم... على حين غرّة وأحدقوا بهم من كل صوب، وما هي إلّا ساعة لا تشبه الساعات كنت لا تسمع فيها إلّا دويّ المدافع، وأزيز الرصاص، ورعد الطائرات، وفرقعة القنابل، وصرخات القتلى، وأنين الجرحى. (حتى ثردنا إلك إياهم ثرد)..، واكفهرّ وجه كلوب! ولكنه لم يَفُهْ بحرف. ثُمّ واصل شعلان قائلاً: إنّ هذه الأرض لا تشبه بقية الأراضي، إنّها حمراء قانية من الدماء، مشحونة بالأشلاء... أفتدري لم كل هذه التضحيات؟ ولم ينتظر الجواب، بل أجاب نفسه بنفسه: لنؤسّس للعراق حكومة عربية مستقلة، والتفت إليّ قائلاً: أليس كذلك يا سلمان؟ قلت: بلى والله. وهنا قال أبو حنيك: لقد تم لكم ذلك يا شعلان. فلكم الآن حكومة ودستور وبرلمان ووزراء وموظفون... ولم ينتظر شعلان أن يتم كلوب كلامه، بل علّق عليه بقوله: (ولكنهم يرطنون). ثم لطم جبينه بكفه... وكأنّه يقول: لقد ربحتم المعركة وخسرتم النتيجة"[١].

***

١٠. المبدئية الدينية والوطنية في إداء الواجب

يقول المرجع الديني الكبير السيد محمّد سعيد الحكيم متحدثاً عن نتيجة الثورة ما يلي: "بعد الجهد والاجتهاد والثبات على المبادئ التي لم يثبت عليها إلّا القليل؛ تلاشت الثورة بعد أن أدّوا ما عليهم، وتحمّلوا تبعاته، حيث حوصروا وأُخيفوا واحتُجِزوا وشُرِّدوا عن أوطانهم، وأوذوا في سبيل الله تعالى كثيراً. كلّ ذلك وقوفاً عند المبادئ وأداءً للواجب الذي يرونه"[٢].

(١) الحقائق الناصعة في الثورة العراقية. سابق: ٤٧٣-٤٧٤.

(٢) المرجعية الدينية وقضايا أخرى. في حوار صريح مع المرجع الكبير السيد محمّد سعيد الحكيم. =

وكان الشيخ محمد رضا الشبيبي قد أجاب عن سؤال وُجّه إليه بقوله: "إنّ الغايات التي استهدفها كثير من المجاهدين المخلصين من جهودهم في الثورة وما قبلها وما بعدها؛ لا تعدو فيما نرى إرضاء ضمائرهم وإبراء ذمتهم من الخضوع للاستعباد والاسترقاق الناشئ عن السيطرة الاستعمارية الأجنبية.

وهذا كله أعني راحة الضمير وبراءة الذمة وأداء الواجب المفروض قد حصلنا عليه على أحسن وجه، وهو خير نتيجة لجهاد المجاهدين. ولا تقاس نتائج هذا الجهاد بالحصول على المكافأة المادية أو على المناصب أو على الباطل. وطالما كوفئ المجاهدون حقّاً بالأذى والحرمان فصبروا صبر الكرام وهذا ما وقع فعلاً، وطالما كوفئ المقصّرون العاقّون وبلغوا مقاصدهم الدنيوية، ولا ينبغي قطّ أن يُغبَطوا على ما حصلوا عليه من متاع الدنيا الذي يستمتعون به إلى حين"[١].

وعلى الرغم من التفاوت الكبير في تسليح الجيشين المتقابلين، فمن جيش يقاتل بأسلحته البدائية وبصدره العاري إلّا من الإيمان بقضيته الدينية والوطنية الحقة، إلى جيش دولة عظمى يقاتل بأحدث الأسلحة والمعدات المتطورة التي لم يَرَها العراقيون من قبل، ومع ذلك فقد كاد الفراتي الوطني المؤمن المقاتل أن ينتصر لولا الاستخدام الهمجي للطائرات العسكرية المقاتلة التي كانت تصب جام غضبها على كل شيء حتى على الحيوان والحجر والمدر، فضلاً عن المدنيين المسالمين الأبرياء من الرجال والنساء والأطفال الذين كانوا يتعبدون في مساجدهم أو يلتجئون إلى عتباتهم المقدسة وحسنياتهم ودور عبادتهم ومزارعهم وحقولهم وأراضيهم ومدنهم الآمنة، فكانت تلك الطائرات تدكّ تلك الأماكن دكّاً عنيفاً، ولولاها لِما انتهت الثورة إلى ما انتهت إليه؛ لأنّ عمليات القصف الجوي العنيف الذي لا يميز بين العسكري والمدني كانت حسب قول ولسون "إنقاذاً لنا" مضيفاً: "أعتقد فعلاً أن لولاها لكُنّا خارج بغداد الآن"[٢].

= الحلقة الثانية. سابق: ١٩٤.

(١) الحقائق الناصعة في الثورة العراقية. سابق: ٥٧٥.

(٢) اختراع الشرق الأوسط الحديث. صناع الملوك. كارل إي. ماير و شارلين بلير بريزاك. ترجمة فاطمة نصر: ٢١٣.

وطبيعي أن يعود المحتلون مهزومين من حيث أتوا لولا الطائرات، إذا عرفنا أن ما يُقدّر بتسعة أعشار شهداء ثورة العشرين قد "قُتِلوا في عمليات قصف القوات الجوية الملكية -و- كثير منها على أهداف مدنية"(١).

أما وقد انتهت الثورة المسلحة إلى ما انتهت إليه، فقد قال المرجع الأعلى وقائد الثورة الخلف شيخ الشريعة الأصبهاني بتاريخ (٢٧ صفر ١٣٣٩هـ/ ١٠ تشرين الثاني ١٩٢٠م) في ختامها "إنّي أرجو أن تكون عواقبها عزّ الإسلام وتوطيد شرف العرب"(٢).

وتحدّث سماحة المجتهد السيد محمّد صادق بحر العلوم -المعاصر للثورة والمؤرخ لها- مؤكّداً ما ذكره المرجع شيخ الشريعة الأصبهاني -كما تقدم في أعلاه من التفاؤل بالنتائج الإيجابية رغم الخسارة الظاهرة- بقوله: "إنّي أحسب وأظن أنّ الدولة الإنكليزية لا تكسب القرار في العراق بسبب هذه الثورة العظيمة، ولا يبقى لها استقرار، هذا وفي كل آنٍ تتزايد الفتن وتكثر المحن والعالم في انقلاب عظيم، سيّما الحكومة المحتلة؛ فإنّها في ارتكاب واضطراب.. هذا وإنّ العراقيين.. على ما كانوا عليه من الطلب بحقوقهم المشروعة غير مبالين بما جرى عليهم من الحكومة المحتلة، كأن لم يكن شيئاً مذكوراً.. فإنّهم لا زالوا يحرّضون الحكومة على ذلك، حيث إنّ العراقيين متفقون يداً واحدة، ومصرّون إصراراً تامّاً على الحرية التامة والاستقلال التام"(٣).

وقد صَدَّقت الوقائعُ اللاحقة لكتابته المبكّرة هذه ظنَّهُ وحدسَه، بل استشرافه لمستقبل العراق الآتي.

❀ ❀ ❀

(١) المصدر السابق: ٢٤٩.

(٢) المواقف المشتركة لعلماء العراق وإيران ضد الغزو الأجنبي للبلاد الإسلامية ١٩٠٥-١٩٢٠م. سابق: ٢/ ٤٧١.

(٣) السلاسل الذهبية. السيد محمّد صادق بحر العلوم. مخطوط: ٣٢٩.

الفصل الخامس

عرض الإنكليز على المرجعية الدينية العليا التفاوض المشروط بدل الثورة المسلحة وموقف المرجعية وزعماء الثورة منه

وفيه تمهيد وثلاثة مباحث هي:

المبحث الأول

رسالة الكولونيل ولسون إلى المرجع الأعلى سماحة شيخ الشريعة الأصبهاني

المبحث الثاني

رأي المرجعية العليا برفض التفاوض تحت الاحتلال أسبابه، والرأي فيه

المبحث الثالث

المبدئية الحقّة واستشراف المستقبل

وسأتناولها تباعاً مبتدئاً بالتمهيد

التمهيد

سعى الكولونيل أرنولد تالبوت ولسون نائب الحاكم الملكي العام في العراق إلى مدّ الخطوط مع المرجعية العليا في النجف الأشرف بعد أن توهج لهب الثورة ضد الاحتلال الإنكليزي توهجاً خطيراً، فبات قائد قواتها يخشى امتدادها إلى عشائر دجلة والمنتفق نتيجة نشاط وكلاء المرجعية الدينية والوطنيين فيها، بل بات يخشى امتداد لهب الثورة إلى بغداد نفسها، بعد أن كان الثوار قد قاربوها ولمّا، بعد أن دقوا أبواب حدودها من جهة الحلة إثر وصول طلائع مجاهديها إلى المحمودية واليوسفية[1].

لذا كتب الكولونيل ولسون نائب الحاكم الملكي العام البريطاني مجدّداً إلى المرجع الأعلى الخلف شيخ الشريعة الأصبهاني رسالة طويلة في (٥ ذي الحجة ١٣٣٨هـ/ ٢٠ آب ١٩٢٠م) معزياً بوفاة المرجع الأعلى الشيخ الشيرازي وعارضاً التفاوض لإنهاء الحرب.

حينها تدارست المرجعية ومستشاروها وشيوخ عشائرها وقواد الثورة الموقف فاختلفوا على رأيين.

ونظراً لأهمية الوقوف على حقيقة ما جرى، ولوجود أكثر من رأي في هذا الشأن بين قسم من مستشاري المرجعية العليا وشيوخ العشائر حينها، يحسن بي أن أتحدث بشيء من التفصيل عن رسالة ولسون الداعية للتفاوض، ووجهة نظر كِلا طرفي زعماء الثورة المختلفين حولها سواء أكانوا من مستشاري المرجعية العليا أم من بعض شيوخ العشائر المقاتلين، ثم أعرض أنموذجاً لرأي أحد مؤيدي التفاوض وأناقشه لأنتهي إلى الرأي الراجح من الرأيين المختلفين وأدلل عليه ببيان أسباب الرجحان.

---

(١) ينظر: وثائق الثورة العربية الكبرى. سابق: ٣/ ٣٣٧. والعراق في سجلات الوثائق البريطانية ١٩١٤-١٩٦٦. المجلد الثاني ١٩١٨-١٩٢١. سابق: ٣٠١.

المبحث الأول

رسالة الكولونيل ولسون
إلى المرجع الأعلى سماحة شيخ الشريعة الأصبهاني

وفي المبحث ست نقاط سأتناولها تباعاً:

١. مضمون الرسالة وفحواها

تحدثت سابقاً عن ورود رسالة تحريرية من السير ولسون مؤرخة في (٥ ذي الحجة ١٣٣٨هـ/ ٢٠ آب ١٩٢٠م) موجهة إلى المرجع الأعلى الخلف شيخ الشريعة الأصبهاني عارضة التفاوض لإطفاء لهب الثورة بعد ما عاناه المحتلون من شدة وصعوبة وخسارة وصفها معاصرها الشيخ جعفر محبوبة بقوله: "لمّا شعرت الحكومة المحتلة بحراجة الموقف، وظهر لها من الدلائل أن الثورة ستعم جميع البلاد العراقية فتكلفها حينئذ خسائر كثيرة"[١]؛ جاءت رسالة نائب الحاكم الملكي البريطاني العام في العراق إلى زعيم الثورة، يطلب منه فيها بعد التعزية بوفاة المرجع الشيخ الشيرازي عقد مفاوضات لوقف الحرب، مبتدئاً رسالته بالثناء على عدالة بريطانيا، وتسامحها الديني، وقوتها، وغناها، مهدداً بوصول الرجال والذخيرة والعتاد لدعم قواتهم الغازية، ومؤكداً على عزم المحتلين بمحاسبة شيوخ الثوار وقادتهم وغيرهم من الذين "ضللوا الناس" للاشتراك في الثورة، خاصة وأن أسماءهم معروفة عنده، زاعماً أنه قد عيّن الكولونيل هاول ناظر المالية نائباً عنه ليدخل في المفاوضات والمراسلات التي لا بدّ أن تجري قبل أن تنتهي المنازعات، قائلاً: بما أن "حضرتكم مشغولو البال في الأمور الدينية والمسائل الروحانية على الأغلب، فلهذا نرجوكم أن تعيّنوا معتمداً أو معتمدين لكي يلاقوا الكولونيل هاول في محل مناسب ويتباحثوا معه في هذه المسألة المهمة"[٢].

---

(١) ماضي النجف وحاضرها. سابق. مبحث القضية العراقية: ١/ ٣٦٩.

(٢) الثورة العراقية الكبرى. سابق: ٢١٤. وينظر نص الرسالة في المصدر نفسه: ٢١٢-٢١٥.

٢. رأيان برفض عرض التفاوض أو قبوله رضوخاً للأمر الواقع

وإذ تسلم المرجع الأعلى شيخ الشريعة الأصبهاني الرسالة، "استدعى إليه حاشيته ومستشاريه للمداولة في الأمر، ولمّا اجتمع هؤلاء عنده وعرض عليهم الرسالة انقسموا حولها إلى فريقين: فريق يستحسن المفاوضة مع الإنكليز، ويرى أن الثوار قد نفد ما لديهم من ذخيرة، وأن الإيمان وحده لا يكفي تجاه الجيوش الإنكليزية الجرارة"[١]، كما "أنّ المجهودات الكبيرة التي بُذلت لإثارة عشائر دجلة قد خابت، وما دام طريق هذا النهر في قبضة الحكومة فلا بدّ لها من أن تتغلب على الصعوبات التي تواجهها في سائر أنحاء القطر"[٢].

وقد تبنّى هذا الرأي بعض القادة من الشيوخ يأتي في مقدمتهم السيد محسن أبو طبيخ كما سيأتي تفصيلاً.

في حين ذهب الرأي الثاني إلى: "أنّ الإنكليز قد جُرّبوا من قبل، وأنّ المفاوضات والمذاكرات والاحتجاجات قد جرت كلها في ظروف مختلفة منذ بضعة شهور فلم تسفر عن نتيجة"[٣].

وقد تبنّت هذا الرأي "اللجنة الحيدرية، وكانت تمثل السلطة الشيعية العليا وعلى رأسها المجتهد الأكبر، وتتألف من أبو القاسم الكاشاني، وأبو الحسن الأصفهاني، وميرزا عبد المحسن[٤] ابن الشيرازي، وأحمد ملا كاظم الخراساني، والسيد نور الياسري، وكان المتكلم باسم اللجنة الحيدرية السيد أبو القاسم الكاشاني قد أعلن

---

(١) لمحات اجتماعية من تاريخ العراق الحديث. سابق: ٥/ القسم الأول: ٣٣٢. نقلاً عن: على هامش الثورة العراقية الكبرى. الشيخ علي الشرقي: ١٢٣

(٢) تاريخ القضية العراقية. سابق: ٢٦٠ و٢٦٩، وينظر -عن أنّ من أسباب عدم اشتراك عشائر دجلة في الثورة؛ توطيد علاقات الإنكليز مع رؤساء تلك العشائر وإغرائهم بالمال والجاه والاحترام الفائق- كتاب: الشيخ محمّد تقي الشيرازي القائد الأعلى للثورة العراقية ١٩٢٠. سابق: ٢٠٧.

(٣) على هامش الثورة العراقية الكبرى. الشيخ علي الشرقي: ١٢٣. وينظر: لمحات اجتماعية من تاريخ العراق الحديث. سابق: ٥/ القسم الأول: ٣٣٢.

(٤) الظاهر: عبد الحسين الشيرازي.

أنّ اللجنة ترفض الصلح مهما يكن نوعه، كما أنها ترفض الهدنة مع جيش الاحتلال والإدارة المدنية، مشيراً إلى أن أي تسوية سلمية من شأنها أن تمنح الإنكليز الفرص المناسبة لإعادة تنظيم أنفسهم على أسس أمتن من ذي قبل، وأن تضعهم في مركز القوة بحيث يُملون شروطهم"[١].

ورأت (اللجنة الحيدرية) مرجعها وأعضاؤها من كبار العلماء والزعماء بنظرة استراتيجية مستقبلية بأن: "من الخير أن تفشل الثورة، ويعرف الجميع أنها قد فشلت بنتيجة فقدان السلاح والذخيرة، من أن نرضخ للإنكليز بداعي الاستسلام لِما يسمونه بالأمر الواقع، هذا فضلاً عمّا يُرجى من تأثير الاحتجاجات في مسامع الدول الكبرى، فيتغير موقف الإنكليز بعض التغير على الأقل"[٢].

***

٣. الأخذ برأي المستشارين الرافضين للتفاوض والجواب على رسالة ولسون

بعد النقاش وتبادل وجهات النظر بين المرجعية ومستشاريها والشيوخ والقادة من متبني الرأيين بمن فيهم من كان في جبهات القتال؛ تقرر رجحان رأي الرافضين للتفاوض، فأقرّه المرجع الأعلى، على أن تكتب فيه رسالتان: رسالة إلى الرأي العام شديدة اللهجة، وأخرى جوابية إلى وكيل الحاكم الملكي العام ولسون بأسلوب أقل حدة تناسب مقام كاتبها المرجع الأعلى، فكان ممّا جاء في الرسالة الجوابية الطويلة لولسون، ما سأقتطعه منها على طوله لأهميته.

جاء في رسالة المرجع الأعلى الجوابية إلى السير ويلسون: "مرة بعد أخرى بثثنا نصائحنا.. وأنذرناكم قائلين لكم تداركوا الأمر قبل خروج علاجه عن مقدرتنا، ولا شك أنكم تعلمون أن تداركه بإعطاء العراقيين حقوقهم التي طالبوكم بها مطالبة سلمية، فأبيتم إلّا اغتصابها، وجعلتم أصابعكم في آذانكم حذراً من أن تسمعوا

(١) دور الشيعة في تطور العراق السياسي الحديث: ٢١٠. وينظر هامش الصفحة.

(٢) على هامش الثورة العراقية الكبرى. الشيخ علي الشرقي: ١٢٣. وينظر: لمحات اجتماعية من تاريخ العراق الحديث. سابق: ٥/ القسم الأول: ٣٣٢.

مطالباً بها، وأخذتم بعد الوعود بالوعيد، وبعد التأميل بالتضليل، واستعملتم الشدة والغلظة، فنفيتم، وقتلتم، وسجنتم، وأخفتم، وأضمرتم العداء الذي أظهرتم آثاره، وطلبتم نفوس أولئك المظلومين وأموالهم، وما يجب الدفاع عنه من حرمهم، فدافعوكم قياماً بواجبهم، وهاجمتموهم تبعاً لهوى نفوسكم، فوقفوا موقفاً حذرناكم عاقبته، وأنذرناكم سوء منقلبه... وقد جاء في كتابكم: (إن الحكومة الإنكليزية المعظمة قد اعتمدت دائماً على الأركان الثلاثة: وهي الرحمة والعدل والتسامح الديني)، فأما الرحمة فهي مقابلتكم للأمة العراقية عند مطالبتها باستقلالها بسوق الجيوش الجرارة عليها، وقتل الرؤساء، ونفي العلماء والمندوبين والزعماء، ورمي النساء والأطفال بأنواع النيران، وحرق بيوت وأموال ومزارع جميع من امتنع عن الإقرار بوصاية الإنكليز وطالبكم بتأسيس الحكومة العربية العراقية... وأما العدل -ف-بالقتل والإعدام لغير جرم وبدون محاكمة، والنفي والتبعيد لمجرد التفوّه بطلب الاستقلال، والزج في السجون لأقل شبهة، وعدم قبول استماع دعاوى ما على إنكليزي، وغير ذلك مما لا ينطبق على عقل ولا قانون. وأما التسامح الديني فهو رمي الطائرات والسيارات المدرعة المساجد، وقتل المتعبدين والنساء والأطفال، وتشكيل الإدارة العرفية لمعاقبة من يتصدى إلى عقد مجالس لقراءة منقبة النبيّ صلى الله عليه وآله في المساجد أو مأتم الإمام الحسين عليه السلام إلّا بأخذ جواز (باص) وقطع مراسم أعياد المسلمين المعتادة، وغير ذلك مما لو أردنا شرحه لطال.

والأعجب أنكم تطلبون التئام هذا الصدع الذي لا يُجبر كسره، وتقولون نحن لا نريد أن نجازي العراقيين كُلّاً، وإنما نجازي من أسماؤهم عندنا وعندكم معلومة، بزعم أنهم مفسدون، فكأن تعريف الفساد عندكم هو المطالبة بالحق، ونحن لا نعرف من أحوالهم إلّا أنهم طالبوا بحق فمنعتموهم، وأدرتم عليهم رحى الحرب الطاحنة، فدافعوكم عن أنفسهم وأموالهم وأعراضهم، ولو تركتموهم وحقهم ما سالت منكم ولا منهم قطرة دم... فأنتم السبب، وعليكم التبعة. ورأينا في الأمر أن يُمنح العراقيون استقلالهم التام خالياً عن كل شائبة، عارياً عن كل قيد.

أما أمر المفاوضة فلم تتضح لي غايته ولم أثق بحسن نهايته، وعلى كل فهو أمر دقيق يحتاج إلى جلاء وتأمل، ومن الله نسأل حسن الختام.

٢ محرم سنة ١٣٣٩
شيخ الشريعة الأصفهاني"[١].

***

٤. عدول طالبي التفاوض من قادة الثورة وشيوخها عن رأيهم

على الرغم من وجود من تبنّى التفاوض من القادة وشيوخ العشائر وبعض المستشارين كما تقدم، إلّا أنهم "اتفقوا أخيراً على تنظيم مضبطة يوقّعون عليها جميعاً ويوجّهونها إلى الدول الحرة يشرحون فيها حالهم، ويضعون اللوم في اندلاع الثورة على ضباط الإنكليز، ويؤكدون على أنهم لا يطلبون غير الاستقلال والحرية، وهم يرجون من الدول الحرة مساعدتهم في ذلك.

وقد تم تنظيم المضبطة في (١ محرم ١٣٣٩هـ/ ١٥ أيلول ١٩٢٠م). وقد وقع عليها (٧٣) ثلاثة وسبعون رئيساً وزعيماً عراقياً، وكتب عليها المرجع الأعلى شيخ الشريعة الأصبهاني العبارة التالية:

"بسم الله الرحمن الرحيم. هذه الورقة كُتبت بإملاء زعماء العراق ومشايخ عشائره، وهم الموقعون عليها بأسمائهم في: ١ محرم سنة ١٣٣٩.

حُرّر عن الجاني
شيخ الشريعة الأصبهاني"[٢].

***

(١) ماضي النجف وحاضرها: ١/ ٣٧٠-٣٧١. وقد اضطررت لطول الاقتباس؛ لأهميته التاريخية؛ ولتفاصيله الدقيقة؛ ولوضوح رؤيته التي ختمها بجملته الصريحة: "ورأينا في الأمر أن يُمنح العراقيون استقلالهم التام خالياً عن كل شائبة، عارياً عن كل قيد".

(٢) لمحات اجتماعية من تاريخ العراق الحديث. سابق: ٥/ القسم الأول: ٣٣٥.

٥. أنموذج لرأي طالبي التفاوض مع الإنكليز

لقد كان من جملة الداعين إلى التفاوض مع الإنكليز السيد محسن أبو طبيخ وقد عبر عن رأيه بقوله: "لقد كان رفض التفاوض قراراً انفرادياً فوّت علينا فرصة تاريخية، هدرت حقوق الثورة، وكان قراراً تنقصه الحكمة وبُعد النظر". معللاً ذلك بكونه والرافضين "أعرف بحقيقة الوضع منه، ومن القابعين في راحة بيوتهم في النجف، لقد كنا في مركز المتفوق، وكنا نعلم أن الإنكليز حتى لو انسحبوا من بغداد فسوف لا يتركوننا وشأننا نذلّهم أمام العالم، ولهذا كانت لنا فرصة ذهبية أن نتفاوض معهم ونحن الأعلون، ونحصل على مطالبينا بقدر أكثر إثر انهيار الثورة"[١].

***

٦. قراءة لموقف رافضي التفاوض مع المحتل، والرأي فيه

لو أردنا قراءة رأي الذاهبين إلى عدم التفاوض مع الإنكليز قراءة متأنّية لوجدناه الأصوب بكل تأكيد، ليس لأنّ قادة الثوار كانوا يستعدون لاقتحام بغداد وتحريرها من قوات الاحتلال فقط متى نجح اقتحامهم للحلة التي كانوا يدقون أبوابها بعنف؛ بل لأنّ إنهاء الثورة وإلقاء السلاح من دون تحقيق هدف الثورة الأساس الذي قدّمت الثورة من أجل تحقيقه آلاف الشهداء والجرحى والكثير الكثير من الخسائر في الأموال والمعدات هو الخسارة الكبرى، فلا حل بدون التحرير الكامل وهو ما نص عليه المرجع الأعلى شيخ الشريعة الأصبهاني في ختام رسالته الجوابية لرسالة ولسون الداعية للتفاوض بقوله: "ورأينا في الأمر أن يُمنح العراقيون استقلالهم التام خالياً عن كل شائبة، عارياً عن كل قيد". وهو غير وارد وقتئذ؛ لأنه يعني ببساطة إلغاء الإنكليز لقرار الانتداب البريطاني على العراق الذي اتخذته الدول العظمى في اجتماع روما.

---

(١) مذكرات السيد محسن أبو طبيخ. سابق: ١٦٨.

لقد اعترف السيد أبو طبيخ[١] أحد الداعين إلى التفاوض بذلك بقوله: "كنا نعلم أن الإنكليز حتى لو انسحبوا من بغداد فسوف لا يتركوننا وشأننا نذلّهم أمام العالم"[٢].

لقد كان رأي السيد أبو طبيخ وغيره من دعاة التفاوض مع الإنكليز حينها كما لخّصه هو نفسه بقوله سوف: "نحصل على مطالبينا بقدر أكثر مما لم نحصل عليه إثر إنهيار الثورة"[٣].

علماً "أنّ المفاوضات لو كانت قد تمت لَما أجدت نفعاً، ولَما استجاب الإنكليز لأي مطلب من مطاليب الثوار، نظراً لإصرار بريطانيا عى حكم العراق حكماً استعمارياً مباشراً" أو من وراء قناع، ولَباتت المفاوضات وسيلة جديدة للمكر والخداع ونقض العهود وخلف الوعود والاستثمار في الوقت كما سيأتي تفصيلاً في المبحث القادم، خاصة بعد أن تحدد "الموقف الرسمي للحكومة البريطانية كما لخصه هوبر تيانك -الموظف الكبير في وزارة الخارجية- هو أن الطريق الوحيد المفتوح أمامنا هو القتال حتى النهاية"[٤].

ثم أي قيمة لمطالب جزئية تحت ظل الاحتلال والانتداب؟! وما هي قيمتها حال قياسها بمطلب تحقيق الاستقلال التام الناجز وإقامة الدولة الدستورية؟! وهو ما أصرت عليه المرجعية العليا ومستشاروها والشيوخ الكبار والوطنيون الأحرار وقادة المجاهدين الثوار وثوارهم في سوح الجهاد كافة.

❀ ❀ ❀

(١) مذكرات السيد محسن أبو طبيخ. سابق: ١٦٨.

(٢) ثورة العراق التحررية ١٩٢٠. سابق: ١/ ١٦٢.

(٣) المصدر السابق نفسه.

(٤) العراق شهادة سياسية ١٩٠٨- ١٩٣٠. سابق:٦١.

المبحث الثاني

رأي المرجعية العليا برفض التفاوض تحت الاحتلال أسبابه، والرأي فيه

لقد رفض المرجع الأعلى وكبار مستشاريه التفاوض مع الإنكليز بعد تجريبهم له مرات عديدة، كونهم يحسنون قراءة الواقع الماثل أمامهم، ويجيدون اتخاذ الموقف المناسب تجاهه، لأسباب من أهمها:

أولاً: خلف الإنكليز المحتلين بوعودهم للعراقيين

لم يكن خلف ساسة الإنكليز لوعودهم التي قطعوها للشعب العراقي وللثوار العراقيين جديداً عليهم، فقد مارسوا خلف الوعد أكثر من مرة وفي أكثر من قضية سياسية في أكثر من بلد، وقد وثّق سماحة المرجع الأعلى الشيخ الشيرازي خلف الإنكليز بوعودهم بما ورد صراحة بكتاب سماحته الموجّه إلى عصبة الأمم في (٢٧ ذي القعدة ١٣٣٨هـ/ ١٢ آب ١٩٢٠م) الذي جاء فيه: "إنّ العراقيين طلبوا إنجاز مواعيد الدولتين المعظمتين البريطانية والفرنسوية بمنح الشعب العراقي الكريم استقلاله في إدارة شؤونه، وتدبير مصالحه العامة، وتأييد الدولتين لهذا الشعب الحر في إظهار رغائبه وحكمه الذاتي بتمام حريته، وعندما فاهت الأمة العراقية بطلب إنجاز هذه الوعود المقطوعة من الدولتين المذكورتين ثارت ثائرة الحكومة الإنكليزية فقامت معتمدة على قوتها دون الحق، ففتكت بالعراقيين فتكاً ذريعاً"[1]، كما تقدم.

وأما توثيق المحتلين أنفسهم لخلفهم بوعودهم مع الشعب العراقي ووطنييه، بل لعدم نيّتهم الوفاء بها مسبقاً -وهو الأخطر-، فقد ورد على لسان المستشارة الإنكليزية غيرترود بيل المعروفة بـ(المس بيل) بتاريخ (١٩ أيلول ١٩٢٠م/

(١) وثائق الثورة العراقية الكبرى. سابق: ٣/ ٢٥٢.

٥ محرم ١٣٣٩هـ) بصراحة شديدة من خلال قولها: "لم نُظهر أي علامات على نيّة الوفاء بوعودنا،.. لم نكن ننوي الوفاء بها ما استطعنا إلى ذلك سبيلاً"[١]، وسأتناول نماذج لعدم وفاء الإنكليز بوعودهم للعراقيين، وكما يلي:

١. خلف الإنكليز بتعهدهم الوارد بمنشور قيادة الجيوش الإنكليزية بعد احتلاهم لبغداد بقولهم صراحة إنّ جيوشنا لم تدخل مدنكم وأراضيكم بمنزلة (قاهرين أعداء) بل بمنزلة (محررين)، وهو مشهور.

٢. خلف الإنكليز بوعدهم الوارد ببلاغهم الفرنسي-البريطاني المشترك، الموزّع في طول العراق وعرضه، الصادر في (٧ تشرين الثاني ١٩١٨م/ ٤ صفر ١٣٣٧هـ)، المصرح بـ"أن السبب الذي من أجله حاربت فرنسا وإنكلترا في الشرق... إنما هو لتحرير الشعوب التي رزحت أجيالاً طوالاً تحت مظالم الترك، تحريراً تاماً نهائياً، وإقامة حكومات وإدارات وطنية تستمد سلطتها من اختيار الأهالي الوطنيين لها اختياراً حرّاً... وليس من غرض لفرنسا وإنكلترا أن تُنزلا أهالي هذه المناطق على الحكم الذي تريدانه، ولكن همّهما الوحيد أن يتحقق بمعونتهما ومساعدتهما المفيدة عمل هذه الحكومة التي يختارها الأهلون من ذات أنفسهم... تلك هي الأغراض التي ترمي إليها الحكومتان المتحالفتان في هذه الأقطار المحررة"[٢].

٣. خلف رئيس وزراء بريطانيا بوعده بازدهار العراق بعد احتلاله، إذ قال: "نحن دخلنا العراق ونرغب أن نجعله جنة عدن كما كان في الأزمنة الغابرة، وأن نعيد تلك المدنية الزاهرة التي كانت منتشرة فيه قبل آلاف السنين"[٣]، كما نقله عنه الملك حسين في خطابه عند مبايعة الإسرائيليين العراقيين له بالملك في حفل أقاموه له ببغداد في ١٨ تموز ١٩٢١م.

٤. خلف الإنكليز بوعدهم بإقامة حكم ذاتي في العراق. وليس أوضح من

---

(١) ثورة العشرين قراءة جديدة في ضوء الوثائق التاريخية. سابق: ١٢٨.

(٢) يقظة العرب. سابق: ملحق (هـ): ٥٩٠.

(٣) فيصل بن الحسين ومضات من سيرة الملك الزعيم. سابق: ٢٤٨.

خلفهم لهذا الوعد ما نصّ عليه قولهم في الفقرة السابقة، وما أوردته المستشارة البريطانية المعروفة في العراق المس بيل بقولها صراحة "إنّ الحقيقة المنطوية في الانتقادات كلها هي أننا كنا قد وعدنا بتأسيس مؤسسات يُمارَس فيها الحكم الذاتي، وإننا لم نتخذ أية خطوة للوفاء بذلك الوعد، ولم نكتفِ بذلك فقط، بل كنا منشغلين بتأسيس شيء يختلف عن الشيء الذي وعدنا الناس به تمام الاختلاف".

وتضيف إلى ذلك قولها: "تقول إحدى الجرائد وهي محقة: إننا كنا قد وعدنا البلاد بتأسيس حكومة عربية لها مستشارون بريطانيون، لكننا أسسنا حكومة بريطانية لها مستشارون عرب. وهو قول ينطوي على كثير من الإنصاف"[١]، وقد ورد هذا المضمون أيضاً في تعليق للورد كرزون وزير الخارجية البريطاني يومذاك على مقترحات ولسون للحكومة البريطانية[٢]، يوم أورد في برقية بعثها إلى السير بيرسي كوكس في طهران متحدثاً بها عن وضع العراق قوله: "من الواضح أن نظام الحكم المدني الذي يقام الآن لا يحقق إعلان نوفمبر ١٩١٨ المشترك، لا يرضي الطموحات المحلية.. إنه نظام للحكم البريطاني يعمل العرب فيه مستشارين (وهذا بقدر قليل فقط) بدلاً من أن يكون حكماً عربياً مع مستشارين بريطانيين"[٣].

وهناك غيرها لا يسع المجال لذكرها.

***

ثانياً:
الغدر بمن وثق بهم أو منحوه الأمان من زعماء الثورة وشيوخها

لقد غدر الإنكليز بمن وثق بهم من العراقيين أو منحوه الأمان بالأيمان المغلّظة فحضر للقائهم بناء على طلبهم للتفاوض معه على حلّ لمشكلةٍ مّا،

---

(١) العراق في رسائل المس بيل. سابق: ٢١٤-٢١٥.

(٢) المصدرالسابق: ٢١٥-٢١٦. و٢١٨ أيضاً. وينظر مع اختلاف بسيط في الترجمة: الثورة العراقية الكبرى. ١٩٢٠. د. عبد الله الفياض:١٤٧. نقلاً عن: الرسائل (باللغة الإنكليزية). المس بيل. الفصل الثاني: ٤٠٧.

(٣) اختراع الشرق الأوسط الحديث. صناع الملوك. سابق: ٢٠٤.

فاعتقلوه أو عذّبوه أو نفوه، من قبيل:

١. اعتقال الشيخ محمّد رضا الشيرازي، والثلة من الزعماء والقادة معه في كربلاء بعد ذهابهم إلى مقرهم إجابة لطلبهم اللقاء بهم، فاعتقلوهم ونفوهم إلى هنجام[١] كما تقدم.

٢. اعتقال الشيخ سعدون آل رسن رئيس قبيلة الأقرع بعد أن طلبوا منه اللقاء فذهب إليهم فاعتقلوه وسجنوه في الديوانية.

٣. إلقاء القبض على الشيخ شعلان آل عطية بعد حضوره عندهم، وسجنه في الديوانية[٢].

٤. إلقاء القبض على الشيخ شعلان أبو الجون رئيس عشيرة الظوالم بعد استدعائه إليهم للمداولة، "ولكن هذا الزعيم شعر بقصد الحاكم، فقال لزميله الزعيم الشيخ غثيث الحرجان: (إني غير آمن من شر هذا الحاكم فيجب الاستعداد لتخليصي فيما إذا اعتُقلت أو قرّر نفيي)، وسار الشيخ شعلان إلى الرميثة يوم الجمعة (١٣ شوال ١٣٣٨هـ/ ٣٠ حزيران ١٩٢٠م) لمقابلة اللفتنت (هيات)، فلما وصل قابله الحاكم بالكلمات القارصة وأسمعه كلاماً مرّاً، فقابله الزعيم بأشد منها، فأمر الحاكم باعتقاله وإرساله إلى الديوانية بأسرع وقت، فمذ وصل إليها زُجّ في السجن"[٣].

٥. اعتقال الوجيه الكبير الحاج مخيف المجاهد الذي وصفته الوثائق البريطانية بأنه "أنشط المؤثرين في لواء الديوانية ببرنامجه... وهو رجل ذو قدرة معتبرة، ويتمتع بسمعة واسعة بوصفه مسلماً صالحاً... وحين تأكد نشاطه في الحث على المقاومة المسلحة للحكومة اعتُقل وأُرسل إلى البصرة"[٤]، وكان الشيخ

(١) لمحات اجتماعية من تاريخ العراق الحديث. سابق: ٥/ القسم الأول: ٢١٠.

(٢) ينظر: اعتقال الشيخ سعدون والشيخ شعلان في: الثورة العراقية الكبرى. سابق: ٢١٠.

(٣) ماضي النجف وحاضرها. سابق: ١/ ٣٦٤.

(٤) العراق في سجلات الوثائق البريطانية. المجلد الثاني ١٩١٨-١٩٢١. سابق: ٢٩٩.

الكبير رئيساً لقبائل عفك وكبير وجوه المنطقة، وقد اعتقل معه الشيخ شعلان العطية المتقدم ذكره؛ "لامتناعهما عن التوقيع على صك الوصاية الإنكليزية"[١]. كما اعتُقل معهم الحاج صلال الفاضل الموح[٢] أيضاً.

٦. منح الأمان بشرف الإنكليز معززاً (بالراي والحظ والأمان والبخت) ثم الاعتقال، وهو ما حصل للمجاهد الشيخ عبد الواحد آل سكر بعد أن صدق عرضهم بالحضور إليهم رغم رفض رفاق دربه الذين كانوا معه وتحذيرهم له من تصديق الإنكليز، ذلك أنّ القائد الإنكليزي كان عرض ذلك على زعماء الثورة بعدما قرروا الهجرة إلى خارج العراق إثر انتهاء الثورة، وهم كل من: السيد نور الياسري، والسيد علوان الياسري، والسيد هادي مكوطر، والحاج سعدون وأخيه عمران الحاج سعدون، ومرزوق العواد، وشعلان الجبر، فلم تخدعهم دعاوى الإنكليز، ولا وعودهم المخاتلة، ولا عهودهم التي قطعوها على أنفسهم بالأمان بشرف إنكلترا ووثقوها بـ"الراي والأمان والبخت"[٣]، ثم نكثوها، لذلك لم يستجيبوا لطلب عدوهم بتسليم أنفسهم تحت غطاء التفاوض والتشاور خلافاً للمجاهد الكبير الشيخ عبد الواحد آل سكر، الذي عزم على اللجوء إلى الحجاز مع صحبه ورفاق دربه من حملة ألوية الجهاد، فاشترى لهذا الغرض أربعين بعيراً، ولكن الشيخ المجاهد غيّر رأيه إثر وصول رسالة من حاكم لواء الشامية والنجف ومن قائد قوات الفرات الأوسط الإنكليزيين إليه يقولان فيه: "احضر عندنا لأجل بعض المذاكرات، وأنت أمين بشرف حكومة بريطانيا وبالحظ والبخت تأتي سالماً وتعود غانماً، وبوجداننا نحن الموقعين بعد المذاكرة ترجع لمحلك إلخ"[٤]، فاطمأن لهما، وسلمهم نفسه، درءاً للخطر عن قبيلته، فما كان منهم إلّا أن وصفوه

(١) ثورة العشرين في ذكراها الخمسين. سابق: ١٠٢.

(٢) مذكرات الحاج صلال الفاضل الموح: ٨.

(٣) مذكرات السيد محسن أبو طبيخ. سابق: ٢٠٤.

(٤) لمحات اجتماعية من تاريخ العراق الحديث. سابق: ٥/ ١/ ١٥٤.

بـ"الخائن"[١]، وأوقفوه في سجن الكوفة، ثم نقلوه إلى سجن الحلة، ثم أُحيل إلى محكمة عسكرية في النجف، قَدّم فيها مثالاً رائعاً من الشجاعة والصلابة والقوة والعزة وحماية الآخرين من زملائه المجاهدين بقوله للمحتلين: إنه هو المسؤول وحده عن قيام الثورة، إذ لم يقم بها أحد غيره، فحُكم عليه بالنفي إلى خارج العراق، ثم سيق إلى سجن الحلة، مقيّد الرجلين بالسلاسل الحديدية "التي كانت تمنعه من أداء الصلاة كما ينبغي، مع العلم أنه كثير التهجد في صلاته. فانتهز عبد الواحد زيارة أحد الضباط البريطانيين للسجن، فصار يشكو له من هذه المعاملة، وذكر له كيف أنه سلّم نفسه بعد أن جاءه تعهد من الإنكليز بشرف بريطانيا، وبالحظ والبخت على أن لا يمسّوه بسوء، وتساءل عبد الواحد: أين هو شرف بريطانيا..؟ فطلب منه الضابط أن يريه ورقة التعهد، فأخرجها عبد الواحد إليه، فقرأها الضابط، ثم طواها ووضعها في جيبه، وخرج. وفي اليوم التالي عاد الضابط إلى السجن ومعه حداد، وأمر الحداد بكسر السلسلة عن قدمي عبد الواحد، كما أمر بإلباسه الملابس الاعتيادية"[٢].

ولم ينتهِ الأمر مع الزعيم المجاهد الشيخ عبد الواحد آل سكر بما تقدم، بل نقلوه مرة أخرى إلى سجن بغداد، ومنه إلى البصرة.

لقد اتضح وعي قادة الثورة وزعمائها برفضهم الثقة بالإنكليز قبل رفضهم عرض الأمان الذي قدمه لهم الإنكليز خلال رحلة سفرهم إلى الحجاز، فقد رفضوا خلال الثورة مقابلة الإنكليز في مراكز الحكومة الرسمية خشية اعتقالهم، وقد تجلّى ذلك في رفض الشيخ عبد الواحد آل سكر نفسه تلبية دعوة حاكم أبو صخير (الكابتن هوبكنز) له للمذاكرة في مقر الحكومة، ما اضطر معه حاكم أبو صخير يومها إلى الذهاب إلى الشامية عند الحاج رايح العطية. وحين تم عقد اللقاء بينهما قال الكابتن (هوبكنز): إنه موفد من حاكم لواء الشامية والنجف (الميجر نوربري)،

(١) المصدر السابق نفسه.

(٢) لمحات اجتماعية من تاريخ العراق الحديث. سابق: ٥/ القسم الثاني: ١٩٣- ١٩٤.

وأن الحكومة تطلب حضور زعماء الثورة وشيوخها في أبو صخير للمذاكرة معهم، فرفض الشيخ عبد الواحد آل سكر الطلب باعتباره ممثلاً عن زعماء الثورة والمشايخ كلهم في الاجتماع قائلاً للكابتن الإنكليزي (هوبكنز): "إنّ نجل الشيرازي الذي هو أكبر شأناً منا نفيتموه عندما تمكنتم منه، فكيف نأمنكم على أنفسنا؟! والأحسن أن تبلغ الحاكم السياسي في اللواء أن يجتمع بنا إذا شاء في المشخاب"[1].

وإذا كانت الخديعة قد مورست وانتهت باعتقال الشيخ عبد الواحد آل سكر وهو في طريق سفره إلى الحجاز كما تقدم، فإن أكثر من مثيل لها سبقها، منها ما تقدم في محاولتهم استدراج الحاج عبد الواحد وزعماء الثورة في (١٤ شوال ١٣٣٨ هـ/ ١ تموز ١٩٢٠م) المتقدم ذكرها.

ومنها ما سبقتها بأيام، وهي التداول بأمر اعتقال ثلاثة من كبار علماء وزعماء الثورة: أحد أهم مهندسيها، واثنين من أهم مموّليها وقادتها الميدانيين، حيث طرح الحكام العسكريون الإنكليز في الفرات الأوسط في اجتماعهم بالكوفة بتاريخ (١٠ شوال ١٣٣٨هـ/ ٢٧ حزيران ١٩٢٠م)، وهم ضباط مناطق: الحلة والديوانية والكوفة والشامية وأبو صخير والحميدية و الهندية والنجف، فكرة دعوة أحد أهم مفكري الثورة وحركييها المجاهد المجتهد الشيخ عبد الكريم الجزائري، ومعه المجاهد السيد نور الياسري أحد أهم مموّلي الثورة ووجوهها الاجتماعية النافذة القول في عشائر الفرات الأوسط، ومعهما المجاهد السيد علوان الياسري القائد الميداني والداعم لميزانية الثورة بغزير ماله، فنالت فكرة دعوة هؤلاء الثلاثة -إلى اجتماع معهم بدعوى التداول حول الوضع الراهن-، فإذا حضروا يلقى القبض عليهم، ويسفّروا إلى خارج العراق، لكون الشيخ الجزائري همزة الوصل بين العلماء والقبائل، وذلك بعد تصاعد لهب الثورة ليشمل مدن الفرات الأوسط، وقد حضر الاجتماع مع الضباط الإنكليز المكلف بإدارة مدينة النجف الأشرف من قبل المحتلين المدعو حميد خان، ولولا تحذيره لهم بأن اعتقال هؤلاء

(١) ثورة العشرين في ذكراها الخمسين معلومات ومشاهدات. سابق: ٩٥- ٩٦.

الثلاثة سيؤدي إلى إفلات وضع مدينة النجف الأشرف من أيديهم لَما عدلوا عن تنفيذ الدعوة لغرض الاعتقال[١] بعد أن "كتبوا إلى الحاكم الملكي العام في بغداد.. فلم يوافق على إبعادهم، بل طلب إحضارهم وتوسطهم إلى تهدئة الناس"[٢].

٧. مخطط الإنكليز لاعتقال زعماء الثورة خلال انتظارهم انتهاء موعد إنذارهم للإنكليز، ففي يوم (١٤ شوال ١٣٣٨ هـ/ ١ تموز ١٩٢٠م) حضر الحاكم نوربري عند الحاج عبد الواحد آل سكر، زاعماً أنه جاء ليبشره بموافقة الإنكليز على تنفيذ مطالب الزعماء بدءاً بالإفراج عن المعتقلين، وأنهم سينفذون مطاليب الثوار الأخرى قائلاً: "إني أرغب أن تحضر أنت وبقية الزعماء والرؤساء لتطّلعوا على ما جاءني من الحاكم الملكي العام. فأجابه عبد الواحد: أما أنا فمريض.. وأما الزعماء والرؤساء فلا أظنهم يوافقون على الذهاب، أما إذا كان عندكم شيء في صالح العراق فيمكنكم أن تبلغوا الزعماء والرؤساء به عن طريق العلماء والصحف.. فأصرّ عبد الواحد على أنه مريض، ورجع الحاكم خائباً، إذ ذهبت محاولاته هباء والتي أراد بها جمع الرؤساء والزعماء في النجف بغية نفيهم وإلحاقهم بإخوانهم أحرار كربلاء والحلة، وبعد عودة الحاكم أخبر عبد الواحد إخوانه السيد نور والسيد علوان والسيد محسن والآخرين من الرؤساء بذلك ليتدبروا أمرهم"[٣].

٨. مخطط لاحق للمخطط الأول من قبل الإنكليز لاعتقال كبار زعماء الثورة وشيوخها أثناء اجتماعهم بهم بناء على طلب الإنكليز، وإفشال قادة الثوار لذلك المخطط الجديد.

يقول الشيخ فريق المزهر آل فرعون وكان حاضراً معهم وقد دوّن شهادته بقوله: "بينما كان زعماء ورؤساء العشائر مهتمين بأعمالهم... جاءهم طلب من

(١) تنظر: ثورة العشرين في ذكراها الخمسين معلومات ومشاهدات. سابق:٩٩، والثورة العراقية الكبرى. سابق: ١٨٥، وتاريخ النجف الأشرف. سابق: ٣/ ٢٧٥. علماً بأني رجّحت رواية المصدر الأول المختلفة قليلاً لمشاركته المباشرة في الثورة .

(٢) الحقائق في الثورة العراقية. سابق: ١٩٤.

(٣) المصدر السابق نفسه: ١٣٩.

الحاكم نوربري يطلب فيه الاجتماع معهم في المكان الذي يعينونه، فقرروا أن يكون الاجتماع في مضيف أحد شيوخ عشائر قضاء الحميدية وهو الشيخ مرزوك العواد... اجتمع الزعماء والرؤساء عند مرزوك العواد يوم (٢٠ شوال ١٣٣٨هـ، الموافق ٧ تموز ١٩٢٠) وهم: عبد الواحد الحاج سكر، علوان الحاج سعدون، السيد محسن أبو طبيخ، مجبل آل فرعون، رايح العطية، سلمان الظاهر، السيد علوان السيد عباس الياسري، محمد العبطان، سلمان العبطان، عبادي الحسين، شعلان الجبر، السيد نور السيد عزيز الياسري، هنين الحنون، ومؤلف هذا الكتاب. ومع كل رئيس عشيرة رجال بكامل أسلحتهم من خيرة الفرسان شجاعة وفروسية، وبينما كانوا ينتظرون قدوم (الميجر نوربري) إذ جاءهم حاكم الشامية الكابتن (مين) ومعه قوة من الشرطة والليفي مؤلفة من سبعين إلى خمسين نفراً مسلحين بغية الفتك بالزعماء الأحرار... والقضاء عليهم، وعندما رأى حاكم الشامية المسلحين وآمن بأن قوته لا تتمكن أن تقاومهم سقط الأمر من يده واصفرّ وجهه وابتسم ابتسامة الثعلب"[١].

وقد دوّن المؤرخون هذه المحاولة الغادرة، ومنهم د. علي الوردي، إلا أنه ذكر بأن الاجتماع كان في يوم (٥ تموز ١٩٢٠م) وهو غير دقيق، خاصة بعد شهادة حسية من الشيخ فريق المزهر آل فرعون الذي كان حاضراً في الاجتماع، وذكر الوردي أيضاً أنه: "لوحظ أن رؤساء آل فتلة كان معهم عند قدومهم إلى الاجتماع نحو مائتي مسلح من أتباعهم... ويشير مصدر بريطاني إلى أن النية كانت متجهة إلى اعتقال عبد الواحد آل سكر، وعلوان الياسري، غير أن وجود الأتباع المسلحين منع اعتقالهما"[٢].

وينوّه السيد عبد الرزاق الحسني إلى عدم حضور "أحد من رؤساء السماوة هذا الاجتماع"[٣]، وهو طبيعي؛ لانشغالهم بعمليات قيادة الثورة في مناطقهم حيث كانت ناشبة في موعد هذا اللقاء.

---

(١) المصدر السابق: ١٩٨-١٩٩.

(٢) لمحات اجتماعية من تاريخ العراق الحديث. سابق: ٥/ ٢٤١-٢٤٤. وتنظر هوامش الصفحات.

(٣) الثورة العراقية الكبرى. سابق: ٢٠٢.

وينقل الشيخ محمّد مهدي البصير هذه الحادثة مع اختلاف بسيط في الزمان، وأن قوة الإنكليز خرجت وحدها لاعتقالهم، وينقل نتفاً من الحوار الذي دار هناك، فيقول: إنّ اللقاء جرى في "محل قريب من الحميدية، وكان يوم (٢٠ شوال الموافق ٧ تموز).. وبينما هم ينتظرون.. إذ وصلتهم الأخبار بأن الحاكم المشار إليه لم يجئ إلى الحميدية، بيد أنه أرسل إليها قوة صغيرة بغية إلقاء القبض عليهم، ولكن هؤلاء لم يعيروا خبر إرسال القوة إلى الحميدية جانباً من الاهتمام؛ لأنهم كانوا على استعداد تام للطوارئ، ولديهم النجدة الكافية من رجالهم المسلحين، وعلى إثر ورود تلك الأخبار إليهم خرج الكابتن مين حاكم الحميدية لمقابلتهم، فلما ألفاهم قد حملوا السلاح بدأهم بقوله: يخيل إليكم بأنكم قدراء على مقاومة الحكومة الإنكليزية، وأن بنادقكم هذه ستمنعكم منها، فأجابوه بأن العراق غير الهند، وما دامت البنادق على العواتق فإنهم يستطيعون أن يعملوا كلّ شيء"[1].

لقد كان زعماء الثورة المجتمعون على علم بمخطط بريطانيا القاضي بإلقاء القبض عليهم وتسفيرهم لتقضي على الثورة في مهدها تحت ستار غادر هو دعوتهم للاجتماع بهم ثم إلقاء القبض عليهم وتسفيرهم، إنهم صرحوا بذلك للضابط الإنكليزي مين بعد أن سألوه عن سبب مجيء الميجر نوربري الذي كان الاتفاق أن يكون هذا الاجتماع معه، فأجاب: "حدث عنده شغل مهم أخّره عن المجيء... وعندما تذهبون معي إلى الكوفة أو إلى النجف لمواجهته.

وكان هناك أمر دُبّر بليل يقصد منه إلقاء القبض عليهم ونفيهم مع أصحابهم والقضاء على الحركة ما دامت في أولها، فأجابه الزعماء إنهم غير آمنين من السلطة... وأننا جربنا فآمَنّا أن الحكومة البريطانية لا تريد إلّا نفي الزعماء إلى خارج العراق كل ما تمكنت أن تحتال على بعضهم بإلقاء القبض عليهم، ولذلك نحن لا نرضى أن نسعى إلى حتفنا بظلفنا كما فعل إخواننا في كربلاء، ومن أجل ذلك قررنا أن لا نذهب إلى محل إلّا ونحن على إيمان بالقوة التي معنا هي أكثر من القوة الموجودة

(١) تاريخ القضية العراقية: ١/ ٢١٤.

هناك، فإن شاء الميجر نوربري مواجهتنا كلنا أو بعضنا فليتفضل إلى أي مكان يُعيّنه من أماكن العشائر، فنحن حاضرون لمقابلته والتفاهم معه"[١].

وهناك غيرها لا يسع المجال لذكرها، وما ذكرته كافٍ للتدليل على تمادي المحتلين بأسلوب المكر والخداع لتحقيق مآربهم بطرق غير شريفة[٢].

***

ثالثاً: نقض الإنكليز لعهودهم واتفاقياتهم التي أبرموها ووقّعوها في مفاوضاتهم مع زعماء الثورة وقادة جبهاتها العسكرية

لم يكن نقض الإنكليز لعهودهم واتفاقياتهم مع زعماء الثورة وقادتها جديداً عليهم، فقد مارسوا نقض العهد أكثر من مرة وفي أكثر من قضية سياسية وفي أكثر من بلد، وإذا كان ضيق المساحة المخصصة لذلك لا يسمح لي باستعراض نماذج منها مع غير العراقيين؛ فسأكتفي بالإشارة إلى بعضها كنقضهم لاتفاقية (حسين-ماكماهون)، ونقضهم لعهودهم المعلنة بما صدر في قرارات مؤتمر سانت ريمو وتطبيقاته، حيث سيجد المتابع "أنّ أشد ما فيها تعرُّضاً للنقد (نقض العهد)؛ لأنه كان خليقاً أن يثير مقاومة مسلحة ويتقاضى ضريبة لا يعلم إلّا الله مقدارها من النفوس والآلام"[٣] وهو ما كان[٤].

أما نقضهم لعهودهم واتفاقياتهم مع قادة وزعماء الثورة العراقية، فمنها:

١. نقض الإنكليز لهدنة فك الحصار عن قواتهم المحاصرة في (حامية أبو صخير)[٥]،

---

(١) الحقائق الناصعة في الثورة العراقية: ٢٠١ – ٢٠٢.

(٢) ينظر مثلاً المصدر السابق تحت عنوان "خديعة لإنقاذ حامية أبي صخير" ص٢١٤. واعتقال سلمان الموسى بعد طلب حضوره لمقابلته في المصدر نفسه: ٢٢٣ – ٢٢٤.

(٣) يقظة العرب. جورج أنطونيوس: ٤٧٦.

(٤) ينظر نص اتفاقية سايكس-بيكو المعقودة بتاريخ (١٦ مايو ١٩١٦م) في الملحق (ب) من المصدر السابق: ٥٧٧- ٥٨٢.

(٥) ثورة العشرين في ذكراها الخمسين. معلومات ومشاهدات. سابق: ١١٣- ١١٤، ووثائق الثورة العراقية الكبرى. سابق: ٣/ ٢٢٣.

تلك الهدنة المنعقدة بتاريخ (٢٩ شوال ١٣٣٨هـ/ ١٦ جولاي ١٩٢٠م)، وقد تقدم ذكرها سابقاً.

٢. نقض الإنكليز لاتفاقهم مع قبائل بني حجيم في السماوة بعد أن عرضوا على الثوار إجراء مفاوضات لعقد الصلح بينهما، فقبل الثوار مبدئياً، "وتم القرار على توقيع شروط الصلح في اليوم الثاني، وكان ذلك سبباً لتفرّق الثوار ورجوعهم إلى مساكنهم إلّا عدداً قليلاً منهم لم يصل إلى المائة وعلى رأسهم شعلان أبو الجون رئيس الظوالم، فإنهم ظلوا مرابطين في جسر السوير. وعند بزوغ الفجر"[١] خرق الإنكليز اتفاقهم بأن "أوعزت السلطة الإنكليزية إلى جيشها بالهجوم على مراكزهم لينقادوا لهم أذلة صاغرين، فلما عرفوا ذلك وطّدوا العزم على صدّ المهاجمة، وأفلحوا في ذلك، وبعد أن خمدت النائرة دخلوا في المفاوضة، فتقرر صلحهم مع الحكومة على شروط"[٢]، وذلك بتاريخ (١٥ ربيع الأول ١٣٣٩هـ/ ٢٧ تشرين الثاني ١٩٢٠م)"[٣].

***

رابعاً:
خداعهم لبسطاء العراقيين والتغرير بهم واستغفالهم

لقد لجأ المحتلّون الإنكليز إلى خداع البسطاء من الناس بأسلوب لا يليق برجل، ناهيك عن ممثلي دولة كبرى تزعم ما تزعم زوراً وبهتاناً؛ ذلك "أنهم -الإنكليز- أبرزوا لجماعة من الأعراب أوراقاً مالية زراعية وطلبوا تواقيع الأعراب فيها، فظهر بعد ذلك أنها أوراق اعتراف بالوصاية الإنكليزية على العراق"[٤].

---

(١) ثورة العراق التحررية ١٩٢٠. سابق. المجلد الأول: ١/ ١٧٢-١٧٣.

(٢) ماضي النجف وحاضرها. سابق: ١/ ٣٧٥.

(٣) وثائق الثورة العراقية الكبرى. سابق: ٣/ ٣٨٠.

(٤) مقتطف من رسالة بعثها قادة الثورة إلى الدول الأجنبية عبر هولندا.

يقول المجتهد السيد محمّد صادق بحر العلوم متحدثاً عن هذا العمل الشائن: "إنهم أبرزوا لجماعة من العرب أوراقاً بالخط الإنكليزي زاعمين أنها أوراق مالية زراعية، وطلبوا توقيع الزعماء عليها، ثم انكشف أنها أوراق اعتراف بالوصاية للإنكليز على العراق وضايقوا جماعة منها على هذا الاعتراف"[١].

يذكر أن الخداع والكذب حاله حال نقض العهود ليس جديداً على ساسة الإنكليز ومسؤوليهم، وهناك أكثر من مثل على ذلك، "إذ ليس ثمة ما يسوّغ الرسالة التي أمر القائد هوجارث بحملها إلى الملك حسين في (كانون الثاني عام ١٩١٨-م/ ربيع عام ١٣٣٦هـ-) حول الضمانات المتعلقة بوعد بلفور، وليس ثمة ما هو أشد من تلك الرسالة نفاقاً وتغريراً" وخداعاً ومكراً.

ليس هذا فحسب، بل زادوا على ذلك يوم أنكروا للشريف حسين أيضاً توقيعهم على اتفاقية سايكس-بيكو في رسالتهم الأخرى التي "أُرسلت إليه بعد شهر، موقعة بإمضاء وزير الخارجية، لتخدعه، فيعتقد أنّ اتفاقية (سايكس-بيكو) ليست سوى اختلاق نسج خيوطه الخيال التركي البلشفي، وحين تتنزل بلاد عظيمة ذات تقاليد ركينة في حسن المعاملة والحنكة السياسية إلى مستوى الخداع... فإنه من اللائق بالعرب أن يتذكروا أن الحرب والعدالة لا يصطحبان"[٢]، رغم أنها (اتفاقية سايكس - بيكو) حقيقية وموقعة من قبلهم.

ومن حالات الخداع الأخرى المتعددة ما وصفه ضابط الاستخبارات البريطاني (العقيد لاحقاً) لورنس في أكثر من مكان في كتابه متحدثاً عن دوره في خداع الشريف فيصل وجيشه المتوجه لتحرير سوريا من الأتراك خدمة لسياسة بريطانيا ومصالحها في الشرق العربي، كصريح قوله مثلاً: "كنت أستغل أثمن ما عند العرب: حبّهم للحرية كأداة من أجل نصرة إنكلترا"، وتحدث مرة عن تعلق العرب بالحرية وتضحيتهم بالغالي والرخيص في سبيل نيلها بقوله:"حتى أنا الأجنبي المخاتل

(١) السلاسل الذهبية. مخطوط. سابق: ٣١٢.

(٢) يقظة العرب. سابق: ٥٢٣.

المنافق الذي كان ينفخ في الآخرين الروح الوطنية كنت أحس بشيء من الانعتاق لدى توقفي عند هذه الفكرة... رغم انعدام خلوص النية وسلامة الطوية في لعبتي... كنت ألعب دوري بلباقة".

وقد كان حاول لورنس مرة ترك عمله كمستشار لفيصل والعودة إلى ممارسة مسؤولياته كضابط استخبارات حاله حال غيره من الضباط، فرفضت قيادته قراره رفضاً قاطعاً فكتب عن ذلك يقول: "فُرض علَيّ أن أعود من جديد إلى لبس قناع الخداع في الشرق"[1].

وهناك غير هذه النماذج مما لا يسع المجال لاستعراضها.

***

خامساً: التمويه وإخفاء الواقع

لقد اتّبع المحتلّون سياسة التمويه وإخفاء الواقع عن العراقيين، من قبيل:

١. تمويه ولسون على العراقيين بدعوى سعيه لمعرفة رأيهم الحقيقي في شأن حكم بلدهم. وفي الوقت نفسه استدعى الحكّام الإنكليز في الألوية "وطلب منهم الحصول على مضابط بالأجوبة المؤيدة لسياسته" رفقة تعليمات تنفيذية للحصول على المطلوب من المواطنين تحصيله وهو الموافقة على تنصيب حاكم إنكليزي عليهم أو طلب الحماية البريطانية المطلقة وأمثالها، عن طريق اجتماعه بشكل سري بالشخصيات البارزة كلٌّ في منطقته لاستكشاف اتجاهات الرأي العام فيها، "فإذا ظهر له أن الاتجاه سيكون ملائماً، عقد اجتماعاً كبيراً يضم جميع الوجهاء والرؤساء في المنطقة، وعليه عند ذاك أن يجمع منهم أكبر عدد من التواقيع، أما إذا ظهر أن الرأي العام في المنطقة منقسم، أو أنه ذو اتجاه غير

(١) أعمدة الحكمة السبعة. سابق: ٣٨٥ و٣٨٧ و٣٤٩.

مرغوب فيه، فيجب عليه أن يؤجل عقد الاجتماع، ثم يتصل ببغداد لأخذ التعليمات المناسبة"[١].

٢. التمويه وإخفاء الواقع بالإخراج الصوري لمضابط تزعم بأن العراقيين يرغبون بالحماية البريطانية عليهم، من أمثال استدعاء حاكم الحلة البريطاني بعض وجوه الحلة إليه "فاجتمع سبعة رجال ورأسهم حضرته، وقرروا طلب تعيين السير برسي كوكس ملكاً على العراق، على أن تبسط الحكومة البريطانية ظل حمايتها عليه"[٢].

***

سادساً: إجبار العراقيين على الرضوخ لسياساتهم

لقد مارس الإنكليز سياسة الضغط لإجبار العراقيين من قبل قادة الإنكليز بالرضوخ لسياستهم المرفوضة من العراقيين من أمثال قبول "الاعتراف بالوصاية للإنكليز على العراق" متى أمكنهم ذلك، فقد جاء في وثائق مرجعية الثورة أنهم "ضايقوا جماعة منا بالصراحة على هذا الاعتراف"[٣]، وهو ما ورد نصّاً في الرسالة التي بعثها المرجع الأعلى شيخ الشريعة الأصبهاني وكبار الزعماء والشيوخ والثوار إلى عصبة الأمم وقادة العديد من رؤساء الدول الكبرى والمجاورة عن طريق السفارة الهولندية في طهران بتاريخ (١ محرم ١٣٣٩هـ/ ١٥ أيلول ١٩٢٠م) مستشهداً بما قام به الميجر دالي الحاكم السياسي البريطاني للديوانية، حيث استدعى "لفيفاً من رؤساء القبائل في عفك والديوانية لحملهم على توقيع مضبطة يطلبون فيها الوصاية الإنكليزية على العراق ليوافي بها الحاكم الملكي العام

(١) لمحات اجتماعية من تاريخ العراق الحديث. سابق: ٥/ القسم الأول: ٦٨ نقلاً عن كتاب: العراق: لآيرلاند. ترجمة جعفر الخياط ١٢٠.

(٢) تاريخ القضية العراقية. سابق: ٧١.

(٣) وثائق الثورة العراقية الكبرى. سابق: ٣/ ٣٠٤- ٣٠٨.

في بغداد"[١] حسب طلبه، فوقّعوا على ذلك مُكرَهين مجبورين. وقد وثّق ذلك أيضاً المحقق السيد محمّد صادق بحر العلوم في كتابه المخطوط (السلاسل الذهبية)[٢].

بل زادوا على ذلك حين أخذ حاكم الديوانية بالقوة أختام قسم من زعماء الديوانية ليمضي بها مضبطة تطلب الولاية البريطانية على العراقيين، وهو ما وصفه الزعماء بقولهم: "حتى آل الأمر بهم أن طلبوا منّا خواتيمنا ليمهروا بها ولايتهم علينا والدخول تحت ربقتهم"[٣].

***

سابعاً: حثّ المتعاونين معهم على استعمال الأساليب القذرة

لقد حثّ الإنكليز بعض العراقيين المتعاونين معهم على اللجوء إلى الأساليب القذرة ضد بعض من زعماء الثورة وتسليمهم الأداة الجرمية المعدة للتنفيذ.

ومن ذلك ما رواه الحاج صلّال الفاضل الموح أحد كبار قادة جبهة الحلة في مذكراته بقوله: "وصلت إلى دار عمران الزنبور رئيس بني عجيل من عشيرة الجحيش فوجدت وكيله المدعو ملة كاظم فأخبرني بأن عمران ذهب إلى الإنكليز في الحلة على إثر سماعه بورودكم إلى عبد الكريم العجرش[٤]، ففهمت أنه ذهب تهرّباً من الواجب وخيانة للثورة، وعندما رجعت أنا ومن معي من الثوار من عشيرتي عفك والأكرع، وبعد مرور ثلاثة أيام جاءني كتاب من عجيل العلي السمرمد أمير زبيد في الصويرة فيه: (سمعت أنك ذهبت إلى عشائر تطلب منها نجدة الثوار، وقد

(١) الثورة العراقية الكبرى. سابق: ٢٠٩.

(٢) السلاسل الذهبية. السيد محمّد صادق بحر العلوم. مخطوط: ٣١٢.

(٣) وثائق الثورة العراقية الكبرى. سابق: ٣/ ٢٢٥.

(٤) رئيس قسم من عشيرة الجحيش المنضمين إلى الثورة. خلافاً لموقف عمران الزنبور رئيس بني عجيل من عشيرة الجحيش نفسها.

انضم منهم من انضم وامتنع من امتنع، ثم وصلت إلى دار عمران الزنبور فلم تجده... وإني علمت أن عمران ذهب لمّا سمع بك تطلب من زبيد الالتحاق بالثوار، ذهب لإخبار الإنكليز بذلك، وقد أعطاه المسؤول الإنكليزي قنينة من السم، وقال له إذا رجع إليك الثوار وخاصة الحاج صلّال فادعُهُم إلى الغداء وضع هذا السم في الغذاء حتى يموتوا ونتخلص منهم، وعليه فإني أنبهك أن لا تمرّوا بعمران وتشربوا وتأكلوا عنده، بل إذا كنت قادراً فأرسل قسماً من الثوار ليحرقوا داره، فأنا راضٍ بذلك وليس لديّ أي مانع والسلام)"[1].

ويضيف الحاج صلّال إلى ذلك قوله. "ثم إني قرأت الكتاب على أخي الحاج مهدي وشعلان العطية وسعدون الرسن وحاج مظهر الصكب ونايف الجريان وحنتوش الهيمص وبقية رؤساء الثوار، فاتفقوا جميعاً على حرق داره. وفي الصباح أخذت خمسين فارساً وذهبت إلى دار عمران الزنبور وبعد أن أخرجنا النساء والأطفال أحرقنا داره، ولم يعارضنا أحد عند حرقها ثم رجعنا إلى الثوار. ولمّا بلغ الإنكليز خبر حرق دار عمران الزنبور استشاطوا غيظاً، وأخرجوا جحفلاً من جيشهم من مدينة الحلة لحرق دار هزّاع المحيميد أحد رؤساء زبيد المخلصين للثورة... وبعد معركة عنيفة تمكّنّا من تخليص دار هزّاع المحيميد بعد أن تكبد الجحفل خسائر فادحة في الأرواح والمعدات"[2].

وهناك غيرها لا يسع المجال لذكرها.

❀ ❀ ❀

(١) مذكرات الحاج صلال الفاضل الموح: ٧٨.

(٢) المصدر السابق نفسه: ٧٨-٧٩.

المبحث الثالث

المبدئية الحقّة واستشراف المستقبل

إنّ السبب الجوهري والأهم لقرار رفض التفاوض مع المحتل الغازي ليس كل ما تقدم على خطورته وأهميته، بل هي المبدئية والنظرة الاستراتيجية المستقبلية للرفض كما صرحوا به هم أنفسهم؛ معللين رفضهم للتفاوض مع المحتل لأنه لا يحقق استقلال العراق استقلالا تامّاً ناجزاً عارياً من أية شائبة احتلال بأي شكل من الأشكال.

لقد رفض المرجع الأعلى وكبار مستشاريه الواعين طلب الإنكليز بالتفاوض ما دام الطلب لا يحقق لهم هدفهم الأسمى الذي ثاروا من أجله، وهو الاستقلال التام الكامل الفعلي ثم تشكيل نظام حكم دستوري، ذلك أنّ المرجع الأعلى هو المسؤول أمام الله، وأمام رسوله الكريم وأهل بيته الطيبين الطاهرين، وأمام مبدئه الحق، ووطنه، وشعبه، وشهداء الثورة وجرحاها، والأيتام، والأرامل، والمؤمنين جميعا في العراق، وخارجه، بأن لا يكون موقف المرجعية التي أفتت بالجهاد ضد قوات الاحتلال إلّا الصمود والتصدي والمقاومة للغزو الأجنبي، خاصة بعد كل تلك التضحيات الكبيرة بالأنفس المجاهدة العزيزة التي سالت على مذبح الجهاد والحرية والاستقلال قربة إلى الله سبحانه وتعالى، ناهيك عن الخسائر الفادحة بالأموال والممتلكات.

وأكبر دليل على صوابية رأي المرجعية الرافض للتفاوض مع المحتلين بداعي الاستسلام للأمر الواقع؛ موقف المواطنين من رفض التفاوض، فما أن أُلصقت نسخ من جواب المرجعية العليا "على أبواب الصحن الشريف يومذاك وأبواب المسجد الهندي وفي المحلات العامة -حتى- أثار في النفوس حماساً غطّى على آراء الآخرين -من دعاة التفاوض-، بل لم يستطع المخالف أن يجهر برأيه يومذاك. وهذه نبذة من الجواب نقتطفها للاطلاع.. لقد فات السر ولسون أن العرب...

أقوياء لا يهمهم ملاقاة الحر والبرد، ولا يبالون بجوع، ولا يضطربون من قصف المدافع وصفير البنادق وصدى قنابل الطيارات، فهم مثابرون ويدافعون عن حقوقهم المشروعة وأوطانهم المقدسة.. فهم يريقون آخر قطرة من دمائهم في سبيل المحافظة على حقوقهم المشروعة، ألا وهي الاستقلال"[١].

ولو نظر طالبو التفاوض أو مؤيدوه نظرة مستقبلية أوسع وأشمل وأبعد نظراً مما نظروا إليه حينها؛ لندموا على ما قالوه يومها، ولسمعوا من أحرار شعبهم خطأ رأيهم[٢]، بل أشد من ذلك حسب رأي الباحث الدكتور علي الوردي[٣] الذي وصفهم بـ"الانهزاميين".

ولو أمعنوا النظر في السبب الذي حَدا بمؤرخ عراقي آخر لأن يكتب معتزّاً: "إنّ مكانة ثورة العشرين بالنسبة لتاريخنا لا تختلف كثيراً عن مكانة (ثورة ١٧٨٩ الكبرى بالنسبة لتاريخ فرنسا)، فلنولها عشر معشار ما يولونها من اهتمام"[٤]، أقول: لو تأملوا سبب كل هذا الاعتزاز لوجدوه لا يعدو عن بذل آبائنا من زعماء ومجاهدي ثورة العشرين الغالي والنفيس في سبيل حرية واستقلال بلادهم استقلالاً تامّاً ناجزاً عارياً عن أي تدخل أجنبي مهما صغر، ولا يتأتّى ذلك بالتفاوض مع المحتل الغازي تحت ظل الاحتلال والانتداب والولاية الأجنبية على مقدرات الشعب العراقي.

ولو قرؤوا كتاب مؤرخ آخر نطق بلسان كل أحرار العراق؛ لوجدوا رفضاً قويّاً لموقفهم المتخاذل حين كتب: "إنّ شعباً أو حركة أو فرداً (يهزم) وهو شامخ رافع للسلاح في وجه الغزاة والأجانب والطغاة، لهو أفضل تاريخيّاً بألف مرة ممن (ينجح) في تحقيق بعض أهدافه، وهو راكع يستجدي الحلول عن طريق المساومات

(١) على هامش الثورة العراقية الكبرى. سابق: ١٢٣-١٢٤.

(٢) ينظر: ثورة العراق التحررية ١٩٢٠. سابق. المجلد الأول: ١/ ١٦٢.

(٣) لمحات اجتماعية من تاريخ العراق الحديث: ٥/ القسم الأول: ٣٥٠.

(٤) صفحات من تاريخ العراق المعاصر. سابق: ٥٦.

والتنازلات المهينة والخنوع والمذلة"[١]، ذلك هو ما قصده المرجع الأعلى ومستشاروه وعللوا به صراحة رفضهم للمساومة على قضيتهم الكبرى حتى مع إدراكهم بأن قلة العدة والعتاد العسكري قد تضعف قدرة مجاهديهم على إدامة زخم المعركة في جبهات القتال بعد وصول أعتدة عسكرية للمحتلين لا قِبَلَ لهم بها. مع علمهم بأن (رشوة) المحتل لضعفاء النفوس والخونة، ربما تفتُّ في عضد بعض من الزعماء غير المبدئيين.

إنّ موقف العراقيين المبجّل لثورة العشرين ولمرجعيتها وقادتها المجاهدين ووطنييها بعد قرن من الزمان ما هو إلّا نتيجة لإصرار المرجعية وقادة الثوار على مطلبهم الحق بالحرية والاستقلال الكامل الناجز، ثم تأسيس دولة وطنية حرة دستورية بملك مقيد بمجلس نواب منتخب بانتخابات حرة مباشرة، لا يشرّع ما يخالف الشريعة الإسلامية، من دون أية مساومة على القضية الحقة، ولا الإقدام على أنصاف حلول بائسة مع المحتل الأجنبي الغازي، وإذا كان المرجع الأعلى وكبار القادة والشيوخ لم يستطيعوا تحقيق ما قدحوا من أجله زناد الثورة عسكريّاً، فقد حققوا بثورتهم التحرّرية الكبرى الكثير.. مما سيأتي تفصيله لاحقاً.

إنّ تبجيل ثورة العشرين لم يقتصر على العراقيين، بل شمل كثيراً من الباحثين العرب وغيرهم أيضاً، وإذا كان لي أن اقتصر من مؤرخي العرب على أنموذج واحد خشية الإطالة؛ فسأذكر ما دوّنه الباحث أمين سعيد عنها مقارِناً بينها وبين معاصرتها الثورة السورية بقوله: إنّ "اتحاد سكان الفرات قلباً وقالباً وانقيادهم إلى زعمائهم ورؤسائهم وانقياد هؤلاء إلى شيوخ الدين وعلمائه، واعتقاد هؤلاء وهؤلاء منذ الساعة الأولى بأنّ القوة هي الوسيلة الوحيدة لاسترجاع الحقوق ولبلوغ الأماني؛ هو الذي صان للثورة العراقية مقامها، وحفظ لها جمالها وجلالها، وضمن لها إدراك ما أدركته من نتائج باهرة بيّضت وجه العرب، وخفّفت من

(١) ثورة ١٩٢٠. الجذور السياسية والفكرية والاجتماعية للحركة القومية العربية (الاستقلالية) في العراق. سابق: ٣٢٢.

آلامهم. ولا نرتاب في أنّه لو سارت الأمور في سوريا على هذا المنوال، واتبع القوم منذ الساعة الأولى خطة معينة عملوا لتنفيذها وأعدّوا المعدات لتحقيقها؛ لَاتّقوا الكارثة ولكان ربح العرب من حركتهم أعمّ وأجزل".

وأضاف قائلاً: "كتب العراقيون في ثورتهم هذه صفحة خالدة في تاريخ البطولة، ونالوا من إنكلترا كل ما يمكن نيله، وما كانت تنوي أن تحدث حدثاً أو تغير وضعاً في بلادهم لولا قيامهم في وجهها، ومنازلتهم لجيوشها"[١].

علما بأنّ من أسباب عدم نجاح ثورة العشرين في تحقيق كل مطالبها هي الخيانة التي حصلت من بعض العشائر الماسكة بإحدى خطوط القتال نتيجة الرشوة، فقلبت موازين ساحة معركة القتال الكبرى رأساً على عقب، وتمثل آخر تمظهراتها بالخيانة التي ارتكبتها إحدى العشائر الماسكة لموقع يدعى (القصبة) واقع في منتصف الطريق بين الحلة وطويريج، حيث انسحبت من موقعها المهم ليلاً "وفتحت الطريق للجيش الإنكليزي فاندفع منه إلى مدينة طويريج التي كان يسيطر عليها آل فتلة برئاسة الحاج عبد الواحد آل سكر، فقاتلوا الإنكليز وبذلوا أرواحهم بسخاء في سبيل إيقاف الرتل الزاحف بقوات كانت مدعومة بالمدفعية والطائرات التي تغلبت على المجاهدين"[٢]. كما تقدم.

إن ما يؤسَف له حقّاً لرجل بمنزلة السيد محسن أبو طبيخ أن يقول عن كبار العلماء المجاهدين من أبناء الثمانين -الذين أكسبتهم قيادة جبهات القتال ضد الإنكليز في البصرة والفرات الأوسط وغيرهما من سوح المنازلة حنكةً وحكمةً وبعد نظر- فيصفهم بـ"القابعين في بيوتهم في النجف"، أولئك الذين حكم التاريخ على رأيهم الرافض للتفاوض تحت ظل الاحتلال والانتداب الإنكليزي بالصحة وبعد النظر.

ومن الغريب كذلك ما أورده السيد أبو طبيخ حول قرار المرجعية برفض التفاوض الذي اتُّخِذ بعد دراسة وتشاور وبحث -وهو ما أورده المؤرخون من

(١) الثورة العربية الكبرى. سابق: ٣٢٣ و٣٢٤ على التوالي.

(٢) مذكرات السيد محسن أبو طبيخ. سابق: ١٦١.

أمثال د. علي الوردي كما تقدم، ونص عليه السيد أبو طبيخ نفسه[١] أيضاً في الصفحة السابقة- بأنّه كان "قراراً فرديّاً"! رغم اعترافه هو أيضاً بموافقة قادة الثوار عليه بعد جدل اشتدّ لساعات النهار في اجتماع عُقد لهذا الغرض حضره كبار قادة العمليات من الشيوخ الكبار ومستشار المرجعية العليا ومبعوثها المجاهد السيد هبة الدين الشهرستاني في بيت الحاج عبد الواحد آل سكر[٢]. ثم تنظيمهم مضبطة بذلك، فتوقيع أكثر من (سبعين) من العلماء والقادة والزعماء والسادة والشيوخ عليها -كما تقدم-.

وعلى عكس ما زعمه السيد أبو طبيخ، فإنّ الموافقين على الصلح "كانوا أقلّيّة"[٣]؛ ولذلك كان قرار المرجع الأعلى مع قرار الأغلبية القاضي برفض الدخول في المفاوضات مع المحتل الإنكليزي إلّا بعد تنفيذ مطالب الثورة كاملة، حيث كان شعار هذا الفريق الرافض للصلح هو "لا مفاوضة قبل الجلاء"، وهو رأي زعماء (المجلس الحربي الأعلى) أيضاً[٤]؛ ولذلك اعتمده المرجع الأعلى شيخ الشريعة الأصبهاني وعمل به فكتب رسالته الرافضة لنائب الحاكم الملكي العام ولسون المتقدم ذكرها.

ومن الغريب أكثر فأكثر أن يكتب السيد أبو طبيخ في بعض أوراقه عن ثورة العشرين ما يلي: "الثورة العراقية حصلت من سوء تقديرنا للأمور، وتبطّرنا المفرط... إنّ الولاة الإنكليز كانوا يبالغون في تكريمنا واحترامنا.. وكانوا يؤمّنون مصالحنا على أحسن وجه. ولكننا أسأنا لهذا التقدير منهم، وافتعلنا المبررات للثورة والخروج عليهم باسم الاستقلال... بكل بساطة نفس، وقلّة دراية، لإقامة حكومة وطنية عراقية"[٥].

---

(١) مذكرات السيد أبو طبيخ: ١٦٧.

(٢) المصدر نفسه: ١٦٨.

(٣) الثورة العراقية الكبرى. سابق: ٢١٦.

(٤) ينظر: المصدر السابق: ٢١٦.

(٥) مذكرات السيد محسن أبو طبيخ. سابق: ١٨١.

ولا أريد أن أذكّر بوصف الباحث حنّا بطاطو للسيد أبو طبيخ[١] غير أنّ ما أورده السيد في النص أعلاه ليس خطأ فحسب، بل خطيئة قد تنمّ عن هشاشة قناعاته السابقة.

وإذا كان تبنّي السيد أبو طبيخ للمفاوضة مع الإنكليز تحت الاحتلال من دون تحقيق الاستقلال التام الناجز خطيئة؛ فإنّ من الغريب لمؤرخ محيط بتفاصيل ما كان مثل السيد عبد الرزاق الحسني أن يصف رفض المرجع الأعلى وأغلب زعماء الثورة للتفاوض مع الإنكليز تحت ظل الاحتلال بأنه "خطيئة"[٢] تارة، وأنّه كان "بعيداً عن الحكمة والمنطق"[٣] أخرى، وكذلك رأي د. عبد الله الفياض الذاهب إلى أن رفض التفاوض دليل "على قلة الخبرة السياسية التي أنيطت بالدرجة الأولى بالروحانيين رغم قلة خبرتهم بأمور السياسة ومراميها البعيدة"[٤]. ناسياً تلك الخبرة السياسية المتراكمة التي أثبتتها الأحداث خلال تعاطيهم إياها، تلك الخبرة والدراية التي عبّر عنها المعايش للحدث يومها الشيخ علي الشرقي بقوله: "إنّ رجال الدين قد تمكنت منهم الحركة الفكرية والسياسة، وعرفوا ما يقتضيهم من العمل، فقد مرّ.. أنّ الانقلابات السياسية وشؤون الجهاد جعلت الزعماء الدينيين يمارسون الكثير من هذه الأمور"[٥].

❀ ❀ ❀

(١) ينظر: العراق الكتاب الأول. الطبقات الاجتماعية والحركات الثورية من العهد العثماني حتى قيام الجمهورية. سابق: ٢٢٧.

(٢) الثورة العراقية الكبرى. عبد الرزاق الحسني: ٢٣٠.

(٣) تاريخ العراق السياسي الحديث. سابق: ١/ ١٧٤.

(٤) الثورة العراقية الكبرى سنة ١٩٢٠. سابق: ٢٩٧.

(٥) الأحلام. سابق: ١٤١.

الفصل السادس

الفرات وطن الثورة وخزّانها البشري والمادي والتسليحي

وفيه تمهيد وثلاثة مباحث هي:

المبحث الأول

فُراتية الثورة في وثائق قادتها ومجاهديها ومعاصريها ومؤرخيها

المبحث الثاني

فراتية خزان الثورة المادي ودعمها اللوجستي

المبحث الثالث

فُراتيّة خزّان الثورة التسليحي

وسأتناولها تباعاً مبتدئاً بالتمهيد

التمهيد

من الواضح لمتتبع مجريات ثورة العشرين في وثائقها ومذكرات قادتها ومؤرخيها ممن عايشوها وعاصروا وقائعها، وما كتبه غيرهم عنها سواء ما دونه المحتلون من كبار قادتها أم ما سطّره المؤرخون العراقيون أو العرب أو الأجانب؛ أن يلحظ بجلاء لا يقبل الشك أن رجال الفرات الأوسط بقيادة وتوجيه مراجعهم وكبار سادتهم وشيوخهم – هم مجاهدو الثورة ومادتها البشرية الكبيرة، وإن كان قد اشترك معهم بدرجةٍ مّا مجاهدو ديالى والمنتفق والرمادي وربما غيرها من هنا وهناك كما تقدم.

كما يلحظ بجلاء أن المرجعيتين الدينيتين الكبيرتين في كربلاء والنجف الأشرف والسادة وشيوخ العشائر في الفرات الأوسط وبعض التجار والوجهاء وأمثالهم؛ هم من وفّر للثورة الغطاء المادي والدعم والتموين والتجهيز والتسليح العسكري والدعم اللوجستي والنفقات الأخرى كافة بما فيها مصاريف تأليف قلوب بعض رؤساء العشائر لتحييدهم أو لكسبهم وضم عشائرهم وحلفائهم إلى جانب الثورة المسلحة والثوار.

ونظراً لأهمية رفع الالتباس الحاصل بعد تشويه الحقيقة التاريخية من قبل حكام النظام البائد ومؤرخيه النفعيين بل وسرقتها من ثوارها الحقيقين؛ أجد نفسي مضطرّاً لتبيان الرأي الصريح الجلي لنماذج من زعمائها أو المشاركين فيها، أو معاصريها، أو مؤرخيها من متتبعي وقائعها من العراقيين والأجانب مسلمين شيعة وسنة، وغير مسلمين، من دون أن أطيل لوضوح الأمر.

❀ ❀ ❀

فُراتية الثورة في وثائق قادتها ومجاهديها ومعاصريها ومؤرخيها

وفيه أربعة مطالب تتفرع عن كل منها نقاط وهي كما يلي:

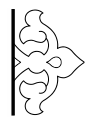

المطلب الأول: فُراتية الثورة في وثائق مراجعها وقادتها وجهاز إعلامها الرسمي.

١. نص رسالة بعثها المرجع الأعلى وقائد الثورة سماحة الشيخ محمد تقي الشيرازي إلى الشيخ علوان الشلال، جاء فيها: "إنّ إخوانك المسلمين في (الفرات الأوسط) قد نهضوا ضد السلطة المحتلة البريطانية وهم الآن في حرب مستمرة لا تعرف الكلل ولا الملل.. فإنّي أستنهضك وكُلّي أمل بأنك ستقوم بما يفرضه عليك الواجب الديني والوطني"[١].

٢. طرح زعماء وشيوخ ثورة العشرين على ممثلي الإنكليز المحتلين في أكثر من لقاء وحوار معهم، يُستفاد منه ويُستنتج أنّ الثورة (فراتية)، فمن ذلك ما ورد في اجتماع تداولي عقد بين زعماء الثورة وممثلي الإنكليز المحتلين في (٢٠ شوال ١٣٣٨هـ/ ٧ تموز ١٩٢٠) بعد ثورة الرميثة، حيث تناول اللقاء شروط الثوار الأربعة لوقف القتال، فنص الشرط الثالث منها على: "جلاء الحكام السياسيين والقوات الإنكليزية عن (جميع المراكز الواقعة على الفرات إلى بغداد) على أن تدور المفاوضات بين زعماء الأمة العراقية ورجال الحكومة المحتلة بشأن تقرير مستقبل العراق في بغداد"[٢]، وهو المقترح نفسه الذي أعاد طرحه زعماء الثورة وقادة

---

(١) الحقائق الناصعة. سابق، نقلاً عن رسالة جوابية تلقاها المؤلف من حسين علوان الشلال نجل الشيخ علوان الشلال رئيس عشيرة البو محيي في قضاء المحمودية.

(٢) تاريخ القضية العراقية. سابق: ٢١٤-٢١٥. من ط ١.

عملياتها على ممثلي قوات الاحتلال الإنكليزي ببنوده الأربعة المشار إليها أعلاه، بحضور ممثلي المرجعية هذه المرة، وجاء فيه: "رفع كافة مراكز المراقبة والتفتيش والثكنات العسكرية التي تحل في منطقة الفرات الأوسط"[١]، مما يضفي على بنود الزعماء مصادقة المرجعية العليا عليها -بما فيها البند الثالث المتقدم-، وذلك خلال مفاوضاتهم معهم حول الهدنة قرب الكوفة في (٢٩ شوال ١٣٣٨هـ، الموافق ١٧ جولاي ١٩٢٠م)[٢]، وفي رواية أخرى في يوم الخميس (٢٨ شوال ١٣٣٨هـ).

ويمكن أن تُستفاد (فراتية الثورة) من التحديد المذكور في الشرط الثالث منها، بدليل أنّ الثوار طالبوا بجلاء الإنكليز على (امتداد نهر الفرات إلى بغداد) فقط، ولو كانت الثورة مشتعلة في غير هذه المساحة من مدن العراق الأخرى لأدخلها زعماء الثورة ضمن شرطهم المتقدم.

٣. صورة فوتوغرافية للبيان الرسمي الصادر عن إعلام الثورة في (٨ ذي القعدة ١٣٣٨هـ، ٢٤ تموز ١٩٢٠م) تحت اسم "حرب الفرات" وتحت عنوان "الانتصار العظيم"[٣].

وقد تحدث البيان عن الانتصار الكبير للثوار في معركة الرارنجية.

ويكفي للمستدل على (فراتية الثورة) أنّ إعلامها الرسمي يسمّيها بـ"حرب الفرات".

٤. صورة فوتوغرافية للمنشور الصادر عن مكتب إعلام الثورة الرسمي الصادر في النجف الأشرف في (٩ ذي القعدة ١٣٣٨هـ/ ٢٥ تموز ١٩٢٠م) المنشور في صحيفة (الفرات) النجفية الناطقة باسم الثورة تحت عنوان "إلى العالم المتمدن"

---

(١) مذكرات الحاج عبد الرسول تويج: ١٤.

(٢) ثورة العشرين في ذكراها الخمسين. معلومات ومشاهدات. السيد محمّد علي كمال الدين: ١١٣- ١١٤، ووثائق الثورة العراقية الكبرى. سابق: ٣/ ٢٢٣، تاريخ القضية العراقية. سابق: ٢١٤- ٢١٥. من ط١.

(٣) صورة الوثيقة منشورة في: ثورة العشرين في ذكراها الخمسين. سابق: ١٣٥.

المتضمن إلقاء الضوء على "جناية الإنكليز على المعابد. إلقاء القذائف النارية على مسجد الكوفة. قتل النساك والمتعبدين"، جاء فيه فيما يخص (فراتية الثورة) ما يلي: "لقد نهضت (أمة الفرات) تدافع عن شرف (العراق)، فأرهفت أقلامها، وجردت أسيافها، ونشرت أعلامها... طلباً للاستقلال، فما خالفت في نهضتها شرائط الحرب الشرعية، ولا هتكت حرمة القوانين الدولية، كما تفعل الحكومة الإنكليزية.. إلخ"[١].

وواضح من نص الوثيقة (فراتية الثورة)؛ ذلك أنّ الأمة الناهضة هي "أمة الفرات" وهي ثائرة ليس دفاعاً عن نفسها فقط، بل عن "شرف العراق" كله.

٥. صورة فوتوغرافية للبيان الرسمي المنشور في صحف الثورة الرسمية والمؤرخ في (٩ ذي القعدة ١٣٣٨هـ/ ٢٥ تموز ١٩٢٠م) حول قصف جامع الكوفة المعظم بالطائرات الإنكليزية، وجاء فيه: "لقد نهضت (أمة الفرات) تدافع عن شرف العراق... فلا خالفت في نهضتها شرائط الحرب الشرعية، ولا هتكت حرمة القوانين الدولية كما تفعل الحكومة الإنكليزية... فقد حلقت طائراتها أمس... وألقت قذائفها على مسجد الكوفة، وهو غاصّ بالزهّاد والمعتكفين، فقتلت جملة من الأبرياء، وجرحت أكثر من ثلاثين ناسكاً في محاريبهم، وقد سقطت إحدى القذائف على امرأتين فتمزّقت أعضاؤهما وتقطعت أوصالهما، وقتلت ثلاثة أطفال، وخربت المقام المشهور بمقام القضاء"[٢].

٦. نص المنشور الصادر عن مكتب الثورة في (١١ ذي القعدة ١٣٣٨هـ/ ٢٧ تموز ١٩٢٠م) المنشور في صحيفة (الفرات) النجفية الناطقة الرسمية باسم الثورة تحت عنوان "حرب الفرات" متضمناً إلقاء الضوء على: "الاحتجاجات الأدبية. النفي والتبعيد. الحركات العسكرية. فوز العرب في الفرات الأوسط"، وسأكتفي فيما يخص موضوعنا المتعلق بـ(فراتية الثورة) بعنوان الصحيفة الرسمية

(١) ثورة العشرين في ذكراها الخمسين. سابق: ٢٩٠.

(٢) الحقائق الناصعة في الثورة العراقية. سابق: ٢٩٣-٢٩٤.

الأبرز وهو: "حرب الفرات"، ففيه الكفاية، مشيراً إلى أنّ المنشور تناول من جملة ما تناول نفي "نجل الإمام الشيرازي وعشرات من أبناء الوطن"، و"القتال في الأبيّض أول عمل حربي قامت به عشائر السماوة والأبيّض"[١].

٧. وثيقة رسمية صادرة عن إعلام الثورة الرسمي مؤرخة في (٢٨ ذي القعدة ١٣٣٨ هـ/ ١٣ آب ١٩٢٠م) حملت إنذاراً من شيوخ القبائل ورؤساء جيش الثوار الزاحف نحو الحلة إلى أهالي الحلة بالنص التالي: "من مشايخ عرب (الفرات الشرقي والفرات الأوسط) إلى عموم المسلمين القاطنين في الحلة.. أما بعد.. لا يخفى عليكم أنّ (أمة الفرات) قسم من العراق.. إلخ"[٢].

والملاحظ عن الوثيقة أنها حددت مناطق الثوار الزاحفين بجيش ثورة العشرين، وهم من "عرب الفرات الشرقي والفرات الأوسط"، وأنّ هذا الجيش يمثل "أمة الفرات" التي هي "قسم من العراق"، لا كل مدنه وناسه.

٨. صورة فوتوغرافية للخبر المنشور في صحيفة (الاستقلال) النجفية الناطق الرسمي باسم الثورة بعددها ليوم الاثنين (٢٧ محرم ١٣٣٩هـ/ ١٠ تشرين الأول ١٩٢٠م) تحت عنوان (يوم تاريخي بُشرى للأمة العراقية) حول تنصيب السيد محسن أبو طبيخ متصرفاً للواء كربلاء، جاء فيه "أشرف حضرة المتصرف على الجموع المجتمعة وفاه بكلام أظهر فيه عظيم السرور مما أحرزه المجاهدون من التقدم في (الفرات) وتطهيره من المحتلين وحث الأمة على المحافظة على الأمن"[٣].

هذا ما أوردته قسم من الوثائق الصادرة من المراجع وقادة الثورة ومكتب إعلامها الرسمي.

ويحسن بي أن أشير هنا إلى أن النصوص المتقدمة تمتاز بميزتين تمنحانها ثقلاً توثيقيّاً مميّزاً.

---

(١) المصدر السابق: ٢٩٠-٢٩١.

(٢) نص الوثيقة منشورة في: ثورة العشرين في ذكراها الخمسين. سابق: ١٥٥.

(٣) الصورة الفوتوغرافية للصحيفة منشورة في مذكرات السيد محسن أبو طبيخ. سابق: ١٥٨.

أ. إنّها صادرة عن مكتب إعلام الثورة، ومنشورة على وجه الصحيفتين الرسميتين للثورة وهما (الفرات) و(الاستقلال).

ب. إنّها منشورة إما بصورتها الفوتوغرافية أو بنصها في كتب ومذكرات شارك مؤلفوها بأنفسهم في الثورة، ووثقوا نصوصها بأقلامهم، وهي ما استشهدت به مما تقدم، وهذه الكتب هي: (مذكرات السيد محسن أبو طبيخ)، و(الحقائق الناصعة في الثورة العراقية) لفريق المزهر آل فرعون، أحد شيوخ الثورة، و(ثورة العشرين في ذكراها الخمسين معلومات ومشاهدات) للسيد محمّد علي كمال الدين، أحد المشاركين في الثورة، بل أحد محرري صحيفتيها: (الفرات) و(الاستقلال).

وفي ما تقدم دليل كافٍ على فراتية الثورة من وثائقها نفسها منقولة عن مشاهدات حسيّة، ومع ذلك فسأستعرض أدلة أخرى إضافة لما تقدم من وثائق صادرة عن قيادة الثورة أو منشورة في إعلامها وذلك زيادة في إثبات المدّعى.

***

المطلب الثاني: فُراتية الثورة في نصوص المجاهدين فيها.

لقد أثبتت (فراتية الثورة) نصوص المشاركين فيها من شهودها وهي كثيرة، ولذلك فسأقتصر على ذكر بعض من أكّد فُراتيّتها من قادتها أو المشاركين فيها سواء من العراقيين أم الإنكليز. فمن ذلك:

١. ما نقله السيد محمّد علي كمال الدين المشارك في الثورة و"المشاهد لأحداثها يوماً فيوماً"، وأحد كتّاب التحرير في جريدتي (الفرات) و(الاستقلال) النجفيتين لسان حال الثورة، ذاكراً أنّ ألوية اشتعال الثورة هي "مناطق الفرات"[١].

٢. نص ما خاطب به مبعوث قادة الثورة السيد هادي زوين لرجالات بغداد

(١) ثورة العشرين في ذكراها الخمسين. سابق: ٨٢.

الوطنيين المجتمعين في دار حمدي باشا بابان ببغداد في (٢٣ شعبان ١٣٣٨هـ/ ١٢ مايس ١٩٢٠م) قائلاً لهم: "اعلموا أيها السادة أنّ (الفراتيين).. قد عاهدوا الله ورسوله أن لا يركنوا لحكم أجنبي، وأن يبذلوا كل ما لديهم من نفس ونفيس في سبيل استقلال العراق.. وهو على وشك الوثوب على الحكومة المحتلة إن منعت عنهم حقوقهم المشروعة.

إنهم أوفدوني لأمثّلهم وأبيّن لكم ما هم عليه، سائلاً عمّا عندكم، وما أنتم عليه، وهل تشاركونهم في العمل... وبعد أن أنهى كلمته، أجابه أبو التمن قائلاً: إنّ قادة الرأي في بغداد مستعدون للاشتراك مع (الفراتيين)... فرد عليه السيد هادي قائلاً: (إنّي أفصحت لكم بقولي من أنّ (الفراتيين) مع العلماء في النجف وكربلاء وضعوا الخطط الصريحة للعمل الجدي، فإذا أراد البغداديون ألّا يشاطرونهم بالأعمال، فليحددوا موقفهم ليكون (الفراتيون) على بيّنة من أمرهم)"(١).

٣. يقول السيد محسن أبو طبيخ أحد قادة الثورة وشيوخها: "لقد وفقنا الله سبحانه وتعالى إلى إخلاء (الفرات) من الإنكليز، مدنه وقراه من السماوة إلى المسيب في وقت قصير. فقد بدأنا الحرب معهم في (٣٠ حزيران ١٩٢٠) وها نحن الآن في تشرين الأول (أكتوبر).. تتأهب العشائر من المحاويل إلى المحمودية للتوجه إلى بغداد"(٢).

ويشخص السيد أبو طبيخ (فراتية الثورة) بدقة في جوابه الواضح عن سؤال وجهه إليه المؤرخ السيد عبد الرزاق الحسني بقوله: "لقد وقفت على ما دوّنتموه بخصوص (ثورة الفرات الأوسط) وكونها كانت مستقلة عن ثورة أهالي بغداد الفكرية، وعن حركات العرب في سوريا والحجاز، وإنّي أؤيد لكم ما ذهبتم إليه وتحقّقتموه هو الصحيح"(٣).

---

(١) ثورة العشرين في ذكراها الخمسين. سابق: ٢١٥- ٢١٦. وتنظر: ١١٨ أيضاً.

(٢) مذكرات السيد محسن أبو طبيخ. سابق: ١٥٥. وتنظر: ١٥٦ و١٧١ و١٧٢ و١٨٣ أيضاً.

(٣) المصدر السابق: ١٧٧.

٤. ينصّ أحد خطباء الثورة والمشاركين فيها الشيخ محمد الخالصي نجل المرجع الشيخ محمد مهدي الخالصي متحدثاً عن عمدة وأساس الثوار المشتركين في القتال بقوله: إنّ "الذين اشتركوا هم قبائل الفرات الأوسط الذين كان يقيم الشيخ محمد تقي الشيرازي بين ظهرانيهم، وقبائل ديالى حيث كان فيها والدي لأنّه خرج من الكاظمية إلى الخالص"(١) إلّا أنّ مشاركة قبائل ديالى والمنتفك والرمادي سريعاً مّا أُخمدت.

٥. أما نصوص المشتركين في القتال من الإنكليز المحتلين فسأكتفي بذكر أنموذج واحد منها، هو ما أثبته نائب الحاكم الملكي البريطاني العام السير ولسون متحدثاً عن مناطق الثورة، ذاكراً اقتصار منطقة "الاضطرابات.. على الأقضية القريبة من النجف وكربلاء"(٢).

***

المطلب الثالث:
فراتية الثورة في نصوص معاصريها.

لقد وثّق العديد من معاصريها الثقاة فراتية الثورة، ولذا فسأكتفي بذكر أنموذجين منها، هما:

١. ما قاله المحقق المجتهد الشيخ محمّد حسين المظفر المعاصر للثورة: لقد "كان (الفرات) فارس هذه الحلبة، وصاحب القدح المعلّى، فتفرد في الجملة، وحمل على عاتقه ذلك العبء"(٣).

٢. ما أثبته المحقق الشيخ جعفر محبوبة المعاصر للثورة بقوله: "لمّا طال أمد الثورة.. وخابت الآمال من عشائر دجلة لعدم اشتراكها مع (الفراتيين) في القيام بالثورة.. إلخ"(٤).

---

(١) في سبيل الله. سيرة ذاتية ومذكرات جهادية: ٢٤٧.

(٢) ثورة ١٩٢٠ الجذور السياسية والفكرية والاجتماعية للحركة القومية العربية الاستقلالية في العراق. سابق: ٣٣٨ و٣٩٠ على التوالي.

(٣) الفرات وثورة عام ١٩٢٠م، أوراق مخطوطة لسماحة الشيخ محمّد حسين المظفر: ص ٥.

(٤) ماضي النجف وحاضرها. سابق: ١/ ٣٧٢.

وهناك من المؤرخين النجفيين المدققين المعاصرين للثورة قد قالوا مثل ما قال من تقدم ذكرهم لا مجال لاستعراض نصوصهم[١].

***

المطلب الرابع:
فراتية الثورة لدى مؤرخيها اللاحقين للمشاركين فيها.

أثبت العديد من المؤرخين (فراتية الثورة)، وسأنقل نماذج مما ما كتبه بعضهم فيما يلي:

١: يقول د. علي الوردي: "تعدّ الثورة في (منطقة الفرات الأوسط) بمثابة العمود الفقري لثورة العشرين كلها. ففي هذه المنطقة حصلت الانتصارات الكبرى للثورة، كما أنّ هذه المنطقة هي من تحمّلت العبء الأكبر من التضحيات في الأنفس والأموال، وصمدت للقتال فترة طويلة نسبياً. أما المناطق الأخرى التي انتشرت الثورة فيها بعدئذ، فلم تكن (ثورتها سوى صدى لثورة الفرات الأوسط)، وقد تمكن الإنكليز من القضاء عليها بسهولة، وفي خلال وقت قصير"[٢].

٢: ويقول الباحث د. عبد الله الفياض: "إنّ إسهام مدن: البصرة، وبغداد، والموصل، فيها كان ضئيلاً، ما عدا جهود فردية لبعض الذين هربوا من وجه سلطات الاحتلال، ولبعض الضباط الذين كانوا في الجيش العثماني، وقد التحق هؤلاء بمناطق الثورة الرئيسة في الفرات الأوسط. أما الجهات الوسطى والجنوبية من العراق (ما عدا الفرات الأوسط) فقد كان إسهامها في الحركات العسكرية خلال ثورة العشرين محدوداً، فلولا جهود الشيخ ضاري المحمود وبعض الوطنيين في لواء الدليم، وعدد من أهالي ديالى، وعلى رأسهم الشيخ حبيب الخيزران، ولولا الحوادث المبعثرة في لواء الناصرية (المنتفق) لكانت الأعمال العسكرية للثورة من (نصيب سكان الفرات الأوسط فقط)، يضاف إليهم... أمثال عبد المجيد كنة

(١) مذكرات الشيخ محمّد الحسين آل كاشف الغطاء. سابق: ٧٠٨.

(٢) لمحات اجتماعية من تاريخ العراق الحديث. سابق: ٥/ ١/ ٣٤١.

الذي شنقته السلطات الإنكليزية ببغداد"[١].

٣: ويعنون المؤرخ كاظم المظفر فصله الثامن بعنوان "حصر الثورة في الفرات الأوسط"، ويقول فيه: "أما في الشمال فإنّ شرارة الثورة ما أن اندلعت حتى سارع العدو إلى إطفاء هذه الشرارة بغير ما جهد كبير ولا زمن طويل، فأمّن بذلك سير الإمدادات التي كانت تأتيه عبر سكة الحديد التي تربط العراق بإيران حيث واصلت النجدات العسكرية تتابُعها إلى العراق وزحفها على (مواطن الثورة في الفرات الأوسط)، وحصل مثل هذا في محافظتي ذي قار (الناصرية) وواسط (الكوت)... فتقاعسوا عن أداء واجبهم الوطني"[٢] والشرعي.

٤: أما الباحث د. عباس كاظم فيذهب ليس فقط إلى فراتية ثورة العشرين فحسب، بل إلى سرقتها منهم، ونسبتها لغيرهم فيقول: "لم تتم سرقة ثمرة ثورة ١٩٢٠ المتمثلة بالدولة الناشئة على إثرها، من (الفرات الأوسط) الذي جرى تهميش أهله لثمانين سنة لاحقة، بل (سرقت الثورة نفسها)، فقد عزت الحكومات العراقية المتعاقبة فضيلة الثورة جزئيّاً أو كليّاً إلى شخصيات وجماعات كانت مشاركتها في الثورة لاحقة أو عرضية، أو معدومة"، ويضيف قائلاً: "ومثل جميع الأحداث الحيوية في تاريخ البشر كان هذا التلاعب بالسرد والمعلومات عن الثورة متوقعاً من السياسيين والأحزاب والجماعات التي تلهث وراء الشرعية السياسية، ودور المؤرخ هو أن يتثبت من هذا السرد، وأن يدافع بقدر ما يمكن ضرر التلاعب به، أو أن يكمل القصة بتوفير سرد مهم كان قد جرى محوه أو تشويهه سابقاً"[٣].

٥: يقول د. عبد الرحمن البزاز: "اندلعت نيران الثورة العراقية في (٣٠ حزيران سنة ١٩٢٠) واضطلع فيها رجال القبائل (الفراتية) التي كانت تتلقى الرأي في الثورة

(١) الثورة العراقية الكبرى سنة ١٩٢٠. سابق: ١٣- ١٤.

(٢) ثورة العراق التحررية ١٩٢٠. سابق: ٢/ ٣٨.

(٣) ثورة ١٩٢٠ قراءة جديدة في ضوء الوثائق التاريخية. سابق: ٢٨٤.

من كربلاء وغيرها من المدن المقدسة"[١].

٦: يقول د. وميض جمال عمر نظمي: "من الواضح أن أبناء (الفرات الأوسط) لعبوا دوراً بارزاً في النضال من أجل استقلال العراق، وكانت الثورة ذاتها قد قامت بالدرجة الرئيسية في مناطقهم، وكان للفتاوى أثرها في خلق وضع متوتر وقلق، وباختصار فإنّ أبناء الفرات الأوسط كانوا في معظم الحالات مناوئين جدّاً للإدارة"[٢].

وتُرجع الباحثة جويس ويلي اقتصار الثورة على العشائر الشيعة في الفرات دون غيرها من العشائر السنية بقولها: "لم تنضم العشائر السنية إلى الثورة إلى حدٍّ مّا؛ بسبب رغبتها بالحصول على الإعانات المالية البريطانية المتزايدة تزايداً سخيّاً، المقدمة لزعمائهم العشائريين، واقتصرت الثورة على ثلث البلاد"[٣].

أكتفي بذلك، لأنتهي منه إلى أنّ ثورة العشرين المسلحة لم تنشب في الألوية الثلاث الكبرى: بغداد والبصرة والموصل، حيث اكتفت بغداد نفسها والكاظمية بالنشاط السياسي الفعّال، والنضال السلمي المؤثر "لا أكثر"[٤]، وذلك من خلال تثوير التظاهرات الكثيفة، والتجمعات الحاشدة، والخطب الرنانة، و(مجالس المولد/ التعزية)، وتفعيل الأحزاب السياسية، وكثرة الاتصالات مع المرجعية العليا في كربلاء والنجف الأشرف والكاظمية، ومع زعماء الثورة في الفرات الأوسط من جهة، وقوات الاحتلال للضغط عليهم من جهة أخرى، بل ذهب صاحب كتاب (الحقائق الناصعة) إلى أبعد من ذلك بقوله: "إنّ بغداد لم تشترك في الثورة فعليّاً، ولم تحارب، ولم تخرج جيشاً من أبنائها لساحات الحرب، وكل ما في الأمر أنها اشتركت سلميّاً... وإنّ البغداديين الذين اكتفوا بالمظاهرات... أتوا إلى الفرات

(١) كربلاء في ثورة العشرين. سلمان هادي آل طعمة: ٤١.

(٢) ثورة ١٩ ثورة ١٩٢٠الجذور السياسية والفكرية والاجتماعية للحركة القومية العربية الاستقلالية. سابق: ٣٣٧.

(٣) الحركة الإسلامية الشيعية في العراق. سابق: ٣٦-٣٧.

(٤) مذكرات السيد محسن أبو طبيخ. سابق: ١٧٩.

وبقوا ضيوفاً عند مؤلف هذا الكتاب في مضارب عشيرة آل فتلة في أبي صخير يوم كانت جيوش ثوار الفرات في المسيب ما يزيد على الشهر"[١].

وهو ما صرح به الشيخ عبد الواحد آل سكر أحد كبار قادة الثورة متحدثاً عن مدى اشتراك بغداد في الثورة المسلحة، بقوله: "قبل حدوث الثورة المسلحة أيّدَنا سكان بغداد حينما كانت التمهيدات في الخطب والاجتماعات، وبعد أن أشهرنا السلاح بوجه الإنكليز انقطع أهل بغداد عنا، اللهم إلّا من هرب منهم فجاء محتمياً"[٢]، وهو ما انتهى إليه الباحثون المدققون -وهم يتحدثون عن دور بغداد في ثورة العشرين- بما انتهى إليه الباحث حنا بطاطو بقوله: "لم تساهم بغداد فيها إلّا بالمنشورات والمظاهرات وبعض المرسلات السرية"[٣].

أما لواء البصرة فلم يُبدِ نشاطاً ملحوظاً داعماً لثورة العشرين باستثناء ما حصل من دعم شعبي للثورة في جامع الخضيري؛ ما أدى إلى اعتقال شخصيتين وطنيتين بسببه، بل على العكس من ذلك، فقد عقد مجلس أشراف البصرة اجتماعاً في (٥ شوال ١٣٣٨ هـ/ ٢٢ حزيران ١٩٢٠م) جدد فيه الثقة بالإدارة البريطانية، ولعل كثافة الوجود العسكري البريطاني الدائم فيها، ورسوّ الأسطول العسكري البريطاني بجيوشه وآلياته المدرعة على ضفافها، وإرسال الإمدادات العسكرية البريطانية من مينائها إلى أنحاء العراق الثائرة ومصالح المنتفعين من الملاكين وكبار التجار وأمثالهم وتقديم الأموال الكبيرة لوجهائهم وشيوخ عشائرهم من أجل استمالتهم أو تحييد موقفهم - هي السبب في موقف لواء البصرة.

أما لواء الموصل نفسه فلم يحرك ساكناً، ولم تَثُر ثورة العشرين فيه إلّا حماساً ضئيلاً "بشكل غريب.. والواقع أنّ الهدوء النسبي في الموصل جعل

---

(١) الحقائق الناصعة. سابق: ٤٧٨.

(٢) الحقائق الناصعة نقلاً عن رسالة جوابية من الشيخ عبد الواحد إلى صاحب كتاب الحقائق الناصعة ردّاً على سؤال وجهه إليه: ٥٨٧.

(٣) العراق. الكتاب الأول. الطبقات الاجتماعية والحركات الثورية من العهد العثماني حتى قيام الجمهوري: ١٤٧.

من الممكن نقل قوات من تلك المنطقة إلى الفرات"[١].

وخلاصة الأمر الذي انتهيت إليه هو ما انتهى إليه الباحثون د. علي الوردي و د. عبد الله الفياض، و د. عباس كاظم المتقدم ذكر نصوصهم أعلاه، إضافة لغيرهم مما لا يسع المجال لذكر أسمائهم، وذلك خلافاً لمن ذهب إلى أنّ الثورة شملت "مختلف مناطق العراق من الشمال إلى الجنوب"[٢]، أو شملت "معظم مناطق العراق"[٣].

***

المطلب الخامس:
الأضرار البشرية التي تحملها الفرات وأهلوه.

نظراً لأن الفرات هو عمود الثورة ووتدها الحامل لثقلها كما تبين سابقاً، فقد تحمّل علماؤه وشيوخه ومواطنوه وألويته وأقضيته ونواحيه، بمدنها وقُراها وريفها الأخضر الخصب، بما فيها مدن الفرات المقدسة الكمّ الأكبر من الخسائر والأضرار البشرية والمادية. فكم من أناس قتلوا، وكم من أناس جرحوا، وكم من عتبات مقدسة انتُهكت قدسيّتها، وكم من مساجد قصفت، وكم من مدن هُدّمت، وكم من بنى تحتيّة دُمّرت وعطّلت، وكم من أراضٍ خصبة أُحرقت وأُتلفت، وكم من حيوانات قُتلت، وكم أموال صودرت ونهبت وسلبت، وكم.. وكم.. وكم.

وحين يكون الأمر كذلك، فطبيعي أن يكون غالبية شهداء الثورة وأيتامهم وأراملهم هم أبناء الفرات وعوائلهم وذووهم وعشائرهم وأرحامهم وأقاربهم.

يؤرخ المجتهد المحقق السيد محمّد تقي بحر العلوم المعاصر للثورة واصفاً ما لاقاه الفراتيون من عسف وجور وظلم وقساوة واستباحة لمدنهم ومواطنيها

(١) ثورة ١٩٢٠ الجذور السياسية والفكرية والاجتماعية للحركة القومية العربية الاستقلالية في العراق. سابق: ٣٨٥- ٣٦٨ وينظر هامش الصفحة.

(٢) المرجعية الدينية وبناء الدولة العراقية. دراسة تاريخية. د. صبا حسين مولى و د. غصون مزهر المحمداوي. بحث. ضمن أبحاث مهرجان فتوى الدفاع المقدسة الثقافي الثالث: ٢/ ١٨.

(٣) دور المرجعية الدينية الشيعية في تطور الأحداث السياسية في العراق ١٩١٤-١٩٢٤. د. سليم حسين ياسين. سابق: ٢٩١.

ومزارعهم بما فيها، وقُراهم وساكنيها، وفي المقدمة زعماء قبائلها، بقوله: "لقد اشتد اضطهاد الضباط -الإنكليز- فحبسوا جمعاً منهم، وساقوا جماعات من ساداتها وعلمائها منهم الشيخ محمّد رضا نجل المرحوم آية الله الشيخ ميرزا محمّد تقي الشيرازي الحائري ﷺ، وأشرافها ورؤساء قبائلها سوق السائمة بصورة فظيعة وحالة شنيعة، وهجموا على منازل بعض شيوخ القبائل وأحرقوها وما فيها، وقتلوا بعض الرجال والنساء والأطفال والحيوانات الكثيرة بلا ذنب وجناية ولا سبب لتلك الفظائع سوى فكرتها الاستقلالية ومطالبتها بحقوقها.. ثم حاول الضباط إرهاب من أحسوا منه المطالبة بحقوق الأمة المغصوبة، فهددوه وتوعدوه وأردفوا وعيدهم بسوق القوة العسكرية.. فصارت كلما تبعد عنهم اتبعوها، وصارت خيولهم تجول في آثارها ومدافعهم تعبث فيها، تطلب منهم تخلية سبيلها ومراعاة الأمن والمحافظة على السلم فلا يعبؤون، تجيبهم إلى الهدنة فيغدرون، تخلّي سبيلهم مع أسلحتهم بعد تمكّنها منهم فيغدرون بالهجوم عليها غرّة، وقد جرى في أيام معدودة من سفكهم الدماء وتدمي المدن وهتك حرمة المعابد ما يبكي الإنسانية".

ويستمر سماحته فيروي بعضاً من أيسر الفجائع التي ارتكبها الإنكليز، وليس أقساها، فيقول عن أيسر وقع: إنّ "أيسرها أنهم دخلوا قرية الديلاب وفتشوا على عائلة شيخ عاجز مسنّ عددها اثنا عشر من نساء وأطفال فمزق الجند أشلاء الشيخ وذبحوا الأطفال وبقروا بطون النساء حتّى أنّ مرضعة بعدما قتلوها ذبحوا طفلها وألقوه على صدر أمه. ومنها أنّهم دهموا قرية الحمزة عليه السلام وجعلوا بيوتها هدفاً لنيران مدافعهم حتى هدمتها، وقد هرب سكان القرية.. تاركين أموالهم وحيواناتهم ولم يتخلّف في القرية غير العجزة والأطفال.. وما دخلت الجنود القرية حتى قتلت أولئك البؤساء وسلبت ما كان هناك من حليّ وحلل ودراهم ودنانير وحيوانات وأتلفت كل ما يصعب نقله من أثاث البيوت.. حتى أصابوا حرم الحمزة عليه السلام بثلاث قنابل مدفعية خرّبت قسماً منه وخربت الجنود الحرم

وقلعت شباك القبر والصندوق الذي فوقه وكسرتهما.. بل أحرقوا القرائين الشريفة.. وفعلوا مثل ذلك بقرية الخضر عليه السلام وبحرمه وقبره، وفعلوا أيضاً مثله بحرم طفلي مسلم بن عقيل عليه السلام وقبره ودعوها قاعاً صفصفاً"[١].

ويصف السيد محمد علي كمال الدين المؤرخ والمعاصر للحدث ما فعله الإنكليز في قرية الحمزة بعد أن فرّ منها أهلها القادرون على الفرار، بقوله: "ولم يتخلف في القرية غير العجزة والمكفوفين وبعض الأطفال، وبلغ هؤلاء (١٧) نفراً، ومذ طرق الإنكليز هذه القرية قتلوا هؤلاء جميعاً، وأحرقوا القرية داراً فداراً، ثم نهبوا جميع الحيوانات التي خلّفها الأهالي من خيل وبغال وحمير وأبقار وأغنام وأخيراً تعمّدوا إتلاف كل ما يمكن إتلافه من أثاث البيوت".

ويضيف: "وكان الإنكليز يحرقون كل قرية يمرّون بها عن طريق رشّها بالنفط وإشعال النار فيها، وذلك بأن يأتي الجنود الإنكليز إلى أركان القرية وعدّة من الدور المتقاربة بين كل الأركان، فيشكلون بذلك سلسلة من النقاط تحيط بالقرية كلها، كما يعيّنون مجموعة من الدور الواقعة في سكك القرية الداخلية على النمط المذكور، وبعد أن يقاربوا بين النقاط يرشّون الدور في النفط ويشعلون النار فيها فتحترق جميعاً.

بهذا الترتيب العجيب أحرق الإنكليز كل القرى التي شاء طالعها أن تكون في طريق هؤلاء المستعمرين. أما الخسائر في النفوس فتناهز المائة بين رجل وامرأة وطفل وعاجز وأعمى. وهكذا أثبت الإنكليز للعراقيين مرة أخرى كيف يعمدون إلى تمدين شعبنا... وينشروا بيننا أعلام الحضارة الغربية الجديدة"[٢].

ومن أجل أن لا أقتصر في عرض فظائع جرائم الإنكليز على معاصري الحدث من العراقيين، أرفق تفاصيل لجرائم يندى لها جبين الإنسانية عرضها شوفييه القنصل

---

(١) السلاسل الذهبية. سابق. مخطوط: ٣١٢- ٣١٥.وقد وجدت من الأهمية بمكان أن أنقل بعضاً من معاناة الفراتيين الفظيعة رغم طول النص. وينظر: ثورة العشرين في ذكراها الخمسين. سابق: ١٦٩.

(٢) ثورة العشرين في ذكراها الخمسين. سابق: ١٦٩ و١٧٠-١٧١ على التوالي.

الفرنسي في بغداد، من شهادة حية للأب لويس مارتن رئيس البعثة الكرملية في بلاد ما بين النهرين مع تقرير رفعه إلى وزير خارجية بلاده في (٢٤ آب ١٩٢٠م/ ٩ ذي الحجة ١٣٣٨هـ) ورد فيه حسب شهادته ما يلي:

"جاءت التعزيزات البريطانية -(الى منطقة الديوانية)- فبدأت حرب إبادة ضروس لم تحترم فيها النساء ولا الأطفال... وانتهكت حرمة الدور... كانت القوات البريطانية تدمّر كل شيء تصادفه في طريقها، لتبدو وكأنها لا تحترم أي قانون... إنّ قوانين الحرب وُضعت جانباً، فإنّ ما يجري هنا حرب لا شفقة فيها، حرب تستخدم فيها جميع الأساليب من أجل القتل والتدمير.

ويظهر أنّ هذا هو خط سلوك الإنكليز الذي مارسوه في بعقوبة أيضاً عندما قصفوها وصبّوا نيرانهم على بساتينها... لإرغام الناس على الرضوخ للسياسة البريطانية"[1].

❀ ❀ ❀

(١) صفحات من تاريخ العراق المعاصر. كمال مظهر أحمد: ٥٢.

المبحث الثاني

فراتيـة خزان الثورة المـادي ودعمـها اللوجسـتي

لقد تولى المراجع والمجتهدون تمويل الثورة بكل ما كان يقع تحت أيديهم من الحقوق الشرعية والهدايا وغيرهما بسخاء، بل كان المرجع الأعلى الشيخ الشيرازي مفجر الثورة لا يبقي مما يصله منها شيئاً له ولأسرته، فقد كانت تتوافر لديه أكوام من النقود مما يرسلها إليه المقلدون من مختلف الجهات "ما لا حصر له من الليرات الذهبية"(١)، وكان أهل بيته يطلبون منه أن يُبقي شيئاً لحاجات البيت، فكان هو يرفض ذلك رفضاً باتّاً، ويُصرّ على حمل النقود كلها إلى جبهات القتال.

يقول كاتب رسائله الشيخ محمّد الخالصي: "إنّ القوى المادية كانت قائمة به. بحكمه تُجمع الأموال وتُصرف لتهيئة الطعام والرصاص والكراع والسلاح. وهو قائم بجميع أمور الحرب، وعليه كان مدارها"(٢).

أما معاصره المجتهد الشيخ محمد أمين الإمامي الخوئي فيقول عن سماحة الشيخ الشيرازي: إنّه "كان يبذل في سبيل تلك النهضة الدينية قسمة معظمة مما يُجبى إليه من بيت المال"(٣).

وإذ شبت الثورة وبدأت بالزحف نحو تحرير المدن والنواحي والقضبات؛ "أمر سماحة الشيخ الشيرازي عصر يوم (٩ ذي القعدة ١٣٣٨هـ/ -٢٥- تموز ١٩٢٠) بطرد حاكم كربلاء، وفي صباح اليوم التالي جرت مداولات بين الإمام الشيرازي وكبار معاونيه أسفرت عن تشكيل ثلاثة مجالس لإدارة شؤون المناطق المحررة، وهي: ١. المجلس العلمي... ٢. المجلس الملّي... ٣. جمع الإعانات للمعوزين من الثوار ووظيفته تغطية الاحاجات (كذا) الاقتصادية لعوائل الثوار

---

(١) الإمام الشيخ محمّد تقي الشيرازي يشكل الحكومة الإسلامية. سابق: ٧٧.

(٢) بطل الإسلام. سابق: ١٨٠.

(٣) مرآة الشرق. الشيخ محمد أمين الإمامي الخوئي: ١/ ٣٤٥.

والمجاهدين. وتعمل هذه المجالس الثلاثة تحت إشراف قائد الثورة".

كما عقدوا اجتماعاً "في دار آية الله الشيرازي وتداولوا في أمر تنظيم الإدارة، ... حتى قرّ رأيهم على تشكيل ثلاثة مجالس وعينوا أعضاءها، والأعمال التي تزاولها، وهي كما يأتي: المجلس العلمي... المجلس الملّي... مجلس جمع الإعانات للمعوزين من الثوار... ومهمته جمع الإعانات لتموين المعوزين من الثوار"[١].

إضافة إلى ذلك فقد إذن المرجع الأعلى الشيخ الشيرازي للسيد نور الياسري أحد أكبر رجالات الثورة وممثليها برسالة سماحته المرسلة إليه في (١٦ رجب ١٣٣٨ هـ/ ٥ نيسان ١٩٢٠م) بصرف الحقوق الشرعية في مصالح المسلمين، جاء فيها: "إنّا قد أذنّا لكم في صرف ما يجتمع عندكم من الحقوق الشرعية في مصالح المسلمين بما يترجح في نظركم صرفه من الأمور الشرعية الخيرية"[٢].

ونظراً لأهمية الوقوف بتفصيل أكثر على حقيقة خزّان الثورة المادي، فسأنقل أكثر من رأي من آراء المشاركين فيها من قادتها وداعميها والمطلعين على شؤونها من معاصريها العراقيين سواء من الشيعة العرب أم السنة العرب أم الكرد أم غيرهم، وسواء كانوا من قادة الثورة الفراتيين أم غيرهم، بل حتى من قادة جيش الاحتلال البريطاني.

فأقول: لقد بذل كثير من المتمولين في الفرات الأوسط وغيره ما وسعهم بذله لأجلها وبالأخص كل من السيدين: نور الياسري، وهادي مكوطر، وقد سمّى السيد محسن أبو طبيخ، وهو أحدهم، أهم المجاهدين بأموالهم في رفد الثورة بالأموال اللازمة لإدامتها بقوله: "وإنّي لأذكر بتمجيد وإكبار ما قدمه بسخاء السيد نور الياسري، والسيد هادي مكوطر، والسيد علوان الياسري، والسيد هادي زوين، والحاج محسن شلاش، وكرم الحاج عبد الواحد السكر، الذين بدون مساعدتهم

---

(١) الشيخ محمّد تقي الشيرازي القائد الأعلى للثورة العراقية الكبرى ١٩٢٠. سابق: ١٠٦. يذكر بوجود رواية أخرى تنص على تشكيل مجلسين لا ثلاثة وقد تقدم ذكرها.

(٢) المواقف المشتركة لعلماء العراق وإيران ضد الغزو الأجنبي للبلاد الإسلامية ١٩٠٥ - ١٩٢٠م. سابق: ٢/ ٢٠٢.

وسخائهم وبذلهم لَما استطعنا الاستمرار في الجهاد ومواصلة القتال"[١].

وقد ورد في مذكرات السيد إبراهيم شمس الدين "أنّ السيد نور الياسري صرف من كيسه الخاص لأجل إشعال نار الثورة في سنة ١٩٢٠ – مبلغاً يتجاوز الثلاثين ألف ليرة ذهب تركية"[٢].

ويؤكد الباحث د. عبد الله الفياض آلية تمويل الثورة بقوله: "أفتى العلماء بصرف الحقوق الشرعية من أجل الثورة، وكان السيد نور الياسري من بين الذين أنفقوا مبالغ كثيرة على تمويل الثوار. وأخبرني سامي النقشلي أنّ السيد هادي مكوطر أنفق مبالغ كبيرة لتمويل الثورة في السماوة"[٣].

لقد بذل الزعماء والرؤساء ما وسعهم بذله من مال فأنفقوا كل ما كان مدّخراً عندهم منه، كما أنّ بعضهم حين نفد مالهم "رهنوا وباعوا أراضيهم في سبيل الحصول على المال لضمان استمرار الثورة"[٤].

ويؤكد الشيخ فريق المزهر آل فرعون هذه الحقيقة بقوله: "إنّ الزعماء والرؤساء قاموا بالصرف على الثورة وعلى بعض الثوار عدى (كذا) عشائرهم من أموالهم الخاصة... فأنفقوا كل ما كان مدّخراً عندهم من المال، وعندما نفد ذلك استدانوا من التجار إلى الحدّ الذي استطاعوه وإن كانت هذه الناحية غير مكشوفة إذ لا يعلم بها إلّا أهلها، وكانوا يُسيّرون الأمور بحنكة وحكمة"[٥]، من دون أن يبدو ذلك العجز المالي ظاهراً عليهم وعلى نشاطهم.

---

(١) مذكرات السيد محسن أبو طبيخ: ١٥٤– ١٥٥.

(٢) كربلاء في ثورة العشرين. سابق: ١٨٦ نقلاً عن مذكرات السيد إبراهيم شمس الدين الموسوي: الخطية.

(٣) الثورة العراقية الكبرى سنة ١٩٢٠. سابق: ٣٢٦. الهامش. كما جاهد السيد هادي مكوطر جهاداً مشكوراً أشاد به وزملائه المرجع الأعلى شيخ الشريعة الأصفهاني في رسالة منه إلى الشريف حسين ملك مكة في (٢٧ صفر ١٣٣٩هـ/ ١٠ تشرين الثاني ١٩٢٠م) يوصيه بالعناية به بعد أن قرر السيد هادي مكوطر التوجه إلى الحجاز لاجئاً بعد انتهاء الثورة (ينظر نص رسالة المرجع الأعلى شيخ الشريعة الأصبهاني بحق السيد هادي مكوطر في: وثائق الثورة العراقية الكبرى. سابق: ٥/ ٢٢٩).

(٤) الوقائع الحقيقية. سابق: ١٦١.

(٥) الحقائق الناصعة في الثورة العراقية. سابق: ٤٠٢.

وإذ وصل إلى زعماء ثورة العشرين كتاب من مدينة دير الزور مرسل من الضابطين علي جودت الأيوبي وجميل المدفعي صادر بتاريخ (٢ ذي الحجة ١٣٣٨هـ/ ١٧ آب ١٩٢٠م) يشكوان فيه "قلة المال وانقطاع الواردات من سوريا.. ولو وجد المال لتقربنا إلى جهتكم"، ويطلبان "جمع مبلغ من المال لأجل إدامة الحركات"، ويقولان: "ولنا أمل عظيم من همتكم العلّية"، قرأ الزعماء الكتاب وقرروا أن يجمعوا المال اللازم على الرغم من أنهم أحوج ما يكونون إلى المال لإدامة زخم معركتهم الملتهبة في الفرات، حيث تبرع كل من السيد نور الياسري والشيخ شخير الهميص بمبلغ (ألف) ليرة ذهبية من كل منهما، وتبرع كل من الشيخ عبد الواحد الحاج سكر، والسيد محسن أبو طبيخ بمبلغ (ثمانمائة) ليرة ذهبية من كل منهما، وتبرع كل من السيد علوان الياسري وسلمان البراك بمبلغ (مائتي) ليرة ذهبية من كل منهما، غير أن السيد محسن أبو طبيخ كان غير واثق من إخلاصهم فرفض وأيد بعض الزعماء كلامه، "وخوفاً من انشقاق الكلمة وضع مشروع تقديم المساعدة على الرف"[١].

ويورد السيد كاطع العوادي رواية أخرى تزيد المبلغ المجموع إلى خمسة آلاف ليرة ذهبية [٢].

لقد أجاب السيد علوان الياسري أحد قادة الثورة عن سؤال بخصوص تمويل الثورة بقوله: "كانت النفقات المقتضية لمشروع الثورة تصرف من زعماء الثورة أنفسهم على الثوار، ولم أسمع ولم أَرَ أي مساعدة مالية وردت من أي محل كان إلى مشروع الثورة العراقية"[٣].

أما الحاج عبد الرسول تويج أحد قادة الثورة فقد تحدث عن تمويل وتسليح الثورة بقوله: "أما الأموال التي أُنفقت على الثورة فكان مما تبرع به رؤساء القبائل

(١) الحقائق الناصعة. سابق: ٢٤٨-٢٤٩.

(٢) ينظر: المصدر السابق: ٥٦٣.

(٣) ينظر: وثائق الثورة العراقية الكبرى. سابق: ٥/ ٢٦١.

والمدن وساداتها، فلم يردنا شيء من بغداد ولا من خارج العراق، لا من مال ولا من ذخيرة، وقد صرفتُ من حلالي نحو ألفي ليرة على هذه الثورة بغض النظر عن نتائجها التي سببت هدم أملاكي وسجني. أما الذين يقولون لكم بأنّ أموال (كذا) وذخائر جاءت إلينا من خارج العراق أو من بغداد، فهم بعيدون في ادعاءاتهم عن الحقيقة بُعد السماء عن الأرض"[١].

وذكر ذلك أيضاً السيد أحمد الداود أحد وجوه كبار العلماء الثوار السنّة في بغداد بما نصه: "لم تستعن الثورة بفلس واحد من أموال سوريا، وإنما قامت برجال العراق وأموالهم"[٢].

في حين أورد المؤرخ النجفي المعاصر للحدث قوله: "تألفت لجان متعددة لجمع التبرعات العينية والنقدية لتجهيز الثائرين بالمؤن والسلاح والمال"[٣].

كما أجاب السيد جلال بابان أحد كبار وزراء الدفاع في العهد الملكي بقوله: "لم يحصل العراقيون في ثورتهم هذه على أي شيء من خارج العراق، سواء كانت هذه من الذخائر الحربية أو الأسلحة أو النقود، وإنما قاموا بتغذية حركتهم هذه بما كان مخزوناً لديهم من الأسلحة والعتاد حسب التقاليد والضروريات القبلية، وكذلك بما حصلوا عليه من الغنائم أثناء الثورة"[٤].

كما أجاب بمثل ما تقدم كلّ من: ناجي شوكت رئيس وزراء العراق الأسبق، والمجتهد الشيخ عبد الكريم الجزائري، والشيخ جواد الجواهري، والسيد هبة الدين الشهرستاني، والحاج عبد الرسول تويج[٥]، والحاج عبد المحسن شلاش، وغالبيتهم العظمى من أعمدة الثورة وقادتها.

---

(١) مقدمة مذكرات الحاج عبد الرسول تويج. كامل سلمان الجبوري: ٧.

(٢) وثائق الثورة العراقية الكبرى. سابق: ٥/ ٢٦١-٢٦٢.

(٣) ثورة النجف على الإنكليز أو الشرارة الأولى لثورة العشرين. سابق: ٣٨٤.

(٤) المصدر السابق نفسه: ٣٧٥-٣٧٦.

(٥) ينظر: الثورة العراقية الكبرى. سابق: ٣٧٠-٣٩٧.

ولعل من المهم أن أركز على جواب الحاج عبد المحسن شلاش عن سؤال وُجّه إليه بخصوص خزّان الثورة المادي، فأكد على قوله التالي: "لم أَرَ أو أسمع بوصول مدد، أو مال، أو غيره إلى الفرات الثائر، لا من داخل العراق ولا من خارجه، إنما كانت التبرعات تُجمع، والضرائب الشرعية تُجبى في النجف، وعن النجف، وكربلاء، بأوامر العلماء، وفتاواهم، ومما كان يبذله الزعماء، ورؤساء العشائر أنفسهم لمشروع الثورة مدة بقائها. وأما الذخائر والأسلحة فهي مما كانت محفوظة عند العشائر، ومما اغتنموه أثناء الثورة في الرميثة والسماوة والرارنجية وغيرها من وقائع الثورة"(١).

ذلك أنّ لشهادة الحاج عبد المحسن شلاش أهمية خاصة، فهو من ناحية كان متخصصاً بالشأن المالي والتجاري بحيث عيّن وزيراً للمالية في أكثر من حكومة عراقية خلال العهد الملكي، ومن ناحية أخرى -وهي الأهم- فهو من عيّنته حكومة ثورة العشرين في النجف الأشرف وزيراً لماليّتها، ما يعنى أنّه أدرى من غيره بالشأن المالي للثورة، ومن ناحية ثالثة فقد توسع الحاج شلاش في إجابته عن السؤال، فتناول مددهم وتسليحهم أيضاً، فأثبت أن لا مدد، ولا سلاح، ولا ذخيرة وصلت، لا من داخل العراق، ولا من خارجه، إلى ساحات عمليات ثورة العشرين في الفرات.

أما الشيخ محمّد مهدي البصير أحد كبار خطباء الثورة في بغداد حين اشتعالها فيقول: "كان للسيد نور السيد عزيز مقام عالٍ بين الثوار؛ لأنه كان ذا مكانة سامية بنظر عشائر أواسط الفرات، نظراً إلى ثرائه وجاهه وميله إلى الأمور الخيرية، وقد أنفق كل من السيد علوان، والشيخ عبد الواحد، والسيد نور، أموالاً طائلة سواء في تموين جموع الثوار أو رشو الزعماء المعروفين بحبهم للمال حبّاً جمّاً"(٢).

وقد أشار إلى ذلك السيد محسن أبو طبيخ خلال زيارته للنجف الأشرف في

(١) المصدر السابق: ٣٨٨-٣٨٩.

(٢) تاريخ القضية العراقية: ١٣٠. من الطبعة الثانية.

شهر رمضان المبارك من سنة (١٣٣٨هـ/ ١٩٢٠م) بقوله: "بمناسبة زيارة أمير المؤمنين عليه السلام توجهت إلى النجف الأشرف يصحبني هنيّن الحنّون شيخ آل زياد وهناك اجتمعنا في دار السيد نور الياسري، والسيد هادي مكوطر، والحاج عبد الواحد السكر، وآخرون واتفقنا على أن نجمع المال لمعونة بعض المشايخ ممن أصابهم القحط والعوز جراء رداءة المحصول الشتوي وأثر على وضعهم المادي مما جعلهم عرضة لإغراءات الإنكليز، وبعد أيام من عودتنا إلى محالّنا تم لنا جمع المال الذي اتفقنا عليه، وما أن علم حاكم النجف الميجر نوربري، حتى صار يعرض على الرؤساء المزمع مساعدتهم من قبلنا مبالغ طائلة.. ولكن خيّب الله سعيهم"[١]؛ ذلك أنّ "القبائل التي أغراها الإنكليز بملايين الروبيات أصبحت في طليعة الثائرين"[٢] لاحقاً.

ويبدو أن تقديم الدعم المالي لبعض الشيوخ وكبار الزعماء المؤثرين إما لجلبهم إلى صف الثورة أو لإبعادهم عن دعم الإنكليز أو لتحييد موقفهم على الأقل؛ لم يكن حالة فردية في هذه المنطقة أو تلك، بل كانت حالة معروفة وشائعة.

يوضح الكابتن البريطاني سامورز مان في رسالة بعثها لأمه في (١٧ حزيران ١٩٢٠) كيفية علمه بـ"أنّ المتآمرين قد ارسلوا وكلاءهم وأنّ برطيلاً مقداره ألف ليرة قد عرضوه على أكبر شيخ عندي... وفي يوم الأحد الماضي اتفقت مع نوربري أن نعيد عرضاً سابقاً له بإعطائه (١٠٠٠ روبية في الشهر هو وأخوه ولمدة سنة)... أتوقع أن يقبل مثل هذا العرض".

ويقول الكابتن مان متحدثاً في رسالة أخرى بعثها من منطقة (أم البعرور) الشامية إلى والدته أيضاً في (٣٠ حزيران ١٩٢٠م) جاء فيها: إنّ "أحد أصدقائنا المؤثرين كان مريضاً.. استطاع شيوخ آل فتله أن يمنحوه برطيلاً كما منحوا برطيلاً لآخر هو.. مبلغ ١٠٠٠ ليرة، وهم يعرضون الآن مبالغ كبيرة عن طريق... إلى شيوخ.. لقد قابلت الإدارة البريطانية هذه العروض بدفع ما يقارب (٢٠٠٠ ليرة)

(١) مذكرات السيد محسن أبو طبيخ. سابق: ١٢٥.

(٢) صحيفة الفرات النجفية. العدد ٢ لسنة ١٣٣٨.

لإعطائها إلى.. وبذلك يكونون غير خاضعين للتأثيرات... ولكن الشيوخ الآخرين المحتاجين قد استلموا مبالغ ضخمة من رجل ثري جدّاً وله مكانة دينية رفيعة... سيد نور"[١] الياسري.

إن هذه المبالغ المدفوعة للمؤلفة قلوبهم أو المحتاجين حقاً من المواطنين ومثلها كثير، إضافة إلى كلف التجهيزات العسكرية والنقل والحركة والتموين والإعاشة وشؤون العمليات العسكرية - كلها قد أرهقت موازنة الثورة، وقد زادتها إرهاقاً وهي ما اضطرت ممولي الثورة ومشايخها وداعميها وقادتها إلى دفع مبالغ عالية للوقوف حائلاً بين ضعاف النفوس من بعض رؤساء العشائر ورشاوى الإنكليز الضخمة، ولا يسعني أن أضرب العديد من الأمثلة على حجم هذه الأموال المدفوعة ولا مقدار إضرارها بخزينة الثورة وتمويل الثوار، بل سأكتفي بذكر نماذج شكّلت خطراً حقيقياً على نتائج الحرب مع المحتلين.

يقول السيد محسن أبو طبيخ متصرف كربلاء حينها: "لقد بذل الإنكليز أموالاً طائلة لشراء الذمم بعد أن وجدوا أن محاربتنا قد كلّفتهم غالياً، وركّزوا كل جهودهم على تخريب ما نقوم به بواسطة عملائهم الذين تم شراء ضمائرهم، وكان هذا سبباً في إسقاط إدارتنا في كربلاء، ثم انسحابنا منها ومن الحسينية إلى أبو صخير.. وحين وصلنا إلى الكوفة علمنا بما يجري على نطاق واسع من خيانات واستسلام للإنكليز من بعض العشائر.. بعد المعركة الآنفة الذكر حصلت خيانة خطيرة عند بعض العشائر في منطقتنا وانشقت علينا، حيث راجع رؤساء هذه العشائر الإنكليز، وأظهروا لهم الولاء لقاء أموال نقدية كبيرة، ثم جاءنا هؤلاء القوم وهددونا بأنهم سيتفقون مع الجيش الإنكليزي ويضربوننا إذا لم ننسحب من أبو صخير أو نستسلم"[٢]، فكانت هذه هي بداية النهاية للثورة.

---

(١) مذكرات السيد محسن أبو طبيخ. سابق: هامش صفحة ١٢٥.

(٢) المصدر السابق نفسه: ١٦١-١٦٣. وينظر: موسوعة العراق السياسية لعبد الرزاق محمّد الأسود: ٣٢٣، وما بعدها مشيراً إلى هذه الحادثة "كانت قوات الثورة مستمرة بحصار الحلة.. حين اتصل حاكم =

هذا ما يتعلق بشهادة العراقيين شيعة وسنة بخزان الثورة المادي ومن بذل له ودعمه وتحمل ضغطه.

أما ما دوّنه البريطانيون عن ذلك، فسأستشهد بما نقله كل من فريق المزهر آل فرعون و د. عبد الله الفياض عن الجنرال هالدن القائد العام للجيش البريطاني خلال ثورة العشرين.

أما فريق المزهر آل فرعون فقد نقل عنه قوله في كتابه: إنّ "جميع ما صرف في الثورة هو من العلماء"(١).

وأما د. عبد الله الفياض فقد نقل عنه قوله: "إنّ الأثرياء من السادة وشيوخ العشائر قدموا مبالغ نقدية وعينية لتموين جيوش الثورة، واستخدمت المبالغ التي قدموها لشراء السلاح والعتاد، ومن الملاحظ أن كل المبالغ التي أنفقت على الثورة أو جلّها قدمها العراقيون أنفسهم.. لقد فُتح باب التبرع الاختياري في المدن المختلفة، وحثّ علماء كربلاء والنجف الناس على التبرع لهذا الغرض لأسباب دينية أو وطنية. وعندما يعمل الثوار في منطقة بعيدة عن بيوتهم يُعطى كل فرد منهم روبية واحدة لنفقاتهم اليومية، وكان دفع هذا المبلغ لمدة طويلة يثقل كاهل خزينة الثورة؛ لذا كان سكان المنطقة التي تجري بها العمليات العسكرية يتبرعون بإطعام الثوار الذين يعملون بمنطقتهم"(٢).

وإذا كان للدعم المادي للفراتيين دوره الكبير في دعم الثورة والثوار، فإن لدعمهم اللوجستي وخاصة دعم المواكب الحسينية الشريفة للمجاهدين أثره في إدامة زخم معركة الجهاد الكبرى سنة ١٩٢٠م.

= سياسي لواء الحلة والشامية ببعض الأذناب وضعاف النفوس واتفق معهم على أن يتركوا مجالاً للجيش لاجتياز (قصبة الحاج شكري)، ودخلت القوات البريطانية مدينة الهندية.. والطائرات في إسنادها وهي تقصف جموع الثوار المنسحبين باتجاه كربلاء.. وإزاء هذا الموقف خرج الزعماء والرؤساء إلى النجف لتشكيل القاعدة الدفاعية في أبي صخير".

(١) الحقائق الناصعة. سابق: ٥٤٨. نقلاً عن كتاب هالدن: ١٢٤.

(٢) الثورة العراقية الكبرى لسنة ١٩٢٠ م. سابق: هامش ص ٣٢٥-٣٢٦.

لقد وثّق المؤرخ المعاصر للثورة الباحث حسن الأسدي الدعم اللوجستي لجيش المجاهدين في ثورة العشرين الزاحف لملاقاة العدو بقوله: "وقد ساعدهم على تنظيم التموين ما كان للأنصار الحسينيّين في كل مدينة من مدن الفرات من استعدادات للطبخ والنقل، مما كان عاملاً في تجهيز المجاهدين وتسهيل حركة نقلهم من مكان إلى آخر. ففي كل مدينة من مدن الفرات توجد استعدادات على نطاق واسع لتجهيز مواكب العزاء الحسينية عندما تذهب إلى كربلاء في كل عام لزيارة الأربعين بحيث تكفي لتجهيز وتموين ونقل آلاف الزوار من كل مدينة. وقد وضعت هذه الاستعدادات في خدمة المجاهدين منذ اللحظة التي أُعلنت فيها الثورة"[١]. كما ورد أن قبائل الدغّارة وعفك تقوم بإعداد مطابخ للجيوش الإسلامية[٢].

وسيأتي الحديث في فصل لاحق عن دعم المواكب الحسينية اللوجستي لمجاهدي ثورة العشرين مع مقارنته بالدعم اللوجستي الذي قدمته المواكب الحسينية الشريفة لفتوى الجهاد الكفائي ضد الدواعش التكفيريين الصادرة في سنة ٢٠١٤م.

ولا يفوتني -وأنا تحدث عن خزان الثورة المادي- أن أشير إلى أمرين:

أولهما: مشاركة النساء العراقيات بدعم هذا الخزان المادي من خلال تقديم مصوغاتهن الذهبية وأموالهن دعماً للثورة والثوار، بل تشكيلهن للجنة مَهمّتها جمع المصوغات الذهبية والأموال منهن لدعم جبهات القتال والمقاتلين[٣].

ثانيهما: إن قادة الثورة بعلمائها وزعمائها "كانوا يرسلون الأموال من الفرات إلى بغداد لإنفاقها في تنظيم المظاهرات وتنشيط الحركة الوطنية، فيصل صدى ما يقع على ضفاف دجلة إلى الفرات فيتحمس الناس وينضمون إلى العاملين للاستقلال ويشدون أزرهم"[٤].

---

(١) ثورة النجف على الإنكليز أو الشرارة الأولى لثورة العشرين. سابق: ٣٨٤.

(٢) ينظر: ثورة العشرين في ذكراها الخمسين. سابق: ٢.

(٣) شعراء الغري. علي الخاقاني: ٩/ ١٥٠.

(٤) الثورة العربية الكبرى. سابق: ٢/ ٣١٣.

لقد أذكرني الدعم السخي لثورة العشرين من مرجعيتها وشيوخها وقادتها وأهلها رجالاً ونساء؛ ما سبق أن قدمه المجتهد المجاهد السيد محمّد سعيد الحبوبي من مواقف مشرفة خلال سيره بالآلاف المؤلفة من المجاهدين ينفق عليهم من ماله الخاص، حتى أنّ الحكومة العثمانية عرضت عليه خمسة آلف ليرة ذهباً كمساعدة له على مواصلة جهاده، فأبى استلامها قائلاً: "إنّي مكلف بالتضحية في مالي ونفسي، فإذا نفد المال بقيت نوبة النفس، اعتبروني جنديّاً من الجند، وجهاد النفس أفضل، لا، لا أقبل درهماً واحداً وقائد الجيش أعرف بمواقع الصرف، ولا أسمح لكل أحد أن يفاتحني في هذا الشأن"، وقدمت له الحكومة العثمانية خمسة آلاف ليرة ذهبية كمساعدة له على مواصلة الجهاد لكنة رفضها، وقال: "ما زلت أملك المال، فلا حاجة لي به، وإذا ما نفذ فشأني شأن الناس آكل مما يأكلون وأشرب مما يشربون"[١]. وقد اضطرّته تكاليف الجهاد الباهضة "إلى حدّ أنه اضطُرّ إلى رهن أملاكه الخاصة لينفق منها على المجاهدين[٢].

ولم يقتصر الأمر على سماحة المجتهد المجاهد السيد الحبوبي، بل هناك غيره ممن امتنع عن قبول مساعدات مادية لصرفها على جماهير المجاهدين الذين يقودهم من قبيل سماحة المجتهد السيد مهدي الحيدري، الذي "لم يأخذ من العثمانيين مساعدات مالية، وهو الذي كان يتزعّم المجاهدين في الخطوط الأمامية ويصرف من ماله الخاص"[٣].

❀ ❀ ❀

(١) حركة الجهاد وموقف النجف ضد الغزو الأجنبي للعراق. كامل سلمان الجبوري. سابق: ١/ ٣٩، وشعراء الغري. علي الخاقاني ٩/ ١٥٠ على التوالي.

(٢) الثورة العراقية الكبرى سنة ١٩٢٠. سابق: ١١١.

(٣) الإمام الثائر السيد مهدي الحيدري. السيد أحمد الحسيني: ٤٤. والمواقف المشتركة لعلماء العراق وإيران ضد الغزو الأجنبي للبلاد الإسلامية ١٩٠٥-١٩٢٠م. سابق: ١/ ١٣٠.

المبحث الثالث

فُراتيّة خزّان الثورة التسليحي

تقدم في بعض النصوص السالفة التي استشهدت بها خلال حديثي عن خزان الثورة المادي ذِكرُ أمر التسليح مع الدعم المالي لارتباطهما ببعضهما؛ فبالمال يشترى السلاح لإدامة زخم معارك التحرير.

غير أنّ نصوصاً عديدة أخرى خصت الجانب التسليحي للمعركة وركزت عليه، ذلك الجانب الذي تعهد به قادة الثورة من زعماء الشامية والمشخاب بعد اجتماعهم العسكري الخطير الذي اتفقوا وتعاهدوا فيه على بنود خمسة جاء أولها بقرار إعلان الثورة المسلحة، وجاء في البند الثالث منها قرارهم بـ"تهيئة ما يحتاج إليه الجيش المنظم من آلات الحرب ودواب النقل ولوازم الإعاشة والسكن؛ كي لا يضطر الجيش إلى السلب والنهب كما كانت حالة الجيش التركي"[1].

ويذكر صاحب كتاب (الحقائق الناصعة) أنّ زعماء الثورة اجتمعوا أول ما عزموا على الثورة "فقرروا أن يجمعوا المساعدات ليتمكن إخوانهم من إيجاد المعدات والذخائر لأبناء عشائرهم"[2].

وينقل السيد محمّد علي كمال الدين كذلك عن أخيه السيد حسين أنّ شعلان أبو الجون قال له: "بعد انتهاء الثورة واجتماع المرحوم شعلان مع أحد الحكام الإنكليز... سأله: من أين لكم المؤن والعتاد والمال مما تحتاجه الحرب...؟ أجابه: إنّ العشائر اعتادوا إذا وقعت معركة مّا فإنّ كل فرد منهم عليه أن يجلب معه ما يحتاجه لمدةٍ مّا... وما يحتاجه العربي أمر زهيد"[3] من السلاح والعتاد والزاد.

وقد أشار إلى ذلك بوضوح كافٍ د. الوردي بقوله: "كانت العشائر العراقية

---

(١) ثورة العشرين في ذكراها الخمسين. سابق: ١٠٤.

(٢) الحقائق الناصعة. سابق: ١٩٧-١٩٨.

(٣) ثورة العشرين في ذكراها الخمسين. سابق: ١٢٢.

تملك من البنادق والأسلحة الأخرى مقادير كبيرة جدّاً حصلوا عليها في الحرب الأولى من جرّاء ما وقع فيها من كرّ وفرّ بين الجيوش المتحاربة طيلة أربع سنوات. يقول ولسون في مذكراته: (إنّ سكان العراق بوجه عام تمكنوا من تجهيز أنفسهم بمقادير كبيرة من الأسلحة الحديثة وأعتدتها بحيث انخفض سعر البندقية من طراز موزر أو لي أنفليد إلى خمس باونات أو أقل من ذلك، مع العلم أنه كان قبل الحرب يتراوح بين (٢٠ و٢٥ باون). إنّ البنادق التركية والإنكليزية كانت تلتقط بالآلاف من ميادين القتال أو تسرق من خطوط المواصلات، وقد تراكمت الأعتدة عندهم إلى حدّ لم يحلموا به من قبل. وأبدى أفراد العشائر شجاعة ومكراً ومثابرة في الاستحواذ على الأسلحة... فمن معسكر إنكليزي واحد سرقوا أكثر من سبعين صندوقاً، يحتوي كل صندوق منها على ألف خرطوشة. وقد فعلوا ذلك تحت أنوف الحراس)"[١].

لقد كان لِما غنمه ويغنمه الثوار في المعارك مع الإنكليز أثرٌ كبير في تسليح الثوار، ومما ورد في ذلك ما تضمنته رسالة مؤرخة في (٢٠ ذي القعدة ١٣٣٨هـ/ ٥ آب ١٩٢٠م) موقّعة من علي الحسيني الحلي مرسلة إلى العلماء الأعلام تحدثت عن انسحاب حكومة الاحتلال من الديوانية فتم الاستيلاء على (١٠٠٠) من قنابل الطائرات، وعشرة آلاف من القنابل اليدوية، وعدد كبير من "الذخائر والجوادر (الخيم) وغير ذلك يساوي خمسة ملايين روبية"[٢].

وقد كان المرجع الأعلى شيخ الشريعة الأصبهاني وقائد الثورة الخلف قد أوصى في رسالة بعثها إلى السيد هادي مكوطر في (٣ ذي الحجة ١٣٣٨هـ/ ١٨ آب ١٩٢٠م) إثر انتصار المجاهدين على الغزاة الإنكليز في شرقي السماوة جاء فيها "جناب السيد الماجد الناصر المجاهد السيد هادي مكوطر[٣]... هذا إنّ من أهم وصاياي لك:

---

(١) لمحات اجتماعية من تاريخ العراق الحديث. سابق: ١/ ٣٤٣. وينظر هامش الصفحة.

(٢) ثورة العشرين في ذكراها الخمسين. سابق: ٢٠٩- ٢١٠.

(٣) السيد هادي ابن السيد حسن ابن السيد علي المكوطر، ولد عام (١٨٨٥م) في بلدة لملوم الواقعة بين =

أولاً: أن تبذل غاية جهدك في تأليف المسلمين وجمع كلمتهم... **ثانياً**: أن تحتفظ بآلات الحرب التي لا توجد عند العشائر كمدافع الدان... والقذائف، والمكائن اليدوية، والفلك ذوات الماكينة... ونحو ذلك من أسباب سرعة النقل، وشدة التدمير. فإن ذلك أنفع للمسلمين من كل غنيمة؛ لأنه يجر غنائم كثيرة وتتبعه فتوح كبيرة"[1].

هذا إضافة إلى شراء المجاهدين ما كان ينقصهم من التسليح بأموالهم وأموال المرجعية من خلال ما يعرض عليهم من "نشاط التهريب وانتقال البنادق من البادية ومن العشائر التي لم تساهم في الثورة وبيع هذا السلاح على الثوار بأسعار

= مدينتي الحمزة الشرقي والرميثة، وتوفي في الشنافية سنة (١٣٤٢هـ/ ١٩٢٤م)، أحد أقطاب حركة الجهاد ضد الإنكليز وكبير من كبار مموليها، سواء بعد فتوى المرجعية بالجهاد ضد الإنكليز سنة (١٩١٤) أو في ثورة العشرين. ففي معركة الشعيبة ضد الإنكليز كان له دور متميز بشهادة الحاج سلطان العريبي أحد أبرز حرّاسه واصفاً شجاعته في معركة الشعيبة بقوله "ركب السيد هادي فرسه وجال به بين المجاهدين، وكان يحمل علماً كتب عليه (لا إله إلّا الله، محمّد رسول الله، عليّ وليّ الله) وأخذ يصيح بين المجاهدين (من يبيع نفسه لله؟) فانتدب له ستمائة فارس... منهم مائتان من الأكراد يرأسهم الشيخ أحمد الحفيد... وقبيل بزوغ الشمس هجموا هجوماً صاعقاً ومباغتاً على الجيش الإنكليزي... فانتصر المجاهدون انتصاراً باهراً"، وأسروا عشرات من الهنود وأسلحة كثيرة. وهي المعركة التي بقيت هوستها أو أهزوجتها حيّة تتردد بين العراقيين من جيل إلى جيل. حيث هوّس الشيخ باقر الخفاجي فقال: "ثلثين الجنة لهادينا. وثلث لكاكا أحمد وأكراده". وفي ثورة العشرين كان السيد هادي مكوطر أحد أبرز مموليها الكبار، وقادتها الأفذاذ، ويكفي أن أنقل ما كتبه في حقه المرجع الأعلى شيخ الشريعة الأصبهاني في رسالة بعثها إلى الشريف حسين بن علي في (٢٧ صفر ١٣٣٩هـ/ ١٠ تشرين الثاني ١٩٢٠م) بعد انتهاء ثورة العشرين وهجرة السيد هادي مكوطر إلى مكة المكرمة يوصيه المرجع فيها بزعماء المجاهدين المهاجرين إليه من الذين "لم يفرّوا فرار العبيد، إباء من أنفسهم، وثباتاً على بلوغ المتقرر من مطالبهم، وعسى أن يكون ممن يزور تلك الرحاب المقدسة من الجالية العراقية: أشرفها نفساً، وأعلاها بيتاً، وأعزها جاراً، جناب السيد هادي مكوطر أدام الباري عزّه. أملي أن يلقى منكم ما يناسب عزة نفسه، وشرف محله". (المواقف المشتركة لعلماء العراق وإيران ضد الغزو الأجنبي للبلاد الإسلامية ١٩٠٥-١٩٢٠م: ٢/ ٤٧١). أقترح أن يعنى بدراسة دوره الباحثون؛ لقلّة مَن كتب عنه وتناول دوره في حركتي الجهاد ضد الإنكليز.

(١) المواقف المشتركة لعلماء العراق وإيران ضد الغزو الأجنبي للبلاد الإسلامية ١٩٠٥-١٩٢٠م. سابق: ٢/ ٣٨٨.

باهضة"، ونتيجة لعدم وجود أموال وفيرة لشراء احتياجاتهم كلها من الأسلحة والمعادات؛ "فقد عملت الصناعة العراقية أعمالاً عجيبة لإطالة مدة الحرب فيما قدّمت من إصلاح فني عجيب للبنادق المتعطلة ولملء الخراطيش بالبارود وإعادتها من جديد إلى العمل.. وقد كانت النجف والكوفة هما اللتان تولّتا إصلاح الأسلحة وملء الخراطيش بالبارود وحبات الرصاص وقطع الحديد"[١]. وقد تمت الإشارة إلى ذلك فيما تقدّم.

ومن الطريف بالذكر أن أحد أكبر زعماء جمعية النهضة الإسلامية التي أشعلت ثورة النجف على الإنكليز سنة (١٣٣٦هـ/ ١٩١٨م) قد فكر كما ينقل عنه الكاتب كاظم المظفر "بتهيئة الذخيرة لبنادق المقاتلين استعداداً للحصار الطويل، فأعد لهم المرحوم الوطني الغيور الشيخ محمّد جواد الجزائري... بالتعاون مع الثوار الآخرين مصنعاً بدائياً بسيطاً لإعداد الذخيرة، وفي أثناء العمل بهذا المصنع فقد الشيخ الجزائري بعض أصابعه أثناء قيامه بإدارة المصنع، حيث تفجر البارود بين يديه، كما حدثني هو نفسه بذلك، وأكده لي بعض الأحياء المشاركين في تلك الأحداث"[٢].

ومنها أيضاً تطويرهم لألغام التفجير، وزيادة حجم تأثيرها، وقوة تفجيرها. فمثلاً في يوم (١٦ ذي القعدة ١٣٣٨ هـ/ ١ آب ١٩٢٠م) وضع الثوار لغماً كبيراً صنعوه أدى تفجيره إلى كشف جانب من معسكر الإنكليز في الكوفة، فصوبوا نحوه بنادقهم، وأمطروه بالرصاص، وكان اللغم مؤلفاً من قنبلتي طائرة، وقنابل مدفع، وجميعها من غنائم العدو، وأضيف إليها أيضاً كمية كبيرة من البارود، وقد لفّ هذا الخليط جميعاً من أشياء أخرى في (جزة) صوف"[٣].

لقد تجلّت القدرة على تصليح الأسلحة وإعادتها للخدمة ثانية في تصليح مدفع من عيار (١٨) عقدة خلّفه الإنكليز وراءهم خلال انسحابهم إثر هزيمتهم

(١) على هامش الثورة العراقية الكبرى. سابق: ١٢٩.

(٢) ثورة العراق التحررية ١٩٢٠. سابق: ١/ ٩٤.

(٣) ينظر: ثورة العشرين في ذكراها الخمسين. سابق: ١٢٦.

المنكرة في معركة الرارنجية الخالدة نتيجة ليأسهم من إخراجه من النهر، وهو ما أثبته القائد الإنكليزي الكبير الجنرال هالدن بقوله عن المدفع بعد أن "سقط في قناة بعيدة الغور إبان الانسحاب الليلي، ولم أستطع على الرغم من الجهد المبذول الشجاع إلى إخراجه سبيل (كذا) لذلك اضطررنا إلى تركه فيها"[١].

ونظراً لأهميته وحاجة الثوار إليه في ضرب الباخرة المدرّعة (فاير فلاي) التي كانت تمخر عباب شط الكوفة جيئة وذهاباً لتقذف بقنابلها على الثوار المحاصرين للحامية الإنكليزية فيها؛ جاء الثوار بالمدفع فتبيّن بعد فحصه أنه لا يمكن استعماله لنقصانه (الإبرة) المنتزعة منه. غير أنّ الأمر أمكن تداركه بأن استطاع رجل ماهر كان يتعاطى إصلاح البنادق يدعي (أسطه كديمي) بتوجيه من الضابط المدفعي الذي كان سبق أن خدم في الجيش العثماني (حسين علوان) بأن يثقب له "ثقباً في المكان الذي أراد من المدفع وجهزّه بقضيب من الحديد على هيكل مسمار طويل كبير، فوضع حسين علوان القذيفة الفارغة، وضرب على المسمار بالمطرقة الخاصة في طريق الثقب، فانفجرت الكبسولة، وتعالت الصلوات، فكان المرحوم علوان الحاج سعدون أول من بارك لحسين علوان نجاحه، وقد تغرغرت عينا سماحة الجزائري[٢] وسماحة آية الله الكاشاني[٣] بدموع الفرح.. وأخيراً استعمل حسين علوان المدفع... فأطلق منه ثلاث طلقات... فإذا به يصيب من الباخرة (فاير فلاي) مخزن عتادها، فيقفز منها من يقفز إلى الحصن الكائن على النهر، ويلقى حتفه من يلقى، وظلت هذه الباخرة مدة من الزمان شاخصة بسواريها وأعمدتها الحديدية في النهر كرمز من رموز بطولة الثوار"[٤].

(١) الكوفة في ثورة العشرين. سابق: ١١٤. نقلاً عن كتاب ثورة العراق. الجنرال هالدن: ١١٤.

(٢) يقصد به العالم الكبير الشيخ عبد الكريم الجزائري، وكان المؤلف قد أشار سابقاً إلى حضوره عملية الفحص في ص٨٢ واصفاً إياه بـ"سماحة المجتهد الكبير"، وكان من ضمن الحاضرين أيضاً الحاج محسن شلاش.

(٣) المجاهد الكبير السيد أبو القاسم الكاشاني.

(٤) على هامش الثورة العراقية الكبرى. سابق: ٨٢-٨٤.

لقد كان المجاهد العراقي يعتمد كل الاعتماد خلال خوضه الحرب على السلاح الشخصي كالبندقية والمكوار والسيوف وأمثالها، كما كان للسلاح المتجمع في النجف الأشرف قبل ثورة النجف الأشرف ضد الإنكليز سنة (١٣٣٦هـ/ ١٩١٨م) وما بعدها حتى اندلاع (ثورة ١٩٢٠ م) وخلالها أثرٌ كبير في تدعيم سلاح الثوار، فقد أثبت ذلك الباحث المعاصر للثورة والشاهد عليها الأستاذ حسن الأسدي متحدثاً عن الوضع العام قبل ثورة النجف الأشرف ضد الإنكليز المتقدم ذكرها في سنة (١٩١٨م) بقوله: "إنّ حركة المتاجرة بالأسلحة النارية التي كان مركزها النجف، وسوقها الريف المجاورة للنجف، فكانت الأسلحة تنصبّ على النجف بكميات وافرة جدّاً، من البادية المحيطة، يجلبها البدو من مختلف الأقطار المجاورة لتختزن في النجف وتصنع لها الكميات الهائلة من العتاد في معامل بدائية سرية تحتضنها البيوت البعيدة عن النظر والسراديب فأطراف النجف تتصل بها اتصالاً وثيقاً من هذه الناحية، وتجلب لها أو تشتري منها مختلف أنواع الأسلحة والعتاد.

ولمّا ثار النجفيون على الأتراك وشكلوا حكومة مستقلة تجب حمايتها، جعلوا يشترون كل كمية من السلاح ترد إلى النجف دون أن يتركوا مجالاً لبيعها للخارج. الأمر الذي تسبب في ارتفاع أسعار الأسلحة وكثرة جلبها من البادية والريف فامتلأت النجف بالسلاح"[1].

بيد أنّه لامتداد أمد الثورة لأشهر بدأ النقص يتضح شيئاً فشيئاً وخاصة في كمية السلاح والعتاد والذخيرة والتموين والمال، وقد ظهر أثر ذلك على المقاتلين، ليس بسبب ندرة وجود الأسلحة والأعتدة فحسب، بل بسبب شحة التمويل، فمن ذلك مثلاً: "أن مجاهداً صوّب بندقيته على الإنكليز في السماوة إلى أن نفد جميع ما كان لديه من الرصاص، ثم رمى بالبندقية نفسها نحو العدو، ثم خلع نعله ورمى بها نحو العدو وقال: ماذا أصنع؟ هذا آخر ما لدي مما يمكن ضرب العدو به. وكنا نشتري كل رصاصة بروبية فلا نجدها على أن الروبية لم تكن توجد، وكالسلاح

(١) ثورة النجف على الإنكليز أو الشرارة الأولى لثورة العشرين. سابق: ١١١.

الطعام، فإنّ الجوع أضرّ بالمجاهدين ضرراً عظيماً. هذا وعدوُّهم مالك لجميع الوسائل في الماء واليبس والسماء"[١].

يقول الشيخ محمد الخالصي: "وكنّا في كربلاء نعدّ لهم الطعام فلا يصيب الرجل في مدة أربع وعشرين ساعة أكثر من رغيف من الخبز، وقليل من التمر، وكنا نشتري الخرطوشة بروبية... وكان العرب في غالب الأحيان يسارعون إلى الهجوم والاختلاط بالجيش الإنكليزي ليسكتوا بذلك مدافعهم ورشاشاتهم ويأخذوا منهم سلاحهم"[٢].

❀ ❀ ❀

(١) بطل الإسلام. الشيخ محمّد مهدي الخالصي: ١٨١.

(٢) في سبيل الله. مذكرات الشيخ محمد مهدي الخالصي أيضاً: ٢٤٧.

الفصل السابع

المرجعية الدينية وثورة العشرين
تجربة الحكم والإدارة

وفيه ثلاثة مباحث هي:

المبحث الأول

قدرة العراقيين على إدارة المدن المحررة بكفاءة

المبحث الثاني

شكل نظام الحكم الوطني المطبق في النجف الأشرف وتقدمه الزمني على تشكيل أول حكومة للانتداب في العراق

المبحث الثالث

وقفة مع شكل نظام الحكم الوطني بمجلسيه التشريعي والتنفيذي ومجلسه البلدي

وسأتناولها تباعاً مبتدئاً بالمبحث الأول منها

قدرة العراقيين على إدارة المدن المحررة بكفاءة

لقد أثبتت التجربة في أكثر من دور، وفي أكثر من مدينة، قدرة الثوار التنظيمية على إدارة المدن المحررة بكفاءة قبل الاحتلال الإنكليزي، وبعد التحرير، وفيما يلي توضيح لذلك في المطالب الثلاثة التالية:

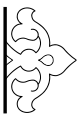

المطلب الأول: إدارة المدن بكفاءة بعد تحريرها من سيطرة المحتلين العثمانيين.

بعد أن ثار النجفيون على العثمانيين وطردوهم من النجف الأشرف في (٨ أو ١٠ رجب ١٣٣٣هـ/ ٢٤ مايس ١٩١٥م)، "وفرغت البلدة من ذلك اليوم من الأتراك وحكم في النجف زعماء المحلات الأربع، ألّفوا حكومة وطنية، سارت سيراً حسناً، فكانت بأيديهم حاصلات البلاد توزع على الطوائف النجفية، وهم يتولون شؤون البلاد من مرافعات ومخاصمات وما يلزم من كل شيء"[1].

وسواء كان الذي حكم مدينة النجف الأشرف مرجعها الأعلى فأحسن إدارتها كما يقول د. عبد الله النفيسي[2] أم رؤساء المحلات الأربع وهو المختار من قبل غالبية المؤرخين من أمثال الشيخ محمّد رضا الشبيبي المعايش للحدث والشاهد عليه حيث يقول: "بعد أن قبض على رجال الحكومة أعلن من قبل مشايخ الأحياء في البلدة، ونادى المنادي بفتح المخازن وتعاطي الأعمال على العادة وبالمحافظة على الأسعار السابقة، ورتّبوا من جهتهم رجالاً على جباية الأموال والضرائب التي كانت تتقاضاها الحكومة ولكنهم خفضوا مقادير بعضها إلى النصف، وأعادوا تنوير البلدة بالغاز وكنس الشوارع.. وردت بعض المنهوبات، منها قليل من البندقيات القديمة

(١) ماضي النجف وحاضرها. سابق: ١/ ٣٤٢.

(٢) دور العراق في تطور العراق السياسي الحديث. سابق: ١١٦.

الطرز.. وأن يتولى ضبط البلد جماعة من الثوار يقومون مقام الشرطة ففعلوا"[١].

ويفصّل الشيخ محمّد رضا الشبيبي في مذكراته عملية تنظيم الإدارة وتوزيع الموارد المالية فيها بعد تحريرها من سيطرة الأتراك، فيقول: "لمّا قبض النجفيون على موارد الضرائب والمعادن، وتخلّى عنها العثمانيون، قسمّوها على محلاتهم الأربع: المشراق، العمارة، البراق، والحويش. وانقسمت كل واحدة من محلاتهم هذه إلى أفخاذ على نسبة ما فيها من الطوائف والجماعات والبيوتات المتغلّبة، لتنال كل جماعة حصة، وهم يقولون لكل طائفة شبه. في شق المشراق نحو (١٥) طائفة أو شبه، منها طائفة الروازق، والدراويش، والقوام، وآل وهب، وآل الملّا، وآل الحاج راضي، وغيرهم. وفي محلة العمارة (٦) أفخاذ منهم: آل أبي كلل، وآل كرماشة، والعكايشيون، وآل عرب وأتباعهم، وآل أبي غنيم. وفي البراق (١٠) أفخاذ أيضاً منهم: الرماحية فخذان، وآل المعمار، وآل جريو، وكاظم صبّي، وآل الأعسم. وفي محلة الحويش (٥) طوائف: آل السيد سلمان، وآل عدوة، وآل شربة وآل شبع، وآل الحارّ"[٢]، كما "كانت الضرائب تجمع وتقسم في نهاية كل يوم بين شيوخ المحلات"[٣] الأربعة.

لقد "استلم النجفيون زمام الحكم كاملاً بجميع مظاهره ووسائله، وأصبح زعماؤهم القضاة والحكام الإداريون، وتحت سيطرتهم جباية الأموال وعلى عواتقهم حفظ الأمن الداخلي والخارجي إلى غير ذلك من المسؤوليات العظيمة.. فعقدوا المعاهدات بين قبيليهم (كذا) وأسرهم ونظموا شرطة الأمن.. وكافحوا الفتن الداخلية فنجحوا بعض النجاح رغم أن العالم كله كان في بحران (كذا) الفتن والثورات من أقصاه إلى أقصاه، حالفوا بعض العشائر ووادعوا البعض الآخر

(١) مذكرات الشيخ محمّد رضا الشبيبي ورحلاته سابق: ٧٦. ولمحات اجتماعية من تاريخ العراق الحديث. سابق: ٤/ ١٩٠.

(٢) مذكرات الشيخ محمّد رضا الشبيبي ورحلاته: ١٢٠-١٢١.

(٣) ثورة النجف على الإنكليز أو الشرارة الأولى لثورة العشرين. سابق: ٩٣-٩٤.

لغاية المحافظة على أمن النجف الخارجي.. ونتج عن هذا الوضع انتظام دولاب التجارة وتمركزها في النجف من بين مدن العراق بدلاً من بغداد التي اضطرت إلى التعامل مع النجف"[١].

كما أحسنوا أيّما إحسان للأتراك أثناء حملة إخراجهم من النجف الأشرف إحساناً وصفه الشيخ محمّد حسين حرز الدين بقوله: "ومع كل ما لاقاه النجفيون من تعسف العثمانيين وعبثهم، فإنهم أبوا إلّا الظهور بتقاليد شيمتهم العربية، حيث لم يسيئوا إلى واحد من الجيش، بل جرّدوا أفراده من الأسلحة ثم سرّحوهم، وقد استطاع رئيس بلدية النجف الحاج عبد الرزاق شمسة، وعمّه الحاج محمّد شمسة، والسيد محمّد حسن الكليدار، والسيد محمّد علي بحر العلوم، والشيخ جواد الجواهري، وغيرهم أن ينقذوا القائمقام المدعو بهيج بك من أيدي الثوار"، ويضيف الشيخ محمّد حسين حرز الدين: "وبقي النجفيون سنتين يحكمون أنفسهم بأنفسهم، وقد أمّنوا بلادهم، وأظهروا جدارة فائقة تثبت للعالم أن العراقيين قادرون على أن يحكموا أنفسهم بأنفسهم"[٢].

أما إذا ذهبنا مع الباحثين كل من حسن الأسدي ومحمد علي كمال الدين إلى أن النجف حكمت نفسها بنفسها ثلاث سنوات بحكومة مؤلفة من "زعماء المحلات الأربع والبارزين من التجار والمثقفين.. تبعتها الكوفة وكربلاء والحلة والهندية في السنة نفسها"[٣]؛ فهو أدعى لبيان قدرتهم التنظيمية على إدارة شؤون البلد من نواحيه كافة، بما فيها المالية والعلمية والاجتماعية والأدبية والأمنية وغيرها.

يقول الباحث الأسدي -وهو من النجفيين المعاصرين للحدث، والمهتمين

---

(١) النجف في ربع قرن. سابق: ١٦٥-١٦٦.

(٢) تاريخ النجف الأشرف. سابق: ٣/ ١٤٧. ودور الشيعة في تطور العراق السياسي الحديث. سابق: ٩٠، وشعراء الغري. علي الخاقاني: ٥/ ٢٣٢ و٩/ ٣٣. وينظر: مذكرات الشيخ محمّد رضا الشبيبي ورحلاته. سابق: ١٠٠، وغيرها.

(٣) ثورة النجف على الإنكليز أو الشرارة الأولى لثورة العشرين. سابق: ٩٣ وما بعدها.

بحثاً وتحقيقاً وكتابة بتأريخ النجف-: إنّ النجف حكمت نفسها بنفسها ثلاث سنوات، فـ"عندما ثار النجفيون على الإنكليز كان قد مرّ عليهم وهم يحكمون أنفسهم بأنفسهم أكثر من ثلاث سنوات، حيث كانوا قد ثاروا على الأتراك وطردوهم في عام (١٩١٥م)، وثاروا على الإنكليز في عام (١٩١٨)"[١]، ويحدد المؤرخ المعاصر للحقبة أيضاً السيد محمّد علي كمال الدين المدة محل البحث بدقة أكثر بقوله: إنّ النجف حكمت نفسها بنفسها للمدة الواقعة: "بين النصف الأول من سنة (١٣٣٣هـ/ ١٩١٥م) وبين أوائل سنة (١٣٣٦هـ/ ١٩١٨م)"[٢]، خلافاً لمن ذهب إلى أن النجف الأشرف حكمت نفسها سنتين ممن تقدمت أسماؤهم وغيرهم من أمثال الشيخ محمّد رضا الشبيبي المعايش للحدث بقوله: "وما زال النجفيون يحكمون أنفسهم بأنفسهم سنتين كاملتين حتى حاولوا أخيراً ألّا يفسحوا بينهم مجالاً للإنكليز، كما اتفق لهم مع الأتراك فقاموا بثورتهم الخطيرة على الإنكليز التي افتتحت بقتل الكابتن مارشال حاكم المدينة صباح الثلاثاء ٦ جمادى الثانية سنة ١٣٣٦هـ/ ١٩١٨م"[٣].

وقد لخص المؤرخ الحلي الشيخ يوسف كركوش حسن إدارة العراقيين لمدنهم بعد تحريرها من الاحتلال العثماني متحدثاً عن الحلة بقوله: "وبالجملة كانت حكومة الحلة إذ ذاك كحكومة جمهورية اقتضتها طبيعة الظروف، وقد برهنت الحوادث إذ ذاك أن الشعب العراقي ومن بينهم أهل الحلة ذكي يحب النظام ويميز بين الصالح والطالح من الرجال"[٤].

لقد تبعت ثورة النجف الأشرف على الأتراك المتقدم ذكرها، ثورةٌ في كربلاء المقدسة في ليلة (النصف من شعبان يوم مولد الإمام المهدي المنتظر عجل الله فرجه الشريف

(١) المصدر السابق: ٤٢٥.

(٢) النجف في ربع قرن. سابق: ١٦٥.

(٣) مذكرات الشيخ محمّد رضا الشبيبي ورحلاته: ٢٤٨- ٢٤٩.

(٤) تاريخ الحلة. القسم الأول. الحياة السياسية. الشيخ يوسف كركوش الحلي: ١٦٦.

مساء (١٤ شعبان ١٣٣٣هـ/ ٢٧ حزيران ١٩١٥م)، وأعقبتهما ثورة الحلة في (١٢ شوال ١٣٣٣هـ/ ٢٣ آب ١٩١٥م) بعد حوالي ثلاثة أشهر من ثورة النجف الأشرف، فحكم الحلة أهلها فأحسنوا إدارة شؤون بلدهم، حيث "أخذوا يعقدون المحالفات بينهم على التناصر والتعاضد، مرة يقع التحالف بين الأفراد، وأخرى بين أهل محلة، فاستحكمت العُرى واشتد التضامن بين الأهلين للدفاع عن المصالح المشتركة، وبهذا خفّت وطأة الفوضى وصينت الحقوق، وكانت الخصومات التي تقع بين الأفراد أو الجماعات تحل بطريقة التحكيم في أحد دواوين الحلة"[١]، إضافة إلى السماوة الكوفة، والشامية، وطويريج وربما غيرها أيضاً. بل ذهب الشيخ محمّد رضا الشبيبي إلى أنّ ثورة النجف على الأتراك لم يقتصر تأثيرها على العراق فحسب بل تجاوز إلى غيره من الأقطار"[٢]، وهو ليس مجال بحثي الآن.

***

المطلب الثاني: إدارة المدن بكفاءة بعد تحريرها من سيطرة المحتلين الإنكليز.

لقد تجلى حسن إدارة العراقيين لمدنهم بعد تحريرها من سيطرة المحتل الإنكليزي في الفرات الأوسط، حيث "سيطروا على منطقة واسعة تشمل الشامية والرميثة والديوانية وجميع الأراضي الواقعة بينها وبين الحلة مع طويريج وكربلاء والنجف والكوفة.. والجانب الشرقي من المسيب وسدة الهندية.. فظهرت الثورة في هذه المنطقة بمظهر حسن يبعث على الإعجاب بمهارة القائمين بها"[٣]، وقد أشاد المشاركون في الثورة والمؤرخون المعاصرون للحدث بكفاءة العراقيين في إدارة مناطقهم المحررة من سطوة الإنكليز، كونهم "أثبتوا مقدرة إدارية لم يُرَ

(١) تاريخ الحلة القسم الأول. في الحياة السياسية. سابق: ١٦٦.

(٢) مذكرات الشيخ محمّد رضا الشبيبي ورحلاته. سابق: ٢٤٨.

(٣) تاريخ القضية العراقية. سابق. ط٢: ١٢٩.

نظيرُها منذ عهد قديم.. فكان أهل البلاد لا يشكون، وكانوا على أحسن ما يمكن أن تكون عليه هيأة مجتمعة من الراحة والاطمئنان والسكينة ونعومة البال ورخاء العيش ورغده"[١]. وقال أيضاً في موضع آخر: "شكّل المجاهدون في البلاد التي استولوا عليها حكومة فاقت في أنظمتها وإدارتها الحكومة العثمانية والإنكليزية معاً، ولست بمبالغ في ذلك"[٢].

وسأتناول حسن الإدارة والتنظيم في قسم من هذه المدن مبتدئاً بمدينة النجف الأشرف أول المدن المحررة من سيطرة الإنكليز وفق روايتي الباحثين المعايشين للحدث، كل من المؤرخ الثبت الشيخ جعفر محبوبة، والمؤرخ حسن الأسدي.

***

أ. النجف الأشرف

بعد أن ثارت النجف الأشرف على محتليها الإنكليز في "يوم الأحد في النصف من شوال سنة ١٣٣٦ هـ.. تجمهر الناس في الصحن الشريف حينما وردت الأخبار من الرميثة، ورفعوا الأعلام العربية، وقاد كل زعيم قومه إلى الجهاد فجلا الإنكليز عن النجف"[٣]، فأنزلوا علم الحكومة البريطانية من مركز إدارة المدينة، و"غنموا ما كان موجوداً في السراي من الأسلحة والعتاد، فبلغ مجموع ما غنموه مائتي بندقية قسّموها على أحياء النجف الأربعة، كما وضع الثوار أيديهم على دور الحكومة وأموالها، وقد أبقى الثوار على كل ما وقعت عليه أيديهم من سجلات الإنكليز، وأثاث إدارتهم، وأثاث المدرسة الرسمية، وأخيراً أبقوا على جميع ما في المستشفى من الأدوات والأجهزة، وأكرموا الطبيب الهندي الذي كان موجوداً في المستشفى، انتخبوا (١٦) رجلاً من أشراف المدينة وأعيانها وأدبائها للمباشرة في تشكيل الحكومة، ولكن انشغال الثوار بمحاربة الإنكليز المحاصرين في الكوفة

(١) بطل الإسلام مذكرات الشيخ محمد مهدي الخالصي. سابق: ١٧٤.

(٢) في سبيل الله. سابق: ٢٤٧-٢٤٨.

(٣) ماضي النجف وحاضرها. سابق: ٣٦٥. علماً أن مؤلف الكتاب من معاصري الثورة ومؤرخيها.

والاهتمام بشؤون الثوار في الشامية وأبي صخير أدى إلى تأجيل أعمالها، وقد تألفت لهذه الغاية عدة لجان للإشراف على شؤون المتطوعين"[١] كافة، سواء ما تعلق منها بتجهيز المتطوع بما يحتاجونه من لوازم إلى غيرها، إلى تأمين أمر نقلهم من أماكن تجمعهم إلى جبهات القتال، إلى بقية اللوجستيات الأخرى، فكان أن تمّ في يوم (٢٨ من ذي القعدة ١٣٣٨هـ/ ١٣ آب ١٩٢٠م) إرسال الحملة الأولى من المتطوعين للجهاد بواقع (٣٠٠) متطوع. وفي يوم (٢ ذي الحجة ١٣٣٨هـ/ ١٧ آب ١٩٢٠م) تم إرسال الوجبة الثانية من المتطوعين، وهكذا بدأ إرسال حملات المتطوعين تباعاً من النجف الأشرف إلى جبهات القتال حتى يوم (التاسع من ذي الحجة لسنة ١٣٣٨هـ/ ٢٤ آب ١٩٢٠م). حيث "سافر موكب العمارة أصحاب كردي بن عطية، وموكب محلة المشراق، وموكب النجفيين المهاجرين من جبل حائل وهم بأزياء بدو شمّر ومعهم الطبل العربي وينشدون نشيد شمّر أصحاب مغيض بن سعد الحاج راضي، وسافر موكب البراق بمعية مطلق من آل المعمار والكل قصدوا الجبهة الغربية والتحقوا بإخوانهم النجفيين أصحاب سيد كاظم سيد سلمان في السدة، وفي سفر كل موكب يهرع أغلب النجفيين لمشايعتهم حتى العلماء والأشراف.

بعد سفر النجفيين مسّت الحاجة إلى تشكيل حكومة وطنية تدرأ عنهم مفاسد الفوضى فنادوا كلهم بضرورة تشكيل مجلسين في النجف تشريعي وتنفيذي، وتألفت لذلك لجنة جمعت أفاضل النجف وأعيانها وأشرافها"[٢]، حيث تولت الحكومة النجفية مهمة إدارة المدينة المقدسة بطريقة حسنة، وصفها السيد عبد الرزاق الحسني بقوله: "كانت شؤون ثورتهم منتظمة بانتظام شؤون الحروب الدولية، وكانت أمورهم العامة مرتبة ترتيب أمور الحكومات الراقية، فقد جُبيت الضرائب في أيامها، وانتظمت المواصلات بين أرجائها، وساد الأمن كافة الطرق المؤدية إلى جبهاتها"[٣]،

(١) ينظر: ثورة العشرين في ذكراها العشرين معلومات ومشاهدات. سابق: ٨٤-٨٥.

(٢) النجف في ربع قرن. سابق: ٢٦٦-٢٦٧.

(٣) الثورة العراقية الكبرى. سابق: ٣٤١.

حتى عدّها بعض الباحثين "مثالاً يحتذى في سلامة إدارة الحكم، ودقة التنظيم، وبسط العدالة، ونشر الأمن بين السكان"[١]، وسيأتي الحديث عنها مفصلاً لاحقاً.

وكان المرجع شيخ الشريعة الأصبهاني قد أمر زعماء الثورة في النجف الأشرف بتشكيل هيأة خاصة لإدارة شؤون أسرى قوات الاحتلال الذين أسرهم الثوار في العمليات العسكرية، تولاها الوجيه الحاج عبد المحسن شلاش، وسيأتي الحديث عنها مفصلاً لاحقاً أيضاً.

***

ب. كربلاء المقدّسة

أما في كربلاء المقدسة فقد شكل قادة ثورة العشرين أيضاً مجلسين على رواية أو ثلاثة على رواية أخرى كما تقدم، وكلها بإشراف المرجع الأعلى الشيخ الشيرازي -قبل رحيله إلى بارئه الأعلى- وهي:

» **المجلس العلمي**: برئاسة السيد محمّد علي الشهرستاني، ويتولى هذا المجلس الشؤون السياسية والإعلامية للثورة. ويتألف من خمسة أعضاء، هم: السيد محمّد علي هبة الدين الحسيني، والسيد أبو القاسم الكاشاني، والشيخ أحمد نجل المرجع الشيخ محمّد كاظم الخراساني، والسيد حسين القزويني، والشيخ عبد الحسين الشيرازي الحائري نجل المرجع الأعلى الشيرازي، يمثل الشيخ الشيرازي الحائري في هذا المجلس. وثمة رواية أخرى أوردها السيد الحسني تذهب إلى أن أعضاءه أربعه باستثناء السيد حسين القزويني، "وكانت وظائف هذا المجلس استشارية للمجلس المِلّي، ورئاسة عليه فيما يعود إلى القوات الوطنية المحاربة، وكان يعقد برئاسة أكبر الأعضاء سِنّاً فيودع الأمور القضائية إلى علماء كربلاء لحسمها ومنازعات القبائل إلى شيوخ الثوار في صدر الحسينية للبت فيها"[٢].

---

(١) ثورة العراق التحررية ١٩٢٠. سابق: المجلد ١/ ١٣٢.

(٢) الثورة العراقية الكبرى. سابق: ٣٤٥-٣٤٦.

» **المجلس المِلّي**: أو مجلس حكومة المدينة، ومن أبرز مهمات هذا المجلس هو ترشيح الموظفين، وجباية الضرائب والرسوم، وتوزيعها للصرف بحسب ما تقتضيه الأمور، والعناية بالصحة العامة، وغيرها من الشؤون الإدارية، وكان الشيخ محمّد حسن أبو المحاسن ممثل المرجع الأعلى الشيرازي فيه، وتألف هذا المجلس من سبعة عشر عضواً، وعينوا خليل عزمي سكرتيراً للمجلس، ومهدي السامرائي محاسباً، ومحمد على أبو الحب أميناً للصندوق.

وإذ باشر المجلس الملّي أعمال إدارته للمدينة شكّل شرطة محلية لضبط الأمن تألفت من مائة من المشاة براتب شهري قدره (٣٠) روبية لكل منهم، وآمر لشرطة المشاة براتب شهري قدره (١٠٠) روبية، وعيّن ثلاثين شرطياً من الخيالة براتب شهري قدره (٥٠) روبية لكل منهم، وآمراً لشرطة الخيالة براتب شهري قدره (١٠٠) روبية، وعيّن موظفين للبلدية، وحراساً، وجُباة وكُتّاباً وغير ذلك من شؤون الإدارة الأخرى[١].

ومن طريف ما ورد من نشاطات المجلس الملّي "منع حمل السلاح إلّا لمن كان من الحرس الوطني وجمع المجلس الإداري إعانة إلى مجاهدي الهندية، وقرر تجهيز شهدائها في كربلاء مجاناً"[٢].

وبعد وفاة المرجع الأعلى الشيخ الشيرازي و"بسبب تنافر بعض العناصر فيها.. وبسبب البعض من أفراد العشائر الذين كانوا في ذهاب وإياب مستمر متخذين من كربلاء ممرّاً بين مناطق سكناهم وساحات الحرب، فكانت تقع بعض المحاذير ما بين هؤلاء الثوار، أو بينهم وبين سكان المدينة نفسها، فظهرت الحاجة محسوسة إلى وجود شخص ينبغي أن يعترف الجميع باحترامه.. ويسد الحاجة التي بدأ

(١) ينظر: تاريخ القضية العراقية. سابق: ١٢٩. ط٢، وكربلاء في ثورة العشرين. سابق: ٦١-٦٢ ولمحات اجتماعية من تاريخ العراق الحديث. سابق: ٥/ ١/ ٢٩٤. والحقائق الناصعة. سابق: ٢٤٨-٢٤٩.

(٢) ثورة العراق التحررية ١٩٢٠. سابق: ٢/ ١٠١ نقلاً عن بيان للثوار صدر في إعلام الثورة في النجف في (١٦ ذي القعدة ١٣٣٨هـ) عن مكتبهم في كربلاء صادر في ١٣ ذي القعدة ١٣٣٨ هجرية.

الجميع يحس بها ساعة بعد ساعة، فوقع اختيار العلماء والرؤساء على سعادة السيد محسن أبو طبيخ متصرفاً للواء كربلاء باعتباره الشخص المرضي عند المدنيين وعند العشائر"[١]، فأحسن السيد أبو طبيخ إدارة شؤون المحافظة رغم قصر مدة بقائه.

ويعد أنموذج كربلاء في شكل نظام الحكم وأجهزته وإدارة شؤونه في المدينة المقدسة، متقدماً بمسافة على غيره مما اعتمدته المدن الأخرى، باستثناء مدينة النجف الأشرف، كما سيأتي لاحقاً.

لقد "قدّم الشيعة نموذجاً في إدارة شؤونهم خلال المدة القصيرة عندما أسسوا حكومة وطنية في كربلاء رغم صعوبات الحرب، -و- في الحقيقة أقامت حكومة كربلاء العدل كما لم يقمه نظام سابق أو لاحق. ويدعم هذا التحليل ما كتبه أحد المؤرخين الذين شهدوا على نحو مباشر الأحداث المديدة لثورة ١٩٢٠ بقوله: (سارت إدارة هذا اللواء سيراً حسناً ملؤه العدل والأمان والترفيه على السكان، حتى قال لي أكثر من واحد من سكان مدينة كربلاء -كما أيّد هذا القول الكثيرون من سكنة المدن الأخرى التي أسس الثوار فيها حكومتهم الوطنية- بأن سكان كربلاء قد أحسّوا بوجود العدل والنظر إلى المواطنين بنظرة واحدة أكثر مما كان يحدث في بعض فترات الحكم الوطني الذي أعقب الثورة)"[٢].

***

ت. الديوانية والسماوة وطويريج وشفاثا والمسيب والمحمودية والمنتفق وديالى وبقية المدن والقصبات المحررة الأخرى من أمثالها

ففي (الديوانية) تألف مجلس بلدي أسموه بالمجلس الإداري البلدي، ضم ثمانية أعضاء. وقسمت مدينة (السماوة) إلى قسمين، قسم شرقي يحكمه

(١) على هامش الثورة العراقية الكبرى: ١٢٥-١٢٦.

(٢) ثورة ١٩٢٠ دراسة جديدة في ضوء الوثائق التاريخية. سابق. ما بين قوسين منفردين () منقول من (الحقائق الناصعة). فريق المرهز آل فرعون: ٣٨٢.

السيد طفار، وقسم غربي يحكمه الشيخ رباط السلمان، ويفصل بين قسمي السماوة نهر الفرات[١].

أما بقية المدن والقصبات التي احتلها الثوار أو أخلاها البريطانيون من تلقاء أنفسهم، فكانت تُدار شؤونها من قبل القبائل المجاورة أو بواسطة مجالس محلية على غرار المجالس التي تكونت في الديوانية، والسماوة، وطويريج، ومندلي، والمنتفق بمدنها (قلعة سكر، الشطرة، سوق الشيوخ)، فكان الرؤساء يفصلون في المنازعات طبق أحكام الشريعة، فمثلاً: "بعد انسحاب الاحتلال من الشامية تولى حكومة المدينة وتوابعها الحاج جاسم الجياد، والحاج رايح العطية، وكلاهما من رؤساء قبيلة الحميدات، وقد مكث الحاج جاسم في الشامية لا يبارحها متفرغاً لإدارة شؤونها والمحافظة على أمنها وحماية أهلها، وقد تمكن أن يجمع من أهل الشامية مقدار ألفي روبية كمساعدة للثوار الذين يحاربون في الجبهة. كما عيّن بعض الموظفين يستلمون الضرائب المعتادة، وكان حين يتسلمها يرسلها إلى الجبهة معونة للثوار أيضاً. وقد امتدح الأهلون، ولا سيّما (اليهود) منهم حسن المعاملة واستتباب الأمن من الحكومة المؤقتة طيلة أيام الثورة، فلم تقع في المدينة خلال ذلك أية حادثة من حوادث الاعتداء أو السرقة"[٢].

وفي طويريج حيث "طليعة الأدلة على حسن حكم الثوار وإدارة شؤون الناس والمباهاة بها بكونها من أكثر مدن الثوار أمناً ونظاماً ورعاية لحقوق السكان.. وكانت طويريج في أيام الثورة.. مضرب الأمثال من حيث الاطمئنان ومن حيث تموين الثوار بالمؤن"[٣].

---

(١) ينظر: الثورة العراقية الكبرى. سابق: ٣٤٨، وفيها أسماء اعضاء المجلس الإداري البلدي الثمانية المشكل في الديوانية.

(٢) ثورة العشرين في ذكراها الخمسين. معلومات ومشاهدات. سابق: ١١٦.

(٣) على هامش الثورة العراقية الكبرى. سابق: ٧٠.

وفي شفاثا وفق بيان إعلام الثورة الصادر في النجف بتاريخ (١٦ ذي القعدة ١٣٣٨هـ/ ١ آب ١٩٢٠م) حيث "أسقط أهالي شفاثا حكومتهم أمس، والتجأ حاكمها (حسين رفيع) إلى أحد شيوخها، وطلبوا منا ترتيب حكومتهم، كما طلب ذلك أهل المسيب والمحمودية"[١].

وفي ديالى "شكل الثوار حكومة مؤقتة في مدينة بعقوبة وعُيّن السيد محمود المتولي حاكم لها.. وكان تحرير مدينة بعقوبة وتطهيرها من سلطة الاحتلال في اليوم السادس من شهر آب ١٩٢٠م، وفي ذلك اليوم هجم الشيخ حبيب مع باقي الرؤساء على سكة الحديد"[٢].

***

ث. الكـوفـة

وفي الكوفة وبعد أن انسحبت منها قوات الاحتلال وحكمها الثوار، زحفت إليها جموعهم المسلحة من النجف الأشرف وعشائر المشخاب، فـ"استمرت البلاد في أمان واطمئنان؛ فالمواصلات منتظمة، والتجارة قائمة، والأموال تنقل من بلد إلى بلد في الليل والنهار دونما معترض أو قاطع طريق".

وينتقل المؤرخ السيد محمّد علي كمال الدين في شهادة حيّة إلى تصوير ما رآه بأم عينيه وهو يستعرض قطعات الجيش الثائر وتشكيلاته من زاوية تعاملها مع السكان المحليين في المدن التي يحررونها بقوله: "وقد لاحظت شخصياً أفراد هذا الجيش العظيم الثائر، واستعرضت مختلف قطعاته وأقسامه، فأعجبني كثيراً روح الضبط السائدة بينهم، والإيمان الجارف الذي يعمر قلوبهم، وفرحتهم الغامرة باسترجاع البلاد من أيدي العدو الغاصب دون أن تكون لديهم روح الكبرياء والغطرسة التي تخامر الجنود في مثل هذه المواقف المظفرة"[٣].

---

(١) ثورة العراق التحررية ١٩٢٠. سابق: ٢/ ١٠٢.

(٢) ثورة العشرين في ذكراها الخمسين. سابق: ٢٤٧.

(٣) المصدر السابق نفسه: ١٢٣-١٢٤.

ويدعم الرأي القائل بكفاءة الثوار على إدارتهم للمدن المحررة صاحب كتاب (الحقائق الناصعة) الشاهد على الحدث بقوله: "إنّ زعماء الثورة وقادتها تحت إشراف علماء الدين كلما حرروا مدينة من مدن العراق وأخلوها من السلطة المحتلة نظموها بعد أن أشاعوا الأمن بين سكانها وأسسوا فيها المجالس الإدارية حسب أهميتها، فانتظمت الإدارة فيها والجباية والصرف حتى كأن الرائي يشعر بأنه يعيش في ظل حكومة شُكلت منذ عهد بعيد"(١).

ويضيف في موضع آخر من كتابه وهو يتحدث عن حسن إدارة الثورة لمناطقها المحررة ربما في شيء من المبالغة فيقول: "لم يحصل خلالها أي عمل يدل على عدم التنظيم وينمّ عن انعدام الكفائه (كذا) لدى الوطنيين من إدارة شؤونهم بأنفسهم فكان الثوار... كلما حرروا مدينة أوجدوا فيها نظاماً إدارية (كذا) لا يقل روعة وارتكازاً عن نظم أرقى الدول الديمقراطية العريقة بالحكم الوطني ولا أراني مغالياً إذا ما قلت إنّ ما لاقاه سكان بعض المدن التي حررها الثائرون من العدل والأمن والهدوء جعلهم يتمنون إعادته ببعض المدن أثناء بعض أدوار الحكم الوطني الملكي"(٢).

ويؤكد ذلك أيضاً د. علي الوردي بقوله: "لا بد لنا من أن نذكر بأن عهد الثورة سواء في طوره الكربلائي، أو طوره النجفي، قد تميز بظاهرة اجتماعية تستحق التقدير، هي استتباب الأمن والنظام، فلم يظهر في هذا العهد أي أثر للغزو، أو قطع الطرق، أو المعارك العشائرية، كما لم يقع فيه نهب لدور الحكومة، أو دور الأهالي، وهي الأمور التي تجري في العراق عادة عندما تضعف سلطة الحكومة المركزية. وكانت في بعض المدن (أقليات دينية من اليهود وغيرهم)، وقد لقيت تلك الأقليات رعاية وأمناً طيلة أيام الثورة. نعم حدثت

(١) الحقائق الناصعة في الثورة العراقية. سابق: ٢١١.

(٢) المصدر السابق نفسه: ٢٠٨.

حادثة استثنائية واحدة جرت في المسيب حيث نُهبت فيها بعض دور الأهالي"[١].

ومما هو جدير بالذكر أن الحكومة البريطانية اعتبرت الإجراءات التي اتخذت من قبل الهيئات والمجالس المذكورة التي شكلتها الثورة، بعد إعادة احتلالها، والرسوم كما لو كانت جُبيت من قبل الحكومة نفسها، أو سلمت تلك الرسوم إلى بيت المال، وفي هذا القرار دلالة على انتظام أمور الثورة، وشهادة حسنة لها، والفضل ما شهدت به الأعداء[٢].

وبما تقدم تعدّ مدينة النجف الأشرف أول من ثار على الاحتلال التركي، وأول من ثار على الاحتلال الإنكليزي، "ليس في العراق حسب، وإنما في جميع أقطار الشرق الأوسط، بعد الحرب العالمية الأولى، ففي(٨ رجب ١٣٣٣هـ/ ١٩١٥م) ثارت النجف على الأتراك العثمانيين وطردتهم من النجف إلى غير رجعة، وفي (٦ جمادى الثانية ١٣٣٦هـ/ ١٩آذار ١٩١٨م) ثارت النجف على الإنكليز وطردتهم من النجف، ولكن انتصار الحلفاء في الحرب العالمية مكّنهم من التغلب عليها والعودة إليها"[٣]، ثم ثارت النجف الأشرف على الإنكليز ثانية وحررت شعبها من ظلم احتلالهم البغيض.

***

المطلب الثالث: أنموذجان متقدمان لحكم المدن المحررة من العثمانيين فالإنكليز من بعدهم.

لقد أحسنت المدن المحررة إدارة نفسها بنفسها بعد تحريرها سواء من سيطرة الأتراك قبل ثورة العشرين، أم من سيطرة الإنكليز بعد ثورة العشرين، فمن الأنموذج الأول (دستور محلة البراق) في النجف الأشرف، ومن الأنموذج الثاني

(١) لمحات اجتماعية من تاريخ العراق. سابق: ٥/ ١/ ٢٩٢.

(٢) ينظر: الثورة العراقية الكبرى. سابق: ٣٤٨-٣٤٩.

(٣) ثورة النجف على الإنكليز أو الشرارة الأولى لثورة العشرين. سابق: ٥.

(ميثاق المصيفي)؛ في المنتفق وسأعرضهما فيما يلي:

أ. دستور محلة البراق في النجف الأشرف

يعد دستور محلة البراق خطوة تنظيمية متقدمة بعد تحرير المدينة المقدسة من الاحتلال العثماني، وفيما يلي نصه:

"دستور حي البراق في النجف

نحن (سكان حي البراق) نكتب هذه الوثيقة لضمان الوحدة والتلاحم فيما بيننا. لقد تنادينا وأصبحنا يداً واحدة ودماً واحداً، ونسير وراء بعضنا البعض إذا وقع مكروه على حَيّنا من الأحياء الأخرى. وسنهبّ معاً ضد كل غريب ليس منا سواء كانت النتيجة لنا أو علينا، وشروط اتحادنا هي الآتي:

- إذا قُتل غريب فعلى القاتل أن يدفع خمس ليرات وتدفع العشيرة كلها المتبقي من ديّة القتيل.
- إذا قُتل أحد من اتحادنا فإن نصف الفصل (الديّة) يؤول لعائلة القتيل والنصف الآخر للاتحاد.
- إذا قتل أحد آخر من عشيرته، وليس للعشيرة شيخ مسؤول، فإن القاتل يجب أن يرحل عن المكان سبع سنوات، وكل من يساعده يطرد لنفس الفترة. ويكون الفصل ثلاثين ليرة ذهباً. والفرشة وخمس ليرات وعشر قطع قماش من الحرير. ويُعطى الثلث إلى الاتحاد والثلثان إلى ذوي القربى، تدفع لهم على قسطين.
- من يجرح أحدا من عشيرته ويسفر الجرح عن نزيف، يدفع ليرة واحدة.
- من يصوب بندقيته على صديقه دون أن يطلق النار يسلم بندقيته.
- من يجرح آخر ويتسبب الجرح في مرضه، عليه أن يدفع خمس ليرات، ويسلم سلاحه، ويغادر المدينة لفترة قصيرة، وأي مبلغ إضافي يدفع سيعطى ثلثه إلى شيخنا كاظم صبّي، وثلثان للاتحاد.

» إذا وقع أذى بواحد منا وهو يسرق أو يسطو، أو ينهب أو يفسق فإننا لا نكون غير مسؤولين فحسب بل ولا نكون له أصدقاء.

» إذا أوقفت الحكومة واحداً منا عن أفعالنا أو سجنته، فإننا ندفع كل نفقاته.

» الوارد أعلاه لنا جميعاً. إنّنا موحَّدون مع كاظم، سواء كان في المدينة أو لم يكن، وعلى هذا الشرط نحن جميعاً نضع تواقيعنا، وكلنا نوافق عليه، والله على ما نقول شهيد"[١].

لقد قال الباحث حنّا بطاطو عن وضع هذا الدستور بأنه "يعكس مستوى التفكير السياسي لبعض سكان المدن العراقية في تلك الأيام"[٢]، وهو أمر بيّن وواضح.

ب. ميثاق (المصيفي) في المنتفق

لقد اجتمع قسم من كبار رؤساء المنتفق بعد تحرير بعض مدنها من المحتلين الإنكليز في موضع يقال له (المصيفي)، وكتبوا ميثاقاً لحكم مدينتهم ووقعوه، سُمّي (بميثاق الصيفي) نسبة إلى مكان الاجتماع. وفيما يلي نصه:

"**أولاً**: المطالبة باستقلال العراق استقلالاً تامّاً ناجزاً وانتخاب الأمير عبد الله ملكاً عليه.

ثانياً: المحافظة على المؤسسات الحكومية المفيدة كالمستشفيات والجسور والانتفاع بها عند الحاجة.

ثالثاً: اتباع ما يأمر به العلماء المجتهدون.

رابعاً: أن تتعهد كل قبيلة بمحافظة الطريق الذي يخترق حدودها، وأن تضمن أرواح المسافرين فيها وكذا أموالهم.

---

(١) شيعة العراق. سابق: ٥١٥-٥١٦. وتنظر بعض مواد الدستور، مع اختلاف بسيط في كتاب: العراق. حنا بطاطو. الكتاب الأول. الطبقات الاجتماعية والحركات الثورية من العهد العثماني حتى قيام الجمهورية: ٣٨.

(٢) العراق. حنّا بطاطو. الكتاب الأول: ٣٨-٣٩.

خامسا: تتألف هيأة محلية في كل بلد يحتله الثوار تكون مهمتها المحافظة على الأمن والسهر على أرواح العاملين"[١].

وقد وقعه حسب المصدر المتقدم كل من السادة والشيوخ: موحان الخير الله، محمّد الحاج شلال، السيد دخيل السيد فياض، السيد عبد المهدي -المنتفجي-، إبراهيم اليوسف، خيّون العبيد، صكبان العلي، سلمان الشريف، مزعل الحميدة، وهنالك أيضاً تواقيع أخرى لرؤساء الشويلات والقرغول وبني سعيد، وغيرهم.

وفي هذين الأنموذجين -من حسن إدارة العراقيين لمُدنهم بأنفسهم- وما تم عرضه فيما تقدم كفاية للباحث والمستطلع.

❀ ❀ ❀

(١) الثورة العراقية الكبرى. سابق: ٣٠٧.

المبحث الثاني

شكل نظام الحكم الوطني المطبق في النجف الأشرف وتقدمه الزمني على تشكيل أول حكومة للانتداب في العراق

ويتضمن مطلبين هما:

المطلب الأول: أنموذجان تعريفيان بطريقة انتخاب أهالي مدينة النجف الأشرف والشامية لممثليهما لدى حكومة الاحتلال البريطاني، وطريقة إدارة جلسات الممثلين.

يحسن بي قبل أن أخوض غمار البحث في عملية تشكيل هيكل نظام الحكم الوطني في مدينة النجف الأشرف أن أقول: إنّ مدينتي النجف الأشرف والشامية كانتا تشكلان وحدة إدارية واحدة وقتئذ، لذلك فسأعرّف بها ليتبين لنا مدى إدراك أهاليها لأهمية تطبيق العدالة والشفافية في اختيار ممثليهم، ما يلقي ضوءاً كاشفاً على مدى التزام أهالي مدينتي النجف الأشرف والشامية بعد ذلك حين تشكيل الحكومة الوطنية في النجف الأشرف بالمعايير الضامنة لتحقيق العدالة والشفافية في انتخاب أعضاء المجلسين التشريعي والتنفيذي والمجلس البلدي وغيرها من هياكل نظام الحكم الوطني لحكومة الثورة الذي طبقته مدينة النجف الأشرف وهو ما سأتعرض لبيانه بعدئذ.

١ . لقد سبق تحرير مدينة النجف الأشرف من الاحتلال البريطاني انتخاب ممثلي أهالي مدينتي النجف الأشرف وأهالي الشامية لتمثيل اللواء أمام سلطات الاحتلال، وبعد التتبع لآليات انتخاباتهم المتقدمة أحببت أن أضع القارئ الكريم بصورة ما جرى خلالها قبل قرن من الزمان ليطلع على ما صاحب تلك الانتخابات من حرية وشفافية ودقة تمثيل لأهالي المحافظة بتنوعاتهم المتعددة، وغير ذلك مما تضمنته اجتماعات انتخاباتهم الستّ من أمور ملفتة قياساً بعصرها بل بعصرنا،

مردفاً إياها بأنموذج يتضمن محضراً لأحد اجتماعات الأعضاء المنتخبين من جهة، ولأشير من جهة ثانية إلى أن واضعي تلك الآليات ومخططيها ورجالها هم من وضعوا أسس وآليات وشكل نظام حكم وحكومة ثورة العشرين بعد تحريرها من سيطرة المحتل في مدينة النجف الأشرف كما ستأتي لاًحقا في هذا الفصل.

أقول: لقد تمت عملية انتخاب ممثلي أهالي النجف والشامية باجتماعات ستة لكل منها جدول أعمالها ومقرراتها، وكما يلي:

الاجتماع الأول لوجوه النجف الأشرف والشامية وقراره

إثر صدور الفتوى المباركة بالجهاد الدفاعي المتقدم ذكرها في (نهار منتصف شعبان ١٣٣٨هـ/ ٥ أيار ١٩٢٠م) والمتضمنة وجوب السعي لتحرير العراق وتحقيق إرادة شعبه على أرضه سلماً إن أمكن وإلّا فبالقوة المسلحة "بأن باشر أهل مدينة النجف وبقية لواء الشامية في عمل الأعمال الضرورية مقدمة للانتداب، كما باشر في ذلك البغداديون والكاظميون" مقدمة لتشكيل مؤتمر عام يمثل العراقيين جميعاً؛ "ليتكفل المؤتمر بتأسيس حكومة عربية عراقية يرأسها ملك مسلم عربي، وقد أثمرت مداولات وجوه النجفيين وزعماء الشامية بالاتفاق على استفتاء المراجع لدعمهم ومؤازرتهم والاستنارة بآرائهم.

الاجتماع الثاني لكبار علماء النجف وقراره بضرورة انتداب الممثلين بطريقة الانتخاب العام المباشر وتحديد شروط المرشح.

"اجتمع علماء النجف الأشرف ليلتان مهمتان (كذا) في دار حجة الإسلام شيخ الشريعة الأصبهاني ليلة السادس عشر -من رمضان ١٣٣٨ هجرية-، وبعد المداولة أجمعوا على وجوب المطالبة باستقلال البلاد وإنشاء حكومة عربية من أهل البلاد.. ثم مباشرة الأهلين في انتخاب مندوبين عنهم ليطالبوا بحقوقهم الشرعية، ثم استحسن العلماء على أن يرشحوا هم رجالاً من أهل المعرفة والعلم والتدابير على طريق الانتخاب ليعرضوهم على أهل البلاد فيما إذا شاؤوا انتخابهم.

الاجتماع الثالث لكبار علماء النجف الأشرف وانتخاب المنتدبين منهم مقدمة لطرح أسمائهم في الانتخاب العام المباشر للمواطنين

في الليلة السابعة عشرة -من شهر رمضان ١٣٣٨ هـ، أي الليلة التالية للاجتماع الثاني- اجتمعوا وقدموا أوراق الانتخاب، فكانت الأكثرية على انتداب الشيخ الجزائري والشيخ عبد الرضا الشيخ راضي ومحمد جعفر أبو التمن والميرزا أحمد نجل المرحوم الملا محمّد كاظم -الخراساني- والشيخ إسحاق نجل المرحوم الميرزا حبيب الله".

"ثم تريث العلماء والأشراف والتجار والأعيان في تنفيذ أعمالهم إلى أن يكسبوا الثقة من العائلات التي شنقت الحكومة رجالها وصادرت أموالها في الثورة النجفية المشهورة، وأحضر زعمائهم (كذا) أمام العلماء، فوعظوهم وبالغوا في إرشادهم.. لأن الوقت قضى بالسكينة.. لتجتمع كلمة الأمة في مطالبتها بحقوقها".

الاجتماع الرابع لأعيان النجف الأشرف والشامية للنظر في أسماء الفائزين بالانتخاب

لقد "عرض العلماء على أعيان النجف وأهل الشامية تلك الأسماء المرشحة للانتداب من قبلهم، وبعدما مخّض الناس تلك الأسماء، وغيرها، قدّموا إلى العلماء ضرورة تغيير هذا الترشيح.. ولا سيما أهل الشامية المجتمعون آنئذ في أبي صخير، والمشغولون في عمل المظاهرات الأدبية الكبرى، وغرضهم أن ينتخبوا رجالاً يمثلون عموم طبقات الأمة"؛ ليمثلوا الأهالي بمختلف طبقاتهم أصدق تمثيل، ويبدو أن أهالي الشامية أرادوا فتح باب الترشيح مجدداً ليكون أكثر عدالة وحرية وشمولاً للجميع وليتنافس المتنافسون. فوافق المراجع والعلماء على اقتراحهم لأنه الأصلح والأكثر تمثيلاً والأصدق تعبيراً عن إرادة الجميع، فقرروا إعادة فتح باب الترشيح للراغبين فيه من جميع الفئات الاجتماعية المختلفة في النجف وخارجها من أنحاء اللواء والمناطق المختلفة.

الاجتماع الخامس لأعيان مدينة النجف الأشرف والشامية لإعادة فتح باب الترشيح وإعادة الانتخاب

"وفي ليلة عشرين من شهر رمضان دعا العلماء عموم زعماء الشامية فحضروا في النجف، ثم عقد رجال الأعمال اجتماعاً في دار السيد نور حضره جملة من أعيان النجف وبعض زعماء الشامية وساداتها.. ثم جرى الكلام في ترشيح المندوبين من جديد -و- كانت نتيجة الجلسات التي انعقدت مرار (كذا) من أهل النجف والشامية، والمداولات الطويلة فيها أن انتدبوا الأسماء الآتية بعدما عرضوهم على العلماء، وهم من قسم العلماء والأعيان حضرات الأفاضل: الشيخ عبد الكريم الجزائري، والشيخ جواد الجواهري، والشيخ عبد الرضا الشيخ راضي، ومن قسم الأشراف ورؤساء القبائل: السيد نور، والسيد علوان، ومن قسم التجار: الحاج محسن شلاش، ثم كتبت وثائق اعتمادهم، وأول من وقع عليها علماء البلاد.

وهذه صورة وثيقة الانتداب التي وقعت في (١٨ رمضان سنة ١٣٣٨هـ) أول الأمر، ثم جرى استبدالها بوثيقة الانتداب اللاحقة لها بعد إعادة الانتخابات في (٢٠ رمضان ١٣٣٨هـ).

"نحن عموم أهالي النجف علمائها[١] وأشرافها وأعيانها وممثلي[٢] الرأي العام فيها وكافة أهل الشامية وساداتها وزعماء قبائلها وممثليها[٣] قد انتدبْنا بعض علمائنا وأشرافنا ووجهائنا وهم حضرات: ... لأن يمثلونا تمثيلاً صحيحاً أمام حكومة الاحتلال في العراق وأمام عدالة الدول الديمقراطية والتي جعلت من مبادئها تحرير الشعوب، وقد خوّلناهم أن يدافعوا عن حقوق الأمة ويجهروا باستقلال البلاد العراقية بحدودها الطبيعية، العاري من كل تدخل أجنبي في ظل دولة عربية وطنية يرأسها ملك مسلم عربي مقيد بمجلس تشريعي وطني. هذه هي مطالبنا لا نرضى بغيرها ولا

(١) هكذا وردت في صورة كتابة الوثيقة.

(٢) هكذا وردت في صورة كتابة الوثيقة.

(٣) هكذا وردت في صورة كتابة الوثيقة.

نتوانى عن طلبها. ومنه نستمد الفوز والنجاح، وهو حسبنا ونعم الوكيل".

وكان في مقدمة الموقعين على الوثيقة أو المضبطة سماحة المرجع شيخ الشريعة الأصبهاني.

الاجتماع السادس لعموم أعيان مدن: النجف الأشرف، والشامية، والكوفة، وزعماء القبائل والعشائر فيها

بعد فتح باب الترشيح مجدداً وإعادة انتخاب المنتدبين من جميع طبقات المجتمع؛ من علماء وشيوخ قبائل وعشائر وتجّار وأعيان وأمثالهم، من أهل الحل والعقد والوجاهة والشعبية لانتخاب المنتدبين الجدد من عيون مدينة النجف وخارجها من عيون المدن المرتبطة بها؛ عُقد "اجتماع تاريخي هام... لثلاثة أمور:

- التوقيع على ورقة ضمت أسماء المنتدبين.
- الاتحاد والاتفاق في عموم زعماء اللواء على المطالبة بالحقوق.
- تحريض القبائل المدمية[1] من الحكومة على التزام الهدوء السكون والطاعة مدة المطالبة بالحقوق الوطنية وحين المظاهرات الأدبية".

وقد عقد الاجتماع بدعوة من "الزعيم الوطني الكبير الحاج عبد المحسن شلاش في داره ليلة الحادي والعشرين من الشهر المبارك، ودعا علماء النجف الأعلام وأشرافها وأفاضلها وكُتّابها ورجال العمل فيها وتجارها وزعماء حزبيها (الزكرت) و(الشمرت) المتشاكسين والمتحاقدين من مدة أكثر من قرن ومن بينهم زعماء منكوبي الحكومة -الإنكليزية المحتلة الذين أُعدموا أو سُجنوا أو نُفوا إلى خارج العراق وهم كُثُر- كما دعا سادات الشامية والكوفة وزعماء قبائلها وأعيانها. فكان اجتماعاً هامّاً جدّاً لِما حواه من أعاظم اللواء، وقد ساد فيه السكون والهيبة، وقد تكلم أغلب أولئك الأكابر وكل كلامهم يرمي إلى وجوب الاتحاد والتعاون على

(١) يقصد بها القبائل التي لها ثارات مع الإنكليز نتيجة إعدام المحتلين لقادتهم ووجوههم في ثورة النجف الأشرف عام (١٩١٨م) وغيرها.

العمل في خلاص البلاد. وأطنب الشيخ الجواهري في خطابه حاثّاً لهم على جمع الكلمة وإحكام عُرى الاتفاق محافظة على الاتحاد في المطالبة المشروعة كما هو دأب جميع أمم العالم اليوم في إدراك مقاصدها وتحصيل استقلالها القومي طبقاً لمبدأ حرية الشعوب.. وبعد أن أتمّ خطابه قُدمت بين أيدي الحضور وثائق الاعتماد فوقّع عليها كل الذين لم يوقّعوا بعدُ من السادات والأعيان والتجار والزعماء وغيرهم، ثم انفضّ الاجتماع وملأ نفوس الأمة آمالاً وسروراً"[١].

والمتأمل في أنموذج الانتداب تتبين له بوضوح دقة آلية الانتداب النهائي للمختارين كممثلين منتخبين لأهالي مدنهم جميعهم، وما صاحبه من عدالة وحرية وشفافية، فخلال ست جلسات واجتماعات ومشاورات عقدت تخللتها مداولات ونقاشات وانتخاب سري عبر أوراق خاصة لمن تتوافر فيه الشروط من المرشحين المتقدمين وهي أن يكون المرشح من "أهل المعرفة والعلم والتدبير"، ثم ما لحقها من اعتراض على عدم تمثيل بعض المدن تمثيلاً كافياً ما يعني وجود مرشحين آخرين لم ينالوا فرصتهم في المنافسة على الترشيح للمقعد الانتخابي من جهة، ولعدم وجود تنوّع كافٍ في تمثيل أهالي المدن بصدق وشفافية بحيث يشمل كل طبقاتها وتنوعاتها، فقبول للاعتراض بسعة صدر لعدالته وواقعيته، ففتح باب الترشيح مجدداً أمام الجميع لمن تتوافر فيه شروط الترشيح المتقدمة، فعقد اجتماع آخر بعد قبول الترشيحات الجديدة، فإعادة الانتخابات، ففرز النتائج، فإعلان أسماء الفائزين الستة من أصناف مختلفة هي: كبار العلماء والفضلاء وزعماء الأشراف وشيوخ القبائل والتجار الوجهاء، ومن أكثر من مدينة في اللواء، فالتصديق على النتائج، فعقد اجتماع كبير في بيت الحاج عبد المحسن شلاش ضم مختلف أصناف اللواء من العلماء الكبار إلى الأشراف إلى الأفاضل، إلى الكُتّاب، إلى رجال الأعمال إلى التجار، إلى زعماء الزكرت إلى زعماء الشمرت بمن فيهم زعماء المنكوبين بالإعدام

(١) ما بين الأقواس مقتبس (بتصرف بسيط) من كتاب: النجف في ربع قرن منذ سنة ١٩٠٨. سابق: ٢٥١- ٢٥٥. مع وضع عناوين فرعية للفقرات.

والنفي من قبل حكومة الاحتلال إلى سادات الشامية، إلى سادات الكوفة، إلى زعماء قبائل الكوفة، إلى وجهاء وأعيان الكوفة إلى غيرهم من أمثالهم فتكلموا بما شاء لهم الكلام أن يتكلموا فيه، ثم قُدمت للجميع وثائق الاعتماد المصادق عليها من قبل المراجع وكبار الشيوخ والزعماء سابقاً، فوقّع عليها الذين لم يوقّعوا بعد من السادات والأعيان والتجار والزعماء وغيرهم، فحظي بذلك المنتخبون بصدقية الشرعية الشعبية والوطنية العامة.

بعد أن تم انتخاب الممثلين بدأ الممثلون المنتخبون بممارسة دورهم، فصادقوا في أول جلسة لهم على مطاليب الأمة التي تمت الموافقة عليها في اجتماع ليلة العشرين من شهر رمضان المتقدم ذكرها، وغيرها من القرارات الأخرى، و"في نهار الثاني والعشرين من الشهر المبارك -رمضان- سنة ١٣٣٨ هـ، عقد مندوبو النجف والشامية جلستهم الثانية، وقرروا فيها أن يطلبوا من حاكم النجف والشامية الإنكليزي تعيين وقت قريب للاجتماع به وتبليغه مطالب الأمة. كما تقدم ذلك سابقاً.

***

٢. أنموذج لأحد اجتماعات ممثلي مدينتي النجف الأشرف والشامية

من أجل الاطلاع على مجريات جلسات اجتماعات ممثلي النجف الأشرف والشامية المنتدبين، وطريقة إدارة جلستهم، وطرح الآراء والمناقشات، وآليات اتخاذ القرارات فيها، والتصويت عليها؛ أثبت أدناه أنموذجاً للجلسة الثانية للمندوبين المنعقدة في دار الشيخ جواد الجواهري ليلة السبت في الساعة الرابعة عصراً بالتوقيت المحلي لمدينة النجف، بعد ورود جواب حاكم الشامية والنجف البريطاني نوربري بالموافقة على عقد الاجتماع بهم غداً السبت صباحاً في دائرة الحكومة في النجف، وهو ما اقتضى عقد جلسة لذلك، فعُقدت الجلسة برئاسة الشيخ عبد الكريم الجزائري لمناقشة جدول أعمالها المتضمن الإعداد لاجتماع الغد بالحاكم البريطاني.

محضر الجلسة الثانية:

"افتتح الجلسة الشيخ الجزائري فقدم عدة أسئلة منتظمة على أحدث طراز للمجالس النيابية الراقية:

أولاً: هل ترون رجحان تجمهر الأمة وتظاهرها صبيحة الغد، وتعطيل الأسواق، وتوقيف الأعمال لتأييد الوفد وتنشيطه؟

» بعد استشارتهم واحداً فواحد -(كذا)- جاء الأكثرية بعدم ترجيح ذلك، ثم استشارتهم في المكان الذي سيجتمع فيه المندوبون قبل ذهابهم، فكان رأيهم الاجتماع في دار الحاج محسن شلاش.

ثانياً: هل يجب أن يكون المتكلم واحد -(كذا)- عند ملاقاة الحاكم أو لكل فرد من النواب حق الكلام؟

» اتفق كل المندوبين في أن يكون المتكلم واحداً.

ثالثاً: من هو الرئيس للمندوبين والمتكلم عنهم؟

» رأى الجميع على أن يكون الشيخ الجواهري لسان حال المندوبين ومتكلمهم، إلّا إذا اقتضى المقام أن يتكلم أحد النواب فلا يعارض، بل ينتظر المندوبون كلامه حتى يتم.

رابعاً: إذا قدم المندوبون صك المطالبة إلى الحاكم، فهل يطالبه المندوبون بورقة وصول لتكون لنا سنداً على استلامه إياها؟

» الجميع يريد منه أخذ الوصول.

وبعد انتهاء هذه الأسئلة تباحث المندوبون فيها -(كذا)- سيفاوضون الحاكم فيه عدا المواد المقدمة تحريراً في الصك، وبعد المداولة اتفقوا على عدم المطالبة بغير تلك المواد، إلّا إذا اقتضت الحاجة ذلك. وختمت الجلسة على هذا الترتيب المنظم"[1].

---

(١) ما بين الأقواس مقتبس من كتاب: النجف في ربع قرن منذ سنة ١٩٠٨. سابق: ٢٥٥ و٢٥٧ على التوالي.

وعلى هذا النسق من صدقية الانتخاب وشموله لجميع الفئات والطبقات وشفافية التصويت والفرز وإعلان النتائج؛ انتظم أمر تشكيل نظام وحكومة النجف الأشرف.

***

المطلب الثاني: تحرير مدينة النجف الأشرف وإقامة أول نظام حكم وطني على أرضها.

يؤكد المؤرخ الثبت الشيخ جعفر محبوبة المعايش لتلك الحقبة الزمنية، والشاهد عليها بأن تحرير النجف الأشرف من الاحتلال الإنكليزي كان يوم الأحد (١٥ شوال ١٣٣٨هـ/ ٢ تموز ١٩٢٠م)، ويصف ما جرى خلال يوم التحرير بقوله: "أُعلنت الثورة في النجف يوم الأحد في النصف من شوال، فقد تجمهر الناس في الصحن الشريف حيثما وردت الأخبار بوقوع الحادثة في الرميثة، ورفعوا الأعلام العربية، وقاد كل زعيم قومه إلى الجهاد، فجلا الإنكليز عن النجف واحتشد الجند في الكوفة.. ولمّا رأى زعماء النجف وعلماؤها جلاء الإنكليز عن البلدة وانتزاحهم عنها بادروا إلى تنظيم الشؤون الداخلية"[١].

ويدعم كلٌّ من الباحث أمين سعيد[٢] والمؤرخ النجفي حسن الأسدي المعاصر للحدث خبر الشيخ محبوبة، ويتحدث الأسدي عن الخطاب الذي أُلقي في الجماهير المحتشدة في الصحن العلوي الشريف يومها، فيقول: "ارتقى منبر الخطابة الشيخ محمّد علي القسام وألقى خطاباً حماسياً قوياً ألهب فيه حماس الجماهير وأهاج نفوسهم وأثار ثائرتهم، فتنادوا بالجهاد وأنذروا الإنكليز بالخروج من النجف، وإلّا أخرجوهم بالقوة، عند ذاك تجمعت القوة الإنكليزية الموجودة بالنجف وجلت منها إلى الكوفة.. بعد أن جلا الإنكليز عن النجف اجتمع النجفيون وألّفوا مجلساً للثورة وحكومة لإدارة النجف، ثم تألّفت لجان متعددة لجمع التبرعات العينية والنقدية لتجهيز

(١) ماضي النجف وحاضرها. سابق: ١/ ٣٦٥.

(٢) ينظر: الثورة العربية الكبرى. سابق: ٢٩٨.

الثائرين في كل مكان بالمؤن والسلاح"، ويضيف: "وكان مجلس الثورة برئاسة الحجة شيخ الشريعة، نائباً عن الإمام الشيرازي، وعضوية جماعة من العلماء والزعماء، فكانت النجف بذلك عاصمة الثورة منذ بدايتها حتى نهايتها بعد مرور ستة شهور"[١]، أي حتى احتلال الإنكليز للنجف الأشرف ثانية في (٤ ربيع الأول ١٣٣٩هـ/ ١٦تشرين الثاني ١٩٢٠م).

ويؤيد هذا التاريخ إلى حدٍ مّا النص الذي أورده كبير القادة الإنكليز في العراق يومها الجنرال هولدن، متحدثاً عن اضطرار قيادته إلى جلاء موظفيه وقواته وحكومته من النجف الأشرف، بقوله: إنها "انسحبت من النجف في اليوم الثامن من تموز سنة ١٩٢٠م"[٢]. ولعل الأيام الستة الفارقة بين التاريخين هي المدة الفاصلة بين بداية انسحاب القوات أفراداً وأعتدة ونهايته.

أما السيد محمّد علي كمال الدين المعاصر للحدث والشاهد عليه أيضاً فيقول: "عندما أحس الإنكليز بغليان الثورة في مناطق الفرات بادروا وبصورة عاجلة إلى الانسحاب من مدينة النجف.. ليلة الثامن والعشرين من شهر شوال عام ١٣٣٨هـ، ... –ف– ترأّس علماء النجف ورجال العمل ورؤساء المحلات فيها أمور المدينة، وكانت الاتصالات لا تنقطع بين زعماء الثورة ومدبريها في النجف وبين رؤساء العشائر الفراتية الذين أزمعوا أيضاً على إعلان الثورة.. مست الحاجة إلى تشكيل حكومة مؤقتة.. فتنادى النجفيون إلى تشكيل مجلسين تشريعي وتنفيذي" في العاشر من شهر ذي الحجة ١٣٣٨هـ، كما سيأتي لاحقاً.

ويتحدث السيد محمّد علي كمال الدين عن تفاصيل تنظيم الأمور الداخلية للنجف الأشرف بعد تحريرها بقوله: لـ"قد أبقى الثوار على كل ما وقعت عليه أيديهم من سجلات الإنكليز وأثاث إدارتهم وأثاث المدرسة الرسمية، وأخيراً أبقوا على جميع ما في المستشفى من الأدوات والأجهزة، وأكرموا الطبيب

(١) ثورة النجف على الإنكليز أو الشرارة الأولى لثورة العشرين. سابق: ٣٨٤.

(٢) الثورة العراقية الكبرى سنة ١٩٢٠ سابق: ٢٧٥ نقلاً عن كتاب هالدن: ١٧٨.

الهندي الذي كان موجوداً في المستشفى[١].

لقد تحدثت سابقاً عن أن هدف المراجع وقادة ثورة العشرين من ثورتهم هو تحقيق الاستقلال التام الناجز للبلاد العراقية، بحدودها الطبيعية، العاري عن كل تدخل أجنبي، في ظل دولة عربية إسلامية وطنية، مقيّدة بمجلس تشريعي وطني منتخب انتخاباً حرّاً مباشراً عبر صناديق الاقتراع وفق نظريتهم الدستورية (المشروطة)؛ لأن المرجعية العليا وبقية المراجع الثائرين معها هم من كبار مؤيديها، ولأنهم يدعون حالهم حال زعيم المشروطة الشيخ محمّد كاظم الخراساني المعروف بـ(الآخوند الخراساني) إلى اتباع الأصول الجديدة في شكل نظام الحكم، وهو ما أجاب به الشيخ الآخوند الخراساني سائليه من أهالي تبريز عن حكمهم الشرعي بقوله: "والخلاصة: المسلمون ملزمون أن يتبعوا الأصول الجديدة في الحكم"، كما تقدم.

وقد تهيأ للمرجعية العليا وزعماء الثورة وضع نظريتهم الدستورية في شكل نظام الحكم -بقدر ما يسمح به الظرف المتاح وقتئذ- موضع التطبيق في النجف الأشرف بعد تحريرها، وذلك مقدمة لتطبيقها في العراق كله بعد تحريره من الاحتلال البريطاني.

يقول الباحث إسحاق نقاش: "تأتي أهمية الحركة الدستورية في العراق كونها مكّنت المجتهدين الشيعة من صياغة نظرية سياسية أرست أسس تمثيلهم في شؤون الدولة، وذلك هدف حاولوا تحقيقه، ليس إبان الثورة الدستورية الإيرانية فحسب، بل في مجرى إقامة النظام الملكي العراقي"[٢] من خلال ثورة العشرين، ولكن المحتلين الإنكليز حالوا بينهم وبين ذلك.

ويوضح مراده بقوله: "اقتربت عملية تكوين الدولة الشيعية في جنوب العراق من النضج في مرحلة مبكرة من القرن العشرين، حيث قام مجتهدون قياديون بصياغة

(١) ثورة العشرين في ذكراها الخمسين. سابق: ٨٧ و٨٤. على التوالي.

(٢) ينظر كتاب: شيعة العراق. سابق: ٩٩.

نظرية تحدد طبيعة الدولة التي كانت في تصورهم، وأرسوا أسس تمثيلهم في السياسة، ولكن محاولة المجتهدين لإقامة حكومة إسلامية في العراق لم تتحقق، وأجهضت عملية تكوين الدولة الشيعية في أعقاب الاحتلال البريطاني، ثم إقامة دولة سنية في البلاد"[١]، مشيراً بذلك إلى تبنّي مراجع الدين في ثورة العشرين لنظرية المشروطة الدستورية، فكان أول ما قام به العلماء وزعماء الثورة ووطنيوها هو تشكيل الهيأة التأسيسية.

تشكيل الهيأة التأسيسية لتحديد شكل نظام الحكم في النجف الأشرف

بعد انتزاح الإنكليز عن النجف الأشرف بدأت المرجعية والثوار أولى خطواتها لتشكيل نظام للحكم في النجف الأشرف المحررة بعد أن قدر الله لها أن تكون عاصمة لثورة العشرين، وبمثل الآلية المتقدمة الناجحة الممثلة للشعب أفضل تمثيل والمعبرة عن آرائه أصدق تعبير؛ "تألّفت لهذا الغرض في البداية لجنة ضمت مجموعة من مجتهدي النجف وأفاضلها وأعيانها وغيرهم، وفي مقدمة أعضائها كل من: الشيخ عبد الكريم الجزائري، والشيخ جواد الجواهري، وآل النقيب، والميرزا مهدي الخراساني نجل حجة الإسلام الشيخ ملا كاظم الخراساني المجاهد الكبير المعروف لوجوده في النجف فارّاً من الإنكليز، والحاج محمّد جعفر أبو التمن البغدادي، والحاج محسن شلاش"[٢]. فكان من مَهامّها "تقرير صورة الانتخاب وقانونه الذي يجب أن يُتّبع، فقرروا عدد أعضاء المجلس التشريعي ثمانية والتنفيذي أربعة وهم رؤساء المشاهدة كما أنّ الثمانية من غيرهم"[٣].

ومن الملفت للنظر وجود الحاج محمّد جعفر أبو التمن ضمن اللجنة التأسيسية لحكومة النجف الأشرف، علماً بأن الحاج أبو التمن من أكبر مناضلي بغداد الذين

---

(١) المصدر السابق: ١٩-٢٠.

(٢) ثورة العشرين في ذكراها الخمسين. سابق: ٨٨.

(٣) النجف في ربع قرن منذ سنة ١٩٠٨. محمّد علي كمال الدين: ٢٦٧-٢٦٨. ويقصد المؤرخ بزعماء المشاهدة زعماء أطراف النجف الأربعة وهي: الحويش والعمارة والبراق والمشراق.

أبلوا بلاء حسناً في التعبئة الجماهيرية للثورة السلمية في العاصمة، وقد كان له اتصال مباشر بالمرجع الأعلى ومفجر الثورة سماحة الشيخ محمّد تقي الشيرازي حضورياً في كربلاء أو من خلال رسائل متبادلة بينهما قبل وفاة الشيخ الشيرازي ﷺ.

إنّ وجود شخص ضمن الهيأة المؤسسة لنظام الحكم في النجف الأشرف من بغداد قد يستفاد منه بأن النظام الذي ستشكله اللجنة في عاصمة الثورة هو نواة تطبيقية أولى لشكل حكومة أوسع في مدن عراقية أخرى مستقبلاً، بل قد تكون مقدمة أولى لحكم بغداد والعراق إذا قدّر للثورة أن تصل إلى بغداد فتحررها من محتليها الإنكليز، خاصة وأنّ الثورة كانت تواصل تحريرها للمدن المحتلة مدينة إثر مدينة متجهة بعزم أكيد صوب بغداد من جهة الحلة طارقة بتقدّمها أبواب مدينة اليوسفية قرب العاصمة، وهذا احتمال آخر أوسع من سابقه، أو ربما كان لوجود الشخصيتين ضمن اللجنة المؤسسة احتمال آخر غير ما تقدم.

ولئن اتفق المؤرخون النجفيون المعايشون للحدث وغيرهم على تأسيس نظام حكم وحكومة للثورة إثر تحرير النجف الأشرف؛ فقد اختلفوا في تحديد يومه وتاريخه على روايتين ذهبت أولاهما إلى وقوعه في يوم الأحد (١٥ شوال ١٣٣٨هـ/ ٢ تموز ١٩٢٠م)، وذهبت ثانيهما إلى وقوعه في يوم الجمعة (١٠ ذي الحجة ١٣٣٨هـ/ ٢٥ آب ١٩٢٠م).

وعلى كلتا الروايتين يكون وضع نظام حكم للثورة بكل هياكله في النجف الأشرف هو أول تأسيس لنظام حكم وحكومة وطنية عراقية خالصة على أرض عراقية شكلتها المرجعية وقادة ثورة العشرين في تاريخ العراق، متقدمة بذلك على الحكومة المؤقتة التي أنشأها المحتلون الإنكليز في بغداد بحوالي أربعة أشهر، وبالتحديد (ثلاثة أشهر وثلاثة وعشرين يوماً) على الرواية الأولى، ومتقدمة (بشهرين كاملين) على الرواية الثانية.

وبالطبع سيكون تشكيل حكومة النجف الأشرف متقدماً وفق الرواية الأولى على تشكيل الحكومة العراقية تحت الانتداب البريطاني (سنة كاملة وشهرين)،

وبالتحديد (سنة ميلادية وسبعين يوماً) أو متقدماً عليها (بسنة كاملة وسبعة عشر يوماً) على الرواية الثانية.

ومن أجل الخروج بتاريخ محدد لإقامة نظام للحكم بمجلسه التشريعي وحكومته الوطنية في النجف الأشرف، فإنّي أرجح -من خلال الجمع بين الروايتين وكلاهما لمؤرخين نجفيين معاصرين للحدث- أنّ قادة الثورة شكلوا حكومة وطنية في النجف الأشرف بعد تحريرها مباشرة في يوم الأحد (١٥ شوال ١٣٣٨هـ/ ٢ تموز ١٩٢٠م) حسب رواية الشيخ محبوبة، ثم أوقف عمل هذه الحكومة مؤقتاً نتيجة انشغال النجفيين بإعداد وتعبئة المجاهدين النجفيين وتسييرهم بعدّة حملات إلى جبهات القتال، حتى إذا انتهوا من ذلك عادوا لتفعيل نظام حكمهم وحكومتهم في النجف الأشرف، فشكّلوها ثانية في (١٠ ذي الحجة ١٣٣٨هـ/ ٢٥ آب ١٩٢٠م) حسب رواية السيد محمّد علي كمال الدين.

ويدعم هذا الجمع بين الروايتين أو توجيه هذا الاختلاف بين التاريخين ما ذكره صاحب كتاب (النجف في ربع قرن منذ سنة ١٩٠٨م)، وهو شاهد على الحدث بقوله: "بعد انحلال حكومة الاحتلال اهتم النجفيون في تشكيل حكومة وطنية حتى لا تبقى البلاد فوضى، فانتخبوا ستة عشر رجلاً من أشراف البلد وأعيانها وأُدبائها ليباشروا في تشكيل الحكومة، ولكن انشغال الوطنيين بمحاربة الإنكليز المحاصرين في الجسر وغيره أوقف الأعمال مؤقتاً"[١].

إننا لو دقّقنا النظر في شكل نظام الحكم الذي وضعه المراجع والثوار لشكل نظام حكم وحكومة النجف الأشرف المحررة؛ لوجدنا أنّ الهيأة العليا أو ما سميت يومها بـ(الهيأة العلمية) تأتي على رأس هيكل هذا النظام.

» أولاً: الهيأة العليا: الهيأة العلمية

لقد تكون شكل نظام الحكم الوطني لثورة العشرين من "هيأة عليا، وهي

(١) النجف في ربع قرن منذ سنة ١٩٠٨. سابق: ٢٦٥-٢٦٦.

الهيأة العلمية، رئيسها المرجع شيخ الشريعة ﷺ وأعضاؤها من كبار العلماء كلّ من: الشيخ جواد آل صاحب الجواهر، والشيخ عبد الكريم الجزائري، والسيد محمّد علي بحر العلوم، والميرزا مهدي الخراساني، والشيخ إسحاق الرشتي، والشيخ موسى تقي زايردهام، والشيخ علي الحلي، والشيخ عبد الرضا آل الشيخ راضي"[١]، وفق رواية المؤرخ الشيخ جعفر محبوبة.

أما وفق رواية المؤرخ السيد عبد الرزاق الحسني فتشكلت الهيأة العلمية من خمسة عشر عضواً برئاسة المرجع الأعلى شيخ الشريعة الأصبهاني، هم كل من: "١. الشيخ فتح الله شيخ الشريعة. ٢. الشيخ عبد الكريم الجزائري. ٣. جواد الجواهري. ٤. الشيخ مهدي الملا كاظم. ٥. موسى تقي زايرتهام (كذا). ٦. الشيخ إسحاق حبيب الله. ٧. الشيخ مشكور الحولاوي. ٨. الشيخ علي الحلي. ٩. الشيخ عبد الرضا الشيخ راضي. ١٠. الشيخ أحمد الملا كاظم. ١١. عبد المحسن شلاش. ١٢. السيد محمّد علي بحر العلوم. ١٣ السيد محمّد رضا الصافي. ١٤. السيد علي السيد حسين. ١٥. الشيخ علي المانع"[٢]، وقد اتفقت أسماء الأعضاء في رواية الشيخ فريق المزهر آل فرعون مع رواية السيد الحسني المتقدمة باستثناء حذف عضوين من أعضائها هما كلّ من: الشيخ مهدي ملا كاظم، والحاج محسن شلاش[٣]، في حين اقتصر الشيخ محمّد مهدي البصير على ذكر الهيأة العليا بقوله: "لقد كانت في النجف الأشرف (هيأة عليا) تسمى (بالهيأة العلمية) كانت تحت رئاسة المرجع شيخ الشريعة الأصبهاني، ومن أعضائها الشيخ جواد الجواهري، والشيخ عبد الكريم الجزائري، وكانت هذه الهيأة تنظر في الأمور العامة وتبتّ فيها"[٤]. أو بتعبير المؤرخ السيد عبد الرزاق الحسني أنّ الهيأة العليا كانت "تشرف

(١) ماضي النجف وحاضرها. سابق: ٣٦٦.

(٢) الثورة العراقية الكبرى. سابق: ٣٤٣-٣٤٤.

(٣) ينظر: الحقائق الناصعة. سابق: ١/ ٢٠٩.

(٤) تاريخ القضية العراقية: ١٣٠. ط٢.

على شؤون الثورة العامة، وتدير أمورها، وتصدر التعليمات المقتضية لهيأتي (المجلس البلدي) و(القوة التنفيذية)، وتقضي في المشكلات التي تحصل آنيّاً، أي أنها كانت تجتمع إثر كل حادثة أو مشكلة لتجد لها الحلول والمنافذ، وكان الاجتماع تحت رئاسة شيخ الشريعة"[١] الأصبهاني، المرجع الأعلى، وزعيم الثورة وقائدها بعد وفاة مفجرها الأول المرجع الأعلى الشيخ محمّد تقي الشيرازي.

ويؤكد الشيخ فريق المزهر آل فرعون أنّ مسؤوليات (الهيأة العلمية) أو (المجلس العلمي) هي "السيطرة على المجالس الأخرى وإرشادها، وعلى جميع شؤون النجف الأشرف، والوقوف والإشراف على كل عمل من أعمال تلك المجالس، والاتصال بالثوار في جميع الجهات، وبكامل الصفات، وبثّ النصائح الدينية، وحمل المتخلّفين عن الجهاد بلزوم الذهاب والالتحاق بإخوانهم الثائرين، وتنظيم ميزانية الصرف، وعلى الإجمال لهم السيطرة العليا على شؤون النجف الأشرف كافة"[٢]. وأضاف الشيخ محمد مهدي البصير إلى ذلك قوله: "وكانت تنظر في الأمور العامة وتبتّ فيها"[٣].

ويفصل د. شاكر حسين دمدوم الشطري دور (المجلس العلمي) قبل وفاة المرجع الأعلى الشيخ الشيرازي وبعده، فيقول: "وكانت هذه الهيأة زمن المرجع الشيرازي لها الدور القيادي المحلّي، أما بعد تولّي شيخ الشريعة الزعامة القيادية -ف-أصبحت تمثل مجلساً استشارياً تنفيذياً للثورة"[٤].

ومن هنا تأتي أهمية هذا التشكيل لأنه معنيّ بالإشراف ليس على شؤون ومجالس المناطق المحررة بعد تحريرها أو التي ستحرر بعد ذلك، والاتصال بالثوار في الجبهات العسكرية كافة وتوجيههم ونصحهم وإرشادهم فحسب، بل تشرف

---

(١) الثورة العراقية الكبرى: ٣٤٤.

(٢) الحقائق الناصعة. سابق: ١/ ٢١٠. وينظر: الثورة العراقية الكبرى سنة ١٩٢٠. سابق: ٢٧٦.

(٣) تاريخ القضية العراقية: ١٣٠. ط٢.

(٤) أثر المرجعية الدينية في الدفاع عن العراق خلال مدة الاحتلال البريطاني ١٩١٤-١٩٢٠. سابق: ١٠٩.

على شؤون الثورة العامة وتدير أمورها[١].

يقول الباحث المعاصر للحدث "اجتمع النجفيون وألّفوا مجلساً للثورة وحكومة لإدارة النجف... وكان مجلس الثورة برئاسة الحجة شيخ الشريعة... وعضوية جماعة من العلماء والزعماء"[٢].

وهناك العديد من الأدلة على قيامها بهذا الدور الواسع في الشأنين العسكري والسياسي، فمنها في الجانب العسكري مثلاً الرسالة التي بعثها المرجع الأعلى الأصبهاني إلى السيد نور الياسري، والسيد علوان الياسري، ومن لديهم من المسلمين المجاهدين على خط النار بعد وفاة المرجع الأعلى السلف الشيخ الشيرازي يوصيهم فيها والمقاتلين بـ"أن ترموا مدفعين أو أكثر لتنشيط العزائم"[٣]، ومنها أيضاً رسالته إلى السيد هادي مكوطر "يوضح له فيها كيفية التصرف بالأسلحة والأعتدة"[٤]، ومنها في الجانب السياسي عن اجتماع الهيأة العلمية الخطير بدعوة من رئيسها المرجع الأعلى للجواب على رسالة ولسون إلى المرجع الأعلى شيخ الشريعة الأصبهاني التي يقترح فيها التفاوض كما سيأتي مفصلاً.

» ثانياً: انتخاب المجلس التشريعي من خلال صناديق الاقتراع

يقول السيد محمّد علي كمال الدين متحدثاً عن قرار اللجنة المؤسسة لشكل نظام الحكم في النجف الأشرف المتقدم ذكرها أنّها قررت: "أن يكون عدد أعضاء المجلس التشريعي ثمانية ينتخب عن كل محلة في النجف اثنان"[٥].

وينتقل بعد ذلك إلى الآلية التي وضعتها اللجنة المؤسسة لعملية انتخاب

---

(١) ينظر: تاريخ النجف الأشرف. سابق: ٣/ ٢٨٣ نقلاً عن شعراء الغري: ٤/ ١٥٢. والثورة العراقية الكبرى. سابق: ٣٤٣-٣٤٤.

(٢) ثورة النجف على الإنكليز أو الشرارة الأولى لثورة العشرين. سابق: ٣٨٤.

(٣) وثائق الثورة العراقية الكبرى. سابق: ٣/ ٢٦٧.

(٤) أثر المرجعية الدينية في الدفاع عن العراق خلال مدة الاحتلال البريطاني ١٩١٤-١٩٢٠. سابق: ١٠٩ نقلاً عن: تاريخ الحركة الإسلامية في العراق. عبد الرحيم الرهيمي: ٢٢٥.

(٥) ثورة العشرين في ذكراها الخمسين معلومات ومشاهدات. سابق: ٨٨.

أعضاء المجلس التشريعي، في شهادة حيّة مباشرة منه على عملية الانتخابات آنذاك فيقول: "ثم وضعت في رؤوس الأسواق صناديق الاقتراع ليضع المقترعون فيها أوراق الانتخاب. وجرى الانتخاب في اليوم العاشر من شهر ذي الحجة -١٣٣٨هـ- وفتحت الصناديق في اليوم التالي، ففاز نتيجة الانتخاب عن محلة الحويش: السيد سعيد كمال الدين وحده، ثم وضع معه بعد ذلك السيد ضياء الخرسان، وعن محلة العمارة السيد عباس النقيب والسيد علوان الخرسان، وعن محلة البراق عبد الجليل ناجي ومحمد جواد عجينة، وعن محلة المشراق حمود شبيل وعباس شمسة"(١).

ولم يوضح لنا المؤرخ الشاهد لماذا لم يفز إلا السيد سعيد كمال الدين عن محلة الحويش بعد فرز النتائج؟ ولم يبين لنا كذلك ما إذا كانت قد وضعت اللجنة المنظمة للانتخابات نسبة معينة للفوز أو عتبة لم يجتزها عن محلة الحويش إلّا فائز واحد هو السيد سعيد كمال الدين؟ كما لم يذكر المؤرخ الشاهد على أي أساس تم اختيار السيد ضياء الخرسان من بين بقية المرشحين الخاسرين، فهل لكونه أعلى الخاسرين بعد حصوله على أصوات أعلى من أصوات الآخرين من منافسيه الخاسرين؟ أو لسبب آخر غير هذا وذاك؟

وسواء صدق هذا الاحتمال أم ذاك أم غيرهما، فهي تؤشر لنا بلا شك وجود ضوابط محددة جرت بموجبها الانتخابات بحيث لم يُشِر الشاهد إلى اعتراض أحد من المرشحين الآخرين، ولا من المواطنين الداعمين لترشيحهم، وإلّا لحدثت مشاكل، ومنازعات، وخلافات، يوم فرز النتائج. ولو حدثت لذكرها المؤرخ لأنه معنيّ بذكر التفاصيل كما تقدم.

وينتقل المؤرخ السيد محمّد سعيد كمال الدين في شهادته العينية الحيّة إلى الدخول في تفاصيل مهمة عن انعقاد (المجلس التشريعي)، فبيّن أن تاريخ انعقاد أول جلسة لأعضاء المجلس التشريعي كانت في عاصمة الثورة (النجف الأشرف)،

(١) المصدر السابق. سابق: ٨٨. وينظر: النجف في ربع قرن منذ سنة ١٩٠٨. سابق: ٢٦٨.

وأنها عقدت يوم (١١ ذي الحجة ١٣٣٨هـ/ ٢٦ آب ١٩٢٠م)، وكان مكان انعقادها هو دار السيد عباس الكليدار، كما لم يغفل ذكر مقررات المجتمعين فيها، بأن يكون المقرّ الرسمي الدائم للمجلس التشريعي هو الدار الملاصقة لباب النجف الكبيرة الواقعة شرقي المدينة، وهي الدار التي عقدت فيها الجلسة الثانية للمجلس التشريعي في يوم (١٢ ذي الحجة ١٣٣٨هـ/ ٢٧ آب ١٩٢٠م)، وتقرر فيها: "تأليف الحرس الوطني المؤلف من (٦٠) ستين شخصاً ليتولى المحافظة على النظام واستتباب الأمن.

ثم توالت اجتماعات المجلس التشريعي في مكانه المحدد، وتم لهذا المجلس تنظيم المدينة، وتطمين حاجياتها، والإشراف على شؤونها العامة وإصلاح المجلس كما أنهم أسرجوا البلد وأضاؤوها وكنسوا السكك والأزقة ورتبوا الحرس الوطني وأرجعوا البلدية ورئيسها الحاج عبد الرزاق شمسة، ووضعوا المالية بيد الحاج محسن شلاش، وجعلوا كل موارد البلد تحت الضمان، وبذلك أوقفوا الفوضى وأمنت الناس وتحسنت التجارة، ولم يقع أقل حادث مشوش من سرقة وغيرها[١].

ويضيف السيد محمّد علي كمال الدين في كتاب آخر من كتبه متحدثاً عن مواعيد عقد جلسات المجلس التشريعي التي أنجزت المهام المتقدمة وغيرها، فيقول: إنها كانت تعقد "صبحاً ومساء"[٢] لتفي بمتطلبات العمل.

» ثالثاً: تشكيل حكومة الثورة الوطنية في عاصمة الثورة النجف الأشرف

لم يقتصر عمل اللجنة التأسيسية على إنشاء مجلس تشريعي في عاصمة الثورة النجف الأشرف، بل زادت على ذلك فأنشأت (حكومة) تتألّف من هيأتين: (هيأة أعضاء مجلس الإدارة) و(هيأة القوة التنفيذية). ولكل من هاتين الهيأتين عدد محدد من الأعضاء، ومهام مكلفة بأدائها:

أ. **هيأة أعضاء مجلس الإدارة:** وعدد أعضائها ثلاثة أعضاء هم كل من:

---

(١) ينظر: ثورة العشرين في ذكراها الخمسين معلومات ومشاهدات: ٨٨. والنجف في ربع قرن منذ سنة ١٩٠٨. سابق: ٢٦٨- ٢٦٩.

(٢) النجف في ربع قرن منذ سنة ١٩٠٨. سابق: ٢٦٨.

الشيخ جواد الجواهري رئيساً، وهو بمثابة رئيس للوزراء، والحاج عبد المحسن شلاش ناظر المالية، وهو بمثابة وزير للشؤون المالية والتجارة والاقتصاد، والسيد مهدي آل السيد سلمان رئيس القوة الإجرائية، وهو بمثابة المسؤول عن الجانبين الأمني والعسكري[١]. ولم أرَ خلافاً بين المؤرخين -حسب اطلاعي- حول عدد أعضائها وحقائبهم.

وقد عهد لهيأة أعضاء مجلس الإدارة أمر "انتقاء الموظفين، وتنظيم عملهم، والإشراف على إدارتهم، وتنظيم الشرطة، والنظر في الدعاوى والشكاوى، وتموين الثوار عند الطلب، والاتصال برجال الثورة الباقين في النجف، ومراقبة حسابات المجلس البلدي، وسوق المجاهدين أبناء النجف الأشرف إلى ساحة القتال"[٢].

ب. **هيأة القوة التنفيذية**: وقد اختُلف في عدد أعضائها على روايتين: تذهب أولاهما إلى أنّ عدد أعضائها ثمانية أعضاء، وهم كل من: "كردي آل عطية أبو كلل، والحاج حسين آل ظاهر، والسيد علي جريو، والسيد مهدي السيد سلمان، والحاج عبد الله الشمرتي، وغيدان عدوة، والحاج حسون شربة، والحاج محمّد الشرباوي"[٣].

وتذهب ثانيهما إلى أنّ عدد أعضائها أربعة أعضاء، هم: "زعماء المحلات الأربع في المدينة"[٤]، كل من: "السيد مهدي السيد سلمان عن محلة الحويش، والسيد علي جريو عن محلة البراق، وكردي أبو كلل عن محلة العمارة، وحسين الظاهر الحاج راضي عن محلة المشراق"[٥].

وقد اتخذت حكومة الثورة من بيت الشيخ مهدي النجل الأكبر للمرجع الشيخ محمد كاظم الخراساني وعضو الهيأة العلمية مقرّاً لاجتماعاتها التداولية،

---

(١) ينظر: ماضي النجف وحاضرها. سابق: ١/ ٣٦٥-٣٦٦.

(٢) الحقائق الناصعة. سابق: ٢٠٩.

(٣) الثورة العراقية الكبرى. سابق: ٣٤٣. والحقائق الناصعة في الثورة العراقية. سابق: ٢٠٩.

(٤) ماضي النجف وحاضرها. سابق: ١/ ٣٦٦.

(٥) ثورة العشرين في ذكراها الخمسين معلومات ومشاهدات. سابق: ٨٩.

حيث "كانت تعقد جلساتها ليلاً في بيته وتستنير بآرائه وتنفذ قراراتها في اليوم الثاني في مركز عملها في (القلوب)، وهو اسم مكان يحتمل أنه كان نادياً، وقد بني من تبرعات الأهلين في أواخر العهد العثماني"[١].

أما واجبات القوة التنفيذية فهي: "تأمين البلد والطرق المؤدية إليه والقريبة منه، وتجهيز أفراد الوجبة الذين يعيّنهم مجلس الإدارة.. وتسفيرهم لساحات القتال، وتعيين قوة شبه نظامية كالشرطة في المركز لمسيس الحاجة"[٢].

» رابعاً: تشكيل المجلس البلدي

وإذ شخصت اللجنة التأسيسية وجود حاجة لإنشاء (مجلس بلدي) في المدينة المقدسة لينضمّ إلى الهيكلية التشريعية والتنفيذية؛ أقدمت على إنشائه محددة عدد أعضائه بـ(ثمانية) أعضاء، على أن يكون لكل محلة من محلات المدينة الأربع شخصان، فكان هؤلاء الثمانية أعضاء في المجلس البلدي كل عن محلته، وهم:

عن محلة المشراق: عبد الرزاق شمسه، وعباس شمسه.

عن محلة البراق: عبد الجليل ناجي، ومحمد جواد أبو عجينة.

عن محلة العمارة: كردي أبو كلل، وعلوان الخرسان.

عن محلة الحويش: سعيد كمال الدين، وحسين الظاهر[٣].

هذا ما أورده المؤرخ السيد عبد الرزاق الحسني، في حين اقتصر المؤرخ الشيخ جعفر محبوبة على ذكر أربعة منهم، ثلاثة يتفق في عضويتهم مع السيد عبد الرزاق الحسني، ويضيف إليهم عضواً رابعاً لم يذكره السيد عبد الرزاق الحسني هو: الحاج عبد المحسن شلاش.

---

(١) فصول من تاريخ النجف. سابق: ١/ ٤٤٣.

(٢) الحقائق الناصعة. سابق: ٢٠٩.

(٣) ينظر: الثورة العراقية الكبرى. سابق: ٣٤١-٣٤٢.

يقول الشيخ جعفر محبوبة: "ولمّا رأى زعماء النجف وعلماؤها جلاء الإنكليز عن البلدة، وانتزاحهم عنها، بادروا إلى تنظيم الشؤون الداخلية، فأنشأوا مجلساً بلدياً مؤلفاً من عدة أعضاء، منهم: الحاج عبد المحسن شلاش، وعبد الرزاق شمسه، وحسين آل ظاهر، وكردي بن الحاج (كذا) عطية. وكان من أهم ما يريده المجلس جمع الرسوم، والضرائب الأميرية، ومنع إصدار المؤن من النجف إلّا بإذن من الحكومة المحلية، واستخدموا جماعة من النجفيين بصفة شرطة للمحافظة على الأمن"[١]، إضافة إلى "تنظيم شؤون الصحة"[٢]، بما فيه وضع "مراقبين صحيين للنظافة وموظفين ماليين للجباية"[٣]، وكذلك "إسعاف الفقراء، وكافة الشؤون التي تخص البلدية بلا استثناء"[٤].

أما الشيخ محمّد مهدي البصير فسمّى اثنين من أعضاء المجلس البلدي هما كل من: "الحاج عبد المحسن شلاش.. أمين صندوقه، والسيد سعيد كمال الدين أحد فضلاء النجف.. عضو ذلك المجلس الفعّال.. وكان من أهم ما عمله المجلس البلدي جمع الرسوم والضرائب الأميرية، ومنع إصدار المؤن من النجف إلّا بإذن من الحكومة المحلية"[٥].

أما الشيخ فريق المزهر آل فرعون فقد ذكر أنهم خمسة أعضاء، اتفق في خمستهم مع من ذكرهم السيد عبد الرزاق الحسني، واختلف معه بحذف ثلاثة من ثمانيته هم كل من محمد جواد عجينة، وعباس الخرسان، وعبد الجليل ناجي[٦].

ونظراً لأنّ رواة الروايات المتقدمة من المعاصرين للحدث؛ فمن الصعب ترجيح رأي على رأي لعدم وجود المرجح.

---

(١) ماضي النجف وحاضرها. سابق: ١/ ٣٦٥.

(٢) الثورة العراقية الكبرى سنة ١٩٢٠. سابق: ٢٧٦.

(٣) الثورة العراقية الكبرى. سابق: ٣٤٢.

(٤) الحقائق الناصعة. سابق: ٢٠٨-٢٠٩.

(٥) تاريخ القضية العراقية. سابق. ط٢: ١٢٩.

(٦) الحقائق الناصعة في الثورة العراقية. سابق: ٢٠٨-٢٠٩.

» خامساً: تشكيل هيأة خاصة لشؤون الأسرى

كما تم تشكيل هيأة خاصة لإدارة (شؤون أسرى جيش الاحتلال) في النجف الأشرف، "إذ إنّها عاصمة الثوار، وكانوا منها يردون، وعنها يصدرون. ففي معركة الرارنجية، تلك المعركة الدامية، أسر الثوار (١٦٠) أسيراً، بين إنكليز وهنود، وجاءوا بهم إلى النجف، وكانوا في (الشيلان)، حتى تسليم بلدة النجف إلى السلطة المحتلة"[١].

ونظراً لوقوع أسرى من الجيش المحتل بيد الثوار خلال العمليات العسكرية، وإرسالهم من قبل قادة العمليات إلى النجف الأشرف عاصمة الثورة؛ أصدر المرجع الأعلى شيخ الشريعة الأصبهاني كتاباً إلى الحاج عبد المحسن شلاش كلفه فيه بالإشراف على رعاية الأسرى في مكان حجزهم بخان الشيلان في النجف الأشرف، والصرف عليهم لتنجيز احتياجاتهم الأساسية والكمالية أيضاً، وهو ما لم يكن معمولاً به من قبل المحتلين الإنكليز من (مُدّعي الحضارة والمدنية)، وتعدّ الوثيقة التاريخية أدناه أنموذجاً متقدماً في معاملة الأسرى يلقي الضوء عن حسن رعاية أسرى العدو المحتل في أحكام الشريعة الإسلامية عند الشيعة؛ لأن لهم "مكانة عالية" وفق مذهبنا الجعفري، حيث "توجب العناية بهم، لأنّها "فرض" واجب التنفيذ، وتوجب "إكرامهم"، لأنه "حتم" على آسريهم، ولأنّ الأسرى في الشريعة هم "وديعة مقدسة، وأمانة محترمة" فإنّ المرجع الأعلى يوصي بتفقد "صحتهم"، وحسن "معاشرتهم" بالاتصال بهم، و"لزوم البذل لهم، والتوفير عليهم"، كما "يجب" على المسؤول عن رعايتهم في الأسر "تحقيق راحتهم أكثر من الأيام الماضية" التي سبقت صدور أمر المرجع الأعلى ورئيس الهيأة العليا للثورة.

ثم يختتم المرجع الأعلى كتابه التالي مخاطباً به المسؤول المكلّف برعاية الأسرى بقوله: أنّ "لا عذر" لك فيما تم "إلزامك" به؛ لأنه "تكليف شرعي، مدني، إنساني، فواظب على الإنفاق عليهم".

---

(١) ماضي النجف وحاضرها. سابق: ١/ ٣٦٦.

ونظراً لأهمية هذه الوثيقة التاريخية، والإسلامية، والحضارية، والإنسانية، والأخلاقية، المرسلة من المرجع الأعلى قائد الثورة إلى الحاج عبد المحسن شلاش أثبت نصّها أدناه:

"بسم الله الرحمن الرحيم

سلام عليك، وثناء على إخلاصك، وبعد، فغير خفي على نباهتك أنّ للأسرى في الشريعة الإسلامية مكانة عالية، فالعناية بهم فرض، والتوجه إلى إكرامهم حتم، وإنّي أوصيك أطال الله حياتك بتعهدهم على الاتصال، وتفقد أحوال صحتهم، ومعاشرتهم، ما داموا وديعة مقدسة، وأمانة محترمة، فيلزمك البذل لهم، والتوفير عليهم، ويجب تصديك لتحقيق راحتهم أكثر من الأيام الماضية، وإنّي قوي الأمل بأنك تنشط إلى هذا التكليف؛ لأنه شرعي، مدني، إنساني، فواظب على الإنفاق عليهم، حتى يتعين لنفقاتهم مورد خاص، فقد اعتمدت وأوكلت ذلك إلى عهدتك، وألزمتك به، ولا عذر لك، ودم مؤيداً.

التوقيع: شيخ الشريعة الأصبهاني"[1].

كما كتب سماحة المرجع الأعلى شيخ الشريعة الأصبهاني كتاباً آخر إلى السيد نور الياسري كبير قادة هذه الجبهة العسكرية يطلب منه العناية بأسرى معركة الرارنجية، ويحثّه على الرفق بهم وحسن معاملتهم بعد أسرهم، قبل إرسالهم إلى عاصمة الثورة، وقد أجاب السيد نور الياسري على رسالة سماحته بكتاب مؤرخ في (٩ صفر ١٣٣٩هـ/ ٢٣ تشرين الأول ١٩٢٠م) جاء فيه: "أخذنا مشرفكم الذي تتأكدون به محافظة الأسرى بكل الوجوه، خوفاً أن ينالهم ما يخالف الشريعة الإسلامية والقوانين الإنسانية والمدنية.. والعاقبة للمتقين".

وقد قام الحاج عبد المحسن شلاش بواجبه خير قيام، فعيّن عبد الرزاق عدوة

(١) لمحات اجتماعية من تاريخ العراق الحديث. سابق: ٥/ ١: ٣١٣-٣١٤. ووثائق الثورة العراقية الكبرى. سابق:٣/ ٣١٧- ٣١٨.

مشرفاً على شؤونهم وإدارة أمورهم، فعمل على تسجيل أسمائهم في جدول لغرض تعداد أسمائهم كل صباح سواء من أسروا منهم في معركة الرارنجية أم في معارك السماوة أم غيرهما. "وكان عدد الأسرى كما يلي: إنكليزي الجنسية من مانجستر: (٢٥٣)، هنود الجنسية مسلمون: (٤٥)، هنود الجنسية سيخ: (٧٥)، هنود الجنسية بانيان: (٣٠)، المجموع = (٤٠٣)"[١] أسيراً.

و"كان طعام الأسرى الضروري يتكون من الخبز والتمر والخيار، أما الطعام الكمالي فيتكون من السكر والشاي ولفافات التبغ والكبريت، ويقدم اللحم كلّما تيسر وجوده في الأسواق، كما كانت تقدم لهم قطع من الصابون كل يوم، وكانت صحة الأسرى جيدة على العموم. وكان يتولى الإشراف على صحتهم ومداواة مرضاهم طبيب هندي هو أحد موظفي الاحتلال في النجف وهو مسلم هندي وقد أبقاه الثوار مع سائر موظفي المستشفى يتقاضون رواتبهم الشهرية من حكومة الثورة. ولقد أحسن الثوار معاملة هؤلاء الأسرى وتركوا لهم حرية العمل داخل المعتقل، وكان الحراس يتولون إخراجهم في أغلب الأحيان إلى ظاهر النجف ليرتاضوا ويرجعون إلى معتقلهم متى أحبوا الرجوع.. ومن ألوان المعاملة الطيبة التي كان يلقاها هؤلاء الأسرى إحضار ما يلزمهم من الأوراق والظروف ليكتبوا أسبوعياً إلى أهليهم بأخبارهم.. وقد وردت الأجوبة إلى بعضهم من بلادهم"[٢].

ولم يقتصر أمر قادة الثورة على العناية بالرجال من الأسرى فحسب، بل بالنساء الأسيرات أيضاً، فحين وقعت البريطانية زيتون بوكانن أسيرة في أيدي ثوار منطقة شهربان بديالى خلال ثورة العشرين بعد مقتل زوجها الإنكليزي الكابتن أي أيل بوكانن معاون مدير دائرة الري في شهربان؛ اقتيدت إلى بيت أحد رؤساء البلدة وهو الشيخ مجيد التميمي الذي خاطبها "بكل أدب واحتشام" من خلال مترجمه

(١) ثورة النجف في ذكراها الخمسين معلومات ومشاهدات. سابق: ٢١٣. وهناك من ذهب إلى أن عدد الأسرى هو (١٨٨) وقد اعتمدت على رواية السيد كمال الدين لمعاصرته للحدث ومشاركته في الثورة.

(٢) ثورة العشرين في ذكراها الخمسين معلومات ومشاهدات. سابق: ٢١٣-٢١٤.

الذي أضاف "إنّ الشيخ مجيد أراد من جلبك إلى هنا المحافظة على حياتك من اعتداء العصابات، ولا يساورك القلق والفزع من ناحيته، فإنه سيكرس آخر نقطة من دمه في سبيل المدافعة عن حياتك، سيّما وأنت في منزله بمثابة عضو من عائلته".

تقول الأسيرة "أُخبرت أن محل راحتي قد أُعدّ وعليّ أن أذهب إلى غرفتي في منزل إقامة النساء"، وتتحدث الأسيرة عن صفات الشابة جميلة ابنة مضيفها الشيخ الكبير بقولها: "كانت أخلاق هذه الامرأة رقيقة جدّاً، وفي معاملتها لي خصيصاً، فكانت تحرص على راحتي وسلامتي وتلبي كل طلب أطلبه منها"، ولذلك "فإنها وقعت في قلبي موقعاً حسناً ليس لجمالها فقط ولكن لصفاتها وأخلاقها السامية التي قلّما رأيت امرأة غيرها متحلّية بها إلى مثل هذه الدرجة"، وحين أُخرجت الأسيرة الإنكليزية من بيت الحريم لبعض الوقت وعادت شاهدت جميلة واقفة على الباب تنتظرها "كأنها فقدت شقيقة لها طال غيابها".

وتصف الأسيرة الإنكليزية دخولها لدار الحريم ثانية بقولها: "دخلت الدار فاجتمعت النسوة حولي وأخذن يعتنين بي وعلى الأخص جميلة، فإنها أعدّت فراشي وأضجعتني عليه، وبقيت بجانبي بعد خروج النساء، وبيدها مروحة تطرد بها عني الذباب"، وتضيف إلى ذلك متحدثة مرة عنها فتقول: "كانت أقرب إلى الكمال من كثير من النساء الأوربيات فكان كل شيء يؤلمها يؤلمني وكل شيء يسرّها يسرّني"، وتقول في موضع آخر من مذكراتها: "إنني مدينة لهذه الفتاة بحياتي وسعادتي طيلة إقامتي في شهربان، فإنّها كانت تدأب على خدمتي وتسعى لإزالة الغم عني، وكثيراً مّا كانت تحفظ لي ماء السطح البارد في سرداب تحت الأرض، وتقدمه لي عند الظهر، وتقوم بتنظيف غرفتي وإعداد فراشي، والخلاصة إنّها كانت سلوتي الوحيدة في ذلك القفر المنعزل القاحل".

وحين انتاب الأسيرة زوجة المقاتل الإنكليزي القتيل القلق والفزع والخوف مرة، هرعت إلى جميلة طلباً للأمان واصفة عناية جميلة بها بقولها: "ضمّتني... إلى صدرها بقوة تتخيّل نفسها في موقف دفاع عني، وطمأنتني بأنها ستكون لي أطوع

من بناني وتتبع ظلّي أينما سرت وذهبت. جلسَتْ بجانبي على سريري، وأخذت تقصّ علي بعض النوادر والحكايات بلسان لبق وجذاب أعجبني سماعه والنصوت إليه، فسكنت لحديثها واطمأننتُ بقربها فأخذتُ يدها الناعمة بين يدي استمع لنبرات صوتها الساحر. وهكذا طردت عني تخيلاتي المفزعة واضطرابي الموحش، فدخلت السكينة إلى فؤادي، وقدرت حينذاك من التغلب على السهر، فاستلمت إلى الكرى، ولا تزال يد جميلة بين يدي".

وتحدثت الأسيرة الإنكليزية مرة أخرى عن نوبة فزع انتابتها وكيف طمأنتها مضيفتها بقولها: "شكرت جميلة من كل قلبي على شعورها الرقيق ورأيت أنّ هذه النفس الأبيّة تحوي بين ضلوعها أجمل الصفات والأخلاق النبيلة. قبّلتني عدة مرات في جبيني وكنت في كل مرة أبسم بوجهها رغماً عنّي كي أعلمها أنني طردت الخوف عن نفسي وأنّني الآن مطمئنة آمنة بفضل مجهودها"[١].

إن من الغريب حقاً، والمؤسف -رغم كل ما تقدم، وبعد وصايا المرجعية الدينية المشددة بالعناية الفائقة بالأسرى المتقدم ذكرها- ما ورد في تقرير سري صادر من وزارة الخارجية البريطانية لشؤون الهند في (١١ ذي الحجة ١٣٣٨ هـ/ ٢٦ آب ١٩٢٠م) متضمناً برقية بعثها "القائد العام في ٦ آب يتكلم عن زعماء المتمردين (يصدرون بلاغاً)، وعن قولهم: إنهم يعدّون الأسرى (وديعة مقدسة). كل من البلاغ والعطف غير عربي مطلقاً. ويدل على وجود أوربي أو في الأقل شرقي بتدريب أوربي يوجّه الثورة"[٢].

ولو كان القائد العام اطلع بتجرد على تعاليم وقيم الإسلام الحقة لَما قال ما قال، بل لو قارن -وهو الأوربي المعتز بحضارة أوربا ومدنيتها- بين معاملة جيشه الغازي لأسراه الشيعة المسلمين من الثوار -كما وصفها شاهد عيان عليها وهو

(١) في قبضة العرب. مذكرات الأسيرة الإنكليزية زيتون بوكانت: ٦٦ و٧٠ و٧٤ و١٠٥ و١١٠ و١٢٠ و١٤٢-١٤٣ و١٥١ و١١٦ على التوالي. وتنظر: ٩٩-١٠٠ و١٠٣ و١٢٨ و١٣٦-١٣٧ و١٣٩ و١٤٢ و١٤٦ و١٤٨.

(٢) العراق في سجلات الوثائق البريطانية ١٩١٤-١٩٦٦. سابق. المجلد الثاني ١٩١٨-١٩٢١: ٣٦٤.

السيد إبراهيم القزويني- وبين معاملة المرجعية الدينية الشيعية والثوار لأسرى جيشه المحتل المعتدي؛ لَما قال ما قال؛ ولعرف الفرق بين إنسانية المذهب الجعفري وعدوانيتهم.

يقول إبراهيم القزويني: "في يوم (٢٥ ربيع سنة ١٣٣٩هـ-/ ٧ كانون الأول ١٩٢٠م)- دخلت سجن الحلة المركزي الواقع في الجانب الغربي من النهر، ورأيت حال المعتقلين السياسيين مزرية، وبعد خروجي في اليوم الثاني اجتمعت بالسيد عبد الرزاق الوهاب، سألني عن حالة والده وسائر رفاقه. فقلت له: إنّهم يعيشون على أرض مبلطة بالقير لا سقف لها. وعند جنوح الشمس للمغيب يأتي الكابتن هري مدير السجن المركزي ومعه الجاويش إبراهيم ويأخذ ما عندهم من الفراش والأثاث لكي يمنعهم من النوم في ليالي الشتاء القارصة البرد. وقد رأيتهم يسيرون على الأرض جيئة وذهاباً حتى الصباح... وبعد أيام جاء إلى الحلة وزير الداخلية السيد طالب النقيب ولدى عبوره على جسر شط الحلة وقفنا أمام سيارته ومنعناه من العبور في حالة شديدة من التأثر ونحن أربعة أشخاص من ذوي المساجين في سجن الحلة المركزي... بادرنا وزير الداخلية بالسؤال عن مطاليبنا فشرحنا له حالة آبائنا المعتقلين في السجن والمعاملة السيئة التي يلاقونها من المدير الإنكليزي"[١].

ونظراً لحسن معاملة المرجعية العليا وقادة الثوار للأسرى فقد كتب الحاكم الملكي العام في العراق رسالة إلى سماحة شيخ الشريعة الأصبهاني يشكره فيها على حسن توصيته برعاية الأسرى والعناية بهم، وهي شهادة مهمة من العدو خلال الحرب، فأجابه المرجع الأعلى برسالة جاء فيها: "وأما مسرّتكم بتوصيتي في حق الأسرى بالرفق والمجاملة، فالأمر كما بلغكم، وقد أكدت هذا المعنى كثيراً.. وهم الآن في راحة حتى من طرف فضول المعيشة"[٢]، فضلاً عن الطعام المقوّم للحياة.

(١) مذكرات الحاج عبد الرسول تويج: ٢٩-٣٠. هامش رقم ٣٢. نقلاً عن مجلة البلاغ الكاظمية بعددها المرقم ٢ من السنة الثانية الصادر في ١٣٩٩هـ/ ١٩٧٩م.

(٢) وثائق الثورة العراقية الكبرى. سابق: ٣/ ٣٥٥.

ثم حين "سقطت الكوفة بيد جيش الاحتلال... سلّم النجفيون هؤلاء الأسرى إلى قائد الحملة الإنكليزية في الكوفة"[١] بأمر من الهيأة العليا التي يرأسها المرجع الأعلى.

وهو ما أشار إليه السير آرنولد ولسون في كتابه خلال حديثه عن أسراه عند الثوار بقوله: "إنهم كانوا يعامَلون معاملة حسنة، ما لوحظ على الأسرى من مظهر صحي يدل على التغذية الجيدة حينما أُطلق سراحهم، ولم يمت في الأسر منهم إلّا شخص واحد"[٢].

» سادساً: تشكيل جهاز إعلام الثورة

إدراكاً من قادة الثورة لأهمية الإعلام ودوره في التعبئة الشعبية، فقد أسسوا في النجف الأشرف عاصمة الثورة جهازاً إعلامياً تصدر عنه أكثر الكتب والمناشير، لتوزع في الفرات الأوسط بكل ألويته وبغداد والمنتفق وبقية ألوية العراق. فكانت في النجف الأشرف "تخاط الأعلام العربية، ومنها تنتشر في أنحاء الفرات، وبها كانت تطبع المنشورات اليومية الحاوية لأخبار المناطق، والمقالات الشديدة اللهجة، والنصائح القيمة، وكان يتولى إصدارها الشيخ محمّد باقر الشبيبي[٣]، المكلف بمهمة إعلام الثورة. وكانت المناشير اليومية تقريباً تتولى مهمة توصيل أنباء الثورة إلى الثوار في مختلف الجبهات، وإلى المواطنين الآخرين في المدن والريف، بل وإلى العدو أيضاً، متصدية لحملته الإعلامية، وموجهة المواطنين لِما ينبغي عليهم عمله، كلّ في محله، خلال الثورة، وإذا أردنا أن نستشهد بمحتوى أنموذج لهذه المناشير، فإنّ المنشور الذي صدر في (١٤ ذي القعدة ١٣٣٨هـ/ ٣٠ تموز ١٩٢٠م) يصلح أن يكون أنموذجاً لها، فقد حث المنشور المجاهدين في سوح المنازلة من خلال خمس عشرة نقطة على العمل بها وتطبيقها، ومن هذه التوجيهات: توضيح

(١) المصدر السابق: ٢١٣.

(٢) الثورة العراقية. سابق: ١٣٨.

(٣) ينظر: ماضي النجف وحاضرها. سابق: ١/ ٣٦٦.

أهداف الثورة وأن المقصود منه هو طلب الاستقلال التام وطرد العدو من الأراضي العراقية بتحرير الأرض والإنسان، وحسن معاملة أسرى العدو، والعناية بهم، والحفاظ على الممتلكات العامة للدولة وعدم تفجيرها أو تخريبها، ووجوب حفظ النظام العام، ومنع الاعتداء أيّاً كان، فلا نهب، ولا سلب، ولا ضغائن قديمة، ولا أحقاد. وتأمين الطرق وحفظ المواصلات. ووجوب حفظ الرصاص والعتاد فلا يجوز إطلاقه في الهواء، وادخاره للعمليات العسكرية وخزن القذائف والقنابل والمدافع والرشاشات، وحفظ أثاث أبنية الحكومة حيث لا يجوز تفريقها[١]. وأمثال ذلك.

ولم يكتفِ مركز إعلام ثورة العشرين بإصدار المناشير لتوعية المواطنين والمجاهدين والتصدي لإعلام العدو فحسب، بل "أصدر الأستاذ الشيخ محمّد باقر الشبيبي جريدة (الفرات) في (غرّة المحرم ١٣٣٩هـ/ ١٥ أيلول ١٩٢٠م) في مدينة النجف الأشرف، فكانت تلقي على نار الثورة وقوداً ضد المعتدي الأجنبي المحتل، وأصدر الأستاذ السيد محمّد عبد الحسين جريدة (الاستقلال) في النجف أيضاً يوم (١٨ من المحرم ١٣٣٩هـ/ أول تشرين الأول ١٩٢٠م) فكانت تذيع أخبار الجبهات، وتنشر كل ما يتعلق بهذه الحركة المباركة. وقد صدر من جريدة (الفرات) خمسة أعداد، ومن جريدة (الاستقلال) ثمانية أعداد؛ لأن أيام الثورة قد تصرمت، وقارب نجمها الأفول"[٢].

ومن أجل أن نعرف مدى اهتمام قادة الثورة بالإعلام وتوعية الجماهير في المدن والمجاهدين على خطوط التماس مع العدو خاصة؛ فقد "كانت هذه المناشير تصل مع أعداد جريدتي (الفرات) و(الاستقلال) إلى مناطق الثورة، فتتناولها الأيدي فتفعل فعلها في النفوس"[٣].

---

(١) ينظر نص المنشور في كتاب: الحقائق الناصعة في الثورة العراقية. سابق: ٢٤٤-٢٤٥.

(٢) الثورة العراقية الكبرى. سابق: ٣٥١.

(٣) المصدر السابق: ٣٥٢.

لقد "طبعت جريدة (الاستقلال) تحت شعار (لا حياة بدون استقلال)، إذ ظهر هذا الشعار عنواناً رأسياً في كل عدد من أعداد الجريدة.. -و- كان أهم عدد من أعداد جريدة (الفرات) هو العدد الأخير الخامس.. ويبدو أنه كان ردّاً قاسياً على رسالة أرسلها آرلوند ولسون إلى أكبر مجتهدي الشيعة، شيخ الشريعة الأصبهاني. كان صاحب الرد هو صاحب الجريدة الشبيبي نفسه... على الرغم من أن صحافة ثورة ١٩٢٠ لم تدم طويلاً وافتقرت إلى الموارد، قامت بدور لافت للنظر من خلال تقديم خدمات صحفية لمقاتلي العشائر إبان الثورة، ومن خلال تقديم نظرة مختلفة للأحداث لمؤرخي المستقبل"[١].

❀ ❀ ❀

(١) ثورة العشرين دراسة جديدة في ضوء الوثائق التاريخية. سابق:١٨٨ و١٩١ و ١٩٧.

المبحث الثالث

وقفة مع شكل نظام الحكم الوطني بمجلسيه التشريعي والتنفيذي ومجلسه البلدي

ويتضمن مطلبين هما:

المطلب الأول: ريادة المرجعية الدينية لتشكيل أول نظام حكم وطني في العراق.

إن إقامة نظام للحكم وفق ما أمكن تطبيقه من نظرية الدستوريين (المشروطة) على مدينة عراقية هي النجف الأشرف عاصمة ثورة العشرين ابتداء من (١٠ ذي الحجة ١٣٣٨هـ/ ٢٥ آب ١٩٢٠م)، ولغاية (٤ ربيع الأول ١٣٣٩هـ/ ١٦ تشرين الثاني ١٩٢٠م) - يستحق الوقوف عنده طويلاً.

لا لأنّه بدأ بـ(لجنة تأسيسية) من كبار العلماء والسياسيين والتجار من أهالي النجف أو بغداد تولت وضع هيكلية النظام الجديد وأسسه، وحددت هيآته المختلفة، فقررت تشكيل (هيأة عليا) تدير شؤون الثورة بتفاصيلها كافة، سواء في النجف الأشرف العاصمة أم في غيرها من المناطق المحررة، يرأس (الهيأة العليا أو الهيأة العلمية) سماحة المرجع الأعلى ذلك الوقت شيخ الشريعة الأصبهاني، ويردفها مجلسان هما: مجلس (تشريعي) و(مجلس تنفيذي أو حكومة).

أما (المجلس التشريعي) فيتشكل من عدد محدد من الأعضاء يتم انتخابهم بطريقة الانتخاب السري المباشر عبر صناديق الاقتراع، ثم تفرز نتائج التصويت، ويسمى الفائزون منهم بمقاعد المجلس التشريعي حسب مناطقهم، مع الاتفاق على العمل بنتائج الاقتراع السري للصناديق أيّاً كانت النتائج.

أما (الحكومة) فتتكون من هيأتين: (هيأة أعضاء مجلس الإدارة) و(هيأة القوة التنفيذية).

يرأس (هيأة أعضاء مجلس الإدارة) رئيس مختار ومتفق عليه بمثابة رئيس للوزراء، يصحبه عدد معين من الأعضاء بمثابة وزراء، أنيطت بكل عضو منهم حقيبته حسب اختصاصه.

في حين تتشكل (هيأة القوة التنفيذية) من زعماء المحلات الأربع في النجف الأشرف لتتولى مهمة التنفيذ العملي لقرارات (هيأة أعضاء مجلس الإدارة) على أرض الواقع.

ولم تكتفِ الهيأة التأسيسية بالمجلس التشريعي والحكومة، بل أنشأت أيضاً (مجلساً بلديّاً) من رئيس وعدد محدد من الأعضاء، وأناطت بهم إدارة الشؤون البلدية في المدينة كلها، كما قررت أيضاً إنشاء (حرس وطني) بقائد مشخّص، ومراتب محددين، مَهمّتهم حفظ الأمن والنظام في المدينة المقدسة.

ولم تغفل عن إنشاء جهاز إعلامي نشط بصحيفتين رسميتين ناطقتين باسم ثورة العشرين هما صحيفتا (الفرات) و(الاستقلال)، تعزز دورهما الإعلامي وتشد أزره (مناشير) تطبع يومياً وتوزع لتضع المواطنين بآخر أخبار الثورة سياسية وعسكرية.

كما نشرت علماً للثورة يخاط بالنجف الأشرف بألوانه المعروفة يوزع على الجبهات والمدن المحررة، ثم حين تم أسر ضباط ومراتب من الجيش الإنكليزي المحتل وجدّت الحاجة لإيوائهم والعناية بهم؛ أصدر رئيس الهيأة العليا قراراً بإنشاء (هيأة لإدارة شؤون الأسرى) محدداً اسم رئيسها وواجباتها.

أقول: لا لذلك كله هو ما دعاني لطلب الوقوف على شكل نظام الحكم وحكومة ثورة العشرين والتأمل فيه والتنويه به.

نعم، لا لذلك كله رغم أهميته الفائقة.

ولا لأنه نظام شكّل على أساس الفصل بين السلطات.

ولا لأنه طبّق عملياً قبل مائة عام من الآن طريقة الانتخاب السري المباشر لممثلي الشعب عبر صناديق الاقتراع، وصادق على نتائجها، دون تغيير، أو تبديل، أو خلاف، أو شقاق، أو نزاع، أو مشاكل.

ولا لأنه طبق النظرية الدستورية لشكل نظام الحكم، لأول مرة بمقدار ما يسمح به الظرف المتاح على أرض عراقية، وهو ما تبنّاه دعاة (الحركة الدستورية) من المراجع، والمجتهدين، وكبار الأساتذة والفضلاء والوطنيين، ذلك النظام الذي أسسوا نظريته، وأرسوا أسسه، وقنّنوه في كتاب (تنبيه الأمة وتنزيه الملّة) لسماحة الشيخ محمّد حسين النائيني أحد أكابر علماء حوزة النجف الأشرف.

ولا لأن المرجع شيخ الشريعة الأصفهاني هو من ترأس هيأته العليا، المسماة بـ(الهيأة العلمية).

لا، ليس لذلك كله رغم سابقته التاريخية.

ولا لأن الحكومة المشكلة وزعت مناصبها بين أعضائها حسب مؤهلاتهم سياسية، وتجارية، وإدارية، وأمنية، حيث تولى رئاستها السياسي/ الاجتماعي الشيخ جواد الجواهري، وتولى حقيبة المالية التاجر الحاج عبد المحسن شلاش وزير المالية والتجارة في حكومات عراقية عدة في العهد الملكي، وتولى أمر القوة الإجرائية وضبط الأمن الداخلي أحد رؤساء مدينة النجف الأشرف الكفوئين هو السيد مهدي السيد سلمان[١].

ولا لأن الهيأة التأسيسية قررت تشكيل مجلس بلدي من كبار وجهاء النجف أُنيطت به مَهمّة جمع الرسوم، والضرائب، ومنع إصدار المؤن من النجف إلّا بإذن من الحكومية المحلية. وأُسندت أمانة خزانته إلى المتخصص بالشؤون المالية والتجارية الوجيه الحاج عبد المحسن شلاش كما تقدم[٢]، مع العهدة إليه بالإشراف على الأمور الصحية، والقضايا البلدية، فوضع مراقبين صحيين للنظافة، وموظفين ماليين للجباية[٣].

ولا بسب إدراك زعماء الثورة المبكر قبل قرن لأهمية تشكيل جهاز إعلامي

(١) ينظر: ماضي النجف وحاضرها. سابق: والثورة العراقية الكبرى. سابق: ٣٤٢.

(٢) ينظر: ماضي النجف وحاضرها. سابق: ١/ ٣٦٥-٣٦٧.

(٣) الثورة العراقية الكبرى. سابق: ٣٤٢.

نشط فشكّله الثوار بصحيفتين رسميتين ناطقتين باسم ثورة العشرين هما صحيفة (الفرات) وصحيفة (الاستقلال) تعينهما على توصيل رسالتهما الإعلامية مناشير وبلاغات وغيرها مما يستدعيه العمل السياسي بما في ذلك خياطة أعلام للثورة، فقد "كانت في النجف تخاط الأعلام العربية ومنها تنشر في أنحاء الفرات، وبها كانت تطبع المنشورات الحاوية لأخبار المناطق"(١).

ولا لأن قيادة الثورة أدارت المدن المحررة خير إدارة، حتى وصفها بعض المؤرخين بقوله: "أنّ عهد الثورة سواء في طوره الكربلائي، أو طوره النجفي، قد تميز بظاهرة اجتماعية تستحق التقدير، هي استتباب الأمن والنظام، فلم يظهر في هذا العهد أي أثر للغزو، أو قطع الطرق، أو المعارك العشائرية، كما لم يقع فيه نهب لدور الحكومة، أو دور الأهالي، وهي الأمور التي تجري في العراق عادة عندما تضعف سلطة الحكومة المركزية. وكانت في بعض المدن أقليات دينية من اليهود، وغيرهم، وقد لقيت تلك الأقليات رعاية وأمناً طيلة أيام الثورة"(٢)، كما وصفت في قول مؤرخ آخر بأن: "شؤون ثورتهم منتظمة انتظام شؤون الحروب الدولية، وكانت أمورهم مرتبة ترتيب أمور الحكومات الراقية"(٣) كما تقدم.

أعود فأقول: ليس ذلك كله على خطورته، وأهميته، وجدّته، وحداثته، وحسن تنظيمه، وجودة تطبيقه، هو ما دعاني لطلب العكوف عليه والتأمل فيه والوقوف عنده والتنويه به وإيلائه ما يستحقه من إضافة نوعية لتاريخ العراق الحضاري أولاً، ولثورة العشرين ثانياً، ولتصحيح المعلومة التاريخية المغلوطة التي عبئت بها الذاكرة العراقية ثالثاً.

بل، وهو الأهم من كلّ ما تقدّم؛ لأنّ هذا النظام أُسّس وطُبّق لأول مرة في تاريخ العراق الحديث قبل تأسيس الدولة العراقية: نظاماً وطنيّاً عراقيّاً

(١) ماضي النجف وحاضرها. سابق: ١/ ٣٦٧.

(٢) لمحات اجتماعية من تاريخ العراق. سابق: ٥/ ١/ ٢٩٢.

(٣) الثورة العراقية الكبرى. سابق: ٣٤١.

خالصاً، مكتمل الأركان تقريباً، أو شبه مكتمل، حسب ظرفه المتاح على أرض عراقية هي النجف الأشرف، وفق إرادة الشعب الحرة المستقلة، عارياً من كل تدخل أجنبي بأي شكل من الأشكال، سابقاً تشكيل حكومة الاحتلال برئاسة عبد الرحمن النقيب، وسابقاً -طبعاً- لإسناد عرش العراق من قبل الإنكليز للملك فيصل الأول.

فأين هذا النظام الوطني من حكومة الانتداب البريطاني التي وصفها الشيخ محمّد رضا الشبيبي بقوله: "تألفت هذه الوزارة الإسمية في تشرين سنة، ١٩٢٠ وقد وضع لها السير برسي كوكس نظاماً غريباً سماها فيه الحكومة المؤقتة، وجعل شأنها فيه والعدم سواء، لا بل العدم أفضل منها بمراحل كثيرة"[١]؟!

وللتدليل على صحة ما وصف به الشيخ الشبيبي الوزارة العراقية (الإسمية)، سأورد نص المادتين الأولى والعاشرة من لائحة التعليمات الإدارية الصادرة من دار الاعتماد البريطاني والمرسلة للحكومة العراقية بتوقيع المندوب السامي برسي كوكس، والنافذة مدة بقاء العراق تحت الانتداب البريطاني، حيث نصت مادتها الأولى على ما يلي: "يجب أن يعلم مجلس الدولة -مجلس الوزراء- أنه في أي حال حتى انعقاد الجمعية الوطنية من أجل إقرار دستور العراق في المستقبل. إني، المندوب السامي مسؤول شخصياً ومباشرة أمام حكومة جلالته -البريطانية- عن إدارة البلاد. وبناء على ذلك في حالة اختلاف الرأي بيني وبين مجلس الدولة بخصوص قضايا خاضعة للحسم فإن القرار النهائي يعود لي".

وجاء نص المادة العاشرة كما يلي: "تكون جميع قرارات المجلس نهائية خاضعة لي لتصديقها بوصفي رئيساً للدولة. ويجب أن أحتفظ لنفسي بالحق اللازم لي مندوبا سامياً باستعمال الفيتو (حق النقض) أو تعديل بما يلائم أي قرار يصدره المجلس"[٢].

---

(١) مذكرات الشيخ محمّد رضا الشبيبي ورحلاته. سابق: ٣٢٠.

(٢) العراق في سجلات الوثائق البريطانية. سابق. المجلد الثاني. ١٩١٨-١٩٢١: ٤٢٢-٤٢٣، وتنظر ترجمة النص باختلاف جزئي لفظي في كتاب: الثورة العراقية الكبرى. سابق: ٤٢١ و٤٢٤ على التوالي.

وقد أقرت الحكومة هاتين المادتين دون نقاش في جلستها غير الرسمية بتاريخ ١٠ تشرين الثاني ١٩٢٠م، وبتوقيع عبد الرحمن النقيب.

ولم يكتفِ المحتلون بذلك، بل تم "تعيين المستشارين البريطانيين للوزارات، فعيّن فيلبي مستشاراً للداخلية، وسالتر للمالية على أن يعمل في وزارة التجارة، واتكنسون للمواصلات والأشغال، وأيدي للدفاع، والسر بونهام-كارتر للعدل، ونورتن للصحة والتربية، وكوك للأوقاف"، فكأن وزراء حكومة النقيب "على ما يصفهم إيرلاند شيئاً أكثر من الدمى بقليل"[١]، بل وتصفهم المس بيل مستشارة حكومة الاحتلال البريطاني والخبيرة بدائق أمورها في العراق بأنهم: "مجرد أشباح خلقها السير بيرسي" كوكس[٢].

أعود فأقول: أين هذه الحكومة الصورية التي قد يبلغ الصلف بالمستشار الإنكليزي لـ"أن يقتحم مجلس الوزراء ويفرض رأيه، وقد يتجاوزون بتلك السلطة حدودها فترقى إلى صاحب العرش وتفرض ما تريد"[٣]... من حكومة ثورة العشرين الوطنية؟!

***

المطلب الثاني: رأيٌ ومناقشة.

ذهب الباحث الدكتور عباس كاظم في كتابه الموسوم (ثورة ١٩٢٠ قراءة جديدة في ضوء الوثائق التاريخية) إلى أنّ: "دولة العراق الحديثة ظهرت إلى الوجود قبل تتويج الملك فيصل.. عندما أسس العراقيون حكومة مستقلة للإشراف على المناطق المحررة من البريطانيين، وقد عينوا سيد محسن أبو طبيخ أول رئيس، وإن

(١) ثورة العراق التحررية ١٩٢٠. سابق: ٢/ ١٢ نقلاً عن كتاب (العراق دراسة في تطره السياسي. آيرلاند: ٢٣٩).

(٢) العراق في رسائل المس بيل. سابق: ٣٤٩.

(٣) الثورة العراقية الكبرى. سابق: ٤٢١.

يكن على جزء محدود من العراق، ومن المهم القول إنّ سلطته امتدت إلى أكثر من مدينة.. شكلت إدارة أبو طبيخ مؤقتاً في كربلاء.. وقد امتد نطاق سلطتها طبيعياً إلى كل مقاطعة استولت عليها العشائر من البريطانيين"، حيث "طلب إليه قادة الثورة المسير إلى كربلاء والبدء بتشكيل حكومة وإدارة لجميع المناطق المحررة.. تبدأ بالفرات الأوسط وتمتد خلال بقية مناطق العراق"[١]، مستفيداً ذلك من قول السيد أبو طبيخ الملتبس في مذكراته تحت عنوان (حكومة الثورة في كربلاء) حيث قال السيد أبو طبيخ: إنّ الثوار دعوا إلى عقد اجتماع تداولي في الأيام الأولى من شهر ذي الحجة الحرام من عام ١٣٣٨هـ، "في معسكر الحسينية، حضره الرؤساء كافة لمنطقة الهندية، والحلة، وسادة النجف، وأبو صخير، والمشخاب وعشائرها، كما حضر خصيصاً لهذا الاجتماع من كربلاء السيد السند المغفور له هبة الدين الحسيني الشهرستاني، والشيخ محمّد حسن أبو المحاسن، وتدارسوا في اجتماعهم هذا التشكيلات الإدارية لمدن الفرات... فقرر المجتمعون تشكيل حكومة وطنية مؤقتة، واختاروني من بينهم للقيام بهذه المهمة"، وكان ذلك بعد وفاة "المغفور له حجة الإسلام الشيرازي"[٢].

ويروي علي آل بازركان رواية أخرى مختلفة كل الاختلاف لتشكيل متصرفية كربلاء عن رواية السيد محسن أبو طبيخ، بقوله: "حضرت وفود من عشائر كربلاء وما يحيطون بها تشكو من سوء الإدارة فيها، وأخبروا شيخ الشريعة الأصفهاني بذلك...وعلى إثر ذلك أحضر شيخ الشريعة كافة السادة والرؤساء والزعماء أمامه وكنت حاضراً ذلك الاجتماع وكذلك بعض البغداديين هناك، وبيّن لهم حالة كربلاء... وبعد المداولة مع الحاضرين قرّ رأيه على اختيار من بين الحاضرين السيد محسن أبو طبيخ ليذهب إلى كربلاء بصفة متصرف هناك ليقوم بإدارة البلد"[٣].

---

(١) ثورة ١٩٢٠ دراسة جديدة في ضوء الوثائق التاريخية: ٣٥-٣٦ و١٥٦ على التوالي، وتنظر: ص١٦١ و١٦٤.

(٢) مذكرات السيد محسن أبو طبيخ: ١٥٦-١٥٧.

(٣) علي آل بازركان. خاطرات مكتومة لمذكراته. سابق: ٢٢٠.

أما متى حصل ذلك؟ فهناك ثلاث روايات؛ أولاها رواها السيد محسن أبو طبيخ فقال: إنّ تعيينه متصرفاً كان في عيد الغدير (١٨ من ذي الحجة ١٣٣٨هـ) بكربلاء، "وقد جرى الاحتفال في دار البلدية وسط الحشود التي كانت بحدود عشرات الآلاف من النفوس، ورفعت أول علم عراقي على البناية الذي اتخذته صراي (كذا) للحكومة".

ويضيف: "حاولتُ أن أقوم بخدمة الناس بادئ الأمر بالسيطرة على الطعام وتوفير اللازم منه، ليس فقط لأهل المدينة، بل حتى للمجاهدين من أفراد العشائر، أما التنظيمات الإدارية فقد تم تشكيل قوة من الشرطة للمدينة، وعدد من الجُباة لجمع الضرائب والسيطرة على ماء جدول الحسينية الذي كان شحيحاً... ولما كانت تعوزنا الدراهم لإنجاز ما نريد القيام به فقد جاد علينا وجهاء المدينة وتبرعوا بسخاء عندما طلب منهم... كما توصلنا إلى حلّ النزاعات القائمة والشكاوى المختلفة بالأسلوب العشائري الجماعي وذلك بتشكيل مجالس قضاء قامت بواجباتها"[١].

وثاني الروايتين وهي رواية علي آل بازركان وقد حددت ذلك اليوم بـ"يوم الجمعة ٢٤ محرم سنة ١٣٣٩هـ، المصادف ٨ تشرين الأول سنة ١٩٢٠ فرنجية"[٢].

وثالث الروايات، وهي الأصحّ؛ كونها منشورة في جريدة (الاستقلال) الناطقة رسمياً باسم ثورة العشرين عن مراسلها في كربلاء، وفيها: "جاءت الأمة يوم الخميس الماضي ١٣ محرم تشاهد يومها التاريخي الذي قرر المؤتمر العراقي الحربي أن يرفع فيه العلم العربي في كربلاء ويتربع على منصة حكمها أحد رجالها وبطل من أبطالها وهو السيد محسن أبو طبيخ.. أول متصرف عربي نصبته الأمة حسب رغبتها لإدارة لواء كربلاء"[٣].

بيد أنّ ما يشككني كثيراً في ما انتهى إليه الباحث د. عباس كاظم من نتائج

(١) تنظر: مذكرات السيد محسن أبو طبيخ. سابق: ١٥٦-١٦١.

(٢) علي آل بازركان. خاطرات مكتومة لمذكراته. سابق: ٢٢١.

(٣) صحيفة (الاستقلال) الصادرة في النجف يوم الإثنين (٢٧ محرم ١٣٣٩هـ/ ١٠ نشرين الأول ١٩٢٠م).

سأتناولها لاحقاً بعد أن أشير إلى أهمية ما انتهى إليه من إثارة ملفتة للنظر جديرة بالاهتمام، ذهب فيها إلى أن حكومة الثورة أسست أول حكومة وطنية على أرض العراق قبل حكومة الاحتلال، وإني وإن كنت أتفق معه أنّ الثورة أسست أول حكومة وطنية على أرض العراق قبل الاحتلال، بيد أنّي أختلف معه في الحكومة التي شكلتها الثورة، كما تقدم، مناقشاً ما انتهى إليه فيما يلي:

أ. استشهد الباحث على ما ذهب إليه بورود مصطلحات من قبيل مصطلح "حكومة وطنية مؤقتة" ومصطلح "البلد" الواردتين في حديث السيد أبو طبيخ، وخطبة علي آل بازركان، على اعتبار أنهما يوحيان بما هو أوسع من إدارة محلية للواء كلواء كربلاء، كما أنّ رفع علم الثورة في المناسبة نفسها دليل آخر على ما استفاده من نص السيد أبو طبيخ في مذكراته[١]. علماً بأنّ مصطلح (حكومة وطنية) كان يستعمل آنذاك بمعنى (إدارة) شكلها المواطنون للموقع المكاني المحدد. ومصطلح (البلاد) كان يستعمل هو الآخر للمدن التي تتولى تصريف أمورها تلك الإدارة، وقد استعمل المؤرخ الشيخ جعفر محبوبة المصطلحات الثلاثة في حديثه عن إدارة النجف الأشرف بعد طرد العثمانيين الأتراك منها سنة (١٣٣٣هـ/ ١٩١٥م). وإنما أستشهد بقول للشيخ محبوبة لأنه معاصر لتلك الحقبة، وشاهد عليها، ومستعمل عادة لمصطلحاتها السائدة حينها في كتابته، يقول الشيخ جعفر محبوبة: "... وحكم في النجف زعماء المحلات الأربع، وألّفوا (حكومة وطنية) دامت سنتين، سارت سيراً حسناً، وكانت بأيديهم حاصلات (البلاد) توزع على الطوائف النجفية، وهم يولون شؤون (البلاد) من مرافعات ومخاصمات، وما يلزم من كل شيء"[٢].

كما أنّ استعراض الباحث لمسألة رفع علم الثورة في كربلاء من قبل السيد أبو طبيخ للاستفادة منها على أن حكومته كانت حكومة عراقية لكل العراق وليست محلية للواء كربلاء فقط – هي استفادة غير تامة؛ ذلك أنّ علم ثورة العشرين كان

(١) ثورة العشرين دراسة جديدة في ضوء الوثائق التاريخية. سابق: ١٦٤ وما بعدها.

(٢) ماضي النجف وحاضرها. سابق: ١/ ٣٤٢.

رفع في النجف الأشرف قبل ذلك في بيت المرجع الشيخ محمد كاظم الشيرازي ﷺ الذي أصبح بعد وفاته بيت نجله عضو الهيأة العليا للثورة الشيخ مهدي الخراساني، حيث كانت تعقد فيه العديد من الاجتماعات السياسية، وقد أرخ فيه الشاعر الشيخ علي البازي بحضور جمع غفير من العلماء وزعماء الثورة والوطنيين "عام تصوير العلم العراقي وأحداثه، وذلك في (ذي القعدة ١٣٣٨هـ/ تموز ١٩٢٠م)... بعد قراءة الشيخ باقر الشبيبي بيت صفي الدين الحلي:

بيض صـــنائعنا ســـود وقائعنا ... خضـر مرابعـنا حمـر مواضيـنا

قال البازي:

نهض العراق لدفع عادية العدى ... وأمـــامـــه علمـــاؤه الأعـــلام
هتفـت بفتيـاهـا لحفظ كيـانهـا ... فتكـاتفـت وتـآزر الإســـلام
ومـن الـغـري تجهـزت أبـنـاؤه ... بســـلاحهـا مـذ حثّـه الإقـدام
علم العروبـة فعّلتـه بفكرهـا ... وتحـقـقـت في رفـعـه الأحـلام
وإلى الجهـات توجهـت بسـراتها ... أرخ (وقد خيطت لها الأعلام)[١]

يقول عبد الحميد الزاهد أحد رجال الثورة: "وقد كنت عملت علمين عربيين والذي قام بعملهن الخياط السيد ضياء زيني، وقد أشرفت على عملهما بموجب النموذج الذي كان لدى الجمعية السياسية النجفية السرية.. وكان تاريخ عملهما على إثر إطلاق النار وإعلان الثورة في الرميثة. وقد رفع أحدهما السيد ضياء زيني وأحد تلامذته فوق سطح قيصرية الكتبيّة.. وبعد أن انسحبت حامية أبو صخير إلى الكوفة وذلك في العشرة الأولى من تموز ١٩٢٠م.. انتهزت الفرصة وعلقت العلم على المسرجة في الصحن الشريف قبل طلوع الشمس"[٢].

---

(١) شعراء الغري. علي الخاقاني: ٦/ ٣٧٩. وينظر: فصول من تاريخ النجف وبحوث أخرى. سابق: ٤٤٤.

(٢) تاريخ النجف الأشرف. سابق: ٣/ ٢٧٦. نقلاً عن مذكرات عبد الحميد الزاهد: ١١. وماضي النجف وحاضرها. سابق: ١/ ٣٦٥.

ويؤكد الباحث النجفي حسن الأسدي الشاهد على الحدث أيضاً بقوله: "ولمّا وصلت أخبار الرميثة إلى النجف تجمهر الناس في الصحن الشريف ورفعوا الأعلام العربية التي كانوا قد أعدوا في السرعة عدداً كبيراً منها"(١)، ثم بعد ذلك "حمل الجيش الوطني النجفي العلم العربي وسار إلى جبهة المسيب، ثم عمّ استعمال العلم لدى سائر جيوش الثوار"(٢).

وهناك رواية أخرى زعم فيها علي آل بازركان أنه هو من صمم علم الثورة، وقال: "وقد عملت منه عندما كنت في النجف نسخة منه، وأخذته معي إلى كربلاء لأرفعه عندما تولى متصرفية كربلاء السيد محسن أبو طبيخ، فرفعته وألقيت كلمة بالمناسبة".

وقد وصف فيها علي آل بازركان العلم الذي صممه بأنه يتكون من "أربعة ألوان هي الأسود والأخضر والأبيض، مع مثلث جانبي أحمر، تتصدره نجمتان سباعيتان باللون الأبيض. وهو -خلاف الشائع- يختلف عن علم الثورة العربية في الحجاز، وإن استوحيت فكرة تصميمه منه، حيث تشابه معه في الألوان وهندسة وضعها؛ ذلك أنّ علم ثورة العشرين زينته نجمتان سباعيتان باللون الأبيض وضعتا وسط المثلث الجانبي الأحمر، في حين خلا علم الثورة العربية في الحجاز من النجمتين، كما يختلف علم ثورة العشرين كذلك عن علم الحكومة العربية في سوريا ذي النجمة السباعية الواحدة"(٣).

أقول: إذا أطلقنا على حكومة كربلاء المؤقتة برئاسة متصرفها السيد أبو طبيخ (حكومية وطنية عراقية)، فمن الحق أن نطلق على إدارة كربلاء من قبل المجلسين العلمي والمِلّي بأنها أول حكومة وطنية عراقية، كونها سبقت حكومة أبو طبيخ، ولا سيما أن المجلسين كانا يعملان بإشراف المرجع الأعلى الشيخ الشيرازي مفجر الثورة.

---

(١) ثورة النجف على الإنكليز أو الشرارة الأولى لثورة العشرين. سابق: ٣٨٣.

(٢) السيد محمد كاظم اليزدي. سابق: ٤٦٠.

(٣) علي آل بازركان. خاطرات مكتومة لمذكراته. سابق: ٦٣، وتنظر: ٦٢ و٢٢٠-٢٢١ أيضاً.

ب. إن السيد أبو طبيخ عُيّن متصرفاً لكربلاء بعد انتشار الفوضى فيها إثر انحلال مجلس إدارتها بعد وفاة المرجع الأعلى الشيخ الشيرازي، حالها حال بقية المدن المحررة التي أدارت نفسها بنفسها لمنع الفوضى، وهو ما صرح به الشيخ علي الشرقي المعاصر للحدث بقوله: "فلما توفي الميرزا الشيرازي بدأ الحس بظهور الفوضى يتجسم في كربلاء بسبب تنافر بعض العناصر فيها.. فظهرت الحاجة محسوسة إلى وجود شخص ينبغي أن يعترف الجميع باحترامه فوقع الاختيار... على سعادة السيد محسن أبو طبيخ متصرفاً للواء كربلاء"(١)، ما يعني بوضوح أن تعيين السيد أبو طبيخ متصرفاً لكربلاء كان لضبط الوضع الأمني الداخلي فيها بعد "ظهور الفوضى"، وهو ما أشار إليه صراحة السيد محمّد علي كمال الدين أحد مؤرخي الثورة تحت عنوان "مجلس إدارة لواء كربلاء"، ومضمونه واضح من عنوانه، مضيفاً إلى ذلك قوله: "وكان العمل الأول الذي قام به هؤلاء العلماء الأعلام هو تأسيس مجلس إداري في لواء كربلاء، باسم (مجلس إدارة لواء كربلاء)، ثم عيّن لمتصرفية اللواء السيد محسن أبو طبيخ، كما عيّن مديراً عامّاً للشرطة طليفح بن حسون الحسن، ومديراً للتحريرات خليل عزمي"(٢)، ما يعني أن ما أُنيط بالسيد أبو طبيخ هو إدارة كربلاء وضبط الوضع الداخلي فيها، وليس رئيساً لحكومة الثورة في المدن المحررة كلها.

فإذا أضفنا إلى ذلك ما ورد من أن المجلس الحربي قرر التخلي عن إدارة متصرفية كربلاء، ولذلك فقد عيّن "المجلس السيد محسن أبو طبيخ متصرفاً لهذا اللواء"(٣) عرفنا حصر صلاحيات السيد أبو طبيخ بإدارة اللواء لا إدارة كل العراق.

ت. "لم تدم حكومة أبو طبيخ سوى أيام معدودة، فبعد ستة أيام من تنصيبه متصرفاً أو "أربعة أيام" حسب ما ذكره علي آل بازركان بقوله: بعد "أربعة أيام

(١) على هامش الثورة العراقية الكبرى. سابق: ١٢٦.

(٢) ثورة العشرين في ذكراها الخمسين معلومات ومشاهدات. سابق: ١٧٨-١٧٩.

(٣) الحقائق الناصعة في الثورة العراقية. سابق: ٣٧٧.

من تولي السيد محسن أبو طبيخ الإدارة... جاءنا خبر احتلال قصبة طويريج... بيد جيش الاحتلال الإنكليزي"[١]، فأرسلت كربلاء وفداً إلى الإنكليز تعرض خضوعها لهم، واضطر أبو طبيخ إلى الخروج من كربلاء؛ لذلك فمن غير الطبيعي أن نُطلق على حكومة مؤقتة في مدينة حكمها (متصرفها) أياماً معدودات، بأنها أول حكومة وطنية عراقية في تاريخ العراق.

ث. ذهب الباحث الدكتور عباس كاظم إلى أنّ تعيين السيد أبو طبيخ وهو من غير أهل كربلاء متصرفاً لإدارة كربلاء ورئيساً لحكومتها يستشف منه أنه اختير ليكون أول رئيس لحكومة عراقية تشكلت في كربلاء، وليس حكومة محلية برئاسة متصرف للواء كربلاء. وهو توجيه غير تام؛ لأنّ المتصرف لا يشترط فيه عادة أن يكون من أبناء المدينة نفسها، ولو تتبّعنا المتصرفين والقائمقامية الذين تولوا الإدارة أواخر أيام العثمانيين في العراق لوجدنا كثيراً منهم من أبناء مدن أخرى غير المدن التي عيّنوا متصرفين أو قائمقامية فيها. فعلى سبيل المثال: حكم الحلة -بعد الحرب العالمية الأولى أيام العثمانيين- أحد زعماء المنتفق الموالي للعثمانيين هو (العصيمي)، ثم عيّن العثمانيون من بعده على الحلة أحد أفراد أسرة بغدادية معروفة هو (مصطفى أفندي المميز)[٢].

ج. إن المجلس الحربي الذي قرر تعيين السيد أبو طبيخ متصرفاً لكربلاء قرر في الجلسة نفسها تقسيم المناطق إدارياً، "فجعل مدينة كربلاء منطقة، وألحق بها طويريج والنجف وأبي صخير (كذا)، والشامية مع نواحيها، وعيّن المجلس السيد محسن أبو طبيخ متصرفاً لهذا اللواء"[٣] المشكل بتوابعه حديثاً، وبموجب هذا القرار فإن السيد أبو طبيخ من أبناء النجف التابعة بموجب التقسيم الجديد

---

(١) علي آل بازركان. خاطرات مكتومة لمذكراته. سابق: ٢٢٥.

(٢) ينظر: تاريخ الحلة. القسم الأول. الحياة السياسية. الشيخ يوسف كركوش الحلي: ١٦٣.

(٣) الحقائق الناصعة في الثورة العراقية. سابق: ٣٧٧. والإمام الشيخ محمّد تقي الشيرازي يشكل الحكومة الإسلامية. سابق: ٧٤-٧٥.

للواء كربلاء، فالسيد أبو طبيخ من اللواء نفسه لا من خارجه.

ح. إنّ السيد أبو طبيخ باشر أعماله بتسيير أمور لواء كربلاء دون أن يشكل حكومته بوزراء يسند لكل منهم حقيبة وزارية معينة، حاله حال كل المتصرفين الآخرين حين يعينون لإدارة شؤون متصرفياتهم، ولو كان تعيينه رئيساً لحكومة عراقية شاملة للعراق كله لشكّل حكومته بوزراء يسند لكل منهم حقيبته الوزارية، حاله حال كل رؤساء الوزارات في كل الدول، ومنها الدولة العراقية في العهدين الملكي والجمهوري.

خ. إنّ تعيين السيد أبو طبيخ متصرفاً للواء كربلاء ليدير من خلال منصبه المدن المحررة كلها، سواء أكان وقع في يوم الغدير (١٨ ذي الحجة ١٣٣٨هـ/ ٢ أيلول ١٩٢٠م) أم في (١٣ محرم الحرام ١٣٣٩هـ/ ٢٧ أيلول ١٩٢٠م) أم غيرهما على كل الاحتمالات، فهو قد تم بعد تشكيل نظام حكم وحكومة الثورة في النجف الأشرف، ولاحقاً له، سواء أقلنا إنّ حكم وحكومة الثورة في النجف قد تشكلت يوم الأحد (١٥ شوال ١٣٣٨هـ/ ٢ تموز ١٩٢٠م) أم في (١٠ ذي الحجة ١٣٣٨هـ/ ٢٥ آب ١٩٢٠م) على الاحتمالين، والاحتمال الثاني أرجح. فمعنى ذلك أنّ حكومة الثورة في النجف الأشرف وعلى رأسها المرجع الأعلى قد تشكلت قبل حكومة أبو طبيخ في كربلاء، فلماذا اعتبر الباحث عباس كاظم حكومة أبو طبيخ هي حكومة الثورة لكل المدن المحررة دون حكومة النجف الأشرف؟!

د. من المعلوم أنّ تعيين السيد أبو طبيخ متصرفاً للواء كربلاء ليدير شؤون المدن المحررة، وقع بعدماً "انحل المجلس الملّي على أثر وفاة الشيرازي"[١].

إن انحلال المجلس وغيره من الوكالات والنيابات وغيرها بعد وفاة المرجع الشيخ الشيرازي أمر طبيعي يحدث بعد كل وفاة لأي متوفى نتيجة لانتهاء أمد الصلاحيات الممنوحة منه لغيره بمجرد الوفاة، ولذلك انحلّ المجلسان العلمي

(١) لمحات اجتماعية من تاريخ العراق الحديث. سابق: ٦/ ٣٠٠. مجلة رسالة الشرق الكربلائية. العدد الخامس. ١٧ شوال ١٣٧٣هـ.

والملّي بوفاة مؤسسها مباشرة، وفي مقدمة التعيينات والتصرفات والتشكيلات التي تنتهي وتصبح كأن لم تكن، تلك الصلاحيات والتصرفات ذات الجنبة المالية أو الحقوقية التي تحتاج إلى غطاء شرعي وقانوني جديد.

ولنقل إنّ تعيين السيد أبو طبيخ متصرفاً للواء كربلاء وتصرفاته المالية والإدارية وغيرها في كربلاء بحدودها الإدارية قد غُطّيت شرعاً من المرجع الأعلى الخلف شيخ الشريعة الأصبهاني بإذن جديد منه، فمن أين نأتي بالغطاء الشرعي والقانوني لتصرفات السيد أبو طبيخ في مدينة النجف الأشرف مثلاً إذا ذهبنا مع ما ذهب إليه د. عباس من أن السيد أبو طبيخ عُيّن رئيساً لحكومة العراق كله على الرغم من وجود (هيأة علمية) أو (هيأة عليا) يرأسها المرجع الأعلى شيخ الشريعة الأصبهاني تمارس صلاحياتها الشرعية والقانونية تلك الآونة، فتعيّن وتشرّع وتمنع وتسمح وتعاقب وتثيب في حكمها للنجف الأشرف على الأقل وغير النجف الأشرف باعتبارها قائدة للثورة وتشكيلاتها كافة كما تقدم؟!

إن هذه الفقرة الأخيرة والتي سبقتها كافيتان كما أعتقد في الرد على ما انتهى إليه د. عباس من أن السيد أبو طبيخ عُيّن رئيساً لحكومة عراقية تحكم العراق كله، ناهيك عمّا تقدم عليهما من نقاط.

هذا كله إذا اعتمدنا رواية السيد محسن أبو طبيخ لأمر تعيينه متصرفاً، أما إذا اعتمدنا رواية علي آل بازركان التي تنص على أن من عيّن السيد محسن أبو طبيخ متصرفاً هو المرجع الأعلى شيخ الشريعة الأصبهاني لحلّ مشاكل مدينة كربلاء وجوارها خاصة، فسينتهي -باعتماد هذه الرواية- نقاشي مع د. عباس من أساسه.

أما وقد انتهى بي البحث إلى ما انتهى إليه، من أن السيد محسن أبو طبيخ قد عُيّن فعلاً متصرفاً للواء كربلاء بتوابعها الإدارية، وليس رئيساً لحكومة عراقية تمتد صلاحياتها إلى خارج حدود كربلاء، وقد باشر عمله الإداري في كربلاء بما فيه من شؤون مالية وغيرها مما يحتاج معها متوليها إلى إذن من حاكم شرعي يمنحه

الصلاحيات اللازمة للقيام بتلك التصرفات من جهة، وأنّ المجلس الحربي على فرض وجوده قد انتهت صلاحياته حاله حال المجلس الملّي وغيره بمجرد وفاة مؤسسه ومانحه الغطاء الشرعي المرجع الأعلى الشيخ الشيرازي.

فمَن يا تُرى عيّن السيد أبو طبيخ متصرفاً لكربلاء ومنحه الإذن بممارسة الصلاحيات المالية والإدارية اللازمة لعمله الوظيفي؟

لقد أورد الباحث الشهيد الأستاذ عبد الرحيم محمد علي خبراً -خلال تعليقه على كتاب (الأحزاب والجمعيات السياسية في القطر العراقي ١٩٠٨-١٩٥٨) للكاتب عبد الجبار حسن الجبوري- جاء فيه: "لم يكن الشيخ أحمد الملا كاظم الخراساني... من سكنة كربلاء مطلقاً، وإنما كان يتردد عليها خصوصاً إبان ثورة العشرين، لغرض تمشية أمور الثورة، وهو الذي أجلس متصرف الثورة السيد محسن أبو طبيخ على كرسي متصرفية كربلاء بأمر قائدها العام فتح الله شيخ الشريعة"[١].

فإذا ذهبنا إلى ما ذهب إليه علي آل بازركان والشهيد عبد الرحيم محمد علي -وهو وارد- من أنّ السيد طبيخ عُيّن متصرفاً لكربلاء وتوابعها بأمر المرجع الأعلى الخلف شيخ الشريعة الأصبهاني؛ فقد حُلّت القضية المختلف عليها من جميع جهاتها، خاصة وأنّ المؤرخ الشهيد معنيّ بالبحث في تاريخ النجف الأشرف ورجالاتها، وله كتابات عديدة فيها، منها: كتابه عن تاريخ النجف في خمسة مجلدات من جهة، وهو معنيّ أيضاً بوجه خاص بالبحث في حياة ونظريات وآراء المرجع الشيخ محمد كاظم الخراساني رائد الحركة الدستورية في النجف الأشرف من جهة أخرى، خاصة وأنه كتب كتاباً عنه تضمن -في جملة ما تضمن- ترجمة لأنجاله، ومنهم نجله المجاهد الشيخ أحمد الخراساني فذكر في ترجمته أيضاً ما ذكره فيما تقدم من أنه الشيخ أحمد "هو الذي نصّب السيد محسن أبو طبيخ

(١) كتاب قرأته وعلقت عليه. الأحزاب والجمعيات السياسية في القطر العراقي ١٩٠٨-١٩٥٨. منشور ضمن كتاب: فصول من تاريخ النجف وبحوث أخرى. عبد الرحيم محمد علي: ٢/ ٣٦٧.

متصرفاً لكربلاء إبان الثورة في حفل مهيب"[١].

بقي لي أن أعرّج أخيراً على ما أورده الباحث مقدام عبد الحسن فياض اشتباهاً بقوله: "لم يمانع الشيرازي من تنصيب السيد محسن أبو طبيخ... متصرفاً للواء كربلاء، بل باركه، وبعث من يمثله إلى حفل تسليم المنصب"[٢]، في حين أنّ المرجع الأعلى الشيخ الشيرازي كان قد توفّي قبل تنصيب السيد محسن أبو طبيخ متصرفاً لكربلاء -كما تقدم-.

❀ ❀ ❀

(١) المصلح المجاهد الشيخ محمد كاظم الخراساني رائد الحركة الدستورية وباعثها في إيران والعراق ومجدد علم الأصول وراعيه في مفتتح القرن العشرين. منشور ضمن كتاب فصول من تاريخ النجف وبحوث أخرى: ١/ ٤٢٦.

(٢) رؤية المرجعية الدينية ومسارات دورها في بناء دولة العراق المعاصر. الشيخ محمد تقي الحائري الشيرازي أنموذجاً. د. مقدام عبد الحسن الفياض: بحث. ضمن بحوث: دليل فعاليات وبحوث مهرجان فتوى الدفاع المقدسة الثقافي الثالث: ١/ ١٩٩.

الفصل الثامن

إفشال ثورة العشرين للسياسة البريطانية المعدة لحكم العراق بتهنيده أو بوضعه تحت الحكم البريطاني المباشر أو غيرهما

وفيه مقدمة وخمسة مباحث مختصرة:

المقدمة

أنماط من المخططات البريطانية المعدة لحكم العراق

المبحث الأول

تهنيد العراق أو بعضه وإلحاقه بالهند

المبحث الثاني

وضع العراق كله، أو جنوبه، أو البصرة وحدها، أو معها الناصرية، والحي، وبدرة، تحت الحكم البريطاني المباشر

المبحث الثالث

تغيير التركيبة السكانية في العراق عن طريق هجرة واسعة النطاق: هندية أو أسترالية أو مصرية إليه

المبحث الرابع

إعادة هيكلة العراق

المبحث الخامس

إعادة رسم خارطة جديدة للعراق مع دول المنطقة الساحلية

وسأتناولها تباعاً مبتدئاً بالمقدمة

أنماط من المخططات البريطانية المعدة لحكم العراق

إننا لو ألقينا نظرة على بعض ما كان يفكر به أو يرسمه قسم من الضباط والمخططين السياسيين البريطانيين من خطط لوضع العراق، ومنهم السير تي سي ولسون صاحب أرفع منصب بريطاني في العراق خلال الثورة، وقارنّاه بما أجبرهم العراقيون الثوار على التنازل عنه مُكرَهين بفعل الثورة؛ لبان لنا بوضوح ما اضطرتهم الثورة على تغييره رأساً على عقب.

وفيما يلي بعض من سياسات وخطط الحكام والقادة والمسؤولين والسياسيين الإنكليز لوضع العراق قبل الثورة وأثناءها، من قبيل إلحاق العراق ببريطانيا بطريقة مباشرة، أو غير مباشرة من خلال ضمّه للهند، أو تغيير تركيبته السكانية من خلال جلب مستوطنين أجانب وإسكانهم فيه عن طريق هجرة أجنبية واسعة إليه، أو إعادة هيكلة العراق، وغير ذلك، وسأتناولها بإيجاز في أربعة مطالب حيث يناول المبحثان الأول والثاني ما ورد من أنّ قناعة نائب الحاكم البريطاني العام في العراق ولسون "قد تيبست دونما أمل في تغييرها، (أعتقد أن بلاد ما بين النهرين ملك لمن غَزَوْها بصفتها محميّة إمبريالية تحت السلطة المباشرة لبريطانيا)"[1]، سواء أكان ذلك بضمها إلى الهند التابعة لبريطانيا ذلك الوقت، أم بوضعها تحت الهيمنة البريطانية المباشرة. في حين يتناول المبحث الثالث خطط المحتلين لتغيير الطبيعة الديموغرافية للشعب العراقي. أما المبحث الرابع فيستعرض مخطط قوات الاحتلال لإعادة هيكلة العراق. ويقف المبحث الخامس على إعادة رسم خارطة جديدة للعراق مع دول المنطقة الساحلية. وسأتناولها تباعاً مبتدئاً بالمبحث الأول.

❀ ❀ ❀

(١) اختراع الشرق الأوسط الحديث. صناع الملوك. سابق: ١٩٧.

المبحث الأول

تهنيد العراق أو بعضه وإلحاقه بالهند

لقد كانت السياسة البريطانية تخطط لإلحاق العراق بالهند وضمّه إليه، ليكون تابعاً للهند تبعية "ضمّ وإلحاق"، وهي ما كانت عليه "الفكرة البريطانية الأولى في مستقبل العراق.. وكان مونتياغو وزير الدولة لشؤون الهند على رأس هذه الفكرة"[١]. وتبناه صراحة أ. ت. ولسون نائب الحاكم العام في العراق سنة احتلالهم للعراق بقوله في (١٣٣٥هـ/ ١٩١٤م): أودّ أن أعلن أنه من الضروري ضمّ ما بين النهرين إلى الهند كمستعمرة للهند والهنود، موضحاً: أنّ العراق يقع "في طريق الهند، والويل للبلاد التي تقع في طريق الهند، وأنه على فم الخليج العربي الذي يهمّ الهند، وأنّ الجيش الهندي بذل وضحى في سبيل احتلاله، وكان ضباط ذلك الجيش ورفاقهم السياسيون من مدرسة الهند، لهذه الأسباب كلها يُراد أن يكون العراق تابعاً، أو أن يجزأ فيكون جنوبه وفي الطليعة البصرة تابعاً للهند ولمدرسة الهند[٢]. كما سيأتي.

ورغم التطورات السياسية اللاحقة خلال سنوات، فإن فكرة ضم العراق إلى الهند بقيت تعشعش في عقول بعض السياسيين البريطانيين وخاصة مكتب الهند التابع لوزارة الخارجية البريطانية خلال مؤتمر باريس للسلام المنعقد بتاريخ (١٨ كانون الثاني ١٩١٩م/ ١٥ ربيع الثاني ١٣٣٧ هجرية)، حيث "أراد اللوبي الأنغلو-هندي بقيادة السير آرثر هيرتزل تحويل بلاد ما بين النهرين إلى مستعمرة كاملة، ما دام هذا يتماشى إلى حد كبير مع نوايا فرنسا في سوريا"[٣].

---

(١) حول سياسة بريطانيا في العراق ١٩١٣- ١٩٢١. سابق: ٤٤.

(٢) تنظر: ثورة ١٩٢٠ الجذور السياسية والفكرية والاجتماعية للحركة القومية العربية الاستقلالية في العراق. سابق. نقلاً عن رسالة من ولسون إلى الكولونيل س. أ بيتس، عضو البرلمان في ٢٨/ ١١/ ١٩١٤: ٣٩٩.

(٣) ينظر: يقظة العرب: ٣٠١ و٣٠٢.

ويبدو أن مخطط تهنيد العراق لم يكن خافياً حينها على قسم من العراقيين سياسيين وعسكريين. فهذا السياسي العسكري العراقي المعاصر للحدث جعفر العسكري يقول في مذكراته "إنّ الأساليب الإدارية في العراق حينئذ وأفكار موظفي حكومة الهند وآمالهم القوية بربط العراق بالهند وجعله مستعمرة هندية كانت غير خافية عليّ"(١)، وعلى غيره من الوطنيين العراقيين بطبيعة الحال.

بيد أن الثورة العراقية الكبرى في (١٩٢٠م) أو كما سماها أحد شهودها بـ"القومة -هي التي- خذلت فكرة تهنيد العراق"(٢).

وعلى الرغم من وجود اتجاه آخر مخالف لهذا الاتجاه في السياسة البريطانية يومذاك مؤداه النأي بالعراق عن التبعية للهند، وهو ما تغلّب أخيراً، واستوجب من جملة ما استوجب إبعاد العقيد ولسون نائب الحاكم المدني البريطاني في العراق والمتبني لهذا المخطط؛ فإن هناك من يرى بـ"أن سياسة الإنكليز لم تبتعد بروحها عن السياسة الهندية"، يقول الشيخ علي الشرقي الوزير السابق في العهد الملكي والمعاصر للحدث: "لقد كانت ملامح الراجوية تلوح في الاهتمام برؤساء العشائر والكوخات والتمسك بالعادات والعنعنات القديمة.. حتى التشريع العراقي أصبحت تظهر عليه آثار التشريع الهندي"(٣).

ويشير الباحث متي عقراوي إلى زمن انتهاء سيطرة السياسة الهندية على العراق، فيكتب تحت عنوان "معاهدة ٣٠ حزيران سنة ١٩٣٠" ما يلي: "اتجهت السياسة الإنكليزية اتجاهاً جديداً نوعاً مّا بعد سفر السر هنري دوبس، وانقضى العهد الذي يصح أن يسمى بعهد سيطرة السياسة الهندية على العراق"(٤).

---

(١) مذكرات جعفر العسكري: تحقيق: نجدة فتحي صفوت: ١٥٧.

(٢) الأحلام. سابق: ٢١٠، و١٣٦ و٢١٢. وينظر: ثورة النجف على الإنكليز أو الشرارة الأولى لثورة العشرين. سابق: ١١٩، والثورة العراقية الكبرى سنة ١٩٢٠. سابق: ١٠٣، وهامش الصفحة.

(٣) المصدر السابق نفسه: ٢١٠-٢١١.

(٤) العراق الحديث. سابق: ١/ ٥٩.

ويبدو أن فكرة ربط العراق بالهند -سواء بضمه كله أم جنوبه، أم البصرة فقط أم معها مدن عراقية أخرى- كانت مقلقة كثيراً، ليس للعراقيين فقط، بل لبعض الدول الكبرى أيضاً، وفي مقدمتها أمريكا، لذلك نص قرار لجنة (كنج-كرين) -التي عينها الرئيس الأمريكي ويلسون أثناء انعقاد مؤتمر الصلح في باريس سنة (١٩١٩م) خلال حديثه عن تصفية تركة الدولة العثمانية- على: "الحذر من تهنيد بعض مناطق العراق"، كما سيأتي.

❀ ❀ ❀

المبحث الثاني

وضع العراق كله، أو جنوبه، أو البصرة وحدها، أو معها الناصرية، والحي، وبدرة، تحت الحكم البريطاني المباشر

لقد تضمن اتفاق سايكس بيكو الموقّع بين بريطانيا وفرنسا "المبتسر من الناحية الإدارية والذي أثار العويل والصراخ من الناحية الأخلاقية والذي وقّعت عليه كل من بريطانيا وفرنسا في شهر (أيار سنة ١٩١٦م-/ جمادى الثانية ١٣٣٤هـ)- وفضحه الروس للعالم في (تشرين الأول سنة ١٩١٧) -تضمن خلفاً للوعود ونقضاً للعهود، حيث- كانت هذه المواد قد بدت من الناحية الأدبية في الواقع وكأنها كانت موجهة بكل ثقلها ضد نظام حق تقرير المصير بالنسبة للعراق... -كونها نصّت على أنْ- توضع المناطق الوسطى والجنوبية من العراق تحت الحكم البريطاني المباشر"[١]، والمقصود بـ"القسم الجنوبي وهو الذي يبتدئ من شمال بغداد بمسافة قليلة إلى الخليج الفارسي"[٢].

ومن الطريف أن نص اتفاقية سايكس بيكو الوارد في "مذكرة وزارة الخارجية الروسية السرية التي نشرها البولشفيك في جريدة أزفيستيا ونقلتها عنها جريدة المانشستر كارديان في عددها الصادر في ١٩ كانون الثاني ١٩١٨، وهذه المذكرة تشير إلى (مناطق نفوذ) وإلى (استحواذ) الدول الثلاث إنكلترا وفرنسا وروسيا على مقاطعات آسيا العثمانية بعبارات واضحة لا تجدها في رسائل وزارتي خارجية إنكلترا وفرنسا التي كانت موضوعة في قالب ملؤه الحذر. وتذكر المذكرة في الفقرة (٣) بأنّ بريطانيا العظمى (تستحوذ على القسم الجنوبي من العراق بما فيه بغداد...)، الأمر الذي يحملنا على الاعتقاد بأن العظمى كانت تفكر في الاستحواذ والحكم المباشر على جنوبي وادي الرافدين"[٣].

---

(١) العراق الحديث من سنة ١٩٠٠ إلى سنة ١٩٥٠. سابق: ١/ ١٨٧.

(٢) العراق الحديث. د. متي عقراوي: ١/ ٣٢.

(٣) المصدر السابق: ١/ ٣١ هامش رقم ١.

بل إنّ العقيد ولسون نائب الحاكم المدني البريطاني في العراق كتب في عام ١٩١٤ يقول: "أعتقد أنّ العراق تحت الحكم البريطاني المباشر ستصبح جوهرة متلألئة في التاج البريطاني"(١).

و"راح يلحّ ويشدد القول بأنه لا يوجد شيء ما سوى إيجاد إدارة بريطانية صارمة.. يجب أن يحكمها السير برسي كوكس لمدة خمس سنوات ومن دون أي أمير إطلاقاً"(٢)، أو من خلال استمرار الحكم البريطاني للعراق بأي صيغة أخرى من الصيغ(٣)، فمن ذلك إرسال العقيد ولسون برقية في (٦ ربيع الأول ١٣٣٧هـ/ ١٠ كانون الأول ١٩١٨م) إلى وزير الهند جاء فيها: "إني أسلم بأنه يجب أن يكون من سياستنا في ظروف السلم أن نحافظ على بلاد ما بين النهرين خاضعة للسيطرة البريطانية"(٤). أو بتعبير أوضح ورد في (سجلات الوثائق البريطانية) قوله بعد نشر الإعلان الأنكلو-فرنسي: "إننا في ظروف السلام علينا أن نتولى أمر وجوب بقاء العراق إسفيناً لإقليم تسيطر عليه بريطانيا، غير مماثل سياسياً لبقية العالم العربي والإسلامي"(٥).

كما كتب ولسون أيضاً "لقد ألححت كما فعل السير برسي كوكس في (١٩١٧)، على اعتبار ولايات البصرة وبغداد والموصل كوحدة منفردة للأغراض الإدارية تحت سيطرة بريطانيّة فعّالة"(٦)، أو من خلال تنصيب حاكم بريطاني على العراق المسلم(٧) يساعده ضباط إنكليز في حكم الألوية.

---

(١) اختراع الشرق الأوسط الحديث. صناع الملوك. سابق: ٢٤٢.

(٢) العراق الحديث من سنة ١٩٠٠ إلى سنة ١٩٥٠. سابق: ١/ ١٨٨-١٨٩.

(٣) ينظر: الأحلام. سابق: ٧١ و٧٢ و٨٠. وينظر أيضاً: اختراع الشرق الأوسط الحديث. صناع الملوك. سابق: ٢٢٤.

(٤) العراق شهادة سياسية ١٩٠٨-١٩٣٠. سابق: ٤٣.

(٥) العراق في سجلات الوثائق البريطانية. سابق. المجلد الثاني ١٩١٨-١٩٢١: ٣٧٤.

(٦) ثورة ١٩٢٠ الجذور السياسية والفكرية والاجتماعية للحركة القومية العربية الاستقلالية في العراق. سابق: ٢٩١.

(٧) ينظر: الثورة العراقية الكبرى. سابق: ٧٠.

هذا إضافة إلى وجود مخططات بريطانية أخرى من قبيل إبقاء البصرة، والناصرية، وشط الحي، وبدرة بحدودها الغربية والشمالية، تحت الإدارة البريطانية بصورة دائمة[١]، أو فصل البصرة عن العراق ووضعها تحت الهيمنة البريطانية المطلقة المباشرة[٢] وأمثال ذلك.

وقد ذكر المؤرخون أنّ احتلال الجزء الجنوبي من العراق كان قد خُطّط له منذ سنوات قبل وقوعه في سنة ١٩١٤، بل "يظهر أنّ السلطات البريطانية كانت تتوقع القيام بحركات حربية في جنوبي العراق منذ سنة ١٩١١م، وقد تألّفت لذلك لجنة قدمت اقتراحاً باحتلال الفاو والبصرة... فنرى من ذلك أنّ الإنكليز كانوا يستعدون لاحتلال وادي الرافدين قبل الحرب العامة بثلاث سنوات وربما قبل ذلك بكثير"[٣].

لقد وصل الأمر بالمحتلين الإنكليز إلى حدّ أن العقيد أ. ت. ولسون نائب الحاكم البريطاني العام في العراق -المتقدم ذكره- قد كتب دستوراً للعراق أسماه "العراق: دستور المستقبل"، وأرسله بكتاب سري مؤرخ في (٥ رجب ١٣٣٧هـ/ ٦ نيسان ١٩١٩م) إلى جهاته الإدارية العليا بادئاً إيّاه بما يلي "سيدي جواباً على برقيتكم في ١٣ شباط -١٩١٩م- تطلبون فيها مقترحات عن إدارة المستقبل في العراق"[٤].

لقد بدا ذلك، بل "ظهر بأن عمل الدوائر المدنية البريطانية ومشروعاتها كانت تشير إلى احتلال دائم للعراق"[٥]. وهو ما نصّت عليه اتفاقية سايكس-بيكو، حيث منحت الحق لبريطانيا باستلحاق العراق كله، أو أي جزء منه تجد مصلحتها

---

(١) ينظر: نص رسالة وزير الهند في لندن إلى الدوائر العسكرية والملكية في العراق بتاريخ ٢٩ آذار ١٩١٧م في: كتاب (الثورة العراقية الكبرى). سابق: ٤٠٢. وكتاب (ثورة النجف). سابق: ٢١٥.

(٢) ينظر: الثورة العراقية الكبرى. سابق: ٢٢ و٣٩. والعراق الحديث من سنة ١٩٠٠ إلى سنة ١٩٥٠. سابق: ١/ ١٩١.

(٣) العراق الحديث. متي عقراوي: ٢٨. هامش رقم ٢.

(٤) العراق في سجلات الوثائق البريطانية. سابق. المجلد الثاني ١٩١٨-١٩٢١: ١٩٣. لزيادة التفصيل: تنظر الصفحة ١٩٣ وما بعدها، مع التركيز على ص١٩٨-١٩٩ و٢٢٨-٢٣١.

(٥) العراق الحديث من سنة ١٩٠٠-١٩٥٠. سابق: ١/ ١٩٢.

في استلحاقه، فالأمر متروك لها وحدها لتقرره حسب ظروفها ومصالحها[١].

ومن خلال ملاحظة المخططين المتقدمين للعراق يظهر بوضوح أنّ هذا الطرح الأخير يختلف عن الطرح الذي سبقه، ذلك أنّ كِلا السياستين تُبقيان العراق كله أو بعضه تحت السيطرة البريطانية: إما المباشرة، أو من خلال ضمّه للهند التابعة للحكم البريطاني المباشر، وقد ظهر الخلاف بين الساسة الإنكليز حول الانسحاب من مناطق العراق عدا البصرة، أو الجنوب كله وصولاً إلى بغداد أو الإبقاء على العراق كله تحت الانتداب.

فقد أجاب رئيس الوزراء لويد جورج "أثناء جدل بمجلس العموم في مارس ١٩٢٠ بادر به سلفه ومنافسه زعيم حزب العمال الليبرالي هربرت اتيش اسكويث الذي حث وبدعم من السير طاوزند (نفس الجنرال الذي كان قد استسلم بمدينة الكوت ثم اختير من جديد كنائب بالبرلمان) على قصر سلطة بريطانيا على منطقة البصرة. وجد لويد جورج أنّ من المستغرب أن يقترح أي أحد التخلي عن الموصل الواعدة والغنيّة بالنفط"[٢].

ثم أضاف لويد جورج رئيس الوزراء البريطاني التفاصيل التالية: ماذا سيحدث إذا انسحبنا؟ بعد التكلفة الهائلة التي تحملناها لكي نحرر ذلك البلد من طغيان الأتراك المهلك... سيكون فعل حماقة لا يمكن الدفاع عنه"[٣].

وهو ما نشرته الصفحة الأولى من العدد الأول من جريدة (الاستقلال) النجفية -الناطقة بلسان ثورة العشرين- الصادر في (محرم ١٣٣٩هـ/ الأول من تشرين الأول لسنة ١٩٢٠م) بقولها: "وصل كوكس لندن والنزاع قائم بين حزبي أسكويت القائل بتخلية بغداد والانسحاب نحو البصرة، ولويد جورج الذي يرى لزوم

---

(١) يقظة العرب. سابق: ٣٥٠-٣٥١. وتنظر: خارطة تقسيم العراق وسورية حسب اتفاقية سايكس بيكو لسنة (١٩١٦م) في المصدر نفسه: ٣٥٣.

(٢) اختراع الشرق الأوسط الحديث. صناع الملوك. سابق: ٢٠٨.

(٣) المصدر السابق نفسه.

استعمال القوة لإخماد ثورة العراقيين الاستقلالية والاحتفاظ بالعراق أبدياً، على الرغم من جميع المعاهدات والتصريحات التي تقضي باستقلاله وتركه لأبنائه"[١]. ويمكن للمحلل أن يستنتج خطة الاحتلال البريطاني الدائم للعراق من طريقة عمل "الدوائر المدنية البريطانية ومشروعاتها" التي "كانت تشير إلى احتلال دائم... كما ذكرت الأنباء أيضاً أنّ النساء والأطفال البريطانيين قد أخذوا يتوافدون على البلاد، وكأنهم ذاهبون إلى إحدى المستعمرات البريطانية"[٢].

ويبدو أن موضوع إلحاق العراق ببريطانيا كان مطروحاً بقوة بحيث استدعى من (لجنة كنج-كراين)- المتقدم ذكرها سابقاً أن تؤكد في توصياتها الخاصة بالعراق الصادرة في (٢٨ آب ١٩١٩م/ ١ ذي الحجة ١٣٣٧هـ) والمرفوعة إلى مؤتمر الصلح في باريس بصريح العبارة بـ: "أن لا يضاف أي إقليم جديد إلى الإمبراطورية البريطانية"[٣].

❀ ❀ ❀

(١) صورة الصفحة الأولى من العدد الأول من الصحيفة منشورة في كتاب: ثورة العشرين في ذكراها الخمسين معلومات ومشاهدات. سابق: ٨١.

(٢) العراق الحديث من سنة ١٩٠٠ إلى سنة ١٩٥٠. سابق: ١/ ١٩٢.

(٣) نهضة العرب. سابق. الملحق (ح) الخاص بعرض نص توصيات لجنة كنج-كراين الخاصة بسوريا وفلسطين والعراق: ٦٢١.

المبحث الثالث

تغيير التركيبة السكانية في العراق عن طريق هجرة واسعة النطاق: هندية أو أسترالية أو مصرية إليه

سبق أن نقلت نصّاً لنائب الحاكم المدني البريطاني للعراق العقيد ولسون في (١٠ محرم ١٣٣٣هـ/ ٢٨ تشرين الثاني ١٩١٤م) جاء فيه "أود أن أعلن أنه من الضروري ضمّ ما بين النهرين إلى الهند مستعمرة للهند والهنود".

وسأنعطف هنا لأنقل تتمة لحديثه تضمّن تغييراً للتركيبة السكانية لبلاد ما بين النهرين مقترحاً فيه بأن "تقوم حكومة الهند بإدارتها وزراعة سهولها الواسعة بالتدريج، وتوطين أجناس البنجاب المحاربة فيها"[١]، "وتيسير الهجرة من (الهند)، و(أستراليا)، وغيرهما إلى العراق، لإخراجه من صبغته العراقية"[٢].

وقد أشارت مذكرة سرية بعثتها القنصلية البريطانية في بغداد إلى الخارجية البريطانية في لندن بتاريخ (١٩ ذي الحجة ١٣٣٣هـ/ ٢٨ تشرين الأول ١٩١٥م) -الموقفين العسكري والسياسي في العراق- إلى قضية توطين الهنود في العراق فأثبتت تحت عنوان "التوطين" ما يلي: "بتعبيري هذا أنا لا أرفع صوتي محتجّاً على التوطين النزيه للهنود، ولكن بشرط أن يبقى الجهاز الإداري منوطاً بالعراقيين والبريطانيين. ولا يمكن الاعتراض على ما سيخصص من أراضٍ إلى المزارعين الهنود في مناطق حيث السكان قلة... وعلى الهنود تحت تلك الظروف إمّا أن يستقروا في مجتمعات منفصلة، أو أن يختلطوا بالناس ويصبحوا جزءاً من العراق"[٣]،

---

(١) ينظر: ثورة ١٩٢٠ الجذور السياسية والفكرية والاجتماعية للحركة القومية العربية الاستقلالية في العراق. سابق، نقلاً عن رسالة من ولسون إلى الكولونيل س. أ بيتس، عضو البرلمان في ٢٨/ ١١/ ١٩١٤م: ٣٩٩.

(٢) الثورة العراقية الكبرى. سابق: ٢٢.

(٣) العراق في الوثائق البريطانية.١٩٠٥- ١٩٣٠. سابق. المجلد الثاني ١٩١٨-١٩٢١: ١٣٨. وينظر نصّ الوثيقة الرسمية.

وذلك من أجل "إنشاء مستوطنة هندية في العراق"[١]، أو بعبارة الباحثين كارل إي. ماير وشارين بلير بريزاك: "جعل العراق محميّة بريطانية يستعمرها مهاجرون هنود"[٢].

وقد كان "السير ويليام ويلقوقس (أحد مروجي سياسة الاستعمار) قد قال في محاضرة ألقاها أمام الجمعية الجغرافية في القاهرة فيما يتعلق بإحياء وسائط الري القديمة وإعمار العراق: (... يجب جلب الملايين من فلاحي مصر والهند وإسكانهم في تلك الديار لجعلها كنسخة ثانية من مقاطعة بنجاب، ولا يتم إعمار العراق إلّا بتلك العمال والفلاحين)"[٣].

وتبدو جدية هذا الطرح وخطورته من خلال وروده ضمن توصيات لجنة (كنج-كرين) -المشار إليها أعلاه- في الفقرة الخامسة من التوصيات بالنص التالي: "وفي بلد كالعراق وافر الغنى بالإمكانات الزراعية والبترول وغيره من المصادر سيلوح حتميّاً خطر الاستثمار والسيطرة الاحتكارية من قبل الدولة المنتدبة عن طريق فرض سيادة المصالح البريطانية، وخاصة عن طريق هجرة هندية واسعة النطاق، فهذا الخطر يتطلب احترازاً متزايداً ونزيهاً. وإنّ العراقيين ليشعرون شعوراً قويّاً بحدّة هذا الخطر وبخاصة خطر الهجرة الهندية، حتى لو اقتصرت الهجرة على المسلمين الهنود. فهم يتخوفون من التمازج بشعب آخر من عرق متباين وعادات مختلفة كلية باعتباره يهدد حضارتهم العربية"[٤].

❀ ❀ ❀

(١) غسان العطية: ١٧٤-١٧٥.

(٢) اختراع الشرق الأوسط الحديث. صناع الملوك. سابق: ٣٣٥.

(٣) تاريخ مقدرات العراق السياسية. محمد طاهر العمري الموصلي:١/ ٣١-٣٢.

(٤) يقظة العرب. سابق. للوقوف على نص توصيات لجنة كنج-كراين الخاصة بسوريا وفلسطين والعراق: ينظر: الملحق (ح) الخاص، ص٦٢١.

المبحث الرابع

إعـادة هـيـكـلـة الـعــراق

أوّلاً: لقد أجملت برقية أرسلها وزير الهند في لندن إلى سكرتير الشؤون في (سملا) مقر نائب الملك في الهند، وإلى الدوائر العسكرية والملكية البريطانية في العراق بتاريخ (٢٩ آذار ١٩١٧م/ ٥ جمادى الثانية ١٣٣٥هـ) بعد احتلال الإنكليز لبغداد، أجملت رؤيته بنقاط محددة جاء في بنودها: الثاني، والثالث، والرابع، والخامس، والسابع، وهي البنود التي تهمنا في هذا العرض، وهي كما يلي:

البند الثاني: "تبقى البصرة، والناصرية، وشط الحي، وبدرة بحدودها الغربية والشمالية، تحت الإدارة البريطانية بصورة دائمة.

البند الثالث: تكون بغداد مملكة عربية يديرها حاكم أو حكومة من أهلها تحت حماية بريطانية، في كل شيء، إلّا الاسم فإنه يبقى عربيّاً، وبطبيعة الحال لن تكون لها علاقة مع الدول الأجنبية التي يجب على قناصلها أن يقدموا براءتهم إلى الحكومة البريطانية.

البند الرابع: تدار بغداد (خلف ستار عربي، كأقليم عربي، بقدر المستطاع) بواسطة وكالة وطنية، وفقاً للقوانين والشرائع الموجودة.

البند الخامس: في حالة ما إذا كانت البصرة لم تلحق ببغداد، فإن رئيس الإدارة العراقية العام يكون (المندوب السامي المقيم في بغداد)، وتكون البصرة تحت إدارة حاكم يرتبط به. أما إذا أُلحقت بها فإن رئيس الإدارة العراقية يسمى آنئذ (حاكم البصرة ومندوب العراق السامي)، على أن يكون له مقر اسمي في البصرة، أما إقامته الدائمة فتكون في بغداد، ويكون له وكيل حاكم في البصرة، ووكيل مندوب في بغداد، فينوبان منابه عند غيابه.

البند السابع: تكون -لـ-(أماكن الشيعة المقدسة) إدارة مستقلة، غير خاضعة

للهيمنة البريطانية المباشرة، على أن ينتبه إلى عدم إدخال أراضي سقي، أو قابلة للسقي فيها"[١].

يذكر أن بعض أهالي البصرة كانوا طرحوا على المحتل البريطاني خطة فصل البصرة من خلال منحها استقلالاً سياسيّاً عن العراق تحت إشراف أمير العراق، على أن تكون الرابطة بين البصرة والعراق وحدة يطلق عليها اسم (ولايتي العراق والبصرة المتّحدتين)[٢].

وقد نقلت المس بيل في رسائلها طلباً لأهل البصرة عرضوه عليها قائلة بأنه زارها وفد كبيراً منهم طالباً مقابلة المعتمد السامي ليعرض عليه مطالب أهل الثغر، وهي تتلخص في أن يكون الملك فيصل ملكاً مشتركاً للعراق والبصرة، على أن يكون للبصرة مجلس تشريعي خاص مع جيش وإدارة وشرطة، وأن تجبى الضرائب وتصرف من قبلها، وعلى أن تساهم في مساعدة الإدارة المركزية في بغداد مساعدة مالية معقولة، وأن الوفد البصري طلب مساعدتها في تحقيق رغائب البصريين فلم يسعها غير تقديمه إلى المعتمد السامي البريطاني[٣].

ثانياً: إنشاء دولتين مستقلتين ومنفصلتين في العراق لنجلي الشريف حسين

لقد قدم الكولونيل لورنس إلى وزارة الحرب البريطانية اقتراحاً في (٤ تشرين الثاني ١٩١٨م/ ٢٩ محرم ١٣٣٧هـ) يتضمن أن تنشأ في العراق دولتان مستقلتان منفصلتان تخصص إحداهما للشريف زيد بن الحسين، والأخرى للشريف عبد الله، نجلي الشريف حسين، مضيفاً على المقترح السابق

(١) الثورة العراقية الكبرى. سابق: ٤٠٢-٤٠٤ نقلاً عن أيرلاند: ٩٦- ٩٧. وينظر: الثورة العراقية الكبرى سنة ١٩٢٠. سابق: ١٥٠. نقلاً عن: العراق. آيرلاند: ٦٣.

(٢) ينظر: وثائق الثورة العراقية الكبرى. سابق: ٥/ ٤٧-٥٠. نص المذكرة المرفوعة من بعض وجهاء البصرة بمن فيهم أحمد باشا الصانع متصرف لواء البصرة وناجي بك السويدي إلى السير برسي كوكس المندوب السامي البريطاني في العراق في ٣١/ ٦/ ١٩٢١م، وينظر: تاريخ القضية العراقية. سابق. ط٢: ٢٣٢-٢٣٦.

(٣) ينظر: الثورة العراقية الكبرى. سابق: ٤٦٤.

تحديد عاصمتيهما، وكما يلي:

أ- "دولة شمال العراق تكون عاصمتها الموصل وتحت إمارة زيد.

ب- دولة جنوب العراق. تكون عاصمتها بغداد وتحت إمارة عبد الله على أن يمنح الشريف حسين لقب أمير المؤمنين، ويذكر اسمه في الصلاة في المساجد"[1].

❀ ❀ ❀

(١) حول سياسة بريطانيا في العراق ١٩١٣-١٩٢١. سابق: ٤٧. وقد أشار المقترح إلى دولة ثالثة في سوريا أعرضت عن ذكرها لأنها خارج نطاق البحث.

المبحث الخامس

إعادة رسم خارطة جديدة للعراق مع دول المنطقة الساحلية

إعادة هيكلة العراق ومعه بعض دول المنطقة الساحلية من خلال تقسيمها إلى أقسام تشبه نظام (الراجويات) في الهند، وسأقتبس من القرار ما يخص ربط دول المنطقة بالعراق بهيكلية جديدة وردت في البند التاسع منه وفق ما وردت في برقية وزير الهند في لندن إلى سكرتير الشؤون في (سملا) مقر نائب الملك في الهند، وإلى الدوائر العسكرية والملكية البريطانية في العراق بتاريخ (٢٩ آذار ١٩١٧م/ ٥ جمادى الثانية ١٣٣٥هـ) بعد احتلال الإنكليز لبغداد، وقد تقدم ذكر ما يخص هيكلة العراق وحده منها سابقاً.

البند التاسع: "تُدار الكويت والبلاد العربية الساحلية، بما فيها عمان، من قبل البصرة"[١].

وربما هناك خطط أخرى غير ما تقدم لا مجال لذكرها هنا خشية الإطالة.

***

هذه بعض خطط البريطانيين -قبل الثورة وأثناءها- التي أفشلتها الثورة وأحبطتها بل وأقبرتها.

غير أني يحسن بي وأنا في ختام هذا البحث أن أشير إلى اقتراح بريطاني غريب طُرح بعد انتهاء الثورة من قبل الدائرة السياسية في وزارة الهند للتداول في (٦ جمادى الثانية ١٣٣٩هـ/ ١٥ شباط ١٩٢١م) يكشف عن مدى التخبط الذي اعترى المسؤولين البريطانيين ربما نتيجة للكلف السياسية والمادية الباهظة التي تحملتها خزينة الدولة البريطانية بسبب اشتعال نار الثورة؛ ما جعلها في وضع لا يسمح للمحتل باستمرار تحمّلها من جهة، وللخسائر الجسيمة البشرية والسياسية التي كابدتها جراء إنهاء الثورة.

---

(١) تاريخ العراق السياسي الحديث. سابق: ١/ ١٨٣.

أما الاقتراح الغريب الذي أشرت إليه، فهو "السماح لتركيا أن تحكم العراق تحت إشراف بريطاني... وإذا ما أمنوا -أي العراقيون الثائرون ضد تركيا سابقاً من- الانتقام، فلعلهم يفضّلون عودة الأتراك على الخضوع إلى حاكم من الأشراف، أو حتى إدارة عربية تحت حكم أمير تركي"[1].

❀ ❀ ❀

(١) العراق في سجلات الوثائق البريطانية. سابق. المجلد الثاني ١٩١٨-١٩٢١: ٤٤٤.

الفصل التاسع

صدى ثورة العشرين
في داخل بريطانيا وخارجها

وفيه مبحثان هما:

يتناول هذا الفصل مباحث ثلاثة هي:

المبحث الأول

صدى ثورة العشرين في الداخل البريطاني

المبحث الثاني

صدى ثورة العشرين في الدول الخارجية

وسأتناولهما تباعاً مبتدئاً بالمبحث الأول منهما

لقد أجبرت ثورة العشرين بمرجعيتها الدينية وعشائرها ومناطقها الثائرة الدولة البريطانية العظمى على تغيير سياستها وخططها تجاه العراق، تغييراً جذريّاً، وهو ما اعترف به صراحة بعض الباحثين والسياسيين البريطانيين، وسأقتصر على ذكر اثنين منهم خشية الإطالة:

أولهما: المستشارة البريطانية المس غيرترود بيل، التي قالت: "لم يكن يدور بخلد أحد، ولا حتى حكومة صاحبة الجلالة أن يمنح العرب مثل الحرية التي ستمنحهم إياها الآن كنتيجة للثورة"[1]، وتقصد بها (ثورة العشرين). أو بترجمة أخرى لقول المس بيل بأنه "لم يكن أحد بإطلاقه، ولا حتى حكومة جلالته، ليفكر في إعطاء العرب حرية التصرف في شؤونهم بهذه الدرجة كما سنفعل الآن نتيجة للتمرد"[2].

وثانيهما: الضابط البريطاني والمفتش الإداري في الحكومة العراقية حينها المستر ستيفن هيمسلي لونكريك، الذي قال: "إنّ التمرد رغم أنه قمع، كان حرباً وطنية من أجل الاستقلال، وهو المسؤول مباشرة عن إجبار الحكومة البريطانية على تشكيل حكومة عربية، ومنح الاستقلال في الأخير"[3] للعراق. وسأتناول ذلك في مبحثين:

---

(١) ثورة ١٩٢٠ الجذور السياسية والفكرية والاجتماعية للحركة القومية العربية الاستقلالية في العراق. سابق: ٣٩٩.

(٢) اختراع الشرق الأوسط الحديث. صناع الملوك. سابق: ٢٥٢.

(٣) ينظر: ثورة ١٩٢٠ قراءة جديدة في ضوء الوثائق التاريخية. سابق: ٣٣. ويشير د. عباس في الصفحة نفسها إلى أنّ كُلّاً من آرنولد توينبي وكوينسي رايت صادَقا على هذا الرأي أيضاً.

المبحث الأول

صدى ثورة العشرين في الداخل البريطاني

لعل من جملة أسباب إجبار بريطانيا على تغيير سياستها في العراق، "والاستعجال في تأسيس الحكم الوطني" ذلك الصدى المؤثر والكلفة البشرية والمعنوية والمادية الباهضة التي تحملتها بريطانيا نتيجة ثورة العشرين، ليس في داخل بريطانيا فحسب، بل في خارجها أيضاً.

ففي البرلمان البريطاني "أثارت -ثورة العشرين- جدلاً عنيفاً"[1] توزعته وجهتا نظر متعارضتان:

"**الأولى** بزعامة أسكويث القائلة بتخلية بغداد، والموصل، والانسحاب نحو البصرة فوراً؛ لتقليل الخسائر بالأرواح والمعدات. **والثانية** بزعامة لويد جورج القائلة بلزوم استعمال القوة لإخماد ثورة العراقيين الاستقلالية"[2] بالقوة المسلحة وإن أدت إلى ما ستؤدي إليه من خسائر.

وحين طالبت الكتلة المعارضة للحكومة بالانسحاب من العراق و"الجلاء عن العراق بأجمعه... بحجة أن الاحتفاظ بالعراق يكلف دافع الضرائب البريطاني كثيراً ويمكن لبريطانيا أن تحافظ على وضعيتها باستبقاء البصرة في يدها"[3]، رد رئيس الوزراء البريطاني لويد جورج عليهم بقوله: إنّ ولاية الموصل العراقية غنيّة بالنفط، وحالما تنسحب بريطانيا من العراق تحلّ محلّها دولة أخرى.

وفي (٦ شوال ١٣٣٨هـ/ ٢٣ حزيران ١٩٢٠م) تقدم المستر أسكويت زعيم حزب الأحرار المعارض ورئيس الوزراء البريطاني السابق باقتراح الانسحاب من

---

(١) العراق الحديث. سابق: ١/ ٤٤.

(٢) لمحات اجتماعية من تاريخ العراق الحديث: ٥/ ٣١٦ نقلاً عن جريدة الاستقلال العراقية. العدد ١ لسنة تشرين ١ ١٩٢٠ م، وثورة ١٩٢٠ سابق: ٢٣٢.

(٣) العراق الحديث. سابق: ١/ ٤٤.

العراق قائلاً: إذا نظرنا إلى أحوال البلاد وما نحن عليه من الضيق المالي، حكمنا دون تردد أننا ساعون إلى تكليف أنفسنا فوق طاقتها، فرد عليه المستر لويد جورج بقوله: أمن المعقول أننا بعد كل هذه الجهود التي قمنا بها نغادر العراق تاركين كل شيء خوفا وسأما من ثقل حملها؟![١]

ووقف بونارلو في مجلس العموم البريطاني بعد انتهاء الحرب ليقول: "أتمنى لو أننا لم نكن قد ذهبنا إلى العراق أصلاً"[٢].

لقد لخصت صحيفة (التايمز) البريطانية اتجاهات الرأي العام البريطاني وبرلمانه والحكومة البريطانية بقولها: "نحن نعلم بأن الوزارة بأجمعها تعترض على حملة ما بين النهرين، هناك عضوان فقط من أعضاء الوزارة يعيقان إلغاء هذا المشروع باهظ التكاليف، لقد كانت أوساط الرأي العام الإنكليزي تطالب بإصرار متزايد بسحب القوات البريطانية في العراق، فقد أورد هنري فوستر عن مناقشات دارت في البرلمان البريطاني في (٨ ذي القعدة ١٣٣٩هـ/ ١٤ تموز ١٩٢١م) جاء فيها أنّ "ما صرفته بريطانيا في العراق بلغ (١٠٠) مائة مليون باون إسترليني في المدة بين إعلان الهدنة ومؤتمر القاهرة، وأن نصيب السنة (١٩١٩-١٩٢٠) من تلك المصروفات ناهز مبلغ (٧٥) خمس وسبعين مليون باون استرليني[٣]. وإن كان المتداول أنها صرفت (٤٠) أربعين مليون باون. وهو ما أدى إلى أن تكتب بعض الصحف البريطانية ومنها صحيفة (التايمز)، تقول: "يجب أن يوضع حدّ لهذه الحماقة، ويجب على الحكومة تغيير سياستها في الشرق الأوسط"[٤].

لقد ورد في المحضر الرسمي الخامس والعشرين للجنة المالية في مجلس النواب

---

(١) ينظر: الثورة العراقية الكبرى سنة ١٩٢٠. سابق: ٢٠٩. والعراق الحديث. سابق: ١/ ٤٤.

(٢) لمحات اجتماعية من تاريخ العراق الحديث. سابق: ٤/ ٤٠٠.

(٣) العراق شهادة سياسية ١٩٠٨-١٩٣٠. سابق: ٥٤ نقلاً عن مقدمة في دراسة العراق المعاصر. زكي صالح: ٣٣. وشيعة العراق وبناء الوطن. سابق: ٥٢٩ نقلاً عن العراق في سنوات الانتداب البريطاني: ١٧١.

(٤) تاريخ العراق المعاصر. د. جعفر عباس حميدي وإبراهيم خليل أحمد: ٢٥.

البريطاني في (٣ آب ١٩٢٠م/ ١٨ ذي القعدة ١٣٣٨هـ) ما يتعلق بالمعركة الكبرى التي وقعت قرب الحلة في (٢٤ تموز ١٩٢٠م/ ٨ ذي القعدة ١٣٣٨هـ)؛ أنّه نتج عنها نحو (٣٠٠) إصابة، نسبة كبيرة منها إصابات لمنتسبين من الجنسية البريطانية. ونقل المحضر أيضاً عن السير برسي كوكس إعرابه عن رأيه بـ: "إن التنازلات التي تمت عند الاندحار لم يتحسن -بموجبها- أي وضع، واقترح أنّ أفضل أسلوب هو تركيز يعزي عدم الاستقرار في العراق بصورة رئيسة... إلى الشك في ما يتعلق بتأسيس إدارة وطنية... أعتقد أن تعيين الأمير فيصل ينفع كثيراً في تهدئة البلاد، ويمكننا أن نقلل القوات العسكرية بعد أن يتم جمع العناصر الجامحة حاليّاً... إنّ أفضل أسلوب هو تركيز قوات بريطانية قوية في الفرات الأسفل وإعطاء درس قاسٍ للعشائر المثيرة للشغب -حسب قوله- والتذكير بمسألة تعيين الأمير فيصل خلال شهرين أو ثلاثة أشهر[١]. وفي الوقت نفسه سحب الجنود من إيران (البالغ تعدادهم عشرة أفواج)... وأنه شك في إمكان تسديد ضربة مدوية على الفرات الأسفل بسبب المصاعب التي تواجه العمليات العسكرية في ذلك القسم من البلاد، وبسبب مراوغة العدو. وإذا لم يمكن التخفيف عن الضغط فإنه سياسة (كذا) تقضي باستبقاء سيطرتنا الحالية على الموصل، والحفاظ على الوضع في إيران، -و- ترك الفرات الأسفل مؤقتاً"[٢].

وقد قررت اللجنة المالية في مجلس النواب البريطاني في الاجتماع نفسه أربعة قرارات بعد الاستماع إلى السير برسي كوكس وإجاباته عن أسئلتهم، جاء في مستهلّها: "إنّ وزير الخارجية لشؤون الحرب يجب يرتب (كذا) إعداد خطة

(١) يلاحظ أن (التذكير) بترشيح فيصل ملكاً على العراق قبل ترشيحه العلني في مؤتمر القاهرة المنعقد في ١٢ مارس ١٩٢١م (العراق في سجلات الوثائق البريطانية ١٩١٤-١٩٦٦، المجلد الثاني ١٩١٨-١٩٢١. سابق: ٣٨٧-٣٨٨). وسيأتي مزيد من التفصيل في (الفصلين اللاحقين).

(٢) المصدر السابق نفسه: ٣٨٨. ويلاحظ رأيه بانتصارات الثورة وصولا إلى حد الانسحاب من الفرات الأوسط كله وتسليمه لقيادة ثورة العشرين.

للتعامل مع الوضع العسكري الراهن في العراق. تقرر الخطة بالتشاور مع سير بيرسي كوكس بقصد تقديمها إلى مجلس الوزراء"، وجاء في رابعها: "إنّ المسؤولية المستقبلية في وطننا عن إدارة فلسطين والعراق يجب أن تقرر بأقرب تاريخ ممكن"[١].

لقد كتب ضابط الاستخبارات البريطانية السابق وزميل كلية أول سولز أوكسفورد العقيد د تي أي لورانس مقالات في عدد من الصحف البريطانية الشهيرة -مثل صحف: التايمز، والأوبزرفر، والديلي هيرالد العمالية- حول ثورة العشرين. فكان مما نشره في صحيفة التايمز اللندنية أشهر الصحف البريطانية وأوسعها انتشاراً في (٢٣ حزيران ١٩٢٠م/ ٦ شوال ١٣٣٨هـ) ما يلي: "لقد ثار العرب ضد الترك خلال الحرب... لأنهم كانوا يريدون الاستقلال ولم يجازفوا بحياتهم ويستبدلون سيّداً بآخر فيصبحون مواطنين بريطانيين أو فرنسيين، ولكن ليحصلوا على حكم مستقل لهم، وسواء أكانوا أهلاً للاستقلال أو (كذا) غير أهل له فذلك يترك للتجربة... فليس من الاستغراب إذن أن ينفذ صبرهم بعد سنتين، فقد كانت الحكومة التي شكلناها إنكليزية في طرازها وهي تدار باللغة الإنكليزية ولذلك يعمل فيها الآن ويسيرها (٤٥٠) ضابطاً تنفيذيّاً بريطانيّاً من دون أن يكون معهم ولا مسؤول عراقي واحد[٢]، أما في أيام الترك فقد كان سبعون بالمئة (كذا) من العاملين في الخدمة المدنية أناساً من أهل البلاد، ويتولى الثمانون ألف جندي العائدون لنا واجبات بوليسية هناك وليس واجبات حماية الحدود، فهم يتولون قمع السكان أنفسهم... ولا شك أنّ هذا الحرمان من امتياز الإسهام في إدارة البلاد والدفاع عنها شيئاً (كذا) يثير المتعلمين العراقيين... لماذا يتحتم على الإنكليز أو الهنود أن يُقتلوا ليصنعوا الحكومة العربية في العراق... أرى أن يقوم العرب أنفسهم بذلك إن بوسعهم أن يفعلوا هذا... إنّ فنّ الحكم يفتقر إلى الأخلاق أكثر مما يفتقر إلى أدمغة... العراق

---

(١) المصدر السابق نفسه: ٣٨٨.

(٢) ذهبت د. فيبي مار في كتابها: (تاريخ العراق المعاصر-العهد الملكي: ٤٢) إلى أن عدد الضباط في الإدارة المدنية في العراق بلغ (١٠٢٢) ضابطاً في حين شغل المسؤولون العرب أقل من (٤٪) من المستويات العليا.

بطبيعة الحال فيه نفط... وأعتقد أن النفط إن كان بمثل هذه الأهمية لنا فمن الممكن أن يكون موضوع مساومة بين الطرفين، والعرب على ما يبدو يريدون سفك دمائهم من أجل الحرية، وسيفعلون أكثر من ذلك من أجل النفط"[١].

كما نشر لورانس مقالاً لاحقاً في جريدة الأوبزيرفر اللندنية بتاريخ (٨ آب ١٩٢٠/ ٢٣ ذي القعدة ١٣٣٨هـ) جاء فيه: "طلب إلى رئيس إدارتنا في العراق قبل بضعة أسابيع أن يقابل بعض الوجهاء العرب، وقد أرادوا أن يعرضوا عليه قضيتهم في المطالبة بالحكم الذاتي الجزئي، لكنه حشر مع المندوبين عدداً من مرشحيه هو نفسه، وقال لهم في معرض الرد عليهم بأنهم سوف لا يصلحون لتولي المسؤولية إلّا بعد مرور مدة طويلة من الزمن، وكانت هذه كلمات جريئة لكنّ عبأها كان شديد الوطأة على رجال مانشستر في الحلة هذا الأسبوع[٢]... إنّ عمل هذه الجيوش يقتصر على الأعمال البوليسية لقمع الرعايا الذين قيل لمجلس اللوردات قبل أسبوعين بأنهم يتشوقون لبقائنا المستمر في بلادهم"[٣].

وأضاف "إننا ندرك عبء الجيش في العراق على الخزانة الإمبراطورية، غير أننا لا نرى بوضوح عبئه على العراق. يجب إن (كذا) يطعم وتطعم حيواناته جميعاً، عدد الجنود المسلحين في القوات المقاتلة الآن ثلاثة وثمانين (كذا) ألفاً، ولكن عدد جنود الأرزاق ثلاث مئة (كذا) ألف جندي. يوجد ثلاثة عاملين لكل جندي لتجهيزه بالأرزاق وخدمته. واحد من عشرة من نفوس العراق اليوم ينتمون إلى جيشنا. إنهم يأكلون خضرة البلاد وإن العملية لم يبلغ ذروتها حتى الآن ولأجل سلامتهم يطلبون منا مضاعفة جيشنا الموجود. وبما أن المصادر المحلية مستنزفة فإن هذه الزيادة في الجنود سوف تزيد الكلفة بأكثر من المتوالية الحسابية"[٤].

---

(١) الثورة العراقية. سابق: ١٦١-١٦٣. مقالة ترجمها مترجم الكتاب د. جعفر الخياط وألحقها بكتاب ولسون.

(٢) يشير إلى معركة الرارنجية المتقدم ذكرها التي تكبد فيها الإنكليز خسائر فادحة بالأرواح والمعدات وعشرات الأسرى.

(٣) الثورة العراقية. سابق: ١٦٣-١٦٦. مقالة ترجمها مترجم الكتاب د. جعفر الخياط وألحقها بكتاب ولسون.

(٤) العراق في سجلات الوثائق البريطانية ١٩١٤-١٩٦٦، المجلد الثاني ١٩١٨-١٩٢١. سابق: ٣٨٣.

وكتب لورانس في صحيفة الصندي تايمز أيضاً مقاله الثالث اللاذع في (٢٢ آب ١٩٢٠م/ ٧ ذي الحجة ١٣٣٨هـ) فجاء فيه: "لقد اقتيد شعب إنكلترا إلى مصيدة في العراق... يصعب الخلاص منها مع الاحتفاظ بالكرامة والشرف، لقد خدعوا بالامتناع الثابت عن المعلومات. بلاغات بغداد الرسمية متأخرة. غير مخلصة وغير كاملة. كانت الأمور أسوأ مما قيل لنا. وكانت إدارتنا أكثر دموية وأقل كفاءة مما يعرف الرأي العام. إنّ ذلك عار على سجلنا الإمبراطوري... إنّنا الآن غير بعيدين عن الكارثة... حكومتنا أسوأ من النظام التركي القديم... قتلنا نحو (١٠) عشرة آلاف عربي في هذه الثورة في هذا الصيف -أي في ثورة العشرين-، وليس لنا أمل في الإبقاء على مثل هذا المعدل... قبل أربعة أسابيع صاغت هيئة الأركان في العراق مذكرة تطلب أربع فرق أخرى... كانت الحكومة في بغداد تشنق عرباً في تلك المدينة لإساءات سياسية... يسمونها ثورة العرب غير ثائرين ضدنا... هل تنفيذ عمليات الإعدام هذه لحثّ العرب على إعادة ثلاث مئة (كذا) سجين بريطاني في حوزتهم؟ تقول إننا في العراق من أجل تطوير لمصلحة العالم. يقول الخبراء جميعاً إنّ توفير العمال هو العامل السائد في تطويره إلى أي مدى يعيق مقتل عشرة آلاف قروي ومدني في هذا انتاج الحنطة والقطن والنفط. وإلى متى نسمح بملايين الباونات وآلاف الجنود الاستعماريين وعشرات الألوف من العرب يضحى بهم لأجل شكل من الإدارة الاستعمارية التي لا يمكنها أن تنفع سوى مديريها"[١].

ونشرت صحيفة (الديلي ميل) مقالاً للكاتب (لوفان فريزر) في (١٢ تموز ١٩٢٠م)، جاء فيه "ليس هناك في تاريخنا كله ما يمكن مقارنته بحماقتنا في ما بين النهرين"[٢].

---

(١) المصدر السابق نفسه: ٣٨٥- ٣٨٧. وينظر: اختراع الشرق الأوسط الحديث. صناع الملوك. سابق: ٢١٠-٢١١.

(٢) ثورة ١٩٢٠ الجذور السياسية والفكرية والاجتماعية للحركة القومية العربية الاستقلالية في العراق. سابق: ٤٠٦. وينظر هامش الصفحة.

وفي (ذي القعدة ١٣٣٨هـ/ آب ١٩٢٠م) ذهبت صحيفة التايمز إلى القول -وهي تتحدث عن الجدوى الاقتصادية لاحتلال العراق-: "إنّ ما بين النهرين لن تكون (مجزية) حتى بعد ألف عام... إنّ هدفنا يجب أن يكون إخراج قواتنا بأسرع وقت ممكن"(١).

يقول الباحثان كارل إي. ماير و شارين بلير بريزاك متحدثين عن الحجم الكبير الذي تناولت فيه الصحف البريطانية نقد سياسة الحكومة في تصديها الباهظ لتكاليف لثورة العشرين خاصة بقولهما: "حتى التايمز التي كانت بوق الإمبريالية، حينما كانت الأوقات أفضل، أكدت في مراجعة نشرتها عن أحداث عام ١٩٢١ قائلة: (علينا الجلاء عن بلاد ما بين النهرين فيما نحن قادرون على فعل ذلك، والآن، فاللحظة مناسبة)، وأوصت في سلسلة من المقالات أنه: (طالما ظللنا هناك سيستجد من الأسباب ما يجعلنا نبقى، وستستجد الأسباب لمزيد من الإنفاق، فلننهض ونرحل)، كانت الإمبراطورية قد تمددت بإفراط، ولم يكن سوى قليل من الحماس لمزيد من المغامرات الإمبريالية"(٢).

ومثلما لم يقتصر صدى ثورة العشرين وما سببته من خسائر فادحة لدولة الاحتلال -سواء ما كان منها في الأرواح أم المعدات- على ما تداوله برلمان المملكة المتحدة من نقاشات حامية بين رئيس وزرائها ورئيس الحزب المعارض، كذلك لم يقتصر على الصحافة المتقدم ذكرها وغيرها، بل شمل القلقُ والتوجسُ الشعبَ البريطاني بطبقاتها كلها، ولعل خير من تحدث عن ذلك هو السير بيرسي كوكس المندوب السامي البريطاني في العراق الذي تولّى منصبه في (١٧ محرم ١٣٣٩هـ/ ١ تشرين الثاني ١٩٢٠م) بعد تنحية سلفه ولسون بسبب فشله في إدارة ملف ثورة العشرين وعجرفته وبطشه وتنمّره وقناعته بإلحاق العراق بالتاج البريطاني وغير ذلك كثير، لقد كتب كوكس في (٧ شباط ١٩٢٩م/ ٢٦ شعبان ١٣٤٧هـ) تقريراً

(١) المصدر السابق.

(٢) اختراع الشرق الأوسط الحديث. صناع الملوك. سابق: ٢٢٢-٢٢٣.

مهمّاً باسم (تكوين العراق الحديث) قرأه أمام الجمعية الآسيوية الملكية بلندن، تحدّث فيه بشهادته الحيّة عن القلق الشعبي الشديد لدى طبقات الشعب البريطاني المختلفة من ثورة العشرين قائلاً: "حينما وصلت إلى لندن كان الرأي العام هناك في حالة من القلق الشديد لتطور سير الأحداث في العراق. وقد حدث على إثر ذلك هياج كبير في بعض الأوساط الصحفية البريطانية مطالبة بتخفيض نفقاتنا والانسحاب من العراق.

وقد نوقشت المشكلة في اجتماع مشترك لمجلس الوزراء والمعارضة، وتوصل أخيراً إلى تبنّي قرار يشير إلى التعهدات التي قدمناها إلى السكان والنتائج الوخيمة التي ستحدث إذا ما تقرر الانسحاب، ولكن لم يكن لدينا أدنى شك في وجوب الاستمرار على ممارسة مسؤولياتنا. وكاختيار بديل فقد أوعز إليّ بالعودة إلى العراق لتولي منصب المندوب السامي أو المفوض السامي[١].

أما إذا تخطينا ذلك كله إلى عرض بعض ما تناوله قسم من المسؤولين البريطانيين المعاصرين للثورة والمشاركين في إخمادها فسنرى عظم وصفهم لها، فهذا الكولونيل تي سي ولسون كتب مذكرة بتاريخ (١ صفر ١٣٣٩هـ/ ١٥ تشرين الأول ١٩٢٠م) -بعد وصول كوكس إلى بغداد ليتولى مهمته كمندوب سامٍ في العراق بعد سنتين ونصف قضاهما ولسون نائياً عنه-، تحدث فيها -ولسون- ردّاً منه على من حاول أن يبخس الثورة حقها من التأثير الفعّال، بقوله: لقد "كانت الثورة عظيمة جدّاً، ومصممة فلا يمكن حسمها بتفسير بسيط"[٢].

لقد استطاعت الثورة إفشال خطة القائم بأعمال الحاكم الملكي العام في العراق الكولونيل ولسون الذي رأى "في العراقيين أنهم كغيرهم من الشعوب المتخلفة غير قادرين على حكم أنفسهم بأنفسهم، ولهذا وجب تدريبهم على حياة الحرية قبل منحهم إياها، وأن من الأفضل للعراق في نظر ولسون أن تؤسس فيه إدارة

(١) ينظر: العراق في الوثائق البريطانية ١٩٠٥-١٩٣٠. ترجمة وتحرير فؤاد قزانجي: ٣١.

(٢) العراق في سجلات الوثائق البريطانية. سابق. المجلد الثاني ١٩١٨-١٩٢١: ٤٠٥.

بريطانية حازمة من طراز الإدارة القائمة في الهند، ولا يسمح لأهل البلاد بالاشتراك في الحكم إلّا بتدرج بطيء جدّاً يستغرق سنوات عديدة، أما إذا تسلّم أهل البلاد زمام الحكم بأيديهم حالاً، فإنّ ذلك يعني شيوع الفوضى، وانهيار نظام الحكم في البلاد"[١]. ولذلك عارض حتى أمر تعيين موظفين من غير الإنكليز.

بل لقد كتب ولسون سنة (١٩٣٠م) شرحاً لمعتقداته خلال زمن إدارته للعراق جاء فيها: "كنا نعتقد أنّ مساهمة بريطانيا في رفاهية البشرية تكمن في تشرّب حكومتها بمبادئ المسيحية.. وأن العراق بحاجة إلى أكثر من فوائد الحضارة المادية... كنا نعتقد أنه ما لم يتشرب العراق بمبادئ المسيحية فإنه لم يكن صالحا لممارسة الحرية... وكانت هذه الرغبة تلهم الكثيرين وتكمن بصورة لا شعورية في فعاليات جميع الموظفين البريطانيين تقريباً"[٢].

كما أثبت هو نفسه في كتابه (الثورة العراقية) متحدثاً عن مرحلة ما قبل نقله من العراق قائلاً فيما زعمه من مشاعر العراقيين بأنّ "الذين يكون هناك وزن لآرائهم وهم يتلهفون إلى نقل ما يفكرون ويشعرون به إلى أولئك الإنكليز الذين يطالبون بانسحاب بريطانيا من هذه البلاد، فهم لا يستطيعون أن يدركوا أنّ الانسحاب لا يعني أقلّ من انتهاك حرمة القانون، وتدمير الشعب، وما يعقب ذلك من انتشار الفوضى في البلاد، وهو أمر قد ينطوي على نشوب حرب آسيوية لا يمكن لبريطانيا أن تقف في معزل عنها"[٣].

أما إذا تخطينا ما دوّنه تي سي ولسون أرفع المحتلين الإنكليز للعراق درجة قبل ثورة العشرين وأثناءها، وانتقلنا إلى أمثال الباحث والمؤرخ د. فيليب آيرلاند فسنرى حجم ما أحدثته الثورة من تأثير كبير على مستقبل العراق. يقول أيرلاند: "إنّ

---

(١) لمحات اجتماعية من تاريخ العراق الحديث. سابق: ٥/ القسم الأول: ٥٨، وتنظر هوامشه في نهاية الصفحة.

(٢) ثورة ١٩٢٠ الجذور السياسية والفكرية والاجتماعية للحركة القومية العربية الاستقلالية في العراق. سابق: ٢١٤. وينظر هامش الصفحة.

(٣) الثورة العراقية. سابق: ١٥٨.

الثورة بدلالتها على مدى الروح الوطنية وقوتها في العراق وبإثارتها المعارضة في بريطانيا العظمى ضد الاحتفاظ بالانتداب... قد أوجدت سياسة تمشية الانتداب عن طريق المعاهدة والوصول بالعراق إلى مرحلة الدخول في عصبة الأمم بأسرع مما كانت حكومة صاحبة الجلالة البريطانية قد أزمعت أن تفعله في بادئ الأمر عندما أخذت مهمة الانتداب على عاتقها"[1].

ثم كان بعد تنصيب الإنكليز لفيصل ملكاً على العراق، وبعد رفض المرجعية والوطنيين وعامة العراقيين الشديد للانتداب تقرر تلافياً لذلك إلباس الانتداب ثوب معاهدة تعقد بين بريطانيا والعراق عسى أن تكون برقعاً يخدع العراقيين، ففشلت مساعي الحكومتين في ذلك.

يقول المندوب السامي البريطاني في العراق بيرسي كوكس في التقرير الموسع -الذي تقدم ذكره أعلاه- متحدثاً عن الحقبة الشائكة المعقدة جراء الاحتلال البريطاني للعراق ومضاعفاته سنة (١٩٢٢م) ما يلي: "لسوء الحظ استقالت الوزارة -البريطانية- التي كانت قد تبنتها -المعاهدة- بعد مضي عشرة أيام، وبرزت مرة أخرى مسؤولياتنا المترتبة على العراق في برنامج حملة الانتخابات التالية، وشُنّت علينا بعنف حملات من الصحافة البريطانية ضد استمرار هدر الأموال البريطانية في العراق. وقد حصل المرشحون على مقاعد لهم في مجلس العموم على أساس الوعد الذي قطعوه بالعمل على الانسحاب من العراق بأقرب وقت ممكن. وعندما ألفت حكومة جديدة أصبحت المسألة السياسية التي يجب اتباعها في العراق موضع اهتمام شديد؛ ولذلك استُدعِيتُ إلى الوطن للتشاور ثم عُدت إلى العراق في الحادي والثلاثين من آذار -١٩٢٢- ومعي قرار الحكومة. كان القرار مسودة بروتوكول يلحق بمعاهدة التحالف والتي لم تقر حتى تشرين الأول، حيث خفضت بموجبها فترة المعاهدة من عشرين سنة إلى أربع سنوات،

(١) العراق دراسة في تطوره السياسي. سابق: ٢٠٦ وما بعدها، نقلاً عن كتاب الملك فيصل الأول من الثورة العربية الكبرى حتى تأسيس الدولة العراقية الحديثة. سابق: ١٠٥.

اعتبارا من تاريخ تصديق معاهدة الصلح مع تركيا. كما أنها نصت في حالة قبول العراق في عضوية الأمم المتحدة قبل مرور المدة القصوى فإن المعاهدة تنتهي فوراً"[١].

ولم تقف حملة الصحف البريطانية للجلاء عن العراق وتركه لأهله عند هذا الحد، ولا في حدود تلك التواريخ المتقدم ذكرها، فمذ أُثيرت قضية الموصل مجدداً في عام (١٩٢٣م) حتى تبنّت صحيفتا الـ(ديلي ميل) و(ديلي إكسبرس) البريطانيتين موضوع الجلاء عن العراق، بالانسحاب الكامل، وهو ما يكشف بجلاء مدى حجم الاضطراب السياسي المترتب على ثورة العشرين وتوابعه في داخل بريطانيا المحتلة للعراق.

❀ ❀ ❀

(١) العراق في الوثائق البريطانية ١٩٠٥-١٩٣٠. سابق. ١٩١٨-١٩٢١: ٣٤-٣٥.

المبحث الثاني

صدى ثورة العشرين في الدول الخارجية

لقد سببت الثورة هزة كبيرة في دول الشرق الأوسط وأمريكا وغيرها، وقد تحدث عن ذلك الباحث المؤرخ د. عبد الله الفياض وغيره.

فمما قاله الفياض: "لم تقتصر نتائج الثورة العراقية على الأمور التي لها علاقة بالعراق، بل كان لها تأثير على الوضع العام في مناطق متعددة من الشرق الأوسط"(١).

كما "أثرت في أحداث خارجية بدرجات متفاوتة حتمتها ظروف الزمان (كذا) القاطنون منهم في العراق وإنكلترا على استخدام القوات المسلحة الهندية في الحرب ضد العراق.

كما أعلن المغتربون السوريون في الأرجنتين احتجاجهم على عمليات الإبادة في العراق، ووجهوا احتجاجاً إلى عصبة الأمم ضد المحتلين الإنكليز والفرنسيين.

كما أنّ الأممية الشيوعية قد أصدرت نداء... تضمن فصلاً خاصاً عن الشعب العراقي، وبالأخص فلاحي العراق... إنّ ثمانين ألفاً من جنود الاحتلال على أرضكم يعملون فيكم سلباً وقتلاً ويستبيحون أعراضكم"(٢).

بل تصاعد الاحتجاج الكمي للهنود القاطنين في العراق أكثر فأكثر حتى تحوّل إلى تغيير كمي بأن "تألفت بمناسبة مطالبة العراقيين بالاستقلال جمعية من الجالية الهندية في كربلاء، غايتها السعي لإنقاذ الهند واستحصال استقلاله التام، وقد ترأس هذه الجمعية محمد شاه الهندي، المعروف الذي قبضت عليه السلطة المحتلة وساقته إلى هنجهام... وبقي مع المعتقلين العراقيين فيها حتى أُطلق سراحهم جميعاً سنة ١٩٢١م، كما شاطر غيره من المتجنسين بالجنسية الهندية في كربلاء

---

(١) الثورة العراقية. سابق: ٣٣٢.

(٢) حول سياسة بريطانيا في العراق ١٩١٣-١٩٢١. سابق: ٨٧.

وسائر العراقيين في نهضتهم المباركة، وتحملوا معهم المصائب والمحن"[١].

أما الإيرانيون القاطنون في العراق فقد كان لمشاركتهم العراقيين في ثورتهم دور مشهود، وكان لتأثير نشاطهم الثوري على الداخل الإيراني خلال الثورة وبعدها ما عجّت به الأحداث والوقائع والكتب، وما الدور المغيّر للمجتهد الثائر السيد أبو القاسم الكاشاني أحد أعمدة ثورة العشرين في العراق على الساحة السياسية والاجتماعية في إيران بخافٍ على المتابعين.

كما تناولت الصحافة الأمريكية الثورة العراقية بتوسع، حيث غطت صحيفة نيويورك تايمز الأمريكية الشهيرة والواسعة الانتشار بعضاً من أحداث الثورة، فنشرت ما "ورد إليها بشكل برقيات خاصة بها من لندن، أو ما يتم طرحه في مجلس العموم البريطاني بصدد ثورة العشرين، أو ما يصدر من بلاغات رسمية في دوائر الحرب البريطانية، أو ما كتبته الصحف اللندنية في مقالاتها الافتتاحية من أخبار رسمية. ومن بين تلك الصحف صحيفة التايمز اللندنية، والديلي نيوز، وديلي كرونكل، وديلي ميل، وديلي إكسبريس، وديلي ميل القاهرية، وفوق هذا فقد اعتمدت الصحيفة الأمريكية على تقارير واردة من بغداد وإيران والهند وإستانبول. وكانت صحيفة نيويورك تايمز عندما تشير إلى أحداث ثورة العشرين في العراق تذكر أنها إما ثورة أو انتفاضة ضد الإنكليز في حال حصولها على الأخبار بصورة مستقلة، أما إذا حصلت على أخبار العراق من لندن أو من أقوال الساسة الإنكليز نجدها تستخدم اصطلاح (تمرد) أو (عصيان). وأشارت الصحيفة مرتين إلى المعاملة الحسنة التي عامل بها الثوار العرب الأسرى البريطانيين"[٢].

وأضاف الباحث صالح عباس الطائي إلى ذلك قوله: "أظهرت صحيفة

---

(١) نصيب كربلاء من تاريخ الشيخ فريق المزهر آل فرعون. عبد الرزاق الوهاب. مجلة رسالة الشرق. العدد الأول: ٧-٨. وينظر في تسفير محمد شاه الهندي إلى هنجام: الحقائق الناصعة: ١٥٦ و٤٢٧.

(٢) ثورة العشرين في صحيفة نيويورك تايمز الأمريكية. صالح عباس الطائي. بحث. أهل البيت. العدد الرابع عشر: ٢٢٥. صحيفة نيويورك تايمز الأمريكية العدد ٢٢٨٢٣ في ٢٣ تموز ١٩٢٠. ص١٧.

نيويورك تايمز في إحدى المناسبات خطورة الموقف بالنسبة للبريطانيين وما تكبدته القوات البريطانية من خسائر فادحة. وقد أشارت في مناسبات أخرى أن البريطانيين يحتاجون إلى جيوش ضخمة من أجل إبقاء سيطرتهم على العراق.

ووجهت الصحيفة انتقادات متعددة للإداريين البريطانيين في العراق بأنهم لم يكونوا أكْفاء. وفي هذا الصدد نقلت هذه الصحيفة انتقادات الكولونيل لورنس للبريطانيين والفرنسيين في محاولتهم استبعاد العرب عن المسرح الدولي وأن السبب المباشر الذي أدى إلى اندلاع ثورة العشرين هو سوء الإدارة البريطانية واحتكار المناصب بأيدي ضباط وسياسيين بريطانيين، في الوقت الذي تعهدت فيه بريطانيا بأن تعمل على تأسيس حكومة عربية مستقلة في العراق. والبريطانيون لم يشركوا العرب في إدارة بلادهم.

ثم انتقدت الإداريين الإنكليز بأنهم كانوا قليلي الكفاءة والدراية والمقدرة، ولم تغفل الصحيفة عن الإشارة إلى أهمية النفط العراقي بالنسبة إلى بريطانيا"[١].

غير أن ما يؤسف له أن الباحث لم يثبت نصوص ما أوردته الصحيفة الأمريكية وإن كان أشار إلى رقم العدد وتاريخه.

وإذا كان لي أن أختم هذا البحث فسأختمه بما أوجزه الباحث العراقي د. كمال مظهر أحمد عن صدى ثورة العشرين في الداخل البريطاني، وفي الدول الأخرى المختلفة بقوله: "إنّ من يعود إلى تعليقات الصحافة البريطانية، ومناقشات مجلس العموم البريطاني في العام (١٩٢٠م) يدرك عمق صدى ثورة العشرين على الصعيد الخارجي، وبوسع دراسة جادة للصحافة (العربية)، و(الفرنسية)، و(التركية)، و(الفارسية)، -والهندية- الصادرة سنة ١٩٢٠ أن يعطينا تصوراً أشمل حول هذا الموضوع"[٢] المهم.

---

(١) المصدر السابق: ٢٢٥- ٢٢٦.

(٢) صفحات من تاريخ العراق المعاصر. دراسات تحليلية. د. كمال مظهر أحمد: ٥٥. وينظر: ثورة ١٩٢٠. وميض جمال عمر نظمي: ٤٠٥-٤٠٦.

الفصل العاشر

أهم المرشحين لعرش العراق
سِيَرهم ومواقفهم

وفيه تمهيد وأربعة مباحث هي:

المبحث الأول

ترشيح آية الله السيد علي الشيرازي الحسيني ورفضه الترشح

المبحث الثاني

ترشيح الشيخ خزعل الكعبي

المبحث الثالث

ترشيح السيد طالب النقيب

المبحث الرابع

ترشيح أحد أبناء الشريف حسين

وسأتناولها تباعاً مبتدئاً بالتمهيد

التمهيد

منذ أن تلقّى الكولونيل ولسون أمراً من حكومته بإجراء استفتاء يتضمن توجيه أسئلة ثلاثة إلى مختلف الأهلين في المناطق العراقية لغرض استحصال آراء العراقيين من خلال أجوبتهم عليها بحرية؛ أصدر ولسون أمره إلى الحكام السياسيين البريطانيين في الألوية العراقية في (٢٥ صفر ١٣٣٧هـ/ ٣٠ تشرين الثاني ١٩١٨م) لاستكشاف آراء العراقيين فيها وفق نتيجة الاستفتاء المتقدم ذكره، وقد تضمنت أسئلة الاستفتاء ما يلي:

١. "هل ترغبون بحكومة مستقلة تحت الوصاية البريطانية يمتد نفوذها من أعالي الموصل إلى خليج العجم؟

٢. هل ترغبون أن يرأس هذه الحكومة أمير عربي؟

٣. من يكون ذلك الأمير الذي تختارونه؟"[1].

حينها نشط بعض المخلصين لترشيح من يرونه أهلاً لتحمل المسؤولية مثلما نشط الطامحون للعرش ببذل مساعيهم لتسنّم هذا المنصب الرفيع، فكان أبرز المرشحين من الصنفين أربعة مرشحين: أوّلهم سماحة آية الله السيد علي الشيرازي الحسيني الذي رفض الموافقة على ترشيحه، والبقية سعوا إليه سعي الحريص عليه، المتلهف إليه، الباذل ما يستطيع للظفر به، وهم كل من: الشيخ خزعل الكعبي أمير المحمرة، وطالب النقيب والي البصرة. والشريف فيصل بن الحسين.

وسأعرّف بكل من هؤلاء المرشحين الأربعة فيما يلي:

❀ ❀ ❀

(١) العراق الحديث من سنة ١٩٠٠-١٩٥٠. لونكريك: ١/ ١٨٩.

المبحث الأول

ترشيح آية اللّه السيد علي الشيرازي الحسيني ورفضه الترشح

يُعدّ السيّد عليّ النجل الثاني للمرجع الأعلى السيد محمد حسن الشيرازي المعروف بالمجدد الشيرازي صاحب فتوى تحريم التبغ المعروفة بفتوى (التنباك) التي تقدم ذكرها آنفاً.

ولد المترجم له "سنة زيارة السلطان ناصر الدين شاه أئمة العراق، وهي سنة سبع وثمانين ومائتين وألف في النجف الأشرف"[1]. وسافر مع والده المرجع إلى سامراء سنة (١٢٩١هـ/ ١٨٧٤م) ما يعني أنه "عندما هبط والده سامراء في سنة (١٢٩١ هجرية) وقطنها مع عائلته كان للمترجم له خمس سنين، وقد نشأ على أبيه وأجلّاء تلاميذه، فتلقى فيها علومه في مقدمات الشريعة وسطوحها على أكابر مُدرّسيها وأفاضلهم من تلامذة أبيه"[2] المجدد الشيرازي، "حتى قال عنه أحد أساتذته ألا وهو العلامة الأكبر السيد محمد الفشاركي الأصفهاني: إنّه تربى في حجر خمسين مجتهداً. ومن أولئك الفطاحل نفس هذا المحقق الأكبر الذي هو معدود في الطراز الأول من محققي علماء الشيعة، والإمام المقدم آية الله الميرزا محمد تقي الشيرازي زعيم الشيعة الأكبر... وأمثالهما، ولم يبرح دارجاً في سنن العلم حتى استأهله والده الإمام للحضور عنده والتلمذة لديه، فلم تزل الحقائق تفاض عليه، وباب التلقي مفتوح لديه، بكلا مصراعيه، حتى نص ﷺ باجتهاده وهو حديث عهد بتمام العقد الثاني من عشراته، كما صرح به غيره من مشايخه كالعلمين المنوّه باسمهما، والمحقق النيقد صاحب كفاية الأصول -المرجع الشيخ محمد كاظم الخراساني زعيم حركة المشروطة في النجف الأشرف- وغيرهم. ولم يبرح

---

(١) هدية الرازي إلى المجدد الشيرازي. الشيخ أغا بزرك الطهراني: ٣٠٠.

(٢) نقباء البشر في القرن الرابع عشر. الشيخ أغا بزرك الطهراني: ١٥٦٤.

-المترجم له- متربعاً على منصة العلم والفضيلة بسامراء بعد وفاة أبيه في (٢٦ شعبان ١٣١٢هـ -٢٢ شباط ١٨٩٥م-) مدرّساً ومفيداً، ومع ذلك لم يترك الحضور لدى آية الله -الشيخ محمد تقي- الشيرازي في بحث خاص به، لا يحضره غيره، إلى أن غادر سامراء من جرّاء الحرب العالمية... وقلق السلام فيها سنة ١٣٣٤"[١]، أو سنة (١٣٣٣هـ/ ١٩١٥م)[٢]، على روايتين بعد انسحاب جيوش الأتراك منها واحتلال الإنكليز لها، وسيطرتهم عليها، متوجهّاً -هو وربما معه سماحة الشيخ محمد جواد البلاغي الذي كان معه في سامراء رفقة أستاذهما زعيم الثورة العراقية الكبرى لاحقاً الشيخ محمد تقي الشيرازي- إلى مدينة الكاظمية.

"أما الإمام الشيرازي فمكث بها غير بعيد حتى بارحها إلى كربلاء المقدسة، وأما المترجم له فأطال المكث بها ثلاث سنين... ثم يمّم أرض الحائر الحسيني على مُشرّفها السلام فدخلها (أول يوم من شهر رمضان سنة ١٣٣٧هـ -٣١ مايس ١٩١٩م-) واستقبله العلماء والأشراف إلى خارج المدينة، وعُطّلت الأسواق لوروده. غير أنه لم يُطل المكث فيها حتى أَمَّ النجف الأشرف"[٣].

كما أمّ النجف الأشرف قادماً من الكاظمية قبله زميله سماحة المجتهد الشيخ محمد جواد البلاغي.

ولم تُشِر كتب التراجم إلى سبب عدم مكث السيد علي الشيرازي طويلاً في كربلاء المقدسة حيث غادرها إلى النجف الأشرف رغم وجود أستاذه سماحة المرجع الأعلى الشيخ محمد تقي الشيرازي فيها.

ولعل تشخيصه وجود الحاجة إليه في النجف الأشرف أكثر من كربلاء أو الكاظمية هو السبب من وراء ذهابه إلى النجف الأشرف.

وإذ قدّر لأستاذه المرجع الأعلى الشيخ محمد تقي الشيرازي أن ينتقل إلى جوار

---

(١) موسوعة العلامة الأوردبادي. الشيخ محمد علي الغروي الأوردبادي. التراجم: ١٠/ ٤٣٨-٤٣٩.

(٢) طبقات أعلام الشيعة. الشيخ أغا بزرك الطهراني: ترجمة رقم ٢٠٧٩.

(٣) موسوعة العلامة الأوردبادي. سابق: ١١/ ١٣٦-١٣٧.

ربه الكريم سنة (١٣٣٨هـ/ ١٩٢٠م)؛ "أخذ صيت سيدنا المترجم له في النشور وألقي إليه زمام التقليد في مدن إيران وغيرها، وجُبيت إليه الأموال الطائلة، فكان ينفقها على أهلها... ونُشرت رسائله العملية عربية وفارسية، فلم يزل في الطراز الأول من الزعماء الروحانيين الذين تدور عليهم الفتيا والتقليد والتدريس"[١] بعد أن "رجع إليه خلق كثير في التقليد"[٢]. وبذلك "خلف السيد والده وسدّ بعض الفراغ الذي حصل بفقدان الميرزا زعيم الطائفة المحقة"[٣].

لقد استمرت مرجعية السيد علي الحسيني الشيرازي في التوسع تدريجياً، يدلّنا على ذلك ما وصفه به المجتهد السيد محسن الأمين حين زار النجف الأشرف فكتب عنه بأنه: "مقلَّد معدود في الرعيل الأول، زارنا في النجف سنة (١٣٥٢ - ١٩٣٣م-)، وزرناه في داره العامرة، وأعجبنا بصفاته الحميدة"[٤]. كما يدلّنا عليه أيضاً وصف المرجع الشيخ محمد تقي الفقيه المعاصر له بقوله عنه إنه "من عظماء العلماء"[٥]. وزاد على ذلك فنقل عن أستاذه المرجع الأعلى السيد محسن الحكيم ﷺ أنه كان "كثيراً ما ينقل في أثناء الدرس آراء بعض أعيان العلماء الذين ليس لهم تأليف مطبوع أو متداول، ويعظّمهم، فكان ينقل أحياناً عن الميرزا علي الشيرازي نجل المرحوم الشيرازي الكبير الميرزا محمد حسن الشيرازي، وينقل أحيانا عن الشيرازي الكبير، وينقل عن غيرهم... مع أن هؤلاء لم يعرف لهم تآليف[٦]، وذلك يدلّنا على أنه -السيد الحكيم- كان يتلقى نظريات هؤلاء الأعاظم بواسطة المذاكرة"[٧].

---

(١) المصدر السابق: ١٣٧.

(٢) طبقات أعلام الشيعة. سابق: ترجمة رقم: ٢٠٧٩.

(٣) معارف الرجال. سابق: ٢/ ١٣٨.

(٤) أعيان الشيعة. السيد محسن الأمين: ٨/ ٣٣٠.

(٥) حجر وطين. الشيخ محمد تقي الفقيه: ٢/ ٢١٥.

(٦) حتى وقت كتابة المرجع الشيخ الفقيه لكتابه.

(٧) حجر وطين. سابق: ٤/ ١٩٥.

وقد كان المترجم له قد سافر إلى إيران سنة (١٣١٧هـ/ ١٨٩٩م) بعد وفاة أبيه المجدد ﷺ فزاره مراجع طهران وعلماؤها ووجهاؤها وسياسيوها، منهم: الملك مظفر الدين شاه القاجاري، فلم يجدوا فيه "إلّا خشونة في ذات الله لا يخاف فيه لومة لائم، وعقلية ناضجة، وسداد ثغر... وزهد يخضع له السالكون، وشمم يترفع معه عن كل دنية... وبطبع الحال كانت الهدايا إليه تترى، لكنه لم يقبل منها شيئاً... هذا وحاجته إلى المال يومئذ كانت مسيسة؛ للديون الباهضة المتراكمة عليه... ولم يَكُ هذا باكورة من مظاهر زهده في المال، فقد كان في بيت مال والده المجدّد لمّا قضى نحبه خمسون ألف... فأدرّها بأجمعها على تلمذة أبيه وأصحابه في رواتبهم الشهرية، ولأداء ديونهم، إلى ستة أشهر، فلم يُبقِ لنفسه منها فلساً واحداً، على حين أنّ الدَّين كان يبهظه على عهد أبيه حينذاك. غير أنّ شَرَه النفس لم يَقُده إلى التلمظ بذلك المال أو ببعضه، إيثاراً للمحاويج على نفسه... وأقوى الشواهد على ذلك فيه، وفي أبيه المقدس، أنه قضى سيدنا المجدد نحبه وعليه ديون طائلة، وما كان يقضي ديونه من بيت المال"[١].

ويدعم ذلك ما نقله المرجع الشيخ محمد تقي الفقيه عن المرجع الأعلى في وقته سماحة السيد محسن الحكيم عن السيد المترجم له قوله: "أصابتنا بعد وفاة والدي فاقة شديدة حتى اضطررنا مرة لإرسال آنية ثمينة مع الخادم لأجل بيعها وصرف ثمنها فيما نقتات به"[٢].

هذا ما كان من وضعه التربوي الأخلاقي والسلوكي قبل الاحتلال البريطاني للعراق، واستمر على هذا النهج المتشدد في أمر المال بعده، فمثلاً حين زار العراق كبير من زعماء القبائل ومن ذوي النجدة واليسار بإيران و"وصل العلماء بالمال، وكان سيدنا المترجم يومئذ بالكاظمية، فبعث إليه كمية وافية تعدّ بالآلاف، فردّها غير مُبالٍ بغزارتها، ولا مكترث بجاه صاحبها"[٣].

---

(١) موسوعة العلامة الأوردبادي. سابق: ١١/ ١٢٥-١٢٩ و١٢/ ٨.

(٢) حجر وطين. سابق: ٢/ ٢١٥.

(٣) المصدر السابق نفسه: ١٢٨.

وكما كان السيد المترجم له على سر والده السيد المجدد في الجانب الأخلاقي والتربوي؛ "كان على سرّ والده... في براعته الفقهية، ومكانته العلمية، وشابهه في ورعه ونسكه، وشاركه في جلالة قدره عند مختلف طبقات الناس، ولا سيّما أهل العلم والتقى"(١)، فقد كتب المرجع الشيخ محمد كاظم الخراساني المعروف بالآخوند الخراساني رسالتين علميتين هما "رسالة في المشتق كتبها بخط يده الشريف مع رسالة مختصرة في الشرط المتأخر، وأهداهما إلى السيد العلامة الجليل ميرزا علي أغا ابن آية الله الشيرازي وهي موجودة رأيتها عنده"(٢) كما يقول الشيخ الطهرانيّ.

لقد نشط السيد المترجم له أسوة بنشاط أبيه السيد المجدد وحركية مدرسته الفكرية السياسية نشاطاً حثيثاً خلال السنوات الثلاث التي قضاها في مدينة الكاظمية المقدسة، فـ"كانت في غضونها مساعيه المشهورة حول القضية العراقية، وطلب استقلاله التام، بعدما أتيحت الفرص للعراقيين لطلب ذلك... فسجّل له التاريخ ولِمُشاطِرِه في العمل الشيخ المجاهد -المرجع الديني الشيخ محمد مهدي- الخالصي صحيفة بيضاء تُرتّلها الحقب والأعوام"(٣). وأخالُ أن الشيخ محمد جواد البلاغي -إضافة لآخرين- كان شريكاً لهما في نشاطهما ذاك(٤).

ثم حين حطّ آية الله السيد علي الشيرازي رحاله في النجف الأشرف عاود نشاطه السياسي/ الاجتماعي، فكان له "في تلكم الظروف أعمال مقدّرة حول

---

(١) طبقات أعلام الشيعة. نقباء البشر. سابق: ١٦/ ١٧٢٠.

(٢) المصدر السابق نفسه: ١٧/ ٧٢، خلال ترجمة المرجع الشيخ الآخوند الخراساني.

(٣) موسوعة العلامة الأوردبادي: ١١/ ١٣٦.

(٤) ذكر بعض المؤرخين ومنهم سبط الشيخ محمد جواد البلاغي بأنّ جده الشيخ غادر سامراء "عند احتلالها من قبل الجيش الإنكليزي إلى الكاظمية، فمكث فيها سنتين مؤازراً للعلماء في تأجيج الثورة وإثارة المشاعر والعواطف ضد الإنكليز، ومحرّضاً على طلب الاستقلال"، "وكذلك خلال المشاركة في الثورة العراقية ١٩٢٠" (آل البلاغي الربعي النجفي العاملي بين القرنين التاسع والخامس عشر الهجريين. د. سند محمد علي البلاغي: ٢٥٢ و٢٧٢ على التوالي). وينظر: موسوعة العلامة البلاغي. محمد الحسون: العدد صفر: ١٠٧ و١١١ و١٤١ و١٢٥. وشعراء الغري ٢/ ٤٣٧. والأعلام: ٦/ ٧٤.

الاستقلال العربي والثورة العراقية، فكانت النوادي السرية تعقد في داره كل ليلة، ويؤمّها أهل الحل والعقد، فتبثّ النتائج إلى الملأ، وإلى محتشدات القبائل"[١].

وحسبه للتدليل على نشاطه الاجتماعي/ السياسي دعمه وتأييده لِما ورد في المضبطة الأولى لأهالي النجف الأشرف والشامية المؤرخة في (١٥ رمضان ١٣٣٨هـ/ ٢ حزيران ١٩٢٠م) فجاء توقيعه عليها ضمن أوائل الموقعين الذين تقدّمهم المرجع شيخ الشريعة الأصبهاني، ونصت بصراحة ووضوح على "طلب استقلال بلادنا العراقية على حدودنا الطبيعية استقلالاً تامّاً بتاتيّاً خالياً من كل مداخلة أجنبية، استقلالاً كافلاً بتأسيس دولة عربية يرأسها ملك مسلم مقيّد بمجلس وطني. وحسبه للتدليل على نشاطه الاجتماعي/ السياسي دعمه وتأييده لما ورد في المضبطتين الأولى والثانية لأهالي النجف الأشرف والشامية المؤرخة في (١٥ رمضان ١٣٣٨هـ/ ٢ حزيران ١٩٢٠م)، الموجَّهة إلى قادة الاحتلال البريطاني للعراق، حيث جاء توقيعه عليهما ضمن أوائل الموقعين عليهما الذين تقدّمهم المرجع شيخ الشريعة الأصبهاني، ونصت أولاهما بصراحة ووضوح على "طلب استقلال بلادنا العراقية على حدودنا الطبيعية استقلالاً تامّاً بتاتيّاً خالياً من كل مداخلة أجنبية، استقلالاً كافلاً بتأسيس دولة عربية يرأسها ملك مسلم مقيّد بمجلس وطني. هذه رغائبنا التي لا نرضى بغيرها، ولا نفتر عن طلبها، ما دام فينا إحساس"[٢].

ومثلها ما نصت عليه المضبطة الثانية لأهالي النجف الأشرف والشامية الموقّعة بعد المضبطة الأولى بثلاثة أيام، وقد جاء توقيعه أيضاً ضمن أوائل الموقّعين عليها[٣].

ومما يجدر ذكره هنا أنّ مضبطتي أهالي النجف الأشرف والشامية الأولى والثانية اللتين وقعهما المراجع والشيوخ والوجهاء وذوو المكانة في المدينتين، ومنهم سيدنا المترجم له؛ قد خلتا من ذكر ترشيح أحد أنجال الشريف حسين لعرش العراق،

(١) موسوعة العلامة الأوردبادي: ١١/ ١٣٧.

(٢) وثائق الثورة العراقية الكبرى. سابق: ٣/ ١٠٥.

(٣) ينظر: المصدر السابق: ٣/ ١٠٨.

خلافاً للعديد من مضابط المدن الأخرى، ومنها كربلاء، وبغداد، والكاظمية، -كما سيأتي-.

ومع كل ما تقدم يضيف تلميذه وخاصته المجتهد المؤرخ الشيخ محمد علي الأوردبادي في ترجمته له إلى ما تقدم قوله: "كثيراً ما كانت داره العامرة في تلك الأيام تمثل ثكنة عسكرية من توارد الزعماء عليه، ومع كلٍّ لفيفُهُ، حاملين بندقياتهم وأسلحتهم، إلى تفاصيل مشهودة يومئذ، لا يسع المقام لسردها"(١).

ويا ليت الشيخ الأوردبادي الموثق في رواياته، المشهود "له بالاجتهاد... من أساتذته، الشيرازي، والميرزا حسين النائيني، والشيخ عبد الكريم الحائري"(٢) وغيرهم، والذي "تضلّع في التاريخ والسير وأيام العرب ووقائعها"(٣) حسب شهادة المحقق الثبت الشيخ أغا بزرك الطهراني وغيره(٤) في حقّه، إضافة إلى كونه من خاصة المطلعين على تفاصيل وخصوصيات أستاذه المرجع السيد علي الشيرازي، باعتباره من خلّص تلامذته، المطلعين على مواقفه، المتابعين لخطواته، المواكبين لنشاطاته، المصاحبين له، المؤرخين لحياته، والمترجمين باستفاضة لحياة والده وأستاذه المرجع الأعلى المجدد السيد محمد حسن الشيرازي.

أقول: يا ليت المجتهد المؤرخ الأوردبادي قد سرد تلك "التفاصيل المشهودة" كما وصفها أعلاه، تلك التفاصيل التي لو سردها ووقف عندها لعرفنا منها ما

---

(١) موسوعة العلامة الأوردبادي. سابق: ١١/ ١٣٧.

(٢) نقباء البشر في القرن الرابع عشر من طبقات أعلام الشيعة. ترجمة رقم: ١٨٦٤. وقد ذكر الشيخ أغا بزرك الطهراني أن كتابات الشيخ الأوردبادي هي إحدى مصادره التي اعتمدها في موسوعاته القيمة.

(٣) المصدر السابق نفسه.

(٤) يقول الدكتور حسين علي محفوظ (موسوعة العلامة الأوردبادي: ١/ ٣٦): "يعد الأوردبادي من سدنة العلم والأدب الكبار في القرن الأخير، كان عيبة علم، وخزانة أدب، وجونة فضل. ترك من الكتب والرسائل والأبحاث ما يُعتمد عليه ويُستند إليه، كتبه دوائر معارف وخزائن دفائن، ومدوناته ومباحثه أمثلة فريدة في التتبع والإحاطة والاستقصاء والإلمام والاستيعاب، والحق أنّ أوراقه مخازن فوائد وفرائد وأوابد وشوارد مما يختص به".

خفي علينا وعلى المؤرخين، من دور سماحة المرجع السيد علي الشيرازي الحسيني في ثورة العشرين، بل لعرفنا تفاصيل ما شاع عن سماحة المترجم له في النجف الأشرف حينها مما تناقلته المجالس وسمعه سماحة المرجع الديني الأعلى السيد علي الحسيني السيستاني (دام ظله) من المشايخ وكبار السن الذين التقى بهم سماحته بعد أن حطّ رحاله في النجف الأشرف ونقله عنهم بقوله: إنّه قد "عُرض آنذاك على السيد ميرزا عليّ أغا الشيرازي أن يُنصّب ملكاً على العراق، ولكنه لم يقبل"[١] العرض.

ومما يذكر أن خبر عرض عرش العراق على سماحة المجتهد السيد عليّ نجل المرجع الأعلى السيد محمد حسن الشيرازي المعروف بالمجدد، نقله بتفصيل وافٍ الشيخ محمد مهدي الخالصي حفيد وسميّ جده المرجع الشيخ محمد مهدي الخالصي أحد كبار زعماء ثورة العشرين الذي استدعاه المرجع الأعلى الشيخ الشيرازي من الكاظمية للإقامة في كربلاء والمشاركة في أعمال المجلس الاستشاري له، فلبّى الدعوة وحط رحاله وابنه الشيخ محمد بكربلاء[٢].

أقول: لم يُشر الشيخ محمد مهدي الخالصي حفيد المرجع الخالصي في حديث له -بثّته إذاعة جمهورية إيران الإسلامية في (١٣حزيران ١٤٠٩هـ/ ٢١ كانون الثاني ١٩٨٩م) ونشرته صحيفة إطلاعات الإيرانية- إلى زمن الترشيح وتاريخه، قال:

"هناك مسألة خاصة جدّاً لم تنعكس لحدّ الآن في المصادر التاريخية، والتي أنقلها من وثائقي الخاصة، والعائلية، وهي أنّ المرحوم الإمام الشيخ مهدي الخالصي توجّه إلى سامراء من أجل إفشال تنصيب فيصل الأول ملكاً، والتقى بالمرحوم السيد ميرزا علي نجل المرحوم الإمام الشيرازي الكبير، ودخل معه في حوار ليقنعه بالترشيح للملوكية العراق[٣]، وكان يقصد من ذلك أن يسحب البساط من تحت

(١) في حديث خاص مع سماحته (دام ظله).

(٢) ينظر: الشيخ محمد تقي الشيرازي القائد الأعلى للثورة العراقية الكبرى. سابق: ٩٦، وأثر المرجعية الدينية في الدفاع عن العراق خلال مدة الاحتلال البريطاني ١٩١٤-١٩٢٠. سابق: ٧٥

(٣) ليس هذا الطرح هو الأول الذي سعى لتولّي مرجع أو مجتهد شيعي عادل مسؤولية حكم العراق =

جميع المرشحين المرتبطين بالإنكليز؛ لأن شخصاً كالشيخ علي الشيرازي نجل الشيخ الشيرازي الكبير صاحب فتوى تحريم التنباك مقبول من جميع العراقيين، حتى رؤساء العشائر، وسُنّة العراق، ولكن مع الأسف أظهر المرحوم السيد عليّ أن هذا الأمر خارج عن طاقته. ثم سأل الخالصي: (لماذا لا ترشحون أنفسكم؟) فأجاب المرحوم الخالصي: "لقد تدخّلت بالسياسة، ولي الكثير من المعارضين. وليس لك معارضون، نحن نريد أن تكون رمزاً لاستقلال العراق)"[1]. ويا ليت المتحدّث حفيد المرجع الشيخ محمد مهدي الخالصي قد حدد لنا تاريخ ذلك العرض وتوقيته، رغم أنّ ناقل الخبر عنه علق على الخبر المتقدم بقوله: "بعد امتناع السيد عليّ الشيرازي عن قبول ترشيحه لملوكية العراق، وضياع هذه الفرصة، لم يبقَ أمام الإمام الخالصي الكبير إلّا تقييد فيصل بشروط ملزمة تضمن استقلال العراق وحقوق العراقيين، وكان الأمر يدور بين القبول به بدون قيد وبين قبوله مقيّداً بشروط لحين تهيئة الأرضية لثورة جديدة. ومن أهم الشروط: تحقيق الاستقلال التامّ والناجز للعراق، وأن يكون الملك فيصل مقيّداً بمجلس يمثل

= لضمان تطبيق العدالة في ربوعه كون الشيعة هم غالبية سكان العراق، بل سبق ذلك ما نقل عن السيد كاطع العوادي من أنه "تفاهم مع السيد اليزدي -المجتهد ونجل المرجع الأعلى السيد محمد كاظم اليزدي وممثله في جبهات القتال ضد الإنكليز- على العمل والسعي من أجل تكوين حكومة عراقية عن طريق مراجعة الإنكليز والتفاهم معهم على عقد هدنة يتركوا هم والعثمانيون بعدها العراق ويسلموه إلى أهله. وقد وافقه السيد محمد اليزدي على هذا المشروع على شرط أن يكون أبوه السيد محمد كاظم اليزدي ملكاً على العراق"، وذلك خلال اشتراكهما معاً في معركة الجهاد ضد الإنكليز في قاطع العمارة سنة ١٩١٥م، ثم بعد أن عاد كلاهما إلى النجف إثر خسارة الحرب ضد الإنكليز؛ تجدد البحث في الأمر بدعوة من السيد محمد اليزدي لزعماء من لشامية والمشخاب لعقد اجتماع في دار محسن شلاش. (السيد كاطع العوادي ودوره الوطني في الحياة السياسية العراقية ١٩٠٨-١٩٤٥: ٧٧. نقلاً عن مذكرات السيد كاطع العوادي: ١)، ولم أجد مرجعا آخر معتدّاً به يذكر هذه المعلومة. كما أنّ تصريحات المرجع الأعلى السيد محمد كاظم اليزدي المتكررة التي ينفي فيها التدخل في الوضع السياسي -كما تقدم- تعارض هذا التوجه. ولذلك فإني لا أجد نفسي مقتنعة بهذا الخبر.

(١) الإمام المجاهد الشيخ محمد الخالصي. الشيخ هاشم الدباغ: ١/ ١٣٧، نقلاً عن صحيفة اطلاعات الإيرانية في ٣٠ آذار ١٩٩١م.

الأمة، حتّى إذا ما عجز عن التقيد بهذه الشروط فإنّ العراقيين سيكونون في حِلّ من بيعته، وبذلك يبقى حق العراقيين محفوظاً في رفضه ملكاً على العراق"[١].

هذا، وقد تناول كتاب -تضمن التعريف بقائد ثورة العشرين المرجع الأعلى الشيخ محمد تقي الشيرازي- قضية عرض عرش العراق على سماحة السيد عليّ الشيرازي فرفض العرض، وعلق على ذلك مؤلفو الكتاب بما يلي: "وصادف هذا الطرح الصائب موافقة الثوار، ورؤساء العشائر العراقية الثائرة، غير أنّ السيد الميرزا عليّ الشيرازي نفسه لم ينزل عند هذا الطلب"[٢].

وإذا كان في الرواية المنقولة عن عرض المرجع الخالصي على سيدنا المترجم له منصب ملك العراق خدش، لأنّ سماحة السيد عليّ الشيرازي لم يكن آنذاك في سامراء، بل كان غادرها إلى الكاظمية، فكربلاء، فالنجف الأشرف؛ فإنّ في نقل سماحة المرجع الأعلى السيد السيستاني (دام ظله) خبر سماعه من مشايخ النجفيين الكبار ترشيح سماحة السيد علي الشيرازي الحسيني لمنصب ملك العراق، ورفض سماحته قبول العرض - كفاية، خاصة مع مؤيداته مما تقدم ذكرها، وما سيأتي.

ويبدو لي أنّ عرض المرجع الخالصي على المرجع السيد علي الشيرازي الحسيني تقلُّد عرش العراق -كما تقدم- كان بعد أن حسم الإنكليز أمر اختيار الشريف فيصل ملكاً للعراق، وهو ما استدعى المرجع الخالصي لأن يطلب من السيد المترجم له الترشح للمنصب بدل الشريف فيصل.

وإذا صح هذا الاحتمال فإن سماحة السيد علي الشيرازي الحسيني كان آنذاك في النجف الأشرف، وأن المرجع الشيخ الخالص قد قصده للنجف الأشرف وليس إلى سامراء ليعرض عليه الترشيح للعرش.

ويتضح لي جليّاً سبب رفض آية الله السيد علي الشيرازي لعرض المرجع الخالصي عليه عرش العراق، فهو إضافة إلى مزاجه الشخصي، وزهده، وتقواه،

(١) المصدر السابق: ١/ ١٣٨.

(٢) المصدر السابق نفسه. نقلاً عن كراس: الإمام القائد الشيخ محمد تقي الشيرازي. كربلاء: ٢٧.

وإعراضه عن الدنيا، لا يرتضي لنفسه، ولا للمواطنين، ولا للمرجعية، فضلاً عن العراق وشعبه الأبيّ إلّا أن يكون عزيزاً كريماً مستقلّاً استقلالاً تامّاً لا تشوب استقلاله شائبه ولا يمس كرامته تدنيس، وهو ما لا يمكن تحقيقه تحت ظل الاحتلال أو الانتداب البريطاني للعراق الذي كان يرزح تحت ضغط جيش الاحتلال البريطاني ومندوبه السامي. وستأتي برقية سماحته نيابة عن مراجع وعلماء النجف الأشرف كما ستأتي مواقفه الدالة على ذلك فيما بعد.

هذا، ولم يفتأ سماحة المترجم له عن مواصلة دوره الديني والوطني بعد تنصيب الإنكليز لفيصل ملكاً على العراق.

فمن ذلك برقية موقعة باسمه أرسلها نيابة عن علماء النجف الأشرف إلى الملك فيصل الأول في (شوال ١٣٤٠هـ/ حزيران ١٩٢٢م) بعد نشر خبر بيان المستر تشرشل في جلسة مجلس العموم البريطاني من أنّ الملك فيصلاً وحكومته لم يُخبرا بريطانيا عن رفض الشعب العراقي للانتداب، جاء في البرقية: "إنّ أمل الأمة والعلماء من جلالتكم كمال المحافظة على رغائبهم التي لا يبتغون عنها بدلاً من استقلال العراق التامّ، ورفض كل ما يمسّ بكرامته، فالرجاء تحقيق آمالهم لما هو مقتضى مقامكم"[1].

وفي البرقية إضافة لمضامين طلبها القوي بالاستقلال التام للعراق العاري عن كل تدخل أجنبي؛ رفضُ كلّ ما يمسّ سيادة الأمة ورفعتها وكرامتها وحريتها في تحقيق مصيرها بنفسها؛ كونه من واجباتكم كملك متوّج تمثيل إرادة شعبكم وتحقيق مطالبه الكبرى.

---

(١) النجف الأشرف والنظام السياسي الملكي بين سنتي ١٩٢١-١٩٢٥. د. عبد الأمير هادي العكام. بحث منشور ضمن بحوث كتاب موسوعة تاريخ النجف الأشرف السياسي الحديث والمعاصر ١٥٠٨-١٩٥٨م: ٢/ ٣٨٥، نقلاً عن مركز الوثائق ببغداد ملف رقم ٣/ ٦ ب/ ١٩٢٢. ص٢٤. وينظر: تاريخ النجف السياسي ١٩٢١-١٩٤١. سابق: ١١٤، وموقف المؤسسة الدينية في النجف من مشروع الدولة الوطنية في العراق ١٩١٨-١٩٤١. أطروحة دكتوراه مقدمة إلى مجلس كلية الآداب. جامعة بغداد من قبل. حسين عبد الواحد بدر لسنة ١٤٣١هـ/ ٢٠١٠م، وكلاهما نقل عن د. ك. و، البلاط الملكي، مضابط رفض الانتداب البريطاني على العراق، ملفة رقم (٣٩٩٧)، و(٧)، (ص١٢)، مع اختلاف بسيط بين النقول لا يعتد به.

إضافة لذلك فإن تخويل سماحته من قبل مراجع وعلماء النجف الأشرف بإرسال البرقية إلى الملك فيصل نيابة عنهم جميعهم؛ يكشف عن جلالة قدره في أوساطهم كمراجع وعلماء، وفي رفعة منزلته في الأمة كل الأمة، وفي النجف الأشرف كمدينة مقدسة. وهو ما أشار إليه المؤرخون فيما تقدم.

كما يكشف إرساله رسالة باسم المراجع وتوقيعه نيابة عنهم اهتمامه بالشأن السياسي وتصدّيه له، وإلّا لَما اختير من قبل المراجع وكُلّف نيابة عنهم بإرساله الرسالة إلى الملك فيصل نيابة عنهم.

ومما يشهد لذلك أيضاً إضافة لكل ما تقدم إرساله رسالة إلى الشيخ خزعل الكعبي أمير المحمّرة في (١٤ رجب ١٣٣٩هـ/ ٢٤ آذار ١٩٢١م) يطلب منه فيها التوسط لإصدار عفو من الإنجليز عن جميع "المسجونين والمنفيين والمشردين" من زعماء وقادة ورجال ثورة العشرين.

ومما لفت نظري فيها أمور:

أولها: أنّها الرسالة الثانية المرسلة من مراجع الحوزة العلمية في النجف الأشرف إلى الشيخ خزعل لطلب توسطه بالعفو عن الوطنيين المجاهدين بعد رسالة المرجع الأعلى السيد أبو الحسن الأصفهاني المؤرخة في (٩ رجب ١٣٣٩هـ/ ١٩ آذار ١٩٢١م)، ثم تبعتها رسائل أخرى من مراجع ومجتهدين آخرين[١].

ثانيها: أنّها متطابقة المضمون تقريباً بل الألفاظ مع رسالة المرجع الأعلى السيد أبو الحسن الأصفهاني، ما يشي بقربه منه في النظر للأمور السياسية بدليل الرسالة أعلاه، وفتواه اللاحقة بتحريم الانتخاب تحت ظل الانتداب.

ثالثها: دعاء سماحة السيد المترجم له للشيخ خزعل فيها بالتوفيق على الدوام: "حصناً ورمزاً للشيعة"[٢]. وقد تمت الاستجابة من الشيخ خزعل لطلب المراجع كما تمت الاستجابة من الإنكليز للشيخ خزعل بإصدارهم العفو عن الوطنيين.

---

(١) ينظر: وثائق الثورة العراقية الكبرى. سابق: ٥/ ١٢ و١٤ و١٥ و١٦.

(٢) المصدر السابق: ٥/ ١٣.

ثم ومن نشاط المرجع السيد علي الحسيني الشيرازي السياسي-الاجتماعي على صعيد الوطن والأمة العراقية: رفضه تزوير إرادة العراقيين، وهو ما أجاب به سماحته على استفتاء وُجّه إلى المراجع كل من أصحاب السماحة: السيد أبو الحسن الأصفهاني، والشيخ محمد حسين النائيني، وإليه، وغيرهم ورد بالنص التالي: "هل يجوز المداخلة ببعض الوجوه في انتخاب المجلس التأسيسي العراقي، أو لا يجوز لكل واحد من العراقيين بوجه من الوجوه؟ أفتونا أدام الله ظلّكم على العالمين". فأجاب سماحته في (١٨ شوال١٣٤١هـ/ ٣ حزيران ١٩٢٣م) بما يلي: "نعم لا تجوز المداخلة فيه، والإعانة عليه في هذا الحال بأي نحو كان، ومن أقدَم على شيء من ذلك فقد برئت منه ذمّة الإسلام، وعرّض نفسه لسخط الله الملك المنتقم الجبار، عظم سلطانه، نعوذ بالله من ذلك. (١٨ شوال ١٣٤١). الأحقر علي الشيرازي الحسيني"[١].

ومن أجل تأكدي من صحة نسبة هذه الفتوى إلى سماحة المرجع السيد علي الشيرازي الحسيني، وضماناً للدقة؛ فقد سألت مكتب سماحة المرجع الأعلى السيد السيستاني (دام ظله) سؤالاً لأتثبّت من صحة نسبة الفتوى إلى المترجم له، وأرسلت مع السؤال صورة للفتوى بتوقيع سماحة السيد عليّ الشيرازي الحسيني عليها، فأجابني المكتب مشكوراً بقوله: "نعم ما ذكر فتواه"[٢].

يُذكر أنّ الإنكليز ومعهم الملك فيصل وحكومته كان غرضهم من إجراء انتخاب المجلس التأسيسي الموافقة على المعاهدة العراقية-البريطانية المذلّة، وكتابة قانون أساسي أو دستور يصادر حريات الناس الأساسية في تقرير ما يشاؤون، ويمكّن السلطة التنفيذية من السيطرة السلطة التشريعية. وهو ما حصل فعلاً من خلال تزوير الانتخابات، ولذلك أفتى المراجع جميعهم بحرمة الاشتراك في الانتخابات؛ ما أدى إلى فشلها "في جميع أنحاء العراق من جنوبه إلى شماله استجابة

(١) بطل الإسلام. مذكرات الشيخ محمد مهدي الخالصي. سابق: ٢٢١-٢٢٢ هامش الصفحتين. وفي سبيل الله. مذكرات الشيخ محمد الخالصي أيضاً: ٨٥٣.

(٢) سؤال خاص وجوابه مثله.

لفتوى المرجعية الدينية"[١]، كما أدّت استجابة الجماهير لفتوى المرجعية الدينية بمقاطعة الانتخابات إلى استقالة الحكومة بعد أسبوع من صدور فتاوى العلماء وفشل الانتخابات.

توفّي المرجع السيد علي الشيرازي الحسيني في ليلة الأربعاء (١٨ ربيع الأول ١٣٥٥هـ/ ٨ حزيران ١٩٣٦م)، "ودفن بيومه في جوار والده في مقبرته الخاصة المتصلة بباب الطوسي"[٢].

وكان عليه دَين غير قليل حين وفاته "على كثرة ما كان يُجبى إليه أيام إقامته بالنجف الأشرف من الأموال من مقلِّديه"[٣].

❀ ❀ ❀

(١) دور المرجعية الدينية الشيعية في تطور الأحداث السياسية في العراق ١٩١٤-١٩٢٤. سابق: ٣٠٠.

(٢) طبقات أعلام الشيعة. نقباء البشر. سابق: ١٦/ ١٢٢١.

(٣) موسوعة العلامة الأوردبادي. سابق: ١١/ ١٣٠.

المبحث الثاني

ترشيح الشيخ خزعل الكعبي

ولد الشيخ خزعل بن جابر بن مرداو الكعبي في قرية كوت الزين بقضاء أبي الخصيب بالبصرة سنة ١٨٦٣م، وقيل سنة ١٨٦٢م، وقيل سنة ١٨٦١م، وكانت أسرته قد هاجرت من وسط العراق في القرن السابع عشر الميلادي لتستوطن ضفتي شط العرب، ولتكوّن في الأهواز إمارة مستقلة لبني كعب فيها.

لقد تدرب الشيخ خزعل على الفروسية في المحمّرة، وتولّى الإمارة سنة (١٨٩٧م) بعد مقتل أخيه مزعل بن جابر، فكان الخامس من أمرائها من أسرته. وقد ربطت الشيخ خزعل علاقات طيبة بأمراء الخليج، ونظراً لقوة إمارته وشخصيته ولتأثيره الكبير في الخليج وعلى أمراء الخليج؛ لُقّب بـ"شيخ مشايخ الخليج".

وكان الشيخ خزعل الكعبي الشيعي المذهب، المتربي على أيدي علماء وأدباء نجفيين، مؤلّفاً أديباً، صاحب مكتبة حاوية على أمهات الكتب، مولعاً بعقد مجالس الأدب والفن، وبالقراءة والمنادمة، واستقبال الضيوف من العلماء والأدباء والشعراء ومنهم الشيخ أمين الحسيني مفتي فلسطين -للحصول على دعم لترميم المسجد الأقصى فدعمه دعماً سخياً-. ونظراً لثقافته الواسعة فقد وُصف بـ"فيلسوف الأمراء، بل فيلسوف الحياة العملية"[1].

لقد وطّد الشيخ خزعل خلال مدة حكمه الارتباط بالإمبراطورية البريطانية فوقّع اتفاقيات معها خاصة بعد اكتشاف النفط في منطقته من قبل شركة النفط الأنكلو-إيرانية سنة (١٩٠٨م) رجاء أن تعترف بالمحمّرة كدولة أو إمارة مستقلة، وبه ملكاً أو أميراً عليها.

---

(١) ملوك العرب. أمين الريحاني: ٢/ ٦٨٤. وقد نقل في الصفحة نفسها عن الشيخ خزعل قوله عن (الإخوان): "إن التعصب بليّة العالم، ولو كان لي أن أرجع بعد الموت إلى هذه الأرض لَما أحببت أن يكون ذلك عندما تصبح ولا أثر للتعصب الديني، الإنسان أخو الإنسان أحبّ أم كره".

وعلى الرغم من أن الإنكليز منحوه وسام الإمبراطورية الهندية بدرجة قائد فرسان، وأن السفن البريطانية المارة أمام قصره في شط العرب كانت تطلق له مدافع التحية، وأنهم أكدوا له عبر رسالة أرسلها إليه السفير البريطاني في طهران بأنهم يحمون مشيخة المحمّرة من كل هجوم بحري تقوم به دولة أجنبية مهما كانت حجتها؛ إلّا أنها قلبت له ظهر المجن فباءت جهوده في الاعتراف رسميّاً باستقلال بلاده وبه كحاكم عليها بالفشل، وذهبت مساعيه أدراج الرياح، خلافاً لبقية العائلات الحاكمة في الخليج التي اعترفت بها بريطانيا وبهم كحكام عليها. ولعل لتشيعه الأثر الكبير في ذلك كما سنرى لاحقاً.

لقد كانت المحمّرة في وضع شبه مستقل رغم تبعيتها لإيران رسميّاً. ومذ أن استلم رضا شاه حكم إيران سنة (١٩٢٥م) قرر أن لا يبقي على الأهواز والمحمّرة شبه مستقلة، ولا على الشيخ خزعل حاكماً عليها، فأطاح بحكمه عليها واعتقله ونقله إلى قصره في طهران واحتجزه فيه، ثم قتله داخل قصره سنة (١٩٣٦م) بالسم على الأغلب. ودفن في طهران بعد أن رفض حاكمها تسليم جثته لأهله. وبعد إحدى عشرة سنة حصلت الموافقة فنُقل بعدها رفاته إلى العراق ودفن في النجف الأشرف.

لقد عُرفت عن الشيخ خزعل شدته في التعامل ليس مع أعدائه ومعارضيه فحسب، بل مع مواطني إمارته أيضاً، فقد كان يجبي الضرائب دون وجه حق، ويصرف على نفسه وقصوره، ولهوه ولعبه ببذخ، مع كرم وبذل، وشجاعة وفروسية، وحسن قراءة للأحداث، وإدارة جيدة للعلاقات مع دول المحيط، والدول الخارجية، كما عرف عنه اهتمامه بالنقل البحري لمواطنيه وتشييده لأسطول بحري عسكري قوي، وأمثال ذلك.

لقد سعى الشيخ خزعل سعياً حثيثاً لتسنّم العرش العراقي، وكان يرى في حالة تسنّمه العرش ضمّ الأهواز إلى العراق. ولذلك كتب إلى المعتمد السامي البريطاني يطلب معاضدته في تولي العرش[١]، كما شاور بعض وجهاء البصرة عن

(١) ينظر: الثورة العراقية الكبرى. سابق: ٤٢٩.

مضبطة يعدّها لتقلد عرش العراق[١]. وكاتب علماء الحوزة العلمية في دعم ترشيحه لذلك.

غير أنّ الشيخ خزعل مع ذلك كله كان يخامره شك في مسعاه؛ لعلمه بأن الإنكليز لا يسمحون له بذلك، أو لا يحبّذونه لأسباب أهمها أنه شيعي المذهب، أو يدعو للشيعة[٢] كما وصفه الإنكليز في مخاطباتهم، ولذلك صدرت الأوامر لولسون بعد أن حذّر هو في رسالة بعثها للجهات العليا من مخاطر شيعيته على العراق فيما لو تسنّم عرش هذا البلد، فأجابه رؤساؤه بالموافقة على قناعته طالبين منه "اتخاذ الخطوات اللازمة... للحيلولة دون ترشيحه"[٣].

ويرجح أنّ ما دعا الإنكليز إلى رفض ترشيحه -إضافة لما تقدم- قلقهم من قوته العسكرية المتنامية، وثرائه المالي الواسع، وشخصيته النافذة، وعلاقاته المميزة مع محيطه الخارجي، وعشيرته العراقية الكبيرة، وما لها من علاقات قوية مع العشائر العراقية الأخرى، وتواصله الوثيق بالبصرة خاصة، وجنوب العراق، والفرات الأوسط، والنجف الأشرف عامة وعلمائها خاصة، أثر في ذلك.

لقد تعاضدت الأسباب المتقدمة كلها -وفي مقدمتها شيعيته نتيجة خبرته الطويلة مع السياسة البريطانية في المنطقة، وعمق قراءته لاستراتيجيتهم في إدارتها- فنأت به عن بذل الجهد المطلوب لنيل هذا المنصب الرفيع. رغم علاقته الوطيدة بالإنكليز، ووقوفه إلى جانبهم ضد الدولة العثمانية، وعقده اتفاقيات اقتصادية استراتيجية معهم[٤] كما تقدم وغير ذلك.

ولعل أولى الإشارات الموحية لرفض ترشيحه من الإنكليز تلك الإشارة التي

---

(١) ينظر: لمحات اجتماعية من تاريخ العراق الحديث. سابق: ج٥/ ١/ ٨٧.

(٢) ينظر: ثورة النجف. سابق: ٣٦١.

(٣) ثورة ١٩٢٠ الجذور السياسية والفكرية والاجتماعية للحركة القومية العربية الاستقلالية. سابق: ٢٩٦. وتنظر: هوامش الصفحة.

(٤) يقال إنه كان ينوي ضم إمارته للعراق، وأنه أوضح ذلك في رسالتيه لنوري السعيد وجعفر العسكري.

تلقاها منهم بعدم رد الحاكم السياسي البريطاني في العراق السير بيرسي كوكس على رسالته المبكرة إليه في (٢٢ كانون الأول ١٩١٨م)، تلك الرسالة التي أوردها د. الوردي، جاء فيها ما نصه: "يظهر أن الحكومة البريطانية تبحث عن أمير للعراق، وليس هناك مرشح لائق في متناول اليد. إنّ تسعة أعشار العراق هم شيعة، والأمير يجب أن يكون شيعيّاً أيضاً، وإنّي مواطن عراقي قد ولدت وترعرت على شط العرب، وبرهنت على إخلاصي.. وسوف أعمل في كل الأمور وفق رغبات المندوب السامي وأوامره"[١].

ويعقّب د. الوردي على هذا الخبر بقوله: "إن كوكس لم يؤيد الشيخ خزعل على طلبه هذا. فقد كان رأي كوكس أنّ اختيار خزعل لإمارة العراق سيكون ذا تأثير سيئ على السنّيّين الذين كانوا ذوي النفوذ الأعظم في العراق"[٢].

فإذا أضفنا إلى ذلك ما ذكره ولسون ووزارة الهند من رأي في حال تسنّم الشيخ خزعل عرش العراق بأنّ "نجاحه من الوجهة السياسية العامة سيكون أشبه بكارثة" معللاً ذلك بشيعيّته التي بها "سيثير في جميع أنحاء العراق العداء الكامن"، ويضيف د. وميض "وبعد أيام قلائل تلقى المندوب المدني برقية من وزارة الهند تتضمن موافقتها على رأيه وتطلب منه (اتخاذ الخطوات اللازمة... للحيلولة دون ترشيحه)"[٣]؛ تأكّد لنا بأن شيعيته هي سبب رفضهم له. ناهيك عن ما وصل

(١) لمحات اجتماعية من تاريخ العراق الحديث. سابق: ٦/ ٧٧.

(٢) المصدر السابق نفسه: ٦/ ٧٧، ولعل من أوضح من لخص شعور العراقيين تجاه الشريفيين في المدة التي أتحدث عنها ما عبر عنه الشيخ عبد الواحد آل سكر أحد زعماء الثورة أمام جمع من قادتها بقوله: "وحيث أن البيت الهاشمي الشريف في مكة أنبل بيت في العالم العربي وأكثر خدمة وأشد إخلاصاً للعرب، وحيث أننا نرغب أن تكون لنا حكومة عربية مستقلة فيجب علينا أن نختار لها أحد أنجال جلالة الملك حسين ليكون ملكاً على العراق".

(٣) ثورة ١٩٢٠ الجذور السياسية والفكرية والاجتماعية للحركة القومية العربية الاستقلالية. د. وميض جمال عمر نظمي: ٢٩٦، وينظر هامش الصفحة. وينظر أيضاً ما دار في مؤتمر القاهرة كسبب لإقصاء الشيخ خزعل عن عرش العراق في: الثورة العراقية الكبرى. الحسني: ٤٣٥.

الشيخ خزعل لاحقاً من رأي مبعوثه الشخصي مزاحم الباجه جي إلى بغداد وغيرها من المدن ليستكشف له مدى إمكانية فوزه بالعرش، فكتب إليه مبعوثه رسالة من البصرة في (٢٨ جمادى الثانية ١٣٣٩هـ/ ٩ مارس ١٩٢١م) جاء فيها: "... إنني اختبرت الحالة جيداً وعرفت بواطنها وظواهرها، وصدقي مع سموكم يجبرني أن أقول ذات القول الذي قلته قبل شهر، وهو أن المسألة أصبحت منتهية، والسعي فيها لا أرى فيه أقل نفع، إذا لم يكن فيه بعض الضرر"(١). فطوى عنها الشيخ خزعل كشحاً.

أعود فأقول: لقد تصدّى الشيخ خزعل لعرش العراق، وإنّ اسمه طُرح للملوكية في اجماع عقده زعماء الثورة النجفيون سنة (١٣٣٩هـ/ ١٩٢٠م) مقدمة لجوابهم عن سؤال نائب الحاكم الإنكليزي أرلوند ولسون عن أي ملك يفضلون لعرش العراق، فاقترح أحد المجتمعين "تمليك الشيخ خزعل لأنه شيعي، فرد عليه محمّد العبطان بأن القضية إسلامية لا سنّية ولا شيعية"(٢).

وعلى الرغم من طلبين تلقاهما من عالمين كبيرين من علماء النجف الأشرف حينها، يحثّانه في رسالتيهما إليه على العمل النشط لتسنّم عرش العراق إلّا أن الإنكليز أصروا على رفض ترشيحه.

أما أولى الرسالتين فكانت من سماحة العالم الكبير الشيخ علي آل جعفر كاشف الغطاء أحد وجوه أسره آل كاشف الغطاء موجهة إلى الشيخ خزعل الكعبي مؤرخة في (٢٣ رجب ١٣٣٩هـ/ ٢ نيسان ١٩٢١م)، وثانيهما من سماحة المجتهد الشيخ عبد الكريم الجزائري عصب ثورة العشرين النابض.

أما الرسالة الأولى الصادرة من سماحة الشيخ آل كاشف الغطاء، فقد حثّ فيها الشيخ خزعل على ترشيح نفسه لعرش العراق، ذاهباً فيها إلى أنه لو رشح نفسه للملوكية بجدية "لَما احتاج العراقيون إلى الشريف وغيره"، مضيفاً إلى ذلك

(١) دور الشيعة في تطور العراق السياسي. سابق: ملحق رقم ١٤: ٢٨٤.

(٢) تاريخ النجف الأشرف. سابق: ٣/ ٢٨٨.

قوله: "الأمل فيك ألّا تُحوِجَ العراقيين للالتجاء لغيرك في تولّي أمورهم، ويتمّ بك استقلال العراق"(١).

وأما الرسالة الثانية الصادرة من سماحة المجتهد الشيخ عبد الكريم الجزائري في (٢٣ رجب ١٣٣٩هـ/ ٢ نيسان ١٩٢١م) أيضاً؛ فقد ضغط فيها على الشيخ خزعل الكعبي لترشيح نفسه ملكاً على العراق مستغرباً من توانيه عن الترشيح، مبيناً له مؤهلاته التي لا تدانيها مؤهلات غيره، ملزماً إياه بتدارك إعراضه عن الشأن العراقي العام، مشيراً إلى فوزه بالعرش إن نشط؛ وذلك لِما له من الخصوصية على من سواه من المرشحين الآخرين.

يذكر أن علاقة وطيدة تربط سماحة الشيخ الجزائري بالشيخ خزعل، فالشيخ خزعل "من أكثر المخلصين للشيخ عبد الكريم الجزائري، ومن مقلديه، والمقتدين به، والآخذين برأيه والمطيعين لأمره"(٢)؛ لذلك كتب إليه الشيخ الجزائري ما يلي: "لا يخفى، إنّي أعجب كل العجب منك، مع علمي بمعرفتك وعقلك، تجنبك في هذه المدة عن أمور العراقيين، مع أنك تربطك بهم رابطة المذهب، والوطن، واللسان، هذا مع قطع النظر عن الخصوصيات السابقة مع آبائك، وبالأخص النجف، فإن آثاركم بها قديماً وحديثاً، والآن بعد أن شاع أن الدولة البريطانية قد أعطت الحرية للعراقيين بانتخاب من يشاؤون لأمورهم العامة، وأنت لك الخصوصية على من سواك في هذا الأمر، فلو أعطيتهم بعضك لأعطوك كلّهم. فتدارك ما مضى من إعراضك وأقبل عليهم"(٣).

لقد استمر الشيخ خزعل على سعيه لنيل المنصب حتى بعد قرار مؤتمر القاهرة بترشيح الشريف فيصل لعرش العراق، غير أنه جُوبِهَ برفض بريطاني شديد لترشيحه. وهو ما أوضح تفاصيله السير برسي كوكس في رسالة سرية بعثها إلى

---

(١) وثائق الثورة العراقية الكبرى. سابق: ٥/ ١٥.

(٢) هكذا عرفتهم. سابق: ١/ ٣٧٣. وتنظر: ١/ ٣٧٤-٣٧٥.

(٣) وثائق الثورة العراقية الكبرى سابق: ٥/ ١٦.

وزير خارجية المستعمرات البريطاني تشرشل وتسلمتها وزارة المستعمرات البريطانية في (٤ شعبان ١٣٣٩هـ/ ١٣ نيسان ١٩٢١م) يدعوه كوكس فيها إلى أن يرسل برقية إلى الشيخ خزعل لثنيه عن الترشيح "وكبح نشاطاته"؛ لأنه "بمجرد دخوله قائمة المرشحين والتماس أصوات الناخبين في كربلاء والنجف فإنّ اختلافاً شاقّاً مزعجاً سوف يحدث"؛ وذلك لشيعيّته بالدرجة الأساس ولعلاقته بوجوه المدينتين المقدستين المؤثرين جدّاً على قناعات شيعة العراق، وهم أغلبية السكان.

لقد جاء في رسالة بعثها المندوب السامي البريطاني في العراق إلى وزير خارجية المستعمرات البريطانية تشرشل. إضافة لما تقدم ما يلي: "في مساء ٧ نيسان لدى وصولي البصرة قابلني شيخ المحمّرة... كان الشيخ مشغولاً في أثناء الأسابيع الستة الماضية وقدّم عدداً من الرسائل من مختلف أعضاء الحوزة في كربلاء والنجف -ربما منهما رسالة الشيخ الجزائري وكاشف الغطاء لأن تاريخهما متقدم على لقائه به- يدعو فيها بنشاط لنفسه للاشتراك في شؤون العراق. وعبّر عن ثقة عظيمة في فرصه في الحصول على تأييد أكثرية الشعب. أجبته -يقول كوكس-: إنني واثق أنه يخدع نفسه... ولكنه ظل متمسكاً باعتقاده أنه سوف ينجح نجاحاً عظيماً... واستمر قائلاً إنهم ألحّوا عليه للذهاب إلى الأماكن المقدسة للزيارة، فوافق مؤقتاً على الذهاب، ورغب في تنفيذ نيته الآن ما لم أعترض عليه بشكل واضح... ولكنني لا أستطيع منعه من زيارة الأماكن المقدسة. ولكني طلبت منه تأجيل قراره أياماً حتى أصل بغداد وأقرر... ويسرني أن يُقضى على المشروع في مهده بطريقة ودّية إذا استطعنا إيجاد طريقة... سوف تجعل الشيخ يتوقف في نشاطاته، ويعطي فرصة لمرشحين آخرين للتطور، ولكبح نشاطاته"[1].

ورغم وضوح عدم موافقة الحكومة البريطانية على ترشيح الشيخ خزعل إلّا أنه لم يقطع الأمل بمسعاه تماماً، فقد حاول الشيخ خزعل بعد ذلك جسّ نبض بعض كبار السياسيين حينها؛ فكتب إلى نوري السعيد، وجعفر العسكري، وربما

(١) العراق في سجلات الوثائق البريطانية. سابق. المجلد الثاني ١٩١٨-١٩٢١: ٥٧٧-٥٧٨.

غيرهما، يطلب منهما دعم ترشيحه للمنصب، فأجاباه برسالتين موقعتين في يوم واحد (٢٧ نيسان ١٩٢١م/ ١٨ شعبان ١٣٣٩هـ) معتذراً كلٌّ منهما في رسالته الجوابية إليه بنص واحد هو: "... أما المسألة المعهودة أعتذر عنها، حيث سبقت في العهود بعدم الاشتغال بالسياسة، لانتسابي للجيش"[١].

وإذ يئس الشيخ خزعل من احتمالية نجاح مسعاه وخاصة بعد الرفض البريطاني الأخير المغلّف بنصيحة ودّية يحسن قراءتها الشيخ خزعل جيداً؛ قرر سحب ترشيحه من التنافس على عرش العراق نزولاً عند رغبة الإنكليز. فقد ورد في رسالة بعثها المندوب السامي إلى وزير الخارجية لشؤون المستمرات البريطاني في (٩ حزيران ١٩٢١م) قول السير بيرسي كوكس فيها ما يلي: "شيخ المحمّرة كفّ عن المنافسة، وقد أخبر أصدقاءه أنه فعل ذلك بناء على نصيحتي الودية"[٢].

❀ ❀ ❀

(١) وثائق الثورة العراقية الكبرى. سابق: ٥/ ١٦ و١٨.

(٢) العراق في سجلات الوثائق البريطانية. سابق. المجلد الثاني ١٩١٨-١٩٢١: ٦١٩.

المبحث الثالث

ترشيح السيد طالب النقيب

ولد طالب بن رجب النقيب سنة (١٨٧١م) في البصرة من أسرة معروفة بالتصوف هي أسرة السيد الرفاعي الحسنية، درس القرآن وعلوم اللغة أولاً، ثم تعلم اللغة التركية والفارسية والإنكليزية، وترقّى في مناصب الدولة العثمانية وصولاً إلى عضوية مجلس المبعوثان العثماني سنة ١٩٠٨م، ثم سنة ١٩١٢م، ثم ثالثاً في سنة ١٩١٤م.

يصف المؤرخون السيد طالباً النقيب بأنه الرجل النبه، الجريء، المجازف، القومي الاتجاه، الطامح والطامع بالمنصب، الساعي إليه بكل الوسائل والطرق الممكنة، أيّاً كانت، صاحب الشخصية الاجتماعية والسياسية، الانفعالية، القصيرة النظر، فتراه تارة مع العثمانيين، وتارة ضدهم، وتارة ضد الإنكليز وأخرى معهم، المعارض الصلب لثورة العشرين[١]، والمؤيد علناً للإنكليز[٢]، والممجد للانتداب البريطاني على العراق[٣]، السنّي المذهب، والمجاهر "بأن مصلحة العراق متوقفة على قبول الانتداب البريطاني"[٤]، حاكم البصرة أيام العثمانيين، القاسي جدّاً على مخالفيه، العطوف جدّاً على الفقراء، والمبتزّ لأغنياء البصرة كلما احتاج إلى مال. ومن طريف ما يحكى عن ابتزاز السيد طالب للأثرياء، أنه كان يقترض من تجار البصرة مالاً مقابل سند موقّع منه يدفعه إليهم، وهم يعرفون أن لا مجال لاسترداد الدين مطلقاً ولا حتى المطالبة بقيمته مطلقاً. وذات مرة اجترأ أحد التجار وطالب السيد طالب

---

(١) ينظر: لمحات اجتماعية من تاريخ العراق الحديث: ٥/ ١/ ٨٩-٩١، نقلاً عن مذكرات المس بيل خلال اجتماعها بالنقيب في داره بتاريخ ٨/ ٢/ ١٩١٩. وينقل عنها أيضاً في: ٥/ ٢ متحدثة عن النقيب: "ولا ننسى أيضاً أنه عديم الضمير، ولكن مصالحنا ومصالحه واحدة" تلك الحقبة.

(٢) المصدر السابق: ٥/ ٢/ ٦. والمصدر نفسه: ٥/ ٢/ ٣١.

(٣) ينظر: الصحافة في العراق. رفائيل بطي: ٥٤ متحدثاً عن جريدة (الشرق) التي أصدرها طالب النقيب ببغداد.

(٤) المس بيل. سابق: ٤٣٤.

بقيمة سند له عليه، فغضب السيد طالب منه وأمره أن يبلع السند حالاً ويشرب فوقه الماء، وقد فعل التاجر ما أمره به خوفاً ورهقاً. ولمّا استدعاه السيد طالب مرة أخرى طالباً منه قرضاً جديداً أخذ التاجر يتوسل إليه راجياً أن يكتب السند هذه المرة على صفحة قمر الدين لكي يسهل بعدئذ عليه بلعها[١]. وينقل الوردي عن المس بيل قولها عن النقيب: "إننا إذا لم نمده بالمال فإنه سيحصل عليه بطريقة الابتزاز، وهي الطريقة التي هو خبير بها"[٢].

يتحدث المؤرخون عن مساعي السيد طالب للفوز بعرش العراق تحت شعار حملته (العراق للعراقيين)، ثم بعد أن عُيّن وزيراً للداخلية في أول حكومة شكلها الإنكليز برئاسة السيد عبد الرحمان النقيب، "وافق طالب على أن يكون الذراع الضاربة ضد الحركة الوطنية ومكافحة نشاطتها وقادتها بصفته وزيراً للداخلية"[٣]، وكيف أنه استهلها في (٨ آذار ١٩٢١م) بنقاق واضح، بادئاً "جولته في الألوية الجنوبية التي استغرقت ثلاثة عشر يوماً. وكان يصحبه فيها زمرة من أصحابه المؤيدين... وقد بذل السيد طالب في جولته مبالغ طائلة من المال، وكان أنصاره يقيمون له في كل بلدة استقبالاً فخماً وولائم كثيرة، وكان هو يخطب في الناس يحبّب نفسه إليهم ويبشر بالمبادئ التي توافق معتقداتهم وميولهم... وفي خلال جولته أخذ السيد طالب يعلن للناس أنه سيبذل كل جهده لإطلاق سراح المعتقلين السياسيين الذين ساهموا بثورة العشرين... وكانت خطبته في النجف نموذجية في هذا الشأن، حيث ضرب بها على أوتار القلوب، ننقل فيما يلي نبذة مما قاله هناك... ولا سيما في النجف الأشرف وكربلاء -حيث قال- (رأيت من الواجب عليّ أن استمد من أفكار وآراء الرجال الخيرين والعلماء المجتهدين... عما يلزم العمل به لإحياء مآثر

(١) لمحات اجتماعية من تاريخ العراق الحديث. سابق: ٤/ ٢١٨.

(٢) المصدر السابق: ٥/ ٢/ ٢٩.

(٣) ثورة ١٩٢٠ الجذور السياسية والفكرية والاجتماعية للحركة القومية العربية الاستقلالية في العراق. سابق: ٣٦٣.

الدين والتماس سبل الحضارة... إنّ أملي الوطيد يجعلني حسن الاعتقاد بحضرات مؤيدي الشريعة الغراء وهممهم العالية... وأدعو الله بحرمة أجدادي الطاهرين ولا سيما جدي الأعظم سيدي ومولاي أمير المؤمنين عليه السلام الذي أعاهدكم على تحقيق آمالكم أمام حضرته المقدسة)"[١] متجاهلاً تعهده المتقدم الذكر بأنه سيكون اليد الضاربة ضد الحركة الوطنية.

غير أن رأي ولسون فيه كان واضحاً وقاطعاً بقوله: "إنّ طالب ليس رجلاً يمكن أن ينسجم بسهولة مع المؤسسات التمثيلية المحلية، إلّا أنه يبدو حسن النوايا وحريصاً على التعاون بشكل صادق"، ثم أعقب ذلك برسالة أخرى لاحقة جاء فيها: "إنّ طالب يطمح في منصب لا يقل عن إمارة ما بين النهرين، أو على الأقل رئاسة المجلس. إنّ طالب قادر على ملء المنصب الأخير، إلّا أنه شرّير جدّاً، ومكروه جدّاً بحيث أنّ الحكومة -البريطانية- لن ترشحه"[٢].

وقد وافقت المس بيل رأي ولسون في السيد طالب بوصفها له بأنه: "أمهر وأعظم شرّير موجود في البلد"[٣]. وقالت أيضاً: "لم أصادف أبداً إنساناً مثل طالب يتركز العالم كله في شخصه... وكل أفكاره تدور حول تحسين أوضاعه الخاصة، إنه الشغل الفريد لنفسه"[٤].

وحين أدرك طالب النقيب أنّ فرصة تنصيبه ملكاً على العراق باتت مهددة بالضياع خاصة بعد أن تغيّر رأي أعلى سلطة محتلة تحكم العراق فيه، فقد "كان برسي كوكس مع فكرة ترشيح طالب النقيب رئيساً للوزراء"[٥]، ثم استبدله باختيار

---

(١) لمحات اجتماعية من تاريخ العراق الحديث. سابق: ٦/ ٥٧-٥٨.

(٢) ثورة ١٩٢٠ الجذور السياسية والفكرية والاجتماعية للحركة القومية العربية الاستقلالية في العراق. سابق: ٣٦٠ وينظر هامش الصفحة :

(٣) العراق في رسائل المس بيل (١٩١٧-١٩٢٦) ترجمة وتعليق د. جعفر الخياط: ١٣٧-١٣٨.

(٤) ثورة ١٩٢٠ الجذور السياسية والفكرية والاجتماعية للحركة القومية العربية الاستقلالية في العراق. سابق: ٣٦١، وينظر هامش الصفحة.

(٥) المس بيل بين الفصول والرسائل. رهبة أسودي حسين: ٦٦.

عبد الرحمن النقيب؛ حاول أن يجرب حظه كمحاولة أخيرة مستغلا زيارة المستر لانسون مندوب جريدة الديلي تلغراف اللندنية ليقيم وليمة "سالت الخمرة خلالها كما يسيل الماء"، وذلك في مساء نيساني جميل من سنة (١٩٢١م)، حضرها القنصلان الفرنسي والإيراني ومندوب جريدة الديلي تلغراف اللندنية، وعدد كبير من المدعوين بينهم عدد من شيوخ العشائر، كالشيخ محمد أمير ربيعة، والشيخ سالم الخيون شيخ الجبايش، "وفي نهاية الدعوة نهض ليخفف عن قلبه شيئاً من العبء السياسي الذي كان أكثر مما يمكن تحمله. وكان فحوى حديثه أنّ شائعات تعيين فيصل ملكاً أخذت تملأ الأندية والمحافل، وهو يود أن يوضح للحكومة البريطانية أن أهالي العراق لا يريدون فيصلاً ولا يتساهلون في فرضه عليهم... وأن الحكومة البريطانية كانت قد وعدت بأننا سننتخب شكل الحكومة الذي نريده بحرية، وإني أحتج ضد أي تغيير يطرأ على ذلك الوعد"، وفي رواية أخرى أنه قال بعد ذلك: "وإذا لم تفعل فإنّ هناك محمد الأمير لديه ثلاثون ألف بندقية يريد أن يعرف السبب في ذلك، كما أن هناك شيخ الجبايش بجميع أفراد عشيرته... وأنه إذا بدرت أقل إشارة من الحكومة البريطانية بالتحيز نحو أحد الجانبين، فإن النقيب مستعد أن يرفع شكواه إلى العالم الإسلامي، إلى الهند والقاهرة وإسطنبول، وإلى باريس أيضاً"[١].

وإذ قدمت المس بيل تقريرها إلى السير بيرسي كوكس بما حدث، عدّ كلمة السيد طالب النقيب بمثابة تهديد بإعلان الثورة، فقرر اعتقاله بعد خروجه من "عند الليدي كوكس حيث تناول الشاي معها، وكان في زيارتها عدد من الموظفين الإنكليز وزوجاتهم، ولم تكن المس بيل حاضرة لانشغالها بأمور العمل"[٢]، كما تضمن قراره نفي السيد طالب إلى خارج العراق، وهكذا كان، حيث نفي إلى سيلان في ١٦ نيسان ١٩٢١م.

❀ ❀ ❀

(١) لمحات اجتماعية من تاريخ العراق الحديث. سابق: ٦/ ٦٤-٦٥.

(٢) المس بيل بين الفصول والرسائل. سابق: ١٦٨.

المبحث الرابع

ترشيح أحد أبناء الشريف حسين

وفيه مطلبان:

المطلب الأول: التعريف بسيرة فيصل بن الحسين بعد انحصار الأمر به.

بادئ ذي بدء يحسن بي أن أذكر بأنّ الشريف حسيناً والد الشريف فيصل حين أعلن ثورته المسماة بالثورة العربية الكبرى في الحجاز (٩ شعبان ١٣٣٤هـ/ ١٠ يونيو ١٩١٦م) منحازاً إلى جانب الحلفاء ضد العثمانيين في الحرب العالمية الأولى، كان هذا الموقف حسب قناعة ابنه الشريف فيصل "أعظم عمل سياسي تستفيد منه الدول المتحالفة"[1].

لقد دعت الحكومة البريطانية الشريف الحسين بن علي إلى الثورة ضد العثمانيين، وحثته عليها وقررت دعمه مادياً وعسكرياً ولوجستياً وتسليحياً للقيام بها بعد عقدها اتفاقية معه تضمنتها رسائل سميت بـ(رسائل حسين-مكماهون) كما سيأتي بيان ما تضمنه فيما يخص العراق لاحقاً.

ثم كان أن انتصر الحلفاء في الحرب العالمية الأولى وهزموا الدولة العثمانية فقرروا تقاسم تركتها في مؤتمرهم بمدينة سان ريمو الإيطالية في (شعبان ١٣٣٨هـ/ إبريل١٩٢٠م) متفقين على أن تكون سوريا تحت الانتداب الفرنسي، والعراق وفلسطين تحت الانتداب البريطاني. إثر ذلك زحفت القوات الفرنسية على سوريا فاحتلتها ودخلت دمشق وأجبرت ملكها يومذاك فيصل بن الحسين على الخروج منها بالقوة، فخرج يجرجر بأذياله مرغماً قانطاً حزيناً يائساً مهزوماً.

---

(١) مذكرة الملك فيصل عن القضية العربية المقدمة إلى الحكومة البريطانية. نقلاً عن كتاب فيصل بن الحسين ومضات من سيرة الملك الزعيم. سابق: ٢٢٦.

عند ذاك ارتأت بريطانيا أنّ الشريف فيصلاً أفضل لها من أخيه الشريف عبد الله لتحقيق مآربها ومصالحها في العراق بعد أن كان مقرراً أن يكون عبد الله هو الملك المرشح لعرش العراق، فقررت حكومتها في (٢٣ ذي القعدة ١٣٣٨هـ/ ٨ آب ١٩٢٠م) مفاتحة فرنسا التي أطاحت بفيصل في سوريا تسألها: "هل لديها اعتراض على تنصيب فيصل في العراق؟ فردّت الحكومة الفرنسية تقول إنها تعترض على ذلك كل الاعتراض. وقال وزير الخارجية الفرنسية لرئيس الوزارة البريطانية: إنّ فيصل (كذا) ذو أخلاق ضعيفة، وإنه خطر. فرد عليه رئيس الوزارة البريطانية قائلاً: إنّ فيصل (كذا) كما تصفه، ولكن شيوخ العراق يريدونه، وإذا وافقت الحكومة الفرنسية على تنصيبه، فإنّ في مقدورنا الاستغناء عن السبعين ألف جندي الذين يضبطون الأمن في العراق الآن"[١].

وتعقيباً على ما زعمه رئيس الحكومة البريطانية، وخلافاً له، أذكر أنّي في حدود تتبعي لم أعثر على أي دليل يعتمد عليه حينها يشير إلى أنّ الزعماء العراقيين فضّلوا فيصلاً على أخيه عبد الله لعرش العراق قبل اختيار بريطانيا له ملكاً، بل وجدت العكس؛ ذلك أنّ بعض المضابط الصادرة من قسم من المدن العراقية المهمة تنص على ترشيح عبد الله وليس فيصلاً لعرش العراق، ولكن المصالح البريطانية اقتضت تفضيل فيصل على أخيه، وفق ما تحدث به المسؤول البريطاني الكبير في العراق كورنواليس ومستشار الملك فيصل لاحقاً حين قال: "إنّ فيصل (كذا) أفضل من أخيه عبد الله كثيراً، وأنه سوف يخدمنا بإخلاص وكفاءة"[٢]، وهكذا كان، فقد استبدلت بريطانيا الشريف عبد الله بفيصل بعد أن استدعت فيصلاً إلى لندن وعرضت عليه شروطها، فاستجاب لها بعد تواصله بذلك مع أبيه الشريف حسين صاحب مشروع الثورة العربية الكبرى.

إنّ تغيّر القناعة البريطانية باتجاه أفضلية الشريف فيصل على الشريف عبد الله

(١) لمحات اجتماعية من تاريخ العراق الحديث. سابق: ٦/ ٤٦. وينظر هامش الصفحة.

(٢) المصدر السابق: ٦/ ٤٧.

لعرش العراق هو ما استدعى الشريف حسيناً لأن يتحدث أمام زعماء ثورة العشرين الذي وصلوا إلى الحجاز بعد انطفاء لهب ثورة العشرين عن مشروع ثورته العربية الكبرى لضيوفه العراقيين في (٢٢ شعبان ١٣٣٩هـ/ ١ مايس ١٩٢١م) قائلاً لهم: "... وقد وزّعنا تلك الشعوب -العربية- إلى مماليك، كما قسّمنا تيجانها على أنجالنا، هم: الملك عليّ وليّ عهدي على نجد والحجاز، والملك فيصل ملك لسوريا ولبنان بما فيها فلسطين وشرق الأردن، وأنتم هاتفين باسم عبد الله لعرش العراق، أما اليمن فنرسل إليه الأمير زيد (كذا)، ولم يذكر مصر".

وأضاف الشريف حسين في مسعى منه للتغطية على قرار بريطانيا بترشيح الشريف فيصل لعرش العراق بدلاً من الشريف عبد الله قائلاً لضيوفه العراقيين الملتجئين إليه بعد انتهاء ثورة العشرين: "لقد حصلت مشكلة وحلّها في أيديكم، والمشكلة هي وقوع اختلاف شخصي بين الملك فيصل والفرنسيين مما تسبب بخروجه من سوريا، وقد راجعنا الحلفاء وقالوا لنا لا نتمكن من حل القضية إلّا عن طريق واحد... وذلك أن يكون فيصل ملكاً للعراق، وعبد الله لسوريا ولبنان، وهذا مشروط بتنازل العراقيين عن مناداتهم باسم عبد الله ملكاً، وقبولهم بفيصل بديلاً عنه، هذا ما قاله الملك حسين نصّاً بالحرف الواحد"[1]. فوافق الزعماء العراقيون على طلب الإنكليز بعد أن كان العراقيون "ينظرون إلى عبد الله على أنه رجلهم ويصرحون بأنهم لن يقبلوا فيصلاً بأي ثمن"[2]، وذلك نزولاً عند إرادة مضيّفهم الشريف حسين تبعاً للإنكليز، حيث لا خيار لهم ذلك الوقت سواها.

يذكر أن تقريراً صادراً عن القسم السياسي بدائرة الهند البريطانية في (٦ محرم ١٣٣٨هـ/ ١ تشرين الأول ١٩١٩م) جاء فيه -من جملة ما جاء فيه تفاصيل عن لقاء أجراه الكولونيل فيكيري مع الشريف عبد الله عن العراق- قول الشريف للكولونيل: إنّي "أحبّ العراق لأنّ أهله أكثر تحضّراً من أهل الحجاز، وتوجد فيه

(١) مذكرات السيد محسن أبو طبيخ. سابق: ٢١٠ و٢١١ على التوالي.

(٢) العراق في سجلات الوثائق البريطانية. سابق. المجلد الثاني: ٣١٩.

طبقة فكرية يمكن الترابط معها، في حين لا يوجد مثلها في الحجاز. إنّه يودّ أن يكون أميراً في العراق إذا ضمن الدعم والعون البريطاني".

ويعقب الكولونيل الإنكليزي على حديث الشريف عبد الله في تقريره نفسه بقوله: "... وبعد مزيد من الحديث تكوّن لدي انطباع أن الأمير لو خُيّر فإنه يفضّل أن يكون أميراً على العراق من أن يكون ملكاً على الحجاز"[١].

لِما تقدّم؛ فقد عنونتُ المبحث الرابع بترشيح فيصل لعرش العراق بدلاً من ترشيح أحد أنجال الشريف حسين له، بعد أن حسم الإنكليز الأمر له، حيث لم يعُد بعدُ داعٍ للتعريف بالشريف عبد الله، كذلك لم يعُد بعدُ داعٍ لبيان تفاصيل كيف ضغطت بريطانيا على الشريف عبد الله ليتنازل مُكرَها عن عرش العراق لأخيه الشريف فيصل بعد أن هدده الوزير البريطاني تشرشل بأنه إذا لم يتنازل عن عرش العراق لفيصل فسيخسر الشريفيون كل شيء، وهو ما أوضحه الأمير عبد الله بجلاء في مذكراته متحدثاً عن تهديد تشرشل له إن لم يتنازل عن عرش العراق لأخيه فيصل بقوله: "إنكم إنّ لم تفعلوا هذا ستضيّعون كل شيء، وإن إمكان ابن سعود أن يصل إلى مكة في ثلاثة أيام"[٢]، طبعاً بأمر الإنكليز لهم بذلك.

لذا فسأقتصر على التعريف بسيرة الشريف فيصل فيما يلي بإيجاز.

ولد الشريف فيصل بن الحسين بن علي الولد الثالث لأبيه في مكة المكرمة أو الطائف على قولين سنة (١٣٠٠هـ/ ١٨٨٣م) على الأشهر، من أسرة شريفة يتصل نسبها بالإمام الحسن بن علي بن أبي طالب عليه السلام، وعاش سِنِيّ حياته الأولى في الصحراء، ثم عاد منها إلى مكة لتلقى تعليمه الأولي فيها، غير أن مدة إقامته في مكة لم تدم طويلاً؛ فقد استُدعي أبوه من قبل السلطان عبد الحميد إلى إسطنبول سنة (١٣١٠هـ/ ١٨٩٣م) ليلتحق به أولاده الثلاثة عليّ وعبد الله وفيصل بعد حدود سنة.

---

(١) العراق في سجلات الوثائق البريطانية. سابق. المجلد الثاني: ٣٢٢.

(٢) لمحات اجتماعية من تاريخ العراق الحديث. سابق: ٦/ ٥٣ نقلاً عن: مذكراتي. لعبد الله بن الحسين ١٨٠-١٨٢.

لقد تعلم فيصل خلال وجوده في إسطنبول اللغة التركية واللغتين الفرنسية والإنكليزية، وعندما بلغ الحادية والعشرين من العمر تزوج من ابنة عمه الشريف ناصر بن علي. وفي سنة (١٣٢٦هـ/ ١٩٠٨م) استُدعي الشريف حسين من قبل السلطان عبد الحميد إلى القصر ليقلده منصب إمارة مكة المكرمة، فعاد أميراً على المدينة المكرمة وعاد فيصل إليها أيضاً، ليرسل بعدها سنة (١٩١٢م) نائباً عن لواء (جدة) في مجلس المبعوثان العثماني.

زار الشريف فيصل دمشق سنة (١٩١٣م) وأقام علاقات مع بعض وجهائها.

وإذ وقعت الحرب العالمية الأولى ونما إلى سمع الشريف حسين خبر عزم العثمانيين عزله عن إمارة مكة من جهة، ولحاجته إلى قوة عظمى يستطيع من خلالها تحقيق طموحاته في تشكيل دولة خلافة عربية بزعامته من جهة أخرى؛ عقد اتفاقية مع الإنكليز يعلن بموجبها الثورة بدعمهم وتسليحهم وتمويلهم وقيادتهم ضد العثمانيين كما سيأتي لاحقاً، فأسند إلى ابنه فيصل وإلى إخوانه الشرفاء -عبد الله وعلي وزيد- قيادة قواته العربية المتجهة لمقاتلة جيوش الدولة العثمانية، فكان كل همّ وطموح الشريف فيصل الرئيس هو إجلاء القوات التركية عن المدينة المنورة.

ويبدو أن فيصلاً الطامح بالإمرة "لم يتوقع -في حالة فوزه- أن يتم تخصيص الكثير من الأراضي له بعد الحرب مع العثمانيين في شبه الجزيرة العربية، ولقد أدرك أنه يجب أن يبحث في مكان آخر، وشجعه لورنس -ضابط الاستخبارات البريطاني ومستشاره الخاص- على هذا الطموح، الذي رأى أنه يسهّل تحقيق أهدافاً (كذا) استراتيجية أوسع لبريطانيا"[١] فيما لو توجّه فيصل ببصره إلى دمشق.

لقد أناطت القوات البريطانية -المحاربة للجيش العثماني والمتجهة إلى احتلال دمشق عبر احتلال فلسطين- بالشريف فيصل إمرة الجيش الشمالي تحت قيادة عامة تولاها القائد العسكري البريطاني أللنبي، فدخل فيصل إلى دمشق بإسناد عملياتي

(١) لورنس العرب. ديفيد مواري: ٣٦.

وتسليح بريطاني بعد أن دخلتها قوات أللنبي قبله بجيش "ثوار الفرسان الأسترالي الخفيف الثالث"، فأجلى العثمانيين عنها فجر يوم (٢٥ ذي الحجة ١٣٣٦هـ/ الأول من تشرين الأول ١٩١٨م). ومع ذلك فقد "منح البريطانيون... قبول استسلام المدينة للحلفاء إلى جيش فيصل العربي مكافأة لحلفائهم الهاشميين"[١]، ليعلن فيصل بعد ذلك تأسيس حكومة عربية برعاية بريطانية في كل من دمشق وحلب[٢]، وبعد عام اشترك فيصل بمؤتمر السلام بباريس ليعرض أمام الدول الكبرى هموم الدول العربية ومنها العراق.

ثم وبعد صدور قرار الانتداب البريطاني-الفرنسي سيئ الصيت على الدول العربية التي كانت خاضعة للدولة العثمانية؛ فرضت بريطانيا انتدابها على العراق وفلسطين، وفرضت فرنسا انتدابها على سوريا. عندها عزمت القوات الفرنسية على احتلال سوريا فزحف الجيش الفرنسي إلى حدود سوريا ووجه قائده الجنرال غورو انذاره إلى ملكها فيصل في (شوال ١٣٣٨هـ/ تموز ١٩٢٠م) متضمناً من بين شروط أخرى قبوله بالانتداب الفرنسي على سوريا، وتسريح الجيش السوري، وعلى فيصل قبول الإنذار خلال أيام.

لقد عزم المناضل الوطني الشاب يوسف العظمة وزير الحربية السوري الخروج بنفسه إلى المعركة التي سميت بمعركة ميسلون أو مجزرة ميسلون في (٨ ذي القعدة ١٣٣٨هـ/ ٢٤ تموز ١٩٢٠م)، وكان العظمة من أشد القائلين بالدفاع عن الوطن حتى النفس الأخير، فقرر أن يذهب أولاً لتوديع فيصل قبل خروجه للجبهة العسكرية، فجرى بين الملك فيصل ووزيره العظمة حوار -نقله أحمد قدري الذي كان حاضراً ذلك اللقاء- جاء فيه قول الوزير لفيصل بعد أن سلّم عليه سلاماً عسكريّاً: "أتيتُ لتلقّي أوامر جلالتكم، فأجابه الملك (بارك الله فيك،

(١) سقوط العثمانيين. الحرب العظمى في الشرق الأوسط. يوجين روغان: ٤٨١ على التوالي.

(٢) ينظر: العراق الحديث من سنة ١٩٠٠ إلى سنة ١٩٥٠. لونكريك: ١٦٧. والثورة العربية الكبرى. أمين سعيد: ٢/ ٩.

إذن أنت مسافر لميسلون؟) فأجابه الوزير: "نعم يا مولاي إذا كنتم لا تودون قبول الإنذار الأخير". فما كان من الملك إلّا أن استشهد بالبيت الشعري التالي:

"وهل (كذا) يسلم الشرف الرفيع من الأذى

حتى يراق على جوانبه الدم".

فأجابه الوزير: "إذن فهل يأذنني جلالة الملك بأن أموت؟"، فأجابه الملك فيصل: "بعد أن انتهت الأمور إلى هذا الحد يجب أن نموت جميعاً شرفاء، وننقذ البلاد من حرب أهلية أيضاً"، فردّ عليه وزيره بقوله: "إذن فأنا أترك ابنتي الوحيدة أمانة لدى جلالتكم".

عندها "سلّم وخرج ليتولى قيادة الجبهة في ميسلون"(١).

ثم كان -بعد موافقة فيصل على الشروط المذلة للجنرال غورو لاحقاً خلافاً لشعاراته الوطنية والقومية ولموقفه مع وزير حربيته- أنْ ثارت ثائرة الوطنيين السوريين فتصدت لهم قوات فيصل بالسلاح الحي؛ فقتلت من مواطنيه "نحو ٢٠٠ منهم"(٢)، وجرحت أكثر من ذلك.

"أما القسم الأعظم من الجيش الذي كان يحمى المدينة فقد سرّحه فيصل خضوعاً لأوامر الإنذار، وأصبحت الطريق إلى دمشق مفتوحة، ولم تقم في وجه الغزاة أية مقاومة أخرى"(٣). فدخلت دمشق واحتلتها.

لقد "كان المتوقع من فيصل أن يخرج من سوريا نهائيّاً ليعلن للعالم ما حلّ به من ظلم على يد الفرنسيين التي تدعي (كذا) أنّها أم الحرية وحقوق الإنسان، ولكن فيصل (كذا) لم يفعل ذلك... وكان لا يزال متفائلاً يظن أن الفرنسيين سيرحبون به، ويرضون بالتعاون معه، ولكنه فوجئ في الصباح بأنهم لا يريدونه... وقد طلبوا

---

(١) مذكراتي عن الثورة العربية الكبرى. د. أحمد قدري: ٢٦٢ على التوالي. وينظر: لمحات اجتماعية من تاريخ العراق الحديث. سابق: ٦/ ٢/ ١٦١.

(٢) الثورة العربية الكبرى. أمين سعيد: ٢/ ١٩٠.

(٣) يقظة العرب. سابق: ٤٢٣.

منه بكل صلافة أن يغادر دمشق في خلال يومين"[١]، فغادر الملك فيصل المعزول والمحبط عاصمة ملكه في "الشام إلى عمّان وفلسطين بالقطار، ومعه حاشيته في ليلة ليلاء، كما غادر تراب الأندلس المعتمد بن عباد"[٢]، وذلك في (١٢ ذي القعدة ١٣٣٨هـ/ ٢٨ تموز ١٩٢٠م).

***

المطلب الثاني: التحالف الشريفي - البريطاني ضد العثمانيين. دواعيه وتمظهراته.

وفيه نقطتان:

١. مقدمات مراسلات (حسين-مكماهون)

يذكر الباحث جورج أنطونيوس أن الشريف عبد الله نجل الشريف حسين التقى باللورد كتشنر "في (الأسبوع الأول من شهر شباط (فبراير) ١٩١٤-م/ الأسبوع الثاني من شهر ربيع الأول ١٣٣٢هـ-) وكان كتشنر آنئذ معتمداً بريطانيا أو قنصلها العام في مصر، وعبد الله في القاهرة في طريقه من مكة إلى القسطنطينية، فاتصل بكتشنر متظاهراً بأنه يردّ زيارة مجاملة. وحضر اجتماعهما المستر رونالد ستورز، وكان آنئذ السكرتير الشرقي في دار الاعتماد البريطاني فسرد عبد الله لكتشنر تفصيلات عن العلاقات المتوترة بين السلطات التركية والشريف، وكان يعرف أن الاتحاديين قرروا سرّاً أن يعزلوا والده، فأتاح لكتشنر أن يفهم من حديثه أنه يحتمل نشوب ثورة في الحجاز إذا نفذ الأتراك عزمهم. وحاول بأسلوب حذر أن يعرف من كتشنر موقف الحكومة البريطانية إذا ما نشب صراع سافر بين الأتراك والعرب"، غير أنه "لم يحصل على جواب رسمي صريح، وكل ما حصل عليه جواب شخصي غير مشجع. بعدها بيومين اجتمع الشريف عبد الله بستورز وتحدث معه

(١) لمحات اجتماعية من تاريخ العراق الحديث: ٦/ ١٦٣-١٦٥، وتنظر: مذكرات الشيخ محمّد رضا الشبيبي ورحلاته. سابق: ٢٤ .

(٢) مذكرات الشيخ محمد رضا الشبيبي ورحلاته. سابق: ٢٦.

بصراحة أكثر ولغة عربية يعرفها ستورز أشار فيها عبد الله إلى استعدادات والده "لمواجهة ما لا مفرّ من حدوثه من قطيعة نهائية بينه وبين الأتراك... وعن أهداف الحركة العربية... ثم سأله... عن احتمال مساعدة كتشنر للشريف في الحصول على مدافع رشاشة"، فكان جواب كتشنر -الذي قال إنه جواب شخصي- "مثبّطاً كجواب رئيسه؛ فانتهى بذلك حديثهما"، ثم حاول عبد الله مرة أخرى إثارة السؤال مع الإنكليز مجدداً، فـ"في نهاية نيسان مرّ عبد الله بالقاهرة مرة أخرى ولم يقابل كتشنر، ولكنه اجتمع اجتماعاً آخر بستورز، أوضح فيه ستورز أكثر من ذي قبل أنه لا يمكن توقع أي تشجيع من قبل الحكومة البريطانية"(١).

وعلى الرغم من عدم التجاوب البريطاني مع الشريفيين لتزويدهم بالسلاح إلاّ أن الشريفيين لم ييأسوا ولم يقنطوا من تحصيل دعم بريطاني تسليحي ومالي لما أرادوه، فاستمر الشريف عبد الله بالتنسيق مع أبيه الشريف حسين على مراسلة ستورز آملاً أن تستجيب بريطانيا لطلبه ببقاء والده الشريف حسين في منصبه محتفظاً بسلطانه على مكة المكرمة من خلال إمداد بريطانيا له بالمال والسلاح بما يحقق له طلبه بالمنصب، ولو أدى ذلك إلى شق عصا الطاعة على الأتراك.

حدث كل ذلك قبل نشوب الحرب العالمية الأولى بشهور.

أما بعد نشوبها فقد "خطب الأتراك والبريطانيون معاً ودّ أمير مكة والتمسوا ولاءه، فبينما ضغط الاتحاديون على الشريف حسين لتأييد الجهاد العثماني، صمم البريطانيون حسب تعبير أحد أوائل القوميين العرب على (تجريد الدعوة إلى الجهاد من قوتها الأساسية) بعقد اتفاق مع الشريف حسين بأنفسهم"(٢).

وفي أحدى رسائل الشريفيين التي وصلت إلى ستورز في (نهاية تشرين الأول ١٩١٤م/ ١٠ ذي الحجة ١٣٣٢هـ) بعد نشوب الحرب؛ كتب الشريف عبد الله بن

---

(١) يقظة العرب. جورج أنطونيوس: ٢٠٥-٢٠٦ و٢٠٦-٢٠٧ على التوالي. وينظر: سقوط العثمانيين الحرب العظمى في الشرق الأوسط. يوجين روغان: ٣٦١.

(٢) سقوط العثمانيين الحرب العظمى في الشرق الأوسط. سابق: ٣٦٢.

الحسين متحدثاً عن موقف أبيه الحسين بقوله: "إنه -الشريف حسين- راغب في الوصول إلى تفاهم مع بريطانيا العظمى... وقصر إشاراته في الرسالة على الحجاز وحدها... ولمّح أنه قد يستطيع أن يقود أتباعه القريبين منه إلى الثورة إذا ما اضطره الأتراك إلى ذلك، على شرط أن تتعهد له إنكلترا بتقديم مساعدة فعّالة... فأبرق بها -ستورز- إلى لندن فوراً"، ثم تبع ذلك "في (٣١ تشرين الأول -١٩١٤م- بأن أبرق كتشنر -الذي عُيّن وزيراً للحربية وقتئذ- إلى دار الاعتماد البريطاني في القاهرة بنص رسالة لكي ترسل إلى عبد الله جواباً على رسالته. وقد استهلها بإعلان نبأ دخول تركية الحرب، وتضمنت الرسالة وعداً قاطعاً للحسين بأن الحكومة البريطانية -في حالة وقوفه هو وأتباعه في جانب إنكلترة ضد تركية- تضمن له بقاءه في منصب شريف مكة واحتفاظه بجميع حقوق هذا المنصب وامتيازاته، وأنها ستحميه من كل اعتداء خارجي".

ولم تكتفِ الرسالة الواعدة بذلك، بل أضافت إليها ما دغدغت به مشاعر عبد الله وأبيه الشريف حسين، حيث "قطعت الرسالة وعداً بمساعدة العرب عامة في مساعيهم لنيل حريتهم على شرط أن يؤازروا إنكلترة. وقد اختُتمت الرسالة بتلميح يشير إلى أن الشريف -في حالة مبايعته بالخلافة- يستطيع أن يطمئن إلى اعتراف إنكلترا به... فأشاعت -الرسالة- في نفسه الرضا والطمأنينة إذ إنها بالنسبة إلى موضوع الحجاز قدمت للحسين الضمانات الكافية التي طلبها -بأن يبقى في منصبه-، بينما فتحت بالنسبة للولايات العربية الأخرى أبواب الإغراء والأمل في التحرر القومي... ولذلك بدأ الشريف منذ ذلك الوقت يوجه جهده إلى تحقيق تلك الغاية. وأرسل عبد الله بتوجيه من والده جواباً إلى القاهرة قيّد فيه أباه قيداً صريحاً قاطعاً بتحالف سريّ مع إنكلترة"[1].

ويبدو من خلال ملاحظة الرسائل المتبادلة بين الشريف حسين والإنكليز عبر نجله عبد الله؛ أنها تدرجت من عرض طلب النجدة من بريطانيا بما في ذلك طلب

(١) يقظة العرب. سابق: ٢١٢-٢١٣.

مدافع رشاشة قبل الحرب العالمية الأولى بأشهر، في حالة ما إذا عزلت تركيا الشريف حسيناً من منصبه وسلطانه على مكة المكرمة، حتى وإن أدى ذلك إلى شق عصا الطاعة على تركيا؛ وصولاً إلى تفاهم مع بريطانيا بل إلى تلميح بالثورة على تركيا.

ثم بعد نشوب الحرب العالمية الأولى استغلت بريطانيا الرغبة الملحة للشريفيين فسعت لتحصيل ضمان من الشريف حسين بوقوفه إلى جانب الحلفاء ضد تركيا، اعتقادا من بعضهم "وعلى رأسهم كيتشنر إن من شأن ثورة العرب على الأتراك أن تتيح الفرصة لإنكلترا كي تنتصر على تركيا حليفة ألمانيا العدو اللدود آنذاك... لذلك ترك أولئك النفر من البريطانيين الحركة العربية تولد وتنمو وتمتد بعد أن استحصلوا على وعد صريح بمساندتها وتغذيتها ودعمها"[1]، ضاربة في ختام الرسالة على وتر حساس للشريف حسين "بسبب نهمه للتسلط" وتلقيب نفسه بـ"ملك البلاد العربية بكل ما يتضمنه هذا اللقب من معاني السيادة الشاملة".

لقد ربط الباحث ديفيد مواري بين خطط العثمانيين لعزل الشريف حسين من منصبه المعين فيه من قبلهم كشريف لمكة المكرمة، وخروجه عن طاعتهم بثورته المسماة بـ(الثورة العربية الكبرى).

يقول مواري: "في الأشهر الأولى من عام (١٩١٦م) أصبح واضحاً بشكل متزايد للشريف حسين في مكة أن السلطات العثمانية كانت على وشك التحرك ضده، وكانت الشائعات قد وصلت إليه بأنه يُجرى النظر في أمر شريف مكة البديل (الشريف علي حيدر من فرع زيد من أحفاد النبي محمد)... لذلك قرر الشريف حسين أن الوقت قد حان لبدء الثورة"[2].

وإذا كانت هواجس الشريفيين -بعزم السلطات العثمانية عزل الشريف حسين من إمارة مكة واستبداله بغيره- "شائعات" كما يقول موراي؛ فإن ما سمعه الشريف فيصل بن الحسين من وزير البحرية العثمانية جمال باشا خلال حديث جرى بينهما

(١) أعمدة الحكمة السبعة. سابق: مقدمة قاعدة الثورة: ٧.

(٢) لورنس العرب. ديفيد مواري: ٢٩.

في دمشق قد حوّل الشائعات إلى خبر واضح الدلالة، صريح المؤدّى، التقطه الشريف فيصل التقاط سياسي يقظ؛ فأخذ حذره بمجرد سماعه ورتّب الأثر على خطره مباشرة.

يقول الجنرال جعفر العسكري المستشار العسكري لفيصل خلال حكومة فيصل في سوريا: "أذكر أن المرحوم الملك فيصل ذكر لي أنه قابل جمال باشا قائد الفيلق الرابع ووزير البحرية العثمانية، في دمشق قبيل ثورة العرب، ورجاه عن لسان أبيه المرحوم الملك حسين أن يكفّ عن إيذاء العرب ورجالهم البارزين لأنهم جميعاً مخلصون للخلافة العثمانية، فأجابه جمال باشا على ذلك بسخرية وازدراء قائلاً: (لينجو أبوك بنفسه أولاً ثم ليشفع لغيره)، وكانت هذه الكلمة وحدها كافية لأن يقطع الملك فيصل كل أمل في الحكومة العثمانية، ولم يلبث أن انسحب خلسة من دمشق، برفقة أبناء البكري، وأعقب ذلك نشوب الثورة العربية في الحجاز"[١].

وفعلاً حين حان الوقت المناسب أعلن الشريف حسين ثورته العربية الكبرى على العثمانيين يوم السبت (٩ شعبان ١٣٣٤هـ/ ١٠ يونيو ١٩١٦م)[٢]؛ فنجح أولاً بإخراج العثمانيين من مكة المكرمة وجدة والطائف والمدينة المنورة وسائر البلاد الحجازية بقوة السلاح، ثم إعلانه "ملوكيته رسميّاً في (أول سنة ١٣٣٥هـ/ ١٩١٦م)، أي بعد الثورة بخمسة أشهر، ولقد اعترفت ثلاثة دول من أكبر الدول المعظمة -وهم إنكلترا وفرنسا وروسية- بملوكيته واستقلال الحجاز استقلالاً تامّاً بعد إعلانه الثورة بستة أشهر ونيف، ففي هذه المدة القصيرة أصبحت الديار الحجازية مستقلة"[٣]، ثم امتدت ثورته بعد ذلك من الحجاز لتصل إلى بلاد الشام بقيادة القائد البريطاني أللنبي ومعه الشريف فيصل نجل الشريف حسين قائداً للجناح الأيمن من جيشه بدعم قيادي ولوجستي قوي، ليس هذا فحسب، بل

(١) مذكرات جعفر العسكري. تحقيق زكي صفوت: ١٦٩.

(٢) تاريخ مقدرات العراق السياسية. محمد طاهر العمري الموصلي: ٢٤٢.

(٣) المصدر السابق نفسه: ١/ ٣٥٠.

أعانت بريطانيا الجيش الشريفي بتسليمها أسراها من الضباط العرب الذين وقعوا بيدها خلال حروبهم مع العثمانيين وغيرهم سابقاً إلى الشريفيين.

أما الدعم التسليحي للشريفيين من بريطانيا فقد وثّقه محمد شريف العمري مندوب الحسين شريف مكة إلى مصر بخط يده في برقية بعثها من جدة إلى الشريف حسين في (٣ رمضان ١٣٣٤هـ/ ٣ آب ١٩١٦م) وهو في طريقة إلى مصر، جاء فيها: "تواجهت يومين متواليين مع فخامة نائب الملك... وطلبت منه عدة مطاليب، ووجدته مساعداً إلى كل ما نطلب، ولهذا تأكد عندي أن في الحال الحاضر دولة إنكلترا ميالة إلى مساعدتنا من كل الوجوه، تعمير التلغراف تحت البحر تم وكمل، بعد أربعة أو خمسة أيام سيرسل خمسين آلف جنيه، والذخائر سترسل بمقدار أو أزيد مما طلب مولاي... لقد اشتغلت بتحضير الجنود والضباط العرب والحمد لله توفقت. بعد ثمانية أو تسعة أيام يسافرون من هنا إلى قبل سيدي، سبعمائة جندي عربي مدرب تحت قيادة عدة ضباط، والكل سيكونون تحت قيادة صاحبي الذي أئتمنه نوري البغدادي -نوري باشا السعيد- ويكون معهم مدافع ضخمة ومعهم رشاشات وكلهم متحمسون لخدمة سيدي نافرون من الترك، وسيكون مع نوري قنابل اليد والديناميت لأجل تخريب السكة الحديد فنّيّاً وتخريب المباني الجسيمة... ولقد اجتهدت أن تعطي حكومة إنكلترا جميع لوازمهم مع رواتب الضباط والجنود بمقدار وافٍ من الدراهم"[1]، كما ورد في رسالة أخرى لاحقة مرسلة من محمد شريف الفاروقي في مصر إلى الشريف حسين في مكة مؤرخة في (٢٩ رمضان ١٣٣٤هـ/ ٣٠ تموز ١٩١٦م) ما نصه: "قطع الخط من الشمال بواسطة قوة إنكليزية تقرر عندهم نهائياً، وقد وافقوا على إرسال طيارين مع طيارات هوائية مع الإنكليز إلى جدة ليكونوا تحت إمرة مولاي"[2].

ولم يقتصر أمر الدعم الإنكليزي للشريف حسين على الدعم التسليحي والمادي

(١) تاريخ مقدرات العراق السياسية. سابق: ١/ ٢٧٩.

(٢) المصدر السابق: ١/ ٢٨٨.

والسياسي واللوجستي، بل تعداه لما هو أكثر فوصل إلى حدّ اقتراح الاستخبارات الإنكليزية ومن وراءها على الشريف حسين تعديل منشوره الخاص بإبلاغ المسلمين بالثورة بعد أن كتبه الشريف حسين بيده وعنونه إلى المسلمين "بتاريخ (٢٥ شعبان ١٣٣٤هـ/ ٢٦ حزيران ١٩١٦م)، وأراد نشره في مصر، ولكن السلطة البريطانية اقترحت عليه تعديله واختصاره لما حوى من بعض العبارات"[١]، فكان للإنكليز ما أرادوا. وهكذا تم توزيع المنشور بعد التنقيح والتعديل البريطاني في (أواخر شوال ١٣٣٤هـ/ أواخر آب ١٩١٦م) بمصر.

لقد كانت سياسة الشريف حسين وأنجاله تهدف إلى تحقيق الاستقلال للبلدان العربية من سيطرة محتليها العثمانيين، تم تصاعدت مطامحه إلى حد تشكيل "(مملكة عربية) هو زعيمها المختار" وخليفتها العربي، حتى ولو "قدّم تنازلات إقليمية مهمة"[٢] في العراق وغيره من الدول العربية كما سيأتي، مؤكداً هذه السياسة في أكثر من لقاء له مع الزعماء العراقيين، أذكر منها رسالة الشريف الحسين بن علي الجوابية إلى المرجع الأعلى الشيخ الشيرازي في (٢٤ ذي الحجة الحرام ١٣٣٧هـ/ ٢٠ أيلول ١٩١٩م) واعداً إياه فيها بأنه سيبذل أقصى ما يستطيع لتنجيز ما طلبه منه سماحته، معتبراً تلك الطلبات هي طلباته هو بقوله "إنّا على ما تأملون: إما الفوز برغائبكم بل رغائبي فيكم التي هي قرّة عيني، أو ترك الدنيا وما فيها"[٣].

كما أن الشريف فيصلاً بن الحسين نفسه حين عاد إلى سوريا من المؤتمر الدولي في باريس الذي حضره في (٦ شباط ١٩١٩م/ ٥ جمادى الأولى ١٣٣٧هـ) نائباً عن والده والعراق؛ "خطب في محفل حافل من عامة السوريين خطاباً مسهباً، وصف فيه رحلته وما قاساه فيها من متاعب في سبيل إفهام الغربيين عن حقيقة العرب

(١) ينظر نص المنشور قبل التعديل وبعده في: تاريخ مقدرات العراق السياسية. سابق: ١/ ٢٥٧-٢٧٤.

(٢) سقوط العثمانيين الحرب العظمى في الشرق الأوسط. سابق: ٣٧١.

(٣) الشيخ محمّد تقي الشيرازي القائد الأعلى للثورة العراقية الكبرى. الجبوري: ٢٣١.

وعن مشروعية مطالبهم، فنقتطف منه ما يلي: (فبعد أن فهموا المقاصد والمطالب وما فعله العرب من المعاونة للحلفاء في هذه الحرب؛ اعترفوا باستقلال العرب مبدئيّاً... كانت مدافعتي عن بلاد العرب على قسمين؛ الأول: البلاد العربية لا يمكن تجزئتها. القسم الثاني... سوريا فيجب أن تكون مستقلة وكذلك العراق يريد استقلاله ولا يريد معاونة أو حماية، نحن لا نرضى في سورية أن نبيع استقلالنا بما نحتاج إليه من المعونات في ابتداء تكويننا، بل إنّ الأمة السورية هي أمة تريد أن تستقل وتأخذ ما تحتاجه من المعاونة بثمنه، أي بدراهم معدودات)، وبعد أن أتم خطابه هتفوا له وصفقوا بأجمعهم وأيدوا رأيه"[١].

وورد في تقرير سري للشرطة البريطانية في بغداد نقلاً عن الأمير فيصل يوم كان يتحدث عن قناعاته قوله: "أنا خادم للعرب، وأعتقد أن هدفي الوحيد في الحياة هو خدمتهم بتأمين الاستقلال الكامل لهم، وعلى الرغم أننا حاربنا وتخلصنا من الأتراك المسلمين، فإنه يوجد أشخاص يريدون أن يضعونا تحت نير آخر"[٢].

بل ورد في تقرير سري لاحق للشرطة البريطانية في بغداد أيضاً ذكر فيه توزيع نسخ من خطاب ألقاه الشريف فيصل في بيروت "يحرّض العراقيين أن لا يرضوا بشيء غير الاستقلال الكامل"[٣].

وقبل ذلك سبق أن تحدث الشريف حسين مباشرة لضيوفه من زعماء الثورة العراقيين خلال استقباله لهم في مكة المكرمة بعد انتهاء ثورة العشرين محدداً معالم سياسته وسياسة أنجاله، بأنّ ثورته ما قامت إلّا من أجل "استقلال الشعوب العربية

(١) كربلاء في التاريخ. سابق: ٣/ ٦٩.

(٢) العراق في سجلات الوثائق البريطانية ١٩١٤-١٩٦٦. المجلد الثاني ١٩١٨-١٩٢١. سابق: ٣٠٤. وتنظر أيضاً في المصدر نفسه: ٣٠٦ نصوص شعارات للشريف حسين وصلت للعراق ووقعت بيد الإنكليز وفيها: "نريد الاستقلال وسوف نحصل على الاستقلال لأننا لسنا عبيداً"، و"طالبوا باستقلالكم حتى الموت"، وغيرها من أمثالها أيضاً.

(٣) المصدر السابق: ٣٠٨.

بحدود أوطانها الطبيعية"[١]، وهي ما عجّت بها تصريحاته ودعواته وأقواله، وما تداولته وتناقلته وسائل الإعلام المختلفة عن الأهداف المعلنة لثورته، فكانت تلك وأمثالها هي ما حدت بالمرجع الأعلى الشيخ الشيرازي لأن يضفي على سياسة الشريف حسين في رسالته للشريف فيصل في (٧ رمضان ١٣٣٨هـ) بما وصفها بـ"تفاديكم العظيم لإحياء الجامعة العربية التي هي عنوان المجد الإسلامي ذلك المجد الرفيع الذي رفع قواعده أجدادك الطاهرون وحمى حوزته أسلافك الماضون، فحيّى الله نخوتكم الهاشمية، وغيرتكم الإسلامية، وأدامكم ملكاً تقر به عيون المسلمين، وتفخر به أئمة الدين"[٢]. مضيفاً في رسالته إليه قوله: "تيقنوا أن السكوت عن الضيم أمر لا يستطيع العراقيون تحمله، فساعدوا إخوانكم الذين اعتمدوكم من قبل للمطالبة باستقلال بلادهم، ولا تجعلوا سبيلاً للتشبّث بالأجنبي كيف كان وامتداد نفوذهم إلى الديار الإسلامية"[٣].

ويوضح د. محمّد مهدي البصير -المعاصر للحدث- أنّ هدف المرجع الأعلى من قوله المتقدم هو "أن يشدّ أزر الحركة القومية ليتقوى بها مركز الإسلام، وعلى هذا أمكن أن تجتمع الأيدي العاملة فتقوم بعمل سياسي مشترك"[٤].

كما أنّ المتفحص لسياسة الشريف فيصل تبعاً لسياسة أبيه الشريف حسين يلحظ أثناءها ترشيح بعض زعماء ثورة العشرين لأحد أنجال الشريف حسين لعرش العراق.

لقد كان المحتلون الإنكليز خلافاً لقسم من العراقيين لا يوافقون على تولي أحد أجال الشريف حسين لعرش العراق، ساعين جهدهم لأن يتولون هم بشكل مباشر شؤونه كلها، ففي سنة (١٩١٧م) بالتحديد "أوضح ولسون أسباب معارضته

(١) مذكرات السيد محسن أبو طبيخ. سابق: ٢١٠.

(٢) لمحات اجتماعية من تاريخ العراق الحديث. سابق: ٥/ ٢٠٠. وثورة العشرين في ذكراها الخمسين معلومات ومشاهدات. سابق: ١٨٣.

(٣) كربلا في التاريخ. سابق: ٣/ ٧٧-٧٨.

(٤) الثورة العراقية الكبرى سنة ١٩٢٠. سابق: ٢٣٦.

لقيام دولة عربية في ظل حاكم شريفي في العراق"[١]؛ لأنها لا تحقق مصالح بريطانيا في العراق والمنطقة. كما عارض بشدة في رسالة بعثها إلى خارجيته بتاريخ (٢١ تشرين الثاني ١٩١٨م) جاء فيها خلال بيان رأيه في مسألة ترشيح أحد أنجال الشريف حسين كملك على العراق قوله: "أعترض على ذلك بشدة"[٢].

هذه هي معالم السياسة الشريفية (المعلنة) خلال ثورتهم المسماة بالثورة العربية الكبرى تجاه العراق والعرب، وأقول (المعلنة) نظراً لوجود اتفاقية (سرية غير معلنة) لم يعلم بها العراقيون الذين رشحوا في مضابطهم وقتئذ -جواباً على أسئلة الاستفتاء- أحد أنجال الشريف حسين لعرش العراق، وأقصد بها تلك الاتفاقيات التي عقدها الشريف حسين مع مكماهون المندوب السامي البريطاني في مصر بشأن العراق وغيره كما سيأتي.

٢. التعريف بـ(مراسلات حسين-مكماهون) وما يتعلق منها بالعراق

لقد أشرت فيما تقدم إلى أن الجيش الإنكليزي بقيادة اللورد أللنبي الذي احتل دمشق منح قبول استسلام المدينة إلى جيش فيصل العربي الذي زحف تحت قيادة الضابط الإنكليزي الكبير أللنبي، على الرغم من أن فيصلاً لم يكن أول الداخلين إلى دمشق؛ وذلك مكافأة للهاشميين الذين زحف جيشهم مع الجيش البريطاني لاحتلال فلسطين ودمشق التزاماً منهم بالمراسلات التي تبادلوها معهم للثورة ضد العثمانيين.

تتكون المراسلات من عشر رسائل أو مذكرات تبادلها الشريف حسين بن علي شريف مكة واللفتنانت كولونيل السير هنري مكماهون المندوب السامي البريطاني في مصر (ابتداء من يوليو ١٩١٥ إلى مارس ١٩١٦م)، وكان الداعي لها هو مواجهة إعلان الجهاد العثماني ضد الحلفاء، والحفاظ على دعم سبعين مليون

(١) ثورة ١٩٢٠ الجذور السياسية والفكرية والاجتماعية للحركة القومية العربية الاستقلالية في العراق. سابق: ٢٩٥، وينظر هامش الصفحة.

(٢) العراق في سجلات الوثائق البريطانية ١٩١٤-١٩٦٦. سابق. المجلد الثاني: ١٩١٨-١٩٢١: ١٨١.

مسلم في الهند البريطانية آنذاك، وخاصة منهم أولئك الذين تم نشرهم في جميع المسارح الرئيسية خلال الحرب العالمية الأولى.

لقد اعتمد الشريف فيصل بشكل كبير على (ميثاق دمشق) الذي اشترط شروطاً "يطالب بها الزعماء العرب بتحقيقها لكي يؤازروا بريطانيا العظمى على تركيا، واتفقوا على أن يحمل فيصل هذا الميثاق إلى مكة ويطلب من والده أن يعرف من الحكومة البريطانية هل تقبل هذه الشروط أساساً للعمل المشترك... إنّ ميثاق دمشق ذو أهمية كبيرة جدّاً، ولا تقتصر قيمته على أهمية ما تضمنه من شروط فحسب، وإنما تتمثل أيضاً في أن الشريف حسيناً قد استخدم نصوصه بعد ذلك في شهر تموز حينما استأنف مباحثاته مع بريطانيا العظمى"[١].

ونظرا لأن (ميثاق دمشق) يتضمن المطالبة باستقلال البلاد العربية بحدودها المنصوص عليها فيه؛ فإني سأقتصر منه على ما تضمنته المراسلات عن العراق، وما ألحقه الشريف الحسين بها من تنازلات ضمنها رسالته الثالثة إلى هنري مكماهون المعتمد البريطاني في مصر في (٢٧ ذي الحجة ١٣٣٣هـ/ ٥ تشرين الثاني ١٩١٥م) بعد الاحتلال البريطاني للعراق سنة (١٩١٤م) وخلال مفاوضاته الشهيرة بمفاوضات (حسين-مكماهون).

نعم لقد تنازل من لا يملك لمن لا يستحق. تنازل عن البصرة العراقية للقوات البريطانية بغير وجه حق، مقابل مبلغ مناسب يدفع للمملكة العربية كتعويض عن الاحتلال، مدة الاحتلال المؤقت "في نفاق سمج"[٢] من دون أن يتم حتى الاتفاق على تحديد نهاية لهذه المدة المؤقتة.

يقول د. فاروق عمر العلي: لقد وافق الشريف حسين في مراسلاته مع ماكماهون المعروفة بـ(مراسلات حسين-ماكماهون) على "التنازل عن منطقة العراق للإدارة البريطانية، وأن يدفع للمملكة العربية في مدة الإشغال المقدار المناسب

(١) يقظة العرب. سابق: ٢٤٤-٢٤٥.

(٢) المصدر السابق نفسه: ٣٩٠.

من المال"[١]، وكان الشيخ فريق المزهر آل فرعون قد نشر في كتابه نص وثيقة بعثها السير مكماهون عن الحكومة البريطانية إلى الملك حسين بن علي في مكة المكرمة جاء في مادتها الثالثة ما يلي: "تكون ولاية البصرة تحت إشغال (أي احتلال) الدولة البريطانية... ويعين من جانب تلك العظمة مبلغاً من النفوذ (كذا) يراعى فيه حال احتياج الحكومة العربية التي هي حكمها قاصرة في حضن بريطانيا، وتلك المبالغ تكون في مقابلة ذلك الإشغال"[٢] من دون تحديد أيضاً لمقداره. بل إنّ الشريف حسيناً ذهب إلى أبعد من ذلك حين ترك أمر التقدير المالي لاحتلال الأراضي العراقية تطوعاً إلى "مدارك حكمة بريطانية العظمى ونصفتها"[٣].

وحسب بعض المؤرخين شملت الاتفاقية بغداد أيضاً، حيث يقول: "تأكد خلال مباحثات (حسين-مكماهون) أن تكون بغداد والبصرة ضمن مناطق النفوذ البريطاني"[٤]، وهو ما أدى إلى أن تقول الباحثة الأمريكية د. فيبي مار ما نصه: "جرى إبرام اتفاقيات سرية مع الشريف حسين ومع الفرنسيين الذين اعترفوا بحق بريطانيا بإقامة ترتيبات إدارية خاصة في ولايتي البصرة وبغداد"[٥].

لقد وافق الشريف حسين برسالته الثالثة إلى مكماهون في (٥ تشرين الثاني ١٩١٥م/ ٢٧ ذي الحجة ١٣٣٣هـ) "على أن تحتل القوات البريطانية لفترة ما بعد الحرب تلك الأجزاء من العراق التي كانت آنئذ (تشرين الثاني ١٩١٥-م/ محرم ١٣٣٤هـ)- في قبضة بريطانيا، على أن يكون مفهوماً أن ذلك الاحتلال مؤقت... وأن تدفع بريطانية مقابل ذلك معونة مالية يتفق عليها للدولة العربية التي ستستقل، مساهمة منها في موارد ميزانيتها، وذلك خلال سنوات نشأنها".

وقد جاء رد مكماهون على رسالة الشريف حسين الثالثة في (١٣ كانون الأول

(١) حول سياسة بريطانيا في العراق. سابق: ١٠.

(٢) الحقائق الناصعة في الثورة العراقية سنة ١٩٢٠ ونتائجها. سابق: ٦٧.

(٣) يقظة العرب. سابق: ٢٦٤.

(٤) حول سياسة بريطانيا في العراق. سابق: ٤٥.

(٥) تاريخ العراق المعاصر. العهد الملكي. د. فيبي مار: ٤٠.

١٩١٥ م/ ٥ صفر ١٣٣٤ هـ) واضحاً صريحاً، مفاده أنّ موافقة الشريف على عدم شمول الاتفاقية لـ"المعاهدات القائمة مع رؤساء العرب إنما تشمل شبه الجزيرة العربية كما تشمل العراق".

ومن الغريب أنّ الشريف حسيناً قد رد على مكماهون بمذكرته الرابعة المؤرخة (أول كانون الثاني ١٩١٦م/ ٢٤ صفر ١٣٣٤هـ) ردّاً فسّر فيه "موافقة مكماهون المبهمة فيما يتصل بالنظام المقبل للإدارة في العراق تفسيراً ينطوي على الثقة، واعتبر تلك الموافقة قبولاً صريحاً لمقترحاته"[١]، مفسراً ما ورد في رسالة مكماهون بما كان يخامر مخيلته من أحلام وآمال، ثقة منه بوعود الإنكليز البراقة[٢]، وتمظهرهم المرائي.

لقد أرجع الباحث جورج أنطونيوس اطمئنان الشريف حسين النفسي بمزاعم بريطانيا إلى "ثقته العميقة بإخلاص بريطانية ونزاهتها"، ما ولّد عنده "إيماناً راسخاً بالمثل الإنكليزية في المعاملة الشريفة"[٣]، وزرع في نفسه وعقله "اطمئناناً ساذجاً

(١) يقظة العرب. سابق: ٢٦١- ٢٦٣.

(٢) يقول ضابط الاستخبارات البريطاني لورنس مستشار فيصل ورفيق دربه في قيادته لحملته العسكرية لتحرير سوريا من سيطرة العثمانيين: "لم أكن قد اطلعت بصورة رسمية أو شخصية على الوعود التي قطعها مكماهون ولا على معاهدة سايكس-بيكو... وبما أنني لم أكن أحمق، فقد رأيت أن وعودنا التي قطعناها للعرب في حالة كسبنا الحرب تبقى حبراً على ورق.

وهكذا كان عليّ لو كنت مستشاراً شريفاً أن أنصح رجالي بالعودة إلى ذويهم وديارهم عوضاً عن المخاطرة بحياتهم في سبيل قصص وخداع من هذا النوع، ولكن أ لم تكن الحماسة العربية أفضل أداة نستخدمها في حربنا في الشرق الأدنى؟ وهذا الأمر هو الذي حملني أن أؤكد لرفاق السلاح من العرب بأن إنكلترا ستحترم وعودها نصّاً وروحاً، فما أن نال الثوار العرب مني هذا الوعد حتى دبّت فيهم الحماسة من جديد وراحوا يحاربون بشجاعة فائقة.

أما أنا عوضاً أن أفتخر بما كنا نحرزه من انتصارات، فقد كان يلازمني شعور مرير بالخجل لعلمي أن ما قلته لا قيمة عملية له".

ويقول أيضاً في موضع آخر من كتابه: "إنّ الرجل الهرم -الشريف حسين- لم يحصل منا على أية عهود واضحة أو وعود ثابتة محددة المفاهيم والمعاني، ولكني لو أقدمت على البوح بما أريد لخنت رؤسائي البريطانيين... لقد كان الشريف حسين يكره العراقيين والسورين". (أعمدة الحكمة السبعة. لورنس: ٢٠٨-٢٠٩ و١٢٦-١٢٧ على التوالي).

(٣) المصدر السابق: ٢٦٤-٢٦٥.

منه إلى كلمة الشرف البريطانية"، بل وصل الحال بالشريف حسين أنه "حين كان يرتاب في حكمة الحكومة البريطانية، لم يكن يرتاب أبداً في طهارة ذمتها، وكان إيمانه بالمقاييس البريطانية في حسن المعاملة " لا يُضاهى.

ونتيجة لهذه الثقة العمياء جاء تصريحه في مذكرته الثالثة إلى السير هنري مكماهون في (٢٩ شوال ١٣٣٣هـ/ ٩ أيلول ١٩١٥م) واضحاً حين قال: "أرى من الضروري أن أؤكد لسعادتكم إخلاصنا نحو بريطانيا العظمى، واعتقادنا بضرورة تفضيلها على الجميع في كل الشئون (كذا)، وفي أي شكل، وفي أية ظروف"[١].

---

(١) يقظة العرب. سابق: ٤٥٠ و٥٥٠ على التوالي: وتنظر أيضاً نصوص المذكرات في: ٥٥١ و٥٥٢ و٥٥٣.

ويرجع جورج أنطونيوس هذه الثقة إلى أيام مقامه في القسطنطينية حيث "نشأت بينه وبين السفارة البريطانية صلات ودية... كما علم كذلك أن تعيينه أميراً لمكة سنة (١٩٠٨م) قد لقي معاضدة بريطانية سرّاً. هذا المزيج من الإعجاب والاعتراف بالفضل غرس في نفسه -الشريف حسين- تقديراً عميقاً لبعض الأفراد الإنكليز وإيماناً راسخاً بالمثل الإنكليزية في المعاملة الشريفة"، كما تقدم. غير أنه اكتشف حقيقة الحال بعد فوات الأوان، يوم نادى بنفسه خليفة للمسلمين فأثار بذلك امتعاض الكثير من بلدان المسلمين، ولما بدأت جيوش الوهابيين زحفها عليه وجد نفسه دون معين؛ فـ"توجه بنظره إلى إنكلترا فلم تستجب له... وأصبحت الحكومة البريطانية تعدّه هدفاً للسخرية ومثاراً للإزعاج. وجرت على أن تشيع حكايات مضحكة عن نزوات الشيخ وبوادره، وفيها ما يثير الضحك حقّاً، وكلما دارت الحكايات ولّدت حكايات أخرى وخلقت رغبة في مزيد... وجاء وقت أصبحت فيه تقارير المعتمد البريطاني الدورية عن الحال في الحجاز مفعمة بهادة للضحك الرسمي، فتلقى رواجاً في مكاتب وايت هول ويتناقلها الموظفون لِما لها من قيمة هزلية. كذا أصبح حسين أضحوكة ولم يعد الموظفون المدنيون ينظرون إليه بجد" من دون أدنى احترام لشيخوته، متناسين مناصرته لهم في حربهم ضد تركيا المسلمة.

وإذ تيقن الشريف حسين من خسارته لملكه في الحجاز تنازل إلى نجله الشريف علي وأبحر إلى العقبة فلاحقه ابن سعود فذهب إلى قبرص وبقي فيها حتى عام ١٩٣٠ حيث أصيب ابن الخامسة والسبعين بنوبة حادة فغادرها إلى عمان ليقضي أيامه الأخيرة بين أولاده. وفي عمان التقاه الباحث جورج أنطونيوس سنة ١٩٣١م، فكتب بعد زيارته له متحدثاً عن الشريف حسين بقوله: "قضى ست سنوات منفيّاً -و- فقد عرشه... وأصبح الآن شيخنا مسنّاً مريضاً... وفي هذه المرارة التي يتجرعها كان يعزو جميع مصائبه إلى نقض العهود التي قطعها له السير هنري مكماهون. وكان يشكو من ذلك ويراه السبب الوحيد لمحنته الحاضرة (يقظة العرب: ٤٥٥ و٢٦٥ و٢٧٥ على التوالي).

وما لنا نذهب بعيداً؟! فهذا الشريف فيصل نفسه يرسل رسالة يرفقها بمذكرة مهمة إلى لويد جورج رئيس وزراء بريطانيا من قصر ايشتي بإيطاليا في (١١ أيلول ١٩٢٠م/ ٢٧ ذي الحجة ١٣٣٨هـ) بعد طرده من سوريا وتوجهه إلى أوربا. وقد جاء في المذكرة فيما يتعلق بالعراق خاصة ما يلي: "في ٢٤ تشرين الثاني عام ١٩١٥- م/ ١٦ محرم ١٣٣٤هـ)- أجاب المندوب السامي والدي قائلاً: (... أما فيما يتعلق بولايتي بغداد والبصرة فإن العرب سيعترفون بمركز ومصالح بريطانيا فيهما ويوافقون على أن يكون لها حق في أن تتخذ فيهما التدابير الإدارية لحفظهما من الاعتداء الخارجي)...، فأجابه والدي بكتاب مؤرخ (٥ تشرين الثاني عام ١٩١٥-م/ ٢٧ ذي الحجة ١٣٣٣هـ)- يقول له فيه: (رغبة في تسهيل الاتفاق، وخدمة المسلمين، واعترافاً بموقف إنكلترا، ومزاياها، يتنازل عن إصراره في ضم ولايتي مرسين وأضنه إلى المملكة العربية... أما ما يتعلق بالعراق... لا يمكننا إرضاء الشعب العربي وإرغامه على التنازل عن العراق، بأي حال من الأحوال، على أنه رغبة منا في تسهيل الاتفاق نستطيع أن نوافق على ترك العراق تحت الإدارة الإنكليزية، وهي محتلة بالجيوش الإنكليزية، وذلك لقاء مبلغ من المال، يدفع كتعويض، بالنظر لما يتطلبه تأسيس مملكة جديدة من مال)، هذا ما ذكره والدي في كتابه إلى المندوب"[١].

إن الناظر إلى ما انتهت إليه نصوص (مراسلات حسين-مكماهون) يستطيع أن يقول بثقة ما قاله الباحث الأمريكي يوجين روغان من أنه: "ما كان باستطاعة السير هنري مكماهون أن ينجز تحالفاً أفضل. فقد نجح في عقد اتفاق مع شريف مكة يستثني الأراضي السورية التي يطالب بها الفرنسيون والولايات العراقية التي يرغب في الاحتفاظ بها البريطانيون"[٢].

---

(١) أوراق فيصل الأول ملك العراق. محمد يونس العبادي: ٤١-٤٣. وهناك نص آخر نشرته صحيفة النهار نشره صاحب الكتاب نفسه في الصفحات ٣٠-٣١ منه، يتّحد النصان في المضمون ما عدا اختلافات جزئية جدّاً وسياقية، ومع ذلك فقد اعتمدت للدقة أكثر نصَّ ما حصل عليه المؤلف من المذكرات.

(٢) سقوط العثمانيين الحرب العظمى في الشرق الأوسط. سابق: ٣٧١.

زد على ذلك أنّ الشريف حسيناً وافق في مذكرته أو رسالته الثالثة إلى مكماهون "دون تلكؤ على استثناء ولاية (أضنه) التي تضم ميناء (مرسين) من المنطقة العربية المستقلة... وحينما وافق الشريف على استثناء ولاية (أضنه) تنازل عن أكثر مما طلب مكماهون... فقد كان طلب مكماهون هو استثناء (مرسين)... وقد وافق الشريف على استثناء (مرسين) و(تبرع) باستثناء (جميع ولاية أضنه)"[١]، وكأنها ملك صرف له، أما لماذا وهب الأمير ما لا يملك، وزاد فـ(تبرع) ليس بما لا يملك فحسب، بل بما لم يُطالَب به أيضاً حتى من قبل بريطانيا، فهذا في غاية الغرابة!

لقد فعلت الثقة بصدق الوعود البريطانية له فعلها في نفسه، وعلى أساس هذه الثقة غير المتناهية رفض الشريف حسين عرضاً تركيّاً سخيّاً قدموه إلى فيصل يتضمن "أولاً استقلالاً ذاتيّاً في الحجاز، ثم ألحقوا سورية بالحجاز، وأتبعوا العراق بهما، غير أنّ فيصل (كذا) بقي غير راضٍ، فعرض مندوب حاكم سوريا وقائد الجبهة السورية جمال باشا على فيصل إعلان الشريف حسين ملكاً، وفي النهاية اعترف الأتراك بأن مطلب أسرة النبي في تزعم الإسلام روحيّاً لا ينقصه المنطق... ولكن الإنكليز دفعوا الشريف في حبائلهم بوعودهم المعسولة، وكانوا يرغبون في إعادته إلى جادة الصواب عن طريق المستندات -المالية- بصرف النظر عن القوة العسكرية"[٢].

وبتفصيل أكثر عن طبيعة العرض الذي قدمه جمال باشا نيابة عن حكومته العثمانية وتأييد من حلفائهم الألمان ورد في رسالتين موقعتين بتاريخ (٢٦ تشرين الثاني ١٩١٧م/ ١١ صفر ١٣٣٦هـ) موجهتين إلى كل من فيصل وجعفر باشا عبر رسول خاص حمله إليهما في العقبة وهما يتقدمان تحت قيادة القائد العسكري البريطاني اللنبي إلى احتلال سوريا. وقد تضمنت الرسالة الموجهة إلى فيصل بعد تذكيره بواجبه كمسلم بأن يوقف كل طاقاته لخدمة دينه ما يلي: "إنّ فيصلاً وأباه

(١) يقظة العرب. سابق: ٢٦١-٢٦٢.

(٢) أعمدة الحكمة السبعة. سابق: ٣٩١.

قد ضلّلتهما الوعود التي أُعطيت لهما باستقلال العرب، وجعلتهما يثوران ضد السلطة العليا في الإسلام، وأنه قد صرحت القرائن عن أن تلك الوعود محض زور وإفك... وإن الفرنسيين سيأخذون سوريا والإنكليز العراق وستجعل فلسطين دولية، ولم يبقَ من طريق للعرب سوى أن يعودوا إلى الحظيرة العثمانية ويكفلوا لأنفسهم حقوقهم المشروعة بالتفاهم مع الأتراك... وأرفقت بالرسالة ورقة أخرى كُتب عليها مجمل الشروط التي يقبل بموجبها مبدأ التفاوض، وترمي تلك الشروط إلى منح الولايات العربية في الإمبراطورية العثمانية حكماً ذاتيّاً كاملاً تتحقق به جميع أمانيهم القومية، وفي الورقة المرافقة فقرة تقول: إذا حدث وأسفرت المفاوضات عن اتفاق، وليس من سبب يحول دون ذلك، فإنّ شرعية شروطها لا تكون مضمونة بتصديق السلطان وحده، بل تكون أيضاً بضمان مماثل من جانب الحكومة الألمانية... فأوعز -حسين- إلى فيصل أن يرسل ردّاً مقتضباً إلى جمال يرفض فيه عروض الصلح"[1]، متّكلاً على وعود بريطانيا الجوفاء.

❀ ❀ ❀

(١) يقظة العرب. سابق: ٣٥٨-٣٦٢.

الفصل الحادي عشر

السياسة الأولى للشريف حسين وأبنائه تجاه العرب وموقف المرجعية والوطنيين من ترشيح أحد أبنائه لعرش العراق خلالها

يتضمن هذا الفصل إضاءة ومقدمة وأربعة مباحث هي:

المبحث الأول

تعريف بالسياسة الأولى للشريف حسين وأبنائه تجاه العراق وتحديد زمنها وموقف العراقيين منها

المبحث الثاني

موقف المدن المؤثرة من ترشيح أحد أبناء الشريف حسين للعرش خلال أجوبتها على أسئلة الاستفتاء ودواعيه

المبحث الثالث

موقف المرجعية الدينية وأهالي المدن المهمة من تسمية أي شخصية للعرش ابتداء من مضابط التوكيل وانتهاء بثورة العشرين

المبحث الرابع

قراءة لموقف المرجعية الدينية والوطنيين من ترشيح أحد أبناء الشريف حسين للعرش خلال السياسة الشريفية الأولى

وسأتناولها تباعاً مبتدئاً بالإضاءة

إضاءة

قد يلحظ القارئ تغيراً في عرض السياسة البريطانية في العراق بين موضع من الكتاب وموضع، وموقفاً لهم في قضية ما وموقف، كما قد يلحظ مثل هذا الاختلاف في مواقف بعض المراجع والوطنيين العراقيين كنتيجة طبيعية لتحول في موقف السياسة البريطانية تجاهه، لذا يحسن بي بادئ ذي بدء أن أوضح ما انتهيت إليه من سبب حصول هذا الاختلاف أو التعارض الموهم.

ذلك أن السياسة البريطانية في العراق قد مرت بثلاث تحولات -وفق ما انتهيت إليه- منذ احتلالهم للعراق، مروراً بانتدابهم، وانتهاء بتنصيبهم الشريف فيصلاً بن الحسين ملكاً عليه، فمثلاً يقرأ مطالع الكتاب في هذا الموضع منه أن المحتلين الإنكليز نشطوا إعلامياً في دعم وتحبيذ سياسة الشريفيين في العراق، ثم يقرأ في موضع آخر منه أنهم وقفوا بالضد من ترشيح أغلب المدن العراقية لأحد أبناء الشريف حسين لعرش العراق في أجوبتهم عن أسئلة الاستفتاء الموجهة إليهم، بعد ذلك يقرأ أن الإنكليز رشحوا بل نصبّوا الشريف فيصلاً ملكاً على العراق. مما يبدو للوهلة الأولى أنه تضارب أو تناقض أو اضطراب في عرض وتوصيف سياسة المحتلين البريطانيين في العراق.

كما قد يلتبس على القارئ الأمر أيضاً حين يجد اختلافاً في مواقف العلماء والوطنيين حين يقرأ مثلاً ترشيحهم لأحد أبناء الشريف حسين لعرش العراق في جوابهم على (أسئلة الاستفتاء) ثم يقرأ لاحقاً موقفاً لهم خلاف ذلك أو بالضد منه.

لِما تقدم ودفعاً للالتباس أستعرض هذه التحولات في سياسة المحتلين البريطانيين للعراق وأثرها في تغير مواقف بعض المراجع والوطنيين تبعاً لتغيرها، وكما يأتي:

أولها: تسويق المحتلين الإنكليز في العراق إعلاميّاً وسياسيّاً لثورة الشريف حسين وأبنائه ضد الاحتلال العثماني للأراضي العربية يوم زحفت قواتهم مع القوات

الإنكليزية ضد العثمانيين المسلمين، مبررة سلطة الاحتلال ذلك بأن الشريف حسين يسعى بذلك إلى تحرير الشعوب العربية من قيد الاحتلال العثماني ونيلها الاستقلال والحرية. وهو ما نصّت عليه تصريحات القائد الإنكليزي الجنرال (مود) في خطابه الأول الموجّه إلى العراقيين حين أقحم الثناء على الشريفيين في خطابه إقحاماً بقوله: "لقد طرد العرب من الحجاز الأتراك... ونادوا بعظمة الشريف حسين عليهم، وعظمته يحكم بالاستقلال والحرية"[1]، إضافة إلى مواقف المحتلين البريطانيين الأخرى تلك الآونة، كما سيأتي ذكرها في الفصل القادم.

ويعود تبنّيهم وترويجهم للسياسة الداعمة للشريفيين من أجل تحسين وتجميل صورتهم في أنظار العراقيين الذين جاهدوا مع العثمانيين ضد الإنكليز المحتلين للعراق بعد أن أفتى مراجعهم الدينيين في النجف الأشرف والكاظمية المقدسة وغيرها من المدن العراقية بوجوب الخروج للجهاد مع جيوش العثمانيين المسلمين ضد الجيش الإنكليزي المحتل للعراق سنة ١٩١٤م.

إضافة لما تقدم فإن صورة الشريف حسين وأبنائه وما سميت بثورتهم العربية الكبرى قد تشوهت في أذهان المسلمين العراقيين، بعد أن هاجم المرجع الأعلى في النجف الأشرف السيد محمد كاظم اليزدي وغيره تعاون الشريفيين مع الإنكليز الأجانب ضد العثمانيين المسلمين، بعد أن وصل سماحته خبر مزعوم مفاده أن علماء النجف الأشرف دعموا ثورة الشريف حسين ضد العثمانيين المسلمين، فساقوا جيشهم العربي المسلم مع جيوش الحلفاء الأجانب لاحتلال أراضٍ ودول عربية إسلامية كفلسطين وسوريا تحت قيادة الجنرال الإنكليزي أللنبي الذي عهد إلى الشريف فيصل بن الحسين ملك العراق لاحقاً قيادة جناح جيشه الشمالي بدعم تسليحي وتمويلي وعملياتي بريطاني كبير شمل جميع ما يقتضيه خوض الحرب ضد العثمانيين من مستلزمات.

لقد أصدر المرجع الأعلى السيد اليزدي بياناً شديد اللهجة ردّاً على هذا الخبر

(١) تاريخ القضية العراقية. سابق: ٥٨. ط١.

المفترى على علماء النجف الأشرف فجاء في بيان المرجع الأعلى: "لا يخفى أنه قد بلغنا حصول الإشاعة بالنسبة إلى علماء النجف الاشرف فيما يعود إلى ما هو المشهور من أمر الشريف في مكة المشرفة أنهم كتبوا في ترويج أمره، فتعجبنا من هذا الكذب الفاضح الواضح والضربة البينة الظاهرة، حاشاهم الله عن ذلك، ولا أظن أنّ أحداً من المسلمين يحتمل صدور مثل هذا من مثلهم. نسأل الله تعالى العصمة عن الكذب في الأقوال والأفعال ونصر الإسلام والمسلمين آمين رب العالمين"[١].

ثانيها: ثم تحوّلت السياسة البريطانية في العراق بعد ذلك من تسويق ودعم واضح لسياسة الشريف حسين وأبنائه وتحبيبهم إلى العراقيين كما تقدم – إلى رفض ترشيحهم لعرش العراق، إثر تبنّى سياسة الاحتلال البريطاني للعراق سياسة أوضحها نائب الحاكم المدني العام في العراق ولسون بقوله: "أعتقد أن بلاد ما بين النهرين ملك لمن غَزَوْها بصفتها محميّة إمبريالية تحت السلطة المباشرة لبريطانيا"[٢] سواء بضمّها إلى الهند التابعة لبريطانيا ضم تبعية وإلحاق، أم وضعها تحت الهيمنة البريطانية المباشرة، ليصبح العراق "جوهرة متلألئة في التاج البريطاني"[٣]؛ مرشِّحاً السير بيرسي كوكس الحاكم المدني العام في العراق حاكماً على العراق؛ ذلك أنّ دعم ترشيح أحد أبناء الشريف حسين لعرش العراق سيقف بالضد من سياسة قوات الاحتلال الداعية –إثر تحولها– إلى ترشيح البريطاني السير بيرسي كوكس حاكماً للعراق.

وبناء على هذا التحوّل في السياسة البريطانية المناوئ للشريفيين رشحت أغلب المدن العراقية أحد أبناء الشريف حسين لعرش العراق خلال أجوبتهم على (أسئلة الاستفتاء) رغم تحالف بريطانيا مع الشريف حسين بما تضمنته نصوص (مراسلات حسين–ماكماهون) المتقدم ذكرها.

---

(١) السيد محمد كاظم اليزدي. سابق: ٦٤٢.

(٢) اختراع الشرق الأوسط. الحديث. صناع الملوك. سابق: ١٩٧.

(٣) المصدر السابق: ٢٤٢.

ثالثها: ثم تحولت السياسة البريطانية في العراق مرة أخرى من الوقوف بالضد من ترشيح أحد أبناء الشريف حسين لعرش العراق، إلى تنصيب فيصل بن الحسين على عرش العراق بعد أن قادت المرجعية الدينية جماهير الشعب العراقي للمطالبة بالاستقلال التام الناجز سلماً، فعمت المظاهرات الصاخبة المتواصلة العاصمة بغداد والمدن العراقية المهمة الأخرى في الوسط والجنوب. وإذ يئست سلطات الاحتلال من السيطرة على الوضع، قررت اللجوء إلى القوة المسلحة فتصدت لها المرجعية العليا بإعلان الجهاد وإشعال ثورة العشرين التحررية.

وحين انتهت الثورة تأكدت بريطانيا أن تنصيب حاكم بريطاني على العراق قد باء بالفشل الذريع، فتحولت من سياسة تنصيب البريطاني السير بيرسي كوكس حاكماً على العراق إلى سياسة أخرى تبنت فيها تنصيب فيصل على عرش العراق، مفضلة أن تحكم هي العراق إنما بوجه فيصلي عربي بعدما استدعت الشريف حسيناً إلى لندن وفاوضته فوافق على شروطها المذلة كافة بما فيها الانتداب البريطاني على العراق المبرقع ببرقع المعاهدة، متخلّياً بذلك عن مبادئه الوطنية وقيمه السابقة مقابل عرش العراق.

يلحظ المتتبع لسياسة الشريف حسين وأبنائه وجود سياستين مختلفتين لهم أشد الاختلاف فيما يخص العرب والعراق. أسميتُهما بالسياسة الأولى والثانية للشريف حسين وأبنائه تجاه العرب والعراقيين.

وأقصد بالسياسة الأولى للشريف حسين وأبنائه -وهي مدار بحثي في هذا الفصل-: سياستهم ما قبل اتفاق فيصل مع الإنكليز بدعم أبيه على تسنّمه عرش العراق.

ويمكنني أن أؤرخ هذه السياسة ابتداء من إشعال الشريف حسين فتيل ما سمي بالثورة العربية الكبرى، وانتهاء باتفاق الشريفيين مع بريطانيا بشروطها على تنصيب الشريف فيصل على عرش العراق بعد خلع تاج حكمه لسوريا من رأسه بالقوة.

وبالتحديد تبدأ السياسة الأولى من قبل فجر اليوم (٩ شعبان ١٣٣٤هـ/ ١٠ يونيو ١٩١٦م) وتنتهي في يوم (٥ جمادى الأولى ١٣٣٩هـ/ ١٥ كانون الثاني ١٩٢١م) حيث تبدأ سياسة الشريفيين الثانية التي سأتناولها في الفصل القادم.

المبحث الأول

تعريف بالسياسة الأولى للشريف حسين وأبنائه تجاه العراق وتحديد زمنها وموقف العراقيين منها

أعني بالسياسة الأولى للشريف حسين وأبنائه تجاه العرب والعراق منهم، تلك السياسة التي أعلنها الشريف حسين وأبناؤه الداعية إلى استقلال الشعوب العربية ونيلها حريتها في تقرير مصيرها من خلال تخليصها من سيطرة العثمانيين عليهم.

لقد حددت بداية السياسة الأولى للشريف حسين وأبنائه بيوم إعلان الشريف حسين ما اشتهرت تسميتها بالثورة العربية الكبرى، مستفيداً معالم هذه السياسة من بياناته ومواقفه وأبنائه ورسائلهم وإعلامهم وجريدتهم الناطقة باسمهم (القبلة)، وأدبيات هذه السياسة كثيرة، أذكر منها ما أورده عنها المرجع الأعلى الشيخ محمد تقي الشيرازي في رسالته إلى الأمير فيصل بن الحسين بما نصه "أننا لا زلنا نسمع أنباء تفاديكم العظيم في سبيل إحياء الجامعة العربية التي هي عنوان المجد الإسلامي"[1]، ومنها ورد في رسالة كتبها الشريف عبد الله بن الحسين على لسان أبيه إلى رونالد ستورز بأنه "أمكنه الآن الزعم بأنه يتكلم نيابة عن (الشعب العربي) بأسره للحصول على الدعم البريطاني لاستقلال العرب من الحكم العثماني"[2].

بل ما نص عليه تصريح الشريف حسين الواضح غاية الوضوح في عرض سياسته خلال هذه المدة بقوله لزعماء الثورة العراقيين الملتجئين إليه بأنه ما قام بثورته إلّا من أجل "استقلال الشعوب العربية بحدود أوطانها الطبيعية"[3]، وقد تقدم الحديث عن سياسته هذه بتفصيل وافٍ فيما سبق.

وأما تحديدي الزمني لانتهاء هذه السياسة وبداية سياستهم الثانية، فواضح

---

(١) وثائق الثورة العراقية الكبرى. سابق: ٣/ ٦٨

(٢) سقوط العثمانيين الحرب العظمى في الشرق الأوسط. سابق: ٣٦٧.

(٣) مذكرات السيد محسن أبو طبيخ. سابق: ٢١٠.

أيضاً من اتفاق الشريف فيصل وأبيه الشريف حسين على شروط بريطانيا المذلّة بما فيها الانتداب المتستر عليه بغطاء معاهدة، مقابل تسنّم الشريف فيصل عرش العراق بعد خلع الفرنسيين تاج سوريا من على رأسه وطرده منها في ليلة ليلاء.

ومما يدعم استفادتي لهذه النهاية الزمنية للسياسة الشريفية الأولى، هو ما ورد في نص رسالة أرسلها الشريف فيصل إلى أبيه في (٩ آب ١٩٢٠/ ٢٤ ذي القعدة ١٣٣٨هـ) بعد إخراجه من سوريا، شارحاً فيها الظروف التي انتهت باحتلال سوريا من قبل الفرنسيين بعد وقوع مجزرة ميسلون التي تصدى فيها الوطنيون السوريون المناضلون للغزاة الفرنسيين.

حيث يستفاد من هذه الرسالة أن الشريف حسيناً ظل متمسكاً بطلب استقلال الدول العربية حتى بعد إخراج فيصل من سوريا -إنما قبل اتفاق فيصل مع الإنكليز على منحه عرش العراق-، مخدوعاً خدعة فاضحة بوعود الإنكليز البرّاقة، ومرائهم، ونفاقهم اللا محدود.

ويبدو أن الشريف حسيناً حين دفع ضريبة هذا الموقف المخادع بنزع تاج نجله من عرش سوريا؛ قرر القبول بنصيحة ابنه فيصل -مع الأسف- بانتهاج سياسة ثانية، تقضي بالموافقة على ما تطلبه بريطانيا منه، ولو على حساب "المبادئ" حسب فيصل، مقدّماً هو وابنه فيصل العرش على "المبادئ" هذه المرة. وهو ما أسميته بالسياسة الثانية للشريفيين.

أقول: لقد وافق فيصل على قبول الانتداب الفرنسي لسوريا بعد موافقته الرسمية المكتوبة على شروط القائد الفرنسي الجنرال غورو[1] قبل موافقة والده التي جاءت لاحقاً كجزء من صفقة يُمنح الشريف فيصل بموجبها عرش العراق مقابل قبوله بشروط بريطانيا، وفي مقدمتها الانتداب بصيغة معاهدة عراقية-إنكليزية، بل سعى فيصل لإقناع والده بالانتداب قبل ذلك إثر قبوله به كشرط من شروط الفرنسيين، بدليل ما ورد في رسالة بعثها الشريف فيصل إلى أبيه من

(١) ينظر: مذكراتي عن الثورة العربية الكبرى. أحمد قدري: ٢٣٢.

مدينة كومو بايطاليا في (١٠ تشرين الثاني ١٩٢٠م/ ٢٧ صفر ١٣٣٩هـ) بعد أن وصلها إثر إخراجه العنيف من سوريا، حيث "ناشد فيصل والده أن يعيد النظر في موقفه تجاه معاهدة فرساي... وبطبيعة الحال فقد تناولت (المادة ٢٢) من معاهدة فرساي مسألة الانتداب... فموقفه -الشريف حسين- الذي كان يربط التوقيع على المعاهدة بوفاء بريطانيا بوعودها للعرب كان من المحتم أن يكون بلا طائل" حسب نص فيصل.

ويبدو من هذه الرسالة كذلك أن الانتداب هو المقصود بالمرونة مع القوى العظمى و"الغاية" التي أشار إليها فيصل بتعبير غير صريح في رسالته السابقة إلى أبيه، كما ألمحتُ إلى ذلك سابقاً. ثم أوضح فيصل لكورنواليس مبعوث وزير الخارجية البريطاني إليه لاستمزاج رأيه حول تسنمه عرش العراق مقابل شروط منها موافقته على الانتداب، وذلك ليلة (٧-٨ كانون الثاني ١٩٢١م/ ٢٦ ربيع الثاني ١٣٣٩هـ)، فوافق على تلك الشروط بعد حديث طويل استمر لساعات.

يذكر أن بريطانيا سعت بطرق عديدة للحصول على موافقة الشريف حسين لمعاهدة فرساي، لكنّ الشريف حسيناً رفض العرض البريطاني ما لم تنفذ بريطانيا التزاماتها تجاه العرب.

بعد أن انتهيت من تحديد مقصودي بسياسة الشريفيين الأولى مع تشخيص بدايتها الزمنية ونهايتها؛ أقول: لقد تتبعتُ الوثائق والمضابط الصادرة عن المدن العراقية المؤثرة تأثيراً مباشراً في مجرى الأحداث حينها، وهي النجف الأشرف، وكربلاء المقدسة، والكاظمية المقدسة، وبغداد العاصمة؛ فوجدتُ تلك الوثائق تختلف على نحوين -في زمنيين مختلفين- هما: موقف أهالي المدن من ترشيح ملك للعراق في المدة المبتدئة بطرح أسئلة الاستفتاء على العراقيين، والمنتهية بتدوين مضابط التوكيل، وهي المدة الممتدة من شهر (صفر ١٣٣٧هـ/ تشرين الثاني ١٩١٨م) إلى (رمضان ١٣٣٨هـ/ مايس ١٩٢٠م).

وأقصد بـ(الاستفتاء) تلك الأسئلة الثلاثة التي وجهها نائب الحاكم العام

البريطاني للعراق السير ولسون في (٢٥ صفر سنة ١٣٣٧ هجرية/ ٣٠ تشرين الثاني ١٩١٨م) عن تأسيس الحكم في العراق، ومن يختاره العراقيون ليكون ملكهم أو رئيسهم. وقد تقدم الحديث عن المقصود بأسئلة الاستفتاء في فصل سابق.

وأقصد بـ(مضابط التوكيل) تلك المضابط التي رفعتها المدن العراقية بناء على طلب المراجع إلى سلطات الاحتلال البريطاني بتوكيل أو انتداب من يمثلها من وجوه أهلها ليعرض مطالب مدنهم على سلطات الاحتلال، فيكون قول المنتدبين عن مدنهم قول مدنهم كلها.

وأقصد بالمدن العراقية المهمة هي المدن التي كان لها تأثير مباشر وفعّال على مجرى الأحداث في الموضوع مدار البحث وهي كل من: مدينتا النجف الأشرف والشامية، وكانتا منطقة إدارية واحدة، وكربلاء المقدسة، والكاظمية المقدسة، وبغداد.

وسأتناول كل مدينة منها على حدة في المدتين المحددتين أعلاه.

موقف المدن المؤثرة من ترشيح أحد أبناء الشريف حسين للعرش خلال أجوبتها على أسئلة الاستفتاء ودواعيه

وفيه مطلبان، هما:

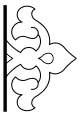

المطلب الأول: موقف المدن المؤثرة من ترشيح أحد أبناء الشريف حسين لعرش العراق.

وأقصد بالمدن المؤثرة: النجف الأشرف وكربلاء المقدسة والكاظمية المقدسة وبغداد حسب التسلسل الزمني لتواقيع الأجوبة على الاستفتاء.

١ . مدينة النجف الأشرف:

بدأ نائب الحاكم الملكي العام في العراق السير ولسون طرحه لأسئلة الاستفاء على أهالي ووجوه علماء وشيوخ ووجهاء مدينة النجف الأشرف والشامية مستهلاً بها استفتاءه للمدن العراقية الأخرى، وكان يأمل بعد كل ما اقترفته أيدي الإنكليز من حصارهم القاسي الطويل للمدينة المقدسة حتى مات الناس جوعاً وعطشاً، ثم اقتحامهم الوحشي لها بالقوة المسلحة المفرطة، ثم اعتقالهم وإعدامهم لثلة من أبطال النجف الأشرف وثوارها على الاحتلال، ثم تسفير الكثير منهم إلى جزيرة هندية نائية، كان ولسون يأمل أن تخضع المدينة الثائرة الباسلة لمشيئته بموافقتها عبر وجوهها على ما يريده منهم أن يختاروه وهو حكم الإنكليز للعراق بتنصيب السير بيرسي كوكس حاكماً عليهم، فتحدث ولسون -للمجتمعين الذين دعاهم واختارهم من وجوه وسادات المدينتين ولبوا دعوته- عن عدل بريطانيا العظمى، وعن كرمها وتضحياتها بـ"بذلها الأموال والنفوس في الحرب ودحر الأتراك -وهي- تريد أن تسألكم: هل ترغبون في حكمها؟ أم تريدون حكومة وطنية عربية؟ عرّفونا رأيكم النهائي"[1].

---

(١) لمحات اجتماعية من تاريخ العراق الحديث:٥/ ٧٠

فجوبِهَ بقول الشيخ محمد رضا الشبيبي المفصح عن إرادة أغلب العراقيين فضلاً عن النجفيين بقوله له: "إن الشعب العراقي يرتأي أن الموصل جزء لا يتجزأ من العراق، وأن العراقيين يرون من حقهم أن تتألف حكومة وطنية مستقلة استقلالاً تامّاً، وليس فينا من يفكر في اختيار الحاكم الأجنبي. فغاظ هذا الخطاب البليغ الحاكم فقاطع كلام الشبيبي وضرب يده على المنضدة"(١)، وبان الغضب على وجه ويلسون، والظاهر أنه فوجئ بهذا الجواب الذي لم يكن يتوقعه، بعد ذلك طلب الوطنيون العراقيون من ويلسون مهلة للتفاوض والتشاور فيما بينهم.

يقول السيد أحمد الصافي النجفي -صديق الشيخ محمد رضا الشبيبي ورفيقه في العمل الوطني ضد المحتلين الإنكليز-: "بعد أن انفضّ الاجتماع جاءني الشيخ عبد الكريم الجزائري وقال لي: هذه الليلة إما أن يعتقل الشيخ محمد رضا -الشبيبي-، وإما أن يقنعه الإنكليز بطريقة من الطرق، فاذهب إليه، وشدد عزيمته، فذهبت إليه وقلت له ماذا ينتظر الليلة. فقال: أما الاقناع فلو وضعوا الشمس في يميني والقمر في شمالي فلن أغيّر الرأي. وأما الاعتقال فأنا مستعد بمجرد مجيء أحد من قبل السلطة أن أقفز من سطح بيتنا على سطح بيت الحاج محسن شلاش المجاور لنا، ومن هناك يدبّر الله الأمر"(٢).

لقد انتهت المداولات بين الوطنيين باتخاذ قرار بأن يتوجهوا بسؤالهم إلى المرجعية العليا المتمثلة آنذاك بسماحة السيد محمد كاظم اليزدي، فأحال الأمر إليهم، فعقدوا اجتماعات كبيرة لأيام، ضمت مختلف الشرائح الاجتماعية المهمة، وفي مقدمتها كبار العلماء الأعلام، وغيرهم من الطبقات الاجتماعية المختلفة.

لقد انتهت المداولات بين المراجع وكبار العلماء من جهة، وزعماء السادة والشيوخ الكبار من جهة أخرى إلى رأيين مختلفين بشأن ترشيحهم لأحد أنجال الشريف حسين لحكم العراق.

---

(١) ماضي النجف وحاضرها. سابق: ٣٦٥.

(٢) صفحات من مذكرات أحمد الصافي النجفي: ١٤-١٥.

أما رأي المرجع وكبار المجتهدين والعلماء في هذا الأمر، فقد ذهبوا إلى عدم ترشيح أي مرشح لتولي هذا المنصب بمن فيهم أحد أنجال الشريف حسين أو غيره ممن رشحوا أنفسهم لتقلده، معلّلين ذلك بعدم تجريبهم جميعهم سابقاً. حيث جاء ردهم المذيل بتواقيع كل من المرجع شيخ الشريعة الأصبهاني، والمرجع السيد أبو الحسن الأصبهاني، والمرجع الشيخ محمد حسين النائيني، والمجتهد الشيخ عبد الكريم الجزائري، والعديد من كبار العلماء والزعماء كالشيخ عبد الرضا آل الشيخ راضي، والشيخ جواد نجل المرحوم صاحب الجواهر، والشيخ مهدي الخراساني، والسيد محمد رضا الصافي، والشيخ مهدي آل كاشف الغطاء، والشيخ موسى زايردهام، والسيد صالح كمال الدين، والشيخ علي المانع، والشيخ أحمد الخراساني، والشيخ محمد رضا الشبيبي، وغيرهم وذلك بتاريخ (٩ ربيع الأول ١٣٣٧هـ/ ١٣ كانون الأول ١٩١٨م) جواباً على السؤال الثالث من أسئلة الاستفتاء الخاص بترشيح شخص معين لإدارة البلاد بما نصه: "من حيث أننا لم نجرب الأشخاص لا ينبغي لنا التعيين، لكن من حيث أن أكثر أهل القطر العراقي مسلمون نرى أن يكون ذلك الأمير مسلما"[١].

كما أنهم ذكروا في جوابهم عن السؤال الثاني ما يلي: "من حيث أن أكثر أهالي العراق عرب، وكل إنسان ميال بالطبع إلى أبناء جنسه الذين تجمعه وإياهم جامعة الدين واللسان والأخلاق والعادات، نرى من المناسب أن تكون هذه المملكة – العراقية– الجديدة تحت اسم إمارة أمير عربي"[٢].

بل ورد في رسالة صادرة من دار المندوب السامي البريطاني في بغداد إلى حكومة الهند في (٢٢ ربيع الثاني ١٣٣٧هـ/ ٢٥ كانون الثاني ١٩١٩م) بعد زيارته للنجف

(١) الاستقلال أو الحكم الذاتي في العراق. النسخة العربية الرسمية الكاملة لوثائق أجوبة استفتاء ولسون لسنة ١٩١٩م، التي طبعتها إدارة ولسون سنة ١٩١٩م، نشرت نصها قوات الاحتلال البريطاني للعراق الوثيقة جاءت تحت رقم ٧ شامية.

(٢) المصدر السابق نفسه.

الأشرف بيانه لرأي "شخصيات دينية بارزة" في النجف الأشرف قوله: "إنهم في الوقت الذي يستحسنون نظريّاً فكرة أمير، فإنهم لا يعرفون أحداً مقبولاً لهذا المنصب"(١) ما يشي بأنهم لا يرون في أحد أنجال الشريف حسين ولا في غيره من المرشحين للمنصب من يحظى بقبولهم لعرش العراق.

يذكر أن د. علي الوردي قد أورد نصاً للشيخ محمد رضا الشبيبي تحدث فيه عن جواب النجفيين على الاستفتاء نص فيه على: "إقامة حكومة مستقلة تحت اسم رئاسة أمير عربي"(٢) من دون تسميته.

هذا ما كان يتعلق بجواب كبار علماء النجف الاشرف على (أسئلة الاستفتاء).

أما جواب غيرهم من السادة والشيوخ فهناك وثائق أشارت إلى آراء أخرى مختلفة عن آراء المراجع الدينيين حسب قناعات مرسليها. فمثلاً رشح قسم من كبار شيوخ عشائر لواء الشامية -وكانت النجف ضمن أعمال هذا اللواء كما تقدم- أحد أنجال الشريف حسين للعرش، حيث جاء في جوابهم عن السؤال الثالث من أسئلة الاستفتاء المؤرخ في (٢٤ ربيع الأول ١٣٣٧هـ/ ٢٨ كانون الأول ١٩١٨م) ما نصه: "إن أهل قطر العراق عرب مسلمون ينبغي لهم أمير عربي مسلم يدير شئونهم (كذا) فإذا كان الأمير عربي (كذا) فنختار أحد أنجال سيدنا الشريف أن يكون هو الأمير ونحب أن الحكومة تبقى إلى أن تعمر بلادنا"(٣).

وقد وقعها كلّ من الشيخ عبد الواحد آل سكر، والسيد هادي مكوطر، والسيد علوان الياسري، والشيخ مرزوك العواد، والشيخ علوان الحاج سعدون، والسيد محسن أبو طبيخ، والسيد نور الياسري، وغيرهم من كبار السادة والمشايخ ورؤساء العشائر.

---

(١) العراق في سجلات الوثائق البريطانية. سابق: المجلد الثاني: ١٩١٨-١٩٢١: ١٨٨ وما بعدها.

(٢) لمحات اجتماعية من تاريخ العراق الحديث:٥/ ٧٠-٧٢. على التوالي.

(٣) الاستقلال أو الحكم الذاتي في العراق. النسخة العربية الرسمية الكاملة لوثائق أجوبة استفتاء ولسون لسنة ١٩١٩م، التي طبعتها إدارة ولسون سنة ١٩١٩م. سابق.

وقد كان الشيخ فريق المزهر آل فرعون أورد نصّاً لوثيقة حدد تاريخها في (١٧ ربيع الأول ١٣٣٧هـ/ ٢١ كانون الأول ١٩١٨م) خلا نصها من ذكر أسماء الموقعين عليها، وإن كان راويها ذكر أن "كبار رجالات الدين وزعماء العشائر ورؤساء القبائل ووجوه مدينة النجف الأشرف" قد وقعوا عليها. علماً بأن ما ورد في نص المضبطة من قول كاتبيها "بعد اجتماعنا بعلمائنا" يخالف توقيع كبار رجالات الدين عليها؛ لوضوح أن الموقعين عليها قد سألوا العلماء قبل أن يكتبوا المضبطة وأن العلماء قد تم سؤالهم لا أكثر.

وعلى أي حال فقد نصت المضبطة على ترشيح أحد أنجال الشريف حسين لعرش العراق وفيما يلي نصها:

"بسم الله الرحمن الرحيم: بعد أن اجتمع بنا الحاكم العام في النجف الأشرف وأخبرنا بلسان الحكومة البريطانية المحتلة بشكل الحكومة التي نختارها وننتخب ملكاً، وبعد اجتماعنا بعلمائنا، وبعد أن وقفنا على مقررات دولتي بريطانيا وفرنسا حول تحرير الشعوب وخلاصة قولها أن غرض الحكومة في الشرق تحرير الشعوب تحريراً نهائيّاً وإنشاء حكومات وإدارة وطنية في سورية والعراق تقوم بها الشعوب بذاتها من خالص رغبتها ومحض اختيارها، وبعد ملاحظة الأصول الإسلامية الجعفرية فإننا قررنا على أن تكون لنا حكومة عربية إسلامية ملكية دستورية مقيدة بقانون أساسي بشرط أن لا يخالف قواعدنا وعاداتنا وشعائرنا الدينية منها والوطنية تحت ظل ملك عربي هو أحد أنجال الشريف حسين، هذه رغبات الأمة العراقية لا نحيد عنها ولا نتنازل عنها قيد شعرة"[١].

ومن خلال المقارنة بين الوثيقتين يظهر جليّاً اتفاق موقّعي الوثيقتين على أن يكون المرشح لمنصب عرش العراق عربيّاً مسلماً من جهة، واختلافهم في أمر ترشيح شخص محدد لهذا المنصب من جهة أخرى، فمراجع النجف الأشرف رفضوا

(١) الحقائق الناصعة في الثورة العراقية سنة ١٩٢٠ ونتائجها. سابق. النصوص ما بين القوسين منقولة من ص٨٤-٨٥.

الترشيح، وسادة العشائر وشيوخها ووجوه أهل النجف وغيرهم رشحوا أحد أبناء الشريف حسين للمنصب.

٢ . مدينة كربلاء المقدّسة:

لقد تم عقد ثلاثة اجتماعات للإجابة عن أسئلة الاستفتاء في مدينة كربلاء المقدسة، حتى استقر الرأي على تنظيم مضبطتها، وكان أول هذه الاجتماعات في السراي الحكومي في (١٢ ربيع الأول ١٣٣٧هـ/ ١٦ كانون الأول ١٩١٨م) بحضور الحاكم السياسي الإنكليزي للحلة وكربلاء الضابط الميجر تيلر، حيث كانت كربلاء تتبع الحلة إداريّاً، فطلب وجهاء كربلاء إمهالهم ثلاثة أيام للتباحث.

وكان ثاني اجتماعات وسادات ووجهاء وشيوخ كربلاء بدار السيد محمّد صادق الطباطبائي للتداول في أمر الجواب، ولم ينتهِ الاجتماع إلى نتيجة.

أما ثالث الاجتماعات، وهو الأهم، فقد عقد وفق رواية المؤرخ الكربلائي السيد سلمان هادي آل طعمة: "في دار الشيخ محمّد تقي الحائري بإشرافه، وكانت الأكثرية تميل نحو حكومة عربية، وأعلنوا رغبتهم في اختيار عبد الله نجل الشريف حسين بن علي أو أخيه زيد بن الحسين، واستقر الرأي على كتابة مضبطة والتوقيع عليها وإرسالها إلى الحاكم السياسي في كربلاء"[١]، فكُتبت المضبطة بما تم الاتفاق عليه ووُقّعت، وجاء في نصها: "اجتمعنا نحن أهالي كربلاء... وبعد مداولة الآراء، وملاحظة الأصول الإسلامية، وطبقاً لها، تقرر رأينا على أن نستظل بظل راية عربية إسلامية، فانتخبنا أحد أنجال سيدنا الشريف ليكون ملكاً علينا مقيداً بمجلس منتخب من أهالي العراق، لتسنين القواعد الموافقة لروحيات هذه الأمة، وما تقتضيه شؤونها. تحريراً في اليوم (الخامس عشر من شهر ربيع الأول سنة ١٣٣٧هـ"[٢]، الموافق ليوم ٩ كانون الأول ١٩١٨م).

(١) كربلاء في ثورة العشرين. سابق: ٤٧. وينظر: لمحات اجتماعية من تاريخ العراق الحديث. سابق: ٥/ ١/ ٧٥.

(٢) لمحات اجتماعية من تاريخ العراق الحديث. سابق: ٥/ ١/ ٧٦. وينظر: كربلاء في ثورة العشرين. سابق: ٥٥- ٥٦.

وقد ألحقت الوثيقة بعدد كبير من أسماء الموقعين عليها، كان من ضمنهم كما ورد في نص الوثيقة: "... محمّد رضا نجل آية الله الشيرازي الحائري دام ظله"(١). بل نشر الشيخ فريق المزهر آل فرعون صورة فوتوغرافية للمضبطة والتواقيع التي عليها في كتابه (الحقائق الناصعة)(٢).

من خلال ما تقدم يظهر أن ترشيح أحد أنجال الشريف حسين لعرش العراق لم يعترض عليه المرجع الأعلى الشيخ محمّد تقي الشيرازي، أثناء تنظيم أهالي كربلاء لمضبطتهم في بيته وبحضوره. ولم يؤيده خلافاً لمن ذهب إلى أن المرجع الأعلى الشيخ الشيرازي قد "أيد هذا الرأي"(٣).

وقد يكون من أسباب قوله بتأييد المرجع الأعلى لهذا الترشيح إضافة لكتابة المضبطة في بيته وبحضوره وتوقيع نجليه عليها فيمن وقع، رسالةٌ بعثها المرجع الأعلى الشيخ الشيرازي إلى الأمير فيصل بن الحسين حملها الشيخ محمد رضا الشبيبي يطلب فيها من الشريفيين إشهار مظالم حكومة الاحتلال البريطاني للعراق وللعراقيين، عسى أن "ترفعوها إلى الصحافة الحرة في كل أنحاء العالم، وتظهروها صريحة إلى الحكومات الأوربية والأمريكانية حتى نتمكن بواسطتها من تحصيل مقاصدنا العالية... فأسرعوا وساعدوا إخوانكم الذين اعتمدوكم للمطالبة باستقلال بلادهم ولا تجعلوا سبيلاً للتشبّث الأجنبي كيفما كان وامتداد نفوذهم إلى هذه الديار الإسلامية"(٤).

وإذا صدق ظني لتعليل ما ذهب إليه من رأي فيما تقدم، فهو غير ناهض للدلالة على المدّعى.

---

(١) كربلاء في ثورة العشرين. سابق: ٥٥-٥٦. والشيخ محمّد تقي الشيرازي القائد الأعلى للثورة العراقية الكبرى. سابق: ١٨٠.

(٢) الحقائق الناصعة في الثورة العراقية سنة ١٩٢٠ ونتائجها. سابق: ٦٥.

(٣) الشيخ محمّد تقي الشيرازي ودوره في الثورة العراقية عام ١٩٢٠. دراسة تاريخية. جاسم محمّد إبراهيم اليساري. مجلة أهل البيت عليهم السلام: ٣٠٦.

(٤) تنظر: رسالة سماحة المرجع الأعلى إلى الأمير حسين في كتاب الشيخ محمد تقي الشيرازي القائد الأعلى للثورة العراقية الكبرى ١٩٢٠. سابق: ٢٣٨.

نعم، لقد رشّح كلٌّ من الشيخ محمّد رضا الشيرازي والشيخ عبد الحسين الشيرازي ابنا المرجع الأعلى -وليس المرجع الأعلى سماحة الشيخ محمد تقي الشيرازي الحائري- أحدَ أنجال الشريف حسين مع من رشّحه من ممثّلي أهالي كربلاء المقدّسة، ووقّع كلاهما على المضبطة التي نصت على ذلك الترشيح مثلما وقعه كبار العلماء والوجهاء أيضاً.

بل إنّ الشيخ محمد رضا الشيرازي أرسل رسالة إلى الأمير علي نجل الشريف حسين في (٧ رمضان ١٣٣٨هـ/ ٢٥ مايس ١٩٢٠م) جاء فيها متحدثاً عن الشعب العراقي: إنّه "ينتظر بفروغ الصبر أن يسمع صدى دفاعكم عنه، فقد أكله الظلم ونخر عظامه الاستبداد، ولا يخفى على سموكم ما لاقاه العراقيون منذ بدء الاحتلال إلى اليوم من المصائب العظيمة والخطوب الجسيمة، وتحملوا من المظالم والاعتسافات في سبيل انتخاب أحد أخويكم الأميرين عبد الله وزيد ما لا يمكن سرده لكم"[١].

نعم، كل هذا كان حصل، غير أنّ هذا لا يحول بيني وبين ترجيحي عدم اعتراض سماحته على ترشيح أحد أبناء الشريف حسين لعرش العراق لا تأييده. وأقول: عدم ممانعته لترشيح أحد أنجال الشريف حسين لا أكثر؛ لأني لم أعثر على دليل مادّيّ ينص على ترشيحه له في وثائق سماحته، إضافة لما ورد من أن سماحته قد عُرض عليه مرة أن يرشح من يراه أهلا لتولي عرش العراق، فأجابهم بأن الشعب هو الذي سيختار من يشاء، أمّا هو فلا ولن يختار للأمة ما هو من حقها[٢].

ومثلما زعم أحد الباحثين تأييد المرجع الأعلى لترشيح أحد أنجال الشريف حسين لعرش العراق؛ زعم باحث آخر أنّ سماحته "ربما لم يكن راغباً في تولي أحد أنجال الشريف عرش العراق؛ لأنه كان يريد تولّيه من قبل أحد

(١) تنظر: رسالة الشيخ محمد رضا الشيرازي في كتاب: الشيخ محمد تقي الشيرازي القائد الأعلى للثورة العراقية الكبرى ١٩٢٠. سابق: ٢٤٢-٢٤٣.

(٢) ينظر: الزعيم الموهوب. سابق: ٣٩٦.

العراقيين، لكنه احترم رأي الأغلبية ولم يظهر معارضته علناً وهذا هو الاحتمال الأول. والاحتمال الثاني ربما كان في رأي الشيخ الشيرازي شخص معين لم يُدلِ باسمه لترك الباب مفتوحاً للاختبار من قبل الآخرين".

بل زاد الباحث على ذلك بقوله: "كانت للشيرازي تحفظات على تولي أحد أنجال الشريف حسين عرش العراق"[١]، مستفيداً ذلك كله من قراءته للاجتماع الذي حصل في بيت سماحته بحضوره للإجابة عن أسئلة الاستفتاء. غير أني لم أجد دليلاً يدعم أيّاً من هذين الرأيين.

٣ . مدينة الكاظمية المقدّسة:

لقد طالبت مدينة الكاظمية المقدسة أسوة بمدينة كربلاء المقدسة بأن يكون أحد أنجال الشريف حسين هو مرشحها لعرش العراق، وقد نصت على ذلك مضبطتهم التي جاء فيها: "... إننا نطلب أن تكون للعراق الممتدة أراضيه من شمالي الموصل إلى خليج فارس حكومة عربية إسلامية يرأسها ملك عربي مسلم هو أحد أنجال جلالة الملك حسين على أن يكون مقيداً بمجلس تشريعي وطني. والله ولي التوفيق. حرّر (يوم الأربعاء في ٥ ربيع الثاني سنة ١٣٣٧هـ"[٢]. الموافق ليوم ٩ كانون الأول ١٩١٨م).

وقد ورد في الوثيقة أسماء أهم الموقعين عليها من علماء الكاظمية المقدسة ووجهائها يتقدمهم المرجع الشيخ مهدي الخالصي، والمجتهدون وكبار العلماء الأعلام كل من: السيد حسن الصدر، والسيد محمّد مهدي الصدر، والشيخ عبد الحسين آل ياسين، والسيد أحمد الحيدري، والميرزا إبراهيم السلماسي، والحاج عبد الحسين الجلبي، ثم حملت المضبطة بعدئذ إلى الصحن الشريف لملئها بالتواقيع فبلغ عدد التواقيع عليها أخيراً (١٤٣) مواطناً.

---

(١) الشيخ محمد تقي الشيرازي الحائري ودوره السياسي في العراق من عام ١٩١٨-١٩٢٠. د. علاء الصافي: ٦٧ و١٥٢ على التوالي.

(٢) تاريخ القضية العراقية. سابق: ١/ ٨٤-٨٥. ط١.

٤ . مدينة بغداد العاصمة:

أما موقف أهالي بغداد المماثل لموقف أهالي كربلاء والكاظمية فقد اتضح في يوم الاجتماع المنعقد صباح الأربعاء (١٩ ربيع الثاني ١٣٣٧هـ/ ٢٢ كانون الثاني ١٩١٩م) خلافاً لإرادة المحتلين التي أوضحها الأستاذ علي البازركان أحد حاضري الاجتماع بقوله: "شاهدت في الباب أربعة عمالقة من الإنكليز، يرتدون لباس الشرطة، ويحمل كل منهم مسدساً في جنبه، وفي يده رزمة من البطاقات، وهم يوزعونها على الداخلين. وقد أعطوني عدة بطاقات منها حينما دخلت، ولمّا أخذت مقعدي قرأت البطاقات المذكورة فإذا هي تحتوي على أجوبة أهالي النجف، والبصرة، والشامية، والمنتفك، والحلة، والموصل، وكربلاء بخصوص الأسئلة الثلاثة التي وجهها الحكام السياسيون، ومضمونها جميعا هو: إبقاء الحكم البريطاني في العراق مع بيان محاسن الإدارة البريطانية، وأن يكون ملك العراق هو السير برسي كوكس"(١).

وقد حضر الاجتماع المستشرق مرغليوث رفقة الكولونيل بلفور، وألقى كلمة بالعربية ختمها بقوله: "يجب على العراقيين أن يختاروا الإنكليز أوصياء عليهم أو تحت انتدابهم أو حمايتهم"(٢).

وإذ خرج الكولونيل بلفور ومستشاره حينها المستشرق مرغليوث ليتركوا المجال للمندوبين كي يسجلوا أجوبتهم، أخرج المندوبون مضبطة كانوا أعدّوها واتفقوا عليها مسبقاً فوقّعوها، جاء فيها بعد البسملة والديباجة: "... إننا ممثلو الإسلام من الشيعة والسنة من سكان مدينة بغداد وضواحيها، بما أننا أمة عربية، وإسلامية، قد اخترنا أن تكون لبلاد العراق الممتدة من شمالي الموصل إلى خليج العجم دولة واحدة عربية يرأسها ملك عربي مسلم هو أحد أنجال سيدنا الشريف حسين، مقيّداً بمجلس تشريعي وطني، مقرّه عاصمة العراق بغداد.

---

(١) لمحات اجتماعية من تاريخ العراق الحديث. سابق: ٣/ ١/ ٨٢. نقلاً عن: الوقائع الحقيقية. علي البازركان: ٦٦.
(٢) المصدر السابق: ٦٧.

حرّر يوم الأربعاء (١٩ ربيع الآخر ١٣٣٧هـ، الموافق ٢٢ كانون الثاني ١٩١٩م)"[١].

ثم حمل المضبطة الموقعة إلى الكولونيل بلفور حاكم بغداد العسكري والسياسي ممثلان اثنان عن الحضور هما: الشيعي جعفر أبو التمن، والسني عبد الرحمن باشا الحيدري.

وينقل الدكتور الوردي خطأً عن كتاب (تاريخ القضية العراقية) لمحمد مهدي البصير قوله: "وحين دخلا عليه سألهما: "من اخترتم..؟"، فأجابه أبو التمن: "اخترنا حليفكم"، يقصد بذلك أنهم اختاروا أحد أنجال الملك حسين الذي كان حليفاً لبريطانيا في الحرب"[٢]. في حين إنّ الذي ورد في كتاب (تاريخ القضية العراقية) للشيخ محمّد مهدي البصير أنّ الذي أجابه هو عبد الرحمن باشا، وليس أبو التمن[٣]. ولذلك قلت عن الوردي أنه كان مخطئاً في نقله عن كتاب البصير.

هذا، ولم يقتصر أهالي بغداد على المذكرة السابقة، فقد نظّم علماء ومشايخ السنة ووجهاؤهم مضبطة أخرى وقّعها آخرون من بينهم: محمود السنوي، السيد محمود الكيلاني، مجيد الشاوي، رفعت الجادرجي، يحيى الوتري، الشيخ سعيد النائب. وغيرهم، وجاءت بنصها التالي: "إنا معشر العراقيين قد حضرنا في المحكمة الشرعية ببغداد الساعة الرابعة من يوم (١٤ ربيع الثاني سنة ١٣٣٧هـ) إجابة لدعوة قاضي بغداد المفخّم، وبعد أن تُلي علينا كتاب الحاكم العسكري المتعلق بمستقبل العراق ومصيره، قد اتفقنا واجتمعت كلمتنا على أن يكون مصير العراق ومستقبله وفقاً للمواد الثلاث الآتية وهي:

أولاً: إنّ العراق من شمال الموصل إلى خليج فارس له القدرة على إدارة نفسه بنفسه، فإنه رشيد ولله الحمد على إدارة الحكم الذاتي.

ثانياً: إنّ القطر العراقي يدعو إلى أن تكون الحكومة عربية لا شائبة فيها.

---

(١) تاريخ القضية العراقية. سابق: ١/ ٨٦. ط١.

(٢) لمحات اجتماعية من تاريخ العراق الحديث. سابق: ٥/ ١/ ٨٤.

(٣) ينظر: تاريخ القضية العراقية. سابق: ٨٦. ط١.

ثالثاً: إنّ أكبر مجاهد ومناضل عن حمى العرب على اختلاف مللهم ونحلهم هو السيد الشريف ملك العرب وأنجاله، فلا بدّ وأن يكون أحد أنجاله الفخام أمير العراق، فلا يؤذن بانتخاب أحد غيره، لا يوجد أحق منه لذلك. على أن يكون مقيداً بالمجلس التشريعي الوطني كسائر الحكومات المتمدنة.

فنحن قد قررنا وقبلنا ذلك بلا تحوير ولا تبديل ولا محو وإثبات يعتدّ بها، ولا يسوغ لأحد أن يقوم بما يخالفها، وقد خوّلنا حضرة القاضي بانتخاب من ينوبون عنا دفاعاً عن هذا المبدأ، حفظاً لكياننا ويناضلون عنه، وعلى هذا قد أمضينا هذه المضبطة إيذاناً بما جرى، وقبلناه توثيقاً للعهد، وإجماعاً للرأي، ونأمل أن تكون كلمة الله هي العليا، والله ولي التوفيق. (١٤ ربيع الثاني ١٣٣٧هـ"[1]. الموافق ليوم ١٧ كانون الثاني ١٩١٩م).

ونتيجة لتماثل: نهج المرجع الشيخ محمّد مهدي الخالصي وكبار زعماء الكاظمية، وأهل بغداد ووطنييها المتحمسين لملوكية أحد أنجال الشريف حسين على العراق، مع نهج الشيخ محمّد رضا الشيرازي نجل المرجع الأعلى ووجوه أهالي كربلاء؛ فإن مدينتي الكاظمية وبغداد قد رشحتا أيضاً في مضبطتيهما جواباً عن أسئلة الاستفتاء أحد أنجال الشريف حسين لتولي عرش العراق كما تقدم.

بل يبدو أنّ موقف أهالي بغداد ووطنييها ومعهم أهالي الكاظمية وعلى رأسهم سماحة الشيخ محمّد مهدي الخالصي -الذي عرض على آية الله السيد علي الشيرازي الحسيني الترشح لتسنّم العرش فرفض سماحته ذلك العرض كما تقدم- والسيد محمّد الصدر وغيرهما كان أقوى دعماً وأكثر تبنّياً، أو هكذا بدا، لفكرة ترشيح أحد أنجال الشريف حسين لعرش العراق من موقف المدن العراقية الأخرى، ويظهر ذلك واضحاً من تتبع مجريات الأمور تلك الآونة، ليس لأنهما وقّعا على مضبطتي بغداد والكاظمية المرشِّحتين لأحد أنجال الشريف حسين ملكاً على العراق جواباً عن أسئلة الاستفتاء فحسب، بل لأنّ سماحة الشيخ الخالصي

(١) الثورة العراقية الكبرى. سابق: ٧٣-٧٤.

زاد على ترشيحه ذاك بأنْ بايع الملك فيصلاً على عرش العراق بشروط، ولمّا لم يعمل بها الملك لمخالفتها لاتفاقه مع بريطانيا، ألغى سماحة المرجع الشيخ بيعته له، وكتب إلى المرجعين السيد أبو الحسن الأصفهاني والشيخ النائيني في النجف "بخلعه عن عرش العراق"، فكان أن وقع الكتاب بيد الملك فيصل فغضب وتأثر[١].

كما أنّ السيّد محمّداً الصدر ترأس حزب (حرس الاستقلال) الداعي في المادة الثالثة من منهج عمله المتقدم ذكرها إلى تبنّي هذا الترشيح، ثم عارضه بشدة بعد أن انكشف له حال الملك فيصل على حقيقته كما سيأتي.

ويعد سماحة الشيخ الخالصي المرجع الوحيد من بين مراجع الدين المشهورين في العراق الذي رشح أحد أنجال الشريف حسين لعرش العراق خلال الجواب عن أسئلة الاستفتاء، بل الذي بايعه بشروط بعد وصوله للعراق خلافاً لبقية المراجع الدينيين في المدن العراقية المقدسة، قبل أن ينكشف له حال الملك فيصل على حقيقته.

هذا ما يتعلق بالمضابط الموقعة من أهالي وناشطي المدن المؤثرة في مجريات الأحداث آنذاك جواباً عن أسئلة الاستفتاء الذي وجّهته إليهم سلطات الاحتلال البريطاني عن مستقبل العراق وترشيح ملك له.

وسيأتي الحديث بالتفصيل عن أسباب ترشيح الوطنيين العراقيين في تلك الآونة لأحد أنجال الشريف حسين ملكاً على العراق خلال البحث عن سياسة الشريفيين الأولى، قبل اتفاق الشريف فيصل بدعم أبيه مع الإنكليز على منحه عرش العراق مقابل التنازل عن المطالب المبدئية للشريفيين السابقة على هذا الاتفاق.

***

(١) مذكرات العلامة الشيخ موسى العصامي. القسم الثاني. سابق: ١٢٤.

المطلب الثاني: دواعي ترشيح أغلب المدن المهمة لأحد أنجال الشريف حسين للعرش.

إنّ من أهم أسباب ترشيح أغلب مضابط المدن المهمة لأحد أنجال الشريف حسين ملكاً على العراق خلال إجابتهم عن أسئلة الاستفتاء البريطاني لهم عن مستقبل العراق - أمورٌ يأتي في مقدمتها ما يلي:

١. عدم علم زعماء الثورة وقادتها وشيوخها بما اتفق عليه الشريف حسين مع مكماهون بشأن العراق في مباحثات (حسين-مكماهون) السرية كما في أعلاه. تلك المباحثات التي أُعدّ لها -حسب ضابط الاستخبارات البريطاني لورنس- بطرق غشّاشة خدّاعة لدفع الشريف حسين عبر مكماهون إلى العمل مع حكومتنا ضد الأتراك من خلال وعده بإقامة حكومة عربية في سوريا والعراق[١].

٢. عداء شيعة العراق الشديد للاستعمار بأشكاله كافة، وفي مقدمته احتلال الإنكليز للعراق، ولذلك تصدت له المرجعية ومن ورائها شيعة العراق بفتاوى الجهاد الدفاعي المتقدمة، وقدّمت من أجل ذلك القرابين تلو القرابين من الشهداء والجرحى من أجل تحرير الإنسان والأرض والعرض والمقدسات، ونظراً لأن ترشيح أحد أنجال الشريف خلاف رغبة المحتل حينها كما ظن العراقيون ذلك أول الأمر بسبب طيبتهم المفرطة وعفويتهم وبراءة مشاعرهم؛ فقد رشحوه لعرش العراق عداءً للإنكليز.

يقول د. علي الوردي: "ومما يلفت النظر أن (الأفندية) والملائية الذين تزعّموا حركة المعارضة كانوا قبلئذ يذمّون الشريف وأنجاله، ويعدّونهم مارقين عن الإسلام، غير أنهم تحولوا إلى العكس من ذلك في أثناء الاستفتاء"[٢]. وهو ما عللت به المس بيل ترشيح العراقيين لأحد الشريفيين بقولها: "يوجد في أعماق

(١) ينظر: أعمدة الحكمة السبعة. لورنس: ٢٠٨.

(٢) لمحات اجتماعية من تاريخ العراق الحديث: ٥/ القسم الأول: ٩٢.

عقلي يقين ثابت أن ليس هناك شعب يحب أن يكون محكوماً بصفة دائمة من قبل شعب آخر، ففي السنة الماضية عندما كانوا كلهم يهتفون باسم عبد الله لم يكونوا يريدونه لأنه كان الرجل الأمثل، أو لأنهم كانوا تحت تأثير الحماس الوطني، بل لأنهم كانوا يعتبرون الهتاف باسمه هو خلاف رغبة الإنكليز"[١]، وبمثله كتبت المس بيل تقول في رسالة لها بتاريخ (١٥ أيار ١٩٢١م) بعد انتهاء الثورة بل بعد ترشيح مؤتمر القاهرة لفيصل ملكاً على العراق: "لقد كان من الخيانة في العام الماضي أن يقول المرء بأنه يريد أحد أبناء الشريف هنا، وحتى يومنا هذا نجد أن بعض ضباطنا البريطانيين لا يستطيعون تماماً أن يتراجعوا عن الموقف السابق"[٢].

ويوضح هذا الموقف من وجهة نظر اجتماعية الباحث د. علي الوردي بقوله أيضا: "يجب أن لا ننسى أن الوطنيين كانوا قبل قيام الثورة، وفي أثناءها (كذا) يطالبون باختيار أمير شريفي لعرش العراق، وهم إنما فعلوا ذلك تحدّياً للسلطة الإنكليزية التي كانت يومذاك غير راغبة في ذلك، ولو أن السلطة كانت راغبة في هذا الاختيار، وتدعو له، لكان جواب الوطنيين على الضد من ذلك طبعاً. إن هذا سرّ من أسرار المجتمع العراقي"[٣].

٣. يأس الزعماء والشيوخ من قدرتهم على ترشيح أحد منهم ملكاً عليهم[٤]، بسبب التنافس الحادّ بينهم، والمنتهي لا محالة إلى التنازع الخطير على هذا الموقع الرفيع.

(١) لمحات اجتماعية من تاريخ العراق الحديث. سابق: ٦/ ٧٤. وينظر هامش الصفحة.

(٢) العراق في رسائل المس بيل. سابق: ٣٢٣.

(٣) لمحات اجتماعية من تاريخ العراق الحديث: ٦/ ٦٢.

(٤) يقول السيد أحمد الصافي النجفي في كتاب (صفحات من مذكرات أحمد الصافي النجفي، ص ١٤) ناقلاً ما سمعه من الشيخ عبد الواحد آل سكر، وهو: "كل منا يريد أن تكون له الزعامة". وينظر: كتاب السيد محمد كاظم اليزدي. سابق: ٤٦٥، فقد ورد فيه عن المرجع الأعلى السيد اليزدي قوله: "ولا يمكن إيجاد شخص يكون مقبولاً كأمير". وينظر: الثورة العراقية الكبرى. سابق: ٨٠-٨١ و٤٠٧-٤٠٨. كما ورد عن المس بيل قولها مشيرة إلى العراقيين: "هم يدركون أن تنصيب أمير عربي شيء غير ممكن لأنهم مع قبولهم الفكرة نظريّاً، لا يمكنهم الاتفاق على الشخص المطلوب للإمارة" (العراق في رسائل المس بيل ١٩١٧-١٩٢٦) ص ١٠٤.

خاصة بعد رفض آية الله السيد علي الشيرازي الحسيني الترشّح لتسنّم عرش العراق، ولو كان وافق لنال رضا الجميع، مراجع، وثواراً، ورؤساء عشائر بأن يكون سماحته "رئيساً لهم"[١].

٤. الدعاية الكبيرة للشريفيين في منطقة الفرات الأوسط[٢] وبغداد[٣] وغيرهما من مدن العراق الأخرى[٤]، تلك التي وصفها القائد العسكري البريطاني بسقوط بذور الدعاية الشريفية والدينية على تربة خصبة فنبتت في النهاية وأنتجت محصولاً غنياً[٥].

٥. قناعة العديد من مفكري وأحرار العراق، بل ومفكري وأحرار ورواد النهضة العربية بأن القضية الأم للثورة العربية الكبرى هي تحرير البلاد العربية كلها بزعامة الشريف الحسين بن علي من نير المحتلين العثمانيين الذين عاثوا بأرض العرب والمسلمين فساداً، وأن التحرير من المحتل هي قضية الشريفيين المبدئية الكبرى التي لا تقبل المساومة ولا المهادنة وأواسط الحلول. فمن ذلك عراقيّاً ما تقدم ذكره، ومن ذلك عربيّاً برقيات التهنئة من "رفيق العظم وحقي العظم ومختار الصلح والدكتور شهبندر (كذا) وحمادة ونصر الدين البغدادي وعبد المحسن الكاظمي وصالح رضا وجميل مردم بك وأحمد حلمي الخيمي وتوفيق الحلبي".

---

(١) ينظر: هامش ص١٣٧ من كتاب الإمام المجاهد الشيخ محمد الخالصي. الشيخ هاشم الدباغ، نقلاً عن كتاب (الإمام القائد الشيخ محمد تقي الشيرازي: ٢٦-٢٧). وينظر متن الصفحة أيضاً.

(٢) ينظر: العراق دراسة في تطوره السياسي. فيليب ويلارد آيرلاند. ترجمة جعفر الخياط. ص ١٩٢. (يقول الحاكم السياسي في الديوانية عن مناطق السماوة والرميثة والشامية التي كانت النجف من ضمنها: "بأن سبب الحركات التي قامت بها العشائر ضد الانكليز هو تأثير الدعاية الشريفية الشيعية").

(٣) ينظر: تقرير الشرطة البريطانية السري في ١٧ أيار ١٩١٩م، في (العراق في سجلات الوثائق البريطانية). سابق. المجلد الثاني ١٩١٨-١٩٢١: ٣٠١.

(٤) ثورة النجف على الإنكليز أو الشرارة الأولى لثورة العشرين. سابق: ٣٨٠ وينقل أيضاً ما نسبه إلى كتاب المس بيل المعنون: فصول من تاريخ العراق القريب: ١٦٦. وينظر مثلاً: العراق في سجلات الوثائق البريطانية. سابق. المجلد الثاني ١٩١٨-١٩٢١: ٣٠٦.. و٣١٩.

(٥) ثورة العراق ١٩٢٠. سابق: ٢٨.

ويأتي في مقدمة ما ورد في هذا الباب خطبة الأستاذ رشيد رضا -صاحب (مجلة المنار) المصرية الشهيرة- أمام الشريف حسين في موسم الحج سنة (١٣٣٤هـ/ ١٩١٦م) وهي خطبة طويلة جاء فيها: "لم نرّ أحداً من زعماء المسلمين وكبرائهم قدّر الحال الخطرة التي وصل إليها الإسلام قدرها وانبرى لتداركها إلّا هذا الرجل العظيم (وأشار إلى جلالة ملك الحجاز)... فانتدب لتدارك الخطب ومصارعة الخطر بنفسه الكريمة وأنفس أنجاله النجباء، ولو استطاع أن ينقذ الدولة نفسها من الخطر لفعل، ولو بذل في ذلك دمه ودم هؤلاء الأنجال الكرام (هنا قال جلالة الملك إلى الخطيب: صدقت)... فرأى أن يبدأ بالمستطاع وهو إنقاذ الحجاز... ثم إنقاذ البلاد العربية... فكان له بعمله أكبر منّة في أعناق أهل هذه البلاد وأعناق المسلمين... إنّ من يكفر لهذا الرجل المصلح المنقذ (وأشار بيده على صاحب الجلالة) هذه النعمة فهو أكفر الناس بالنعم. أيها المسلمون: يجب أن تعلموا أن هذا العمل أعظم خدمة للإسلام في هذا العصر"، وغير هذه وتلك من الرسائل والبرقيات العربية والإسلامية الكثير[١].

٦. قناعة الكثير من كبار العلماء ومنهم المرجع الأعلى الشيخ الشيرازي ونجله الشيخ محمد رضا والمرجع شيخ الشريعة الأصبهاني وعلماء وأشراف وأعيان الكاظمية وبغداد والكثير من زعماء الثورة وشيوخها وقادتها وأهل الرأي فيها؛ بإمكانية الشريفيين إيصال صوت العراق إلى الدول الكبرى، وهو ما لا يستطيعونه هم، رغم حاجتهم الماسة إليه، علّه يساند مسعاهم نحو الحرية والاستقلال، ولذلك جاءت مطالبة المرجع الأعلى الشيرازي ونجله للشريفيين بنقل موقف الشعب العراقي إلى زعماء العالم في رسالته التي بعثها إلى ملك الحجاز الشريف حسين في (٧ رمضان ١٣٣٨ هجرية) التي فيها: "لا يخفاكم ما تُكابده الأمة العراقية المظلومة في كل لحظة من أنواع الظلم الفاحش وألوان الحكم الغاشم، مضافاً إلى

(١) ينظر: تاريخ مقدرات العراق السياسية. سابق: ١/ ٣٤٨ و٣٢٦-٣٣٣. على التوالي. وتنظر الخطبة بطولها وغيرها في الكتاب نفسه.

الاستهانة بمكانتها التاريخية والازدراء بتقاليدها الإسلامية، ولا زالت تئن من التحكم بالباطل والاعتداء على حقوقها المشروعة، وقد بلغ الظلم مبلغاً لا يجوز معه الصبر، وحيث أنّ المحيط العراقي مضغوط عليه كل الضغط من الجهات، حتى إنّه لا يمكنه رفع صوته مباشرة إلى الأمم"[١]. وقد وصلت هذه القناعة إلى الشريف فيصل الذي كان يومذاك يحضر مؤتمر الصلح نيابة عن أبيه عن العرب كما قيل[٢].

٧. حسن ظن العراقيين الخاطئ بحسن نوايا الشريفيين تجاه الثوار العراقيين، بل شيعة العراق ككل، كونهم ينتسبون إلى أهل البيت عليهم السلام فهم من السادة والشرفاء الحسنيين[٣]. وأمثال ذلك[٤].

٨. إدراك العراقيين شدة مشاعر العداء بين الشريفيين وآل سعود الوهابيين، مؤمّلين قيام الملك فيصل بالدفاع عن الشيعة في العراق ضد الهجمات الوهابية في المستقبل[٥]، تلك الهجمات التي أدت إلى استشهاد الألاف منهم، وتدمير المدن، ونهب الممتلكات الخاصة والعامة، والسعي لتدمير العتبات المقدسة وتخريبها، وسلب محتوياتها الثمينة، وسرقة ما يمكن سرقته من الأموال المنقولة والمواشي وغيرها، وقتل المئات من الرجال والنساء والأطفال، وبقر بطون الحوامل، وجرح أضعاف هذه الأعداد من المواطنين، وشنّ الهجمات العديدة على النجف الأشرف وقد أفشلها المراجع والنجفيّون في القرن الماضي.

---

(١) ينظر: وثائق الثورة العراقية الكبرى. سابق: ٣/ ٦٨، المتضمنة نص رسالة المرجع الأعلى الشيخ محمّد تقي الشيرازي إلى الشريف حسين. وكذلك ينظر المصدر السابق: ٣/ ٧٢. وفيه نص رسالة سماحة الشيخ محمّد رضا الشيرازي نجل المرجع الأعلى الشيخ محمّد تقي الشيرازي إلى الأمير علي ابن الملك أو الشريف حسين بن علي.

(٢) لمحات اجتماعية من تاريخ العراق الحديث. سابق: ٥/ ١/ ١٢٣.

(٣) تنظر: مذكرات السيد محسن أبو طبيخ. سابق: ٢١١.

(٤) تنظر: مذكرات الشيخ محمّد رضا الشبيبي ورحلاته. سابق: ٢٢.

(٥) ينظر: شيعة العراق. سابق: ١٤٨.

٩. اعتقاد العراقيين صدق ما "شاع في العراق أن أقطاب النهضة وعلى رأسهم جلالة الملك حسين (والد الملك فيصل الأول) وأنجاله قد وطّدوا العزم على إنشاء الإمبراطورية العربية الكبرى، وأنهم سيستأنفون جهادهم دون القضية العربية بالمعترك السياسي العام الذي تدور رحاه في باريس بكل ما أوتوا من حنكة واقتدار ومهارة... وذهب سمو الأمير فيصل إلى أوربا ليمثل العرب بمؤتمر فرساي كما تقدم، فما كان من دعاة الاستقلال في العراق إلّا أن بادروا بإرسال صكوك التوكيل إليه سرّاً"[١].

لقد انطلقت فكرة الاستعانة بالشريف حسين لإيصال صوت العراقيين المظلومين المطالبين بالاستقلال الناجز إلى المجتمع الدولي بعد مشاورات استمرت لثلاث ساعات بين المجتهد الشيخ عبد الكريم الجزائري والشيخ محمد رضا الشبيبي عُقدت في دار السيد محمد رضا الصافي أحد أكبر رجالات ثورة العشرين، وبعد الاجتماع الذي وثّقه الشاعر السيد أحمد الصافي النجفي شقيق السيد محمد رضا الصافي ناقلاً ما سمعه مباشرة من الشيخ الشبيبي بعد الاجتماع مباشرة بقوله: "اتفقنا على أن نأخذ وثائق من زعماء العراق إلى الشريف حسين للمطالبة باستقلال العراق"[٢].

وكانت من جملة المضابط التي حملها الشبيبي معه إلى مكة مضبطة أهالي كربلاء[٣] المؤرخة في (الخامس عشر من شهر ربيع الأول سنة ١٣٣٧هـ"[٤]، الموافق ليوم ٩ كانون الأول ١٩١٨م، تلك المضبطة التي نصّت من جملة ما نصّت عليه ما يلي: "وبعد مداولة الآراء، و(ملاحظة الأصول الإسلامية، وطبقاً لها)، تقرر رأينا على أن نستظل بظل راية عربية، (إسلامية)، فانتخبنا أحد أنجال سيدنا الشريف ليكون

(١) تاريخ القضية العراقية. سابق: ٧٦. ط١.

(٢) صفحات من مذكرات أحمد الصافي النجفي: ١٣.

(٣) كربلاء في التاريخ. سابق: ٣/ ٥٣-٥٤.

(٤) لمحات اجتماعية من تاريخ العراق الحديث. سابق: ٥/ ١/ ٧٦. وينظر: كربلاء في ثورة العشرين. سابق: ٥٥-٥٦.

ملكاً علياً، مقيداً بمجلس منتحب من أهالي العراق، (لتسنين القواعد الموافقة لروحيات هذه الأمة)، وما تقتضيه شؤونها"[١]، إضافة لغيرها، ومع صكوك التوكيل والمضبطة تقرير مربوط بالوثائق "كتبه الشيخ محمد رضا الشبيبي بنفسه بالمداولة مع الميرزا محمد رضا الشيرازي والشيخ عبد الكريم الجزائري، ولم يعرف غيرهم من أسهم في وضع صيغة ذلك التقرير إلى جانب الوثائق، كما لم يعرف غير الشيخ محمد رضا الشبيبي من وضع هذا التقرير الضافي ودبجه وكتبه وصاغ ديباجته بقلمه. وعلى هذا يكون الشبيبي أول من حدد رغبة العراق في استقلاله وأول من صور أمانيه في قيام هذه الدولة"[٢] العراقية التي أراد لها مراجعها وثوارها أن تكون حرة مستقلة ذات سيادة حقيقية على أرضها.

ولعل من أوضح ما لخصّ شعور العراقيين تجاه الشريفيين خلال إجابتهم عن أسئلة الاستفتاء المتقدم ذكرها فيما سبق؛ ما عبّر عنه الشيخ عبد الواحد آل سكر أحد زعماء الثورة أمام جمع من النجفيين المجتمعين في بيت الشيخ محمد جواد الجواهري للتداول في جواب الاستفتاء المعروض عليهم من قبل الإنكليز، بقوله: "وحيث أنّ البيت الهاشمي الشريف في مكة أنبل بيت في العالم العربي وأكثر خدمة وأشد إخلاصاً للعرب، وحيث أننا نرغب أن تكون لنا حكومة عربية مستقلة؛ فيجب علينا أن نختار لها أحد أنجال جلالة الملك حسين ليكون ملكاً على العراق"[٣]. أو وفق رواية السيد أحمد الصافي النجفي الذي كان حاضراً في الاجتماع أن الشيخ عبد الواحد آل سكر قال: "نحن العرب لا نقبل علينا زعيماً غير عربي، وكلٌّ منا يريد أن تكون له الزعامة، فإذن يجب أن نتفق على شخصية منا يدين لها الجميع، ولا تكون تلك الشخصية إلّا أحد أبناء الشريف حسين ليكون ملكاً على العراق"[٤].

---

(١) كربلاء في التاريخ. سابق: ٣/ ٤٩. ويلاحظ وجود اختلاف بسيط في نص المضبطة عن النص المتقدم ذكره.

(٢) هكذا عرفتهم. سابق: ٢/ ١٢٤.

(٣) الحقائق الناصعة في الثورة العراقية. سابق: ٧٨.

(٤) صفحات من مذكرات أحمد الصاقي النجفي: ١٣.

ويحدد الشيخ علي الشرقي الغرض من إرسال الشيخ الشبيبي حاملاً رسائل المرجعية والوطنيين إلى الحجاز بقوله: "كان الهدف من رسالة العراق أن تكون الوثبة شاملة؛ لأنهم لا يريدونها إقليمية ضيقة، وبكل أسف لم يظهر من الماثل في الحجاز أي أثر واهتمام بالرسالة، وبقي الرسول يتلوذ بين الحجاز وعاملة وسوريا، وهناك عرف العراقيون أن الحمل الثقيل لا ينهض به إلّا أهله، وقاموا بها ثورة حمراء عراقية بحتة"[١] في سنة ١٩٢٠م.

لقد خاب ظن من رشح أحد أبناء الشريف حسين لعرش العراق بوطنية ومبدئية الشريفيين وحسن إدارتهم لِما تحت أيديهم، بما ذكره كل من الشيخ محمّد رضا الشبيبي والسيد محسن أبو طبيخ، بعد أن اطّلعا على واقع الحال في الحجاز، خلافا لما اعتقداه من مبدئية الشريفيين في دفاعهم عن استقلال الوطن العربي ووحدته.

فأما الشيخ محمّد رضا الشبيبي حامل رسالتي المرجع الأعلى الشيخ الشيرازي ونجله الشيخ محمّد رضا إلى الشريف حسين ونجله الشريف علي في الحجاز، فقد صوّر الخيبة بل الصدمة التي فاجأته حين رأي الأمور على حقيقتها في مكة والمدينة بقوله: إنه "لم يجد في القطر الحجازي مظهراً يعتدّ به من مظاهر الثقة والإيمان بأهداف الثورة العربية العامة كما كان يتصورها في ذلك الحين، وكل ما وجده هناك جيش من المرتزقة، قليل العدد والعدة، وقد كاشفه بهذه الحقيقة العارية فريق من خيرة الضباط العراقيين والسوريين والفلسطينيين في المدينة المنورة فور وصوله إليها، وشكوا إليه مرّ الشكوى من التسيّب والإهمال وفقدان الشعور بالمسؤولية"[٢].

وأما السيد محسن أبو طبيخ أحد زعماء ثورة العشرين المهاجرين إلى الحجاز بعد انتهائها، فقد دوّن في مذكراته إثر لقائه بالملك أو الشريف فيصل في مكة المكرمة ما بين شهري (شعبان – رمضان من سنة ١٣٣٩هـ/ ١٩٢١م) متحدثاً عن الخديعة التي تعرّض لها العراقيون من جهة، واستغلال صدق مشاعرهم بالبيت الهاشمي

(١) الأحلام: ١٦٨.

(٢) مذكرات الشيخ محمّد رضا الشبيبي ورحلاته. سابق: ٢٢.

من جهة أخرى بقوله بصراحة تامة: "لم يخطر ببالنا في ذلك الوقت أن كل شيء قد تم الاتفاق عليه بين الملك فيصل والإنكليز، وإن جهلنا بما يجري خلف الستار، وصدق مشاعرنا تجاه البيت الهاشمي تم استغلالها على حساب تقرير مصير وضع العراق النهائي". مشيراً إلى أن تلك السمعة الحسنة عن الشريفيين عمت العراق كله "وأخص بذلك لدينا في الفرات الأوسط جنوباً إلى حدود البصرة"(١).

وإذا كان الشيخ الشبيبي والسيد أبو طبيخ قد بلغ بهما الأسف مبلغه لاكتشافهما الواقع المُرّ بمكة، ليس فقط نتيجة خيبة الأمل بالشريفيين فحسب، بل لاكتشافهما سراب ما كانا يظنّانه من تأثير الشريفيين على الدول الكبرى، فما بالك بمدى خيبة الأمل والأسى المُرّ الذي سيخلفه ذلك عند المرجعية وزعماء الثورة. نعم كان سراباً أوضحته لاحقاً د. فيبي مار متحدثة عن فيصل "وجهوده الفاشلة في مؤتمر السلام بالنيابة عن العرب"، بل استوضحه فيصل نفسه بعد أن انتهى المؤتمر مباشرة، إلّا أنه "لم يُبِحْ بخيبة آماله ومخاوفه إلّا لنفر يسير من أعوانه الأدنين، بينما في أحاديثه العلنية يؤكد الآمال المرتقبة"(٢) أمام الوطنيين السوريين والعراقيين في دمشق.

ولكنه بعد أن أصبح ملكاً على العراق أقرّ أمام الوفود بفشل مسعاه في مؤتمر فرساي بباريس بصراحة مشوبة بيأس ممض، وذلك خلال مأدبة أقامها للوفود العراقية في مهرجان استقبال الملك ببغداد يوم (٢ تشرين الأول ١٩٣١م) بقوله: "ذهبت من قبل المرحوم والدي مندوباً عن العرب إلى مؤتمر فرساي.. ولا أخفي عليكم ما تسرّب إلى نفسي من اليأس... لم أجد أذناً تصغى"(٣).

❀ ❀ ❀

(١) مذكرات السيد محسن أبو طبيخ. سابق: ٢١١ و٢١٠ على التوالي.

(٢) يقظة العرب. سابق: ٤٠٤.

(٣) فيصل بن الحسين. في خطبه وأقواله. أحمد زكي الخياط: ٢٩١-٢٩٢.

موقف المرجعية الدينية وأهالي المدن المهمة من تسمية أي شخصية للعرش ابتداء من مضابط التوكيل وانتهاء بثورة العشرين

أستهل هذا المبحث بالمقدمة التالية:

المقدمة

يبدأ موقف المرجعية وأهالي المدن في هذا المبحث من صدور (مضابط التوكيل) إلى نهاية ثورة العشرين ويتحدد زمنياً من (منتصف رمضان ١٣٣٨هـ/ مايس ١٩٢٠م) إلى (منتصف شوال ١٣٣٨ هـ/ ٢ تموز ١٩٢٠ م) كما تقدم.

لقد أوضحت فيما سبق المقصود بـ(مضابط التوكيل)، وهي تلك المضابط التي رفعتها المدن العراقية إلى سلطات الاحتلال البريطاني بتوكيل أو انتداب من يمثلها من وجوه أهلها ليعرض مطالبها الجوهرية الأساسية على سلطات الاحتلال البريطاني للعراق، تلبية من أهالي المدن العراقية لطلب سماحة المرجع الأعلى الشيخ محمد تقي الشيرازي وخاصة طلبه الموجّه إلى عموم العراقيين المؤرخ في (٩-١٠ رمضان ١٣٣٨هـ/ ٢٧-٢٨ مايس ١٩٢٠م) الداعي إلى مظاهرات احتجاج في بغداد يتبعها اختيار ممثلين عنهم ليقدموا مطالبهم إلى المحتلين الإنكليز، وسأستعرض نصوص (مضابط التوكيل) هذه للمدن مدينة فمدينة في أدناه.

***

١. المضبطة المشتركة لتوكيل أهالي مدينتي بغداد والكاظمية المقدّسة

عقد ممثلو مدينة بغداد العاصمة -(المتكون من السنة والشيعة)- وممثلو مدينة الكاظمية المقدسة معاً اجتماعاً مع نائب الحاكم الملكي البريطاني العام السير ولسون ببغداد صباح يوم (٤ رمضان ١٣٣٨هـ/ ٢١ حزيران ١٩٢٠م) في دائرة الحاكم العسكري البريطاني العام وقدموا له مذكرة تضمنت ثلاثة مطالب ليس من بينها ترشيح أحد أنجال الشريف حسين لعرش العراق. وفيما يأتي نص المضبطة:

"إلى سعادة الحاكم الملكي العام المحترم.

تعلمون أن الشعب قد انتدبنا بمظاهراته التي أقامها ليلة ٧ رمضان الموافق ٢٦ مايو للنيابة عنه في مطالبة السلطة المحتلة، ومفاوضة رجالها، بشأن تنفيذ ثلاثة مطاليب جوهرية يرى جمهور الشعب ومعظم قادة آرائه اليوم ضرورة تطبيقها وتنفيذها حالاً، وهي:

أولاً: الإسراع في تأليف مؤتمر يمثل الأمة العراقية ليعين مصيرها فيقرر شكل إدارتها في الداخل ونوع علاقتها بالخارج.

ثانياً: منح الحرية للمطبوعات ليتمكن الشعب من الإفصاح عن رغائبه وأفكاره.

ثالثاً: رفع الحواجز الموضوعة في طريق البريد والبرق بين أنحاء القطر أولاً، وبينه وبين الأقطار المجاورة له والممالك الأخرى ثانياً، ليتمكن الناس هنا من التفاهم مع بعضهم ومن الاطلاع على سير السياسة الراهنة في العالم. وبصفتنا نواباً عن أهالي بغداد والكاظمية، نطلب إليكم أن تصادقوا حالاً على تنفيذ هذه المطالب المذكورة، ولا يغرب عن بال سعادتكم ما في قبول هذه المطالب وإحلالها محل الإجراء والتنفيذ من صيانة الأمن وحفظ النظام والسلام العام، وإننا ننتهز هذه الفرصة فنقدم إلى سعادتكم فائق الاحترام والاكبار"[1].

***

(١) وثائق الثورة العراقية الكبرى. سابق: ٣/ ٩١. وثورة العشرين في ذكراها الخمسين. سابق: ٢٢٧. مع اختلاف يسير جدّاً بين الروايتين.

٢. مضبطتا توكيل أهالي مدينتي النجف الأشرف والشامية الأولى والثانية

أ. مضبطة التوكيل الأولى لمدينتي النجف الأشرف والشامية الموقعة في (١٥ رمضان ١٣٣٨هـ/ ٢ حزيران ١٩٢٠م)، جاء نصها كالتالي:

"نحن عموم أهالي النجف الأشرف: علماؤها وأشرافها وأعيانها وممثلو الرأي فيها وعموم أهالي الشامية، ساداتها ووجهاؤها وزعماء قبائلها وممثلو الرأي العام قد انتدبنا بعض علمائنا وأشرافنا ووجهائنا، أن يمثلونا أمام حكومة الاحتلال في العراق وأمام عدالة الدول التي جعلت من مبادئها تحرير الشعوب، وقد خوّلناهم أن يجهروا بالصوت العالي في طلب استقلال بلادنا العراقية على حدودنا الطبيعية استقلالاً تامّاً بتاتيّاً خاليا من كل مداخلة أجنبية، استقلالاً كافلاً بتأسيس دولة عربية يرأسها ملك مسلم مقيد بمجلس وطني. هذه رغائبنا التي لا نرضى بغيرها ولا نفتر عن طلبها ما دام فينا إحساس..."[١].

ب. مضبطة توكيل أهالي النجف والشامية الثانية الموقعة في (١٨ رمضان ١٣٣٨هـ)، وفيما يلي نصها:

"نحن عموم أهالي النجف الأشرف: علماؤها وأشرافها وأعيانها وممثلو الرأي العام فيها، وكافة أهالي الشامية، ساداتها وزعماء قبائلها وممثليها قد انتدبنا بعض علمائنا وأشرافنا ووجهائنا، لأن يمثلونا تمثيلاً صحيحاً قانونيّاً أمام حكومة الاحتلال في العراق وأمام عدالة الدولة الحرة الديمقراطية التي جعلت من مبادئها تحرير الشعوب، وقد خولّناهم أن يدافعوا عن حقوق الأمة ويجمعوا في طلب الاستقلال للبلاد العراقية بحدودها الطبيعية العاري من كل تدخل أجنبي في ظل دولة عربية وطنية يرأسها ملك عربي مسلم مقيد بمجلس تشريعي وطني. هذه رغائبنا لا نرضى بغيرها ولا نفتر عن طلبها.."[٢].

---

(١) المصدر السابق: ٣/ ١٠٤-١٠٥.

(٢) المصدر السابق نفسه: ٣/ ١٠٨-١١٢. وماضي النجف وحاضرها. سابق: ١/ ٣٥٩.

وقد وقع المضبطة الثانية عدد كبير من كبار وجوه النجف الأشرف يتقدمهم المراجع وكبار العلماء وهم كل من: شيخ الشريعة الأصبهاني، والسيد أبو الحسن الأصفهاني، والشيخ محمّد حسين النائيني، والشيخ علي الشيخ جعفر كاشف الغطاء[1] والشيخ مشكور الحولاوي، والسيد علي الشيرازي نجل المرجع الأعلى المجدد الشيرازي، والشيخ إسحاق الرشتي نجل أستاذ المراجع الشيخ حبيب الله الرشتي، والشيخ مهدي الخراساني نجل المرجع الشيخ محمّد كاظم الخراساني، والشيخ محمّد جواد البلاغي، والشيخ علي المانع، والسيد محمّد رضا الصافي، والشيخ محمّد جواد آل صاحب الجواهر. ومعهم كبار وجهاء وشيوخ أهالي الشامية من أمثال: الشيخ مرزوك العواد، والسيد محسن أبو طبيخ، والسيد هادي زوين، والحاج عبد الواحد آل شكر، والشيخ علوان الحاج سعدون، والشيخ مجبل الفرعون، والشيخ عبادي آل حسين. والسيد هادي مكوطر، وغيرهم كثير.

***

٣. مضبطة توكيل أهالي مدينة كربلاء المقدّسة

أرخت مضبطة توكيل أهالي كربلاء في (١٦ رمضان ١٣٣٨هـ/ ٣ حزيران ١٩٢٠م)، ونصت على ما يلي:

"نحن الموقعين أدنى هذا التحرير من ممثلي أهالي كربلاء المشرفة وما حولها: علمائها وأشرافها وكبرائها، وعموم أفرادها، من جميع طبقاتها، قد انتدبنا عنا وعن ممثلينا حضرات المرزه عبد الحسين نجل آية الله الشيرازي دام بركاته، والشيخ محمّد نجل حجة الإسلام الخالصي دامت بركاته، والسيد محمّد علي الطباطبائي، والشيخ صدر الدين حفيد حجة الإسلام المازندراني، والسيد عبد الوهاب، والحاج شيخ محمّد حسن أبو المحاسن، والشيخ عمر الحاج علوان، انتدبنا هؤلاء الأمجاد لينوبوا

(١) ذهب الباحث إسحاق نقاش في كتابه (شيعة العراق: ١١٥) إلى أن الشيخ علي كاشف الغطاء لم يوقع على المضبطة وهو غريب لوجود اسمه في مقدمة الموقعين عليها، وانه وكان مع البريطانيين علانية.

عنا أمام الحكومة الاحتلالية في تبليغها مقاصدنا المشروعة، ومطالبتها بحقوقنا التي اعترفت بها من استقلال بلادنا العراقية استقلالاً تامّاً، لا تشوبه أدنى شائبة من أي تدخل أجنبي، وقد أعطيناهم هذا الاعتماد موقعا بتوقيعاتنا، موافقا لرغائبنا، رأيهم رأينا، وأمرهم أمرنا، لا نشذ عنه ولا نرضى بسواه"[١].

وقد وقعت هذه المضبطة من قبل (٦٥) خمس وستين شخصية كربلائية ضمت المجتهدين وكبار العلماء والزعماء والوجهاء والشيوخ وأهل الحل والعقد من غيرهم يتقدمهم جميعاً توقيع المرجع الأعلى الشيخ محمد تقي الشيرازي بنصه التالي: "صحيح، نافع، مفيد، إن شاء الله تعالى".

❁ ❁ ❁

(١) الكوفة في ثورة العشرين. كامل سلمان الجبوري: ٦٦.

المبحث الرابع

قراءة لموقف المرجعية الدينية والوطنيين من ترشيح أحد أبناء الشريف حسين للعرش خلال السياسة الشريفية الأولى

يلحظ قارئ نصوص المضابط المتقدمة الموجهة إلى سلطات الاحتلال سواء تلك التي صدرت ووقعت جوابا على (أسئلة الاستفتاء) في (صفر ١٣٣٧هـ/ تشرين الثاني ١٩١٨م) المتقدم ذكرها، أم المضابط التي صدرت ووقعت بعد ذلك بأكثر من سنة ونصف، كما في (مضابط التوكيل) المؤرخة في (رمضان ١٣٣٨ هـ/ مايس ١٩٢٠م) أنها نحت منحيين مختلفين في أجوبتها على (أسئلة الاستفتاء) بترشيح من يتولى عرش العراق. حيث نحا بعضها إلى عدم ترشيح شخص معين لعرش العراق، وهو منحى مراجع النجف الأشرف وكبار علمائها الموجه إلى قوات الاحتلال، الصادر في (٩ ربيع الأول ١٣٣٧ هـ/ ١٣ كانون الأول ١٩١٨م)، معللين موقفهم هذا بأنهم لم يجربوا أحدهم كي يرشحوه ولا يجوز لهم بأي حال من الأحوال تحمل مسؤولية الترشيح من دون تجربة واختبار ودراية وعلم كما تقدم. في حين نحا بعضها الآخر إلى ترشيح أحد أبناء الشريف حسين للعرش وهو منحى أغلبية المضابط الصادرة من المدن العراقية المهمة من أمثال ما صدر عن سادة وشيوخ أهالي مدينة الشامية -المرتبطة برباط إداري واحد مع مدينة النجف الأشرف- أو مدينة بغداد، أو مدينتي كربلاء والكاظمية المقدستين كما تقدم.

وإذ اختلف مراجع وكبار علماء النجف الأشرف عن غيرهم من كبار علماء ورجالات ووجوه المدن العراقية المهمة الأخرى بعدم ترشيحهم لمرشح معين للعرش في أجوبتهم على (أسئلة الاستفتاء)، فقد اتفقت لاحقاً جميع (مضابط التوكيل) للمدن المهمة كلها إلّا ما ندر بالنحو نحو قناعة مراجع النجف الأشرف بعدم ترشيح أي مرشح معين للعرش بعد أن تبين لنا من الفصل السابق عدم موافقة سماحة آية الله السيد علي الشيرازي الحسيني للترشح للعرش، متخذة في

ذلك موقف المتحفظ الحذر من الترشيح، متجهة في أمر الترشيح إلى اتجاهين هما:

الاتجاه الأول: التعبير عن التحفّظ على ترشيح أي شخصية للعرش، وترك ذلك إلى مجلس وطني منتجب أو إحالته إلى مفاوضات بين زعماء الأمة والمحتلين.

ومثاله من الفرات الأوسط ما ورد في كتاب ممثلي النجف الأشرف والشامية الموجّه إلى الحاكم السياسي للنجف والشامية المتضمن لمطالبهم، الموقع من قبل كل من "الشيخ جواد صاحب الجواهر، وعبد الكريم الجزائري، وعبد الرضا الشيخ راضي، وسيد نور السيد عزيز الياسري، والسيد علوان السيد عباس الياسري، وحاج عبد المحسن شلاش"، مؤكدين في المادة الثالثة من كتابهم -باعتبارهم ممثلين منتخبين عن شعبهم- على: "الإسراع في تشكيل مجلس من خيرة الرجال العراقيين ليعيّن مصير الأمة العراقية، وشكل حكومتها، و(يختار مليكها)، ونوع علاقاتها الداخلية والخارجية"، مختتمين بلهجة تهديدية طلباتهم بقولهم: "وبما أننا نمثل الرأي العراقي العام، نرجو أن تراجعوا الحكومة البريطانية لتنفذ هذه المواد الأربعة بالسرعة الممكنة، لنتمكن على اطمئنان الرأي العام وسكونه، وإلّا فسوف لا نكون نحن مسؤولين أمام الله والتاريخ عمّا تُراق من دماء في سبيل نيل الحرية والاستقلال"[1].

وربما من الحسن أن نمثل لهذا الاتجاه من جنوب العراق كذلك، فقد ورد في المادة الأولى من كتاب عموم أهالي لواء العمارة إلى مسؤولي حكومة الاحتلال ما يلي: "نطلب أن يؤلف الشعب العراقي مؤتمراً عراقيّاً يتكفل بتأسيس حكومة عربية في العراق يرأسها ملك عربي"، وورد في مادته الخامسة الإشادة بقدرة العراقيين وحدهم بحنكة رجالهم وكفاءتهم على إدارة شؤونهم كلها وتقرير مصير بلدهم بما يشمل اختيار (الملك) أيضاً، بل قد يوحي كتابهم بكونه "عراقيّاً" من خلال قولهم: "إننا نطلب من ممثلي حكومة بريطانيا تنفيذ مطاليبنا هذه وإنجازها بأسرع

(١) وثائق الثورة العراقية الكبرى. سابق: ٣/ ١٢٤. والحقائق الناصعة في الثورة العراقية. سابق: ١٦٧-١٦٨.

ما يمكن، (فإنّ لأمتنا العراقية العربية ورجالها المحنكين الأهلية التامة لإدارة شؤون بلادنا العراقية) بحدودها الطبيعية، من حدود إيران شرقاً إلى صحراء الجزيرة الغربية غرباً، ومن الموصل شمالاً إلى الفاو جنوباً، كما (لنا الخيار في تعيين مصير بلادنا حسب منطوق مبدأ حرية الشعوب) الذي جعل للأمم الحرية التامة في مستقبل بلدها"[1].

الاتجاه الثاني: التعبير عن التحفّظ على ترشيح أي شخصية للعرش وإحالة ذلك إلى مفاوضات تعقد بين زعماء الأمة والمحتلين.

ومثاله ما جاء في مضبطة أهالي بغداد والكاظمية المعنونة إلى نائب الحاكم الملكي البريطاني العام للحكومة المحتلة بالنص التالي: "إلى سعادة الحاكم الملكي العام المحترم. تعلمون أن الشعب قد انتدبنا بمظاهراته التي أقامها (ليلة ٧ رمضان، الموافق ٢٦ مايو-١٩٢٠م-) للنيابة عنه في مطالبة السلطة المحتلة، ومفاوضة رجالها، بشأن تنفيذ ثلاثة مطاليب جوهرية يرى جمهور الشعب ومعظم قادة آرائه اليوم ضرورة تطبيقها وتنفيذها حالاً، وهي:

١. الإسراع في تأليف مؤتمر يمثل الأمة العراقية ليعيّن مصيرها فيقرر شكل إدارتها في الداخل ونوع علاقتها في الخارج.
٢. منح الحرية للمطبوعات ليتمكن الشعب من الإفصاح عن رغائبه وأفكاره.
٣. رفع الحواجز الموضوعة في طريق البريد والبرق بين أنحاء القطر أولاً، وبينه وبين الأقطار المجاورة له والممالك الأخرى ثانياً، ليتمكن الناس هنا من التفاهم مع بعضهم ومن الاطلاع على سير السياسة الراهنة في العالم.

بصفتنا نواباً عن أهالي بغداد والكاظمية، نطلب إليكم أن تصادقوا حالاً على تنفيذ هذه المطالب المذكورة، ولا يغرب عن بال سعادتكم ما في قبول هذه المطالب وإحلالها محل الإجراء والتنفيذ من صيانة الأمن وحفظ النظام والسلام العام، وإننا

(١) وثائق الثورة العراقية الكبرى. سابق: ٣/ ١٧٠.

نتنهز هذه الفرصة فنقدم إلى سعادتكم فائق الاحترام والإكبار"[١]، وقد وقعها نيابة عن بغداد والكاظمية خمسة عشر مندوباً عنهما من الشيعة والسنة. وقد كان تقدم الاستشهاد بنصها في موضوع مختلف أعلاه.

ومثيله أيضاً ما ورد في اجتماع وجوه شيوخ الفرات الأوسط وقادة عمليات الثورة مع ممثل عن المحتلين الإنكليز، عُقد في مدينة الكوفة يوم (٢٠ شوال ١٣٣٨هـ/ ٧ تموز ١٩٢٠م) بعد احتلال جيش ثورة العشرين لمدينة أبي صخير وحصارهم لحاميتها بضباطها وجنودها الكثر، حيث جاء في الشرط الأول من شروطهم ما يلي: "منح الاستقلال التام للعراق"، وجاء في الشرط موضوع حديثنا هنا ما يلي: "جلاء الحكام السياسيين والقوات الإنكليزية عن جميع المراكز الواقعة على الفرات إلى بغداد، على أن تدور المفاوضات بين زعماء الأمة العراقية ورجال الحكومة المحتلة بشأن تقرير مستقبل العراق في بغداد"[٢].

وهو المقترح نفسه الذي أعاد طرحه زعماء الثورة وقادة عملياتها ببنوده الأربعة المتقدمة، إنما معهم ممثلو المرجعية هذه المرة، مما يضفي على بنود الزعماء موافقة المرجعية المبدئية عليه -بما فيها البند الأول والرابع محل شاهدنا هنا-، وذلك خلال مفاوضاتهم حول الهدنة قرب الكوفة، فوقّعت على أثرها بنود الهدنة الأربعة في (١ ذي القعدة ١٣٣٨هـ/ ١٧ تموز ١٩٢٠م)[٣]، وقد تقدم ذكر هذه البنود الأربعة سابقاً.

والفرق بين الاتجاهين الأول والثاني في الرأي واضح، وهو أن الرأي الأول أناط تعيين مصير الأمة العراقية، وشكل حكومتها، واختيار "مليكها" إلى مؤتمر

---

(١) وثائق الثورة العراقية الكبرى. سابق: ٣/ ٩١. وثورة العشرين في ذكراها الخمسين. سابق: ٢٢٧، مع اختلاف جزئي من أمثال تغيير الواو بالفاء وغيره.

(٢) تاريخ القضية العراقية. سابق: ٢١٤- ٢١٥. من ط ١.

(٣) ثورة العشرين في ذكراها الخمسين. معلومات ومشاهدات. السيد محمّد علي كمال الدين: ١١٣-١١٤، ووثائق الثورة العراقية الكبرى. سابق: ٣/ ٢٢٣، تاريخ القضية العراقية. سابق: ٢١٤- ٢١٥. من ط١.

من خيرة العراقيين، في حين أناط الرأي الثاني أمر ذلك كله إلى مفاوضات تعقد بين وجوه زعماء العراق والمحتلين الإنكليز في بغداد.

ولعل ذهاب من ذهب إلى عدم النص على ترشيح أحد أنجال الشريف حسين للعرش في (مضابط التوكيل) خلافاً لِما أجاب به سابقاً على (أسئلة الاستفتاء)؛ هو بسبب التدخل المباشر لمراجع وكبار علماء النجف الأشرف في الأمر؛ أو بسبب اقتدائه بعملهم كونهم لم يرشحوا أحداً للعرش سابقاً خلال أجوبتهم المدعمة بتواقيعهم على (أسئلة الاستفتاء) قبل أكثر من سنتين؛ أو بسبب اتفاق المراجع في كربلاء المقدسة أو النجف الأشرف أو الكاظمية على ذلك؛ أو غير هذا وذاك.

وعلى أي حال، فقد جاءت (مضابط التوكيل) الصادرة من قبل أهالي مدينة كربلاء المقدسة الموشاة بموافقة المرجع الأعلى سماحة الشيخ الشيرازي، أو الصادرة من قبل أهالي مدينة النجف الأشرف الموشاة بتواقيع المراجع وكبار العلماء، وكذلك أهالي الكاظمية المقدسة وبغداد، جاءت كلّ نصوصها خلواً من ترشيح أي مرشح لعرش العراق.

كما لعل ما تركته المدة الزمنية الطويلة الفاصلة بين توقيع مضابط (أجوبة الاستفتاء) وتوقيع (مضابط التوكيل)، وما تخللتها من حوادث ووقائع ومواقف أثّر فيمن رشح في أجوبة (أسئلة الاستفتاء) أحد أبناء الشريف حسين لعرش العراق لأن ينضم إلى من لم يرشحه فيها من مراجع وعلماء النجف الأشرف إدراكاً منه لصواب رأيهم في هذا الأمر نتيجة عدم معرفة العديد من الموقعين على (مضابط التوكيل) وهم المراجع وكبار العلماء وغيرهم بالمرشحين لعرش العراق معرفة تجريب، واختبار، وتدقيق، وتفصيل، بحيث تمكنهم تلك المعرفة من تشخيص أحد المرشحين بعينه وتحمل مسؤولية ذلك التشخيص والترشيح أمام الله عز وجل، ودينهم، وضمائرهم، وشعبهم. وقد تقدم ذكر جواب مراجع النجف الأشرف على (أسئلة الاستفتاء) حرفيّاً فيما تقدم.

كما لعل لإدراك المراجع وكبار العلماء والوطنيين الموقعين على (مضابط

التوكيل) أهمية توحيد مواقف مراجع الدين والوطنيين في المدن المهمة كلها؛ أثر في ذلك من خلال توحيد أجوبتها أمام حكام الاحتلال وقواته بعدم ترشيح أي مرشح محدد للعرش، نظراً لأهمية توحيد المواقف، وإظهار اجتماع الكلمة، وتبيان وحدة الصف في موقف خطير يستدعي حشد كل الطاقات الوطنية بقوة.

ومع ذلك فإنّي أقترح على الجامعات ومراكز البحوث والدراسات الخوض في هذا الأمر، والوقوف عند هذا الاختلاف بين أجوبة المضابط على (أسئلة الاستفتاء) و(مضابط التوكيل)، لمعرفة السبب والوقوف عليه تفصيلاً.

هذا، ومن جهة أخرى قد يستفاد تحفّظ بعض الزعماء العراقيين على ترشيح الشريف فيصل للعرش، ممّا أشار إليه الشيخ محمّد رضا الشبيبي -في تقرير له عن أوضاع العراق مؤرخ في (مسلخ رمضان من سنة ١٣٣٩هـ/ أوائل حزيران ١٩٢١م)، كان رفعه من بغداد إلى زعماء الثورة المهاجرين المستوطنيين بمكة المكرمة مؤقتاً- بقوله: "أما تعيين سمو الأمير فيصل للعراق، فقد كثر حوله القيل والقال"[١]، خاصة مع وجود بعض المضابط الرافضة لتنصيبه ملكاً على العراق[٢].

وقد أشارت إلى ذلك برقية أرسلها الحاكم السياسي الإنكليزي للبصرة إلى المندوب المدني البريطاني في بغداد جاء فيها "إن غالبية مسلمي البصرة يؤيدون استقلال العراق، إلّا أنهم يعتبرون اختيار أمير من عائلة الشريف أمراً خارج الصدد... وفي الكوت وُقّع بيانان تضمنا عدم الحاجة إلى أمير عربي... وفي العزيزية ذكر معاون الحاكم السياسي أن تعيين أحد أبناء الشريف يلقى معارضة قوية في كل مكان"[٣].

❀ ❀ ❀

(١) وثائق الثورة العراقية الكبرى. سابق: ٥/ ٤٥.

(٢) تنظر: الثورة العراقية الكبرى. سابق: ٨٠.

(٣) ثورة ١٩٢٠ الجذور السياسية والفكرية والاجتماعية للحركة القومية العربية الاستقلالية في العراق: ٣٠١.

الفصل الثاني عشر

السياسة الثانية للشريف حسين وابنه فيصل تجاه العراق بعد اتفاقهما مع الإنكليز على تنصيب فيصل ملكاً وموقف المرجعية والوطنيين منها ومنه

يشتمل هذا الفصل على مقدمة وتمهيد ومباحث، وهي:

المقدمة

تعريف بالسياسية الثانية للشريف حسين وابنه فيصل تجاه العراق وتحديد زمنها

التمهيد

بواكير التسويق السياسي البريطاني للشريفيين في العراق

المبحث الأول

أسباب اختيار الحكومة البريطانية لفيصل ملكاً

المبحث الثاني

مشكلة تسويق الإنكليز لفيصل ملكاً على العراق

المبحث الثالث

تنفيذ الملك فيصل لِما تعهد به للإنكليز

المبحث الرابع

عراقية الموصل: بين موقف الشيعة الوطني، وموقف فيصل والإنكليز المصلحي الطائفي

وسأتناولها تباعاً مبتدئاً بالمقدمة

تعريف بالسياسية الثانية للشريف حسين وابنه فيصل تجاه العراق وتحديد زمنها

أعني بالسياسة الثانية للشريف حسين وابنه فيصل تجاه العراق؛ تلك السياسة التي اتبعاها تجاه العراق بعد موافقة فيصل وأبيه الشريف حسين على شروط بريطانيا الاستعمارية فيما يخص العراق، بما في ذلك موافقته على الانتداب البريطاني على العراق، مقابل تتويجه ملكاً عليه، وذلك خلافاً لسياستهم الأولى ذات النكهة الوطنية التي تحدثت عنها في الفصل السابق.

ويمكنني أن أؤرخ اتباع هذه السياسة ابتداء من يوم (١٥ كانون الثاني ١٩٢١م/ ٥ جمادى الأولى ١٣٣٩هـ) وانتهاء بما قبل وفاة الملك فيصل الأول في (٨ سبتمبر ١٩٣٣م/ ١٨ جمادى الأولى ١٣٥٢هـ)، إضافة لِما تخلل هذه المدة الزمنية من مشاكسات له مع المندوب السامي البريطاني في هذه القضية أو تلك، فخلال هذه المدة المحددة أعلاه اتبع الشريف فيصل بدعم أبيه الشريف حسين سياسة ابتنت على تقديم "تنازلات جعلت ما قبل به أو ما سكت عنه يكاد يطابق ما جاء في اتفاق سايكس-بيكو الذي كان ثمرة مؤامرة إنكليزية فرنسية لاقتسام سوريا والعراق بين الدولتين"[1]، وسيأتي الحديث عن ذلك لاحقاً.

(١) مقدمة د. محمّد خير فارس. لكتاب: نظام الانتداب الفرنسي على سوريا. د. حكمت علي إسماعيل: ٨.

التمهيد

بواكير التسويق السياسي البريطاني للشريفيين في العراق

يحسن بي قبل أن أخوض غمار البحث في اتفاق الحكومة البريطانية بشروطها مع الشريفيين على تنصيب فيصل ملكاً على العراق، أن أعود بالوقائع قليلاً إلى سنوات سبقته يوم احتلت قوات الاحتلال البريطاني بغداد؛ لِما لها من علاقة بالاتفاق اللاحق لها وهو محل البحث.

تورد وثائق تلك الحقبة الزمنية إشارة مبكرة أومأ بها الجنرال (مود) قائد الجيوش البريطانية العام لاحتلال بغداد سنة (١٣٣٥هـ/ ١٩١٧م) إلى العراقيين بترشيح أحد أنجال الشريف حسين لعرش العراق، لقد وردت تلك الإشارة غير المباشرة في خطابه الموجّه إلى أهالي بغداد والعراقيين في (٢٤ جمادى الأولى ١٣٣٥هـ/ ١٩ آذار١٩١٧م) بإقحامه مسألة لا علاقة لها بدخوله لبغداد بقوله: "لقد طرد العرب من الحجاز الأتراك والجرمان الذين بغوا عليهم، وقد نادوا بعظمة الشريف حسين ملكاً عليهم"، مضيفاً إلى ذلك إخباره للعراقيين بحسن سياسة الشريف في الحجاز بقوله عنه: إنّ "عظمته يحكم بالاستقلال والحرية"[١].

كما أومأت وثيقة أخرى إلى دعم إعلامي بريطاني نشط للشريفيين في العراق من خلال ترويج قوات الاحتلال لأخبارهم ونشاطاتهم، بعد أن "بدأ البريد العسكري -البريطاني- يوزع جريدة (القبلة) الناطقة بلسان الثورة العربية وجريدتي (المقطم) و(الكواكب) اللتين كانتا تصدران بإشراف المكتب العربي في القاهرة - الذي أسسه البريطانيون كقسم في إدارة المخابرات أثناء الحرب العالمية- وهما تدعمان خطّ الثورة العربية"[٢].

يذكر أن هذا الدعم الإعلامي البريطاني للشريفيين لم يكن دعماً طارئاً،

---

(١) تاريخ القضية العراقية. سابق: ٥٨. ط١. على التوالي.

(٢) شيعة العراق وبناء الوطن. د. محمد جواد مالك: ٣٣٢.

فقد كان سبقه ما ورد من أن "الطيارات الإنكليزية تولت توزيع كميات كبيرة من منشور جلالة الملك حسين (والد الملك فيصل الأول) الذي ضمّنه أسباب قيامه في وجه الحكومة الاتحادية (العثمانية)، وكان لقراءة المنشور أثر بليغ في أعماق نفوس قُرّائه من العراقيين... يوم كان الأتراك ثملين بخمرة الانتصار في الكوت، ثم احتلت الجيوش البريطانية مدينة بغداد فأفرغت الحكومة الملكية -البريطانية- وسعها بتحبيذ الحركة العربية ونشر الدعوة لمؤازرة جلالة الملك حسين، وكان من وسائط بث الدعوة كتاب (ثورة العرب) الذي حملت السلطة معها كميات وفيرة منه فوزعتها على شيوخ القبائل ووجهاء الحواضر وعلى الشبان المتهذبين"[١] العراقيين.

ثم تلا ذلك اقتراح غير مسبوق قدمه نائب الحاكم المدني العام في العراق ولسون، ذهب فيه إلى ترشيح فيصل من بين أنجال الشريف حسين لعرش العراق، خلافاً للمتفق عليه سابقاً والمقرّ به من أن يكون الشريف عبد الله هو المرشح للمنصب.

فقد ورد في المحضر الخامس والعشرين للجنة المالية (المنعقد في ١٨ ذي القعدة ١٣٣٨هـ/ ٣ آب ١٩٢٠م) بأن اللجنة: "أخبرت باقتراح من الحاكم المدني في بغداد بأن عدم الاستقرار والاضطراب الحالي في العراق يمكن أن يهدأ إذا كان من الممكن وضع الأمير فيصل على رأس إدارة عربية تقام في ذلك البلد... سيكون الأمير فيصل في كثير من الطرق مرشحاً مناسباً، من وجهة المعرفة بآراء غربية، وإخلاصه لبريطانيا العظمى"[٢].

وقد ذكر السيد محسن أبو طبيخ في مذكراته أنّ "أول من اقترح ترشيح فيصل ملكاً للعراق هو السر آرلوند ولسون الحاكم المدني العام في العراق بالوكالة، الذي كان في السابق من دعاة الحكم البريطاني المباشر، وأدت أساليبه الاستعمارية إلى قيام الثورة العراقية، وقد جاء اقتراحه هذا في برقية بعث بها إلى وزارة الهند

(١) تاريخ القضية العراقية. سابق: ٧٣-٧٤. ط١.

(٢) العراق في سجلات الوثائق البريطانية. سابق. المجلد الثاني ١٩١٨-١٩٢١: ٣٨٧.

على أثر إخراج الفرنسيين فيصلاً من دمشق"[١] في (٨ ذي القعدة ١٣٣٨هـ/ ٢٤ تموز ١٩٢٠م).

كما أعرب سير بيرسي كوكس عن اعتقاده بـ"أنّ تعيين الأمير فيصل ينفع كثيراً في تهدئة البلاد"[٢].

لقد نشرت بعض الصحف العراقية القريبة من مصدر القرار خبر اختيار فيصل لعرش العراق على صدر صفحاتها "قبل تتويج فيصل رسميّاً بعدة أشهر، بل وحتى قبل مؤتمر القاهرة الذي أقرّ موضوع الترشيح نهائيّاً"[٣].

فنشرت صحيفة الاستقلال مثلاً في عددها الثاني المؤرخ في (٣٠ تشرين الأول ١٩٢٠م) على صدر صفحتها العنوان التالي "الملك فيصل يتقلد تاج العراق".

ونشرت أيضاً في عددها الثالث والعشرين المؤرخ في (١٧ كانون الأول ١٩٢٠م) العنوان التالي: "فيصل ملك العراق".

❀ ❀ ❀

(١) مذكرات السيد محسن أبو طبيخ. سابق: ٣٦.

(٢) العراق في سجلات الوثائق البريطانية. سابق. المجلد الثاني ١٩١٨-١٩٢١: ٣٨٧. وتنظر: ٣٨٨ و٣٩٧ أيضاً.

(٣) دور فيصل الأول في تأسيس الدولة العراقية الحديثة: ٣٧. عبد المجيد كامل عبد اللطيف. وما ورد في الصحيفة المشار إليها أعلاه نقلاً عنه أيضاً في الصفحة نفسها ومن هامشها معاً.

المبحث الأول

أسباب اختيار الحكومة البريطانية لفيصل ملكاً

يذكر المؤرخون أن المسؤولين البريطانيين دعوا الشريف فيصلاً لزيارة بريطانيا، وكانوا يفكرون مبدئيّاً بتعويضه عن خسارته المهينة في دمشق بسببهم، ولعل موافقتهم على دخوله لبريطانيا ثم الإذن له بمقابلة ملكها مؤشرات واضحة على أن الحكومة البريطانية تفكر بأمرٍ مّا يخصه ولصالحه.

غير أن مؤشرات ذلك بدت واضحة أكثر فأكثر خلال موافقتهم على استقباله من قبل ملكها جورج الخامس بعد خلع تاج حكمه لسوريا بالقوة.

وإذ تمت المقابلة، قال الملك جورج الخامس بصورة مباشرة في الاجتماع: إنه لا ينبغي على فيصل أن يقلق لأن البريطانيين يقفون وراءه بقوة.

حينها بدأت آمال فيصل بحكم العراق تتراءى له رغم أن المنصب العالي كان محجوزاً لأخيه الشريف عبد الله وليس له، بل كانت تباشير إجلاسه على كرسي العراق ملحوظة لمستشاريه العراقيين الذين كانوا معه.

غير أن ما تمناه الشريف فيصل سرعان ما تحوّل إلى واقع فعلي حتى من دون نزاع أسري، بعد أن فاتحته الحكومة البريطانية بذلك، فوافق الشريف فيصل طبعاً، ووافق أبوه الشريف حسين كذلك، رغم غضب أخيه عبد الله، وتم إبلاغ الإنكليز بموافقتهما معاً على شروطها المذلة يوم (١٥ كانون الثاني ١٩٢١م/ ٥ جمادى الأولى ١٣٣٩هـ) بعد ثلاثة أيام من التفكير في الأمر.

لقد اقتنعت دوائر السياسة البريطانية -بعد دراسة متأنية للمنطقة من جهة، وللعراق من جهة أخرى، ولوضع الشريف فيصل الشخصي وأبيه الشريف الحسين من جهة ثالثة- أن يكون الشريف فيصل بمساندة الشريف أبيه هو أنسب المرشحين، وأضمنهم لمصالح الإنكليز في العراق والمنطقة، لأسباب، منها:

١. الرأي الإيجابي لرئيس وزراء بريطانيا لويد جورج بالشريف فيصل. وقد بدا ذلك واضحاً مما أورده فيصل عن قناعة لويد جورج به، بـ"التزام لويد جورج إياي، ولكن أهم ما بدا لي هو تمسك لويد جورج بالصداقة، هذه هي النقطة المهمة بصرف النظر عن كل شيء"[١]، ويدعم ما تقدم من رأي لويد جورج الإيجابي بفيصل، أنّه "أعلن في إحدى خطبه في البرلمان البريطاني وذلك بتاريخ (٢٩ نيسان ١٩٢٠-/ ١٠ شعبان ١٣٣٨هجرية-) قائلاً: (لا يسع أحداً أن يجد أكثر استقامة وإخلاصاً وأشد رغبة في التعاون مع الحلفاء من فيصل في وقت السلم، كما في وقت الحرب)... لذلك لم يكن من السهل على الساسة البريطانيين أن يقلبوا له ظهر المجنّ فاستمهلوه قليلاً... ثم ينظرون فيما ينبغي اتخاذه لإصلاح الموقف والحدّ من المأساة التي ذهب ضحيتها"[٢].

فالشريف فيصل بوضوح هو مرشح رئيس الوزراء البريطاني لعرش العراق؛ لأنه الشخص "المخلص" لبريطانيا و"الراغب بشدة" في التعاون مع المحتلين الإنكليز بعد أن طرده الفرنسيون من سوريا، وأنهوا حكمه فيها، كما تقدم.

٢. إن فيصلاً بدون احتوائه بعد طرده من سوريا سيشكل مصدر إزعاج ومتاعب لبريطانيا ولفرنسا على السواء. وهو ما ذكرتْهُ تفصيلاً برقية اللورد كرزن وزير الخارجية ورئيس لجنة الشؤون الشرقية في وزارة الخارجية إلى نائب الحاكم الملكي العام في العراق بتاريخ (١٤ ذي القعدة ١٣٣٨هـ/ ٣٠ تموز ١٩٢٠م)، فأجابه نائب الحاكم الملكي ولسون بما يلي: "تنص برقيتكم المؤرخة (٣٠ تموز) على أنّ الأمير فيصل (كذا) قد جلا إلى درعا في منطقة النفوذ البريطاني، بناء على أمر الفرنسيين، ويرى من في بغداد أن ذلك يعني أمرين: فإما أن يكون -الأمير- في طريق عودته إلى الحجاز، أو أنه ينوي البقاء في هذا الجزء من سوريا المشمول بالنفوذ البريطاني، فإن بقي في درعا، واستمر على الادعاء بعرش سوريا فإنه سيجمع

(١) أوراق الملك فيصل الأول ملك العراق.

(٢) مذكراتي عن الثورة العربية الكبرى. د. أحمد قدري: ٢٧٩.

حوله عدداً لا بأس به من موظفيه السابقين، فيكون مصدر إزعاج دائم للفرنسيين. أما إذا تنازل عن مطالبه بسوريا وطالب بزعامة فلسطين فقط، فإن وجوده فيها سيخلق المتاعب لفرنسا، ويجعلنا في وضع صعب جدّاً، فهل لحكومة صاحب الجلالة أن تفكر في إسناد إمارة العراق إليه؟"[١].

٣. إن احتلال بريطانيا للعراق ورجحان كفة نظرية مدرسة القاهرة الاستخبارية بنزع الخلافة الإسلامية من تركيا وتنصيب الشريف فيصل ملكاً عليه، سيمكّن بريطانيا من تفكيك وحدة الأمة الإسلامية؛ "ليتسنّى لها توجيه الرأي العام الإسلامي وتجزئة أملاك الدولة العثمانية، من غير أن يثير عملها هذا شعور المسلمين"[٢]، بل سيتسنّى لها بذلك الحيلولة دون جمع شمل الأمة العربية، من دون إثارة قلاقل أو مشاكل في المنطقة؛ لأن ملك العراق المتوج عربي مسلم، يدعّي السعي لجمع شمل العرب لإعادة مجد الإسلام الغابر مما سيحبط مساعي الساعين إلى وحدة الشعوب والدول الإسلامية، بل والعربية أيضاً، وهو ما يحقق مشروع الإنكليز بشق وحدة المسلمين بمختلف قومياتهم وهوياتهم الإثنية، ذلك المشروع الذي سعوا للوصول إليه من خلال عقدهم اتفاقية سميت بـ(مراسلات حسين-ماكماهون) مع الشريف حسين للثورة المسلحة ضد العثمانيين، وتعهدهم له بدعمه الدعم اللا محدود بالمال والسلاح والخبرة العسكرية.

لقد اتضحت معالم خطوط هذا المشروع التقسيمي التجزيئي في تقرير رفعه ضابط الاستخبارات البريطانية لورنس إلى وزارة المستعمرات البريطانية حول الموقف الراهن سنة (١٩١٨م) جاء فيه: لقد "تم انتخاب شريف مكة... بسبب الانشقاق الذي يستطيع أن يحدثه في الأمة الإسلامية"[٣]، وهو الأمر الذي أوضحه ولسون صراحة بقوله: إننا "باحتلالنا بغداد فقد دققنا في قلب العالم الإسلامي،

(١) الثورة العراقية الكبرى. سابق: ٤٠٧.

(٢) حول سياسة بريطانيا في العراق. ١٩١٣-١٩٢١. سابق: ١٩. وينظر هامش الصفحة.

(٣) إنكليز في حياة فيصل الأول: ١٠٨ نقلاً عن رسائل لورنس. ترجمة د. عبد المنعم الناصر: ٨٤-٨٥.

وبهذا نمنع توحد المسلمين ضدنا في الشرق الأوسط. أؤكد إن سياستنا يجب أن تُبقي على بلاد الرافدين إسفيناً، منطقة يتحكم بها البريطانيون، ولا يمكن استيعابها في العالم العربي أبداً، بل يجب أن يُبقى عليها... معزولة بقدر ما يمكن، وتكون نموذجاً للآخرين"[١]. وأن خير من يمكن الإنكليز من تحقيق هذا المشروع هو تنصيب فيصل ملكاً على العراق.

٤. نتيجة لإعلان المرجعية العليا الجهاد الدفاعي ضد المحتلين الإنكليز وقيادتها لثورة العشرين التي ألهبت مشاعر العراقيين بالدعوة النشطة والفعالة إلى الاستقلال التام الناجز فحملوا أرواحهم على أكفهم ﴿وَقَٰتَلُواْ وَقُتِلُواْ﴾[٢]، حينها لم يكن أمام المحتلين من خيار سوى إقامة مانع حاجز يفصل بين قادة وجمهور ثورة العشرين من أتباع المرجعية العليا والقوميين، فكان ذلك الحاجز هو الملك فيصل الذي أخفى ما استطاع إخفاءه من خطط المحتلين الحقيقية عن أنظار الوطنيين العراقيين.

٥. قناعة البريطانيين "أن بإمكانهم استخدام فيصل للمساعدة في السيطرة على الهاشميين"[٣].

٦. عداء فيصل للشيوعية والبلشفية المنتشرة وقتئذ في دول المنطقة ربما يساعد في الحد من تأثيرهما هناك. وقد أشارت الأركان العامة في وزارة الدفاع البريطانية إلى ذلك في رسالتها المؤرخة في (٨ جمادى الثانية ١٣٣٩هـ/ ١٧ شباط ١٩٢١م) بقولها: "يعتقد أنّ فيصل (كذا) يبغض الشيوعية والبلشفية. إن البلدان المجاورة للعراق صارت البلشفية تغويها بالتدريج، وإذا جاء فيصل ملكاً على العراق وحصلت حكومة مستقرة فيه، فلعل تلك البلاد تصبح مثالاً لجاراتها الإسلامية

(١) اختراع الشرق الأوسط الحديث. صناع الملوك.. كارل إي. ماير و شارلين بلير بريزاك. ترجمة فاطمة نصر: ١٩٨.

(٢) سورة آل عمران. آية: ١٩٥

(٣) تاريخ العراق المعاصر – العهد الملكي. سابق: ٤٧.

وتكون عائقاً محتملاً ضد البلشفية"[١]. إضافة إلى الكمالية التي امتد تأثيرها إلى العراق كما تؤكد ذلك وثائق بريطانية خاصة[٢].

٧. اعتقاد الحكومة البريطانية بحاجتها إلى ملك صوري ينفذ لها ما تريد فتحكم هي باسمه، له وجاهة معنوية لتحدره من سلالة النبي محمّد ﷺ؛ ما يمكنها من تحقيق مصالحها في العراق بأفضل صورة، خاصة وأن العراقيين يحترمون (السادة) أو الشرفاء ويقدمونهم على غيرهم في مناسباتهم ومجالسهم وأعرافهم الاجتماعية وغيرها، شرط أن يكون غريباً عنهم بلا جناح يطير به من عشيرة وأمثالها من جهة، ومكلوماً، ومحبطاً نفسيّاً بعد خلعه من منصبه من جهة ثانية، فيصبح مستعدّاً لأن يقبل أي شيء يعرض عليه، دون أدنى ضغط. وهو ما حصل فعلاً كما سنرى.

يقول الدكتور فؤاد عجمي: "كان البريطانيون يريدون ملكاً يتولى السلطة ولا يحكم. فيصل وهو شريف متحدر من سلالة النبي، غريب عن العراق، كان مرشحاً مثاليّاً... بعد طرده من دمشق"[٣].

٨. تستطيع بريطانيا من خلال منح الشريف فيصل عرش العراق استعادة مكانتها في العالم العربي، بعد اهتزازها نتيجة لجوئها إلى العنف المفرط والتدمير القاسي خلال إعادة احتلالها للمدن العراقية الثائرة ضدها من جهة، والنكث بعهودها التي قدمتها للعرب من جهة ثانية، وهو ما أشار إليه ولسون نائب الحاكم الملكي العام في العراق في جوابه على رسالة وزير خارجيته بقوله: إننا "إذا قدمنا له -لفيصل- إمارة العراق فإننا لا نسترجع مكانتنا في نظر العالم العربي حسب، ولكننا قد ننجح إلى حد كبير في القضاء على التهمة التي قد تُوجّه إلينا بخيانتنا لفيصل، ولأهل هذه البلاد"[٤]. وبتفصيل أكثر ورد في رسالة بعثتها الأركان العامة

(١) العراق في سجلات الوثائق البريطانية. سابق. المجلد الثاني ١٩١٨-١٩٢١: ٤٤٨.

(٢) دور فيصل الأول في تأسيس الدولة العراقية الحديثة. عبد المجيد كامل عبد اللطيف: ٨٨.

(٣) شيعة العراق وبناء الوطن. سابق: ٥١٣. نقلاً عن فؤاد عجمي: الإمام المغيب موسى الصدر وشيعة لبنان: ٤٣.

(٤) الثورة العراقية الكبرى. سابق: ٤٠٨.

في وزارة الحرب البريطانية في (٨ جمادى الثانية ١٣٣٩هـ/ ١٧ شباط ١٩٢١م) جاء فيها: لقد "بذل الحسين وأبناؤه قصارى جهدهم للمساعدة في أثناء الحرب، وكانوا مخلصين عموماً، ولا ريب أنهم يعدّون العهود التي أعطيت إليهم لن تُنفّذ، وأنها ألقيت جانباً عندما لم يعد لهم مزيد من المساعدة. لعل اختيار فيصل يزيل كلّيّاً هذا الانطباع"(١).

إضافة إلى أن إيفاء الحكومة البريطانية بتعهداتها للعرب المسلمين سيزيد فاعلية تأثيرها في العالم الإسلامي، وهو ما عبرت عنه الأركان العامة في وزارة الدفاع البريطانية برسالتها المؤرخة في (٨ جمادى الثانية ١٣٣٩هـ/ ١٧ شباط ١٩٢١م) بقولها: "إن تأثير حكومة جلالته في العالم الإسلامي عموماً يتحقق بصورة عظيمة بسمعتها في التعامل العادل، والإيفاء بعهودها. إن تعيين فيصل سوف يحسن بنحو عظيم تلك السمعة الحسنة"(٢).

٩. رؤية المستر تشرشل المسؤول عن ملف العراق في الحكومة البريطانية يومذاك بـ"أن إدارة هذه البلاد من قبل حاكم عربي يكون مربوطاً معها بعرفان الجميل، وضامناً لعقد معاهدة تصاغ فيها بنود الانتداب صوغاً، وتؤمن فيها المصالح البريطانية العامة، ويرعاها الحاكم العربي المذكور بنفسه، أفضل كثيراً من أن تحكم حكماً مباشراً يكلف دافع الضريبة البريطاني كثيراً، ويؤدي إلى انتشار روح الكراهية والعداء للسلطة الحاكمة"(٣). وأن أفضل من يستطيع تحقيق هذا الدور هو فيصل.

١٠. معرفة بريطانيا بالشريف فيصل معرفة تفصيلية مباشرة أيام ما كان ضابطاً رفيعاً في الجيش البريطاني تحت إمرة الجنرال البريطاني أللنبي الزاحف بألويته لطرد العثمانيين من سوريا وفلسطين واحتلالهما من جهة، ومن خلال رسائله المباشرة

(١) العراق في سجلات الوثائق البريطانية. سابق. المجلد الثاني ١٩١٨-١٩٢١: ٤٤٨.

(٢) المصدر السابق نفسه.

(٣) الثورة العراقية الكبرى. سابق: ٤٣٢.

التي بعث بها إلى الإنكليز من سوريا سنة (١٩١٩م)، تلك الرسائل التي أفصحت عن مواقفه السياسية وغيرها من جهة أخرى[١]، إضافة إلى علم المسؤولين البريطانيين الأكيد بركونه إلى آرائهم واستشاراتهم، وفي مقدمة من كان يعتمد عليهم اعتماداً كلّيّاً هو ضابط الاستخبارات البريطاني (العقيد لاحقاً) لورنس، وحسبك في لورنس قول رستم حيدر أقرب المقربين من الشريف فيصل قبل تنصيبه ملكاً، ورئيس الديوان الملكي للملك فيصل بعد تنصيبه ملكاً على العراق، واصفاً اتّباع الشريف فيصل لِما يطلبه منه لورنس اتباعاً تامّاً، وغالباً دون نقاش، خاصة في جولته الأوربية، حيث قال رستم حيدر عن فيصل بأنه كان يعتمد على لورنس بشكل أعمى دون تفكر، على الرغم من أن لورنس رسميّاً أحد ضباط الاستخبارات البريطانية.

هذا، ولم يقتصر أمر اتّباع فيصل لمستشاره لورنس على وصف خاصة مستشاريه له بذلك من أمثال رستم حيدر كما تقدم، بل كان ذلك الاتّباع المطلق أو شبه المطلق للورنس معروفاً عنه في دوائر الخارجية البريطانية، وخاصة عند كرزون وزير خارجيتها، ووكيلي الوزارة الدائمين تشارلز هاردينج، والسير آير كرو، ثم لويس ماليت الذي قال خلال حديثه عن لورنس بأنه له "تأثير هائل" على فيصل، حتى أن لورنس كان يميل إلى عدّ فيصل "قاصراً" تجب مصاحبته وتوجيهه وحمايته من مخططات الدوائر السياسية حتى "ينضج" ليمارس الدور الذي تصوره لورنس له. وغير ذلك كثير.

١١. أرجح أن يكون موقف الشريف فيصل المهادن للحركة الصهيونية، والموافق نوعاً ما على الموقف البريطاني الساعي إلى تنفيذ وعد بلفور المشؤوم في فلسطين؛ قد شكل أحد الأسباب غير المعلنة الداعية إلى تفضيل الإنكليز للشريف

---

(١) تنظر مثلاً: رسالته السرية إلى القائد البريطاني العام أيام كان في سوريا، وتعبيره عن عمق صداقته وإخلاصه لبريطانيا مرات عديدة، وذلك في كتاب العراق في سجلات الوثائق البريطانية. سابق. المجلد الثاني: ٣٠٩. و٣٢٣ على التوالي.

فيصل على غيره من المرشحين الآخرين لعرش العراق، خاصة بعد أن اتضحت المعارضة العراقية الشديدة لوعد بلفور حال صدوره؛ كونه أقلق العراق وهز البلاد من أقصاها إلى أقصاها. وكانت النجف من بين المدن الناقمة المتحرّقة، فاهتز الرأي العام فيها أيّما اهتزاز"، وهو ما يشجع فكرة تنصيب ملك على العراق عسى أن يقف بوجه معارضي هذا الوعد المشؤوم.

لقد شجع البريطانيون بل سعوا إلى عقد لقاء بين الشريف فيصل ورئيس الاتحاد الصهيوني البريطاني حاييم وايزمان، الذي وصل إلى فلسطين بموافقة بريطانية، من أجل التمهيد لتطبيق شروط وعد بلفور، وتهيئة الأرضية الممكنة لتهدئة المخاوف العربية من نوايا الصهاينة.

لقد عقد أول الاجتماعات بين الشريف فيصل والصهيوني الشهير -وأول رئيس لإسرائيل لاحقاً- وايزمان بمدينة العقبة بعد وصول وايزمان إلى هناك، حيث سعى البريطانيون بقوة كي يكون الشريف فيصل هو أول شخصية عربية يقابلها الصهيوني وايزمان لمعرفتهم المسبقة بتصورات فيصل عن الصهيونية مخالفاً بذلك رأي مستشاريه العرب الرافضين لتصوراته.

لقد خلفت مقابلة الشريف فيصل الأولى مع وايزمان أثراً طيباً في نفسية كل منهما عن الآخر، وهو ما كتبه الزعيم الصهيوني الكبير في مذكراته متحدثاً عن تلك المقابلة بأنها كانت "في شهر حزيران عام (١٩١٨م/ رمضان ١٣٣٦هـ)، وقد استغرق حديثنا ساعتين، اقترح الأمير في نهايتهما أن تؤخذ لنا صورة معاً... وقد كانت مقابلتي تلك مع الأمير فيصل في الصحراء الحجر الأساسي الذي بنينا عليه صداقة متينة بيني وبينه دامت طوال حياة الأمير.."[١]، وكتب أيضاً: "كانت مقابلتي للأمير فيصل وحديثي معه واشتراك لورنس في مفاوضاتنا، أول انتصار سجلته اللجنة الصهيونية خلال زيارتها لفلسطين"[٢] سنة ١٩١٨م.

---

(١) مذكرات حاييم وايزمان التجربة والخطأ: ٢٠٩-٢١٠.

(٢) المصدر السابق نفسه: ٢١٠.

ثم عُقد اجتماع ثانٍ بين فيصل ووايزمان في فندق كارلتون بلندن في (١١ كانون الأول ١٩١٨م/ ٧ ربيع الأول ١٣٣٧هـ) خلال سفر الشريف فيصل إلى أوربا لحضور مؤتمر السلام بباريس، وقد حضر لقاءهما لورنس كمترجم ومستشار لفيصل.

وفي هذا الاجتماع الذي كان وديّاً بين الطرفين توقع وايزمان أن لا ينتهي مؤتمر السلام بباريس إلّا باعتراف بالحقوق التاريخية والوطنية لليهود في أرض فلسطين. وأكد لفيصل بأن اليهود سيشترون وسيستثمرون الأراضي الفلسطينية استثماراً يجعلها تستوعب الملايين من المهاجرين اليهود. كما أشار وايزمان لفيصل إلى حضور واستعداد المال والخبرة اليهودية لإنعاش الوضع العربي. فأبدى فيصل رغبته بذلك.

لقد كتب فيصل في صحيفة التايمز البريطانية يوم (١٢ كانون الأول ١٩١٨م) ما يلي: "الفرعان الرئيسيان للعائلة السامية العرب واليهود... يفهمان بعضهما البعض... فالعرب لا يغارون من اليهود الصهاينة، ويريدونهم أن يحظوا بمعاملة عادلة، كما أكد اليهود الصهاينة للقوميين العرب عزمهم على أن يشهدوا أنهم يحظون أيضاً بمعاملة عادلة في مناطقهم".

ولم يكتفِ فيصل بذلك فحسب، بل زاد عليه خلال مأدبة أقامها على شرفه اللورد والتر روتشيلد أحد زعماء يهود بريطانيا وصهيوني بارز في (٢٩ كانون الأول ١٩١٨م/ ٢٥ ربيع الأول ١٣٣٧هـ) بقوله: "ما من إنسان عربي حقيقي يمكن أن يشك أو يخاف من النزعة القومية اليهودية... لقد أخبرني أشخاص ممن يعتبرون أنفسهم متحضرين أن اليهود يريدون مسجدنا في القدس كهيكل لهم، وأن يمحوا فلاحي فلسطين ويجتثوهم. ومن جهتي فأنا أعلم أنه لا يوجد يهودي حقيقي يحمل هذه الآراء... إننا نطالب بتحرير العرب، وسنظهر غير جديرين بتلك الحرية إذا لم نقل لليهود الآن، كما أفعل أنا، أهلاً بعودتكم للوطن، ونتعاون معهم إلى أقصى حدود قدرة الدولة العربية... إن مُثُلَ الدكتور وايزمان هي مُثُلُنا... ونتوقع منكم

ودون طلب منا مساعدتنا في المقابل... أنتم أبناء عمومتنا بالدم"[١].

ويعقّب الباحث محمّد يونس العباديّ على قول الأمير فيصل بأنه: "لم تختلف المشاعر التي عبر عنها فيصل في هذه المناسبة بخصوص المودّة العربية اليهودية كثيراً عن تلك التي وردت في المذكرة التي صاغها من أجل مؤتمر السلام"[٢] في باريس.

بيد أن الأهم في اجتماعات (فيصل - وايزمان) من كل ما تقدم -رغم خطورة ما تقدم- هو الاجتماع الثالث بينهما، الذي عقد في مقر فيصل في فندق كارلتون بلندن في (٣ كانون الثاني ١٩١٩م)، حيث تم التوقيع بينهما على اتفاقية بالغة الخطورة هي اتفاقية (فيصل-وايزمان)، تلك الاتفاقية التي ورد في مادتها الثالثة ما يلي:

"٣. عند إنشاء دستور فلسطين تتخذ جميع الإجراءات التي من شأنها تقديم أوفى الضمانات لتنفيذ وعد الحكومة البريطانية المؤرخ في اليوم الثاني من شهر نوفمبر سنة ١٩١٧م"[٣]، ويقصدان به وعد بلفور سيّئ الصيت.

ثم إضافة لخطورة المادة الثالثة المتقدمة فقد جاءت مادتها الرابعة بنص يضمن تطبيق وعد بلفور على أوسع نطاق، حتى ليحار العربي والمسلم كيف يمكن لعربي مسلم أن يوقع على نص جاءت مادته الرابعة كما يلي:

المادة الرابعة أو: "٤. (يجب) أن تتخذ (جميع الإجراءات) لتشجيع (الهجرة اليهودية إلى فلسطين، على مدى واسع، و(الحثّ) عليها (وبأقصى ما يمكن من السرعة)، (لاستقرار المهاجرين في الأرض) عن طريق (الإسكان الواسع) و(الزراعة الكثيفة).

ولدى اتخاذ مثل هذه الإجراءات يجب أن تحفظ حقوق الفلاحين والمزارعين المستأجرين العرب، ويجب أن يساعدوا في سيرهم نحو التقدم الاقتصادي"[٤].

---

(١) فيصل الأول ملك العراق. سابق: ٢٨٥-٢٨٦.

(٢) المصدر السابق نفسه.

(٣) يقظة العرب. سابق: ٥٩٤.

(٤) المصدر السابق: الملحق (و): ٥٩٤.

لقد دار أمر فيصل تلك الآونة بين أن يوقع الاتفاقية الخطيرة تحت ضغط بريطاني كبير مدعوم بتأثير لورنس البليغ عليه، فـ"يعطي اعترافاً رسميّاً نيابة عن العرب بالأماني الصهيونية في فلسطين... وأن يكون ذلك الاعتراف ملزماً ونهائيّاً"، أو أن يرفض التوقيع على الاتفاقية فيثير غضب بريطانيا ويتسبب في "إثارتها ضد نفسه... فسمح لنفسه أن يقتنع بأنه لو حقق رغبات بريطانيا إلى أقصى حد ممكن لأصبحت فرصه إلى كبح عداوة الفرنسيين أكثر"[١]، وهم أعداؤه وخصماؤه على سوريا؛ فقرر فيصل -استجابةً منه لتأكيدات لورنس والضغوط المتراكمة عليه من قبل البريطانيين- الاعتراف الرسمي بالمطالب الصهيونية التي تضمنها بأن وقّع على الاتفاقية حتى من دون أن يقرأها مكتفياً بسماع ترجمتها من مستشاره ضابط الاستخبارات البريطانية لورنس، لكنه أضاف بعد التوقيع عليها إضافة بخط يده مؤداها أن توقيعه على الاتفاقية مشروط بوفاء الحكومة البريطانية بوعودها باستقلال العرب[٢].

هذا ما كان من أمر موقف فيصل من الحركة الصهيونية.

يذكر أن كوكس سبق أن كتب مذكرة عن شكل النظام المنوي اتباعه في العراق أسماها (مستقبل بلاد الرافدين)، ووجهها إلى اللجنة الشرقية لمجلس الوزراء البريطاني في (إبريل سنة ١٩١٨م/ ٤ رجب ١٣٣٦هـ)، ووافقت عليها اللجنة. وقد تضمنت المذكرة -من بين ما تضمنته- ضرورة دعوة وايزمان رئيس المنظمة الصهيونية العالمية لأكثر من ربع قرن، وأول رئيس لدولة الاحتلال الصهيوني لفلسطين لاحقاً أو من ينوب عنه إلى بغداد؛ لتشجيع الجالية اليهودية على تقديم دعمها وتعاونها لإدارة مدنية تقودها بريطانيا.

من كل ما تقدم وغيره جاء ترجيحي بتفضيل الإنكليز للشريف فيصل على غيره لعرش العراق، خاصة وأن الذي تولى أمر هذا الملف تلك الحقبة هو تشرشل

(١) المصدر السابق نفسه: ٣٩٣-٣٩٤.

(٢) ينظر: المصدر السابق نفسه كذلك.

الذي عُدّ حين كان عضواً في مجلس النواب البريطاني بكونه "أحد أبرز فرسان اليهود"[١] فيه، حسب وصف وايزمان له في مذكراته.

لقد قدر أن يتولى تشرشل رئاسة مؤتمر القاهرة الذي رشح فيصلاً رسميّاً كملك للعراق، ولم يقتصر أمر دعم تشرشل لترشيح فيصل لعرش العراق على ما قام به في مؤتمر القاهرة حين ترشيحه، بل صرح ذاكراً مزايا فيصل لتولي عرش العراق. معتقداً أنّ فيصلاً سوف لا يقف حجر عثرة قدر تعلّق الأمر به أمام مساعي الإنكليز الدؤوبة لتنفيذ بريطانيا لوعد بلفور المشؤوم.

ليس هذا فحسب، بل سيدعم فيصل مدّ اليد المالية الطويلة للصهاينة في ما لو تولى عرش العراق، مثلما طالب أكثر من مرة قبل ذلك، حين كان معنيّاً بشأن سوريا، بل ربما سيدعم منح الاستثمارات المهمة للصهاينة في الشرق الأوسط كله، رغم ما يترتب على ذلك من أمور غير خافية على أحد.

وقد كان فيصل ذكر أهمية التمويل الصهيوني للدول العربية، وجدوى الخبرة الأوربية التي يمتلكها الصهاينة المستوطنون لتحديث الدول العربية.

وهناك أسباب أخرى أيضاً ستأتي الإشارة لبعضها لاحقاً[٢].

غير أنه من اللافت للنظر حقّاً ما ورد في سجلات الوثائق البريطانية نقلاً عن: صحيفة (محمدي) التي تصدر في مدينة كلكتا الهندية بعددها المؤرخ في (٣ شعبان ١٣٣٨هـ/ ٢٢ نيسان ١٩٢٠م)؛ وصحيفة (زامينداز) الصادرة بتاريخ (٢٩ شعبان ١٣٣٨هـ/ ١٨ أيار ١٩٢٠م) -وهما صحيفتان مناوئتان للتغلغل الأوربي في بلاد المسلمين- قول الأولى منهما أولاً ثم الثانية ما يلي: "لا شك أنّ قراءنا يتذكرون كيف حارب الأمير فيصل في أثناء الحرب ضد تركيا، وأيد قضية الحلفاء الذين كانوا يريدون مصلحته ومصلحة أبيه. وقد وعد الحلفاء الأمير آنذاك أن يجعلوه

(١) مذكرات حاييم وايزمان التجربة والخطأ: ٢٤٣.

(٢) ينظر: العراق في سجلات الوثائق البريطانية. سابق. المجلد الثاني ١٩١٨-١٩٢١: ٤٤٦-٤٤٩.

الحاكم المستقل على العراق... يبدو أن صحيفة (زامينداز) في (١٨ أيار) -ترى- أنّ الجلاء عن العراق سيتأخر كثيراً... سوف يقترف البريطانيون خطأً فاضحاً إذا ما جعلوا الأمير فيصلاً ملكاً على العراق. الشعب بالدرجة **الأولى** لا يحبه أبداً، وأن تعيينه سوف يؤدي إلى فوضى واضطراب. **وثانياً** سوف يؤثر ذلك تأثيراً عدائيّاً في العلاقات بين إنكلترا وفرنسا"[١].

وأقول: من اللافت للنظر أن ما كتبته الصحيفتان سبق زمنيّاً إجبار الملك فيصل من قبل الفرنسيين على الخروج مطروداً من سوريا، فقرر السفر إلى لندن التي عرضت عليه عرش العراق إذا وافق على شروطها، ثم بعد أن وافق فيصل على شروط الحكومة البريطانية تم تعيينه ملكاً على العراق، كل ذلك حصل في سنة ١٩٢١م. غير أن ما كتبته الصحيفتان كان في سنة ١٩٢٠م، اللهم إلّا أن يكون تاريخ صدور الصحيفتين الوارد في ترجمة نصوص سجلات الوثائق فيه خطأ وهو ما أُقَرِّبُهُ.

هذا، وقد كانت (المس بيل) سكرتيرة المندوب السامي البريطاني في العراق قد كتبت تقول في موضعين وزمنين مختلفين بأنه "ليس هناك بديل يمكن أن يشغل المنصب سوى نجل من أنجال الشريف"[٢]، و"أن قناعتي الشخصية هي أننا يجب أن لا نخلد إلى الراحة حتى يكون العراق على اختيار أحد أنجال الشريف حسين أميراً للبلاد"[٣]، غير أنها حسمت أمر اختيارها بعد ذلك لفيصل دون أحد من إخوته، ليس باعتباره أفضل الخيارات عندها لتاج العراق فحسب، بل لأنه الخيار الذي لا خيار بعده حسب قولها التالي: "أنا أشعر شعوراً واضحاً تماماً بأنه ليس هناك غير حل عملي واحد، وهو تنصيب أحد أنجال الشريف، وأختار فيصلاً من بينهم. إن ذلك هو اختياري الأول تماماً وأبداً"[٤].

---

(١) العراق في سجلات الوثائق البريطانية. سابق. المجلد الثاني: ٣٢٤.

(٢) العراق في رسائل المس بيل: ٢١٢-٢١٣.

(٣) المصدر السابق نفسه.

(٤) المصدر نفسه: ٢٧٥. وأكدت المس بيل رأيها مجدداً في الصفحة نفسها مرة أخرى.

لقد كانت المس بيل "قلباً وقالباً من أنصاره"[١]، وكان لها دور مهم في الحث على اختياره. ذلك الدور الذي دعا بعض الباحثين لأن يبالغ فيكتب عن المس بيل في تلك الحقبة من تاريخ العراق بأنها "التي وضعت العراق على الخارطة بالمعنى الحرفي للكلمة"، فـ"هي من رسم مسار التاريخ. فهي من تخيلت العراق، وهي من هيّأت ملكه المقبل، الأمير فيصل بن الحسين من مكة"[٢]، حتى إذا تم لها ولضابط الاستخبارات لورنس وللإنكليز كلهم ذلك؛ سعت المس بيل هذه المرة "في إنجاح الأمير فيصل بن الحسين لتوليته عرش العراق، وإعداد حفلة تتويجه في بغداد... وغدت مستشارته في معظم الأمور... إلى جانب كونها المستشار الأول لرئيسها البريطاني"[٣]. بل بات الملك فيصل الأول يعتمد عليها إلى الحد الذي "كان يعدّها واحدة من أهل بيته، لها الحق في مقابلته في أي وقت تشاء، وكان يقابلها لا كما يقابل بقية موظفي دار الاعتماد أو الموظفين العراقيين بملابسه الرسمية، وعلى وفق الأعراف البروتوكولية. كما كان يفضي لغرترود -بيل- بآماله ومخاوفه، وما يفكر فيه، ويأخذ رأيها في الكثير من القضايا"[٤]. وهي بدورها لا تبخل على حكومتها بهذه المعلومات الخاصة الثمينة بحكم واجبها الرسمي عادة.

وما لنا نذهب بعيداً؟! فها هي ذي المس بيل نفسها تعترف بدورها بصراحة وإيجاز في تنصيب فيصل بقولها: "وجعلنا ملكنا يُتوّج".

ولقد اشتكت مرة من شدة معاناتها التي لاقتها بسبب سعيها لتنصيب فيصل

---

(١) فيصل الأول. سابق: ٤٦، وقال أمين الريحاني في ص٥٣ متحدثاً عن المس بيل أنها كانت "أول العاملين في سبيل فيصل، المخلصين له في تلك الأيام، ولا أظن أحداً في دار الانتداب كان أشد منها سروراً بنجاح الاستفتاء ذلك النجاح الباهر. فقد حاز الأمير ستة وتسعين صوتاً من كل مئة (كذا) من أصوات الأمة".

(٢) صحوة الشيعة. ولي نصر: ١٨٣.

(٣) مذكرات رؤوف البحراني. سابق: ٢/ ٩١ الهامش.

(٤) الملك فيصل الأول من الثورة العربية الكبرى حتى تأسيس الدولة العراقية الحديثة. معن فيصل القيسي: ١٩٦. نقلاً عن المس بيل وأثرها في السياسة العراقية. علاقة المس بيل بالملك فيصل الأول. محمد إبراهيم يوسف القريشي. بغداد. دار اليقظة العربية. ٢٠٠٣.

على عرش العراق، بقولها: "لن أشارك أبداً مرة أخرى في صنع الملوك، ففي هذا جهد كبير جدّاً"[١]، خاصة وأنها "لأجل هذا المرشح سافرت مرتين إلى دمشق وثالثة إلى مصر"[٢].

ثم حين تُوّج ملكاً "دارت به تُريهِ البلاد التي سيحكمها، وقدمته إلى الشيوخ المحليين، وشرحت له خطوط الأنساب القبلية والولاءات العشائرية، لقد كانت لديها فكرة واضحة جدّاً عمّا سيكون عليه العراق، ومن سيتقلد السلطة فيه"[٣].

لقد سار أمر "فرض فيصل" ملكاً كما أُريد له أن يسير عليه، كأفضل خيار للإنكليز، يحققون به مرادهم، وهو ما نص عليه (التقرير البريطاني الخاص عن تقدم العراق خلال سنة ١٩٢١-١٩٣١، ص١٤)، حيث جاء فيه متحدثاً عن فيصل ما يلي: "لقد كانت مكانته وخدماته الثمينة لقضية الحلفاء إبان الحرب تشفع له لدى الشعبين البريطاني والعراقي على السواء، وبعد التأكد من أن سموّه وقف تماماً على المسؤوليات المترتبة على حكومة صاحب الجلالة تجاه عصبة الأمم، وأنه سيكون مستعدّاً -إذا قدّر له أن يصبح ملكاً على العراق- أن يتفاوض (لعقد معاهدة إنكليزية-عراقية، على المنوال المشروح في صك الانتداب)، -وإذ تم كل ذلك بنجاح- أعلنت حكومة بريطانيا موافقتها لترشيحه لعرش العراق"[٤].

لقد تم الإخراج الشكلي للاتفاق مع فيصل على عرش العراق في مؤتمر القاهرة الذي عقده وزير المستعمرات البريطاني تشرشل في (١٢ آذار ١٩٢١م)، "حيث

---

(١) العراق. سابق. الكتاب الأول. الطبقات الاجتماعية والحركات الثورية من العهد العثماني حتى قيام الجمهورية: ١١٦.

(٢) الأحلام. سابق: ٢١٥.

(٣) صحوة الشيعة. سابق: ١٨٣.

(٤) الثورة العراقية الكبرى. سابق: ٤٣٧. نقلاً عن التقرير البريطاني الخاص عن تقدم العراق خلال سنة ١٩٢١ -١٩٣١: ص ١٤. وينظر: العراق في سجلات الوثائق البريطانية ١٩١٤- ١٩٦٦. سابق. المجلد الثاني ١٩١٨- ١٩٢١: ٣٩٧. والملك فيصل الأول من الثورة العربية الكبرى حتى تأسيس الدولة العراقية الحديثة. معن فيصل القيسي: ١٣٨.

قطع المنهاج الذي أعدّ لترشيحه واختياره شوطاً بعيداً في هذا المضمار"[١]؛ لضمان "الحفاظ على سيطرة بريطانيا قوية، وبأقل ما يكن من النفقات"[٢] حسب قول تشرشل. ثم صادق مجلس الوزراء البريطاني على قرارات مؤتمر القاهرة في (٢٢ آذار ١٩٢١م/ ١٢ رجب ١٣٣٩هـ). وقد ورد في جزء من محضر الاجتماع الوزاري أنه بعد ترحيب الحكومة البريطانية بالموافقة على ترشيح فيصل ملكاً على العراق: "مع مراعاة الشرط المزدوج وهو الاستعداد لقبول الانتداب كما عرضت أمام عصبة الأمم، وأنه لن يستغل منصبه للتآمر على الفرنسيين أو مهاجمتهم"[٣]، حينها غادر فيصل أنكلترا "منتشياً" إلى بورسعيد، وغادر لورنس صديقه وصديق تشرشل من القدس متوجّهاً إلى بورسعيد للقاء فيصل وإبلاغه بتفاصيل ما تم.

وقد أرخ الشيخ محمّد الخالصي في مذكراته تنصيب الإنكليز لفيصل ملكاً بقوله: "أحضروا فيصلاً وكان قد طرده الفرنسيون من سوريا... وهو يتلهف إلى اسم الملوكية، ففاوضوه على أن يكون له هذا الاسم في العراق لا غير، ويكون الحكم والسلطان بيد الإنكليز، بشرط أن يسعى بإخضاع كل مُعارِض للإنكليز، وإبادة كل قوة تقاومهم، وأن يأخذوا اعترافاً من العراقيين بقبول الانتداب الإنكليزي والوصاية"[٤]، فأطاعهم لِما عرضوه، ووافقهم على ما طرحوه.

ومن طريف ما يذكر في أمر تنصيب الإنكليز لفيصل ملكاً، ما أورده الصديق المقرب جدّاً من الملك فيصل الأول وعضده في حربه ضد العثمانيين ورئيس وزرائه الأسبق -وكان طريفاً- بأنه: "جاءه مرة ساسون حسقيل وزير المالية اليهودي، يشكو إليه بمرارة أنّ الملك فيصل (كذا) الأول قال عنه: (هذا رجل صنيعة الإنكليز)،

(١) العراق الحديث من سنة ١٩٠٠ إلى سنة ١٩٥٠. سابق: ١/ ٢١٢.

(٢) مذكرات رستم حيدر المستشار الشخصي لفيصل والمرافق له في سفرته إلى لندن. تحقيق نجدة فتحي صفوة: ٣٥.

(٣) الثورة العراقية الكبرى. سابق: ٤٣٧. نقلاً عن التقرير البريطاني الخاص عن تقدم العراق خلال سنة ١٩٢١-١٩٣١: ص١٤.

(٤) بطل الإسلام. مذكرات الشيخ محمّد مهدي الخالصي: ١٨٦.

فأجابه جعفر -العسكري- ضاحكاً: (لماذا تغضب؟ فهو نفسه صنيعة الإنكليز أيضاً)"[١].

لقد ضمن المحتلون بموافقة فيصل على شروطهم ليس سيطرتهم على العراق فحسب، بل سيطرتهم على أبيه شريف مكة من خلاله "ومعنى ذلك السيطرة على المنطقة العربية بالكامل"[٢]. وبتعبير آخر: "لقد كان تشرشل يعتقد بأن تنصيب فيصل ملكاً على عرش العراق سيزيد من نفوذ الحكومة البريطانية عليه وعلى أبيه شريف مكة... وإنّ فيصل (كذا) يجب أن يدرك أنّ المنحة التي أُعطيت له، وأن الضمانات البريطانية التي أُعطيت لوالده... تتوقف كلها على سلوك فيصل نفسه"[٣].

وبمناسبة إشارة تشرشل إلى دور بريطانيا في دعم الشريف حسين؛ يحسن بي أن أذكر أنّ بريطانيا كانت دعمت ما سُمّيت بالثورة العربية الكبرى بزعامة الشريف حسين وأنجاله عسكريّاً وماديّاً وسياسيّاً وإعلاميّاً، فضلاً عن غيرها من أنواع الدعم الأخرى، قبل ثورته، وخلالها كما تقدم، واستمرت تدعمه وأنجاله بعد ذلك أيضاً.

ولو أردت أن أوثق الدعم المادي البريطاني فقط من بين أنواع الدعم البريطانية الأخرى -وقد كنت نقلت سابقاً عن ممثل الشريف حسين في القاهرة بعضاً من الدعم العسكري التسليحي والسوقي في رسائله للشريف حسين- فسأنقل أولاً ما دفعته قوات الشريف فيصل إلى قبيلة عربية واحدة قريبة من العقبة كي تساند في معركة واحدة هجوم قواته على (العقبة)، ناهيك عن غيرها من المعارك العديدة على طول خط العمليات من مكة المكرمة إلى سوريا، كأنموذج على حجم الذهب

---

(١) مذكرات جعفر العسكري: ١٨٦ نقلاً عن مذكرات الأمير عادل أرسلان: ١/ ١٣.

(٢) شيعة العراق وبناء الوطن. سابق: ٥٨١ نقلاً عن الملك فيصل الأول ودوره في تأسيس الدولة العربية الحديثة د. عبد المجيد كامل التكريتي: ٣٣-٣٤.

(٣) ثورة العراق التحررية ١٩٢٠. سابق: ١٦، نقلاً عن كتاب: العراق دراسة في تطوره السياسي. آيرلاند: ٢٤٦.

الوفير الذي دفعته الحكومة البريطانية للشريف حسين ومنه إلى أنجاله لكسبهم وكسب معاركهم ضد العثمانيين.

يقول الباحث ديفيد مواري: "كانت الخطة هي إجراء اتصالات مع قبيلة (الحويطات) بالقرب من العقبة، وحشدهم للهجوم على المدينة -مقابل تسليمهم- أكثر من (٢٠,٠٠٠) عشرين ألف جنيه إسترليني من العملات الذهبية من أجل دفعها لرجال قبائل (الحويطات) ليهجموا على المدينة"[١].

ثم أُثَنّي بما كتبه الزعيم الصهيوني حاييم وايزمان رئيس دولة الاحتلال الصهيوني لاحقاً في مذكراته عن حجم الذهب الإنكليزي الذي شاهده في مقر الشريف فيصل بن الحسين خلال لقائه به سنة (١٩١٨م) وهو يتولى قيادة قوات عربية تحت قيادة عسكرية بريطانية ضد الدولة العثمانية.

يقول وايزمان: "وكان أدعى الأشياء إلى انتباهي وفرة جنيهات الذهب الإنكليزية هناك، وكان الذهب في ذلك الوقت من الأشياء النادرة الوجود بين الأمم المتحاربة، وقد نبهني وجوده إلى تلك الأكياس الثقيلة التي حملت معنا من السويس في الباخرة وكانت مملوءة جنيهات ذهبية"[٢].

ثم ألحقه بما "أورد برووس وسترايت باستناد إلى سجلات بريطانية عن تاريخ (المكتب العربي)[٣]، ظلت سرية لوقت طويل قبل الإفراج عنها، أورد

---

(١) لورنس العرب. يدفيد مواري: ٥٢.

(٢) مذكرات حاييم وايزمان: ٢٠٨.

(٣) المكتب العربي: أحد أقسام الاستخبارات البريطانية في القاهرة، أو أحد الأجهزة المنفذه للسياسة البريطانية في الشرق الأوسط، أنشئ في شباط سنة (١٩١٦م) أثناء الحرب العالمية الأولى في دار المندوب السامي البريطاني في القاهرة، وأغلق سنة (١٩٢٠م)، وكان الغرض منه جمع ونشر الدعاية والاستخبارات حول المناطق العربية في الشرق الأوسط. وقد أشار تقرير المكتب العربي إلى وجوب توجيه الأنظار إلى منطقة الشرق، حيث تعد قوات الثورة العربية الجناح الأيمن للقوات البريطانية، وتحدث عن ضرورة تدبير لقاء بين الحركة الصهيونية والقائمين على الثورة. وأكد كلايتون رئيس المكتب العربي: إنّ موقف ملك الحجاز والأمير فيصل المتعاطف سينجح كثيراً في تنسيق السياستين الصهيونية والعربية (ويكيبيديا، والموسوعة الفلسطينية). وربما كان هذا من دواعي تفضيل فيصل على غيره من أنجال الشريف حسين لعرش العراق. وكان ضابط الاستخبارات =

تفاصيل المبالغ التي دفعت، بدءاً (بالعشرين ألف جنيه إسترليني) التي تسلمها حسين كقسط استهلالي، والتي تضخمت لتصبح (١٢٥,٠٠٠ جنيه إسترليني) معونة تدفع شهريّاً، ومعها منح مالية متكررة من الجنرال السير فرانسيس رينالد وينجيت سردار الجيش المصري والحاكم العام للسودان. (حدث في إحدى المرات أن منحه وينجيت (٣٧٥,٠٠٠ جنيه إسترليني لتغطية نفقات الحج). وبالرغم من ذلك اشتكى شريف مكة من أنّه ما زال بحاجة إلى (٧٥,٠٠٠ جنيه إسترليني) إضافي كل شهر تم منحها إياها على مضض؛ وذلك لأن -(وفق ما قاله وسترايت)- المسؤولين البريطانيين كانوا يعلمون أن معظم الذهب قد اختفى ببساطة"[١].

وقد كان أشار ضابط الاستخبارات البريطاني (العقيد لاحقاً) لورنس مرة خلال سعيه الحثيث لموافقة الشريف حسين على موقف أراد منه أن يوافق عليه في قضية حساسة، فرفض الشريف حسين ذلك بقوة، وأصر على رفضه، وإذ عجز لورنس عن إقناعه بما أراد منه اضطر إلى إقناعه بطريقة أخرى. يقول لورنس "قررت أن استنجد بـ(وينجيت) و(اللنبي) مموليه"[٢] فكان له ما أراد.

أما الباحثان: كارل إي . ماير و شارلين بلير بريزاك، فقد نقلا أن الشريف حسيناً شريف مكة كان يتقاضى مبلغ: "٢٠٠,٠٠٠ جنيه إسترليني ذهب شهريّاً، وأطناناً من الأسلحة"[٣].

= البريطاني لورنس المستشار المفضل للشريف فيصل أحد العاملين في المركز، وكان يتولى الإشراف على رسم الخرائط وطباعتها... وترميز البرقيات وفك تشفيرها، وإجراء مقابلات مع السجناء العرب، وكتابة التقارير، وإعطاء المعلومات، وتجميع ملفات تعريف للقادة العسكريين والسياسيين العثمانيين، وكتابة التقارير عن الأراضي العثمانية بحكم معرفته السابقة بها، كما كلف بعدد من المهام في بلاد ما بين النهرين لصالح كل من القيادة العامة والمكتب العربي الاستخباري، فلم يقتنع طموحه بذلك حتى وجد أخيراً ضالته حين أصبح مستشاراً خاصاً للشريف فيصل خلال العمليات العسكرية والمفاوضات الأممية. وكان له دور في ترشيح فيصل لعرش العراق في مؤتمر القاهرة. (ينظر لورنس العرب. ديفيد موري).

(١) اختراع الشرق الأوسط الحديث. صناع الملوك. سابق: ٢٩٤.

(٢) أعمدة الحكمة السبعة. لورنس: ٣٧٤.

(٣) اختراع الشرق الأوسط الحديث. صناع الملوك. سابق: ٣٤٢.

المبحث الثاني

مشكلة تسويق الإنكليز لفيصل ملكاً على العراق

واجهت البريطانيين -بعد أن تم اختيارهم لفيصل ملكاً على العراق كأفضل مرشح لهم ضامن لمصالحهم ومجيب لأوامرهم- مشكلة تسويقه للشعب العراقي ولدى شركائهم الفرنسيين، ذلك "أن الساسة البريطانيين كانوا يخشون من معارضة فرنسا له"[1] **أولاً**، وموقف بعض المسؤولين البريطانيين في العراق حينذاك المعترضين على ترشيحه **ثانياً**، وموقف قسم من المدن العراقية المهمة من ترشيحه **ثالثاً**. وسأتناولها تباعاً وكما يلي:

١. موقف الفرنسيين من ترشيح فيصل ملكاً على العراق

لخص الباحثان كارل إي. ماير و شارين بلير بريزاك مشكلة تسويق فيصل للفرنسيين بقولهما: "كانت ما زالت تواجههم مشكلة تلميع فيصل؛ لأن التضامن الفرنسي البريطاني كان قد تحلل مع مقدم السلام، ومن ثَمّ لم تكن إعادة بعث فيصل الذي كان الفرنسيون قد طردوه من سوريا مؤخراً لِتَلْقى القبول من وزارة الخارجية الفرنسية. كان القائم بالأعمال الفرنسية قد حذر من أن تتويج فيصل سينظر إليه على أنه عمل غير ودّيّ تجاه فرنسا... لكن كانت الفكرة هي أن الفرنسيين لن يكون بوسعهم المعارضة إذا بدا الأمر وأن العراقيين هم من اختاروا فيصل (كذا) تلقائيّاً. والحل كذلك فكيف يكون للبريطانيين مبرر للاعتراض على ترشيحه. استعلم تشرشل ما إن كان بوسع كوكس وبيل أن يجريا استفتاء شعبيّاً تأتي نتائجه في صالح فيصل. سأل: أبستطاعتكما التأكد من أن يتم اختياره محلّيّاً؟... ترك لكوكس وبيل أمر إجراء استفتاء عام وإدارة مسرحية دخول فيصل منتصراً إلى العراق"[2].

---

(١) لمحات اجتماعية من تاريخ العراق الحديث. سابق: ٦/ ٤٥.

(٢) اختراع الشرق الأوسط الحديث. صناع الملوك. سابق: ٢٢٥-٢٢٦.

ومن أجل أخذ موافقة الفرنسيين على تنصيب فيصل ملكاً على العراق؛ كتب اللورد كرزن وزير الخارجية البريطاني حينها في (٢٣ ذي القعدة ١٣٣٨هـ/ ٨ آب ١٩٢٠م) إلى فرنسا "يسألها هل لديها اعتراض على تنصيب فيصل في العراق، فردت الحكومة الفرنسية تقول: إنها تعترض على ذلك كل الاعتراض. وأخذ الفرنسيون يشوهون سمعة فيصل لدى الإنكليز لكي ينفروهم منه، فاتهموه بأنه ذو وجهين، وقالوا للإنكليز: لا تأمنوا من فيصل فإنه كان يفاوضنا سرّاً من وراء ظهركم في أثناء حكمه في سوريا للتعاون معنا ضد السلطة البريطانية في العراق. وقال وزير الخارجية الفرنسية لرئيس الوزارة البريطانية: إن فيصل (كذا) ذو أخلاق ضعيفة وأنه خطر، فرد عليه رئيس الوزارة البريطانية قائلاً: إن فيصل (كذا) كما تصفه، ولكن شيوخ العراق يريدونه"[1].

يذكر أنّي لم أعثر على أي دليل مادي يذكر أن شيوخ العراق في زمن هذه المراسلة كانوا قد اختاروا فيصلاً لعرش العراق، بل كان قسم منهم يطالبون بترشيح أحد أنجال الشريف حسين من دون تحديد اسم معين منهم، وبعض من هذا القسم كانوا يسمّون عبد الله لعرش العراق، وقد أثبتوا ذلك في مضابطهم العديدة المرفوعة إلى المحتلين الإنكليز.

ولذلك تفاجأ شيوخ الثورة اللاجئون بعد انتهاء الثورة إلى الحجاز يومها بطلب الشريف حسين منهم -في (الثاني والعشرين من شهر شعبان ١٣٣٩هـ/ ١ مايس ١٩٢١م)- الموافقة على استبدال عبد الله بفيصل؛ لأن الإنكليز يريدونه لعرش العراق.

***

٢. موقف بعض المسؤولين البريطانيين المعترضين على ترشيحه

يذكر المؤرخون أن أول عرض غير رسمي تلقاه فيصل من الحكومة البريطانية بترشيحه لعرش العراق كان في (٢٦ ربيع الثاني ١٣٣٩هـ/ ٧ كانون الثاني ١٩٢١م)،

(١) لمحات اجتماعية من تاريخ العراق الحديث. سابق: ٦/ ٤٥-٤٦.

حيث "كانت السياسة البريطانية قد استقرت آنذاك وفقاً لاتفاق تم أثناء مؤتمر رفيع المستوى بالقاهرة في مارس ١٩٢١، على خلق عرش لفيصل بالعراق، وتنصيب عبد الله شقيقه الأكبر على شرق الأردن التي أُنشئت مؤخراً. وهكذا حدث أن طلب كوكس من فيلبي -وكان يومها مستشاراً لوزارة الخارجية في الحكومة العراقية المؤقتة برئاسة عبد الرحمن النقيب- مرافقة فيصل في أول جولة له بالعراق للتعرف على رعاياه الجدد، ووفقاً لِما قاله شخصياً فإن فيلبي أخبر فيصل (كذا) أنه من شبه المؤكد أن يخسر في الاستفتاء النزيه الذي وعد البريطانيون بإجرائه في العراق"[١].

يقول د. علي الوردي ناقلاً عن علي جودت الأيوبي متحدثاً عن ساعة وصول فيصل ووفده إلى الحلة قوله: "إن برترام توماس دخل على فيصل بحضور الأيوبي والمرافق صبيح نجيب، ووجه إليه بكل وقاحة هذا السؤال (ليش جنابك جيت إلى العراق؟) فرد عليه فيصل (لماذا تسألني؟) فقال توماس: (لأن الأهالي لا يريدونك)، فرد عليه فيصل: (ولماذا تريد أن تتدخل أنت بيني وبين الأهالي؟). فقال توماس: (حتى أخبرك)، فكان رد فيصل الأخير عليه (لست بحاجة إلى خبرك، وسوف ترى ما إذا كانوا يريدونني أم لا)، وعند هذا خرج توماس"[٢].

وقد تحدثت سابقاً كيف أن استقبال فيصل كان فاتراً في النجف الأشرف وكربلاء بعد عدم موافقة المرجعين صاحبي السماحة السيد أبو الحسن الأصفهاني والشيخ محمد حسين النائيني، بل وغيرهم من علماء وزعماء الثورة في النجف الأشرف والشامية والسماوة والرميثة وربما غيرها - على تسنّمه لعرش العراق.

ثم "حينما عاد فيلبي إلى بغداد استدعاه كوكس إلى مكتبه، وقال له يبدو أن الأمور لم تكن على مايرام بينه وبين فيصل الذي اشتكى بمرارة من موقفه.. أجاب فيلبي.. إن البريطانيين كانوا قد وعدوا العراقيين باستفتاء، والجميع كانوا يعلمون

(١) اختراع الشرق الأوسط الحديث. صناع الملوك. سابق: ٣٤٨.

(٢) لمحات اجتماعية من تاريخ العراق الحديث. سابق: ٦/ ٨٨-٨٩. نقلاً عن كتاب: ذكريات. علي جودت الأيوبي: ١٤٤-١٤٥.

أنه ليس ثمّة فرصة لفيصل كي يفوز، وأنه قد أخبره ذلك بصراحة.. لكنه لا يفهم لِمَ لم تُعيّن الحكومة فيصل (كذا) ملكاً بأسلوب صريح ومباشر.. بدلاً من إصرارها على مهزلة الانتخابات؟!"[١].

وقد يدعم رأي فيلبي ما ذهب إليه الباحث حنا بطاطو بقوله: "لم يكن هنالك ما يربط فيصل (كذا) الأول برعاياه، فملكيته كانت جديدة، وتفتقر إلى جذور تنتمي إلى تاريخ العراق وتقاليده تمدّها بالتغذية اللازمة أو تمنحها تلك القوة غير الملموسة التي هي الهيبة... صحيح أنّ فيصل (كذا) كان أيضاً بطل ثورة مكة، ولكن عراقيين كثيرين كانوا قد شكّوا دوماً بهذه الثورة. وفي وقت متأخر، في (تموز ١٩٢٣-١٣٤١هـ) صيغت عريضة تحمل أختام (٤٠٠) شخص تناشد الخليفة العثماني إنقاذ العراق من الأجانب، ومن فيصل وأبيه الذي جاء ليسيطر على المسلمين بالمحاربة في صفوف الحلفاء، وتفكيك المسلمين، تحت راية القومية العربية، خلافاً لأمر الله القائل بأن المسلمين إخوة، ومما له مغزى أن خطبة الجمعة في جوامع بغداد استمرت حتى العام (١٩٢٤) تدعو المصلين إلى الصلاة من أجل الخليفة العثماني بصفتيه الروحية والزمنية، بالرغم من احتجاجات فيصل بأن إبقاء الخطبة بهذه الصيغة يشكّل إهانة له"[٢].

غير أن "ما كان أكثر تخريباً للسلطة المعنوية للتاج هو حقيقة أنها كانت تستمد أصول قوتها من إرادة غزاة العراق، ولقد حاول الإنكليز أن يخفوا عن الشعب أنهم هم الذين اختاروا فيصل (كذا) للعرش، وبذلوا ما في وسعهم ليكون انتخابه هادئاً، وبلا تباهٍ قدر الإمكان"[٣]، حسب ما أراده مهندسو ترشيحه من البريطانيين لينضجوا بذلك "طبخة الملكية". كما أسماها د. علي الوردي في لمحاته.

لقد رسمت برقية المندوب السامي البريطاني السير بيرسي كوكس المرقمة (٢٥٠) إلى وزير خارجيته لشؤون المستعمرات في (٢٤ شوال ١٣٣٩هـ/ ١ تموز

(١) اختراع الشرق الأوسط الحديث. صناع الملوك. سابق: ٣٤٨.

(٢) العراق. الكتاب الأول. سابق: ٣٥٩

(٣) المصدر السابق نفسه: ٣٥٩-٣٦٠.

١٩٢١م) صورة ذلك الإخفاء والتمويه على المواطنين بشأن ترشيح بريطانيا لفيصل.

يقول كوكس متحدثاً عن ترشيح فيصل ونصيحته له: "بما أنه أرسلته حكومة جلالته مرشحاً بريطانيّاً، فعلينا أن نقوم بالعمل عنه، ولكني بيّنت له... من الممكن مبدئيّاً أن يتظاهر بأنه مرشح من الشعب بمساندتنا، وليس العكس، وإلّا سيكون عرضة للهجوم على أنه دمية بريطانية"[١]. ولكنه من ناحية أخرى بات يكرر باستمرار "إنه يعدّ إقامة دولة عربية من غير مساعدة بريطانيا أمر مستحيل. وبذلك أثّر تأثيراً حسناً في المعتدلين"[٢] ما طمأنهم بأنه لن يقع بأيدي المتطرفين.

أما كيف تمت "طبخة الملكية" فهذا ما سيتضح فيما يأتي:

***

٣. المسؤولون البريطانيون يرون خطورة انتخاب مجلس وطني عراقي ليختار ملكهم على سياستهم المحددة سلفاً بتنصيب فيصل ملكاً

كان من المفروض وفق البيانات الرسمية البريطانية الصريحة أنّ مجلساً تأسيسيّاً منتخباً من قبل الشعب، يمثله تمثيلاً حقيقيّاً – هو من ينتخب رأس الدولة، و"يدير دفّة السفينة. فلما حدث للأمير فيصل في سورية ما حدث، وعقد مؤتمر القاهرة للبتّ في القضية العراقية؛ سأل أحد المؤتمرين عمّا إذا كان الملك المنوي تعيينه للعراق سينتخب من قبل مجلس يمثل البلاد كما قد تقرر سابقاً؟ فأجاب تشرشل... (ليس من المرغوب فيه القيام بهذا العمل، وأنّ المعتمد السامي في العراق سيعمل ما يراه مناسباً لانتخاب الملك، دون مجلس تأسيسيي أو تشريعي). إنّ كوكس كان مقتنعا بـ(أنّ محاولة عاجلة تتخذ لجمع المجلس سوف لا تكون ضربة قاضية على السياسة البريطانية، وعلى تنصيب أمير شريفي بمقتضى ما صادقت عليه الدوائر البريطانية حسب، بل سوف يسبب حدوث قلاقل جديدة إذا لم تتسبب

(١) العراق في سجلات الوثائق البريطانية ١٩١٤-١٩٦٦. سابق. المجلد الثاني ١٩١٨-١٩٢١: ٦٣٣.
(٢) المصدر السابق نفسه: ٦٣٥.

ثورة حقيقية)"[١]. ما يشير إلى قناعة كوكس بأن الانتخابات الممثلة لرغبات العراقيين حقّاً ستطيح بفكرة تنصيب فيصل ملكاً وستسبب بقلاقل وربما بثورة.

وإذ وصل فيصل إلى العراق بعث سي.سي.كاربت سكرتير السر برسي كوكس برسالة جوابية برقم (س د ١٦٣١) وتاريخ (٨ تموز ١٩٢١م) إلى سكرتير مجلس الوزراء حسين أفنان جاء فيها ما نصّه: "لا بدّ من انعقاد المجلس التأسيسي قريباً لسنّ قانون أساسي للبلاد، ولكن مطالب الأهلين تزداد يوماً فيوماً لفرصة ينتهزونها لتعيين حاكم للبلاد... وللحصول على ذلك بصورة سريعة، ينبغي إحداث طريقة سهلة وافية بالمرام. وفخامة المندوب السامي سيسهل جميع الوسائل التي يقترحها مجلس الوزراء للحصول على النتيجة المطلوبة والمتعلقة بهذا الأمر"[٢].

فكان "أن اجتمع مجلس الوزراء للحكومة المؤقتة في دار رئيسه السيد عبد الرحمن النقيب في (١١ تموز ١٩٢١م) وتلي كتاب سكرتير المعتمد السامي المثبت نصه أعلاه، وجرت المناقشة حوله فاقترح النقيب أن ينادي بالأمير فيصلا (كذا) ملكاً على العراق فوراً.

فاتخذ المجلس القرار التالي: (... بناء على اقتراح فخامة رئيس الوزراء المناداة بسمو الأمير فيصل ملكاً على العراق... وقرر أيضاً باتفاق الآراء إبلاغ هذا القرار إلى وزارة الداخلية لتذيع ذلك في جميع دوائر الحكومة الرسمية لإجراء اللازم"[٣].

***

٤. الآلية البديلة لإحراز موافقة العراقيين الشكلية على ترشيح فيصل ملكاً

تنفيذاً لوعد بريطانيا بالاستفتاء على تنصيب فيصل ملكاً، وضماناً منهم لتمريره بالموافقة، وبهدوء مخادع؛ ارتأى المحتلون عبر وزارة داخلية حكومة النقيب

(١) ما بين القوسين الكبيرين الأخيرين () نقله السيد عبد الرزاق الحسني في كتابه (تاريخ العراق السياسي الحديث. هامش رقم:١ من الجزء الأول الصفحة: ٢٢٦) عن كتاب "آيرلند ص٢٨٨ من الترجمة العربية للأستاذ جعفر الخياط.

(٢) تاريخ العراق السياسي الحديث. سابق: ٢٢٦-٢٢٧.

(٣) المصدر السابق نفسه: ١/ ٢٧٢.

"أن يُدعى الوجهاء والرؤساء في كل ناحية أو مدينة إلى اجتماع في مكان معين، فإذا تم الاجتماع نهض أحد المسؤولين ليتكلم عن الغرض من الاجتماع، ويذكر مناقب الأمير فيصل، وأهليته لتولي الملك، ثم يسأل الحاضرين: هل من معارض؟ فيجبونه.. لا.. لا. ثم يسألهم: هل توافقون؟ فيقولون: نعم.. نعم. وعند هذا يعرض عليهم ورقة المضبطة، وهي مطبوعة، ومعدّة سلفاً، فيوقعون عليها. وينتهي الاجتماع حسب المرام، إذ يعتبر ذلك بيعة من جميع السكان للأمير فيصل بالمُلك.

وهكذا كانت نتيجة بيعة فيصل بنسبة (٩٦٪) من أصوات المؤيدين لتنصيبه ملكاً، مقابل (٤٪) ضد انتخابه، "وهذه (٤٪) كانت أصوات الأتراك والأكراد في منطقة كركوك"[١].

لقد وصف أحد الباحثين صورة تزييف انتخاب الملك فيصل بقوله لـ"قد فُرض -فيصل- على العراقيين عن طريق استفتاء مشكوك بصحته، فقد رتّب التصويت لجان محليّة شُكّلت بالتعاون مع البريطانيين وسمح بالتصويت... ليس لمجموع الشعب، وإنما لبعضه المحدد سلفاً.

إنّ فقدان الأساس الشعبي للانتخاب جعل ما سمي بانتخاب الملك من قبل العراقيين صوريّاً شكليّاً وليس حقيقيّاً[٢].

يقول المؤرخ السيد عبد الرزاق الحسني: "هكذا تحققت أول مسرحية من مسرحيات الاستقلال التي مثلها الإنكليز في العراق ببراعة ما فوقها براعة"[٣].

وتروى في هذا الصدد قصة طريفة لها دلالتها، وهي أن مدير ناحية طاووق من لواء كركوك سمع... أنّ الإنكليز عدلوا عن ترشيح فيصل، فاحتار المدير في أمره... فلجأ إلى تنظيم مضبطتين: إحداهما بقبول فيصل، والثانية برفضه، وقد وقع الأهالي على المضبطتين معاً، وذهب بهما المدير إلى مستشار اللواء الكابتن ملر.

---

(١) دور الشيعة في تطور العراق السياسي الحديث. سابق: ٢٣٦.

(٢) ينظر: تاريخ العراق الحديث والمعاصر. د. محمد سهيل طقّوش: ١٣٢.

(٣) تاريخ العراق السياسي الحديث. سابق: ١/ ٢٣٢.

وحين سأله المستشار (أين المضبطة؟) أجابه: (أيهما تريد؟) وعرض عليه المضبطتين، فأخذهما المستشار كلتيهما"[١].

وبهذه المضابط ذات البيعة الصورية ازدادت قناعة فيصل بأنه ما كان يمكن أن يكون ملكاً متوّجاً لولا الإنكليز وساستهم.

***

٥. موقف المرجعية في النجف الأشرف وقسم من المدن المؤثرة من ترشيح فيصل ملكاً

إنّ ما يزيد مشكلة تسويق فيصل ملكاً على العراق تحفّظ المراجع وعلماء النجف الأشرف وكربلاء المقدسة على تنصيبه ملكاً، بأنّ موقفهم زاد على "مجرد التحفّظ إلى الجفاء والعداء الظاهرَين، حيث تناقل الناس إشاعات عن أن المجتهد الأكبر (السيد أبو الحسن الأصفهاني) كان قد أعلن عدم موافقته ورضاه لتنصيب الملك فيصل.

فمنذ أن تولى سماحته المرجعية العليا سنة (١٣٤٠هـ/ ١٩٢٢م) -بعد أن أعلنت بريطانيا انتدابها على العراق- كان "أول عمل قام به السيد في هذا التاريخ مطالبة الملك بإنهاء هذا العهد الذي ينافي كرامة المسلمين وكرامة العراق"[٢].

وباختصار: فقد "أدرك زعماء الشيعة وقادتها إدراكاً تامّاً أنّ الملك فيصلاً إنما يمثل استمرار الوجود البريطاني في العراق"[٣].

وقد بدا ذلك واضحاً من طريقة استقباله في المدن الشيعية التي قصدها من البصرة في أول وصوله للعراق.

---

(١) لمحات اجتماعية من تاريخ العراق الحديث. سابق: ٦/ ١١٣ نقلاً عن: تاريخ الوزارات العراقية. عبد الرزاق الحسني: ١/ ٤٣.

(٢) الزعيم الموهوب. سابق. منشور ضمن كتاب: السيد أبو الحسن الأصفهاني سيرته وأضواء على مرجعيته ومواقفه ووثائقه: ٣/ ٥٠٦.

(٣) دور الشيعة في تطور العراق السياسي الحديث. سابق: ٢٣١.

ففي أول ليلة لفيصل في النجف الأشرف وخلال مأدبة عشاء حافلة أقامها له خازن الروضة الحيدرية المقدسة السيد عباس الكليدار؛ خطب فيها الشيخ محمد باقر الشبيبي لسان حال زعماء الثورة إبان الثورة بمحضر المحتفى به الشريف فيصل قائلاً: "إنّ الثورة العراقية هي وليدة أفكار تحررية قديمة من زمن الأتراك، وإننا قد ضحينا بكل غالي (كذا) ورخيص، فلا يمكن أن نسلم ثمرة جهودنا الطويلة، وأتعابنا المريرة، إلّا بيد أمينة مخلصة، تحرص على استقلال بلادنا، ومصالحنا، وأهدافنا القومية والوطنية، ويقال إنّ فيصل (كذا) اعتبر هذه الكلمة موجهة ضده وامتعض منها"[١].

أقول: إنّ رفض المرجعَينِ -كل من سماحة السيد أبو الحسن الأصفهاني، وسماحة الشيخ محمد حسين النائيني- تنصيب فيصل ملكاً عندما زار النجف الأشرف وكربلاء كان له أثر بالغ في المدينتين المقدستين، حيث "كان استقباله فاتراً في المدن الشيعية المقدسة بكربلاء والنجف"[٢]، بعد أن "تنحّى علماء الشيعة عن لقائه... ففي كربلاء على الرغم من أن القائمقام الهندي سعى ما في وسعه لجعل الاستقبال استقبالاً لائقاً بما قام به من استعدادات، فإن أهالي المدينة تجاهلوا أمر هذا الاستقبال، وذلك بواسطة تعليمات صدرت إليهم من علمائهم هناك".

أما في النجف الأشرف فلم يقتصر كبار العلماء فيها على مجرّد التحفّظ على ترشيحه، بل تعدّاه إلى إظهار شيء من الجفاء والعداء الظاهرَينِ، فقد تناقل الناس إشاعات عن أن المجتهد الأكبر (آية الله السيد أبو الحسن الأصفهاني) كان قد أعلن عدم موافقته على تنصيب الملك فيصل. وهو ما "شكل له خيبة أمل، وبعكس ما كان يتوقع، ففي كربلاء وقف العلماء أول الأمر مبتعدين بشكل واضح، وفي النجف الأشرف كان الحال نفسه، إذ كانوا متحفّظين، إن لم يكونوا معادين"[٣].

---

(١) لمحات اجتماعية من تاريخ العراق الحديث. سابق: ٦/ ٨٩-٩٠.

(٢) اختراع الشرق الأوسط الحديث. صناع الملوك. سابق: ٢٥٦.

(٣) دور المرجعية الدينية وتشكيل الحكم الوطني في العراق. د. سيف عدنان ارحيم القيسي. بحث. ضمن دليل فعاليات وبحوث مهرجان الدفاع المقدسة الثقافي الثالث: ٢/ ٢١٩.

وقد "شاع ذلك بين الناس"[١]، وأيدته تقارير بريطانية نصت على "أن مجتهدي الشيعة ضد فيصل"[٢].

وبكلام موجز: لقد "أدرك زعماء الشيعة وقادتها إدراكا تامّاً أن الملك فيصل (كذا) إنما يمثل استمرار الوجود البريطاني في العراق"[٣] كما تقدم. مضافاً إلى ذلك ما تأكد من رفض سماحة الشيخ علي آل كاشف الغطاء، وسماحة الشيخ عبد الكريم الجزائري لهذا التنصيب طالبَينِ من الشيخ خزعل الكعبي برسائل مكتوبة ترشيح نفسه للعرش بدل الشريف فيصل كما تقدم.

إنّ هذا الرفض يلقي الضوء على موقف المرجع شيخ الشريعة الأصبهاني وكبار ممثليه ومستشاريه وفي مقدمتهم المرجعان الأصفهاني والنائيني، كما قد يلقي الضوء أيضاً على سبب عدم تنصيص مضبطتي النجف الأشرف والشامية الأولى والثانية على ترشيح أحد أنجال الشريف حسين لعرش العراق، خاصة وأن المضبطة حملت تواقيع المرجع شيخ الشريعة نفسه، والمرجعين السيد أبو الحسن الأصفهاني، والشيخ الميرزا محمد حسين النائيني.

غير أن ذلك لا يعني نفي وجود عالم أو شيخ أو وجيه من أهالي النجف الأشرف أو الشامية أو كربلاء أو غيرها، قد رشح أو رضي بترشيح الشريف فيصل، ولكني لا أتحدث إلّا عن الأعم الأغلب منهم، وليس عن الجميع.

ولعل من أوضح التعابير الموجزة لموقف كبار عشائر النجف الأشرف والشامية المعارض أو المجافي لترشيح الشريف فيصل لعرش العراق أسوة بموقف

---

(١) المرجعية الدينية العليا وموقفها من أبرز التطورات السياسية الوطنية والعربية ١٩٢١-٢٠٠٣. د. مقدام عبد الحسن الفياض. سابق: ١١٤، نقلاً عن موقف المرجعية الدينية في النجف الأشرف من التطورات السياسية في العراق ١٩١٤-١٩٢٤. إخلاص لفتة حريز الكعبي: ١٥٣.

(٢) المس بيل بين الفصول والرسائل. رهبة أسودي حسين: ٧٨.

(٣) دور الشيعة في تطور العراق السياسي. سابق: ٢٣١. وينظر: المرجعية الدينية وبناء الدولة العراقية الحديثة. مسلم عوض مهلل الخزعلي. بحث ضمن دليل فعاليات وبحوث مهرجان الدفاع المقدسة الثقافي الثالث: ٢/ ٣٤٧.

المرجعية، هو ما عبّرت عنه قبيلة آل فتلة وهي من أكبر القبائل الفراتية المشاركة في الثورة بزعامة الشيخ عبد الواحد آل سكر.

يقول الباحث جعفر الخليلي: "حين مرّ الملك فيصل في أول طوافه بالفرات هزجت قبيلة آل فتلة (بالهوسة) المعروفة، وهي تخاطب رئيسها الشيخ عبد الواحد، هازجة: (يوحيّد صج يومجبعينه)"[1]، معرّضين بسخرية لاذعة -يتقنها أهالي الوسط والجنوب جيداً- بالملك فيصل من جهة، ومشيرين بما تشي به أهزوجتهم إلى أن شيخهم الشيخ عبد الواحد هو المؤهل حقّاً والجدير بهذا المنصب -كونه من أهم قادة الجبهات العسكرية خلال ثورة العشرين، ومن أكثر ممولي الثورة بذلاً وسخاء- مصرّحين بوضوح بأنّ فيصلاً ليس أكثر من غطاء يحجب رؤية الملك الحقيقي للعراق، وهم الإنكليز.

إنّ هذا الموقف الرافض لتنصيب فيصل ملكاً كان حصل من دون أن يطّلع المراجع وكبار الزعماء والمشايخ والوطنيين على رأي الشريف فيصل في ثورتهم الوطنية الكبرى ثورة العشرين، تلك الثورة التي بذلوا فيها كل غالٍ ونفيس كما تقدم. أما لو كانوا اطلعوا على موقف فيصل من ثورتهم التحررية الكبرى لتعقّدت مشكلة تسويقه ملكاً أكثر مما بدا فيما تقدم بكثير.

أما ما هو هذا الموقف غير اللائق بالعراقيين الذي قاله فيصل سواء في جوابه عن سؤال وُجّه إليه عن ثورة العشرين أم في وصفه لشيعة العراق وهم الغالبية العظمى من العراقيين؟ فهو كما في أدناه:

***

٦. رأي فيصل المرشح للعرش بثورة العشرين، وذكر استعداده للاستعانة بالإنكليز ضد شعبه

لعل من الجوانب التاريخية الخفية على العديد من العراقيين قبل وخلال ثورة العشرين التحررية وبعدها، هو موقف ملكهم القادم فيصل غير المتفهّم، ولا الداعم

(١) هكذا عرفتهم. سابق: ١/ ٣٧٨.

للثورة العراقية ضد الاحتلال البريطاني. تلك الثورة التي قدمت آلاف الشهداء مقتطعة إياها من فلذات أكباد المجاهدين الثوار، وأكثر منهم من الجرحى والمعاقين ناهيك عن تدمير المدن والمزارع وتخريبها، تلك الثورة التي لولاها لَما كان فيصل ملكاً على العراق، بل ولا كان حلم بذلك أبداً في يوم من الأيام.

وإذا كان لي أن أحدّد موقف فيصل من ثورة العشرين، فليس هناك أدقّ وأوثق مما صرح به هو نفسه بعد أن وصل إلى لندن، حيث "أفضى يوم ٦ ديسمبر-١٩٢٠م- إلى صحافي إنكليزي بحديث تكلم فيه عن القضية العراقية، فكانت المرة الأولى التي تعرّض فيها لشؤون العراق، ومما قاله ... : "لقد نشأت ثورة العراق عن (سوء تفاهم)، فالعرب لم (يفهموا مقاصد بريطانيا).. نعم إن بين العرب زعماء كثيرين ما ارتابوا قط في نيات إنكلترا. و(أنا أشهد للبريطانيين بالنزاهة) و(شرف القصد) و(مكارم الأخلاق)، و(لكن لا ينتظر أن يدرك عامة الشعب ما يدركه زعماؤه)... وعلاوة على ذلك أن البريطانيين ما اتخذوا قط شيئاً من التدابير لإحباط (الدسائس) التي كان (أعداؤهم) يدسّونها لهم. فكان من جرّاء ما نشاهد من هذه الحالة التي (يؤسف لها)"[1].

فثورة العشرين من وجهة نظر فيصل لم تندلع للمطالبة باستقلال العراق من نير المحتلين البريطانيين استقلالاً تامّاً ناجزاً خالياً من كل شائبة احتلال كما صرحت بذلك وثائق الثورة الكثيرة، بل اندلعت الثورة نتيجة "سوء تفاهم" بين المجاهدين الثوار والمحتلين الإنكليز، ذلك أنّ العراقيين المجاهدين "لم يفهموا مقاصد بريطانيا" الحقيقية الخيّرة من احتلالهم لبلدهم، ولم يدركوا كُنه "نواياهم الطيبة" التي حدت ببريطانيا العظمى لأن تقدم مئات القتلى والجرحى والمعوقين، وأن تحضر لأن تستنزف هذه "النوايا الطيبة" ميزانيتها من أجل سواد عيون العراقيين.

ولم يكتفِ فيصل بذلك، بل أضاف إليه في تصريحه إلى الصحفي الأجنبي ما أكد فيه موقفه من الثورة والثوار بشهادة شخصية هي في غاية الغرابة، من خلال

(١) الثورة العربية الكبرى. سابق: ٢/ ٣٢٦-٣٢٧.

قوله: "أنا أشهد للبريطانيين بالنزاهة و(شرف القصد) ومكارم الأخلاق".

لذا سأترك التعليق على ما نسبه إلى المحتلين من صفات "النزاهة" و"مكارم الأخلاق"، وأقف على تحليله لغزو العراق بأنه كان نابعاً من "شرف القصد"، الذي لم يدركه الثوار من عامة الشعب العراقي.

بل ذهب فيصل بعيداً حين قال: "إنّ البريطانيين ما اتخذوا قط شيئاً من التدابير لإحباط "الدسائس" التي كان "أعداؤهم يدّسونها لهم"، متناسياً وهو المرشح لعرش العراق ما فعلته قوات الاحتلال البريطاني بالعراقيين والعراق مما تقدم ذكره.

ثم يختم فيصل حديثه بوصف مطالب "الأعداء" ويقصد بهم المراجع والعلماء والزعماء والثوار، بأنها من "الدسائس التي كان أعداؤهم -أعداء الإنكليز- يدسّونها" مما كان يجب على المحتلين الغزاة أن "يحبطوها".

ولم يكتفِ فيصل بذلك، بل وصف الشعب العراقي لمستشاره وصديقه البريطاني لورانس وصفاً لا يليق بالعراقيين.

يقول لورنس في برقيته السرية العاجلة إلى وزير الخارجية البريطاني لشؤون المستعمرات في (٦ شعبان ١٣٣٩هـ/ ١٥ نيسان ١٩٢١م) بعد أن تم اختياره لعرش العراق من قبل مستعمريه: "أجريت مقابلة مطولة مع فيصل اليوم سرية للغاية وهو يعد أن شعب العراق غير مهيّأ حتى الآن لحكومة مسؤولة، وإذا ترك تحت رحمة الشعب المحلي في جميع الأشياء فسوف تحل الكارثة، وأنه يطلب مساعدة بريطانية أحياناً ضد شعبه"[1].

وبقدر غرابة نظرة فيصل الدونية للشعب العراقي الواردة في الفقيرتين الأوليتين أعلاه، فقد كانت الفقرة الأخيرة أكثر غرابة وعدائية منهما في مقابل إرادة شعبه ومواطنيه، بحيث ذهب فيها بعيداً إلى حدّ أنه عرض عرضاً تبرّعيّاً منه على المحتلين الغزاة بأنه قد يستعين بهم ضد أبناء شعبه في وطن يستعد لتولي عرشه.

---

(١) العراق في سجلات الوثائق البريطانية. سابق: المجلد الثاني: ١٩١٨-١٩٢١: ٥٩٦-٥٩٧.

يقول السيد ضياء الدين بحر العلوم في مذكراته الخطية (ص١٣٩-١٤١) متحدثاً عن زيارة الملك فيصل الأول للنجف الأشرف وقول الملك فيصل لوالده:

"وددت أن اجتمع بحضرات العلماء الأعلام... وقد صحبت معي الحاج كاظم أبو التمن والسيد باقر رئيس التشريفات لإبداء الرأي من قبلهما إلى المرجعين السيد أبو الحسن، والميرزا حسين النائيني بالاجتماع معي... وبعد عرض الموضوع عليهما من قبل هذين الشخصيتين أظهرا أننا بعد قضية الشيخ الخالصي عزمنا على الابتعاد عن كل ما كان نقوم به قبلاً، وامتنعا من قبول شورهما، والآن بصورة خاصة أرغب أن تقوم أنت بذلك... فتوجه الوالد إلى دار السيد أبو الحسن الأصفهاني... وغبّ حضور المشار إليه -المرجع النائيني- فتح الحديث في الموضوع من قبله... فأظهرا للوالد أننا تعهدنا له بعدم التدخل في السياسة قبيل عودتنا لمّا أتى وزير المعارف الشيخ محمد حسن أبو المحاسن في قصر شيرين وطلب منا ذلك حتى يسمح لنا بالعودة إلى النجف بعد سفرنا إلى إيران. فما هذه الرغبة بالاجتماع؟ قال لهما الوالد... أرى أن الحكمة أن توافقوا على الاجتماع في الحرم الشريف حيث المشار إليه يرغب في عودة المياه إلى مجاريها... حينذاك أظهر المرجعان أن كلما أشرت إليه هو الصواب ونوافق على الاجتماع مع الملك عند الفجر في الحرم المطهر الشريف... قال لهما سمعاً... وفي الموعد المحدد سارع الوالد في الحضور في الحرم الشريف واستقبل المرجعين المشار إليهما والملك فيصل".

❀ ❀ ❀

المبحث الثالث

تنفيذ الملك فيصل لِما تعهد به للإنكليز

لقد أدرك فيصل بعد تنصيبه ملكاً على العراق إدراكاً عمليّاً ما كان يجب عليه أن يفعله للدولة البريطانية التي وصفها بـ"الصَّدِيقة العظمى"[1] ربيبة نعمته، أيّاً كان ذلك الفعل المطلوب منه فعله، اتفق مع مبادئه أم اختلف معها؛ لأنه "كان مديناً لهم بعرشه"[2] بدءاً، واستمراراً، وديمومة هو وأبوه الشريف حسين، ولذلك فقد "أطلق يدهم في إنشاء حكم بريطاني فعّال في العراق من دون تحديد مدة له، أو شروط، بل إنّه كان تفاهماً ساعد على جعل الوجود البريطاني هناك أمراً يستسيغه الرأي الإسلامي العام"[3].

وليس أدلّ على دور الملك فيصل في تنفيذ السياسة البريطانية في العراق؛ من قوله -أي: فيصل نفسه- للمندوب السامي البريطاني، متحدثاً بصراحة تامّة عن ذلك بما نصه: "أنا أداة للسياسة البريطانية، وإننا -حكومة صاحب الجلالة وأنا- نجد أنفسنا في القارب نفسه، وعلينا أن نغرق معاً أو أن نطفوا معاً، ولأنكم اخترتموني إن جاز التعبير فعليكم أن تعاملوني كواحد منكم، وأن تثقوا بي ثقة حكومة صاحب الجلالة بكم، وإذا أردتم نجاحي ونجاح سياستكم فمن الحماقة أن تحكموا عليّ باللعنة إلى الأبد في أعين الشعب بجعلي ألعوبة مكشوفة... وإني أتعهد بأن أسير بموجب مشورتكم في كل الأمور الهامة، ولكنّ فيصل (كذا) أصرّ على أن تنقل وجهات نظر المندوب السامي إليه شخصيّاً بصورة غير علنيّة، فإذا

---

(١) نص من بلاغ له إلى الشعب العراقي بمناسبة المصادقة على برتوكول المعاهدة العراقية البريطانية أصدره في (١٨ رمضان ١٣٤١/ ٤ أيار١٩٢٣). كتاب فيصل بن الحسين ومضات من سيرة الملك الزعيم. سابق: ٢٧٨. كما وصفها مرة أخرى بـ"حليفتنا العظمى" ينظر خطابه في تكريم المعتمد السامي البريطاني الجديد السير كلبرت كلايتون في ١٤ أيار ١٩٢٩. المصدر نفسه: ٢٨٨.

(٢) العراق. الكتاب الأول. سابق: ٢٠٦.

(٣) دور الشيعة في تطور العراق السياسي الحديث. سابق: ٢٢٤.

ما اتفق معها قدّمها للعراقيين على أساس أنها أفكاره"[١].

لقد كانت تبعية الملك فيصل للإنكليز واضحة لمن تابع تاريخ تلك الحقبة، فلم تستطع إخفاءها مواقفه المتذبذبة التي حاول في قسم منها مغازلة الوطنية والوطنيين، غير أنه سرعان ما كان ينكفئ عنها إلى خلافها لقاء أي توبيخ من مسؤول إنكليزي، أو توجيه، أو إنذار، أو قرار، أو نقد، أو عتب، حتى لو صدر من مثل المس بيل مثلاً، فضلاً عن المندوب السامي البريطاني، ناهيك عن وزير من وزراء بريطانيا المحتلة.

وسأستشهد على سبيل المثال بحديث للملك فيصل مع المس بيل، ثم بآراء ثلاثة من الباحثين إضافة لقوله هو نفسه عن نفسه، ذلك القول المتقدم ذكره سابقاً، وهناك غير من تقدم ذكره من الباحثين لا يسع المجال لسرد أقوالهم هنا[٢].

أما حديث الملك فيصل مع المس بيل فتدوّن هي تفاصيله خلال زيارتها عَتَباً منها عليه بتاريخ (٨ شوال ١٣٤٠هـ/ ٤ حزيران ١٩٢٢م)، نتيجة موقفه المعادي للميجر بيتس والمناصر للوطنيين في الناصرية.

تقول المس بيل خلال عتبها عليه ما يلي: "استشهدت بقضية الناصرية، فقلت له إنه كان على خطأ من الأول إلى الآخر في جميع ما فعل هناك... حصلت بيننا مناقشة عنيفة، قبّل يدي خلالها في فترات متقطعة، وقال إنه من واجبه أن يطمئن الوطنيين المتطرفين من جديد، بينما كنا نحن نرفض الاعتراف بهم بصورة متمادية، فأجبت بأن ذلك كان بعيداً عن الواقع... وقد استحصلت منه في الأخير إذناً بنشر تكذيب رسمي... إنّ فيصلاً أحب الناس لكل إنسان، غير أنه يفتقر بصورة مدهشة إلى قوة الشخصية... على المرء أن يتذكر بأنه يغيّر الاتجاه مع كل نفس... على أنه

(١) العراق. سابق. الكتاب الأول: ٣٦٠.

(٢) ينظر: شيعة العراق وبناء الوطن. سابق: ٥٩٨ نقلاً عن: العراق في سنوات الانتداب البريطاني. ألبرت ميخايموفتش منتشاشفيلي. ترجمة هاشم التكريتي. والثورة العراقية الكبرى سنة ١٩٢٠. سابق:٣٢٩. نقلاً عن فقيدنا الكبير مقال تأبيني. الأيام. العدد ١٢٤ في ١٠ أيلول ١٩٦٢م. وغيرهما أيضاً.

في قرارة نفسه، ومع كثير من الانحرافات عن الطريق يثق بنا... وهذا أقوى ممسك بيدنا معه"[١].

وأما ما أثبته المؤرخون في تبعية الملك فيصل للإنكليز في سياسته وقراراته، فقد كتب المؤرخ السيد عبد الرزاق الحسني ما يلي: "كان الحكم خلال ذلك وطنيّاً في الظاهر إنكليزيّاً في الواقع"[٢]، وكتب الباحث حنا بطاطو: "كان الإنكليز يحكمون العراق من خلاله -فيصل الأول- بالدرجة الأولى -لأنه- كان مديناً لهم بعرشه"[٣]، وكتب الشيخ علي الشرقي متحدثاً عن موقع الملك فيصل الأول في حفل التتويج، واستنتاجه المستقبلي لتبعيته للإنكليز بقوله: "وغريبٌ موقف فيصل في العراق من الساعة الأولى التي تصدّر فيها حفلة التتويج، حيث يجلس وبريطاني على يمينه، وآخر على شماله، إنه بين الحاكم السياسي العام، وبين القائد العسكري العام. وهكذا تلازمه هذه الإحاطة البريطانية إلى آخر عهده، بل إلى آخر الحكم الملكي"، مؤسساً بذلك "وضعاً وجهه وطني وباطنه أجنبي"[٤]، متحملاً لذع مرارات ذوي النعمة عليه بما كتبه المندوب السامي البريطاني السير برسي كوكس لحكومته متحدثاً عن الملك فيصل بقوله: "إنّ اجتماعاتي معه في الأشهر الأربعة الأخيرة كانت عبارة عن سلسلة من الانتقادات والتوبيخ اللذين وجهتهما إليه"[٥]. وهو ما حدا بأحد المؤرخين لأن يصف تأثير أوامر المندوب السامي البريطاني كوكس بقوله: "قبل صدور الإرادة الملكية بتكليف النقيب لرئاسة الوزراء، اطلع الوزراء المرشحون لشغل الحقائب الوزارية بواسطة دار الاعتماد على الخطة التي ستسير عليها الحكومة البريطانية في تسيير دفّة الحكم، وتم ذلك عن طريق كتاب غير رسمي بعثه المندوب

(١) العراق في رسائل المس بيل. سابق: ٤٥٧-٤٥٩.

(٢) العراق قديماً وحديثاً: ٣٧. وتنظر أيضاً بصدد بيان موافقة فيصل على تنفيذ صك الانتداب في المصدر نفسه: ٣٢.

(٣) العراق. الكتاب الأول. سابق: ٢٠٦.

(٤) الأحلام. سابق: ٢١٦ و١٧٧ على التوالي.

(٥) العراق تأسيس النظام الملكي وتجربته البرلمانية تحت الانتداب البريطاني. د. محمّد مظفر الأدهمي: ٨٥.

السامي السير برسي كوكس إلى الملك فيصل. ولو ألقينا نظرة على المراسلات بين دار الاعتماد والبلاط الملكي نجد أن برسي كوكس أثناء تواجده بالعراق لم يترك محوراً من محاور السياسة العراقية دون الاطلاع عليه، ومن ثم محاولة التأثير على مضمونه، لا بل حتى وإن اقتضى الأمر الإيعاز بعدم رغبة دار الاعتماد بنشره أو اعتماده من قبل حكومة العراق.

من جهة أخرى... لم يكن باستطاعة فيصل أن يأمر بشيء ما لم يأخذ بنظر الاعتبار وجهة النظر البريطانية"[١]، حتى وصل أمر فرض موقف المندوب السامي البريطاني كوكس رأيه على الملك فيصل، وإلزامه به، بل وتوهينه اللاذع له – إلى حد لا يرتضيه لنفسه أي عزيز نفس، بل أي مسؤول صغير، كالتدخل في أمور جزئية شخصية من قبيل عدم إذن المندوب السامي البريطاني نشر مقابلة صحفية للملك فيصل في وسائل إعلام محلية، وهو ملك متوج.

يقول الوزير السابق حسين جميل: "أعد الملك فيصل مقابلة صحفية لتنشر في الصحف المحلية عن المعاهدة والانتداب، وكان ذلك بعد موافقة مجلس الوزراء على مشروع المعاهدة وقبل نشرها، فمنع المندوب السامي نشر الحديث، طلب الملك من المس بيل التوسط لدى المندوب السامي لنشره، ولكن الحديث لم ينشر"[٢].

نعم، لقد وفى الملك فيصل للإنكليز بما تعهد لهم به، فسار بسياسة تبعيّة مشهودة، وإن تخللتها مواقف تحسب له، خلالها، لا عليه، أو صاحبَتْها مشاكسات تشهد له لا عليه، لَيتَه ناضل من أجلها نضال ملك متوّج لشعب أبيّ غيور، شعب طالما وقف بصلابة وبطولة في سوح المنازلة والقتال ضد دولة من أقوى دول العالم غزته بطائرتها وآلياتها المدرعة وجيشها الجرار وبوارجها وسفنها والألاف من جنودها، فقاوم هذا الشعب الأبيّ بعناد وتحدٍّ في أصعب الظروف وأقساها، مجاهداً

(١) إنكلترا في حياة فيصل الأول. يعقوب يوسف كوريّة: ١٤٣-١٤٤.

(٢) العراق. شهادة سياسية. ١٩٠٨-١٩٣٠. سابق: ٩٨ نقلاً عن رسالتي المسل بيل المؤرختين ١٦ و١٧ تموز ١٩٢٢. في كتاب بورغوين: ٢٨١ و٢٨٤.

لدينه، ومبدئيته، وهويته العربية الإسلامية، ووطنيته، واستقلال بلده، وحريته في تقرير مصيره، متحملاً جرّاء ذلك الأهوال والويلات والمصائب والشدائد والمحن.

ونتيجة لتبعية موقف فيصل للحكام المحتلين من جهة، وموقف المرجعية الدينية والشيوخ والثوار الوطنيين من الاحتلال والمحتلين التي جسدتها ثورة العشرين من جهة ثانية؛ فقد بدت مواقف الملك فيصل المخالفة لإرادة شعبه ومرجعيته وقادة ثورته تتضح لدى الوطنيين تدريجيّاً، فمذ نودي به ملكاً على العراق في (يوم عيد الغدير الأغر من سنة ١٣٣٩هـ/ ٢٣ آب ١٩٢١م)، نظر إلى قوة المراجع بتوجس، بل عمل على اجتثاثها[١] والوقوف ضد نشاطاتها الوطنية، رغم أنه اعترف قبل تتويجه بما أسداه وبذله أبناء المدينتين المقدستين النجف الأشرف وكربلاء وفي مقدمتهم المراجع والزعماء والثوار جميعاً من أجل تحرير العراق من الاحتلال والانتداب، وذلك خلال زيارته للنجف الأشرف بعد استيراده من الحجاز، وقبل وصوله منها إلى بغداد بقوله: "في الوقت الذي يسوؤني أن أرى ما مُنِيَ به الفراتيون، وبالأخص مدينتي النجف وكربلاء، وما والاهما من المدن والقبائل الثائرة من جرّاء نهضتهم العربية الخالصة التي ضحوا فيها -بـ-كل غالٍ ورخيص، والتي أفسحت المجال الواسع لبلوغ أمنيتي بعد أن تعذّر علينا البقاء في سوريا... ويسرّني أن أعبر عن شعوري الخاص نحو تضحياتكم الثمينة، ودمائكم السائلة في هذه الأودية التي لا شك وأنها مقدمة لنجاحنا الباهر في سبيل ضالّتنا المنشودة"[٢].

أقول: على الرغم من هذا التصريح الواضح الجلي لفيصل، فإنه سرعان ما قلب للمرجعية وثوارها المبدئيّين وشيوخها وسادتها الأحرار ظهر المجنّ؛ لأن الإنكليز الذين توّجوه ملكاً كانوا يريدون منه ذلك، فجاءت مواقفه منهم، تبعاً لمصالحه

---

(١) ينظر: ما دار بينه وبين السير بيرسي لورين الوزير البريطاني المعين حديثاً لدى إيران خلال اجتماعه به. شيعة العراق. سابق: ١٤٨-١٤٩.

(٢) فيصل والعتبات المقدسة. بحث. الحاج عبد المحسن شلاش. مجلة آفاق نجفية. العدد عشرون. السنة الخامسة. ١٤٣١هـ/ ٢٠١٠م: ص١٤٢.

الشخصية، ومجاراة لرغبات وضغوط دولة الاحتلال التي جاءت به -وهو غير عراقي- لتلبسه تاج العرش العراقي.

وفيما يلي بعض الأمثلة على ذلك:

١. موافقة الملك فيصل حسب قول المؤرخ البريطاني لونكريك على "العرض الذي قدمته الحكومة البريطانية في الإعراب عن العلاقة الإنكليزية العراقية، في صيغة معاهدة بينهما، بدلاً من الحكومة الانتدابية المتستر عليها، وقد حظي -العرض البريطاني- بمصادقة الأمير فيصل عليه قبل وصوله إلى العراق... لإبقاء -الانتداب- مخفيّاً عن الأنظار"[١]. بسبب المعارضة الشديدة للانتداب من قبل المرجعية الدينية والوطنيين العراقيين بل من عموم الشعب العراقي، الذين "أعلنوا أن إراقة الدماء ستكون ثمناً بخساً يدفعونه للاستقلال، وأن الحرية تؤخذ ولا تعطى، وأنّ الثورة سواء أنجحت أم أخفقت هي الطريق الوحيد، لا الأفضل في إنجاح قضية الحرية، وقد بدأ العراقيون الوطنيون بعد إعلان الانتداب مباشرة دعوتهم التي أدت إلى ثورة ١٩٢٠"[٢].

وقد كانت المس بيل كتبت تتحدث عن أهمية عدم ذكر "الانتداب بالمرّة والاستعاضة عنه بمعاهدة تعقد مع الدولة العراقية عند تشكيلها... فكلمة الانتداب كلمة غير مستساغة... -كما- أنّ فيصلاً سيصرّ في النهاية على طلب المعاهدة بدل الانتداب. وقد سنحت لنا الفرصة بأن نقوم بحركة بارعة فنعطي من تلقاء أنفسنا ما سنضطر لإعطائه إذعاناً لطلبه بالتأكيد"[٣]. لقد كتبت المس بيل ذلك بعد أن قرأت الساحة العراقية والسورية المستهجنة للفظة الانتداب، كونها مستفزة لمشاعرها، منتقصة من أهليتها على إدارة شؤون بلدها ومواطنيها الأباة الأعزة الكرام.

---

(١) العراق الحديث من سنة ١٩٠٠ إلى سنة ١٩٥٠. سابق: ٢٢٩.

(٢) مشكلة الموصل. دراسة في الدبلوماسية العراقية-الإنكليزية-التركية وفي الرأي العام. سابق. وما بين الأقواس الكبيرة نقلاً عن صحيفة الاستقلال العراقية في عددها المؤرخ في ٢٣ حزيران ١٩٢٢.

(٣) العراق في رسائل المس بيل. سابق: ٢٢٢.

لقد ورد في المسودة الأصلية المحالة إلى مجلس الوزراء البريطاني بتاريخ (٣٠ ذي القعدة ١٣٣٨هـ/ ١٥ آب ١٩٢٠م) المتضمنة تعيين سير بيرسي كوكس مندوباً سامياً للعراق ما يلي: "قررت حكومة جلالته تعيينك مندوباً سامياً للعراق... أنت تعرف أن برقية وصلت من وكيل الحاكم المدني في العراق يقترح ويؤيد الحاكم العام ذلك تأييداً قويّاً أن يمنح الشريف فيصل إمارة العراق... بشرط... أن يكون الشريف فيصل مستعداً من حيث المبدأ بقبول بريطانيا دولة منتدبة، ويوافق على تشكيل انتداب على وفق الخطوط المرسومة توّاً بعصبة الأمم... ومن المحتمل أن الشريف فيصل (كذا)... أثناء قبوله من حيث المبدأ بالانتداب ببريطانيا الدولة المنتدبة، أن يلحّ على التعبير عن شروط الانتداب في شكل معاهدة. وإذا كان الأمر كذلك فإن حكومة جلالته ستكون مستعدة لتنفيذ الاقتراح"[١].

أخلص من ذلك إلى أن الحكومة البريطانية وليس فيصلاً، هي من اقترحت استبدال كلمة (الانتداب) بكلمة (المعاهدة)، فوجدت هوى في نفس فيصل الكاره للفظة الانتداب والمبغض لها.

وقد أشار إلى ذلك فيصل نفسه في أوراقه[٢]، وذلك خلافاً لِما هو المتداول عند قسم من المؤرخين من أن فيصلاً هو من اقترح ذلك.

ويدعم هذه النتيجة التي انتهيت إليها ما ذكره المؤرخ السيد عبد الرزاق الحسني بقوله: "وكان مستر مونتاكو وزير الهند قد اقترح على -حكومته- الحكومة البريطانية في السابع عشر من شهر مايس ١٩٢٠ أن تعقد مع العراق معاهدة توضح الخطوط الأساسية للعلاقات بين الطرفين، وتتضمن بنود الانتداب ومبادئه كما عهد به مجلس الحلفاء الأعلى قبل شهر، لتقضي على الغموض الذي كان يكتنف هذه العلاقات، وتوسس حكماً واضحاً يدين لها بالولاء، غير أنّ اللورد كرزن وزير الخارجية البريطانية لم يُصغِ إذ ذاك إلى هذا الاقتراح فأهمل.

(١) العراق في سجلات الوثائق البريطانية ١٩١٤-١٩٦٦. سابق. المجلد الثاني ١٩١٨-١٩٢١: ٣٩٧.
(٢) ينظر: أوراق الملك فيصل الأول ملك العراق: ١٥.

فلما عهد منصب (وزير المستعمرات) إلى مستر تشرشل، ونيطت به شؤون العراق؛ بعث الاقتراح المذكور من مرقده معتقداً أنّ إدارة هذه البلاد من قبل حاكم عربي يقنّع بالسلطة التنفيذية، ويؤازه الشعب بصورة علنية، فيكون مربوطاً بعرفان الجميل، وضامناً لعقد معاهدة تُصاغ فيه بنود الانتداب صوغاً، وتؤمّن فيها المصالح البريطانية العامة، ويرعاها الحاكم العربي المذكور بنفسه؛ أفضل كثيراً من أن تحكم حكماً مباشراً يكلّف دافع الضريبة البريطاني كثيراً، ويؤدي إلى انتشار روح الكراهية والعداء للسلطة الحاكمة".

ويضيف السيد عبد الرزاق الحسني قائلاً: "فاتصل بالأمير فيصل وفاوضه بما يكنّه ويرتأيه. وبعد أن أطلعه على مشروع الانتداب البريطاني على العراق، ومسؤوليات الحكومة المنتدبة تجاه عصبة الأمم، وعلى المصالح البريطانية فيه، وضرورة نسيان المتاعب التي سببها له -لفيصل بإسقاطه لحكمه في سوريا وإخراجه منها بالقوة القاهرة-، وطمأنة فرنسا بعدم إزعاجها بمحاولات الانتقام. والظاهر أنّ فيصل (كذا) اقتنع بكل ما سمعه من تشرشل. فقال له الوزير البريطاني: إنّه يعد بعقد معاهدة بين بريطانية والعراق تقوم مقام الانتداب إذا قدر له أن يكون الحاكم على العراق. فاستحسن الأمير -فيصل- هذا الحل ووافق عليه"[1].

ويتضح من هذا النص جليّاً أنّ بريطانيا وليس فيصلاً -كما انتهيتُ إليه- هي التي اقترحت صيغة المعاهدة المتضمنة لبنود الانتداب والمتسترة عليه أمام العراقيين المعارضين للانتداب، وليس فيصلاً هو من اشترط على بريطانيا ذلك فوافقت عليه.

ويترتب على ذلك -خلافاً لِما قد يُعتقد- أن المدة الفاصلة بين تنصيب فيصل ملكاً على عرش العراق، ثم تشكيل الحكومة العراقية، ثم الاتفاق على صيغة المعاهدة المراد إبرامها، ثم التوقيع عليها ثم صدورها، كل هذه المدة الزمنية هي في حقيقتها مدة (انتداب) بريطاني صريح على العراق، وليست مدة (معاهدة مقنّعة بقناع الانتداب)، وهو ما صرحت به برقية بعث بها وزير الخارجية لشؤون المستعمرات

(١) تاريخ العراق السياسي الحديث. عبد الرزاق الحسني: ١/ ٢٠٧-٢٠٨.

البريطاني إلى المندوب السامي البريطاني في العراق برقم (٣٠٤) في (٩ آب ١٩٢١م) يقول فيها: لـ"قد قبل فيصل الانتداب، وحتى يستبدل بعلاقة أخرى يجب عليه أن يعمل بموجبه"[١] لحين إتمام مقدمات عديدة، منها: أن "تتشكل الحكومة العراقية على نحو وافٍ، ووجود شخص لنا يصوغ المعاهدة... -ثم- يتبع ذلك تصديق رسمي للمعاهدة"[٢].

وفي نص البرقية تأكيد على أن المدة الفاصلة بين تنصيب فيصل على عرش العراق في يوم عيد الغدير الأغر (١٨ ذي الحجة ١٣٣٩هـ/ ٢٣ آب ١٩٢١م) وإقرار المعاهدة هي مدة (انتداب صريحة)، وليست مدة (انتداب مغطاة) بغطاء (معاهدة)؛ لأن الانتداب لم ينتهِ إلّا في (٢ جمادى الثانية ١٣٥١هـ/ ٣ تشرين الأول ١٩٣٢م) كما سيأتي.

أقول: لقد قدم لورنس تفاصيل العرض البريطاني إلى فيصل، ذاكراً خصوصياته ببرقيته العاجلة المرسلة منه إلى وزير الخارجية البريطاني لشؤون المستعمرات تحت رقم (٢٤٠) في (٦ شعبان ١٣٣٩هـ/ ١٥ نيسان ١٩٢١م)، يقول فيها لورنس: "أجريت مقابلة مطولة مع فيصل اليوم سرية للغاية... وأعطيته المسودات من (١ إلى ٤) من البرقيات من العراق وإليه التي اقترحها السير برسي كوكس... عبّر فيصل عن تقديره للسياسة العامة الموجزة، وعاهد أن يقوم بكل ما يستطيع عمله من جانبه... ويقبل شرط الانتداب إذا ما سمح له في خطابه العلني الأول في العراق بإضافة كلام مختلف تقبله حكومة جلالته يمكن به إجراء تعديلات على الانتداب بعد إقرار القانون الأساسي بالتفاوض بين حكومة العراق المشكلة والحكومة البريطانية"[٣].

ومع ذلك فإنّ تلبيس الانتداب بلبوس معاهدة "لا تستره إلّا قليلاً"[٤]، هو

(١) العراق في سجلات الوثائق البريطانية. سابق. المجلد الثاني ١٩١٨-١٩٢١: ٦٤٥، وتنظر أيضاً: ٦٤٧.

(٢) المصدر السابق نفسه: ٦٤٦.

(٣) المصدر السابق نفسه: ٥٩٦-٥٩٧.

(٤) العراق. حنا بطاطو: ١/ ٢٠٨.

في حقيقته ليس أكثر من تمويه على الشعب الرافض بشدة للانتداب والثائر ضده؛ لوضوح "أنّ معاهدة (١٩٢٢) لم تُنهِ -الانتداب- وتحلّ محلّه. إنما هي قامت تحت ظله"(١)، "والحقيقة واحدة"(٢)، فالمعاهدة "عمليّاً صك الانتداب في ثوب جديد، وقد وضعت الأعباء المالية التي فرضها الانتداب على العراق في أربع اتفاقيات منفصلة ملحقة بالمعاهدة "(٣)، وقد أوضحت ذلك المس بيل للملك فيصل -المتظاهر برفضه للانتداب أمام زواره والمواطنين- بجلاء، "بأنه بقبول المعاهدة قد قبل بالانتداب بضمنها، وأن كل ما يستطيع عمله هو أن يطلب إلينا مساعدته في التخلص من الانتداب وهو أمر نحن على الاستعداد للاضطلاع به"(٤).

بل صرح بذلك فشر ممثل بريطانيا في عصبة الأمم بتاريخ (١٦ ربيع الأول ١٣٤٠هـ/ ١٧ تشرين الثاني ١٩٢١م) موضحاً لعصبة الأمم قرار الحكومة البريطانية تجاه العراق بقوله: "لم يقصد بالمعاهدة بديلاً للانتداب الذي سيبقى الوثيقة الفعّالة التي تعيّن التزامات الحكومة البريطانية بالنيابة عن عصبة الأمم"(٥).

ويترتب على ذلك أنّ المدة من تنصيب فيصل ملكاً على العراق إلى موافقة الجمعية العامة لعصبة الأمم على قبول العراق عضواً في عصبة الأمم يوم (٢ جمادى الثانية ١٣٥١هـ/ ٣ تشرين الأول ١٩٣٢م) هي مدة (انتداب مغطّاة) لم يخرج العراق منه إلّا في (٣ تشرين الأول ١٩٣٢م) حيث اعترفت عصبة الأمم بإنهاء انتداب بريطانيا على العراق وحصوله على استقلاله، لا قبل هذا التاريخ.

إن اعتراف فيصل بقبوله الانتداب البريطاني على العراق خلال لقائه بالثوار العراقيين في مكة، هو ما استدعى السيد محسن أبو طبيخ لأن يدوّن في مذكراته

(١) العراق. شهادة سياسية. ١٩٠٨-١٩٣٠. سابق: ١٠٥. وتنظر تفاصيل ذلك في الكتاب نفسه: ١٠٥-١١١.

(٢) مذكرات العلامة الشيخ موسى العصامي. القسم الثاني. سابق: ١٢٢.

(٣) مشكلة الموصل. دراسة في الدبلوماسية العراقية-الإنكليزية-التركية وفي الرأي العام. سابق: ٢٢.

(٤) العراق في رسائل المس بيل. سابق: ٤١٢. وينظر: المس بيل بين الفصول والرسائل. سابق: ١١٢.

(٥) مشكلة الموصل. دراسة في الدبلوماسية العراقية-الإنكليزية-التركية وفي الرأي العام. سابق: ٢١ نقلاً عن صحيفة الاستقلال في عددها المؤرخ ٢٤ مايس ١٩٢٢م.

تحت عنوان "المساومة على عرش العراق" النص التالي: "بعد أيام من مقابلتنا للملك حسين، ومن طرف موثوق وخفي عن الآخرين، علمنا أن الأمير فيصل (كذا)... سيشكل حكومة عراقية تحت الانتداب الإنكليزي. اجتمعنا في منزل المرحوم السيد نور الياسري وأخبرناهم بما دار مع الأمير فيصل، وما قاله لنا عن مستقبل العراق... فقد اتضح لنا... أن مصير العراق كان قد تمّ البتّ فيه قبل مجيئنا كجزء من التسوية العامة للدول العربية التي كانت تخضع للحكم العثماني"(١).

ولم يكتفِ الملك فيصل بالموافقة على الانتداب الملثّم بلثام المعاهدة كما تعهد بذلك للإنكليز قبل تتويجه، وأكد ذلك مجدداً في حفل تتويجه، بل زاد على تبنّيه لها بأن نشرها -المعاهدة- مُذيّلة بتوقيعه، وأرفق نشرها ببلاغ صادر في (٢١ صفر ١٣٤١هـ/ ١٣ تشرين الأول ١٩٢٢م) جاء فيه: "وإني لا أشك في أن شعبي سيقدر أهمية هذه (المعاهدة)... وسيزداد تمسكاً بصداقة حليفتنا الكبرى بريطانيا العظمى، إذ إنّ دوام صداقتها مسألة حيوية لصيانة استقلال هذه المملكة... وكما أننا أخذنا على أنفسنا أن نحترم عهود بريطانيا العظمى ومصالحها الدولية، فإنها تعهدت بمعاونتنا"(٢).

يقول السيد عبد الرزاق الحسني: "وهكذا مهّد الإنكليز لإقامة دولة عربية في العراق كانت إحدى (الدول الصنائع) أو (الدول الزبائن) التي قرر الغرب إقامتها في الأجزاء التي انسلخت من الإمبراطورية العثمانية في أعقاب الحرب الكبرى الأولى"(٣).

٢. رفض الملك فيصل تبعاً لرفض الإنكليز تنفيذ مطالب العلماء والوطنيين البغداديين المنصوص عليها في وثيقة تضمنت من جملة ما تضمّنته أنْ يضاف على صيغة المضبطة الرسمية لمبايعة فيصل ملكاً النص التالي: "وهي أن تكون الحكومة

(١) المصدر السابق: ٢١٣.

(٢) تاريخ القضية العراقية. سابق. ط٢: ٢٤٠..

(٣) تاريخ العراق السياسي الحديث. سابق: ١/ ٢١٢.

مستقلة مجردة من كل قيد، ومنقطعة عن سلطة الغير"[١]. وهو الأمر الذي ترتب عليه إقالة رشيد الخوجه الداعي إلى عقد الاجتماع من منصبه، وكان وقتئذ متصرفاً لبغداد.

٣. منع الملك فيصل لسماحة السيد محمد الصدر من تنظيم مضبطة خلال اجتماع عقده في داره لكبار وجهاء وسادة وشيوخ الكاظمية كي يبايعوا فيها فيصلاً ملكاً إنما بـ"استبدال الصيغة الرسمية للبيعة بصيغة أخرى تتضمن الرفض التام للحكم البريطاني، فاستدعى فيصل محمداً الصدر الذي كان أساس الحركة وأعطاه إنذاراً واضحاً قائلاً له إنه الآن الملك من الناحية العملية، وإنّه لا يتحمل أي عمل سخيف، وإنّ كل من يقلق الرأي العام سوف يلقى جزاءه"[٢].

٤. رفض الملك فيصل مُكرَهاً تحت ضغط بريطاني شديد تلبية دعوة المرجعية له بحضور مؤتمر كربلاء -رغم موافقته الرسمية على الحضور قبل ذلك- نتيجة لضعفه أمام الإنكليز الذين توّجوه ملكاً، بل وتبعيته لهم فيما يريدونه وإن كان خلاف رأيه وتوجهاته. لقد كان هدف مؤتمر كربلاء تحديد الموقف من انتهاك الوهابيين للأراضي العراقية وبطشهم بعشائر المنتفق الحدودية، إثر اجتياحهم المدمر للأراضي العراقية، اجتياحاً سفكوا فيه الدماء، واستحلوا المحرمات، وقتلوا ما يقارب السبعمائة نسمة، وسرقوا آلافاً من الحيوانات، ونهبوا حوالي ثمانمائة بيت من بيوت المواطنين المسالمين، وهتكوا الحرمات، واعتدوا على المقدسات، ثم ثنّوا بهجمة أخرى جنوبي النجف، وغربي السماوة، فتداعى كبار مراجع حوزة النجف الأشرف والكاظمية إلى عقد مؤتمر موسع في كربلاء المقدسة للمدة (١٠-١٥ شعبان ١٣٤٠هـ/ نيسان ١٩٢٢م)، مستثمرين تجمع زيارة النصف من شعبان، لتدارس الوضع المأساوي الذي خلفته الغارات الوحشية الطائفية، ووضع حد للاعتداءات، فكان أنْ لبّى الدعوة بالحضور ما قدّر بين (٢٠٠ ألف - ٤٠٠ ألف) مواطن على

(١) المصدر السابق: ٦/ ١١٤.

(٢) المصدر السابق نفسه: ٦/ ١١٤.

روايتين، وقد كان نقل العلامة الشيخ موسى العصامي في مذكراته عن "بعض أهل كربلاء أن إحصائيات الحكومة إلى الواردين كربلاء في تلك السنة بلغ أربعمائة ألف نسمة حتى غصت كربلاء وامتلأت من الزوار الواردين"[١]، وقد تقدم الوافدين من المراجع أصحاب السماحة السيد أبو الحسن الأصفهاني، والشيخ محمّد حسين النائيني[٢]، والشيخ محمّد مهدي الخالصي وغيرهم، إضافة إلى كبار زعماء الثورة، وشيوخ عشائر الوسط والجنوب الكبار، وجمع من علماء الصوفية ورجالهم يتقدمهم الشيخ عبد الوهاب النقيب وغيره، وزعماء العشائر من كثير من مناطق العراق الأخرى بمن فيهم بعض زعماء عشائر الموصل، باستثناء زعماء القبائل الموالية لبريطانيا من السنّة، وكانت لدعوة الملك فيصل للحضور أكثر من هدف ومبتغى، غير أن تخلّفه عن دعوة المرجعية وعدم استجابته لها بعد موافقته المسبقة على تلبيتها -ولو تحت ضغط المحتلين- كان له مردود سيّئ، ليس عند المراجع وشيعة العراق فحسب، بل على مصلحة البلد العليا تجاه أطماع السعوديين ولغرض إحباط خططهم في العراق كما ستأتي الإشارة إليه لاحقاً.

٥. رفض الملك شخصياً إرسال برقيات من الوطنيين العراقيين إلى عصبة الأمم وإلى الملوك والمجالس النيابية في أمريكا وبريطانيا وفرنسا وإيطاليا، بعد اجتماعه بالمندوبين الخمسة الممثلين لجماهير المواطنين المجتمعين في جامع الحيدرخانة عصر يوم (١ شوال ١٣٤٠هـ/ ٢٨ أيار ١٩٢٢م).

يقول الشيخ محمد الخالصي أحد الممثلين الخمسة بعد لقائهم بالملك فيصل لتبيلغه بمطالب المواطنين: "إننا طلبنا من الملك التصريح بأن العراق مستقل، لا يشوبه أي تدخل أجنبي، بأي اسم كان، فأخذ يخادعنا على عادته بمهارة تفوق الحدّ، ولكنها لم تؤثر علينا لمعرفتنا بأساليب خداعه، وقد وافق بعد الإلحاح على

(١) مذكرات الشيخ موسى العصامي. القسم الثالث. مجلة آفاق نجفية. العدد ٢٥ لسنة ١٤٣٣هـ/ ٢٠١٢م: ٨٥.

(٢) المصدر السابق نفسه: ٨٦، خلال يومين خلافاً لمن قال باعتذار المرجع الميرزا النائيني عن حضور المؤتمر ومنهم الشيخ محمد الخالصي في مذكراته.

أن نعلن رفض الانتداب، ونعلم عصبة الأمم بذلك برقيّاً"[١]، وإثر موافقة الملك فيصل على مطلبهم عنون ممثلو الشعب برقيتهم "إلى كل رأس متوّج، وبرلمان، وجريدة كبرى في أوربا، وأمريكا، وإلى عصبة الأمم، يعلنون فيها بأنهم سوف لا يقبلون بالانتداب بأي شكل كان"[٢]، رافضين في برقياتهم بإصرار: "كل ما يشتمل عليه ذلك الانتداب من وصاية"[٣]. ثم حملوا برقياتهم وراجعوا البريد ليبرقوها، فتسلم موظف البريد أجرة إرسال البرقيات للخارج، وهي كثيرة في وقتها. إلّا أن البرقيات "حُجزت... كلها من قبل الرقيب لأجل أن يسأل الملك عما إذا كان يريد إيقافها أم لا... لقد وافق الملك على الامتناع نهائيّاً عن إبراق البرقيات المذكورة"[٤].

ولم ينتهِ الأمر بالملك إلى حظر إرسال البرقيات فقط، بل عندما "أراد المندوبون استئجار سيارة والذهاب إلى إيران لإرسالها من هناك؛ أفهمهم الملك إنهم بذلك سيسبّبون كثيراً من الضرر، فامتنعوا"[٥].

٦. إصرار الملك فيصل على تنفيذ قرار المحتلين بإجراء الانتخابات لإقرار المعاهدة العراقية البريطانية أو (الانتداب المتستر عليه) تلك المعاهدة المرفوضة شعبيّاً بقوة، مخالفاً الملك فيصل بذلك رأي جميع المراجع والزعماء الوطنيين بوجوب تأخير إجراء الانتخابات لحين انتهاء الانتداب.

يقول السيد موسى الموسوي حفيد المرجع الأعلى السيد أبو الحسن الأصفهاني متحدثاً عن مقدمات صدور الفتاوى بتحريم الاشتراك في الانتخابات ما يلي: "أعلن الملك فيصل إجراء انتخابات عامة لمجلس الشعب، وكان الإنكليز من

(١) الملك فيصل الأول من الثورة العربية الكبرى حتى تأسيس الدولة العراقية الحديثة. معن فيصل القيسي ٢٠٧. نقلاً عن ملوك العراق. جمال مصطفى مروان: ٢٤ عن مذكرات الشيخ محمد الخالصي المخطوطة.

(٢) العراق في رسائل المس بيل. سابق: ٤٥٦.

(٣) العراق الحديث من سنة ١٩٠٠ إلى سنة ١٩٥٠. سابق: ١/ ٢٠٧.

(٤) العراق في رسائل المس بيل. سابق: ٤٥٩-٤٦٠.

(٥) العراق. شهادة سياسية. ١٩٠٨-١٩٣٠. سابق: ١٠٦. وتنظر تفاصيل ذلك في الصفحة نفسها وما بعدها.

وراء هذه الانتخابات، فأعلن الزعماء الدينيون رأيهم في وجوب تأخير الانتخابات حتى يخرج الإنكليز من البلاد، وينتهي عهد الانتداب... معلّلين فتواهم بأن الشعب لا يستطيع أن يقرر مصيره بحرية وينتخب ممثلين له في ظل الاحتلال الأجنبي، ولذلك فقد أفتوا بمقاطعة الشعب للانتخابات ما لم تنزل الحكومة عند رأيهم وتستجيب لمطالبهم التي عددوها في خمس نقاط:

أ. إلغاء الإدارة العرفية.

ب. إطلاق حرمة (كذا)[1] الانتخابات والاجتماعات.

ت. سحب المستشارين الإنكليز من الألوية والعاصمة.

ث. إعادة المنفيين السياسيين.

ج. السماح بتأليف الجمعيات...

أما قصة المجابهة بين الزعامة الدينية وفيصل فقد بدأت كما يلي: أعلن فيصل أن الحكومة تجري الانتخابات على الرغم من سطوة المخالفين، وأعلنت الزعامة الدينية أنها تقف ضدها على الرغم من سطوة الدولة والمستعمرين"[2].

٧. مصادقة الملك فيصل وشكره علانية للمندوب السامي البريطاني كوكس في (العاشر من أيلول ١٩٢٢م/ ١٨ محرم ١٣٤١هـ) على اتخاذه قراراً بتاريخ (٢٦ آب ١٩٢٢م/ ٣ محرم ١٣٤١هـ) تضمن عدة أمور غاية في الخطورة، منها: قصف المدنيين بالطائرات وإحراق قُراهم ومزارعهم وهي:

أ. تعطيل الحزبين (حزب النهضة العراقية، والحزب الوطني العراقي)، علماً بأن الحزبين مجازان يومذاك من وزارة الداخلية العراقية.

ب. تعطيل صحيفتي (المفيد) و(الرافدان) المعارضتين للنظام؛ لنشرهما ما

---

(١) حصل خطأ مطبعي في النص فاستُبدِلَتْ كلمة (حُرّيّة) بكلمة (حرمة). وصحيح العبارة كما هو واضح هو: إطلاق حُرّيّة الانتخابات والاجتماعات.

(٢) الزعيم الموهوب. سابق: ٣/ ٥١١-٥١٣ (بتصرف).

يخالف سياسة الملك والحكومة "والقبض على مديريها وإبعادهما"[١] مع أن الصحيفتين مجازتان بصورة رسمية أصولية.

ت. إلقاء القبض على الزعماء الوطنيين: محمد جعفر أبو التمن، ومحمد مهدي البصير، وأمين الجرجفجي، وحبيب الخيزران، وعبد الرسول كبة، وحمدي الباججي، والشيخ مهدي البصير، وسامي خونده، ونفيهم إلى جزيرة هنجام؛ لمعارضتهم الانتداب والمعاهدة العراقية البريطانية المزمع إقرارها.

يذكر أن الحاج جعفر أبو التمن وزير التجارة يومذاك "وهو أشد الجميع خطراً" كان قد عارض الاتفاقية في اجتماع مجلس الوزراء، فتأجل النظر فيها يومين فـ"بعث الملك يستدعي جعفراً وقال له: إنّ وزارته سوف يتم إلغاؤها... وعليه أن ينقطع عن اجتماعات مجلس الوزراء، ومن الأحسن له أن يقوم بسفرة إلى الخارج من أجل صحته، ولذلك بعث جعفر أبو التمن خبراً إلى الوزراء يقول فيه إنه مريض، وعند ذاك وافق كلهم مثل الطيور على توقيع المعاهدة"[٢].

ث. فصل الموظفين المساندين للحركة الوطنية من وظائفهم[٣]، وفي مقدمتهم علي جودت الأيوبي متصرف الحلة كما أقال عدة متصرفين آخرين[٤].

ج. استخدام الطائرات لقصف الثائرين المدنيين "في الفراتين الأوسط والأدنى"[٥]، وخاصة عشائر: آل فتلة في المهناوية، والأقرع في عفك، وخفاجة في الشطرة، والعزة في المنصورية (ديالى)، كما تمت الإشارة إليه سابقاً

---

(١) تاريخ العراق السياسي الحديث. سابق: ٢/ ٣١.

(٢) العراق في رسائل المس بيل. سابق: ٥٠٠ و٤٦٦ على التوالي. وينظر: العراق الحديث من سنة ١٩٠٠ إلى سنة ١٩٥٠. سابق: ١/ ٢٣٣ هامش رقم ١٣.

(٣) تنظر: مدينة الهندية (طويريج) في العهد الملكي ١٩٢١-١٩٥٨. د. فلاح محمود خضير البياتي: ٢/ ٢٠ وإحالاته. وحزب النهضة العراقية ١٩٢٢-١٩٣٠. فلاح حسن كزار عباس. رسالة جامعية. كلية التربية ابن رشد للعلوم الإنسانية قسم التاريخ. ٢٠١٠م.

(٤) ينظر: العراق. بطاطو: ١/ ٢١٠.

(٥) العراق. حنا بطاطو: ١/ ٢١٠.

بما أطلق عليها لهولها بـ"غزوات جوية قاصفة"[١]، بقنابل قاتلة حارقة، بها "دمّر الأكواخ والمنازل، وأحرق الزرع والضرع، وسبى الأطفال والنساء، فقضى على المعارضة قضاء ظاهريّاً"[٢] رغم أنها ظلت نارها تحت الرماد،، تلك الهجمات الجوية البربرية التي كانت من بين أهدافها قمع المعارضة الشيعية للمعاهدة العراقية/ البريطانية المذلّة؛ ما دعا المندوب السامي البريطاني "السر برسي الذي جنح إلى العنف ليفتح الطريق ويؤمنّه للمعاهدة"[٣] مشرعاً الأبواب على مصراعيها أمام الملك فيصل ليصادق على المعاهدة.

غير أن الأنكى من ذلك كله أنّ فيصلاً لم يكتفِ بالمصادقة على الإجراءات القمعية المتقدمة بما تضمنته من قصف المواطنين المدنيين الشيعة بالطائرات وقتل وجرح عدد منهم وتهديم قُراهم وحرق مزارعهم وبساتينهم؛ بل زاد على ذلك بأن شكر المندوب السامي عليها، وأبدى إعجابه بقسوتها في رسالة بعثها إليه في (١٩ محرم ١٣٤١هـ/ ١١ أيلول ١٩٢٢م) جاء فيها قول فيصل للمندوب السامي البريطاني ما يلي: "أعبّر لكم عن إعجابي الشديد للسياسة الحازمة والتدابير الضرورية التي اتخذها فخامتكم... لصيانة المصالح العامة والمحافظة على النظام والأمن أثناء مرضي المفاجئ... أكرر تشكراتي الخالصة لفخامتكم على مساعدتكم الثمينة"[٤].

وأرخها بالتاريخ المتقدم ووقعها بالصيغة التالية "صديقكم المخلص فيصل"[٥].

لقد كادت هذه الانتفاضة الشيعية الشعبية والوطنية -لولا الإجراءات القمعية المخالفة لأبسط حقوق الإنسان وللقرارات الأممية- ليس بأن تطيح بملك العراق

(١) العراق في رسائل المس بيل. سابق: ٥٠٣.
(٢) تاريخ العراق السياسي الحديث. سابق: ٢/ ٢٨.
(٣) فيصل الأول. سابق: ٨٣.
(٤) لمحات اجتماعية من تاريخ العراق الحديث: ٦/ ١٩٨.
(٥) تاريخ العراق السياسي الحديث. سابق: ٢/ ٢٩.

غير العراقي، وترجعه إلى حيث "يعيش مرة ثانية في المنفى ومن دون عرش"، بل لتركت النفوذ البريطاني و(كوكس) و"النظام العام معلّقاً في الهواء"[١].

٨. إبعاد الشخصيتين المرموقتين المؤثّرتين جدّاً في بغداد والكاظمية والمعارِضَتين بشدّة للانتداب والمعاهدة، كلّ من العالِمَين: السيد محمّد الصدر، والشيخ محمّد نجل المرجع الشيخ محمّد مهدي الخالصي.

٩. مصادرة مقاطعة الظلمية وغيرها من أراضي وأملاك السيد كاطع العوادي أحد رجالات الثورة ضد الاحتلال البريطاني، وتسفيره من منطقة سكناه في الحلة إلى العمارة[٢].

١٠. إبعاد وتسفير المرجع الشيخ مهدي الخالصي لمعارضته الشديدة لسياسة الملك بعد إقرار الملك للمعاهدة العراقية-البريطانية المذلّة، وكان المرجع الشيخ الخالصي صرّح برأيه في اجتماع عُقد لرفض المعاهدة في الكاظمية بقوله للمجتمعين: "إنّ بيعتهم للملك فيصل أصبحت لاغية لأنه أخل بالشروط التي تعهّد بها أثناء البيعة، والتي تنص على المحافظة على استقلال البلاد"[٣]، كما أصدر فتواه المؤثرة التي جاء فيها: "إنّا قد بايعنا فيصلاً على أن يكون ملكاً على العراق بشرط أن يكون العراق مستقلّاً استقلالاً تامّاً ناجزاً، منقطعاً عن سلطة الأجنبي، لا تشوبه شائبة حماية أو وصاية أو أي شيء مما يشين كرامته، أو يخل باستقلاله"[٤].

يقول الشيخ موسى العصامي: "حدثني العلامة الشيخ أحمد كاشف الغطاء... عن بعض خواص الشيخ مهدي الخالصي بأن الشريف قد كان أعطى العلماء عهداً وإقراراً أن لا يُمضي مادة من مواد المعاهدة مع بريطانيا إلّا بعد العرض على العلماء،

(١) العراق الحديث من سنة ١٩٠٠ إلى سنة ١٩٥٠م: ١/ ٢٣٤ و٢٣٣ على التوالي.

(٢) ينظر: السيد كاطع العوادي ودوره الوطني في الحياة السياسية العراقية ١٩٠٨-١٩٤٥. سابق: ١٥٨ نقلاً عن كتاب: ذكريات وخواطر عن أحداث عراقية في الماضي القريب. الشيخ عبود الهيمص: ٥٦.

(٣) لمحات اجتماعية من تاريخ العراق الحديث. سابق: ٦/ ١٧٦. وينظر: شخصيات عراقية. خيري أمين العمري: ١/ ٢٠. والعراق في رسائل المس بيل. سابق: ٤٦٧.

(٤) بطل الإسلام. مذكرات الشيخ محمّد مهدي الخالصي. سابق: ١٩٠.

فما وافق صالح البلاد والأمة العراقية أمضوه، وما خالف منها رفضوه، وقد بتّ في إمضاء المعاهدة، ولم يكن راجع العلماء فيما عاهد عليه...، وفي المعاهدة مواد تضرّ بصالح البلاد عامة والمسلمين خاصة، وقد نقض الشريف ما عاهد عليه العلماء وأهل العراق، والشيخ الخالصي أنكر ذلك بذاته ونيابة عن زملائه من العلماء الذين كانوا قد توغلوا معه في الوضع السياسي، فأدى ذلك إلى وقوع البغضاء بينه وبين الملك"[١] من جهة، وبين العلماء والملك من جهة أخرى.

بل أورد الشيخ موسى العصامي في مذكراته مضمون لقاء تم له مع الشيخ حسن نجل المرجع الشيخ محمد مهدي الخالصي في (٨ ربيع الأول ١٣٥٤هـ/ ١٠ حزيران ١٩٣٥م) بدار محمد أمين في محلة السلالمة، جرى الحديث فيه عن أبيه وعن إلقاء القبض عليه ونفيه وأسباب ذلك، فقال نجل الشيخ الخالصي: "الأسباب كثيرة" ومنها، بل أخطرها وأكثرها أهمية -فيما أورده الشيخ العصامي عن الشيخ حسن الخالصي- أنّ والده الشيخ المرجع تباحث مع المرجعين السيد أبو الحسن الأصفهاني والشيخ محمد حسين النائيني في حالة ما إذا لم ينفذ الملك فيصل مطالب المرجعية حينها يحين وقت "النداء بخلعه عن عرش العراق"[٢].

لقد تأثر الملك فيصل من المرجع الشيخ محمد مهدي الخالصي غاية التأثر، واشتد غيظه عليه غاية الغضب، فوافق على اعتقاله وتسفيره، بعد أن أرسلت السلطة برقية إليه "تعلمه بضرورة إبعاد الخالصي وأولاده وحفيده والقطيفي... وذكرت البرقية أن المندوب السامي يوافق على إبعادهم بشرط أن لا يكون ذلك إلى إيران، ثم طلب موافقة الملك بذلك"[٣].

فأجابهم الملك فيصل بقوله: "لكم الصلاحية المطلقة فيما ترونه مناسباً في

---

(١) مذكرات العلامة الشيخ موسى العصامي. القسم الثاني. سابق. ١١٩.

(٢) المصدر السابق: ١٢٣- ١٢٤.

(٣) النجف الأشرف والنظام السياسي الملكي بين سنتي ١٩٢١-١٩٢٥. سابق. منشور ضمن بحوث كتاب: موسوعة النجف الأشرف السياسي الحديث والمعاصر ١٥٠٨-١٩٥٨. ص٤٠٧.

الكاظمية وبغداد لحفظ الأمن وشرف الحكومة، ويجب اتخاذ خطة حازمة"[١]، فتم تنفيذ إرادته "في ليلة الخامس والعشرين من حزيران ١٩٢٣م... وفي اليوم التالي أُبعد الخالصي وأبناؤه وابن أخيه وكلهم عرب... إلى عدن"[٢].

ويؤكد العلامة الشيخ موسى العصامي المعاصر للحدث ذلك بقوله: "بان لدى الناس أن العلامة الخالصي الشيخ مهدي قد قُبض عليه ونفي من العراق... بأمر من الملك فيصل"[٣].

ويذهب الباحث د. علي الوردي إلى أن الاعتقال تم في ساعة متأخرة من مساء ٢٦ حزيران"[٤]، ثم أُركِبوا القطار المتوجه نحو البصرة. يقول الشيخ محمد نجل المرجع الخالصي: "في إحدى المحطات أخرج فيصل وناجي السويدي رأسيهما من نافذة القاطرة ينظران إلى أبي مظهرين الشماتة"[٥].

١١. إثر تسفير الحكومة للمرجع الشيخ محمد مهدي الخالصي ومن معه من خاصته بموافقة الملك فيصل كما تقدم؛ قرر كبار مراجع النجف الأشرف وعلمائها الاحتجاج على ذلك بمغادرة العراق إلى إيران، خاصة وأنهم كانوا قد أفتوا حالهم حال المرجع الشيخ الخالصي بحرمة الاشتراك في انتخابات المجلس التأسيسي المقرر له أن يصادق على المعاهدة العراقية-البريطانية المذلّة، فشدّ أكبر مرجعين من مراجع النجف الأشرف رحليهما، وهما كل من صاحبي السماحة: السيد أبو الحسن الأصفهاني، والشيخ محمّد حسين النائيني، وعوائلهما، ومعهم سبع وعشرون مجتهداً وعالماً كبيراً من أمثال المرجع الشيخ أغا ضياء العراقي كما نقل

(١) لمحات اجتماعية من تاريخ العراق الحديث. سابق: ٦/ ٢٢٣. وتنظر موافقة الملك على إبعاد الخالصي في كتاب شيعة العراق: ١٥٥.

(٢) شيعة العراق. إسحاق نقاش. سابق: ١٥٥.

(٣) مذكرات العلامة الشيخ موسى العصامي. القسم الثاني. مجلة آفاق نجفية. العدد ٢٣ لسنة ١٤٢٢هـ/ ٢٠١١م. ص١١٦.

(٤) لمحات اجتماعية من تاريخ العراق السياسي الحديث. سابق: ٦/ ٢٢٤.

(٥) في سبيل الله. مذكرات الشيخ محمد الخالصي: ٣٣٤.

بعض المؤرخين[١]، فغادروا النجف الأشرف يوم الأربعاء متوجهين إلى الكوفة فكربلاء ليؤدّوا زيارة توديعية للمراقد المقدسة قبل سفرهم من العراق، وقد كان خرج لتوديعهم مراجع النجف الأشرف ومجتهدوها وكبار أهاليها وسوادهم، وقد وصف ذلك العلامة الشيخ موسى العصامي في مذكراته -وكان معاصراً للحدث وشاهداً على خروج النجفيين لتوديع المرجعين ومن معهم من العلماء- بقوله: "أما الرأي العام فهو يشايع العلماء بعامة أصنافه وطبقاته"، ويفصّل الأمر أكثر فيقول: "خرج من سواد النجف زهاء ثلاثة آلاف بل أربع، و... تترس حملة السلاح ما ينيف على الألف... وقد خرج حملة العلم كلهم إلّا القليل، وفي الناس من يبكي، والكل واجمون ...، وعلى علم إجمالي من أن الحاج ميرزا حسين النائيني والسيد أبو الحسن لم يكونا مختارين بتلك الحركة"[٢].

ويضيف الشيخ العصامي إلى ما تقدم قوله:"أعلنت الحكومة في يوم الخميس بمنع السفر لمطلق النواحي والأقطار، والمقصود منع أهل العلم عن السفر إلى كربلاء لمشايعة العلماء حذراً من التجمهر المخل بالنظام والإدارة أولاً، وكتمان خبر سفرهم ثانياً على سواد العراق خوفاً من الهيجان ووقوع الفتنة واختلال الأمن"[٣]، ومع ذلك فقد خرج من جملة المشيعين للمرجعين ومن معهما من العلماء المرجع الشيخ أحمد كاشف الغطاء الذي قُبض عليه بعد مشايعته للعلماء وأُطلق سراحه فيما بعد، والمرجع الشيخ جعفر ابن الشيخ عبد الحسن الشيخ راضي والمرجع السيد محمد الفيروزآبادي.

---

(١) حياة الميرزا النائيني. بحث. عبد الهادي الحائري ضمن كتاب محمد حسين النائيني وتأسيس الفقه الشيعي. سابق: ٦١ نقلاً عن (هجوم روس) ناظم الدين زادة (فارسي): ٢٨٥-٢٨٧. وجاء فيه "يذكر ناظم الدين زاده في كتابه أسماء ٢٩ مجتهداً من هؤلاء المهاجرين ومع ورود أسماء بعض من زملاء الحائري أمثال النائيني والسيد أبو الحسن الأصفهاني والأغا ضياء العراقي في عداد هؤلاء المهاجرين إلّا أننا لا نجد اسم الحائري بينهم". ص٦١.

(٢) مذكرات العلامة الشيخ موسى العصامي. القسم الثاني. سابق: ١٢٦ و١١٦ على التوالي.

(٣) المصدر السابق: ١٢٥.

هذا ما كان الحال عليه عند مغادرة المرجعَينِ والعلماء مدينة النجف الأشرف إلى الكوفة فكربلاء.

أما في كربلاء المقدسة فيقول سماحة المجتهد السيد محمد هادي الخراساني زميل المرجع الأعلى حينها السيد أبو الحسن الأصفهاني في مذكراته ما نصه: "لمّا وصل العلماء إلى كربلاء تغيّرت الأوضاع السياسية وتبدلت الأحوال بالنسبة لهم، وأصبح الأمر بدلاً من أن يكون سفرهم احتجاجاً على تصرفات الحكومة الشائنة بحق الوطن إلى إبعاد من قبل الدولة لهم، لذلك أُعدّت لهم خيمة للنزول فيها ثم مُنع الأهلون من الاتصال بهم أو تشييعهم عند السفر، وجيء بسيارة خاصة لركوبهم وأخذ مدير شرطة لواء كربلاء صالح حمام يدعوهم بأسمائهم المجردة التي تشمّ منها رائحة الإهانة والتحقير ليركبوا السيارة... وعند بدء السيارة بالتحرك مشيت وراءها متحدّياً ومودّعاً وتبعني جمع غفير من الكربلائيين وغيرهم ممن وصل إلى كربلاء من الأطراف والمدن الأخرى للتوديع. وهكذا تمت عملية سفرهم بكل إكبار وتقدير للموقف المشرّف الذي وقفوه تجاه البلد"[1]، في حين يسرد الشيخ العصامي تفاصيل أخرى عن تسفيرهم من كربلاء فيقول متحدثاً عن معاملة الحكومة الغليظة لهم ما يلي: "هيأت لهم وسائط النقل إلى بغداد وسارت بهم مخفورين إلى جسر الخرّ فعبرتهم الدجلة وأركبتهم القطار، ولم يدرِ البغداديون بهم ولا صادف عامة المستقبلين ركابهم، وخرجوا من جانب المدائن إلى الحدود العراقية من خانقين وهناك صاروا في... الدولة الإيرانية. وانتشر الخبر في بلاد إيران والجزيرة العربية فأيقن الملك وبريطانيا أنهم أخطأوا، والخطأ الفاحش في سياستهم تلك السياسة الرعناء التي أثاروا بها عاطفة الإمامية في أقطار العالم، وقد ازدادوا في الطين بلّة أن أخذوا في جمع أرباب العمائم من أهل علم وعوام في الخارج حذراً من أن يحملوا إلى العشائر ما به يحذرون من الهياج والثورة خلف العلماء ضد الحكومة... فأخذت تجمع من تفرق منهم في الأقضية والنواحي وترسله مخفوراً إلى مركز اللواء

(١) فصول من تاريخ النجف. سابق: ١/ ١٤٧. نقلاً عن: سيرة آل أسد خان. مصطفى أسد خان: ٦/ ١٤٨.

فكانت تلك الأوضاع والأحوال هي السبب الوحيد في انتشار الخبرفي حواضر العراق وأريافه"[١].

ومما تقدم نفهم لماذا "سعى البريطانيون إلى الإيحاء للناس بأن النائيني وباقي الزعماء الدينيين قد غادروا العراق بمحض إرادتهم، إلّا أن الواقع كان خلاف ذلك، وهو ما تؤكده رسالة الوزير المفوض البريطاني في طهران القائلة إنهم قد أُبعدوا إليها خلافاً لرغباتهم"[٢]. ونفهم أيضاً ما ورد من أنّ الملك فيصلاً الأول بعث كتاباً إلى هنري دوتس في (٢١ محرم ١٣٤٢هـ/ ٣ أيلول ١٩٢٣م).

١٢. تنديد فيصل علناً بالمراجع وكبار العلماء الذين أفتوا بحرمة المشاركة في الانتخابات التي من نتائجها انتخاب من سيوافق على (المعاهدة) المذلّة المتستر بها على (الانتداب)، كما حصل فعلاً، وذلك في كلمة له ألقاها نيابة عنه ناجي السويدي في الحلة، وتوعّد فيها فيصل بمحاسبة من وقف ضد ما أسماه مصالح العراق والعروبة حسب زعمه.

كما أصدرت الحكومة بياناً رسميّاً في (١١ ذي القعدة ١٣٤١هـ/ ٢٥ حزيران ١٩٢٣م) منددا بالمراجع والمجتهدين على نسق وخلفية تنديد الملك فيصل بهم، "ذمت فيه المجتهدين ذمّاً قبيحاً، حيث وصفتهم بأنهم دخلاء لا علاقة لهم بالقضية العربية ولا تهمهم مصالح الشعب الحقيقية، وأنهم يختلقون أقوالاً يزعمون أنها مستنبطة من الشرائع الدينية، غير أنهم لا يقصدون منها سوى الإخلال بسير الانتخابات وتضليل الرأي العام وعرقلة وصول الشعب إلى السلطة... إن الحكومة لا يمكنها أن تتهاون في مثل هذه الأعمال، وستعاقب كل من يتصدى للعبث بحقوق الشعب المشروعة"[٣].

---

(١) مذكرات العلامة الشيخ موسى العصامي. القسم الثاني. سابق. ص١٢٥-١٢٦.

(٢) حياة الميرزا النائيني. عبد الهادي الحائري. بحث ضمن كتاب محمد حسين النائيني وتأسيس الفقه الشيعي. تأليف عبد الهادي الحائري وآخرين. فارسي. تعريب محمد حسين حكمت: ٥٥.

(٣) لمحات اجتماعية من تاريخ العراق الحديث. سابق: ٦/ ٢٢٣.

١٣. نفي الملك فيصل للسيد محسن أبو طبيخ المعارض لإجراء الانتخابات التزاماً منه بفتاوى المرجعية، وفي يوم التوديع إثر التسفير حصل اجتماع كبير في صحن الكاظمية فامتلأ الصحن الفسيح بالمودّعين يتقدمهم مرجع الكاظمية الشيخ الخالصي وكثير من زعماء العشائر، والمعارضين وهم يهتفون بسقوط الحكومة ورفض الانتداب والمعاهدة.

١٤. سعي الملك فيصل بقوة إلى شقّ وحدة الصف الشيعي من خلال إبعاد شيوخ العشائر عن اتّباع آراء المراجع والمجتهدين؛ لعلمه بخطورة ذلك عليه وعلى الإنكليز بعد أن تمظهر ذلك الاتباع القوي من العشائر للمراجع في سنة (١٩١٤م)، حيث استجابت العشائر لفتوى المرجعية بالجهاد الدفاعي ضد الاحتلال، فخرجت بعشرات الآلاف لساحة المعارك. ثم تمظهرت تلك الاستجابة الفاعلة مرة أخرى في (صفر ١٣٣٦هـ/ تشرين الثاني ١٩١٧م) يوم ثارت عشائر النجف الأشرف والكوفة وأبي صخير ضد خشونة بلفور وتأنيبه وتهوره على بعض شيوخ عشائر النجف الأشرف، فهجم النجفيون على السراي ونهبوا ما فيه، كما نهب أهالي أبي صخير السراي كذلك.

يقول الباحث المعاصر للحدث والمؤرخ له الأستاذ حسن الأسدي -متحدثاً عن خشية الكابتن بلفور حاكم منطقة الشامية والنجف الأشرف وقلقه مما جرى ويجري-: "فلاحظ على نفسه فالتجأ إلى السيد كاظم اليزدي لحمايته، وفعلاً حماه، فأدرك الإنكليز عندئذ خطورة النجف، بسبب نفوذها على العشائر المحيطة بها. لذلك اتجهوا بجدية وإصرار على عزل النجف، وفكّ ارتباطها رسميّاً بأيّة منطقة خارج النجف، وأصبح السور حدودها الإدارية[1] حتى لا يتردد زعماء العشائر عليها، ثم راحوا يغدقون الأموال على رؤساء العشائر لكسبهم من جهة، ولإبعادهم عن النجفيين من جهة أخرى، حتى جرّدوا النجف من كل صلة رسمية بما حولها،

(١) يقصد بالسور سور مدينة النجف الأشرف المحيط بالمدينة القديمة والمطوق لها حماية لضريح الإمام عليّ عليه السلام وسكان المدينة المقدسة من هجمات الوهابيين العتاة.

بحيث لو حدث حادث خارج السور تحقق فيه حكومة أبي صخير أو الكوفة أو كربلاء"[١]، كما جعلوا مقر حاكم النجف الأشرف والشامية في الشامية والكوفة وليس في النجف الأشرف.

غير أن مساعي الإنكليز لإبعاد العشائر عن المرجعية قد فشلت، وتجلّى هذا الفشل الذريع في تلاحم العشائر مع المراجع والمجتهدين في ثورة العشرين، وبتأثير هذا التلاحم بين المرجعية والعشائر قامت الثورة.

وإذ فشل الإنكليز في فصم عرى علاقة انقياد العشائر للمراجع وكبار المجتهدين واتباعهم للفتاوى؛ نجح الملك فيصل الأول في مسعاه لكسب ودّ العشائر ضد المجتهدين نجاحاً جزئيّاً، فعبّر بعضهم عن تأييدهم التام لسياسته الحازمة ضد المجتهدين، وقد أنتجت تلك السياسة نتاجها المأمول منها بأنْ "تبدّى دعم الشيوخ للملك في رسائل نشرها بعضهم في الصحف العراقية ضد المجتهدين"، وإمعاناً من الملك وحكومته في تنشيط سياستهم المفرّقة بين المجتهدين وكبار شيعتهم؛ ارتأت السلطة الحاكمة تطبيقاً لسياسة (فرّق تسد) أن تغدق الأموال الوفيرة والرتب الاجتماعية والسياسية العالية على وجوه القوم وشيوخهم.

يقول الباحث إسحاق نقاش: لقد "نصّب البريطانيون فيصل (كذا) ملكاً وشكّلت حكومة... ولكن بريطانيا احتفظت بنفوذ لها في البلاد طيلة السنوات الستّ وعشرين التالية حتى ثورة ١٩٥٨. وكانت السياسة الداخلية واقعة تحت تأثير البريطانيين والضباط العثمانيين السابقين السنّة، والعائلة المالكة (الشريفيين) في البلاط. وفي حيث أنّ مناحيَ عديدة من الحياة السياسية العراقية في ظل الحكم الملكي كانت تعكس الدوافع المختلفة لهذه المجموعات الثلاث، فإنها كانت تتشاطر قدراً من المصلحة المشتركة في محاولتها تقويض موقع الإسلام الشيعي في العراق"[٢].

---

(١) ثورة النجف على الإنكليز أو الشرارة الأولى لثورة العشرين. سابق: ١٦٨.

(٢) شيعة العراق. سابق: ١٤٥.

ويتحدث الباحث حنا بطاطو خلال استعراضه للسياسة تلك الآونة ما يلي: "فيما كانت الدولة تعمل على تقويض سلطة المجتهدين، كانت تقدم الحوافز الاقتصادية والسياسية للشيوخ الكبار الذين كان غالبيتهم من الشيعة"[١]؛ لتحقيق مبتغاها. بعد أن "اتفقت السلطات البريطانية مع الملك فيصل على أن معارضة العلماء يجب أن تؤخذ على محمل الجد... فكان الملك ووزراؤه مستعدين تماما للدخول في مواجهة مع المجتهدين"[٢]. وهو ما حصل.

١٥. اعتراف الملك الصريح للمندوب السامي البريطاني السير هنري "بأنه كان يلعب على المجتهدين ويشغلهم". جاء ذلك الاعتراف -وفق رواية المس بيل للحادثة- بعدما "وضعت القوة الجوية الملكية يدها في البريد على رزمة رسائل مهمة مبردة من المجتهدين في إيران إلى وكلائهم هنا -بعد تسفير المراجع- تقول إنّ جلالته كان قد وعد بإسقاط وزارة عبد المحسن السعدون وتشكيل وزارة شيعية يرأسها رئيس شيعي، وبإعادة المجتهدين إلى البلاد، ورفض المعاهدة. فلم يثقوا بوعده... فقررنا أن يأخذها السير هنري إلى جلالته ويعلق عليها بقوله إنّ جلالته مع أنه كان قد قال لصاحب الفخامة أنه كان يلعب على المجتهدين ويشغلهم، فإنه قد ذهب بعيداً في هذا الاتجاه إلى حد الخطر، وسلم لهم سلاحاً يستعمل ضده، فتقبّل جلالته هذا بانشراح وهو يقول: إنهم قد بالغوا في معروضاته عليهم، لكنهم يمكن أن يتركوا الآن (لينطبخوا في مرقهم) من دون أن يخشى منهم شيئا"[٣].

وكان قد تناول د. علي الوردي هذه الحادثة بقوله: "في أواسط تشرين الثاني أي قبل سقوط الوزارة السعدونية وقعت في يد الإنكليز رسائل كان المجتهدون قد أرسلوها إلى وكلائهم في العراق يقولون فيها إنّ الملك فيصل (كذا) وعدهم

---

(١) شيعة العراق. سابق: ١٦٦ و١٦٣ على التوالي وتنظر: ١٦٩ من المصدر نفسه.

(٢) التشيع والدستورية في إيران دور علماء العراق الشيعة في السياسة الإيرانية. سابق: ١٨٠. ومحمد حسن النائيني وتأسيس الفقه السياسي. سابق: ٥١.

(٣) العراق في رسائل المس بيل: ٥٦٤-٥٦٥.

بأمور هي:

أ. إسقاط الوزارة السعدونية.

ب. تشكيل وزارة شيعية برئاسة رجل شيعي.

ت. إعادة جميع المجتهدين المنفيين إلى العراق.

ث. رفض المعاهدة.

وقال المجتهدون في رسائلهم إنهم بالرغم من عدم ثقتهم بوعود الملك، قد أرسلوا طي رسائلهم فتوى موقعة من قبلهم ومختومة يعلنون فيها رفع التحريم عن الانتخاب في حالة تحقيق الملك لوعوده"[١].

١٦. سعي الملك والبريطانيين معاً لتزوير الانتخابات التشريعية بأي طريقة ممكنة، حيث أثبت المؤرخون أنّ الملك فيصلاً قال للمندوب السامي البريطاني بصراحة: "يجب أن نستوثق بكل عضو من أعضاء المجلس قبل أن ينتخب، وذلك لكي نكون في مأمن تام عند تصديق المعاهدة، وإنّ كلّ من يرشح شخصاً منا يجب أن يكون أميناً منه، ومسؤولاً عن رأيه في المجلس"[٢].

وقد لعب كورنواليس المستشار البريطاني لوزير الداخلية العراقي دوراً مهمّاً في التصديق على المعاهدة العراقية-البريطانية حين طلب من المفتشين البريطانيين المعينين في جميع الألوية العراقية أن يرسلوا لهم قوائم بأسماء المرشحين لمجلس النواب ممن يعرفون مواقفهم بأنهم سيصوتون لصالح المعاهدة المرفوضة وطنيّاً ومرجعيّاً وشعبيّاً.

وإذ تسلّم أجوبتهم نظر فيها وحدد الأفضل منهم لبريطانيا، ثم أرسل لكل مفتش إنكليزي في الألوية العراقية قائمة بالمرشحين المقترحين للجمعية التأسيسية أو مجلس النواب كي يدعموا ترشيحهم ليصوتوا على المعاهدة المذلّة. وقد نجح كلٌّ من: الملك فيصل، ورئيس وزرائه عبد المحسن السعدون، والمسؤولون

(١) لمحات اجتماعية من تاريخ العراق الحديث. سابق: ٦/ ٢٥٧-٢٥٨.

(٢) المصدر السابق نفسه: ٥/ ٢٦٩، ومذكرات رؤوف البحراني: ٢/ ٦٦.

البريطانيّون في فوز من يؤيد المعاهدة. ومن تُضمَن عدم مخالفته لرؤية المحتلين في كتابة بنود القانون الأساسي أو الدستور؛ نتيجة لـ"إبلاغ المتصرفين (وهم حكام محلّيّون) بأن على كل مرشح الموافقة على إبرام معاهدة تعترف بحقوق البريطانيون (كذا) في العراق"[١].

وليس أدل على ذلك مما نقله الوزير في العهد الملكي الباحث عبد الكريم الأزري بقوله: "إنّ القانون الأساسي (الدستور) سنة (١٩٢٥م) بما جاء فيه من أحكام وُضعت خصيصاً لتؤكد تغليب أو تسليط السلطة التنفيذية (الحكومة) على السلطة التشريعية وعلى الناس. والواقع أن القانون الأساسي العراقي لسنة (١٩٢٥م) الذي وضع الإنكليز أسسه قام على التخوّف من الناس، ولذلك اتُّخذت فيه الاحتياطات لكي لا تتسرب الوطنية الواعية إلى المجلس النيابي، ولكي لا تنعكس في هذا المجلس النزعة الاستقلالية التي كان يتحسس بها قسم من الناخبين"[٢] من أتباع المرجعية الدينية والوطنيين المخلصين.

يقول الباحث حنا بطاطو: "عاد عبد المحسن السعدون إلى منصبه بناء لرغبة الإنكليز، ولأنه كان (لا يعترض على أي شيء يفعله الإنكليز) -كما ورد على لسان فيصل بالذات- فإنه (وافق معهم) على تأمين انتخاب برلمان مُوالٍ للبريطانيين بهدف تسهيل السياسة البريطانية وخصوصاً تمرير الاتفاقات العسكرية والمالية بموجب المعاهدة الجديدة)"[٣]. وإقرار الدستور المصمم وفق مصالح المحتلين بتسليط الحكومة المدعومة بقوة ضاربة قوية مسيّرة من قبلهم على السلطة التشريفية المزيفة إمعاناً في التحكم بكل شيء في العراق.

١٧. استقدام الملك فيصل سنة (١٩٢١م) للشوفيني الطائفي ساطع الحصري[٤]،

---

(١) الحركة الإسلامية الشيعية في العراق. سابق: ٣٧.

(٢) تاريخ في ذكريات العراق. ١٩٣٠-١٩٥٨. عبد الكريم الأزري: ١/ ١٦٢.

(٣) العراق. الكتاب الأول. سابق: ٢٢٣-٢٢٤.

(٤) الحركة الإسلامية الشيعية في العراق. جويس ويلي: ٣٨.

ودعمه الدعم اللا محدود للسياسة التعليمية الطائفية الشوفينية التي تبنّاها الحصري، والتي "أُنيطت به وبإيعاز من الإنكليز... مهمة نشر الطائفية ومعاداة الشيعة، والطعن في عروبتهم، ووصفهم بالعجمة والشعوبية... وكان للحصري تأثير بالغ في وضع المناهج التدريسية وتوجيه طلاب المدارس وجهة تفضي إلى اغتراب العراقيين عن تراثهم الأدبي، ففي كتب الأدب العربي وتاريخه لم يُذكر أي أديب أو شاعر عراقي من أصول شيعية قديم أو معاصر، رغم كثرتهم ودورهم الكبير في خدمة الأدب العربي... واستمرت الحالة هذه طوال العهد الملكي... ومما تقدم نعرف دور الحصري في بناء الدولة العراقية الحديثة على أساس الطائفية التي مارستها الحكومات العراقية المتعاقبة بضراوة ضد غالبية الشعب العراقي، ابتداء من حكومة عبد الرحمن النقيب إلى حكومة صدام حسين باستثناء فترة حكومة ثورة ١٤ تموز ١٩٥٨"[١].

وليست أدل على طائفيته ودعم الملك فيصل له في هذه الطائفية المقيتة من رفض تعيين الحصري لشاعر العرب الأكبر محمد مهدي الجواهري بحجة أنه غير عربي، وإلغائه كذلك لمديرية معارف منطقة الفرات الأوسط التي كانت تشمل الحلة وكربلاء والنجف الأشرف والديوانية والمثنى، وهو الإلغاء الذي علق عليه السيد عبد الكريم الأزري سكرتير وزارة المعارف والوزير بعد ذلك بقوله: "لقد حاولت كثيراً أن أجد سبباً يبرر هذا التصرف العجيب، فلم أعثر على سبب واحد يبرره... إلّا بأن ساطع الحصري كان عامداً على إلغائها"[٢].

ليس هذا فحسب، بل أشار سكرتير وزارة المعارف في العهد الملكي إلى سياسة التجهيل المبرمج للغالبية الشيعية، ذاكراً اتّباع الحصري لسياسة غاية في الخطورة يترتب عليها رفع مستوى الوعي الحضاري والثقافي في محافظات بعينها وانخفاضه

(١) دور ساطع الحصري في ترسيخ الطائفية في العراق. د. عبد الخالق حسين. موقع الحوار المتمدن الإلكتروني. مواضيع وأبحاث سياسية. ٢١/ ٩/ ٢٠١٠.

(٢) تاريخ في ذكريات العراق ١٩٣٠- ١٩٨٥. عبد الكريم الأزري: ١/ ٢٩.

في عداها، ناهيك عن انحصار الدرجات العلمية، والوظائف الحكومية لاحقاً بطائفة دون أخرى وبمحافظات دون أخرى.

لقد أدت هذه السياسة الطائفية إلى حرمان المحافظات الشيعة من حقها الدستوري المُساوي لغيرها في فرص التعليم والوعي والتوظيف.

لقد أشار الأزري إلى ما لاحظه بعد جولته الاستقصائية لواقع الوضع التعليمي في العراق، إلى ما وجده من "الفروقات في درجة انتشار التعليم وفي مستوياته... بين (٣٠ طالباً) ابتدائيّاً لكل ألف من السكان في... الموصل... إلى (٢٧ طالباً) في محافظة بغداد... إلى (٦ طلاب) في محافظة ذي قار... وواسط... إلى (٨ طلاب) في محافظة القادسية، إلى ٩ طلاب في محافظة ميسان".

ويضيف الأزري متحدثاً عن جانب آخر من التمييز الطائفي في سياسة الحصري، ذاكراً عدد طلاب البعثة العلمية الموفدة إلى خارج العراق في السنة الدراسية ١٩٣١-١٩٣٢م، فيقول: "إنّ عدد الطلاب في البعثة العلمية من الشيعة كان أقل بكثير من عدد اليهود... وقد رأيت أن لا فائدة من المناقشة في هذا الموضوع بعد أن قضي الأمر وتم إيفاد البعثة العلمية... -وقد- التحق أحد طلاب البعثة المذكورة من اليهود... بإحدى المنظمات الصهيونية التي تبنّته، مما اضطرنا إلى فصله من البعثة"[1]، علماً بأن الشيعة يشكلون الغالبية العظمى من سكان العراق بخلاف اليهود الذين يشلكون أقلية عددية فيه.

لقد كانت سياسة الحصري الطائفية الإقصائية على مرمى ومسمع من الملك فيصل، ولو كان لم يرتئِها وهو الملك لأمر بإصلاحها. بل زاد فيصل على ذلك بأن أمر بتوجيه كتاب إلى رئاسة مجلس الوزراء يعترض فيه على نقد بعض أعضاء مجلس النواب لساطع الحصري خاصة بعد أن أصدر مجلس النواب قراراً بتخفيض راتبه الضخم.

يقول ساطع الحصري: "الملك فيصل عندما اطلع على ما قيل عنّي في مجلس

(١) تاريخ في ذكريات العراق ١٩٣٠-١٩٨٥. عبد الكريم الأزري: ١/ ٣٠-٣١.

النواب تأثّر من ذلك وأمر رستم حيدر بتوجيه كتاب إلى رئاسة مجلس الوزراء. ورستم حيدر أرسل الكتاب... إلى سكرتير مجلس الوزراء في ٨ أيلول ١٩٢٨م، وجاء فيه: (اطلع حضرة صاحب الجلالة على مناقشات المجلس النيابي حول ميزانية المعارف، ولفت نظره بصورة خاصة الأقوال التي صرفها بعض النواب بحق ساطع بك الحصري... لقد مضى على ساطع بك في إدارة المعارف ست سنوات لم يكن من المتطفلين عليها، بل من رجالها المعدودين، قام في خلالها بأجلّ الخدمات، ولم يدخر جهداً بتنظيم المناهج... أ فهل يجوز بعد هذا أن يقوم نفر فيتحامل على هذه الشخصية؟ ... إلخ"[١]. يذكر أن "الحصري هو الذي أدخل في المدارس عقوبة الجلد والطرد ضد التلامذة"[٢].

١٨. مساعدة الملك فيصل وأبيه بشكل مباشر أو غير مباشر للإنكليز بإحباط مسعى المرجعية العليا لتأسيس نظام يدافع عن حقوق الأمة الوطنية ويجهر بطلب الاستقلال للبلاد العاري عن كل تدخل أجنبي في ظل دولة عربية وطنية يرأسها ملك عربي مسلم مقيد بمجلس تشريعي وطني منتخب بانتخابات حرة نزيهة[٣] مباشرة، ممثلة أصدق تمثيل لمبادئ وقيم الغالبية العظمى من الشعب العراقي، غير أنّ الملك والشريفيين ومن معهم ووراءهم خيب ظن زعماء الثورة، والوطنيين المخلصين، وأحبط مبتغاهم. يقول الباحث إسحاق نقاش: لقد "سعى المجتهد الكبير مرزة (كذا) محمد تقي الشيرازي في مطالبته خلال استفتاء (١٩١٩م)، وثورة (١٩٢٠م) بتتويج ملك يكون مقيداً بمجلس وطني، إلى أن يطبق في العراق نظرية سياسية تحدد مبادئ تمثيل المجتهدين في السياسة. وكانت رغبة المجتهدين الشيعة في تحديد شكل سياسة الدولة العراقية الوليدة عاملاً كبيراً في دفع الشيرازي إلى

(١) مذكراتي في العراق ١٩٢٧-١٩٤١. ساطع الحصري: ١٨-١٩.

(٢) المصدر السابق نفسه.

(٣) ينظر مثلاً: نص مضبطة النجف والشامية الثانية التي وقع عليها ٩٢ مرجعاً وزعيماً وشيخاً في: ماضي النجف وحاضرها، سابق: ١/ ٣٥٩ ومثلها كثير.

التعاون مع الشريفيين والقيام بدور قيادي في ثورة ١٩٢٠، ولكن خطة المجتهدين لاستخدام الثورة من أجل طرد البريطانيين والسيطرة على شؤون العراق الوطنية أنجزت عكس النتائج المرجوة. وفي السنوات اللاحقة كان حكّام العراق السنة معادين لوجود مؤسسة دينية شيعية على قدر كبير من الاستقلال والنشاط السياسي في البلاد.

والحق أن النزاع الرئيسي بين المجتهدين الشيعة والحكومة السنية في أوائل العشرينات كان نابعاً من التصادم بين عملية تكوين دولة شيعية وتأسيس الحكم الملكي السنّي في العراق"[١].

وهو ما أشارت إليه المس بيل، معتبرة أنّ فيصلاً هو أنسب المرشحين لعرش العراق، بل ومن كان مع فيصل من العراقيين، بقولها: "نحن بأمس الحاجة إلى العراقيين الذين خدموا مع فيصل في سوريا... وإذا ما تعذّر كسبهم إلى جانبنا واتخاذهم حلفاء لنا فإننا على ما أعتقد سنتعثّر ما بين الثيوقراطية الشيعية والبيروقراطية الميّالة إلى الأتراك" من سنّة العراق؛ "لأنهم خائفون من أن يطغى عليهم مدّ الشيعة"[٢].

لقد حز في نفوس شيعة العراق وآلمهم كثيراً وأوجعهم وجعاً حارقاً وخاصة المراجع والزعماء والمشايخ والوطنيين منهم، إفشال الملك فيصل وحكومته ومن ورائهم الإنكليز لحصاد نتائج ثورتهم الوطنية، بل ومباركته لقصف مواطنيهم وتهديم قُراهم وتخريب بيوتهم وحرق بساتينهم ومزارعهم بالطائرات؛ فلذلك ولِما تقدم أيضاً فقد بقيت مواقف الهاشميين في العراق جارحة لمشاعر الشيعة الواعين، مؤلمة للمطلعين على مسارات السياسة ومآلاتها، منذ أن جاء بهم الأجنبي المحتل من دولة أخرى وأجلسهم بشروطه -ومنها المعاهدة المذلّة- على عرش دولة أخرى، مروراً بما تقدم ذكره أعلاه، وخاصة قمع حكومته الوحشي

(١) شيعة العراق. سابق: ٤٩٥-٤٩٦.

(٢) العراق في رسائل المس بيل. سابق: ٢٨٣. و٢٥٨ على التوالي.

لثورة العشائر الشيعية المطالبة بحقوقها المغتصَبة بالطائرات والقذائف الحارقة خلال سنتي (١٩٣٥و١٩٣٦م)، تلك الانتفاضات الثورية الموصوفة بكونها شبيهة بثورة العشرين الفراتية[١]، وصولاً إلى احتلال بريطانيا الثاني للعراق في (١٩٤١م).

❀ ❀ ❀

(١) ينظر: دراسة في طبيعة المجتمع العراقي. د. علي الوردي: ١٧٥.

المبحث الرابع

عراقية الموصل: بين موقف الشيعة الوطني، وموقف فيصل والإنكليز المصلحي الطائفي

منذ أن تقاسم الحلفاء المنتصرون في الحرب العالمية الأولى أراضي الإمبراطورية العثمانية، واحتلت بريطانيا العراق، وأقامت الدولة العراقية؛ شبّ الخلاف على الموصل العربية السنّيّة بين تركيا من جهة، والإنكليز، وشيعة العراق، وبعض من القوميين السنّة، وملك العراق المستورد، من جهة أخرى.

فتركيا تريد إلحاق الموصل بها، والعراق بشيعته والقوميين والوطنيين من سنّته، وملكه فيصل، ومعهم الإنكليز، يأبون على تركيا ذلك، ويصرّون على أن تبقى الموصل مدينة عراقية.

غير أن ما يستدعي الوقوف عنده وتحليله هو سبب إصرار شيعة العراق والقوميين من سنته أيضاً على عراقية الموصل، المختلف جذريّاً عن سبب إصرار بريطانيا والملك فيصل على عراقيتها اختلافا كليّاً.

فخلال الصراع المحتدم على الموصل انحاز الشيعة لوطنيتهم، خلافاً لمصالحهم، وانحازت بريطانيا والملك فيصل لعراقية الموصل السنّيّة، كي لا تتحول الغالبية الشيعية في العراق إلى غالبية طاغية إذا خرجت الموصل من العراق وأُلحقت بتركيا.

لقد اتفقت القوى العراقية الفاعلة على عراقية الموصل، سواء أكانوا من الشيعة بمختلف طبقاتهم، أم من السنّة الوطنيين والقوميين دون سواهم[1]، أم الملك فيصل، أم سلطة الاحتلال والانتداب البريطاني، نعم اتفقوا جميعاً رغم اختلاف أسباب كل منهم، ودواعيه، وهي كما يلي:

---

(١) ينظر بحث مؤيدو تركيا في العراق من كتاب مشكلة الموصل دراسة في الدبلوماسية العراقية-الإنكليزية-التركية وفي الرأي العام. سابق: ٢٣٥.

أ – موقف شيعة العراق من عراقية الموصل

لقد اهتمت بريطانيا من خلال شخصٍ كبيرٍ ممثّليها في العراق ولسون بقضية الموصل وأولاها جهده، وإذ أراد طرح أسئلة استفتائه الثلاثة على العراقيين وتسلم أجوبتهم عليها؛ ذهب بنفسه إلى النجف الأشرف فاجتمع أهل النجف الأشرف والشامية عبر ممثليهم في (١٣ كانون الأول ١٩١٨م/ ٩ ربيع الأول ١٣٣٧هـ) كأول مدينة عراقية تطرح فيها بريطانيا استفتاءها ذا الأسئلة الثلاثة المتقدمة، وقد جاء ضمن سؤالها الأول ما إذا كان العراقيون يرغبون بأن تمتد دولتهم العراقية "من الحدود الشمالية لولاية الموصل إلى الخليج الفارسي".

وما كاد ينتهي الحاكم البريطاني من خطابه على علماء ووجوه وسادة وشيوخ أهالي النجف الأشرف والشامية، حتى "قام الشيخ محمد رضا الشبيبي وخاطب الحاكم فقال: (إنّ الشعب العراقي يرتأي أنّ الموصل جزء لا يتجزّأ من العراق)، و(أنّ العراقيين يرون من حقهم أن تتألّف حكومة وطنية مستقلة استقلالاً تامّاً)، (وليس فينا من يفكر في اختيار الحاكم الأجنبي)، فغاظ هذا الخطاب البليغ الحاكم، فقاطع كلام الشبيبي، وضرب على المنضدة التي كانت عنده، وكلما حاول -الحاكم الإنكليزي- أن يعرف رأي بقية أركان الجمعية الحاضرة، لم يتمكن، إذ لم يعترضوا على رأي الشبيبي"[1].

ولم يقتصر رأي أهالي النجف الأشرف على من اجتمع بهم ولسون رغم منزلتهم الكبيرة، بل اتضح موقف النجفيين أكثر فأكثر حين أعرب مجتهدون نجفيون كبار وشخصيات أخرى في المدينة عن رغبتهم في إقامة دولة مستقلة، تمتد من الموصل شمالاً إلى الخليج الفارسي جنوباً، وأعلنوا بما أن أغلبية سكان العراق من العرب، وبما أن كل شخص يفضّل أبناء جلدته الذين توحّدهم معه عناصر الدين واللغة والقيم والعادات، فإنّنا نرى من المناسب أن توضع هذه المملكة تحت حكم أمير عربي، وكان من بين الموقعين شيخ الشريعة الأصفهاني، وعبد الكريم الجزائري،

(١) ماضي النجف وحاضرها. سابق: ١/ ٣٥٦.

وجواد ابن صاحب الجواهر، ومهدي كاشف الغطاء[١]. كما كان من بين الموقعين أيضاً على هذه المضبطة كل من المرجع السيد أبو الحسن الأصفهاني، والمرجع الشيخ محمد حسين النائيني وأمثالهما.

كما "وأكّد شيوخ كبار من عشائر الشيعة هذا الرأي مجدداً بعد حوالي أسبوعين"[٢].

ومثلما جهر مراجع النجف الأشرف وكبار وطنييها وسادتها وشيوخها بعراقية الموصل فقد جهرت المدن الشيعية الأخرى بذلك أيضاً، فمثلاً جاء في مضبطة مراجع وعلماء ووجهاء مدينة الكاظمية المقدسة ما يلي: "... إننا نطلب أن تكون للعراق الممتدة أراضيه من (شمالي الموصل إلى خليج فارس) حكومة عربية إسلامية. حرّر (يوم الأربعاء في ٥ ربيع الثاني سنة ١٣٣٧هـ"[٣]، الموافق ليوم ٩ كانون الأول ١٩١٨م). وقد وقّع على هذه المضبطة كبار العلماء والوجهاء وأهل الرأي يأتي في مقدمتهم المرجع الشيخ مهدي الخالصي، والسيد حسن الصدر، والسيد محمّد مهدي الصدر، والشيخ عبد الحسين آل ياسين، والسيد أحمد الحيدري، والميرزا إبراهيم السلماسي، والحاج عبد الحسين الجلبي، ثم حُملت المضبطة بعدئذ إلى الصحن الشريف لملئها بالتواقيع، فبلغ عدد التواقيع عليها أخيراً (١٤٣) توقيعاً"[٤].

ثم تلت مضبطة الكاظمية مضبطة أهالي بغداد ووجهائها شيعة، ووطنيين وقوميين سنّة، فقد جاء في مضبطتهم المسلّمة إلى قوات الاحتلال بعد البسملة والديباجة ما يلي: "... إنّنا ممثّلو الإسلام من الشيعة والسنة من سكان مدينة بغداد وضواحيها، بما أنّنا أمة عربية، وإسلامية؛ قد اخترنا أن تكون لبلاد العراق الممتدة من (شمالي الموصل إلى خليج العجم) دولة واحدة عربية يرأسها ملك عربي مسلم...

---

(١) ينظر: شيعة العراق. سابق: ١١٦.

(٢) المصدر السابق: ١١٦.

(٣) تاريخ القضية العراقية. سابق: ١/ ٨٤-٨٥. ط١.

(٤) لمحات اجتماعية من تاريخ العراق الحديث. سابق: ٥/ ١: ٧٨، والثورة العراقية الكبرى. سابق: ٧٠.

حرّر يوم الأربعاء (١٩ ربيع الآخر ١٣٣٧هـ، الموافق ٢٢ كانون الثاني ١٩١٩م)"[١].

وإذ ضربت مثلاً على مطالبة شيعة العراق بعراقية الموصل متّخذاً من ممثلي المدن الكبيرة كالنجف الأشرف، والكاظمية المقدسة، وبغداد، دليلاً على ما أذهب إليه؛ فإنه ليحسن بي أن أضرب مثلاً عن موقف شيعة جنوب العراق أيضاً من هذه المسألة، فقد ورد في المادة الخامسة من رسالة أرسلها شيوخ ووجهاء أهالي مدينة العمارة إلى قوات الاحتلال - التصريح بعراقية الموصل، مع الإشادة بقدرة العراقيين وحدهم بحنكة رجالهم وكفاءاتهم على إدارة شؤونهم كلها وتقرير مصير بلدهم بما يشمل اختيار (الملك) أيضاً، بل قد يوحي كتابهم بكون الملك (عراقيّاً) لقولهم: "إننا نطلب من ممثلي حكومة بريطانيا تنفيذ مطاليبنا هذه، وإنجازها بأسرع ما يمكن، فإنّ لأُمّتنا العراقية العربية، ورجالها المحنكين، الأهلية التامة لإدارة شؤون بلادنا العراقية، بحدودها الطبيعية من (حدود إيران شرقاً إلى صحراء الجزيرة الغربية غرباً)، (ومن الموصل شمالاً إلى الفاو جنوباً)، كما صرحوا أيضاً بأنّ (لنا الخيار في تعيين مصير بلادنا حسب منطوق مبدأ حرية الشعوب) الذي جعل للأمم الحرية التامة في مستقبل بلدها"[٢].

هذا هو موقف شيعة العراق الوطني من عراقية الموصل، ولو كانت نظرتهم طائفية ضيقة أو مصلحية، لكانوا اتخذوا الموقف المغاير، حيث ستزداد نسبة أغلبيتهم العددية في العراق زيادة كبيرة على حساب نسبة السنّة العددية، إذا لم يتبنّوا مسألة إلحاق الموصل السنّيّة بتركيا، ما يذكّرنا بمواقف الشيعة الوطنية العراقية السابقة، وفي مقدمتها إعلانهم الجهاد مع ظالميهم العثمانيين السنّة، ضد الإنكليز المحتلين (سنة ١٩١٤م). وغير ذلك ممّا يدل على وطنية شيعة العراق كثير وكثير سابقاً وحاليّاً.

***

(١) تاريخ القضية العراقية. سابق: ١/ ٨٦. ط١.

(٢) وثائق الثورة العراقية الكبرى. سابق: ٣/ ١٧٠.

ب – موقف الإنكليز المحتلين من عراقية الموصل

لقد كانت من دواعي تبنّي الإنكليز لعراقية الموصل مصالحها النفطية، ما دام العراق خاضعاً لانتدابهم من جهة، وكون غالبية الموصل سنّيّة المذهب من جهة ثانية، وذلك كي تقل ما أمكن نسبة شيعة العراق وهم الأغلبية إلى سنّته، خشية أن يتحول المكون الشيعي من أغلبية عددية واضحة إلى أغلبية عددية (ساحقة).

ويأتي في مقدمة أسباب هذه الخشية كون الشيعة هم أشد أعداء الإنكليز في العراق، وهم الذين أشعلوا نار ثورة العشرين، وقدموا الغالي والرخيص في سبيل تحرير العراق من محتليه الإنكليز، وإنّ تحوُّل أغلبيتهم العديدة الواضحة إلى أغلبية عددية طاغية سيُهدّد وضع الإنكليز في العراق –ويُزعزع استمرار احتفاظ فيصل بعرشه– تهديداً لا يمكن تلافيه والوقوف دونه.

وقد أوضحت المس جيرترود بيل السكرتيرة الشرقية للمندوب السامي البريطاني في العراق سياسة الإنكليز هذه بصراحة تامة بقولها: "مشكلة الشيعة أخطر المشاكل وأشدها إزعاجاً في هذه البلاد... وإذا كانت ستشكل أي شيء من قبيل المؤسسات النيابية الحقيقية، فإنك ستحصل على أكثرية شيعية فيها، ولهذا السبب أنك لا تستطيع مطلقاً أن تشكل ولايات ثلاثاً مستقلة تمام الاستقلال في حكمها الذاتي، ولذلك يجب أن يُحتفظ بالموصل السنّيّة في ضمن الدولة العراقية من أجل تنظيم التوازن"[١] الطائفي.

لقد كتبت المس بيل في رسالة مؤرخة بتاريخ (٧/ ٢/ ١٩٢١م) واصفة الحكومة العراقية حينها بأنها: "سنّيّة أساساً، وثمة تصميم على أن تبقى سنّيّة"[٢]، مُطمئِنة بذلك السنّة الذين كانوا "يخشون اجتياح الشيعة لهم"[٣] كونها، وكونهم، يعلمون

(١) العراق في رسائل المس بيل. سابق: ٢١٢.

(٢) ثورة ١٩٢٠ قراءة جديدة في ضوء الوثائق التاريخية. سابق: ٢٥٢، ٢٣٨.

(٣) اختراع الشرق الأوسط الحديث. صناع الملوك. سابق: ٢٥٢.

حق العلم بأن "غالبية سكان بلاد ما بين النهرين من الشيعة"[١] كما تقدم.

***

ت - موقف الملك فيصل الأول من عراقية الموصل

يتفق موقف الملك فيصل مع موقف الإنكليز من حيث خشيته من تحوّل شيعة العراق من كونهم أغلبية واضحة إلى كونهم أغلبية ساحقة، وهو ما قد يزعزع دوام ملكه؛ لأنّ إبعاد أهالي الموصل السنّيّة عن دولة العراق وإلحاقهم بتركيا "من شأنه أن يحوّل العراق إلى دولة ذات أغلبية شيعية ساحقة. مما يثير قضايا ملتبسة بشأن قابلية البقاء على المدى الطويل لملكية دخيلة تعتمد بشكل كبير على العناصر العربية السنّيّة، وتحكم دولة ذات أغلبية شيعية[٢].

وربما أشار الملك فيصل إلى ذلك في مذكرة أكّد فيها أنّ الموصل هي مسألة حياة أو موت بالنسبة للعراق الذي سيواجه الفوضى إذا اقتُطعت منه الموصل[٣]. وقال أيضاً "إذا انفصلت الولاية عن العراق توجّه ضربة شديدة وربما قاتلة لبلاده. ويعرقل التقدم الملحوظ في إدارة العراق عرقلة تامة أو ينقلب إلى ضده. ويؤدي هذا الانفصال إلى زيادة المصاريف العسكرية ومصاريف المحافظة على النظام والأمن في القسم الباقي من القطر"[٤].

وبناء على ما تقدم وغيره؛ فإنّ حكم الملك فيصل الأول بل الحكم الملكي كله حكم سنّي طائفي مُعادٍ للشيعة، بدءاً من المعاهدة البريطانية-العراقية المذلّة، إلى تسفير كبار مراجع الشيعة، إلى قصف المدن الشيعية الثائرة ضد حكمهم وضد طائفية حكّامهم بالطائرات والمدافع أكثر من مرة ومكان، إلى حرق بيوتهم ومزارعهم، إلى تهميشهم رغم كونهم الأغلبية الساحقة في العراق، وغيرها مما تقدم ذكره في

(١) المصدر السابق: ٢٤٥.

(٢) ينظر: فيصل الأول ملك العراق. سابق: ٥٣٧.

(٣) جريدة العالم العربي في ٢٢/ ١/ ١٩٢٥م.

(٤) مشكلة الموصل. دراسة في الدبلوماسية العراقية-الإنكليزية-التركية وفي الرأي العام. سابق: ٢٣٥.

النقاط المتقدمة، ستبقى كل تلك المواقف المعادية لشيعة العراق محفورة في سويداء قلوب الشيعة، غاطسة في أعماق مشاعرهم، تطفو وترسب كلما جدّ ما يوقظ ذاكرتهم أو ينعشها رغم مضيّ السنين والأعوام، والعقود والأزمان عليها.

وقد عبر عن ذلك الوجع الممض الحارق الباحث حنا بطاطو بقوله: "لم يمحُ الزمن من ذاكرة العراقيين أبداً أنّ البيت الهاشمي وقف في ساعة الشدة إلى جانب أعدائهم"(١).

***

* كلمة أخيرة: حول الزعم بأنّ المحتلين عرضوا على المرجعية ترشيح مرشحها لعرش العراش فرفضت

أما وقد انتهى بي البحث إلى ما انتهى إليه فإنه ليحسن بي أن أُشير بعجالة إلى زَعْم مَن زَعَم بأنّ الإنكليز عرضوا على المرجعية العليا بشكل جدي ترشيحها لشخصية شيعية ليتوّج ملكاً على العراق وأنّ المرجع الأعلى الشيخ الشيرازي رفض العرض.

ونظراً لغرابة العرض فإنّي أُعيد التذكير بما تقدم، حيث رفض الإنكليز اختيار الشيخ خزعل الكعبيّ ملكاً على العراق رغم أنه سائر ويسير في ركابهم، وحافظ ويحافظ على مصالحهم النفطية والاستراتيجية في المنطقة، وعقد ويعقد معاهدات معهم، وذلك لأسباب يأتي في مقدمتها كونه شيعيّاً، فـ"سيكون أشبه بكارثة" حسب برقية بعثها نائب المندوب السامي البريطاني في العراق ولسون إلى وزارته، فتلقى برقية جوابية "تتضمن موافقتها على رأيه، وتطلب منه اتخاذ الخطوات اللازمة... للحيلولة دون ترشيحه"(٢). وقد كان سبق رأي ولسون ووزارته رأي

---

(١) العراق. حنا بطاطو: ٤٨.

(٢) ثورة ١٩٢٠ الجذور السياسية والفكرية والاجتماعية للحركة القومية العربية الاستقلالية. سابق: ٢٩٦.
يذكر أن السلطات البريطانية منعت توزيع كتاب في العراق طبعه الشيخ خزعل في مصر سنة ١٩٢٠م "تضمن تاريخ الإمام علي وقصيدة طويلة جدّاً في مدحه بقلم عبد المسيح الأنطاكي...وأرسلت إلى العراق =

المندوب السامي بيرسي كوكس المؤيد للحيلولة دون ترشيخ الشيخ خزعل قبل ذلك بقوله: "إنّ اختيار خزعل لإمارة العراق سيكون ذا تأثير سيّئ على السنّيّين الذين كانوا ذوي النفوذ الأعظم في العراق"(١).

ناهيك عن أنّ أعدى أعداء الإنكليز في العراق هم مراجع شيعة العراق حسب تصريحاتهم هُم؛ لأنّ مراجع النجف الأشرف وكربلاء والكاظمية المقدستين -والشيعة الوطنيين من ورائهم- هم الذين أجّجوا الثورة الحمراء ضد احتلال الإنكليز ثلاث مرات؛ **أُولاها**: حينما وطئت أقدام الإنكليز الغازية أرض العراق سنة ١٩١٤م، **وثانيها**: حينما أفتوا -مراجع شيعة العراق- وقادوا ثورة العشرين التحررية، فكلفتهم من الأرواح والأموال الكثير.. الكثير. **وثالثها**: حين دعمت المرجعية العليا الانتفاضة الشيعية الشعبية ضد المعاهدة البريطانية العراقية سنة ١٩٢٢م، تلك الانتفاضة التي وصفها المندوب السامي البريطاني في العراق بيرسي كوكس بقوله: "إنّ منطقة الفرات على وشك القيام بثورة كانت معالمها تدل على أنها لن تكون أقلّ خطورة من تلك التي كانت هذه العناصر المتطرفة نفسها قد أثارتها سنة ١٩٢٠م"(٢)، ولم يستطع الإنكليز إخمادها إلّا باللجوء إلى استخدام قصف الطائرات الوحشي على المدن والتجمعات الشيعية الثائرة.

كما أنّ مراجع الشيعة هم الذين وقفوا حائلاً دون تحقيق مصالح ورغائب ومطالب ومطامح الإنكليز كاملة في العراق والمنطقة، وقد مرت علينا، وستمر تصريحاتهم الشديدة ضد الشيعة ومراجعهم ومجتهديهم وقادتهم وزعمائهم وشيوخهم وثوارهم، وصولاً إلى الإعدام والسجن والتعذيب والنفي والإبعاد

= لتوزيعها على الناس مجاناً في سبيل الدعاية لخزعل، ولكن السلطة البريطانية لم تسمح بنشره فبقيت نسخ الكتاب مخزونة في بيوت الذين كلفوا بتوزيعه، ولم ينشر إلّا بعد سنوات. أي بعد فوات الأوان" (لمحات اجتماعية من تاريخ العراق الحديث. سابق: ٦/ ٧٧).

(١) لمحات اجتماعية من تاريخ العراق الحديث. سابق: ٦/ ٧٧.

(٢) المصدر السابق: ٦/ ١٧٩ نقلاً عن كتاب: تكوين الحكم الوطني في العراق. كوكس ودوبس: ٦/ ٢٢١.

والتسفير والتشريد والقصف والتدمير وحرق المزارع بالطائرات والمدفعية الثقيلة وأمثال ذلك.

أما لو تحدّثنا عن إقصاء الإنكليز للأغلبية الشيعية عن الحكم والإدارة وتهميشهم بالكامل، وتسليم الحكم والإدارة للأقلية العددية السنية الطائفية، وما جرّه هذا الموقف المعادي والمخالف للديمقراطية التي يتشدقون بها من ويلات ودمار ودماء ودموع لعشرات السنين اللاحقة - فحدّث ولا حرج.

كل ما تقدم يدعونا -على فرض صحة هذا الزعم- إلى القول بأنّ عرضاً كهذا لا يمكن فهمه إلّا على أنه محاولة ماكرة وعبثية لإحداث فجوة بين الشعب الرافض للاحتلال والانتداب والثائر ضده من جهة، والمرجعية الدينية العليا الداعية إلى الجهاد ضد الاحتلال والانتداب من جهة أخرى، رجاء أن ينخدع من ينخدع من بسطاء الناس بدعوى أن الإنكليز عرضوا على المرجعية العليا عرش العراق. فلماذا الثورة وسفك الدماء وإزهاق الأرواح؟.

على أنّ المحتلين وشهود تلك الحقبة الزمنية من معاصريها أو من تبعهم من مؤرخيها يعلمون كل العلم بأنّ المرجعية العليا ترفض بكل تأكيد عرضاً يكون فيه مرشحها لعرش العراق حاكماً صوريّاً تحت الانتداب البريطاني، مأموراً بتنفيذ مصالح المحتلين ضد مصالح شعبه ووطنه، وأنّ المندوب السامي البريطاني هو الحاكم الفعلي بموجب قرار عصبة الأمم، وأنّ لقرارته علوية على قرارات السلطات كافة ما دام العراق حينئذ وبعده حتى سنة (١٩٣٢م) تحت الانتداب البريطاني.

فإذا أضفنا إلى ذلك مبنى المرجعية العليا القاضي بأنّ الشعب هو مصدر السلطان كافة وهو صاحب الحق الأول والأخير في اختيار المرشح لهذا المنصب بالتصويت له؛ اتضح سبب رفض المرجعية للعرض المزعوم أكثر فأكثر.

ولو أمعنا النظر بجواب المرجع الأعلى وفق ما ورد في الخبر نفسه -من أنّ سماحته أجاب على العرض المزعوم "بأنّ الشعب هو الذي سيختار لمن يشاء،

أمّا هو فلا ولن يختار للأمة ما هو من حقها"[١]- لاتّضح لنا موقفها بجلاء.

عسى أن يكون فيما تقدم كفاية لمن أحب معرفة سبب رفض المرجعية للعرض البريطاني المزعوم ترشيح أحد لعرش العراق، إضافة إلى وجود أدلّة أخرى لا مجال لذكرها هنا. ففيما ذكرته كفاية.

❀ ❀ ❀

(١) الزعيم الموهوب. سابق: ٣٩٦.

الفصل الثالث عشر

التشابه بين نظريتي الحكم لكل من سماحة السيد السيستاني (دام ظله)، وسماحة الشيخ النائيني (قده) المطبقة نسبيّاً في ثورة العشرين

وفيه تمهيد مختصر ومباحث ثلاثة هي:

المبحث الأول

نظرية (إرادة الأمة) لسماحة السيد السيستاني

المبحث الثاني

النظرية الدستورية لسماحة الشيخ النائيني

كما في (تنبيه الأمّة وتنزيه الملّة) المطبّقة نسبيّاً في ثورة العشرين

المبحث الثالث

الفرق بين نظرية (إرادة الأمة)

والنظرية الدستورية كما وردت في كتاب (تنبيه الأمة وتنزيه الملّة)

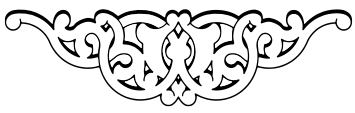

وسأتناولها تباعاً مبتدئاً بالتمهيد

تمهيد

نظراً لطرح نظريتين فقهيتين متقاربتين في شكل نظام الحكم، صادرتين من مرجعين دينيين نجفيين عراقيين، سعى رواد كل منهما إلى تطبيقها على أرض الواقع في العراق خلال زمنين مختلفين يفصل بينهما قرابة قرن من الزمان، أولاهما نظرية (المشروطة) المدونة في كتاب (تنبيه الأمة وتنزيه الملّة) التي سعت إلى تطبيقها نسبياً ثورة العشرين في مدينة النجف الأشرف بعد تحريرها من نير المحتل البريطاني الغازي، وثانيتهما نظرية (إرادة الأمة) التي سعى إلى تطبيقها المواطنون العراقيون ما أمكن من خلال انتخابات (الجمعية الوطنية) ليحل دستورها الدائم المصوت عليه من قبل الشعب محل الاحتلال الأمريكي للعراق سنة ٢٠٠٣م.

لقد بات من الواضح أنّ السعي لقيام نظام وطني ببرلمان منتخب في انتخابات حرة مباشرة مستند إلى دستور كان الشعب قد أقرّه سابقاً ينص على الالتزام بالثوابت الدينية والوطنية وعدم جواز تشريع أي قانون أو نظام يخالف أحكام الإسلام – هو أفضل ما يمكن أن يؤسس في ظرف تأسيسه الزماني والمكاني.

لذا وجدت من المناسب الوقوف على مبانيهما معاً، قدر ما تسمح به المساحة المخصصة لذلك، مبتدئاً بالنظرية الأحدث زمناً منهما، ثم بيان نقاط الالتقاء والافتراق بينهما، وذلك في الفصول الثلاثة اللاحقة.

المبحث الأول

نظرية (إرادة الأمة) لسماحة السيد السيستاني

تتضح مباني نظرية المرجع الأعلى الحالي السيد علي الحسيني السيستاني (دام ظله) الموسومة بـ(نظرية إرادة الأمة) التي "ارتأى سماحته مناسبتها للوضع العراقي بعد سقوط النظام البائد نتيجة احتلال العراق سنة (١٤٢٤هـ/ ٢٠٠٣م)، ولا تستكشف منها نظريته في مسألة نظام الحكم في عصر الغيبة مطلقاً"[١]، وذلك من خلال الأسس الثلاثة الآتية:

الأساس الأول: الالتزام بالعهود والمواثيق، حتى يحقق الإنسان إرادة نفسه، ويكون ملزماً لنفسه بفعل، أو ترك، نحو الغير، ويجعل على المخالفة حكماً جزائياً، مقابل التزام الغير له، فلا بدَّ لتحقيق إرادته من الالتزام بالعهود والمواثيق التي يجعلها على نفسه، انطلاقاً من حقيقة أولوية كل أحد بالنسبة إلى نفسه، وما يعد من شؤونه، والأصل: عدم وجود ولاية لأحد على أحد، وهذا الحق بالإلزام والالتزام، وما يترتب عليه من الأحكام، قد يمارسه الإنسان بنفسه، وقد يفوّضه للغير، من قبيل إعطاء ولاية الحكم في مقام التحكيم.

ومن هذا التفويض، تستمد شرعية الحكم من فئة الشعب للشعب، وينسجم مع الأصول التشريعية للمسلمين، وتشمله أدلة ﴿أَوۡفُواْ بِٱلۡعُقُودِ﴾[٢]، و"إنّ المسلمين عند شروطهم إلّا شرط حرّم حلالاً أو أحَلَّ حراماً"[٣]، ولكي لا تكون هذه الولاية في عرض ولاية الله سبحانه، الثابتة له في الحكم، لا تكون الأحكام الصادرة بموجب

---

(١) ما بين القوسين قاله (دام ظله) لي شخصياً خلال تشرفي بلقائه بمناسبة صدور كتابي (النجف الأشرف وحوزتها) وإهدائي نسخة منه إليه.

(٢) سورة المائدة. آية: ١.

(٣) تهذيب الأحكام. الشيخ الطوسي: ٧/ ٤٦٧، ح١٨٧٢/ ٨٠.

تلك الولاية، محلِّلَة للحرام، ومحرِّمة للحلال، أي لا تتصادم مع التشريع الإلهي في الوقائع، في مرحلة سَنّ القوانين، كما تكون في طول عدم إمكان ثبوت الولاية من الله سبحانه للفقيه الجامع للشرائط.

ويمكن إثبات هذا الأساس من نظريته (دام ظله)، بما ورد في إجابته وإجابات مكتبه عن الاستفتاءات والأسئلة الموجهة إليه، من قبيل إصراره على رفض تشكيل مجلس لكتابة الدستور، تُعيّن أعضاءه سلطات الاحتلال، بقوله (دام ظله) في (٢٥ ربيع الثاني ١٤٢٤هـ/ ٢٥ حزيران ٢٠٠٣م): "إنّ تلك السلطات لا تتمتع بأية صلاحية في تعيين أعضاء مجلس كتابة الدستور، كما لا ضمان أن يضع هذا المجلس دستوراً يطابق المصالح العليا للشعب العراقي، ويعبّر عن هويته الوطنية، التي من ركائزها الأساس، الدين الإسلامي الحنيف، والقيم الاجتماعية النبيلة، فالمشروع المذكور غير مقبول، ولا بُدّ أوّلاً من إجراء انتخابات عامة، لكي يختار كل عراقي مؤهل للانتخابات من يمثّله في مجلس تأسيسي لكتابة الدستور، ثم يجري التصويت العام على الدستور الذي يقرّه هذا المجلس، وعلى المؤمنين كافة المطالبة بتحقيق هذا الأمر المهم، والمساهمة في إنجازه على أحسن وجه"[١].

وقد أكدت المرجعية العليا على هذا الموقف (٣٧) سبعا وثلاثين مرة في أجوبتها على الأسئلة، والاستفتاءات الموجهة اليها، أو في رسائلها إلى الجهات المعنية، وهو ما أغناني عن ذكر المزيد من نصوصها في هذا الشأن، مكتفيا بالنص الصادر عن المرجع الأعلى السيد السيستاني (دام ظله) نفسه كما تقدم[٢].

الأساس الثاني: تغليب رأي الأكثرية: (أي الشورى)، والشورى في النظام الديمقراطي تعني: وجوب الأخذ بمبدأ الأكثرية، وهي موافقة للشورى الإسلامية من جهة وجوب العمل بها، لا من جهة وجوب الأخذ بمبدأ الأكثرية، وقد جعلت المرجعية الدينية العليا، كِلا الوجوبين، معتمدة ومراهنة على إرادة الأمة، المتمثلة

(١) النصوص الصادرة عن سماحة السيد السيستاني (دام ظله) في المسألة العراقية. حامد الخفاف: ٣١-٣٢.

(٢) تنظر مثلاً: ١٨، و٣٦، و٣٩، ٤٠، و٤٣، و٤٧، و٤٩، و٥٣، و٦١، و٧٢، و٧٥، و٨٠، وغيرها كثير.

بالشعب العراقي، ذي الغالبية الأكثرية المسلمة، فمن المؤكّد أنهم سيختارون من خلال مجالسهم الشوروية نظاماً يحترم الشريعة الإسلامية، مع حماية الأقليات، ولهذا جعل الشورى أحد الأسس التي يجب أن يقوم عليها عراق المستقبل.

ومبدأ هذا الأساس موجود في الأساس الأول، بمقتضى ولاية الإنسان على نفسه، في تفويض الحكم للغير. وإنما اعتمد رأي الأكثرية لكونه من الناحية العقلية موضع رضا الجميع، وملزماً لهم، باعترافهم، والتزامهم، ويحصل التصالح به بين جميع الفئات.

وهذا التفويض لاختيار الأكثرية لا مانع منه في مجال تشريع القوانين، ما دامت الأكثرية مسلمة، ولم تختر ما يصدم ثوابت المسلمين، ويكون الشرط والعقد الذي يحصل بموجبه أصل التفويض أو تحكيم الأكثرية في التفويض لمن له الحكم والتنفيذ، لا يحلل حراماً ولا يحرم حلالاً.

وقد أكدت المرجعية العليا على هذا المبدأ مراراً، من ذلك مثلاً: "الدستور العراقي القادم ينبغي أن تكون ركائزه الأساس هي الثوابت الدينية، والمبادئ الأخلاقية السامية، والقيم الاجتماعية النبيلة، للشعب العراقي، إلى جنب مبدأ الشورى، والتعددية، واحترام الأقلية لرأي الأكثرية، ونحو ذلك"(١).

وفي سؤال ورد إلى المرجعية العليا عن: أي نظام يعتقد سماحتكم أن يكون في العراق؟ أجابت: "النظام الذي يعتمد الشورى، والتعددية، واحترام حقوق جميع المواطنين"(٢).

كما أجابت على سؤال مماثل عن الأسس التي يجب أن يقوم عليها عراق المستقبل بقولها: "مبدأ الشورى، والتعددية، والتداول السلمي للسلطة، في جنب مبدأ العدالة، والمساواة بين أبناء البلد، في الحقوق والواجبات. وحيث أنّ أغلبية الشعب العراقي من المسلمين، فمن المؤكد أنهم سيختارون نظاماً يحترم ثوابت

(١) المصدر السابق: ٥١.

(٢) نفسه: ٥٨.

الشريعة الإسلامية، مع حماية حقوق الأقليات الدينية"[١]. وهناك غيرها ممّا ورد لا يسع المجال لذكرها[٢].

الأساس الثالث: الأخذ بمبدأ الانتخاب: لَمّا كان المكلف بحاجة إلى من يُعينه في إدارة شؤونه العامة، أو ما تدعو إليه الضرورة، لاستنقاذ حق، أو دفع باطل؛ كان بإمكانه، وتبعاً لإرادة نفسه، أن يفوّض أو ينيب غيره من الأكفاء على إدارة المَهَمّة، بآلية الانتخاب، في مجال تشريع القوانين، وغيرها.

وعليه، يمكن اعتماد مبدأ الانتخاب، مبدأً تعويضياً عن البيعة، منح فيه المكلف ممارسة حقه، بحسب ولايته على نفسه من جهة، ومن جهة أخرى، قبول المرجعية الدينية العليا في النجف الأشرف بحق الانتخاب، على وفق مبدأ الأكثرية كآلية عمل، من خلال ممارسة الأمة لدورها، ليلزم الآخر، ويرغمه على تنفيذها، خصوصاً بعد معارضة القوى السياسية الانتخابات معارضة شديدة، بحجج واهية، استطاعت المرجعية الدينية العليا إبطالها.

وقد جعلت فتاوى الانتخاب كحق معبّر عن إرادة الأمة؛ لأنّ لهم الولاية على أنفسهم، في اختيار شكل الحكومة، ومن يمثلهم، وجاءت تلك الفتاوى من قبل المرجعية الدينية العليا لتؤكد على ذلك الحق، لتمكين الشعب العراقي من تشكيل حكومة ترعى مصالحه، وأكد مكتب المرجعية العليا مراراً، على ضرورة أن تكون الحكومة العراقية ذات سيادة، منبثقة من انتخابات حرة ونزيهة، يشارك فيها أبناء الشعب العراقي بصورة عامة، وكذلك التحقق من إدراج أسماء الناخبين المؤهلين بصورة صحيحة للتصويت من الذكور والإناث في سجل الناخبين[٣].

بل ذهبت نظرية سماحته (دام ظله) إلى أكثر من ذلك، حين قالت: "يجب

---

(١) النصوص الصادرة عن سماحة السيد السيستاني في المسألة العراقية. سابق: ٩٨.

(٢) ينظر: المصدر نفسه: ٥١.

(٣) مشروعية البرلمانات في ظل الأنظمة السياسية المعاصرة. بحث للشيخ حيدر السهلاني. مجلة دراسات علمية. سابق (بتصرف).

على المواطنين المؤهلين للتصويت من الذكور والإناث، التحقق من إدراج أسمائهم في سجل الناخبين، بصورة صحيحة، ومن لم يدرج اسمه، أو أدرج بصورة مغلوطة، فعليه مراجعة اللجنة الانتخابية في منطقته، وإبراز المستمسكات المطلوبة، للتدارك والتصحيح"[١].

ثم طلبت من وكلائها ومعتمديها في أنحاء العراق، مساعدة المواطنين في ذلك بقولها: "وعلى أصحاب الفضيلة المعتمدين، تشكيل لجان شعبية في مناطقهم، لمساعدة المواطنين على إنجاز هذا الأمر المهم، حتى يتسنى للجميع المشاركة في الانتخابات".

لقد عبّرت الفتاوى بوضوح تامّ، عن العمل بمبدأ الأكثرية، من أمثال ما نصت عليه المرجعية العليا بقولها: "يفترض بالحكومة التي تنبثق عن إرادة أغلبية الشعب أن تحترم دين الأغلبية، وتأخذ بقيمه، ولا تخالف في قراراتها شيئاً من أحكامه"[٢]، بل زادت على ذلك، فنصت على أنه: "لا بدّ لمن يدخل المجلس الإداري أن يكون كفوءاً بأداء عمله، ويحظى بثقة غالبية المواطنين"[٣].

❀ ❀ ❀

(١) النصوص الصادرة عن سماحة السيد السيستاني في المسألة العراقية. سابق: ١٢٧.

(٢) المصدر السابق نفسه: ٢٨.

(٣) نفسه: ١٨٨.

المبحث الثاني

النظرية الدستورية لسماحة الشيخ النائيني كما في (تنبيه الأمّة وتنزيه الملّة) المطبّقة نسبيّاً في ثورة العشرين

تقدم الحديث في الأبواب والفصول السابقة بأنّ مراجع ومفكري الثورة هم من قادة ومؤيدي الحركة الدستورية (المشروطة)، وأنهم كانوا يسعون إنْ قُدّر لهم الانتصار في ثورة العشرين إلى إقامة نظام للحكم بحكومة عربية إسلامية يترأسها ملك عربي مسلم مقيد بالعمل وفق متبنياتهم الفكرية طبقاً للنظرية الدستورية في الحكم، تلك النظرية التي وفق في عرضها أحسن وأدقّ وأوفى عرض سماحة المحقق الشيخ محمد حسين النائيني في كتابه (تنبيه الأمّة وتنزيه الملّة)، فـ"أحدثت دويّاً في الأوساط وغيّرت وجهة نظر الكثير من دعاة الاستبداد"[1].

ومن المعلوم أنّ سماحته كان أحد المجتهدين الكبار الذين شاركوا في الجهاد ضد المحتلين الإنكليز.

يقول المرجع السيد شهاب الدين المرعشي النجفي في رسالة بعثها إلى الباحث عبد الهادي الحائري واستلمها في (١٥ آذار ١٩٧٢م) مشيراً فيها سماحته ليس إلى مشاركة الشيخ النائيني في جبهات القتال ضد الاحتلال البريطاني للعراق وإلى دوره "الفعّال" فيها فحسب، بل "وحتى أعمال العلماء الكبار كانت بتشجيع من النائيني وزملائه"، فقد جاء في مقتطف من رسالة أرسلها المرجع المرعشي النجفي إلى الباحث عبد الهادي الحائري ما يلي: "كنت في ذلك الوقت شابّاً مكلّفاً بالسقاية بين خيام المجاهدين، وكان أكثر مجتهدي الشيعة متواجدين في جبهات الحرب المختلفة، وكان النائيني حاضراً أيضاً باعتباره واحداً منهم. ورغم عدم تمتع النائيني لدى الرأي العام بالمكانة التي كان يتمتع بها مراجع التقليد العظام كالشيخ محمد تقي الشيرازي إلّا أنه وبعض العلماء الآخرين كالسيد أبو القاسم الكاشاني،

---

(١) النجف والحركة الدستورية (المشروطة). سابق. موقع العتبة العلوية المقدسة على الإنترنت.

والميرزا رضا الإيرواني، كانوا يمثلون العناصر الفعالة في هذا الجهاد، والأكثر انغماساً فيه، بل إنّ مبادرات وحركات المراجع العظام في هذا الجهاد كانت نتيجة تشجيع النائيني وأصدقائه الذين يشاطرونه التفكير والرأي"[١].

ووصف الباحث عبد الهادي الحائري في كتاب آخر من كتبه دور الشيخ النائيني وبعض العلماء من زملائه في حركة الجهاد المسلح ضد الإنكليز بأنهم "كانوا نشيطين جدّاً في الحملة"[٢].

يضاف إلى ذلك أنّ سماحة الشيخ النائيني كان أحد الموقّعين على المضبطتين المقدمتين من أهالي مدينتي النجف الأشرف والشامية -بكافة طبقاتهما المختلفة من المراجع وكبار المجتهدين والزعماء والشيوخ- إلى قوات الاحتلال البريطاني للعراق، المتضمنتين مطالبهم بالاستقلال التام وتحقيق شكل نظام الحكم المطلوب والمراد تحقيقه.

أكثر من ذلك؛ فقد كان المرجع الأعلى شيخ الشريعة الأصبهاني الذي أصبح مرجع الثورة وقائدها بعد وفاة مفجرّها؛ يعرض البيانات والخطط والمواقف التي ينوي اتخاذها على سماحة المرجع الشيخ النائيني قبل إبرامها.

يقول الباحث عبد الهادي الحائري: "إنّ الفترة القصيرة لزعامة شيخ الشريعة قد شهدت تعاون النائيني الوثيق معه في قضايا الثورة العراقية. ومن أمثلة ذلك أنّ شيخ الشريعة الأصفهاني كان يتشاور مع النائيني مسبقاً عندما يريد إصدار أي فتوى"[٣].

وينقل الحائري عن شقيق سماحة المرجع الميرزا محمد حسين النائيني، الميرزا عبد الرحيم النائيني في لقاء أجراه الحائري معه: "أنّه كان ناقلاً للرسائل وحلقة الوصل بين شيخ الشريعة الأصفهاني والنائيني في هذا المجال"[٤].

---

(١) محمد حسين النائيني وتأسيس الفقه السياسي. سابق: ٤١-٤٢. وينظر: بحوث ودراسات عن علماء الحوزة العلمية في النجف الأشرف. السيد هاشم فياض الحسيني: ٣/ ١٩٩.

(٢) التشيع والدستورية في إيران دور علماء العراق الشيعة في السياسة الإيرانية. عبد الهادي الحائري: ١٧٥.

(٣) محمد حسين النائيني مؤسس الفقه السياسي. سابق: ٤٨.

(٤) المصدر السابق: ٤٨. هامش رقم ١.

لقد "برز النائيني قائداً للوطنيين في العراق ضد الانتداب البريطاني وناضل مع غيره من العلماء الشيعة وشيوخ العشائر العراقية من أجل استقلال العراق. ولاقى النائيني من البريطانيين معاملة قاسية بسبب دوره في هذه الحركة، وكان ردّ فعلهم سبباً لإبعاده من العراق وتشريده لاحقاً"[1]، كما تقدم في فصل سابق.

ويحسن بي بادئ ذي بدء أن أقول بأن تطبيق المرجعية الدينية قائدة ثورة العشرين لنظرية (المشروطة) في الحكم، الواردة أهم تفاصيلها في كتاب (تنبيه الأمة وتنزيه الملّة) كما ستأتي – لم يكن تطبيقاً كاملاً، بل هو تطبيق نسبي للنظرية الدستورية من قبل المرجع الأعلى آنذاك سماحة شيخ الشريعة الأصبهاني والمجتهدين والعلماء الذين معه، ومعهم زعماء الثورة وشيوخها في مدينة النجف الأشرف بعد تحريرها من محتليها الإنكليز بقدر ما سمح لهم به الظرف المعاش حينها، خاصة وأن الثورة كانت لمّا تزل قائمة، والجبهات العسكرية للمجاهدين الثوار مشتعلة، وقد أثبتُّ نسبية التطبيق تلك في العنوان أعلاه لأهمية الإشارة إليه.

كما ينبغي لي –من أجل التعرف على متبنيات المراجع والمجتهدين والمفكرين والثوار في شكل نظام الحكم المرتجى بعد التحرير إنْ قُدّر لهم تحرير البلاد أو ما تم تحريره منها– عرض نظرية صاحب كتاب (تنبيه الأمة وتنزيه الملّة)، المرجع لاحقاً، المحقق الشيخ محمّد حسين النائيني. وقبلها إلقاء ضوء على منهجته لكتابه مار الذكر.

لقد كتب الكثير عن كتاب (تنبيه الأمّة وتنزيه الملّة) باللغتين العربية والفارسية وغيرهما من اللغات الحية الأخرى، وهو ما يغنيني عن الدخول في عرض تفصيلي للكتاب المهم؛ لذا فسأكتفي بعرض موجز له.

***

(١) التشيع والدستورية في إيران دور علماء العراق الشيعة في السياسة الإيرانية. عبد الهادي الحائري: ١٩٧.

عرض موجز لكتاب: تنبيه الأمّة وتنزيه الملّة

يتصدر الكتاب المهم تقريض من قبل المرجع سماحة الشيخ محمد كاظم الخراساني زعيم حركة المشروطة ومؤلف كتاب (كفاية الأصول)، والمرجع سماحة الشيخ عبد الله المازندراني.

أما تقريض سماحة المرجع الشيخ الخراساني المحرر والموقع من قبله في (شهر ربيع الأول سنة ١٣٢٧هـ/ نيسان ١٩٠٩م) فهو التالي: "إنّ رسالة تنبيه الأمة وتنزيه الملّة وهي من بيانات صاحب السماحة صفوة الفقهاء والمجتهدين، ثقة الإسلام والمسلمين، العالم العامل الميرزا محمد حسين النائيني الغروي دام رفده، أجلّ من كل مدح، وسيتضح (إن شاء الله) من خلال مدارستها واستيعابها أنّ أصول حركة المشروطة قد استنبطت من الشريعة الحقة، وسيتسنّى لنا إدراك حقيقة العبارة المباركة القائلة (بموالاتكم علّمنا الله معالم ديننا، وأصلح ما كان قد فسد من دنيانا)، إدراكاً لعين اليقين"[1].

وأما تقريض سماحة المرجع الشيخ المازندراني المحرر والموقع في (شهر ربيع الأول سنة ١٣٢٧هـ/ نيسان ١٩٠٩م) كذلك، فقد جاء فيه كما ورد في تقريض سماحة المرجع الخراساني أيضاً بأنّ: "رسالة تنبيه الأمّة وتنزيه الملّة أجلّ من أن تُمدح، وهي وافية، بل وحتى فوق المأمول في إكمال العقائد، وحمل المسلمين على التصديق الوجداني بأن كافة الأصول والمباني السياسية قد أخذت من الدين الإسلامي القويم. فللّه درّ مصنفّها المحقق، وجزاه عن الإسلام وأهله خيراً، وكثّر في الفقهاء والمجتهدين أمثاله بمحمد وآله الطاهرين صلوات الله عليهم أجمعين".

ويلحظ قارئ التقريضين إكبارهما للكتاب وما حواه.

بعد ذلك يبدأ المؤلف كتابه بمدخل يعرض فيه ما كانت عليه الأمم الأوربية الماضية إبّان الحروب الصليبية من التخلف والجهل، وما أن أخذوا بالسياسات الإسلامية من الكتاب العزيز والسنة والتعاليم الصادرة عن أمير المؤمنين ومصادر

(١) تنبيه الأمة وتنزيه الملّة. الشيخ النائيني. ترجمة مشتاق الحلو: ٧٣.

أخرى حتى اعترفوا منصفين بهذا الأمر فطبقوها تطبيقاً حسناً من ناحية، خلافاً للمسلمين الراضخين لحكم الظالمين وآل الأمر بالطرفين إلى ما هم عليه اليوم. ولكن بعد أن عرف المسلمون بفضل إرشاد رجال الدين وقيادتهم مقتضيات دينهم علموا بأنّ الحرية التي منحهم الله إياها تتعارض وذل العبودية لفراعنة الأمة وعرفوا حقهم في المشاركة في جميع الأمور ومساواتهم في ذلك مع من جار عليهم.

ونظراً لأنّ السكوت عن نصرة الشريعة الحقة مخالفة للتكليف الشرعي بل هي معونة على الظلم؛ فقد أخذ مؤلف الرسالة على عاتقه القيام بواجبه ليسقط الواجب عن غيره. وسمّى الرسالة باسمها، (لتنبيه الأمة) بضرورات الشريعة و(تنزيه الملّة) عن البدع، ورتّبها في مقدمة وخمسة فصول وخاتمة.

أمّا المقدمة فقد قال عنها كاتبها إنّها تمحضت لبيان حقيقة الاستبداد ومشروطية الحكم وبيان المراد من مصطلحات الدستور الدائم، ومجلس الشورى الوطني، والحرية والمساواة في الحقوق والأحكام والقصاص والعقوبات فكتب: "وأختم هذا المدخل بذكر عناوين الفصول الخمسة للكتاب بشكل إجمالي:

الفصل الأول: إنّ حقيقة السلطنة الموضوعة في الدين الإسلامي وسائر الشرائع والأديان، بل وحتى عند الحكماء والعقلاء غير المتدينين، منذ القدم وحتى اليوم، جميعها على النحو الثاني -التي تكون صلاحيات الحاكم فيه مقيدة، ولا يجوز له تجاوز الأطر المحددة له- وتحويلها إلى النوع الأول (أي من الأمانة إلى المالكية) من بدع الطواغيت والظالمين لا محالة.

الفصل الثاني: هل علينا في عصر الغيبة التي فقدنا فيها المعصوم، وغصبت الولاية والنيابة العامة، واسترجاعها خارج عن طاقتنا، تحويل الحكم من الشكل الأول الذي يشكّل غصباً وظلماً مضاعفاً، إلى النوع الثاني، والحدّ من سلطة الظالمين قدر المستطاع؟ أم أن كون المقام مغتصباً يسقط التكليف؟

الفصل الثالث: لو فرضنا ثبوت لزوم التحديد المذكور، فهل تنحصر طريقة

التحديد بالنظام الدستوري القائم على الأصلين المذكورين؟ وهل هو خالٍ من الإشكال؟ أم لا؟

الفصل الرابع: في ذكر بعض التحريفات والمغالطات المطروحة، والرد عليها.

الفصل الخامس: في بيان وظائف نواب الشعب، وشروط صحة عملهم، ومشروعية تدخلهم في الأمر، بشكل إجمالي".

وإذ دخل في كتابة فصله الأول من كتابه عنونه بعنوان: حقيقة الحكم المطلوب في الأديان، تناوله في محورين؛ الأول: اشتراط صلاحيات الحاكم بإقامة الواجبات والمصالح العامة. الثاني: تبيين مقدار هذا التقييد وبيان حقيقته.

وعنون فصله الثاني بعنوان: المسؤولية في عصر الغيبة فبحث فيه ما سمّاه: تحويل الحكم من النوع الأول إلى الثاني. وقد تقدم الحديث في أعلاه عن مقصوده بالنوعين الأول والثاني.

وفي هذا الفصل انتهى مؤلفه بالدليل والبرهان، وزيادة الدليل والبرهان إلى ما وصفه بجملة واحدة لخص فيها هذا الفصل بقوله: "في جملة واحدة يجب القول بأن حفظ القدر المتيقن في مجال تحديد الحكم الإسلامي، وهو متفق عليه عند الأمة، ومن ضروريات الإسلام، إضافة إلى كونه من أهم تكاليف المسلمين العامة، ومن أعظم نواميس الدين المبين، يعدّ من ضروريات مذهبنا في حال غصب المقام، وتجاوز الغاصب... ويدخل ضمن دائرة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وحفظ نفوس المسلمين وأعراضهم وأموالهم، ودفع ظلم الظالمين من جهات عديدة أخرى. كما أشرت إجمالاً".

ثم ختم هذا الفصل بقوله: "وبناء على ذلك من الواضح أنّ تحول الحكم الجائر الغاصب من الشكل الأول الظالم، إلى الشكل الثاني العادل، يؤدي إلى حفظ بيضة الإسلام وحوزة المسلمين من استيلاء الكفار عليها، إضافة إلى جميع الإيجابيات المذكورة سلفاً، لذلك أصبح من أهم الواجبات".

أما الفصل الثالث من الكتاب الذي عنونه سماحته بإشكالات على الحكم

الدستوري (المشروطة) وبدائله، فقد ذكر فيه: "أنّ حفظ النهج الإسلامي في الحكم عن الانحراف، وتقييد الحاكم، ومسؤوليته عن أفعاله، وأصل الشورى، وسائر المقومات التي تجعل الحكم ولائيّاً، لا يتحقق إلّا من خلال كتابة الدستور، وقيام هيأة الإشراف والتقويم والدعم... فهي بناء على أصول مذهبنا تقوم بالقدر الممكن من النيابة عن العصمة، وبناء على مباني أهل السنّة تقوم بالنيابة عن القوة العلمية وملكة التقوى والعدالة. إنّ حفظ الحكم الإسلامي متوقف على ركني كتابة الدستور وقيام هيأة بالإشراف على مجريات الأمور... وتوقف هذه النيابة (عن العصمة لدى الشيعة، وعن ملكة العلم والتقوى والعدالة لدى أهل السنّة) على توزيع السلطات، وعودة هذه المباني بعد إرجاع الفروع إلى الأصول، إلى الشرع الإسلامي، وخاصة في مذهبنا الإمامي".

ومن الطريف أنّ المؤلف لم يقتصر في استدلاله -على صحة ما انتهى إليه من رأي- على المذهب الإمامي وحده، بل استدل على صحته أيضاً وفق مذهب أهل السنّة والجماعة كذلك. وهذا ما يحسب له وخاصة زمن طرحه لنظريته في كتابه القيم (تنبيه الأمة وتنزيه الملّة) قبل أكثر من قرن من الزمان.

أما الفصل الرابع الذي عنونه ببعض الإشكالات الواردة على المشروطة والإجابة عنها، فقد استعرض فيه:

أولاً: المغالطات التي ترتبط بأصل الحرية المبارك. وهو حرية الشعب من عبودية الجائرين.

ثانياً: المغالطة حول معنى المساواة. ويقصد بها تساوي جميع أفراد الشعب مع بعضهم ومع الحاكم في جميع الأمور العامة. مبيّناً أنّ قانون المساواة من أشرف القوانين المأخوذة من السياسات الإسلامية، وهو أساس العدالة وروح جميع القوانين. مؤكداً على أن حقيقة المساواة في الشريعة المطهرة هي وجوب تطبيق أي حكم عام وقانوني بالسوية ودون تفريق على جميع المصاديق في أي من المواضيع، ولا يلاحظ في تطبيقه أي امتياز فردي لحاكم أو محكوم أو عفو أحد عنه كما تطبق

العناوين الأولية المشتركة بين عامة الناس على الجميع كحفظ الأرواح والأعراض والأموال والمسكن وعدم التعرض لها بلا سبب، ويشمل ذلك حتى عدم منع التجمعات المشروعة وأمثالها. وفي العناوين الخاصة أيضاً لا يجوز تقديم أحد بل يجب تطبيق العنوان على كل الأفراد المنضوين تحته بالتساوي.

ثالثاً: مغالطات حول تدوين الدستور بدعوى أنها بدعة، وهذه مغالطة واضحة البطلان، ومثلها مثل المغالطة حول كتابة فقهاء في عصر الغيبة رسائل عملية، كونها تطاولاً على مقام النبوة.

رابعاً: مغالطات حول تعيين هيأة المراقبين وعقد مجلس الشورى الوطني. وأهم ما استعرضه تحت هذا العنوان من مغالطات دعوى أن العمل برأي الأكثرية في تشريع القوانين قد يخالف ما تصوت الأكثرية عليه حكماً شرعيّاً، متغافلين الفصل الخاص بالدستور الذي يتناول بيان دور الهيأة المشرفة ومهامها، حيث يصرح بأنّ رأي هيأة المجتهدين مقدّم على رأي الأكثرية من حيث موافقتها للشريعة أو رفضها لكونها مخالفة للشريعة، ويكون رأيهم نافذاً ومطاعاً من قبل الآخرين.

بعد الانتهاء من دفع الشُّبَه والمغالطات المتقدمة في الفصل الرابع عرض في الفصل الخامس من الكتاب: مشروعية عمل النواب وتكاليفهم، ذاكراً فيه شروط صحة عمل النواب في الأمور العامة، ومشروعيته، وبيان تكاليفهم في مقامين:

المقام الأول: تناول فيه بيان عدم وجود أي شرط في صحة تدخل نواب الشعب في الوظائف الحسبية والعامة ومشروعية ذلك سوى إذن المجتهد النافذ الحكم، وتضمن المجلس الوطني عدداً من المجتهدين العدول العالمين بأمور السياسة لتصحيح آراء الأعضاء وإعطائها صلاحية النفوذ. ذاهباً فيه إلى وجوب مشاركة غير المسلمين في الانتخابات بسبب مشاركتهم في الأمور المالية وغيرها، وتوقف أمر الشورى العام على دخولهم.

وبعبارة موجزة: الهدف من إنعقاد مجلس الشورى الوطني هو إشراف النواب وممارسة الوظائف الخاصة بإقامة النظام، وحفظ البلد، وتسيير أمور الشعب،

لا لإقامة حكومة شرعية، وإصدار الفتاوى، وإقامة صلاة الجماعة، ويكفي حضور المجتهدين للإشراف على مشروعية القوانين.

ومن الجدير بالذكر صراحته في أمرين: وجوب اشتراك غير المسلمين في الانتخابات، وأن ليس لانعقاد مجلس النواب أي علاقة بإقامة حكومة شرعية والإفتاء، وذلك قبل أكثر من قرن وعقد من الزمن. وهو ما يحسب له بحقّ.

المقام الثاني: عرض فيه المؤلف ثلاث قضايا:

أُولاها: واجبات النواب العملية وفي مقدمتها تنظيم واردات الدولة المالية وكيفية صرفها، مؤكداً في ذلك على ضرورة الصرف على حفظ النظام وسيادة المسلمين على أراضيهم، وبيضة الإسلام، ولا يتم ذلك إلّا بتنظيم القوة العسكرية بتمويل كافٍ، وهو ما يستدعي حفظ واردات الدولة من البذخ والأمور الكمالية وحفظ البلاد من استيلاء الغزاة الأجانب على ثروات البلاد.

ثانيها: الإشراف على عملية وضع القوانين وتدوينها وإحراز تطابقها مع الشريعة وتشخيص المواد القابلة للإبطال أو التغيير عن غيرها من مهام نواب الشعب.

ثالثها: توزيع سلطات البلد، عادّاً إياه من الوظائف السياسية الضرورية، مستنداً في ذلك إلى ما ورد في عهد الإمام أمير المؤمنين عليه السلام إلى واليه على مصر مالك الأشتر رضي الله عنه.

ثم بعد أن انتهى من عرض فصول الكتاب الخمسة، ختمه بخاتمة عنونها بعنوان: عناصر الاستبداد وسبل مكافحتها، متناولاً ذلك في مقصدين تناول أولهما قسماً من هذه العناصر وهي:

أولاً: الجهل وعدم اطلاع الشعب على حقوقه وتكاليف السلطة أساس عناصر الاستبداد ومنشؤها.

ثانياً: الاستبداد الديني: الذي أسسه في الإسلام معاوية بن أبي سفيان بمعونة عمرو بن العاص وأشباهه الذين اعتبروا من صحابة رسول الله صلى الله عليه وآله، فكانت

مغالطاتهم باسم الدين نافذة بين الناس، إذ جمعهم معاوية لتفريق كلمة الناس والقيام في وجه الولاية، ومجابهة أمير المؤمنين عليه السلام، وكذلك أولئك الذين تقاعسوا عن نصرة الحق وخذلان مقام الولاية كما فعل أبو موسى الأشعري.

ثالثاً: ترويج عبودية الملك في البلاد وجعل التزلّف إليه بديلاً عن الكفاءات العلمية والعملية، فغدت جميع أمور البلاد والجيش بيد المتزلفين، فهي ملاك منح المناصب وتسلم زمام الأمور.

رابعاً: زرع بذور الخلاف بين الشعب لتفريق كلمته.

خامساً: الإرهاب والتخويف والتعذيب.

سادساً: الاستبداد الطبقي واستعباد الضعفاء.

سابعاً: اغتصاب الأموال العامة وتسخير الجيش لقمع الشعب.

ومستعرضاً في مقصده الثاني: سبل مكافحة عناصر الاستبداد بمكافحة عناصر الاستبداد المتقدم ذكرها، مشيراً في نهاية خاتمته إلى أنه صنّف هذا الكتاب "في وادي الغري المقدس على مشرّفه أفضل الصلاة والسلام في شهر ربيع الأول سنة ألف وثلاث مئة وسبع وعشرين من الهجرة المقدسة على مهاجرها وآله أفضل الصلاة والسلام"[1].

ويلخص أحد الباحثين ما تضمنه الكتاب بقوله: "يشتمل الكتاب بعد توطئة مختصرة على مدخل يُناقَشُ فيه نمطان من الحكم: النمط الاستبدادي والنمط الدستوري، يضاف إلى ذلك أنّ الكتاب يناقش مفاهيم الحرية والمساواة والدستور والبرلمان. ويركز الفصل الأول على إقامة الدليل الذي يُثبت أنّ الاستبداد مُدان في الإسلام وفي ديانات أخرى وأنّ الدعوة كانت لصالح شكل حكم معتدل محدد السلطات ودستوري. يجادل الكتاب في فصله الثاني أنّ شكل الحكم الأمثل متعذر خلال الغيبة الكبيرة للإمام الثاني عشر، ولذا على الناس أن يختاروا نظام حكم غير مطلق وينبذوا الاستبداد. ويركز الفصل الثالث على مسألة الدستورية الغربية التي

(١) تنبيه الأمة وتنزيه الملة. الشيخ النائيني. ترجمة مشتاق الحلو: ١٧٤.

تعتبر أفضل نظام حكم ممكن... وكرس الفصل الرابع كله لتفنيد "فكرهم الخبيث ومغالطاتهم". ويشرح النائيني في الفصل الخامس من "تنبيه الأمة" الشروط التي يمكن لممثلي الشعب أن ينهضوا بالمسؤولية في ظلها، ويأخذوا على عاتقهم واجبات الحكم فيها. كما تضاف خلاصة للكتاب يقدم فيها المؤلف مزيداً من الشرح حول الاستبداد وكيف يعالج هذا المرض الخطير في المجتمع"[١].

وإذا كان لي بعد كل ما تقدم من بيان موجز لفصول الكتاب نصّاً منه، أو بعرض له منّي، أو من أحد الباحثين المتخصصين بدراسة الشيخ النائيني وكتابه؛ ينبغي لي -من أجل ضمان الدقة والموضوعية أكثر وأكثر- أن أقف وقفة دقيقة وأوقف القارئ معي على نظرية سماحته، بقلمه هو بما أورده في كتابه التنظيري المهم، تاركاً المجال له ليعبر عن مباني نظريته، مكتفياً بربط بعض نصوص الكتاب ببعضها البعض في النقاط التالية:

١. "إنّ ما اجتمعت عليه كلمة جميع الأمم المسلمة، بل وجميع عقلاء العالم، هو أنّ بقاء النظام واستمرار معيشة الناس متوقف على وجود سلطة سياسية... وحكومة تحفظ النظام الداخلي، وتربي عامة الناس، وتحقق الحقوق، وتمنع الاعتداء، وسائر الواجبات العامة التي تعود لمصالح الشعب والبلد الداخلية، وتحفظ البلد من التدخل الأجنبي. ولذلك اعتبرت الشريعة المطهرة حفظ بيضة الإسلام أهم التكاليف وعدّت الحكم الإسلامي من واجبات الإمامة وشؤونها... وتسمى الأحكام الشرعية المعنية بهذه الأمور بالأحكام السياسية والمدنية، وتشكل الجزء الثاني من الحكمة العملية"[٢].

٢. "إنّ الحكم الدستوري يقوم على أساس أداء المهام التي يتطلبها حفظ البلد ونظمه، وهو أمانة للتصرف في طاقات البلد لخدمة الجميع؛ لذلك تكون سلطة الحاكم محدودة بحدود ولايته على الأمور المذكورة".

---

(١) التشيع والدستورية في إيران دور علماء العراق الشيعة في السياسة الإيرانية. سابق: ٢١٨-٢١٩.

(٢) ينظر: تنبيه الأمة وتنزيه الملة. الشيخ النائيني. ترجمة مشتاق الحلو: ٨٣- ٨٤ (بتصرف).

٣. "كما أنّ جميع فئات الشعب شركاء للحاكم في الأمور كافة، ونصيبهم فيها متكافئ. أمّا المتصدون للأمور، فأمناء الناس عليها، وللشعب مؤاخذتهم على أدنى تجاوز أو إهمال".

٤. "بما أنّ الجميع مشارك في المسؤولية، ومتساوٍ في الحقوق والإمكانات فللجميع حق المساءلة والمؤاخذة والاعتراض، وهم أحرار في إعلان موقفهم دون أية مضايقة. وهذا الشكل من الحكم من باب الولاية والأمانة، وهو كسائر أقسام الولاية والأمانة مشروط بعدم التجاوز والتفريط، وحسن المسؤولية الكاملة، والمحاسبة والمتابعة"[١].

٥. "إنّ هذا النوع من الحكم يتوقف على أمرين؛ **الأول**: صياغة دستور وافٍ، تميز فيه المصالح العامة التي يجب أن تراعى عن الأمور التي لا يجوز التصرف فيها.

كما يتكفل هذا الدستور ببيان كيفية القيام بتلك الواجبات، وصلاحيات الحاكم، وحرية الشعب، وتعيين حقوق كافة أصناف المجتمع وضمانها، وفق تعاليم المذهب، ويوجب العزل للحاكم في حال إفراطه، أو تفريطه في حفظ حقوق الشعب وممتلكاته، كما هو حال الخيانة في سائر الأمانات، وتترتب عليه سائر العقوبات التي تترتب على الخيانة.

والثاني: قيام هيأة مدعومة مؤلفة من عقلاء القوم وحكمائهم تتشكل من وكلاء الشعب وكوادره العلمية، ويجمعهم مجلس الشورى الوطني يشرفون على السلطة التنفيذية"[٢].

٦. "إنّ هذا الدستور في مجال السياسة والنظم العام بحكم (الرسائل العملية) التي يتمسك بها الناس في العبادات والمعاملات، كما يتوقف عليه تقييد الحاكم ومنعه من التجاوز، لذلك يسمّى دستور النظام والقانون الأساسي. ولا يشترط في صحته

(١) المصدر السابق (بتصرف): ٨٦

(٢) المصدر نفسه (بتصرف): ٨٧-٨٨.

بعد اشتماله على جميع المصالح الضرورية العامة سوى عدم معارضته لقوانين الشريعة"[١].

٧. "وإنّ تحديد السلطة، وإقامة تلك الوظائف اللازمة، منحصر بهذه الوسيلة، التي تعارفت عليها جميع أمم العالم، وهي وجود هيأة ممثلة للشعب، فوق السلطة التنفيذية، وإشراك مجموع الشعب في انتخابها بالنظر إلى عمومية هذا الحق، جميع أفراد الشعب مشتركين فيه"[٢].

٨. "وبما أنّ الدستورية تبتنّي على مشاركة جميع أفراد الشعب في أمور البلد، فإنها تعتمد على مشورة عقلاء الأمة، وهو ما يسمى بالشورى الوطني العام وتدل الآية المباركة ﴿وَشَاوِرْهُمْ فِي ٱلْأَمْرِ﴾ (آل عمران: ٣: ١٥٩)، وهي تخاطب العقل الكل ﷺ وحقيقة العصمة وتلزمه بمشورة عقلاء الأمة – على هذا الأمر ببداهة ووضوح. ومعلوم بالضرورة من سياق الآية أنّ الضمير يعود إلى جميع أفراد الأمة من المهاجرين والأنصار قاطبة، ولم يختص بأحد. أمّا تخصيصه بالعقلاء وأهل الحلّ والعقد فلمقتضى الأمر ومناسبة المقام، لا من باب الصراحة اللفظية، وكلمة (في الأمر) التي هي مفردة، ولكنها تفيد العموم، تدل على أنّ متعلق المشورة المقررة في الشريعة المطهرة – الأمور السياسية والعامة، وذلك في غاية الوضوح. أما خروج الأحكام الشرعية عن هذا العموم، فمن باب التخصص لا التخصيص. كذلك الآية المباركة ﴿وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ﴾ (الشورى ٤٢: ٣٨) وإن لم تدل على أكثر من رجحان الشورى، ولكنها تنص على أنّ الأمور العامة هي التي يجب أن تنعقد بالمشورة"[٣].

٩. "وكان النبي ﷺ يتشاور مع أصحابه في مختلف المواضيع والحوادث ويقول: (أشيروا عليّ)، وقد نقلت كتب السيرة ذلك بتفصيل... وأنه ثابت بنص

---

(١) المصدر السابق نفسه (بتصرف): ٨٨. وينظر المعنى بعبارة أخرى في ترجمة توفيق السيف للكتاب: ٧٣.

(٢) المصدر نفسه: ١١٧.

(٣) تنبيه الأمة وتنزيه الملة. ترجمة مشتاق الحلو: ١١٥-١١٦.

الكتاب والسنة والسيرة المطهرة. كما كان النبي ﷺ يتبع رأي الأكثرية. إذ ارتأى في غزوة أحد هو وجمع من أصحابه البقاء في المدينة، لكن بما أنّ رأي الأغلبية انعقد على الخروج وافقهم الرأي وتحمّل كل تلك المصائب الجليلة[١]. كما أنّ الأخذ بالترجيحات عند التعارض والأكثرية عند الدوران من أهم المرجحات العامة. ويرجح الأخذ برأي أكثرية العقلاء على الأخذ بالرأي الشاذّ ويوحي إلى ذلك عموم التعليل الوارد في مقبولة عمر بن حنظلة. ومع اختلاف الآراء والتساوي من ناحية المشروعية تلزمنا الأدلة على وجوب حفظ النظام بالأخذ برأي الأكثرية"[٢].

١٠. "وبموجب ذلك فإنّ عضوية المجلس لا تقتصر على المسلمين، بل لا بدّ أن تتمثل الأقلّيّات غير المسلمة في المجلس، ولا بدّ أن تشارك في الانتخابات، لأنّ أتباعها شركاء في الوطن، وشركاء في أموال الدولة، وغيرها، ولتوقف عمومية الشورى والانتخاب على دخولهم"[٣].

١١. "إنّ العلاقة بين الأمة وحاكمها، هي علاقة عقدية، طرفاها الأمة، والحاكم، بموجب عقد الوكالة التي عرفها بأنّها لغة وعرفاً: مطلق جعل زمام الأمر بيد الوكيل"[٤]، وقد جاء إطلاقها على عقد الوكالة من هذا الباب أيضاً. كما "إنّ الهدف من انعقاد مجلس الشورى الوطني هو إشراف النواب وممارسة الوظائف الخاصة بإقامة النظام وحفظ البلد وتسيير أمور الشعب وإحقاق حقوق الملّة، لا لإقامة حكومة شرعية، وإصدار الفتاوى، وإقامة صلاة الجماعة، والشروط المعتبرة في هذه الأبواب أجنبية عن البحث"[٥].

١٢. و"إنّ من جملة قطعيات مذهبنا، أنّ الولاية النوعية العامة التي نعلم

---

(١) المصدر السابق (بتصرف): ١١٦.

(٢) المصدر نفسه: ١٣٧.

(٣) المصدر نفسه: ١٢٥.

(٤) تنبيه الأمة وتنزيه الملة. الشيخ النائيني. ترجمة مشتاق الحلو: ١٣٦.

(٥) المصدر السابق: ١٤٤.

عدم رضا الشارع بإهمالها في زمن الغيبة، تندرج تحت عنوان (الوظائف الحسبية)... ومن المقطوع به أنّ الشارع لا يرضى باختلال نظام الأمة، وذهاب بيضة الإسلام، وإنّ هذه الوظائف بالنظر إلى تأثيرها الشديد على الإسلام والمسلمين - من أهم الأمور الحسبية، بل أهمّها جميعاً، وإنّ ثبوت نيابة الفقهاء، ونواب الإمام، في إقامتها تلك الوظائف - من قطعيات المذهب"[١].

١٣. "وتبعاً لهذا فإنّنا نقطع بعدم رضاه أيضاً عن إهمال تلك الوظائف المتعلقة بحفظ البلاد الإسلامية، وصيانة نظامها. وبعبارة أخرى: إنّ من المعلوم بالضرورة من تعاليم الدين في باب النهي عن المنكر أنّه لو ارتكب شخصٌ مّا عدة منكرات في آن واحد، يكون ردعه عن كل منكر تكليفاً مستقلّاً ولا يتوقف على التمكّن من ردعه عن سائر المنكرات... -وإنّ- من الأمور القطعية في مذهبنا الإمامي وجود مصالح عامة في عصر الغيبة... لا يأذن الشارع المقدس بتعطيلها وهي التي تسمى بالأمور الحسبية، وولاية فقهاء عصر الغيبة ثابتة ومتيقنة في الأمور الحسبية، حتى وإنّ لم تثبت نيابتهم العامة في جميع المناصب، وبما أنّ الشارع المقدس لا يرضى باختلال النظام وذهاب بيضة الإسلام، وكون رجحان أهمية التكاليف العائدة لحفظ البلاد الإسلامية ونظمها على جميع الأمور الحسبية من أوضح القطعيات؛ لذلك فإنّ ثبوت نيابة الفقهاء والنواب العامين في عصر الغيبة في إقامة الوظائف المذكورة من ضروريات المذهب... -وأنّه- في خصوص ما يعود إلى الولاية على الأوقاف العامة والخاصة وأمثالها؛ ثبت لدى جميع علماء الإسلام بالقطع واليقين أنّه لو وضع غاصب ما يده على بعض الموقوفات، ولم نتمكن من رفع يده مباشرة، لكنه يمكننا الحد من تصرفاته والحفاظ على الموقوفة من التلف والضياع، من خلال بعض الآليات العملية وتأسيس جماعة للإشراف عليها وخطوات مشابهة أخرى؛ حينئذ يكون القيام بذلك واجباً بالبداهة"[٢].

---

(١) تنبيه الأمة. ترجمة توفيق السيف: ٨٨-٨٩.

(٢) تنبيه الأمة وتنزيه الملة. سابق: ١٠٩-١١٠.

١٤. "بعد بيان هذه المقدمات لن يبقى أدنى شك أو ريب في وجوب تحويل الحكم الجائر والغاصب... وتغيير طريقته من قبيل تعيين مشرفين للحفاظ على الموقوفة المغصوبة، والحد من تدخل الغاصب بما يصلح الموقوفة ويرفع ملكيته عنها... وإلزامه بمقتضيات الوقف ومنعه من استخدامها في تلبية رغباته"[١].

١٥. و"إنّ جعل الولاية للمجتهد في الوظائف الحسبية، لا يستلزم قيامه بهذه الوظائف بنفسه مباشرة، بل يكفي في صحة ومشروعية القيام بها، حصول المتصدي على إذن المجتهد".

١٦. كما "إنّ عدم تمكن الفقهاء، بصفتهم نواباً للإمام، جميعهم، أو بعضهم، من إقامة تلك الوظائف المجعولة لهم - لا يوجب سقوطها، أو انتفاء التكليف بها، بل ينتقل التكليف بإقامتها إلى عدول المؤمنين، ومع عدم تمكن العدول، ينتقل التكليف إلى عموم المؤمنين. إنّ مشروعية الدستور تستمد من عدم مخالفة أي بند من بنوده لأحكام الشريعة المقدسة، واشتماله على جميع ما يلزم لحفظ مصالح البلاد والعباد"[٢].

١٧. "ويكفي للمنع عن صدور الآراء المخالفة للشريعة، وجود هيأة المجتهدين، وكون وظيفتهم الأساسية هي هذه الوظيفة[٣]، وهذا ممكن، بطلب الإذن من الفقيه المبسوط اليد، في أصل الانتخاب، وفي قيام المنتخبين بوظيفتهم، التي تتضمن تدخُّلاً في أمر السلطة، أو وضع قانون ملزم، يوجب تمثيل الفقهاء في المجلس، مثل أن يضم في عضويته عدداً من المجتهدين، لتصحيح، أو تفنيد القوانين الصادرة عنه، والتأكد من مطابقتها لمقاصد الشريعة الغراء، كما هو مقرر في متمم الدستور"[٤].

---

(١) المصدر السابق نفسه.

(٢) المصدر نفسه: ٧٣.

(٣) المصدر نفسه: ١٢٦.

(٤) المصدر نفسه: ١١٨.

يذكر أنّ المادة الثانية من القانون الأساسي التكميلي نصت على أنّه: "لا يجوز بأي حال من الأحوال صدور أي تشريع قانوني عن مجلس الشورى الوطني... يتنافى مع مبادئ الإسلام المقدسة... وبذا يُعلن أنّ... للعلماء... أنْ يقرروا أن (كذا) كانت القوانين التي تقترح تنسجم مع مبادئ الإسلام. وعليه فقد تقرر رسميّاً أن توجد هيأة دائمة تتألف من خمسة مجتهدين على الأقل أو غيرهم من العلماء الأجلاء من العارفين بمتطلبات العصر... ويقدم العلماء إلى... المجلس أسماء عشرين يعين المجلس منهم خمسة أو أكثر متعرفاً بهم أعضاء في المجلس ليتمكنوا من... رفض وتفنيد كلّيّاً أو جزئيّاً أي مشروع قانون كهذا يتعارض مع الشرع الإسلامي المقدس ولا يكتسب مثل هذا القانون عنوان الشرعية"[١].

١٨. "أما اعتماد الأخذ بأكثرية الآراء، فيتضح من كونه لازماً للشورى. وأنّ أصل الشورى هو أساس الحكم الإسلامي بموجب الكتاب الكريم والسنة النبوية المقدسة"[٢].

١٩. كما "يعد الأخذ بالترجيحات عند التعارض، والأكثرية عند الدوران – من أهم المرجحات العامة، ويرجح الأخذ برأي أكثرية العقلاء على الأخذ بالرأي الشاذ، ويوحي إلى ذلك عموم التعليل الوارد في مقبولة عمر بن حنظلة"[٣].

"ذلك أنّ عمر بن حنظلة سأل الإمام الصادق عليه السلام فيما لو اختار المتنازعان قاضيين متساويين في العدالة والتقوى فاختلفا في الحكم فأجابه الإمام الصادق عليه السلام: "ينظر إلى ما كان من روايتهما عنّا في ذلك الذي حكما به، المجمع عليه أصحابك فيؤخذ به، فإنّ المجمع عليه حكمنا لا ريب فيه"[٤].

٢٠. "ومع اختلاف الآراء والتساوي من ناحية المشروعية تلزمنا الأدلة على

---

(١) التشيع والدستورية في إيران دور علماء العراق الشيعة في السياسة الإيرانية. عبد الهادي الحائري: ٢٩٦.

(٢) ينظر: المصدر نفسه: ١٣٧ و١٤٩ و١١٥.

(٣) نفسه: ١٣٧.

(٤) من لا يحضره الفقيه: ٣/ ١٠ طبعة جماعة المدرسين. قم.

وجوب حفظ النظام بالأخذ برأي الأكثرية، ونجد الرسول ﷺ يأخذ في مواضع عديدة برأي الأكثرية من أصحابه"[١].

٢١. ويضيف سماحة الشيخ النائيني إلى ذلك قوله: "إنّ النتيجة التي توصلنا إليها، وهي انتخاب مجلس الشورى، من قبل عامة الشعب، هي الوظيفة المتعينة". داعيّاً بقوة، بل محمّلاً كل مواطن، جانباً من "المسؤولية عن وصول أكفأ المرشحين إلى عضوية المجلس... وأنّ هذا قابل للتحقيق إذا شارك كل مواطن في الانتخابات، ودقق في صفات المرشحين لعضوية المجلس، قبل التصويت"[٢]. "فيستبعدون الأغراض الشخصية، في منح التأييد أو حجبه، مثل قرابة زيد، أو عداوة عمر...، وأن يسألوا أنفسهم عن الأسباب التي تحدوهم إلى تقديم زيد وتأخير عمر، ومدى ما يتمتع به الشخص المراد من الصفات المذكورة آنفاً، ومدى قدرته على إنجاز الوظيفة المتوقعة منه، وليعلموا أنّ الله سائلهم عن هذه الأمور، فإذا رأوا أنّ اختيارهم قابل للتبرير في المحكمة الإلهية، يوم القيامة – فلينتخبوه، وإلّا فسوف يتحملون مسؤولية ما قد يترتب عليه، من تضييع للحقوق العامة بأيدي غير الأكفاء، وغير المؤهلين"[٣].

ومن الملاحظ "أنّ المحقق الميرزا النائيني لا يتحدث عن دولة دينية، بالمعنى الذي تتداوله أدبيات الجماعات الإسلامية، أي أنّ مفهوم الدولة لديه لا يعني قيام نظام الحكم والإدارة على ضوء المدونة الفقهية، فلم يتحدث عن نظام حكم، أو اقتصاد، أو نظام مالي ومصرفي، أو نظام إداري – مشتق من الفقه، كما نلاحظ في كتابات: أبي الأعلى المودودي، وتقي الدين النبهان، وسيد قطب، ومحمد باقر الصدر... وغيرهم"[٤].

❀ ❀ ❀

(١) تنبيه الأمة وتنزيه الملة. سابق: ١٣٧.

(٢) المصدر السابق نفسه: ١٢٦.

(٣) المصدر نفسه: ١٢٦.

(٤) تنظر مقدمة كتاب: تنبيه الأمة وتنزيه الملة للشيخ النائيني. ترجمة مشتاق الحلو. بقلم عبد الجبار الرفاعي: ١٦.

المبحث الثالث

الفرق بين نظرية (إرادة الأمة) والنظرية الدستورية كما وردت في كتاب (تنبيه الأمة وتنزيه الملّة)

يمكنني القول: بأنّ الأطروحة السياسية لسماحة السيد السيستاني (دام ظله) تنسجم في الكثير من متبنّياتها الأساسية، مع أطروحة قادة الحركة الدستورية في حوزة النجف الأشرف، تلك الأطروحة التي دوّن معالمها المحقق الشيخ محمّد حسين النائيني ﷺ في كتابه (تنبيه الأمة وتنزيه الملّة)[1].

وهو ما أشار إليه الباحث د. ولي نصر بقوله: "لقد نزع علماء الدين نحو إناطة الشعب بسلطات أكبر من أي وقت مضى، وقاد آية الله محمد حسين النائيني القسم الأكبر من علماء الدين في الدفاع عن حكم القانون والديمقراطية الذي لا يتعارض في رأيه مع التعاليم الدينية بشرط ألّا تطعن القوانين العلمانية (الوضعية) بالشريعة الإسلامية أو تضر بالمصالح الشيعية. حتى ذلك الحين لم يكن العلماء قد بلوروا بعدُ رؤيتَهم الخاصة للدولة الإسلامية التي من شأنها أن تنيط السيادة بالله، وعوضاً عن ذلك اكتفوا بقبول دستور ينصّ على أنّ الشعب سيد نفسه ضمن حدود معينة.

وكانت وجهة النظر هذه هي نفسها من حيث الأساس النظرة التي عبّر عنها بوضوح كُلّيّ آية الله علي السيستاني أثناء المناقشات التي دارت حول الدستور الجديد للعراق صيف ٢٠٠٥م"[2].

لقد تجلّت بعض تطبيقات نظرية سماحة الشيخ النائيني العملية في مواقف قسم من كبار المراجع والمجتهدين وداعميهم في حوزة النجف الأشرف، وعلى رأسهم يومها سماحة المرجع الشيخ محمّد كاظم الخراساني ﷺ الذي قرّض كتاب

---

(١) تنظر: مقدمة كتاب: تنبيه الأمة وتنزيه الملة للشيخ النائيني. ترجمة مشتاق الحلو. بقلم عبد الجبار الرفاعي: ١٦.

(٢) صحوة الشيعة. ولي نصر: ١١٨. يعبر النص المقتبس عن وجهة نظر كاتبه الخاصة، ولا يتوافق بالضرورة في (كل) ما جاء فيه مع وجهة نظر المؤلف.

أو رسالة (تنبيه الأمة وتنزيه الملّة) بقوله: "... وسيتضح (إن شاء الله) من خلال مدارستها واستيعابها أنّ أصول حركة المشروطة قد استنبطت من الشريعة الحقة"[١].

ولم يقرّض سماحة المرجع الشيخ الخراساني -صاحب كتاب (كفاية الأصول) المقرر الدراسي لطلبة السطوح العليا في صفوف الحوزات العلمية منذ تأليفه وليوم الناس هذا- رسالة (تنبيه الأمة وتنزيه الملّة) لسماحة الشيخ النائيني فحسب، بل قرّضها أيضاً سماحة المرجع الشيخ عبد الله المازندراني ﷺ بقوله عنها: إنّها "وافية بل وحتى فوق المأمول في إكمال العقائد وحمل المسلمين على التصديق الوجداني بأنّ كافة الأصول والمباني السياسية قد أُخذت من الدين الإسلامي القويم"[٢].

ونظراً لأهمية تقريض المرجعين المعاصرين لسماحة الشيخ النائيني؛ فقد تصدّرا واجهة الطبعة الأولى للكتاب والطبعات اللاحقة لها.

هذا ولم يقتصر تقريض الكتاب أو الرسالة على هذين المرجعين، فقد نهج على نهج كبار تلامذتهما أيضاً، وجملة معتدّ بها من مجتهدي وكبار علماء الحوزة العلمية في النجف الأشرف من غيرهم مع وجود مراجع ومجتهدين معارضين لها أيضاً.

ثم كان بعد مضيّ عقد من الزمان ونيّف أنْ ظهر أول أنموذج تطبيقي نسبي، (وأقول نسبي) لأطروحة الحركة الدستورية في العراق بحياة ومشاركة الشيخ النائيني مؤلف كتاب (تنبيه الأمّة وتنزيه الملّة)، وذلك خلال ثورة (١٣٣٨هـ/ ١٩٢٠م) المعروفة بثورة العشرين التي فجّرها سماحة المرجع الأعلى الشيخ محمد تقي الشيرازي، وبعد وفاته أدام توهج لهبها المرجع الأعلى الخلف سماحة شيخ الشريعة الأصبهاني، ومن نهض معهما من كبار المجتهدين والعلماء الأعلام من قادة ثورة العشرين، وهو أهم تَجَلٍّ لنظرية المشروطة أو النظرية الدستورية في العراق، ثم تبدّت بعض من نماذجها التطبيقية بعد ثورة العشرين في مواقف المرجعين كلّ من: سماحتي الشيخ محمّد حسين النائيني، والسيد أبو الحسن الأصفهاني ومن

(١) تنظر: مقدمة كتاب: تنبيه الأمة وتنزيه الملة للشيخ النائيني. ترجمة مشتاق الحلو. بقلم عبد الجبار الرفاعي: ٧٣.
(٢) المصدر نفسه: ٧٤.

معهما من كبار العلماء، وفي مقدمتهم مرجع الكاظمية سماحة الشيخ الخالصي، حينما وقفوا معاً في وجه المحتل البريطاني فحالوا بينه وبين تحقيق إرادته ومصالحه في إجراء انتخابات مزيفة لمجلس النواب مَهمّته المصادقة على المعاهدة العراقية البريطانية المتضمنة لبنود الانتداب البريطاني على العراق، خلافاً لمصالح العراق والعراقيين. ونتيجة لهذه الوقفة المبدئية الصارمة لم يستطع المحتل ومَلِكه وحكومته من تنفيذ مآربهم في العراق إلّا بعد أن سفّروا المراجع إلى خارجه.

ثم كان أنْ تجلّت العديد من أسس نظرية سماحة الشيخ النائيني وتطبيقاتها العملية بعد قرن من الزمان عند سقوط النظام الدكتاتوري البائد سنة (١٤٢٤هـ/ ٢٠٠٣م) من خلال المتبنيات المؤسسة (لنظرية الدستوريين) من جهة، ونظرية (إرادة الأمة) من جهة أخرى.

إنّ قراءة متأنية لمباني نظرية (إرادة الأمة) للمرجع الأعلى الحالي السيد السيستاني (دام ظله)، ومباني نظرية الحركة الدستورية المدونة خطوطها في كتاب أو رسالة: (تنبيه الأمة وتنزيه الملّة) للمحقق النائيني ﷺ ترينا مدى تقاربهما في أصول النظرية وأسسها.

فمن ذلك مثلاً ما ذهبت إليه النظريتان من أنّ العلاقة بين الأمة وحاكمها، هي علاقة عقدية، طرفاها أفراد الأمة والحاكم، الذي وكلوه بالنيابة عنهم بتولي شؤونهم العامة لمصلحتهم، وذلك بموجب عقد الوكالة التي عرّفها المحقق النائيني ﷺ بأنها: "مطلق جعل زمام الأمر بيد الوكيل"[١]. أو تفويضهم للوكيل بموجب وكالته عنهم بأن "يكون مخولاً في التصرف وفق ما يراه من المصلحة في جميع الجهات بما وُكِّل فيه"[٢]، ويتحقق ذلك بتفويض أفراد الشعب فئة منهم لحكمهم استناداً إلى ولاية كل فرد منهم على نفسه، فما دام لا يحق لأحد التصرف بمال غيره إلّا بإذنه؛ فمن باب أولى أن لا يحق لأحد أن يقيد حرية فرد بفعل أو ترك

(١) تنبيه الأمة وتنزيه الملة. ترجمة مشتاق الحلو: ١١٨.

(٢) من رسالة خاصة وردتني من قبل سماحة السيد محمد رضا السيستاني.

إلّا بإذنه أيضاً، وما دام الفرد قد وكّل وفوّض النائب عنه بانتخابه له، فعلى النائب أن يفي له بما وكّله به، التزاماً منه بقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَوۡفُواْ بِٱلۡعُقُودِ﴾، ومن هذا التفويض تستمد شرعية الحكم من فئة من الشعب للشعب لأن التفويض هو من قبيل إعطاء ولاية الحكم في مقام التحكيم، بموجب مبنى نظرية (إرادة الأمة) للمرجع الأعلى السيد السيستاني (دام ظله). وقد تقدم الحديث عنها فيما سبق.

ومن ذلك التقارب الوثيق ما ذهبت إليه النظريتان من اعتماد مبدأ (الشورى) في الحكم خلال عصر الغيبة[١].

تقول نظرية (تنبيه الأمة وتنزيه الملة): إنّ الآية الكريمة ﴿وَشَاوِرۡهُمۡ فِي ٱلۡأَمۡرِ﴾[٢] تدل على ذلك، كما "كان النبي صلى الله عليه وآله يتشاور مع أصحابه في مختلف المواضيع والحوادث... ويتبع رأي الأكثرية"[٣]، وكذلك الإمام علي عليه السلام. وقد استشهد لذلك بأحاديث وردت عنهما.

إضافة إلى أنه "يرجح الأخذ برأي أكثرية العقلاء على الأخذ بالرأي الشاذ. ويوحي إلى ذلك عموم التعليل الوارد في مقبولة عمر بن حنظلة. ومع اختلاف الآراء والتساوي من ناحية المشروعية تلزمنا الأدلة على وجوب حفظ النظام بالأخذ برأي الأكثرية"[٤].

وتقول نظرية (إرادة الأمة) بـ"تغليب رأي الأكثرية (أي الشورى)... وإنما اعتمد رأي الأكثرية لكونه من الناحية العقلية موضع رضا الجميع"[٥].

وقد أكدت أجوبة المرجعية الدينية على ذلك، من أمثال ما أجابت به عن سؤال وجه إليها بخصوص مواصفات الدستور بقولها: "الثوابت الدينية والمبادئ

---

(١) تنبيه الأمة وتنزيه الملة. ترجمة مشتاق الحلو: ١١٥-١١٦ و١٣٧. وينظر: النصوص الصادرة عن سماحة السيد السيستاني في المسألة العراقية: جواب ١٤ ص٣٠٥.

(٢) سورة آل عمران. آية: ١٥٩.

(٣) تنبيه الأمة وتنزيه الملة. ترجمة مشتاق الحلو: ١١٦.

(٤) المصدر نفسه: ١٣٧.

(٥) الأساس الثاني من أسس نظرية إرادة الأمة. ينظر المبحث الأول من هذا الفصل.

الأخلاقية والقيم الاجتماعية النبيلة للشعب العراقي التي ينبغي أن تكون هي الركائز الأساس للدستور العراقي القادم. إلى جانب (مبدأ الشورى) والتعددية و(احترام الأقلية لرأي الأكثرية) ونحو ذلك"[١].

وبديهي أن تؤكد النظريتان على عدم شمول الشرط والعقد بين أفراد الأمة من جهة ونوابها من جهة أخرى "أحكاماً نص عليها الشرع وحدّد الموقف منها -تلك الأحكام التي- لا يطرأ عليها تغيير أو اختلاف على مرّ العصور والأمصار، ولا سبيل أمامنا سوى التعبّد بالنص الشرعي إلى قيام الساعة"[٢]، هذا إضافة إلى أن الدستور لا علاقة له "بأي حال من الأحوال بالتكاليف التعبدية أو أحكام المعاملات... ونحو ذلك من الأمور التي تكون الرسائل العملية وفتاوى المجتهدين المرجع فيها... -كما- لا يتدحل القانون الذي يسنّ حتى بالوظائف الشرعية للحكومة وتفاصيل الأحكام، كإقامة القصاص... وغير ذلك من الأمور الموكولة إلى المجتهد ذي السلطة النافذة"[٣]، وهو ما نصت عليه نظرية (تنبيه الأمة وتنزيه الملة).

أو"أن الشرط والعقد الذي يحصل بموجبه أصل التفويض أو تحكيم الأكثرية في التفويض لمن له الحكم والتنفيذ، لا يحلّل حراماً ولا يحرّم حلالاً"[٤]، كما ورد ذلك ضمن أسس نظرية (إرادة الأمة).

بل شددت النظريتان كلتاهما على عدم جواز تشريع مجلس النواب ما يخالف أحكام الإسلام أو ثوابتها.

ومن أجل ضمان الحيلولة بين نواب المجلس الوطني وتشريع ما يخالف أحكام الإسلام؛ أكدت نظرية (تنبيه الأمة وتنزيه الملة) مرة تلو أخرى على أن يـ"تضمّن

(١) النصوص الصادرة عن سماحة السيد السيستاني في المسألة العراقية: ٥٥. ط٦.

(٢) تنبيه الأمة وتنزيه الملّة. ترجمة مشتاق الحلو: ١٤٩.

(٣) المصدر نفسه: ١٣٠-١٣١

(٤) الأساس الثاني من أسس نظرية إرادة الأمة. ينظر المبحث الأول من هذا الفصل.

المجلس الوطني عدداً من المجتهدين العدول العالِمين بأمور السياسة لتصحيح آراء الأعضاء وإعطائها صلاحية النفوذ، وقد جاء ذلك مفصّلاً في الفصل الثاني من الدستور، وهو بحمد الله تعالى فوق المأمول"[١].

ويقصد سماحة الشيخ النائيني بما ورد في الفصل الثاني من الدستور أو متمم الدستور الذي كُلّفت بكتابته لجنة سنة (١٣٢٤هـ/ ١٩٠٦م)، وصادق عليه شاه إيران مظفر شاه سنة (١٣٢٥هـ/ ١٩٠٧م)[٢]، حيث جاء فيه ما نصه: "لا يجوز بأي حال من الأحوال صدور أي تشريع قانوني عن مجلس الشورى الوطني... يتنافى مع مبادئ الإسلام المقدسة... وبذا يعلن أن... للعلماء... أن يقرروا إن كانت القوانين التي تقترح تنسجم مع مبادئ الإسلام. وعليه فقد تقرر رسميّاً أن توجد هيأة دائمة تتألف من خمسة مجتهدين على الأقل أو غيرهم من العلماء الأجلّاء من العارفين بمقتضيات العصر... ويقدم العلماء إلى... المجلس أسماء عشرين عالماً يعين المجلس منهم خمسة أو أكثر معترفاً بهم أعضاء في المجلس ليتمكنوا من... رفض وتفنيد كلّيّاً أو جزئيّاً أي مشروع قانون يتعارض مع الشرع الإسلامي المقدس ولا يكتسب مثل هذا القانون عنوان الشرعية"[٣]. هذا ما يتعلق بما ورد في نظرية (تنبيه الأمة وتنزيه الملة).

وهو ما أكدت عليه أيضاً المرجعية الدينية العليا المتمثلة بسماحة السيد السيستاني (دام ظله) أثناء كتابة الدستور العراقي، مشددة بأن ينص الدستور على عدم جواز تشريع قانون يخالف ثوابت أحكام الإسلام، وهو ما تضمنته (المادة الثانية. أولاً. أ) من الدستور العراقي بنصّها الآتي:

"المادة (٢):

أولاً: الإسلام دين الدولة الرسمي، وهو مصدر أساس للتشريع:

---

(١) تنبيه الأمة وتنزيه الملّة. ترجمة مشتاق الحلو: ١٤٣.

(٢) المرجعية الدينية العليا عند الشيعة الإمامية. سابق: ٢٣٨.

(٣) التشيع والدستورية في إيران. عبد الهادي الحائري: ٢٩٦.

أ. لا يجوز سنّ قانون يتعارض مع ثوابت أحكام الإسلام"[١].

ومن أجل ضمان تطبيق المادة المتقدمة فقد ضمت تشكيلة (المحكمة الاتحادية العليا) فقهاء الشريعة الإسلامية كي يحولوا بين القانون أو مادة القانون التي تخالف ثوابت أحكام الإسلام وتشريعها؛ فقد نصت المادة (٩٢ ثانياً) من الدستور العراقي على ما يلي: "تتكون المحكمة الاتحادية العليا من عدد من القضاة، وخبراء في الفقه الإسلامي، وفقهاء القانون، يحدد عددهم وتنظم طريقة اختيارهم، وعمل المحكمة بقانون يسنّ بأغلبية ثلثي أعضاء مجلس النواب".

ثم حدّدت المادة (٩٣ أولاً) من الدستور اختصاصات (المحكمة الاتحادية العليا) بما يلي: "الرقابة على دستورية القوانين والأنظمة النافذة"[٢].

إنّ وجود (خبراء الفقه الإسلامي) ضمن تشكيلة (المحكمة الاتحادية العليا) المعنيّة بالدرجة الأولى والأساس بتطبيق الدستور وتفسيره وحظر تشريع كل ما يخالفه من قوانين أو أنظمة أو سواها بأي شكل من الأشكال في أنحاء العراق كافة؛ هو ضمانة لعدم تشريع ما يخالف ثوابت أحكام الإسلام في العراق.

ومما اتفقت عليه النظريتان أيضاً أنّ "من الأمور القطعية في مذهبنا الإمامي وجود مصالح عامة في عصر الغيبة... لا يأذن الشارع المقدس بتعطيلها، وهي التي تسمّى بالأمور الحسبية، وولاية فقهاء عصر الغيبة ثابتة ومتيقنة في الأمور الحسبية... وبما أن الشارع المقدس لا يرضى باختلال النظام وذهاب بيضة الإسلام، وكون رجحان أهمية التكاليف العائدة لحفظ البلاد الإسلامية ونظمها على جميع الأمور الحسبية من أوضح القطعيات؛ لذلك فإن ثبوت نيابة الفقهاء والنواب العامّين في عصر الغيبة في إقامة الوظائف المذكورة من ضروريات المذهب"[٣]، حسب نظرية (تنبيه الأمة)، مع وجوب الالتفات في الوظائف الحسبية "إلى أمرين:

---

(١) الدستور العراقي. موقع مجلس النواب العراقي على الإنترنت. iq.parliament.iq.

(٢) المصدر نفسه.

(٣) تنبيه الأمة وتنزيه الملّة. ترجمة مشتاق الحلو: ١٠٩.

أ. عدم لزوم تصدي المجتهد للأمور الحسبية، ويكفي إذنه في صحة تصدي غيره ومشروعيته، وهذا أمر غني عن البيان، وحتى أنّ عامة الشيعة تعمل به.

ب. إذا لم يتمكن النواب العامين (كذا) من القيام بالواجب، لا تسقط الولاية في الأمور الحسبية، بل تنتقل إلى عدول المؤمنين، ومع عدم تمكنهم تنتقل إلى عامة الناس"[١].

واتفقت النظريتان أيضاً على ضرورة وضع دستور للحكم، يسير على نهجه المسؤولون، فـ"كما أن المقلدين يطبّقون الرسالة العملية في العبادات والمعاملات، ينبغي العمل في الأمور السياسية والمصالح العامة للبلد على غرار الدستور، ومن دونه يستحيل أمر تقويم أفعال المتصدّين ومراقبتهم. وفي الحقيقة الدستور هو الذي يرسم حدود تصرفهم ويبين مسؤولياتهم، فهو الأصل الأصيل في هذا الباب والمقدمة الوحيدة لهذا الأمر"[٢]؛ ذلك "أن حفظ النهج الإسلامي في الحكم عن الانحراف، وتقييد الحاكم ومسؤوليته عن أفعاله، وأصل الشورى وسائر المقومات التي تجعل الحكم ولائيّاً - لا يتحقق إلّا من خلال كتابة الدستور، وقيام هيأة بالإشراف والتقويم والدعم"[٣]، كما بيّنته نظرية الدستويين التي أحسن عرضها سماحة الشيخ النائيني في كتابه (تنبيه الأمة وتنزيه الملة).

ونظراً لأهمية وضع دستور جديد للعراق يكتبه العراقيون أنفسهم؛ فقد ركزت أجوبة مكتب المرجعية الدينية العليا لسماحة السيد السيستاني كثيراً على ذلك؛ خشية منها من أن "يُكتب للعراق دستور لا يطابق المصالح العليا للشعب العراقي، ولا يعبر عن هويته وثقافته التي من ركائزها الدين الإسلامي والقيم الاجتماعية النبيلة... ولذلك قررت المرجعية أن تدعو إلى إجراء انتخابات عامة لاختيار ممثلي

(١) تنبيه الأمة وتنزيه الملّة. ترجمة مشتاق الحلو: ١٣٥.

(٢) المصدر نفسه: ١١٩

(٣) المصدر نفسه: ١١٩. وتنظر: ١٤٤.

الشعب العراقي في مجلس تأسيسي لكتابة الدستور"[١].

وإذ اتضحت نوايا المحتل، وتكشفت خططه بأن يختار من يتولى كتابة الدستور العراقي من دون الرجوع إلى الشعب العراقي لمعرفة رأيه؛ أصدر سماحته (دام ظله) فتواه الشهيرة التي جاء فيها: "لا بدّ أولاً من إجراء انتخابات عامة لكي يختار كل عراقي مؤهل للانتخاب من يمثّله في مجلس تأسيسي لكتابة الدستور، ثم يجري التصويت العام على الدستور الذي يقرّه هذا المجلس. وعلى المؤمنين كافة المطالبة بتحقيق هذا الأمر المهم والمساهمة في إنجازه على أحسن وجه"[٢].

واتفقت النظريتان كذلك على "أن جميع فئات الشعب شركاء للحاكم في الأمور كافة ونصيبهم فيها متكافئ. أما المتصدّون للأمور فأمناء الناس عليها... بل هم كسائر الأمناء مسؤولون عن أماناتهم وللشعب مؤاخذتهم على أدنى تجاوز أو إهمال، وبما أن الجميع مشارك في المسؤولية ومتساوٍ في الحقوق والإمكانات، فللجميع حق المساءلة والمؤاخذة والاعتراض، وهم أحرار في إعلان موقفهم دون أي مضايقة"[٣].

مع "صياغة دستور وافٍ... تميّز فيه المصالح العامة التي يجب أن تراعى عن الأمور التي لا يجوز التصرف فيها، كما يتكفل هذا الدستور ببيان كيفية القيام بتلك الواجبات وصلاحيات الحاكم، وحرية الشعب وتعيين حقوق كافة أصناف المجتمع وضمانها... ويوجب العزل الدائم للحاكم في حال إفراطه أو تفريطه في حفظ حقوق الشعب وممتلكاته كما هو حال الخيانة في سائر الأمانات، وتترتب على عليه سائر العقوبات التي تترتب على الخيانة... لذلك يسمى دستور النظام والقانون الأساسي"[٤]، ثم "إن الهدف وراء تدوين الدستور، هو ضبط تصرفات المتصدّين والحد من سلطتهم وتبيين واجباتهم، وتعيين التكاليف العامة التي يجب

(١) النصوص الصادرة عن سماحة السيد السيستاني في المسألة العراقية. سابق: ٣٠٨. ط ٦.

(٢) المصدر السابق نفسه: ٣٠١. ط٦.

(٣) تنبيه الأمة وتنزيه الملّة. ترجمة مشتاق الحلو: ٨٦

(٤) المصدر نفسه: ٨٨. وينظر: ١١٩ و١٣٣.

عليهم القيام بها عن غيرها"[١]، وهو ما نصت عليه نظرية (تنبيه الأمة وتنزيه الملة).

أما مرجعية سماحة السيد السيستاني (دام ظله) فقد أكدت في بيانها الصادر في (٢٢ ربيع الأول ١٤٣٢هـ/ ٢٦ شباط ٢٠١١م) على تساوي المسؤولين وغيرهم من المواطنين في الحقوق والواجبات دون تمييز للنائب أو المسؤول التنفيذي عن سواه من المواطنين كافة، بل زادت على ذلك حين علمت بصدور امتيازات للمسؤلين التشريعيين والتنفيذيين، فطالبت "بإلغاء الامتيازات غير المقبولة التي منحت للأعضاء الحاليين والسابقين في مجلس النواب ومجالس المحافظات ولكبار المسؤولين في الحكومة من الوزراء وذوي الدرجات الخاصة وغيرهم، والامتناع عن استحداث مناصب حكومية غير ضرورية تكلف سنويّاً مبالغ طائلة من أموال هذا الشعب المحروم وإلغاء ما يوجد منها حاليّاً.

إنّ المرجعية الدينية التي طالما أكدت على المسؤولين ضرورة العمل على تحقيق مطالب الشعب المشروعة؛ تُحذّر من مغبة الاستمرار على النهج الحالي في إدارة الدولة"[٢].

ومما اتفقت عليه النظريتان أيضاً وجوب مشاركة أفراد الشعب في اختيار ممثليهم في مجلس النواب بمن فيهم غير المسلمين.

وهو ما نصت عليه نظرية (تنبيه الأمة وتنزيه الملة) بقولها: "تجب مشاركة غير المسلمين في الانتخابات بسبب مشاركتهم في الأمور المالية وغيرها وتوقف أمر الشورى العام على دخولهم"[٣].

وأما سماحة المرجع الديني الأعلى السيد السيستاني فقد نص على ذلك بقول عام مطلق شمل العراقيين جميعاً بمختلف أديانهم وإثنياتهم جاء فيه: "لا بدّ

(١) تنبيه الأمة وتنزيه الملّة. ترجمة مشتاق الحلو: ١٣٠.

(٢) النصوص الصادرة عن سماحة السيد السيستاني في المسألة العراقية. سابق: ٣٣٨. ط٦. وتنظر: الصورة الخطية للبيان في المصدر نفسه: ٥٣٠.

(٣) تنبيه الأمة وتنزيه الملة. ترجمة مشتاق الحلو: ١٤٤.

أولاً من إجراء انتخابات عامة لكي يختار كل عراقيّ مؤهل للانتخاب من يمثّله في مجلس تأسيسي لكتابة الدستور، ثم يجري التصويت العام على الدستور الذي يقرّه هذا المجلس"[١].

وفيما يتعلق بقلق المسيحيين والطوائف الأخرى غير المسلمة فقد أجاب مكتب سماحته عن ذلك بقوله: "نؤكد على وجوب احترام حقوق المواطنين المسيحيين وغيرهم من الأقليات الدينية"[٢].

وورد عن مكتبه قوله: "إن القوى السياسية والاجتماعية الرئيسية في العراق لا تدعو إلى قيام حكومة دينية، بل إلى نظام يحترم الثوابت الدينية للعراقيين، ويعتمد مبدأ التعددية والعدالة والمساواة... وأما ما يقع أحياناً من بعض الاعتداءات على غير المسلمين فهو أمر مرفوض تماماً، وسيتم القضاء عليها"[٣].

وقوله: "يجب أن يسعى الجميع ولا سيما الزعامات الدينية والروحية لتثبيت قيم المحبة والتعايش السلمي المبني على رعاية الحقوق والاحترام المتبادل بين أتباع مختلف الأديان والاتجاهات الفكرية"[٤].

ومما اتفقت عليه النظريتان -(نظرية تنبيه الأمة وتنزيه الملة) لسماحة الشيخ النائيني، ونظرية (إرادة الأمة) لسماحة السيد السيستاني (دام ظله)- قضية نبذ الفرقة بين المسلمين، وشد أواصر الأخوّة الشيعية-السنّية بين أفراد المجتمع الواحد.

فقد ورد في كتاب (تنبيه الأمة وتنزيه الملة) ما يؤكد على ضرورة "علاج التفرقة وتحقيق موجبات الاتحاد... لذلك اهتمت الشريعة كل هذا الاهتمام بحفظ الوحدة ورفع ما يجلب الاختلاف والتفرقة"[٥].

كما ورد عن مكتب سماحة السيد السيستاني قوله: "من المؤكد أن العراقيين

(١) النصوص الصادرة عن سماحة السيد السيستاني في المسألة العراقية. سابق: ٢٥٩. ط ٦.

(٢) المصدر السابق نفسه: ٢٤٩.

(٣) المصدر نفسه: ٣١٠.

(٤) المصدر نفسه: ٢٥٠.

(٥) تنبيه الأمة وتنزيه الملّة. ترجمة مشتاق الحلو: ١٧٠.

جميعا سنة وشيعة وغيرهم حريصون على وحدة بلدهم والدفاع عن ثوابته الدينية والوطنية، كما أنهم متفقون على ضرورة التأسيس لنظام جديد يقرّ مبدأ العدالة والمساواة بين جميع أبناء هذا البلد في جنب مبدأ التعددية واحترام الرأي الآخر"[١].

وورد عنه أيضاً قوله: "إن القوى السياسية والاجتماعية العراقية ومعظم الشعب العراقي على وعي تام بمخاطر الانسياق وراء النعرات العرقية والطائفية... وقد اتخذت خطوات مباركة في التنسيق والتواصل بين مختلف الطوائف والقوميات تجنّباً عن أي اصطدام عرقي أو طائفي"[٢].

بل أصدر مكتبه (دام ظله) بياناً مطولاً حول الوحدة الإسلامية ونبذ الفتنة الطائفية جاء فيه: "تمرّ الأمة الإسلامية بظروف عصيبة، وتواجه أزمات كبرى وتحديات هائلة تمس حاضرها وتهدد مستقبلها، ويدرك الجميع -والحال هذه- مدى الحاجة إلى رصّ الصفوف ونبذ الفرقة والابتعاد عن النعرات الطائفية والتجنب عن إثارة الخلافات المذهبية، تلك الخلافات التي مضى عليها قرون متطاولة... فلا ينبغي إذاً إثارة الجدل حولها خارج إطار البحث العلمي الرصين، ولا سيما أنها لا تمس أصول الدين وأركان العقيدة، فإن الجميع يؤمنون بالله الواحد الأحد وبرسالة النبي المصطفى صلى الله عليه وآله وبالمعاد... فهذه المشتركات هي الأساس القويم للوحدة الإسلامية، فلا بدّ من التركيز عليها لتوثيق أواصر المحبة والمودّة بين أبناء هذه الأمة... فينبغي لكلّ حريص على رفعة الإسلام ورقي المسلمين أن يبذل ما في وسعه في سبيل التقريب بينهم والتقليل من حجم التوترات الناجمة عن بعض التجاذبات السياسية لئلا تؤدي إلى مزيد من التفرق والتبعثر وتفسح المجال لتحقيق مآرب الأعداء الطامعين من الهيمنة على البلاد الإسلامية والاستيلاء على ثرواتها"[٣].

---

(١) النصوص الصادرة عن سماحة السيد السيستاني في المسألة العراقية: ٣٥٧ – ٣٥٨.

(٢) المصدر نفسه: ٣٥٨.

(٣) المصدر نفسه: ٣٥٨ – ٣٥٩.

كما أكدت كلتا النظريتين بألسنة مختلفة -حسب الظروف والأزمان- على مسألة حضور الانتخابات وحسن اختيار النائب فيها لمن يمثله، فقد وردت على لسان سماحة الشيخ النائيني أهمية "اليقظة التامة والنباهة في أمر انتخاب النواب، وإيداع الأغراض الثانوية، كالمحاباة والعداوات والقرب من هذا والبعد من ذاك جانباً، وأن لا يرضوا لأنفسهم أن يصبحوا مصداق قوله ﷺ: (شرّ الناس من باع دينه بدُنيا غيره)... لذا يجب أن يضع الناس الهدف من هذه الانتخابات نصب أعينهم، وينتبهوا أي سلطة يعطون لمن؟ وعلى من؟ ولأي هدف؟ ثم ينتخبون بينهم وبين الله من يجدونه مستوفياً للأوصاف المذكورة بصدق. من يمكنهم الإجابة على سبب انتخابه في محكمة العدل الإلهية"[١].

كما ورد على لسان مكتب سماحة السيد السيستاني القول بأن المرجعية العليا "تشدّد على ضرورة أن يختار الناخب من القوائم المشاركة ما هي أفضلها وأحرصها على مصالح العراق في حاضره ومستقبله، وأقدرها على تحقيق ما يطمح إليه شعبه الكريم من الاستقرار والتقدم، ويختار أيضاً من المرشحين في القائمة من يتصف بالكفاءة والأمانة والالتزام بثوابت الشعب العراقي وقيمه الأصيلة"[٢].

وطلبت من الناخبين وهي تدعوهم إلى أن يختاروا ممثليهم في مجلس النواب بأن يكونوا ممن: "يتصفون بالكفاءة والنزاهة والإخلاص والحرص على مصلحة العراق والعراقيين دون من يحرصون على ملذّاتهم ومصالحهم الشخصية من الامتيازات المالية وغيرها"[٣].

وأوضحت المرجعية الدينية العليا للسيد السيستاني (دام ظله) مقصودها أكثر فأكثر بقولها: "يفترض بالمواطنين أن يشاركوا في الانتخابات مشاركة واعية

(١) تنبيه الأمة وتنزيه الملة. ترجمة مشتاق الحلو: ١٤٤-١٤٥.

(٢) من جواب مكتب سماحة السيد السيستاني (دام ظله) في (٢ ربيع الأول ١٤٣١هـ/ ١٦ شباط ٢٠١٠م) عن سؤال يخص الانتخابات النيابية العامة. البيانات الصادرة. مكتب سماحته على الإنترنت. www.Sistani.org.

(٣) النصوص الصادرة عن سماحة السيد السيستاني في المسألة العراقية: ٢١٧-٢١٨. ط٦.

تُبنى على حسن الاختيار، فلا يكفي أصل المشاركة، بل من المهم أن يتم اختيار الصالح، الكفوء، الحريص على المصالح العليا للشعب العراقي، الحريص على قيمه النبيلة، واستقراره، وأمنه، ورفاه أبنائه، الذي يفكر في مصلحة الشعب ومستعد للتضحية في سبيلها، لا الذي يفكر في مصلحة نفسه وجماعته، وكيف يستثمر الكرسي أو الوزارة في سبيل الاستحواذ على المزيد من المزايا والمخصصات المالية، والمقاولات التجارية، والحقوق التقاعدية غير المنطقية، وما إلى ذلك مما يعرفه الجميع"[1].

وهناك غير كل ما تقدم مما اتفقت عليه النظريتان، يلحظه كل متأمل بمباني النظريتين الوارد ذكرهما في المبحثين المتقدمين آنفاً.

***

ولئن اتفقت النظريتان: نظرية سماحة الشيخ النائيني المبينة خطوطها العامة وتفاصيلها في كتابه (تنبيه الأمة وتنزيه الملّة)، مع نظرية (إرادة الأمة) لسماحة السيد السيستاني في الأعم الأغلب من أعمدة مبانيهما المؤسسة لنظريتيهما؛ فقد اختلفتا في أمور أخرى من قبيل: دخالة ظرف طرحها من حيث تبنيها كنظرية لسماحته في كل الظروف والأزمان وعدمه.

ففي الوقت الذي طرح فيه سماحة الشيخ النائيني نظريته في كتابه (تنبيه الأمة وتنزيه الملة) كنظرية عامة شاملة تبناها سماحته لشكل نظام الحكم في زمن الغيبة مطلقاً؛ جاءت نظرية (إرادة الأمة) للمرجع الأعلى السيد السيستاني (دام ظله) مؤقتة بظرفها التي قيلت فيه، وليست نظرية عامة شاملة يتبناها سماحته لشكل نظام الحكم في عصر الغيبة مطلقاً، وهو ما قاله لي (دام ظله) شخصياً خلال تشرفي بزيارته في مكتب سماحته سنة (١٤٣٩هـ/ ٢٠١٨م).

وإذ اعتبرت نظرية سماحة الشيخ النائيني كفاية وجود مجلس للشورى الوطني منتخب من الشعب يضم هيأة من المجتهدين والعلماء الأعلام مهمتهم تدقيق

(١) النصوص الصادرة عن سماحة السيد السيستاني في المسألة العراقية. وثيقة رقم: ١٢٠. ص٥٤٢-٥٤٣. ط٦.

التشريعات التي تصدر عنه و"رفض وتفنيد كلّيّاً أو جزئيّاً أي مشروع قانون يتعارض مع الشرع الإسلامي المقدس ولا يكتسب مثل هذا القانون عنوان الشرعية"[١] كما تقدم؛ راهنت نظرية سماحة السيد السيستاني "على إرادة الأمة، والمتمثلة بالشعب العراقي، ذي الغالبية الأكثرية المسلمة، فمن المؤكّد أنهم سيختارون من خلال مجالسهم الشوروية، نظاماً يحترم الشريعة الإسلامية"[٢].

يقول مكتب سماحته (دام ظله): "الإسلام هو دين أغلبية الشعب العراقي، وإذا كُتب الدستور بأيدي المنتخبين من قبل العراقيين، فمن المؤكد أنه ستتمثل فيه قيم الإسلام وتعاليمه السمحاء"[٣]، هذا إضافة إلى تأكيد سماحته (دام ظله) على تبني المادة (الثانية أ) من الدستور التي تحظر تشريع أي قانون يخالف ثوابت أحكام الإسلام، كما تقدم.

وحين لم يرد ذكر واضح في كتاب (تنبيه الأمة وتنزيه الملّة) يحدد الأسلوب الذي يجب أن يتبع عند الخلاف أو الاختلاف؛ أكّدت نظرية المرجع الأعلى السيد السيستاني (دام ظله) على أنّ: "الحوار الهادئ بين الأطراف المعنية هو الأسلوب الأمثل لحل الخلافات، واحترام الأقلية لرأي الأكثرية، وعدم محاولة الأكثرية للسيطرة على الأقلية والتحكم بهم – هو الأساس الذي يجب أن يراعى في العمل السياسي"[٤].

وإذ سكتت نظرية الحركة الدستورية عن الموقف الذي يجب أن يتخذ من قضية اشتراك المرأة في التصويت والترشيح والانتخاب، بل وتوليها المسؤولية التشريعية والتنفيذية، وإن كانت نصت على "إشراك جميع الشعب" في الانتخاب، على نحو العموم، من دون وضوح الإلزام في ذلك؛ بيّنت المرجعية العليا لسماحة

---

(١) التشيع والدستورية في إيران. عبد الهادي الحائري: ٢٩٦.

(٢) ينظر: المبحث الأول من هذا الفصل. الأساس الثاني لنظرية (إرادة الأمة).

(٣) النصوص الصادرة عن سماحة السيد السيستاني في المسألة العراقية. سابق: ٧٥ و٧٨.

(٤) المصدر السابق نفسه: ٧١.

السيد السيستاني (دام ظله) ذلك في جوابها عن سؤال يتعلق بحقوق النساء في العراق، وما إذا كنتم -حسب السؤال- تجدون مانعاً من مشاركة المرأة العراقية في العملية السياسية، وتسلمها للمناصب المختلفة، كعضوية البرلمان، والوزارة، وغير ذلك؛ فأجاب مكتب المرجعية العليا بقوله: "لا مانع من ذلك مع توفر الشروط والمؤهلات القانونية".

وزاد على ذلك بأن قال: "من المؤمل أن يكون للمرأة العراقية دور كبير في تطور العراق، ورُقِيِّه، ورفعته"(١).

بل ألزم جوابها مرة الرجال والنساء بالتصويت في الانتخابات بقولها: "يجب على المؤمنين المؤهلين للتصويت من الذكور والإناث التحقق من إدراج أسمائهم في سجل الناخبين بصورة صحيحة، ومن لم يدرج اسمه أو أُدرج بصورة مغلوطة فعليه مراجعة اللجنة الانتخابية في منطقته وإبراز المستمسكات المطلوبة للتدارك والتصحيح"(٢).

كما ورد على لسان مكتب سماحة السيد السيستاني (دام ظله) قوله في جواب آخر: "يجب على المواطنين المؤهلين للتصويت من الذكور والإناث التحقق من إدراج أسمائهم في سجل الناخبين بصورة صحيحة... حتى يتسنّى للجميع المشاركة في الانتخابات"(٣)، أو "ضرورة أن يشارك فيها جميع المواطنين من الرجال والنساء الحريصين على مستقبل هذا البلد وبنائه على أسس العدالة والمساواة بين جميع أبنائه في الحقوق والواجبات، مؤكداً على أنّ العزوف عن المشاركة لأي سبب كان سيمنح الفرصة للآخرين في تحقيق مآربهم غير المشروعة، ولات حين مندم"(٤).

وخاطبت المواطنين في موضع آخر وهي تدعوهم إلى المشاركة الواسعة في

---

(١) النصوص الصادرة عن سماحة السيد السيستاني في المسألة العراقية. سابق: ٩٩.

(٢) المصدر السابق نفسه: ١٢٧.

(٣) المصدر نفسه: ٢٦٦. ط٦.

(٤) المصدر نفسه: ٢٦٩. ط٦.

الانتخابات بقولها: "شاركوا في الانتخابات رجالاً ونساء، شيباً وشبّاناً، وعلى الآباء أن لا يمنعوا أولادهم من المشاركة، وعلى الأزواج أن لا يمنعوا نساءهم منها"[١].

ومن أجل توضيح المرجعية لموقفها من (وجوب) و(إلزام) المؤمنين بالاشتراك في الانتخابات، وما إذا كانت فتوى شرعية أو لا أجابت بقولها: "وأما إلزام المؤمنين بالمشاركة في الانتخابات فلم يكن فتوى شرعية بقدر ما كان محاولة لحثهم على المشاركة في صنع مستقبلهم بأنفسهم... عبر صناديق الانتخابات"[٢].

وإذ سكتت نظرية سماحة الشيخ النائيني عن ممارسة الأقليات لحقوقها كاملة وإن صرحت بوجوب مشاركتهم في انتخابات مجلس الشورى الوطني؛ صرحت نظرية سماحة المرجع الأعلى السيد السيستاني (دام ظله) -خلال تحديها للأسس التي يجب أن يقوم عليها عراق المستقبل- بـ"حماية حقوق الأقليات الدينية"[٣]؛ ومنها حقهم في ممارسة شعائرهم الدينية.

لقد تجلى منهج سماحة السيد السيستاني (دام ظله) في حماية حقوق الأقليات الدينية بوضوح يوم تعرضت عدد من الكنائس المسيحية في بغداد والموصل إلى اعتداءات آثمة أسفرت عن سقوط عشرات الضحايا الأبرياء بين قتيل وجريح، حيث أصدر مكتب سماحة المرجع الأعلى السيد السيستاني (دام ظله) بياناً في (١٥ جمادى الثانية ١٤٢٥هـ/ ٢ آب ٢٠٠٤م) أكد على وجوب احترام حقوق الأقليات الدينية من جهة، وضمان عيشهم في بلدهم بأمن وسلام من جهة أخرى حيث جاء فيه:

"إنّنا إذ نشجب وندين هذه الجرائم الفظيعة، ونرى ضرورة تضافر الجهود وتعاون الجميع -حكومة وشعباً- في سبيل وضع حدّ للاعتداء على العراقيين، وقطع دابر المعتدين؛ نؤكد على وجوب احترام حقوق المواطنين المسيحيين وغيرهم من

(١) النصوص الصادرة عن سماحة السيد السيستاني في المسألة العراقية. سابق: ٢٧٦. ط٦.

(٢) المصدر السابق نفسه: ٢٧٠ و٢٧١. ط٦.

(٣) المصدر نفسه: ٩٨ و٩٤.

الأقليات الدينية، ومنها حقهم في العيش في وطنهم العراق في أمن وسلام"[١].

بل ورد في وثيقة صدرت عن رأي المرجع الأعلى السيد السيستاني في (٢٢ جمادى الآخرة ١٤٢٧ هجرية) ما يلي: "أقول لمن يتعرضون بالسوء والأذى للمواطنين غير المسلمين من المسيحيين والصابئة وغيرهم: أمَا سمعتم أنّ أمير المومنين عليّاً بلغه أنّ امرأة غير مسلمة تعرّض لها بعض من يدّعون الإسلام وأرادوا انتزاع حليّها فقال: (لو أنّ امرءاً مسلماً مات من بعد هذا أسفاً ما كان به ملوماً بل كان به عندي جديراً)، فلماذا تُسيئون إلى إخوانكم في الإنسانية وشركائكم في الوطن"؟!.

***

وحين لم أعثر في كتاب أو رسالة (تنبيه الأمة وتنزيه الملة) على رأي لسماحة الشيخ النائيني في مسألة تولي علماء الدين أو المجتهدين شؤون الدولة الإدارية والتنفيذية؛ صرح المرجع الأعلى السيد السيستاني في أكثر من موضع بـ"ضرورة ابتعاد علماء الدين عن مواقع المسؤوليات الإدارية والتنفيذية"[٢]، وأن سماحته "لا يرتأي تدخّل المرجعية وممثليها في الشؤون الإدارية"[٣].

بقي لي قبل أن أختم مبحثي هذا أن أشير إلى رأي الفقيهَينِ في مسألة (ولاية الفقيه المطلقة).

ففي الوقت الذي صرح فيه سماحة الشيخ النائيني بتبنّيه لولاية الفقيه المطلقة سواء في كتابه (تنبيه الأمة وتنزيه الملة) كما تقدم، أم في بحثه المعنون (ولاية الحاكم) من تقريرات بحثه في كتاب (المكاسب والبيع)[٤]؛ سكت سماحة السيد السيستاني (دام ظله) عن بيان مبناه الفقهي في هذه المسألة بجلاء، وإن كان مكتبه قد أوضح

(١) النصوص الصادرة عن سماحة السيد السيستاني في المسألة العراقية. سابق: ١٢٣.

(٢) المصدر السابق نفسه: ٤٠٨. ط٦.

(٣) المصدر نفسه: ٤٠٨ و٤٠٩. ط٦.

(٤) ينظر: المكاسب والبيع. تقريرات الميرزا محمّد حسين الغروي النائيني. للحاج الشيخ محمّد تقي الآملي: المجلد ٢: ٣٣٦.

رأيه في مسألة تشكيل حكومة دينية في العراق جواباً عن سؤال وُجّه بهذا الخصوص جاء فيه: "هل يمكن تطبيق فكرة ولاية الفقيه في العراق؟". فكان جوابه: "وأمّا تشكيل حكومة دينية على أساس ولاية الفقيه المطلقة فليس وارداً مطلقاً"(١)، مع أنّ هناك من يرى من العلماء بأنّ هذا الجواب مقتصر على وضع العراق زمنَ السؤال.

غير أنّ ما ورد في جواب مكتبه في النجف الأشرف عن سؤال آخر بهذا الخصوص كان أكثر دلالة على المقصود، حيث جاء فيه: "سماحته ليس معنيّاً بتصدّي الحوزة العلمية بممارسة العمل السياسي؛ فإنّه يرتأي لعلماء الدين أن ينأوا بأنفسهم عن هذا المجال، ولكن هذا لا يمنع من قيامهم بإسداء النصح والتوجيه للناس"(٢).

ومثله مع اختلاف بسيط ورد عن مكتبه قوله: "سبق للمرجعية الدينية أنْ أوضحت أنّها ليست معنيّة بتصدّي الحوزة العلمية لممارسة العمل السياسي "(٣).

بل أجاب مكتبه في النجف الأشرف بما هو أصرح ممّا تقدم، بقوله: "المنهج الذي يؤمن به سماحة السيّد هو عدم التدخّل في الشأن السياسي إلّا في ما تُحتّمه الضرورة، ويرى أنّ هذا هو الأصلح لموقع المرجعية الدينية ومكانتها الروحية بين الناس"(٤).

كما أجاب مكتبه بمثل ذلك في موضع آخر بقوله: "منهج المرجعية هو عدم التدخّل في الشأن السياسي إلّا بمقدار ما تُحتّمه الضرورة"(٥).

ومع كل ما تقدم فإن القول الأخير في مبنى سماحة السيد السيستاني هو ما أرسله إليّ سماحة السيد محمد رضا السيستاني مجيباً عن سؤال وجّهتُه إليه بما يلي:

(١) النصوص الصادرة عن سماحة السيد السيستاني في المسألة العراقية. سابق. سؤال ٣ وجوابه. ص٣٠٩. ط٦.
(٢) المصدر السابق نفسه. في جواب عن سؤال رقم ٢. ص٩٧، و٤٦٦. ط٦.
(٣) المصدر نفسه. في جواب عن سؤال بهذا الخصوص. رقم ٧. ص٣١٠-٣١١. ط٦.
(٤) المصدر نفسه. في جواب عن سؤال بهذا الخصوص. رقم ٨. ص٣١١. ط٦.
(٥) المصدر نفسه. في جواب عن سؤال برقم ٣٠. ص٢٧١. ط٦.

"المحقق النائيني يقول بولاية الفقيه... وأما سماحة السيد فلم يذكر مبناه الفقهي في مشروعية الحكومة بصورة دقيقة، فهو مسكوت عنه"[١].

***

هذه بعض من نقاط الالتقاء والافتراق بين النظريتين، على أنّ البحث في هذا المجال لا زال بحاجة إلى بذل جهد واسع ودقيق لدراسة كلتا النظريتين وتبيان مواطن الالتقاء والافتراق بينهما أكثر فأكثر.

بل إنّ مباني نظرية (إرادة الأمة) للمرجع الأعلى السيد السيستاني (دام ظله) لا زالت بكراً لم تُدرس دراسةً تستحقّها، ولا زالت معالمها وأسسها غير واضحة لدى كثير من الباحثين بمن فيهم العديد من علماء حوزة النجف الأشرف وفضلائها فضلاً عن غيرهم من الباحثين.

❀ ❀ ❀

(١) رسالة خاصة أرسلها سماحته إلى المؤلف في (٢٢ تموز ٢٠٢١م)، وتاريخها لاحق لكل ما تقدم.

الفصل الرابع عشر

تماثل موقف المرجعيتين الدينيتين في مقاومة الاحتلال الأجنبي للأراضي العراقية

وفيه تمهيد وخمسة مباحث، وهي:

التمهيد

تشابه النهج السياسي عند أغلب من تصدى له من المراجع الدينيين في النجف الأشرف

المبحث الأول

تماثل موقف المرجعيتين الدينيتين في وجوب إعلان الجهاد الدفاعي ضد الغزو الأجنبي للعراق

المبحث الثاني

تماثل موقف المرجعيتين الدينيتين في إلزام المؤمنين بالدفاع ضد الاحتلالين البريطاني للعراق سابقاً، والداعشي لاحقاً

المبحث الثالث

تماثل موقف المرجعيتين الدينيتين في الطلب من المؤمنين وحثهم على تقديم الدعم المادي واللوجستي بكافة أشكاله للمتطوعين

المبحث الرابع

تماثل موقف المرجعيتين الدينيتين في ضرورة حشد الطاقات الشعبية المسلحة لتكون رديفاً للقوات العسكرية عند الحاجة

المبحث الخامس

توجيه المرجعيتين الدينيتين للمجاهدين في سوح الدفاع عن الوطن بوجوب مراعاة القيم الإسلامية والإنسانية في التعامل مع العدو قبل قرن وبعده

وسأتناولها تباعاً مبتدئاً بالتمهيد

يـحسـن بـي قبـل الدخـول فـي
الفصـلين اللاحقـين أن أمهّـد لـهمـا
بمنطلق مرجعي غالب فيمـا يلي:

تشابه النهج السياسي عند أغلب من تصدى له من المراجع الدينيين في النجف الأشرف

لئن كان حديثي هنا عن دور المرجعية الدينية في الشأن الاجتماعي/ السياسي العراقي ليس مستوعباً لجميع أدوار مراجعها المعاصرين لضيق المساحة المخصصة له؛ فإنّي أفردت لذلك كتاباً مستقلّاً حمل جزؤه الأول العنوان التالي: (دور مرجعية النجف الأشرف السياسي في العراق منذ مطلع القرن العشرين حتى الانتخابات العامة المباشرة في ١٥/ ١٢/ ٢٠٠٥م)، على أنْ تليه أجزاء أخرى تؤرّخ لمرحلة ما بعد الانتخابات العامة المباشرة في (١٥/ ١٢/ ٢٠٠٥م)، وحتى تاريخ كتابتي لها؛ إثر معاصرتي لأحداثها، إن شاء الله تعالى.

وأزعم من خلال متابعتي للنهج السياسي لأغلب المراجع المتصدين للشأن السياسي/ الاجتماعي العام أني تلمست تطابقاً أو تقارباً أو تشابهاً في المنطلق والرؤية المبدئية تجاه العديد من القضايا الاجتماعية/ السياسية في العراق لدى العديد من مراجع حوزة النجف الأشرف منذ قرون في سياق رؤية مبدئية متصلة الحلقات لهؤلاء المراجع في تحديد الموقف الشرعي العملي من أمور حادثة في وقتها، من قبيل الاحتلال للأراضي العراقية وتوابعه، والظلم ووجوب مقاومته، والعدل وضرورة تطبيقه، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر متى ما تهيأت شروط وجوبه، وأمثال ذلك من الأمور المستجدة، وإن اختلفت محددات هذه الرؤية لدى المراجع تجاهها، تبعاً للظروف المعاشة لكل من تلك المستجدات، ومن رأي المراجع فيها، مثلما تعددت سعة تلك المباني وضيقها لدى بعض المراجع عنها لدى بعضهم الآخر.

إنّ هذه الرؤى المبدئية المتطابقة أو المتماثلة أو المشتركة أو المتقاربة بين العديد من مراجع حوزة النجف الأشرف من أحداث متطابقة أو متماثلة أو متشابهة أو متقاربة وأمثالها متى ما تشابهت الظروف المعاشة؛ ربطت الموقف المبدئي لأولئك

المراجع بعضه ببعض، في أنساق متقاربة، ورؤية متماهية، كما بدت تجلياتها العديدة على أرض الواقع، وهي نتيجة طبيعية لوحدة مصدري التشريع قرآناً كريماً، وسنة للنبي الكريم ﷺ وآل بيته الطيبين الطاهرين صلوات الله عليهم أجمعين، وأصول وقواعد الاستنباط.

فمن الموقف المبدئي للمجتهد السيد محمّد بن ثنوان شبر في القرن الثاني عشر الهجري، إلى مثيله الموقف المبدئي للمرجع الشيخ جعفر كاشف الغطاء الكبير، إلى موقف المرجع الشيخ موسى كاشف الغطاء، إلى موقف المرجع الشيخ حسن كاشف الغطاء، إلى موقف المرجع السيد محمّد حسن الشيرازي المعروف بالمجدد، إلى موقف المرجع الشيخ محمّد كاظم الخراساني المعروف بالآخوند، إلى موقف المرجع الشيخ محمّد تقي الشيرازي مفجّر ثورة العشرين، إلى موقف المرجع شيخ الشريعة الأصبهاني القائد الخلف لثورة العشرين، إلى موقف المرجع السيد أبو الحسن الأصفهاني، إلى موقف المرجع الشيخ محمّد حسين النائيني، إلى مواقف المرجع الشيخ محمّد الحسين آل كاشف الغطاء المتأخرة، إلى موقف المرجع السيد محسن الحكيم، إلى موقف المرجع الشهيد السيد محمّد باقر الصدر، إلى المواقف المبدئية للمراجع الآخرين (قدس الله أسرار الماضين منهم وأدام ظِلال الباقين منهم)، وفي مقدمتهم الموقف المبدئي للمرجع الأعلى الحالي سماحة السيد علي الحسيني السيستاني (دام ظله).

وأخصّ هنا بالذكر مواقف المرجع الأعلى سماحة السيد السيستاني بالذات لأهميتها حاضراً ومستقبلاً، حيث لا زالت أطروحته المبدئية المهمة في العمل السياسي خلال سنوات وظروف عراق ما بعد سقوط النظام سنة (١٤٢٤هـ/ ٢٠٠٣م) وإلى يوم الناس هذا وما بعده – بحاجة إلى دراسة تحليلية متأنية، تجلي خطوطها التنظيرية، وتطبيقاتها العملية خلال ظرفها المعاش.

أما وقد وصل بي البحث إلى ما وصل إليه اليوم، حيث تمثلت المرجعية العليا بالمرجع الأعلى سماحة السيد السيستاني (دام ظله)، فإنه يمكنني القول: بأن الأطروحة السياسية للسيد السيستاني (دام ظله) تنسجم في قسم كبير من متبنّياتها

مع أطروحة قادة الحركة الدستورية المعروفة بـ(المشروطة) في حوزة النجف الأشرف، تلك الأطروحة التي تجلى الكثير من تطبيقاتها العملية في التصدي للمحتل المعتدي، والسعي لتحقيق العدل والانصاف، ومنع التفرد والتسلط والدكتاتورية، وعدم السماح بتشريع ما يخالف أحكام الإسلام في مجتمع مسلم، وتطبيق الدستورية في العمل السياسي، وتمثيل روحية ومبادئ الشعب المسلم ومثله العليا بأفضل الطرق المتاحة، والرقابة على السلطتين التشريعية والتنفيذية وتقويمهما مما يشوب أحكامهما من تشوّهات وغيرها، وقد تبنى المرجع المصلح الشيخ محمّد كاظم الخراساني قبل ذلك ومثيله تقريباً بحماس وفاعلية من خلال إصراره الشديد على تأسيس حكم دستوري عادل، ثم تبدّت العديد من التطبيقات العملية لهذه الرؤية لاحقاً في موقف المرجعين الشيخ محمّد تقي الشيرازي، وشيخ الشريعة الأصبهاني في ثورة العشرين، ثم بعد ذلك في مواقف المرجعين السيد أبو الحسن الأصفهاني والميرزا الشيخ محمّد حسين النائيني في الوقوف بوجه المحتل الإنكليزي والتصدي له بمنعه من تزييف إرادة العراقيين في انتخابات أراد لها المحتلّ ومَلِكُه المستورَد وحكومته أن تجرى لتحقيق مشيئة المحتل الإنكليزي، خلافاً لمصالح العراق والعراقيين، وقد تقدمت الإشارة إلى ذلك سابقاً، كما ستأتي لاحقاً.

وقد تقدم الحديث مفصلاً عن نظرية سماحة السيد السيستاني المسماة (إرادة الأمّة)، وعن نقاط الالتقاء والاختلاف بينها وبين نظرية الدستوريين المتمثلة بكتاب (تنبيه الأمة وتنزيه الملّة) للشيخ محمد حسين النائيني، وعن الدور الكبير لسماحة السيد السيستاني في الشأنين الاجتماعي والسياسي في العراق من خلال بياناته أو بيانات مكتبه في النجف الأشرف، إضافة إلى (خطب الجمعة) من على منبر العتبة الحسينية المقدسة، تلك البيانات والخطب الكاشفة بوضوح عن رؤى سماحته في الشأنين الاجتماعي والسياسي العراقي، وكان قد تقدم بيان منهجه في البحث الفقهي/ الأصولي في الكتاب الثامن من كتبي عن الحوزة العلمية في النجف الأشرف المخصص للحديث عن (المرجعية الدينية).

أما إذا كان لي أن أضرب أمثلة عملية على تطابق أو تماثل أو تشابه أو تقارب مواقف مرجعيتي ثورة العشرين بزعامة كلّ من المرجع الأعلى الشيخ محمّد تقي الشيرازي وخلفه المرجع الأعلى شيخ الشريعة الأصبهاني من جهة، والمرجعية العليا الحالية المعاشة بزعامة سماحة المرجع الأعلى السيد علي السيستاني من جهة أخرى؛ فإنّي سأقدّم عدّة وجوه عملية للتطابق أو التماثل أو التشابه أو التقارب بينهما في الرؤية والموقف، سواء في تأكيدهما القويّ معاً على وحدة الصف الوطني للعراقيين بتلاوينهم المختلفة دينية، وطائفية، وإثنية، ومناطقية؛ أم في موقفهما من أهمية إبلاغ المنظمات الدولية والمجتمع الدولي بمعاناة الشعب العراقي المظلوم ومطالبه في قضاياه الملحّة؛ أم في تبيان وحدة موقفيهما من المحتل الأجنبي الغازي؛ أم في رؤية المرجعيتين المشتركة بأهمية تشكيل قوة عسكرية مسلحة رديفة للجيش العراقي والقوات الأمنية تعينهما على التصدي للعدو الإرهابي الطائفي القادم من خارج الحدود، أو من داخلها بدعم من خارجها؛ أم بتقارب موقفي المرجعيتين قبل قرن من الزمان وبعده في الكثير من وصايا وتوجيهات وبيانات المرجعية الدينية خلال ثورة العشرين ١٣٣٨هـ/ ١٩٢٠م) للمجاهدين المقاتلين للعدو الأجنبي الغازي في القضايا المتماثلة أو المتقاربة مع توجيهات سماحة المرجع الأعلى السيد السيستاني للمجاهدين المقاتلين ضد احتلال العدو الإرهابي الطائفي (داعش) لثلاث محافظات عراقية سنة (١٤٣٥هـ/ ٢٠١٤م)؛ أم في تحديد مَن له حق اختيار شكل نظام الحكم في العراق؛ أم في تشخيص آلية توفر الحرية التامة للشعب في اختيار ممثليه في مجلس النواب؛ أم غير ذلك. وسأتناول أغلبها في الفصلين القادمين.

***

لذا فسأعرض في هذا الفصل أهم المواقف المتطابقة أو المتماثلة أو المتقاربة بين المرجعيتين الدينيتين لثورة العشرين من جهة، ومرجعية سماحة السيد السيستاني المعاصرة من جهة أخرى في وجوب الدفاع ضد المحتل الغازي قبل قرن من الزمان وبعده. وذلك من خلال المباحث التالية:

المبحث الأول

تماثل موقف المرجعيتين الدينيتين
في وجوب إعلان الجهاد الدفاعي ضد الغزو الأجنبي للعراق

منذ أن احتلت القوات البريطانية الغازية الأراضي العراقية في (١٣٣٣هـ/ ١٩١٤م)؛ دعت المرجعية الدينية -وعلى رأسها المرجع الأعلى سماحة السيد محمّد كاظم اليزدي والمراجع والمجتهدون الآخرون- إلى إعلان الجهاد الدفاعي ضد العدو الغازي، وحين قدّر للمجاهدين المدافعين أن لا يكسبوا المنازلة، واستمر الاحتلال الإنكليزي، وازداد ظلماً وعَسْفاً وشدّة وقسوة وضراوة وبطشاً؛ عاد سماحة المرجع الأعلى الخلف الشيخ محمّد تقي الشيرازي إلى إعلان الجهاد الدفاعي في ثورة العشرين (١٣٣٨هـ/ ١٩٢٠م)، حيث نصّت فتوى سماحته على ما يلي: "مطالبة الحقوق واجبة على العراقيين، ويجب عليهم في ضمن مطالباتهم رعاية السلم والأمن، ويجوز لهم التوسّل بالقوة الدفاعية إذا امتنع الإنكليز عن قبول مطالبهم"(١).

وإذ قُدّر له أن يُلبّي نداء ربه أثناء الثورة أعلن خَلَفُه سماحة المرجع الأعلى شيخ الشريعة الأصبهاني فتواه باستمرار فريضة الجهاد الدفاعي حتى إجلاء المحتل الغازي عن الأراضي العراقية كافة، ببيان نعيه للمرجع الأعلى سماحة الشيخ الشيرازي بتاريخ (٢ ذي الحجة ١٣٣٨هـ/ ١٧ آب ١٩٢٠م)، ناعياً فيه سلفه المرجع الأعلى ومفتياً بوجوب استمرار الجهاد الدفاعي بقوله: "الجدّ الجدّ حُماة الدين وأعضاد المسلمين، والنشاط النشاط، وزيدوا على ما كنتم عليه أولاً من الدفاع الذي أوجبناه عليكم من قبل، واصبروا وصابروا يثبّت الله أقدامكم.."(٢).

---

(١) معارف الرجال. سابق: ١/ ٣٦٢.

(٢) وثائق الثورة العراقية الكبرى. سابق. تنظر الرسالة المصورة في: ٣/ ٢٦٤.

ولم يكتفِ المرجع الأعلى الخلف شيخ الشريعة الأصبهاني بذلك، بل كتب إلى زعماء وشيوخ المجاهدين في الجبهات العسكرية قائلاً: "... كونوا ثبّتكم الله بنياناً مرصوصاً، وتساندوا جسماً واحداً قبال هذا العدو الذي لا يرقب إلّاً ولا ذمّة، أَلا وإنّا نوجبُ عليكم الآنَ كما أوجبنا عليكم من قبلُ الدفاعَ عن حرمات الله ورسوله، وعن شرف الإسلام، ويناسب في هذا أن ترموا مدفعين أو أكثر لتنشيط العزائم"[1]، وقد تقدم الحديث عن ذلك مفصلاً فيما سبق.

إنّ هذا الموقف الدفاعي ضد المحتل هو الموقف نفسه الذي دعا إليه المرجع الأعلى الحالي السيد علي السيستاني (دام ظله) بإعلانه الدفاع الكفائي عندما غزت داعش الوهابية التكفيرية أراضيَ عراقية سنة (١٤٣٥هـ/ ٢٠١٤م) فاحتلت محافظات: نينوى، وصلاح الدين، والأنبار، وعاثت في الأرض فساداً، وواصلت تقدّمها التكفيري الطائفي الدموي حتى وصلت قواتها المسلحة إلى مشارف العاصمة بغداد، حينها أصدر سماحة السيد السيستاني (دام ظله) فتواه الشهيرة بالدفاع الكفائي، تلك الفتوى التي تُليت في الخطبة الثانية من صلاة الجمعة المُقامة في الصحن الحسيني الشريف في (١٤ شعبان ١٤٣٥هـ، الموافق ليوم ١٣/ ٦/ ٢٠١٤م)، وفيما يلي نص الفتوى المباركة التي ألهبت كلّ تلك الروح المتوثبة للدفاع عن العراق وشعبه:

"أيها الإخوة والأخوات: إنّ الاوضاع التي يمرّ بها العراق ومواطنوه خطيرة جداً، ولا بدّ أن يكون لدينا وعي بعمق المسؤولية الملقاة على عاتقنا (إنّها مسؤولية شرعية ووطنية كبيرة).

أيها الإخوة والأخوات، أودّ توضيح ما يلي:

أولاً: إنّ العراق وشعبه يواجه تحدياً كبيراً، وخطراً عظيماً، وإنّ الإرهابيين لا يستهدفون السيطرة على بعض المحافظات كنينوى وصلاح الدين فقط. بل

(١) المصدر السابق: ٣/ ٢٦٧.

صرّحوا بأنهم يستهدفون جميعَ المحافظات، ولا سيّما بغداد وكربلاء المقدسة والنجف الأشرف. فهم يستهدفون كُلَّ العراقيين وفي جميع مناطقهم. ومن هنا فإن مسؤولية التصدي لهم ومقاتلتهم هي مسؤولية الجميع، ولا يختص بطائفة دون أخرى أو بطرفٍ دون آخر.

ثانياً: إنّ التحدي وإن كان كبيراً إلّا أنّ الشعب العراقي الذي عُرِفَ عنه الشجاعة والإقدامُ، وتحمّلُ المسؤولية الوطنية والشرعية في الظروف الصعبة؛ أكبرُ من هذه التحديات والمخاطر.

فإنّ المسؤولية في الوقت الحاضر هي حِفْظُ بلدنا العراق ومقدساته من هذه المخاطر، وهذه توفر حافزاً لنا للمزيد من العطاء والتضحيات في سبيل الحفاظ على وحدة بلدنا وكرامته، وصيانة مقدساته من أن تُهتك من قبل هؤلاء المعتدين.

ولا يجوز للمواطنين الذين عهدنا منهم الصبر والشجاعة والثبات في مثل هذه الظروف أن يدبَّ الخوفُ والإحباطُ في نفسِ أيِّ واحد منهم، بل لا بدّ أن يكون ذلك حافزاً لنا لمزيد من العطاء في سبيل حفظ بلدنا ومقدساتنا.

قال تعالى في محكم كتابه الكريم: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱصۡبِرُواْ وَصَابِرُواْ وَرَابِطُواْ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ﴾[١]. وقال تعالى: ﴿قَالَ مُوسَىٰ لِقَوۡمِهِ ٱسۡتَعِينُواْ بِٱللَّهِ وَٱصۡبِرُوٓاْۖ إِنَّ ٱلۡأَرۡضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَآءُ مِنۡ عِبَادِهِۦۖ وَٱلۡعَٰقِبَةُ لِلۡمُتَّقِينَ﴾[٢]، وقال تعالى: ﴿وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَا تَنَٰزَعُواْ فَتَفۡشَلُواْ وَتَذۡهَبَ رِيحُكُمۡۖ وَٱصۡبِرُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾[٣]، وقال تعالى: ﴿أَمۡ حَسِبۡتُمۡ أَن تَدۡخُلُواْ ٱلۡجَنَّةَ وَلَمَّا يَأۡتِكُم مَّثَلُ ٱلَّذِينَ خَلَوۡاْ مِن قَبۡلِكُمۖ مَّسَّتۡهُمُ ٱلۡبَأۡسَآءُ وَٱلضَّرَّآءُ وَزُلۡزِلُواْ حَتَّىٰ يَقُولَ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ مَتَىٰ نَصۡرُ ٱللَّهِۗ أَلَآ إِنَّ نَصۡرَ ٱللَّهِ قَرِيبٞ﴾[٤]، وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُحَرِّمُواْ

(١) سورة آل عمران. آية ٢٠٠.

(٢) سورة الأعراف. آية: ١٢٨.

(٣) سورة الأنفال. آية: ٤٦.

(٤) سورة البقرة. آية: ٢١٤.

طَيِّبَٰتِ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكُمۡ وَلَا تَعۡتَدُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُعۡتَدِينَ ﴾[1].

ثالثاً: إنّ القيادات السياسية أمام مسؤولية تاريخية ووطنية وشرعية كبيرة. وهذا يقتضي ترك الاختلافات والتناحر خلال هذه الفترة العصيبة، وتوحيد موقفها وكلمتها، ودعمها وإسنادها للقوات المسلحة. ليكون ذلك قوة إضافية لأبناء الجيش العراقي في الصمود والثبات.

رابعاً: إنّ دفاع أبنائنا في القوات المسلحة وسائر الأجهزة الأمنية هو دفاع مقدّس، ويتأكد ذلك حينما يتضح أنّ منهج هؤلاء الإرهابيين المعتدين هو منهج ظلامي بعيد عن روح الإسلام، يرفض التعايش مع الآخر بسلام، ويعتمد العنف وسفك الدماء، وإثارة الاحتراب الطائفي وسيلة لبسط نفوذه وهيمنته على مختلف المناطق في العراق والدول الأخرى.

يا أبناءنا في القوات المسلحة... إنّكم أمام مسؤولية تاريخية ووطنية وشرعية، واجعلوا قصدكم ونيّتكم ودافعكم هو الدفاع عن حرمات العراق ووحدته، وحفظ الأمن للمواطنين، وصيانة المقدسات من الهتك، ودفع الشر عن هذا البلد المظلوم وشعبه الجريح.

وفي الوقت الذي تؤكد فيه المرجعية الدينية العليا دعمَها وإسنادَها لكم؛ تحثّكم على التحلّي بالشجاعة والبسالة والثبات والصبر، وإنَّ من يضحّي منكم في سبيل الدفاع عن بلده وأهله وأعراضهم؛ فإنه يكون شهيداً إن شاء الله تعالى.

والمطلوب أن يحث الأبُ ابنَه، والأمُّ ابنَها، والزوجةُ زوجَها، على الصمود والثبات دفاعاً عن حرمات هذا البلد ومواطنيه.

خامساً: "إنّ طبيعة المخاطر المحدِقة بالعراق وشعبه في الوقت الحاضر تقتضي الدفاع عن هذا الوطن وأهله وأعراض مواطنيه، وهذا الدفاع واجب على المواطنين بالوجوب الكفائي (بمعنى أنّ مَن يتصدّى له وكان فيه الكفاية بحيث يتحقّق الغرض وهو حفظ العراق وشعبه ومقدساته؛ يسقط عن الباقين).

---

(١) سورة المائدة. آية: ٨٧.

وتوضيح ذلك بمثال أنّه إذا تصدى عشرة آلاف وتحقّق الغرض منهم؛ سقط عن الباقين، فإن لم يتحقّق وجب على البقية، وهكذا.

ومن هنا فإنّ على المواطنين الذين يتمكنون من حمل السلاح ومقاتلة الارهابيين دفاعاً عن بلدهم وشعبهم ومقدساتهم؛ عليهم التطوع للانخراط في القوات الأمنية.

سادساً: إنّ الكثير من الضبّاط والجنود قد أبلَوا بلاءً حسناً في الدفاع والصمود وتقديم التضحيات، فالمطلوب من الجهات المعنيّة تكريم هؤلاء تكريماً خاصاً، لينالوا استحقاقهم من الثناء والشكر، وليكون حافزاً لهم ولغيرهم على أداء الواجب الوطني الملقى على عاتقهم.

نسأل الله تعالى أن يحفظ العراق وشعبه وجميع الشعوب"[١].

ولم تكتفِ المرجعية العليا بذلك، بل ألحقت الخطبة المباركة -المتقدم ذكرها- بالعديد من خطبها الأخرى من على منبر الجمعة نفسه، وزادت على ذلك "بإرسال أساتذة وطلّاب الحوزة بعمائمهم الكريمة إلى الجبهات"[٢]، ليستشهد منهم العشرات في قواطع العمليات العسكرية قربة إلى الله سبحانه وتعالى وإعزازاً لدينهم القويم[٣].

❀ ❀ ❀

(١) الحوزة العلمية في النجف الأشرف. الكتاب الحادي عشر (من الدفاع الكفائي إلى النصر النهائي خطب المرجعية العليا في الشأن السياسي في العراق). للمؤلف.

(٢) من رسالة خاصة بعثها إليّ سماحة السيد محمد رضا السيستاني في ١٠صفر ١٤٤٤هـ/ ٧ أيلول ٢٠٢٢م. مستذكراً صدى يوم صدور الفتوى المباركة.

(٣) ينظر الملحق الخاص بأسماء وصور شهداء طلاب الحوزة العلمية في الكتاب الخامس من كتبي عن الحوزة العلمية في النجف الأشرف. وإنما ذكرت قسماً من شهداء الحوزة العلمية الكريمة بالذات من بين الآلاف من الشهداء المجاهدين الآخرين من مختلف الطبقات؛ لأنّ الكتاب خاص بالحوزة العلمية في النجف الأشرف.

المبحث الثاني

تماثل موقف المرجعيتين الدينيتين في إلزام المؤمنين بالدفاع ضد الاحتلالين البريطاني للعراق سابقاً، والداعشي لاحقاً

لقد سعت كلتا المرجعيتين الدينيتين قبل قرن من الزمان وبعده إلى حث المواطنين على مقاومة المحتلين للأراضي العراقية كل في زمنها وعصرها.

فما أن وطئت أقدام القوات البريطانية الغازية الأراضي العراقية سنة (١٩١٤م) حتى صدرت الفتاوى الشرعية من قبل المراجع والمجتهدين وفي مقدمتهم المرجع الأعلى السيد محمد كاظم اليزدي بوجوب الدفاع عن الأرض والشعب والعِرض والمقدسات، ثم بعد أن نكثت القوات البريطانية المحتلة وعودها صدرت فتاوى المراجع العظام وفي مقدمتهم المرجع الأعلى الشيخ محمد تقي الشيرازي سنة (١٩٢٠م) ناصّة على ما يلي: "مطالبة الحقوق واجبة على العراقيين، ويجب عليهم ضمن مطالباتهم رعاية السلم والأمن، ويجوز لهم التوسّل بالقوة الدفاعية إذا امتنع الإنكليز عن قبول مطالبهم" -كما تقدم-.

ثم بعد مضي حوالي عقد من الزمن بعد احتلال داعش للأراضي العراقية، وبعد صدور فتوى الدفاع الكفائي من المرجع الأعلى السيد السيستاني -المتقدم ذكرها-، نشطت المرجعية الدينية العليا بأذرعها المتعددة في حثّ المواطنين على المقاومة والكفاح والدفاع عن الوطن والمقدسات، من خلال دعوة المواطنين إلى اجتماعات عامة جامعة تمّ فيها حث الجماهير المحتشدة على التطوع من جهة، وإرسال مبعوثي المرجعية ووكلائهم من أساتذة الحوزات العلمية وفضلائهم إلى الجبهات العسكرية مشاركةً منهم في الواجب الشرعي الملقى على عواتقهم، وتشجيعاً لغيرهم على الالتحاق بالجبهات من جهة ثانية، وشحناً للروح المعنوية للمجاهدين في الجبهات كافة من جهة ثالثة.

لقد تمظهرت تعبئة المواطنين وتثويرهم ضد المحتلين خلال ثورة العشرين

بالمظاهرات الصاخبة التي عمت مدن بغداد، والكاظمية، وكربلاء، والنجف الأشرف، والحلة، والمنتفق، وغيرها مما تقدم ذكرها في فصل سابق من هذا الكتاب.

وتأتي في مقدمة تلك التجمعات الثورية الكبيرة، تلك المجالس المعروفة بمجالس (المولد/ التعزية) لشيعة بغداد وسُنّتها، التي كانت تعقد مرتين أو ثلاث مرات في الأسبوع، تتخللها الخطب النارية المحرّضة ضد المحتل البريطاني الغازي، وقد اشتدت وتائر الضغط الشعبي على الإنكليز في شهر (رمضان المبارك ١٣٣٨هـ/ مايس-حزيران ١٩٢٠م)، فشحذت الهمم، وأُجِّجَت الأحاسيس، وأُلهبت المشاعر، ثم تعالت موجة التثوير الصاخبة بعد صدور رسالة المرجع الأعلى الشيخ محمد تقي الشيرازي إلى العراقيين كافة في (٩-١٠ رمضان ١٣٣٨هـ/ ٢٨ مايس ١٩٢٠م)، تلك الرسالة التي جاء فيها "إنّ إخوانكم المسلمين في بغداد، والكاظمية، والنجف الأشرف، وكربلاء، قد اتفقوا فيما بينهم على الاحتجاج بمظاهرات سلمية... فالواجب عليكم، بل على جميع المسلمين الاتفاق مع إخوانكم بهذا المقصد الشريف، وأن يرسل كل قطر وناحية بمقصده إلى عاصمة العراق للطلب بحقه"[١].

ونتيجة لنشاط المرجعية الفعّال ووكلائها ومبعوثيها وخطبائها وشعرائها؛ بلغ عدد المظاهرات الصاخبة ضد المحتلين الإنكليز ما قدر بـ"خمسين مظاهرة"[٢] شعبية.

ثم إذ احتلت داعش الإرهابية التكفيرية محافظة الموصل في (١١ شعبان ١٤٣٥هـ/ ١٠ حزيران ٢٠١٤م) وزحفت قواتها الغازية فاحتلت محافظتي صلاح الدين والأنبار ووصلت طلائعها العسكرية حتى أبواب بغداد فَدَقَّتْها؛ أصدر المرجع الأعلى سماحة السيد علي الحسيني السيستاني (دام ظله) فتواه الشرعية المباركة المعروفة بفتوى الدفاع الكفائي ليُلقيها من على منبر جمعة الصحن الحسيني الشريف ممثّلُه ووكيله سماحة الشيخ عبد المهدي الكربلائي في (١٤ شعبان ١٤٣٥هـ/ ١٣ حزيران ٢٠١٤م) -بمشاركة الكثرة الكاثرة من وكالات الأنباء العراقية وغير العراقية-

(١) وثائق الثورة العراقية الكبرى. سابق: ٣/ ٨١.

(٢) الثورة العراقية الكبرى سنة ١٩٢٠. سابق: ٢٠٢.

فهبّ العراقيون "من الدقائق الأولى لإطلاقها هبّةً مُذهِلةً إلى أبعد حَدّ"[١].

لقد كنت في كربلاء يومَها أسمع الخطبة وأشهد الزحف المقدس من المتطوعين، من مختلف الأعمار والطبقات الاجتماعية، من العامل إلى صاحب العمل، ومن الثري إلى الفقير، ومن أستاذ الحوزة ومدرّسها وطالبها إلى أستاذ الجامعة ومدرّسها وطالبها، ومن الشيخ إلى الشابّ.

ثم ومثلما انتفضت كربلاء المقدسة بعد سماعها الفتوى المباركة انتفض المؤمنون المتطوعون للدفاع عن الأرض والعرض والمقدسات من أقصى مدن جنوب العراق إلى وسطه، وشماله، وخاصة الشيعة منهم، مُلَبّين فتوى مرجعيتعم العليا بالدفاع الكفائي بما قُدّر بأكثر من مليونَي متطوع إلى ثلاثة ملايين متطوع، إضافة إلى قسم من المسلمين السُّنّة. بل لبّى دعوة المرجعية العليا بالدفاع الكفائي عدد غير قليل من غير المسلمين أيضاً.

كل هؤلاء وغيرهم ثاروا بروح قتالية عالية؛ للدفاع عن وطنهم وأرضهم وعِرضهم ومقدساتهم، فتعززت المعنويات الخائرة للقوى الأمنية من جيش وشرطة وأمن وغيرها، بعد انهيارها الكامل أمام الغزاة في الموصل، وصلاح الدين، والأنبار، لتبدأ جحافل المجاهدين المتطوعين، ومعهم الأجهزة الأمنية كافة من أخذ زمام المبادأة والمبادرة، فتحرّر بصولاتها القتالية ما احتلته داعش من مدن ومحافظات وأقضية ونواحٍ وقصبات، ملتزمة تلك القوى المجاهدة ما أمكن بتوجيهات المرجعية العليا خلال عمليات التحرير.

أخلص من ذلك كله إلى أنه لولا فتوى المرجع سماحة السيد محمّد كاظم اليزدي سنة (١٣٣٣هـ/ ١٩١٤م)[٢]، ثم فتوى المرجع الخلف سماحة الشيخ

---

(١) من رسالة خاصة بعثها إليّ سماحة السيد محمد رضا السيستاني في ١٠صفر ١٤٤٤هـ/ ٧ أيلول ٢٠٢٢م. مستذكراً صدى يوم صدور الفتوى المباركة.

(٢) من الغريب أن يقول أي مؤرخ لحركة الجهاد ضد الإنكليز حينما دخلوا البصرة محتلين سنة ١٩١٤ ما قاله د. وميض جمال عمر نظمي في كتابه (ثورة ١٩٢٠ الجذور السياسية والفكرية والاجتماعية للحركة =

محمّد تقي الشيرازي سنة (١٣٣٨هـ/ ١٩٢٠م)، ففتوى المرجع الخلف سماحة شيخ الشريعة الأصبهاني بعد وفاة المرجع الأعلى السلف؛ لَما أُجبر الإنكليز على تأسيس الدولة العراقية الحديثة أياً كانت سلبيات ذلك التأسيس -كما تقدم في فصل سابق-.

ولولا فتوى المرجع الأعلى سماحة السيد السيستاني (دام ظله) بالدفاع الكفائي المتقدم ذكرها لَاحتلت (داعش) الوهابية التكفيرية بغداد، فبابل، فكربلاء المقدسة، فالنجف الأشرف وهكذا حتى البصرة الفيحاء، كما صرحوا بذلك علناً، بعد احتلالهم لمحافظات: نينوى، وتكريت، والأنبار دون مقاومة، فباتت في أقل من أسبوع من غزوها للأراضي العراقية على مشارف العاصمة بغداد، ولأعملت داعش الإرهابية التكفيرية -لولا الفتوى وتلبيتها الكريمة من قبل المواطنين- السيف والرصاص والقتل والتمثيل بشيعة العراق المدنيّين المُسالِمين، ولَهدمت عتباتهم المقدسة، ولَعاثت فساداً ووحشية بمدنهم الآمنة، انطلاقاً من عقيدتها الفاسدة بتكفير الشيعة، وهو ما فعلته بشيعة نينوى ممّن لم يتمكنوا من الفرار بجلودهم من بطشها، فقد قتلوا وذبحوا الرجال، وأسروا الأطفال، وسبوا النساء، وانتهكوا أعراضهن، قبل حرقهن، وهنّ أحياء، ثم ما ارتكبوه من مجزرة فظيعة بنزلاء سجن بادوش من الشيعة في الموصل بعدما فصلوهم عن غيرهم من السجناء، فقتلوهم، وهم مئات، ثم أحرقوا جثثهم بالنار، وأطلقوا سراح السنة، ولم يكتفوا بذلك، فحين وصلت طلائع قواتهم إلى معسكر سبايكر في محافظة صلاح الدين، قتلت العشائر الحاقدة المتطرفة في صلاح الدين أكثر بكثير من ألف وسبعمائة (١٧٠٠) شهيد شيعي، كانوا في المعسكر، مُلْقين المئات من جثثهم

= القومية العربية الاستقلالية في العراق: ١٢٥) بأنه "لم يكن من المستغرب أن نجد اليزدي غائباً عن حركة الجهاد"، ثم يستدرك في هامش الصفحة نفسها على قوله أعلاه فيقول: "وقد أخبرني البعض بأن كاظم اليزدي كان قد أصدر فتوى بالجهاد ضد البريطانيين"، أقول: من المستغرب جدّاً ذلك رغم أن المصادر التي ذكرته متوفرة وكثيرة ولا تحتاج إلى خبر البعض عن فتوى سماحته بالجهاد، لقد أفتى سماحته بالجهاد سنة ١٩١٤، وأرسله نجله المجتهد للجبهة ليقاتل ويحث الناس على القتال، ثم أكد سماحته فتواه بالجهاد ثانية في ١٩١٥، وأرسل ابنه لجبهة الكوت العسكرية للمرة الثانية للحيلولة بين الإنكليز ودخول بغداد.

الطاهرة في النهر بعد قتلهم أفظع قتلة وأبشعها، دافنين القسم الآخر من الشهداء في عدة مقابر جماعية هناك، تم اكتشاف بعضها وفُتح، ولا زال بعضها الآخر غير مكتشَف ولا مفتوح. ولا حول ولا قوة إلاّ بالله العليّ العظيم.

وباختصار: لم تُبقِ داعش الإرهابية الوهابية التكفيرية شيعيّاً واحداً في الأراضي التي احتلتها، ولم تُبقِ أي مسجد أو حسينية أو مزار أو كتاب أو مجلة أو أي مَعلَم شيعي أيّاً كان كبيراً أو صغيراً إلّا فجّرته أو دمّرته أو اقتلعته أو أزالته أو هدمته أو خرقته أو أحرقته وأمثال ذلك.

ولك أن تتصور ماذا كان سيحل بالعتبات المقدسة وساكنيها من المؤمنين، وبالمدن الشيعية وأهلها وبالمزارات الشريفة وزوّارها، بل ماذا سيبقى منها ومن أهلها وناسها بعد استباحتها وهتك حرماتها وذبح رجالها وسبي نسائها وقتل أو أسر أطفالها وأمثال ذلك كثير مما نشرتْهُ وصوّرتْهُ ووثّقتْهُ وسائل الأعلام العربية والأجنبية ممّا لا يسع المجال لاستعراضه.

وليس ذلك بغريب على التكفيرين ومنهجهم الوهابي الذي تتبناه داعش الإرهابية، فالوهابية تكفّر الشيعة، وتستبيح دماءهم، وتنتهك أعراضهم، وتستحل أموالهم، كما صرحتْ بذلك أدبياتهم وطبّقتْهُ أفعالهم بوحشية قلّ مثيلُها سابقاً ولاحقاً.

لقد قلبت الفتوى المباركة لسماحة المرجع الأعلى السيد السيستاني وملّبوها المؤمنون الغيارى موازين القوى رأساً على عقب، حالهم حال آبائهم وأجدادهم من أبناء الفرات الأوسط وغيرهم من الأبطال الذين اندفعوا في ثورة العشرين "كالسيل الجارف وراء فتاوى الشيرازي وشيخ الشريعة"[1] الأصبهاني نحو جبهات النزال والمجابهة.

❀ ❀ ❀

(١) الحقائق الناصعة. سابق: ٨.

المبحث الثالث

تماثل موقف المرجعيتين الدينيتين في الطلب من المؤمنين وحثهم على تقديم الدعم المادي واللوجستي بكافة أشكاله للمتطوعين

ما أن صدرت فتوى الجهاد الدفاعي في (١٣٣٨هـ/ ١٩٢٠م) ضد الاحتلال البريطاني للعراق حتى قدّمت المرجعية الدينية العليا كل ما كان يصلها من الحقوق الشرعية وغيرها من الهبات والهدايا والعطايا وأمثالها للمجاهدين من جهة، وأجازت صرف ما كان يصل لوكلائها ومعتمديها من الحقوق الشرعية في سبيل الثورة والثوار من جهة ثانية، وحثت وشجعت المتمولين والأثرياء والمواكب والقبائل وغيرها على دعم المجاهدين بما يستطيعونه من جهة ثالثة، وقد تقدم ذكر ذلك كله خلال الحديث عن (خزان الثورة المادي) سابقاً.

ولذلك فسأمرّ مروراً سريعاً عليها لأدلّل على ما ذهبت إليه هنا، مقتصراً منها على ذكر أقل ما يمكن من كلمات وأقوال المشاركين في الثورة دون غيرهم؛ توثيقاً للمدّعى، وباختصار شديد.

فأما بذل مرجعية ثورة العشرين كل ما كان يصلها من الأموال في سبيل دعم الثورة والثوار؛ فقد أورد لنا المؤرخون دأب المرجع الأعلى سماحة الشيخ محمد تقي الشيرازي على بذل كل ما كان يصله من الحقوق الشرعية والهدايا والتبرعات وغيرها من الأموال بما وصف بكونه "ما لا حصر له من الليرات الذهبية"[1]، لإدامة زخم الثورة وتسليح وتموين الثوار، من دون أن يُبقي شيئاً مما كان يصله لأسرته وأفراد عائلته رغم احتياجهم إليه وإخبارهم إياه بمسيس افتقارهم إليه.

وأما إجازة المرجعية العليا لصرف ما يتجمع من الحقوق الشرعية وأمثالها لدى وكلائها في رفد ثورة العشرين وإدامة زخمها؛ فمثاله ما جاء في رسالة بعثها المرجع الأعلى سماحة الشيخ الشيرازي إلى السيد نور الياسري في (١٦ رجب

(١) الإمام الشيخ محمّد تقي الشيرازي يشكل الحكومة الإسلامية. سابق: ٧٧.

١٣٣٨هـ/ ٥ نيسان ١٩٢٠م)[١] المخول من قبل سماحته باستلامها نيابة عنه وصرفها حسب تشخيصه وفي مقدمة ذلك شؤون الثورة ومتطلباتها. وقد تقدم ذكر رسالته سابقاً.

ومن قبيلها ما ورد في رسالة بعثها المرجع الأعلى الشيخ محمد تقي الشيرازي بيد وكيله المجاهد العالم الشيخ رحوم الظالمي أحد كبار المحرّضين على الثورة ضد الاحتلال البريطاني وخاصة في السماوة والرميثة، وقد جاء في رسالة سماحته ما يلي: "يجب على كل مسلم أن يساعد الشيخ رحوم، ومساعدته من أفضل الطاعات، ومن كانت عنده حقوق شرعية بجميع أنواعها فعليه أن يسلّمها إلى الشيخ رحوم وهي واصلة إليّ"[٢].

أكثر من ذلك فقد ورد عن السيد كاطع العوادي -أحد وجوه زعماء ثورة العشرين وسادتها "وكان عازماً على أداء فريضة الحجّ" قُبَيل اشتعال ثورة العشرين- أنه استفتى المرجع الشيخ محمد تقي الشيرازي عن "أن ينفق مصاريف الحج على القضية العراقية فأفتى له وعدل عن السفر"[٣].

ويذكر الشيخ محسن شلاش وزير مالية حكومة ثورة العشرين في النجف الأشرف متحدثاً عن حجم التبرعات والضرائب الشرعية التي كانت تجبى بإذن المرجعية لدعم زخم الثورة بقوله: لقد "كانت التبرعات تُجمع، والضرائب الشرعية تُجبى في النجف، وعن النجف، وكربلاء، بأوامر العلماء، وفتاواهم، ومما كان يبذله الزعماء، ورؤساء العشائر أنفسهم لمشروع الثورة مدة بقائها"[٤].

ويتجلى حجم ما بذلته المرجعية العليا خلال ثورة العشرين فيما وثقه الشيخ

---

(١) المواقف المشتركة لعلماء العراق وإيران ضد الغزو الأجنبي للبلاد الإسلامية ١٩٠٥-١٩٢٠م. سابق: ٢/ ٢٠٢.

(٢) الشيخ محمّد تقي الشيرازي القائد الأعلى للثورة العراقية الكبرى. سابق: ٢٣٧.

(٣) السيد كاطع العوادي ودوره الوطني في الحياة السياسية العراقية ١٩٠٨-١٩٤٥م. د. جميل موسى النجار. نقلاً عن مذكرات السيد كاطع العوادي: ١٢.

(٤) الثورة العراقية الكبرى. سابق: ٣٨٨-٣٨٩.

محمد الخالصي كاتب رسائل المرجع الأعلى الشيخ الشيرازي متحدثاً عن تمويل سماحة الشيخ الشيرازي للثورة بقوله: "إنّ القوى المادية كانت قائمة به، بحكمه تُجمع الأموال، وتُصرف لتهيئة الطعام، والرصاص، والكراع، والسلاح، وهو قائم بجميع أمور الحرب، وعليه كان مدارها"(١).

وأما حث المرجعية وكبار العلماء على العطاء وتشجيعهم للمتمولين والمواكب الحسينية وزعماء العشائر على الدعم المادي - فسأكتفي بنقل روايتين:

أولهما: ما أورده الجنرال هالدن القائد العام للجيش البريطاني خلال الثورة بقوله: "لقد فتح باب التبرع الاختياري في المدن المختلفة، وحث علماء كربلاء المقدسة والنجف الأشرف الناس على التبرع لهذا الغرض، لأسباب دينية، أو وطنية"(٢)، فاندفع المتمولون والأثرياء من السادة والشيوخ والتجار وغيرهم من عامة المواطنين كلٌّ بحسبه وبما يقدر عليه من دعم ومساعدة ورفد(٣).

وثانيهما: ما قدمته هيآت المواكب الحسينية الشريفة من دعم مادي ولوجستي لرفد الثورة وتحركات الثوار؛ فقد قدمت كل ما باستطاعتها تقديمه لهم من خدمات ومساعدات كان لها الدور الفاعل في تموينهم وتسهيل وصولهم إلى غاياتهم القتالية الشريفة، مع مساعدتهم على تيسير أمر تصدّيهم ومقاومتهم البطولية المشهودة.

نظراً لأن المواكب الحسينية الشريفة تمتلك من وسائل الدعم اللوجستي ما لا يملكه الكثيرون من غيرها؛ فقد أعانها ذلك على تقديم خدمة للثوار نادرة الحصول في وقتها. وقد تمظهر ذلك بما أعدّته للزائرين من أماكن إيواء وضيافة، أو نقل وحركة، أو تموين وإطعام، أم خزن وإدامة، أو خدمات أخرى متنوعة،

---

(١) بطل الإسلام. سابق: ١٨٠.

(٢) الثورة العراقية الكبرى لسنة ١٩٢٠ م. سابق: هامش ص ٣٢٥-٣٢٦.

(٣) وفي مقدمتهم السيد نور الياسري، والسيد هادي المكوطر، والسيد علوان الياسري، والسيد محسن أبو طبيخ، والشيخ عبد الواحد آل سكر، والسيد هادي زوين، والحاج محسن شلاش كما تقدم. ينظر جواب كل من: الشيخ عبد الكريم الجزائري والشيخ جواد الجواهري عن تمويل الثورة في: الثورة العراقية الكبرى. سابق: ٣٧٨. و٣٨٠ على التوالي.

دأب على أن يتولّاها على عادتهم السنوية مواطنون متطوعون للخدمة الحسينية من أجل إعداد وتجهيز وتلبية ورفد أهم الاحتياجات الضرورية للمواكب الحسينية لغرض قيامها بواجباتها التطوعية في شهري محرم الحرام وصفر خاصة وغيرهما من الأيام والأشهر الأخرى ذات المناسبات الدينية من وفيات ومواليد المعصومين صلوات الله عليهم أجمعين على أحسن وجه وأتمه.

لقد وضفت ووظبت المواكب الحسينية المنتشرة في ألوية وأقضية ونواحي وقصبات الفرات حسينياتها ومساجدها ومقراتها وأجهزتها ومعداتها لخدمة الثورة والثوار، فكان لِما قدمته المواكب من خدمات جلّى أثر كبير في رفد جيوش المجاهدين باحتياجاتهم المادية واللوجستية وامثالها.

وهو ما وثّقه المؤرخ المعاصر لثورة العشرين الباحث حسن الأسدي -في حديثه عن سد احتياجات الثوار من قبل المواكب الحسينية- بقوله: "وقد ساعدهم على تنظيم التموين ما كان للأنصار الحسينيين في كل مدينة من مدن الفرات من استعدادات للطبخ والنقل، ممّا كان عاملاً في تجهيز المجاهدين وتسهيل حركة نقلهم من مكان إلى آخر.

ففي كل مدينة من مدن الفرات توجد استعدادات على نطاق واسع لتجهيز مواكب العزاء الحسينية عندما تذهب إلى كربلاء في كل عام لزيارة الأربعين بحيث تكفي لتجهيز وتموين ونقل آلاف الزوار من كل مدينة. وقد وُضعت هذه الاستعدادات في خدمة المجاهدين منذ اللحظة التي أُعلنت فيها الثورة"[١].

ومن النماذج التطبيقية على ذلك ما قدمته قبائل الدغارة وعفك بإعداد مطابخ للجيوش الإسلامية[٢] المتوجهة إلى جبهات القتال والمنازلة.

هذا بعض ممّا قدمته مرجعية ثورة العشرين للثورة والثوار من دعم مادي مباشر أو حث وتشجيع للمتمولين والمتمكنين عليه.

---

(١) ثورة النجف على الإنكليز أو الشرارة الأولى لثورة العشرين. سابق: ٣٨٤.

(٢) ينظر: ثورة العشرين في ذكراها الخمسين. سابق: ٢.

أما موقف المرجعية الدينية العليا المعاصرة بزعامة المرجع الأعلى سماحة السيد السيستاني (دام ظله) من حيث تقديمها لمختلف أشكال الدعم والتمويل للمدافعين عن الأرض والعِرض والمقدسات ضد داعش الإرهابية، ابتداء من صدور الفتوى المباركة وانتهاء بالتحرير والنصر؛ فليس هناك أوثق، ولا أدقّ، ولا أخصر، مما تفضل بكتابته إليّ مشكوراً سماحة السيّد محمّد رضا السيستاني النجل الأكبر والذراع الأيمن لسماحة المرجع الأعلى السيد علي الحسيني السيستاني، ذاكراً سماحته في رسالته ما قدمته المرجعية الدينية العليا من دعم وإسناد للمتطوعين والمقاتلين، وما أجازت صرفه عليهم من الدعم المادي، والعيني من خلال "الإجازة المفتوحة لأصحاب الحقوق للصرف في تأمين حوائج المقاتلين -من جهة- وتصدي مكتب المرجعية العليا للصرف عليها من مواردها المالية"[1] من جهة أخرى.

ناهيك عن حث المرجعية العليا في خطب الجمعة للمواطنين على التبرع والإسناد بما يمكنهم التبرع به، كما أنّ دعم وحث وتشجيع الأمانات العامة للعتبات المقدسة في العراق للمتمولين والميسورين على تقديم العون والدعم للمتطوعين في الجبهات ورفدهم بما يحتاجونه - مشهور ومتداول.

هذا إضافة إلى نشاط وكلاء المرجعية العليا المنتشرين في المحافظات والأقضية والنواحي والقصبات، وحثهم للمتمولين والأثرياء على تقديم ما يستطيعونه من تبرعات للمجاهدين في الجبهات العسكرية المقاتِلة.

وسأكتفي كدليل على ما تقدم بذكر بعض مما ورد في خطبة الجمعة المُلقاة في الصحن الحسيني الشريف في (٢٩ من ذي الحجة ١٤٣٥هـ/ ٢٤ تشرين الأول ٢٠١٤م)، وجاء فيه: "لقد كان للدعم المادي والمعنوي من بعض الإخوة الميسورين الأثر الفاعل في شدّ عزيمة الإخوة المقاتلين... ولأجل استمرار هذه الانتصارات لا بدّ من مواصلة الدعم بكل أشكاله... حتى يتم القضاء على الإرهاب والإرهابيين

(١) من رسالة خاصة بعثها سماحته للمؤلف في ١٠صفر ١٤٤٤هـ/ ٧ أيلول ٢٠٢٢م.

ويعيش العراق وأبناؤه في أمن وسلام ودعة"[١].

ومثله ما ورد أيضاً في خطبة الجمعة من على منبر الصحن الحسيني الشريف ليوم (٢٢ من ذي الحجة ١٤٣٥هـ/ ١٧ تشرين الأول ٢٠١٤م) بالحث على: "تقديم الدعم المالي للمتطوعين الذين لا يملك أكثرهم مصدراً ثابتاً لمعاشه، وتوفير ما يحتاجون إليه من السلاح والعتاد... ونهيب بالمواطنين الذين مَنّ الله عليهم بالقدرة والمكنة أن ينفقوا مما آتاهم الله تعالى في سبيل حماية العراق ومقدساته من خلال دعم المتطوعين"[٢]، وغير ذلك كثير لا مجال لذكره هنا.

وبمثل ما استجاب به الميسورون المتمولون من حث المرجعية العليا المعاصرة بزعامة سماحة السيد السيستاني على تقديم الدعم المادي والعيني للمدافعين عن الأرض والعرض والمقدسات ضد داعش الإرهابية؛ استجابت مؤسسات المجتمع المدني كالعشائر والمواكب الحسينية وأمثالها لذلك على امتداد سنوات الحرب الدفاعية الثلاث.

وإذا كان لي أن أستشهد بما استطاع توثيقه فريق تحرير (موسوعة فتوى الدفاع الكفائي) التي أصدرتها العتبة العباسية المقدسة -دون ما لم يستطع توثيقه منها، وهو كثير حسب قوله-؛ فسأنقل عنه أنّ مجموع ما وثقه الفريق من مواكب الخدمة الحسينية بلغ (المئات)[٣].

أما ما استطاعت توثيقه (الموسوعة التوثيقية الكبرى لفتوى الدفاع عن عراق المقدسات) الخطية التابعة للجنة الإرشاد والتعبئة للدفاع عن عراق المقدسات في العتبة العلوية المقدسة؛ فقد بلغ (٦٠١) ستّمائة موكب حسينيّ وموكباً، موزعة حسب الأعلى فالأعلى عدداً على المحافظات التالية: بغداد (١٤١) موكباً، النجف

(١) النجف الأشرف وحوزتها. الكتاب السادس. من الجهاد الدفاعي إلى النصر النهائي. خطب الجمعة المعبرة عن رؤى سماحة المرجع الأعلى السيد السيستاني في الشأن العراقي)، جمع: عبد الهادي الحكيم، وتدقيق وتوثيق مكتب سماحة السيد السيستاني في النجف الأشرف: ٨٦.

(٢) المصدر السابق: ٨٣.

(٣) رسالة خاصة من سماحة السيد ليث الموسوي المشرف على إعداد الموسوعة بتاريخ ١٦ أيلول ٢٠٢٢م.

الأشرف (٩٦) موكباً، البصرة (٦٢) موكباً، الديوانية (٥٧) موكباً، بابل (٤٤) موكباً، ذي قار (٤١) موكباً، صلاح الدين (٤١) موكباً، ديالى (٣٢) موكباً، واسط (٢٣) موكباً، ميسان (١٨) موكباً. كربلاء (١٦) موكباً، المثنى (١٦) موكباً، كركوك (١٢) موكباً[١].

أما غيرها مما قدمته المواكب الحسينية ولم تستطع توثيقه الموسوعتان -المتقدم ذكرهما- وهي كثيرة حسب قولهما؛ فبعين الله جلّ وعلا.

بقي أن أشير إلى نوعية وأصناف ما كانت تقدمه هذه المواكب للمقاتلين، حيث اشتمل الدعم على كل ما كان يحتاجه المجاهد من أكل وشرب وملبس ولوازم وحاجيات وأمور أخرى كثيرة، بل وصل الدعم إلى كل ما كان يرغب به المقاتل ويشتهيه ويودّ لو حصل عليه بما في ذلك الكماليات التي ربما لم تتهيأ له حتى في بيته ومسكنه ومدينته ومحافظته.

ولنأخذ من الطعام الذي كان يقدم للمقاتلين أنموذجاً على ذلك؛ فقد نقل لي سماحة السيد أحمد الصافي المتولي الشرعي من قبل المرجع الأعلى سماحة السيد السيستاني على العتبة العباسية المقدسة في كربلاء -وذلك خلال لقائي به في الأمانة العامة للعتبة العباسية المشرفة بتاريخ (٢٥ صفر ١٤٤٤هـ/ ٢٢ أيلول ٢٠٢٢م)- بعضاً من شهادته الحية عن مشاهداته العينية لِما كانت تقدمه قوافل المواكب الحسينية وغيرها من دعم لوجستي للمقاتلين، خلال مشاركته في جبهتي قتال معركة تحرير (آمرلي) في محافظة كركوك، ومعركة تحرير (بادوش) في محافظة الموصل، متحدثاً سماحته عن أنواع ما كان يقدم من أصناف الطعام بقوله: "لقد رأيت بأمّ عيني ما كانت تحتويه سفرة المقاتلين من أصناف طعام كمالية، فضلاً عن ما تحتويه من وجبات الطعام الرئيسية، وهي بتنوّعها مما يصعب توافره بأنواعه المتعددة، وأطباقه المتنوعة، وتشكيلاته المختلفة، تقليدية وغير تقليدية، في الموائد اليومية المعتادة في البيوت العراقية المتوسطة.

(١) رسالة خاصة من سماحة الشيخ عادل السوداني المعنيّ بالموسوعة بتاريخ ٣٠ مايس ٢٠٢٣م.

بل كانت قوافل المواكب الحسينية وغيرها تطلب من المقاتل على الجبهات أن يمنّ عليها فيتفضل بذكر ما يشتهيه ليأكله ساخناً أيّاً كان، وليس ما يحتاجه لقوت يومه. ناهيك عن الفواكه الطازجة والخضر والحلويات وأمثالها".

وقد كتب لي سماحة الخطيب الشيخ جعفر الوائلي وكان مشاركاً في جبهات القتال، ومنها مشاركته الفعلية في معركة تحرير تكريت التي جرت في الشهر (الثالث من العام ٢٠١٥م)، ولم يكن اقتحام مدينة تكريت من المدخل الرئيسي، بل من أحد الأحياء لمراعاة عنصر المباغتة، وبينما كان القتال مستعراً على أوجه تفاجأت بوصول قافلة دعم لوجيستي من أحد المواكب الحسينية إلى داخل مدينة تكريت، رغم أنّ مناظر القتل والدماء وانفجار العبوات والقنص كانت في كل مكان، ومع ذلك كان رجال القافلة غير مكترثين بكل ذلك؛ لأنهم قد علموا أنّ القوة التي دخلت إلى مدينة تكريت لم يصل إليها الطعام منذ الأمس بسبب وجود قناصة يمنعون من ذلك، فخاطروا بحياتهم ودخلوا بسيارات شخصية غير مصفحة ولا مناسبة لوعورة الطريق كي يوصلوا الإمداد إلى الخطوط الأمامية المتقدمة من أجل أن لا ينقطع الإمداد عن المقاتلين فيضعفوا عن مجابهة عدوهم الداعشي ومَن ساندهم من أهل تكريت.

وفي ذلك كفاية عن ذكر كل ما كان يقدم للمقاتلين من الأمور الأخرى الكثيرة المتنوعة، ضرورية كانت أم كمالية.

المبحث الرابع

تماثل موقف المرجعيتين الدينيتين في ضرورة حشد الطاقات الشعبية المسلحة لتكون رديفاً للقوات العسكرية عند الحاجة

لقد تجلت الحاجة من حشد الطاقات الشعبية عند مراجع ثورة العشرين في أوضح صورها، حين هجم الوهابيون السعوديون بقيادة فيصل الدويش على أراضي المنتفق سنة (١٣٤٠هـ/ ١٩٢٢م) فقتلوا من الشيعة المدنيين المسالمين "المئات، أما ما نُهب منها من خيل وإبل وغنم فإنه يُعدّ بعشرات الألوف"[١]، حينها تنادى المرجعان كل من سماحة السيد أبو الحسن الأصفهاني وسماحة الميرزا محمّد حسين النائيني إلى عقد مؤتمر موسع في كربلاء المقدسة من خلال رسالة وجّهاها إلى المرجع الشيخ مهدي الخالصي في الكاظمية وقعّاها سوية، هدفها غير المعلن –من بين أهداف أخرى– حشد الجهود الشعبية المدنية ضد غزوات الوهابيين المتكررة على العراق من خلال تشكيل قوة مسلحة رديفة للقوات العسكرية النظامية يُستعان بها عند حاجة العراقيين والشيعة منهم خاصة لصدّ تلك الهجمات بعد اليأس من تصدّي الملك فيصل الأول والحكومة العراقية والإنكليز المحتلين للعراق لهذه الهجمات، فذهب كل من المرجعين في رسالتيهما إلى المرجع الخالصي إلى أنه "لا ينبغي الاتكال على وعد السلطة البريطانية في دفع شرّ الخوارج والإخوان عن المسلمين، فبناء عليه نأمل حضوركم في كربلاء قبل الزيارة بأيام. كما إنّا نَحضر مع من طرفنا من الرؤساء لأجل المذاكرة في شأنهم"[٢].

وإذ نشط المرجع الخالصي في إعداد البرقيات لكل أنحاء العراق؛ منعت الجهات الرسمية إرسال البرقيات ثم عادت فوافقت –تحت الضغط الشديد– على إرسالها.

---

(١) تاريخ القضية العراقية. سابق: ١٩٩. ط٢.

(٢) المصدر السابق: ٢٠٢– ٢٠٣.

وفعلاً انعقد المؤتمر الكبير بمدينة كربلاء المقدسة في (١٠-١٥ شعبان ١٣٤٠هـ/ ٣-٨ نيسان ١٩٢٢م) بمناسبة زيارة النصف من شعبان السنوية، بحضور أكثر من مائتي ألف شخص، وقيل عن بعض أهالي كربلاء إنّ إحصائيات الحكومة بلغت أربعمائة ألف نسمة في حشد لم يسبق له نظير في التاريخ العراقي[١] حتى ذلك الحين.

لقد كان الغرض من جمع هذا العدد الكبير هو حشد الجهود الحكومية والمدنية الشعبية للتصدي للغزوات الوهابية المتكررة على الأراضي العراقية، والحد من مطامع ابن سعود بأن يكون نهر الفرات في الكوفة هو الحد الفاصل بين العراق والمملكة العربية السعودية.

ونظراً لخطورة الأمر تم الاتفاق على تشكيل قوة مدنية عراقية عشائرية مسلحة؛ لصد الغزوات الوهابية التكفيرية على الأراضي العراقية إذا ما حاول الوهابيون السعوديون غزو وسط وجنوب العراق لاحتلالها وتهديم العتبات المقدسة وذبح مواطنيها الشيعة كما فعلوا سابقاً فعلتهم الهمجية خلال هجومهم على كربلاء المقدسة من جهة؛ ولتحقيق الاستقلال والعدالة ورفض التهميش من قبل المحتلين وصنائعهم من جهة أخرى؛ وللاستعانة بالقوة المدنية العشائرية الرسمية المنظمة والمسلحة متى احتاجت حدود الوطن إلى دعم العشائر الحدودية وغالبيتها من شيعة العراق لمساعدتها على صد الهجمات عليها من جهة ثالثة. وهو المطلب الذي طرحه قسم من زعماء الثورة من رؤساء عشائر الفرات على الملك فيصل الأول خلال اجتماعه بهم بناءً على طلبه. وهؤلاء الزعماء هم كل من: الحاج عبد الواحد آل سكر، والسيد محسن أبو طبيخ، والسيد علوان الياسري، والشيخ محمّد العبطان، والحاج رايح العطية، والشيخ شعلان أبو الجون، والشيخ كاطع العوادي، وغيرهم.

(١) مذكرات العلامة الشيخ موسى العصامي سابق. القسم الثالث. مجلة آفاق نجفية العدد ٢٥ لسنة ١٤٣٣هـ/ ٢٠١٢م: ٨٥.

يقول السيد محسن أبو طبيخ: لقد "أبدينا له تخوفنا من تكرار الغزو الوهابي، وأشرنا إلى أنهم ربما يتطاولون على العتبات المقدسة في المرات القادمة، وأبدينا استعدادنا للوقوف بوجههم فيما لو تم تزويدنا بالسلاح من قبل الحكومة وبصورة يتم الاتفاق عليها مع الجيش، وذلك لنكون قوة ثانية احتياط لمعونة الجيش والشرطة في حالة استثنائية كهذه، وبهذا نتمكن من حماية أنفسنا ومراعينا، وفوق كل شيء الدفاع عن العتبات المقدسة"[١].

لقد أدرك المسؤولون البريطانيون أن الغرض من عقد المؤتمر هو مقاومة انتدابهم وإفشال خططهم المعدّة للعراق من جهة، ومن جهة أخرى "كانوا يخشون من أنه إذا جنّدت قوة عشائرية ضد الإخوان فإن المجتهدين سوف يستخدمونها في النهاية للتحريض داخل العراق"[٢] ضد الإنكليز وانتدابهم وخططهم المشؤومة. فما كان منهم إلّا أن عقدوا العزم "على تقويض مؤتمر كربلاء وأية قرارات تنبثق عنه"، وهو ما أشارت إليه رسالة بعثها المندوب السامي البريطاني برسي كوكس إلى سكرتير الملك فيصل الأول في (٦ شعبان ١٣٤٠هـ/ ٤ نيسان ١٩٢٢م) قُبيل انعقاد المؤتمر بأيام جاء فيها ما نصه: "إنّ الدفاع ضد هجمات الإخوان ليست سوى حجة ظاهرية... ومن أجل الوصول إلى أهدافهم فإنهم سيحاولون في البداية الحصول على الأسلحة من السلطات البريطانية بحجة الدفاع ضد الإخوان"[٣]. وهو ما يوحي بإدراك البريطانيين للغرض من عقد المؤتمر وطرح المرجعية له بل حضورهم الشخصي فيه، وسبب التحشيد الكبير له.

وإذا صح ما أوردته الباحثة جويس ويلي وهي تتحدث عن مؤتمر كربلاء من اتفاق زعماء الشيعة على مطالب محددة تتقاطع بشدة مع متبنيات المحتلين؛

---

(١) مذكرات السيد محسن أبو طبيخ. سابق: ٢٣٠.

(٢) شيعة العراق. سابق: ١٥٠.

(٣) لمحات اجتماعية من تاريخ العراق الحديث. سابق: ٦/ ١٥٣. وينظر: مولود مخلص باشا ودوره في الثورة العربية الكبرى في تاريخ العراق المعاصر. د. محمّد حسين الزبيدي: ١٩٦.

فإنّ خطر المؤتمر على الإنكليز وأتباعهم سيكون أشد.

تقول الباحثة جويس ويلي: "في نيسان ١٩٢٢ مع تولي مهدي الخالصي مجتهد الكاظمية لدور قيادي عقد مائتا وجيه شيعي مؤتمراً في كربلاء اتفقوا فيه على المطالب الآتية:

١ . استقلالاً سياسيّاً كاملاً وليس صفة انتدابية.

٢ . الدعوة الفورية إلى عقد مجلس وطني.

٣ . أن يكون نصف أعضاء مجلس الوزراء من الشيعة.

٤ . أن يكون نصف المسؤولين الحكوميين من الشيعة.

٥ . الجهاد للتصدي للوهابيين"[١].

لقد كان الإنكليز "يخشون من أنه إذا جنّدت قوة عشائرية ضد الإخوان فإن المجتهدين سوف يستخدمونها في النهاية للتحريض داخل العراق"[٢] ضد الإنكليز وانتدابهم المشؤوم.

وإذا كان قد قُدّر لمؤتمر كربلاء قبل حوالي قرن أن لا ينجح في تحقيق أهدافه المرجوّة منه حينها؛ فقد تحقق أحد أهم أهدافه نفسها لاحقاً بعد حوالي قرن من الزمان خلال مرجعيتنا الحاضرة بزعامة سماحة المرجع الأعلى السيد السيستاني.

فحين احتلت داعش الوهابية الإرهابية التكفيرية ثلاث محافظات عراقية في (شعبان ١٤٣٥هـ/ حزيران ٢٠١٤م)، ولم تستطع وقتئذ القوات المسلحة العراقية بصنوفها كافة ردعها، كنتيجة مباشرة لانهيار الروح المعنوية لرجالها انهياراً تامّاً؛ صدرت فتوى المرجع الأعلى سماحة السيد السيستاني -المتقدم ذكرها- فزحف ﴿رِجَالٌ صَدَقُواْ مَا عَٰهَدُواْ ٱللَّهَ عَلَيۡهِ﴾[٣] في عراق عليّ والحُسين عليهما السلام للتصدي

(١) الحركة الإسلامية الشيعية في العراق. سابق: ٤٠.

(٢) شيعة العراق. سابق: ١٥٠.

(٣) سورة الأحزاب. آية ٢٣.

لغزوات الوهابيين التكفيريين فحرّروا -بسواعدهم وسواعد إخوانهم في الجيش والشرطة والقوات المسلحة الأخرى- العراق من براثن الغزاة المعتدين.

ولعل ما يستدعي التأمّل هو أن التفكير والتخطيط والإعداد من قبل المرجعية الدينية العليا لحشد الطاقات المدنية الشعبية العراقية كرديف احتياطي للقوات المسلحة العراقية؛ قد جرى في كلتا الحقبتين التاريخيتين قبل قرن من الزمان وبعده ضد الغزوات الوهابية التكفيرية للأراضي العراقية من جهة، وخلال زيارة النصف من شعبان، ذكرى مولد الإمام المهدي المنتظر (عجل الله فرجه) من جهة أخرى، وفي مدينة كربلاء المقدسة من جهة ثالثة.

توجيه المرجعيتين الدينيتين للمجاهدين في سوح الدفاع عن الوطن بوجوب مراعاة القيم الإسلامية والإنسانية في التعامل مع العدو قبل قرن وبعده

من الطبيعي جدّاً أن تتشابه وصايا وتعليمات المرجعيتين الدينيتين للمجاهدين في كِلا القرنين الماضي والحاضر بسبب وحدة مصدر هذه الوصايا والتعليمات، كونها مستقاة من القرآن العزيز، والسنة المطهرة، ونظراً لأنّ هذا هو مصدرها ومرجعها فهي راسخة في أدبيات وسلوك وتوجيهات ووصايا المرجعتين الدينيتين سابقاً ولاحقاً، بل والمرجعيات كلها من خلال التبليغ والإرشاد والنصح والتقويم في الجهاد الدفاعي وغيره، ومتى ما أعوزت الحاجة وظرفها إلى ذلك، فتربى عليها المؤمنون الصالحون خير تربية، وبسبب أنهم كانوا عِماد مَن لبّى نداء المرجعية العليا للجهاد الدفاعي في ثورة العشرين في القرن الماضي، وبعد الغزو الوهابي الداعشي للأراضي والمدن العراقية في القرن الحالي؛ فقد تمثل ذلك في سلوكهم خلال مقارعتهم للعدو، وفي معاملتهم للمدنيين المسالمين من الأطفال والنساء والشيوخ والعجزة وكبار السنّ عند تطهيرهم للأراضي والمدن المحتلة.

لقد تجسد هذا الموقف المبدئي في وصايا مراجع الدين في ثورة العشرين من القرن الماضي في بياناتهم وكتبهم وإرشاداتهم المباشرة لقادة الثورة وشيوخها ومقاتليها.

وكأنموذج على ذلك فسأستشهد ببيان صادر عن إعلام ثورة العشرين، حثّ فيه مراجع الثورة وزعماؤها المجاهدين على التقيد بخمسة عشر توجيهاً، منها: "يجب على كل رئيس قبيلة أن يُفهم كافة أفرادها بأنّ المقصود من هذه النهضة إنما هو طلب الاستقلال التام. ويجب تأمين الطرق وحفظ المواصلات بينكم وبين مناطق الثورة. ويلزم التمسك بالنظام العام... ومنع الاعتداءات فلا نهب ولا سلب

ولا ضغائن قديمة ولا أحقاد. -و- من الواجب بذل الهمة لحفظ الرصاص فلا يجوز إطلاقه في الهواء بدون فائدة. -و- إذا أسقطتم مدينة أو قرية فلا تتركوها منحلّة، بل الواجب ترتيب حكومتها المؤقتة -و- لا تهدموا محلات الحكومة وأبنيتها... ولا تفرقوا أثاثها... -و- حافظوا على المستشفيات وكافة أجزائها وأدواتها -و- ارفقوا بجرحى خصومكم الساقطين في الحرب، فلا شيء يستحق الرفق والعطف مثل الجريح الذي يعاني من ألم جراحه ما يدمي القلوب ويبكي العيون"[1]، وأمثال ذلك.

ومثلما تجسدت مبادئ هذا الموقف الإسلامي والإنساني النبيل في وصايا قادة الثورة من المراجع وغيرهم للمجاهدين سنة (١٣٣٨هـ/ ١٩٢٠م)؛ فقد تجسد بشكل أوسع وأشمل في وصايا وتوجيهات المرجعية الدينية العليا للمجاهدين الذين تصدوا لتحرير الأراضي العراقية من براثن تنظيمات (داعش) الإرهابية التكفيرية. تلك النصائح والتوجيهات الصادرة في (٢٢ ربيع الثاني ١٤٣٦هـ/ ١٢ شباط ٢٠١٥م) فكان مما جاء فيها ما يلي:

"للجهاد آداب عامة لا بدّ من مراعاتها حتى مع غير المسلمين، وقد كان النبي ﷺ يوصي بها أصحابه قبل أن يبعثهم إلى القتال، فقد صحّ عن الإمام الصادق عليه السلام أنّه قال: (كان رسول الله - ﷺ - إذا أراد أن يبعث بسريّة دعاهم فأجلسهم بين يديه ثم يقول سيروا باسم الله وبالله وفي سبيل الله وعلى ملّة رسول الله ﷺ: لا تغلوا، ولا تمثّلوا، ولا تغدروا، ولا تقتلوا شيخاً فانياً ولا صبيّاً ولا امرأة، ولا تقطعوا شجراً إلّا أن تضطرّوا إليها)... فالله الله في النفوس، فلا يُستحلّنّ التعرّض لها بغير ما أحلّه الله تعالى في حال من الأحوال، فما أعظم الخطيئة في قتل النفوس البريئة وما أعظم الحسنة بوقايتها وإحيائها.

الله الله في حرمات عامّة الناس ممّن لم يقاتلوكم، لا سيّما المستضعفين من الشيوخ والولدان والنساء، حتّى إذا كانوا من ذوي المقاتلين لكم، فإنّه لا تحلّ

(١) تاريخ القضية العراقية. سابق: ٢٧٤-٢٧٥. ط١. والحقائق الناصعة في الثورة العراقية. سابق: ٢٤٤-٢٥٥.

حرمات من قاتلوا غير ما كان معهم من أموالهم... وكونوا لمن قِبَلكم من الناس حُماة ناصحين حتى يأمنوا جانبكم ويعينوكم على عدوّكم، بل أعينوا ضعفاءهم ما استطعتم، فإنّهم إخوانكم وأهاليكم، وأشفقوا عليهم فيما تُشفقون في مثله على ذويكم، واعلموا أنّكم بعين الله سبحانه، يُحصي أفعالكم ويعلم نيّاتكم ويختبر أحوالكم... وعلى الجميع أن يدَعوا العصبيات الذميمة ويتمسّكوا بمكارم الأخلاق، فإنّ الله جعل الناس أقواماً وشعوباً ليتعارفوا ويتبادلوا المنافع ويكون بعضهم عوناً للبعض الآخر، فلا تغلبنّكم الأفكار الضيقة والأنانيات الشخصيّة، وقد علمتم ما حلّ بكم وبعامّة المسلمين في سائر بلادهم حتّى أصبحت طاقاتهم وقواهم وأموالهم وثرواتهم تُهدر في ضرب بعضهم لبعض، بدلاً من استثمارها في مجال تطوير العلوم واستنماء النعم وصلاح أحوال الناس. فاتقوا فتنة لا تصيبن الذين ظلموا منكم خاصّة، أمّا وقد وقعت الفتنة فحاولوا إطفاءها وتجنّبوا إذكاءها، ﴿وَٱعْتَصِمُواْ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُواْ﴾، واعلموا أنّ الله إنْ يعلم في قلوبكم خيراً يؤتكم خيراً مما أخذ منكم، إنّ الله على كلّ شي قدير"[1].

وغير ذلك من التوجيهات التي لا يسع المجال لاستعراضها.

❁ ❁ ❁

(١) نصائح وتوجيهات للمقاتلين في ساحات الجهاد. مكتب المرجع الأعلى سماحة السيد السيستاني في ١٢/ ٢/ ٢٠١٥م.

الفصل الخامس عشر

تماثل موقف مرجعية ثورة العشرين ومرجعية سماحة السيد السيستاني في التصدي للشأن الاجتماعي/ السياسي العام قبل قرن وبعده

هناك العديد من أوجه الشبه بين مواقف المرجعية الدينية العليا لثورة العشرين والمرجعية الدينية العليا لسماحة السيد السيستاني وهو ما سأتناوله في المباحث السبعة التالية:

المبحث الأول

تأكيد المرجعيتين الدينيتين على أنّ نظام الحكم في العراق
يجب أن يحدده الشعب العراقي بحرية

المبحث الثاني

تماثل موقف المرجعيتين الدينيتين في ضرورة تشكيل السلطة التشريعية
من خلال انتخابات عامة مباشرة دون تدخل أجنبي

المبحث الثالث

تماثل موقف المرجعيتين الدينيتين من توحيد صفوف المسلمين سنة وشيعة

المبحث الرابع

تماثل موقف المرجعيتين الدينيتين في إحاطة المنظمة الأممية بشدة معاناة العراقيين
من المحتلَّينِ البريطاني والأمريكي للعراق، وحثّها على القيام بواجبها في ذلك

المبحث الخامس

تماثل موقف المرجعيتين الدينيتين في أمر المتابعة الحثيثة لمستجدات مواقف
السلطة الحاكمة في العراق المناوئة لاستقلال وحرية وحقوق الشعب العراقي

المبحث السادس

تماثل موقف المرجعيتين الدينيتين في المتابعة الحثيثة لمستجدات سياسات الدول
المعادية لاستقلال وحرية الشعوب الإسلامية والدفاع عن مقدساتها

المبحث السابع

تماثل موقف المرجعيتين الدينيتين في عدم المطالبة بتطبيق (الديمقراطية)
أو (الدولة المدنية) في أي من البيانات والأدبيات الصادرة عنهما

المبحث الأول

تأكيد المرجعيتين الدينيتين على أنّ نظام الحكم في العراق يجب أن يحدده الشعب العراقي بحرية

ذهبت المرجعية الدينية العليا في ثورة العشرين سنة (١٣٣٨هـ/ ١٩٢٠م) إلى أن شكل نظام الحكم في العراق يجب أن يحدده الشعب العراقي، وهو ما أكدته أكثر من مرة متمثلة بسماحة المرجع الأعلى الشيخ محمد تقي الشيرازي، وسماحة المرجع الأعلى الخلف شيخ الشريعة الأصبهاني، وهو ما ذهبت إليه أيضاً وأكّدته كثيراً وألزمت به المرجعية الدينية العليا لسماحة السيد السيستاني بعد سقوط النظام البائد سنة (١٤٢٤هـ/ ٢٠٠٣م).

أما في ثورة العشرين ضد الاحتلال البريطاني للعراق، فقد تبين ذلك في أكثر من رسالة وبيان ومضبطة توكيل أرسلت لسلطات الاحتلال، أذكر منها كنماذج ما ورد في كتاب أُرسل إلى سلطة الاحتلال من قبل ممثلي أهالي النجف الأشرف والشامية المنتخبين والمخولين بتمثيل المراجع أصحاب السماحة كل من شيخ الشريعة الأصبهاني والسيد أبو الحسن الأصفهاني والشيخ محمد حسين النائيني وأمثالهم، والمنتدبين لتمثيل أهاليهم من أهل الرأي والحل والعقد والشيوخ والوجهاء والتجار، الذي جاء في مادته الرابعة ما يخص موضوع بحثنا، وهو: "نخبركم أنّ الأمة العراقية التي نحن نمثلها ترغب أن توقفكم على حقائقها وما انطوت عليه سريرتها شيبها وشُبّانها... تطلب من الحكومة البريطانية أربعة مواد تكون عربوناً لإعطائها حقها وهو الاستقلال التام... ثالثاً: الإسراع في تشكيل مجلس من خيرة الرجال العراقيين ليُعيّن مصير الأمة العراقية، وشكل حكومتها، ويختار مليكها، ونوع علاقاتها الداخلية والخارجية"، مختتمين كتابهم بلهجة تهديدية قائلين: "وبما أننا نمثل الرأي العراقي العام نرجو أن تراجعوا الحكومة البريطانية لتنفذ هذه المواد الأربع بالسرعة الممكنة لنتمكن على اطمئنان الرأي العام وسكونه،

وإلّا فسوف لا نكون نحن مسؤولين أمام الله والتاريخ عمّا تُراق من دماء في سبيل نيل الحرية والاستقلال"[١] -كما تقدم-.

وإذ لم يجابوا على كتابهم السابق ألحقوه بكتاب ثانٍ عارضين فيه ما تقرر خلال اجتماعهم المؤرخ في (٢٠ رمضان ١٣٣٨هـ/ ٨ حزيران ١٩٢٠م) -بصفتهم التمثيلية- مطاليب الشعب التي سأقتطف منها ما يخص موضوع البحث، وهو: "لمّا طال انتظار الأمة العراقية لتحقيق وعود الحلفاء الرسمية... وتنفيذ وعودهم الدولية المقطوعة باستقلال البلاد التام، رأت أن السكوت عن المطالبة بحقوقها الصريحة لا يجوز لها بوجه من الوجوه، ولا يحسن بالأمة التي عرفت عن نفسها الكفاية على تسلّم أزمّة البلاد وإدارة شؤونها السياسية والاقتصادية؛ أن تغض النظر عن المجاهرة بمقاصدها الغالية ورغائبها السامية. لذلك قرر علماء النجف الأشرف وأشرافها وزعماؤها وممثلو الرأي العام فيها وسادات الشامية ورؤساء قبائلها وممثلوها؛ أن ينتدبوا وفداً لملاقاة الحكومة المحتلة يطالبها بعهودها وإنجاز وعودها. وقد ندبونا... من قبلهم فقررنا... أولاً: إننا نطلب فعلاً أن يؤلف الشعب باختياره مؤتمراً قانونياً يجتمع أعضاؤه في عاصمة البلاد بغداد ومهمته تأليف حكومة عربية مستقلة كل الاستقلال، عارية عن كل تدخل أجنبي، يرأسها ملك عربي مسلم"[٢].

ومنها ما تضمنته رسالة بعثها المرجع الأعلى سماحة الشيخ الشيرازي إلى عصبة الأمم في (٢٧ ذي القعدة ١٣٣٨هـ/ ١٢ آب ١٩٢٠م) وجاء فيها ما نصه: "إنّ العراقيين طلبوا إنجاز مواعيد الدولتين المعظمتين البريطانية والفرنسوية بمنح الشعب العراقي الكريم استقلاله في إدارة شؤونه، وتدبير مصالحه العامة، وتأييد الدولتين لهذا الشعب الحر في إظهار رغائبه وحكمه الذاتي بتمام حريته، وعندما فاهت الأمة العراقية بطلب إنجاز هذه الوعود المقطوعة من الدولتين المذكورتين

(١) وثائق الثورة العراقية الكبرى. سابق:٣/ ١٢٤. والحقائق الناصعة. سابق: ١٦٠-١٦٧.

(٢) الثورة العربية الكبرى. سابق: ١٧٥.

ثارت ثائرة الحكومة الإنكليزية فقامت معتمدة على قوتها دون الحق ففتكت بالعراقيين فتكاً ذريعاً"[١]. وقد تقدم ذكرها سابقاً.

ومنها ما تضمنته مذكرة مندوبي مدينتي بغداد والكاظمية المحررة بناء على طلب المرجع الأعلى الشيخ الشيرازي والمسلّمة بيد نائب الحاكم الملكي العام في العراق السير ولسون خلال اجتماعهم به في (١٤ رمضان ١٣٣٨هـ/ ١ حزيران ١٩٢٠م)، تلك المذكرة التي سأقتبس منها ما له علاقة بموضوع البحث، وكما يلي:

"إلى سيادة الحاكم الملكي العام المحترم.

تعلمون أن الشعب انتدبنا... للنيابة عنه في مطالبة السلطة المحتلة ومفاوضة رجالها بشأن تنفيذ ثلاثة مطالب جوهرية يرى جمهور الشعب ومعظم قادة آرائه اليوم ضرورة تطبيقها وتنفيذها حالاً، وهي:

أولاً: الإسراع في تأليف مؤتمر يمثل الأمة العراقية ليُعيّن مصيرها فيقرر شكل إدارتها في الداخل ونوع علاقتها بالخارج... فبصفتنا نواباً عن أهالي بغداد والكاظمية نطلب إليكم أن تصادقوا حالاً على تنفيذ هذه المطالب المذكورة، ولا يغرب عن بال سعادتكم ما في قبول هذه المطالب وإحلالها محل الإجراء والتنفيذ من صيانة الأمن وحفظ النظام والسلام العام"[٢].

هذا ما كان في زمن مرجعية ثورة العشرين خلال حقبة الاحتلال الإنكليزي للعراق في القرن الماضي.

وأما ما دل على حق الشعب العراقي في تقرير مصيره بنفسه في حقبة ما بعد سقوط النظام البائد بتاريخ (١٤٢٤هـ/ ٢٠٠٣م) واحتلال أمريكا وحلفائها للعراق، فقد تجلى الموقف نفسه في العديد من بيانات المرجع الأعلى سماحة السيد السيستاني أو مكتبه بإقراره. أذكر منها ما يلي: إنّ "شكل العراق الجديد يحدده الشعب العراقي بجميع قومياته ومذاهبه، وآلية ذلك هي الانتخابات الحرة المباشرة".

(١) وثائق الثورة العراقية الكبرى. سابق: ٣/ ٢٥٢ والحقائق الناصعة. سابق: ٣٤٩.

(٢) الحقائق الناصعة في المسألة العراقية. سابق: ١٣١-١٣٢.

ومنها "المبدأ الذي يؤكد عليه سماحته هو أن الحكم في العراق يجب أن يكون للعراقيين بلا أي تسلط للأجنبي، والعراقيون هم الذين لهم الحق في اختيار نوع النظام في العراق بلا تدخل للأجانب".

ومنها: إنّ "شكل نظام الحكم في العراق يحدده الشعب العراقي".

وهناك كثير غيرها لا مجال لذكرها[1].

إنّ هذا هو الموقف الذي حدا بالمرجعيتين الدينيتين في القرنين الماضي والحاضر -مع أمور أخرى- إلى تبنّيهما القوي أمر إتاحة الحرية المطلقة للشعب العراقي في تشكيل السلطة التشريعية، كما سيتضح لاحقاً.

❀ ❀ ❀

(١) ينظر هذه النصوص وغيرها في كتاب: النصوص الصادرة عن سماحة السيد السيستاني في المسألة العراقية. سابق: ٣٦٩-٣٧١. ط٦.

المبحث الثاني

تماثل موقف المرجعيتين الدينيتين في ضرورة تشكيل السلطة التشريعية من خلال انتخابات عامة مباشرة دون تدخل أجنبي

لقد حرصت مرجعية ثورة العشرين زمن احتلال الإنكليز للعراق مثلما حرصت مرجعية سماحة السيد السيستاني زمن احتلال الأمريكان للعراق بعد قرن من الزمان؛ على أن ينتخب الشعب العراقي ممثليه الشرعيين الحقيقين بحرية تامة ونزاهة كاملة عبر صناديق الاقتراع السري العام من دون أن تتدخل إرادة المحتل الأجنبي أيّاً كان شكل ذلك التدخل في ترشيحهم أو في تزوير نتائج الانتخابات لضمان فوز عملائها ومريديها فيه على حساب مصالح الشعب والوطن.

وبناءً على ذلك وتطبيقاً له فقد شخصت المرجعية الدينية العليا قبل قرن من الزمان بأنّ المحتلين الإنكليز ومعهم الملك فيصل وحكومته يسعون إلى تزوير الانتخابات لضمان موافقة مجلس النواب على المعاهدة العراقية-البريطانية المذلّة؛ فحرّمت الاشتراك في الانتخابات.

أما حين رأت المرجعية الدينية العليا المعاصرة بعد قرن من الزمان خلاف ذلك في انتخابات الجمعية الوطنية العراقية بعد رضوخ المحتل الأمريكي لمشيئتها بموافقته على إجرائها بالآلية والطريقة التي اقترحتها المرجعية نفسها - دعت إلى الاشتراك فيها.

وسيأتي الحديث عن ذلك بالتفصيل في فصل لاحق.

❀ ❀ ❀

المبحث الثالث

تماثل موقف المرجعيتين الدينيتين من توحيد صفوف المسلمين سنة وشيعة

لقد تبنّى كل من مراجع ثورة العشرين وفي مقدمتهم سماحة الشيخ الشيرازي وسماحة شيخ الشريعة الأصبهاني، والمراجع: من أصحاب السماحة: كل من السيد أبو الحسن الأصفهاني، والشيخ الميرزا محمّد حسين النائيني وغيرهما؛ النهج العام لمراجع شيعة العراق الهادف إلى توحيد مواقف العراقيين شيعة وسُنّة وجمع كلمتهم معاً صفّاً واحداً كالبنيان المرصوص يشد بعضه أزر بعض في وجه المستعمر الإنكليزي المحتل.

وكمثل على ذلك سأتناول وضوح هذا النهج عند المرجعين الشيخ محمّد تقي الشيرازي وشيخ الشريعة الأصبهاني دون غيرهما من مراجع ثورة العشرين خشية الإطالة.

فأما المرجع الأعلى ومفجر الثورة الشيخ الشيرازي، فقد كان "يؤيد الصلات الودية المتبادلة بين السنيين والشيعيين بكل قواه"[1]. وقد أبان موقفه هذا بجلاء منذ أن تولى زمام المرجعية العليا بعد وفاة المرجع الأعلى سماحة السيد محمد كاظم اليزدي، وذلك خلال زيارة نائب الحاكم البريطاني العام السير ولسون له في بيته بكربلاء في شهر (رمضان ١٣٣٧هـ/ حزيران ١٩١٩م) محاولاً استمالة سماحته بأن طلب منه ترشيح كليدار شيعي لمرقد الإمامين العسكريين عليهما السلام في سامراء "ليحل محل الكليدار الحالي الذي هو سُنّي"[2] بقوله له: "إنّي أتعجب كثيراً بأن المشاهد المشرفة كلها سدنتها والخازن الأمين فيها هم من الشيعة، على ما هو مقتضى قاعدة العدل والإنصاف، ويدعو إليه قانون الاجتماع، لأنهم رؤساء مذهبهم وأئمة دينهم،

---

(١) تاريخ القضية العراقية: ١/ ١٩٠. ط١.

(٢) كربلاء في التاريخ. سابق: ٦٠.

وهم أحق بذلك وأولى من غيرهم، إلّا مشهد العسكريين سلام الله عليهما فليس بها خادم واحد من الشيعة حتى الخازن المتولي لأمور الحرم الشريف، وتنظيم مراسم العتبة المقدسة هو من أهل السنّة على خلاف العدل والإنصاف... وإنهم على ما قرع سمعي لا يعاملون مع الزوار حسن المعاملة (كذا) وجميل السلوك، وهم مرتزقون منهم، وبهم يستطيب لهم معائشهم، وهذا تضييع لحق الشيعة جدّاً بلا وجه يوجبه، ولا جهة تقتضيه، فأرى أن يُعيّن حضرتكم رجلاً من الشيعة... حتى أفوّضه مقاليد الحضرة المقدسة، والسرداب الشريف، وتثبيتاً للشيعة بعض حقها، حتى أنه لا يحتاج ذلك إلى كتاب من حضرتكم، بل يكفي التعيين والإمضاء الشفاهي منكم وإني لأسرع إلى إجراء هذا المأمول متولّياً لأمركم"[١] متظاهراً بذلك دفاعه عن حقوق الشيعة، عَلّه يحصل على رضا المرجع الشيرازي.

"ولكن الشيرازي فوّت عليه الفرصة حيث أجابه بقوله: لا فرق عندي بين السنّيّ والشيعي، وإنّ الكليدار الموجود رجل طيّب، ولا أوافق على عزله"[٢].

ثم عرض السير ولسون على سماحة المرجع الأعلى قضيتين غير ما تقدم تتعلقان بالوضع في إيران، فاعتذر سماحته عن إجابته لهما أيضاً. "وهكذا صدف عنه وفتّ في عضده بكل ما أوتي به من قوة إيمان وعزم ويقين فرجع -ولسون- يسحب ذيل الخيبة والفشل.

هذا ما استقيناه من أوثق الرواة الذين حضروا حوار السر ولسن مع الميرزا الحائري"[٣].

وتأكيداً لموقفه الداعي إلى وحدة الصف الإسلامي كتب سماحته إلى عدد من رؤساء قبائل المنتفق وهم كل من: الشيخ موحان الخير الله، والشيخ علي الفضل، والشيخ نايف آل مشّاي في رسائل متعددة بلسان واحد أو متقارب جدّاً بتاريخ (٣

(١) مرآة الشرق. سابق: ١/ ٣٤٧-٣٤٨.

(٢) لمحات اجتماعية من تاريخ العراق الحديث. سابق: ٥/ ١/ ٦٥. وكربلاء في التاريخ. سابق: ٣/ ٥٩.

(٣) كربلاء في التاريخ. سابق: ٦٠.

رجب ١٣٣٨ هـ/ ٢٣ آذار ١٩٢٠ م) حاثّاً فيها على جمع كلمة المسلمين وحشد طاقاتهم ضد العدو المحتل، فقد جاء في رسالته إلى الشيخ نايف آل مشّاي مثلاً: "لا يخفى عليكم أنّ جميع المسلمين إخوان، تجمعهم كلمة الإسلام، وراية القرآن، والنبيّ الأكرم صلّى الله عليه وآله وصحبه، فالواجب علينا جميعاً الاتفاق، والاتحاد، والتواصل، والتوادد، وترك الأختلاف، والسعي في كل ما يوجب الائتلاف، وتوحيد الكلمة، وجمع شتات الأمة، والتعاون على البر والتقوى، والتوافق في كل ما يرضي الله، فإنكم إن كنتم كذلك جمعتم بين خير الدنيا والآخرة، ونلتم الدرجة العليا والشرف الدائم والذكر الخالد، وإلّا تكونوا ممّن خسر الدنيا والآخرة، ولبس ثوب الذل والهوان، مدى الزمان، وذلك هو الخسران المبين، فوقاكم الله ذلك وجميع المسلمين"[١].

وكتب سماحته أيضاً رسالة أخرى إلى الزعيمين الشيخ شعلان أبو الجون، والشيخ غثيث الحرجان زعيمي الظوالم، جاء فيها: "الواجب عليكم، بل على جميع المسلمين: الاتفاق مع إخوانهم بهذا المقصد الشريف... وإياكم والإخلال بالأمنية، والتخالف والتشاجر بعضكم مع بعض، فإن ذلك مضرّ بمقاصدكم الإسلامية، ومضيع لحقوقكم التي صار أوان حصولها بأيديكم"[٢].

ويتجلى موقف المرجع الشيخ محمد تقي الشيرازي الداعي إلى جمع شمل المسلمين، بما تحدث به لوفد تركي زاره في سامراء، يدعو إلى الاتحاد الإسلامي العام بين الفرق الإسلامية جميعها، بقول سماحته لهم: "إنّ ما تدعون إليه الآن من الاتحاد الإسلامي، فإنما نحن قد أخذنا به العمل عندنا منذ مدة... أليس هؤلاء الجلساء رؤساء أهل السنّة من الأعيان والتجار ووجوه السدنة، فاسألوهم، ألسنا معهم كيَدٍ واحدة، وأولاد أم واحد (كذا)، نسكن معهم في بيت واحد، ونكتسب معهم في سوق واحد، ونعامل (كذا) معهم معاملة رهط واحد، كالأُخوّة أو أشد وداداً منها"[٣].

---

(١) المواقف المشتركة لعلماء العراق وإيران ضد الغزو الأجنبي للبلاد الإسلامية ١٩٠٥-١٩٢٠. سابق: ٢/ ٣٢٠.

(٢) وثائق الثورة العراقية الكبرى. سابق: ٣/ ٤٩ و٨٤.

(٣) مرآة الشرق. سابق: ١/ ٣٤٧.

أما المرجع الأعلى الخلف شيخ الشريعة الأصبهاني فقد نهج قبل تولّيه المرجعية العليا وبعدها نهج مراجع الشيعة والمرجع السلف الشيخ الشيرازي؛ فقد كتب سماحته إلى السيد هادي آل مكوطر كبير زعماء منطقته رسالة في (٣ ذي الحجة ١٣٣٨هـ/ ١٨ آب ١٩٢٠م) جاء فيها مخاطباً إيّاه: عليك "أن تبذل غاية جهدك في تأليف المسلمين، وجمع كلمتهم... وكيف لا يتساعدوا وهم في الحقيقة أعضاء جسم واحد، وإنّي لا أرضى إلّا أن يكونوا كما قال الله تعالى: ﴿أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ﴾(١)"(٢).

ولو تجاوزنا ثورة العشرين إلى واقعنا المعاش اليوم لوجدنا المرجع الأعلى سماحة السيد السيستاني ينهج النهج نفسه؛ فقد جاء في وصيته للمقاتلين المجاهدين خلال المنازلة ضد داعش التكفيرية ما نصه:

"اعلموا أنّ من شهد الشهادتين كان مسلماً يُعصم دمُه ومالُه، وإنْ وقع في بعض الضلالة، وارتكب بعض البدعة، فما كلّ ضلالة بالتي توجب الكفر، ولا كلّ بدعة تؤدي إلى نفي صفة الإسلام عن صاحبها، وربما استوجب المرء القتل بفساد أو قصاص وكان مسلماً. وقد قال الله سبحانه مخاطباً المجاهدين: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا ضَرَبْتُمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَتَبَيَّنُواْ وَلَا تَقُولُواْ لِمَنْ أَلْقَىٰٓ إِلَيْكُمُ ٱلسَّلَٰمَ لَسْتَ مُؤْمِنًا تَبْتَغُونَ عَرَضَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾(٣). واستفاضت الآثار عن أمير المؤمنين عليه السلام نهيه عن تكفير عامّة أهل حربه -كما كان يميل إليه طلائع الخوارج في معسكره- بل كان يقول إنّهم قوم وقعوا في الشبهة، وإن لم يبرّر ذلك صنيعهم، ولم يصح عُذراً لهم في قبيح فعالهم، ففي الأثر المعتبر عن الإمام الصادق عن أبيه عليهما السلام: (أنّ عليّاً عليه السلام لم يكن ينسب أحداً من أهل حربه إلى الشرك، ولا إلى النفاق، ولكن يقول: هم إخواننا بَغَوا علينا)، (وكان يقول لأهل حربه:

(١) سورة الفتح. آية ٢٩.

(٢) وثائق الثورة العراقية الكبرى. سابق: ٣/ ٢٧١.

(٣) سورة النساء. آية ٩٤.

إنّا لم نقاتلهم على التكفير لهم، ولم نقاتلهم على التكفير لنا"[١].

ولا أدلّ على موقفه هذا ممّا سمعتُه من سماحته مباشرة أكثر من مرة خلال تشرُّفي بزياراته وهو ما شاع وانتشر خلال تصريح سماحته به في أكثر من لقاء له مع السياسيين والمسؤولين شيعة وسُنّة، بل زاد على ذلك مكتبه في النجف الأشرف بتضمين قول سماحته في خطبة الجمعة التي ألقاها ممثّله سماحة السيد أحمد الصافي في (٢١ شعبان ١٤٣٥هـ/ ٢٠ حزيران ٢٠١٤م) من على منبر الصحن الحسيني الشريف ليصل إلى الجميع بقوله: "إنّ المرجعية الدينية قد برهنت خلال السنوات الماضية وفي أشد الظروف قساوة، أنّها بعيدة كل البعد عن أيّ ممارسة طائفية، وهي صاحبة المقولة الشهيرة عن أهل السُّنّة (لا تقولوا إخواننا، بل قولوا أنفسنا)، مؤكّداً مراراً وتكراراً على جميع السياسيين ومن بيدهم الأمر، ضرورة أن تُراعى حقوق كافة العراقيين من جميع الطوائف والمكونات على قدم المساواة... -والمرجعية- تحث الجميع على العمل لشد أواصر الأُلفة والمحبّة بينهم"[٢].

ولسماحته في هذا النهج أكثر من بيان وإجابة عن سؤال وتصريح[٣].

❀ ❀ ❀

(١) نصائح وتوجيهات للمقاتلين في ساحات الجهاد. مكتب المرجع الأعلى سماحة السيد السيستاني في ١٢/ ٢/ ٢٠١٥م.

(٢) النجف الأشرف وحوزتها. الكتاب السادس المعنون بـ(من الجهاد الكفائي إلى النصر النهائي. خطب المرجعية المعبّرة عن رؤى سماحة المرجع الأعلى السيد السيستاني (دام ظله) في الشأن العراقي). للمؤلف: ١٤.

(٣) ينظر: النصوص الصادرة عن سماحة السيد السيستاني في المسألة العراقية. سابق: ١٥٥ و١٦٥ و٢٤٢- ٢٤٩ وغيرها.

المبحث الرابع

تماثل موقف المرجعيتين الدينيتين في إحاطة المنظمة الأممية بشدة معاناة العراقيين من المحتلَّينِ البريطاني والأمريكي للعراق، وحثّها على القيام بواجبها في ذلك

لقد سعت مرجعية ثورة العشرين سعياً حثيثاً إلى إيصال صوت الشعب العراقي ومعاناته الشديدة -من عسف وجور وظلم السلطات البريطانية المحتلة- إلى المنظمة الأممية.

فمن ذلك الرسالة التي أرسلها سماحة الشيخ الشيرازي إلى الأمير فيصل بن الحسين في (٨ رمضان ١٣٣٧هـ/ ٧ حزيران ١٩١٩م) مستثمراً وجوده في اجتماع (عصبة الأمم) بباريس، طالباً منه -بل موجباً عليه عبر تفويضه تفويضاً عاماً- بأن يسعى من أجل أن يتحقق استقلال العراق، حيث ورد في رسالة سماحته إلى فيصل: "... وها نحن نوجب عليكم، لِما لنا من صفة التمثيل للطائفة الجعفرية، مواصلة سعيكم إلى النهاية حتى يتحقق استقلال العراق استقلالاً تامّاً عارياً عن كل شبهة الحماية والوصاية، وقد فوضناكم في خصوص مطالبة (مؤتمر السلام) و(أعضاء عصبة الأمم) على تحقيق استقلال البلاد التام"[1].

ومن ذلك أيضاً الرسالة التي أرسلها سماحته إلى الأمير فيصل بن الحسين في (٧ رمضان ١٣٣٨هـ/ ٢٥ مايس ١٩٢٠م) يطلب فيها منه أن يوضح خلال مشاركته في اجتماعات (عصبة الأمم) حقيقة "ما تُكابده الأمة العراقية المظلومة في كل لحظة من أنواع الظلم الفاحش وألوان الحكم الغاشم، مضافاً إلى الاستهانة بمكانتها التاريخية والازدراء بتقاليدها الإسلامية، ولا زالت تئن من التحكم الباطل والاعتداء على حقوقها المشروعة، وقد بلغ الظلم مبلغاً لا يجوز معه الصبر، وحيث أنّ المحيط العراقي مضغوط عليه كل الضغط من الجهات حتى أنه لا يمكنه

---

(١) الشيخ محمد تقي الشيرازي القائد الأعلى للثورة العراقية. سابق: ٢٤٤.

رفع صوته مباشرة إلى الأمم... فقد اعتمدنا الشيخ محمد باقر الشبيبي ليوقفكم على الأعمال القاسية الجارية في العراق ويكشف لكم عن المظالم التي ما زالت تستعملها حكومة الاحتلال فترفعوها إلى الصحافة الحرة في كل أنحاء العالم وتظهروها صريحة إلى الحكومات الأوربية والأمريكانية حتى نتمكن بواسطتها من تحصيل مقاصدنا العالية، وتيقنوا أن السكوت عن الضيم أمر لا يستطيع العراقيون تحمله، فأسرعوا وساعدوا إخوانكم الذين اعتمدوكم للمطالبة باستقلال بلادهم، ولا تجعلوا سبيلاً للتشبّث الأجنبيّ كيفما كان وامتداد نفوذهم إلى هذه الديار الإسلامية"[١].

ولم يكتفِ سماحته بذلك، بل بعث برسالة أخرى إلى (عصبة الأمم) في (٢٧ ذي القعدة ١٣٣٨ هـ/ ١٢ آب ١٩٢٠ م) جاء في ختامها مخاطباً أعضاء (عصبة الأمم) بعد أن انتاب المرجعية والعراقيين اليأس والقنوط من "إصغاء بريطانيا لهم حتى للتفاهم معهم بصورة سلمية" كما جاء في منطوق الرسالة، لذلك استعان المرجع الأعلى بعصبة الأمم طالباً منها تحمل مسؤوليتها مخاطباً أعضاءها بقوله: إنكم "بصفتكم ناصري الضعيف جئنا... نعلمكم موقف بريطانيا بالعراق... فأنقذوا أمة تأبى أن تعيش دون أن تأخذ حقها الصريح المعترف به"[٢] دوليّاً في الاستقلال وحق تقرير المصير.

ومن ذلك أيضاً الرسالة التي أرسلها سماحته إلى (عصبة الأمم) عبر إيران ومنها إلى مقر المنظمة الدولية في جنيف بتاريخ (٢٧ ذي القعدة ١٣٣٨ هـ/ ١٢ آب ١٩٢٠ م) مؤكّداً لهم فيها مرة أخرى على معاناة العراقيين من ظلم وتعسف المحتلين. وفيما يلي نص الرسالة:

"إنني لما قلدتني الأمة الإسلامية في المرجعية الروحانية أبث عنها صريح الشكوى إلى سامي مقام جمعية الأمم بسبب ما تبديه الحكومة الاحتلالية البريطانية

(١) الشيخ محمد تقي الشيرازي القائد الأعلى للثورة العراقية الكبرى: ٢٣٨.

(٢) المصدر السابق: ٢٧٩.

في العراق من ضروب القسوة وسفك الدماء البريئة... إنّ العراقيين طلبوا إنجاز مواعيد الدولتين المعظمتين البريطانية والفرنسوية بمنح الشعب العراقي الكريم استقلاله في إدارة شؤونه وتدبير مصالحه العامة... وعندما فاهت الأمة العراقية بطلب إنجاز هذه الوعود المقطوعة من الدولتين المذكورتين ثار ثائر الحكومة الإنكليزية فقامت معتمدة على قوتها دون الحق، ففتكت بالعراقيين فتكاً ذريعاً، وأخذت تهاجم بطائراتها ومدافعها حتى عدمت من أعدمته ونفت وسجنت من أرادته وأحرقت دوراً وهدمتها ونهبت أموالاً وصادرتها وعملت أعمالاً لا تأتلف وروح المدنية المزعومة فيها، بل إنّ الأعمال التي جاءت بها يأباها كل إنسان"[1].

ثم بعد وفاة المرجع الاعلى الشيرازي وتقلد المرجع الأعلى الخلف شيخ الشريعة الأصبهاني زمام المرجعية الدينية العليا، بعث رسالة إلى (عصبة الأمم) وقّعها هو ومعه العشرات من زعماء العراق ومشايخه، أبلغوا فيها المنظمة الأممية -مجدّداً- بمعاناة الشعب العراقي المضطهد من محتليه البريطانيين، مستعرضاً بعض تفاصيل معاناة العراقيين منهم، وقد أرسل نسخاً منها إلى الملك حسين ملك الحجاز، وحكومات أمريكا، وفرنسا، وروسيا، وتركيا، وألمانيا، وإيران، وهولندا في (١ محرم ١٣٣٩هـ/ ١٥ أيلول ١٩٢٠م)، جاء فيها متحدّثاً عن بعض ما لاقاه العراقيون من صنوف القتل والبطش والإرهاب والتزوير والتدليس على يد المحتلين في وثيقة تاريخية تفصيلية مهمة بقوله: وإذ "عزمنا على المطالبة بحقوقنا المشروعة وتذكير الحكومة البريطانية بالوفاء بمواعيدها بصورة قانونية أدبية... قابلنا الضباط بالاضطهادات الشديدة... وصاروا يسعون في تضييع حقوقنا وحريتنا كل السعي، ومن ذلك أنهم أبرزوا لجماعة من العرب أوراقاً بالخط الإنكليزي زاعمين أنها أوراق زراعية مالية وطلبوا توقيع الزعماء عليها، ثم ظهر أنها أوراق اعتراف وصاية الإنكليز على العراق، وضايقوا جماعة منا جهاراً على هذا الاعتراف، وقد اشتدت اضطهادات الضباط فحبسوا جمعاً منا، وساقوا

(١) الحقائق الناصعة في الثورة العراقية. سابق: ٣٤٩.

جماعات من ساداتنا وعلمائنا وأشرافنا ورؤساء قبائلنا إلى المنافي والسجون بصورة فظيعة، وهجموا على منازل بعض شيوخ القبائل وأحرقوها وما فيها، وقتلوا الرجال والخيل والحيوانات الكثيرة مع أن أصحابها لم يكونوا حاضرين، ولا سبب لتلك الفظائع سوى فكرتنا الاستقلالية ومطالبتنا بحقوقنا المشروعة وأن هؤلاء المنكوبين هم من ألزم الناس لحفظ الأمن والسكون".

وأضاف سماحته والزعماء في رسالتهم قائلين: "ثم حاول الضباط إرهاب من أحسوا منه المطالبة بحقوق الأمة المغصوبة فهددوه وتوعّدوه، وأردفوا وعيدهم بسوق القوة العسكرية عليهم، فلم يكن لنا ملجأ نلجأ إليه لحفظ دمائنا وشرفنا إلاّ الاتفاق مع بعضنا لنكون يداً واحداً (كذا) لدفع تلك الاضطهادات العسكرية، مع حفظنا للسلم، وحرصنا على الأمن العام، ولكن الضباط لم يهتموا إلّا بسحقنا والقضاء علينا، فصرنا كلما نبتعد عنهم اتبعونا، وصارت خيولهم تجول في آثارنا، ومدافعهم تعبث فينا، نطلب إخلاء سبيلنا ومراعاة الأمن والمحافظة على السلم فلا يعبؤون. نجيبهم إلى الهدنة فيغدرون، ونخلّي سبيلهم مع أسلحتهم بعد تمكننا منهم فيغدرون على حين غرّة، وقد جرى خلال أيام معدودة من سفك الدماء وتدمير المدن العامرة وهتك حرمة المعابد - ما يُبكي الإنسانية"[١].

إنّ موقف مرجعية ثورة العشرين المتقدم هو نفسه موقف المرجعية الدينية العليا المعاصرة المتمثلة بسماحة المرجع الأعلى السيد السيستاني (دام ظله) التي حرصت كمرجعية ثورة العشرين على إيصال صوت العراقيين المظلومين المحتلين من قبل أمريكا إلى منظمة الأمم المتحدة ودول العالم للوقوف بوجه "التحكم الباطل والاعتداء على حقوقهم المشروعة"[٢] بقصد سلب حريتهم في اختيار ممثليهم التشريعيين الحقيقيين المناطة بهم مسؤولية سن دستورهم وقوانينهم.

فمن ذلك رسالة مكتب سماحته الجوابية المرسلة في (٢٧ محرم ١٤٢٥هـ/

(١) الحقائق الناصعة في الثورة العراقية. سابق: ٣٨٥-٣٨٦.

(٢) الشيخ محمد تقي الشيرازي القائد الأعلى للثورة العراقية الكبرى: ٢٣٨.

١٩ آذار ٢٠٠٤م) إلى السيد الأخضر الإبراهيمي مبعوث الأمم المتحدة إلى العراق حيث حدد فيها سماحته بوضوح وجلاء تامَّينِ رفضه الصريح لقانون إدارة الدولة الذي صدر تحت ظل الاحتلال الأمريكي للعراق، فقد جاء في الرسالة ما يلي:

"إنّ هذا (القانون) الذي لا يتمتع بتأييد معظم الشعب العراقي -كما تؤكد ذلك استطلاعات الرأي العام وملايين التوقيعات التي جمعت خلال الأيام القليلة الماضية في رفضه أو المطالبة بتعديله- يُصادِر حق ممثلي الشعب العراقي المنتخبين بصورة لا نظير لها في العالم، وبذلك تفقد الانتخابات التي طالبت بها المرجعية الدينية الكثير من معناها وتصبح قليلة الجدوى"[١].

ومن ذلك أيضاً رسالة سماحته إلى مجلس الأمن الدولي في (١٧ ربيع الثاني ١٤٢٥هـ/ ٦ حزيران ٢٠٠٤م)، حيث وضّح فيها موقفه وموقف العراقيين من قانون إدارة الدولة العراقية للمرحلة الانتقالية الذي كُتب من أشخاص معيّنين، غير منتخبين وتحت ظل الاحتلال الأمريكي للعراق وبتدخل مباشر منه.

وفيما يلي نص رسالة سماحته:

"السيد رئيس مجلس الأمن الدولي المحترم

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته

وبعد، فقد بلغنا أنّ هناك من يسعى إلى ذكر ما يسمى بـ(قانون إدارة الدولة العراقية للمرحلة الانتقالية) في القرار الجديد لمجلس الأمن الدولي حول العراق بغرض إضفاء الشرعية الدولية عليه.

إنّ هذا القانون الذي وضعه مجلس غير منتخب وفي ظل الاحتلال وبتأثير مباشر منه؛ يُقيّد الجمعية الوطنية المقرر انتخابها في بداية العام الميلادي القادم لغرض وضع الدستور الدائم للعراق.

---

(١) النصوص الصادرة عن سماحة السيد السيستاني في المسألة العراقية. سابق. وثيقة رقم ٥٨ ص٣٧٥.

وهذا أمر مخالف للقوانين ويرفضه معظم أبناء الشعب العراقي، ولذلك فإن أيّ محاولة لإضفاء الشرعية على هذا القانون من خلال ذكره في القرار الدولي يعدّ عملاً مضادّاً لإرادة الشعب العراقي، وينذر بنتائج خطيرة.

يُرجى إبلاغ موقف المرجعية الدينية بهذا الشأن إلى السادة أعضاء مجلس الأمن المحترمين. وشكراً"[1].

ومنها كذلك إبلاغ سماحته (دام ظله) للأمين العام للأمم المتحدة السيد بان كي مون مباشرة -خلال زيارته لسماحته في النجف الأشرف بتاريخ (٢٦ رمضان ١٤٣٥هـ/ ٢٤ تموز ٢٠١٤م)- قضايا الشعب العراقي الملحّة وموقف سماحته منها.

كما كان يتم إبلاغ الممثل الخاص للأمين العام للأمم المتحدة في العراق خلال زياراته المتكررة لمكتب سماحته في النجف الأشرف بموقف المرجعية العليا من الأحداث الجارية في العراق أولاً بأول كلما دعت الحاجة إلى ذلك.

❀ ❀ ❀

(١) النصوص الصادرة عن سماحة السيد السيستاني في المسألة العراقية. سابق. وثيقة رقم ٦٥ ص٣٨٣.

المبحث الخامس

تماثل موقف المرجعيتين الدينيتين في أمر المتابعة الحثيثة لمستجدات مواقف السلطة الحاكمة في العراق المناوئة لاستقلال وحرية وحقوق الشعب العراقي

لقد دأبت مرجعية ثورة العشرين على متابعة المواقف المناوئة للاحتلال البريطاني الغاشم والمطالبة القوية باستقلال وحرية الشعب العراقي في تقرير مصيره بنفسه.

فما أن وطئت القوات البريطانية الغازية في الحرب العالمية الأولى أرض البصرة في (١٧ ذي الحجة ١٣٣٢هـ/ ٦ تشرين الثاني ١٩١٤م) حتى أفتى المراجع العظام ومنهم مراجع ثورة العشرين بالجهاد ضد المحتلين، كما أرسل سماحة الشيخ محمد تقي الشيرازي نجله وساعده الأيمن سماحة الشيخ محمد رضا الشيرازي لساحات الجهاد والمنازلة، بل إنّ سماحة المرجع شيخ الشريعة الأصبهاني شارك بنفسه رغم كبر سنه بقيادة العمليات العسكرية في الجبهة الملتهبة، وبعد انكسار جيش المجاهدين وتقدم المحتلين الإنكليز نحو بغداد شدّ سماحة شيخ الشريعة الأصبهاني رحاله إلى الكاظمية المقدسة ليشارك المجاهدين في منع القوات البريطانية من احتلال بغداد.

ولست بحاجة هنا إلى إعادة التذكير مجدداً بدور مرجعية ثورة العشرين في إشعال لهيب الثورة الوطنية سنة (١٩٢٠م) وقيادتها، فهذا الكتاب مكرس لذلك.

كما لا حاجة بي مجدداً إلى إعادة ذكر دور مراجع ثورة العشرين المعارضين لتنصيب الإنكليز للملك فيصل الأول على عرش العراق بعد وفاة المرجعين الشيخ الشيرازي وشيخ الشريعة الأصبهاني. وفي مقدمة مراجع ثورة العشرين المعاصرين لتنصيب الملك فيصل على عرش العراق كل من: سماحة المرجع السيد أبو الحسن الأصفهاني، وسماحة المرجع الشيخ محمد حسين النائيني، وسماحة المرجع الشيخ محمد مهدي الخالصي في رأيه الأخير في الملك.

ولست بحاجة أيضاً إلى تكرار ذكر مواقف سماحتهم القوية ضد الانتداب البريطاني على العراق، وإعادة ذكر نصوص فتاواهم التي أصدروها ضد المعاهدة العراقية-البريطانية المذلّة، فقد تقدم الحديث بتفصيل وافٍ عن ذلك كله فيما سبق. وفيه كفاية عن ذكر المزيد في موضوع هذا المبحث.

هذا ما كان يتعلق بأمر المتابعة الحثيثة من قبل مرجعية ثورة العشرين لمستجدات مواقف السلطة الحاكمة في العراق المناوئة لاستقلال وحرية وحقوق الشعب العراقي.

أما ما يتعلق بالمتابعة الحثيثة لمستجدات الساحة السياسية في الداخل العراقي من قبل مرجعية سماحة السيد السيستاني (دام ظله) أولاً بأول، وأقول أولاً بأول لأنّي على اطلاع تفصيلي كامل في هذا الأمر، ولا سيّما أنّي كنت أتشرف بزيارة سماحته منذ سقوط النظام البائد سنة (١٤٢٤هـ/ ٢٠٠٣م) وحتى تاريخ كتابتي لهذه السطور بعد أن عُدت من تشرّفي بلقائه قبل ظهر هذا اليوم الثلاثاء (١٠ ذي القعدة ١٤٤٤هـ/ ٣٠ مايس ٢٠٢٣م)، حيث قدمت له ثلاثة من كتبي المطبوعة حديثاً عن (الحوزة العلمية في النجف الأشرف) فحظيت بتسلّمه، وحظيتُ بدعواته الكريمة. كما كنت طوال هذه المدة على تواصل مستمر بشكل يومي أو شبهه مع سماحة آية الله السيد محمد رضا السيستاني -النجل الأكبر للمرجع الأعلى ويده اليمنى- أبعث إليه أو يبعث إليّ بالمستجدات المؤثرة على الساحة السياسية العراقية، وأزوره وقد يزورني فيطلعني سماحته على مستجدات سياسية وفكرية مهمة، عامة وخاصة عادة. كما كان يرسل إليّ أو أرسل إليه بين الفينة والأخرى بعض الآراء الفكرية أو السياسية الخاصة للاطلاع عليها ودراستها وتحليل نتائجها.

فلقد تصدى سماحة المرجع الأعلى السيد السيستاني (دام ظله) منذ سقوط النظام البائد لتحديد موقف الشعب العراقي من أغلب ما كان يصدر عن سلطة الاحتلال الأمريكي للعراق سنة (٢٠٠٣م) وما بعدها بعقدين زمنيين، وحتى

وقت قريب من تاريخ كتابتي هذه، سواء بما كان أصدره سماحته أو مكتبه أو المخول بالحديث من مكتبه عن الشأن السياسي العراقي، أم بما كان يصدره مكتب سماحته في النجف الأشرف ويتلوه مُمثِّلاهُ -كل من: سماحة الشيخ عبد المهدي الكربلائي وسماحة السيد أحمد الصافي- على مسامع المؤمنين من فوق منبر الجمعة في الخطبة الثانية السياسية من تلك الخطب.

ويمكن لمن أراد الاطلاع على نصوص ما صدر عن سماحته (دام ظله) في الشأن العراقي؛ مراجعة كتاب (النصوص الصادرة عن سماحة السيد السيستاني في المسألة العراقية)، إعداد الدكتور حامد الخفاف.

كما يمكن لمن أراد الاطلاع على ما أصدره مكتب سماحته في النجف الأشرف في الشأن السياسي العراقي، وتُلِيَ في خطب الجمعة الثانية من على منبر الصحن الحسيني الشريف؛ مراجعة كتابي المعنون بـ(من الجهاد الكفائي إلى النصر النهائي. خطب الجمعة المعبّرة عن رؤى سماحة المرجع الأعلى السيد السيستاني في الشأن العراقي) بعد أن دقق نصوصها مكتب سماحته في النجف الأشرف وأقرّ نشرها.

وإذا كان لي أن أضرب مثلاً يوثّق ما أدّعيه من دقّة متابعة المرجع الأعلى سماحة السيد السيستاني (دام ظله) لمستجات الوضع السياسي العراقي أولا بأول؛ فسأكتفي بذكر مثلين عليها فقط خشية الإطالة:

أوّلهما: عندما استقبل المرجع الأعلى سماحة السيد السيستاني يوم الخميس المصادف (١٦ رمضان ١٤٢٨هـ/ ٢٨ أيلول ٢٠٠٧م) في مكتبه بالنجف الأشرف نائب رئيس جمهورية العراق وقتئذ، الأمين العام للحزب الإسلامي العراقي السنّي، حاملاً معه مبادرة كان أطلقها ليلة زيارته لسماحته ليعرضها عليه، فما كان من سماحة المرجع الأعلى إلّا أن مدّ يده إلى جيبه ليخرج منه نص مبادرة ضيفه الزائر، مطبوعة على الورق. وهو ما قاله الضيف نفسه خلال مؤتمره الصحفي الذي عقده بباب مكتب سماحته إثر انتهاء اللقاء، مندهشاً من متابعة سماحته الحثيثة للمستجدات السياسية على الساحة العراقية حال صدورها.

ليس هذا ما قاله فحسب. بل أضاف إلى ذلك متعجّباً وهو يصف ما شاهده من وضع سماحته خطوطاً تحت بعض فقرات المبادرة، مشيراً إلى تحفُّظه عليها، وهو ما أظهر جليّاً للضيف الزائر والوفد المرافق له أنّ سماحته قد اطلع على مبادرته قبل أن يُطلِعه هو عليها. وتحفّظ على بعض فقراتها أيضاً.

لقد صرح نائب الرئيس للصحفيين إثر انتهاء زيارته للمرجع الأعلى يوم الخميس مدهوشاً -حسب قناة الجزيرة الفضائية- بقوله: "لقد أَطلَعتُ سماحته على مبادرتي التي أطلقتُها الأربعاء، ففوجئت بوجود نسخة منها في جيبه... وكانت له بعض التحفُّظات البسيطة على بعض النقاط".

ثانيهما: طلب مني أحد الرئاسات الثلاث في العراق وقتئذ السعي لتحصيل الموافقة على زيارته والوفد المرافق له إلى المرجع الأعلى سماحة السيد السيستاني، وكنت وقتذاك عضواً في مجلس النواب العراقي.

وبعد تحصيل الموافقة، توجه الوفد الزائر -وكنت معهم- للقاء سماحته في مكتبه بالنجف الأشرف قبل ظهر يوم الأحد (٢٣ محرم ١٤٣٦هـ/ ١٦ تشرين الثاني ٢٠١٤م).

وخلال اللقاء وتبادل الآراء طلب أحدُ أعضاء الوفد الزائر الحديثَ، فأُذن له، فطرح على سماحته ما خطر بباله أثناء اللقاء، زاعماً عدم تحصيل تركمان العراق على حقوقهم كاملة، فأجابه سماحته بأنْ لو اقتصرتْ مطالبكم على سقوفها الطبيعية التي يمكن قبولها من دون مبالغة منكم في الطلب - لَتَمَّت الموافقة عليها. مستحضراً بذلك سماحته ما كان قد رفضه مجلس النواب العراقي من مطالب مبالغ فيها كان قد قدمها النواب التركمان إلى المجلس، وعرضت مرة في إحدى جلساته السابقة، فلم تحظَ بالموافقة. وهو ما أثار دهشة رئيس وأعضاء الوفد الزائر لدقّة متابعة سماحته لتفاصيل الوضع السياسي العراقي أولاً بأول.

وإذ انتهى المؤتمر الصحفي الذي عقده الوفد الزائر إثر اللقاء، حدّثني رئيسه السنّي -ونحن في طريقنا متوجهين إلى زيارة مرقد أمير المؤمنين عليه السلام- متفاجئاً من

دقّة متابعة سماحته الشخصية اليومية للشأن السياسي العراقي، بحيث شملت متابعته التفصيلية حتى المطالب التي لم تُقرأ سوى مرة واحدة فقط بعد رفض مجلس النواب العراقي لها وذلك في جلسة من جلساته النيابية السابقة.

وهناك من الشواهد الأخرى غير المنشورة الدالة على متابعة سماحته ومكتبه للشأن السياسي والاجتماعي العراقي أوّلاً بأوّل ويوماً بيوم ممّا لا يسع المجال لذكرها هنا.

المبحث السادس

تماثل موقف المرجعيتين الدينيتين في المتابعة الحثيثة لمستجدات سياسات الدول المعادية لاستقلال وحرية الشعوب الإسلامية والدفاع عن مقدساتها

لقد دأب المراجع العظام: مراجع ثورة العشرين من جهة، وسماحة المرجع الأعلى السيد السيستاني (دام ظله) من جهة ثانية على المتابعة التفصيلية الدقيقة لكل موقف سياسي جديد مُعادٍ لعقيدة ومقدسات الشعوب المسلمة.

أما ما يتعلق بأمر المتابعة الحثيثة لكل ما يصدر من مستجدات الساحة السياسية العالمية المعتدية والمناوئة لعقيدة ومقدسات الشعوب الإسلامية واستقلالها؛ فقد تمثّل ذلك أحسن تمثيل بإعلان الجهاد ضد المحتلين الأجانب للأراضي الإسلامية من قبل مراجع ثورة العشرين وغيرهم من المراجع الدينيين في العراق، فمن ذلك البيان الذي وجهه المراجع العظام ومنهم مراجع ثورة العشرين كل من: سماحة الشيخ محمد تقي الشيرازي وسماحة شيخ الشريعة الأصبهاني في الشهر الثاني من عام (١٣٣٠هـ/ ١٩١٢م) بعد أن "امتدت يد الظلم (الإيطالية) نحو مسلمي (طرابلس الغرب) حيث تسلب أموال الأهالي، ويتعرض النساء والأطفال إلى الهتك، وأموالهم للسلب والنهب والقتل، ومن جهة أخرى تقوم (القوات الروسية) بتصويب نيران مدفعيتها ضد الضعفاء والعجزة في (تبريز)، وتقوم بإعدام كبار الشخصيات هناك، وفي (قزوين) و(رشت) تدخّل أجنبي ظالم، واحتلال مدينة (مشهد) المقدسة وتدنيس مرقد الإمام الرضا عليه السلام بأقدامهم، وتعرض الإيرانيين إلى المضايقات التي تؤدي إلى زعزعة استقرار بلدهم ومحو الإسلام... فقد قررنا نحن -خدمة الشرع المنير مع جميع العلماء الأعلام من النجف وسامراء وحسب مسؤولياتنا الشرعية- المجتمعون في الكاظمية لدراسة هذه الأمور التي تتعرض لها الدولة، عسى أن نجد حلّاً لإنقاذ المسلمين من ظلم الأجانب وعدوانهم،

وإذا لم يتمكن المسلمون في أقطار العالم الذي يعيشون في ظل حكم الأجانب بذل النفس لمساعدة إخوانهم فبإمكانهم تقديم المساعدة عن طريق إبداء التضامن معهم لإعلاء كلمة الحق والشريعة المحمدية"[١]، وقد وقّع هذا البيان من بين المراجع وكبار العلماء كل من: شيخ الشريعة الأصبهاني والشيخ محمد تقي الحائري الشيرازي.

يقول الباحث الأمريكي إسحاق نقاش: "تتفق التقارير البريطانية والعراقية على السواء على أنه كان للفتوى تأثير بالغ في العراق، فلقد أعقبت إعلانها اجتماعات وتظاهرات عامة، وجمع التبرعات للحرب ضد (إيطاليا) وتشكيل لجان إسلامية للدفاع عن (ليبيا)... وقارن عالم شيعي عربي في كلمة له (الغزو الإيطالي) بالحملة الصليبية، ودعا إلى الوحدة بين المسلمين كافة"[٢].

كما أرسل كل من سماحة الشيخ محمد تقي الشيرازي وشيخ الشريعة الأصبهاني مع غيرهم من المراجع رسالة أخرى إلى مراجع ومجتهدي إيران في (١٥ ربيع الثاني ١٣٣٠هـ/ ٣ نيسان ١٩١٢م) جاء فيها:

"نطالبكم بوضع جميع الخلافات الداخلية والحروب الأهلية جانباً وتوجيه الاهتمام إلى المحافظة على أمن الدولة الذي يتوقف عليه أمن الإسلام والمسلمين وعدم التفريط بما جاء به النبيّ ﷺ بتأسيس دولة إسلامية كريمة"[٣].

بل لقد سافر وفد من مدينة النجف الأشرف إلى (ليبيا) للمشاركة في جهاد الغزاة الإيطاليين تلبية للفتوى المباركة.

وهناك أمثلة أخرى لا مجال لذكرها هنا.

هذا ما يتعلق بأمر المتابعة الحثيثة من قبل مرجعية ثورة العشرين لمستجدات سياسات الدول الاستعمارية المعادية لاستقلال وحرية الشعوب الإسلامية.

---

(١) محمد تقي الشيرازي القائد الأعلى للثورة العراقية الكبرى ١٩٢٠م. سابق: ١٢٦-١٢٧.

(٢) شيعة العراق. سابق: ١١٠.

(٣) محمد تقي الشيرازي القائد الأعلى للثورة العراقية الكبرى ١٩٢٠م: ١٤٨. سابق، وينظر وجود رسائل أخرى منهما في المصدر نفسه: ١٥٠ و١٥١ و١٥٣ وغيرها.

أمّا في عهد المرجعية الدينية العليا المعاصرة المتمثلة بسماحة السيد السيستاني (دام ظله)؛ فقد أولت اهتمامها بالمتابعة اليومية لمستجدات الوضع السياسي العالمي المضادّ لاستقلال وتحرير الشعوب المسلمة، أو المتجاوز على المقدسات الإسلامية الشريفة.

ولنأخذ من جريمة حرق القرآن الكريم في دولة السويد -وهي آخر ما صدر من مواقف سماحته في هذا الشأن- ومن موقفه من القضية الفلسطينية قبل ذلك مثلاً عليها.

فأما ما يتعلق بجريمة حرق المصحف الشريف في دولة السويد وغيرها من الدول الغربية؛ فقد أرسل مكتب سماحته رسالة عاجلة إلى السيد أنطونيو غوتيريش الأمين العام للأمم المتحدة في (١٠ ذي الحجة ١٤٤٤هـ/ ٢٩ حزيران ٢٠٢٣م) أنقل نصها:

"بسم الله الرحمن الرحيم

سعادة السيد أنطونيو غوتيريش الأمين العام للأمم المتحدة المحترم

تحية طيبة مع الاحترام والتقدير

وبعد: فقد تناقلت وسائل الإعلام أنّ أحدهم قام في مملكة السويد بالاعتداء على نسخة من القرآن الكريم وحرق بعض أوراقها، بهدف الإساءة إلى الدين الإسلامي الحنيف.

وقد وقع نظير هذا التصرف المشين أكثر من مرة في بلدان مختلفة خلال السنوات الأخيرة. إلّا أنّ المُلاحَظ أنّه وقع هذه المرة بترخيص رسمي من الشرطة السويدية، بزعم أنّه من مقتضيات احترام حرية التعبير عن الرأي!

ولكن من المؤكد أنّ احترام حرية التعبير عن الرأي لا يُبرّر أبداً الترخيص في مثل هذا التصرف المُخزي الذي يمثل اعتداءً صارخاً على مقدسات أكثر من ملياري مسلم في العالم، ويؤدي إلى خلق بيئة مواتية لانتشار الأفكار المتطرفة، والممارسات الخاطئة.

إن المرجعية الدينية العليا إذ تُبدي إدانتها واستنكارها لِما وقع، تُطالب الأمم المتحدة باتخاذ خطوات فاعلة بمنع تكرار أمثاله، ودفع الدول إلى إعادة النظر في التشريعات التي تسمح بوقوعها، وتدعو إلى تثبيت قيم التعايش السلمي بين أتباع مختلف الأديان والمناهج الفكرية، مبنيّاً على رعاية الحقوق والاحترام المتبادل بين الجميع"[١].

وقد بعث الأمين العام للأمم المتحدة برسالة إلى سماحة السيد السيستاني (دام ظله) في (٣ محرم الحرام ١٤٤٥هـ/ ٢١ تموز ٢٠٢٣م) جواباً على رسالة سماحته أعلاه أنقل نصها كذلك:

"سماحة آية الله العظمى علي السيستاني

النجف الأشرف

أودّ أن أشكر سماحتكم على رسالتكم المؤرخة (٢٩ حزيران ٢٠٢٣) بشأن أعمال حرق القرآن.

لقد شعرت بانزعاج شديد من حادثة حرق القرآن الأخيرة في ستوكهولم، السويد، والتي أدّت إلى احتجاجات في جمهورية العراق خلال عطلة عيد الأضحى، واسمحوا لي أن أعرب عن تضامني مع المجتمع الإسلامي، وأن أدين أعمال التعصب والعنف والإسلاموفوبيا التي تؤدي إلى تفاقم التوترات، وتسهم في التمييز والتطرف.

وقد عبّرتُ عن هذا الموقف في اتصالي الهاتفي مع سعادة السيد فؤاد محمّد حسين نائب رئيس مجلس الوزراء ووزير خارجية جمهورية العراق بتاريخ (٣٠ حزيران ٢٠٢٣).

وقد انعكس ذلك أيضاً في البيانات الصحفية الصادرة عن مكتب الممثل السامي لتحالف الأمم المتحدة للحضارات في (٢٩ حزيران ٢٠٢٣) الذي يدين

(١) موقع مكتب سماحة المرجع الأعلى السيد السيستاني في النجف الأشرف. على الإنترنت. www.Sistani.Org.

حرق القرآن في السويد، ومفوض الأمم المتحدة السامي لحقوق الإنسان في (١١ تموز ٢٠٢٣) في افتتاح المناقشة العاجلة لمجلس حقوق الإنسان حول (الارتفاع المقلق في أعمال الكراهية الدينية المعتمدة والعلنية كما تجلّى من خلال التدنيس المتكرر للقرآن الكريم في بعض البلدان الأوربية وغيرها).

إن منظومة الأمم المتحدة مصمّمة على التنفيذ الكامل لقرار مجلس حقوق الإنسان بشأن (مكافحة الكراهية الدينية التي تشكّل تحريضاً على التمييز أو العداوة أو العنف).

وستواصل الأمم المتحدة من خلال هيئاتها ذات الصلة، حثّ الدول الأعضاء على دراسة سياساتها وأطرها الوطنية لتحديد الثغرات التي قد تعوق منع أعمال والدعوة إلى الكراهية القومية أو العنصرية أو الدينية التي قد تشكل تحريضاً على التمييز أو العداوة أو العنف ومقاضاة مرتكبيها.

وفي هذا السياق يضطلع الزعماء السياسيون والدينيون بدور مهم بشكل خاص في رفع صوتهم بحزم ضد مظاهر الكراهية الدينية، وتوضيح أنّ الحوار السلمي هو أفضل طريق لتعزيز التفاهم والاحترام المتبادلين، بما في ذلك احترام التنوع، وهي لبنات أساسية لبناء مجتمع متماسك وقادر على الصمود.

إنني أؤيد تأييداً تامّاً دعوتكم إلى تعزيز التعايش السلمي، وتوطيد قيم الرحمة.

وأودّ أن أعرب عن احترامي الحقيقي، وإعجابي الشديد بحكمتكم، ونهجكم المعتدل، وندائكم المستمر، من أجل الاحترام المتبادل والوحدة.

وأرحب بالمزيد من التواصل والتفاعل المستمر مع سماحتكم بشأن هذه المسائل المهمة ذات الاهتمام المشترك.

وتفضلوا سماحتكم بقبول فائق الاحترام.

أنطونيو غوتيريش"[1].

---

(١) رسالة بعثها إليّ سماحة آية الله السيد محمد رضا السيستاني (حفظه الله) عبر الواتساب في يوم الثلاثاء (٢٣ تموز ٢٠٢٣ م)، متضمنة ترجمة عربية لرسالة الأمين العام للأمم المتحدة. وينظر: موقع مكتب =

هذا ما يتعلق بموقف سماحته من الاعتداء على مقدسات الإسلام والمسلمين.

وأما ما يتعلق بموقفه من القضية الفلسطينية العادلة، فقد أصدر سماحته أكثر من موقف وبيان حولها، أنقل منها بيانه الصادر في (٢٦ محرم الحرام ١٤٢٣هـ/ ٩ نيسان ٢٠٠٢ م) عن حصار (مخيم جنين) جاء فيه:

"يواجه إخواننا في الأراضي الفلسطينية المحتلة في هذه الأيام عدواناً صهيونيّاً متواصلاً، قَلّ نظيره في التاريخ الحديث، وتعجز الكلمات عن بيان أبعاده الوحشية، فقد عمّ الجميع، ولم يسلم منه حتى الشيوخ والنساء والصبيان، وتنوعت أساليبه قتلاً وتعذيباً وترويعاً واعتقالاً وتشريداً وتجويعاً وهتكاً للحرمات واستباحة للمقدسات وتخريباً للمدن والمخيمات وتدميراً للبيوت والمساكن، وبلغ حتى الممانعة من إسعاف الجرحى والمصابين، ودفن أجساد الشهداء.

ويجري كل ذلك بمرأى ومسمع العالم أجمع، ولا مانع ولا رادع، بل إنّه يحظى بدعم أمريكي واضح... إنّ الوضع المأساوي الذي يعيشه أبناء الشعب الفلسطيني المظلوم يقتضي أن لا يهنأ المسلمون في مطعم أو مشرب إلى أن يكفّوا عن إخوانهم وأخواتهم أيدي الظالمين المعتدين"[1].

ومن ذلك أيضاً -فيما يخص موقفه من تعرض الشعب الفلسطيني للاحتلال والاضطهاد والتنكيل واستباحة الحرمات- بيان سماحته الصادر في (٢٩/ ١٢/ ١٤٢٩هـ، ٢٨/ ١٢/ ٢٠٠٨م) حول الاعتداءات الإسرائيلية على غزة جاء فيه:

"يتعرض الشعب الفلسطيني العزيز في قطاع غزة منذ ظهر أمس إلى هجمة إسرائيلية شرسة، واعتداءات متواصلة أسفرت لحد الآن عن سقوط مئات الضحايا بين شهيد وجريح... إنّ تعابير الإدانة والاستنكار لِما يجري على إخواننا

= سماحة المرجع الأعلى السيد السيستاني في النجف الأشرف على الإنترنت www.Sistani.org.

(١) النصوص الصادرة عن سماحة السيد السيستاني في المسألة العراقية. سابق. وثيقة رقم ٥٩ ص٣٧٧.

الفلسطينيين في غزة، والتضامن معهم بالألفاظ والكلمات لا تعني شيئا أمام حجم المأساة المروعة التي يتعرضون لها.

إن الأُمّتَينِ العربية والإسلامية مُطالَبَتانِ أَزيَد من أي وقت مضى باتخاذ مواقف عمليّة في سبيل وقف هذا العدوان المتواصل، وكسر الحصار الظالم المفروض على هذا الشعب الأبيّ"[١].

وهناك غير ذلك من مواقف سماحته ضد الاعتداءات على الشعوب الإسلامية أو التعرض لمقدساتها بسوء لا يسع المجال لذكرها هنا[٢].

❁ ❁ ❁

(١) النصوص الصادرة عن سماحة السيد السيستاني في المسألة العراقية. سابق: ٣٤٢-٣٤٣. وينظر: ٣٤١ و٣٤٢ و٣٣٩. ط٦.

(٢) ينظر: المصدر السابق نفسه.

تماثل موقف المرجعيتين الدينيتين في عدم المطالبة بتطبيق (الديمقراطية) أو (الدولة المدنية) في أي من البيانات والأدبيات الصادرة عنهما

في مطلبين:

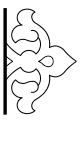

المطلب الأول: عدم المطالبة بتطبيق (الديمقراطية) في العراق في أي من بيانات وأدبيات المرجعيتين: مرجعية ثورة العشرين سابقاً، ومرجعية سماحة السيد السيستاني لاحقاً.

لقد تتبعتُ البيانات والرسائل والفتاوى الصادرة خلال ثورة العشرين من قبل كلّ من: المرجع الأعلى الشيخ محمّد تقي الشيرازي والمرجع الأعلى الخلف شيخ الشريعة الأصبهاني؛ فلم أجد في أي منها المطالبة بتطبيق (الديمقراطية) في العراق. بل لم ترد في كتاب (تنبيه الأمة وتنزيه الملّة)[1] أيضاً، ذلك الكتاب الذي تضمن نظرية اعتمدت ثورة العشرين تطبيقها نسبيّاً.

وكما لم ترد المطالبة بتطبيق (الديمقراطية) في أدبيات مرجعية ثورة العشرين، فهي كذلك لم ترد المطالبة بتطبيقها على لسان المرجعية العليا المعاصرة متمثلة بالمرجع الأعلى سماحة السيد السيستاني أيضاً؛ ذلك أنّي لم أعثر على ورود أي طلب بتطبيق (الديمقراطية) في العراق في بيانات سماحته (دام ظله)، ولا من بيانات ورسائل وإجابات مكتبه في النجف الأشرف، ولا في خطب الجمعة المعبّرة عن رأي سماحته والمُلقاة من على منبر صلاة الجمعة في الصحن الحسيني الشريف.

نعم، لا مانع من تطبيق آليات الديمقراطية كالانتخابات مثلاً.

***

(١) ينظر: تنبيه الأمة وتنزيه الملة. تقديم د. عبد الجبار الرفاعي لترجمة د. مشتاق الحلو: ٢٧.

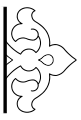

المطلب الثاني: تشابه موقف المرجعيتين الدينيتين: مرجعية ثورة العشرين ومرجعية سماحة السيد السيستاني بعدم الدعوة إلى إقامة (دولة مدنية) في العراق في أي من البيانات والأدبيات الصادرة عنهما.

لقد تتبعتُ البيانات والرسائل والفتاوى والخطب الصادرة من قبل مرجعية ثورة العشرين متمثلة بالمرجع الأعلى الشيخ محمّد تقي الشيرازي والمرجع الأعلى الخلف شيخ الشريعة الأصبهاني من جهة؛ والمرجعية العليا بعد سقوط النظام البائد في (٢٠٠٣م) متمثلة بسماحة السيد السيستاني من جهة ثانية؛ فلم أعثر في أي منها على المطالبة بإقامة (دولة مدنية) في العراق. لا في البيانات والرسائل والخطب والمضابط الصادرة عن مرجعي ثورة العشرين، ولا في البيانات الصادرة عن المرجع الأعلى سماحة السيد السيستاني، أو عن مكتبه في النجف الأشرف، أو في خطب الجمعة المكتوبة من قبل المرجعية العليا، والمُلقاة من على منبر صلاة الجمعة في الصحن الحسيني الشريف.

نعم، ورد ذكر (للدولة المدنية) من قبل الشيخ عبد المهدي الكربلائي في خطبته بتاريخ (١١/ ١/ ٢٠١٣م)، فسألتُ مكتب المرجعية العليا في النجف الأشرف عنها؛ فقالوا: إنّها إضافة من الشيخ الخطيب نفسه، لا من المكتب، كما أنّ الشيخ لم يقصد بها فصل الدين عن الدولة، بل قصد بها الدولة المبنيّة على الدستور والقانون في مقابل الدولة التي تتحكم بها إرادة شخص واحد أو أشخاص.

وحين جمعتُ خطب المرجعية العليا الملقاة في الصحن الحسيني الشريف المعبرة عن رؤى سماحة المرجع الأعلى السيد السيستاني في الشأن العراقي ابتداء من الخطبة التاريخية خطبة فتوى الدفاع الكفائي إلى خطبة النصر النهائي على الدواعش؛ وقررت أن أنشر هذه الخطب في كتاب نشرته لاحقاً

تحت عنوان (من الدفاع الكفائي إلى النصر النهائي)؛ عزمت على أن لا أنشرها إلّا بعد توثيق نصوص تلك الخطب من مكتب المرجعية العليا نفسها فوافق المكتب مشكوراً، وجاءتني الخطب مدققة موثقة منه ومنها الخطبة المعنيّة، حيث وردتني خالية من مصطلح (الدولة المدنية)؛ لأنه ليس من صميم الخطبة المرسلة من النجف الأشرف.

❁ ❁ ❁

الفصل السادس عشر

وقفة مع أسباب عدم التشابه الظاهري بين مواقف المرجعيتين الدينيتين زمن الاحتلالين البريطاني والأمريكي للعراق

يحاول هذا الفصل أن يجيب على السؤالين المهمين التاليين في مبحثين:

المبحث الأول

ما سرّ اختلاف موقف المرجعيتين الدينيتين
في مسألة إعلان الجهاد الدفاعي وعدمه خلال الاحتلالين:
البريطاني للعراق سنة (١٩٢٠م)، والأمريكي له سنة (٢٠٠٣م)؟

المبحث الثاني

ما سبب اختلاف موقف المرجعيتين الدينيتين
في مسألة الاشتراك في الانتخابات وعدمه خلال الاحتلالين:
البريطاني للعراق سنة (١٩٢٢م) وما بعدها، والأمريكي له سنة (٢٠٠٥م)؟

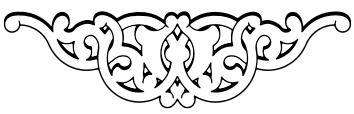

وسأتناولهما تباعاً مبتدئاً بالمبحث الأول منهما

المبحث الأول

ما سرّ اختلاف موقف المرجعيتين الدينيتين في مسألة إعلان الجهاد الدفاعي وعدمه خلال الاحتلالين: البريطاني للعراق سنة (١٩٢٠م)، والأمريكي له سنة (٢٠٠٣م)؟

لعل في مقدمة الأمور العالقة في أذهاب بعض الباحثين والمحلّلين والمؤرخين والعديد من غيرهم ما يلي:

في الوقت الذي أصدر فيه المرجع الأعلى في زمنه سماحة الشيخ محمد تقي الشيرازي فتواه بالجهاد الدفاعي ضد استمرار الاحتلال البريطاني للعراق سنة (١٣٣٨هـ/ ١٩٢٠م)؛ لم يصدر المرجع الأعلى في زمننا الحالي سماحة السيد علي الحسيني السيستاني فتوى بالجهاد الدفاعي ضد احتلال القوات الأجنبية متعددة الجنسيات بقيادة الولايات المتحدة والدول المتحالفة معها للعراق سنة (١٤٢٤هـ/ ٢٠٠٣م)، رغم أنها هي نفسها أطلقت على اجتياحها للعراق صفة الاحتلال رسميّاً.

ولعل منشأ هذا الالتباس العالق في أذهان البعض هو عدم تفريقهم بين ظرفي الاحتلالين، وظرفي المواطنين في كل منهما؛ معتقدين توهُّماً أو خطأً أنّ ظرفي الاحتلال البريطاني للعراق سنة (١٤٣٨هـ/ ١٩٢٠م) والاحتلال الأمريكي- البريطاني وحلفائهما للعراق سنة (١٤٢٤هـ/ ٢٠٠٣م، وما بعدها) من جهة؛ وظرفي المواطنين في كل منهما - ظرفٌ واحد، قائلين ما دام الاحتلال هو الاحتلال، فلماذا إذاً لم يتوحد أو يتماثل موقف المرجعيتين قبل قرن من الزمان وبعده في كليهما؟

وجواباً على ذلك أقول: إنّ التوهُّم والاعتقاد بأنّ ظرفي الاحتلالين السابق واللاحق وظرفي المواطنين في كليهما ظرف واحد - هو اعتقاد خاطئ، وقياس مع الفارق.

وأقول: اعتقاد خاطئ؛ لوضوح أنّ ظرف الاحتلال البريطاني للعراق سنة (١٩١٤-١٩٢٠م) وظرف المواطنين في وقته يختلف كُلّيّاً عن ظرف الاحتلال المتعدد الجنسيات وعلى رأسها أمريكا وبريطانيا للعراق سنة (١٤٢٤هـ/ ٢٠٠٣م). وظرف المواطنين خلاله.

ففي ظرف استمرار الاحتلال البريطاني للعراق سنة (١٣٣٨هـ/ ١٩٢٠م)، كان الشيعة العراقيون بقبائلهم ومجتهديهم ووطنييهم وخاصة في الفرات وغيره من المدن الثائرة مُعبَّئين تعبئة معنوية قَلّ نظيرُها ضد استمرار الاحتلال البريطاني لبلدهم، فوحدّوا قُواهم، ورصّوا صفوفهم، وأنهوا خلافاتهم الجانبية، وتعاقدوا على الثورة المسلحة، ونظموا قواتهم البشرية المقاتلة عدداً وعُدّة، وتعاهدوا على تمويل ما تتطلبه المعركة من كلف مادية وتسليحية -كما تقدم- في فصل سابق، ثم قصدوا مرجعهم الأعلى سماحة الشيخ الشيرازي في كربلاء (ليلة النصف من شهر شعبان ١٣٣٨هـ/ ليلة ٤ مايس ١٩٢٠م)، "وفي اجتماعهم هذا تعهدوا، وأظهروا ولاءهم لدينهم وبلدهم، واستعدادهم للمقابلة والدفاع، واستفتوه في إعلان الثورة، فتردد الميرزا عن الجواب. وقال لهم ما نصه: إنّ الحمل لَثقيل، وأخشى أن لا تكون للعشائر قابلية المحاربة مع الجيوش المحتلة، فطمّنه الزعماء بأن فيهم الكفاءة الكاملة، ثم عاد عليهم بقوله: أخشى أن يختلّ النظام ويفقد الأمن، وإنّ الأمن أهم من الثورة، وأوجب منها، فأجابوه: بأنّ لنا قابلية على حفظ الأمن، وأنّ الثورة لا بدّ منها، فشكرهم، وقال: (إذا كانت هذه نواياكم، وهذه تعهداتكم فالله عونكم)"[١].

وإذ تأكد سماحته من حضورهم الفعلي لتلبية كل مستلزمات ومقتضيات الجهاد الدفاعي؛ أفتى سماحته بقوله: "مطالبة الحقوق واجبة على العراقيين، ويجب عليهم في ضمن مطالباتهم رعاية السلم والأمن، ويجوز لهم التوسل بالقوة الدفاعية إذا امتنع الإنكليز عن قبول مطالبهم"[٢] -كما تقدم في فصول سابقة-.

(١) معارف الرجال. الشيخ محمّد حرز الدين: ٢/ ٢١٦.

(٢) المصدر السابق: ١/ ٣٦٢.

ومع كل هذا الحضور الفعلي للثورة المسلحة، فقد أوجبت المرجعية الدينية على الثوار في ثورة العشرين استنفاد كافة المساعي السلمية أول الأمر، مؤكدين عليه مرة تلو مرة، حتى إذا صدّهم الإنكليز عن ذلك بالقوة المسلحة والمداهمات والاعتقالات والنفي والتغريب وحرق المدن واستباحة المساجد وغيرها مما تقدم، وفشلت مساعيهم المتعددة -المتقدم ذكرها في فصول سابقة-، ويئسوا يأساً تامّاً من تنجيز مطلبهم بالاستقلال التام العاري من أي تدخل أجنبي، رغم الاحتجاجات، والمظاهرات الصاخبة، والاجتماعات، والندوات، والمجالس، والخطب، وكتابة الكتب، والمضابط، ومخاطبة الجهات الدولية للضغط على المحتل وأمثال ذلك من الوسائل المتاحة قبل اللجوء للثورة المسلحة كخيار أخير؛ عند ذاك استعانوا بـ"القوة الدفاعية" المسلحة حسب فتوى مرجعهم الأعلى.

ومن أجل أن أُلقي الضوء على أن المرجعية العليا في ثورة العشرين لم تصدر فتواها بالجهاد الدفاعي إلّا بعد استنفاد المساعي السلمية كافة -كما تقدم-؛ فسأستشهد أولاً بما تضمنته فتوى المرجع الأعلى نفسه من المطالبة السلمية بالحقوق وبالوسائل كافة، ثم أُثَنّي بعد ذلك بإيراد نص رسالة بعثها المرجع شيخ الشريعة الأصبهاني إلى آرنولد ولسون نائب الحاكم المدني البريطاني العام في العراق قبل نشوب الثورة المسلحة بأيام:

أما ما تضمنه فتوى المرجع الأعلى فهو جليّ واضح ومشهور.

وأما حديث سماحته للمجتمعين في داره من زعماء الثورة وقادتها (ليلة النصف من شعبان ١٣٣٨هـ/ ليلة ٤ مايس ١٩٢٠) فهي قد تكون غير مشهورة؛ فقد ورد عن سماحته أنه كان "يحرّضهم على التمسك بقواعد الدين الأساسية والحرص على السنن التي اتبعها أئمّتُنا الهُداة... وعدم فسح المجال للعابثين باغتنام الفرصة لتعكير صفو الأمن وإرهاب الطبقة الوادعة، وحثهم على مطالبة المحتلين مطالبة سلمية نقيّة لا تشوبها شائبة، ولا توصمها وصمة، فيظهروا للأمم العالمية أحقيتهم في موقفهم الشريف، وجدارة مطالبتهم، دون أن يجعلوا للمحتلين وسيلة يستندون

عليها عن هذا الحق الواضع، وفي هذه الحالة تُلقى التبعة على عواتق المسببين فيستحقوا لعنات الأجيال القادمة"[١].

وأما ما ورد في الرسالة التي بعثها المرجع شيخ الشريعة الأصبهاني إلى السير آرنولد ولسون نائب الحاكم المدني البريطاني العام في العراق قبل نشوب الثورة المسلحة بأيام؛ فقد جاء فيها قول سماحته: "أبدي لكم أنكم قد عرفتم وجربتم في هذه المدة الطويلة التي حدثت فيها هذه المظاهرات والاجتماعات أنّ أهل العراق سالكون سبيل السلم والهدوء والسكون، ويطالبون بما يريدون في حقوقهم حسب مواعيدكم من أول الأمر، وبموجب ما تقرر لدى الدول المعظمة من حرية الشعوب، وكان طلبهم على وجه المعقول المشروع خالياً من القلق والمشاغبات، خالصاً من إثارة أي فتنة أو فساد... مؤكّداً كل ذلك بما برز قولاً وكتباً كراراً ومراراً من آية الله الشيرازي دامت بركاته، ومن بقية العلماء الأعلام من إيجاب السكون العام عليهم، وإلزامهم بترك كل ما فيه الإخلال بالأمن، لهذا أفتينا بوجوب السكون وحرمة الثورة والفساد، وقد برهنوا في حركاتهم ومظاهراتهم المتواصلة على تمسكهم بالنظام والقانون والانقياد لفتاوى العلماء"[٢].

وإذ لم يستجب المحتلون الإنكليز لمساعي المرجعية الدينية المتعددة ووصاياها المتكررة لزعماء الثورة بالسعي لتنجيز الحقوق بالطرق السلمية، وأصروا على استعمال القوة المفرطة ضد الوطنيين المسالمين -كما تقدم-؛ عند ذاك وليس قبله اضطر المراجع الدينيون إلى الإذن لزعماء الثورة والوطنيين والمواطنين باستعمال القوة المسلحة.

وباختصار: لم تصدر الفتوى بالجهاد الدفاعي ضد الاحتلال البريطاني للعراق في القرن الماضي إلّا بعد استنفاد كافة المساعي السلمية المتاحة والممكنة، حتى إذا فشلت جميعها بتحقيق الاستقلال التام ووصل العراقيون إلى حد اليأس من تحقيق

(١) كربلاء في التاريخ. سابق: ٣/ ١٠٢.

(٢) وثائق الثورة العراقية الكبرى. سابق: ٣/ ١٧٣.

مطالبهم المشروعة بالطرق السلمية خصوصاً بعد إعلان الانتداب البريطاني على العراق، إضافة إلى استكمال أدوات التعبئة المعنوية والبشرية والمادية الكافية للثورة؛ أُعلنت الثورة الحمراء.

وفي المقابل حيث لم تستنفد كافة المساعي لتحقيق الحقوق المشروعة للشعب العراقي بالطرق السلمية سنة (١٤٢٤هـ/ ٢٠٠٣م) كي يصل الدور إلى الثورة الحمراء؛ لذلك لم تصدر المرجعية العليا فتواها بالجهاد الدفاعي.

وعلى فرض استنفاد المساعي السلمية كافة، فهل تهيأت التعبئة المعنوية والبشرية والمادية الكافية للقيام بالثورة المسلحة فيما لو صدرت الفتوى بها؟

أشك في ذلك، بل أكاد أطمئنّ بعدمه، أنا والغالبية العظمى ممّن عاش ذلك الظرف العصيب، حيث إنّ احتمال الفوز وتحقيق النصر بالثورة المسلحة الحمراء في ظرف احتلال الجيوش الغازية للعراق بقيادة الولايات المتحدة الأمريكية في (١٤٢٤هـ/ ٢٠٠٣م) كان ضعيفاً إلى حدّ كبير، بل شبه معدوم؛ بسبب تباين قوة الطرفين، فالمحتل ومن معه من القوات الحليفة كان يتقدمها ويقودها جيش أقوى دولة في العالم يقدر تعداده بمائة وخمسين ألف مقاتل، مجهّز بأحدث الأسلحة المتطورة بما في ذلك طائرات قاصفة مقاتلة حديثة التصنيع والتجهيز، وصواريخ موجهة عابرة للقارات والدول، وطائرات سمتية مقاتلة، ودبابات ومصفحات، وراجمات صواريخ، ودروع، وآليات عسكرية ثقيلة، وأمثالها من الأسلحة والأعتدة ممّا لم يعرفها العراقيون من قبل.

إنّ جيشاً محتلّاً بهذه العدّة والعتاد، مدعوم بأحدث أجهزة المخابرات والاستخبارات وشبكات الاتصال والتوجيه والسيطرة والقيادة المتقدمة، تسانده وتؤازره وتشاركه وتمكّنه من أراضيها وأجوائها ومياهها الإقليمية الغالبية العظمى من دول المنطقة، مصحوب بدعم دولي وعربي سياسي وعسكري وإعلامي كبير، مع تأييد أُممي، مطلوب أن يقابله -في حالة صدور الفتوى بالجهاد الدفاعي سنة ٢٠٠٣م- شعب جائع، ظامئ، فقير، يعيش في ظل حصار دولي قاسٍ، ويرزح تحت قيادة حاكم

دكتاتوري دموي مجرم متسلط، ارتكب ويرتكب من المجازر الدموية بحق مواطنيه وخاصة الشيعة والكرد منهم ما لا يصدقها لفظاعتها إلّا من ابتُلي بها، وتجرّع مراراتها، واكتوى بنارها، وتلظى بويلاتها، شعب مضطهد، معذّب، مرعوب، خائف، يائس من الحاضر والمستقبل، يفتقر إلى أدنى غذاء مقوّم للحياة، وإلى علبة دواء لأبسط حالات مرضاه، وإلى لباس غير مستهلك يقيه قسوة البرد حتى في حدوده الدنيا، يطلب منه -لو صدرت الفتوى- خوض معركة كبرى بسلاحه التقليدي البسيط، وكثير منهم لا يمتلكه، وبصدر عارٍ ضد أقوى جيوش العالم في حرب لا طائل يُرتجى منها، ولا احتمال معقول متوقع بكسبها، حينها ستكون نتيجتها بموجب المنطق والحسابات العسكرية لموازين القوى: خسارة الآلاف بالحد الأدنى من الشهداء المؤمنين الصادقين، وعشرات الآلاف من الجرحى والمعوقين، مخلّفين وراءهم جيوشاً جرّارة من الأيتام والأرامل والثكالى والأيامى يقاسون عيشاً نكداً ببُنى تحتية متهالكة، وسط ما تبقّى من مدن مخرّبة، سبق أن عاث بها النظام البائد بعد أن استباحها في الانتفاضة الشعبانية، مخلّفاً وراء جيشه الوحشي الدموي التدمير والتهديم والإبادة والهلاك والمعاناة والألم، في ظل تهميش وإقصاء وعزل وطائفية ومناطقية ضد الشيعة خاصة، وغير ذلك من المآسي والويلات كثير لا يسع المجال لذكره.

وعلى الرغم من وضوح ذلك كله لدى معاصري تلك الحقبة ومعايشيها والشاهدين عليها من الباحثين والمحللين والمؤرخين بل المواطنين، عامة المواطنين، وأنا منهم؛ ارتأيت أن أتوجه بالسؤال التالي إلى مقرّب جدّاً من المرجعية الدينية العليا، وثيق الصلة بها، مُطلّع على تفاصيل مواقفها، دقيق في إجاباته عنها -وأنا أعرف الناس بمن أسأل ولمن- وفيما يلي سؤالي وجوابه عنه:

السؤال: يبحث البعض عن السبب وراء عدم صدور فتوى المرجعية العليا بالجهاد الدفاعي من خلال المقاومة المسلحة للقوات الأمريكية وحلفائها ضد غزوها للعراق عام (١٤٢٤هـ/ ٢٠٠٣م) على غرار فتواها بالجهاد الدفاعي ضد استمرار الاحتلال البريطاني للعراق عام (١٩٢٠م).

فهل السبب يرجع إلى أنّ المرجعية الدينية العليا لم تكن تذهب إلى أن القوات الأمريكية الغازية للعراق هي قوات احتلال، بل هي جاءت لتحرير الشعب العراقي من النظام السابق الدكتاتوري المجرم -كما صرح به غير واحد من القادة السياسيين- أو السبب غير ذلك؟ يرجى التوضيح، وشكراً.

الجواب:

أ. "بادي بدء: ينبغي أن يُعلم أنّ المرجعية صرّحت مراراً أنها لا تعدّ القوات الغازية إلّا قوات احتلال، وهذا مثبّت في البيانات والتصريحات التي صدرت منها منذ الأيام الأولى لحصول الغزو (يلاحظ النصوص الصادرة عن سماحة السيد السيستاني في المسألة العراقية ص (٢١٧-٢٢٥)، ومن ذلك أنها سُئلت (ما تعريفكم لقوات الاحتلال المتواجدة على أرض العراق؟) فأجابت: (إنها قوات احتلال كما أقرّ بذلك مجلس الأمن). وأجابت عن سؤال آخر بقولها: (لم يكن المنشود تغيير النظام الاستبدادي عن طريق الغزو والاحتلال بما استتبع ذلك من مآسٍ كثيرة)".

"ولم يكن رفض المرجعية الدينية اللقاء بأي من المسؤولين في سلطة التحالف[1] إلّا تعبيراً واضحاً عن رفضها إضفاء المشروعية على وجودهم في العراق بأي وجه من الوجوه".

"وأما الأسباب التي دعت المرجعية إلى عدم إصدار فتوى شرعية بالمقاومة المسلحة للمحتلين؛ فمن أهمّها: كان الشعب العراقي يعيش في ظل نظام قمعي استبدادي تسبب في كوارث معروفة -ومنها حرب الخليج الأولى والثانية وما أعقب الأخيرة من حصار اقتصادي ظالم- ولم يكن هناك أي أفق واضح للتخلص من ذلك النظام عبر الطرق السلمية".

---

(١) حدثني المرجع الأعلى سماحة السيد السيستاني (دام ظله) ذات مرة، حين كنت بخدمته، كيف أنه أُخبر من قبل أحد أفراد مكتبه أوائل زمن احتلال العراق سنة (١٤٢٤هـ/ ٢٠٠٣م)، بأنّ طارقاً من قوات الاحتلال على الباب -ولا أنسى أنه قال: كان ذلك في يوم جمعة- يطلب الإذن بالدخول، لزيارته، فرفض (دام ظله) ذلك بشدة، فعاد الطارق يطلب الإذن بدخول مكتبه، فقط، هذه المرة، فرفض المرجع الأعلى ذلك بشدة أيضاً.

"وكان معظم المواطنين الشيعة في الوسط والجنوب يرون في الغزو الأمريكي فرصة للتخلص منه، ولم يكونوا على استعداد للخوض في معارك مسلحة لإخراج القوات المحتلة، ولا سيّما أنهم كانوا قد قضوا سنوات طوالاً بالانخراط في الحرب والقتال وذهب مئات الآلاف منهم ضحايا نزوات النظام السابق، فكانوا قد ملّوا الحرب، ويرغبون في السلم مهما أمكن".

"هذا بالنسبة إلى عامة الناس، وأما قيادات المعارضة العراقية فمن المعروف انخراط معظمهم في العملية السياسية، ورفضهم الأعمال القتالية بمطلق صورها. ولذلك لم تكن هناك أرضية مناسبة للاستجابة لأي فتوى بالجهاد، بل لم تكن تؤدي على تقدير صدورها إلّا إلى مزيد من التشرذم والانقسام وإراقة الدماء من دون فائدة تُذكر، بل ربما أتت بنتائج معكوسة وأعقبت من الفوضى وانعدام الأمن ما كان يبرر للقوات المحتلة استمرار وجودها في العراق لمزيد من الوقت".

"علماً بأن المرجعية لم يصدر منها أي موقف سلبي تجاه من اختاروا طريقة المقاومة المسلحة، كما أنّها لم توجّه أبداً بالتعاون مع القوات المحتلة".

"ومن المؤسف ما صرح به المرحوم السيد عبد المجيد الخوئي -وكان قد قدم إلى النجف الأشرف في الأيام الأولى للاحتلال- في مقابلة له مع بعض الإذاعات الأجنبية، من أنّ سماحة السيد السيستاني دعا أتباعه إلى التعاون مع قوات التحالف، وقد استند إلى تصريحه هذا عدد من المسؤولين الأمريكان واعتمد عليه آخرون أيضاً، وهو لا أساس له بتاتاً، فقد زار مكتب سماحة السيّد بعد يوم من الإدلاء بهذا التصريح وعوتب عليه، حيث أنّ بعض مَن وثق به من النجفيين أخبره بذلك، وقد طُلب منه نفيه في مقابلة لاحقة، وفعل ذلك، ولكن بعض المسؤولين الأمريكيين وأطراف أخرى ظلوا متمسكين بالرواية الأولى".

ب. "قدّرت المرجعية الدينية العليا أنّ ظروف الاحتلال الأمريكي للعراق في أوائل القرن الواحد والعشرين تختلف إلى حدّ بعيد عن ظروف احتلال البريطانيين له في أوائل القرن العشرين حيث حتّمت على مراجع الدين آنذاك أن يصدروا فتوى

الجهاد، بل وينخرطوا فيه بأنفسهم، ووجه الاختلاف: أنه لم يكن في ذلك العصر سبيل لإنهاء الاحتلال البريطاني إلّا المقاومة المسلحة، وأما في هذا العصر وبالنظر إلى أن الولايات المتحدة تقول إنها من دعاة الديمقراطية ومنح الشعوب حقّها في تقرير مصيرها؛ فبالإمكان إلزامها بما ألزمت به نفسها، وذلك بالمطالبة بإجراء الانتخابات الحرة النزيهة بإشراف أُممي، وكتابة دستور العراق بأيدي الممثلين المنتخبين للشعب العراقي، وتشكيل الحكومة العراقية المنبعثة عن مجلس النواب المنتخب، وعندئذ يمكن للحكومة ومجلس النواب إلزام القوات الأمريكية بترك البلد واستعادة السيادة عليه من دون صعوبة تُذكر، وهذا ما سلكته المرجعية الدينية ونجحت في ذلك، لولا أخطاء الطبقة السياسية التي أدّت إلى عودة القوات الأجنبية إلى العراق تحت ذرائع أخرى".

"وبالجملة: إنّ رؤية المرجعية الدينية في كيفية التخلص من قوات الاحتلال قامت على سلوك الطريق الأسلم والأسهل، وهو إلزام سلطة الاحتلال بالقبول بإجراء الانتخابات العامة، ثم إلزامها عبر مجلس النواب المنتخب والحكومة المنبعثة منه بمغادرة القوات المحتلة للبلد ليستعيد سيادته الكاملة، ولو أخذت القوى السياسية بنصائح المرجعية في إدارة الحكم بصورة صحيحة لَما آلت الأمور إلى استدعاء الحكومة للقوات الأجنبية والاستعانة بها بذريعة محاربة داعش"[1].

إنّ موقف المرجعية العليا من الاحتلال الأمريكي للعراق في (١٤٢٤هـ/ ٢٠٠٣م) تمظهر بالسعي الحثيث لتحقيق مطالب الشعب العراقي بالطرق السلمية، بل ورد النص الصريح به في جواب مكتب المرجعية الدينية العليا في النجف الأشرف الذي جاء فيه:

"كان الشعب العراقي يعيش في ظل نظام استبدادي تسبّب في كوارث معروفة للعراق وللمنطقة برُمّتها، ولم يكن هناك أي أفق أوضح للتخلص منه عبر الطرق السلمية، ولكن بالرغم من ذلك فإن المرجعية الدينية العليا لم تكن مع تغيير ذلك

(١) نص رسالة جوابية خاصة تسلمتها ممّن تقدم ذكره ووصفه أعلاه.

النظام عن طريق الغزو والاحتلال بما استتبع ذلك من مآسٍ كثيرة لم يتخلص منها البلد إلى اليوم. ومن هنا فإن المرجعية اتخذت من اليوم الأول قراراً قاطعاً بعدم استقبال أي من المسؤولين في سلطة الاحتلال، تعبيراً عن عدم الإقرار بمشروعية الاحتلال"[١].

وكذلك في ردّها بتاريخ (٢٨ جمادى الأولى ١٤٢٤هـ/ ٢٨ تموز ٢٠٠٣م) على سؤال صحيفة نيويورك تايمز، فجاء في جواب سؤالها ما يلي: "إنّ المرجعية الدينية تدعو إلى اتباع الأساليب السلمية باتجاه الإسراع في إعادة السيادة على العراق إلى العراقيين وتمكينهم من حكم بلدهم من دون أي تدخل أجنبي"[٢]، وهو الموقف نفسه الذي اتخذته المرجعية الدينية العليا في ثورة العشرين (١٩٢٠م) زمن الاحتلال البريطاني بقولها: "مطالبة الحقوق واجبة على العراقيين، ويجب عليهم في ضمن مطالباتهم رعاية السلم والأمن، ويجوز لهم التوسل بالقوة الدفاعية إذا امتنع الإنكليز عن قبول مطالبهم"[٣].

وإذ انسدت الأبواب بوجه المطالب المشروعة بالطرق السلمية خلال سنوات الاحتلال البريطاني للعراق سنة (١٣٣٨هـ/ ١٩٢٠م) -كما تقدم بالتفصيل-، مع وجود الخزان البشري والمادي والمعنويات العالية المتأهبة للثورة المسلحة والمتعهدة بتعهدات ملزمة أمام المرجعية العليا؛ عند ذلك حان وقت ثورة العشرين المسلحة، خلافاً لِما حصل بعد الاحتلال الأمريكي للعراق في سنة (١٤٢٤هـ/ ٢٠٠٣م) حيث لم تصل النوبة لعدم تتحقق الظروف المناسبة إلى قدح زناد الثورة المسلحة.

أنتهي من ذلك إلى أنّ موقفي المرجعيتين واحد، إلّا أنّ الظرفين مختلفان.

---

(١) النصوص الصادرة عن سماحة السيد السيستاني في المسألة العراقية. سابق. وثيقة رقم١١٣ ص٥٣١. وكذلك: ص٢٤٦. ط٦.

(٢) المصدر السابق. وثيقة رقم٢٣ ص٤٥ و٣٣٧.

(٣) معارف الرجال. سابق: ١/ ٣٦٢.

وفي المحصّلة: دعوني أفترض بعد تتبعي للظرفين، وموقف المرجعين قبل قرن وبعده فيهما، فأقول: لو افترضنا جدلاً بأنّ مراجع الدين المعاصرين للاحتلال الأمريكي البريطاني للعراق سنة (١٤٢٤هـ/ ٢٠٠٣م) عاشوا حقبة الاحتلال البريطاني للعراق وظرفه حينذاك سنة (١٣٣٨هـ/ ١٩٢٠م) وظرف المواطنين ذلك الوقت، لَأفتوا بالجهاد الدفاعي ضد الاحتلال البريطاني، ولو أنّ مراجع الدين خلال حقبة الاحتلال البريطاني للعراق سنة (١٣٣٨هـ/ ١٩٢٠م) عاشوا زمن الاحتلال الأمريكي والدول المتحالفة معه للعراق سنة (١٤٢٤هـ/ ٢٠٠٣م) لَما أفتوا بالجهاد الدفاعي ضد الاحتلال الأمريكي-البريطاني للعراق.

❁ ❁ ❁

المبحث الثاني

ما سبب اختلاف موقف المرجعيتين الدينيتين في مسألة الاشتراك في الانتخابات وعدمه خلال الاحتلالين: البريطاني للعراق سنة (١٩٢٢م) وما بعدها، والأمريكي له سنة (٢٠٠٥م)؟

تقدم فيما سبق أن المرجعية الدينية العليا حرّمت اشتراك المواطنين في الانتخابات التي جرت في الربع الأول من القرن الماضي والعراق محتل من البريطانيين، في حين دعت المرجعية الدينية العليا المعاصرة متمثلة بسماحة المرجع الأعلى السيد السيستاني المواطنين إلى الاشتراك في الانتخابات التي جرت في العقد الأول من القرن الحالي والعراق محتل من الأمريكيين. ما يعني وجود تباين واضح بين موقف المرجعية قبل قرن، وموقفها بعد قرن، وهو مخالف لِما تقدم ذكره من وحدة موقف المرجعيتين الدينيتين قبل قرن وبعده من الاحتلال الأجنبي للعراق.

اللهم إلّا إذا قلنا بوجود نوعين من الاحتلال، أو أنّ بريطانيا المحتلة للعراق تختلف عن أمريكا المحتلة له، وأمثال ذلك من التبريرات.

وفي معرض الجواب عن السؤال المتقدم أقول: كلّا، فالاحتلال هو الاحتلال، وبريطانيا المحتلة للعراق لا تختلف عن أمريكا المحتلة له، ذلك أنّ كِلا الدولتين اجتاحت جيوشها الأراضي العراقية عنوة وبالقوة المسلحة واحتلته، فليس بين الاحتلالين البريطاني والأمريكي للعراق فرق من هذه الجهة.

نعم، قد يبدو ذلك الاختلاف في موقف المرجعيتين -بين مُفتِيَة بالجهاد ضد المحتلين الإنكليز، وبين غير مُفتِيَة به ضد المحتلين الأمريكان- للناظر ابتداءً ولأول وهلة ومن دون التمعّن في الظروف والأحوال. أما بعد الإلمام بتفاصيل ما جرى سابقاً ولاحقاً ودراستها والتمعّن فيها وتحليلها؛ فسينتهي عادة إلى أنّ الاختلاف بين موقفي المرجعيتين الدينيتين هو اختلاف ظاهري صوري لا أكثر، وهو ما يستدعي وقفة لاستيضاح الحقيقة وإزالة اللبس وتجلية الأمر.

ففي سنة (١٣٤٠هـ/ ١٩٢٢م، وما بعدها) حرّمَ المراجعُ -وعلى رأسهم كلّ من أصحاب السماحة: السيد أبو الحسن الأصفهاني والشيخ محمّد حسين النائيني والشيخ محمّد مهدي الخالصي ومعهم الكثير من المجتهدين وكبار العلماء- الاشتراكَ في انتخابات المجلس التأسيسي الذي أناط به المتسلط الأجنبي البريطاني المحتل ثلاث قضايا رئيسية هي: كتابة الدستور العراقي، والمصادقة على المعاهدة العراقية/ البريطانية الظالمة المُذِلّة، ووضع نظام لانتخاب المجلس النيابي الذي سيُشكّل لاحقاً للمصادقة على المعاهدة.

وجاء هذا التحريم الشرعي من المراجع بعد أن رفضت بريطانيا وملك العراق المنصّب من قبلها وحكومته شروطاً وضعها المراجع تحفظ الحقوق الطبيعية للمواطنين العراقيين، وفي مقدمتها رفض الانتداب البريطاني للعراق المغطّى بغطاء معاهدة عراقية-بريطانية صُمّمت لتحقيق صالح المحتل ضد مصالح العراقيين بعد أن سُمّيت بمعاهدة لإيهام الناس بأن ما تضمنته المعاهدة غير ما تضمنه الانتداب، بعد أن باتت كلمة الانتداب مثل الاستعمار كريهة ممجوجة مذمومة لدى العراقيين -كما سيأتي-.

لقد وضع المراجع شروطاً -كي لا يحولوا بين المواطنين ومشاركتهم في الانتخابات- تضمن تحصيل حقوق العراقيين المشروعة في تقرير مصيرهم بأنفسهم وإلغاء الانتداب البريطاني ووصاية بريطانيا على العراق وشعبه، ثم أكد المراجع و"أصروا على تلك الشروط"[١].

وإذ رفض المحتلون البريطانيون والملك المنصّب من قبلهم وحكومته تلك الشروط؛ تيقّن المراجع حينها بأن الانتخابات تحت ظل الانتداب البريطاني المتسلّط ستؤدي لا محالة إلى تدخل المحتلين تدخّلاً سافراً في الانتخابات، سواء تمثل هذا التدخل في تزييف عملية الانتخاب أم في اختيار أعضاء المجلس التأسيسي من الموالين

(١) المرجعية الدينية وقضايا أخرى. في حوار صريح مع المرجع الكبير السيد محمّد سعيد الحكيم. الحلقة الثانية: ١٩٤.

لهم والدفع بفوزهم بشتى الطرق، أم في الطلب منهم تشريع ما يشاء المحتل ونظامه بعد فوزهم، وفي المقدمة من ذلك التصديق على المعاهدة العراقية-البريطانية المذلّة. وهو استشراف مستقبلي من المراجع لِما سيحصل قبل أن توضّح الوقائع صدق استشرافهم له لاحقاً.

لقد أدى موقف المرجعية الدينية المبدئي الصلب بتحريم الاشتراك في الانتخابات لغرض منع التصديق على المعاهدة ليس إلى الحيلولة بين المحتلين الأجانب ومطامعهم في العراق فحسب، بل إلى تعرية استقلالية ووطنية الملك فيصل المزعومة بعد موافقته المسبقة على المعاهدة المذلّة ضد مصالح العراق وشعبه، ما أدّى ذلك التحريم إلى استجابة المواطنين لفتاوى مراجعهم بعدم اشتراكهم في الانتخابات، فإفشال الانتخابات، فاستقالة الحكومة -كما سيأتي لاحقاً-.

وإذ أكد المراجع الدينيون مجدّداً موقفهم بتحريم الاشتراك في الانتخابات التي تم تحديد موعد جديد لإجرائها ثانية من قبل الحكومة الجديدة ولذات السبب الأول؛ قرر المحتلون ومَلِكُهم وحكومته تسفير المراجع إلى خارج العراق ليخلو للمستعمرين وأذنابهم الجو فيشرّعون ما يشاؤون ضد مصالح شعبهم ووطنهم، وفي مقدمة ذلك المصادقة على المعاهدة العراقية-البريطانية المذلّة.

أما كيف حصل نصاب انعقاد مجلس النواب بعد عدة مساعٍ فشلت في تحقيق انعقاد المجلس للمصادقة على المعاهدة وأمثالها بسبب موقف المرجعية الدينية والوطنيين الرافض لانعقاده؟ وكيف تم جمع العدد الكافي من النواب ليلاً لعقد تلك الجلسة المشروط انعقادها بالتصديق على المعاهدة دون تغيير أو تبديل وإلّا...؟

فذلك ما أثبته المؤرخون بقولهم: "أرسل المعتمد البريطاني إلى الحكومة العراقية بلاغاً كان أشبه بالإنذار يطلب فيه إقرار المعاهدة بلا تغيير، وإلّا فستضطر عصبة الأمم لتتخذ ما تراه مناسباً من التدابير"[1].

(١) العراق الحديث. سابق: ٥٣.

أما ما حدث بعد ذلك من تطورات في آخر يوم حدّده المعتمد السامي البريطاني للتصديق على المعاهدة فيستعرضها المؤرخ أمين الريحاني صديق الملك فيصل الأول بقوله: "إنّ المجلس كان قد ارفضّ لأجل غير مسمى، فصدر الأمر باجتماعه ثانياً، فأطاع ثلثان أو أقلّ من أعضائه، وعندما جاء اليوم العاشر من حزيران، وأدبر نهاره، وأقبل ليله، لم يكن فيه العدد الكافي للنصاب القانوني. فبادر بعض رجال الحكومة والبلاط لكشف المحنة، وراحوا يفتشون في بغداد عن الأعضاء المتلكئين والمختبئين، فاهتدوا إليهم وتوسلوا، حاسنوهم بالكلام، وجاملوهم، ووعدوهم، وأوعدوهم، وظفروا بعد ذلك بهم، فجاؤوا المجلس، وكمل النصاب في الساعة الأخيرة قبيل نصف الليل.

كانت تلك الليلة من ليالي فيصل المدلهمّة، ولكنه في الساعة الثانية عشرة منها تنفس الصعداء، إذ جاءه الخبر أن المجلس أقرّ المعاهدة... وقد اجتازها على ما كان من مناصبة الشيعة ومقاومتها"[١] لتلك المعاهدة المذلّة.

وإذا كان الريحاني لم يفصّل كيفية جمع النواب تلك الليلة لتحقيق النصاب القانوني لانعقاد الجلسة، ولم يتطرق إلى ذكر الآلية التي تم بها جمع النواب وجلبهم إلى قاعة الاجتماع؛ فإني أقتبس من رسالة المس بيل لِما رواه الحاج ناجي -نائب بغداد- لها عن الكيفية التي أُخذ بها عنوة إلى جلسة المجلس. علماً بأنّ الحاج ناجي معروف بصداقته للمستشارة البريطانية المس بيل، وقربه منها.

لقد كتبت المس بيل في إحدى رسائلها تقول: "وصف لي ناجي، والخوف يغشاه، كيف سحبته الشرطة من فراشه، وزجّ به في السيارة، وهو لا يعلم إذا كان سيؤخذ إلى المشنقة أو إلى أي مكان"[٢].

هذا ما كان من أمر كيفية تحصيل نصاب عقد الجلسة المخصصة

(١) فيصل الأول. سابق: ١٠٦-١٠٧.

(٢) العراق. شهادة سياسية. ١٩٠٨-١٩٣٠. سابق: ١٢٢ نقلاً عن كتاب بورغوين. من رسالة بعثها المس بيل في ٢ تموز ١٩٢٤م: ٣٤٨. وفي الترجمة العربية لجعفر الخياط في الصفحة: ٦٢١-٦٢٢.

للتصديق على المعاهدة العراقية-البريطانية.

أما وصف حال النواب المصوتين على المعاهدة بالإيجاب، فنقتبس كذلك من إحدى رسائل المس بيل ما وثّقته ووصفته من حالهم تجاه غضب شعبهم عليهم بقولها: "صرّح جميع الأعضاء المساكين -الذين صوتوا لصالح المعاهدة- بأنّهم لا يجرؤون على الذهاب، إنّهم سيُقتلون. ولذلك ترتّب أن يصحب كلّاً منهم رجل أو رجلان من الشرطة"[١]؛ ليوصلوهم إلى بيوتهم سالمين، وليسهروا على حمايتهم حتى الصباح.

إنّ ظرف التصديق على المعاهدة وما جرى فيه هو ما دعا الضابط البريطاني والمؤلف ستيفن همسلي لونكريك لأن يصف طريقة المصادقة على المعاهدة العراقية-البريطانية لسنة (١٩٢٢م) بـ"الطريقة الشاذّة بشكل مؤسف"[٢].

أما ماذا نصّت عليه تلك المعاهدة المذلّة التي أصرّ المراجع الدينيون على رفضها لكونها نسخة ثانية عن الانتداب البريطاني المرفوض جملة وتفصيلاً من قبل العراقيين؛ فأنقل للتوضيح ولتجلية الصورة أمام القراء الكرام نصّ ما ورد في المسودة الأصلية المُحالة إلى مجلس الوزراء البريطاني بتاريخ (٣٠ ذي القعدة ١٣٣٨هـ/ ١٥ آب ١٩٢٠م) المتضمنة تعيين سير بيرسي كوكس مندوباً سامياً للعراق، والنص كما يلي: "قررت حكومة جلالته تعيينك مندوباً سامياً للعراق... أنت تعرف أن برقية وصلت من وكيل الحاكم المدني في العراق يقترح ويؤيد الحاكم العام ذلك تأييداً قويّاً أن يمنح الشريف فيصل إمارة العراق... بشرط... أن يكون الشريف فيصل مستعدّاً من حيث المبدأ بقبول بريطانيا دولة منتدبة، ويوافق على تشكيل انتداب على وفق الخطوط المرسومة توّاً بعصبة الأمم... ومن المحتمل أنّ الشريف فيصل (كذا)... أثناء قبوله من حيث المبدأ بالانتداب ببريطانيا الدولة المنتدبة، أن يلحّ على التعبير عن شروط الانتداب

(١) العراق في رسائل المس بيل. سابق: ٦١٧-٦١٨.

(٢) العراق الحديث من سنة ١٩٠٠ إلى سنة ١٩٥٠. سابق: ١/ ٢٤٩.

في شكل معاهدة. وإذا كان الأمر كذلك فإن حكومة جلالته ستكون مستعدة لتنفيذ الاقتراح"[١].

كما أنّ النائب البريطاني ومندوب بريطانيا في عصبة الأمم (فيشر) قد أعلن صراحة في جنيف بتاريخ (١٧ تشرين الثاني ١٩٢١م/ ١٦ ربيع الأول ١٣٤٠هـ) بـ"أنّ المعاهدة كانت مجرد اسم آخر للانتداب"[٢].

وقد كان أشار إلى ذلك الباحث (د. متي عقراوي) بقوله: لقد "انتُقدت المعاهدة بكاملها انتقاداً مُرّاً بأنها: لا تختلف عن الانتداب، وإن شئت فقل عن الاستعمار - بشيء"[٣].

يذكر أن الوزير السابق في العهد الملكي حسين جميل شرح بتفصيل وافٍ الفرق بين المعاهدة والانتداب بقوله: "كانت المعاهدة صورة من صك الانتداب، أخذت أحكامها منه، وجاءت بعض موادها بالكلمات نفسها، وبعضها الآخر بمعناها وحكمها حتى أنّ بعض المؤلفين في تاريخ العراق السياسي المعاصر وضع جدولاً لموادّ المعاهدة ومقابلها في صك الانتداب[٤] "الذي تسترت عليه من دون إشارة مباشرة" إليه[٥] حسب ستيفن همسلي لونكريك.

كما أشار بعض أعضاء المجلس التأسيسي إلى هذه الناحية، مثل رؤوف الجادرجي الذي أكّد في خطابه في المجلس عند مناقشة المعاهدة بأنها أشد وطأة من

(١) العراق في سجلات الوثائق البريطانية ١٩١٤- ١٩٦٦. سابق. المجلد الثاني ١٩١٨-١٩٢١م: ٣٩٧.

(٢) ينظر رأي تشرشل القاضي بـ"أنّ الانتداب هو الدعوى القانونية الوحيدة لبريطانيا لتحظى بمكانة خاصة في العراق، ويجب أن تعكس المعاهدة هذه الحقيقة"، أما بالنسبة لفيصل فقد كان الانتداب "مجرد وصمة عار سيتم إزالتها في وقت قريب وكان دواء مرّاً لا بد من ابتلاعه بالنظر إلى أنّ بريطانيا مصممة على ضمان حقوقها في العراق بشكل قانوني" (المصدر نفسه: ٥٤٨ و٥٦٧ على التوالي).

(٣) العراق الحديث. د. متي عقراوي: ١/ ٥٢.

(٤) تنظر هذه المقارنة في كتاب فيليب آيرلند: العراق دراسة في التطور السياسي، ترجمة جعفر الخياط ص٢٦٨- ٢٦٩. وفي كتاب فاروق صالح العمر: المعاهدات العراقية البريطانية وأثرها على السياسة الداخلية ص٤٥. وفي كتاب: العراق الحديث. متي عقراوي: ١/ ٥٠. هامش رقم ١.

(٥) العراق الحديث من سنة ١٩٠٠ إلى سنة ١٩٥٠. سابق: ١/ ٢٢٩. و٢٣٤ على التوالي.

صك الانتداب، وإن أكثر موادها جاءت أثقل من مواد الانتداب. مستدلاً بمسألة الامتيازات الأجنبية التي تنص المادة الخامسة من صك الانتداب على إلغائها في حين أنّ المعاهدة أثبتتها.

ولا بد لي أن أُشير هنا إلى أنّ الوزير جعفر أبو التمن استقال من الوزارة في اليوم التالي لتصديقها.

أما الاتفاقيات الأربع التي هي جزء من المعاهدة فقد فرضت على العراق التزامات لصالح بريطانيا وأعطتها مكاسب أكثر ممّا لها في صك الانتداب[١].

فـ"(المادة ٤ من معاهدة ١٩٢٢) تلزم ملك العراق بقبول (مشورة) المندوب السامي البريطاني في كل الشؤون الهامة التي تؤثر على المصالح البريطانية والدولية.

(المادة ١) من اتفاقية الموظفين البريطانيين أجبرت العراق على تعيين موظفين بريطانيين في مناصب أساسية في جهاز الدولة. وبناء عليه فإن مناصب مستشاري وزارات: الداخلية والمالية والعدل والدفاع والأشغال والاتصالات؛ وكذلك مناصب المدير العام أو المفتش العام للري والأشغال والزراعة والطابو والمساحة والبريد والبرق والشرطة والصحة والتعليم والكمارك - كانت مخصصة لمسؤولين بريطانيين.

(المادة ٢ من الاتفاقية العسكرية) نصّت على استمرار وجود القوات البريطانية وسمحت لها بتجنيد قوات محلية.

وأخيراً فإنّ (المادة ٧ من الاتفاقية) نفسها اشترطت منح اعتبار كامل لرغبات المندوب السامي في الشؤون المتعلقة بعمليات وتوزيع الجيش العراقي، ومنحت القائد العام البريطاني في العراق حق تفتيش هذا الجيش متى رأى ذلك ضرورياً"[٢].

---

(١) العراق. شهادة سياسية. ١٩٠٨-١٩٣٠. سابق: ٩٣-٩٤.

(٢) العراق. الكتاب الأول الطبقات الاجتماعية والحركات الثورية من العهد العثماني حتى قيام الجمهوري. سابق: ١١٦ هامش ١٢٦. ينظر: نصوص المعاهدات والاتفاقيات في تاريخ الوزارات: عبد الرزاق الحسني: ١/ ٩٤-٩٨ و٢٢٣- ٢٥٨، و٢/ ٣٧-٣٩.

وباختصار، فإننا لو نظرنا إلى مواد المعاهدة العراقية-البريطانية من أجل أن نحلّلها كما يقول أمين الريحاني: "ندرك مقدار ما تضمنته من المصالح المشتركة والحقوق المتبادلة، رأينا أنّ أربعاً منها (١ و٥ و٦ و٧) مع العراق، وتسعاً (٢ و٣ و٤ و٩ و١٠ و١١ و١٢ و١٣ و١٤) هي عليه. أضف إلى هذه المواد التسع الاتفاقيات الثلاثة الملحقة بالمعاهدة، أي التي تتعلق بالجندية والمالية والقضاء، تر العجب في المساواة"[١].

لِما تقدم وأمثاله يتضح سبب تحريم المرجعية العليا الاشتراك في الانتخابات لأن المعاهدة المنوي التصديق عليها "لم تموّه إلّا قليلاً وضع العراق شبه المستعمر"[٢] والتي أعادت "إنتاج الأوجه الوصائية للانتداب بشكل جديد... -ولأنها- لا تضع العراق بحالة تبعية اقتصادية لبريطانيا فحسب، بل تساعد على إعاقة تطوره"[٣] كما تمت الإشارة إلى ذلك سابقاً.

وبنتيجة التحريم الشرعي من المراجع استقالت حكومة عبد الرحمن النقيب في (تشرين الثاني ١٩٢٢م/ صفر ١٣٤١هـ) بعد أن قاطعها المواطنون في العراق وخاصة "في الفرات الأوسط، حيث توقفت عملية الانتخاب هناك بعد أن كانت صدرت إرادة ملكية بإجرائها في (الحادي والعشرين من شهر تشرين الأول"[٤] ١٩٢٢م، الموافق لليوم التاسع والعشرين من شهر صفر من عام ١٣٤١ هجرية).

بعد ذلك قررت حكومة السعدون في (أواخر سنة ١٣٤١هـ/ أواسط ١٩٢٣م) إجراء الانتخابات مرة أخرى، فأكد المراجع ثانية في سنة (١٤٤١هـ/ ١٩٢٣م) فتاواهم السابقة المُحرِّمة للاشتراك في الانتخابات، حينها ارتأى الملك فيصل الأول وحكومة السعدون: "أن الوقت قد حان للقضاء على السلطة الدينية بنفي

---

(١) فيصل الأول. سابق: ٩٧-٩٨.

(٢) العراق. سابق. الكتاب الأول: ٣٦٢.

(٣) تاريخ العراق المعاصر-العهد الملكي. سابق: ٥٠.

(٤) العراق الحديث من سنة ١٩٠٠ إلى سنة ١٩٥٠. سابق: ١/ ٢٣٦.

الشيخ مهدي الخالصي، والتنكيل بأتباعه تنكيلاً كاملاً، فصارت تتحيّن الفرص للقيام بعملها ذاك"[١]، حتى تخيل السعدون ما ظنّه الفرصة المناسبة فـ"أخمد بقبضة حديدية التحرك ضد المشاركة في انتخابات الجمعية التأسيسية واعتقل ونفى العلماء الشيعة الذين قادوا هذا التحرك"[٢]، وهم كل منهم: المرجع الشيخ الخالصي، ثم: المرجعين السيد أبو الحسن الأصفهاني، والشيخ محمّد حسين النائيني، ومعهما تسعة عشر من المجتهدين وكبار العلماء ومرافقيهم إلى خارج العراق سنة (١٣٤١هـ/ ١٩٢٣م)؛ كي يتمكن المحتل وملكه وحكومته من إجراء الانتخابات. وهو ما أشار إليه بوضوح سماحة المرجع الأعلى السيد أبو الحسن الأصفهاني في بيانه حول تحريم الاشتراك في الانتخابات بقوله: "إنّ هذا الانتخاب يُميت الأمة الإسلامية"، وقد جاء في فتوى أخرى لمرجع الكاظمية سماحة الشيخ محمد مهدي الخالصي ما نصه: "إنّ المداخلة بالانتخابات وكل ما يبتني على هذا الأساس المضّر بمستقبل العراق بل بجميع شؤونه – مُحرّمة شرعاً بإجماع المسلمين"[٣].

يُذكر بأن سبب تحريم المراجع وكبار المجتهدين الاشتراك في الانتخابات كان قد أوضحه الشيخ هادي كمونة أحد زعماء ثورة العشرين وأحد كبار الثوار في كربلاء الذين اعتقلتهم قوات الاحتلال مع الشيخ محمّد رضا نجل المرجع الأعلى الشيخ محمّد تقي الشيرازي ونفتهما مع بقية المعتقلين إلى جزيرة (هنجام) الهندية.

يقول الشيخ هادي كمونة الشاهد والمعاصر لتلك الانتخابات إثر سؤال وُجّه إليه في حينه عن سبب تحريم المراجع الاشتراك في الانتخابات في القرن الماضي، فأجاب بما يلي: "أما تحريم الدخول في انتخابات المجلس التأسيسي، فسببه هو أنهم كانوا يخشون أن يصبح هذا المجلس آلة بيد الإنجليز المستعمرين، ينفذون بواسطته أغراضهم، وينالون بتأثيره ما يطمعون في هذه البلاد، كما حصل حقيقة، فلهذا

(١) تاريخ القضية العراقية. سابق. ط٢: ٢/ ٢٥٧.

(٢) العراق. الكتاب الأول. سابق: ٢٢٣.

(٣) لمحات اجتماعية من تاريخ العراق الحديث: ٦/ ٢٠٣.

أمرت الحكومة بنفيهم"[١]، أي: المراجع، وتسفيرهم إلى خارج العراق.

لقد كانت رؤية المراجع الدينيين حينها دقيقة جدّاً في تشخيصها لخطورة المشاركة في الانتخابات المؤدية إلى المصادقة على المعاهدة، بدليل ما ورد في رسالة بعثها الملك فيصل الأول إلى المندوب السامي البريطاني في العراق أكّد تزويره وتزوير المحتلين صراحة لإرادة الناخبين بقوله: "... كنت ولا أزال معتقداً بأنّ التصديق على المعاهدة قوام لهذه المملكة، وإنّ أعمالي إنّما ترمي إلى تحقيق واجب مقدس يهون دونه كل عسير، ومن هذا الواجب أبعدنا العلماء... ولا بد أنك تذكر قولي لك قبل مدة إنّه يجب أن نستوثق بكل عضو من أعضاء المجلس قبل أن ينتخب، وذلك لكي نكون في مأمن تامّ عند تصديق المعاهدة، وإنّ كل من يرشح شخصاً منّا يجب أن يكون أميناً منه، ومسؤولاً عن رأيه في المجلس"[٢].

والطريف في الأمر أن الملك "المستورد من الخارج"[٣] أو "صنيعة" تي إي لورانس[٤] أو "الخادم المطيع لبريطانيا" كما رآه تشرشل[٥] لم يكتفِ بقوله "إنّ التصديق على المعاهدة قوام لهذه المملكة"، ولا بقوله: "ومن أجل هذا الواجب أبعدنا العلماء"، بل زاد عليهما بأن رأى أن يتم تزوير إرادة الشعب باختيار المرشحين ممن يؤيدون التصديق على المعاهدة، بل ذهب الملك بعيداً فطالب بتحميل نفسه والإنكليز مسؤولية اختيار المرشح إذا صوت ضد المعاهدة المذلّة.

لقد أخبر الملك فيصل الأول ضيفه السيد محسن أبو طبيخ: "بأنه عازم على إجراء الانتخابات على كل حال، وإرغام كل من يعارض أيّاً كان"[٦]، خلافاً لِما

---

(١) وثائق الثورة العراقية الكبرى. سابق: ٥/ ٢٤٨.

(٢) لمحات اجتماعية من تاريخ العراق الحديث. سابق: ٥/ ٢٦٩، ومذكرات رؤوف البحراني: ٢/ ٦٦ هامش.

(٣) العراق. حنا بطاطو. الكتاب الأول الطبقات الاجتماعية والحركات الثورية من العهد العثماني حتى قيام الجمهوري: ٢٠٦.

(٤) اختراع الشرق الأوسط الحديث. صناع الملوك. سابق: ٢٤٤.

(٥) المصدر السابق: ٢٥٩.

(٦) تنظر: مذكرات السيد محسن أبو طبيخ. سابق: ٢٤٣.

يزعمه البعض، بل "أصبح فيصل الآن عازماً على تحطيم سلطة المجتهدين الكبار بإجبارهم على مغادرة البلاد. وكان الملك على الأقل قد فكّر بهذه الخطوة منذ (نيسان/ إبريل ١٩٢٣م). كما دعا إليها رئيس الوزراء السنّي الجديد عبد المحسن السعدون"[١].

أضف إلى ذلك أنّ وزير الداخلية حينها طلب من متصرف كربلاء حميد خان في (٦ جمادى الأولى ١٣٤٠هـ/ ٥ كانون الثاني ١٩٢٢م) مضايقة العلماء بحجة تدخلهم في السياسة، وأكّد الملك فيصل على المتصرف تنفيذ الطلب.

وفي (٨ جمادى الأولى ١٣٤٠هـ/ ٧ كانون الثاني ١٩٢٢م) أكّد السير برسي كوكس المندوب السامي البريطاني على حميد خان أن يقوم بهذه المهمة، فرفض، وقدم استقالته، وقد تم ما أراد المندوب السامي بتسفير العلماء إنما على يد مولود مخلص[٢].

ويؤكد المؤرخون إصدار وزير الداخلية عبد المحسن السعدون تعليماته في (٢٨ صفر ١٤٤١هـ/ ٢٠ أكتوبر ١٩٢٢م) إلى متصرفي الألوية بالتحضير لإجراء الانتخابات، وكذلك "بموافقة فيصل صدرت أيضاً تعليمات إلى المحافظين لحث الناخبين بصورة خفية على أن لا ينتخبوا إلّا المرشحين الذين من المرجح أن يصادقوا على الاتفاقية الأنكلو-عراقية المقترحة"[٣].

ولا يفوتني أن أذكر بأن تسفير المراجع المعارضين للانتخابات - اقتصر على مراجع الشيعة وحدهم، فلم يشمل معارضي الانتخابات من أعيان علماء السنّة، بل ولم يشمل رجال المسيحيين أيضاً، سواء في بغداد، أم الموصل[٤].

---

(١) شيعة العراق. سابق: ١٥٤.

(٢) ينظر: النجف والمجلس التأسيسي. الشهيد عبد الرحيم محمّد علي. مجلة آفاق نجفية. العدد ١ من السنة الأولى. ص٨٤

(٣) شيعة العراق. سابق: ١٥١.

(٤) ينظر: المصدر السابق: ٢٧٣، هامش رقم ١، نقلاً عن كتاب عبد المحسن السعدون ودوره في تاريخ العراق السياسي المعاصر. سابق: ٨٦ وما بعدها.

ونتيجة لموقف المرجعية العليا الحاسم ضد الانتخابات المزورة المحددة نتيجتها ونوابها مسبقاً؛ فقد تحول إلى هدف عام سياسي وشعار فعال للوطنيين.

يقول صاحب كتاب (ثورة النجف على الإنكليز أو الشرارة الأولى لثورة العشرين) المؤرخ المعاصر لتلك الحقبة: لقد "أصبح شعار الوطنيين المخلصين تحقيق حرية الانتخابات قبل كل شيء، فلا دولة ولا حكومة قبل هذا الشعار الذي التزم به علماء النجف والتابعون لهم في كل مكان، وبقيت الانتخابات محرمة عليهم بفعل تلك الفتوى إلّا إذا توفرت لهم الحرية في انتخابات مباشرة حرة لا شائبة فيها ولا نفوذ ولا تسلط غير مشروع، وكل حكومة تأتي على غير هذا الأساس تعتبر حكومة متسلطة بالقوة مهما كانت الأسباب والذرائع. هذه هي خلاصة فتاوى العلماء بتحريم انتخابات المجلس التأسيسي في الفترة التي عشنا أحداثها ووعينا أفكار العلماء الأحرار فيها"[١].

إن مواقف مراجع ثورة العشرين وامتداداتها في القرن الماضي القاضي بعدم السماح بتزييف إرادة الشعب العراقي الحقيقية عبر انتخاب صوري لمرشحين محددين من قبل المحتل ومَلِكه وحكومته وأعوانهم سلفاً، بحيث يتفق المحتلون مع الملك وحكومته على اختيار الأشخاص الموالين لهم وضمان فوزهم قبل إجراء الانتخابات، وأمثال ذلك، من أجل سنّ وتشريع أهداف الاحتلال ومصالحه؛ إنّ هذا الموقف هو نفس الموقف الذي تبنّاه وحثّ عليه المرجع الأعلى الحالي سماحة السيد السيستاني بإصرار؛ فحين حاول المحتلون الأمريكيون للعراق عام (١٤٢٤هـ/ ٢٠٠٣م) التدخل لتزييف إرادة العراقيين الحقيقية بتبنّيهم تشكيل لجنة غير منتخبة انتخاباً حُرّاً مباشراً لكتابة دستور للعراق الجديد؛ رفض المرجع الأعلى سماحة السيد السيستاني الآلية التي اقترحها المحتلون الأمريكيون بشدة؛ كونها ستفسح المجال واسعاً للتدخّل الأجنبي في الشأن العراقي من خلال اختيار عيّنات من كتبة الدستور توافق مخططاتهم أو انتقاء نماذج مستعدة للاستجابة لطلباتهم

(١) ثورة الثجف على الإنكليز. سابق: ١٢٧.

تحت الضغط حيناً ووفق المصلحة أحياناً. ولذلك حدد سماحته موقفه بوضوح في جواب لمكتبه في النجف الأشرف على سؤال وُجّه إليه مفاده: "ما هو رؤيتكم لمستقبل الحكم في العراق".

فأجاب مكتبه بما نصُّه: "المبدأ الذي يؤكد عليه سماحته هو أنّ الحكم في العراق يجب أن يكون للعراقيين بلا أي تسلّط للأجنبي، والعراقيون هم الذين لهم الحق في اختيار نوع النظام في العراق بلا تدخل للأجانب"[١] بأي شكل من الأشكال، مؤكداً ذلك أكثر من مرة، منها: ما ورد في رد مكتب سماحته أيضاً بتاريخ (١٤ جمادى الأولى ١٤٢٤هـ/ ١٤ تموز ٢٠٠٣م) عن سؤال يخص كتابة الدستور العراقي بأيدٍ مختارة معيّنة من قبل المحتل الأمريكي، فجاء جواب مكتب سماحته بما يلي: "لا شرعية لأي دستور يُكتب بأيدي أشخاص معيّنين، سواء من قِبَل سلطة الاحتلال، أو أعضاء ما يسمى بمجلس الحكم، أو غيرهم"[٢].

ومثله ما ردّ به مكتب سماحته بتاريخ (٢١ شعبان ١٤٢٤هـ/ ١٨ تشرين الأول ٢٠٠٣م) عن سؤال وُجّه إليه فأجاب عن السؤال بما يلي: "لا توجد أية جهة يمكنها أن تقوم باختيار أعضاء مجلس كتابة الدستور بصورة مقبولة من الجميع بحيث يتمثل في المجلس المشكّل لجميع شرائح المجتمع تمثيلاً عادلاً، بل إنّ من المؤكد أن المصالح الشخصية والفئوية والعرقية والحسابات الحزبية والطائفية ستتدخل بصورة مباشرة أو بأخرى في عملية الاختيار، ويكون المجلس المشكل فاقداً للشرعية، ولا يُجدي عندئذ إجراء الاستفتاء على ما يضعه من الدستور بـ(نعم) أو (لا)، فلا بديل عن إجراء انتخابات عامة لاختيار أعضاء المؤتمر الدستوري"[٣].

ومثله أيضاً ما ردّ به مكتب سماحته في (٤ جمادى الثانية ١٤٢٤هـ/ ٣ آب ٢٠٠٣م) عن سؤال آخر وُجّه إليه فأجابه بقوله: "لا صلاحية لأية جهة كانت في

(١) النصوص الصادرة عن سماحة السيد السيستاني في المسألة العراقية. سابق: وثيقة رقم ٢ ص١٠، ص٣١٦.
(٢) المصدر السابق نفسه: وثيقة رقم: ٢٠ ص٤٠، ص٣٣٤.
(٣) المصدر نفسه: وثيقة رقم: ٣٩ ص٧٢، ص٣٥٣.

تعيين أعضاء مجلس كتابة الدستور، بل يلزم أن يكون منتخباً من قبل الشعب العراقي عن طريق صناديق الاقتراع، وهي الطريقة الوحيدة التي يمكن التوصل بها إلى معرفة رأي الشعب العراقي في هذه القضية المهمة"[١] وغيرها[٢].

إنّ تأكيد سماحة المرجع الأعلى السيد السيستاني المتكرر والمشدد على ضرورة كتابة الدستور بأيدٍ عراقية منتخبة بانتخابات حرة سرية مباشرة نزيهة؛ سببه علوية مواد الدستور على كل التشريعات والقوانين والأنظمة والتعليمات الحكومية اللاحقة لصدوره. وبموجب هذه التوصيات الملحّة من المرجعية العليا وبمتابعتها الدقيقة للعملية الانتخابية في كل مراحلها أولاً بأول؛ لم يستطع المحتل الأجنبي ولا أي حكومة معيّنة أن تتدخل في مجرى عملية الانتخابات بشكل سافر من أجل تمرير مصالح قوات الاحتلال وأهدافه الاستراتيجية وهو ما حصل في انتخابات القرن الماضي، تلك الانتخابات التي حرّم المراجع الدينيون الاشتراك فيها.

لقد تبيّن مما تقدم السبب الواضح لتحريم مراجع الدين مشاركة المواطنين في انتخابات المجلس التأسيسي في عشرينات القرن الماضي، مثلما تبيّنت لنا دواعي إصرار المرجعية العليا المعاصرة على إجراء انتخابات حرة سرية عامة شاملة نزيهة للمواطنين الذين يحق لهم التصويت لانتخاب ممثّليهم في مجلس النواب حسب قناعتهم أيّاً كانت تلك القناعات من أجل أن يتم بشكل شفاف وصادق لا لبس فيه "احترام إرادتهم في تقرير مصيرهم ورفض أن يخطط الأجنبي لمستقبلهم السياسي أو الاقتصادي أو الاجتماعي والثقافي"[٣].

وحين تبيّن للمرجعية العليا المعاصرة بعد متابعة حثيثة ومراقبة دقيقة أنّ انتخابات الجمعية الوطنية العراقية في (١٩ذي الحجة ١٤٢٥هـ/ ٣٠ كانون الثاني ٢٠٠٥م) ستجري بشفافية ونزاهة مقبولة ضمن الضوابط المعتمدة في الانتخابات

(١) المصدر السابق نفسه: وثيقة رقم ٢٤ ص٤٧، ص٣٣٨.

(٢) السابق نفسه: وثيقة رقم ٢٣ ص٤٥-٤٦، ص٣٣٧. وغيرها.

(٣) السابق نفسه: وثيقة رقم ٧ جواب رقم ٤ ص١٩، ص٣٢١.

الحرة ما أمكن، وذلك للمرة الأولى في تاريخ العراق منذ عشرينات القرن الماضي إلى يوم إجراء انتخابات الجمعية الوطنية العراقية عام (١٤٢٥ هـ/ ٢٠٠٥م)، خلافاً لِما كان مقرّراً من قبل سلطات الاحتلال الأمريكي وأعوانهم بأن تجري انتخابات الجمعية الوطنية العراقية التي ستتولى كتابة الدستور ما بعد سقوط النظام البائد بطريقة تضمن تحقيق مآربها ومراميها في الدستور الدائم.

أقول: بعد أن اتّضح للمرجعية العليا المعاصرة أنّ الآليات الموضوعة لانتخابات عام (١٤٢٥هـ/ ٢٠٠٥م) مقبولة وفق المعايير الدولية وإن كانت ليست مثالية؛ حينها دعت المرجعية العليا المواطنين للاشتراك فيها.

لقد أكدت تقارير المراقبين الملمّين بآليات الانتخاب المعمول بها في الدول الحرة؛ بأنّ الدولة فسحت المجال أمام المواطنين العراقيين داخل العراق وخارجه لانتخاب ممثليهم الشرعيين، سواء في الترشيح لانتخابات الجمعية الوطنية العراقية، أم في انتخاب من يختاره المواطنون لتمثيلهم في الجمعية الوطنية العراقية بحرية مقبولة، أم في آلية فرز النتائج النهائية المراقَبة بدقة من ممثلي المرشحين أو المنظمات الدولية المعنيّة أو المراقبين من داخل العراق وخارجه أو من وسائل الإعلام الكثيرة المنتشرة هنا وهناك وذلك تحت نظر الجميع، حينها تم فرز ما بلغ (٥٥٧٨) خمسة آلاف وخمسمائة وثمانية وسبعين مركزاً انتخابيّاً داخل العراق، و(٧٥) خمسة وسبعين مركزاً انتخابيّاً في (١٤) أربع عشرة دولة يقطنها عراقيون في خارج العراق، وحين تمت الانتخابات بحرية وشفافية مقبولة وفتحت صناديق الاقتراع؛ حصدت (قائمة الائتلاف العراقي الموحّد) الشيعي (١٤٠) مائة وأربعين مقعداً نيابيّاً من أصل (٢٧٥) مائتين وخمسة وسبعين مقعداً مخصصاً لأعضاء الجمعية الوطنية العراقية، بنسبة قُدّرت بـ(٤٨٪) ثمانٍ وأربعين بالمائة من مقاعد الجمعية الوطنية العراقية.

لقد تم كل ذلك ليس برقابة أممية على العملية الانتخابية بكل تفاصيلها من بدايتها إلى نهايتها فحسب، بل باشتراك فعلي لممثّل أممي في المفوضية العليا المستقلة للانتخابات.

يُذكر بأن اللجنة الأممية المشرفة على الانتخابات أكدت في تقريرها بسلامة العملية الانتخابية وصحتها ودقة نتائجها عدا حدوث مخالفات طفيفة في هذا المركز الانتخابي أو ذاك، مما لا يؤثر على نتائج الانتخابات، وهو ما يحدث في أغلب الانتخابات الديمقراطية حتى في الأمم المتقدمة سواء بسواء.

لقد أصدرت عدة جهات رقابية عراقية وعربية وأجنبية -راقبت العملية الانتخابية من بدايتها إلى نهايتها- تقارير إيجابية مشجّعة، إضافة إلى شهادات مثيلة من قبل العديد من الصحفيين عراقيين وعرب وأجانب، غربيين وآسويين وغيرهم من المتابعين لمجريات العملية الانتخابية ومراقبيها والشاهدين عليها من مختلف الدول.

أخلص من ذلك كله إلى وحدة موقف مراجع الدين في انتخاب المجلس التأسيسي خلال حقبة العشرينات من القرن الماضي، وفي انتخابات الجمعية الوطنية العراقية سنة (١٤٢٥هـ/ ٢٠٠٥م)، من حيث حرصهما الشديد على أن تكون الانتخابات حرة ونزيهة وعادلة وشفافة، ولمّا انعدمت هذه الشروط تحت ظل المحتل البريطاني في عشرينيات القرن الماضي، وتأكد المراجع حينها من ذلك؛ حرّم المراجع الاشتراك فيها، ثم حين تحققت النزاهة والحرية المقبولة وغيرها من الشروط المعتمدة في انتخابات سنة (١٤٢٥هـ/ ٢٠٠٥م) أبدت المرجعية العليا لسماحة السيد السيستاني "موافقتها على هذا الدستور وشجعت المواطنين على التصويت له بـ(نعم) بالرغم من تحفّظها على العديد من بنوده"[١].

لقد سمعتُ شخصيّاً من أحد المراجع العراقيين الكبار في النجف الأشرف بأنّه خرج شخصياً رغم شيخوخته للاشتراك في انتخابات الجمعية الوطنية العراقية فذهب إلى المركز الانتخابي المخصّص وأدلى بصوته فيه.

❀ ❀ ❀

(١) النصوص الصادرة عن سماحة السيد السيستاني في القضية العراقية. سابق: وثيقة رقم ١١٣ جواب رقم ١٥ ص٢٠٠، وكذلك ص٣٠٨، ص٥٣٥.

الفصل السابع عشر

المحصّلة

المرجعية والفراتيون ومن اقتدى بهم جسدوا المبدئية الحقة والوطنية الصادقة بأجلى صورها

يتضمن هذا الفصل مبحثين هما:

المبحث الأول

بعض مما قدمته ثورة العشرين للعراق

حسب آراء نخبة من المؤرخين العراقيين والأجانب

المبحث الثاني

المبدئيون المضحّون ونهّازو الفرص

وسأتناولهما تباعاً مبتدئاً بالمبحث الأول منهما

المبحث الأول

بعض مما قدمته ثورة العشرين للعراق
حسب آراء نخبة من المؤرخين العراقيين والأجانب

سبق أن تحدثت فيما سبق عن أنّ السياسة البريطانية في العراق إثر احتلاله عام (١٩١٤م) وما بعده وصلت في بعضها إلى حدّ وصف أحد كبارهم للعراق بعد احتلاله السير أي. تي ولسون نائب الحاكم الملكي العام في العراق بأنه سيكون -وفق مخطط ضمه لبريطانيا وإلحاقه بها- درّة في التاج البريطاني كما تقدم، تلك الخطة الاستعمارية وغيرها من مثيلاتها التي أفشلتها وأقبرتها وأنهتها كُلّيّاً ثورة العشرين الوطنية بقيادة مراجعها وعلمائها الأعلام وسواعد شيوخها ورجالها البواسل من فرسان الفرات عمود خيمة الثورة، ومن لحق بهم من شيعة العراق الأشاوس خاصة.

أما هنا فسأتحدث عن جانب آخر من جوانب ما قدمته هذه الثورة الوطنية الكبرى للعراق والعراقيين، ليس فيما منعت حدوثه وأقبرته من مخططات استعمارية، بل فيما قدمته للعراق والعراقيين بإيجاز، فأقول:

لئن قُدّر لثورة العشرين أن لا تحقق أهدافها كاملة بالانتصار العسكري الحاسم على المحتل الغازي وتخليص البلاد والعباد منه ومن استعماره وإقامة دولة وطنية دستورية على أرضه؛ فإنّها وفق تحليل الباحثة اليابانية كيكو ساكي: "يمكن أن تصنف -وهي أول الحركات السياسية والاجتماعية الواسعة في البلاد- بكونها محاولة وطنية حثيثة عبّأت الطبقات الاجتماعية المتنوعة مثل: القبائل، الحلقات الدينية، والمفكرين الحضريين - ضد الاستعمار الغربي، ويمكن تفسيرها بكونها نقطة الشروع للقومية العربية بمفهوم البحث عن الاستقلال العربي، سواء من تركيا أو من بريطانيا.

وفي الوقت ذاته فإنها يمكن أن تفسّر بكونها البداية للوطنية العراقية بمفهوم

توحيد المجموعات الاجتماعية المتنوعة داخل الإقليم العراقي"[١].

ويقول جورج أنطونيوس: "إنّ البذرة غُرست عام ١٩٢٠ عندما قررت الحكومة البريطانية إزاء الثمن المروّع الذي كلفتها إياه الثورة أن تغيّر سياستها أو أن تغير خططها العسكرية في أقل تقدير.. وكان التغيير أساسيّاً من الناحية العملية لأنه أحيا المبدأ المهمل، مبدأ (موافقة المحكومين).. ونص على أنّ موافقة العراق ستكون شرطاً في أي تدبير، وأنّ بريطانيا العظمى ستحاول في المستقبل أن تبلغ غاياتها (بالمفاوضة) بدلاً من (الإملاء) كما حدث في سان ريمو"[٢].

وهو ما ذهب إليه كثير من الباحثين المنصفين. منهم المؤرخ السيد عبد الرزاق الحسني الذي قال: إنّ الحكم الوطني أُقيم "على جماجم ثورته الكبرى"[٣].

ومنهم الدكتور متي عقراوي بقوله عن ثورة العشرين: "إنّ الثورة على الأقل أجبرت الإنكليز على الاستعجال في تأسيس الحكم الوطني"[٤].

ومنهم رئيس الوزراء العراقي الأسبق ناجي شوكة بقوله: "إنّ كيان العراق الحاضر بُني على دعائم الثورة، كما أنّ العراق مَدين بوحدته الوطنية واستقلاله السياسي لهذه الثورة"[٥].

ومنهم الوزير العراقي الأسبق جلال بابان بقوله: "إنّ ما ناله العراق من مركز سامٍ بين الأمم وما اكتسبه من وضع دولي هو نتيجة أساسية لهذه الثورة -دون ريب-، وإن ما يثبت صحة هذا القول هو ما كان عليه الحلفاء من جفاء تجاه القضايا العربية، وعدم اهتمامهم بما قطعوه على أنفسهم من وعود وعهود... ولكننا رأينا بعدما اشتعل لهيب الثورة العراقية وتحطمت السلاسل وأغلال العبودية أنّ هذه

(١) ثورة العشرين. دراسة في الأحزاب السياسية والشبكات الاجتماعية في العراق ١٩٠٦-١٩٢٠. سابق: ١٢٣.

(٢) الثورة العراقية الكبرى سنة ١٩٢٠. سابق: ٣٢٨ نقلاً عن يقظة العرب: ٤٨١.

(٣) تاريخ العراق السياسي الحديث. السيد عبد الرزاق الحسني: ٣/ ٥.

(٤) العراق الحديث. سابق: ١/ ٤٤.

(٥) الثورة العراقية الكبرى. سابق: ٣٧١.

الأحوال قد تبدلت فعلاً، بل إنها انعكست إلى ضدها... ولأجله أعتقد جازماً بأنّ للثورة العراقية أشد التأثير على تأسيس كيان العراق السياسي، وبزوغ الدولة العراقية كدولة بين الأمم الحرة التي لها كيانها واستقلالها، وهذا حسب ما أعتقد أحسن ثمناً له قيمته البالغة لقاء ثورته الوطنية الخالدة"[١].

أو ما ذهب إليه د. صلاح عبد الرزاق بتسمية بحثه عن ثورة العشرين بـ"ثورة العشرين ١٩٢٠ ثورة تأسيس العراق"، وهو البحث الذي لخّصت خاتمته ما انتهى إليه بقوله: لقد "حققت ثورة العشرين إنجازاً عظيماً في تاريخ العراق الحديث، إذ لولاها لم يحقق العراق وجوده السياسي متمثلاً بتأسيس الدولة العراقية، ولأول مرة منذ سقوط الدولة العباسية عام ١٢٥٨م. إذ بقي العراق طوال القرون التالية إما بأيدي أُسر غريبة عنه، أو ولاية تابعة للدولة العثمانية خلال القرون (١٦-٢٠). فقد مهدّت ثورة العشرين لتأسيس أول حكومة عراقية برئاسة عبد الرحمان النقيب بتاريخ ٢٥/ ١٠/ ١٩٢٠م، ثم لمجيء الأمير فيصل ابن الشريف حسين الذي أصبح الملك فيصل (كذا) الأول ليتولى عرش العراق في آب ١٩٢١"[٢].

أما الدكتور عبد الله فياض فيقول: "بالرغم من كل سيئات الحكومة التي تكونت بعد ثورة ١٩٢١م، فإنّ قيامها يعدّ نتيجة مهمة من نتائج الثورة، وحدثاً ذا أهمية في تاريخ العراق، فالبلاد التي خيّم عليها الحكم التركي الفاسد طيلة أربعة قرون شعرت بأن جماعة من أهلها أخذوا يشتركون ولو بصورة نسبية بإدارة بلادهم. وشعر سكانها بأنهم نالوا شيئاً من صفة المواطنة بعد أن كانوا رعايا.

وكانت فكرة إنشاء دستور للبلاد، وسلطة تشريعية من بين الأفكار التي تعدّ ثورية بالنسبة لتاريخ هذه البلاد. يضاف إلى ذلك أنّ وجود مجلس تأسيسي في البلاد أولاً، ومجلس أمة ثانياً، رغم تزييف الحكومة السابقة لانتخاباتهما في الغالب؛ هيّأ

(١) المصدر السابق نفسه: ٣٧٣.

(٢) ثورة العشرين ١٩٢٠ ثورة تأسيس العراق. الخاتمة.

لبعض أفراد الطبقة الواعية فرصة للتنديد بسياسة الحكومة الخاطئة"[١].

ويقول رئيس الوزراء العراقي الأسبق علي جودت الأيوبي: "إنّ الفوائد التي جناها العراق من ثورته المذكورة لا تعدّ ولا تحصى، ولعل انتهاء حكم الاحتلال وانتهاء حكم الانتداب بعده وقيام الحكم الوطني وتأسيس كيان العراق السياسي وتطور البلاد السياسي والاجتماعي والعسكري من آثار تلك الثورة المباركة"[٢].

وهناك العدد الغالب من المؤرخين العراقيين والأجانب الذي انتهوا إلى هذه القناعة ممن لا يسع المجال لاستعراض آرائهم، وفيما ذكرت كأنموذج لبعضهم كفاية.

وما لنا نذهب بعيداً؟! فهذا الملك فيصل الأول نفسه يتحدث إلى المرجعين كلّ من المرجع السيد أبو الحسن الأصفهاني والمرجع الشيخ محمد حسين النائيني بعد دخول العراق في عصبة الأمم سنة (١٩٣٢م)، حين زار الملك النجف الأشرف وطلب الاجتماع بالمرجعين مرتين، وحين وافقا على الاجتماع به بعد رفضهما لقاءه أول مرة. "اعتذر الملك إلى المرجعين" قائلاً لهما:"أنا أحترم مقام المرجع الديني في العراق، إذ لولا فتوى المجاهد زعيم الثورة في العراق الميرزا محمد تقي الشيرازي (طاب ثراه) ما كان العراق ينال ما ناله"[٣]،

(١) الثورة العراقية الكبرى سنة ١٩٢٠. سابق: ٣٣٢

(٢) الثورة العراقية الكبرى. سابق: ٣٧٣.

(٣) مذكرات السيد ضياء الدين بحر العلوم عن حياة والده السيد علي بحر العلوم. مخطوط: ١٤١. يقول السيد ضياء الدين بحر العلوم في مذكراته الخطية (ص١٣٩-١٤١) متحدثاً عن زيارة الملك فيصل الأول للنجف الأشرف وقوله لوالده: "وددت أن اجتمع بحضرات العلماء الأعلام... وقد صحبت معي الحاج كاظم أبو التمن والسيد باقر رئيس التشريفات لإبداء الرأي من قبلهما إلى المرجعين السيد أبو الحسن والميرزا حسين النائيني بالاجتماع معي... وبعد عرض الموضوع عليهما من قبل هذين الشخصيتين أظهرا أننا بعد قضية الشيخ الخالصي عزمنا على الابتعاد عن كلّ ما كان نقوم به قبلاً، وامتنعا من قبول شورهما، والآن بصورة خاصة أرغب أن تقوم أنت بذلك... فتوجه الوالد إلى دار السيد أبو الحسن الأصفهاني... وغبّ حضور المشار إليه -المرجع النائيني- فتح الحديث في الموضوع من قبله... فأظهرا للوالد أننا تعهدنا له =

يقصد بذلك الاستقلال ودخول العراق لعصبة الأمم.

أما الباحث حنا بطاطو فيضيف بُعداً آخر لِما قدمته الثورة للعراقيين بقوله: لقد "نجحتْ من خلال التقريب بين الشيعة والسنة معاً في تقوية الشعور الوطني مع نموّه المطّرد وسيطرته في آخر الأمر على جماهير واسعة"[١]، وهو بعدُ أشار إليه العديد من الباحثين خلال حديثهم عن مجالس (المولد/ التعزية) التي تحدّثتُ عنها سابقاً.

هذا بعض مما قدمته ثورة العشرين للعراق والعراقيين حسب رأي غالبية المؤرخين.

بل حسب رأي الملك فيصل الأول نفسه الذي تنكّر لمن كانوا السبب الأهم لتغيير سياسة المحتلين التي كان من تداعياتها استيراده من خارج العراق لتنصيبه ملكاً على بلد لا يحمل جنسيته وليس هو من رعاياه.

❀ ❀ ❀

= بعدم التدخل في السياسة قبيل عودتنا لمّا أتى وزير المعارف الشيخ محمد حسن أبو المحاسن في قصر شيرين وطلب منا ذلك حتى يسمح لنا بالعودة إلى النجف بعد سفرنا إلى إيران. فما هذه الرغبة بالاجتماع؟ قال لهما الوالد... أرى أنّ الحكمة أن توافقوا على الاجتماع في الحرم الشريف حيث المشار إليه يرغب في عودة المياه إلى مجاريها... حينذاك أظهر المرجعان أنّ كلّ ما أشرت إليه هو الصواب ونوافق على الاجتماع مع الملك عند الفجر في الحرم المطهر الشريف... قال لهما سمعاً... وفي الموعد المحدد سارع الوالد في الحضور في الحرم الشريف واستقبل المرجعين المشار إليهما والملك فيصل".

(١) العراق. الكتاب الأول. الطبقات الاجتماعية والحركات الثورية من العهد العثماني حتى قيام الجمهورية سابق: ٢٠٥.

المبحث الثاني

المبدئيون المضحّون ونهّازو الفرص

لقد بذل علماء النجف الأشرف وكربلاء المقدسة والكاظمية وسامراء ومدن الفرات الأوسط الثائرة وعشائرها المضحية ورجالاتها الأبطال – ما بذلوه من أنفس وأموال وثمرات، غير أنهم لم يحصدوا من ثورتهم الوطنية الكبرى غير الدمار والتنكيل والتهميش والإبعاد والخيبات.

فها هو ذا سماحة المجتهد المحقق الشيخ محمّد حسين المظفّر المعاصر لتلك الحقبة، يتحدث عن الحكم الوطني "الذي غالى الفراتيون في ثمنه وضحوا بالنفس والنفيس في طريق الحصول عليه... أخذت الرجال تتعاقب على كراسي الحكم والقوانين تُسنّ للتوظيف، والوظائف تُسند لمن ينتسب لأولئك الرجال القابضين على ناصية البلاد، ولم يكن نصيب جلّ أبطال الحركة وأركان الثورة الذين أشيدت القصور على جماجمهم، وبُنيت العروش على سواعدهم، إلّا الإرهاق والإقصاء والطرد والحرمان من كل ناحية من نواحي الدولة، تجبى منهم الضرائب وتتسرب لخزينة الدولة، ثم تنفق على رجال الكراسي وأرباب الوظائف، وعلى المصالح الخاصة"[1].

وهذا الشيخ محمّد رضا الشبيبي أحد رجال الثورة ومفكريها يتحدث عن مجريات ما بعد ثورة العشرين، فيقول: "أمّا ما جرى بعد ذلك وكيف انقلبت الآية في فترة معينة من الفترات التي انتقل الحكم فيها إلى أيدي أبناء البلاد؟ وكيف لوحق المجاهدون؟ وكيف أوذي الأحرار، وامتُحِن الثوار، وفي مقدمتهم العلماء الأعلام؟ وكيف عوقبت المنطقة الثائرة بالعسف والحرمان؟ وذلك وفق خطة استعمارية مرسومة – فإنه حديث طويل يثير الشجون ويمري الجفون"[2].

---

(١) العراق والحكم الوطني. الشيخ محمّد حسين المظفر. أوراق مخطوطة: ص٥.

(٢) مقدمة كتاب (الثورة العراقية الكبرى سنة ١٩٢٠. سابق): ٤.

ويذكر قائد آخر من قادتها هو السيد محسن أبو طبيخ بعض ما أجمل ذكره الشيخ الشبيبي بقوله: "قمنا بالثورة العراقية الكبرى، وحاربنا الإنكليز، وفقدنا خيار أبنائنا شهداء في هذا السبيل، ليأتي عملاء الأتراك هؤلاء الذين أصبحوا عملاء مخلصين للإنكليز، ليتربّعوا على كراسي الحكم الوفيرة، وينعموا بالحياة المستقرة، دون أن يبذلوا أي جهد من مال أو جاه في سبيل هذا الاستقلال... أمّا نحن رجال الثورة الذين قمنا بإعداد مائدة الحكم الدسمة ليتناوبوا عليها ويتصارعوا للنيل بأكبر قسط من غنائمها، -فـ-كان مصيرنا ما بين النفي والاعتقال والتشريد والحرمان"[١].

وقريب منه ما قاله الحاج عبد الواحد آل سكر أحد أبرز قادة الثورة جواباً على سؤال للسيد عبد الرزاق الحسني عن ما تمخضت عنه الثورة بقوله: "إنّ الذين ثاروا لم يحصلوا إلّا على الضرر"[٢]، وخاصة مدن شيعة الفرات الأوسط منهم، رافعة الثورة، وعمدها، وموطن مراجعها ومفجريها، وجُلّ قادتها، ورأس مالها البشري والمادي. وقال أيضاً في جواب عن سؤال للشيخ فريق المزهر آل فرعون في (٢١ ربيع الأول ١٣٧١هـ) ما يلي: "لم نحصل من الثورة إلّا على حكم يسمّونه وطنيّاً، ولو سألتني هل حققت الحكومة الوطنية أهداف الثورة، لقلتُ لكم إنّها لم تحقق من أهدافها كلّ شيء"[٣].

وقد لخص سماحة المرجع الشيخ محمّد حسين آل كاشف الغطاء في مذكراته حال الثوار عن ثورة العشرين بعد انتهائها: "وكانت النتيجة لأولئك الذين ما أصيبوا في تلك الحوادث بشوكة، ولا خسروا في الثورة قلامة ظفر"[٤].

لقد كان لثورة العشرين، بل لشيعة الفرات بالدرجة الأساس - فضل تحرير

---

(١) مذكرات السيد محسن أبو طبيخ. سابق: ١٨١-١٨٢.

(٢) ينظر: الثورة العراقية الكبرى. سابق: ٣٩٠.

(٣) الحقائق الناصعة في الثورة العراقية. سابق: ٥٨٨.

(٤) السيد محمّد كاظم اليزدي. سابق: ٧٠٨.

العراق من الاحتلال الأجنبي، وإرساء أسس أول دولة وطنية واحدة في العراق[١]، رغم ما شابها من الخلل، والظلم، والجور، والتعسف، والغبن، والاضطهاد، وفي مقدمة ذلك إقصاؤها وتهميشها لمادة وقودها البشرية (شيعة العراق) ولمُموّلي ميزانية ثورتها المتّقدة، ولباذلي الأموال لتسليحها وفي المقدمة مرجعيتها وتبرعات رؤساء عشائرها وناسها الأحرار إلّا ما ندر -كما تقدم-.

نعم، لقد أنهت ثورة العشرين كل تلك التصورات والخطط الاستعمارية، بل استطاعت أن تشكل أول نظام حكم وحكومة وطنية عراقية حرة، استعملت في انتخاباتها التشريعية صناديق الاقتراع على أرض النجف الأشرف في (آب ١٩٢٠م) قبل أكثر من سنة على إنشاء الدولة العراقية -كما تقدم-.

ثم، ونتيجة مباشرة لِما قدمته ثورة الفرات للعراق والعراقيين وما ألحقته بالمستعمر من أضرار بشرية ومادية وسياسية كبيرة تحمّل جراءها الثائرون من أهالي الفرات ما تحملوا وتحملت مرجعيتهم الدينية بسببها ما تحمّلت؛ انتهى المحتلون الإنكليز إلى قناعة راسخة مفادها الانتقام من الثورة وثوارها، والمرجعية وزعمائها؛ لأنهم رجال قيم ومبادئ ومواقف مخلصة منزهة عن الشهوات والمطامع الشخصية أو المصالح المادية الدنيوية الزائلة وأشباهها.

ولكي أُدلّل على ما انتهيت إليه أنقل نماذج مما وصفت به المس بيل مراجع الشيعة والمواطنين الشيعة قائلة: أمّا أنا شخصياً فأبتهج وأفرح أن أرى هؤلاء الشيعة الأغراب يقعون في مأزق حرج، فإنهم من أصعب الناس مراساً وعناداً في البلاد"[٢].

---

(١) لمزيد من الاطلاع على مدى ما قدمته ثورة العشرين للعراق: تُنظر: إجابات عدد من السياسيين والعلماء ورؤساء القبائل على أسئلة السيد عبد الرزاق الحسني في كتابه: (الثورة العراقية الكبرى): ٣٦٦ وما بعدها، وأسئلة الشيخ فريق المزهر وإجابات بعض زعماء الثورة على أسئلته التي أوردها في كتابه (الحقائق الناصعة في الثورة العراقية): ٥٥١ وما بعدها.

(٢) دور الشيعة في تطور العراق السياسي الحديث. سابق: ٢٥٦.

وتضيف "ولا سيّما رؤساء الدين المجتهدين الذين في مقدورهم أن يحلّوا ويعقدوا بكلمة واحدة... وهم على الأغلب شديدو العداء لنا"[١].

وبعبارة أخرى: "إنّ وضع المجتهدين سيكون على الدوام مشكلة خاصة قائمة بذاتها... يصدرون فتاوى تتقدم في الأهمية على قوانين البلاد"[٢]؛ ذلك أن "طلبت العشائر مراراً أن تجري المفاوضات بواسطة المجتهد الأكبر الذي لا يُلقون السلاح إلّا بأمر منه، فرفض السر بيرسي ذلك الطلب بعناد... غير أنّ سيطرة العلماء في الحل والعقد هي من أصعب المشاكل التي تواجهها الدولة"[٣].

وتؤكد الباحثة جويس ويلي الأستاذة بجامعة ساوث كارولينا انقياد الشيعة التامّ لمراجعهم بقولها: لـ"قد لاحظ العديد من المراقبين وجود طاعة غير مألوفة يظهرها الشيعة العراقيون لمجتهديهم؛ فقد تعجب السير آرنولد ولسون، وهو مسؤول بريطاني في العراق للفترة من ١٩١٤ إلى ١٩٢١ والمندوب السامي للفترة من ١٩١٨ إلى ١٩٢٠، من النفوذ الكبير للمجتهدين المحافظين البارزين على الطائفة الشيعية، وأورد توماس ليل، وهو مسؤول إداري بريطاني آخر في العراق في عشرينات القرن العشرين: إنّ حياة الشيعة تخضع لتنظيم الشريعة الإسلامية تنظيماً كاملاً، وفقاً لتفسير المجتهدين لها، ويتمتع السادة بالمكانة المبجلة، وغالباً بالسلطة في القرى الشيعية... وأورد أج. دبليو. داوسن، وهو خبير زراعي درس السبل اللازمة لتحسين إنتاج التمور في جنوبي العراق في مطلع عشرينيات القرن العشرين: إنّ المزارعين العراقيين لم يكونوا ورعين أتقياء ومنتظمين في أداء الفروض الدينية وحسب، بل إنهم كانوا يقضون الساعات الطوال في مناقشة الأمور الدينية.

وبوصفهم زعماء الطائفة الدينية فقد كرّس العلماء أنفسهم تكريساً كبيراً

(١) العراق في رسائل المس بيل. سابق: ١٤٠-١٤١.

(٢) المصدر السابق نفسه: ١٨٨.

(٣) المصدر نفسه: ٢٥٧-٢٥٨.

للنهوض بمفهومهم لتحمّل واجب القيادة"[١].

ولذلك ونحوه ارتأى المحتلون الإنكليز بأنهم إنْ أرادوا استمرار سيطرتهم على البلاد والعباد فليس لهم إلّا "إقصاء جميع الشيعة عن المناصب الرفيعة"[٢]، وأن تكون "للعراق حكومة أقلّيّة، يحتكرها الضباط العثمانيون السابقون، ومنح عرش العراق لرجل أجنبي لا يكنّ لرعاياه غير الاحتقار"[٣].

يقول الشيخ محمّد رضا الشبيبي واصفاً ما كان عليه حال الدولة العراقية بعد انتهاء ثورة العشرين، متحدّثاً عن دولة عاقبت الثوار الشيعة ومدنهم المضحية بالحرمان: "كان الحكم ثنائيّاً بين الإنكليز وبين فريق من صنايعهم وأعوانهم في غالب الأحيان، وكان الغُنم للسلطة البريطانية، وصنايعها، والغرم على الشعب العراقي، واتضح لهذا الشعب الكريم أنّ هناك خطة استعمارية مرسومة اعتُبرت الثورة العراقية الكبرى بموجبها جريمة منكرة، وحركة مضادة لمظاهر التقدم والحضارة، وصرّح بذلك مع بالغ الأسف أكثر من واحد من المحسوبين على السياسة من أبناء العراق، وهكذا عوقبت المنطقة الثائرة كلها بالحرمان"[٤]، كما تقدم.

ويضيف الشيخ الشبيبي في موضع آخر متحدّثاً عن ما جرى بعد الثورة بقوله: "أمّا ما جرى بعد ذلك، وكيف انقلبت الآية في فترة معينة من الفترات التي انتقل الحكم فيها إلى أيدي أبناء البلاد؟ وكيف لوحق المجاهدون؟ وكيف أوذي الأحرار وامتحن الثوار وفي مقدمتهم العلماء الأعلام؟ وكيف عوقبت المنطقة الثائرة بالعسف والحرمان؟ وذلك وفق خطة استعمارية مرسومة – فإنّه حديث طويل يثير الشجون، ويمري الجفون"[٥].

---

(١) الحركة الإسلامية الشيعية في العراق. سابق: ٣٩-٤٠.

(٢) دور الشيعة في تطور العراق السياسي الحديث. سابق: ٢٥٦.

(٣) ثورة ١٩٢٠ قراءة جديدة في ضوء الوثائق التاريخية. سابق: ٢٧٧.

(٤) المصدر السابق: ٣٢٨-٣٢٩. على التوالي، نقلاً عن: فقيدنا الكبير. الأيام. العدد ١٢٤ في ١٠ ربيع الثاني. ١٣٨٢/ ١٠ أيلول ١٩٦٢م.

(٥) مقدمة كتاب الثورة العراقية الكبرى سنة ١٩٢٠. عبد الله الفياض. بقلم الشيخ محمّد رضا الشبيبي: ٤ ج.

ومن أجل أن أجلي صورة ما حدث لاحقاً ممّا "يثير الشجون ويمري الجفون" وأسبابه؛ سأعتمد على نقل آراء نخبة من الباحثين العراقيين والأجانب فيما حدث بعد إخماد نار ثورة العشرين؛ مبتدئاً بنقل رأي الباحث الغربي إسحاق نقاش الذي قال: "في مجرى استفتاء (١٩١٩م) والفترة المؤدية إلى ثورة (١٩٢٠م) دفع المجتهدون باتجاه إقامة نظام سياسي في العراق كان له شأنه لو نجحوا في تحقيق هدفهم أنْ يمكّنهم من الهيمنة على سياسة الدولة الجديدة منذ ميلادها، ففي الوقت الذي أُقيم فيه النظام الملكي في العراق كانت قوة الإسلام الشيعي قد بلغت ذروتها، وكان بمقدور المؤسسة الدينية الشيعية أن تزاحم أي حكومة عراقية على النفوذ بين السكان المحليين وتعبئتهم، وكان وجود مؤسسة دينية على هذا القدر من الاستقلال والنشاط السياسي يشكّل خطراً على الدولة العراقية الوليدة، لذا سعت الحكومات السنّيّة المتعاقبة إلى اجتثاث سلطة المجتهدين الشيعة، والمؤسسات الشيعية في البلاد"، كما "أنّ فيصل (كذا) الذي كان يدرك أهمية الحد من السلطة السياسية للمجتهدين اغتنم فرصة رحيلهم إلى إيران للعمل من أجل هذا الهدف"[١].

ويقول الكاتب الكويتي د. عبد الله النفيسي: لقد "أدرك (الوطنيون) هذا الأمر، فدأبوا على تحطيم قوة العلماء، وسلطة شيوخ القبائل، كما أنّ (الوطنيين) أدركوا في جلاء أنه إذا عجزوا عن أن يقضوا على سلطة هاتين الفئتين: العلماء والشيوخ؛ فإنّهم لن يستطيعوا الاحتفاظ بقوتهم ومكانتهم. لهذا السبب كان المعتدلون من (الوطنيين) يرون أن خلاصهم الوحيد هو بقاء الإنكليز في البلاد لكي يساندوا هذه السياسة: سياسة القضاء على قوة العلماء، والشيوخ، ويعضّدوها"[٢].

لقد كتبت المس بيل في رسالة مؤرخة بتاريخ (٧/ ٢/ ١٩٢١م) واصفة الحكومة العراقية حينها بأنها: "سنّيّة أساساً، وثمّة تصميم على أن تبقى سنّيّة"[٣]، مُطَمْئِنة

(١) شيعة العراق. سابق: ١٦٢.

(٢) دور الشيعة في تطور العراق السياسي الحديث. سابق: ٢٥٥.

(٣) ثورة ١٩٢٠ قراءة جديدة في ضوء الوثائق التاريخية. سابق: ٢٥١-٢٥٢.

بذلك السنّة الذين كانوا "يخشون اجتياح الشيعة لهم"[١]؛ كونها، وكونهم، يعلمون حق العلم بأنّ "غالبية سكان بلاد ما بين النهرين من الشيعة"[٢]، كما تقدم.

لقد كانت متبنيات المس بيل العدائية شديدة و"عميقة حيال الشيعة، كما كانت قليلة الاصطبار على الزعماء الدينيين المشاكسين -المناوئين للاحتلال- أولئك الذين كانت على يقين من أن لهم الضلع الأكبر في الثورة على البريطانيين عند نهاية الحرب -العالمية الأولى-، وكانوا على الدوام شوكة في خاصرة زملائها في إيران المجاورة. وقد بادلها علماء الشيعة ذلك الشعور بمثله فتكوّن لديهم ارتياب واسع بالبريطانيين، واحتقبوا مرارة بسببهم سوف تتقطّر في نفوسهم لسنوات وسنوات"[٣]، لاقوا خلالها الويل والثبور وعظائم الأمور.

لقد كان أخشى ما يخشاه المحتلون الإنكليز هو ما عبّرت عنه المس بيل بقولها: "إنّ السلطة في النهاية يجب أن تكون في أيدي السنّة، بالرغم من أقلّيّتهم العددية، وإلّا فستكون لنا دولة يسيّرها المجتهد وهو أمر خبيث جدّاً"[٤]، أو وفق ترجمة أخرى "وهي الشيطان نفسه"[٥].

وعلى هذا التصميم الذي ذكرته المس بيل، جاء الإنكليز بفيصل و"عهد بدولة العراق الجديدة إلى السنّة"[٦] والإنكليز من ورائهم؛ "من أجل تمكين أقلّيّتهم المفضّلة"[٧] المنقادة لمخططاتهم، المطيعة لإرادتهم، المنفذة لسياستهم. ولولا القوة الإنكليزية الضاربة لَما استطاع الملك وحكوماته السنّيّة من استمرار الإمساك بزمام السلطة.

---

(١) اختراع الشرق الأوسط الحديث. صناع الملوك. سابق: ٢٥٢.

(٢) المصدر السابق: ٢٤٥.

(٣) صحوة الشيعة. سابق: ١٨٣-١٨٤.

(٤) اختراع الشرق الأوسط الحديث. صناع الملوك. سابق: ٢١٢.

(٥) ثورة ١٩٢٠ قراءة جديدة في ضوء الوثائق التاريخية. سابق: ٢٥٢.

(٦) صحوة الشيعة. سابق: ١٨٤.

(٧) اختراع الشرق الأوسط الحديث. صناع الملوك. سابق: ٢٥٣.

يقول المفوض السامي البريطاني في العراق هنري دوبس متحدّثاً عن عقد العشرينيّات من القرن الماضي: "إنّه لو انسحبت القوات الجوية البريطانية والتحالف البريطاني معها؛ فإنّي أعتقد أنّ الحكومة العراقية كانت إمّا تلاشت كلّيّاً خلال أشهر قليلة، أو بقيت ملتصقة بشكل يائس بشريط من الأرض على امتداد دجلة بين سامراء والكوت فقط، بينما انشقت بقية البلاد"(١).

وبناء على ذلك تم تشكيل الحكومات العراقية السنّيّة المتعاقبة في الحقبة الملكية كلها وفقا لِما يلي:

أولاً: "كانت نسبة الشيعة بمنصب رئيس الوزراء في العهد الملكي ابتداء من سنة (١٩٢١م – ١٩٥٨م)، رغم أنهم يشكلون الأغلبية العددية من السكان: (٥) خمسة رؤساء وزراء فقط، من أصل (٥٨) ثمانية وخمسين رئيسا للوزراء في العراق، أي بنسبة قدرها (٦ ,٨)"(٢).

ثم إنّنا نلاحظ "قبل سنة ١٩٤٧ لم يكن شيعي واحد قد وصل إلى منصب رئاسة الوزراء، بمعنى أنّه لم يتعين أي رئيس وزراء شيعي خلال سنوات تولي فيصل الأول عرش العراق، ثم، وبين سنتي (١٩٤٧ و١٩٥٨) وصل أربعة من الشيعة إلى هذا المنصب... ومع ذلك فلم يكن للشيعة أبداً وزن تقريري على المستوى الحكومي"(٣)، حيث "ظل الكثير من السلطة بأيدي الوزراء السنّة الذين كانوا يشغلون غالبية المناصب الحساسة"(٤) أو "قطاعات الدولة الحساسة مثل الدفاع وقوات الشرطة والمالية محصورة في السنّة"(٥).

---

(١) العراق. الكتاب الأول. الطبقات الاجتماعية والحركات الثورية من العهد العثماني حتى قيام الجمهورية. سابق: ٤٣.

(٢) العراق. حنا بطاطو. الكتاب الأول. الطبقات الاجتماعية والحركات الثورية من العهد العثماني حتى قيام الجمهوري: ٢١٩، وتنظر أسماء رؤساء الوزراء، وعدد مرات تسلم كل منهم للمنصب، ومدة بقائه فيه، وتاريخ ولادته ومكانها، ومستوى تعليمه، ومهنته أو عمله قبلاً، وأصله الطبقي: ٢١٢-٢١٩.

(٣) المصدر السابق: ٦٨.

(٤) شيعة العراق. سابق: ٢٢٩.

(٥) الشيعة العرب المسلمون المنسيون. غراهام إي فولر و رند الرحيم: ١٢٧.

ثانياً: كانت نسبة الشيعة في المناصب الوزارية، خلال العهد الملكي (١٩٢١م – ١٩٥٨م) باستثناء منصب رئيس الوزراء المتقدم ذكره، كالتالي:

» (١٩٢١م – ١٩٣٢م)، (٢٠) منصباً فقط، من أصل (١١٣) منصباً، بنسبة (٧, ١٧٪).

» (١٩٣٢م – ١٩٣٦م)، (٩) مناصب فقط، من أصل (٥٧) منصباً، بنسبة (٨, ١٥٪).

» (١٩٣٦م – ١٩٤١م)، (١٨) منصباً فقط، من أصل (٦٥) منصباً، بنسبة (٧, ٢٧٪).

» (١٩٤١م – ١٩٤٦م)، (٢٥) منصباً فقط، من أصل (٨٩) منصباً، بنسبة (١, ٢٨٪).

» (١٩٤٧م – ١٩٥٨م)، (٨٧) منصباً فقط، من أصل (٢٥١) منصباً، بنسبة (٧, ٣٤٪).

» (١٩٢١م – ١٩٥٨م)، (١٥٩) منصباً فقط، من أصل (٥٧٥) منصباً، بنسبة (٧, ٢٧٪)[١].

لقد لخصت الباحثة جويس ويلي تشكيلة الحكومات العراقية في العهد الملكي بقولها: "كانت الحكومة التي تشكلت في نهاية الأمر بجهود من البريطانيين قومية عربية علمانية تتألف حصراً من الحضريين السنّة تقريباً"[٢].

وعلى هذا التصميم نفسه كان حكّام العراق السنّة "يحجمون عن تعيين الشيعة في الجهاز الإداري والخدمة المدنية، وهكذا في عام (١٩٢١م) على سبيل المثال لم يكن هناك شيعي واحد على قائمة المرشحين لخمسة مناصب متصرفي الألوية، وكان هناك شيعي واحد فقط من بين تسعة مرشحين لمدراء الأقضية، ثم وعلى امتداد عقد

(١) العراق. حنا بطاطو. الكتاب الأول. الطبقات الاجتماعية والحركات الثورية من العهد العثماني حتى قيام الجمهوري: ٦٩.

(٢) الحركة الإسلامية الشيعية في العراق. سابق: ٥٢.

العشرينات لم يكن لدى الشيعة إلّا نصيب صغير من المناصب الحكومية العامة. وفي عام (١٩٣٠م) قدر أنّه في الوقت الذي كان للأكراد الذين يشكلون (١٧٪) من السكان، يشغلون (٢٢٪) من المناصب الحكومية العليا؛ فإنّ الشيعة الذين يشكلون أكثرية السكان كانوا يحتلون (١٥٪) فقط من هذه المناصب"[١].

وكذلك الحال في مجلس النواب وإن كان بدرجة أخف؛ فـ"في البرلمان في دورته الثالثة كانت نسبة النواب الشيعة واطئة لا تمثل نسبتهم السكانية. مثلاً في بغداد تسعة نواب مسلمين جميعهم من السنة، واثنان من اليهود، ونائب مسيحي، دون وجود أي مسلم شيعي"[٢].

"وكانت مناطق الجنوب يمثلها نواب تعيّن الحكومة نصفهم من السنّة، والذين لم يسبق لهم زيارتها، أو ربما كانوا لا يعرفون أين تقع، وكان الأمر سيبدو أقل فجاجة لو أنهم عيّنوا ولمرة واحدة فقط نائباً شيعيّاً ليمثّل منطقة سنّيّة"[٣].

ولم يختلف وضع حكام الألوية والمدن عن ما تقدم أيضاً، ففي رسالة كتبتها المس بيل قالت: "تجري الآن دراسة عدد من العينات الإدارية في الأقاليم، جميع الأسماء المرشحة تقريباً من السنّة حتى للأقاليم الشيعية على نهر الفرات مع استثناء كربلاء والنجف حيث لا يملك حتى البريطانيون قدراً من الصلافة والجرأة يمكنهم من اقتراح شخصيات سنّيّة"[٤]، غير أنّ الأمر انتهى بأنْ "عيّنوا متصرفين وقائمقامين سنّيّين في المناطق التي غالبية السكان فيها من الشيعة في جميع أرجاء منطقة الفرات"[٥].

وبتفصيل أكثر فيما يتعلق بتوزيع المناصب الإدارية العليا، قالت كلّ من الباحثة

---

(١) الطائفية السياسية ومشكلة الحكم في العراق. سابق: ٨٨.

(٢) المصدر السابق نفسه: ٨٦.

(٣) خطايا العهد الملكي. سابق. نقلاً عن مشكلة الحكم في العراق. عبد الكريم الأزري: ١١٠-١٢٢.

(٤) اختراع الشرق الأوسط الحديث. صناع الملوك. سابق: ٢٥٢.

(٥) دور الشيعة في تطور العراق السياسي الحديث. سابق: ٢١٧.

الأمريكية د. فيبي مار، والباحثة جويس ويلي بأنه: "في ١٩٢٠ أناط أول مجلس للدولة الإدارة بالسنّة، ولم يُعيّن شيعي بين عشرة متصرفين، و(٣٥) قائمقاماً، و(٨٥) مدير ناحية، عدا المدن المقدسة"(١).

أما ما زعمه البعض من أنّ الشيعة يفتقرون إلى شهادات تؤهلهم لتولي المناصب العليا؛ فهو غير صحيح ومجافٍ للحقيقة؛ لأن رئاسة الوزراء مثلاً تولاها سنّي وهو لا يملك شهادة تؤهله لذلك، فلماذا جاز هذا للسني ولم يجز للشيعي؟! فمثلاً: "عبد المحسن السعدون رئيس الوزراء -لثلاث مرات- خريج مدرسة العشائر بإسطنبول (تساوي الابتدائية)، بينما الكاتبان الشيعيان الكبيران: عبد الرزاق الحسني وعبد الرزاق الهلالي ظلّا موظفَي سكرتارية حتى سقوط العهد الملكي. وأحمد السالم (الذي يجيد الإنكليزية والتركية والفارسية) ظلّ في العشرينات مدير ناحية، بينما زملاؤه السنّة لا يمكثون في المنصب أكثر من سنة، ثم يُرقّون لمنصب القائمقام لسنة أخرى، ثم المتصرف، فالوزارة... يقول السياسي السنّي الكبير كامل الجادرجي عن نوري السعيد: كان يريد أن يجعل من أبناء السنّة خريجي جامعات وأبناء الشيعة عمّالاً"(٢).

أمّا وضع الجيش فلم يختلف عن وضع توزيع كبار المسؤولين في الدولة، والبرلمان أيضاً، بل "أكثر من ذلك في الجيش العراقي في الثلاثينات كان الضباط سنّة، أمّا الأفراد الذين يقودهم هؤلاء الضباط فكانوا يؤخذون في أكثريتهم من العشائر الزراعية الشيعية في الجنوب"(٣).

ولذلك فقد "اشتكى النواب الشيعة عام (١٩٥٤م) عند وزير الدفاع إسماعيل نامق من القبول في الكلية العسكرية، ولكن القبول لم يتغير، وظلت نسبة السنّة

(١) تاريخ العراق المعاصر-العهد الملكي. سابق: ٦٠. والحركة الإسلامية الشيعية في العراق. سابق: ٣٧.

(٢) مقال في الرد على من يزعم بأنّ الشيعة أحجموا عن الوظائف في العهد الملكي. جعفر عبد الزهراء الحسني. رسالة عبر الواتساب في: ٣/ ١/ ٢٠٢٣م.

(٣) العراق. الكتاب الأول. الطبقات الاجتماعية والحركات الثورية من العهد العثماني حتى قيام الجمهوري. سابق: ٦٦.

(٨٠٪) ونسبة الآخرين من أكراد وشيعة وأقليات -وهم الأغلبية العددية الكاسحة- (٢٠٪) حتى سنة (٢٠٠٣م)"[١].

كما كانت "قوات الشرطة والمالية محصورة في السنة"[٢].

أمّا إذا انتقلنا إلى قطاع التعليم الحوزوي فستبدو لنا صورة تحجيمه قدر المستطاع، حيث "عرقلت الحكومة دور مؤسسات التعليم العالي الشيعي"[٣] ما استطاعت إلى ذلك سبيلاً.

أمّا ما يتعلق بالتعليم الحكومي الرسمي وهو قطاع مهم للتنشئة الاجتماعية والوطنية؛ فسيظهر لنا جليّاً أنّه "خلال العقد الأول من الحكم الملكي لم يكن الشيعة ممثّلين تمثيلاً حسناً في الوظائف التعليمية ضمن نظام التعليم الرسمي، حيث كان القسم الأعظم من هذه الوظائف يشغلها سوريون وسنّة آخرون من خريجي نظام التعليم العثماني"[٤] بعد أن استقدمهم ساطع الحصري الذي "أرسل عليه الملك فيصل في ١٩٢١... للمجيء إلى بغداد -وعيّنه- مديراً عامّاً للمعارف للفترة من ١٩٢٣ إلى ١٩٢٧ -والذي- لم يتردد في استقدام المدرّسين العرب من خارج العراق. وكان برنامجه المطبّق في المدارس الحكومية... يهدف إلى تعزيز القومية العربية"[٥] الشوفينية العنصرية الطائفية، "التي تتجاهل الخصائص العشائرية القوية للمجتمع الشيعي العراقي[٦]، تلك الفلسفة التربوية التي أخصر ما يقال في تعريفها إنّها وضعت "إخلاص الشيعة وأصلهم الإثنِيّ موضع تساؤل بصورة متكررة... وتحت يافطة الشعوبية صوروا المذهب الشيعي على أنّه هرطقة هدامة مدفوعة أساساً

(١) مقال في الرد على من زعم بأن الشيعة أحجموا عن الوظائف في العهد الملكي. سابق. رسالة عبر الواتساب في: ٣/ ١/ ٢٠٢٣م.

(٢) الشيعة العرب المسلمون المنسيون. غراهام إي فولر و رند الرحيم فرانك: ١٢٧.

(٣) شيعة العراق. سابق: ٢٣.

(٤) المصدر السابق نفسه: ٢٠٦.

(٥) الحركة الإسلامية الشيعية في العراق. سابق: ٣٨.

(٦) شيعة العراق. سابق: ٢٠٩.

بحقد الفرس على العرب... لقد كان الشيعة العراقيون في الغالب عرباً من أصل عشائري"[١]؛ ونتيجة لهذه السياسة التعليمية الطائفية العنصرية الشوفينية فقد "امتعض الشيعة من نقص الموارد المخصصة للتعليم في الألوية الشيعية، وضآلة عدد الشيعة من بعثات الطلبة العراقيين الذين يُرسَلون للدراسة في الخارج، واحتجوا على معارضة الحصري لفتح مدرسة ثانوية في النجف ودار معلمين في الحلة، وعلى قراره بإلغاء مديرية التربية في الفرات الأوسط في عام ١٩٢٥"[٢].

وقد تقدم الحديث عن دوره الخطير في إعداد جيل بل أجيال على عقيدته الطائفية الشوفينية المعادية.

وكمثال على التفاوت الكبير في أعداد طلاب البعثات العلمية العراقية الموفدة إلى خارج العراق؛ يقول الوزير الأسبق عبد الكريم الأزري وسكرتير وزارة المعارف قبل ذلك أي في سنة ١٩٣١ وما بعدها، مستذكراً ما وجده حين تولّيه منصب سكرتارية وزارة المعارف: "لا أتذكر تماماً عدد طلاب البعثة العلمية الموفدة إلى خارج العراق في السنة الدراسية ١٩٣١-١٩٣٢، ولكنّي أتذكر أنّ عدد الطلاب في البعثة من الشيعة كان أقل بكثير من عدد اليهود... وقد رأيت أن لا فائدة من المناقشة في هذا الموضوع بعد أن قُضي الأمر وتم إيفاد البعثة العلمية. وقد حدث حادث ليس غريباً ولا غير متوقع للبعثة المذكورة. لقد كان معظم طلاب البعثة العلمية المذكورة إلى صفد في فلسطين لكي يدرسوا اللغة الإنكليزية هناك ويتقنوها تمهيداً لإيفادهم إلى إنكلترا وأمريكا. وهناك في صفد التحق أحد طلاب البعثة المذكورة من اليهود... بإحدى المنظمات الصهيونية التي تبنته"[٣].

ولو انتقلنا إلى المشاريع التي تعتمد على الدعم الحكومي لوجدنا التمييز بين العراقيين واضحاً؛ "فقد كانت الصناعة العراقية الخاصة الفتيّة، منذ البداية،

(١) المصدر السابق نفسه: ٢١٠.

(٢) المصدر نفسه: ٢٠٩.

(٣) تاريخ في ذكريات العراق ١٩٣٠-١٩٥٨. عبد الكريم الأزري: ١/ ٣-٣١.

وبشكل عام – بيد السنة، وبقيت كذلك. وقد يكون لهذا علاقة بحقيقة أنّ الصناعة كانت تعتمد إلى حدّ غير قليل، وفي بداياتها على مساعدة الحكومة ودعمها"[١]، ويضيف الباحث حنا بطاطو في مكان آخر من كتابه وهو يتحدث عن أصحاب المصانع الجدد قوله: "كان هذا العنصر مؤلفاً بشكل طاغٍ من عائلات سنّيّة، ولا يصعب فهم السبب فأصحاب رأس المال السنّة... كانوا بشكل عام يجدون صعوبة أقلّ في الحصول من الحكومة على مساعدة قانونية أو مالية كان تقدّم المصانع يعتمد عليها كثيراً... ووجدت سيطرة السنّة على ميدان الصناعة تعبيراً لها في تكوين المجلس الإداري لاتحاد الصناعات"[٢].

وأما مسالة الأوقاف فحدث عنها ولا حرج؛ ذلك أنّ "الحكومة لم تسيطر على الأوقاف الشيعية فحسب، بل وخصصت كل العوائد المتحققة من الأوقاف في العراق لصالح السنّة وحدهم"[٣].

أما أمر مشاريع البنية التحتية، فقد كانت هي الأخرى من قبيل ما تقدم؛ ذلك أنّ مشاريع الإعمار كانت توضع وتُصمم على أساس طائفي غالباً، "وتكفي هنا الإشارة إلى أن كانت أطول الطرقات المعبدة أو المسفلتة ازداد من حوالي (٥٠٠ ميل) ربما في العام (١٩٤٤م) إلى حوالي (١٦٠٠ ميل) في العام (١٩٥٥م)، وكان معظم هذه الطرقات يوجد في الأجزاء الوسطى والشمالية من البلاد، وكانت تنطلق من بغداد ومراكز أخرى مثل الموصل وكركوك.

أما الجنوب فاستمر يرتبط إلى حد كبير بواسطة طرق ترابية كانت معرّضة لأن تغرق في الوحل، وتحفر فيها الأخاديد بعد الفيضان أو هطول المطر، وكذلك فقد بقيت مناطق الإنتاج الزراعي أيضاً، وبشكل عام، غير مربوطة بخطوط مواصلات

---

(١) العراق. الكتاب الأول. الطبقات الاجتماعية والحركات الثورية من العهد العثماني حتى قيام الجمهوري. سابق: ٦٩.

(٢) المصدر السابق: ٣١١-٣١٢.

(٣) شيعة العراق. سابق: ٤١٨.

فرعية تصل إلى شبكة الطرق الرئيسية"[١]، وعلى هذه فَقِسْ ما سواها.

ولا يسعني استعراض بقية أنواع التمييز السياسي الطائفي ضد شيعة العراق فهي كثيرة ومتعددة الأوجه ومتنوعة المسالك. ويمكن لمن أراد الاطلاع أكثر على الطائفية السياسية في العراق أن يراجع كتاب: (مشكلة الحكم في العراق من فيصل إلى صدام)[٢]، أو كتاب (الطائفية السياسية ومشكلة الحكم في العراق)[٣]، وأمثالهما.

وعلى الإجمال فليس أدل على ذلك مما أورده الملك فيصل الأول في مذكرته قبيل وفاته، وهي مهمة ومعروفة؛ فقد ورد فيها قوله: "العراق مملكة تحكمها حكومة عربية سنّيّة مؤسسة على أنقاض الحكم العثماني، وهذه الحكومة تحكم قسماً كرديّاً أكثريته جاهلة... وأكثرية شيعية جاهلة منتسبة عنصريّاً إلى نفس الحكومة إلّا أنّ الاضطهادات التي كانت تلحقهم من جرّاء الحكم التركي الذي لم يمكنهم من الاشتراك في الحكم وعدم التمرّن عليه والذي فتح خندقاً عميقاً بين الشعب العربي المنقسم إلى هذين المذهبين... ولا أرغب أن أبرر موقف الأكثرية الجاهلة من الشيعة وأنقل ما سمعته أُلوف المرّات وسمعه غيري... أنّ الضرائب على الشيعي، والموت على الشيعي، والمناصب للسنّي. ما الذي هو للشيعي حتى أيامه الدينية لا اعتبار لها"[٤].

هذا الوضع هو ما كان خلال عقد من الزمان كان فيه فيصل ملكاً، وقد استمر هذا الوضع ليس على الحقبة الملكية فحسب، بل "طوال العقود الثمانية اللاحقة"،

---

(١) المصدر السابق نفسه: ٥٠-٥١.

(٢) مشكلة الحكم في العراق من فيصل إلى صدام. عبد الكريم الأزري ط١. لندن. المملكة المتحدة. ١٩٩١م.

(٣) الطائفية السياسية ومشكلة الحكم في العراق. عبد الخالق حسين. الصادر عن دار ميزو بوتاميا بالتعاون مع مكتبة عدنان. بغداد. ٢٠١١م.

(٤) ما بين الأقواس مقتبسة من مذكرة الملك فيصل الأول السرية. مشكلة الحكم في العراق. عبد الكريم الأزري: ٤. وينظر: الملحق الأول في مذكرات جعفر العسكري: ١٩٣-١٩٥. ومشاريع إزالة التمييز من مذكرة فيصل إلى مجلس الحكم. سابق: ١٦-٢٧.

حيث حكمت أقلّيّة سنّيّة مضطهِدة يحكّمُها الإنكليز بأغلبية شيعية مضطهَدة، وأغلبية شيعية مهمشة "يعيشون كأقلّيّة"[١] على فتات الحواف البائسة للدولة.

يقول الشيخ فريق المزهر أحد رجال الثورة ومؤرخيها متحدّثاً عن نهاية الثورة وكيف انقلبت الآية: "وإذا بالجو يصفو للإنكليز والمتكالبين على كراسي الحكم، وإذا بالمخلص الغيور يجيل نظره يمنة ويسرة ليجد من يساعده ويسانده فلم تقع عينه على الأكثر إلّا على جاسوس يتعقبه أو عين ترصده... فقد انقلب الأمر رأساً على عقب وعاد أولئك الذين بنوا أركان الدولة على جماجم شهدائهم وبذلوا من أجل الثورة التي خلقت الدولة كل ما يملكون من مال وبنين... مطارَدين، وياليت المطاردة كانت من الإنكليز... الأعداء المحتلين، بل كانت من أولئك الذين ساعدوا الإنكليز... والآن أصبحت الوطنية خرافة من خرافات الأساطير الأولى... وهكذا بعد تلك التضحيات الجسام صار الوطنيون بين نارين، نار الإنكليز ونار الذين حكموا مستندين على ولائهم للإنكليز"[٢].

ولم يقتصر هذا التهميش على "التآكل التدريجي لحقوق الشيعة وإنهاك مستمرّ لمجالهم السياسي والاقتصادي والاجتماعي" فحسب، بل تمّ "التلاعب الفاضح بأعزّ مصدر من مصادر مآثرهم وفخرهم، أي تراثهم الثوري.

لقد جرى "تأميم" ثورة ١٩٢٠ لتصبح ثورة للعراقيين بأسرهم، فخصصت منها حصص ليس فقط لأولئك الذين لم يتسنّ لهم المشاركة فيها، بل لأولئك الذين لم يدّخروا جهداً في شجبها أيضا"[٣].

وإجمالاً يقول الباحثان غراهام إي فولر ورند الرحيم فرانك: "نظر السنّة -وعلى الرغم من خصوماتهم- إلى الدولة على أنها حزبهم، وإلى أنفسهم على أنهم حزب الدولة مع وجود مجال للتعبير الجمعي عن الذات والإنجاز ضمن نظام

(١) صحوة الشيعة. سابق: ١٨٤.

(٢) الحقائق الناصعة في الثورة العراقية. سابق: ٥٩٣.

(٣) ثورة ١٩٢٠ دراسة جديدة في ضوء الوثائق التاريخية: ٢٨٠.

الدولة القائم، وحتى عندما كانوا يعارضون حكومة معينة في وقت معين كانت سياسات المعارضة داخل الإطار السياسي إلى حدّ كبير منافسة على السلطة من الداخل بين الفصائل السنّيّة"[١].

ويضيفان متحدّثين عن مشكلة الشيعة العويصة في دولهم العربية قائلين: "إنّ الشيعة يشكلون الآن مجموعة خاصة لا يُعترف بها على أنها أغلبية -في البلدان التي يشكلون فيها أغلبية- ولا على أنها أقلّيّة حيث ينبغي منحهم حقوق الأقلّيّة، وفضلاً عن ذلك يواجه الشيعة عدداً من المعضلات تكاد تكون مستعصية، فالشيعة عرب ومع ذلك يُعاملون في الواقع على أنهم غير عرب، وهم مسلمون أيضاً ومع ذلك يُعاملون غالباً على أنهم غير مسلمين، فإذا أضعف الشيعة هويتهم الشيعية وحاولوا الاندماج في المجتمع السنّي فسيحرمون من الدخول في المجتمع والسياسة لأنهم شيعة، ومع ذلك إذا أصرّوا على هويتهم الشيعية يتم وصفهم بأنهم انفصاليون وطائفيون"[٢].

لقد كان الأجدر بعد سنة (٢٠٠٣م) أن تميّز هذه المناطق المضحية تمييزاً إيجابيّاً في كل شيء -كما هو الحال في مثيلاتها من الدول المتقدمة- تعويضاً لها على تراكم الكم الهائل من خساراتها في العقود السابقة، وشكراً لها على ما قدمته للعراق وشعبه من تضحيات في الأنفس والأموال والممتلكات من جهة، ولأنّها هي -دون غيرها- التي أجبرت المستعمر على تغيير مخططاته وتصوراته وأفكاره لوضع العراق، من عراق يرزح تحت نير الاحتلال البريطاني المباشر أو غير المباشر بإلحاقه بالهند؛ إلى دولة عراقية مستقلة، وغير ذلك كثير. لا أن نجد العكس تماماً، ولا أدل على ذلك من أنّ أعلى نسب الفقر في العراق بعد حوالي عقدين من نهاية الحكم الدكتاتوري الطائفي هي في مناطق ومدن ثورة العشرين، فها هي ذي محافظة السماوة ترزح تحت أعلى مستوى للفقر في العراق تجاوز الـ(٥٠٪) حسب آخر الإحصائيات

(١) الشيعة العرب المسلمون المنسيون. سابق: ١٢٨.

(٢) المصدر السابق: ٣١٧-٣١٨.

الرسمية التي أصدرتها وزارة التخطيط العراقية، وقريب منها محافظة الديوانية وهلمّ جرّاً.

وستبقى تعاني وتعاني حتى تأخذ زمام استعادة واسترجاع حقوقها بأيديها عملاً بالقول المشهور: "ما ضاع حقٌّ وراءه مُطالِب"، لا بالأقوال التي لم تعد تجدي نفعاً، بل بالأفعال حتى يمنّ الله عليهم بما وعد في قرآنه الكريم: ﴿وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ ٱلْوَٰرِثِينَ﴾[1]، والحمد لله أولاً وآخراً والصلاة والسلام على رسولنا محمّد وآل بيته الطيّبين الطاهرين.

***

وإذا كان لي أن أختم هذا الفصل بما ناله المضحون المبدئيون من ثورتهم الكبرى؛ فإنّي أختمه بما أجاب به أحدهم وهو الشيخ محمد رضا الشبيبي عن سؤال وُجّه إليه بقوله: "إنّ الغايات التي استهدفها كثير من المجاهدين المخلصين من جهودهم في الثورة وما قبلها وما بعدها؛ لا تعدو فيما نرى إرضاء ضمائرهم وإبراء ذمتهم... وهذا كله أعني راحة الضمير، وبراءة الذمة، وأداء الواجب المفروض – قد حصلنا عليه على أكمل وجه، وهو خير نتيجة لجهاد المجاهدين.

لا تقاس نتائج مثل هذا الجهاد بالحصول على المكافأة المادية أو على المناصب أو على الجاه الباطل. وطالما كوفئ المجاهدون حقّاً بالأذى والحرمان فصبروا صبر الكرام، وهذا ما وقع فعلاً، وطالما كوفئ المقصرون العاقّون وبلغوا مقاصدهم الدنيوية. ولا ينبغي قطّ أن يُغبطوا على ما حصلوا عليه من متاع الدنيا الذي يستمتعون به إلى حين... ما كانت الوطنية الحقّة يوماً من الأيام ضرباً من المساومة والمقايضة، وما كانت الوطنية يوماً من الأيام صفقة تجارية"[2].

❀ ❀ ❀

(١) سورة القصص. آية: ٥.

(٢) الحقائق الناصعة في الثورة العراقية. سابق: ٥٧٥-٥٧٦.

الخاتمة

لقد كُتب عن ثورة العشرين -منذ اندلاعها وحتى مضي قرن كامل- الكثير، وعلى الرغم من ذلك فإنّ جوانب عديدة من هذه الثورة العراقية الكبرى لم يقف عليها الدارسون وقفة بحث وتحليل، أو لم تحظَ بالاهتمام الكافي من قبلهم.

لذا فقد سعى هذا الكتاب إلى إلقاء الضوء على قسم منها فبحثها وحلل مجرياتها وكوّن رأيه ورؤيته الخاصة بها، ومن ذلك أنّ مراجع هذه الثورة وعلماءها ومفكريها وحركييها هم من دعاة الحركة الدستورية (المشروطة)، يقف على رأسهم سماحة المرجع الأعلى الشيخ محمّد تقي الشيرازي وسماحة المرجع الأعلى الخلف شيخ الشريعة الأصبهاني، ومعهم مراجع ومجتهدون كأصحاب السماحة المراجع الشيخ مهدي الخالصي مرجع الكاظمية والسيد أبو الحسن الأصفهاني والشيخ محمد حسين النائيني، وغيرهم ممّا لا يسع المجال لاستعراض أسمائهم.

وطبيعي بعد ذلك أن تهدف ثورة العشرين بعد تحرير العراق تحريراً تامّاً شاملاً من سيطرة المحتلين الإنكليز فتسعى إلى تأسيس دولة عربية إسلامية في العراق يحكمها ملك عربي مسلم مقيد بمجلس تشريعي وطني منتخب يسنّ القوانين وفق مبادئ وقيم الشعب العراقي الإسلامية والوطنية، بموجب نظرية (المشروطة) الدستورية.

وإذ درس البحث مواقف المرجعية بعد الاستفتاء البريطاني على شكل الحكم في العراق؛ وجدها تنحو منحيين؛ **أوّلهما**: منحى سماحة المرجع الأعلى السيد محمّد كاظم اليزدي القاضي بالتحفّظ عن الإجابة على أسئلة السائلين عن تحديد موقف المرجعية العليا من الاستفتاء حين الاستفتاء، وذلك "لأنّ مذهبه وفتواه أن لا يتعرض أو يتدخل في الأوضاع السياسية وتأريخه مع الإيرانية وأحرار الفرس ما يشهد لذلك، فأحجم عن الجواب" و"لزم الصمت"، ولعل لعدم قناعته بالثورة المسلحة حينها

وبشكل نظامها الساعية إليه – دخل في تحفّظه، بل "لقناعته بعدم الجدوى في ذلك".

و**المنحى الثاني**؛ منحى المراجع، كلّ من: الميرزا محمّد تقي الشيرازي المرجع الأعلى حين الثورة، وشيخ الشريعة الأصبهاني المرجع الأعلى الخلف للثورة، والغالبية من المراجع والمجتهدين يومها من أمثال: المرجع الشيخ مهدي الخالصي مرجع الكاظمية، والمرجع السيد أبو الحسن الأصفهاني، والمرجع الشيخ محمّد حسين النائيني من مراجع النجف الأشرف، وغيرهم ممّن وردت أسماؤهم خلال البحث. وهو المنحى القاضي بالدخول في العمل السياسي والسعي لتحرير الأرض العراقية المحتلة بالطرق السلمية ما أمكن، وإلّا فبالقوة الدفاعية المسلحة، ثم إقامة دولة عربية إسلامية التوجّه ملكها عربي مسلم، مقيد بدستور وطني، ومجلس تشريعي، يمثل قناعة غالبية الشعب العراقي المسلم وقيمه الأصيلة.

وخلال تحليل البحث لمواقف المراجع المتقدمة ودواعيها سواء مَن آثر الصمت منهم أم من سعى للثورة وأفتى بوجوبها؛ انتهى إلى أنّ ذلك هو الموقف الطبيعي الموافق لرأي كلٍّ منهم وفق مبناه الفقهي.

فالمراجع كلهم في الوقت الذي يتّفقون على الدعوة إلى الجهاد لتحرير الأرض العراقية من براثن الاحتلال الإنكليزي الغاشم؛ يختلفون في مبانيهم من الدخول في العمل السياسي وعدم الدخول فيه، فسماحة المرجع السيد محمّد كاظم اليزدي كان غير مؤيد للدخول في العمل السياسي ولا مُتَبَنٍّ للنظام الدستوري أو نظرية المشروطة بل مخالف لها، مقابل مُتبني المنحى الثاني من المراجع والمجتهدين وهم دُعاة (المشروطة) أو مؤيدوها أو غير المعترضين على نهجها.

وناقش البحث ما انتهى إليه بعض الباحثين من حصر دواعي ثورة العشرين بتحرير العراق من المحتل غير المسلم؛ فانتهى إلى بطلانها وأثبت ذلك بالأدلة التاريخية وغيرها؛ ذلك أنّ من الطبيعي أنْ تهدف المرجعية العليا والشيوخ والوطنيون وقادة الثورة بعد التحرير إلى تطبيق متبنّياتهم في شكل الحكم الدستوري كونهم من مُتبنّي هذا المنحى فيما لو مسكوا زمام الحكم، لا أنْ يتركوا الناس وشأنهم بعد التحرير

حيث تذهب بهم العواصف والاتجاهات أنّى شاءت، وحين أقول إنّ إثبات ذلك لا يحتاج إلى عناء؛ فلأنّ مَن يعلن الجهاد ضد المحتل بثورة عامة يقدم فيها الخسائر الكبيرة بالأرواح والأموال والممتلكات والمعدات فينتصر، ويتمكن من استلام مقاليد الحكم وإقامة العدل، وتحقيق الأمن، وحفظ النظام؛ ليس له -عقلائيّاً- إلّا أنْ يطبق نظريته الدستورية في شكل الحكم الذي يتبنّاه، وهو واضح.

وإذ درس البحث طرق التعبير عن هدف المرجعية والثوار في وثائق الثورة؛ وجدها تنوعت على ثلاثة أنواع؛ فبعض هذه الوثائق والمضابط اكتفت تبعاً للظرف بذكر الاستقلال التام الخالي من أي تدخل أجنبي؛ وبعضها أضافت إلى ذلك تحديد شكل الحكم المرجوّ بعد الجلاء؛ وبعضها ذهبت إلى أبعد من ذلك فحدّدت -إضافة لشكل النظام والحكومة المطلوبة- تفاصيل هدفها، فطالبت بحكومة عربية إسلامية ملكية دستورية مقيدة بقانون أساسي شرط أن لا تخالف تشريعاته قواعد الشعب الروحية وقيمه الاجتماعية وشعائره الإسلامية منها والوطنية تحت ظل ملك عربي مسلم.

وحين وصل البحث إلى تاريخ صدور الفتوى التاريخية بالثورة المسلحة التي صدرت خلواً من التاريخ المحدد لصدورها؛ انتهى خلافاً لمعظم الباحثين إلى أنها صدرت قبل ظهر يوم (١٥ شعبان ١٣٣٨هـ/ ٤ مايس ١٩٢٠م) بعد الاجتماع التاريخي الموثّق تاريخيّاً بين المرجع الأعلى الشيخ محمد تقي الشيرازي وقادة الثورة بعد منتصف ليلة النصف من شعبان في دار المرجع الأعلى، وبه تجلّت صورة الموقف تماماً عند سماحته بعد تعهُّدات مؤكّدة من القادة والشيوخ بتهيئة مستلزمات الثورة كافة، فأصدر سماحة الشيخ الشيرازي فتواه التاريخية تلك وأعلنها على القادة والشيوخ في اجتماع عقده لهم في داره الكريمة.

ولو تأملنا في صيغة الفتوى لوجدناها مشتملة على مقاطع ثلاثة حددت خارطة طريق الثورة؛ **أولها**: وجوب مطالبة العراقيين بحقوقهم المشروعة. **وثانيها**: وجوب "رعاية السلم والأمن" ضمن مطالبتهم بحقوقهم تلك. **وثالثها**: إذا فشلت المساعي

السلمية للعلماء والشيوخ والوطنيين من ممثلي الشعب العراقي في تحقيق حقوقه الشرعية والوطنية كاملة غير منقوصة؛ حينئذ "يجوز لهم التوسل بالقوة الدفاعية" لتحقيقها.

كما انتهى البحث إلى أنّ ثورة العشرين ثورة فُراتيّة بالدرجة الأساس، فعمادها هم المراجع والقادة وشيوخ العشائر، ومادّتها البشرية رجال فُراتيّون، وأنّ أغلب معاركها وأشدها وأقساها ضراوة دارت رحاها على ثرى الفرات، وأنّ الغالبية العظمى من شهدائها وجرحاها والمتضررين جراءها في مدنهم وقُراهم وأملاكهم ومزارعهم وبيوتهم – هم مجاهدون فراتيون.

وحين نقول إنّ الثورة بالأساس فُراتيّة، فلا يعني ذلك أنها اقتصرت عليهم وحدهم دون غيرهم، بل شاركهم بدرجةٍ مّا، وبدرجات متفاوتة مجاهدو ديالى والرمادي والمنتفق (الناصرية) وربما غيرها أيضاً.

أما بغداد والبصرة والموصل فلم تساهم في الثورة "إلّا بالمنشورات والمظاهرات وبعض المراسلات السرية"[1]، كما أنّ خزان الثورة المادي والتسليحي هو فُراتيّ أيضاً بالدرجة الأساس؛ لأنّ عماد التمويل كان من المرجعية العليا وشيوخ العشائر، وكبار التجار، والمتمولين، والوجهاء المؤمنين من أبناء الفرات في الأعم الأغلب.

كما انتهى البحث أيضاً إلى أنّ عشائر دجلة خذلت الثورة وقادتها خذلاناً أضرّ بها ضرراً كبيراً، بل "لو ثارت تلك العشائر لأصبح وقوع بغداد بقبضة الثوار كقاب قوسين أو أدنى".

ثم إن رفض المرجعية العليا وغالبية مستشاريها للعرض الإنكليزي بالتفاوض تحت الانتداب البريطاني بعد اشتعال الثورة كان رفضاً مبدئيّاً صائباً.

هذا، وقد استعرض البحث أهم المرشحين لعرش العراق، وهم كلّ من: آية الله السيد علي الشيرازي الحسيني نجل المرجع الأعلى السيد محمد حسن الشيرازي

(١) العراق. الكتاب الأول. سابق: ١٤٧.

صاحب ثورة التنباك المعروف بالمجدد، وقد رفض سماحته العرض بالترشح، ولو كان رشح نفسه لحصل على موافقة المراجع والزعماء ورؤساء العشائر والمواطنين دون منازع. والشريف فيصل بن الحسين. والشيخ خزعل الكعبي حاكم المحمرة. والسيد طالب النقيب.

ومن أجل الوقوف على دواعي ترشيح الكثير من مضابط المدن وفي مقدمتها بغداد والكاظمية وكربلاء لأحد أنجال الشريف حسين لعرش العراق؛ تبيّن لي وجود سياستين للشريفيين؛ **أولهما**: سياسة ما قبل اتفاق الشريف فيصل مع الإنكليز في لندن بدعم أبيه الشريف حسين على تتويج فيصل ملكاً على عرش العراق أيام كان الشريفيون يرفعون شعار الثورة العربية الكبرى وتحرير الشعوب العربية من نير الاحتلال التركي، وفي هذه الحقبة التي انتهج فيها الشريفيون هذا النهج رشحته الكثير من مضابط العراقيين لعرش العراق، وفي هذه الحقبة أيضاً كتب المرجع الأعلى الشيخ الشيرازي للشريفيين بتبنّي مطالب العراقيين في مؤتمر باريس، ظانّين أنّ الشريفيين ضد الاستعمار والاحتلال، أيّاً كانت الدولة المحتلة عثمانية تركية أم إنكليزية.

وثاني السياستين للشريفيين ما بعد اتفاق فيصل مع الإنكليز بدعم أبيه على تتويج فيصل ملكاً على العراق، بعد أن تخلّى عن مبادئه وقيمه وطروحاته الوطنية التي كان ينادي بها ويناضل من أجلها أيام ثورة الشريفيين فوافق على شروط الإنكليز المذلّة مقابل عرش العراق.

وقد انتهى البحث إلى أنّ مضابط التوكيل التي وجهتها المدن المهمة إلى الحكومة البريطانية ذاكرة فيها أسماء من يمثّلها من أهاليها ويرفع مطالبها المحددة في تلك المضابط والتي صدرت بعد تلك المضابط الأولى السابقة عليها؛ قد خلت من ترشيح الشريف فيصل لعرش العراق.

ولعل من أهم ما انتهى إليه البحث أنّ ثورة العشرين أقامت أول شكل لنظام حكم وحكومة للثورة في عاصمة الثورة (النجف الأشرف) وفق نظريتهم الدستورية

(المشروطة) بالقدر الذي سمحت لهم به الظروف المعاشة، فبدؤوا بانتخاب هيأة تأسيسية صمّمت شكل النظام وحكومته ابتداء من هيأة عُليا سُمّيت بـ(الهيأة العلمية)، و(مجلس تشريعي) منتخب عبر صناديق الاقتراع، و(حكومة محلية) تتألف من هيأتين: (هيأة أعضاء مجلس الإدارة)، و(هيأة القوة التنفيذية)، و(مجلس بلدي)، و(جهاز أمني) و(جهاز إعلامي) للثورة، وبذلك تكون ثورة العشرين أول حكومة وطنية عراقية، شكلها الثوار العراقيون بمحض حريتهم واختيارهم وانتخابهم في (١٠ ذي الحجة ١٣٣٨هـ/ ٢٥ آب ١٩٢٠م) على الأرجح برئيس حكومة وحكومة تألفت من وزراء عهد لكل منهم حقيبته الوزارية حسب خبرته وتخصصه، سابقة هذه الحكومة الوطنية (بشهرين) على تشكيل أول حكومة عراقية مؤقتة شكّلتها بريطانيا العظمى المحتلة للعراق في بغداد برئاسة السيد عبد الرحمن النقيب بتاريخ (١١ صفر ١٣٣٩هـ/ ٢٥ تشرين الأول ١٩٢٠م) ومتقدمة بـ(سنة ميلادية وسبعة عشر يوماً) على تشكيل أول حكومة عراقية بعد تتويج الملك فيصل الأول برئاسة السيّد عبد الرحمن النقيب في (٩ محرم ١٣٤٠هـ/ ١٢ أيلول ١٩٢١م).

كما انتهى البحث أيضاً إلى امتلاك الثوار العراقيين قدرة تنظيمية جيدة في إدارة المدن بعد تحريرها من المحتلين، سواء ما كان منها تحت سيطرة المحتل العثماني كما حصل في النجف الأشرف مثلاً بعد تحريرها من محتليها العثمانيين؛ أم ما كان منها تحت الاحتلال الإنكليزي كما حصل في مدن: كربلاء، والنجف الأشرف والشامية، والسماوة والرميثة، والديوانية، والكوفة، وبعض مدن المنتفق لمدة قصيرة، وغيرها.

وخلص البحث بعد طرح نظريتين في شكل الحكم والحكومة، هما: نظرية (تنبيه الأمة وتنزيه الملّة) لسماحة المرجع الميرزا النائيني التي شكّل بموجبها قادة ثورة العشرين نظام حكمهم وحكومتهم لعاصمة ثورتهم (النجف الأشرف) بالقدر المتاح نسبيّاً؛ ونظرية (إرادة الأمة) لسماحة المرجع الأعلى المعاصر السيد السيستاني،

والمقارنة بينهما في مبانيهما الأساسية، وانتهى إلى وجود كثير من نقاط الالتقاء بين النظريتين، وقليل من نقاط الافتراق بينهما.

ولم تقتصر مجالات الالتقاء بين النظريتين على أسسهما وركائزهما ومبانيهما التنظيرية فحسب، بل تعدت ذلك إلى مجالات التطبيق العملي أيضاً؛ حيث انتهى البحث إلى وجود تماثل عملي بين موقفي مراجع ثورة العشرين ومرجعية سماحة السيد السيستاني تجلّى في نقاط عديدة، أهمّها: تماثل موقف المرجعيتين الدينيتين بإعلان الجهاد الدفاعي ضد المحتل الغازي بعد اليأس من تحقيق المطالب المشروعة بالطرق السلمية؛ وتماثل موقف المرجعيتين الدينيتين في توحيد صفوف المسلمين سنة وشيعة وجمع شملهم؛ وتماثل موقف المرجعيتين من ضرورة حشد الطاقات الشعبية المؤمنة لتكون رديفاً للقوات المسلحة؛ وتماثل مضامين وصايا وتعليمات المرجعيتين الدينيتين للمجاهدين في سوح الجهاد في القرنين الماضي والحالي؛ وتماثل موقف المرجعيتين الدينيتين من أهمية إبلاغ المنظمة الدولية بمعاناة الشعب وأهم قضاياه المصيرية؛ وتماثل موقف المرجعيتين الدينيتين في إناطة شكل الحكم بقرار المواطنين العراقيين وحدهم دون أدنى تدخل من المحتل؛ وتماثل موقف المرجعيتين الدينيتين من ضرورة تشكيل السلطة التشريعية ومنح الحرية المطلقة للشعب في انتخابها؛ وتماثل موقف المرجعيتين الدينيتين في الحث على منح حقوق المواطنين العراقيين غير المسلمين كاملة، وغيرها.

كما انتهى البحث أيضاً -في إجابته عن مسألة عدم التشابه بين مواقف المرجعيتين الدينيتين في مسألة إعلان الجهاد الدفاعي وعدمه زمن الإحتلالين البريطاني للعراق سنة (١٩١٤-١٩٢٠م) والأمريكي له سنة (٢٠٠٣م)- إلى أنّ ما بدا من اختلافهما في موقفيهما لأول وهلة هو غير دقيق ولا مستوعب للظرفين في زمنيهما، وقد أوضح الفصل السادس عشر ذلك باستفاضة.

وفي حالة مشابهة انتهى البحث أيضاً -في إجابته عن سبب الاختلاف بين موقف المرجعيتين الدينيتين من مسألة الاشتراك في الانتخابات وعدمه خلال

الاحتلالين: البريطاني للعراق سنة (١٩٢٢م، وما بعدها)، والأمريكي له سنة (٢٠٠٥م)-، واتّضح -بعد البحث والتحري- إلى أنّ الاختلاف في الموقفين حقيقتُه أنّه اختلاف ظاهري سطحي لا واقعي حقيقي. وقد شرح الفصل السادس عشر ذلك بتفصيل وافٍ أيضاً.

وانتهى البحث أيضاً إلى أن محصلة ثورة العشرين كانت كبيرة وإنْ لم تحقق كل أهدافها المرجوّة؛ فقد حالت دون تهنيد العراق، أو وضعه تحت الإدارة البريطانية المباشرة، بتنصيب حاكم بريطاني عليه، أو تقسيم العراق ووضع الجنوب أو البصرة منه والناصرية وغيرها تحت الهيمنة البريطانية المباشرة، أو تغيير طبيعته الديموغرافية بجلب جاليات هندية وغير هندية لإسكانها في العراق، أو فصل البصرة عن العراق وتكوين ولايتي البصرة والعراق المتحدّتين، وأمثال ذلك.

ويعود الفضل الأكبر -في إجبار المحتلين الإنكليز على التخلي تحت الضغط الشعبي والعسكري عن مخططاتهم وتصوراتهم المتقدمة والعدول عنها إلى تأسيس الدولة العراقية الحديثة- إلى منطقة الفرات، بمراجعها وشيوخها وأهاليها رجالاً ونساءً، ومدنها وقصباتها وقُراها، متحملين نتيجة مبدئيتهم ووطنيتهم كل ما تحملوا من قتل وتخريب وإقصاء وتهميش وعذابات وتنكيل وتهجير منذ عقود بما لا يستوعب حجمها ومعاناة أهلها إلّا من عايشها حتى سقوط النظام البائد بل حتى اليوم.

أسأل الله عزّ وجلّ أن يتقبّل كتابي هذا بقبوله الحسن الجميل، وأن ينفعني به ﴿يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ۝٨٨ إِلَّا مَنْ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾؛ إنّه أرحم الراحمين.

عبد الهادي السيد محمد تقي الحكيم

النجف الأشرف. العراق

١٤٤٥هـ/ ٢٠٢٤م

مصادر البحث ومراجعه

١. أثر المرجعية الدينية في الدفاع عن العراق خلال مدة الاحتلال البريطاني ١٩١٤-١٩٢٠م. بحث. د. شاكر حسين دمدوم الشطري. ضمن بحوث: المرجعية الدينية العليا وأبرز المواقف الوطنية ١٩١٤- ٢٠١٤. الجزء الثالث من: موسوعة فتوى الدفاع الكفائي. قسم الشؤون الفكرية والثقافية وقسم الإعلام. ط١. العتبة العباسية المقدسة. كربلا. العراق. ١٤٤٢هـ/ ٢٠٢٠م.

٢. الأحلام. الشيخ علي الشرقي. ط١. شركة الطبع والنشر الأهلية. بغداد. العراق. ١٣٨٣هـ/ ١٩٦٣م.

٣. اختراع الشرق الأوسط الحديث. صناع الملوك. كارل إي. ماير و شارين بلير بريزاك. ترجمة: د. فاطمة نصر. ط١. إصدارات سطور الجديدة. القاهرة. جمهورية مصر العربية. ٢٠١٠م.

٤. أربعة قرون من تاريخ العراق الحديث. المستر ستيفن لونكريك. ترجمة. جعفر الخياط. ط ٥. الفرات للنشر والتوزيع. والرافدين للطباعة والنشر والتوزيع. لبنان. بيروت. دون ذكر سنة الطبع.

٥. أساطين المرجعية العليا في النجف الأشرف. د. محمد حسين الصغير. ط١. مؤسسة البلاغ للطباعة والنشر والتوزيع. بيروت. لبنان. ٢٠٠١م. الآداب. النجف الأشرف. العراق. ١٣٨٥ هجرية. ١٩٦٥م.

٦. أعمدة الحكمة السبعة. لورنس. ط ١. المكتب التجاري للطباعة والنشر والتوزيع. بيروت. لبنان.١٩٦٣.

٧. الإمام السيد أبو الحسن. أحد خدام الشريعة. المطبعة الحيدرية. النجف الأشرف. العراق. ١٣٦٦هـ/ ١٩٤٧م.

٨. الإمام المجاهد الشيخ محمد الخالصي. الشيخ هاشم الدباغ. ط١. طهران. إيران. ١٤١٩هـ/ ١٩٩٨م.

٩. أوراق الملك فيصل ملك العراق. محمد يونس العبادي. ط ١. دار ورد الأردنية للنشر والتوزيع. المملكة الأردنية الهاشمية. ٢٠١٤م.
١٠. أوراق اليعقوبي. حصار النجف في الثورة العراقية. ورقة مخطوطة للشيخ محمد علي اليعقوبي تحت عنوان ملف الشيخ محمد علي اليعقوبي. مركز النجف الأشرف للتأليف والتوثيق والنشر. النجف الأشرف. العراق.
١١. أوراق مخطوطة. الشيخ محمد حسين المظفر. مركز النجف الأشرف للتأليف والتوثيق والنشر. النجف الأشرف. العراق.
١٢. بطل الإسلام الشهيد الإمام الشيخ محمد مهدي الخالصي. مذكرات ميدانية بقلم الشيخ محمد بن محمد مهدي الخالصي. ط١. مركز وثائق الإمام الخالصي. طهران. إيران.
١٣. تاريخ العراق السياسي الحديث. السيد عبد الرزاق الحسني. الطبعة السابعة. الرافدين للطباعة والنشر والتوزيع. بيروت. لبنان. ١٤٢٩هـ/ ٢٠٠٨م.
١٤. تاريخ العراق المعاصر. د. جعفر عباس حميدي ود. إبراهيم خليل أحمد. من مشورات. كلية التربية. جامعة الموصل. وزارة التعليم العالي والبحث العلمي. العراق. من دور ذكر سنة الطبع.
١٥. تاريخ القضية العراقية. الشيخ محمد مهدي البصير. تقديم د. غسان العطية. ط٢. لندن. المملكة المتحدة. ١٩٩٠م.
١٦. تاريخ القضية العراقية. محمد مهدي البصير. ط١. ج ١. مطبعة الفلاح. بغداد. العراق. ١٣٤٢هـ/ ١٩٢٣م.
١٧. تاريخ في ذكريات العراق ١٩٣٠-١٩٥٨. عبد الكريم الأزري. ط ١. تنضيد وطبع مركز الأبجدية للصف التصويري. بيروت. لبنان. ١٩٨٢ م
١٨. تاريخ مقدرات العراق السياسية. محمد طاهر العمري الموصلي. ط١. المطبعة العصرية. بغداد. العراق. ١٣٤٣هـ/ ١٩٢٥م.
١٩. تاريخ النجف الأشرف. الشيخ محمد حسين بن علي بن محمد حرز الدين.

ط١. منشورات دليل ما. قم. إيران. ١٤٢٧ هـ.
٢٠. التشيع والدستورية في إيران. دور علماء العراق الشيعة في السياسة الإيرانية. عبد الهادي الحائري. ترجمة عبد الإله النعيمي. ط١. معهد الدراسات الشيعية. واشنطن. الولايات المتحدة الامريكية. ٢٠١٥م.
٢١. تنبيه الأمة وتنزيه الملّة. الشيخ محمد حسين النائيني. ترجمة مشتاق الحلو. مراجعة وتقديم د. عبد الجبار الرفاعي. ط١. مركز دراسات فلسفة الدين. بغداد. العراق. ٢٠١٤م.
٢٢. تنبيه الأمة وتنزيه الملّة. الشيخ محمد حسين النائيني. تحقيق عبد الكريم آل نجف. تعريب عبد المحسن آل نجف. مراجعة وتقديم الشيماء العقالي. دار الكتاب المصري ودار الكتاب اللبناني ومكتبة الإسكندرية. ط ١. ١٤٣٤هـ/ ٢٠١٢م.
٢٣. تهذيب الأحكام في شرح المقنعة للشيخ المفيد (رضوان الله عليه). الشيخ الطوسي قدس سره (ت٤٦٠هـ). حققه وعلق عليه: السيد حسن الموسوي الخرسان. نهض بمشروعه الشيخ علي الآخوندي. ط٤. ١٣٦٥هـ. ش.
٢٤. ثورة ١٩٢٠ الجذور السياسية والفكرية والاجتماعية للحركة القومية العربية الاستقلالية في العراق. د. وميض جمال عمر نظمي. ط٢. المكتبة العالمية. ١٩٨٤.
٢٥. ثورة ١٩٢٠ قراءة جديدة في ضوء الوثائق التاريخية. د. عباس كاظم. ترجمة د. حسن ناظم. ط٢. جامعة الكوفة. سلسلة "دراسات فكرية". بيروت. لبنان. ٢٠٢٠.
٢٦. ثورة العراق التحررية عام ١٩٢٠م. كاظم المظفر. ط٢. ١٤٣٣هـ/ ٢٠١٢م. من دون ذكر اسم المطبعة ولا مكان الطبع.
٢٧. الثورة العراقية الكبرى. السيد عبد الرزاق الحسني. ط١. مؤسسة المحبين. إيران. ١٤٢٦ هجرية.

٢٨. الثورة العراقية الكبرى سنة ١٩٢٠. عبد الله الفياض. ط١. مطبعة الإرشاد. بغداد. العراق. ١٩٦٣.
٢٩. الثورة العربية الكبرى. تاريخ مفصل جامع للقضية العربية في ربع قرن. أمين سعيد. مكتبة مدبولي. القاهرة. مصر. ١٣٥٣ هجرية/ ١٩٣٤م.
٣٠. ثورة العشرين دراسة في الأحزاب السياسية والشبكات الاجتماعية في العراق ١٩٠٨- ١٩٢٠. كيكو ساكاي. ترجمة وتقديم محمود عبد الواحد القيسي. الرافدين ودار ومكتبة عدنان. بغداد. العراق. ٢٠٢٠م.
٣١. ثورة العشرين في ذكراها الخمسين معلومات ومشاهدات في الثورة العراقية الكبرى سنة ١٩٢٠. محمد علي كمال الدين. منشورات دار البيان ٥٢. مطبعة التضامن. بغداد. العراق. ١٣٩١هـ/ ١٩٧١م.
٣٢. ثورة العشرين في صحيفة نيويورك تايمز الأمريكية. بحث. صالح عباس الطائي. مجلة أهل البيت. العدد الرابع عشر.
٣٣. ثورة النجف على الإنكليز أو الشرارة الأولى لثورة العشرين. حسن الأسدي. منشورات وزارة الإعلام العراقية. بغداد. العراق. ١٩٧٥.
٣٤. جامعة النجف. الشيخ محمد تقي الفقيه. موسوعة النجف الأشرف. جمع بحوثها جعفر الدجيلي. ط١. الجزء السادس. بيروت. لبنان. ١٤١٥هـ/ ١٩٩٥م.
٣٥. حجر وطين. الشيخ محمد تقي الفقيه العاملي ط١ ج ٤ مؤسسة جواد للطباعة والتصوير بيروت لبنان. و.ط٢. دار الأضواء للطباعة والنشر والتوزيع. بيروت. لبنان. ١٤١٤هـ/ ١٩٩٤م.
٣٦. حرب العراق الصفحة الأخيرة. المقدم. أي. أج. بيرن. ترجمة عزيز داخل. مطبعة الجيش. بغداد. العراق. دون ذكر سنة الطبع.
٣٧. الحركة الإسلامية الشيعية في العراق. جويس ويلي. ترجمة مصطفى نعمان أحمد و د. هناء خليف غني. ط١. مطبعة الكتاب. بغداد. العراق. ٢٠١١ م
٣٨. حركة التجديد في الحوزة العلمية في العراق إبان الحكم العثماني المباشر

(١٨٣١م–١٩١٨م). د. علاء الدين محمد تقي سعيد الحكيم. رسالة دكتوراه مخطوطة. جامعة الكوفة. ١٤٣٥هـ/ ٢٠١٣م.

٣٩. الحقائق الناصعة في الثورة العراقية سنة ١٩٢٠ ونتائجها. فريق المزهر آل فرعون. ط١. مطبعة النجاح. بغداد. العراق. ١٣٧١هـ/ ١٩٥٢م.

٤٠. الحوزة العلمية المشروع الإسلامي والحضاري. السيد محمد باقر الحكيم. ط٢. إعداد وتحقيق السيد محمود الحكيم. مؤسسة تراث الشهيد الحكيم قدس سره. قم. إيران. من دون ذكر سنة الطبع.

٤١. حول سياسة بريطانيا في العراق ١٩١٣- ١٩٢١.د. فاروق صالح العمر. مطبعة الإرشاد. بغداد. العراق. ١٩٧٧م.

٤٢. حياة الميرزا النائيني. عبد الهادي الحائري. من بحوث كتاب محمد حسين النائيني وتأسيس الفقه السياسي. تأليف عبد الهادي الحائري وآخرين. فارسي. تعريب محمد حسين حكمت. مركز الحضارة لتنمية الفكر الإسلامي. ط١. بيروت. لبنان. ٢٠١٢م.

٤٣. دور الشيعة في تطور العراق السياسي الحديث. د. عبد الله النفيسي. مكتبة آفاق للنشر والتوزيع ٢٠١٢م. ط ١. الكويت. ١٤٣٣هـ/ ٢٠١٢.

٤٤. دور المرجعية الدينية وتشكيل الحكم الوطني في العراق. د. سيف عدنان ارحيم القيسي. بحث ضمن بحوث كتاب: دليل فعاليات وبحوث مهرجان فتوى الدفاع المقدسة الثقافي الثالث. العتبة العباسية المقدسة. قسم الشؤون الفكرية والثقافية. العتبة العباسية المقدسة. الجزء الثاني. الطبعة الأولى. العتبة العباسية المقدسة. كربلاء المقدسة. العراق. ١٤٤٠هـ/ ٢٠١٩م.

٤٥. ذكريات السيد محمد صادق بحر العلوم عن ثورة النجف وثورة العشرين. (مخطوط).

٤٦. الرحلة العلاجية لسماحة السيد السيستاني وأزمة النجف عام ١٤٢٥هـ/ ٢٠٠٤م. حامد الخفاف. ط١. دار المؤرخ العربي. بيروت. لبنان. ١٤٣٣هـ/ ٢٠١٢م.

٤٧. رؤية المرجعية الدينية ومسارات دورها في بناء دولة العراق المعاصر الشيخ محمد تقي الحائري الشيرازي أنموذجاً. د. مقدام عبد الحسن الفياض: بحث. ضمن بحوث: دليل فعاليات وبحوث مهرجان فتوى الدفاع المقدسة الثقافي الثالث. الجزء الأول. قسم الشؤون الفكرية والثقافية. العتبة العباسية المقدسة. ط١. كربلاء المقدسة. العراق. ١٤٤٠هـ/ ٢٠١٩م.

٤٨. الزعيم الموهوب آية الله الأعظم والإمام الأكبر السيد أبو الحسن الأصفهاني. د. موسى الموسوي. نشرت فصول هذا البحث كاملة في صحيفة العدل النجفية. ثم نشرت في المجلد الثالث من كتاب (السيد أبو الحسن الأصفهاني سيرته وأضواء على مرجعيته ومواقفه ووثائقه العلمية والسياسية. د. كامل سلمان الجبوري. دار الضياء. النجف الأشرف. العراق).

٤٩. سقوط العثمانيين الحرب العظمى في الشرق الأوسط. يوجين روغان. ترجمة معين الإمام ط ١. منتدى العلاقات العربية والدولية. قطر. الدوحة. ٢٠١٨م.

٥٠. السلاسل الذهبية. السيد محمد صادق بحر العلوم. مخطوط.

٥١. السيد أبو الحسن الأصفهاني سيرته وأضواء على مرجعيته ووثائقه العلمية والسياسية. د. كامل سلمان الجبوري. ط١. دار الضياء للطباعة والنشر. النجف الأشرف. العراق. ١٤٣٦هـ/ ٢٠١٥.

٥٢. السيد كاطع العوادي ودوره الوطني في الحياة السياسية العراقية ١٩٠٨ – ١٩٤٥. د. جميل موسى النجار. ط١. المكتبة العصرية. بغداد. العراق. ٢٠٠

٥٣. السيد محمد كاظم اليزدي سيرته وأضواء على مرجعيته ومواقفه ووثائقه السياسية. كامل سلمان الجبوري. ط١. منشورات ذوي القربى. إيران. قم. ١٣٨٥ هـ.

٥٤. شيخ الشريعة قيادته في الثورة العراقية الكبرى. ١٩٢٠ ووثائقه السياسية. الشيخ عبد الحسين الحلي. إعداد كامل سلمان الجبوري. ط١. دار القارئ. دار المواهب. بيروت. لبنان. ١٤٢٦هـ/ ٢٠٠٥م.

٥٥. الشيخ محمد تقي الشيرازي الحائري ودوره السياسي من عام ١٩١٨-١٩٢٠م. د. علاء الصافي. ط٢. اللجنة العلمية لمهرجان ربيع الشهادة الثقافي العالمي الخامس عشر. دار الكفيل للطباعة والنشر والتوزيع. كربلاء المقدسة. العراق. ١٤٤٠هـ/ ٢٠١٩م.

٥٦. الشيخ محمد تقي الشيرازي القائد الأعلى للثورة العراقية الكبرى ١٩٢٠. سيرته ومواقفه ووثائقه السياسية. كامل سلمان الجبوري. الكوفة. العراق. ١٤٢٧هـ/ ٢٠٠٦م.

٥٧. شيعة العراق تاريخ. مواقف. السيد محمد باقر الحكيم. ط١. مؤسسة تراث الشهيد الحكيم. النجف الأشرف. العراق. ٢٠٠٥م.

٥٨. شيعة العراق وبناء الوطن. د. محمد جواد مالك. ط١. قسم الشؤن الفكرية والثقافية في العتبة الحسينية المقدسة. كربلاء. العراق.١٤٣٣هـ/ ٢٠١٢م.

٥٩. شيعة العراق. إسحاق نقاش. ترجمة عبد الإله النعيمي. ط١. دار المدى للثقافة والنشر. دمشق. سوريا. وبيروت. لبنان. ١٩٩٦م.

٦٠. صفحات من تاريخ العراق المعاصر دراسات تحليلية. د. كمال مظهر أحمد. ط١. مكتبة البدليسي. بغداد. العراق. ١٩٨٧.

٦١. صفحات من مذكرات السيد أحمد الصافي النجفي أحد رجال الثورة العراقية ١٩٢٠م. تقديم وتعليق كامل سلمان الجبوري. ط ١. مؤسسة البلاغ للطباعة والنشر والتوزيع. بيروت. لبنان. ١٤٢٣ هـ. ٢٠٠٢ م

٦٢. صفحات من مذكرات الشيخ محمد الحسين كاشف الغطاء. منشور ضمن كتاب السيد محمد كاظم اليزدي سيرته وأضواء على مرجعيته ومواقفه ووثائقه السياسية. كامل سلمان الجبوري. ط١. منشورات ذوي القربى. إيران. قم. ١٣٨٥ هـ.

٦٣. الطائفية السياسية ومشكلة الحكم في العراق. د. عبد الخالق حسين. ط١. دار ميزو بوتيما. بغداد. العراق. ٢٠١١م.

٦٤. طبقات أعلام الشيعة. الشيخ أغا بزرك الطهراني. دار إحياء التراث العربي للطباعة والنشر والتوزيع. ط١. بيروت. لبنان. ١٤٣٠ هجرية.
٦٥. العبقات العنبرية في الطبقات الجعفرية. سماحة الشيخ محمد حسين آل كاشف الغطاء. ط١. تحقيق: الدكتور جودت القزويني. بيسان للنشر والتوزيع. بيروت. لبنان. ١٤١٨هـ/ ١٩٩٨م.
٦٦. العراق تأسيس النظام الملكي وتجربته البرلمانية تحت الانتداب البريطاني ١٩٢٠-١٩٣٢. د. محمد مظفر الأدهمي. مكتبة الذاكرة. بغداد. العراق. ٢٠٠٩م.
٦٧. العراق الحديث. تحليل لأحوال العراق ومشاكله السياسية والاقتصادية والصحية والاجتماعية والتربوية. رسالة دكتوراه في كلية المعلمين. جامعة كولومبيا. نيويورك. د. متي عقراوي. تعريب. د. متي عقراوي. و مجيد خدوري. مطبعة العهد. بغداد. العراق: ١٩٣٦م.
٦٨. العراق الحديث من سنة ١٩٠٠-١٩٥٠. ستيفن همسلي لونكريك. ترجمة وتعليق سليم طه التكريتي. ط١. الفجر للنشر والتوزيع. بغداد. العراق. ١٨٨٨م.
٦٩. العراق شهادة سياسية ١٩٠٨- ١٩٣٠. حسين جميل. دار اللام. لندن.
٧٠. العراق. الطبقات الاجتماعية والحركات الثورية من العهد العثماني حتى قيام الجمهورية. حنا بطاطو. الكتاب الأول. ترجمة عفيف الرزاز. الطبعة العربية الثانية. مؤسسة الأبحاث العربية. بيروت. لبنان. ١٩٩٥م.
٧١. العراق في رسائل المس بيل ١٩١٧-١٩٢٦. ط١. ترجمة وتعليق جعفر الخياط. الدار العربية للموسوعات. بيروت. لبنان. ١٤٢٤ هـ. ٢٠٠٣م.
٧٢. العراق في سجلات الوثائق البريطانية ١٩١٤-١٩٦٦ المجلد الثاني ١٩١٨-١٩٢١. المحرر الاستشاري: ألف دي ل. رش. محرر البحوث: جين بريشود. ترجمة: كاظم سعد الدين. ط ١. بيت الحكمة. بغداد. العراق. ٢٠١٢م.
٧٣. العراق في الوثائق البريطانية ١٩٠٥-١٩٣٠. ترجمة وتحرير فؤاد قزانجي.

تقديم ومراجعة عبد الرزاق الحسني. ط١. دار المأمون للترجمة والنشر. بغداد. العراق. ١٩٨٩م.
٧٤. العراق قديماً وحديثاً. السيد عبد الرزاق الحسني. ط. ٣. مطبعة العرفان. صيدا. لبنان. ١٣٧٧هـ/ ١٩٥٨م.
٧٥. عقود حياتي. الإمام الشيخ محمد الحسين آل كاشف الغطاء. تحقيق: أمير الشيخ شريف الشيخ محمد الحسين آل كاشف الغطاء. منشورات مدرسة ومكتبة الإمام كاشف الغطاء العامة في النجف الأشرف. العراق. ١٤٣٣هـ/ ٢٠١٢م.
٧٦. على هامش الثورة العراقية الكبرى. بقلم فراتي (الشيخ علي الشرقي). جريدة الهاتف. النجف الأشرف. العراق. دون ذكر سنة الطبع.
٧٧. علي آل بازركان. خاطرات مكتومة لمذكراته. حسان علي آل بازركان. المجلد الثاني ط١. من دون ذكر سنة الطبع.
٧٨. فصول من تاريخ العراق القريب. المس بيل. ترجمة جعفر الخياط. ط٢. طبع بمساعدة من وزارة التربية والتعليم. ١٩٧١م.
٧٩. فصول من تاريخ النجف وبحوث أخرى. الشهيد عبد الرحيم محمد علي. إعداد ومراجعة وإضافة وتوثيق: د. كامل سلمان الجبوري. ط١. الرافدين للطباعة والنشر والتوزيع. بيروت. لبنان. ١٤٣٢هـ/ ٢٠١١م.
٨٠. الفقيه والسلطان جدلية الدين والسياسة في تجربتين تاريخيتين العثمانية والصفوية – القاجارية. وجيه كوثراني. ط ٤. المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات. بيروت. لبنان. ٢٠١٥م.
٨١. في سبيل الله. سيرة ذاتية ومذكرات جهادية. الشيخ محمد الخالصي. ط١. دار المحجة البيضاء. بيروت. لبنان. ١٤٣٧هـ/ ٢٠١٥م.
٨٢. في قبضة العرب. مذكرات زيتون بوكانن. تحقيق وتعليق كامل سلمان الجبوري. دار الجيل. ط١. بيروت. لبنان. ٢٠٠٤م. ١٤٢٤ هـ.
٨٣. فيصل الأول. أمين الريحاني. ط١. مطبعة صادر. بيروت. لبنان. ١٩٣٤م.

٨٤. فيصل بن الحسين في خطبه وأقواله. احمد زكي الخياط. مدير الدعاية العام. ط١. الرافدين للطباعة والنشر والتوزيع. بغداد. العراق. ١٤٣٤هـ/ ٢٠١٣م.
٨٥. كربلا في التاريخ. السيد عبد الرزاق آل وهاب. مطبعة الشعب. بغداد. العراق. ١٣٣٥هـ/ ١٩٣٥م.
٨٦. كربلاء في ثورة العشرين. سلمان هادي آل طعمة. ط١. بيسان للنشر والتوزيع والإعلام. بيروت. لبنان. ٢٠٠٠م.
٨٧. الكوفة في ثورة العشرين. كامل سلمان الجبوري. ط١. مطبعة الآداب. النجف الأشرف. العراق. ١٣٩٢هـ/ ١٩٧٢م.
٨٨. اللآلئ المربوطة في وجوب المشروطة. الشيخ محمد إسماعيل المحلاتي الغروي. ترجمه عن الفارسية: السيد حسن علي مطر الهاشمي. مجلة آفاق نجفية. النجف الأشرف. العراق. العدد ٥٠. لسنة ١٤٣٩هـ/ ٢٠١٨م.
٨٩. لمحات اجتماعية من تاريخ العراق الحديث. د. علي الوردي. طبعة مصورة. انتشارات الشريف الرضي. إيران. ١٤١٣ هجرية.
٩٠. لورنس العرب. القيادة، الاستراتيجيات، الصراعات. دافيد مواري. ترجمة وإخراج: مركز الخطابي للدراسات. ٢٠٢٠-٢٠٢١م.
٩١. ماضي النجف وحاضرها. الشيخ جعفر محبوبة. ط ٢. ج١. دار الأضواء. بيروت. لبنان. ١٤٠٦هـ/ ١٩٨٦م.
٩٢. مجلة العدل. العدد الأول. السنة الثالثة.
٩٣. مجلة الموسم. العدد ١٩. لسنة ١٤١٤هـ/ ١٩٩٤م.
٩٤. مذكرات الحاج صلال الفاضل الموح. تقديم وتعليق كامل سلمان الجبوري. ط١ مطبعة العاني. بغداد. العراق. ١٩٨٦.
٩٥. مذكرات الحاج عبد الرسول تويج من رجال الثورة العراقية ١٩٢٠. تقديم وتعليق: كامل سلمان الجبوري. ط ٢. مطبعة العاني. بغداد. العراق. ١٤٠٨هـ/ ١٩٨٧م.

٩٦. مذكرات الحكم رستم حيدر. تحقيق: نجدة فتحي صفوة. ط١. الدار العربية للموسوعات. لبنان. ١٩٨٨م.
٩٧. مذكرات السيد ضياء الدين بحر العلوم عن حياة والده السيد محمد علي بحر العلوم. مخطوط.
٩٨. مذكرات السيد محسن أبو طبيخ (١٩١٠ - ١٩٦٠) خمسون عاما من تاريخ العراق السياسي الحديث. جمع وتحقيق جميل محسن أبو طبيخ. ط١. المؤسسة العربية للدراسات والنشر. بيروت. لبنان. ٢٠٠١م.
٩٩. مذكرات السيد محمد علي كمال الدين من رجال الثورة العراقية ١٩٢٠. ط١. تقديم وتعليق كامل سلمان الجبوري. مطبعة العاني. بغداد. العراق. ١٩٨٦.
١٠٠. مذكرات السيد هبة الدين الشهرستاني. منشور ضمن كتاب السيد محمد كاظم اليزدي سيرته وأضواء على مرجعيته ومواقفه ووثائقه السياسية. كامل سلمان الجبوري. ط١. منشورات ذوي القربى. إيران. قم. ١٣٨٥ هـ.
١٠١. مذكرات الشيخ محمد رضا الشبيبي ورحلاته. تقديم وإعداد وتوثيق. د. كامل سلمان الجبوري. الرافدين. نشر بمناسبة النجف الأشرف عاصمة الثقافة الإسلامية ٢٠١٢م. العراق. ١٤٣٢هـ/ ٢٠١١م.
١٠٢. مذكرات العلامة الشيخ موسى العصامي. مجلة آفاق نجفية. العدد ٢٣. النجف الأشرف. العراق. ١٤٢٢هـ/ ٢٠١١م.
١٠٣. مذكرات جعفر العسكري. تحقيق وتقديم نجدة فتحي صفوة. ط١. دار اللام. المملكة المتحدة. لندن. ١٩٨٨م.
١٠٤. مذكرات حاييم وايزمان. التجربة والخطأ بقلمه. دراسة وإعداد وتقديم: د. الحسيني الحسيني معدى. دار الخلود للنشر والتوزيع. القاهرة. جمهورية مصر العربية. ٢٠١٥م.
١٠٥. مذكرات رؤوف البحراني. لمحات عن وضع العراق منذ تأسيس الحكم الوطني عام ١٩٢٠ ولغاية عام ١٩٦٣م. إعداد وتحقيق: محمد حسين الزبيدي. ط١.

المؤسسة العربية للدراسات والنشر. بيروت. لبنان. ٢٠٠٩م.
١٠٦. مذكرات شاهد على ثلاثة عهود من حكم العراق. زكي جميل حافظ. دار الكتاب الثقافي وابن بطوطة للنشر والتوزيع. المملكة الأردنية الهاشمية. ٢٠١٠م.
١٠٧. مذكراتي عن الثورة العربية الكبرى. د. أحمد قدري. مطابع ابن زيدون. دمشق. سوريا. ١٣٧٥هـ/ ١٩٥٦م.
١٠٨. مرآة الشرق. موسوعة تراجم أعلام الشيعة في القرن الثالث عشر والرابع عشر. صدر الإسلام محمد أمين الإمامي الخوئي. ط١. مكتبة سماحة اية الله العظمى المرعشي النجفي. تصحيح وتقديم: علي الصدرائي الخوئي. إشراف: السيد محمود المرعشي النجفي. قم. إيران. ١٤٢٧هـ/ ٢٠٠٦م.
١٠٩. المرجعية الدينية. الحلقة الثانية. حوار صريح مع المرجع السيد محمد سعيد الحكيم. ط٣. مؤسسة المرشد. بيروت. لبنان. ٢٠٠١م.
١١٠. المرجعية الدينية العليا وموقفها من أبرز التطورات السياسية الوطنية والعربية ١٩٢١- ٢٠٠٣. د. مقدام عبد الحسن الفياض. بحث ضمن ضمن بحوث: المرجعية الدينية العليا وأبرز المواقف الوطنية ١٩١٤- ٢٠١٤. الجزء الثالث من: موسوعة فتوى الدفاع الكفائي. ط ١. قسم الشؤون الفكرية والثقافية. العتبة العباسية المقدسة. كربلاء. العراق. ١٤٤٢هـ/ ٢٠٢٠م.
١١١. المرجعية العاملة. دراسة تحليلية لحياة المرجع الديني الأعلى آية الله العظمى السيد أبو الحسن الموسوي الأصفهاني. السيد ضياء الحسن. هيئة محمد الأمين صلى الله عليه وآله وسلم. ١٤١١هـ/ ١٩٩١م.
١١٢. المس بيل بين الفصول والرسائل. رهبة أسودي حسين. وزارة الثقافة والسياحة والآثار. دار الشؤون الثقافية العامة. بغداد. العراق. ٢٠٢١م.
١١٣. مشكلة الموصل. دراسة في الدبلوماسية العراقية-الإنكليزية-التركية وفي الرأي العام. د. فاضل حسين. رسالة الدكتوراه التي قدمها المؤلف إلى جامعة انديانا في الولايات المتحدة الأميركية سنة ١٩٥٢م. مطبعة الرابطة. بغداد.

١٩٥٥م. ساعدت وزارة المعارف العراقية على نشره.
١١٤. مشكلة الحكم في العراق من فيصل الى صدام. عبد الكريم الأزري. ط١. لندن. المملكة المتحدة. ١٩٩١م.
١١٥. مصباح الهدى وسفينة النجاة. محاضرات آية الله العظمى الشيخ حسين الوحيد الخراساني. ترجمة رعد الحجاج. ط١. العتبة الحسينية المقدسة. مؤسسة وارث الأنبياء للدراسات التخصصية في النهضة الحسينية. النجف الأشرف. العراق. ٢٠١٨م/ ١٤٣٩هـ.
١١٦. معارف الرجال. الشيخ محمد حرز الدين. تعليق حفيده الشيخ محمد حسين حرز الدين. نشر مكتبة آية الله العظمى المرعشي النجفي. مطبعة الولاية. قم. إيران. ١٤٠٥هـ/ ١٩٨٥م.
١١٧. معجم رجال الفكر والأدب في النجف خلال ألف عام. الدكتور الشيخ محمد هادي الأميني. ط٢. ١٤١٣هـ/ ١٩٩٢م.
١١٨. الملك فيصل الأول من الثورة العربية الكبرى حتى تأسيس الدولة العراقية الحديثة. معن فيصل القيسي. ط٣. دار البيارق ودار الدكتور. بغداد. العراق. ٢٠١٩م.
١١٩. المكاسب والبيع. من تقريرات بحث العلامة الأستاذ الأعظم الميرزا محمّد حسين الغروي النائيني (ت١٣٥٥هـ). للحاج الشيخ محمّد تقي الآملي، مكتبة البوذرجمهري (المصطفوي)، ١٣٧٣هـ. مطبعة الحيدري بطهران.
١٢٠. من لا يحضره الفقيه. الشيخ الصدوق أبو جعفر محمد بن علي بن الحسين بن بابويه القمي (ت٣٨١هـ). صححه وعلق عليه: علي أكبر الغفاري. ط٢. ١٣٦٣ش/ ١٤٠٤ق. منشورات جماعة المدرسين في الحوزة العلمية في قم المقدسة.
١٢١. المواقف المشتركة لعلماء العراق وإيران ضد الغزو الأجنبي للبلاد الإسلامية ١٩٠٥-١٩٢٠م. د. كامل سلمان الجبوري. مجمع الذخائر الإسلامية بالتعاون

مع مؤسسة آل البيت عليهم السلام لإحياء التراث. قم. إيران. ١٤٣٦هـ/ ٢٠١٥م.
١٢٢. موسوعة العلامة الأوردبادي. الشيخ محمد علي الغروي الأوردبادي. تحقيق: السيد مهدي آل المجدد الشيرازي. ط١. مكتبة ودار مخطوطات العتبة العباسية المقدسة. دار الكفيل. كربلاء المقدسة. العراق. ١٤٣٦هجرية/ ٢٠١٥م.
١٢٣. النجف الأشرف وحوزتها. الكتاب السادس. (من الجهاد الكفائي إلى النصر النهائي) (خطب الجمعة المعبرة عن رؤى سماحة المرجع الأعلى السيد السيستاني في الشأن العراقي). عبد الهادي الحكيم. ط١. العتبة العباسية المطهرة. ١٤٣٩هـ/ ٢٠١٨م.
١٢٤. النجف في ربع قرن منذ سنة ١٩٠٨م. محمد علي كمال الدين. تحقيق وتعليق كامل سلمان الجبوري. ط١. دار القارئ. للطباعة. والنشر. والتوزيع. ودار المواهب للطباعة والنشر. بيروت. لبنان. ١٤٢٦هـ/ ٢٠٠٥م.
١٢٥. النجف والمجلس التأسيسي. الشهيد عبد الرحيم محمد علي. مجلة آفاق نجفية. العدد١. النجف الأشرف. العراق.١٤٢٧هـ/ ٢٠٠٦م.
١٢٦. النزاع على الدستور بين علماء الشيعة المشروطة والمستبدة. رشيد الخيون. ط٢. دار مدارك للنشر. دبي وبيروت. ٢٠١١م.
١٢٧. النصوص الصادرة عن سماحة السيد السيستاني (دام ظلّه) في المسألة العراقية. إعداد حامد الخفاف. ط١. دار المؤرخ العربي. بيروت. لبنان. ١٤٢٧هـ/ ٢٠٠٧م. ط٦. ١٤٣٦هـ/ ٢٠١٥م.
١٢٨. نصيب كربلاء من تاريخ الشيخ فريق المزهر آل فرعون. عبد الرزاق آل وهاب. مجلة رسالة الشرق الصادرة في كربلاء. العدد الأول. من السنة الأولى ١٣٧٣هـ/ ١٩٥٤م. ط٢. قسم الشؤون الفكرية في العتبة الحسينية المقدسة. كربلاء. العراق. ١٤٣٣هـ/ ٢٠١٢م.
١٢٩. نوري باشا السعيد من الداية الى النهاية. د. محسن محمد المتولي العربي. ط١. الدار العربية للموسوعات. بيروت. لبنان.١٤٢٦هـ/ ٢٠٠٥م.

١٣٠. هداية الرازي الى المجدد الشيرازي. الشيخ أغا بزرك الطهراني. تحقيق مركز إحياء التراث التابع لدار مخطوطات العتبة العباسية المقدسة. ط١. كربلاء المقدسة. العراق. ١٤٤١هـ/ ٢٠١٩م.

١٣١. هكذا عرفتهم. جعفر الخليلي. انتشارات المكتبة الحيدرية. ط١. قم. جمهورية إيران الإسلامية. ١٤٢٦ هـ.

١٣٢. وثائق الثورة العراقية الكبرى. كامل سلمان الجبوري. ط١. دار المؤرخ العربي بيروت. لبنان. ١٤٣٠هـ - ٢٠٠٩م.

١٣٣. يقظة العرب. جورج أنطونيوس. ترجمة: د. ناصر الدين الأسد، و د. إحسان عباس. ط ٨. دار العلم للملايين. بيروت. لبنان. ١٩٨٧م.

الفهرست

تقديم ٥

مقدمة ٩

***

الفصل الأول: الممهّدات والإرهاصات ٣٣

المبحث الأول: المناخ السياسي في النجف الأشرف قبيل ثورة العشرين ٣٥

المبحث الثاني: الإعداد السياسي والتنظيمي لثورة النجف الأشرف ضد المحتلين ... ٦٤

المبحث الثالث: مواقف المرجعية الدينية من الاستفتاء على مستقبل العراق إلى ثورة العشرين (١٣٣٧هـ/ ١٩١٨م- ١٣٣٩هـ/ ١٩٢٠م) ٩١

المبحث الرابع: طرق التعبير في وثائق الثورة عن هدف المرجعية الدينية وزعماء الثورة منها ١١٩

***

الفصل الثاني: الفتوى التاريخية بالثورة المسلحة سنة (١٩٢٠م) ١٣٣

المبحث الأول: الانتداب البريطاني على العراق وأثره في صدور الفتوى التاريخية ... ١٣٥

المبحث الثاني: تحديد يوم صدور الفتوى التاريخية بالجهاد الدفاعي..... ١٤٣

المبحث الثالث: قراءة للفتوى التاريخية ومعالم خارطة طريقها للتحرير ١٥٥

***

الفصل الثالث: التطبيق العملي للفتوى باتباع المسعى السلمي لتحقيق المطالب المشروعة ولجوء المحتلين إلى خيار العنف ١٦١

المبحث الأول: المبادرات والنشاطات السلمية ١٦٣

المبحث الثاني: تنشيط المعارضة السلمية وتفعيلها ١٧٣

المبحث الثالث: تثوير المعارضة السلمية ولجوء المحتلين إلى خيار العنف ١٨٣

***

الفصل الرابع: وقائع ثورة العشرين ١٩٥
المبحث الأول: مناطق الثورة من انطلاقها إلى وفاة المرجع الأعلى سماحة الشيخ محمد تقي الشيرازي ١٩٧
المبحث الثاني: مناطق الثورة من تولي المرجع الأعلى الخلف سماحة شيخ الشريعة الأصبهاني إلى نهايتها ٢٢٥
المبحث الثالث: أدوار وفعاليات ونتائج ٢٤٤

***

الفصل الخامس: عرض الإنكليز على المرجعية الدينية العليا التفاوض المشروط بدل الثورة المسلحة وموقف المرجعية وزعماء الثورة منه ٢٦١
التمهيد ٢٦٣
المبحث الأول: رسالة الكولونيل ولسون إلى المرجع الأعلى سماحة شيخ الشريعة الأصبهاني ٢٦٤
المبحث الثاني: رأي المرجعية العليا برفض التفاوض تحت الاحتلال. أسبابه، والرأي فيه ٢٧١
المبحث الثالث: المبدئية الحقّة واستشراف المستقبل ٢٨٨

***

الفصل السادس: الفرات وطن الثورة وخزّانها البشري والمادي والتسليحي ٢٩٥
التمهيد ٢٩٧
المبحث الأول: فُراتية الثورة في وثائق قادتها ومجاهديها ومعاصريها ومؤرخيها ... ٢٩٨
المبحث الثاني: فُراتية خزان الثورة المادي ودعمها اللوجستي ٣١٣
المبحث الثالث: فُراتيّة خزّان الثورة التسليحي ٣٢٤

***

الفصل السابع: المرجعية الدينية وثورة العشرين تجربة الحكم والإدارة ٣٣١
المبحث الأول: قدرة العراقيين على إدارة المدن المحررة بكفاءة ٣٣٣

المبحث الثاني: شكل نظام الحكم الوطني المطبق في النجف الأشرف وتقدمه الزمني على تشكيل أول حكومة للانتداب في العراق ٣٥٠
المبحث الثالث: وقفة مع شكل نظام الحكم الوطني بمجلسيه التشريعي والتنفيذي ومجلسه البلدي ٣٨١

***

الفصل الثامن: إفشال ثورة العشرين للسياسة البريطانية المعدة لحكم العراق بتهنيده أو بوضعه تحت الحكم البريطاني المباشر أو غيرهما ٣٩٩
المقدمة: أنماط من المخططات البريطانية المعدة لحكم العراق ٤٠١
المبحث الأول: تهنيد العراق أو بعضه وإلحاقه بالهند..... ٤٠٢
المبحث الثاني: وضع العراق كله، أو جنوبه، أو البصرة وحدها، أو معها الناصرية، والحي، وبدرة، تحت الحكم البريطاني المباشر..... ٤٠٥
المبحث الثالث: تغيير التركيبة السكانية في العراق عن طريق هجرة واسعة النطاق: هندية أو أسترالية أو مصرية إليه ٤١٠
المبحث الرابع: إعادة هيكلة العراق ٤١٢
المبحث الخامس: إعادة رسم خارطة جديدة للعراق مع دول المنطقة الساحلية... ٤١٥

***

الفصل التاسع: صدى ثورة العشرين في داخل بريطانيا وخارجها ٤١٧
المبحث الأول: صدى ثورة العشرين في الداخل البريطاني..... ٤١٩
المبحث الثاني: صدى ثورة العشرين في الدول الخارجية..... ٤٣٠

***

الفصل العاشر: أهم المرشحين لعرش العراق سِيَرهم ومواقفهم ٤٣٣
التمهيد ٤٣٥
المبحث الأول: ترشيح آية الله السيد علي الشيرازي الحسيني ورفضه الترشح ... ٤٣٦
المبحث الثاني: ترشيح الشيخ خزعل الكعبي ٤٥٠

المبحث الثالث: ترشيح السيد طالب النقيب ٤٥٨
المبحث الرابع: ترشيح أحد أبناء الشريف حسين ٤٦٢

***

الفصل الحادي عشر: السياسة الأولى للشريف حسين وأبنائه تجاه العرب وموقف المرجعية والوطنيين من ترشيح أحد أبنائه لعرش العراق خلالها ٤٨٧
إضاءة ٤٨٩
المقدمة ٤٩٣
المبحث الأول: تعريف بالسياسة الأولى للشريف حسين وأبنائه تجاه العراق وتحديد زمنها وموقف العراقيين منها ٤٩٤
المبحث الثاني: موقف المدن المؤثرة من ترشيح أحد أبناء الشريف حسين للعرش خلال أجوبتها على أسئلة الاستفتاء ودواعيه ٤٩٨
المبحث الثالث: موقف المرجعية الدينية وأهالي المدن المهمة من تسمية أي شخصية للعرش ابتداء من مضابط التوكيل وانتهاء بثورة العشرين ٥٢٠
المبحث الرابع: قراءة لموقف المرجعية الدينية والوطنيين من ترشيح أحد أبناء الشريف حسين للعرش خلال السياسة الشريفية الأولى ٥٢٥

***

الفصل الثاني عشر: السياسة الثانية للشريف حسين وابنه فيصل تجاه العراق بعد اتفاقهما مع الإنكليز على تنصيب فيصل ملكاً وموقف المرجعية والوطنيين منها ومنه ٥٣١
المقدمة: تعريف بالسياسية الثانية للشريف حسين وابنه فيصل تجاه العراق وتحديد زمنها ٥٣٣
التمهيد: بواكير التسويق السياسي البريطاني للشريفيين في العراق ٥٣٤
المبحث الأول: أسباب اختيار الحكومة البريطانية لفيصل ملكاً ٥٣٧
المبحث الثاني: مشكلة تسويق الإنكليز لفيصل ملكاً على العراق ٥٥٦
المبحث الثالث: تنفيذ الملك فيصل لِما تعهد به للإنكليز ٥٧٠

المبحث الرابع: عراقية الموصل: بين موقف الشيعة الوطني، وموقف فيصل والإنكليز المصلحي الطائفي ٦٠٣

***

الفصل الثالث عشر: التشابه بين نظريتي الحكم لكل من سماحة السيد السيستاني (دام ظله)، وسماحة الشيخ النائيني (قده) المطبقة نسبيّاً في ثورة العشرين ٦١٣

تمهيد ٦١٥

المبحث الأول: نظرية (إرادة الأمة) لسماحة السيد السيستاني ٦١٦

المبحث الثاني: النظرية الدستورية لسماحة الشيخ النائيني كما في (تنبيه الأمّة وتنزيه الملّة) المطبّقة نسبيّاً في ثورة العشرين ٦٢١

المبحث الثالث: الفرق بين نظرية (إرادة الأمة) والنظرية الدستورية كما وردت في كتاب (تنبيه الأمة وتنزيه الملّة) ٦٣٩

***

الفصل الرابع عشر: تماثل موقف المرجعيتين الدينيتين في مقاومة الاحتلال الأجنبي للأراضي العراقية **٦٥٩**

تمهيد: تشابه النهج السياسي عند أغلب من تصدى له من المراجع الدينيين في النجف الأشرف ٦٦١

المبحث الأول: تماثل موقف المرجعيتين الدينيتين في وجوب إعلان الجهاد الدفاعي ضد الغزو الأجنبي للعراق ٦٦٥

المبحث الثاني: تماثل موقف المرجعيتين الدينيتين في إلزام المؤمنين بالدفاع ضد الاحتلالين البريطاني للعراق سابقاً، والداعشي لاحقاً ٦٧٠

المبحث الثالث: تماثل موقف المرجعيتين الدينيتين في الطلب من المؤمنين وحثهم على تقديم الدعم المادي واللوجستي بكافة أشكاله للمتطوعين ٦٧٥

المبحث الرابع: تماثل موقف المرجعيتين الدينيتين في ضرورة حشد الطاقات الشعبية المسلحة لتكون رديفاً للقوات العسكرية عند الحاجة ٦٨٣

المبحث الخامس: توجيه المرجعيتين الدينيتين للمجاهدين في سوح الدفاع عن الوطن بوجوب مراعاة القيم الإسلامية والإنسانية في التعامل مع العدو قبل قرن وبعده ٦٨٨

***

الفصل الخامس عشر: تماثل موقف مرجعية ثورة العشرين ومرجعية سماحة السيد السيستاني في التصدي للشأن الاجتماعي/ السياسي العام قبل قرن وبعده ٦٩١

المبحث الأول: تأكيد المرجعيتين الدينيتين على أنّ نظام الحكم في العراق يجب أن يحدده الشعب العراقي بحرية ٦٩٣

المبحث الثاني: تماثل موقف المرجعيتين الدينيتين في ضرورة تشكيل السلطة التشريعية من خلال انتخابات عامة مباشرة دون تدخل أجنبي ٦٩٧

المبحث الثالث: تماثل موقف المرجعيتين الدينيتين من توحيد صفوف المسلمين سنة وشيعة ٦٩٨

المبحث الرابع: تماثل موقف المرجعيتين الدينيتين في إحاطة المنظمة الأممية بشدة معاناة العراقيين من المحتلَّينِ البريطاني والأمريكي للعراق، وحثّها على القيام بواجبها في ذلك ٧٠٣

المبحث الخامس: تماثل موقف المرجعيتين الدينيتين في أمر المتابعة الحثيثة لمستجدات مواقف السلطة الحاكمة في العراق المناوئة لاستقلال وحرية وحقوق الشعب العراقي ٧٠٩

المبحث السادس: تماثل موقف المرجعيتين الدينيتين في المتابعة الحثيثة لمستجدات سياسات الدول المعادية لاستقلال وحرية الشعوب الإسلامية والدفاع عن مقدساتها ٧١٤

المبحث السابع: تماثل موقف المرجعيتين الدينيتين في عدم المطالبة بتطبيق (الديمقراطية) أو (الدولة المدنية) في أي من البيانات والأدبيات الصادرة عنهما ٧٢١

***

الفصل السادس عشر: وقفة مع أسباب عدم التشابه الظاهري بين مواقف المرجعيتين الدينيتين زمن الاحتلالين البريطاني والأمريكي للعراق ٧٢٥

المبحث الأول: ما سرّ اختلاف موقف المرجعيتين الدينيتين في مسألة إعلان الجهاد الدفاعي وعدمه خلال الاحتلالين: البريطاني للعراق سنة (١٩٢٠م)، والأمريكي له سنة (٢٠٠٣م)؟ ٧٢٧

المبحث الثاني: ما سبب اختلاف موقف المرجعيتين الدينيتين في مسألة الاشتراك في الانتخابات وعدمه خلال الاحتلالين: البريطاني للعراق سنة (١٩٢٢م) وما بعدها، والأمريكي له سنة (٢٠٠٥م)؟ ٧٣٨

***

الفصل السابع عشر: المحصّلة؛ المرجعية والفراتيون ومن اقتدى بهم جسدوا المبدئية الحقة والوطنية الصادقة بأجلى صورها ٧٥٥

المبحث الأول: بعض مما قدمته ثورة العشرين للعراق حسب آراء نخبة من المؤرخين العراقيين والأجانب ٧٥٧

المبحث الثاني: المبدئيون المضحّون ونهّازو الفرص ٧٦٢

***

الخاتمة ٧٨١

مصادر البحث ومراجعه ٧٨٩

الفهرست ٨٠٥

المؤلف في سطور

- ولد الدكتور السيد عبد الهادي الحكيم في النجف الأشرف سنة ١٩٤٩م، وتلقى تعليمه الأولي في الحوزة العلمية، ثم تخرج من كلية الفقه في النجف الأشرف سنة (١٩٧٠م)، ليكمل دراسته العليا فينال بها شهادة الدكتوراه من لندن، ثم ليحاضر في إحدى جامعاتها ثماني سنوات.
- اعتُقل من قبل أجهزة النظام البائد مع العشرات من أفراد أسرته (آل الحكيم) أكثر من ثماني سنوات، ابتداء من سنة (١٩٨٣م) إلى (١٩٩١م)، متنقلاً بين زنازين مديرية الأمن العامة، والانفرادي، وقسم الأحكام الخاصة المغلقة في سجن أبي غريب.
- اختير من قبل المرجعية الدينية العليا، ففاز بعضوية (الجمعية الوطنية العراقية)، و(لجنة كتابة الدستور العراقي)، وكتب ديباجة الدستور.
- انتُخب عضواً في مجلس النواب العراقي لدورتين متتاليتين ابتداء من سنة (٢٠١٠م) إلى (٢٠١٨م).
- باحث وشاعر . من كتبه المطبوعة: (النجف الأشرف وحوزتها في سبعة أجزاء)، (قيادة المرجعية الدينية لثورة العشرين)، (دستور حوزة النجف الأشرف)، (عقد التأمين حقيقته ومشروعيته)، (وردة حب الله - شعر)، (تراتيل في أحباب الله - شعر)، (الفتاوى الميسرة) ، و(الفقه للمغتربين)، و(الميسر في الحج والعمرة) ثلاثتها وفق فتاوى المرجع الأعلى سماحة السيد السيستاني (دام ظله).
- ترجمت بعض كتبه الى اللغات الحية. كالإنكليزية، والفرنسية، والألمانية، والإيطالية، والأسبانية، والروسية، والهولندية، والأندنوسية، والفارسية، والتركية، والأوردية، والسواحيلية، وغيرها.

مؤسسة رؤاد للتنمية والإعلام

scan here